مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ السَّادِسُ والخَمسُون

سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ السَّادِسُ والخَمسُون

سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14

نُخبةٌ مِنْ عُلماء مَجمَعِ القُرآنِ الكَريمِ بِالشّارقةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2026

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والخمسون،
سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م

الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 56 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-29-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 56 : المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-29-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9075646 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ
السَّادِسُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾ [محمّد ﷺ: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

نُصرةُ الدّين بَيْنَ حِكمةِ التَّكليف وضَمانِ التَّمكين

لمّا بَيَّن ﷻ أنَّه لو شاءَ لانتصَر من الكافرين بقُدرته القاهرة، عُلم من ذلك أنَّ ما أمَر به المُؤمنين من قتالهم لم يكن إلّا لحكمةٍ عظيمةٍ، وهي نُصرةُ الدّين، وإعلاءُ كلمته، وإضعافُ شوكةِ أعدائه الذين يصدّون النّاس عنه، فكان القتالُ وسيلةً لتحقيق العدل، وتمكينِ الحَقِّ، ودفعِ الباطل عن سبيل اللّه، فلمّا قرَّر هذا المعنى، أتبعَ ذلك بالتَّرغيب في نصر اللّه، والحَثِّ على الجهاد في سبيله، مقرونًا بوعدٍ كريم، وهو أنَّ اللّه تكفَّل لهم بالنَّصر إنْ هُم نصَروهُ، وجاهَدوا في سبيله[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَنصُرُواْ﴾: تَدورُ مادَّةُ النّونِ والصّادِ والرّاءِ حولَ معنَى إتيانِ خيرٍ وإيتائِه بما فيه زيادةٌ مناسِبةٌ وقوَّةٌ، ولازِمُهُ: دَفْعُ الضُّرِّ[2]، ومنه سُمّيَ المطرُ نصرًا[3]، والنَّصرُ على العَدوِّ: إعانَةُ الخصم عليه في حَرْبٍ أو غيرها؛ بقوَّةِ النّاصر وغَلَبَتِه[4]. ونُصرةُ اللّه للعبدِ ظاهِرةٌ، ونُصرَةُ العَبْدِ للّه: هي نُصرتُه لدينه ورسوله وأوليائه بقتال أعدائه، وتنصروهُ بالقيام بحفظِ حُدودِه، ورِعايةِ عُهودِه، واجْتنابِ نَهيِه[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 84.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر)، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/ 79، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نصر).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (نصر).
(4) الفيُّومِيّ، المصباح المنير: (نصر).
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 193، والنّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 131، والجزائري، أيسر التّفاسير: 74/ 5، وعبد الكريم قطّان، عيون المسائل: 1/ 319.

2) ﴿وَيُثَبِّتۡ﴾: الثَّباتُ: السُّكونُ والاسْتِقْرارُ، ومنه: الثَّباتُ في المَكانِ، أي: السُّكونُ فيه والاسْتِقْرارُ. وأصْلُه: الدَّوامُ والإقامَةُ، وضِدُّهُ: الزَّوالُ والانْقِطاعُ[1]، والثَّباتُ والثُّبوتُ: ضدُّ الزَّوال، والتَّثبيتُ تقويةُ الشَّيء، ورجلٌ ثبتٌ وثبيتٌ، أي: لا يزولُ عن النَّصر في الحرب، وأصلُ (ثبت) يدلُّ على دَوام الشَّيْءِ، ورَجُلٌ ثَبْتُ القَدم: مُتَماسِكٌ لم يَزِلَّ في قِتال، وثباتُ القدم هُنا عبارةٌ عن تقويةِ القلوب، وكمالِ القوَّةِ، والرُّسوخِ عند المقارعة، وعدمِ التَّزلزلِ وقتَ المُقاومة[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بِشارةُ النَّصر وثباتُ الأقدام وعدٌ حقٌّ من ربّ العالمين

يُبشِّر اللّه تعالى عبادَهُ المؤمنينَ بأنَّ نصرَهُ الموعودَ مُدرِكُهُم لا محالة، إنْ هُم نصَروهُ بإعلاءِ دينِه، والجهادِ في سبيلِه، ووعدَهُم بثباتِ الأقدامِ عند مُلاقاةِ الأعداء، فلا يخافونَ كثرتَهُم، ولا يَرهَبون شدَّتهُم، فإنَّ اللّه مُؤيِّدُهم بتأييده، وناصِرُهُم بمَدَدِه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ في جملة النِّداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

النِّداءُ الإيمانيُّ تمهيدٌ للوعد وتأكيدٌ للموعود

لمّا كان الحديثُ عن القتال، تطلَّعت النُّفوسُ، وتَشَوَّفَ السّامع إلى معرفة مآلِ المُجاهدين، وما يكونُ لهم من النَّصر أو الخذلان، فجاءَ الاستئنافُ بالنِّداء في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ تمهيدًا لإجابة هذا التَّرقُّب، وبيانًا لشرط النَّصر الموعود، فلم يكن هذا الاستئنافُ مُجرَّد انتقالٍ في الخطاب، بل كان إجابةً عن تساؤلٍ كامنٍ، وتوجيهًا إيمانيًّا بالغًا، يُهيِّئُ المؤمنين لما بعدَهُ، ويُرسِّخُ في أذهانهم أنَّ النَّصر ليس عطاءً بلا سببٍ، بل هو موعودٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والجوهري، الصِّحاح، وابن سيده، المُحكم: (ثبت).
(2) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب، ومرتضى الزّبيدي، تاج العروس: (ثبت)، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 14/ 18، والمنصوري، المُقتطف: 5/ 25.
(3) القُرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 232، والشِّنقيطي، أضواء البيان: 7/ 251.

مُعلَّقٌ بشَرطِه، مُتَّصِلٌ بأسبابِه، فلا يَنالُه إلّا مَن استجمَع شُروطَهُ، وأقامَ دَعائمَهُ[1].

الغرضُ من التَّعبير بأسلوب النِّداء:

نداءُ أهلِ الإيمان تحريضٌ على الجهادِ وتثبيتٌ للعزائم

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، ثُمَّ جاءَ هذا النِّداءُ ليُخرِجَهم إلى مقامِ الحُضورِ، استجلابًا لأسماعِهم، وإظهارًا لعظيمِ العنايةِ بهم، وإشعارًا بمكانتِهم السّاميةِ، وإيماءً إلى أنَّ الإيمانَ يَقتضي منهم امتثالَ ما يُدعونَ إليه، فكانَ هذا النِّداءُ من ربِّ العالمين، فحُفَّ بجلالِ الخطابِ الإلهيِّ، ليكونَ في صورةِ الحاضِرِ، إشعارًا بالاهتمامِ، وتنبيهًا لما سيُذكَر بعدَه، من أمرٍ عظيمِ الشأنِ، جليلِ القَدرِ، وهو نُصرةُ اللّه ﷻ وإعلاءُ كلمتِه، ليكونَ الدّينُ كلُّه للّه، إيذانًا بجلالةِ الخطابِ، وإشعارًا بمكانتِهم السّاميةِ، وإيماءً إلى أنَّ الإيمانَ يَقتضي منهم امتثالَ ما يُدعونَ إليه؛ إذ هو داعيةُ القلوبِ إلى طاعةِ اللّه، ومُحرِّكُ النُّفوسِ إلى الامتثالِ لأمرِه[2].

سِرُّ افتِتاحُ التَّرغيبِ بندائِهم بصِلةِ الإيمانِ:

التَّنويهُ بشأنِ الإيمانِ لكَونِهِ مفتاحَ النَّصرِ ودليلَ للتَّمكين

في إيرادِ وصفِ الإيمانِ موصولًا في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، تعظيمٌ لشأنهم، وتكريمٌ لَمقامِهم؛ إذْ نوديَ عليهم بما يُشرِّفهم، ويذكِّرهم بمقامِهم عندَ اللّه، فالإيمانُ يوجبُ عليهم الامتثالَ لما يُطلبُ منهم، ويُلزمهم بالاستجابةِ لما يدعوهُم إليه ربُّهم، فإذا تحقَّق الإيمانُ في قلوبِهم، ورسخَ يقينُهم، وتمكَّنَ منهم تمكُّنًا لا تُزلزلهُ الشَّدائد، كان تحقيقُ وعدِ اللّه لهم بالنَّصر أمرًا محتومًا، وثمرةً مُترتِّبةً على صِدقِ يَقينِهم، وثباتِ أقدامِهم[3].

الغرضُ من التَّعبيرِ بأسلوبِ الشَّرطِ ﴿إِن تَنصُرُواْ﴾:

لم يكنِ النِّداءُ في هذا المقامِ مَقرونًا بأمرٍ يوجبُ الامتثالَ، ولا

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 208.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 84.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 84، والمغراوي، التّدبر والبيان: 13/ 307.

اللُّطفُ في التَّكليف استنهاض للهمَم

بنهي يُلزِمُ بالكَفِّ، وإنَّما جاء في صورة الشَّرط، ليكون أوقعَ في النُّفوس، وألطفَ في الحثِّ؛ إذْ صوِّرت النُّصرةُ بَينَ اللّه وعباده، فإذا بذلوا جُهدَهُم في نُصرته، أمدَّهم بنَصرِه، فكان في هذا التَّعبير استنهاضٌ للهمَم والعزائم، حيث جاء خِطابُهم محفوفًا باللُّطف والتَّرغيب، لتسكُن إليهِ النُّفوس، وتمتثلَ لهُ القلوبُ، فيكون الجهادُ إقبالًا عن رغبةٍ، وسعيًا عن طُمَأنينة[1].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿إِن﴾ دون غيرها من أدوات الشَّرط:

الإشارةُ إلى مَشقَّة المطلوب، وعِظَمِ التَّكليفِ به

جاء التَّعبيرُ في الشَّرط بأداة ﴿إِن﴾، دون غيرها من أدوات الشَّرْط، مع ما في أصلِها اللُّغويِّ من دلالةٍ على عدم الجزم بوقوع الشَّرط، فكان في اختيارها إشارةٌ بليغةٌ إلى مشقَّةِ المطلوب، وعِظَم التَّكليف؛ إذ جُعل تحقيقُ الشَّرط أمرًا يُتَصوَّر فيه التَّردُّد، وكأنَّه ممّا يُستبعَدُ وفاءُ النّاس به، لِما يَقتضيهِ من بَذْلِ النَّفسِ والمال، والتَّعرُّض لأعظمِ المِحَنِ والشَّدائد[2].

بلاغةُ التَّعبير بنُصرةِ الله بينَ المجاز والحذف:

نصرةُ الله تكونُ بإقامةِ الدّين وإعلاءِ الشَّرع

قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ جاء على وجهٍ بديعٍ في التَّعبير؛ إذ تضمَّنَ حذفَ مُضافٍ، تقديرُه: (تنصُروا دينَ اللّه ورسوله)، فكان في هذا الإيجاز إيحاءٌ بأنَّ النُّصرة للّه هي نُصرةُ شَرعه، والعملُ بمُقتضاه، وإقامةُ أمرِه، وإعلاءُ كلمتِه، وذلك لا يكونُ إلّا بالجِدِّ في الاتِّباع، والصِّدقِ في الإيمان[3].

وقد يكونُ التَّعبيرُ بنُصرةِ اللّه تعالى مجازًا عقليًّا وليس إشارةً إلى تقدير المُضاف؛ إذْ تقديرُ المُضافين غير مُتعارَف إلّا أن يُقالَ إنَّ حاصلَ المُضافين مُتَّحِدٌ؛ نُصرةُ دينهِ بالعمَل بمُقتضاهُ، ونُصرةُ

(1) فاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة محمّد ﷺ: 6/ 266.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 84.

(3) ابن عطيّة الأندلسي، المحرّر الوجيز: 5/ 112، والدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 9/ 204.

رسولهِ ظاهرٌ؛ فالمُرادُ بالنُّصرة عمومُ المجاز المُنتظِم؛ لنُصرة الدّين؛ وهي مَجازيَّةٌ، ونُصرةِ رسوله؛ وهي حقيقيَّة[1].

دلالةُ مجيءِ جواب الشَّرط محذوفَ المفعول:

نَصرُ الله لأهل الإيمانِ عامٌّ شاملٌ

جاء قوله تعالى: ﴿يَنصُرۡكُمۡ﴾ جوابًا للشرط، محذوفَ المفعول؛ إذْ لم يُصرَّحْ بمَن يقعُ عليهِ النَّصرُ، والتَّقديرُ: يَنصُرْكُمُ اللّه على أعدائِكم، فجاءَ الحذفُ لإفادةِ العموم، ليشملَ كُلَّ صورةٍ من صوَرِ النَّصرِ، وكُلَّ عدوٍّ من أعداءِ الدّين، فيكونَ تأييدُ اللّه لعبادِه المؤمنينَ شاملًا كاملًا، غيرَ مُقيَّدٍ بموطنٍ أو حالٍ، وهذا المعنى الجليلُ قد وردَ مُؤكَّدًا في مواضعَ أُخرى من الكتابِ العزيزِ، كقولهِ تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ﴾ [الحج: 40][2].

دلالةُ التَّعبير بالمُضارع في فعل الشَّرط والجواب:

دوامُ نصرِ اللهِ لعبادِهِ، وتجَدُّدُ تمكينهِ لهم بحسَبِ دَوامِ طاعاتِهم واستمرارِها

معنى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: إنْ يتجدَّدْ منكم نيَّةٌ مُستمرَّةٌ وفعلٌ دائمٌ لنُصرةِ دينِ المَلكِ الأعظَم؛ بإيضاحِ أدلَّتهِ وتبيينِها، وقتالِ أهلِ الباطل = يتجدَّدْ لكُم نصرٌ من اللّه، فجاء الجواب بالمُضارع كذلك في قوله: ﴿يَنصُرۡكُمۡ﴾، ليكون الجزاءُ على وفقِ الشَّرط؛ من دلالةٍ على دَوامِ النَّصر واستمراره، وتجدُّدِ تأييدِ اللّه لعبادهِ المؤمنين كُلمّا جدَّدوا نُصرَتهُم لدينه، وعمِلوا بمُقتضَى شَرعِه[3].

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾:

تثبيتُ الأقدامِ سِرُّ التَّمكينِ والإقدامِ

قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ جاء معطوفًا على جواب الشَّرط ﴿يَنصُرۡكُمۡ﴾، وذلك لبيان عظيم فضلِ اللّه على عباده؛ إذ كانتِ النُّصرةُ جزاءً على نَصرِهم لدينِه، أمّا تثبيتُ الأقدام، فهو فضلٌ زائدٌ من اللّه، وإمدادٌ خاصٌّ لأوليائِه، يَمنَحُهم به الثَّباتَ عند

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 14/ 18، والنّحاس، إعراب القرآن: 4/ 119.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 120، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 232.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 18/ 209.

اللِّقاءِ، والطُّمأنينةَ عند اشتدادِ البأسِ، فلا يُزَلزِلُهمُ الخوفُ، ولا تَهتزُّ لهم عزيمةٌ، وجاءَ العطفُ هُنا توكيدًا على أنَّ من أعظم أسبابِ النَّصرِ ثباتَ المؤمنِ أمامَ عدوِّه، فهو يدخلُ في معنى النَّصرِ العامِّ، ولكنَّه أُفرِدَ بالذِّكرِ تخصيصًا، فجاءَ من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ، إشارةً إلى شِدَّةِ أهمّيته[1].

بلاغة المجاز المُرسَلِ في ﴿أَقۡدَامَكُمۡ﴾:

ثباتُ الأقدامِ دليلُ ثباتِ القُلوبِ والعزائمِ

صيغَ قولُهُ تعالى: ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ على أسلوب المجاز المُرسل؛ إذ أُطلقَ الجزءُ وأُريدَ به الكُلُّ، فالعلاقةُ الجزئيَّة؛ إذ لم يكن المقصودُ تثبيتَ الأقدامِ وحدَها، بل تثبيت القلوب بالصَّبر، والأبدانِ بالقوَّة، والنُّفوسِ بالطُّمأنينة؛ فجاءَ التَّعبيرُ بالأقدامِ؛ لأنَّها مَظهَرُ الثَّباتِ والتَّزلزلِ، وعُنوانُ القوَّةِ والضَّعفِ، فكانت أقدامُهم كأوتادٍ في الأرضِ، لا تَهتزُّ ولا تَنحرفُ، وما ذاك إلّا من فضلِ اللّه عليهم، ومَدَدِه الذي لا يَنقَطِعُ عن أوليائه، فإذا قَويَتِ الأقدامُ على الثَّباتِ، دَلَّ ذلك على رُسوخِ اليقينِ، وامتلاءِ القلبِ بنورِ الإيمانِ، وكانَ ذلك آيةً على عَونِ اللّه لعبادِه، ومَدَدِه للمُؤمنينَ في ميادينِ الجهادِ[2].

بلاغةُ الكنايةِ عن الثَّبات في الأمرِ بتثبيتِ الأقدام:

الدَّلالةُ على التَّقويةِ وإزالةِ الرُّعبِ واطمئنانِ القلب

جاءَ في التَّعبيرِ بتثبيتِ الأقدامِ تصويرٌ كِنائيٌّ عظيمُ الدَّلالةِ؛ إذ يُصوِّرُ المُؤمنينَ وقد ثَبَتَت أقدامُهم في ساحاتِ النِّزالِ، فلا تَزَلزُلَ، ولا تَرَدُّدَ، ولا فِرارَ، بل هُم صامدونَ بثَباتٍ يُجَسِّدُ يقينَهم، ويَعكِسُ قوَّةَ قلوبِهم، فتثبيتُ الأقدامِ كِنايةٌ عن التَّقويةِ وإزالةِ الرُّعبِ واطمئنانِ القلبِ، فهذا التَّعبيرُ يوحي بتمامِ التَّمكينِ، لقلوبِ المُجاهدينَ، حيث رُبِطَ على قلوبِهم، فانعَكَسَ ذلك على أبدانِهم[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 209، ومحمود ياقوت، إعراب القرآن: 9/ 4359.
(2) الدُّرة، تفسير القرآن الكريم: 9/ 75، والصّابوني، الإبداع البياني: 1/ 305.
(3) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 14/ 18.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨﴾ [محمد ﷺ: 8]

ذِكْرُ تزَلزُلِ أهلِ الكفرِ والمُنافقينَ بعد ذِكْرِ تثبيتِ أقدامِ المؤمنينَ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا ذكَرَ النَّظمُ الكريمُ تثبيتَ الأقدام في: ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾، كان قد يتوهَّمُ بعضُهم أنَّ الثَّباتَ قد يكونُ للكافِرِ أيضًا كما هو للمؤمِنِ، فيدومُ القِتالُ، وتستمرُّ الحِرابُ، ويشتدُّ الطِّعانُ، ويعظُمُ الضِّرابُ، وفي ذلك مَشقَّةٌ عَظيمةٌ، فأزالَ اللّه هذا الوهمَ ببيانِ أنَّ الثَّباتَ خالصٌ لأهلِ الإيمانِ، وأمّا أهلُ الكُفرانِ فمآلُهُم إلى الزَّوالِ والتَّبدُّلِ والهَلاكِ، فلا يكونُ لهمُ الثَّباتُ، بل يُقضى عليهِمُ بالتَّعسِ والانقِلابِ، فتطمئِنُّ قُلوبُ المُؤمنينَ، ويشتدُّ بأسُهم في النِّزالِ، فلمّا أبانَ ما للمؤمنينَ منَ النَّصرِ والتَّثبيتِ، عَقبَهُ بذِكرِ ما للكافِرينَ من الخِذلانِ والذُّلِّ والهَوانِ، فقالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَعۡسٗا﴾: أي: عِثارًا وسُقوطًا وهَلاكًا؛ و(تعس) أصلٌ يدلُّ على الكَبِّ؛ فيُقال: (تعَسَ يَتعَسُ): أي سقَطَ على يدَيهِ وفمه؛ فهو تاعِسٌ وتعِسٌ، ويُقالُ: (تَعِسَ يَتعَسُ) أي شَقيَ، فهو تَعِسٌ، ومنه قولُ النبيِّ ﷺ: «تَعِسَ عبدُ الدّينار»[2] وهو دُعاءٌ عليه بالهَلاك[3] ويُقالُ للعاثِرِ: تَعْسًا: إذا لم يُريدوا قيامَه، والمُراد بالتَّعسِ هُنا: الهلاكُ والعِثارُ والسُّقوط[4]. ويحملُ معنى الانحِطاطِ، مع دوامِ الانتكاسَةِ، وعدَمِ القيامِ من العَثْرة[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 42/ 28، والبقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 209.
(2) صحيح البخاري: 8/ 92.
(3) ابن الأثير، النهاية: (تعس).
(4) الرّاغب، المُفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (تعس)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 410، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 381، والقُرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 233.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (تعس).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

وعيدُ الكافرينَ بالخُسرانِ وذهابِ الأعمالِ

يتوعَّد اللّه جلَّ في علاه أهلَ الكُفرانِ بالخِذلانِ والخُسرانِ، فالذينَ جحَدوا بالحقِّ، فحَسْبُهم الخزيُ والهَلاكُ، والسُّقوطُ الذي لا نُهوضَ بعدَه، وقد جَعلَ اللّه أعمالهم هباءً منثورًا، لا تَبلُغُ منها غايةً، ولا تَنالُ بها رِفعةً[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

بيانُ مآلِ الذينَ كفروا، تحقيقًا لوعدِ الله لأهلِ الإيمانِ، وتثبيتًا لقلوبِهم

لمّا ذَكرَ اللّه تعالى أنَّ أهلَ الإيمانِ إن هُم نصَروا دينَ اللّه، كان لهمُ النَّصرُ من لدُنه، وأيَّدهُم بقوَّةٍ من عندهِ، وأثبتَ أقدامَهُم في مواطِنِ القتالِ، فحَقَّت لهمُ الغَلبةُ، ورفَعَ اللّه رايتَهم، وجعلَ كلمتَهم هيَ العُليا، وكلمةَ أهلِ الكفرِ هيَ السُّفلى، جاءَ العطفُ بعدَ ذلك بيانُ مآلِ الذينَ كفروا، تحقيقًا لوعدِ اللّه لأهلِ الإيمانِ، وتثبيتًا لقلوبِهم، فقالَ سُبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾[2].

سِرُّ مجيء الخَبَرِ عن حال الكافرين ابتدائيًّا وخلوه من المُؤَكِّدات:

الإشارة إلى كون المضمون أمرًا مُحقَّقا لا مِرية فيه

الحديثُ عن حالِ الكافرينَ جاءَ خبَرًا ابتدائيًّا عاريًا من أدواتِ التَّأكيدِ؛ إذْ لا يَقتضي المقامُ توكيدًا، لأنَّ مضمونَهُ أمرٌ محقَّقٌ لا مِريةَ فيه، وحقيقةٌ ثابتةٌ لا تَحتاجُ إلى بُرهانٍ أو دليل؛ إذْ كانَ هلاكُهم مَحتومًا، وخُسرانُهم قضاءً نافذًا، وفي ذلكَ أيضًا غايةُ التَّحقيرِ لشأنِهم، وإظهارُ ضَعفِهم في مُقابلةِ جُندِ اللّه، فإنَّهُم مهما أُعجِبوا بقوَّتهم، وظنّوا أنَّهم يَملكونَ من أمرِهم شَيئًا، ومهما بذَلوا من جُهدٍ وسَعيٍ، فإنَّ اللّه يُحبِطُ كيدَهم، ويُخيِّبُ سَعيَهم، ويَجعَلُ أعمالَهم هَباءً منثورًا، فلا يَنتفعونَ بها في دُنياهم، ولا يَجدونَ لها جزاءً في أُخراهم[3].

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 193 - 194، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 232 - 233، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 310، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 785.

(2) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 52، والزُّحيلي، التّفسير المنير: 26/ 88.

(3) فاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 267.

سرّ التّعبير بالموصول (الذين):

التَّمييزُ بصفة الكُفْر التي عُرفوا بها ذمٌّ لهم وتحقيرٌ لشأنهم

جاءَ التَّعبيرُ عنِ المُسندِ إليهِ بالموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ ولم يُذكَروا بأسمائِهم، بل عرَّفهم بالموصول تنبيهًا إلى تمييزهم بما في حيِّز الصِّلة من صفة الكُفر التي عُرفوا بها، فكانَ في ذلكَ تعيينٌ لهم بما هُم عليهِ من الضَّلالِ والكفرانِ، وإلصاقُ الذَّمِّ بهم بما اقترفوهُ من الجُحودِ والعِصيانِ؛ فكأنَّه لا يُعرَفُ لهم وصفٌ إلّا به، ولا يُذكَرونَ إلّا بهذا الوصف المذموم؛ إذْ لا شَرَفَ لهم يُذكَر، ولا فضلَ لهم يُعتبَر، فكانَت الصِّلةُ نَعيًا عليهم، وخزيًا لهم، وتحقيرًا لشأنِهم؛ يُشارُ إليهم بها فيُعرَفون، ولا يُحتاجُ إلى غيرِها في وصفِهم، فما هُم إلّا أهلُ كُفرٍ وضَلالٍ، وسُقوطٍ وزَوالٍ[1].

دلالةُ التَّقديم للمُسنَد إليه (الذين كفروا):

التَّعسُ والهَلاكُ العاقبةُ المُستحقَّة لَمن يكفُرُ بالله ويجحَدُ آياته

في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، تقديمٌ للمُسند إليه فقد تركَّبَت الآيةُ من المُسنَدِ إليهِ، وهو (الذين كفروا)، والمُسنَدِ، وهو ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾، وكانَ في تقديم المُسندِ إليهِ إيماءٌ إلى استحقاقهم هذا الجزاءَ المُحكَم؛ إذْ همُ الفِئةُ التي كفَرَت بربِّها، وجحَدَت آياته، ونَصرَت الباطِلَ على الحقِّ، فكانَت عاقِبَتُهم التَّعسَ والسُّقوطَ، والهَلاكَ والانحِطاطَ؛ لا يُرجَى لهم نُهوضٌ، ولا يُؤَمَلُ لهم خلاصٌ[2].

معنى الفاء في ﴿فَتَعۡسٗا﴾:

بيانُ ترتُّبِ التَّعسِ عليهم بسبب كُفرهم مُبالغةً في استحقاقِهم له

جاءَ قولُه تعالى: ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ مُقترنًا بالفاءِ الرّابطة؛ إذ شُبِّهَ الموصولُ بالشَّرطِ، فكما أنَّ الجَزاءَ مترتِّبٌ على الشَّرطِ، كذلكَ نُزولُ التَّعسِ بهم مترتِّبٌ على كُفرِهم، فلا يكونُ لهم إلّا بسببِه، ولا يحلُّ بهم إلّا لأجلِه، وقد دَخَلَتِ الفاءُ تنبيهًا على الخبرِ، ومُبالغةً في

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 38/ 5، والطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 226.

(2) حنان عودة، سورة محمّد ﷺ، دراسة أسلوبية بلاغية، ص: 192.

استحقاقِهم لهذا السُّقوطِ والهَوانِ؛ إذْ إنَّ في لفظِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إبهامًا يُشبهُ إبهامَ الشَّرطِ، فكأنَّه قيلَ: مَن كانَ على هذه الصِّفةِ، فحَتمًا له التَّعسُ والزَّوالُ(1).

الغرضُ من التَّعبير بالخبَر مصدرًا:

نُـزولُ التَّـعسِ بـهـم أمـرٌ مُـحـتَّـمٌ تـعـبيرًا عـن الـخُـسـرانِ والهَلاكِ

جاء لفظُ (تعسًا) منصوبًا على المصدريَّة على سبيلِ الدُّعاء، وقيل معنى (تعسًا لهم)، أي: في الدُّنيا بالعثرة والهلاك، وفي الآخرة بالتَّردّي في النّار، ويُقال للعاثر: تعسًا إذا لم يُريدوا قيامَهُ؛ فجاءَ لفظُ (تعسًا) مُنبئًا عن الخَيبَةِ والخُسرانِ، مُشعِرًا بالقُبْحِ والهَلاكِ، فالمَصدرُ يجمعُ كلَّ معاني الأحداثِ المشتقَّة منه، وقد زيدَ في تأكيدِ هذه المعاني بجَعلِه مفعولًا مُطلقًا؛ إذْ هو أبلَغُ في التَّقرير، وأشدُّ في الإلزام، حتَّى يكونَ نُزولُ التَّعسِ بهم أمرًا مُحتَّمًا لا مَندوحةَ عنه، وواقعًا لا مَحيصَ منه(2).

بلاغةُ الكناية في التَّعبير بالتَّعْسِ:

مآلُ البقاء على الكُفرِ شدَّةُ المقتِ والغَضبِ

جاءَ قولُه تعالى ﴿فَتَعۡسٗا﴾ مُشعِرًا بعِثارِهم الذي لا نُهوضَ بعدَه، وسُقوطِهم الذي لا رَجاءَ معه، فهو كقولِ القائلِ لِمَن عَثَرَ فأُريدَ به أن يَبقى مُنطرحًا: (تعسًا لا قيامَ معه)، فلا نجاة لهُ من هَلاكِه، ولا خَلاصَ لهُ من وبالِه، والتَّعسُ في أصله دالٌّ على الانحطاطِ والسُّفولِ والهَوانِ، وهو في الآيةِ دعاءٌ من اللّه جلَّت قُدرتُه على أهلِ الكُفرِ والضَّلالِ، فإذا أخبر تعالى أنَّه يدعو عليه دَلَّ على تَحَقُّق الهَلاك؛ كما في قولِه: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ [التَّوبة: 30]، فكانَ في ذلكَ إظهارٌ لشدَّةِ المقتِ والغَضبِ عليهم، وإيذانٌ بأنَّهُم في دُنياهم على سوءِ حالٍ، وفي آخِرَتِهم على عَظيمِ وبالٍ(3).

---

(1) العكبري، التِّبيان في إعراب القرآن: 1/ 350، والواحدي، التّفسير البسيط: 20/ 228، والطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 226.

(2) ابن عادل، اللُّباب: 17/ 436، والبغوي، تفسير البغوي: 4/ 211، وأبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 9/ 464، والخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 13/ 320.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 210، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 15، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 201.

وقَد يكونُ التَّعسُ في الآيةِ كِنايةً عن بَقائهم على الكُفرِ، كقولِه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [البقرة: 7]؛ إذْ قد رانَ عليهم ذنْبُهم، وأُطبِقَت عليهم غَشاوةُ ضَلالِهم، فكانَت عاقِبَتُهم أن طُمِسَت بصائِرُهم، وحُرِموا الهُدى، فلا مَخرَجَ لهم مِن غَيِّهم، ولا سبيلَ لهم إلى الرَّشادِ[1].

بلاغةُ حَذْفِ المُسنَدِ في ﴿فَتَعۡسٗا﴾:

الإيجازُ في اللَّفظِ والدُّعاءِ عليهم، لِقصدِ التَّحقيرِ والتَّفظيعِ

حُذِفَ المسندُ في قولِه ﴿فَتَعۡسٗا﴾ لوُضوحِه؛ إذْ هو مِنَ المصادِرِ التي جَرَت عادةُ العربِ على حَذفِ فِعلِها سَماعًا، فالتقديرُ: أتعَسَهمُ اللّه فتَعِسوا تعسًا، فجاءَ المصدرُ مقامَ الفِعلِ، وعُطِفَ عليهِ قولُه تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، فكانَ التَّعسُ والهَلاكُ لهُم جزاءً، وكانَ الإضلالُ عُقوبةً لاحِقةً بأعمالِهم، فلا بَركةَ فيها، ولا قَبولَ لها[2]، ويَجوزُ أيضًا أن يُحمَلَ ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ على الاستِعمالِ في الدُّعاءِ عليهم، لِقصدِ التَّحقيرِ والتَّفظيعِ، فيكونُ مِن قَولِ اللّه جلَّ شأنُه أو مِن قَولِ المَلائكةِ، والتقديرُ: فقالَ اللّه: تعسًا لهم، أو فيُقالُ: تعسًا لهم، فجاءَ التَّركيبُ مُفيدًا للوعيدِ الشَّديدِ، والإهانةِ العَظيمةِ، والإيذانِ بأنَّهم قد حُكِمَ عليهم بالسُّقوطِ الأبديِّ، فلا قيامَ لهم بعدَه[3].

بديعُ المُقابلة بَيْن حال أهل الإيمان وأهلِ الكُفران:

إبرازُ المُفارقةِ العجيبةِ بينَ تثبيتِ أهلِ الإيمانِ ورفعتِهم، وسُقوطِ أهلِ الطُّغيانِ وضِعَتِهم

من محاسِنِ مباني النَّظمِ القرآنيِّ وبَديعِ معانيه وقوعُ قولِه تعالى: ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ في جانِبِ الكافرينَ مُقابِلًا لقولِه في أهلِ الإيمانِ: ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾، فكانَ بَيْنَ الحالَينِ تقابُلٌ بديعٌ؛ إذْ جاءَ الثَّباتُ للمُؤمنينَ تأييدًا ونُصرةً، وجاءَ التَّعسُ للكافرينَ شَقاءً وخِذلانًا، فأُقيمَتِ الأقدامُ هُنا، وسُقِطَت هُناك، وثُبِّتَ أهلُ الطّاعةِ، وأُردِيَ أهلُ الكُفرِ في هاويةِ الذُّلِّ والهَوانِ، فبِما نَصرَ المُؤمنونَ دينَ

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 15.
(2) النّيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 131، والكرماني، غرائب التّفسير: 2/ 1104، والمدرس، مواهب الرّحمن: 7/ 99.
(3) المظهري، التّفسير المظهري: 8/ 425.

اللّه، نَصرَهم اللّه وثبَّتهم، وبما كَفرَ الكافرونَ بآياتِ اللّه، خَذلَهم وأوقعَهم في مَهالِكِهم؛ فشتّانَ بينَ الحالَين، وبُعْدًا بَينَ المصيرَين، فهذا إلى العُلوِّ والكرامةِ، وذاكَ إلى السُّقوطِ والخزيِ والنَّدامةِ[1].

معنى اللّام ودخولها على الضَّمير في ﴿لَّهُمۡ﴾:

تبيينُ حالِ المُخاطَبين وتَخصيصٌ لِما حاقَ بهم مِن سُقوطٍ وذُلٍّ

(اللّام) في قوله تعالى ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾: لتبيينِ المُخاطَب، كما في قولهم: سُقيا له، أي: أعني له[2]، وفي تعليقها بضمير (هم) تَخصيصٌ لِما حاقَ بهم مِن سُقوطٍ وذُلٍّ، وفي هذا دلالةٌ على التَّوكيدِ والتَّعيين، كما في قوله: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ [يوسف: 23]، فلا يُشارِكُهم في هذا التَّعسِ غيرُهم، لا يُفارِقُهم في دُنياهم، ولا يَنجونَ منهُ في آخِرَتِهم[3].

توجيه العطف في ﴿وَأَضَلَّ﴾:

بيانُ ارتباطِ التَّعسِ بإضلالِ الأعمالِ، تأكيدًا على الخِذلانِ لأهلِ الطُّغيانِ

جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ عَطۡفًا على الفِعلِ الذي نَصَبَ (تعسًا)؛ إذ التَّقديرُ: فقالَ تعسًا لهم، أو فقضَى تعسًا لهم، فدخلَ هذا العطفُ في حيِّزِ الخبريَّةِ للموصولِ، وجاءَ توكيدًا لِحُصولِ الوعيدِ، وتحقيقًا لِحُلولِ الخذلانِ والهَلاكِ بهم، ليكونَ في ذلكَ تثبيتٌ للمؤمنينَ، وإشاعةُ الطُّمأنينةِ في قلوبِهم بأنَّ النَّصرَ موعودٌ لهم، والخذلانَ مكتوبٌ على أعدائِهم[4].

دلالةُ التَّعبير بالماضي (أضلّ):

الدَّلالةُ على تَحَتُّمِ التَّعسِ بهم واستحالةِ نهوضِهم

لمّا كانَ العبدُ قد يَعثُرُ ويَسقُطُ، فيُقالُ له (تعسًا)، ثم يَنهَضُ بعدَ عِثاره، ويَعودُ إلى قيامِه، فلا يُبطَلُ عَملُه ولا يُحبَطُ سَعيُه، بَيَّنَ اللّه جلَّت حِكمتُه أنَّ هذا ليسَ حالَ الكافرينَ، بل هوَ تعسٌ مُحكَمٌ، وسُقوطٌ لا نُهوضَ بعدَه، فجاءَ التَّعبيرُ عنهُ بالماضي، إشارةً إلى

(1) الخطيب، التّفسير القرآني: 13/ 320، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 85.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 139، والقنوجي، فتح البيان: 6/ 321، والطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 226.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 86/ 26، والجزائري، أيسر التّفاسير: 5/ 74.
(4) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 318، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 501.

تحقُّقِه، وتوكيدًا على أنَّه لا يَتخلَّفُ عنهم، ولا يُرفعُ عنهم، بل قد كُتِبَ عليهم وقُضيَ بهِ فيهم، فلا مَحيدَ لهم عنه، ولا مَنجى لهم منه[1].

دلالةُ تكرارِ ذِكْرِ إضلالِ الأعمال:

تأكيدُ الوعيدِ بحُبوطِ أعمالِهم تحقيقًا لخُسرانِهم وسوءِ مآلِهم

الأعمالُ المُحبَطةَ في قولهُ تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ إنَّما هيَ بعضُ الأعمالِ التي زُيِّنَت لهم، فكانوا يَظنّونَ فيها الخَيْرَ، وهي في حقيقتها ضَلالٌ وباطِلٌ، وكانَ إحباطُها أن لم يَتحقَّق لهم منها ما أمَّلوا، فخابَ سَعيُهم، وبطَلَ كَدحُهم، وذلكَ أخصُّ مِن إضلالِ الأعمالِ المُطلقِ في قَولِهِ تعالى في أوَّلِ السّورة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، والمَقصدُ مِن ذِكرِ هذا الخاصِّ بعدَ العامِّ التَّنبيهُ على أنَّهم لم يَجنوا مِن أعمالِهم ثمرةً، ولم يَنتفعوا بها، حتَّى لا يَظُنَّ المُؤمنونَ أنَّ لتلكَ الأعمالِ شأنًا يُخفِّفُ عنهم العَذابَ، فقد كانوا يَتساءَلونَ عن ذلكَ، فجاءَ البيانُ ليَقطعَ الوهمَ، ويُزيلَ الرَّيبَ، وليُعلَمَ أنَّ مَن كفرَ لم تَنفعْهُ أعمالُه، ولو عَظُمَت في عَينه، فلو أنَّهم آمَنوا، لَرَجَوا بها الخيرَ في دُنياهم، ونالوا بها الجزاءَ في آخِرتِهم، فكانَ في ذِكرِ هذا الخاصِّ بعدَ العامِّ تأكيدٌ للوعيدِ، وبيانٌ لا مَزيدَ عليهِ في تحقيقِ خُسرانِهم وسوءِ مآلِهم[2].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 210.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 87/ 26.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩﴾ [محمّد ﷺ: 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ سببِ الهلاكِ والسُّقوط، وعِلَّة التَّعس والحُبوط

لـمّا أبانَ اللّه جلَّ شأنُه ما أنزَله من النَّكالِ والتَّعسِ بالكافرينَ، ليَزدادَ بِهِ أولياؤُه جرأةً عليهم، ويَشتدَّ بأسُ المؤمنينَ في مُحارَبَتهم، بيَّنَ سُبحانه سَبَبَ ما حَلَّ بهم مِن خِذلانٍ وهَلاك، ليُجتنَبَ مِثلُه، ويُحذَرَ مَوردُه، فقالَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، فكانَت عِلَّةُ بَوارِهم كَراهتَهم لِوَحيِ اللّه، ونُفورَهم مِن هُداه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَحۡبَطَ﴾: أصل (حبط) أن تُكثِرَ الدّابَّةُ أكلًا حتَّى ينتفخَ بَطنُها، والحَبَطُ وجَعٌ يأخُذُ البعيرَ في بَطْنه من كَلأٍ يَسْتَوْبِلُه، أو كلأٌ تأكُله الماشيةُ وتُكْثِرُ منه حتى تنتفخَ لذلك بطونُها ولا يَخرج ما فيها فتهلِكَ، وحَبِطَ عَمَلُه: فَسَدَ، وحَبِط عملُ الرَّجل، بكسر الباء وفتحِها: عَمِل عملًا صالحًا ثمّ أفسدَهُ بالشِّرك أو سوءِ النِّيَّة، يُقال: حَبِطَ عَمَلُهُ حَبْطًا وحُبوطًا: بَطَلَ ثوابُه، فالحَبْطُ: البُطلانُ والألم[2]، ولعلَّ دلالة حَبِطَ هي فسادُ الأعمال مع كثرتِها وزيادتِها والمعنى هُنا: أي: أبطَلَ أعمالَهم؛ وأذهَبَ أجرَها فتلِفَت وبَطَلَ ثوابُها[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ عِلَّةِ إحباطِ أعمالِ الكافرينَ، وكيف أورَدَهم بُغضُ الهُدى مَهالِكَ الخُسران

يُبيِّنُ اللّه جلَّت حِكمتُه العِلَّةَ الَّتي أوقعَتِ الكافِرينَ في مَهالِكِ الخُسرانِ، موضِّحًا أنَّ ذلكَ التَّعسَ الَّذي حلَّ بهم، والهَلاكَ الَّذي

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 210.

(2) الخليل، العين: باب الحاء والطاء، وابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حبط).

(3) الرّاغب، المفردات، والجوهريّ، الصّحاح، والسمين الحلبي، عُمدة الحفّاظ: (حبط)، وابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 82، والسّجِستانيّ، غريب القرآن، ص: 186، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 106، وابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 221.

نَزلَ عليهم، إنَّما كانَ بجُرمِهم وعِصيانِهم؛ إذ كَرِهوا ما أنزَلَ اللّٰه من الهُدى، فكانَت عاقِبَتُهم أن أحبطَ اللّٰه أعمالَهم، فضاعَ جُهدُهم، وبَطَلَ سَعيُهم، ولم يَجِدوا لِما قدَّموا ثَمرةً، فخابوا وخَسِروا(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ في الآية:

الـجـوابُ على التَّشوُّفِ لمعرفةِ سببِ الهلاكِ وتقريرِ العِبرةِ منه

لـمّا أوضَحَ اللّٰه ﷻ ما أنزَله بالكافرينَ مِن نَكالٍ وخِذلانٍ تشوَّفت النَّفسُ إلى معرفةِ سببِه، فكأنَّ سائلًا سألَ عن سبب هذا التَّعس والسُّقوط، فاستأنَفَ البيانُ الكريم بقوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُشيرًا إلى ذلك الأمرِ؛ البعيدِ عن الخيرِ، العظيم في الشَّقاءِ، ليوضِّحَ علَّتَه، ويُظهِرَ سَببَه، فيَجتَنِبَهُ أهلُ البَصيرةِ، ويَحذَرَهُ أهلُ الإيمانِ، فلا يَسلُكوا مَسالكَ القومِ الذينَ حَقَّ عليهِمُ العذابُ، واستوجِبَ لهم السُّقوطُ والهَلاكُ(2).

الغرضُ من التَّعبير باسم الإشارة:

تفظيعُ الهلاكِ، وتوكيدُ الخُسرانِ لأهلِ الجُحودِ والعِصيانِ

الإتيانُ باسم الإشارة المُحلَّى بلام البُعد لِتَمييزِ المُشارِ إليهِ أكمَلَ تَمييزٍ، تنويهًا به، وإظهارًا لفَظاعَته، وكأنَّهُ أمرٌ بعيدٌ عن الخيرِ، لا يليقُ إلّا بأهلِ الغوايةِ والجُحودِ، فأتى بهذا التَّعبيرِ القاطعِ ليُؤكِّدَ أنَّ ما نَزَلَ بهم لم يَكنْ إلّا بجُرمِهم؛ إذ كَرِهوا ما أنزَلَ اللّٰه، فأُحبطَت أعمالُهم، وخابَ سَعيُهم، فباؤوا بالخُسرانِ المُبينِ(3).

معنى الباء ودلالتها في ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾:

بيانُ السَّبَبِ والعِلَّةِ الَّتي أوقَعَتِ الكافِرينَ في مَهالِكِ التَّعاسةِ والإضلالِ

جاءَ قولُهُ تعالى ﴿بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ﴾ ليُبيِّنَ العِلَّةَ الَّتي أوقَعَتِ الكافِرينَ في مَهالِكِ التَّعاسةِ والإضلالِ، فذلكَ الشَّقاءُ الَّذي حَلَّ بهم، وما نَزَلَ عليهم مِن إحباطِ الأعمالِ، إنَّما كانَ بِسببِ كُرهِهم لما أنزَلَ اللّٰه

---

(1) القُرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 233، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 785، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 86 - 87.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 210، والعلوان، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2238.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 210، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 76 - 86.

عزَّ شأنُه على رسوله المُصطفى ﷺ؛ مِن قرآنٍ يَهدي إلى الرُّشدِ، ويَدُلُّ على سواءِ السَّبيلِ، فكانت عاقِبَةُ هذا الجُحودِ أنَّ أحبطَ اللّه أعمالَهم، فذهَبَت سُدى، وإن كانَ فيها ما يَعدُّه النّاسُ مِن وجوهِ البرِّ كإطعامِ الطَّعامِ، وصِلَةِ الأرحامِ غيرَ أنَّ هذه الأعمالَ لم تَصدُر عن قَلبٍ مُؤمِنٍ باللّه ومَلائكته وكُتُبه ورُسُله واليَومِ الآخِرِ، فبَطَلَ مَسعاهُم فيها، فلم يَنالوا بها خيرًا في آخِرتِهم، ولم تَكُن لهم شافِعةً عندَ ربِّهم، فالباءُ في ﴿بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ﴾ جاءت للسَّببيَّةِ، إظهارًا للعلَّةِ الَّتي مِن أجلِها قُضيَ عليهم بالبَوارِ، وضُرِبَ عليهم الخُسرانُ، فجُعِلَت أعمالُهم هَباءً مَنثورًا[1].

الغرضُ من التَّعبير بالجُملةِ الاسميَّةِ المُؤكَّدة:

تحقُّقُ بُغْضهم أوجـــبَ لـهُـم الخُسرانَ والبَوار

جاءَ التَّعبيرُ بالجُملةِ الاسميَّةِ المؤكَّدةِ بـ (أنَّهم) على خلافِ مقتضى الظّاهرِ لتنزيل غير السّائلِ منزلةَ السّائل، فَجاءَ التَّوكيدُ قطعًا للتَّردُّدِ في حقيقةِ سببِ إحباطِ أعمالِهم، فكأنَّ القَولَ موجَّهٌ إلى مَن قد يَرتابُ أو يَتساءلُ في علَّةِ هذا الجَزاءِ، فجاءَ التَّأكيدُ لإظهارِ أنَّ بُغْضَهم لِما أنزَلَ اللّه أمرٌ مُتحقِّقٌ لا رَيبَ فيه، وثابتٌ لا مِراءَ في وُقوعِه، فاستَوْجَبوا به الخُسرانَ والبَوارَ.

وجه التَّعبير بخبر أنَّ جُملة فعليَّة ﴿كَرِهُواْ﴾:

كراهيةُ الحقِّ المـخـالـف لـلـشَّـهـوات والأهـواءِ سَبَبٌ للكفر

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الكُرهِ) على غيره مِن الألفاظِ؛ كالكُفرِ ونَحوه، ليُبيِّنَ أنَّ نُفورَهم مِنَ القرآنِ كانَ كَراهةً لِما جاءَ به مِن تكاليفَ تُعارِضُ أهواءَهم، وتَقمعُ شَهواتِهم، وتُقيِّدُ ما ألفوهُ مِن تَساهُلٍ في اللذّاتِ، وإطلاقِ العِنانِ للنَّفسِ والهَوى، فجاءهم القرآن بمخالفةٍ لِما ألِفوهُ واشتهَتهُ أنفسُهم الأمّارةُ بالسّوء، فكان رفضُهم

(1) المظهري، التّفسير المظهري: 8/ 425، والخطيب، التّفسير القرآني: 13/ 321، والطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 226.

للدّينِ الجديدِ ناتجًا عمّا تكرَهُهُ نُفوسُهم الطّاغيةُ فهو "تَخصيصٌ وتَصريحٌ بسَببيَّةِ الكُفْرِ بالقُرآنِ لِلتَّعْسِ والإضلالِ"[1].

فَكرِهوا ما أنزَلَ اللّه لا لِعَيبٍ فيه، ولكنْ لأنَّهُ حالَ بينهم وبَيْنَ أهوائِهم، فكانَت كَراهتُهم إيذانًا بإعراضهم، وموجِبًا لإحباطِ أعمالهم، وبَوارِ سَعيهِم، فخابوا وخَسِروا، ولبِئسَ ما كانوا يَصنَعون.

بلاغةُ الكناية في التَّعبير بما أنزلَ الله عن القرآن الكريم:

الــدَّلالــةُ على تعظيمِ قـدره، وتفخيمِ شأنه

جاءَ التَّعبيرُ عن القرآنِ الكريم في قولِه تعالى ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ كنايةً عنه، فلم يُذكَر باسمِهِ الصَّريحِ، بل عُبِّرَ عنهُ بما يدلُّ عليه تعظيمًا لقدرِهِ، وتفخيمًا لشأنه؛ إذْ هو كلامُ اللّه المُنَزَّلُ نورًا وهدًى.

وقد وردَ هذا التَّعبيرُ مُغايرًا لما جاءَ في أوَّلِ السورةِ؛ إذ قالَ تعالى: ﴿بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، وذلكَ لِيُؤَكِّدَ ترابطَ الآياتِ وتناسُقَها، فجاءَ في مَوضِعٍ بما يُشيرُ إلى إكرامِ النَّبيِّ ﷺ بإنزالِ الوحيِ عليه، وفي موضِعٍ آخرَ بما يُعظِّمُ القُرآنَ نفسَه[2].

سرُّ إسنادِ الفعلِ إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾:

تفخيمُ الوحيِ وتغليظُ جُـرمِ الإعراضِ عنه

جاءَ إسنادُ الفعلِ إلى الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قولِه تعالى ﴿كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ليُعظِّمَ فَداحةَ ما اجترَحوهُ، ويُظهِرَ قُبحَ ما أتَوهُ؛ إذْ لم يَكرَهوا قولَ بَشَرٍ، ولا شَرعَ مخلوقٍ، وإنَّما كَرِهوا ما أنزله المَلِكُ الأعظمُ، الذي لا نِعمةَ إلّا مِن فَيضِ جودِه، ولا هُدًى إلّا مِن عظيمِ إحسانِه، فجاءَ إسنادُ الإنزالِ إلى اللّه تَفخيمًا لما أُنزِلَ، وإعلاءً لشأنِه، وليكونَ جُرمُهم في الإعراضِ عنهُ أشدَّ وأشنَعَ؛ إذ كَرِهوا ما أرادَهُ اللّه هُدًى ورُشدًا، ورفضوا ما جعلَه سَبيلًا إلى الفَلاحِ والنَّجاحِ[3].

---

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 120، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 501، والحجازي، التّفسير الواضح: 3/ 462.

(2) ابن عطيّة الأندلسي، المحرّر الوجيز: 5/ 112، والخطيب، التّفسير القرآني: 13/ 321.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 211، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 7/ 4.

معنى الفاء في ﴿فَأَحۡبَطَ﴾:

الدَّلالةُ على سُرعةِ الجزاءِ، وحتميَّةِ إحباطِ أعمالِ الكافرين

جاءَت الفاءُ في قولِه تعالى ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ بمعنى السَّببيَّةِ والتَّعقيب؛ إذْ بادرَ النَّظمُ الكريمُ إلى بيانِ عُقوبتِهم، فأعقَبَ كَراهتَهم لما أنزله بإحباطِ أعمالِهم، ليُبيِّنَ أنَّ ما حلَّ بهم لم يكنْ إلّا جزاءً وِفاقًا، فكما كَرِهوا هُدى اللّه، حرَمَهُم بركتَه، وكما أعرَضوا عن نورِ الوحيِ، طَمَسَ على أعمالِهم، فجاءَت الفاءُ دالَّةً على سُرعةِ وقوعِ الجزاءِ عقبَ الجُرمِ[1].

دلالةُ ذِكْرِ إحباطِ الأعمالِ بعدَ ذِكْرِ إضلالِها:

إحباطُ الأعمالِ بعدَ إضلالِها توكيدٌ ومُبالغةٌ في تقريرِ الخَبَرِ والحُكم

جاءَ ذِكرُ إحباطِ الأعمالِ بعدَ إضلالِها في قولِه تعالى ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ على سبيلِ التَّوكيدِ والمُبالغةِ في تقريرِ الخَبَرِ؛ إذْ هوَ بمَثابةِ تكرارِ المعنى بصيغةٍ تُشدِّدُ على ثُبوتِ الحُكمِ واستِحكامِه، وبيانِ أنَّهُ عُمومٌ لا يَختصُّ بجيلٍ دونَ جيلٍ، ولا بزَمنٍ دونَ آخَرَ، بل هوَ ماضٍ في كلِّ مَن أعرضَ عن منهجِ اللّه، وكَرِهَ ما أنزَلَ اللّه من الهُدى والحقِّ، ولمّا كانَ الإضلالُ يُفيدُ تَيهَ الأعمالِ وضَياعَها، جاءَ الإحباطُ ليُشعِرَ بأنَّ ذلكَ بُطلانٌ كُلّيٌّ لا بَركةَ فيه، ولا يُرتجَى معهُ نفعٌ[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ بالإحباطِ للأعمال:

تصويرُ سرعةِ فَناءِ أعمالِ الكافرينَ وذهابِها

جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ بمعنى أضلَّها وأبطلَها، لا على الإحباطِ المعروفِ الَّذي هو الإبطالُ بعدَ الصِّحةِ، بل على معنى أنَّها من أصلِها ساقطةٌ لا أثرَ لها، وباطِلةٌ لا جدوَى فيها، وجاءَت الصّورةُ الاستعاريَّةُ المَكنيَّةُ مُصوِّرَةً الأعمالَ بشيءٍ يَسقُطُ فيَضمَحِلُّ ولا يَبقى له أثرٌ؛ فشُبِّهَت الأعمالُ بشيءٍ يَسقُطُ ويَبطلُ أثرُه، ولكنَّ المشبَّه به لم يُذكر صراحةً، وإنَّما حُذِف، ورُمِزَ إليه بأحدِ خَصائصِه، وهو الإحباط، الذي يَعني الإبطال[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 211، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 11/ 90.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 120، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 201.
(3) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 16.

سِرُّ تخصيصِ الأعمالِ بالإبطال، ودلالةُ نسبتها إليهم:

بيانُ أنَّ ما أمَّلوهُ مِن نَفعٍ لأعمالِهم لن يتحقَّق لهم

المُرادُ بأعمالِهم هُنا ليسَ مُطلَقَ الأعمالِ، وإنَّما تلكَ الَّتي كانوا يرجونَ منها دَفعَ الضُّرِّ في دُنياهم، فقد كانوا يُؤدّونَ بعضَ الصّالحاتِ لا ابتِغاءَ وجهِ اللّه، بل رجاءَ أن يوسَّعَ عليهم في الأرزاقِ، وتُحفَظَ لهُم الأولادُ والأنعامُ، فكانت أعمالُهم مَبنيَّةً على رجاءِ نَفعٍ دُنيويٍّ لا على إيمانٍ بالبعثِ، فجاءَ الإحباطُ ليُبيِّنَ أنَّ ما أمَّلوهُ مِن نَفعٍ لن يتحقَّقَ لهم[1].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الحُبوط والبُطلان:

الحُبوط بُطلانُ العَمَلِ أو فسادُهُ بعدَ صِحَّته، والبُطلانُ أعمُّ منه

الحُبوط: إبطالُ ثوابِ عملِ البرِّ من الحَسَنات بالسَّيِّئات، بعقابٍ أزْيَدَ أو بنَدَمٍ على الطّاعة[2]: قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [هود: 16]، والإحباطُ في الحسنات في مُقابَلَةِ الغُفْران للسَّيِّئات[3] ويكونُ في كسبِ الإنسانِ وعَمَلِه، فمعنى الحُبوطِ يدورُ على معنيَين؛ **الأوَّل:** بطلانُ العمل، فيكونُ مرجعُ الحَبْطِ إلى الانحباطِ إذْ لا أساسَ صحيحٌ و لا أصلَ ثابتٌ لها، قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [البقرة: 217]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٢٨﴾ [محمّد ﷺ: 28].

والثّاني: فسادُه بعدَ الوقوعِ والصِّحَّة، فإذا عَمِلَ الرَّجُلُ عَمَلًا ثمَّ أفْسَدَه قيل: حَبِطَ عَمَلُه[4]، ويكونُ بمعنى المَحو، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨﴾ [الأنعام: 88]، وقال تعالى لنَبيِّه الكريم ﷺ: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 87.
(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللُّغويةُ، ص: 236، والزّمخشري، تفسير الكشّاف: 1/ 503.
(3) الغزنويّ، باهِرُ البُرهانِ: 3/ 1338.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (حبط).

﴿لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾ [الزُّمر: 65]، فمعنى الحُبوطِ إذَن فسادٌ في الشَّيء الصّالحِ؛ يأتي عليه من وجهٍ يُظَنُّ به صَلاحُه[1].

أمّا البُطلان فهو ما كان على خِلافِ شرائطِ الصِّحَّة وخُصوصيّاتها، وهو في مُقابل الحقِّ[2]، فالبُطلانُ أعمُّ، ويكون في العمل وغير العمل؛ كالقضاء والاعتقاد، قال تعالى ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾ [آل عمران: 191]، فالحُبوطُ أخَصُّ من البُطلان من جهة خصوصيَّته بالعمل وفسادِه بعد صحَّته، وهذا المعنى يُناسبُ سياقَ ذمِّ الكافرين، الكارهين لِما أنزلَ الله تعالى؛ فهُم أهلٌ لحُبوطِ أعمالِهم جميعِها؛ الصَّحيحِ منها والسَّيِّئ.

(1) زين الدِّينِ المناويُّ، التّوقيفُ، ص: 135.
(2) المُصطفوي، التّحقيق في كلمات القرآن الكريمِ: 2/ 159.

﴿۞أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠﴾ [محمّد ﷺ: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

اتِّباعُ ما ذُكرَ بالتَّوبيخِ والإنذارِ بِسُنَنِ الماضينَ، مُسبِّبًا كَراهتَهُم المَذكورة

لمّا كانَ لا يَجرؤُ على ارتكابِ هذه العظائم، ولا يَستهينُ بمثلِ هذه القضايا، إلّا مَن أمِنَ العقوبةَ، ولا يأمَنُها إلّا مَن أعرَضَ عن ذِكرِ اللّه، وجَحَدَ آياته، وكانَ في وقائِعِه تعالى في الأُممِ الخاليةِ، التي كذَّبَت رُسُله، وناصَبَت أولياءَه العَداءَ، وعَدَت على حُدوده، أعظَمُ الزّاجرِ وأبلَغُ المانعِ، وجاءَ الإنكارُ عليهم في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ موبِّخًا ومُحذِّرًا، مُنذِرًا إيّاهُم بأسَهُ، ومُخوِّفًا لهُم بطشَهُ وسَطوتَهُ، وما يُنزِلُهُ بأعدائه مِن شديدِ العُقوبةِ، مُسبِّبًا كَراهتَهم المَذكورةِ، وما تأثَّر عنها مِن العداوةِ لأهلِ اللّه[1].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: أصلُ مُفردة (عقب) يَدُلُّ على تَأخيرِ شَيءٍ وإتيانِه بعدَ غيرِه، وكُلُّ شَيءٍ يَعقُبُ شيئًا، فهو عَقيبُهُ[2]، والعَقِبُ: مُؤخَّرُ الرِّجلِ[3]، والعاقِبَةُ: آخِرُ الأمرِ، وأثَرُ عَمَلِ العامِلِ، فعاقِبةُ كُلِّ شَيءٍ هي ما يَنجلي عنه الشَّيءُ، ويظهَرُ في آخِره مِنْ أثَرٍ ونَتيجة[4]، والعاقِبَةُ والعُقبَى يَختَصّانِ بالثَّوابِ، نَحوُ: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافةِ قَدْ يُستعمَلُ في العُقوبَة، نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرّوم: 10][5]، وسُمّيَت بذلك؛ لأنّها تَتلو الذَّنبَ،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 211.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(3) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 92.
(5) الرّاغب، المفردات: (عقب).

مِن تَعَقَّبَهُ؛ إذا تَبِعَهُ، وتَعَقَّبْتُ الرَّجلَ، أي: أخذتُهُ بذَنْبٍ كان منه، والجمع: عُقوباتٌ[1]، والمقصود من ﴿عَاقِبَةُ﴾ في الآية: آخِرُ أمرِ الكافرين قبلهم من العقوبةِ، والهَلَكة[2].

2) ﴿دَمَّرَ﴾: الدَّمارُ: استئصالُ الهلاك، يقال: دَمَرَ القومُ يَدْمُرون دَمارًا، أي: هَلَكوا[3]، وأصلُ التَّدميرِ: إدخالُ الهلاكِ على المُهلَك، وأصلُ (دمر): يدُلُّ على الدُّخولِ في البَيتِ وغيرِه[4]، والتَّدميرُ: إدخالُ الهلاكِ على الشَّيءِ[5]، فالدَّمارُ: بمعنى الهلاكِ المُستأصِلِ، وهو المُراد باللَّفظة في الآية الكريمة، وليس في القرآن مِنَ التَّركيب إلّا (التَّدمير) بهذا المعنى[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّوبيخُ على الإعراضِ عن العِبَرِ بالتَّحذيرِ مِن مَصارِعِ المُكَذِّبينَ

يوبِّخُ اللّٰه جلَّت قُدرتُه الكافِرينَ على غَفلَتِهم عن مَصارِعِ الأوَّلينَ، وإعراضِهم عن الاعتِبارِ بما حاقَ بمَن كانَ قبلَهم مِن أُمَمِ الطُّغيانِ، فيقولُ: أفلم يَسيروا في الأرض، فيتأمَّلوا ما آلَ إليه أمرُ المُكَذِّبينَ، وكيفَ كانت عاقِبَتُهُم الخُسرانَ والهَلاكَ؟، لقد أرسلَ اللّٰه عليهم بأسَه، فاستأصَلَ شَأفَتَهُم، وأبادَ ذِكرَهُم، فما أبقَى لهم مِن باقيَةٍ، ولِمَن سَلَكَ سبيلَهم مِن أهلِ الكُفرِ والضَّلالِ أمثالُ ذلكَ المَصيرِ المُهلِكِ[7].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ بالاستفهامِ الإنكاري:

التَّقريعُ والتَّوبيخُ بالاستفهامِ، والتَّحذيرُ بضربِ الأمثالِ لِمَصارِعِ المُعرِضينَ

جاءَ الاستئنافُ بالجُملةِ الاستفهاميَّة في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 234، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 17.
(3) الخليل، العين: (دمّر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، والحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (دمر)، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 355.
(5) الرّاغب، المفردات: (دمر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (دم).
(7) الثّعلبي، الكشف والبيان: 31/ 9، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 311، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 785، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 87/ 26.

يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ﴾ توبيخًا وإنكارًا على المُعرِضينَ، وتحذيرًا من سوءِ عاقبةِ المُكَذِّبينَ، بالسَّير والنَّظر في عاقبة مَن سَبَقَ لِتَقرُبَ العِظةُ إلى الأذهانِ، ويتَّضِحَ الإنذارُ بأبلَغِ بَيانٍ، وقد قُدِّمَ هذا التَّوبيخُ قبلَ بيانِ سوءِ الجزاءِ، وهو مِن إعجازِ النَّظم القُرآنيِّ؛ إذ يَضعُ اللّه أمامَ العاصي بَراهينَ العِبرةِ والحُجَّةِ قبلَ أن يُبيِّنَ له مَآله، ليَرتَدِعَ إن كانَ فيهِ وعْيٌ أو تَدبُّرٌ، فها هُم كُفّارُ مكةَ قد صَدّوا عنِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، وأظهَروا الكُرهَ لِما جاءَ بهِ النَّبيُّ ﷺ، فجاءَت الآيةُ بلهجةِ التَّقريعِ، وبدأها اللّه ﷻ بأسلوبِ الاستفهامِ الإنكاريِّ، الذي خرجَ إلى معناهُ البلاغيّ وهو الإنكار؛ إذ يُنكر اللّه عليهم موقفهم من الدَّعوة، وعدمَ اتِّعاظهم بما شاهَدوهُ في أسفارِهم من آثارِ تدميرِ الذين كذَّبوا الرُّسُل فيرميهم بالعَمى والغفلة عن النَّظر فيما حولهم، ليستَنهِضَ العُقولَ مِن غَفلتِها، ويُقيمَ عليها الحُجَّةَ بما عَرَفَتْهُ، ويُحذِّرَها مِن سوءِ المصيرِ بما شَهِدَتْهُ مِن آثارِ الهالكينَ، فهَل مِن مُدَّكِرٍ[1].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يَسِيرُواْ﴾:

تَجدُّد الدَّعوة إلى السَّيَر واستمرارُها في كُلِّ وقتٍ وحين

جاءَ التَّعبيرُ بأسلوبِ الاستفهامِ في قولهِ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ مُقترِنًا بالفعلِ المُضارعِ، ليُفيدَ أنَّ هذهِ الدَّعوةَ ليست موقوفةً على أهلِ مكةَ حسبُ - وهذا على قولٍ في التَّفسير -، بل هي نداءٌ عامٌّ مُتجدِّدٌ في كلِّ وقتٍ وحينٍ، يَتردَّدُ صَداها في أسماعِ البَشَرِ أجمعينَ؛ فمَن سَلَكَ سَبيلَ المُنكِرينَ كانَ حَظُّهُ مِن الوَعيدِ كحَظِّ سابِقيه، ومَن أعرضَ عن آياتِ اللّه، نزلَ بِهِ مِن بأسه ما نزلَ بالمُكَذِّبينَ مِن قَبلُ[2].

---

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 13/ 322، والدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 9/ 204، والدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 79.
(2) الزُّحيلي، التّفسير المنير: 26/ 99.

معنى حرفِ الظَّرفيَّةِ في القيد: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

الإشعارُ بوجوبِ الاعتبارِ والتدبُّرِ في مَصارعِ الغابرينَ

جاءَ التَّعبيرُ في النَّظم القُرآنيِّ بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِى﴾ في قولِه تعالى ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، مع أنَّ السَّيرَ يكونُ على الأرضِ لا فيها، مُستعمَلًا للظَّرفيَّة المجازيَّة؛ وذلك ليُنبِّهَ مِن أوَّلِ الأمرِ إلى أنَّ المقصودَ مِن هذا السَّيرِ ليسَ مجرَّدَ المَشيِ المُعتادِ الَّذي ألِفوهُ، وإنَّما هوَ سَيرٌ ذو غايةٍ أخرى، قَصدُهُ الاعتِبارُ والتَّأمُّلُ، لا مُجرَّدَ الانتِقالِ والتَّنقُّل، وهذا يوحي بالدَّعوة إلى التَّأملِ والتَّدبرِ في أحوالِ الأمم السّابقة التي كَذَّبت رسُلها، فأهلكهُم اللهُ؛ لأنَّ كُلَّ مَوضعِ أمرَ اللهُ سُبحانه فيه بالسَّير في الأرض؛ سواء كان السَّيرَ الحِسّيَّ على الأقدام و الدَّوابِّ، أو السَّيرَ المعنويَّ بالتَّفكير والاعتبار، أو كان اللَّفظُ يعمُّهما وهو الصَّواب[1].

معنى الفاء في ﴿فَيَنظُرُواْ﴾:

الدَّلالةُ على ترتُّبِ العِبرةِ على السَّيرِ، وتحقُّقِ النَّظرِ بَعدَهُ وبِسَبَبِه

جاءَ الرَّبطُ بينَ جُملتَي السَّيرِ والنَّظرِ بالفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ﴾، وذلكَ ليُفيدَ ترتُّبَ النَّظرِ على السَّيرِ، وكونَهُ غايةً لهُ ومَقصدًا مِن وُجودِه، فلا يكونُ السَّيرُ مُجرَّدَ تنقُّلٍ بَينَ الأقطارِ، بل هوَ سفرٌ لِلعِبرةِ، ورحلةٌ لِلتَّدبُّرِ في مَصارِعِ الأُمَمِ السّابقةِ، فجاءَتِ الفاءُ دالَّةً على أنَّ النَّظرَ يَأتي عَقيبَ السَّيرِ، وبسببِه[2].

دلالة التَّعبير بالمُضارع ﴿فَيَنظُرُواْ﴾:

الدَّلالةُ على تجدُّدِ العِبرةِ، باستمرارِ مُشاهَدَةِ عاقبةِ الهالِكينَ

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارع ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ لتَنْبيهِ العُقولَ إلى تجدُّدِ استِحضارِ مَشاهِدِ الهالِكينَ واستمرارِها، وجَعلِها كأنَّها ماثلةٌ أمامَهم، يُبصِرونَها بأعيُنِهم، ويَشهَدونَها مُعايَنَةً، لِما للمُشاهَداتِ الحسّيَّة من

---

(1) ابن القيِّم، بدائع التَّفسير: 2/ 454، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سُورة مُحمّد ﷺ: 6/ 270.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 212.

آثارٍ في النُّفوس، ونتائجَ لدى ذوي العقولِ إذا تدبَّروها واعتبروا بها؛ إذْ لم تَزَل آثارُها ناطِقَةً بما جَرَى على أهلها، وشواهِدُها قائمةً تُخبِرُ عن مَصارِعِهم، فكأنَّها تَنبِضُ بالحِكَم، وتَروي للأجيالِ أخبارَ مَن سَبَق، فهل مِن مُدَّكِرٍ يَتَّعِظُ، أو مُتفكِّرٍ يَرتَدِع[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ عن التأمُّلِ بالنَّظر:

تصويرُ العِبرة كالمُدرَكِ بالبَصَرِ استحضارًا لقوّةِ التَّأمُّلِ والتَّفكُّر

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ (النَّظرِ) في قولِهِ تعالى ﴿فَيَنظُرُواْ﴾، والمُرادُ بهِ التَّأمُّلُ والتَّفكُّرُ؛ إذ شُبِّهَ إدراكُ العِبرةِ بالتَّأمُّلِ، وإعمالُ الفِكرِ بالنَّظرِ الحسّيِّ، بجامعِ قوَّةِ الإدراكِ في كُلٍّ، ثمَّ اشتُقَّ مِن هذا النَّظرِ الحسّيِّ نظرٌ آخَرُ مُرادُهُ التَّدبُّرُ والتَّفكُّرُ، وذلكَ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التبعيَّةِ. وكانَ في هذا التَّعبيرِ بديعُ البيانِ؛ إذ صوَّرَت العِبرةُ والموعِظَةُ بما هوَ مَرئيٌّ مُشاهَدٌ، فيكونُ إدراكُها واضِحًا كوضوحِ الشَّيءِ المُدرَكِ بالبَصَرِ، وكأنَّ مصارِعَ الهالِكينَ كالمَرئيِّ الذي تُدرِكُهُ الأعيُنُ، وتَشهَدُهُ الأبصارُ[2].

بلاغةُ الاستفهامِ بـ ﴿كَيۡفَ﴾:

حلولُ الهلاكِ يَنبغي أن يُتدبَّرَ، ويتأمَّله النُّظّارُ، ويَعتَبِرَ بهِ أولو الأبصار

جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿كَيۡفَ﴾ في قولِهِ تعالى ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ على سبيلِ الاستفهامِ التَّعجُّبيِّ، ليُثيرَ في السّامعين الدَّهشةَ مِمّا حلَّ بالأُممِ الغابِرةِ مِن نَكالٍ وبأسٍ؛ إذْ كانت وقائعُهُم مُذهِلةً، تُزلزِلُ القُلوبَ، بما حوَتهُ مِنَ الآياتِ السّاطِعةِ، الَّتي نَطَقَت بها آثارُهم بعدَ أن أفنَتهم قوارعُ العقوباتِ، فجاءَ النَّظمُ القُرآنيُّ مسوقًا في أسلوبِ الاستفهامِ التَّعجبيِّ، إيذانًا بأنَّ ما حلَّ بهم مِن خُسرانٍ وهلاكٍ أمرٌ عظيمٌ، يَنبغي أن يُتدبَّرَ، ويَتأمَّله النُّظّارُ، ويَعتَبِرَ بهِ أولو الأبصارِ[3].

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 53/ 26.

(2) ابن وهب، تفسير ابن وهب: 2/ 315، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 234، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 26/ 5201، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سُورة مُحمّد ﷺ: 6/ 270.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 212.

معنى ﴿مِن﴾ في القيد: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

ما وقعَ بِبعضِ المُجرِمينَ كافٍ للعِبرةِ والموعِظَة

جاءَ التَّعبيرُ في قوله تعالى ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ بإثباتِ حرفِ الجَرِّ ﴿مِن﴾، ليُفيدَ أنَّ هؤلاءِ المأمور بالاعتبار بهم والَّذينَ أصابَهُم العَذابُ ليسوا كُلَّ المُكَذِّبينَ، وإنَّما هُم بعضُهم، بل بعضُ مَن كَذَّبوا الرُّسُلَ على وُجوهٍ شتَّى، وهمُ الذينَ شَهِدَ أهلُ مكة آثارَهُم، وعايَنوا مَدارِسَهُم، وسمِعوا أخبارَهُم؛ مِن عادٍ وثَمودَ ومديَنَ وقَومِ لوطٍ، فكانَت بَقايا آثارِهم شاهِدَةً عليهم، وآياتُ الهَلاكِ في ديارِهم ناطِقةً بعِقابِهم، فجاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿مِن﴾ دالًّا على التَّبعيضِ، وإشعارًا بأنَّ ما وقعَ ببعضِ المُجرِمينَ كافٍ للعِبرةِ والموعِظَة، فكيفَ لو اعتَبَروا بِجميعِ المُهلَكينَ[1].

بلاغة فصل جُملة ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ عن سابقتها:

في تصويرِ الدَّمارِ النّازِلِ على المُجرِمينَ بيانٌ لمآلِ كُلِّ مُعرِضٍ عن هُدى الله

أبانَ النَّظمُ الكريمُ عاقبةَ المُهلَكينَ بطريق الاستئنافِ البيانيِّ في قولِه تعالى: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾، وجاءَت هذه الجُملةُ مفصولةً عن السّابقة، ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾، وذلكَ لِما بينَهما من شبهِ كَمالِ الاتِّصالِ؛ إذْ جاءت الجُملةُ الثّانيةُ جوابًا ضمنيًّا للسُّؤالِ المُتضمَّنِ في الأولى، وكأنَّهُ قيلَ: وما الذي حلَّ بهِم؟ فأتَى الجوابُ: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾، وجاءَ البيانُ مُفيدًا أنَّ الهلاكَ استأصَلهم استئصالًا، وأبادَهم إبادةً لا بَقاءَ بعدها، وفي ذلكَ من عِظَمِ الإعجازِ البيانيِّ ما يُرهِفُ الأسماعَ؛ إذْ صوَّرَ الدَّمارُ كأنَّهُ شيءٌ نزلَ عليهم من علٍ، فحاقَ بهم من كلِّ جانبٍ، وأتى على أنفُسِهم وأهليهم وأموالِهم، فلم يَبقَ لهُم أثرٌ يُذكَر، فهكذا كانَت عاقبةُ المُجرمينَ، وهكذا يكونُ مآلُ كُلِّ مُكذِّبٍ مُعرِضٍ عن هُدى اللهِ، فهل مِن مُتَّعِظٍ يَنظر، أو مُتدبِّرٍ يعتبر[2].

(1) ابن عطيّة الاندلسي، المُحرّر الوجيز: 5/ 112، والبقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 212، والحجازي، التّفسير الواضح: 3/ 463.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 212، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 201، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 502.

سرُّ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿دَمَّرَ﴾:

مَنْ حاقَ به سوءُ العَذاب، فلا باقيَة لهُ تُذكَرُ، ولا أثَر يُعرَفُ

جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿دَمَّرَ﴾ بصيغَةِ الفعلِ الماضي؛ إذْ هو أدلُّ على التَّحقيقِ والوقوعِ، وجاءَ بتضعيفِ الميم، ليُفيدَ شِدَّةَ التَّدميرِ، واستئصالَ أثرِ المُهلَكينَ استئصالًا لا قيامَ بعدَهُ، وكأنَّه يُصوِّرُهم وقد حاقَ بهِم العَذابُ، فلا باقيَةٌ تُذكَرُ، ولا أثَرٌ يُعرَفُ[1].

نكتةُ إسنادِ الفعلِ إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾:

إظهارُ هيبةِ العقوبةِ وعِظَمِ الأخذِ

قولهُ تعالى ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾، أي: الملك الأعظم، وأُسند الفعلُ إلى الاسم الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ ليُفيدَ هيبةَ العقوبةِ، وعِظَمَ الأخذِ؛ فإنَّ للّه ﷻ البطشَ الشَّديدَ، والأمرَ النّافذَ، فلا يُرَدُّ قَضاؤه، ولا يُدفَعُ عذابُه[2].

الغرضُ من حذفِ المفعولِ به في ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ﴾:

الدَّلالةُ في تعميمِ التَّدمير، والمبالغةُ في الوعيدِ وشدَّةِ التَّهديدِ

جاءَ حَذفُ المفعولِ في قولِه تعالى ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ ليُفيدَ التَّعميمَ والشُّمولَ، فلا يَقتَصِرُ التَّدميرُ على أمرٍ دونَ أمرٍ، بل يَمتَدُّ إلى كُلِّ ما يَختَصُّ بهم مِن أنفُسٍ، وأموالٍ، وأهْلينَ، وأولادٍ، استئصالًا لا يُبقي لهم باقيَةً، وقد جاءَ الحَذفُ اختصارًا وإيجازًا، فجاءَ اللَّفظُ القُرآنيُّ موجَزًا، مُفيدًا المُبالغة في المعنى، وكأنَّ التَّدميرَ كانَ مِن الشِّدَّةِ بحيثُ لا تُدرِكُهُ العُقولُ، ولا يُحيطُ بهِ وصفٌ، فكانَ الحذفُ أبلَغَ في التَّهديدِ، وأشدَّ في الوعيد[3].

معنى (على) في ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾:

المُبالغةُ في تصويرِ الإطباقِ والإهلاكِ بلا فِكاكٍ ولا نَجاةٍ

جاءَ التَّعبيرُ في قولِه تعالى ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ بإثباتِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِمۡۖ﴾، وذلكَ لإضفاءِ مزيدٍ من الإحاطةِ والاستئصالِ في التَّدميرِ، فقد تضمَّنَ ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ معنى الإطباقِ والإحاطةِ، وكانَ الإتيانُ بـ (عَلَى) دالًّا على الإيقاعِ والهُجوم وكأنَّ الدَّمارَ

(1) فاطمة السيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة محمّد ﷺ: 6/ 272.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 212، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سُورة مُحمّد ﷺ: 6/ 272.

(3) الضمدي، الفرات النّمير: 3/ 181، وبهجت صالح، إعراب القرآن الكريم: 9/ 350، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 202.

قد أطبقَ عليهم مِن كُلِّ جانبٍ، فلم يَدَعْ لهُم مَهْربًا، ولم يُبْقِ لهم مُستَمسَكًا، فكأنَّ العذابَ نَزلَ عليهم نزولَ الصّاعقةِ، فلم يُخلِّص ممّا يَختَصُّ بهم أحد، يُقال: دمَّرَهُ: أهلكَهُ، ودمَّر عليه: أهلكَ عليه ما يختصُّ به؛ فَدمَّرَ عليه أبلغُ من دَمَّره[1].

بلاغةُ الكنايةِ عن شِدَّة العذاب بالتَّدمير:

الإيحاءُ بتَناهي العُقوبةِ، والإشعارُ بفَظاعَةِ النَّكال

جاءَ التَّعبيرُ بالتَّدميرِ على سبيلِ الكِنايةِ، مُشيرًا إلى شِدَّةِ العذابِ الَّذي أحاطَ بهم، فلم يُبقِ لهم أثَرًا، ولم يَدَعْ لهم مِن باقيَةٍ؛ إذْ جاءَ الهلاكُ مُطبِقًا على كُلِّ ما يَختَصُّ بهم مِن أنفسٍ وأموالٍ وأهلٍ، فاستأصلَ شَأفَتَهُم استئصالًا، فلم يُبقِ لهم مَلجأً، ولم يَترُك لهُم مَهْرَبًا، وكانَ في هذا التَّعبيرِ إيحاءٌ بتَناهي العُقوبةِ، وإشعارٌ بفَظاعَةِ النَّكالِ[2].

سِرُّ وضعِ الظّاهر مَوْضِعَ المُضمَر بالتَّصريح بذِكْر الكافرين:

إظهارُ العِلَّةِ في استِحقاقِ العقوبةِ، وتحقيقِ الوعيدِ لمُشركي قريش

خُتمتِ الآيةُ بقوله: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ حيث صرَّح بلفظ الكافرين ولم يقُل: (ولهم أمثالها) فهو من قبيل وضعِ الظّاهرِ موضعَ المُضمَر؛ وفي هذا تسجيلٌ عليهم لكُفرهم صراحةً و تنبيهٌ على أنَّه عِلَّةٌ لعقوبتهم، وفيه تنويعٌ للأسلوبِ بالانتقال من مَشاهد الماضي ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ إلى صورةِ الحاضر ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ ليُؤكِّد أنَّ ما حلَّ بالسّابقينَ ليسَ قَصَصًا يُروَى، بل هو وعيدٌ ثابتٌ يَجري على مَن تَشبَّهَ بهم وسارَ على دَربهم، فكأنَّ كُفّارَ قُرَيشٍ يَرَونَ في هلاكِ الأوَّلينَ صورةَ مَصارِعهم، ويُبصِرونَ في مَدارِسِ القُدَماءِ آثارَ هَلاكهم، والظّاهرُ أنَّ اللّام للعَهْدِ، أي: كُفّار قريش، واللّام الجارَّة للتَّهكُّم أو للاستحقاق والاختصاص، وهو بذلك يُحقِّقُ الوعيد لمُشركي مَكَّة الذي توعَّدهُم به[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 202، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 502، وابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 112.

(2) فاطمة السِّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 272.

(3) مكي، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 11/ 6892، والسّيواسي، عيون التّفاسير: 4/ 118، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 17.

في الإظهار تَعميمٌ للحُكم، وتَعليقٌ لهُ بالوَصفِ لا بالأشخاصِ

وقد يُرادُ بالكافِرينَ في قولِه تعالى ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ أولئكَ المُتقدِّمونَ الذينَ حاقَ بهِم العذابُ في الدُّنيا، ولهم في الآخرةِ أمثالُها، وذلكَ على قَولٍ في التَّفسيرِ[1]، أو يكونُ قد عَدَلَ عن الإضمارِ فقالَ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ بدلًا من (ولهؤلاء)، وذلك تَعميمًا للحُكم، وتَعليقًا لهُ بالوَصفِ لا بالأشخاصِ، وهوَ العُتوُّ في الكُفرِ، والعَراقةُ في العِنادِ؛ فكان فيه بِشارةٌ بأنَّ بَعضَهم سيُنْجيهِ اللّه تعالى من أسْبابِ الهَلاكِ؛ لكَونِه ليس عَريقًا في الكُفرِ؛ لأنَّه لم يُطبَعْ عليه[2].

سرّ تقديم الخبر ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾:

من يستر نور الإيمان يستحقّ العذاب

جاءَ تقديمُ المُسنَدِ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ إفادةً للقَصرِ، فَحُصِرَ العذابُ، وهوَ أمثالُ العاقبةِ، فيمَن اتَّصفَ بصفةِ الكُفرِ، وذلكَ تأكيدًا على استِحقاقهم لذلكَ الجزاءِ، وجَزاءً لما سَتَروا بهِ نورَ الإيمانِ، وأعرَضوا عن الهُدى والبيانِ، وفي ذلكَ تخصيصٌ لهذا العذابِ بالكُفّارِ[3].

الغرَضُ من التَّعبير بالمبتدأ مجموعًا مضافًا، وبيانُ مرجع الضَّمير:

في الجمع توكيدٌ للوعيدِ، وتصويرٌ لتعدُّدِ العذابِ وتنوُّعِ صوَرِه

جاءَ التَّعبيرُ بالمبتدأ ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ مجموعًا مُضافًا، مع أنَّ المرجعَ - وهوَ العاقبةُ - مُفردٌ، وذلكَ للمبالغةِ والتَّهديدِ؛ إذ لم يُرِدِ الإخبارَ عن عاقبةٍ واحدةٍ تَلحَقُ بالكافرينَ، بل أرادَ أن يُصوِّرَ شدَّةَ العذابِ بكثرةِ ضُروبِه، وتنوُّعِ صوَرِه، فلا يكونُ لهم منهُ مَهربٌ، ولا عنهُ مَنعةٌ، وقد عادَ الضَّميرُ في ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ على العاقبةِ، فكانَ في ذلكَ إنذارٌ صارخٌ لكُفّارِ مكةَ، الَّذينَ ظهَرَت لهم آياتُ الصِّدقِ، وبَراهينُ النُّبوَّةِ، ومع ذلكَ تمادَوا في العِنادِ، واستَكبَروا عن قَبولِ الحقِّ، فما كانَ إلّا أن حَلَّ بهم من العذابِ ما استوجَبَتْهُ أعمالُهم، فوقعَ عليهم من النَّقمةِ بيدِ رسول اللّه ﷺ وأصحابه ما هو مِثلُ ما حاقَ بالأُمَمِ

(1) البيضاوي، أنزار التّنزيل: 5/ 121، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 94.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 112 - 213.
(3) فاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سُورة مُحمّد ﷺ: 6/ 272.

الغابِرةِ، تحقيقًا لسُنَّةِ اللّه في نُصرَةِ دينه، وإعلاءِ كَلمته؛ فكانتِ العاقبةُ واحدةً، وإنِ اختلفَ الزَّمانُ والمكانُ، فبُعدًا لِلقَومِ المُجرِمينَ[1].

بلاغةُ الاعتراضِ في الجُملةِ الكريمة:

الانتقالُ من ذِكرِ عذابِ السّابقينَ إلى تهديدِ اللّاحقينَ

جُملةُ ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ قد تُحملُ على أنَّها اعتراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وبيْنَ جُملةِ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والمُرادُ بالكافرينَ: (كُفّارُ مكَّةَ)، والمعنى: المقصودُ بالكافرينَ (كفّارُ مكةَ)، والمعنى: وكما نزلَ الدَّمارُ بالمُكَذِّبينَ الأوَّلينَ، فَلكُم أيُّها الكافِرونَ أمثالُهُ إنْ لم تَعتبِروا، ولم تَرعَووا، وفي هذا الاعتراضِ تَصريحٌ بعدَ التعريضِ في قَولِه: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾؛ لِلتَّأْكيدِ بالتَّعميمِ ثمَّ الخُصوصِ[2].

---

(1) النّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 131، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سُورة مُحمّد ﷺ: 6/ 272.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 88/ 26.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾

[محمّد ﷺ: 11]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ العِلَّةِ بعدَ الحُكمِ، وتقريرُ سُنَّةِ اللهِ في نُصرةِ أوليائه وخِذلانِ أعدائه

لمّا أوضَحَ اللّه ﷻ سُنَّتَهُ في نُصرةِ أوليائه وإعلاءِ شأنهم، وإذلالِ أعدائه وخِذلانهم، عقَّبَ ذلك ببيانِ العِلَّةِ الموجِبةِ لِهذا التَّفاضُلِ، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَوۡلَى﴾: (ولي) أَصْلٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ، والمولى يُطلقُ بإزاءِ معانٍ: فالمولى: النّاصرُ والسَّيِّدُ والمنعمُ وابنُ العمِّ والحليفُ، وكلُّ مَن تولَّى أمرَكَ فهو مولاك. والولاءُ يحصلُ لما فيه من معنَى القُربِ من حيث النَّسبُ ومن حيث الدّينُ ومن حيثُ الصَّداقةُ والنُّصرةُ والاعتقادُ، والوليُّ والمولى يُستعمَلان في كلِّ ذلك[2]، والمَعنى في حقِّ اللّه: المُعينُ الذي تَرْكَنُ إليه وتعتمِدُ عليه، وتَحْتمي به عِنْدَ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وفي السَّرّاءِ والضَّرّاءِ[3]، ومعنى مَوْلَى الَّذينَ آمَنوا: أي: وليُّهم وناصِرُهم[4].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

بيانِ ولايةِ الله لأهلِ الإيمانِ، وتركه لأهلِ الكُفرانِ

يُبيِّنُ اللّه جلَّت حِكمتُه أنَّ نُصرةَ المؤمنينَ وهلاكَ الكافرينَ لم يَكُن إلّا لِحِكمةٍ بالغةٍ، وسُنَّةٍ عادلةٍ؛ إذ تولَّى اللّه ﷻ أولياءَهُ بالإعانةِ والنُّصرةِ، فكانَ وليَّهم وحاميَهم، فثبَّتَ أقدامَهم، وأيَّدَهُم بروحٍ منه، وأمّا الكافرونَ فقد خَذلوا أنفسهم بالكُفرِ والجُحودِ، فلم يَكُن

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 213.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيّوميّ، المصباح المنير: (ولي).

(3) الرّاغِبُ، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللّغة: (ولي)، وابنُ قُتيبة، غريبُ القُرآن، ص: 100.

(4) القُرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 234، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 312.

لهم وليٌّ يُنقِذُهم، ولا ناصِرٌ يَحميهم، فتقطَّعَت بهم الأسبابُ، وكانَ مآلُهُم الخِذلانُ والهَلاكُ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

وجهُ التَّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في المطلع:

قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ذلك؛ لتَمييزِ المُشارِ إليه أكمَلَ تَمييزٍ؛ تَنْويهًا به، واسمُ الإشارةِ هذا مُنصَرِفٌ إلى مضمونِ قَولِه: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾، بتَأْويلِ: ذلك المذكور - على قولٍ -؛ لأنَّه يَتضمَّنُ وعيدًا لِلمُشرِكين بالتَّدميرِ، وفي تَدْميرِهم انتِصارٌ لِلمُؤمِنينَ على ما لَقوا منهم مِن الأضرارِ؛ فأُفيدَ أنَّ ما تَوعَّدَهم اللّه به مُسبَّبٌ على أنَّ اللّه نَصيرُ الَّذين آمَنوا، وهو المَقصودُ مِن التَّعليلِ؛ وما بعْدَه تَتميمٌ[2].

التَّعظيمُ لذلكَ الأمـرِ العظيـمِ الذي صنعَهُ الله في الفريقين

جاءَ افتتاحُ الآيةِ الكريمةِ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، وهوَ إشارةٌ إلى البعيدِ، لا لِمُجرَّدِ الإبعادِ، بل لإفادةِ التَّعظيمِ أي: ذلكَ الأمرُ العظيمُ الذي صنعَهُ اللّه في الفريقينِ، مِن نُصرةِ المؤمنينَ وخِذلانِ الكافرينِ؛ إذ كانَ لأهلِ الإيمانِ حُسنُ المعتقدِ، وصلاحُ العملِ، وتثبيتُ الأقدامِ، وحِفظُ الأعمالِ مِن الإحباطِ، ومآلُهُم إلى رِضوانِ اللّه وجِنانه، وأمّا الكافِرونَ، فلم يَكُن لهم إلّا إضلالُ الأعمالِ، وفسادُ العقيدةِ، والصَّدُّ عن سبيلِ اللّه، وكراهيةُ ما أنزلَ اللّه، ومآلُهُم إلى نارِ الجحيمِ وعذابِ السَّعيرِ، وكانَ في تقديمِ اسمِ الإشارةِ "ذلكَ" تَحقيقٌ للتَّرابُطِ اللَّفظيِّ بينَ آياتِ السّورةِ[3]، فَكانَ في افتتاحِ الآيةِ

(1) الواحدي، الوجيز، ص: 1001، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 234.

(2) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 1/ 120، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 76 - 88.

(3) اختار جماعة من المُفسّرين أنّ اسم الإشارةِ يعودُ إلى الفِعلِ الّذي فعله اللهُ تعالى مِن نصرِ المؤمنين وإهلاكِ الكافرين، واختار بعضهم أنه يعودُ إلى ما ذُكِر مِن أنّ للكافرين أمثالها، قال ابن عاشور: "اسمُ الإشارةِ مُنصرفٌ إلى مضمونِ قوله: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾، بتأويلِ: ذلك المذكورُ، ينظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 88/ 26، وينظر كذلك: أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 94/ 8، والشّوكاني، فتح القدير: 5/ 39.

باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إحالةٌ إلى ما سبَقَ مِن الآياتِ، وربطٌ بما لَحِقَ منها؛ إذْ يَمتدُّ مَعناها إلى الآيةِ الثّالثةِ والتّاسعةِ، ويرتَبِطُ بسياقِ ما يَليها، فتَتَناسَقُ معانيها، وتتَتابَعُ دلالاتُها، فيَكمُلُ بها المعنى، وتَتَحقَّقُ بها العِبرةُ والموعظةُ، وفي هذه الآية زيادةٌ عن المعاني السّابقة؛ وهي بيانُ وِلايةِ اللّه ﷻ للمُؤمنينَ، وكيفَ يَتحقَّقُ لهم نَصرُهُ وتَأييدُهُ، وفي المُقابِلِ سَلبُ هذهِ الوِلايةِ عنِ الكافرينَ؛ فلا وليَّ لهُم ولا ناصِر، ولا عِصمَةَ لهُم من سَطوةِ اللّه وبَأسه[1].

معنى الباء في ﴿بِأَنَّ﴾:

الـدَّلالـةُ على الـسَّـبَـبـيَّـةِ في تحقيقِ وِلايـةِ الله للمُؤمنينَ، وتركِهِ للكافِرين

جاءَ قولُهُ تعالى ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بيانًا لِعِلَّةِ ما آلَ إليهِ الفريقانِ مِن نُصرةٍ وهَلاكٍ؛ إذ جُعِلَتِ الباءُ لِلسَّبَبيَّةِ، فأفادَت أنَّ ما حلَّ بالكافرينَ من تدميرٍ وإبادةٍ، وما حَصَلَ للمؤمنينَ من ظَفَرٍ وتَمكينٍ، لم يَكُن إلّا بِسببِ وِلايةِ اللّه لأهلِ الإيمانِ، وتركه لأهلِ الطُّغيانِ[2].

تعريفُ المسند بالعَلَميّة في الاسم الجليل:

توكيدٌ لعظمةِ وِلايـتـهِ لأهـلِ الإيـمـانِ، وخِـذلانـهِ لأهـلِ الطُّغيان

جاءَ تعريفُ المُسنَدِ إليهِ بالاسمِ العَلَمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهَ﴾، وذلكَ لإبرازِ عِظَمِ الأمرِ، وإظهارِ الشَّأنِ، فإنَّ اللّه تعالى هو المَلِكُ المُحيطُ بصفاتِ الكمالِ، الَّذي لهُ الحُكمُ المُطلَقُ، والتَّدبيرُ النّافذُ، فلا يُردُّ قضاؤُه، ولا يُعقِّبُ حُكمَهُ أحدٌ، فكانَ التَّعبيرُ بهذا اللَّفظِ المُقدَّسِ مَزيدَ توكيدِ لعظمةِ وِلايتهِ لأهلِ الإيمانِ، وخذلانه لأهلِ الطُّغيانِ؛ إذْ لا عاصِمَ منهُ إلّا به، ولا ناصِرَ إلّا من عنده، فبيَدِهِ مقاليدُ الأمورِ، يُعِزُّ مَن يشاءُ، ويُذِلُّ مَن يشاءُ، وهو القاهرُ فوقَ عباده، العزيزُ الحكيمُ[3].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 196، والواحدي، الوجيز، ص: 1001، والرّسعني، تفسير الرّسعني: 7/ 255، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 7/ 4.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 43/ 28، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 502، والمراغي، تفسير المراغي: 26/ 54.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 213.

سرُّ التعبير بالجُملة الاسميَّة المؤكَّدة:

التَّقريرُ والتَّوكيدُ اعتناءٌ بشأنِ الحُكمِ الجليلِ

جاءَ التَّعبيرُ بالجُملةِ الاسميَّةِ المؤكَّدةِ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لإفادةِ التَّقريرِ والتَّوكيدِ؛ إذْ كانَ الحُكمُ المذكورُ ممّا يَجبُ أن يستقرَّ في النُّفوسِ، ويتأكَّدَ في القُلوبِ، فلا يَطرُقَهُ شكٌّ، ولا يَعتَريهِ ارتيابٌ، فكانَ في هذا الأسلوبِ مَزيدُ اعتناءٍ بشأنِ هذا الحُكمِ الجليلِ، الَّذي تُبنَى عليهِ مَصائِرُ الفريقين، وتتفرَّعُ منهُ سُنَنُ النُّصرةِ والخِذلانِ، فإنَّه بِولايةِ اللّه ارتَفَعَ المؤمنونَ، وبِسَلبِها سَقَط وهَلَك الكافرون.

سِرُّ تقديم أهل الإيمان بالذِّكر:

تكريمُ أهلِ الإيمانِ وتشريفُهم

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ ذِكرَ المؤمنينَ لِتشريفِهم وتَكريمِهم، فكانَتِ البدايةُ بالإخبارِ بأنَّ اللّه هو وليُّهُم وحاميهم، الَّذي يَتولاَّهُم بالنَّصرِ والتَّثبيتِ، فيَدفعُ عنهُم بأسَ الأعداءِ، ويُظهرُهم عليهم، وأمّا الكافرونَ فلا وليَّ لهُم يَنصُرُهُم، ولا ناصِرَ يدفعُ عنهم عذابَ اللّه إذا نزلَ بهم، فكانَ الخِذلانُ مَصيرَهُم، والهَلاكُ عاقِبَتَهُم، وذلكَ جزاءُ مَن كَفَرَ باللّه، واستَكبرَ عن هُداهُ، فبُعدًا لِلقومِ الكافِرينَ[1].

دلالةُ العطفِ بذِكرِ أهلِ الكُفرانِ بعدَ ذِكرِ أهلِ الإيمانِ:

قُربُ العبدِ من ربِّه يُحقِّقُ النَّصرَ والمدد

جاءَ العطفُ في قولهِ تعالى ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ بالواوِ، لِما بينَ الجُملتينِ من الخبريَّة لفظًا ومعنًى، ولتقابُلِهما في المضمونِ؛ فكما تحقَّقَت وِلايةُ اللّه لأهلِ الإيمانِ، تحقَّقَ انعدامُها للكافرينَ، فصاروا في تيهِ الضَّياعِ بلا ناصرٍ ولا مُعينٍ، وكانَ في هذا العطفِ بيانٌ لِمُلازَمةِ أحدِ الحالَينِ للآخَرِ، فبِقَدرِ ما يَقرُبُ العبدُ من ربّه، يَكونُ لهُ المَدَدُ والنَّصر، وبِقَدرِ ما يَبعدُ، يَكونُ لهُ الخِذلانُ والخُسر.

دلالةُ اختيارِ الاسميَّة في تعريفِ الكافرين:

جاءَ قولهُ تعالى ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دالًّا على مَن اشتدَّت عِراقتُهُ في

---

(1) إسماعيل حقِّي، روح البيان: 8/ 502.

الدَّلالةُ على الرُّسوخِ في الكُفْرِ والعراقةِ فيه

الكُفرِ، ورَسَخَ في الضَّلالِ؛ إذْ جاءَ اللَّفظُ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ اسمًا مُنبِئًا عنِ التَّوغُّلِ في الجُحودِ، والاستِغراقِ في العِنادِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ مَن لم يَتجذَّرْ في الكُفرِ ولم يُغلَقْ على قلبه، فهوَ في مَظِنَّةِ الرَّحمةِ، ومَوردِ اللُّطفِ، فقد يَتدارَكُهُ اللّه بهِدايَته، فيُخرِجُهُ من دياجيرِ الظُّلُماتِ إلى أنوارِ الهُدى[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمُقابلة:

التَّأكيدُ على مُلازَمةِ النُّصرةِ للمُؤمِنينَ، والخِذلانِ للكافِرينَ

جاءَ التَّعبيرُ بالمُقابَلةِ البَليغَةِ في قولِه تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾، حيثُ قوبِلَت ولايةُ اللّه لأهلِ الإيمانِ، بِنَفيِها عن أهلِ الكُفرانِ، فجاءَ ذلكَ مُؤكِّدًا لمُلازَمةِ النُّصرةِ للمُؤمِنينَ، والخِذلانِ للكافِرينَ، ولَمّا كانَ المُؤمنونَ مُتَّصِلينَ بولايَةِ اللّه، مُتمتِّعينَ بتَأييده ونُصرته، جاءَ النَّفيُ في جِهَةِ الكافرينَ نَفيًا لِجِنسِ الوِلايةِ، لِيُفيدَ أمرَينِ عظيمَينِ: أحدُهُما: أنَّ اللّه لا يَنصُرُ الكافِرينَ، ولا يَمدُّهُم برِعايته؛ فقد تَبرَّأَ منهُم، وأعْرَضَ عنهُم. والآخرَ: أنَّهُ لا أحدَ سِواهُ يَنصُرُهُم، ولا مُعينَ لهُم يُغيثُهُم، فَهُم في هَوانٍ مُقيمٍ، وضَياعٍ مُستَديمٍ[2].

سِرُّ المُغايرةِ بَيْنَ المُتقابلين:

إبرازُ شَرفِ الإيمانِ وأهلِه، وتحقيرِ الكُفرِ وأهلِه

جاءَتِ المُغايرةُ في التَّعريفِ بينَ المُتقابلَينِ في قولِه تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾، حيثُ عُبِّرَ عنِ المؤمنينَ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وذلكَ للتَّنويهِ بمقامِهم، وإبرازِ مَحلِّهم مِنَ الكرامَةِ، ومدحِهم بما يَشمَلُ وصفَ الايمانِ من التَّشريفِ، أمّا في جِهَةِ الكافرينَ، فقد جاءَ التَّعبيرُ بالألِفِ واللّامِ في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، المفيدة للجِنسِ، وهوَ دالٌّ على الشُّموليَّةِ والاستِغراقِ،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 213.

(2) القنوجي، فتح البيان: 6/ 322، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سُورة مُحمّد ﷺ: 6/ 277.

لكلِّ مَن وقعَ في دُروبِ الكُفرِ، وفيه إيذانٌ بأنَّ وِلايةَ اللّه مُنتَفيَةٌ عنهُم جميعًا، فكانَ في هذهِ المُغايرَةِ إبرازٌ لِشَرفِ الإيمانِ وأهله، وتَحقيرٌ لشأنِ الكُفرِ وأهلِه، فالمُؤمنونَ مُكرَّمونَ مَمدوحونَ بِنُصرةِ اللّه، وأمّا الكافِرونَ فمُستَغرَقونَ في الهَوانِ، لا مَولَى لهُم ولا نَصير، وشتّانَ بينَ الحالتَينِ، وبُعدًا بينَ المَصيرَين.

معنى المولى في الجُملة الكريمة، وسِرُّ النَّفي بـ﴿لَا﴾ فيها:

لا وِلايــــةَ للكافرينَ لا مِنَ الـلـه، ولا مِـنْ غيره

المولى في الآيةِ الكريمةِ هو الوليُّ والنّاصرُ، وقد جاءَ إثباتُهُ للمؤمنينَ في قولِه تعالى ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ إذْ يتولاّهُم اللّه تعالى بنُصرَته، ويُؤيِّدُهُم بحِفظه، ويُظهِرُهُم على أعدائهم؛ فمَن نَصَرَ دينَ اللّه، نَصَرَهُ اللّه، وأمّا الكافِرونَ، فقد نُفيَ عنهم جنسُ المولى في قولِه ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾؛ إذْ لا ناصِرَ لهُم في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ومَن كانَ اللّه خصمَهُ فأيُّ وليٍّ لهُ بعدَ ذلك؟ فجاءَ النَّفيُ على أبلَغِ وجوهِه؛ إذْ نُفيَ جنسُ المولى عنهم، إيذانًا بأنَّهُ لا وِلايةَ لهم؛ لا مِن اللّه، ولا مِن غيره، فقد أضلَّ أعمالهم، وتركَهُم في تيهِ الخِذلانِ، فَهُم في الهَوانِ أسْرَى، وبِالعَذابِ أولى[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المَوْلى والوَليّ والنَّصير:

الـوِلايَـةُ تَـكـونُ بِـإخْـلاصِ المَـوَدَّةِ، والنَّصْرُ يَـكـونُ بالمَعونَةِ والتَّقْويَة

المولى في حقِّ اللّه المُعينُ الذي تَركنُ إليه وتعتمدُ عليه وتحتمي به عند الشِّدَّة والرَّخاء، وفي السَّرّاءِ والضَّرّاء[2]، والوَليُّ في أسْماءِ اللّه تَعالى خاصٌّ بالمُؤْمنينَ؛ كَقَوْله تَعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البَقَرَة: 257] أمّا المَوْلى فَيُطْلَقُ على المَعْنى الخاصِّ بالمُؤْمنينَ كَقَوْله تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ ويُطلَق أيضًا بالمعنى العامِّ مِثْلَ قَوْله تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [يونُسَ: 30].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/ 44، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 89.
(2) أبو هِلال العسكريُّ، الفُروقُ اللُّغويةُ، ص 284.

ولا تَعارُضَ بَيْنَ الآيَتَيْنِ الكَريمَتَيْنِ؛ إذْ معنى كَوْنه مَولى الكافِرينَ أيْ مالِكُهُم والمُتَصَرِّفُ فيهم بِما شاءَ، ومَعْنى كَوْنِه مَوْلى المُؤْمنينَ دونَ الكافِرينَ: أيْ وِلايَةَ مَحبَّةٍ وتَوْفيقٍ[1].

أمّا النَصيرُ: فَهوَ على وزْنِ (فَعيلٍ) والمَقْصودُ منه اسْمُ الفاعِلِ (ناصِرٌ)، والنّاصِرُ هوَ الذي يُعينُ غَيْرَهُ ويُقَوّيهِ[2]، وقَدْ نَصَرَهُ يَنْصُرُهُ نَصْرًا إذا أعانَهُ على عَدوّه وشَدَّ منه[3] والنَّصيرُ في حَقِّ اللّه تَعالى: المَوْثوقُ منه؛ بِأنْ لا يُسْلِمَ وليَّهُ ولا يَخْذُلُهُ بَلْ يَنْصُرُهُ ويُعينُهُ ويُسَدِّدُهُ، وقَدْ سَمَّى اللّه ﷻ نَفْسَهُ باسْمِ النَّصيرِ فَقالَ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ۝٤٥﴾ [النِّساءُ: 45]، ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٧٨﴾ [الحَجُّ: 78] واللّه ﷻ هوَ النَّصيرُ الذي يَنْصُرُ عِبادَهُ المُؤْمنينَ ويُعينُهُم؛ قال تَعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الرّومُ: 47][4].

(1) مُحمّد الأمين الشِّنقيطي، دفعُ إيهامِ الاضطِرابِ، ص: 89.
(2) أبو هِلال العسكرِيُّ، الفُروقُ اللُّغويةُ، ص 189.
(3) ابن الاثير، النّهاية في غريب الحديث: (نصر).
(4) سعيد القحطاني، شرحُ أسماءِ اللهِ الحُسنى، ص: 222 - 223، بِتصرُّف يسير.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمّد ﷺ: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ولاية الإنسانِ في الدُّنيا علّة جزائه في الآخرة

لمّا بيَّنتِ الآيات السّابقة حالَ المؤمنين والكافرين في الدُّنيا، من حيث بيان ولاية كلِّ فريقٍ منهم لمَنْ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمّد ﷺ: 11]؛ ناسب بيان حال الفريقين في الآخرة، وهو عبارةٌ عن آثار هذه الولاية وجودًا وعدمًا في حقِّ المؤمنين وفي حقِّ الكافرين[1]، وهذه الآية بيان لثمرة ولايته تعالى للمؤمنين الأُخرويَّة بعد بيان ثمرتها في الدُّنيا بالنَّصر، والتَّمكين في الأرض[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَثۡوٗى﴾: أصل (ثوي) يدلُّ على الإقامة مع الاستقرار[3]، والمَثْوَى صيغة تصلح للمصدر الميميِّ من (ثَوى) ولاسمَي الزَّمان والمكان، وقوله: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ اسمٌ لمكان ثوائِهم - والعياذ بالله منها - وسائر ما في القرآن من مفردات هذا الأصل هو (مثوى)، بمعنى مكان الثَّواء والإقامة (جهنَّم) للكفّار بحسبِ السّياق، وسائره للمصدر[4]، ومعنى ﴿مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ أي: منزلٌ ومَقام[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

حالُ المؤمنِ الإيمانُ والعمل، وحالُ الكافرِ شهوةٌ وغفلة

تُبيِّن الآية الكريمة تفضُّل الله تعالى على عباده الَّذين آمنوا به،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 44، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 216.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 955.
(3) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (ثوى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ثوى).
(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 215.

والتزموا طاعته بفعل المأمورات وترك المنهيّات في الآخرة، فيدخلهم جنّات تزدهي بألوان الجمال من أشجار تجري من تحتها الأنهار، والَّذين كفروا، وركنوا إلى الدُّنيا، وغرَّتهم زخارفها، وجرفهم متاعها، فاندفعوا وراء شهواتهم يأكلون، كما تأكل الأنعام نهِمين غافلين، لا يهمُّهم إلّا إشباع بطونهم، وإرضاء غرائزهم، فالنّار مثواهم ودار إقامتهم، يطعمون زقّومها، ويشربون حميمها، ويصطلون بلهيبها جزاء غفلتهم في دنياهم، وبعدهم عن سواء السَّبيل[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ وفائدته:

دخولُ الجنان ثمرةُ ولاية الرَّحمن، والنّيران جزاء مَن والى الشَّيطان

فُصلت جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها استئناف بيانيٌّ، فالجملة في موقع جواب ضمنيٍّ عن سؤال مقدَّر نشأ من قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمد ﷺ: 11]، كأنَّه قيل: (فما آثار تلك الولاية للمؤمنين، وما آثار عَدَمِها في الكافرين؟)[2]، "فبيَّن اللّه أنَّ من ولايته المؤمنين أنْ يعطيهم النَّعيم الخالد بعد النَّصر في الدُّنيا، وأنَّ ما أعطاه الكافرين في الدُّنيا لا عِبرة به؛ لأنَّهم مسلوبون من فقه الإيمان، فحظُّهم من الدُّنيا أكلٌ وتمتُّع كحظِّ الأنعام، وعاقبتُهم في عالم الخلودِ العذابُ"[3].

وفائدة هذا الاستئناف: تكميل المعنى السّابق بالبيان اللّاحق، فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بيانٌ لأحوالهم في الآخرة، بعد بيان أحوالهم في الدُّنيا بتعيين نِسبَةِ كلِّ فريقٍ منهم إلى مقام الوِلاية، فالكافرون لا مولى لهم، والمؤمنون مولاهم اللّه[4].

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 955.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 214.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 89.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 44.

نكتة التَّعبير بصيغة المضارع:

جاء التَّعبير بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لتصوير مشهد الامتنان بإدخال أهل الرِّضوان الجنان، وللدَّلالة على الوقوع المستقبليِّ، فالله لا يخلف الميعاد.

بلاغة استعمال الاسم الموصول:

آثر النَّظم الكريم استعمال الاسم الموصول، في قوله تعالى: ﴿يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لبيان سبب استحقاقهم النجاة - وهو الإيمان - فالإيمان هو أصل كلِّ الأعمال، فإن صلح؛ قُبِل ما بعده.

دلالة العطف ونوعه:

نوع العطف تابعٌ لمعنى الكلام ومضمون الألفاظ

الواو في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للعطف، والعطف اختُلف في معناه، بحسب الاختلاف في تعريف الإيمان، وهل يدخل العمل في مسمَّى الإيمان، فمَن ذهب إلى أنَّ الأعمال من الإيمان - وهو مذهب السَّلف - جعل الواو من عطف الخاصِّ على العامِّ، ومن ذهب إلى أنَّ العمل مغاير للإيمان، جعل الواو للتَّغاير بين المتعاطفين.

بلاغة استعمال مفردة العمل:

المؤمن ساعٍ نحو الصّالحات بنضج الفكر وقوَّة الإرادة

غالب استعمال القرآن عند ذكر الصّالحات أن تكون مقرونة بلفظ العمل، وما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من هذا القبيل، وإيثار العمل لبيان قصديَّته عند العامل، فإنَّ الإيمان هو أصلُ العمل، والقصد عنصر ملازم للإيمان، فمن آمن بشيءٍ؛ قصده، وسعى إليه، فكان في استعمال مفردة العمل إبرازٌ لنضج المسلم، وسعيه نحو ما يؤمن فيه في الحياة.

نكتة تنكير لفظ ﴿جَنَّٰتٖ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿جَنَّٰتٖ﴾؛ لتفخيمها وتعظيم شأنها، وبيان كثرتها، فهي جنّات عظيمةٌ في كونها جزاءً للمؤمنين، وهي منَّةٌ ربِّ العالمين للمتَّقين.

نكتة التَّعبير بصيغة المضارع:

نفوس المؤمنين شديدة التَّرقُّب لـجـزائـهـم في الجنَّة

جاء فعل الجريان في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ مضارعًا، لتصوير مشهد الأنهار وهي تجري باستمرار على الدَّوام، فإنَّ مشاهدَ الجمالِ ترسخ في نفوس أصحاب الجلال من أهل الطّاعة والرِّضوان، فجريان الأنهار بيانٌ لمشهد بديع، فالتَّعبير بالمضارع تصوير له، وتمثيل لما سيكون؛ فإنَّ نفوس المؤمنين مترقِّبة لدخول هذه الجنّات، وممّا يزيدها ترقُّبًا تصوير مشهد الجزاء.

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتها:

بـقـاء الأنـهـار جـاريـةً امتنانٌ عظيم وترغيب جزيل

أفاد حرف ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ توكيد جري الأنهار تحت الجنّان، ويحتمل أن يكون الحرف للابتداء؛ لإفادة أنَّ الأنهار تبتدئ من تحت الجنان، ثُمَّ تجري متفرِّقة، فيفيد ذلك أنَّ ماءها ينبع منها، وليس يجري إليها من مصدرٍ أو موضعٍ آخرَ غيرِها، وذلك كما يقال: هذا النَّهر منبعه من أين؟ فيقال: من عيّن كذا من تحت جبل كذا[1]، ومعنى الابتداء يُظْهِر الأنهار على أنَّها جزءٌ أصيل من تكوين الجنَّة، فيلزم عنه استشعار الدَّيمومة والاستمرار في اطِّراد تلك الظّاهرة من مظاهر النَّعيم.

توجيه تخصيص الأنهار بالذِّكر:

التَّقابل أسلوبٌ بـديـعٌ يُـثـري المشهد، ويُظهر التَّمايز

خصَّ السّياق جريان الأنهار في قوله تعالى: ﴿يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ بالذِّكر؛ وذلك لتقع المقابلة مع جزاء الكافرين بالنّار في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾، فالأنهار رمز الحياة الدّافقة بالبَرْد والسَّلام، والنّار مصدر العذاب، ومَقَرُّ الآلام، فاقتصر على ما هو أصلٌ وعلامةٌ على موارد النَّعيم الأخرى، فحيثما كانت الأنهار نبتت الزُّروع والثِّمار، وأينعت

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 44.

النَّباتات والأشجار[1]، وحيثما كانت النّار لم ينبت إلّا العذاب، وشديد العقاب.

بلاغة اختلاف التَّقابل بين الجمل:

إيمان المؤمنين وأعمالهم يُقابل تمتُّع الكافرين ومشابهتهم الأنعام

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾، اختلف التَّعبير عن حال الفريقين، فلم يذكر حال المؤمنين في الدُّنيا، وذكر حال الكافرين في الدُّنيا بأنَّهم يُشابهون الأنعام في الأكل والتَّمتُّع، فلم يقل: (ويدخل الَّذين كفروا، وعملوا الطّالحات النّار)، وتوجيه ذلك أنَّ حالَ المؤمنين في الدُّنيا مذكورٌ في الآيةِ من وجهين: من جهة الوصف الذّاتيِّ لهم بالإيمان، ومن جهة الوصف السُّلوكيِّ والفِعليِّ بعمل الصّالحات، فهذان الوصفان الذّاتيُّ والفِعليُّ هو حالهم الواقعيُّ في الدُّنيا، وهو السَّبب الظّاهر لإنالتهم ذلك الجزاء، الَّذي كان عبارةً عن الولاية في الدُّنيا، والجنَّة في الآخرة، فلمّا كان وصف الكفر مجملًا يدلُّ على الحال الذّاتيَّة لهم؛ قرنها بحالٍ فعليَّة سلوكيَّة، مقابلةً للحالة الفعليَّة السُّلوكيَّة لأهل الإيمان، في قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

نكتة تخصيص الكافرين بالتَّمتُّع دون المؤمنين:

التَّمتُّع بلا غاية طريق الغواية

لم تذكر الآية تمتُّع المؤمنين بالطيِّبات، كما ذكر تمتُّع الكافرين كيفما اتَّفق لهم كالأنعام[2]؛ وذلك لأنَّ تمتُّع المؤمنين مصروفٌ إلى عمل الصّالحات، فليس مقصودًا لنفسِه، وقد ذكرهم بالعمل الصّالح، وأمّا تمتُّع الكافر؛ فمقصودٌ به التَّمتُّع ذاته لاقتناص اللَّذَّة، فالمُتعةُ مطلوبةٌ لهم، كأنَّهم يعبدونها، ولذا إذا فقد الكافر المتعةَ؛ جزِعَ، فهو بكثرة المُتَع يزداد كفرًا، وبفقدانها يزداد كفرًا، فاستحقَّ البوار والنّار.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 44.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 44.

توجيه تخصيص التَّمتُّع والأكل بالذِّكر:

الغايات معذوقةٌ بعلوم أصحابها ومعارفهم

خصَّ النَّظم من أحوال الكافرين حال الأكل والتَّمتُّع، في قوله تعالى: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ﴾، ولم يقل: (كفروا، وعملوا السَّيِّئات)؛ لأنَّه أراد أن يذكرهم بحالهم الَّتي تمنعهم عن عمل الصّالحات على نهج الإيمان، وهو التَّمتُّع والأكل، كما تفعلُ الأنعام، وهذا أبلغ وأتمُّ في ذمِّهم من غيره، فبعد أن ذكر الَّذين آمنوا، وعملوا الصّالحات؛ قال: (والَّذين كفروا لم يكن مقصودهم عملَ الصّالحات، بل كانت غاية همَّتهم اقتناصَ نزوةِ التَّمتُّع، ولذَّةِ الأكل، كسائر الأنفس الحيوانيَّة، ومن كان كذلك؛ فأنّى يكترث بالإيمان وإصلاح العمل؟).

نكتة تقديم التَّمتُّع على الأكل:

تقديم غاية الكافر على وسيلته بيانٌ كاشفٌ لقبحِ وسائله

قُدِّم ذِكرُ التَّمتُّع على الأكل، في قوله تعالى: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ﴾؛ تقديمًا للأعمِّ على الأخصِّ، والأهمِّ في قصدِهم على المهمِّ، والعطف من باب عطف الخاصِّ على العامِّ، فالتَّمتُّع أوسع من الأكل؛ لأنَّ الأكل بابٌ واحدٌ منه، وتحصيل الاستمتاع لا يقتصر عليه، وتحرّيهم للمُتَع كان هو الغاية الَّتي يتوسَّلون إليها بارتكاب ما عَنَّ لهم، ولو كان مُنْكَرًا قبيحًا في الأقوال والأفعال والأحوال، فقدَّم الغاية على الوسيلة.

توجيه تخصيص الأكل بالذِّكر:

الأكل هو باب المتعة الضَّروريَّة ومفتاح اللَّذائذ

خُصَّ الأكلُ من سائر وسائل التَّمتُّع؛ لأنَّ فيه الإعانة على سائر خصال المُتعة، فلا تتمُّ متعةٌ للنَّفْس إلّا وبطن الإنسان في عافيةٍ من عدم الحاجةِ إلى الغِذاء؛ لأنَّ الحاجة إليه تستلزمُ الوَهَنَ عن تذوُّق المُتَع، ولأنَّ الأكل من المُتَع الضَّروريَّة الَّتي لا يقع لفردٍ الاستغناء عنه، بخلاف سائر المتع فقد يفقدها بعض النّاس، كالنِّكاح مثلًا، ولأنَّ التَّمتُّع بالأكل - عادةً - ما يدلُّ على قابليَّةِ الإنسان وصحَّته وصلاحيَّته للخوض فيما عداه من المُتَع، بل عدم الأكل يكون دليلًا على المرض المانع من إحراز المُتعة.

التَّمتُّع في غفلة يُبقي الأرواح في ضياعٍ دائم

بلاغة التَّشبيه:

في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ تشبيه الكفّار بالأنعام في الأكل[1]، أي: يأكلونه، أي: أكلهم مُشْبِهًا أكْلَ الأنعام، أو يأكلون أكْلًا مِثل أكْلِ الأنعام، والتَّشبيه عبارةٌ عن كثرة أكلهم، وعن غفلتهم عن النَّظر كالبهائم[2]، فأكلهم مجرَّد من الفكر والنَّظر، كما تقول للجاهل: (تعيش كما تعيش البهيمة)، فأنت لا تريد التَّشبيه في مطلق العيش، ولكن في خواصِّه ولوازمه، وحاصله: أنَّهم يأكلون غافلين عن عواقبهم ومنتهى أمورهم[3].

الإحسانُ من غير موجِبٍ يقتضيه من كمال الكرم

نكتة العدول عن الفعليَّة إلى الاسميَّة:

أخبر سبحانه في الآية عن جزاء المؤمنين بصيغة الفعل: ﴿يُدۡخِلُ﴾؛ لكونه وعدًا يجري على معنى الاستقبال، فلزم التَّعبير عنه بالفعل المضارع، وعن جزاء الكافرين بالاسميَّة: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ بصيغةٍ تنبئ عن الاستحقاق؛ لأنَّ المُعذِّب عن غير استحقاقٍ ظالم، وأمّا في مقام الإحسان؛ فالمُحسِن من غير استحقاقٍ كاملُ الفضلِ والرَّحمة، ولا يلزم أن يكون الإحسان عن استحقاقٍ أصلًا[4]، كما أنَّ التَّعبير بالاسميَّة في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾، يُخرِج الكلام مخرج الخبر المحقَّق الَّذي وقع بالفعل، كأنَّهم الآن حاضرون في النّار مقيمون فيها، وهم لا يدرون؛ لأنَّهم كالبهائم يأكلون، ولا يأبهون[5].

تكريمُ المؤمنين بذكر اسم الجلالة في تولّي إدخالهم الجنَّة

نكتةُ الاختلاف في إسناد فعل الإدخال لاسم الجلالة:

خولف في بيان جزاء الفريقين، فأُسنِد فعل إدخال المؤمنين جنّات النَّعيم إلى اسم الجلالة، ولم يكن كذلك في إسناد إدخال

---

(1) صافي، الجدول: 13/ 216.

(2) ابن جزي، التسهيل: 2/ 281.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 202.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 45.

(5) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 334.

الكافرين النّار؛ وذلك لتعليق الوعد باللّه سبحانه؛ إيذانًا بأنَّ اللّه سبحانه هو الَّذي سيتولّى جزاء المؤمنين بنفسه، ففي الإسناد إلى الاسم الجليل إيناسٌ عظيم للمؤمنين يقوّي إيمانهم، ويثبِّت قلوبهم على اليقين بموعود اللّه، وأمّا أهل النّار؛ فأعرض عنهم، فلم يُسنِد إلى نفسه جزاءهم؛ للإشارة إلى أنَّه سبحانه لم يكن يرضى لهم الكفر الَّذي آل بهم إلى النّار.

نكتة تنكير لفظ ﴿مَثۡوَى﴾:

النّكرات في مقام الوعيد تُفزع الأرواح

نُكِّر لفظ ﴿مَثۡوَى﴾، ولم يأتِ معرَّفًا بالإضافة؛ فلم يقل: (والنّار مثواهم)، فقال: ﴿مَثۡوَى لَّهُمۡ﴾؛ ليُفاد بالتَّنوين معنى التمكُّن من القرار في النّار كمنزلٍ ومقام، فقوله: ﴿مَثۡوَى﴾، أي: مثوى قويًّا مُحكمًا لا خروج لهم منه، لكنَّه لم يُضف إليهم، فيقال: (مثواهم)؛ لأنَّ الإخبار عن النّار في هذه الآية حصل قبل مشاهدتها[1]، فهي في سياق الغيب، لم يدخلوها بعد، ولذلك ذكر التَّهويل بالتَّنكير: ﴿مَثۡوَى لَّهُمۡ﴾، أي: إنَّ مأواهم عظيم ومجهول الكيفيَّة من شدَّة العذاب، بخلاف لو قال: (مثواهم)، الَّتي تفيد التَّعيين والتَّخصيص فقط.

توجيه المتشابه اللَّفظيّ بين التَّنكير والتَّعريف:

نظمُ الخبر الوعيديّ يختلف عن الواقع الموصوف

جاء لفظ ﴿مَثۡوَى﴾ نكرةً بخلاف ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [الأنعام: 128]، وذلك لأنَّ التَّنكير هنا قبل دخول النّار، فهو وعيد وتهديد، أمّا في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [الأنعام: 128]؛ فالإخبار وقع بعد دخولهم النّار أو عند مشاهدتها، ولذلك استعمل الإضافة؛ لأنَّ القرار في النّار صار واقعًا وحاصلًا، فلم يعد هناك حاجة إلى التَّهويل بالتَّنكير (مثوًى)، بل صار الخبر قطعيًّا، وعليه: فالفرق بين ﴿مَثۡوَى لَّهُمۡ﴾ و﴿مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [الأنعام: 128] مرتبط بحالة الكفّار وقت الإخبار، أهو قبل دخول النّار أو قبل رؤيتها،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 90.

فيأتي التّنوين للتّهويل والإرهاب، وإفادة التّمكّن من القرار فيها، أو بعد دخول النّار أو عند رؤيتها، فتأتي الإضافة؛ لإفادة التّخصيص والتّقرير النّهائيّ لمصيرهم.

نوع اللّام ودلالتها:

كلٌّ يسعى إلى مأواه الَّذي استحقَّه

اللّام في قوله تعالى: ﴿مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ لام الاستحقاق أو الاختصاص، وهي تفيد أنَّ النّار هي مقرُّهم ومنزلهم ومقامهم الَّذي يستحقّونه؛ بسبب كفرهم وتمتُّعهم بالدُّنيا كالأنعام دون اعتبارٍ للآخرة، وهذه اللّام شبيهة بما في قوله تعالى: ﴿۞لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾ [الأنعام: 127]؛ إذ تفيد اختصاص المؤمنين بدار السَّلام في مقابل اختصاص الكافرين بالنّار.

بلاغة فنِّ الاحتباك:

وراء كلِّ مشهدٍ من العذاب مذكور، مشهدٌ من العذاب مطويٌّ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ احتباك، فذِكْرُ الأعمال الصّالحة ودخول الجنَّة أوَّلًا دليلٌ على حذف الأعمال الفاسدة ودخول النّار ثانيًا، كأنَّه قيل: (يُدخل الَّذين آمنوا وعملوا الصّالحات جنّات، ويدخل الَّذين كفروا وعملوا السَّيِّئات النّار)، وذِكْر التَّمتُّع والمثوى ثانيًا، دليلٌ على حذف التَّقلُّل والمأوى أوَّلًا، كأنَّه قيل: (الَّذين آمنوا أهل تقلُّل واقتصاد في الأكل والتَّمتُّع، والجنَّة مأوى لهم)[1].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 202.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣﴾ [محمّد ﷺ: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقال من التّهديد بعذاب الآخرة إلى التّهديد بالإهلاك في الدّنيا

لمّا بيَّنتِ الآيات السّابقة حال المؤمنين والكافرين في موالاتهم، وحالهم في الآخرة ما بين داخل في الجنَّة وثاوٍ في النّار؛ ناسب في هذه الآيةِ تسلية رسول اللّه ﷺ بأنَّ اللّه يواليه على من خذلوه، وأخرجوه، ويَهزِم مَنْ خذلوه - وذلك عليه هيّن - كما هي سنَّته في الجبابرة العُتاة من أهل الإفساد[1]، فهو انتقال من بيان جزاء أهل النّار، كما جاءت عليه فاصلة الآية السّابقة، إلى بيان جزائهم في الدُّنيا من العذاب الأليم، وهو تهديد بعذاب الإهلاك في الدُّنيا بعد التَّهديد بعذاب الآخرة.

المَعْنى الإجْماليُّ:

قوَّة الأمم لا تدفع عنهم عذاب الله تعالى؛ إن أصرّوا على كفرهم

تُبيِّن الآية الكريمة مخاطبةً رسول اللّه ﷺ، ببيان حال الكثير من القرى الَّتي هي أشدُّ قوَّةً من أهل مكَّة الَّذين أخرجوه منها، فترتَّب على فعلهم هذا أن أهلكهم اللّه ﷻ دون أن ينصرهم من عقابه ناصر، أو أن يجيرهم من عذابه مجير[2]، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكَّة، في تكذيبهم لرسول اللّه ﷺ، وهو سيِّد المرسلين وخاتم النَّبيّين، فإذا كان اللّه، ﷻ، قد أهلك الأمم الَّذين كذَّبوا الرُّسل قبله بسببهم، وقد كانوا أشدَّ قوَّة من هؤلاء، فماذا ظنَّ هؤلاء أن يفعل اللّه بهم في الدُّنيا والأخرى[3]؟.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 45، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 216.
(2) طنطاوي، الوسيط: 13/ 228.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 311.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ تحتمل أن تكون مستأنفةً مسوقةً لتسليتِه ﷺ بمنزلة المَثَلِ له[1]، وتحتمل أن تكون للعطفِ على جملة: ﴿۞أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [محمّد ﷺ: 10]، وما بينهما استطراد اتَّصل بعضه ببعض[2].

تحتمل الواو الاستئناف والعطف بحسب توجيه المعنى

معنى (كأيِّن) ودلالتها البيانيَّة:

كلمة (كأيِّن) تدلُّ على كثرة العدد[3]، وهي كلمة مركَّبَة من كاف التَّشبيه، و(أيٍّ) الاستفهاميَّة المنوَّنة، ثُمَّ هُجِر معنى جزأيها، وصارت كلمةً واحدة بمعنى (كم) الخبريَّة الدّالة على التَّكثير، ويُكنّى بها عن عددٍ مبهم، فتحتاج إلى تمييزٍ بعدها[4]، ولذا يُقال في إعرابها: اسم كناية عن العدد، معناه التَّكثير والتَّعجيب[5]، أي: كثيرٌ من أهل القرى أهلكناهم، والَّذي يظهر أنَّها تُستَعمل في مواطن التَّفخيم والتَّعظيم، ولذلك لم يُعبَّر بأداة (كم) الخبريَّة، فقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ﴾ مقام تهويل وتفخيم ووعيد، كأنَّه قال: وكم من قرية أيَّة قرية، كما تقول:

تكثير القرى المهلكة الَّتي تُلحق العجب بسامع أخبارها دون اعتبار

مررت برجل أيِّ رجل! ووجود (أيٍّ) المبهمة يشعِر بهذا المعنى، والتَّفخيم هنا لله الَّذي أخذ مثل هذه القرى المتجبِّرة العاتية الظّالمة[6] والتَّهويل للوعيد.

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾:

﴿مِّن﴾ قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾، بيانيَّة، جاءت لبيان المقصود

بيان كثرة الأمم الهالكة يورِّث الرَّهبة لأصحاب العقول

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 207.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 90.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 90.
(4) طنطاوي، الوسيط: 13/ 228، والسامرائي، معاني النحو: 2/ 341.
(5) قباوة، المفصل، ص: 1793.
(6) السامرائي، معاني النحو: 2/ 343.

بعد (كأيِّن)، واستعمالها شائع بعد ألفاظ التَّكثير، مثل قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ﴾ [البقرة: 249]، فإنَّ (كأيِّن) كناية عن العدد الكثير، و﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾ بيان أنَّ الكثرة المقصودة هي القرى، أي: (وكثير من القرى أهلكناها)، وأكثر العرب لا يتكلَّمون بأداة (كأيِّن) إلّا أتى بعدها (من)، ولم ترد في القرآن إلّا كذلك[1].

دلالة التَّمييز في قوله: ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾:

تمييزُ الكلام وتفسير الألفاظ يُعيِّن مقصودَ الآيات

كلمة ﴿قَرۡيَةٍ﴾ في الآية جاءت تمييزًا بعد (كأيِّن)؛ لتفسير المقصود منها، فـ(كأيِّن) كلمة تُفيد التَّكثير، لكنَّها تحتاج إلى توضيح (ما هو الكثير؟)، فجاء التَّمييز بـ ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾؛ ليبيِّن أنَّ المقصود بالكثرة: القرى الَّتي أصابها الهلاك، فهنا لفظ التَّمييز يحمل دلالة التَّخصيص بعد التَّعميم، فكلمة (كأيِّن) أفادت الكثرة عمومًا، ثُمَّ جاء التَّمييز ليخصِّص هذه الكثرة بفئةٍ معيَّنة، وهي القُرى، ممّا يجعل الصّورة أوضح وأجلى في ذهن المخاطَب.

توجيه إفراد لفظ: ﴿قَرۡيَةٍ﴾:

المفرد النَّكرة في سياق الكثرة يَنُمُّ على كثرةِ الأفراد الهالِكة

قوله تعالى: ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾ تمييزٌ لأداة (كأيّن)، والأصل في التَّمييز الإفراد، سواء كان المميَّز (المبهم) مفردًا أو جمعًا، فالتَّمييز يفسِّر معنى المميَّز دون أن يتطابق معه في العدد؛ لأنَّ التَّمييز يوضِّح النَّوع لا العدد[2]، فالمعنى على الجمع: (كثير من القرى)، ولا يُقال: (كأيِّن من قرى)؛ لأنَّه لم يرد تمييز (كأيِّن) إلّا على الإفراد[3].

وإفراد التَّمييز أكثر في الاستعمال، وأبلغ في المعنى من الجمع؛ وذلك لأنَّ المفرد المجرور يقع تمييزًا للمئة، والألف، فتقول: (مئة رجل و(ألف رجلٍ)، أمّا الجمع المجرور؛ فيقع تمييزًا للعدد من الثَّلاثة إلى العشرة، أي: للقلَّة نحو ثلاثة رجال، وعشرة رجال، كما أنَّ التَّمييز

(1) السامرائي، معاني النحو: 2/ 341.
(2) هبود، مصباح السالك: 2/ 295.
(3) السامرائي، معاني النحو: 2/ 341.

إذا وقع جمعًا؛ فإنَّه يتأوَّل على الواحد المفرد، كما يُقال: (كم رجالٍ أكرمت!) فهو على تأويل مفرد: (كم جماعةٍ من الرِّجال أكرمت!)[1]، فالإفراد أتمُّ في دلالته على العموم منه من دلالة الجمع عليه.

نكتة المجاز بحذف المضاف:

اللّفظ القرآنيّ تعبيرٌ عن حقائق مقصودة ومعانٍ مرادة

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾، إمّا أن يكون من باب المجاز بحذف المضاف، والتَّقدير: (وكأيِّن من أهل قريةٍ)، وقرينة الحذف، قوله: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾، أي: أهلكنا أهلها، ونكتة الحذف إفادةُ الإحاطة والشُّمول، أي: إنَّ العذاب لم يُصِب فئةً معيَّنةً من أهلها، بل شَمِلَ الجميع بدون استثناء، حتّى كأنَّه أصاب القريةَ نفسَها جدرانَها ومبانيها ورُقْعَتَها؛ فأنّى لأحدٍ من أهلها أن ينجو، أو يَفْلِت، فحذْفُ المضاف أُريد به تعميم المسؤوليَّة على كلِّ مَن فيها سواء كانوا مباشرين أم متواطئين بالصَّمت[2].

نكتة المجاز المرسل:

الوعيد بالإهلاك يشمل كلَّ ملاصقٍ لسببه

وإمّا أن يكون قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾، من باب المجاز المرسل، فأطلق القرية، وأراد أهلها، وعلاقته المحلّيَّة؛ إذ أطلق المحلَّ، وهي القرية، وأراد الحالَّ بها، ونكتته تعميم الإهلاك الواقع على القرية، فهو يُصيب القرية كاملةً بما يشمل أهلها وبنيانها وأموالها وكل ما هو فيها، وهذا أبلغ في الوعيد؛ إذ لن تبقى لهم باقية، ولن يعرف اللّاحقون شيئًا عن تفاصيلها، مهما حاولوا التَّنقير والتَّنقيب، فبحثهم لن يصل إلى شيءٍ من المعرفة التَّحقيقيَّة مع قريةٍ أهلكها الله تعالى، وعلى هذا التَّوجيه، يصدق أن يكون الكلام على حقيقته، ويقرب أن يكون مقصودًا لذاته، لا على مجازه.

(1) السامرائي، معاني النحو: 2/ 339.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 90.

بلاغة تركيب ﴿أَشَدُّ قُوَّةً﴾:

التَّفضيل بالشِّدَّة يُعزِّز الوعيد، ويُعمِّق عِبرة الإهلاك

مجيء التَّفضيل من الفعل الدّالِّ على الشِّدَّة، في قوله: ﴿أَشَدُّ قُوَّةً﴾ أبلغ من أن يقال: (أقوى)[1]؛ لاجتماع التَّفضيل والمصدر في تعبير الآية، بخلاف اسم التَّفضيل وحده في (أقوى)، وزيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، فقوله: ﴿أَشَدُّ قُوَّةً﴾ أعلى في مستوى التَّفضيل من أن يُقال: (أقوى)؛ لكونه يجمع بين التَّوكيد والتَّفضيل، وليس مجرَّد التَّفضيل المجرَّد، وهو ما يُناسب السّياق التَّحذيريَّ والتَّرهيبيَّ؛ فهذا التَّعبير يؤكِّد عظمة القوَّة الَّتي لم تغنِ عن القرى شيئًا، فيُعزِّز معنى العبرة والعظة في نفس السّامع.

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالتها:

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرۡيَتِكَ﴾ هي ﴿مِّن﴾ التَّفضيليَّة، لابتداء غاية التَّفضيل[2]، وهي حرفٌ واصل بين المفضِّل والمفضَّل عليه، وغاية التَّفضيل هو ما بعد أفعل ﴿قَرۡيَتِكَ﴾.

دلالة التَّعبير عن مكَّة بقريتك:

إخراجُ النّاسِ من ديارِهم ظلْمٌ يستوجبُ الغضبَ والعذاب

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن مكَّة بأنَّها قرية، وعرَّفها بإضافتها إلى الضَّمير العائد إلى رسول الله ﷺ، في قوله تعالى: ﴿مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾؛ وذلك ليوافق ذكر لفظ ﴿قَرۡيَةٍ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾، ففيه تلويح باقتراب العذاب الشَّديد، فما وقع على القُرى قد يقع على قريتك، ولإكسابهم أهل مكَّة التَّقبيح بكونهم أخرجوه من قريته؛ لإظهار القطيعة الأخلاقيَّة بين النَّبيِّ وأهلها؛ لأنَّهم أخرجوه رغم أنَّه ابنها (ابن هذا البلد)، فهذا فيه مذمَّة لهم، بأنَّهم معتدون ظالمون.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 19.
(2) قباوة، المفصل، ص: 1793.

دلالة التَّعبير بالاسم الموصول:

نُعِتت القرية بالصِّلة في قوله تعالى: ﴿قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾؛ لتعليل مضمون الوعيد في السّياق، فإخراجهم للرَّسول ﷺ هو علَّة استحقاقهم الوعيد والتَّهديد بمن سبقوهم في الهلاك والعذاب، كما أنَّ الموصول يُفيد العهد الذِّهنيَّ، فالقرية الَّتي خرج منها هي مكَّة، كما أنَّ التَّعريف بالصِّلة هنا أفاد تحقيرهم بمضمونها واستهجانهم بها والتَّعريض بهم على ارتكابها، فقوله: ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ ذمٌّ لأهل مكَّة وتشنيعٌ عليهم، وتسجيلٌ لما ارتكبوه من إخراج الرَّسول، كما يقول القائل بقصد الذَّمِّ: هذه هي البلد الَّتي تطرد علماءها وصفوةَ عقولها، فالموصول وصلته في قوله: ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ كناية عن العقوق لِمَن هو الأحقُّ بالبِرِّ والأولى بالإحسان.

تعليل التَّعريض بالعذابِ بسبب محاربة الرَّسول بطرده من بلده

بلاغة الاستعارة المكنيَّة:

أُسنِدَ الإخراج في قوله سبحانه: ﴿قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ إلى القرية، والذي قام بفعل الإخراج هم المشركون، والآية لم تذكر المشركين، بل أسندت الإخراج إلى ﴿قَرۡيَتِكَ﴾، فشُبِّهت (مكَّة) بشخص يطرد، والمشبَّه به محذوف، وذُكِر لازمٌ من لوازمه، وهو الإخراج، على سبيل الاستعارة المكنيَّة، والغرض البلاغيُّ من الاستعارة: تقريع المشركين؛ لأنَّهم جعلوا بلدهم، كأنَّها تطرد نبيَّها بدلًا من احتضانه، وتجسيد القسوة والظُّلم، كأنَّ مكَّة نفسها تتحوَّل إلى كائنٍ يطرد النَّبيَّ ﷺ، وهذا أبلغ من مجرَّد ذِكر المشركين لما فيه من تشخيص مكَّة وتجسيدها، وإثارة المشاعر؛ إذ يجعل السّامع يتخيَّل البلد نفسَها، وهي تتنكَّر لرسولها، ممّا يزيد التَّأثير العاطفيَّ تجاه المشهد المقصوص، إذًا الغرض منها التَّوبيخ، وتقوية التَّصوير، وإثارة العاطفة تجاه ما حدث للنَّبيِّ ﷺ.

تشخيص المكان أقوى في الذِّهنِ من السَّرد الخبريِّ

بلاغةُ المجاز العقليِّ:

نسبةُ الأفعال للمكان يكشف المسؤوليَّة الجماعيَّة عن الأفعال

في قوله تعالى: ﴿أَخۡرَجَتۡكَ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ إذ أُسنِد الإخراج لمكَّة، وهو في الحقيقة مسندٌ إلى أهلها، فالإسناد مجازيٌّ؛ إذ أُسنِد الإخراج إلى ﴿قَرۡيَتِكَ﴾، والعلاقة مكانيَّة؛ لأنَّ مكَّة كانت هي المكان الذي وقعت فيه أحداث الأذى والاضطهاد الَّتي أدَّت إلى الإخراج، وهذا المجاز يعطي بُعدًا بلاغيًّا قويًّا؛ إذ يجعل البلد كلَّه، وكأنَّه مسؤول عن الإخراج، وليس فقط فئة معيَّنة من أهلها.

بلاغة الكناية:

الإخراج إشارةٌ إلى قسوة مُضاعَفة سبَقَتِ الرَّحيل الفِعليَّ

دلَّ فعل ﴿أَخۡرَجَتۡكَ﴾ على لازمه وهو الإيذاء، فهذا الفعلُ كنايةٌ عن سوء معاملة أهل مكَّة للنَّبيِّ ﷺ، بحيث لم يكن له بدٌّ من الخروج، فالإخراج مقترنٌ بلازم معناه، وهو الأذى والمضايقات الَّتي جعلت بقاءه مستحيلًا، فاضطرَّ إلى الخروج بنفسه، فذِكْر (الإخراج) مستلزمٌ للسَّبب الحقيقيِّ، وهو الإيذاء والمقاطعة الَّتي جعلت الهجرة أمرًا لا مفرَّ منه، وبلاغة الكناية تتمثَّل في التَّنبيه على حالة الإقصاء المعنويِّ الَّتي سبقت حالة الخروج الفعليِّ.

بلاغة الاستعارة التَّصريحيَّة:

الاضطهاد المؤدّي للخروج هو إخراج، وإنْ لم يَنْوِه صاحبُه

في قوله تعالى: ﴿أَخۡرَجَتۡكَ﴾ - من وجهٍ آخر - استعارة تصريحيَّة تبعيَّة، حُذِف منها المُشبَّه، وصُرِّح بالمشبَّه به؛ إذ شبَّه سببَ خروج النَّبيِّ بنفسه من مكَّة، وهو الأذى والاضطهاد وسوء المعاملة بالإخراج، ثُمَّ أطلق عليه فعل ﴿أَخۡرَجَتۡكَ﴾، فشبَّه سبب الخروج بالإخراج، وليس ذلك بإخراج في الحقيقة، وإنَّما هو خروج، فالنَّبي ﷺ لم يُخرج من مكَّة، بل قرَّر الهجرة؛ بسبب اضطهاد المشركين له، بل المشركون كانوا يريدون منعه من الخروج، لا إخراجه بالقوَّة؛ لأنَّهم خافوا أن يجد له أنصارًا خارج مكَّة، فالإخراج لم يحصل أصلًا، بل الَّذي حدث هو خروج النَّبيِّ ﷺ بنفسه، وعليه: فالإخراج

في قوله: ﴿أَخۡرَجَتۡكَ﴾ مستعار لمعاملة المشركين السَّيِّئة؛ لأنَّها كانت السَّبب في الخروج، وعلى هذا الوجْه الاستعاريِّ، فليس في قوله: ﴿أَخۡرَجَتۡكَ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّه ليس هناك إخراج حتَّى يُقال: إنَّ السَّبب صار بمنزلة الفاعل الحقيقيِّ[1].

نوع الفاء ودلالتها:

لا خلاص للمُهلَكين لا بأنفسهم، ولا بالأنصار من الأغيار

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾: للعطف على جملة ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾، فهي لِترتيب ذِكْر ما بالآخر، على ذكر ما بالذّات[2]، أي: إنَّها ترتِّب العجزَ عن النَّجاة بالآخر، وهم الأعوان والأنصار في قوله تعالى: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾، على العجزِ عن النَّجاة بالذّات، أي: بأنفسهم دون نصرة أحد، في قوله: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾.

غرض التَّفريع بالفاصلة:

إذا هلك المتجبِّر الأقوى؛ فلا أمل لمن دونه في النَّجاة

خُتِمت الآية بنفي النّاصر لأهل مكَّة؛ إذا نزل بهم العذاب، في قوله تعالى: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾؛ ففيه زيادةٌ في الوعيد؛ لأنَّ الأمم السّابقة كانت أشدَّ قوَّةً من قريش، ورغم ذلك هلكت، فإذا كان الأقوى قد هلك، فهلاك الأضعف أقرب وأدنى من الوقوع، وهم قريش، كما أنَّ السّياق السّابق كان يتحدَّث عن تهديدهم بالسَّيف، في قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمّد ﷺ: 4]، وربَّما توهَّموا أنَّهم محصَّنون بجيشهم أو بحرمة مكَّة، فجاءت هذه الآية؛ لتزيل الغرورَ والاستبعاد من نفوسهم، فربَّما استخفّوا بوعيد السَّيف، ولم يستكينوا لهذا التَّهديد، فأعلمهم اللّه أنَّ قرى كثيرة كانت أشدَّ قوَّة من قريتهم أهلكهم اللّه، فلم يجدوا نصيرًا[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 91.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 203.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 91.

دلالة النَّفي بأداة (لا):

النَّفي في قوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ هو نفي الجنس، فـ(لا) هنا هي النّافية للجنس، ونفي الجنس يدلُّ على نفي الوجود والإمكان، أي: لا يوجد أحدٌ ينصرهم، ولا إمكانَ لوجود ذلك.

بلاغة التَّعريض في لفظ ﴿نَاصِرَ﴾:

نصرُ المؤمنين وعْدُ الرَّحمن، كما أنَّ عذاب المشركين وعيد الجبّار

ذِكْرُ النّاصر في قوله تعالى: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾، بعد قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾؛ إيماءٌ إلى نصرة المؤمنين؛ لأنَّ النّاصر الحقيقيَّ هو اللّه تعالى، وعليه: فلا ينصر اللّه أحدًا كفر به، وعصاه، وإنَّما ينصر من آمن به، وأطاعه، وكذلك هو تعريض بتأييس المشركين بأنَّهم لن يجدوا ناصرًا ينصرهم في حربهم للمسلمين، مهما ظنّوا أنَّهم أقوياء بتأييد قبائل العرب وتحالفهم معهم، بل لن يكون لهم ناصر؛ إذا نزل بهم العذاب أو الهزيمة، ولهذا الظنِّ حزَّبوا الأحزاب في وقعة الخندق، ورغم هذا التَّحالف القويِّ، لم يحقِّقوا نصرًا، بل فشِلوا، وتفرَّقوا؛ بسبب الرّيح والخلاف الدّاخليِّ، فالجملة عبارة عن إنذارٍ خفيٍّ وتهديد للمشركين في مكَّة بأنَّ مصيرهم سيكون مثل من سبقهم؛ إذا استمرّوا على نفس مِنوالهم في الكفر والعناد(1).

بلاغة التَّعبير باسم الفاعل:

نصرُ المعاندين منفيٌّ إلى يوم الدّين

اسم الفاعل المنفيِّ ﴿نَاصِرَ﴾ متمحِّضٌ في الاسميَّة، فيدلُّ على الذّات المنفيَّة وجودًا وإمكانًا؛ فلذلك لا يُقصَد تضمُّنه لزمنٍ ما؛ لأنَّه غير مرادٍ به معنى الفعل، ولا التفات فيه إلى زمن من الأزمنة الثَّلاثة، وعليه فاسم الفاعل هنا يدلُّ على الثُّبوت واللُّزوم، أي: ثبوت حكم النَّفي ودوامه في عدم وجودِ من ينصرهم(2).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 91.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 92.

نكتة الإطناب في الوعيد:

تكرار الوعيد يزيد من قوَّة التَّحذير والتَّوبيخ

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ إطنابٌ في الوعيد مُؤكِّد ومقرِّر لمضمون ما عُطِف عليه - على وجهٍ - وهو قوله تعالى: ﴿۞أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠﴾ [محمّد ﷺ: 10]، فهذه الآية ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ جاءت تأكيدًا لما سبق، لكنَّها أضافت تفاصيل جديدة تتعلَّق بإهلاك الأمم السّابقة، الَّتي كانت أشدَّ قوَّة من قريش؛ ليفهموا أنَّ إهلاك هؤلاء هيِّنٌ على الله، ممّا يزيد من حجَّة التَّوبيخ والتَّهديد[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 90.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ١٤﴾ [محمّد ﷺ: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

اخـتـلاف المعتقدات أصل الافـتـراق في الآخرة

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة التّباين بين أحوال المؤمنين والكافرين في الدُّنيا والآخرة؛ ناسب أن يُبيِّن في هذه الآية تباينهم فيما أدّى بهم إلى اختلاف الأحوال والمصير، وهو اختلافهم في أصل العمل وأساس الاعتقاد.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَيِّنَةٍ﴾: أصل (بين): هو انكشاف الشَّيء البعيد محلًّا أو القريب المختلط بغيره محلًّا أو شبهًا، يقال: بان الشَّيء وأبان؛ إذا اتَّضح، وانكشف[1]، وذلك أنَّ الشَّيء لا ينكشف اتِّضاحًا حتّى ينفصل عن غيره بُعدًا وفِراقًا، والبيِّنة: الدَّلالة الواضحة، عقليَّةً كانت أو محسوسة[2]، وقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي: كان على برهان وحجَّة وبيان من أمر ربِّه[3].

المَعنى الإجماليُّ:

تمايُز المصير بين مَن اتَّبع الهدى ومن أضلَّه هواه

تُبيِّن الآية الكريمة أنَّه لا يستوي من هو على بصيرة من أمر دينه، علمًا وعملًا، قد علم الحقَّ، واتَّبعه، ورجا ما وعده اللّه لأهل الحقِّ، مع من هو أعمى القلب، قد رفض الحقَّ، وأضلَّه، واتَّبع هواه بغير هدًى من اللّه، ويرى أنَّ ما عليه هو الحقُّ، فما أبعد الفرق بين الفريقين! وما أعظم التَّفاوت بين الطّائفتين، أهل الحقِّ وأهل الغيِّ[4]!

(1) ابن فارس، المقاييس: (بين).
(2) الراغب، المفردات: (بين).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 199.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 786.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة: ﴿أَفَمَن كَانَ﴾ ممّا قبلها:

المعاني القرآنيَّة مترابطةٌ ترابط الفروع بالأصول الجزئيّات بالكلّيّات

جملة: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تفريعٌ على جملة: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾، فهذه الآية متفرِّعة عن المعنى الضِّمنيِّ في الآية السّابقة، وهو أنَّ الهلاك وعدم النُّصرة كان سببه ضلالهم واتِّباع أهوائهم، فيوضِّح التَّفريع السَّبب الأساسيَّ لهلاكهم، وهو أنَّهم لم يكونوا على بيِّنة من ربِّهم، بل اتَّبعوا الأهواء، فموقع هذه الجملة شبيهٌ بالاستئناف البيانيِّ جاء بأسلوب التَّفريع؛ لكونها آتيةً على أسلوب الاستفهام، فالتَّفريع بها أليقُ، والاستئناف البيانيُّ خبريٌّ، وعلى اعتبار شبهها بالاستئناف البيانيِّ، فنتأوَّل مضمونَ هذه الجملة جوابًا نشأ عن سؤالٍ مُقدَّرٍ من الجملة قبلها: كأنَّ سائلًا يسأل: لماذا هلكوا، ولم يجدوا ناصرًا؟ فجاء الجواب ضمنيًّا: لأنَّهم ليسوا على بيِّنة؛ بل زُيِّن لهم سوء أعمالهم، واتَّبعوا أهواءهم[1].

ويحتمل أن تكون الجملة كلامًا مُستأنفًا مسوقًا للشُّروع في بيان حال الفريقَيْن: المؤمنين والكافرين[2].

دلالة الاستفهام وبلاغته:

الاستفهام الإنكاريُّ يوضِّح التَّباين بين المواقف المتناقضة

الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ حرف استفهام لطلب التَّصديق[3]، معناه النَّفي والإنكار والتَّقرير، أي: إنكار المقتضي النَّفي للمماثلة الَّتي يقتضيها التَّشبيه، بين مَن كان على بيِّنة، ومَن زُيِّن له سوء عمله[4]، والتَّقرير، أي: تقرير تباين الحال بين الفريقين وتقرير عدم استوائهما[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 92.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 207.
(3) قباوة، المفصل في التفسير، ص: 1793.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 92.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 203.

تعيين المعطوف عليه المحذوف:

الحذف وسيلة النَّظم في تحريك النُّفوس للوصول إلى المعاني

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ للعطف على مقدَّر يقتضيه السّياق[1]، والتَّقدير: (أليس الأمر كما ذُكِر؟ فمن كان صاحبَ بيِّنةٍ، كمن هو صاحب تزيين وهوى!)[2]، والمعطوف بعد الفاء في هذه التَّقديرات جارٍ على الإنكار والاستهجان، لا على التَّقرير والتَّسليم، والأحسن أن يكون المُقدَّر من جنس المُقَرَّر؛ لتكون الجملة تفريعًا على الآية قبلها المقرِّرة لمصير الفريقين، فتكون مُسبَّبَةً عنها، أي: إذا تقرَّر الخبر الصّادق المعصوم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾، إلى قوله عن الكافرين: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾، أفيكون صاحب البيِّنة كصاحب الهوى؟ وأصل الكلام أن يكون الاستفهام بعد الفاء، فيكون المعنى: (إذا تقرَّر الخبر الصّادق بتباينهم في المصير؛ فأمَن كان على بيّنة...)، لكن قدِّمت همزة الاستفهام لحقِّها في تمام التَّصدير، بخلاف أدوات الاستفهام الأخرى، فإنَّها تَلي حرف العطف، بدليل أنَّه يصحُّ أن يقال: (إذا تقرَّر تباينهم في المصير؛ فهل يستوي صاحب البيِّنة وصاحب الهوى؟).

نكتة استعمال (مَن) الموصوليَّة:

كلُّ مَنْ عبَدَ اللهَ على بيِّنةٍ؛ فقد فاز بالقبول وحظي بالرِّضوان

تختصُّ (مَنْ) بالعقلاء سواء كانت موصولة، أم استفهاميَّة، أم شرطيَّة، أم غير ذلك[3]، وهي في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ موصولة تفيد العموم، فتشمل كلَّ مؤمنٍ مستمسِكٍ بأدلَّة الدّين، فنكتة استعمال (مَن) الموصوليَّة أن يُصيب العمومُ كلَّ مؤمن عبد الله على بيِّنةٍ من أمرِه، كما أنَّها في قوله تعالى: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ عبارةٌ عن أضدادهم من المشركين[4].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 203.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 203.
(3) السامرائي، معاني النحو: 1/ 129.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 203.

دلالة التَّعبير بالكون الماضي:

الإيمان المقبول هو الثّابت المستمرُّ والرّاسخ المستقرُّ

جاء ذكر فعل الكون الماضي في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ لإفادةِ تحقُّق الذّاتِ (الموصول) بمضمون الصِّلة، أي: كان هو (العائد على الموصول) ثابتًا على بيِّنة، فالكون أفاد تحقيقَ نسبةِ خبرِه إلى اسمه، فهو يفيد ثبوت تلك النِّسبة بينهما في جميع الأحوال، كأنَّه قيل: (وكان في جميع أحواله على بيِّنةٍ من ربِّه)[1].

بلاغة استعمال حرف الاستعلاء:

حرف ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ للاستعلاء المجازيِّ، الَّذي هو بمعنى التَّمكُّن، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5][2].

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالتها:

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ابتدائيَّة[3]، أي: بيِّنةٌ ناشئةٌ من جهةِ الرَّبِّ ﷻ الَّذي أحاط بكلِّ شيءٍ عِلمًا، فمصدرها معصوم، فلا تحتمِلُ في ورودها خطأً أو نقصًا.

نكتة التَّعبير بوصف الرُّبوبيَّة:

إقامة الأدلَّة على الخلْق من آثار ربوبيَّة الحقِّ

التَّعبيرُ بوصف الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وإضافته إلى الضَّمير العائد على الموصول ﴿رَّبِّهِۦ﴾، تنبيهٌ على زُلفى الفريق الَّذي تمسَّك بحجَّة الله، وأنَّه تحت تأييد الله ومعونته وإحسانه، وفيه إشارة إلى أنَّ توفيقه لاعتناق البيِّنةِ هو علامةٌ على كونه من أهل التَّربية الخاصَّة الَّتي لا تكون إلّا للمُصطَفَيْنَ من خلْقه[4]، وفيه تنبيهٌ على أنَّ إقامة الأدلَّة للخلْق من آثار ربوبيَّة الحقِّ ﷻ، ومن عظيم إحسانه بهم، وفي القيد بوصف الرُّبوبيَّة فائدةٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 217.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 93.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 93.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 93.

تتعلَّق بسياق القتال في سبيل اللّه، كما في قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد ﷺ: 4]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤﴾ [محمّد ﷺ: 4]، فإنَّهم ماضون إلى القتال في سبيل اللّه، وهم واثقون بإحدى الحسنيين: النَّصر أو الشَّهادة؛ لأنَّهم على بيِّنةٍ من ربِّهم، فهُم أقوياء العزيمة شجعان غير خائرين ولا واهنين، وذلك من آثار أنَّ اللّه أصلح بالهم وهداهم[1].

دلالة وصف البيّنة بقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾:

انشراح البصائر بالبيِّنات رعايةٌ ربانيَّة خاصَّة بالمؤمنين

معنى وصف البيِّنة بأنَّها من اللّه في قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: أنَّ اللّه أرشدهم إليها، وحرَّك أذهانهم إلى إدراك الحقِّ وامتثاله، فالحجَّةُ حجَّةٌ في نفسِها، وكونُها من عند اللّه تزكيةٌ لها، وكشفٌ للتَّردُّدِ فيها، وإتمامٌ لدلالتها، كما يظهرُ الفرقُ بين أخْذِ العِلم عن راسخٍ فيه ومُتضلِّعٍ به، وأخذِه عن ضعيفٍ فيه، وإن كان مُصيبًا[2]، وفي القيدِ تنبيهٌ على أنَّ المؤمن يحيا وفق منهج اللّه على نورٍ من اللّه، وليس يحيا وفق مناهج من وضع الخلق، والَّتي إنْ ثبت صوابها فترة؛ تتبدَّل صلاحيَّتها بعد حين.

وقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تنبيهٌ على أنَّ تلك البيِّنة تعود عليه بزيادة الإيمان وسلامة الاعتقاد، فلا تخضع عنده للتَّشكيك والطَّعن.

غرضُ التَّشبيه وبلاغتُه:

أهلُ الانتكاسة قـد يـقـع الخطاب لهم بأسلوبٍ مقلوب يوافق فِكرَهم المعكوس

مقتضى الظّاهر تشبيه صاحب الهوى بصاحب البيِّنة على سبيل المفارقة والتَّناقض، فيكون صاحب البيِّنة في موضع المشبَّه به، وصاحب الهوى في موقع المشبَّه[3]، فيقال: (أفمن زُيِّن له سوء عمله كمن كان على بيِّنةٍ من ربِّه)؛ لأنَّ المُقارنة البلاغيَّة تقتضي التَّشبيه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 93.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 93.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 20.

بالأصل والمُعتبَر، وهو القاعدة الَّتي يُبنَى عليها التَّشبيه في الكلام، فيُجعَل الأمر الواضح الثّابت هو الأصل الَّذي يقوم عليه التَّشبيه، ولذلك كان الظّاهر أن تكون الهداية والبيِّنة في موضع المشبَّه به؛ لأنَّها الأصل المعتبر الَّذي لا يتبدَّل، وهو الصِّراط المستقيم الَّذي تُعايَرُ عليه المُشبَّهات، فصاحب الهوى فرعٌ في التَّشبيه، فيكون في موقع المشبَّه، وصاحب الهُدى أصلُ التَّشبيه، فيكون في موقع المشبَّه به، وهذا البناء قد جاء به القرآن في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٢٢﴾ [الملك: 22]، فجعل الصِّراط المستقيم هو الأصل، وجعل حالَ الضَّلال يوزَن على أساسه، ولكن جاء التَّرتيب معكوسًا في الآية، فبدأت بمن كان على بيِّنة من ربِّه، وجعلته في موضع المشبَّه، وثنَّت بمن زُيِّن له سوء عمله، وجعلته في موقع الأصل المعتبر (المشبَّه به)، والسَّبب: مراعاة حال المخاطَبين الَّذين كانوا يعتبرون أهل الباطل هم الأصل، فجاءت الآية؛ لتقلِب عليهم هذا الاعتقاد بأسلوب بلاغيٍّ مطابق لطريقتهم في التَّفكير، فناسب أن يأتي الخطاب على هذا النَّسق، وفقًا لواقع تفكيرهم المقلوب، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ﴾ [النَّحل: 17]، فجعل أصنامهم في محلِّ الأصلِ المشبَّه به، بحسب واقعهم واعتقادهم المنتكِس، فالتَّشبيه بحسب مقتضى الحال تشبيهٌ على أصلِه، وبحسب الظّاهر تشبيهٌ مقلوبٌ؛ إذ الأصل تشبيه من لا يخلق بمن يخلق، والآية جاءت وفق عامود البلاغة بحسب اعتبارِ المخاطَب.

مزيِّنو السَّيِّئات كثرةٌ كاثرةٌ، والحذر منهم واجبٌ على العاقل الحصيف

نكتة بناء فعل ﴿زُيِّنَ﴾ للمفعول:

بناء الفعل لما لم يُسمَّ فاعله، في قوله تعالى: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾؛ للتَّوسُّع في تقدير الفاعل، فيشمل المُزيِّن لهم من غيرهم كرؤساء الكفر وأئمَّة الضَّلال، والمُزَيِّن لهم من ذواتهم، كضلالات العقول ووساوس النُّفوس وأزيزِ الغرائز إلى جهالاتِ الهوى وغواية

الشَّهوات، وفي مجيء الفعل على هذا البناء إلماحٌ لهم أن يُفتِّشوا في أحوالهم عن الَّذي زيَّن لهم شهواتهم[1]؛ لينظر كلُّ امرئٍ من أين يُؤتَى؟ فقد يتباينُ فاعلُ التَّزيين بحسبِ حالِ كلِّ شخص، فمنهم مَن ضَعفُه من جهةٍ، وباب، وضعفُ غيرِه من جهةٍ وبابٍ آخَرين، فبناء الفعل للمفعول دعوةٌ لهم أن يجتهدوا في تشخيص مَرَضِهم، فيكون ذلك أعون لهم على استصلاح أنفسِهم، فإنَّ الإنسان إذا عرف مكْمَنَ ضعفِه؛ احتاط من مواقع الافتراس والتَّصيُّد.

علَّة العدول عن الإفراد إلى الجمع:

تـزيـين سـوء العمل يشترك فيه النّاس واتِّباع الهوى يتفاوتون فيه

جاء فعل الاتِّباع في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ مسندًا لضمير الجماعة، لا لضمير الغيبة العائد على الاسم الموصول، فلم يقل: (كمن زيَّن له سوء عمله، واتَّبع هواه)؛ اطِّرادًا على الإفراد في المعطوف تطابقًا مع نسقِ المعطوف عليه، فقال أوّلاً: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ بإفراد الضَّمائر؛ جريًا على لفظ الموصول، ثمَّ لوَّنَ التَّركيب، ونوَّع فيه، فجمعَ المعطوف جريًا على معنى الموصول[2]؛ لأنَّ (مَنْ) موصولٌ دالٌّ على العموم.

وإنَّما جعل الإفراد في الضَّمير مع التَّزيين في قوله: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾، ولم يقل: (كمن زُيِّن لهم سوء عملهم)، وجمع الضَّمير مع فعل اتِّباع الأهواء؛ للدَّلالة على أنَّ التَّزيين في أصله يقع للجميع على حدٍّ واحد، فورد على الإفراد؛ مراعاةً للفظ الموصول؛ لوقوعه على صورة المفرد في معناه، وأمّا اتِّباع الهوى؛ فلكلِّ نفسٍ هواها، فتتعدَّد الأهواء، والتَّعدُّد يستوجب الجمع، فحُمِل الضَّمير

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 94.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 45.

على معنى الموصول[1]، وللدَّلالة على أنَّ التَّزيين إذا لم يُكْبَح في أوَّله، فإنَّه يتَّسع، ويعمُّ، ويتوزَّع في النّاس، ويصير فيهم مَشاعًا.

بلاغة فنِّ الاحتباك:

البيِّنة مِفتاح النجاة، والتزيين أداةٌ إلى الهلاك

في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ احتباك، ووَجْهُهُ: أنَّه ذكرَ البيِّنةَ أوَّلًا؛ دليلًا على ضدِّها ثانيًا، والتَّزيينَ واتِّباع الهوى ثانيًا؛ دليلًا على ضدِّهما أوَّلًا[2]، والتَّقدير: أفمن كان على بيِّنة من ربِّه، وسَلِمَ من التَّزيين، وعصى الهوى، كمن كان على ضلالٍ ورَيْب، وزيِّن له سوء عمله، واتَّبعوا أهواءهم، ونكتة التَّصريح بالبيِّنة، وبالتَّزيين واتِّباع الهوى: التَّمييز بين الهداية والضَّلال والخير والشَّرِّ؛ إذ يذكر الأصل الجامع للخير (البيِّنة) أوَّلًا؛ لجذب القلوب، ثُمَّ يذكر الأصل الجامع للشَّرِّ (التَّزيين واتِّباع الهوى) ثانيًا؛ ليظهر التَّناقض بينهما، فتتوجَّه نفْس السّامع إلى استشراف أسباب الهداية، والحَذَر من السُّقوط في مهاوي الضَّلال والغيِّ[3]، والتَّقدير الكلّيُّ في الاحتباك يهدف إلى تبيين التَّفاوت الكبير بين الَّذي يتَّبع الحقَّ والهداية، وبين الَّذي يتَّبع الضَّلال أو الهوى، ويبرز من خلال ذلك الفارق الشّاسع بين الفئة الَّتي تستمسك بالأصول، والفئة الَّتي تتَّبع كلَّ ما يَعِنُّ لها من بوارق الأهواء وموارد الضَّلال.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 46.

(2) البقاعي، نظْمُ الدّرر: 18/ 218.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 218.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ١٥﴾ [محمّد ﷺ: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد الإجمال يأتي التَّفصيل لبيانِ المصير

لمّا أخبرتِ الآيات السّابقة بتباين أحوال المؤمنين والكافرين في الدّارين، وكان قد أجمل جزاءَ كلٍّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾؛ ذكَر هنا شيئًا من تفصيل هذا الجزاء للفريقين، فهو انتقال من إجمال الجزاء، إلى ذكر تفاصيله.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّثَلُ﴾: أصل (مثل) يدلُّ على مناظرةِ الشَّيءِ للشَّيء[1]، والمَثَلُ عبارة عن قول في شيء، يشبه قولًا في شيء آخر بينهما مشابهة؛ ليبيِّن أحدهما الآخر، ويصوِّره، وقد يُعبَّر بهما عن وصف الشَّيء، نحو قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾[2]، ومعنى قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ﴾: صفة الجنَّة الَّتي وُعِد بها المتَّقون[3].

2) ﴿ءَاسِنٍ﴾: أصل (أسن) يدلُّ على تغيُّر الشَّيء، فَيُقالُ: أَسَنَ الماءُ يَأسِنُ ويَأْسُنُ؛ إذا تَغَيَّرَ، هَذا هوَ المَشهورُ، وقَد يُقالُ: أَسِنَ[4]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(2) الراغب، المفردات: (مثل).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 200.
(4) ابن فارس، المقاييس: (أسن).

ويقال منه: قد أسَن ماء هذه البئر؛ إذا تغيَّرت ريحُ مائها؛ فأنتَنَت، وكذلك يُقال للرَّجل؛ إذا أصابته ريحٌ مُنتِنة: قد أسَن، فهو يأْسِن[1]، أسَنَ الماءُ يأسِنُ أسْنًا وأُسونًا: وهوَ الَّذي لا يَشْرَبه أحدٌ من نَتنه، قالَ: وأجَنَ يأْجِنُ؛ إذا تغيَّر، غيرَ أنَّه شَروب[2]، ومعنى قوله: ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾، أي: أنهارٌ من ماءٍ غير متغيِّر الرِّيح[3].

3) ﴿أَمْعَآءَهُمْ﴾: الأمعاء جمعُ (مِعَى البَطْنِ)، والمِعَى: المُصران[4]، و(المِعى) مَقْصورًا بِفَتحِ الميمِ وكَسْرِها، وهو ما يَنْتَقِلُ الطَّعامُ إلَيهِ بَعدَ نُزوله مِنَ المَعِدَة[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّـفـصـيـلُ في وصف جزاء أهل الـجـنَّـة والـنّـار تـرسيخ للوعد والوعيد

تُبيِّن الآية الكريمة شرحًا وافيًا لأنهار الجنَّة، وشراب أهل النّار، كما اشتملت على مقارنة بين حال أهل الإيمان والتَّقوى، وما وعدوا به من مغفرة ذنوبهم وإدخالهم الجنَّة، وبين حال أهل النّار، وهم خالدون فيها، وما وعدوا فيها من ألوان العذاب الشَّديد[6]، والمعنى: صفة الجنَّة الَّتي وعد اللّه المتَّقين له - بامتثال أوامره واجتناب نواهيه - أن يدخلهم فيها: فيها أنهار من ماء غير متغيِّر ريحًا ولا طعمًا لطول مُكْث، وفيها أنهار من لبن لم يتغيَّر طعمه، وفيها أنهار من خمر لذيذة للشّاربين، وأنهار من عسل قد صُفّي من الشَّوائب، ولهم فيها من كلِّ أنواع الثَّمرات ما يشاؤون، ولهم فوق ذلك كلِّه محو من اللّه لذنوبهم، فلا يؤاخذهم بها، هل يستوي من كان هذا جزاؤه مع من هو ماكث في النّار لا يخرج

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 200.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (أسن).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 200.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (معو)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (معى).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 98.
(6) الجزائري، أيسر التفاسير: 5/ 78.

منها أبدًا، وسُقوا ماءً شديدَ الحرارة، فقطَّع أمعاء بطونهم من شدَّة حرِّه[1]!.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الاستئناف البيانيِّ:

بيانُ أحوال النَّعيم يحرِّض النُّفوس على انتهاج أسبابه

فُصل قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ مسوق لشرح محاسن الجنَّة الموعودة آنفًا للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾؛ لأنَّ ما جرى من ذكر الجنَّة ممّا يستشرف السّامع إلى تفصيل بعض صفاتها[2]، وبيان كيفيَّة أنهارها الَّتي أشير إلى جريانها من تحتها[3].

بلاغةُ الحذف في الأسلوب:

تباين أصول الأعمال مانعٌ من التَّساوي في الجزاء

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾ جارٍ على حذف همزة الاستفهام وحذف مضاف، وتقدير المضاف إمّا في جانب المشبَّه، أو جانب المشبَّه به، والتَّقدير: (أمثل ساكنِ الجنَّة كمثل من هو خالد في النّار)، أو جعل المضاف في جانب المشبَّه به، أي: (أمثَل الجنَّة الَّتي وعد المتَّقون كمثل جزاء من هو خالدٌ في النّار)، والتَّقدير الأوَّل أظهر؛ لأنَّ إنكار التَّسوية بين أصحاب الجنَّة وأصحاب النّار أهمُّ من إنكار التَّسوية بين جزاء أهل الجنَّة وجزاء أهل النّار، ولقرينة قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾، فذكر أصحابها[4]، وقدَّر الاستفهام الإنكاريَّ في المبتدأ ﴿مَّثَلُ﴾؛ لأنَّه مرتَّبٌ على الإنكاريِّ السّابق في قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[5].

(1) المختصر في التفسير، مركز تفسير.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 94.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 95.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 21.
(5) طنطاوي، الوسيط: 13/ 230.

نكتة مجيء الجملة على صورة الإثبات:

أسلوب الخبر المثبت تصوير لعمق المكابرة في إنكار الفارق بين الجنَّة والنّار

جاء قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾... ﴿كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ﴾ على صورة الإثبات، وإن كان معناه النَّفي والإنكار[1]، ومع ذلك لم يصرِّح بالاستفهام الإنكاريِّ المقدَّر، بل جاء على أسلوب الخبر المثبت، فلم يقل: (أمثل الجنَّة كمن هو خالدٌ في النّار!)، ونكتة ذلك أنَّ حذف همزة الاستفهام الإنكاريِّ من الجملة يجعل مكابرةَ المخاطَب وتصوُّره المغلوط أشدَّ وضوحًا وأقوى تأثيرًا، وذلك لأنَّ ذِكر حرف الاستفهام المقتضي للإنكار صراحة، كأن يُقال: (أمثل الجنَّة كمثل النّار؟) قد يجعل المخاطَب مُستعِدًّا للإنكار مباشرة، فيتلقّى الجملة على أنَّها مجرَّدُ نفي منطقيٍّ.

لكن عند إزالة حرف الإنكار، تُترَك الجملة على ظاهرها؛ باعتبارِها تقريرًا للتَّسوية بين أهل الجنَّة وأهل النّار، فيكون ذلك تصويرًا أشدَّ لِقبحِ فكرةِ التَّسوية بينهما، ممّا يُبرز مدى سُخفِ من يعتقد ذلك وضلالِه، وهذا الحذف يقوم على أسلوب بلاغيٍّ يُعرف بـ (الإنكار غير الصَّريح)، حيث يُترك الحكم دون أداة إنكار؛ ليكون أبلغ في استنكار المضمون ذاتِه، ممّا يُشعر المخاطَب بمدى بطلانِ هذه التَّسوية من غير حاجة إلى التَّنبيه عليه بوضوح.

فائدة النَّعت بالاسم الموصول:

الجنَّةُ جزاءٌ مضمونٌ لا يتخلَّف، ووعد المعبود لا يتأخَّر

نعتُ لفظ ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ بالاسم الموصول، في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ جيء به توسُّلًا إلى وصف المعارفِ بالجمَل، وتنبيهًا على أنَّ ذلك الوصف هو من معهودات المخاطَب[2]، فهي معهودةٌ بدليل ذكرها في السّياق العامِّ أو القريب الخاصِّ، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾،

(1) الكشاف، الزمخشري: 4/ 321.

(2) السامرائي، معاني النحو: 1/ 122.

وأفاد المدح بالاسم الموصول وصلته مدح الجنَّة وتوضيح هويَّتها بأجمع وصفٍ وأبلغ مضمون، فقد جعلها وعدًا مخصوصًا منه لعبادٍ مخصوصين، وهم المتَّقون؛ ليؤذِن بهذا المضمون أنَّ الجنَّة مُستحقَّةٌ من جهتين، من جهةِ كونها وعدًا ذاتيًّا من اللّه؛ فبسبب أنَّ اللّه وعدَ بها؛ تحقَّقت لهم، ولولا الوعد؛ ما كانت، ومن جهة كونها جزاءً على عملِهم بالتَّقوى الَّذي رشَّحهم لنيلها.

نكتة بناء فعل الوعد للمفعول:

حـذْفُ الفاعلِ تـأكـيـد عـلى عظمة الجزاء وقـوَّة الضَّمانة للوعد الإلهيِّ

جاء فعل الوعد في جملة الصِّلة، في قوله: ﴿ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ﴾؛ مبنيًّا لما لم يُسمَّ فاعله، وفي إخفاء الفاعل دلالةٌ على أنَّ الأهمَّ في هذا السّياق هو استقطاب ذهن المخاطَب إلى عين الجزاء وحقيقته، فليس الغرض متعلِّقًا بإعلامه بالفاعل؛ لأنَّ فاعل الوعد لا يخفى عليه، ولا يغيب عنه، بل هو مفهومٌ من منطوق الصِّلة من لفظ ﴿ٱلْمُتَّقُونَۖ﴾، أي: المتَّقون اللّه سبحانه، وهل اتَّقوا إلّا هو، وهل يقع لهم جزاء الجنَّة إلّا لمن قصر تقواه على مولاه؛ لأنَّه لو اتُّقيَ مع اللّه أحدٌ سواه؛ لكان في عداد أهل الشِّرك الَّذي تَحرمُ الجنَّةُ به، ويظهر أنَّ سببَ الإيجاز بعدم تسمية الفاعل، هو قرب العهد به، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾، كما أنَّ وصف الجنَّة بصفاتٍ تقطعُ بأنَّه لا يقدر عليها إلّا اللّه هو كافٍ في نفي الإلباس في تعيين الفاعل، فلا يُحتار فيه، ولا يخفى على أحد؛ ولذلك صار مجرَّدُ ذكرها والإخبار به عنها بعدم تسمية الفاعل أهيبَ لمقامه سبحانه، وأعلى وأجلَّ في إطلاق الوعد بها وضمانتها به(1).

نكتة التَّعبير بصيغة الماضي:

وعْدُ الله بحكم المتحقِّق

في التَّعبير بفعل ﴿وُعِدَ﴾ بصيغة الماضي إشارة إلى أنَّ الوعد بالجنَّة أمر قد تحقَّق بأيسر أمرٍ، وفُرِغ منه إلى أن صار حاضرًا لا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 219.

مانع منه إلّا الوصف الَّذي عُلِّق به الوعد، وهو التَّقوى، ولمّا كان وعدُ اللّه نافذًا؛ كانت الجنَّة متحقِّقة الدُّخول من قبل المؤمنين المتَّقين.

توجيه تخصيص المتَّقين بالذِّكر:

التَّقوى هي جوهر الإيمان وسرُّ بقائه

آثر النَّظم الكريم استعمال لفظ التَّقوى، في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، دون أن يوصَف أهل الجنَّة بوصف آخر كالإيمان وغيره من الصِّفات، وذلك أنَّ التَّقوى جوهر الإيمان، والإيمان الَّذي لا تقوى فيه يضعف مع الأيّام، فلا يثبت، فإنَّ التَّقوى هي دسار خشب الإيمان، فمن فقد الدِّسار؛ فقد تحلَّل خشبه وزالت روابطه.

علَّة فصل جملة: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾:

أبينُ صفات الجنَّة وأشهاها للقلوب الأنهار الجارية

يحتمل جملة ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ أن تكون استئنافًا بيانيًّا، يُفسِّر الصِّفة العجيبة للجنَّة في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾، كأنَّ سائلًا سأل: (ما مَثَلُها؟)، فأُجيب: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾، وتحتمل أن تكون الجملة داخلة في حيِّز الصِّلة كالتَّكرار لها، كأنَّه قيل: (الَّتي وعد المتَّقون، والَّتي فيها أنهار من ماء غير آسن)، وتحتمل أن تكون جملة حاليَّة، أي: الَّتي وُعِدها المتَّقون على تلك الحال وتلك الهيئة، من تنوُّع أنهارها (أنهار ماء، وأنهار من لبن، وأنهار من عسل)، بعدما أخبر بجريان الأنهار من تحتها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فكأنَّه قال هنا: ليست هذه الأنهار على هيئة واحدة، بل كيفيّاتها متنوِّعة، فليست أنهار ماءٍ فقط، كما يمكن أن يتبادر للذِّهن، بل هي أنهار ماء وأنهار لبن، واعتبارها جملة حاليَّة يفيد وجود هذه الأنهار فيها حالَ وُعِدَ المتَّقون بها، فالوعد بالجنَّة حاصلٌ، وهي تلك الحال، فهذه الحال المذكورة بأنَّ ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ﴾ موعودٌ بها كذلك، فهي ضمن الوعد وجزء أصيلٌ منه[1].

(1) الكشاف، الزمخشري: 4/ 321.

نكتة استعمال حرف الظَّرفيَّة:

أنهار الجنَّة منتشرةٌ بأنواعها الكثيرة في كلِّ أرجائها

استُعمِل حرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾؛ للدَّلالة على الشُّمول، وتشبيه الجنَّة بالظَّرف والأنهار بالمظروف توكيدٌ لمعنى الشمول، وأنَّ الأنهار جزء أصيل من الجنَّة، فأينما يمَّم أهل الجنَّة وجوهَهم؛ وجدوا من تلك الأنهار بأنواعها وأصنافها ما تشرئبُّ له الأعناق، وتلذُّ له الأنفس.

نوعُ (مِنْ) ودلالتُها:

حرفُ (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ﴾، وقوله: ﴿مِّن لَّبَنٍ﴾، وقوله: ﴿مِّنْ عَسَلٍ﴾، وقوله: ﴿مِّنْ خَمْرٍ﴾ للبيانِ، فهي تبيِّن جنسَ الشَّراب ومادَّته، الَّذي حوته تلك الأنهار.

بلاغة استعمال مفردة ﴿ءَاسِنٍ﴾:

التَّعريض بمياه الدُّنيا وأنهارها المتغيرة للفساد

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿ءَاسِنٍ﴾، دون أن يقول: (متغيِّر)، في قوله تعالى: ﴿مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾؛ لأنَّ ﴿ءَاسِنٍ﴾ مأخوذ من الأَسْن، وهو التَّغيُّر إلى النَّتن والفساد؛ بسبب ركود الماء وعدم تجدُّده[1]، وأمّا (متغيِّر)؛ فلفظ عامٌّ يشمل أيَّ تغيُّر، سواء كان إلى فساد أو إلى صفة أخرى لا تستلزم الفساد، فالأَسْنُ هو التَّغيُّر المذموم الَّذي يجعل الماء غير صالح للشُّرب، أمّا التَّغيُّر في ذاته؛ فقد يكون محمودًا، مثل الماء البارد أو الدّافئ أو العذْب أو المعدنيِّ، وكلُّها أمواه متغيِّرة الصِّفات، لكنَّها غير فاسدة، فجاء التَّعبير ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾؛ ليشير إلى أنَّ ماء الجنَّة لا يعتريه الفساد أو النَّتن أبدًا، بل هو دائم الصَّفاء والنَّقاء، بخلاف مياه الدُّنيا الَّتي تفسد بمرور الزَّمن؛ إذا لم تتجدَّد؛ فالتَّعبير بلفظ ﴿ءَاسِنٍ﴾ تعريضٌ بمياه الدُّنيا وأنهارها.

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 200، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أسن).

بلاغة وصف الماء بأنَّه ﴿غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ لا الأنهار:

ماءُ الأنهار لا يأسن وإن توقَّف عن الجريان

وصف اللّه ﷻ الأنهار، بأنَّها جارية، ومعلومٌ أنَّ الماء الجاري لا يأسَن، فما فائدة وصف ماء الأنهار في قوله تعالى: ﴿أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾، بأنَّه ﴿غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾؟ والجواب: أنَّ الماء الجاري وإن كان لا يأسن، لكن إذا أُخِذَ منه شيءٌ، وطال مُكثه؛ أسِن، وماء الجنَّة لا يعرِض له ذلك، ولو طال مكثه ما طال[1]، فكان قوله: ﴿غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ نافيًا للوجود والإمكان، أي: لا يوجَد، ولا يطرأ على الماء أُسون بسبب جريانه، وحتّى لو أخِذَ منه، ونُقِل إلى خارج النَّهر، وزالت عنه صفة الجريان، فلا يمكن كذلك أن يأسن، ويتغيَّر في تلك الحال؛ ولذلك جاء الوصف للماء لا للأنهار، فالأنهار جاريةٌ، وماؤها قد يتوقَّف عن الجريان، فإن توقَّف؛ فهو غير آسن.

جريان أنهار اللَّبن بين التَّشبيه البليغ والحقيقة:

حملُ الأخبار الغيبيَّة على الحقيقة هو الأنسب في الأذهان، وهو ما يُقوّيه السّياق

يرى بعض المفسِّرين أنَّ إطلاق الأنهار على أنهار الماء حقيقة، وأمّا إطلاق الأنهار على ما هو من لبن وخمر وعسل؛ فذلك على طريقة التَّشبيه البليغ، أي: مماثلة للأنهار، فهو تشبيه بليغ بالمماثلة التّامَّة؛ إذا اعتبرنا أنَّ هذه الأنهار تجري فعلًا في أخاديد، كما تجري الأنهار، أي: إنَّ حقيقتها ليست كأوانٍ ممتلئة، بل هي جاريةٌ مستبحرةٌ بلا توقف، فصار العسل واللَّبن والخمر مذكورة، وكأنَّها أنهار بنفسها، أو تشبيه بليغ بالمماثلة الجزئيَّة؛ إذا أخذنا أنَّ هذه السَّوائل مماثلة للأنهار في بعض صفاتها فقط، كالغزارة والتَّدفُّق المستمرِّ، ولكن ليس بالضَّرورة أن تكون في صورة جريانٍ كنهر الماء تمامًا[2].

والأولى من هذا حمل الكلام على حقيقته، وافتراض التَّشبيه

(1) ابن القيم، حادي الأرواح: 1/ 378.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 96.

البليغ الخالي من الأداة ووجه الشَّبه في أمرٍ غيبيٍّ يُعوِزه الدَّليل، فإنَّ الأصل في مثل هذه الأخبار الحقيقة، وعدم قياسِها على عالم الشَّهادة، وما يتناسب مع السّياق الدّالِّ على عظمة الجنّات هو الحقيقة لا المجاز، لكنَّها حقيقةٌ لا نعلم تفاصيلها على وجه التَّحديد، وإنَّما نُثبتها كما ثبتت في الذِّكر الحكيم، وما كان هذا حاله، فإثبات المجاز له بعيد وغير مقبول؛ لأنَّ المجاز يعني ادِّعاء معرفة التَّفاصيل، وأنّى ذلك يكون؟.

بلاغة النَّظم بين التَّمثيل والتَّحقيق:

أوصاف النَّعيم الغيبيِّ محمولٌ على التَّحقيق عند أهل التَّحقيق

يرى بعض المفسِّرين أنَّ قوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾، تمثيل لما يقوم مقام الأشربة في الجنَّة بأنواع ما يستلذُّ منها في الدُّنيا بالتَّجريد عمّا ينقصها، وينغِّصها، والتَّوصيف بما يوجب غزارتها واستمرارها[1]، والصَّحيح أنَّها محمولةٌ على التَّحقيق، فهي كما وصفها ، أنهارٌ تجري بهذه الأشربة، وبهذه المواصفات العالية، الَّتي لا يعرفها النّاس في الدُّنيا، وسيعرفونها تحقيقًا لا تمثيلًا.

نكتة التَّقييد بعدم تغيُّر طعم اللَّبن:

التَّعريضُ بلبن الدُّنيا حيث يُصيبُه الفسادُ

جاء تقييد ذكر أنهار اللَّبن بأنَّه ﴿لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾؛ دلالة على الكمال المطلق لنعيم الجنَّة؛ إذ لا يفقد النَّعيم خصائصه بمرور الزَّمن، وهذا تعريضٌ بلبن الدُّنيا؛ إذ يُصيبه التَّغيير في الطَّعم، والفساد في المذاق، ففي الدُّنيا، التَّغيير أمرٌ حتميٌّ غير اختياريٍّ، فالماء يأسن، واللَّبن يتخثَّر، والأطعمة تفسد، أمّا في الجنَّة؛ فإنَّ كلَّ شيء يبقى على حالته المثاليَّة، ولا يتحوَّل إلى حالةٍ غير محبوبة.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 121.

التَّنبيه بالأدنى على الأعلى، فهو كنايةٌ عن بقاء النَّقاء في كلِّ الصِّفات

نكتة تخصيص التَّغيُّر بالطَّعم دون غيره:

خصَّ تغيُّر اللَّبن بالطَّعم دون غيره، في قوله تعالى: ﴿لَّبَنٍ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾؛ لأنَّ تغيُّر الطَّعم هو أوَّل ما يدلُّ على فساد اللَّبن، حتَّى لو لم يتغيَّر لونه أو رائحته، وهو أقلُّ درجات التَّغيُّر، كما أنَّ تغيُّر الطَّعم مقدِّمة لتغيُّر بقيَّة الصِّفات، فجاء التَّقييد بالطَّعم؛ للدَّلالة على أنَّ اللَّبن باقٍ في أعلى درجات الجودة؛ لأنَّ الطَّعم هو أوَّل ما يدركه الإنسان عند تناوله، وأيضًا: استلزام التَّقييد بالطَّعم لسلامة اللَّون والرّائحة كذلك، فتغيُّر الطَّعم غالبًا يكون مصحوبًا بتغيُّر اللَّون أو الرّائحة، فإذا كان الطَّعم محفوظًا؛ دلَّ ذلك ضمنًا على أنَّ اللَّبن باقٍ نقيًّا في جميع أوصافه الأخرى، فذِكرُ تغيُّر الطَّعم إيجازٌ بليغ يفيد كمال اللَّبن واستمراره على أفضل حال، وفيه تنبيهٌ على الأعلى بالأدنى، فعدم تغيُّر الطَّعم، يدلُّ على كمال صفاته.

لبنُ الجنَّةِ على أصلِه باقٍ وعلى طعمه ثابت

دلالة التَّعبير بنفي المضارع:

جاء نفي المضارع في قوله تعالى: ﴿لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾؛ لبيان أنَّ هذا الوصف، وهو عدم تغيُّر الطَّعم ممّا مضى أمره، وأصبح صفةً لازمةً متحقِّقة للبن، فهو على أصله مُذْ وجِد، كأنَّه قيل: لم يكن عُرضةً للتَّغيُّر، وأنَّ الشّارب يستحضر ذلك عند شرب اللَّبن، فهو وصفٌ للبنٍ مشروبٍ عند أهل الجنَّة، وهذا فيه استحضارٌ لطعم اللَّبن الصّافي من أيِّ منغِّصات فضلًا عن الفساد.

الماء أصل المشروبات فالأقرب للفطرة فمصدر اللَّذَّة فأصل الشِّفاء

سِرُّ ترتيب ذكر المشروبات:

جاء ترتيب المشروبات في قوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾، فبُدِئَ بذكرِ أنهار الماء، فهو الأصل الَّذي لا يُستغنى عنه في المشروبات، وهو أشهر المشروبات عند البشر، ثُمَّ باللَّبن؛ لجريانه مجرى الطُّعوم في كثيرٍ من أقوات العرب وغيرهم،

ثُمّ بالخمر؛ لأنَّه إذا حصل الرَّيُّ والمطعوم تشوَّفتِ النَّفس إلى ما تلتذُّ به، ثُمَّ بالعسل؛ لأنَّ فيه الشِّفاء في الدُّنيا ممّا يَعرِض من المشروب والمطعوم[1].

وأصل هذه الثَّلاثة الماء، ولذلك بدأ به؛ لأنَّ الماء أصل النَّبات، ومن النَّبات يكون اللَّبن والخمر والعسل، من خلال الوسائط، فالحيوان المحلوب يأتي لبنه من تغَذّيهِ على النَّبات، والخمر مصدره النَّبات كالشَّعير والتَّمر والزَّبيب والعنب، والعسل مصدره النَّبات؛ إذ يتغذّى النَّحل على رحيقه[2].

وبهذا يُفهَم للتَّرتيب سرٌّ آخر، وهو أنَّه تعالى قدَّم الماء؛ لأنَّه الأصل لها، وثنّى بأقرب الأشياء إليه في الشَّرابيَّة والطَّبع: اللَّبن، وثلَّث بما هو أقرب إلى اللَّبن من جهة أنَّه شراب فقط، وختم بالعسل؛ لأنَّه برغم شرابيَّته إلّا أنَّه يُتناوَل كالأطعمة، ولذا ذكر بعده المطعوم، وهو الثِّمار في قوله: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[3].

نكتة تقييد المشروبات بما قُيِّدت به:

التَّعريض بمشروبات الدُّنيا، فالآفات المذكورة هي أقلُّ آفات المشروبات في الدُّنيا

تخصيص كلِّ قيدٍ بموقعه في قوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾، بجعل الآسن للماء، وتغيُّر الطَّعم للَّبن، ولذَّة الشّاربين للخمر، والتَّصفية للعسل؛ لأنَّ اللّه سبحانه ذكر هذه الأجناس الأربعة، ونفى عن كلِّ واحد منها الآفةَ الَّتي تعرِضُ له في الدُّنيا، وتؤدّي إلى نقصه، فآفة الماء أن يأسَن، ويأجُن، فيتحوَّل بطول المكث والرُّكود أو التَّلوُّث إلى عدم صلاحيَّته، وآفة اللَّبن أن يتغيَّر طعمه، فيصير حامضًا ولاذِعًا، وآفة الخمر كراهةُ مذاقِها

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 467.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 223.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 223.

المنافي لحصول اللَّذَّة منها، وآفة العسل عدم تصفيته[1]، فغالبًا يشوبه أجزاء من الشَّمع ومن النَّحل الَّذي يموت فيه كثيرًا[2]، وهذه الآفات المذكورة هي أقلُّ آفات المشروبات في الدُّنيا، وبه يتحقَّق التَّعريض بمشروبات الدُّنيا، فالماءُ يُتوهَّم فيه التَّغيُّر بالأسون وعدم الصَّلاحيَّة؛ فنفاه عنه، واللَّبن لمّا كان معتبرًا فيه أصالةُ الطَّعم، وكان في الدُّنيا كثيرًا ما يفسد، ويحمض، فتتغيَّر طُعومه؛ نفى هذا عنه في الآخرة، وقيَّد الخمر بلذَّةٍ للشّاربين دون التَّغيُّر؛ لدفع توهُّم أنَّها مثل خمور الدُّنيا[3].

توجيه تخصيص هذه المشروبات بالذِّكر:

أفضل المشروبات وأشهاها لأهل الدُّنيا المذكورة في الآية

اجتماع هذه الأنواع من أنهار المشروبات في قوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾؛ لأنَّها هي أفضل أشربة النّاس، فالماء لشربهم وطهورهم، واللَّبن لِقوَّتِهم وغذائهم، والخمر لِلَذَّتِهم وسرورهم، والعسل لشفائهم ومنفعتهم[4].

نكتة تقييد الخمر بكونه ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ دون الماء واللَّبن:

خمر الجنَّة تجسيدٌ للذَّة الرّوح الطيِّبة، وخمر الدُّنيا للأرواح العاطِبة المأزومة

جاء تقييد شربِ الخمر بكونه ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، ولم يقل في شأن اللَّبن: (للطّاعمين)، ولا في العسل: (مُصفًّى للنّاظرين)؛ فيُسأل عن ذلك؛ والجواب أنَّ اللَّذَّة تختلف باختلاف الأشخاص؛ فرُبَّ طعام يلتذُّ به شخص، ويَعافُه الآخر، فقال: لذَّة للشّاربين بأسرهم، فهو مُتَّفَقٌ على لَذاذته، بخلاف خمر الدُّنيا، فقد يستسيغه معكوس الطَّبع من كثرةِ الإلف والإدمان، ولأنَّ الخمر كريهة الطَّعم في الدُّنيا، فالتَّقييد بكونه ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ تعريضٌ بشأن خمر الدُّنيا،

---

(1) ابن القيم، حادي الأرواح: 1/ 376.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 47.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 24.
(4) ابن القيم، حادي الأرواح: 1/ 378.

بإثبات أنَّها على ضدِّها، فليس منها إلّا الاسم، لا المسمّى، ولذلك ذكر بالقيد الحاسم، فقال: ﴿لَّذَّةٍ﴾، أي: لا يكون في خمر الآخرة كراهة الطَّعم، وأمّا الطَّعم واللَّون؛ فلا يختلفان باختلاف النّاس؛ فإنَّ الحلو والحامض وغيرهما يدركه كلُّ أحدٍ كذلك، لكنَّه قد يعافه بعضُ النّاس، ويلتذُّ به البعض، مع اتِّفاقهم على أنَّ له طعمًا واحدًا، وكذلك اللَّون، فلم يكن إلى التَّصريح بالتَّعميم حاجة، ولذلك لم يقل: (للطّاعمين)؛ لكون الطَّعم ممّا لا يُختَلَفُ عليه[1].

نوع الواو وفائدتها:

بعد انسياب ذكر المشروب ينساب ذكر المأكول

عطف قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، على قوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾؛ لأنَّه ذِكرٌ للمأكول بعد ذكر المشروب، وجاء المعطوف عليه جمعًا لأنواع الثَّمرات، كما جاء جمع المشروبات بعد ذِكر جمع الأنهار، وهو من حسن المناسبة في جمع المأكول للمشروب.

نكتة تقديم المشروب على المأكول:

الأنهار قبل الثَّمرات يدلُّ على أنَّ هِبة الجنَّة تبدأ بالتَّدفُّق

قُدِّم ذِكرُ المشروبات من أنواع الأنهار على المأكول؛ وذلك لموقِع المشروبات في البيان والتَّفصيل لأنواع الأنهار بعد إجمالها في قوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فذِكر المشروبات يزيد عن كونه مجرَّدَ ضيافةٍ وإكرام، ويتَّسع إلى كونه من طُرُزِ النَّعيم الأصيلة في الجنَّة لجريانها كما تجري الأنهار، فهي أوسع من المأكول، فاستحقَّتِ التَّقديم، ونظيرها قوله تعالى: ﴿۞مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: 35]، فقدَّمَ الأنهار المشتملة على أنهار سائغ المشروبات، على الأكُلِ والطَّعام[2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 47.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 47.

نوع اللّام ودلالتها الإيمائيَّة التَّعريضيَّة:

ثمرات الجنَّة طيّبةٌ مرغوبةٌ لأهلها

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ للاستحقاق، وفيها إيماءٌ إلى أنَّ كلَّ الثَّمرات طيِّبة مرغوبة لأهل الجنَّة، كأنهار اللَّبن والخمر والعسل، لا كدر ففيها تعريضٌ بثمرات الدُّنيا؛ لأنَّ استحقاقَ كلِّ الثَّمراتِ، يلزم عنه التَّلذُّذ والاستمتاع بها.

نوع ﴿مِن﴾ ودلالتها:

جميع الثَّمرات الممكنة كائنةٌ في الجنَّة لأهلها

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ تحتمل أن تكون تبعيضيَّة على معنى: لهم في الجنة بعضٌ من كلِّ نوعٍ من الثَّمرات، أي: إنَّ اللّه تعالى منحهم أصنافًا متنوِّعة من كل نوعٍ[1]، وتحتمل أن تكون بيانيَّة، أي: لهم فيها أجناسٌ وأصنافٌ هي كلُّ الثَّمرات بلا استثناء، ويحتمل أن تكون لتوكيد الإحاطة والشُّمول في ﴿كُلِّ﴾، كأنَّه قال: (لهم فيها كلُّ الثَّمراتِ على أكمل وجْه)[2].

نكتة إضافة ﴿كُلِّ﴾ إلى لفظ ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

ثمرات الجنَّة تشملُ ما علمه المخاطَبون وما غاب عنهم

﴿كُلِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مستعملةٌ في حقيقتها، وهي الإحاطة وشمول الأفراد، أي: جميع ما خلق اللّه من الثَّمرات ممّا علِموه في الدُّنيا، وما لم يعلموه ممّا خلقه اللّه للجنَّة. وتعريف لفظ ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ للجنس[3]؛ لاستغراق جميع أفراد الثَّمرات الَّتي في الجنّات.

توجيه تخصيص الثَّمرات بالذِّكر:

الثَّمرات في الجنَّة مِثالٌ للطَّعام الَّذي يُطعَم للمتعة لا للقوت

خصَّ النَّظم الكريم الثَّمرات من سائر المطعومات بالذِّكرِ، في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ لأنَّ أكل الجنَّة يُطعَم لتحصيل اللَّذَّة، لا للقوت والحاجة، حتّى الخبز واللَّحم هنالك

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 97.

(2) الخطيب وآخرون، التفصيل في الإعراب: 26/ 121.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 97.

يؤكل للتَّفكُّه والالتذاذ، فاختار النَّظم أكثر ما يعبِّر عن ذلك من المطعومات، وهي الثَّمرات؛ لتكون كالمثال الَّذي يُقاس عليه غيره من أنواع الطُّعوم، وإنَّما اختار ذلك المثال؛ لكونه موصوفًا بذلك في أحوال الدُّنيا كذلك، بخلاف اللَّحم وغيره، فلم يَبْنِ عليه المَثَلَ هنا، وذلك لأنَّ الآية كلَّها تمثيلٌ بأسماء ما عهدوه في الدُّنيا، تقريبًا لهم وتفهيمًا، مع المفاضلة في حقائق المسمّيات، ولذلك افتتح بما يفيد ذلك، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾، فعُلِم أنَّ ما سيأتي أصولٌ في أبوابها يُضرَبُ بها المَثَلُ على فروعها من صنوفٍ سواها.

نوع الواو ودلالتها:

تنوُّع الاحتمالات ثـراء في المعنى وســـداد في الدَّلالة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ فيها وجهان، أحدُهما: أنَّه عطفٌ على مقدر، أي: لهم فيها زوجان من كلِّ الثمرات، أي: ولهم مغفرةٌ؛ لأنَّ المغفرةَ تكون قبلَ دخولِ الجنَّة، وإذا كانت المغفرة بعد ذلك، فلا بُدَّ مِن حَذْفِ مضافٍ حينئذٍ، أي: ونعيمُ مغفرةٍ؛ لأنَّه ناشِئٌ عن المغفرةِ، وهو في الجنَّة. والثّاني: أن يُجْعَلَ خبرُها مقدَّرًا، أي: ولهم مغفرةٌ، والجملةُ مستأنفةٌ، والفرقُ بين الوجهَيْن: أنَّ الوجهَ الأوَّل فيه الإخبارُ بقوله: (لهم) الملفوظ به عن سَنَنِ ذلك المحذوف، و(مغفرةٌ)، وفي الوجه الآخر الخبر جارٌّ آخرُ، حُذِفَ للدَّلالةِ عليه[1].

موقع جملة: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾:

وجـود النَّعيم الأبــديِّ يُثبِت حتميَّة العذاب الأبديِّ

سبق بيان موقع هذه الجملة عند قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾، بجعلها خبرًا عنها، وتقدير الاستفهام الإنكاريِّ فيها، أي: (أمثل مَن هو في الجنَّة كحال مَنْ هو خالدٌ في النّار)، ويصحُّ أنْ تكون جملة: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ﴾ كلام مستأنف مقدَّر فيه استفهام إنكاريٌّ دلَّ عليه ما سبق من قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾، والتَّقدير: أكمن هو خالد في النّار، والإنكار متسلِّط على التَّشبيه

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 694.

الَّذي هو بمعنى التَّسوية[1]، أو الجملة خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أمَّن هو خالد في هذه الجنَّة حسبما جرى به الوعد، كمن هو خالد في النّار، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾[2]، وهذا الوجه شبيهٌ بالوجه الأوَّل، غير أنَّه جرى على حذف المبتدأ، وتقديره من السّياق، ففيه استطرادٌ عنه، فالأوَّل أظهر.

نوعُ الواو ودلالتها:

سُقيا أهل النّار حميمٌ مميت، وسقيا أهل الجنَّة شرابٌ ونعيم

جملة ﴿وَسُقُواْ﴾ معطوفة على جملة الصِّلة، في قوله: ﴿كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٌ﴾، أو حاليَّة بتقدير (قد)[3]، والجملة في موقع المقابلة مع جزاء أهل الجنَّة، كأنَّه قيل: هذا شرابُ أهل الجنَّة من سُقيا الأنهار الجارية، وشراب أهل النّار سُقيا من حميم.

بلاغة استعمال مفردة السّقاية:

استعمل النَّظم الكريم مفردة (سقوا)؛ للتَّهكُّم بأهل النّار، فإنَّ السِّقاية تكون في الدُّنيا للإرواء، لكنَّها استُعمِلت هنا للتَّعذيب، وبيان أثرها في الأمعاء.

بلاغة استعمال مفردة (سقوا) مبنيَّة للمفعول:

سياق التَّرهيب يُناسبه تراكيب التَّهويل

آثر النَّظم الكريم بناء فعل (سقوا)؛ للمفعول لتوجيه الأنظار نحو فعل السِّقاية لا الفاعل، فالآمر بذلك اللّه ربُّ العالمين، فكلُّ شيءٍ لا يكون إلا بأمره، والفاعل الحقيقيُّ هم الملائكة، ولمّا كان السّياق في التَّرهيب؛ ناسب بناء الفعل للمفعول؛ لبيان سطوته وهوله وشديد أمره.

نوع الفاء ودلالتها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ للعطف، فبمجرَّد أن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 95.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 96.
(3) صافي، الجدول: 13/ 220.

يُسقوا الماء الحميم، فيدخل أجوافهم، فيقطع أمعاءهم، وفاعل التَّقطيع عائد للماء الحميم، والفاء دالَّة على سرعة الحدث.

بلاغة المقابلة في ذكر الأشربة:

أشربة أهل الجنَّة مرغوبٌ فيها وسقيا أهل النّار مرغوبٌ عنها

قوله تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا﴾ يقابل شراب المؤمنين من الأنهار في قوله: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾، وجاء ذكر السِّقاية؛ لبيانِ أنَّهم يتجرَّعونها جبرًا عنهم، فإنَّ الحميم لا يُشرب ابتداءً، ويُرغب عنه لا فيه، فكان ذكر ﴿وَسُقُواْ﴾؛ لبيان هذا الأمر، بخلاف أنهار الجنَّة، فهي أنهارٌ مرغوبٌ فيها، فكان ذكرها على الخبر هو الأنسب؛ لأنَّها جاءت في سياق التَّعريض بمشروبات الدُّنيا، فهي أنهار في الجنَّة يرغبها أهل الجنَّة، فيأتونها، وأمّا الحميم؛ فيُسقاه أهل النّار.

نكتة المخالفة بين الضَّمائر إفرادًا وجمعًا:

الخلود واحد في النّار، والسُّقيا متعدِّدة بحسب الأعمال

في قوله: ﴿كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا﴾، أفرد الضَّمير أوَّلًا في قوله: ﴿هُوَ خَٰلِدٞ﴾؛ مراعاةً للفظ (مَنْ)، وجمعه ثانيًا في قوله: ﴿وَسُقُواْ﴾؛ مراعاةً لمعناها؛ إذ هي تفيد العموم[1]، ونكتة ذلك: أنَّ الخلود يعمُّ من فيها على حدٍّ سواء، فمن كُتِب عليه الخلود فيها، فالخلود لا يتفاوت، ولا يتباين، وأمّا سِقايةُ الحميم؛ فلكلِّ واحدٍ سَقْيُه الخاصُّ به، فيختلف في الكيف والكمِّ بحسب عمل كلِّ شخص، فظهر التَّعدُّد، فحُمِل على المعنى[2].

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 695.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 224.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ١٦ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ١٧﴾ [محمّد ﷺ: 16 - 17]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

تعليل جزاء الآخرة بأعمال الدُّنيا

لمّا بيَّنتِ الآيات السّابقة أحوال المؤمنين والكافرين، وموقفهم من الرِّسالة والرَّسول والمرسل ﷻ، ومآل كلٍّ واحدٍ منهم في الآخرة، وما يكون للمؤمنين من النَّعيم المقيم، وللكافرين من العذاب الأليم؛ ناسب الانتقال إلى ذكر حالٍ من أحوال الفريقين في تلقي الرِّسالة، والموقف منها إقبالًا أو إعراضًا؛ ليكون ذلك بمنزلة التَّعليل للجزاء في الآخرة، فكأنَّه قيل: نال كلٌّ من الفريقين جزاءه في الآخرةِ؛ لما يصدر عنه في هذه الحياة الدُّنيا؛ استهزاءً وإعراضًا من المنافقين، واهتداء من المؤمنين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَانِفًاۚ﴾: (أنف) أصلٌ يدلُّ على أَخْذ الشَّيءِ من أوَّله، واستَأْنَفْتُ كَذا، أي: رَجَعْتُ إلَى أوَّله، وائتَنَفتُ ائتنافًا، ومُؤْتَنَفُ الأمرِ: ما يُبتَدَأُ فيه، ومِن هَذا البابِ قَولُهُم: فَعَلَ كَذا آنِفًا، كَأنَّهُ ابتِداؤُهُ، وقالَ اللّه تَعالَى: ﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾[1]، وأصل ذلك كلِّه من الأنف: الجارحة، ثُمَّ سُمّي به طرَف الشَّيءِ وأشرفه، فيقال: أنف الجبل وأنف اللِّحية[2]، أي: المبدأ منهما، ومعنى آنفًا: مبدأ الوقت الَّذي وقع فيه الكلام، وهي على ذلك ظرف، أو هي

(1) ابن فارس، المقاييس: (أنف).
(2) الراغب، المفردات: (أنف).

اسم فاعل يُراد به وصف المتكلِّم بحالةِ الابتداء، أي: مُبْتَدِئًا قبل انفصالنا عنه[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المكر والإعراض واتِّباع الأهواء من أصول النِّفاق

تصوِّر الآيةُ الكريمةُ تصويرًا بليغًا ما كان عليه المنافقون من مكر وخداع، ومن خبثٍ وسوء طويَّة، وتردُّ عليهم بالذَّمِّ الشَّديد الَّذي يناسب جرمهم، فتقول: ومن المنافقين من يستمع إليك - أيُّها الرَّسول - سماعًا لا قبول معه، بل مع إعراض، حتَّى إذا خرجوا من عندك؛ قالوا للَّذين آتاهم اللّٰه علمًا: ماذا قال من حديثه قريبًا؟ تجاهلًا منهم وإعراضًا، أولئك هم الَّذين ختم اللّٰه على قلوبهم، فلا يصل إليها خير، واتَّبعوا أهواءهم، فأعمتهم عن الحقِّ[2]، ثُمَّ يعقِّب سبحانه على ذلك ببيان حال المؤمنين الصّادقين، فيقول: أمّا الَّذين اهتدوا إلى الحقِّ، واستجابوا له، وخالطت بشاشته قلوبهم؛ فهم الَّذين زادهم اللّٰه تعالى هداية على هدايتهم، وزادهم علمًا وبصيرة وفقهًا في الدّين، ومنحهم بفضله وإحسانه خُلُقَ التَّقوى والخشية منه، والطّاعة لأمره، وكافأهم على ذلك بما يستحقّون من ثواب جزيل[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواو ودلالتها:

غرض الاستئناف تعليل المعاني السّابقة بطريق الإخبار

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ للاستئناف، فالكلام مستأنفٌ مَسوقٌ؛ لبيانِ جانبٍ آخرَ من استهزائهم وتعنُّتهم، فقد كان المنافقون يحضُرون مجلسَ رسولِ اللّٰه ﷺ، فيسمعون كلامه، ولا يَعونَه، ولا يُلْقون إليه بالًا، فإذا خرجوا من المجلس؛ سألوا

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 467.
(2) طنطاوي، الوسيط: 13/ 233، والمختصر في التفسير، مركز تفسير.
(3) طنطاوي، الوسيط: 13/ 233.

أهل العلم من الصَّحابة ماذا قال السّاعة على جهة الاستهزاء، وقيل في خطبة الجمعة، فتكون الآية مدنيَّة[1].

تعيين مرجع الضَّمير:

المشركون أصنافٌ منهم المنافقون

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾ يعود إلى مفهوم من الآياتِ السّابقة، الَّتي أشارت إلى المشركين، وتوعَّدتهم بالعذاب في الدُّنيا والآخرة، ففي قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾، إشارةٌ إلى المشركين، وقوله تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ إشارةٌ أخرى إليهم، فهم الموصوفون بأنَّهم ممَّن زيَّن لهم الشَّيطان أعمالهم، واتَّبعوا أهواءهم، وهم المتوعَّدون بأن يُسقَوا ماءً حميمًا، فقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾، أي: ومن هؤلاء المشركين منافقون، جاؤوا يستمعون إليك[2]، فيكون الضَّمير عائدًا على المجموع الكلّيِّ من المشركين، والمقصود بالكلام المنافقون الَّذين هم بعض المشركين.

نوع (مِنْ) ودلالتها:

حرف (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ﴾ للتَّبعيض، أي: بعضٌ من المشركين الضّالين، من يستمع إليك، وهم المنافقون.

دلالة المخالفة بين الضَّميرين في السّياق:

المسموع واحد، وفعل الخروج يأتي متدرِّجًا

جاء فعل ﴿يَسۡتَمِعُ﴾ مسندًا إلى ضمير مفرد باعتبار لفظ الموصول ﴿مَّن﴾، وجُمِعَ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿خَرَجُواْ﴾ باعتبار معنى الموصول، ونكتة الإفراد في ﴿يَسۡتَمِعُ﴾: وحدة المسموع، فجميعهم يسمع شيئًا واحدًا، وفيه إشارة إلى قلَّة المستمعين فيهم بالأُذُنِ

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 297، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 96، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 211.
(2) الخطيب، التفسير القرآني: 13/ 334.

الواعية، ونكتة الجمع في: ﴿خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ﴾ إشارة إلى كثرة المعرضين الجاحدين المستهزئين[1]، وأنَّهم خرجوا تدريجيًّا، والإعراض بعد الاستماع يتفاوت بحسبِ تقديرِ كلِّ واحدٍ لما استمع، فظهر التَّعدُّد، فَناسَبَه الجمع.

دلالة صيغة الافتعال:

تفاعلُ المنافقين تفاعل المتربِّص المترقِّب لا تفاعل المقبل المنتفع

مجيء الفعل على صيغة (افتعل)، في قوله: ﴿يَسۡتَمِعُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم يتكلَّفون سماع الحقِّ على غير طواعيةٍ منهم؛ لاستثقالهم البيان، كأنَّه استماع الكاره المُضْطَرِّ، كما قال تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾ [الشّورى: 13]، أو للدَّلالة على المبالغة والاجتهاد والقوَّة في تحصيل الفعل، أي: يتحرَّون بغايةِ جُهدِهم لعلَّهم يجدون في المتلوِّ مَطعنًا يشكِّكون به على الضُّعفاء[2]، فيُقبِلون عليه إقبال المتربِّص لا إقبال الحريص.

غرض حذف المفعول:

حُذِف مفعول فعل ﴿يَسۡتَمِعُ﴾ للعموم، فهُم يستمعون القرآن، ويستمعون السُّنَّة، ويستمعون الأجوبة على أسئلة الصَّحابة، وجماع ذلك كلِّه هو الاستماع للخير والهدى.

دلالة ﴿حَتَّىٰٓ﴾ الوظيفيَّة:

أداة (حتَّى) جامعةٌ بين غاية السّابق وابتداء اللّاحق

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾ حرف غايةٍ وابتداء[3]، فهي هنا تجمع بين وظيفتين، فهي غاية لفعل الاستماع، أي: إنَّ استماعهم يَمتدُّ إلى أن يخرجوا، فالخروج هو نهاية الاستماع، وهي كذلك هنا حرف ابتداء يمهِّد للانتقال إلى جملة جديدة (ابتداء)، فما بعدها ليس جزءًا من الحدث السّابق، بل هو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 225.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 225.
(3) الخطيب وآخرون، التفصيل: 26/ 125.

انتقال إلى مشهدٍ جديد، وهو قولهم المستهزئ بعد الخروج، وعليه: فأداة ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ليست للغاية المحضة بل هي دمجٌ بين وظيفتين.

دلالة استعمال ﴿إِذَا﴾:

الوقت يكشف خفايا المنافقين في الخداع والمكر

﴿إِذَا﴾ ظرف زمان متعلِّق بـ ﴿قَالُواْ﴾[1]، ممّا يعني أنَّ الآية تصوِّر لنا انتقالًا زمنيًّا مفاجِئًا: يستمعون إليك، وكأنَّهم مهتمّون، ثمَّ ما إنْ يخرجوا حتّى ينكشف حالُهم بقولهم المتعجرِف، وهذا التَّصوير يحمِل تهكُّمًا وسخرية خفيَّة؛ إذ يُظهِر تناقضَهم بين حال الاستماع وحال الاستهزاء بعد الخروج، ممّا يكشف نفاقهم وسطحيَّتهم في التَّعامل مع كلام النَّبيِّ ﷺ، فهذه البنية البلاغيَّة توحي بأنَّهم لا يستمعون لغرض الفهم والاهتداء، بل فقط للحضور الشَّكليِّ المترصِّد، ثُمَّ ينفضح أمرهم فور خروجهم، فجاءت ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾؛ لترسِم هذا المشهدَ بدقَّةٍ وسلاسة.

بلاغة استعمال مفردة الخروج:

الدَّلالة على الانتقال من داخل المسجد إلى خارجه والإيماء للخروج من الإسلام

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الخروج، في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾ دون المغادرة، أو الذَّهاب، أو الانتقال؛ للدَّلالة على الانتقال من داخل المسجد - الَّذي يُتلقّى فيه الهدى، ويُسمع فيه الوحي - إلى الخارج، وللإيماء إلى أنَّهم بخروجهم قد خرجوا من الإسلام لاستهزائهم برسول الله ﷺ وبالقرآن، وهذه الدَّلالة الإيمائيَّة إنَّما تُؤخذ من السّياق، لا من بنية اللَّفظ ودلالته اللُّغويَّة المحضة.

نوعُ ﴿مِنۡ﴾ ودلالتها:

احتمال التَّعدية والابتداء مرتبط بالسّياق

تحتمل ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾ أن تكون للتَّعدية[2]، فدورها حينئذٍ إيصال معنى الفعل ﴿خَرَجُواْ﴾ إلى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 99.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 99.

الظَّرف ﴿عِندِكَ﴾، فهي ليست مجرَّد بيان للمكان، بل تربط الفعلَ بمصدر الخروج، وتحتمل أن تكون لابتداء الغاية المكانيَّة تتعلَّق بالفعل قبلها[1]، أي: إنَّ الخروج بدأ من ﴿عِندِكَ﴾.

نكتة استعمال الظَّرف ﴿عِندِكَ﴾:

ترك المنافقون شرف المكان وشرف الرِّجال

الظَّرف (عند) ظرف مكان، وهو كنايةٌ عن مكان جلوس النَّبيِّ ﷺ في المسجد عند تعليم النّاس القرآن والإسلام، ولم يقل: (من المسجد) لشديد الذَّمِّ، فخروجهم كان من عند شخص النَّبيِّ ﷺ، والمكان الَّذي يجلس فيه، فجمع الظَّرف المضاف إلى الضَّمير شرف الرَّسول وشرف المكان، والمنافقون خرجوا من هنالك لضعف عقلهم، وذهاب حجَّتهم، فاستحقّوا شديد الذَّمِّ.

بلاغةُ استعمال الاسم الموصول:

إيتاء العلم تفضيلٌ إلهيٌّ يفوق الاكتساب البشريَّ

آثر النَّظم الكريم تسمية علماء الصحابة، أو الذين يستمعون القول للاتِّباع والاهتداء، بقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾[2]، لدلالات بلاغيَّة متعدِّدة، منها: الإعلاء من شأنهم، فلم يقل: (العلماء) أو (المؤمنون)، بل استعمل وصفًا يدلُّ على التَّشريف والتَّكريم، فالإيتاء من اللّه ﷻ، وهو أبلغ من مجرَّد الاكتساب، فيفيد أنَّ علمهم موهوب من اللّه، وليس مجرَّد تحصيل بشريٍّ، وللإشارة إلى علمهم الرّاسخ، فصيغة ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ توحي بأنَّهم ليسوا مجرَّد متعلِّمين، بل نالوا العلم، وتمكَّنوا منه، على جهة الرُّسوخ فيه، بخلاف المنافقين الَّذين لا يعقلون، ولا يفقهون.

وللتَّعريض بالمنافقين، فالمنافقون سمعوا، لكنَّهم لم يُؤْتَوا العلم، بل خرجوا فارغين، فيكونوا بسؤالهم جاهلين ساخرين في آنٍ واحد، وهذا يؤكِّد أنَّ المشكلة ليست في وضوح كلام النَّبيِّ ﷺ، بل في

---

(1) قباوة، المفصل، ص: 1795.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 298، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 206.

قلوبهم المختومة الَّتي لا تقبل الفهم، فهذه التَّسمية إذًا ليست مجرَّد وصف، بل تحمل في طيّاتها تشريفًا للمؤمنين، وتوبيخًا للمنافقين، وإشارةً إلى معيار الفهم الحقيقيِّ للوحي.

بلاغة الاستفهام ودلالته بين الحقيقة والمجاز:

الكشف عن خفايا النُّفوس الجامعة بين التَّهاون والاستهزاء

الاستفهام الواقع مقولًا لقول المنافقين، في قوله تعالى: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾، إمّا على جهة الاستعلام، فيكون قد خرج مخرج الحقيقة، وذلك محمولٌ على أنَّ المنافقين لمّا كانوا أهل إعراضٍ وكَذِب؛ لم يثبتِ العِلمُ في صدورهم، وإن تحقَّق استماعهم له من قبل، فإنَّ العِلمَ يعزُبُ عن النُّفوس المتهاونةِ به، والأظهر أنَّه على سبيل الاستهزاء والسُّخرية من كلامه ﷺ[1]، كأنَّهم قالوا احتقارًا لكلامه: أيُّ فائدةٍ فيه؟[2] أو أن يكون سؤالهم تعريضًا بأنَّهم سمعوا كلامًا لا يُستبان المرادُ منه؛ لإدخال الشَّكِّ في نفوسِ المُقبلين على مجالس النَّبيِّ ﷺ؛ تعريضًا لقلَّة جدوى حضورها[3]، فيكون ذلك صَدًّا منهم لغيرهم عن مجالس العلم والإيمان والخير والهُدى.

والمعنيان - الحقيقيُّ والمجازيُّ - يُنبئان عن الإعراض وفواتِ انتفاعهم بفوات إقبالهم، فالمعنى الحقيقيُّ يَصِفُ إعراضهم وقت التَّلقّي، والمعنى المجازيُّ يَصِفُ إعراضهم بعد التَّلقّي، وكلاهما ذمٌّ لهم، ونعيٌ على عقولهم بالبلادةِ والسَّفَه.

دلالة حذف الفاعل:

من أمارات الاستهزاء بالقائل عدم التَّصريح باسمه أو نعته

حُذِف فاعل فعل القول في قوله تعالى: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾، والضَّمير عائدٌ على الرَّسول ﷺ المفهوم من قوله تعالى: ﴿يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾، وحذف الفاعل يدلُّ على عدم توقيرهم، وسوء أدبهم،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 206.
(2) ابن جزي، التسهيل: 2/ 282.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 101.

وذهاب حيائهم، فإنَّ عادة النّاس أنَّها تحذف الفاعل في مثل هذا التَّركيب، فيقولون: (ماذا قال؟) تحقيرًا لقيمة الكلام الصادر عن شخص بعينه، وهذا يصدق فيه قوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [محمّد ﷺ: 30] - كما سيأتي - وهذه من شيَم المنافقين، ومعالم سلوكهم في كلامهم.

طلب معرفة ما قيل في بدايات الكلام يدلُّ على غفلةِ البدايات وضعف فهم الغايات

بلاغة استعمال لفظ ﴿ءَانِفًاۚ﴾:

الأُنُف مستعار في اللُّغة من الأنْف التي هي الجارحة؛ لِتقدُّمِها من بين أجزاء الوجْه[1]، فكما أنَّ الأنف مبدأُ الوجه، كذلك الاستئناف هو مبدأ الأمور، ولفظ ﴿ءَانِفًاۚ﴾ إن كان اسم فاعلٍ؛ فهو حالٌ من ضمير: ﴿قَالَ﴾، أي: ماذا قال مُبتدِئًا أو مؤتنِفًا، أي: القول الَّذي ائتنفه، وابتدأه قبل انفصالهم عن مجلسه[2]، فهُم يستعيدون كلامه من الابتداء، "كما يقول المُستعيد للمُعيد: أعِد كلامك من الابتداء حتَّى لا يفوتني شيء منه"[3]، بخلاف ما لو قالوا: (ماذا قال من قبل؟) فليس فيه تعيين المبدأ المتقدِّم، وإن كان ﴿ءَانِفًاۚ﴾ ظرفًا بمعنى السّاعة، أي: (ماذا قال السّاعة؟) فالتَّعبير بلفظ: ﴿ءَانِفًاۚ﴾؛ للدَّلالة على السّاعةِ الَّتي وقع فيها مبادِئُ الحَدَث، فالمراد أيضًا استعادة الكلامِ من مُقدَّم وقتِه، ففيه إيماءٌ إلى أنَّهم يُريدون استعادة ما سُمِع من البداية؛ تعلُّلًا أنَّهم لم يكونوا حاضرين، أو أنَّهم أتوا متأخِّرين.

علامات الباطل تظهر في فلتات اللِّسان ولحن الكلام

بلاغة الاستئناف البيانيّ:

فُصِل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾؛ لأنَّه شبه كمال اتِّصال؛ لأنَّ قولهم: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾ سؤالٌ غريبٌ من شأنه إثارة سؤالٍ من يسأل عن سبب إيراده منهم،

(1) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 26.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 467.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 50.

وذلك مُتأتٍّ على المعنيين الحقيقيِّ والمجازيِّ في مرادهم منه(1)، فإنَّ المؤمن الحصيف بمجرَّد أن يسمع هذا السُّؤال؛ فإنَّه سيتَّجه سائلًا عن حال أولئك السّائلين؟ فتأتي الإجابة واضحةً لا احتمال فيها.

نكتة استعمال اسم الإشارة للبعيد:

آثر النَّظم الكريم استعمال اسم الإشارة للبعيد، في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ لبيانِ بعدهم عن الحقِّ، وبعدهم عن مواضع الشَّرف، ومواطن المجد.

دلالة استعمال الاسم الموصول:

لا يطبع الله على قلوب العباد إلّا إن انحرفوا عن الحقِّ، وأبوا الإيمان بالحقِّ

آثر النَّظم الكريم استعمال الاسم الموصول، في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ وذلك للدَّلالةِ على أنَّهم معروفون بصفاتهم التي تُبيِّن أنَّهم قوم قد طبع على قلوبهم، وأُبعدوا عن القبول في كتاب القبول، واستحقّوا الإبعاد بسبب الطَّبع، فإنَّ جملة صلة الموصول تُزيل إبهام الاسم الموصول، كأنَّه قيل: أولئك مبعدون عن الفقه وحسن الاستماع المؤدّي إلى الهدى؛ لأنَّ اللّه طبع على قلوبِهم، أو أراد تحقيرهم، فهُم أحقر من أن يعلموا، ويفقهوا ما قاله اللّه ورسوله، فقد طبع اللّه على قلوبهم.

توجيه عطف اتِّباع الهوى على الطَّبع على القلوب:

اتِّباع الهوى علَّة الطَّبع على القلوب

عُطِف قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾، على الطَّبع على القلوب في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ لإبراز العلاقة بين الطَّبع واتِّباع الهوى، فقدَّم ذِكرَ الطَّبعِ على القلوب، ثُمَّ أتبع ذلك بذكر اتِّباع الهوى؛ للإيماء إلى أنَّ الطَّبع على القلوب هو المقدِّمة لاتِّباع الأهواء، فبعد أن طبع اللّه على قلوبهم اتَّبعوا أهواءهم، أو أن يكون العطف من باب الإخبار عمّا صدر عنهم قبل الطَّبع على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 101.

القلوب؛ تذكيرًا بما صدر عنهم، فهو من باب عطف العلَّة على المعلول، أي: طبع اللّه على قلوبهم؛ لأنَّهم اتَّبعوا أهواءهم، فطَبْعُ اللّه على قلوبهم نتيجةٌ عن اتِّباع أهوائهم أوَّلًا، وهو سببٌ أيضًا لبقائهم واستمرارهم على حال اتِّباع الهوى ثانيًا[1].

نوع الواو ودلالتها:

الأرواح تتباين في رفض الحقِّ وقبول الهداية

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ استئنافيَّة، فالجملة استئنافٌ للحديث عن صفات المؤمنين بعد الحديث عن صفات المنافقين، وتحتمل أن تكون اعتراضيَّة، والجملة معترضة بين جملة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، وما تفرَّع عنها من قوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾، وغرض الاعتراض: مقابلة فريق الضَّلالة بفريق الهداية على الأسلوب الَّذي أقيمت عليه هذه السّورة، كما تقدَّم في أوَّلها، فهذا أسلوب مستمرٌّ، وإن اختلفت مواقِعُ جُمَلِه[2].

نكتة التَّعبير بالاسم الموصول:

مكافأة أهل الحقِّ بمزيد الطَّاعات سنَّةٌ إلهيَّة يعرفها المؤمنون

جاء التَّعبير بالاسم الموصول عن المبتدأ، في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾؛ للإشعار بسبب استحقاق الزّيادة في الهدى، في قوله: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾، فلم يقل: (المهتدون زادهم هدى)، بل جاء بالموصول ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾؛ لما في ذلك من دلالة على العِلّيَّة والسببية، أي: إنَّ سبب زيادة الهداية لهم هو أنَّهم اهتدوا من قبل، وفي التعريف بالصِّلة إيذانٌ بالمقابلة مع التعريف بالصِّلة في الفريق الآخر في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، فهؤلاء المهتدون متميّزونَ أكمل تمييزٍ على جهة المدح والإكبار، وهؤلاء المنافقون متميّزون أكمل تمييزٍ على جهة الذَّمِّ والصَّغار.

فالتعبير بالموصول وصِلته يرسِّخ مفهوم التفاوت بين الفريقين في

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 27.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 115، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 102.

جزائهم للمقابلة اللفظية بينهما، فكما أنَّ الضالَّ يُطبَع على قلبه، فإنَّ المهتدي يُزاد من الخير، وفي هذه مقابلة للمؤمنين بالمنافقين، فكما كان التَّحقير للمنافقين فيما سبق في الآية الكريمة؛ كان التَّعظيم للمؤمنين في هذه الآية بالاهتداء والزّيادة عليه.

نكتة التَّعبير بصيغة ﴿ٱهۡتَدَوۡاْ﴾:

استمرار الإمداد على حسبِ مقدار الاستعداد

جاء التَّعبير بصيغة ﴿ٱهۡتَدَوۡاْ﴾ دون أن يُقال: (الَّذين هداهم اللّه)؛ لإبراز دورهم في اختيار الهداية وسلوكها، فهم لم يُجبروا عليها، بل سعوا إليها بإرادتهم، ففيه مدحٍ وثناء عليهم، وفي تحقيق فعل الهداية وفعل الزّيادة بمجيئهما على صيغة الماضي، في قوله: ﴿ٱهۡتَدَوۡاْ﴾، ﴿زَادَهُمۡ﴾ إلماحٌ إلى أنَّ الهدى لا يتوقَّف عند حدٍّ، بل هو درجاتٌ يتصاعد فيها العبد بحسب سعيه.

كما أنَّ هذه الصّيغة تدلُّ على الحرص والاجتهاد في تحصيل الهداية، أي: حملوا أنفسهم على اعتناق الهداية، وتخلَّصوا من وازع الهوى، فيلزم عن ذلك أنَّ اتِّصافهم بالهداية كان عن اختيارٍ منهم وإرادةٍ ذاتيَّة، لا عن قسرٍ وإجبار، وتدلُّ الصّيغة على التَّدرُّج، أي: دخلوا في مَراقي الهداية درجةً درجةً، حتّى تمكَّنوا منها، وثبتوا عليها، وهذا المعنى بديع المناسبة مع قوله: ﴿زَادَهُمۡ هُدٗى﴾؛ لأنَّ الهدايةَ مَراقٍ ودرجات، كلَّما اجتهدوا فيها؛ زيدوا منها بقدر ما استمسكوا منها، وتدلُّ الصّيغة على إظهار الفعل، فمعنى قوله: ﴿ٱهۡتَدَوۡاْ﴾، أي: أظهروا خُلُقَ الهداية، فأماراتها ظاهرةٌ عليهم، وذلك على غرار قولهم: (اعتذر فلان)؛ إذا أظهر العُذْر، وتدلُّ الصّيغة هنا على القوَّة والمبالغة في القيام بالفعل، فمعنى ﴿ٱهۡتَدَوۡاْ﴾، أي: أخذوا أسباب الهدايةِ بقوَّة، وتناولوها بعزْمٍ وصدق.

براعة العدول عن الاهتداء إلى الهدى:

آثر النَّظم الكريم استعمال المصدر ﴿هُدٗى﴾، دون (اهتداء)،

الاهـتـداء جُهْدٌ بـشـريٌّ، وهـو دلــيــل طـلـب الهُدى الإلهيّ

وهو مصدر الفعل: ﴿ٱهْتَدَوْا۟﴾؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ (الهدى) فضلٌ من اللّٰه تعالى، وليس مجرَّد فعلٍ من العبد، أي: إنَّ الفعل (اهتدى) بصيغة (افتعل)، يدلُّ على سعي العبد لاكتساب الهداية بنفسه، وأمّا ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾؛ فجاء بصيغة الاسم المجرَّد (هدى)؛ للإشارة إلى أنَّ الهداية هنا صارت نعمةً خالصةً من اللّٰه يُفيضها عليهم، بعد أن سعوا إليها، كأنَّه قيل: لَمّا اجتهدوا في طلب الهداية، كافأناهم بأن زدناهم نورًا وهدًى إضافيًّا، لم يكونوا؛ ليحصلوا عليه بأنفسهم، فالهدى في قوله: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾، أعلى في جنسه وحقيقته من الاهتداء في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾، وللدَّلالة على هذا التَّباين لم يقل: (زادهم اهتداء)، أي: زادهم جنسًا آخرَ من الهداية لم يكونوا عليه، هو في حقيقته محض فضلٍ من اللّٰه تعالى، عندما فتح العبد يديه، وأطلق لسانه بطلب الهداية، كما أنَّ المصدر ﴿هُدًى﴾ أقوى دلالة على الرُّسوخ والثَّبات من (اهتداء)؛ لدلالته على الأصل المجرَّد من غير زيادةٍ تتعلَّق بعملِ الفاعل، فكأنَّه جاء بأصل الهُدى وحقيقته المجرَّدة، واستودعها في نفوسهم، فصار معنى الهداية متمكِّنًا منهم مُشرَبين به لا يفارقهم(1).

تقدير الفاعل بين الحقيقة والمجاز:

الهدى من اللّٰه تـعـالى ابـتـداءً وانتهاءً

الفاعل لفعل الزّيادة في قوله تعالى: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ هو اللّٰه سبحانه، بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 73]، أي: لا هدًى إلّا منه، فمنه يأتي الهدى على الحقيقة، وقوله تعالى: ﴿ٱهْتَدَوْا۟﴾ أي: طلبوا الهداية من اللّٰه؛ إذ هو الهادي، فهداهم ابتداءً، وزادهم هدًى بعد ذلك، فهما أمران، الهداية الأوَّليَّة، ثُمَّ الزّيادة في الهداية، وكلاهما من اللّٰه تعالى.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 50.

والقول بأن يُقدَّر الفاعل: (زادهم الرَّسول هدًى)؛ على اعتبار أنَّهم كانوا يستمعون إليه في مجلسه، فَزيدوا به عِلمًا وخشية، وازداد المنافقون به بلادةً وإبعادًا، ومثله القول أن يُقدَّر الفاعل: زادهم تشكيكُ المنافقين وإرجافُهم هدايةً وثباتًا، أو زادهم العِلمُ الَّذي تعلَّموه في مجلس النَّبيِّ هُدًى، فجمع بين الاتِّصاف بالعِلم والاتِّصاف بالهداية، فهي من قبيل المجاز العقليِّ، بإسناد الفعل إلى سببِه[1].

نكتةُ العطف بين الجمل:

بلـوغ التَّـقـوى علامةٌ على إثمار الهدايةِ في قلبِ العبد

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿زَادَهُمۡ هُدٗى﴾؛ ليُبيِّن أنَّ الزِّيادة في الهدى لم تكن مجرَّد إرشادٍ أو بيانٍ نظريٍّ، بل أثمرت تقوى عمليَّة، فكأنَّ زيادة الهدى كانت السَّبب في إيتاء التَّقوى؛ ليدلَّ بذلك على تدرُّج العبد في مراقي الفضل الرَّبّانيِّ، فالتَّقوى أثرٌ من آثار الهدى؛ إذ الهدى بوّابة التَّقوى، فمن لم يهده اللّه للإسلام والإيمان؛ فلن يوفَّق للتَّقوى.

بلاغة المجازِ بحذف المضاف:

التَّخلُّق بالتَّقوى عـلامـةٌ ظـاهـرة عـلـى الـهـدايـة الباطنة

قوله: ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ جارٍ على حذف مضافٍ، تقديره: (وآتاهم خُلُقَ تقواهم)، أو (وآتاهم ثوابَ تقواهم)[2]، وفائدة الحذف: التَّوسُّع في المعنى؛ ليشمل كلا التَّقديرين (خلق التَّقوى وثوابها)، فلو قُيِّد اللَّفظ بأحد المعنيين؛ لضاق دلالةً، أمّا بحذفه؛ فصار المعنيان متحقِّقين معًا، وفي حذف المضاف إيجازٌ بليغٌ يزيد من ثِقَل المعنى وعُمقِه، بمُضاعفةِ القوَّة التَّأثيريَّة للمعنى، فحين تُقْرأ الآيةُ من غير مُضافٍ، يُدرك القارئُ أنَّ اللّه آتاهم (التَّقوى) ذاتها، وكأنَّها شيءٌ محسوس يُعطَى، فيعرف أنَّ التَّقوى هِبَةٌ إلهيَّةٌ عظيمة،

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 27، والقنوجي، فتح البيان: 13/ 64.
(2) القنوجي، فتح البيان: 13/ 64.

قبل أن تكون كَسْبًا بشريًّا يحقِّقونه في أعمالهم، فيترسَّخ في قلب العبد قيمة التَّوفيق الإلهيِّ.

دلالة إضافة التَّقوى إلى الضَّمير:

تقوى المؤمنين معهودةٌ في جمالِها وجلالِها

أُضيف لفظ التَّقوى في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾، إلى الضَّمير العائد على المهتدين؛ وذلك لبيان أنَّ لهؤلاء تقوًى معهودةً لا ينالها إلّا المؤمنون الصّادقون الموفَّقون، والإضافة بمعنى (اللّام)، أي: تقوى لهم، فهي خاصَّة بهم، وهم يستحقّون المدح بسببها.

بلاغة التَّقابل بين أوصاف الفريقين:

الطَّبعُ إيصادٌ وإغلاق، والهُدى فتحٌ وإشراق

قابل النَّظم الكريم بين أوصاف الفريقين، فقوله تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ في حق المنافقين، يُقابل قوله: ﴿زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ في حقِّ المؤمنين؛ لأنَّ الطَّبع يحصل بانغلاق القلبِ التّامِّ عن بصائر الوحي، ولا يحصل هذا إلّا بزيادةِ ظُلُماته وتراكُم ضلاله، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾، يقابل قوله: ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾، فإنَّ استمرارهم على اتِّباع الهوى هو نتيجةُ الطَّبع على قلوبهم، وكذلك تحقيقهم التَّقْوى هو نتيجة زيادتهم بالهدى[1]، وهذا التَّقابل بين أوصاف الفريقين، يقود إلى معرفة أسرار القبول، وعلل التَّوفيق.

(1) القنوجي، فتح البيان: 13/ 64.

﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ١٨ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمّد ﷺ: 18 - 19]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

الانتقال من بيان الأحوال إلى التَّحذير من حقيقة المآل

لمّا ذكرتِ الآيات السّابقة تمايز النّاس في الأحوال والأعمال والمآل؛ فرَّع على ذلك ما يستوجبه ذلك من ضرورةِ الانفعال بحسب كلِّ حال، فإذا كان حال الكافرين والمنافقين ما تقرَّر؛ فليحذروا السّاعةَ قبل فوات الأوان، وإذا كان حال المؤمنين ما سبق، فلْيلزموا أصل العِلْمِ بالتَّوحيد الخالص، وأصلَ العملِ بالاستغفار والتَّوبة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنظُرُونَ﴾: أصل (نظر) تأمُّلُ الشَّيءِ ومعاينتُه، ومنه: نَظَرتُهُ، أي: انتظرته، كأنَّه ينظر إلى الوقت الَّذي يأتي فيه[(1)]، ومعنى: ﴿يَنظُرُونَ﴾ في الآية: أي: يَنتَظِرونَ، ولَكِنَّهُ جَرَّدَهُ؛ إشارَةً إلى شِدَّةِ قُرْبِها[(2)].

2) ﴿أَشۡرَاطُهَاۚ﴾: أصل (شرط) يَدُلُّ عَلَى عَلَمٍ وعَلامَةٍ، وما قارَبَ ذَلِكَ مِنْ عَلَمٍ، من ذَلِكَ، الشَّرَطُ - بفتحتين -: العَلامَةُ، وأشْراطُ السّاعَةِ: عَلاماتُها[(3)]، والشَّرْط الصَّناعيُّ والشَّرعيُّ من ذلك؛ لأنَّه علامة لترتُّب الحكم عليه، ألا ترى إلى قولك: إن قمتَ؛ أكرمتُك؟ فالقيام علامةٌ لوقوع الإكرام مرتَّبًا عليه، وقولك: إنْ دخلتِ الدّار؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نظر).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 228.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرط).

فأنتِ طالق، فدخول الدّار علامةٌ على وقوع الطلاق[1]، والمراد هنا: ما جاء من أشراط السّاعة التي هي علاماتٌ موجِبةٌ لمجيئها، كمبعث النَّبيِّ ﷺ، ومنها انشقاق القمر، وكثرة المال، والتِّجارة، وشهادة الزّور، وقطع الأرحام، وقلَّة الكرام، وكثرة اللِّئام[2].

3) ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾: أصل (قلب): يدلُّ على ردِّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهة[3]، وتقليب الشَّيء: تغييره من حالٍ إلى حال، وتقليب الأمور: تدبُّرها والنَّظر في عواقبها[4]، كأنَّ النّاظر فيها يتصرَّف فيها بعقلِه؛ ليراها من جميع وجوهها؛ حتّى يستخلص منها قرارًا، ومعنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾، أي: يعلم تصرُّفاتكم في جميع أحوالكم، ويعلم مَقامكم وقراركم في الدُّنيا والآخرة[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

النّاس صنفان قلوبٌ على الطبع استقرَّت، وأخرى بالهدى ارتقَت

تعود السّورة الكريمة إلى توبيخ هؤلاء المنافقين على غفلتهم وانطماس بصائرهم، فتخاطبهم بلهجة الوعيد والتَّوبيخ: ما ينتظر هؤلاء الجاهلون إلّا السّاعة، الَّتي سيفاجئهم مجيئها مفاجأة بدون مقدِّمات، والحقُّ أنَّ علاماتها قد ظهرت دون أن يرفعوا لها رأسًا، ودون أن يعتبروا بها، أو يتعظوا لاستيلاء الأهواء عليهم.

ولكنَّهم عندما تداهمهم السّاعة بأهوالها، ويقِفون للحساب، يتذكَّرون، ويؤمنون باللّه ورسله، ولكنَّ إيمانهم في ذلك الوقت لن ينفعهم؛ لأنَّه جاء في غير محلِّه الَّذي يُقبَل فيه، وتذكُّرهم واتِّعاظهم لن يفيدهم؛ لأنَّه جاء بعد فوات الأوان، فإذا تبيَّن لك ما سقناه عن

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شرط).
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 469.
(3) ابن فارس، المقاييس: (قلب).
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: (قلب).
(5) الزجاج، معاني القرآن: 5/ 12، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 116.

حال السُّعداء والأشقياء[1]، فأيقِن - أيُّها الرَّسول - أنَّه لا معبود بحقٍّ غير اللّه، واطلب من اللّه المغفرةَ لذنوبك، واطلب المغفرةَ منه لذنوب المؤمنين وذنوب المؤمنات[2]، واللّه يعلم متقلَّبكم في الدُّنيا في جميع أحوالكم وتصرُّفاتكم فيها، ويعلم مثواكم في الآخرة، وما ينتهي إليه مصيركم في أحوال المَعاد وما بعد الموت، فلا يخفى عليه شيءٌ من أمركِم مِن مَبدئِكم إلى مَرجِعِكم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الفاء ودلالتها:

انـتـظـار المصير المحتوم انتظارٌ لما لا مهرب منه

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ تفريع على ما مضى من قوله تعالى: ﴿۞أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [محمّد ﷺ: 10]، إلى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾، وهذا السّياق وصفٌ لأحوال الكفرة ووعيدٌ لهم، ففرَّع عليه أنَّهم ينتظرون حلول السّاعة؛ لينالوا جزاءهم[3].

دلالة الاستفهام في قوله: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾:

إذا استوفيَتِ الحُجَج؛ لم يبقَ إلّا الهلاك

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ استفهام إنكاريٌّ تهكُّميٌّ[4]، يوبِّخ الكفّار على استخفافهم بوقوع السّاعة، ومعنى الإنكار هنا: إنكارُ انتظارِهم وتباطئِهم في الإيمان والعمل، وكأنَّهم لا يتوقَّعون السّاعة رغم أنَّ دلائلها ظاهرة، وعلَّة التَّهكُّم بهم: أنَّهم في حالٍ كأنَّهم يؤجِّلون التَّصديق أو الاتِّعاظ إلى أن تفجأهم السّاعة، وهذا حال السَّفيه المجنون الَّذي يؤجِّل عملَ الشَّيء إلى الوقتِ الَّذي لا ينتفع به فيه، أي: أتراهم ينتظرون السّاعة؟ فبئس ما ينتظرون! لوباله عليهم، وبئس وقت الإفاقة حينها!

---

(1) طنطاوي، الوسيط: 13/ 234.
(2) المختصر في التفسير، مركز تفسير.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 102.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 102.

بلاغة الرَّبط بين الجمل:

تدبُّرُ السّياق القرآنيّ أكبر معينٍ على الرَّبط بين المعاني

الجمل القرآنيَّة في سياق المقطع الواحد مترابطةٌ فيما بينها، فالاستفهام الإنكاريُّ في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ ناظرٌ إلى قوله آنفًا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾، أي: إنَّ هذا الاستفهام يأتي في سياق الرَّدِّ على استغراب القارئ: لماذا يعيش الكافرون مستمتعين رغم كفرهم؟ فيُقال له: هم يتمتَّعون؛ لأنَّهم مُمهَّلون فقط، لا لأنَّهم ناجون، وهم ينتظرون ساعةً ستأتيهم بغتةً، وهي أقرب ممّا يظنّون، فقد جاء أشراطها[1].

تعيين مرجع الضَّمير:

المـخـذول من انتظر العذاب بدل بِداره إلى الهُدى

الضَّمير في: ﴿يَنظُرُونَ﴾ راجعٌ إلى المذكورين في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾، وليس راجعًا إلى ضمير المؤمنين، بدليل قوله بعده: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾.

نكتة التَّعبير بصيغة ﴿يَنظُرُونَ﴾:

استمرار الانتظار كنايةٌ عن الغفلة وتعريضٌ بالحماقة

الفعل في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ جارٍ بصيغة الغيبة، مقصودٌ به فريق الكفرة، لكنَّه موجَّه إلى الرَّسول ﷺ، على سبيل التَّسلية له والتَّثبيت والتَّطمين، أي: لا تحسِب تأخيرَ مؤاخذتهم إفلاتًا من العقاب، فإنَّهم مُرجَون إلى السّاعة، وجاء بصيغة المضارع للزّيادة في الإنكار عليهم، كأنَّه قيل: أما زالوا ينظرون السّاعة؟ بعد سماع جميعِ الأدلَّة والبراهين على قيام السّاعة؛ فإنَّ المستمرَّ في انتظار القادم المهيب دون الإيمان به، فاقدٌ لعقله، تاركٌ لرشده.

نوع القصر ودلالته:

الاستثناء في قوله: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ استثناء مفرَّغ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 102، 103.

من أعمِّ الأشياء أفاد القصر، أي: (لا ينتظرون شيئًا إلّا السّاعة)، والقصر هنا ادِّعائيٌّ لا حقيقيٌّ؛ لأنَّ القصر الحقيقيَّ هو القصر الواقعيُّ التّامُّ، أي: إنَّهم فعلًا لا ينتظرون إلّا السّاعة، وهذا غير حاصل؛ لأنَّهم في الحقيقة لا ينتظرون السّاعة، بل ينتظرون المتع الدُّنيويَّة، ويتمنّون ألّا تقع السّاعةُ أصلًا، فحين يقال: (لا ينتظرون إلّا السّاعة)، فذلك على سبيل الادِّعاء البلاغيِّ؛ لأنَّ السّاعة وإن لم تكن مرجوَّةً في نظرهم، فهي آتيةٌ حتمًا ومفاجئةٌ لهم، وكأنَّهم ينتظرونها رغمًا عنهم، فالمعنى: نُزِّل حالُهم منزلةَ من لا ينتظر إلّا السّاعة؛ لأنَّ ذلك هو الَّذي ينتظرهم حقيقةً، وكلُّ ما يرجونه دونها لا يُعتَدُّ به، ولا يُلتفتُ إليه، فإن كانوا هم في أنفسهم ينتظرون غير ذلك، فإنَّ ما في أنفسهم غير مراعًى؛ لأنَّه باطل[1]، فلذلك نُزِّل انتظارهم ما يأملونه من المرغوبات في الدُّنيا منزلة العدم؛ لأنَّ هذه الدُّنيا فانية، وزائفة، وما فيها لا يُقارن بحلول السّاعة وهولها.

انتظار الكافرين للسّاعة انتظار وهميٌّ؛ لاعتقادهم أنَّ الحياة تسير بلا حساب

بلاغة القصر وغرضه:

القصر في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾، من أبلغ ضروب القصر البلاغيِّ؛ إذ يُقصر الفِعلُ على ما لا يريده الفاعل، لكن يُقصر عليه؛ لأنَّه في الواقع هو المنتظر حقًّا؛ ففيه تهكُّم وتحقير، وتعريض بأنَّهم يَسعَونَ إلى ما لا ينفعهم، بينما المصير الحقُّ يلاحقهم.

السّاعة تنتظر النّاس، وهم غارقون في سراب الآمال

دلالة استعمال لفظ ﴿بَغۡتَةٗۖ﴾ حالًا:

آثر النَّظم الكريم استعمال ﴿بَغۡتَةٗۖ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ﴾، وهي حالٌ من ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾، وهي مصدر من الفعل (بغَتَ) بمعنى فاجأ، واستُعمِلت في الآية؛ للدَّلالة

بغتةُ السّاعةِ دهشةٌ قاتلةٌ وزلزالٌ عنيفٌ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 116، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 468، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 103.

على مَرَّتِه الواحدة الفاصلة الَّتي تقع فجأة، وهذا المصدر مؤوَّلٌ هنا بالوصف المشتقّ (اسم الفاعل)، كأنَّه قيل: السّاعة آتيةٌ في حالٍ مُباغتَة[1]، وهذه الحال في قوله: ﴿بَغۡتَةً﴾ يرسم وقع الفاجعة عليهم، ويجعل حضور السّاعة ليس فقط عذابًا، بل صعقةً مفاجئة تقطع حجج التَّوبة والرُّجوع.

بلاغة الاستعارة التَّمثيليَّة:

التَّهكُّمُ بالغافلِ وسيلةٌ في إحياءِ يقظته وإلّا فوصفٌ لحماقته

في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً﴾ استعارةٌ تمثيليَّة في قصر فعل الانتظار على المفعول، وهو إتيان السّاعة بغتة، شُبِّه حالهم بحال من يَرقُب مجيء شيء قريب، لكنَّه غافلٌ عنه، فاستحقّوا أن تُباغتهم السّاعة دون إنذار، ومبنى الاستعارة: أنَّه لا يُتَصوَّر انتظارُ أمرٍ إلّا إن كان قريبَ الوقوع، فالإخبار عنهم بأنَّهم (لا ينتظرون إلّا السّاعة)، يعني أنَّها قاب قوسين منهم، وغرض الاستعارة: التَّهكُّم بهم، من خلال تصوير حالهم، وكأنَّهم ينتظرون السّاعة انتظارَ المستعِدِّ لها، بينما هم في الواقع لا يبالون بها، فالاستعارة قَلْبٌ للسُّخريةِ عليهم، فهم لا ينتظرونها بوعيٍ أو استعداد، بل السّاعة تنقضُّ عليهم، وهم في غفلتهم، فاستخفافهم بالسّاعة وتهوينهم منها انقلبَ سُخريةً منهم وتهكُّمًا بهم[2].

بلاغة الفاء الفصيحة وغرضها:

ظهورُ الأشراط سببٌ موجِب لانتظار السّاعة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾ هي الفصيحة أفادت التَّعليل[3]، وقد أفصحت هنا عن شرط مقدَّرٍ محذوف، أي: إنْ كان ينبغي عليهم انتظار السّاعة؛ فقد تحقَّق ما يوجِب هذا الانتظار،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 103.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 103.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 28، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 103.

وهذا من البلاغة العالية في القرآن؛ إذ يُستغنَى عن الجملةِ صراحةً، ويُشار إليها بفاءٍ واحدة، تُفهَم منها دلالاتٌ كاملة.

موقع جملة: ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾:

أشراط السّاعة الحاضرة تمهيدٌ لإتيانها المباغِت

جملة ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾ تعليليَّة لمضمون الجملة قبلها، وهو انتظارهم إتيان السّاعةِ إيّاهم فجأةً، فالجملة تعليلٌ للانتظار؛ لأنَّ ظهور أمارات الشَّيء سببٌ في انتظاره[1]، ومَن ينتظر حدثًا معيَّنًا، فإنَّ ظهور مؤشِّراته أو علاماته هو الَّذي يجعل النّاس يتوقَّعون حدوثه.

نكتة تسمية العلاماتِ أشراطًا:

أشراط السّاعة أسبابٌ حتميَّةٌ لوجودها

جاءت تسمية علامات السّاعة بالأشراط، في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّها علاماتٌ موجِبةٌ للوجود والتَّحقُّق، كالسَّببِ بوجوده يوجَد الشَّيء، وبعدَمِه يُعدَمُ الشَّيء، فالأشراط كالأسباب وزنًا ومعنى[2]، فكذلك السّاعةُ مشروطةٌ بتلك الأمارات الَّتي هي شرطٌ في تحقُّقها وإتيانها، فإتيانها معلومٌ مشروطٌ بظهورها[3]، فهي ليست مجرَّد علامات بل هي أشراط حقيقيَّة يأتي من بعدها المشروط.

بلاغة الاستفهام وأغراضه:

اجتماع معنى الإنكار والتَّعجُّب والتَّهكُّم بحالِ المكذِّبين

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾ للإنكار، تفريعٌ على القصر الادِّعائيِّ في جملة الاستفهام المشوب بالنَّفي مع الاستثناء في قوله: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ﴾، فقوله: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾ في موقع الجواب على مضمون الاستفهام في قوله: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾، كأنَّه قيل: إن كانوا ينتظرون السّاعة؛ فماذا يصنعون حين تأتيهم؟ هل

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 28.

(2) صافي، الجدول: 13/ 223.

(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (شرط).

سيتذكرون؟ هل سينتفعون بالذِّكرى؟ فيأتي قوله: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾ جوابًا إنكاريًّا تهكميًّا تعجُّبيًّا بأنَّهم لا ينتفعون، كأنَّه قيل: ماذا عساهم أن يصنعوا، وقد فات أوان ذِكْراهم بالإيمان والعمل؟ فمن أين لهم الانتفاع بالتَّذكُّر والنَّدم[1]؟.

دلالةُ ﴿فَأَنَّىٰ﴾:

اسم الظَّرف (أنّى) فيه معانٍ عدَّة، ومعناه هنا: متى تأتيهم الذِّكرى؟ وكيف يصلون إليها؟ وأين محلُّها في قلوبٍ مطبوعٍ عليها؟ ومتى تأتيهم؟ فهي جامعةٌ للزَّمان والمكان والكيف.

بلاغة ترتيب الجمل:

التَّصاعد في ذكر معاني الإنكار والتَّهكُّم يهمز النُّفوس لارعواء عن غيِّها

رُتِّبت الجُمَل في السّياق من قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ﴾، إلى قوله: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمۡ﴾، فبدأت بالاستفهام الإنكاريِّ، واختُتِمت به، فالسّياق يرسِم مشهدًا متصاعِدًا في الإنذار: فأوَّلًا يبدأ بالتَّهكُّم من غفلتهم في قوله: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾، ثمَّ يقرِّر قُرب السّاعة بتحقُّق أشراطها، في قوله: ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾، ثُمَّ يصدِم المُخاطَب بعبارةٍ تقطع الأمل: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾، فهذه الجُمَل صوَّرت حالَ الكافرين بأنَّها حالُ غفلةٍ ترتَّب عنها مُفاجأةٌ مهلِكة، وانتهت بقنوطٍ وندمٍ لا ينفع؛ لفواته عن أوانه، وهذا من أشدِّ الأساليب القرآنيَّة في تقريع الغافلين وإيقاظ السّامع، وتوجيهه؛ لئلّا يكون من أهل هذه الحال.

نكتة إطلاق فعل المجيء عن القَيْد:

إشغالُ المحلِّ بغير ما هو له نزولٌ في البلاغة

جاء تقييد إتيان السّاعة بأنَّها ﴿بَغۡتَةٗۖ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ﴾، ولم يكن التَّقييد لمجيء الذِّكرى، في قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾، فلم يقل: (فأنّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 208، والشنقيطي، أضواء البيان: 7/ 455، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 104، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 212.

بغتة؟)، بل عرّى المجيء عن قيد البغتة، فلم يَقرِنها به؛ لأنَّ انتفاء انتفاعهم بالذِّكرى موقوفٌ على مجيء السّاعة بإطلاق، وأمّا حال البغتة؛ فقيدٌ لكيفيَّة مجيء السّاعة، وليس قيدًا مؤثِّرًا في عدم انتفاعهم والقبولِ منهم، فلو ذكَرَ البغتةَ هنا؛ لكان ذِكْرًا للشَّيء في غير محلِّه[1].

نوع الفاء ودلالتها:

الفصيحة تُفصح عن مقدَّر محذوف من السّياق

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ للتَّفريع، وتحتمل أن تكون الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن شرط مقدَّر، أي: إذا علمت سعادة المؤمنين وشقاوة الكافرين، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانيَّة[2].

بلاغة الجملة وغرضها:

وجوب الانتقال إلى التَّوحيد والإيمان قبل فوات الأوان

الجملة في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إضراب عن أمر هؤلاء المنافقين وذكر الأهمِّ، والمعنى: دم على علمك، وهذا هو القانون في كل أمر بشيء هو متلبِّس به[3]، والتَّحوُّل من سياقٍ إلى سياق، فأفادت هنا الانتقالَ من الغفلةِ القاتلة إلى العِلم الموصِّل للنَّجاة، فأضْربَ عن أحوال الكافرين الشّائنة إلى سبيلِ الخلاص من سبيلِهم، فإنَّه لمّا نُفيَ أن تنفعهم الذِّكرى بعد أن جاءت السّاعة؛ أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ ومن معه أن يَسبِقوا الذِّكرى بفهم التَّوحيد قبل فوات الأوان، أي: هم أهملوا الذِّكرى حتَّى فاتت، فأنت لا تؤخِّر العِلم؛ كي تُحصِّنَ به نفسَك ومن معك.

نكتة اصطفاء لفظ العِلم خاصَّة:

العلم اليقينيُّ أساس النَّجاة

آثر النَّظم الكريم استعمال لفظ العِلم، في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ وذلك أنَّه لمّا كان المقامُ مقامَ حسابٍ وجزاءٍ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 97.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 212.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 116.

وساعةٍ، كما هو مضمون قوله: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾؛ كان أنسبَ شيءٍ يُؤمر به الرَّسول في هذا السّياق، هو تجديد أصل النَّجاة وتثبيته، وعبَّر بالعِلم دون غيره، فلم يقل: (فقل) أو (فأخبِر)؛ ليدلَّ على أنَّ المقصود هنا اليقين القلبيُّ والعقيدة الرّاسخة، لا مجرَّد التَّلفُّظ؛ لأنَّ العلم أعمق من القول، و﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ليست مجرَّد شعارٍ يقال، أو خبرٍ يُقصُّ، بل هي بصيرة قلبٍ وعملٌ ظاهر.

غرض الأمر بالعلم بالتَّوحيد:

أولى الأعمال بعد الإعراض عن المنافقين توحيد ربِّ العالمين

جاء الأمر بالعلم في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ للتَّحضيض على الثَّبات على الإيمانِ، وتجديد العلم باللّه تعالى وبوحدانيَّته، في سياق بيان اعتقاد المنافقين، وأنَّ الأمر بالتَّوحيد هو أرفع ما يسعى إليه المؤمن في هذه الحياة، وقد جاء الأمر بالعلم بأنَّه لا إله إلّا اللّه إضرابًا عن حال المنافقين الَّذين لا يُؤمنون بالسّاعة، فكأنَّه قيل: أعرض عنهم، واعلم أنَّه لا إله إلّا اللّه، فهو "كناية عن طلب العلم وهو العمل بالمعلوم، وذلك مستعمل في طلب الدَّوام عليه؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قد علم ذلك، وعلمه المؤمنون، وإذا حصل العلم بذلك مرَّة واحدة؛ تقرَّر في النَّفس؛ لأنَّ العلم لا يحتمل النَّقيض، فليس الأمر به بعد حصوله لطلب تحصيله، بل لطلب الثَّبات، فهو على نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النِّساء: 136]"[1].

نكتة عطف الأمر بالاستغفار بعد التَّوحيد:

الاستغفار ثمرة التَّوحيد وأمارة اليقين

بعد الأمر بالعلم، في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جاء الأمر بالاستغفار في قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 105.

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ العلم بـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يُثمر الخضوع والانكسار، فلا ينفكُّ عن طلب الغفران.

غرض الأمر بالاستغفار:

جاء الأمر في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾، فهو لطلب تجديد ذلك إن كان قد علمه النَّبيُّ ﷺ من قبل وعمله، أو هو لطلب تحصيله إن لم يكن فعله من قبل(1).

نوع اللّام ودلالتها:

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ للتَّعليل، أي: استغفِر لنفسك لأجل المذكور، واستغفر لأجل المؤمنين؛ ليُخفِّف اللّه عنهم من ذنوبهم.

علَّة ترتيب ذكر المستغفر لهم:

التَّـواضـع إلى الله خلُقٌ نبويٌّ وسلوكٌ ربّانيٌّ

بدأ الأمر للنَّبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾، بأن يستغفر لنفسه أوَّلًا، ثُمَّ للمؤمنين والمؤمنات، ونكتة ذلك تعليم الأمَّة في ترتيب الأولويّات في الدُّعاء، فبدأ بنفسه الشَّريفة ﷺ؛ تعليمًا للأمَّة أن يبدأ المرء بنفسه أوَّلًا عند سؤال اللّه، ثُمَّ يدعو للنّاس، وهذا من باب تعليم الأدب في الدُّعاء، كما قال نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا﴾ [نوح: 28]، فكان القصد هو استغفاره للمؤمنين إيجابًا، ولنفسه استحبابًا(2).

كما أنَّه بدأ بالنَّبيِّ ﷺ، لا لأنَّه مُذنِب، بل لكرامته عند اللّه، ثُمَّ ثنّى بالمؤمنين والمؤمنات لمشاركتهم له في جوهرِ الإيمان وأصله، لا في النِّسب أو المَقام، ولتعزيز الأثر العاطفيِّ، فالبدء بالنَّبيِّ ﷺ، وهو أحبُّ الخلق إلى اللّه، يُؤثِّر في السّامع، ويُهيِّئ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 105.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 274.

نفْسَه؛ لفهم عظمةِ الاستغفار النَّبويِّ، وضمانته ونفاذه بالقبول والاستجابة عند اللّٰه سبحانه.

توجيه استعمال لفظ الذَّنب مضافًا إلى ضمير الرَّسول:

رُبَّ طاعةٍ عند عبد، هي عند آخر تقصير

في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ﴾، جاء استعمال لفظ الذَّنب؛ مضافًا إلى الضَّمير العائد إلى النَّبيِّ ﷺ، فيُسأل عن سرِّ ذلك، والجواب أنَّ للّٰه تعالى أن يُخاطب نبيَّه بما شاء، وأن يُسند إليه ما أراد، وذنب النَّبيِّ ﷺ ليس كذنب غيره من آحاد البشر، فهو سيِّد الخلق أجمعين، والذَّنب إذا أضيف إليه؛ فهو محمول على نوعٍ خاصٍّ لا يكون لجميع النّاس، فجائز أن يكون للنَّبيِّ ﷺ ذنب، فيأمره اللّٰه بالاستغفار منه، لكن نحن لا نعلم، وليس علينا أن نتكلَّف حفظ ذنوب الأنبياء عليهم السلام وذكرها، وكلُّ موهومٍ منه الذَّنبُ يجوز أن يُؤمَر بالاستغفار، كقول إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشُّعراء: 82]، والذُّنوب تتفاوت، فرُبَّ طاعةٍ عند عبد، هي عند آخر تقصير، فذنوب الأنبياء وخطاياهم ليست كذنوب غيرهم، فذنب غيرهم ارتكاب القبائح من الصَّغائر والكبائر، وذنبهم ترك الأفضل دون مباشَرةِ القبيح في نفسِه[1].

مع ما فيه من التَّربية على التَّواضع[2]، فأُمِرَ النَّبيُّ بالاستغفار من ذنبه؛ تواضعًا للّٰه تعالى، وتربيةً للأمَّة على الشُّعور بالتَّقصير مهما بلغت من المقامات، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «أفلا أكون عبدًا شكورًا؟!»[3]، رغم أنَّه غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وهذا من أساليب إظهار النَّبيِّ ﷺ بمقام العبوديَّة الخالصة، فكلُّ مَنْ دون

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 274، 275.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 323.
(3) متفق عليه، البخاري، صحيح البخاري، برقم: (6471)، ومسلم، صحيح مسلم، برقم: (2819).

اللّه، محتاجٌ إلى مغفرةِ اللّه، حتَّى وإنْ كان من خَيْرِ خلقه، فكيف بمن هم دونه من أتباعه وأمَّته؟.

نكتة تكرار اللّام:

تختلف حقيقة القُرُبات بقدر اختلاف المقامات

كُرِّر ذكر اللّام في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، ولم يقل: (واستغفر لذنبك والمؤمنين)؛ وذلك لدفع إيهام انصباب الاستغفار على ذواتهم، فالاستغفار من ذنوبهم لا من ذواتهم، فتكرار اللّام دلَّ على المضاف المحذوف، أي: ولذنوب المؤمنين، فلو لم تُكرَّر اللّام؛ لأوهم أنَّ المؤمنين هم مفعول الاستغفار، كأنَّ النَّبيَّ مأمور أن يستغفر (لأجلهم) من غير بيان موضوع الاستغفار، لكن بتكرار اللّام، أصبح التَّركيب: واستغفر لذنبك ولـ(ذنوب) المؤمنين والمؤمنات، فهو عطفٌ للذَّنبِ على الذَّنب، لا للذّات على الذَّنب، أي: حُذِف المضاف، ودلَّ عليه تكرار الحرف الجار، وهذا من ألطف البلاغات.

كما أنَّ تكرار اللّام للفصل بين نوعي الاستغفار[1]، فقد يُفهم أنَّ الاستغفار للنَّبيِّ ﷺ، لا يختلف في جنسه عن استغفار المؤمنين؛ إذ هو في حقِّه إظهارٌ للعبوديَّة ورفع للدَّرجات، وفي حقِّهم سترٌ للقبائح والآثام، فجاء تكرار اللّام؛ ليفصل بين حقيقة استغفار النَّبيِّ لنفسه، واستغفاره للمؤمنين، فالاستغفارانِ متمايزان، فحُقَّ أن يكون لِكُلٍّ حرفٌ يَخصُّه.

دلالةُ العطف وبلاغته:

استغفار النَّبيِّ لأمَّته أصلٌ في تقرير العبوديَّة الجماعيَّة

الأمر بأن يستغفر النَّبيُّ ﷺ للمؤمنين بعد الأمر بأن يستغفر لنفسه، فيه ربطُ هذه الأمَّةِ بنبيِّها في مقام العبوديَّة، فهم منه، وهو منهم، وفيه أنَّ النَّبيَّ ﷺ هو بابُهم إلى اللّه ﷻ، وبيان أنَّ دعواتِ الأنبياء عليهم السلام لأُمَمهم هي أفضل الوسائل إلى اللّه تعالى، وأعظم قُربَة عنده[2].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 97.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 275.

التّعريض بالمنافقين بانتقاء صفة المؤمنين

بلاغة إيثار لفظ الإيمان على الإسلام:

آثر النَّظم الكريم استعمال صفة الإيمان دون الإسلام، في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مغفرةَ الله لهذه الأمَّة مضمونة؛ متى تحقَّقت بوصف الإيمان، ولبيان أنَّ شرط قبول استغفار النَّبيِّ ﷺ هو الإيمان الحقيقيُّ، لا الإسلام الظّاهر، ففيه تعريض خفيٌّ بديع بالمنافقين؛ إذ المنافقون أظهروا الإسلام، وأبطنوا الكفر، كما أنَّ الله جعل الاستغفارَ لأحبِّ الخلْقِ إليه واجبًا عليه، فأمَرَ رسوله ﷺ أن يستغفر لهم، فلا يُحتمل ألّا يستغفر لهم الرَّسول، وقد أمره مولاه بالاستغفار، ثمَّ لا يُحتمَل - أيضًا - أنَّه إذا استغفر لهم على ما أمره به ربُّه، فلا يُجيبُه بالمغفرة لهم[1].

الاستغفار يلحق كلًّا من الرِّجال والنِّساء على السّواء

علّة إيثار التَّفصيل على التَّغليب:

آثر النَّظم الكريم التَّصريح بذكر المؤمنين والمؤمنات، في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾، دون أن ينهج نهجَ التَّغليب، وذلك لمزيدِ إظهار العناية والرَّحمة الإلهيَّة، وأنَّ المغفرة مطلوبةٌ لكلِّ فئةٍ على وجه الاستقلال، رجالًا ونساءً، دون أن تُدرج المرأة بالتَّغليب فقط، ولمناسبة المقام، فالآية واردة في سياق طلب المغفرة، وهو مقام جبْرٍ ورفعٍ للدَّرجة، فيُناسب أن تُذْكَر المرأة صراحة؛ تكريمًا واهتمامًا بذكرها في مقامٍ لا التحاق لها فيه بالرَّجل، ولدفع توهُّم الخصوص، فلو قيل: (وللمؤمنين) فقط، فقد يُتوهَّم أنَّ النِّساء غير مَعنيّات بالاستغفار النَّبويِّ، أو أنَّ المقام خاصٌّ بالرِّجال.

التَّوحيد والاستغفار ذُخْرُ العاجلِ وأمان المصير

بلاغة التَّذييل:

جملة: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ تذييلٌ على الأمر بالتَّوحيد والاستغفار، وهي في معنى التَّعليل لِما قبلها، كأنَّه قيل: فاثبُت

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 9/ 275.

على العلم والعمل، وتزوَّد بهما أنت وأتباعك من المؤمنين والمؤمنات؛ لأنَّ اللّه محيطٌ بكم مُحصٍ لأحوالكم كلِّها في تقلُّبكم ومصائركم[1].

بلاغة التَّناسب بين الفاصلة والمطلع:

الإيمــان بالإحاطة الإلهيَّة من لوازم العلم بالتَّوحيد

جاء قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾، في موضع الفاصلة والخِتام لقوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾، بديع المناسبة في هذا السّياق؛ لأنَّ جملة الفاصلة تقرِّر شمول الرَّقابة الإلهيَّة بعد الأمر بالتَّوحيد والاستغفار، فالتَّوحيد يربط العبد باللّه، والاستغفار يطهِّره من آثامه، ثمَّ ختم بأنَّ اللّه يعلم كلَّ حركاتكم وسكناتكم، فلا يخفى عليه صِدقكم أو نِفاقكم، واستغفاركم أو غفلتكم.

غرض المقابلة ودلالتها:

الإيماء إلى حال المنافقين

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ إيماءٌ بالمقابلة مع حال الغافلين في السّياق قبله، كأنَّه قيل: المنافقون غافلون يتَّبعون أهواءهم، ويستهزئون بالذِّكر، أمّا اللّه؛ فلا يغفُل عنهم، بل يَعلمُهم في حال تقلُّبهم وسَعيِهم، وفي حال استقرارهم ومآلهم.

بلاغة الازدواج في الخطاب:

خطاب المؤمنين تنبيه وخطاب المنافقين تهديد

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ يحمل وجهًا مزدوجًا من التَّهديد والتَّطمين، ولذا حسُن حمله على الاستئناف العامِّ، فهي للكافر: تهديد؛ لأنَّ كلَّ تقلُّباته في الباطل محسوبة عليه، وهي للمؤمن: تطمين؛ لأنَّ كلَّ اجتهاداته ونَزَعاتِه في طاعة اللّه محفوظةٌ له عند ربِّه، فيكون الخطاب شاملًا للفريقين، فريق المؤمنين وفريق المنافقين، وكلُّ فريقٍ منهما له تقلُّباته المسجَّلة عليه، ثوابًا وعقابًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 106.

جميعُ ما يصدر عن العباد في علم الله تعالى

نكتة فنِّ التَّصدير:

جاء المقطع موافقًا للمطلع، فبدأت الآيةُ بلفظ العِلم، فقال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾، وختمها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾، أي: إن كنت قد علمتَ التَّوحيد، وأخذت به؛ فاعلم أنَّ اللهَ أعلم بك منك ومن جميع الخلقِ، فلا مجال للتَّقصير والتَّهاون لدى المؤمنين، ولا التَّمادي من المنافقين؛ فإنَّ ذلك كلَّه في واسع علمه مجموعٌ محفوظ.

جمال التَّوازي اللَّفظيِّ:

في قوله تعالى: ﴿مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ توازٍ لفظيٌّ بديع يُشعِر بالحركة في: ﴿مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾، والسُّكون في: ﴿وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾؛ ليشمل كلَّ أحوال الإنسان، وذلك في قالبٍ من الإيقاع الجميل.

بلاغة عطفِ المثوى على المتقلَّب:

بدأت الآية بقوله: ﴿مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾، ثُمَّ ثنَّت بقوله: ﴿وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾؛ وذلك لأنَّ الدُّنيا دار تقلُّبٍ وتحوُّل وفناء، وهي السّابقة، والآخرة دار قرارٍ وخلودٍ وبقاء، وهي الخاتمة.

استغراق أعمال الإنسان في الزَّمنِ كلِّه بلفظين جامعين

توجيه تخصيص المتقلَّب والمثوى بالذِّكر:

جاء ختم الفاصلة بتخصيص المتقلَّب والمثوى بالذِّكر دون بقيَّة أحوال الإنسان، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾؛ وذلك لأنَّ المتقلَّب والمثوى عبارةٌ عن أحوال الإنسان كلِّها، فمعنى: ﴿مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾ ما تتقلَّبون فيه من أحوال الحياة: من يقظة ومنام، وحركة وسكون، ومن حالٍ إلى حال، وسائر أعمال الدُّنيا، و(مثواكم): مقامكم الأخير، أي: القبر، أو الجنَّة والنّار، أو ما يستقِرُّ فيه المرء طويلًا بعد تقلُّبه الكثير، فهو مأواه ومنتهى سعيه.

دلالة التَّعبير بصيغة المتقلِّب والمثوى:

المتقلَّب والمثوى في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ مصدران ميميّان مِن (تقلَّب وثوى)، ويجوز أن يكونا

إحاطة الله تامَّةٌ في نفسها، تستغرق أحوال الإنسان في زمانه ومكانه

اسمي مكانٍ أو زمان[1]، أي: يعلم تقلُّبكم وموضعه في المكان والزَّمان، ويعلم مصيركم وموضعَ قرارِكم زمنَه ومكانَه، والمصدر الميميُّ يدلُّ على بلوغ منتهى الحدث وغايته، فتقع الإحاطة بالمتقلَّب والمثوى بحذافيرهما، أي: لا يفوتُ منهما شيءٌ في العلم، وكذلك يدلُّ المصدر الميميُّ على ذاتٍ تُستصحَبُ معه، وهي ذواتُهم الَّتي تتقلَّب، وتَثْوي[2].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 213.

(2) السامرائي، معاني الأبنية، ص: 31، 32.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١﴾

[محمّد ﷺ: 20 - 21]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

الانتقالُ من ذِكر أحوال المنافقين والمؤمنين إلى ذِكر موقفهم من نزول القرآن

لمّا بين الله تعالى في الآيات السّابقة حال المنافقين من القرآن بقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾ [محمد ﷺ: 16]، وذكر حال المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمّد ﷺ: 17]؛ ناسب أن يُبيِّن حالهم عند نزول الآيات، فإنَّ المؤمنَ كان ينتظر ورودها، ويطلب تنزيلها، وإذا تأخَّر عنه التَّكليفُ؛ كان يقول: هلّا أُمِرْتُ بشيء من العبادة؟ خوفًا من ألّا يؤهَّل لها، والمنافق إذا نُزِّلت السّورة، وفيها تكليفٌ شقَّ عليه؛ ليُعلَم تباينُ الفريقين في العلم والعمل؛ إذ لا يَفهم المنافق العلم، ولا يريد العمل، والمؤمن يَعلم، ويحبُّ العمل[1].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿سُورَةٞۖ﴾: السّورَةُ: المنزلة الرفيعة، قال الشاعر:

ألم تر أنَّ الله أعطاك سورَةً *** ترى كلَّ ملك دونها يتذبذب

أي: مكانة سامية، وسورُ المدينة: حائطُها المشتمل عليها، وسورَةُ القرآن تشبيهًا بها؛ لكونه محاطًا بها إحاطة السّور بالمدينة، أو لكونها منزلة كمنازل القمر، ومعنى قوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا﴾ [النور: 1]، أي: جُملةٌ من الأحكام والحكم[2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 53.
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (سور).

فمعنى ﴿سُورَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾: مجموعةُ آيات من القرآن الكريم مسوَّرَةٌ محدَّدةُ البداية والنِّهاية عند نزولِها، أي: قطعة من القرآن.

2) ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾: (حكم) أصلٌ واحد، وهو المَنْع، وأوَّلُ ذلك: الحُكْم، وهو المنع من الظُّلم، وسُمّيت حَكَمَةُ الدّابَّة؛ لأنَّها تمنعها، يُقال حكَمتُ الدّابَّة، وأحكمتها، ويُقال: حكمت السَّفيه، وأحكمته؛ إذا أخذت على يديه، قال جرير:

أبَنِي حَنيفَةَ أحْكِموا سُفَهاءَكُم*** إنّي أخافُ عَلَيْكُم أن أغْضَبا

والحِكْمة هذا قياسُها؛ لأنَّها تمنع من الجهل، وتقول: حكَّمت فلانًا تحكيمًا: منعته عمّا يريد[1]، فالسّورة المُحكَمَة: حكيمة المعاني، منضبطة الأحكام وفْق أفضل مقاييس الحقِّ والهُدى، الضّامنَيْن الحياة السَّعيدة في الدارين لمن التزم حِكَمها وأحكامها.

3) ﴿ٱلْقِتَالُ﴾: إزهاق الرّوح بهدْمِ البِنية، يقال: قتلته قتلًا: أزهقت روحه، فهو قتيل والمرأة قتيل أيضًا، والجمع فيهما: قتلى، وقتلت الشّيء قتلًا: عرفته، والقِتلة بالكسر الهيئة، يُقال قتله قِتلة سَوْء، والقَتلة بالفتح: المرَّة، وقاتله مقاتَلة وقتالًا، فهو مقاتِل بالكسر اسم فاعل والجمع مقاتلون ومقاتِلة[2]، فمعنى ﴿ٱلْقِتَالُ﴾ في الآية الكريمة، أي: المقاتلة والمحاربة الَّتي تَنشَب بين فريقين من النّاس، والمقصود هنا المؤمنون والكافرون.

4) ﴿مَّرَضٌ﴾: المرض: الخروج عن الاعتدال الخاصِّ بالإنسان، وذلك ضربان: الأوَّل: مرض جِسْميٌّ، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: 61]، والثّاني: عبارة عن الرَّذائل كالجهل، والجبن، والبخل، والنِّفاق، وغيرها من الرَّذائل الخلقيَّة، نحو قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: 10].

ويُشبَّه النِّفاق والكفر ونحوهما من الرَّذائل بالمرض إمّا لكونها مانعة عن إدراك الفضائل كالمرض المانع للبدن عن التَّصرُّف الكامل، وإمّا لكونها مانعة عن تحصيل الحياة الأخرويَّة المذكورة، في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٦٤﴾ [العنكبوت: 64]، وإمّا لِمَيْل النَّفس بها إلى الاعتقادات الرَّديئة، ميلَ البدنِ المريض إلى الأشياء المُضِرَّة[3].

(1) مقاييس اللغة: (حكم).

(2) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (قتل).

(3) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (مرض).

والمرض هنا: ضعف في الدّين، أو نفاق من الَّذين أقرّوا بالإيمان، وطلبوا تنزيل القرآن، وكانوا قد أقسموا بالله جهد أيمانهم: لئن أمرتهم؛ ليخرجنَّ(1).

5) ﴿ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ﴾: يُقال: غَشيَهُ غِشاوَةً وغِشاءً: أتاه إتيان ما قد غشيَهُ، أي: ستره، والغِشاوَةُ: ما يغطّى به الشَّيء، قال: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾ [الجاثية: 23]، والغاشيَةُ: كلُّ ما يغطّي الشَّيء كَغاشيَةِ السَّرج، وقوله: ﴿أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ﴾ [يوسف: 107]، أي: نائبة تَغْشاهُم، وتجللهم، وقيل: الغاشيَةُ في الأصل محمودة، وإنَّما استُعير لفظها هاهنا على نحو قوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾ [الأعراف: 41]، وغُشيَ على فلان؛ إذا نابه ما غشي فهمه، قال تعالى: ﴿نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾(2).

فـ ﴿ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ﴾ هنا: هو الَّذي غُطّي على عقله، وصُرع، وسُلِب تركيزُه، وشَخَص بصرُه، كأنَّه تصلَّب جسده.

6) ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾: هذه جملة تهديد، وقَوْلُهُ ﷻ: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ٣٤﴾ [القيامة: 34]، مَعْناهُ التَّوعُّد والتَّهَدُّد، أي: الشَّرُّ أقربُ إليك، وقالَ ثَعْلَبٌ: مَعناهُ دَنَوت مِنَ الهَلَكة، وكَذَلِك قَولُهُ تَعالَى: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾، أي: وليهم المَكروه، وهوَ اسمٌ لِدَنَوتُ، أو قارَبْتُ، وقالَ الأصمعيُّ: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ﴾ [القيامة: 34]: قارَبَكَ ما تَكرَه، قالَ ثَعْلَبٌ: ولَم يَقُل أحد في ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ﴾ [القيامة: 34] أحْسَنَ مِمّا قالَ الأصمعيُّ: وقالَ غَيْرُهُما: أَوْلَى يَقولُها الرَّجُلُ لآخَرَ يُحَسِّره على ما فاته(3)، فمعنى ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾، أي: اقترب هلاكُهم، وحلول الحسرة فيهم.

7) ﴿طَاعَةٞ﴾: الطَّوْعُ: الانقيادُ، ويُضادُّه الكَره، قال ﷻ: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ [فصلت: 11]، والطّاعَةُ مثله، لكن أكثر ما تقال في الائتمار لما أمر، والارتسام فيما رسم، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾ [النساء: 81]، ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ﴾، أي: أطيعوا، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾ [التغابن: 12](4)، فـ ﴿طَاعَةٞ﴾ في الآية الكريمة مصدر بمعنى: أطيعوا.

8) ﴿عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: يقال: عزَم أمرُه، أي: عَقَدَ القَلبَ على إمضاءِ الأمرِ، وعَزَم: جَدَّ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 237.
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (غشي).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(4) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (طوع).

في الأمرِ، وقَوْلُه تَعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ۝١١٥﴾ [طه: 115]، أي: صَريمَةَ أمرٍ.

وعَزَمَ الأمرُ نفسُه: عُزِمَ عَلَيه، ومِنه قَولُه تَعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ وقد يَكونُ أرادَ: عَزَمَ أربابُ الأمرِ، قالَ الأزهَريُّ: هو فاعل معناه المفعول، وإنَّما يُعزَم الأمر، ولا يَعزِم، والعزم للإنسان لا للأمر، وهذا كقولهم: هلك الرَّجلُ، وإنَّما أُهلِك، وقال الزَّجّاج في قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾، فإذا جدَّ الأمر، ولزِم؛ فُرِضَ القتال[1].

المَعنى الإجْماليُّ:

بيانُ الاختلافِ بين موقف المنافقين والمؤمنين من نزول القرآن

يتطلَّع المؤمنون إلى وحي السَّماء الَّذي ينزل عليهم بالتَّكاليف الحبيبة، ويرجون، بل يتمنَّون أن يُنزِّل اللّه تعالى عليهم سورةً يُكلِّفهم فيها بالجهاد في سبيله، ومقاتلة الكفّار الَّذين يعوِّقون نشر دينه الحنيف.

فإذا أجابهم اللّه تعالى إلى رغبتهم، وأنزل سورةً محكمة الدَّلالة على فرضيَّة القتال، ولا تحتمل تأويلًا ولا صَرْفًا عن وجوبه عليهم؛ ظهرت أمارات النِّفاق على فريق منهم، وتصلَّبت عيونهم تصلُّب من غشيه الموت، ونزل به؛ ذلك أنَّهم قد تسرَّب النِّفاق إلى قلوبهم، فأمرضها بالجُبن والنُّكول.

فهؤلاء قد شارفوا السُّقوط في مغضبة اللّه تعالى، وقاربوا حلول الهلاك، وكان الأولى بهم أن يطيعوه، وأن يقولوا معروفًا، حتّى إذا جدَّ أمرُ القتال، وحان وقته، ونُدِبوا إليه؛ نصروا دين اللّه تعالى، وصدَّقوه، وهبّوا إلى الجهاد في سبيله، ولو فعلوا ذلك؛ لكان أفضل لهم من النُّكوث، وأنجى لهم من العقاب.

(1) الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: (عزم).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها:

استئناف الجمل انتقالٌ بين المعاني الكلّيّة والموضوعات القرآنيّة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ﴾ استئنافيَّة؛ إذ تُقرِّر الآية السّابقة وحدانيَّته ﷻ، وتوجِّه الرَّسول ﷺ إلى الاستغفار لذنبه وللمؤمنين والمؤمنات، وهذه الآية تستأنف خبرًا جديدًا، فيه تطلُّع المؤمنين إلى افتراض الجهاد، وكشْفٌ لموقف ضعاف الإيمان والمنافقين منه.

غرضُ الإخبار بهذه الآية ودلالته:

المؤمنُ معلَّقُ القلب بالوحي غير منشغلٍ بغيره

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ﴾ خبرٌ يُراد به لَفْتُ المسلمين إلى أنفسهم، وإلى أن يكتشفوا مواقع القوَّة والضَّعف منهم، فهُم ليسوا على حال واحدة من السَّلامة والعافية في دينهم، ومن الخير لهم ألّا يشغلهم النَّظر الدّائم إلى عدوِّهم عن النَّظر إلى أنفسهم، فإنَّه من الغبن والظُّلم معًا أن يرعى الإنسان غيره، ويهمل نفسه، كما أنَّ في هذا الخبر إشارة إلى تَطَلُّع أنظار المؤمنين إلى آيات الله، وتعلُّقِ قلوبهم بما ينزل مِن وحْي السَّماء، فهُم على شوق دائم بهذا النّور الَّذي ينزل من السَّماء[1].

نكتةُ التَّعبير بصيغة المضارع في ﴿وَيَقُولُ﴾:

المؤمنُ متشوِّقٌ إلى الطّاعات، مسارعٌ إلى الخيرات

إيثار التَّعبير بفعل القول مضارعًا في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ﴾ مدحٌ لقول المؤمنين باستحضار صورة قولهم؛ لأنَّهم قالوه، وفرغوا من قوله قبل نزول الآية الكريمة، وفي صوغه مضارعًا كذلك "دلالة على أنَّهم مستمرّون على هذا القول"[2]، متشوِّفون إلى نشر الدّين، والدَّعوة إليه على الدَّوام.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 349.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 107.

علَّةُ التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ﴾ يُفسِح لِذكر جملة الصِّلة ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ فيتيح ما لا يتيحه الاسم الصَّريح فيما لو قيل: (ويقول المؤمنون)؛ وذلك لما في الموصول مِن عنصر الإبهام المُشَوِّق، فتأتي جملة الصِّلة كاشفةً عن صفة القائل، منبِّهةً على أنَّ المرادَ بالَّذين آمنوا قومٌ عُرِفوا بالعناية بالجهادِ، وأنَّهم معلومون بالخطابِ.

الموصولُ يُفسِح لـذِكـر الـصِّـلـة بـتـفـاصـيـلـهـا؛ فـتـتـغـازر الدَّلالات

دلالةُ التَّعبير بصفةِ الإيمان:

في اصطفاء وصف الإيمان دون وصف الإسلام - في جملة الصِّلة ﴿ءَامَنُواْ﴾ - إيماءٌ إلى أنَّ القائلين هم قومٌ قد استقرَّ الإيمان في قلوبِهم، وثبت في أفعالهم، فهُم قد تجاوزوا مرحلة الإسلام الظاهريِّ إلى مرحلة اليقين الباطنيِّ؛ ودليل ذلك أنَّهم يتطلَّعون إلى العمل بالتَّشريعات الَّتي تأتيهم في سور القرآن الكريم، ولذلك نُظِم ماضيًا دلالةً على رسوخه في قلوبهم، ففي ذِكرهم بوصف الإيمان إشادة بهم وتكريم لهم، وقد قال اللّه تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: 14].

وصـفُ الإيـمـان إشادة بالقائلين وتكريم لهم

معنى ﴿لَوۡلَا﴾ ودلالتها:

﴿لَوۡلَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ﴾ مستعملة في التَّمنّي، وهي بمعنى "هلّا"[1]، وأصل معنى ﴿لَوۡلَا﴾ "التَّحضيض، فأُطلق، وأُريد به التَّمنّي؛ لأنَّ التَّمنّي يستلزم الحرصَ، والحرصُ يدعو إلى التَّحضيض"[2].

حِـرصُ المؤمنين عـلـى الـعـمـل بأحكام الكتاب المبين

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿نُزِّلَتۡ﴾ مادَّةً وصيغةً:

التَّنزيل في أصل وضعه اللُّغويِّ يُستعمل غالبًا في المحسوسات، كإنزال الماء من السَّماء، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ

تنزيلُ التَّكاليف يـفـضـح أمـر المُنافِقين

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 209.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 107.

﴿مُّبَٰرَكٗا﴾ [ق: 9]، وقد استعمل القرآن الكريم لفظ التَّنزيل في الأمور المعقولة؛ ليُضْفي عليه صِفَة المحسوسات، ويمنحها صفة التَّجسيد؛ ليُحقِّقَ المبالغة في تَمايُز المُنَزَّل الشَّريف، ويُجَلّيه أمام بَصر القلوب، فيصيرَ كأنَّه كُتلةٌ محسوسةٌ تُدرَك بالحواسِّ الظّاهرة، وفي ذلك التَّمايُز إسعاد للمؤمنين بتمايز مرغوبهم، وإبراز لفضائح المنافقين بتمايُز السّورة الَّتي تحقِّق عليهم جبنهم وكذبهم.

وبُني فعل: ﴿نُزِّلَتۡ﴾ لما لم يُسمَّ فاعله للعلم بالفاعل، وهو اللّه ﷻ، وللتَّنبيه على ما في حدثِ التَّنزيل من قيمة عظيمة، فيُلتفت لما فيه من معنى مقصود، وفيه أيضًا دلالة على إظهار أنَّهم صاروا في صِدقهم في الإيمان معتقدين أنَّ التَّنزيل لا يكون إلّا من اللّه بحيث لا يحتاجون إلى التَّصريح به[1].

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿سُورَةٞ﴾:

سـورُ القـرآن الكريم رفيعة القـدر، جديرة بـالـتَّـوقـير والاحتفاء

المقصود بلفظ ﴿سُورَةٞ﴾ "قطعةٌ من القرآن شديدةُ الانتظام"[2]، فالسورة هي القطعة النّازلة في وقتٍ واحد، تشتمل على موضوع معيَّن، وهي أوسع دلالة فيما استقرَّ عليه الأمر عند اكتمال النُّزول، فإنَّ السورة تُطلق على القطعة القرآنيَّة النّازلة في وقت واحد، كما تُطلق على السّورة بالمعنى المصطلح عليه، فجاء استعمال السّورة بهذا الاعتبار؛ لأنَّ المؤمنين تمنَّوا نزول سورةٍ تتحدَّث عن الجهاد، ولفظ السورة يومئ إلى معنى الإحاطة بكلِّ ما فيها من إحاطة السّور بما يُسوِّره، فاستعمال ﴿سُورَةٞ﴾ يُخلع عليها دلالات التَّسوير والتَّسييج والصّيانة، فهي محفوظة ومتميِّزة عن كلِّ كلام.

كما يضفي عليها معنى السُّموِّ ورفعة القدر، ويوجب لها كامل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 236.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 515.

التَّوقير والاحترام؛ لأنَّها كلام اللّه تعالى، فهي جديرة بأن تحاط بكلِّ معاني التَّكريم والحفاوة.

دلالةُ تنكير ﴿سُورَةٌ﴾:

كُـلُّ سـورةٍ في الـقـرآنِ نـازلـةٌ بـالـعـظـمـةِ والجلالِ

نُكِّر لفظ ﴿سُورَةٌ﴾ لمزيد تفخيم شأنها، وتعظيم قدرها، فالرّاجون تنزيلها مؤمنون، يعرفون لها قدرها من التَّعظيم؛ إذ هي قطعة من كلام العظيم ﷻ، وكلام العظيم سبحانه يأخذ صفته، فهو واجب التَّعظيم، كما أنَّ تنكير ﴿سُورَةٌ﴾ هنا يفيد " النَّوعَ دونَ الوَحدَةِ"[1]، أي: إنَّها سورة من نوع السّور المعظَّمة المُجَلَّة.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف:

كلُّ سور القرآن الـكـريـم محلُّ تبجيل وحبٍّ من المؤمنين

لم يكن تطلُّع المؤمنين لتنزيل مطلق سورة؛ لأنَّ نزول السور كان يتوالى عليهم، وإنَّما كانوا يتطلَّعون إلى تنزيل سورة فيها الإذن بالجهاد، أي: لولا أنزلت "سورةٌ من اللّه تَأْمُرُنا بجهادِ أعداءِ اللّه من الكفّارِ"[2]، فذكروا ﴿سُورَةٌ﴾، ولم يحدِّدوا صفتها، "وحُذِف وصفُ سورة في حكاية قولهم: لولا نزلت سورة لدلالة ما بعده عليه من قوله: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾؛ لأنَّ قوله: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾، أي: كما تمنَّوا اقتضَى أنَّ المسؤول سورة يُشرع فيها قتال المشركين، فالمعنى: لولا نزِّلت سورة يُذكر فيها القتال وفَرْضه، فحذف الوصف إيجازًا"[3].

معنى الفاء ودلالتها:

شتّان بين حال المؤمنين وحال المنافقين

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾؛ لتفريع ما بعدها على الكلام السّابق الَّذي حُكي فيه حال المؤمنين بطلب نزول سورة تأمرهم بالجهاد، وتأذن لهم فيه، فهذه الفاء لتفريع الإخبار بتفصيل حال المنافقين، وكراهتهم لما نزل في هذه السّورة.

(1) رضا، المنار: 11/ 303.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 209.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 107.

نكتةُ إيثارِ التَّقييد بـ (إذا) دون (إن):

إنـزالُ ما فيه مصلحة العباد مقطوعٌ به غير محتمل

آثر النَّظم الكريم تقييد إنزال الـ ﴿سُورَةٌ﴾ بـ (إذا) دون (إن)؛ للإيماء بأنَّ إنزالها من المقطوع به المقرَّر، بخلاف (إن) فهي تفيد احتماليَّة الوقوع، و(إذا) هنا "ظرف مستعمل في الزَّمن الماضي؛ لأنَّ نزول السورة قد وقع، ونظرُ المنافقين إلى الرَّسول ﷺ هذا النَّظرَ قد وقع؛ إذ لا يكون ذمُّهم وزجرُهم قبل حصول ما يوجبه؛ فالمقام دالٌّ على ذلك، والقرينةُ واضحة"(1).

لطيفةُ اختلاف التَّعبير بين الصّيَغ:

ما يرجوه العباد من الله تعالى يسيرٌ عليه

عبَّر النَّظم الكريم عن مرغوب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بفعل التَّنزيل في جملة ﴿نُزِّلَتْ﴾؛ وذلك لأنَّ التَّضعيف فيه يحكي قوَّة رغبتهم في تنزيلها، وتأكُّد رجائهم البالغ حدَّ التَّمنّي بدلالة ﴿لَوْلَا﴾، بينما عبَّر النَّظم الكريم عن تلبية رجائهم وإجابة مطلبهم بفعل الإنزال في قوله تعالى: ﴿أُنزِلَتْ﴾؛ إيحاءً بيُسر إنزالها على منْزلها ﷻ، الَّذي يُنْزِل ما يشاء وقتما يشاء، على الصِّفة الَّتي يشاء ﷻ، وأنَّها نزلت مرَّة واحدة.

نكتةُ وصف ﴿سُورَةٌ﴾ بـ ﴿مُّحۡكَمَةٌ﴾:

كلُّ سورةٍ فيها ذِكْرُ القتال محكَمةٌ، لا يَرِد عليها النَّسخ

السّورة المحكمة هي الَّتي "لا يقع فيها نسخ، وبهذا الوجه خصَّص السّورة بالإحكام، وأمّا الإحكام الَّذي هو بمعنى الإتقان، فالقرآن فيه كلُّه سواء"(2)؛ لذا يلزم العمل بها(3)؛ وذلك لأنَّ ألفاظها أُريدت حقائقُها، كقوله تعالى: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمّد ﷺ: 4]، أراد القتل، فإنَّه أبلغ من قوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾ [البقرة: 191]، ومن قوله: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ [النساء: 91]، وكذلك في وصف ﴿مُّحۡكَمَةٌ﴾

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 107.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 117.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 788.

فائدة زائدة؛ إذ لا يمكن للمنافقين أن يقولوا: المراد غيرُ ما يَظهر منه، أو يقولوا: هذه آية، وقد نُسِخَت، فلا نقاتل[1]، فهي ﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾ "لا تحتمل وجهًا إلّا وجوب القتال"[2].

نوع الواو في جملة: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾:

الجهادُ مَحَكٌّ مميِّزٌ للمؤمن الصّادق من المنافق المخادع

(الواو) في جملة: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ عاطفة على جملة: ﴿أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾، فكلتاهما داخلتان في حيِّز (إذا)، وكلٌّ منهما مبنيَّةٌ لغير فاعلها، والغرض من هذه الجملة، هو كشف المنافقين وفضحهم؛ لأنَّ الجهاد مَحَكٌّ كاشف مميِّز المؤمن الصّادق من المنافق المخادع.

بلاغةُ استعمال مفردة (ذُكِرَ):

ذِكرُ القتالِ يُثير رعبَ المنافقين

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الذِّكر في قوله تعالى: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ دون (فُرِض) أو (أُمِر)، والمقصود بها الفَرْض والأمر، أي: فُرِضَ الجهاد، وأُمِرَ به[3]، وفي إيثار التَّعبير بمفرد (ذُكِر) دون الفرض والأمرِ بيانٌ لموقف المنافقين من مجرَّد ذِكر القتال، فذِكر القتال يجعل النّاظر إليهم يرى عجبًا من حالهم، ﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾.

نكتةُ بناء فعل (ذُكِرَ) للمفعول:

النَّظمُ القرآنيُّ يعتني بالحدث دون فاعله؛ إذا علم على اليقين

بُنِي الفعل (ذُكِرَ) في جملة: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ للمفعولِ؛ للعلم به، فإنَّ الَّذي ذكر القتال في السّورة هو منزلها ﷻ، فلا ينصرف الذِّهن إلّا له، ولتوجيه الأنظار إلى دلالة فعل (ذُكِرَ)، فهي المقصودة بالذِّكر؛ لأنَّ ذكر القتال هو المقصود الأعظم، وعليه مدار السّورة النّازلة.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 53.

(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 327.

(3) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 327، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 45.

بلاغةُ استعمال حرف الظَّرفيّة (في):

القتال متمكِّنٌ ذكرُه في سوره النّازلة

أفاد حرف (في) في قوله تعالى: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ الظَّرفيَّة، أي: ذكر في السّورة، فذكر القتال آخذٌ السّورةَ كلَّها، فذِكْرُ القتال متمكِّنٌ من السورةِ، آتٍ على جميع مناحيها ونظمها وبنائها، وهو ما يلتقي مع وصف السورة بالإحكام، وليس المراد على ما ذهب إليه ابن عاشور رحمه الله من أنّها للتَّبعيض؛ بناءً على أنَّ "السّورة ليست كلُّها متمحِّضة لذكر القتال، فإنَّ سور القرآن ذوات أغراض شتّى"[1]، وذلك لاعتماده السّورة بالمعنى الاصطلاحيِّ لا بالمعنى القرآنيِّ، فالسّورة الاصطلاحيَّة هي الَّتي تحدَّدت عند اكتمال النُّزول، والسّورة بالمعنى القرآنيِّ هي القطعةُ القرآنيَّة النّازلة، وهي جزءٌ من السورة بالمعنى الاصطلاحيِّ.

نكتةُ تقديم ﴿فِيهَا﴾ على ﴿ٱلْقِتَالُ﴾:

كلُّ ما في القرآن ينبغي الاهتمام به

تقديم الجار والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على ﴿ٱلْقِتَالُ﴾؛ للتَّشويقِ لما بعده، ولبيانِ أنَّ العنايةَ يجب أن يكون لما في السورة ابتداءً، فكأنَّ الأمر بالعنايةِ بالقتالِ جاء مرَّتين: مرَّةً في تقديمِ الجارِ والمجرور، ومرَّةً في ذكر القتال نفسه.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿ٱلْقِتَالُ﴾ دون (الجهاد):

القتالُ لفظٌ يومئ إلى احتمال وقوع القتل، وهذا ما يخشاه المنافقون

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿ٱلْقِتَالُ﴾ دون (الجهاد)؛ للإيماءِ إلى أنَّهم قد يُقتلون؛ لأنَّ المقاتل في سبيل الله تعالى قد يتعرَّض للقتلِ، وهذا ما يخشاه المنافقون؛ لأنَّهم لا يؤمنون، وشأن المؤمن أن يضحّيَ بنفسِه لما يؤمن به، بخلافِ المنافق، فإيمانه باطل، وهو مرغمٌ على إظهارِه، فكان ذكر القتالِ كاشفًا عن حقيقةِ بواطنهم بما يظهر من إيماءات على وجوههم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 107.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿رَأَيۡتَ﴾:

بمجرَّد الإبصار تنكشف الحقائق

جاء فعل الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾ جوابًا للشَّرطِ، وخصَّ الرُّؤية بالذِّكر؛ لبيانِ أنَّ حالَ الَّذين في قلوبهم مرض مكشوفٌ لا يخفى على أحدٍ، فبمجرَّد الرُّؤية يبين الحال، ولذلك جاء التَّعبير بصيغةِ ﴿رَأَيۡتَ﴾ ماضيًا؛ لتقرير القطع بتلك الرُّؤية، وأنَّ رؤيتهم على تلك الحال لن تكون خافيةً على أحد، فهُم لا يستطيعون إخفاءها.

تعيينُ مرجع الضَّمير في ﴿رَأَيۡتَ﴾:

الخطابُ التَّشريعيُّ للرَّسول هو خطابٌ تشريعيٌّ لأمَّته ما لم يُخصَّص

الخطاب في قوله تعالى: ﴿رَأَيۡتَ﴾؛ للنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّه المخاطَب الأوَّل بالشَّرع الحنيف، و"لأنَّه لاحقٌ لقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾ [الأنعام: 25]"[1]، أي: إنَّه نظيره في الموضوع والمعنى، ويتَّسع الخطاب بعده ﷺ لكلِّ مؤمن يرى في نظر المنافقين، حال دعوتهم إلى القتال في سبيل اللّه تعالى خشوع من غَشيَهُ الموت.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الموصولُ عنصر تشويق بما فيه من إبهام يفتقر إلى جملة تبيِّنه

المقصودُ بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المنافقون[2]، والتَّعبير عنهم بالموصول دون الاسم الصَّريح (المنافقين) يفتح المجال لإثبات مرض قلوبهم، مع التَّشويق لمعرفة أوصافهم بعد إبهامهم، ولبيانِ أنَّهم معروفون بنفاقهم ومرض قلوبِهم.

دلالةُ حرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

مستقرُّ النِّفاق في أعماق القلوب

يكشف حرف الظَّرفيَّة في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾ عن تغلغُل المَرض في أعماق قلوبِ المنافقين، وعن تمكُّنِه منهم؛ بحيث يَقدر على صَرْفِهم عن الحقِّ إلى الباطل، وعلى حَجْبِهم عن رؤية الحقيقة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 108.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 126.

تشويقُ المخاطَب إلى معرفةِ أخطر ما قد يستقرُّ في القلوب

نكتةُ تقديم ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾ على ﴿مَّرَضٌ﴾:

قَدَّم النَّظم الكريم متعلِّق الخبر المحذوف ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾ على المبتدأ ﴿مَّرَضٌ﴾؛ تنبيهًا إلى خطورة سُكنى مرض النِّفاق القلبَ، فإنَّ القلب مركزُ الجسد، إذا صلح؛ صلح الجسد كلُّه، وإذا فسد؛ فسد الجسد كلُّه[1]، فقُدِّم المتعلِّق للتَّشويق، فإنَّ ذِكر القلوب يُشوِّق المخاطَب؛ لتعيين ما فيها، ولبيانِ أنَّ تغلغل النِّفاق في القلوبِ هو أخطر ما في الأمر.

قيمُ الهدايةِ مبثوثةٌ في ألفاظِ القرآن واستعاراته

بلاغةُ الاستعارةِ في مفردةِ ﴿مَّرَضٌ﴾:

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردةِ ﴿مَّرَضٌ﴾، في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ﴾، والمقصود: في قلوبهم شكٌّ في الدّين وضعف في اليقين[2]، فهو استعارةٌ لِفساد المعتقَد؛ لأنَّ حقيقةَ الصِّحَّة والمرض تكون في الأجسام، وتُستعار للمعاني[3]، فالنِّفاق مرض القلوب، الَّذي يعوِّق عملها، كما أنَّ اعتلال الجوارح مرض الأبدان الَّذي يعوِّق عملها، فيكون تشبيه الشَّكِّ وفساد المعتقد بالمرض الحسّيِّ، من باب تشبيه المعنويِّ بالحسّيِّ، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة، وفي استعمال مفردة ﴿مَّرَضٌ﴾ بالإضافة إلى بلاغة الاستعارة؛ إيماء إلى أنَّ هذا المرض له قابليَّة في العلاج والدَّواء، ولا يكون ذلك إلّا باتِّباع الوحي، وامتثال أمره.

نكتةُ تنكير لفظِ ﴿مَّرَضٌ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿مَّرَضٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ للنَّوعِ، فهو مرض النِّفاق وليس المرض المعهود المعروف بين النّاس.

(1) الطبراني، المُعجمُ الكبير، برقم 57.
(2) القاسمي، محاسن التّأويل: 8/ 474.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 117.

بلاغةُ استعمالِ مفردة النَّظر دون الإبصار:

عيونُ المنافقين تبوح بمضمرات قلوبهم

التَّعبير بلفظ النَّظر في قوله تعالى: ﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾؛ لبيان أنَّ نظرهم قام على التَّجرُّد من العقل أو قوَّة الإدراك، فهُم بمجرَّد أن سمعوا السّورة النّازلة المذكور فيها القتال؛ نظروا على تلك الحالة، فلمّا أدركوا ما في السّورةِ من الأمر بالقتالِ، نظروا نظر الخائف المرعوب، دون إدراكٍ لما يُظهرونه من المخاوف، وهذا يدلُّ على عدمِ اتِّزانِهم وضعف إدراكهم، فتوحي حركات عيونهم بحقيقةِ أمرهم؛ إذ يمكن للمتفرِّس فيهما أن يرى ما وراءها من مضمر النَّفس بخاصَّةٍ حين يُدعون إلى القتال؛ وذلك من عِظم "فزعهم ورُعبهم وجُبنهم من لقاء الأعداء"[1]، وقديمًا قرَّر الشّاعر:

العَيْنُ تُبدي الحُبَّ والبُغْضا *** وتُظْهِرُ الإبْرامَ والنَّقْضا

فإذا كانت ألسنتهم كاتمةً لنفاقهم؛ فإنَّ دلائل النِّفاق تنبعث من عيونهم، وتخبرك أيُّها المؤمن عمّا تضمره قلوبهم.

معنى (إلى) ودلالتها:

(إلى) في قوله تعالى: ﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾ تفيد انتهاء الغاية، والمعنى: أنَّهم ينظرون جِهة رسول اللّه ﷺ.

علَّة استعمالِ مفردةِ الغَشْي:

تصلُّبُ المنافقين حين فُرِض القتال يعمُّ أبدانهم كلَّها

التَّعبير بمفردة الغَشْي في قوله تعالى: ﴿نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾، يُسهم في بيان حال المنافق، فحاله كحالِ الَّذي غُطّي على عقله وصُرِع، وسُلِب تركيزُه، وشَخَص بصرُه، كأنَّه تصلَّب جسده، والغشاوة هي ستار يُغطّي المغشي عليه، واستُعمِل في الآيةِ لاستحضار صورةٍ يعرفها المخاطَبون من واقع تمثيلهم شديدَ الخوف بالمغشيِّ عليه.

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 474.

عـلامـةُ النِّفاق إظـهـارُ الإيـمـانِ حــالَ الـمـيـسـرة والــجــزع حــالَ الشِّدَّة

بلاغةُ الكناية في التَّشبيه:

في قوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ صورة تشبيهيَّة، ونوع التَّشبيه بليغ؛ إذ تشبِّه حال المنافقين حين يَشتدُّ الأمر، ويُعزَم عليهم بالقتال بحال مَن نزلت به سكرات الموت، فشخَص بصرُه، وفقَد حراكه.

ووراء هذه الصّورة التَّشبيهيَّة: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ صورة كنائيَّة دقيقة؛ إذ إنَّ الإخبار بتصلُّب البَصر وشخوص النَّظر عند ذكر القتال غير مقصود لذاته، بل لأنَّه دليلٌ على ما وراءه من أثر قلبيٍّ دفين، وأثر روحيٍّ آسر، وكلاهما لا يُرى بالعين، بل يُرى دليله هذا، فالتَّشبيه كنايةٌ عن شدَّة الخوف والفزع والهلع.

المــنــافــقُ في سُفلٍ في جميع أحوالِه الباطنة والــظّــاهــرة والمتخيَّلة

بلاغةُ حرف الاستعلاء (على):

آثر النَّظم الكريم استعمال حرف الاستعلاء (على)، في قوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾، وهي كقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ [الأحزاب: 19]؛ وذلك لبيان حالة ركوب الفزع ذلك المنافق، واستعلائه عليه، وشدَّة وطأة ذكر القتال وضغطها على نفسه، كأنَّ الموت حلَّ به، وصرعه بسلطانه القاهر.

نوعُ ﴿مِنَ﴾ ودلالتها:

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ تعليليَّة، أي: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ﴾ لأجل الموت، أي: لأجل حضور الموت وحلوله به(1).

دلالةُ تعريف لفظِ ﴿ٱلۡمَوۡتِۖ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ للعهد الذِّهنيِّ؛ إذ تأخذ بالأذهان إلى ﴿ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ الحقيقيِّ الأكبر، وهو نزع الرّوح من الجسد، فهو المقصود في الآيةِ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 108.

وذلك لتهويل المشهد، وبيان عظيم الموقف بالنِّسبة للمنافقين، فهُم يُصارعون وجودَهم في هذه الحياة؛ لأنَّ ذكرَ القتال يعني تعرُّضهم للموتِ، وإظهار النِّفاق لا يختلف كثيرًا في تفكيرهم، فالمنافق إنَّما أخفى نفاقَه؛ ليُحافظ على حياته ووجوده، فأن يأتيه الموت من جهةِ ما أظهره كذبًا وبهتانًا، فهي الطّامة الكبرى، والصّاعقة العظمى.

حذَرُ المنافق من القتال في صف المؤمنين مثل حذره من الموت الأكبر

نكتةُ حذف المضاف:

في قوله تعالى: ﴿نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ إيجاز بحذف المضاف إلى ﴿ٱلۡمَوۡتِۖ﴾، والتَّقدير: كالَّذي يُغشى عليه من حضور الموتِ[1]، فهذا صنيع الخوفِ، فكيف بتحقُّق الموت؟.

نوعُ الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَأَوۡلَىٰ﴾:

جبنُ المنافق جديرٌ بالتَّهديد حقيقٌ بالوعيد

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ فاء التَّفريع؛ إذ تفرَّعُ تهديدَ المنافقين بقوله سبحانه: (أولى لهم) على استقبالهم: ﴿سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ على هذه الهيئة الفاضحة، "وهذا التَّفريع اعتراضٌ بين جملة: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾، وبين جملة: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾"[2].

بلاغةُ التَّعبير بقوله: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾:

التَّركيبُ القرآنيُّ الواحد الكريم يعالج كلَّ صنف من النّاس بحسبه

لفظ (أولى) هنا يجوز أن يكون مستعملًا في ظاهره استعمال التَّفضيل على شيء غير مذكور يدلُّ عليه ما قبله، أي: أولى لهم من ذلك الخوف الَّذي دلَّ عليه نظرهم كالمغشي عليه من الموت، أن يطيعوا أمر اللّه، ويقولوا قولًا معروفًا، وهو قول: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ [البقرة: 285] فذلك القول المعروف بين المؤمنين؛ إذا دعوا، أو أمروا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ﴾ [النور: 51] في سورة النور.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 108.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 108.

وعلى هذا الوجه فتعدية فأولى باللام دون الباء؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك أولى وأنفع، فكان اجتلاب اللّام؛ للدَّلالة على معنى النَّفع، فهو مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾ [النور: 30]، وقوله: ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ [هود: 78]، وهو يرتبط بقوله بعده، فلو صدقوا اللّه؛ لكان خيرًا لهم.

ويجوز أن يكون ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ مستعملًا في التَّهديد والوعيد، كما في قوله تعالى: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ﴾ [القيامة: 34 - 35]، وهو الَّذي اقتصر الزَّمخشريُّ عليه، ومعناه: أنَّ اللّه أخبر عن توعُّده إيّاهم، ثمَّ قيل على هذا الوجه: إنَّ (أولى) مرتَّبة حروفه على حالها من الولي، وهو القرب، وأنَّ وزنه أفعل، وقال الجرجانيُّ: هو في هذا الاستعمال مشتقٌّ من الويل، فأصل أولى: أَوْيَلُ، أي: أشدُّ ويلًا، فوقع فيه قلب، ووزنه أفلع، وفي الصِّحاح عن الأصمعيِّ ما يقتضي: أنَّه يجعل (أولى له) مبتدأ محذوفَ الخبرِ، والتَّقدير: أقرب ما يهلكه، قال ثعلب: ولم يقل أحد في (أولى له) أحسن ممّا قال الأصمعيُّ، واللام على هذا الوجه إمّا مزيدة، أي: أولاهم اللّه ما يكرهون.

وإمّا متعلِّقة بـ(أولى) على أنَّه فعل ماضٍ(1).

موقع قوله تعالى: ﴿طَاعَةٞ﴾ من التَّركيب:

يندب الله تعالى عباده للامتثال والإخلاص وقول المعروف

قوله تعالى: ﴿طَاعَةٞ﴾ "ابتداءٌ محذوفُ الخبر، تقديره: طاعة وقول معروف أمثلُ وأحسن، والمعنى على هذا: أنَّ اللّه تعالى، قال: لو أطاعونا، وقالوا قولًا معروفًا كان أمثلَ وأحسن، ويجوز أن يكون هذا متَّصلًا بما قبله، على معنى: فأولى لهم طاعة اللّه ورسوله، وقول معروف بالإجابة، أي: لو أطاعوا؛ كانت الطّاعة والإجابة أولى لهم، وهذا معنى قول ابن عباس"(2).

أو هو "خبرٌ من اللّه - تعالى ذكرُه - عن قيلِ هؤلاء المنافقين من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 109.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 126.

قبلِ أن تَنْزِلَ سورةٌ محكمةٌ، ويُذْكَرَ فيها القتالُ، وأنَّهم إذا قيل لهم حينئذٍ: إنَّ الله تعالى مفترِضٌ عليكم الجهادَ، قالوا: سمعٌ وطاعةٌ، فقال الله ﷻ لهم: فإذا أُنزلت سورةٌ، وفُرِض القتالُ فيها عليهم، فشقَّ ذلك عليهم، وكرِهوه: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ قبلَ وجوب الفرضِ عليكم، فإذا عزَم الأمرُ؛ كرِهتموه، وشقَّ عليكم، فقولُهُ تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ مرفوعٌ بمضمَرٍ، وهو: قولُكم - قبلَ نزولِ فرضِ القتالِ - طاعَةٌ وقَوْلٌ مَعْروفٌ"[1].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾:

القول المعروف قرين الطاعة في نشر الخير

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ عاطفة؛ إذ عطفت (قول معروف) على ﴿طَاعَةٌ﴾، فإذا كانت ﴿طَاعَةٌ﴾ مصدرًا بمعنى (أطيعوا)؛ كان ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ مصدرًا بمعنى (وقولوا قولًا معروفًا)، وفي جمع القول المعروف إلى الطّاعة تنويهٌ بأثر القول المعروف وأهمّيَّته في حياة مَن يتلقّاه من المجتمع بِقَدْرِ أهمّيَّة الطاعة في صلاح حياة العبد الطّائع الَّذي يقوله.

غرضُ تقديم الطّاعة على القول المعروف:

تقديمُ الدَّليل على الدَّعوى بحسب معاني السّياق

قُدِّم ذِكر الطّاعة على القول المعروف في قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾؛ لأنَّ المطلوب ابتداءً الامتثال أو إضمار الامتثال، فمن أضمر الامتثال للشَّرع، فقد امتثل، ثم بعد ذلك يأتي القول المعروف؛ لأنَّه ترجمةٌ لما في القلب صدقًا وحقًّا، فيكون تقديم الطّاعة من باب تقديم الدَّليل على الدَّعوى، وهذا يحسُن في باب معالجة النِّفاق، والأصل أن يُقدِّم ذِكر الدَّعوى على الدَّليل فيما يقتضيه الظّاهر، ونكات التَّقديم والتَّأخير إنَّما تُعيَّن بحسب السّياق.

صفةُ الطّاعة ذاتيَّة باعتبار مصدرها بخلاف القول

لطيفةُ وصف (قول) بصفة ﴿مَّعْرُوفٌ﴾ دون لفظ ﴿طَاعَةٌ﴾:

جاء وصف (قول) بصفة ﴿مَّعْرُوفٌ﴾ دون أن يوصف لفظ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 211.

﴿طَاعَةٌ﴾، وذلك لأنَّ الطّاعة المرادة هنا هي طاعة اللّه ورسوله، وهذه لا تكون إلّا بالمعروف والخير الظاهر، أمّا القول؛ فهو ما يصدر عن النّاس من ألفاظ، فوصفه بالطّاعة لإبراز جانبٍ مهمٍّ من جوانب الانضباط بحيث يكون معروفًا من جهة الشَّرع والعقل، ولا يكون معروفًا ما لم يكن عن نيَّة صادقة، وأثر طيِّب، أي: حسن الباطن والظّاهر، وهو الأنسب في هذا السّياق.

دلالةُ الفاء في ﴿فَإِذَا﴾:

المنافق إمّا أن يحضر القتال بدون نيَّة، أو يَتوقَّف عن القتال ويَفِرّ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ تفريعيَّة على حال المنافقين: ﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾، "فإنَّه إذا جدَّ أمرُ القتال، أي: حان أن يُندب المسلمون إلى القتال سيضطرِب أمر المنافقين، ويتسلَّلون لِواذًا من حضور الجهاد، وأنَّ الأولى لهم حينئذٍ أن يخلصوا الإيمان، ويجاهدوا كما يجاهد المسلمون الخُلَّص، وإلّا فإنَّهم لا محيص لهم من أحد أمرين: إمّا حضور القتال بدون نيَّة، فتكون عليهم الهزيمة، ويخسروا أنفسهم باطلًا، وإمّا أن ينخذلوا عن القتال، كما فعل ابنُ أُبَيٍّ وأتباعُه يوم أحد"[1].

لطيفةُ التَّقييد بـ (إذا) دون (إن) في جملة: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾:

حصولُ القتال، والدّعوةُ إلى الجهاد بالنَّفس والمال حتميٌّ لنهوض الأمَّة

قَيّد النَّظم الكريم عَزْمَ الأمر بـ (إذا) دون (إن) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، أي: "وجَب القتالُ وجاء أمرُ اللّه بفرضِ ذلك؛ كرهتموه"[2]؛ وذلك للقطع بأنَّ القتال سيعزِم، ويَجِدُّ، ويتحتَّم على الأمَّة، وستحصل الدَّعوة إلى الجهاد بالنَّفس والمال، وحينئذٍ يجب الصِّدق والجدُّ، والنُّهوض إلى نصرة الدّين ومؤازرة أصحاب الأمر الجادّين فيه العازمين عليه النّادبين إليه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 110.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 211.

دلالةُ استعمال مفردة العزم:

الجهادُ مبنيٌّ على العزم والجدِّ، لا التَّراخي والتَّهاون

على حمل ﴿عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ على معنى "وجوب القتال، ولزومه، وتأكيده عليهم"(1)، فيكون من براعة النَّظم الكريم اصطفاءُ مفردة (العزم)؛ إذ العزم جدٌّ صارم، لا تَرخُّص فيه، ولا تردُّد، ولا تسامُح، ولا تهاون، وهكذا أمر الجهاد مبنيٌّ على العزم والجدِّ لا التَّراخي والتَّهاون، وإلّا كان الفشل والهزيمة مآل المتراخين المتهاونين، ولذلك صيغ فعل العزم ماضيًا؛ إذ (العزم) يشتدُّ، ويقوى بتحقُّقه ووقوعه، وهما مُفاد دلالة المضيِّ.

بلاغةُ لفظ العزم بين المجاز العقليِّ والاستعارة:

التَّصويرُ البيانيُّ يضفي على المعاني مبالغةً وقوَّة بيانٍ

أُسنِد لفظ العزم إلى ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، فهو فاعل معناه المفعول، وإنَّما يُعزَم الأمر، ولا يَعزِم، والعزم للإنسان لا للأمر، وهذا كقولهم: هَلك الرَّجل، وإنَّما أُهلِك، وهذا على حدِّ قولهم: جدَّ الجدُّ، أي: جدَّ أصحابه، فيُسند الفعل إلى مصدره، أو ما يقوم مقامه، فهو مجاز عقليٌّ.

ويحتمل أن يكون العزم استعارةً؛ إذ "استُعير العزمُ لـ (التَّعيين واللُّزوم) على طريقة الاستعارة المكنيَّة، بتشبيه ما عُبِّر عنه بالأمر - وهو القتال - بِرَجُلٍ عَزَمَ على عملٍ ما، وإثبات العزم له استعارة تخييليَّة، كإثبات الأظفار للمنيَّة"(2).

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾:

معاني الألفاظ إنَّما تُعرَف بسوابق الكلام

الأمر مطلقًا هو الحدَث والفعل، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٢٢﴾ [لقمان: 22]، وقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: 123]، فهو واحد الأمور، والأمر في الأصول: طلب الفعل على جهة الاستعلاء والقهر، فهو واحد الأوامر، وأمّا ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 278.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 110.

﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾، فالتعريف فيه للعهد الذِّهنيِّ، أي: "القتال المتقدِّم آنفًا في قوله تعالى: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾"[1]، ولطيفة تسميته بالأمر وتعريفه إضفاء المهابة عليه، وكأنَّه الأمر الَّذي لا أمر بعده.

نكتةُ حذف جواب الشَّرط:

حُذِف جواب (إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، والتَّقدير، أي: إذا جدَّ الأمر، ووجب القتال؛ خالَفوا، وتخلَّفوا، وناقَضوا، وكرِهوا، يدلُّ على المحذوفِ قوله تعالى: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾، أي: في إيمانهم وجهادهم، ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ من المعصية والكراهية[2]، وحذْفُ الجوابِ يُناسب ما يُضمره المنافقون، فإنَّهم لمّا أضمروا النُّكوص والفرار والنَّكال؛ أضمر القرآن لفظ هذه المعاني؛ ليأتي المقصود تلويحًا، وليحثَّهم على الهداية والعودة إلى الطّاعة، ولو صرَّح بذلك؛ لكان التَّصريح كاشفًا فاضحًا، وشأن القرآن استعمال التَّلميح والتَّلويح والإيماء لا سيَّما في الحثِّ على الهداية.

للتَّلويحِ والإيماء تأثيرٌ في نفوس البشر ما لا يُؤثِّره التَّصريح

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَلَوۡ﴾:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ رابطة لجواب الشَّرط، وجملة: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ دليل جواب ﴿فَإِذَا﴾؛ لأنَّ (إذا) ضمنت هنا معنى الشَّرط، أي: كذبوا اللّه، وأخلفوا، فلو صدقوا اللّه؛ لكان خيرًا لهم، واقتران جملة الجواب بالفاء؛ للدَّلالة على تضمين إذا معنى الشَّرط، وذلك أحسن من تجريده عن الفاء؛ إذا كانت جملة الجواب شرطيَّة أيضًا[3].

الصِّدق مع الله باب كلِّ خير

بلاغةُ استعمال مفردة الصِّدق:

الصِّدقُ مطابقة القول الاعتقاد، ومطابقة الخبر المخبَرَ عنه، وقد

الصِّدق خُلُق المؤمنين ينأى عنه المنافقون

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 110.

(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 126.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 110.

جاء ذكر الصِّدق في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾؛ لأنَّ المنافقين أوَّل ما خالفوا فيه هو الكذب في أقوالهم، والإخبار بما هو مخالفٌ لقلوبِهم، فلمّا أخبَروا أنَّهم مؤمنون؛ كان إخبارُهم مخالفًا لِما وقَر في قلوبهم، فلو صدقوا اللّه تعالى في إيمانهم، وفي قولهم: نحن مؤمنون، وحقَّقوا قولهم هذا بأفعالهم؛ لأفلحوا، ونجَوا من غضبه وعقابه، وكان خيرًا لهم[1]، ففي استبعاد صِدق المنافقين الكاذبين دليلٌ بطريقِ مفهوم المخالفة على كونه غاية سامية يتحلَّى بها المؤمنون الموفَّقون.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾:

مقامُ التَّكليف يُناسبه عنوان الألوهيَّة

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ في جملة: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ دون عنوان الرُّبوبيَّة؛ لأنَّ المقام مقام تكليف بالقتال، والقتالُ احترابٌ فيه إسالة الدِّماء وإزهاق الأرواح، فناسبه ذِكر الاسم الجليل؛ لما له من جلال وعظمة سلطان.

دلالةُ نسبة تكذيبهم إلى الله:

مـن كـذب الرَّسول؛ فإنَّما كذب المرسل في الحال والمآل

المنافقون "إنَّما كذَّبوا رسولَ اللّه ﷺ؛ إذ أظهروا له خلاف ما في نفوسهم، فجُعِل الكذِبُ على رسول اللّه ﷺ كذِبًا على اللّه تعالى؛ تفظيعًا له وتهويلًا لِغَبَّتِه، أي: لو أخلصوا الإيمان، وقاتلوا بِنيَّة الجهاد؛ لكان خيرًا لهم في الدُّنيا والآخرة، ففي الدُّنيا خيرُ العزَّة والحرمة، وفي الآخرة خير الجنَّة"[2].

نكتةُ حذف متعلِّق فعل ﴿صَدَقُواْ﴾:

الصِّدق مع الله تعالى أولى منازل الوصول ومدارج العروج

أمسك النَّظم الكريم عن ذكر متعلِّق الصِّدق، في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾، والتَّقدير: فلو صدقوا اللّه تعالى فيما وعَدوه قبلَ نزولِ السّورةِ بالقتالِ، بقولِهم - إذ قيل لهم: إنَّ اللّه سَيَأمُرُكم بالقتال:-

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 3/ 356.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 111.

طاعةٌ، فَوَفَّوا له بذلك؛ لكان خيرًا لهم في عاجلِ دنياهم وآجلِ معادِهم[1]، أو لو صدقوه تعالى في الإيمان والطّاعة[2]، أو: لو صدقوا اللّه تعالى بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله[3]، أو "فلو صدقوا اللّه في إظهار الإيمان والطّاعة؛ لكان خيرًا لهم من المعصية والمخالفة"[4].

ولطيفة ذلك الحذف وجوب عموم صِدقهم اللّه تعالى، أي: ينبغي للعبد أن يَصْدُقَ اللّه تعالى في كلِّ شيء، وعلى كلِّ حال، فإذا وُفِّق إلى ذلك الصِّدق العامِّ؛ عاش حياة طيِّبة في الدُّنيا، وظفر بالرِّضوان والجنان في الآخرة.

نوعُ اللّام ودلالتها:

(اللّام) المتَّصلة بفعل الكون الماضي في قوله تعالى: ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ واقعة في جواب (لو)، وقد أفادت توكيد تحقُّق الخيريَّة لهم حال الصِّدق مع اللّه تعالى.

دلالةُ ذِكر الكون الماضي:

تعاضدُ التَّركيب على تحقيق دلالات خيريَّة الصّادقين

عبَّر النَّظم الكريم في جواب الشَّرط ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ بالكون الماضي (كان)؛ لأنَّ الكون الماضي يحقِّق دلالتَي القطع بالحصول، والتَّأكيد على أنَّه لا ريب فيه، وكلتاهما تتناغمان مع دلالة (اللام) المحتضِنة لهما في قوله: ﴿لَكَانَ﴾، فجميعها تحثُّ على اتِّباع الحقِّ، وطاعة اللّه ورسوله، والحذر من النِّفاق ومخالفة أمرهما.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿خَيۡرٗا﴾:

مَنْ لم يُحقِّق الخيرَ؛ فقد حاق به ضدُّه

لفظ ﴿خَيۡرٗا﴾ ضدُّ الشَّرِّ، وهو بوزن (فَعْل)، وليس هو بوزن (أفعل)[5]، أي: هو خيرٌ لهم في الدُّنيا والآخرة، لا أنَّه أفضل من أمرٍ

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 212.
(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 328.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 788.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 46.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 111.

آخر، ويجوز أن تكون ﴿خَيْرًا﴾ هنا على بابها من التَّفضيل، فتكون بوزن (أفعل) المراد منها التَّفضيل، والمعنى: لكان خيرًا لهم ممّا هم عليه[1].

ونُكِّر لفظُ ﴿خَيْرًا﴾؛ لتعظيم هذا الخير، وتفخيم شأنه، مع ما في هذا اللَّفظ من التَّلويح بحصولِ ضدِّه؛ إن لم يصدِّقوا الأمر مع اللّٰه تعالى، ففيه تهديد ووعيد إيمائيٌّ.

نوعُ اللّام ودلالتها:

مـخـتـارُ الـخير مستحقٌّ لكرامته وجـديـرٌ بِـجَـنْـي ثماره

(اللّام) في القيد الجار والمجرور ﴿لَّهُمْ﴾ للاستحقاق، والمعنى: أنَّهم لو وُفِّقوا، أو هدوا إلى صدق الإيمان؛ لاستحقّوا الخيريَّة، ومُنِحوها، وانتفعوا بها، وهذا الاستحقاق كان سيكون محضَ فضل من اللّٰه تعالى عليهم أيضًا؛ إذ هو الموفِّق أوَّلًا إلى الصِّدق، ثمَّ المانِح بعده للأجر.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/ 302.

﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾

[محمّد ﷺ: 22 - 24]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبلَها:

مفارقةُ الجهاد في سبيل الرَّحمن مفارقةٌ للقتال في سبيل الشَّيطان

لمّا أخبرت الآيات السّابقة تَطَلُّع المؤمنين إلى الإذن بالجهاد وقتال الأعداء، وأنَّ فريقًا منهم كانوا ضعاف الإيمان أو منافقين، وأنَّهم لو صدقوا اللّه؛ لكان خيرًا لهم؛ ناسب بيان ما سيُمسي عليه حالُهم إن تولَّوا، وأدبروا عن الطّاعة والجهاد في سبيل اللّه تعالى، وهو الإفساد في الأرض وتقطيع الأرحام؛ لأنَّ ما هم عليه قبل نزول الإسلام ومجيء الجهاد هو فساد وإفسادٌ في الأرضِ، فإن لم يستجيبوا لأمرِ اللّه تعالى والجهاد لإصلاح الأرض؛ فإنَّهم سيستجيبون لأمر الشَّيطان، فسيُفسدون في الأرض.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ﴾: القَطْعُ: إبانةُ بَعْضِ أجزاء الجِرْمِ مِن بعضٍ فَصلًا، قَطَعَه يَقْطَعُه قَطْعًا وقَطيعةً وقُطوعًا، والقَطْعُ: مَصدَرُ قَطعتُ الحبلَ قَطْعًا فانقَطَع، وقَطَعَ رَحِمَه قَطْعًا وقَطيعةً، وقَطَّعَها: عَقَّها، ولَم يَصِلْها، والاسمُ القَطيعةُ، ورَجُلٌ قُطَعَةٌ وقُطَعٌ ومِقْطَعٌ وقَطّاعٌ: يَقْطَعُ رَحِمَه، وفي حَديث صِلَةِ الرَّحِم: «هَذا مَقامُ العائِذِ بكَ مِنَ القَطيعَةِ»، والقَطيعَةُ: الهِجْرانُ والصَّدُّ، وهيَ فَعيلَةٌ مِنَ القَطع، ويُريدُ به تَرْكَ البرِّ والإحسان إلى الأهل والأقارب، وهيَ ضِدُّ صِلَةَ الرَّحم، وقَولُهُ تعالَى: ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾، أي: تعودوا إلى أمر الجاهِلِيَّة، فَتُفْسِدوا في الأرض وتَئِدوا البناتِ،

وقيلَ: تُقَطِّعوا أرْحامَكُم: تَقْتُلُ قُرَيْشٌ بَني هاشِمٍ وبَنو هاشِمٍ قُرَيْشًا، ورَحِمٌ قَطعاءُ بَيْني وبَيْنَكَ؛ إذا لَم توصَلْ[1]، فقوله تعالى: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾، أي: تفسدوا علاقات القرابات، الَّتي من جهة الأمَّهات، ونصَّ عليها؛ لأنَّها تكون بين النّاس أقوى.

2) ﴿أَرۡحَامَكُمۡ﴾: (رحم) أصل واحد يدلُّ على الرِّقَّة والعطف والرَّأفة، يقال مِن ذلك: رحِمه يَرحمُه؛ إذا رقَّ له، وتعطَّف عليه، والرُّحْم والمرحمة والرَّحمة بمعنى، والرَّحِم: عَلاقة القرابة، ثم سُمّيت رَحِمُ الأنثى رحِمًا مِن هذا؛ لأنَّ منها ما يكون ما يُرحم، ويُرقُّ له مِن ولَدٍ[2]، فمعنى ﴿أَرۡحَامَكُمۡ﴾ أي: ذوو قراباتكم من جِهة الرَّحِم.

3) ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾: الصَّمَمُ: ذَهابُ السَّمعِ، والاكتِنازُ في جَوْفِ القَنا، والصَّلابةُ في الحَجَر، والشِّدَّةُ في الأمر، وفتنة صمّاء، ويُقال: صَمامِ صَمامِ، يُحمَل على معنَيين: على معنى تصامّوا، واسكُتوا، وعَلى معنى احمِلوا على العَدو، والتَّصميمُ: المُضيُّ في كلِّ أمرٍ[3]، "وشُبِّه بالأصمِّ مَن لا يُصغي إلى الحقِّ، ولا يقبله، فقال تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: 18]، ويشبِّه من لا صوت له به"[4].

فمعنى ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾: حرمهم نعمة السَّمع المفضي إلى الإيمان بالحقِّ، وختم على أسماعهم، فلا يَنفذ الهُدى إلى نفوسهم.

4) ﴿وَأَعۡمَىٰٓ﴾: العَمَى: ذهاب البَصَر كُلِّه، عَميَ عَمًى واعمايَّ وتَعَمَّى في معنى عَميَ، وأعماه وعَمّاهُ: صيَّره أعْمَى، والعَمَى ذهاب نظر القلب، وقوله تَعالَى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ٢١﴾ [فاطر: 19 - 21]، قالَ الزَّجاج: هَذا مَثَلٌ ضَرَبَه اللّه تعالى للمُؤْمنين والكافرين، والمَعْنى: وما يَستَوي الأعْمَى عَن الحقِّ، وهوَ الكافِر، والبصير وهوَ المُؤمن الَّذي يبصر رُشدَه[5]، و(أعمى) هنا: استعارة لعدم الفهم والانتفاع بما يبصرون[6].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (قطع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).
(3) الخليل، العين: (صمم)، والأزهري، تهذيب اللغة: (صمم).
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (بصيرة في صم).
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (عمي).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 113، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 242.

5) ﴿أَقۡفَالُهَآ﴾: الأقفال جمع القُفل، والقُفل: ما يُغلَق به الباب مِمّا لَيسَ بكثيف ونَحوه، والجمع: أقفال، وأقفُل، وأنشدت أم القرمد:

ترى عينَيه ما في الكتاب وقلبه *** عَن الدّين أعمى موثق بقفول

وَقد أقفل الباب، وأقفل عليه، فانقفل، واقتفل، والنّون أعلى، ورجل مقفل اليدين، ومقتفل: لئيم، كلاهما على المثل[1]، ومعنى ﴿أَقۡفَالُهَآ﴾: ما توصَد به من النِّفاق وغيره، فلا تنفتح للهدى، والعياذ باللّه تعالى.

المَعنى الإجْماليُّ:

تَـرْكُ أحـكـام الـدّيـن سببُ الإفساد وتقطيع الأرحام

تُخاطب الآية الَّذين في قلوبهم مرضٌ، والمعنى: فهل عسيتم؛ إن أعرضتم عن القرآن، وفارقتم أحكامه أن تعودوا إلى جاهليَّتكم الأولى من الإفساد في الأرض وقتل بعضكم بعضًا، وتقطيع الأرحام بينكم؛ تناصرًا على الباطل، وتهالكًا على الدُّنيا.

ويصحُّ أن يكون المعنى: فهل عسيتم إن توليتم أُمور النّاس، وتأمَّرتم عليهم أن تفسدوا في الأرض، وترجعوا إلى التَّناهب والقتل وقطع الأرحام ووأد البنات: كما كنتم في الجاهليَّة[2].

فإنَّ أولئك الَّذين خالفوا أمره اللّه قد استوجبوا اللَّعن والطَّرد من رحمته، فحرمهم الانتفاع بآيات كتابه وأحكامه[3]، فتدبَّروا القرآن الكريم، ففي تدبُّره شفاءٌ لأمراض القلوب، وجلاءٌ لأغشية الأبصار والبصائر، ومَن أعرضوا عن تدبُّرِه، فقد أُغلِقت قلوبهم بأقفال خاصَّةٍ بها، فـ "لا يدخل في قلوبهم الإيمان، ولا يخرج منها الكفر والشِّرك؛ لأنَّ اللّه سبحانه قد طبع عليها"[4].

(1) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (قفل).
(2) التفسير الوسيط، مجمع البحوث: 9/ 965.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 113.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 46.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الفاء ودلالتها:

معنى الحروف قائمٌ على توجيه الرَّبط بين الجمل

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ﴾؛ للتَّفريع فإنَّ "مقتضى تناسق النَّظم أنَّ هذا مفرَّع على قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾؛ لأنَّه يُفهم منه أنَّه إذا عزم الأمر؛ تولَّوا عن القتال، وانكشف نفاقهم، فتكون إتمامًا لِما في الآية السّابقة من الإنباء بما سيكون من المنافقين يوم أحد"[1].

غرضُ الاستفهام وبلاغته:

صوغُ الخبر بصيغة الاستفهام لتوبيخ المخاطَب وتقريره على الصّواب

من أغراض صوغ الخبر استفهامًا في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: التَّحذير من أن يتورَّطوا في جريمة التَّولّي والإفساد في الأرض ومن تقطيع أرحامهم، كما أنَّ فيه معنى "التَّكذيب لما سيعتذرون به لانخذالهم؛ ولذلك جيء بـ (هل) الدّالَّة على التَّحقيق؛ لأنَّها في الاستفهام بمنزلة (قد) في الخبر.

فالمعنى: أفيتحقَّق إن تولَّيتم أنَّكم تفسدون في الأرض، وتقطعون أرحامكم، وأنتم تزعمون أنَّكم تولَّيتم إبقاءً على أنفسكم، وعلى ذوي قرابة أنسابكم، على نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾ [البقرة: 246]، وهذا توبيخ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ﴾ [البقرة: 85]، والمعنى: أنَّكم تقعون فيما زعمتم التَّفادي منه؛ وذلك بتأييد الكفر، وإحداث العداوة بينكم وبين قومكم من الأنصار"[2].

دلالةُ التَّعبير بالفعل (عسى):

مَن يفرُّ من الجهاد يقرب من الإفساد

(عسى) في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تحتمل معنى (لعل)، أي: لعلَّكم تفسدون في الأرض؛ إن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 111.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 111.

تولَّيتم بموجب نفاقكم، كما تحتمل معنى المقاربة، أي: يوشك أن يقع منكم الإفساد؛ إن تولَّيتم، وعلى المعنيين فيها تحذير من أن يؤول حالهم إلى ذلك.

بلاغةُ الالتفات من الغيبة للخطاب:

زجْرُ المنافقين وتقريعهم أدعى للإحجامِ عن غيِّهم

التفت النَّظم الكريم من الحديث عن المنافقين في الآية السّابقة: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾، إلى الحديث عنهم هنا، في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾؛ التفاتًا من الغيبة إلى الخطاب، وذلك الالتفات يحقِّق عليهم الخطيئة؛ إذ يستدعيهم للمثول، والمحاكمة إلى أنفسهم، كما جاء الالتفات هنا؛ تنبيهًا على تناهي الغضب الإلهيِّ، وبلوغه الغاية فيه[1]؛ وذلك أزجر لهم، وأبلغ في التَّوكيد، والتَّوبيخ والتَّقريع[2].

نكتةُ استعمال ﴿إِن﴾ دون (إذا):

غرض النَّظم تحذير المنافقين من التَّولّي لا الإخبار عن تولّيهم

﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ شرطيَّة، وإيثار النَّظم الكريم التَّقييدَ بها دون (إذا)؛ لما في ﴿إِن﴾ من معنى الاحتمال دون القطع، ونكتة ذلك دعوة رقيقة خفيَّةٌ إلى الحَذَر من الإعراض عن الدّين ومعاداته، وعن القتال والجهاد وكَراهته، ولفْتٌ إلى أنَّ ذلك ممّا ينبغي ألّا يكون إلّا على سبيل الافتراض، ولو قال: (إذا تولّيتم)؛ كأنَّه يُخبرهم بتولّيهم، وهو يُحذِّرهم منه.

كما أنَّ في استعمال ﴿إِن﴾ دعوة إلى الحذر من بريق السُّلطان، والحذر من الالتهاء به عن الحقِّ؛ إذا كان المراد بالتَّولّي تولية أمور العباد، وصيرورة أمر الولاية إليهم.

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 239.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 325، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 46، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 238.

دلالةُ التَّعبير بمفردة التَّولّي:

يحتمل الفعل في جملة ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ أن يكون معناه: صِرتم أولياء أمور البلاد والعباد، ويحتمل أن يكون بمعنى: أعرضتم عن قبول الدّين والإيمان بالله تعالى، واتِّباع رسوله ﷺ أو بمعنى: أعرضتم عن القتال[1]، الذي غَشيَتكُم من ذِكره - في السّورة المحكَمة - غِشْيَةٌ مثلُ غِشْيَةِ الموت، ففِعل التَّولّي يعطي تلك الدَّلالات دَفْعَةً.

ثراءُ دلالة المفردة القرآنيَّة المتَّسِق مع السّياق وجه إعجاز جليل

وعلى كل المعاني فـ "صيغة التَّفعُّل في الفعل ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ إشارةٌ - مع نهاية الذَّمِّ - إلى أنَّ المُعرِضَ عن أمر الله تعالى معرِضٌ عمّا تَدْعوه الفطرةُ الأولى القويمة والعقلُ السَّديد إلى حسنه، فهو لا يُعرِض عنه إلّا بِمُجاهدةٍ منه لنفسه"[2].

توجيهُ القراءات القرآنيَّة:

قرأ رويس فعل: ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ بِضَمِّ التّاءِ وكَسْرِ اللّام ﴿تُوُلِّيتُمْ﴾، وقَرَأَ الباقونَ بِفَتحهنَّ[3]، وقراءة الجمهور واضحةٌ، وسبق بيانها، ومعنى القراءة الأخرى: حكَمَكم غيرُكم، وتولَّى أموركم، أي: "إن تولّاكم وُلاةٌ ظلمةٌ، جُفاة، غَشَمَةٌ، ومشيتم تحت لوائهم، وأفسدتم بإفسادهم معهم، وقطعتم أرحامكم، والنَّبيُّ ﷺ لا يأمركم إلّا بالإصلاح، وصلة الأرحام، فلِمَ تتقاعدون عن القتال، وتتباعدون في الضَّلال؟"[4]، أو عسيتم - إن وُلّي عليكم غيركم - أن "تخرجوا عليهم في الفتنة، وتحاربوهم، وتقطِّعوا أرحامكم بالبَغْي والظُّلم والقتل"[5].

تَنَوُّعُ القراءات القرآنيَّة يُثري الدَّلالات التَّركيبيَّة

نكتةُ التَّعبير بأداة ﴿أَن﴾ والمضارع دون المصدر الصَّريح:

﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مصدريَّة، والمعنى:

الإيماءُ إلى تجدُّدِ أحوال المفسدين في الأرضِ وتنوُّع أساليبهم

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 213، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 46.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 240.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 374.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 55.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 46.

لعلَّكم أو قاربتم إنْ قُدِّر لكم التَّولّي أو التَّولية، الإفساد في الأرض، وجاءت أن المصدريَّة مع الفعل المضارع ﴿تُفۡسِدُوٓاْ﴾ دون المصدر الصَّريح (الإفساد)؛ للإشارة إلى معنى التَّحذير الضِّمني في ﴿أَن﴾ مع الإيماء إلى تجدُّدِ الفساد؛ إن وقع، فإنَّ المفسدَ لا يتراجع عن إفساده في الأرض، بل يستمرُّ فيه، فإنَّ الفساد يتجدَّد شيئًا فشيئًا في نفس المفسد، وتتنوَّع أساليبه.

بلاغةُ التَّعبير بمفردة (الإفساد) مادَّة وصيغة:

الإفسادُ مستلزِمٌ للفساد من غير عكس

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بمفردة (الإفساد)، في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لما يَتَّسم به من بيانِ عموم الإضرار، كالإضرار بالدّين، وبالعباد والبلاد، والإفساد يُخرج الشَّيء الصّالح عن صلاحه واعتداله واستقامته، ويسلبه ميزة النَّفع، ويُتلِفه، كما أنَّ الإفسادَ مرحلةٌ تاليةٌ للفساد، فالمفسِد فاسدٌ قبل أن يُفسَد، مختلٌّ قبل أن يُخَلَّ.

بلاغةُ حرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

الإفسادُ في الأرضِ مكينٌ لا يزول بيُسرٍ

آثر النَّظم الكريم استعمال حرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾، في قوله تعالى: ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وهم إنَّما كانوا يفسدون على الأرض لا فيها، غير أنَّ النَّظم الكريم دَرَج على ذِكر الظَّرفيَّة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، في أغلب مواضع وروده في القرآن الكريم؛ إذ ورد ذكر ذلك في نحو مئة وسبعين موضعًا، ولم يُذكر حرف الاستعلاء مع الأرض صراحةً (على الأرض)، إلّا في أربعة مواضع، ولها مقاماتها الخاصَّة، الجليَّة في سياقاتها.

وحرف الظَّرفيَّة يُقرِّر، ويُبيِّن أنَّهم إذا أفسدوا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فإنَّ إفسادهم مكين أليم، ممّا يعكس قوَّة الشَّرِّ المترتِّب على نفاقهم وتركهم الجهاد، كأنَّ إفسادهم يصل إلى باطن الأرض؛ بسببِ شرِّهم ومكرهم.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

المنافقون يتنعَّمون بنعم الله، ويقابلونها بالفساد والإفساد

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ هي العهديَّة، أي: الأرض الَّتي عهدتموها، ونعمتُم فيها، وتقلَّبتم في الخيرات الَّتي أودعها الله تعالى فيها، ومع أنَّ ذكر إفسادهم لا يكون إلّا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ غير أنَّ في التَّذكير بها مزيد تعنيف وتبكيت؛ لأنَّهم يتمتَّعون فيها وبها وعليها، وقد يقصد بـ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ هنا الدُّنيا[1].

نوعُ الواو ودلالتها:

عطفُ خصوصِ تقطيعِ الأرحامِ على عمومِ الإفساد

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ عاطفة لجملة: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ﴾ على جملة: ﴿تُفۡسِدُواْ﴾، ومشرِكةٌ لها في النَّصب بـ ﴿أَن﴾، فهُم بنفاقهم قاربوا، وشارفوا أن يأتوا بالجريمتين معًا: جريمة الإفساد في الأرض، وجريمة تقطيع أرحامهم، أي: الجمع بين عموم الجُرم وخصوصه؛ لأنَّ الإفساد في الأرض يشمل تقطيع الأرحام، فهو من باب عطف الخاصِّ على العامِّ، وهذا أحد صور الإطناب، وغرضُه مضاعفة تقبيح النِّفاق، وتفظيع سببه في نفوس المنافقين، وغرْس بغض أهله في قلوب المؤمنين، وتنفيرهم منه ومن الوقوع في الجريمة الَّتي تجرُّ إليه.

بلاغةُ استعمال مفردة التَّقطيع:

يعالج الذِّكرُ الحكيم اختلالَ النُّفوس بأشدِّ المؤثِّرات فيها

التَّقطيع أمر حِسّيٌّ، وهو إبانةُ جزءٍ من كلِّه، والمقصود به هنا ترك البِرِّ والإحسان إلى الأهل والأقارب، وهي ضدُّ صلة الرَّحم، وقوله تعالى: ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾، أي: تعودوا إلى أمر الجاهليَّة في تقطيع الأرحام وإفساد علاقات القرابة، وبخاصَّة الَّتي مِن جهة الأمَّهات ذوات الأرحام، وذُكِرت الرَّحِم هنا للإغراء على البرِّ بالقرابة المباشِرة؛ لأنَّ العلاقات مِن جهتها بين النّاس أقوى، والتَّخويف من إيذائها أفعلُ في النُّفوس.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 206.

دلالة صيغة فعَّل ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ﴾:

تقطيعُ الأرحامِ إذا وقع؛ فوقْعُه شديدٌ أليم

للمضارعة في جملة: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ دلالة فاعلة في هذا المقام؛ إذ تستحضر ما يُتوقَّع ممَّن يتولّى عن القتال مستقبلًا، فيُقيم صورته أمام الذِّهن، وكأنَّه يُمارس التَّقطيع الآن، مع ما تفيده المضارعة من تجديد المتهرِّب من القتال من تقطيع الأرحام، وتنويع أساليه، واستمراره على ذلك لا يوقفه شيء.

وتشديد عين الفعل في ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ﴾ يدلُّ على أنَّ قطع المنافقين المعرضين عن القتال في سبيل اللّٰه تعالى يكون "تقطعيًا عظيمًا شديدًا كثيرًا منتشرًا كبيرًا"[1]، ففيه كناية عن فظاعة الجريمة؛ إذ لا يكتفون بقطع الرَّحم، بل يبالغون في القطع حتّى يصير تقطيعًا، وذلك كلُّه ممّا يضاعف على المنافق وضعيف الإيمان التَّرهيبَ من التَّقاعد عن الجهاد، ويأخذ بيديه إلى التَّوبة والامتثال لأمر اللّٰه تعالى؛ إذا عزم أمره.

توجيهُ القراءات القرآنيَّة في ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ﴾:

قـطـعُ الـرَّحـم قليله وكثيره من مظاهر الإفسادِ في الأرض

قرأ يعقوب بفتح التّاء، وإسكان القاف وفتح الطّاء مخفَّفة: ﴿وَتَقۡطَعُوٓاْ﴾، وقرأ الباقون بضمِّ التاء وفتح القاف وكسر الطّاء مشدَّدة: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ﴾[2]، وكلاهما بمعنى القطع، غير أنَّ قراءة الجمهور دالَّة على التَّكثير، وفي ذلك دلالة على التَّحذير من قطع الأرحام وتقطيعها، أي: من قليله وكثيره، وكذلك التَّرهيب من قطع المسلم رحمه، وتقطيعه أرحام النّاس بعضهم بعضًا.

دلالةُ التَّعبير بمفردة الرَّحِم:

الـرَّحـم مـن الرَّحمة؛ فمن وصلها؛ فاز بالرَّحمة، وإلّا فالشَّقاء

في التَّعبير بمفردة (الرَّحِم) تفظيعٌ لجريمة ترك الجهاد، الَّذي يؤول بالمنافقين وضعاف الإيمان إلى ارتكاب أشدِّ الإفساد، وهو

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 241.

(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 374.

تقطيع الأرحام؛ إذ التَّذكير بالرَّحم يحمل على الشَّفقة، والرِّقَّة، والعطف، والرَّأفة؛ لأنَّ (الرَّحم) مأخوذة من الرَّحمة.

والرَّحم علاقة القرابة، وأمارة قوَّة الآصرة بين النّاس، فإذا قطَّعها المنافق بإعراضه عن القتال؛ كان ذلك منه دليلًا على سواد قلبه، وطمس نفسه، وسُمّيت رحم الأنثى رحمًا من هذا - أي: من القرابة - لأنَّ منها ما يُرحَم، ويُرَقُّ له مِن ولَدٍ[1].

ففي "اختصاص ذوي الأرحام بالذِّكر هنا، هو إشارة إلى أنَّ هذا الَّذي تولّى، وأعرض عن الإيمان باللّه، لا يُرجى منه خير لإنسان، ولو كان فيه خير يُرجى؛ لكان ذلك في أهله، ولما قطع صلة الرَّحم بينه وبينهم"[2].

غرضُ جمع لفظ ﴿أَرۡحَامَكُمۡ﴾ ودلالته:

الإيــمــاءُ إلى وجــوبِ صلـةِ جميعِ الأرحام

جُمِع لفظُ ﴿أَرۡحَامَكُمۡ﴾؛ ليُبيِّن مدى إجرام المنافقين؛ إذ إنَّهم لا يَروي صدى نفاقهم تقطيعُ رحمٍ واحد أو رحِمَيْن من أرحامهم حتّى يُقَطِّعوا أرحامهم جميعها، فيقتلوا ذوي قراباتهم؛ معاداةً للدّين، وكيدًا له، وانتقامًا ممَّن يعتنقه، ويؤمن به.

وفي ذلك بمفهوم المخالفة تحتُّم صلة الرَّحم كلِّها، قريبِها وبعيدها، وأنَّ العبد بقدر ما ينهض للجهاد والقتال - امتثالًا لأمر أولي الأمر حين يعزم الأمر - يوفَّق إلى صلة الأرحام الأقربِ فالأبعدِ منه، وبقدر نُكوله عن الجهاد يكون تقطيعه الأرحام بحسب رتبتها كذلك.

دلالةُ إضافةِ لفظ الأرحام إلى الضَّمير:

الأرحـــام أحـقُّ بـــالـــوصـــل والإكـــــرام، فـالإنـسـان مِـن قِـبَـلِـهـا، وإليها ينتمي

في إضافة لفظ (أرحام) إلى ضمير جماعة المنافقين في قوله تعالى: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ استرحامٌ لهؤلاء المنافقين واسترآفٌ واستعطاف لهم على ذوي أرحامهم، فإنَّهم لا رحِم لهم إلّا من

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).

(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 358.

قِبَلها؛ لعلَّهم يتوبون من تهاونهم في أمر الجهاد، ويلبّون داعيه؛ إذا دعاهم، كما أنَّه في هذه الإضافة دليلُ بَشاعة النِّفاق وما يتسبَّب عنه من النُّكوص عن القتال في سبيل الله تعالى، وأنَّهم حينئذٍ لا يتورَّعون عن خُلق الإفساد الذَّميم مهما بَلغ بهم مِن الانحطاط الأخلاقي، حتّى يصل بهم ذلك النِّفاق والنُّكوص إلى حدٍّ تقطيع أرحامهم هم الَّتي من قِبلها أتوا، وإليها ينتمون، فهي الأحقُّ بالوصل والإكرام لا بتقطيعها والإساءة إليها.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ التَّقطيع:

تجسيدُ جريمة الإســـاءة إلى الأرحـام بصورةِ محسوسٍ يُمزَّق بآلةٍ حادَّة

إذا كان القطع في المحسوسات؛ إذ هو: إبانةُ بَعْضِ أجزاء الجِرْمِ مِن بعضٍ فَصْلًا[1]، فإنَّ التَّعبير - عن الإساءة إلى ذوي الأرحام، وإفساد ذات البين فيما يتعلَّق بهم، بالتَّقطيع والقطع - استعارة، فقد شُبِّه ترك الأرحام وعدم وصلهم والإساءة إليهم - وهو أمرٌ معنويٌّ - بالتَّقطيع، وهو أمر حسيٌّ، وصُرِّح بالمشبَّه به على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وسرُّ التَّعبير بها تجسيد الجريمة المعنويَّة بشيء محسوس يُمزَّق بسكّين أو آلة حادَّة، وإقامة هذه الصّورة في الذِّهن تبشِّع تلك الإساءة، وتحذِّر من فعلها، وترهِّب المنافقين من التَّولّي والإعراض عن القتال الَّذي فرضه عليهم بناء على طلبهم إيّاه، وتطلُّعهم وقت السِّلم إليه.

علّة فصل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ عمّا قبله:

فصلت جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ عمّا قبلها للاستئناف البيانيِّ؛ إذ تُجيب عن سؤال يجول في النَّفسِ عن مصير المنافقين، والموقف منهم، فيأتي الجواب بما تضمَّنته الجملة.

تعيينُ مرجع الإشارة بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الإشارة في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ ترجع إلى الَّذين

(1) ابن منظور، لسان العرب: (قطع).

من أعـرض عن أوامر الله حلَّ به غضبه

أفسدوا في الأرض، وقطعوا أرحامهم[1]، فأخبر اللّه عنهم بحلول لعنته عليهم، وتوعَّدهم بِصَمَم آذان العقول وعَمَى إبصار القلوب، ويرى ابن عاشور أنَّ "الإشارة إلى الَّذين في قلوبهم مرض على أسلوب قوله آنفًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [محمّد ﷺ: 16]، ولا يصحُّ أن تكون الإشارة إلى ما يؤخذ من قوله: ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾؛ لأنَّ ذلك لا يستوجب اللَّعنة، ولا أنَّ مرتكبيه بمنزلة الصُّمِّ"[2].

نكتة الإشارة بأداة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

إبعادُ المنافقين عـن مـيـدان الفضيلة فضيلة

في التَّعبير باسم الإشارة الموضوعة للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إيحاء بإبعادهم عن ساحة الطُّهر والرَّحمة والتَّوفيق؛ فإنَّهم يضمرون الكفر، ويظهرون الإسلام، فمَضرَّتُهم على الدّين والعباد والبلاد عظيمةٌ حتَّى على أقرب النّاس إليهم، كما سبق بيان لطائف الإضافة في ﴿أَرۡحَامَكُمۡ﴾.

لطيفةُ التَّعبير بالموصول:

التَّشويق للمعاني يجعلها تقع في النَّفس موقع القبول

التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِن عناصر التَّشويق إلى ما وراءه من كواشف إبهامه؛ لأنَّه فقير الدَّلالة يطلب ما يَسُدُّ فَقْر دلالته، فإذا جاءت جملة الصِّلة؛ تمكَّنت في النَّفس فضل تمكُّن، وصارت هي الأخرى عُنصر تشويقٍ، وتَطلب ما وراءها من تفاصيلِ قيودها ومتعلِّقاتها، ثم يَطلب كلُّ ذلك ما وراءه من الخبر، الَّذي زاد الشَّوق إليه، فيكون في لذَّة ما حُصِّل بعد طلبٍ، فعند مجيءِ الصِّلة ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يتمكَّن الإخبار عنهم باللَّعن، وعدم الانتفاع بمواعظ القرآن الكريم.

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 215، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 788.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 112.

دلالةُ المضيّ في فعل ﴿لَعَنَهُمُ﴾:

صَوْغُ الفعل ماضيًا في جملة: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يقطع بتحقُّق اللَّعْن لِمَن آثر الكفر والنِّفاق على الإيمان والإخلاص، ففيه بالغ التَّهديد وكبير الوعيد.

نوع الفاء ودلالتها:

اللَّعن سبيلُ كلِّ هلاكٍ وطريقُ كلِّ خسارة

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾ للتَّفريع؛ إذ يتفرَّع بها إصمامُه تعالى المنافقين على لعنه إيّاهم، وهي تفيد أنَّ الإصمام مترتِّب على اللَّعن، ومتسبِّب عنه؛ تأكيدًا على خطورة لعنه تعالى، وأنَّه سبيل الهلاك والضَّلال البعيد، فلا سمع للملعون يَنفعُه، ولا بصرَ له يَهديه.

بلاغةُ الاستعارةِ في مفردة الصَّمَم:

النِّفاق سدٌّ يحول دون وصول الكلام إلى القلب

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الصَّمَم في قوله: ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾، وهي انسدادُ منافذ السَّمع، وهو أشدُّ من الطَّرش[1]، فالمنافقون وإن كان لديهم آذان تسمع، وأعين تبصر، لكنَّها "لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنَّما تسمع سماعًا تقوم به حُجَّةُ اللّه تعالى عليها"[2]، فحين عطَّلوا أسماعهم وأبصارهم عن التَّدبُّر والتَّفكُّر؛ صاروا بمنزلة الفاقدين لتلك الحواسِّ[3].

وقوله: ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾ فيه استعارة؛ إذ شُبِّه عدمُ الانتفاع بالمسموعات مِن آيات القرآن ومواعظ النَّبيِّ ﷺ[4] بالصَّمم، وصُرِّح بالمشبَّه به على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ إذ إنَّ عدم الاستجابة للحقِّ هو صممٌ عن قبولِ الحقِّ.

---

(1) ابن هبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح: 3/ 131.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 788.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 239.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 113.

نوعُ الواو ودلالتها:

> من عطَّل نِعم الله تعالى؛ حُرِم خيرها

(الواو) في جملة ﴿وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ واو العطف؛ إذ تجمع على هؤلاء الملعونين حنظلتين مريرتين من شجرةِ اللَّعن، وهما صَمَم الآذان وعَمَى الأبصار، أي: إنَّ منافذ الخير إلى قلوبهم قد سُدَّت، فلا يسمعون خيرًا، ولا يبصرون خيرًا، فبرغم أنَّ اللّه تعالى وهبهم نعمة الإسماع والإبصار، لكنَّهم حُرِموا الانتفاع بها، فكأنَّهم حُرِموها من الأصل.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ العمى:

> ليس سماعُ المنافقين سماعَ ادِّكار، ولا إبصارهم إبصارَ اعتبار

العَمَى فقدان نعمة البصر بانطماس نور العينين، وليس هذا بالخطير الَّذي يُتوَعَّد به الملعون، فكثير من المؤمنين الصّادقين عميان الأبصار، ومع ذلك وعَدَهم اللّه تعالى بالرِّضوان والجنان، كما ورد في الحديث القدسيِّ: «إنَّ اللّه قالَ: إذا ابتَلَيتُ عَبدي بِحَبيبَتَيْهِ، فَصَبَرَ؛ عَوَّضتُهُ مِنهُما الجَنَّةَ»[1]؛ ولذلك شاع عند عموم المسلمين أنَّ (العَمَى عَمَى القلوب)، وصدقوا.

أمّا العمى المتوعَّد به المنافقون؛ فهو عمى البصيرة، والبصيرة من البصر بسبيل، فكلاهما أداة رؤية، الأولى رؤية القلب، والثّانية رؤية العينين، والمنافق وإن تمتَّع برؤية العين غير أنَّه حرم رؤية القلب الَّتي عليها تُناطُ السَّعادة؛ وبفقدانها يسلك طريق الشَّقاء.

قال ابن عاشور: "استُعير العَمى هنا؛ لِعدم الفهم على طريقة التَّمثيل؛ لأنَّ حال الأعمى أن يكون مضطربًا فيما يُحيط به، لا يدري نافعَه من ضارّه إلّا بمعونة مَن يُرشده، وكثُر أن يقال: أعمى اللّه بصره، مرادًا به أنَّه لم يَهدِه"[2]، "فليس سماعهم سماع ادِّكار، ولا إبصارهم إبصار اعتبار، فلا سماع لهم ولا إبصار"[3].

---

(1) البخاري، صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب: فضل من ذهب بصرُهُ: 5/ 2140، برقم: (2359).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 113.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 243.

بلاغةُ الاستفهام وغرضه:

تدبُّرُ القرآن أصلٌ في الاهتداءِ الموصل إلى الإيمان

(الهمزة) في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ همزة الاستفهام، وهي خارجة عن معنى الاستفهام الحقيقيِّ من طلب الفهم، فالاستفهام هنا "تعجيب من سوء علمهم بالقرآن، ومن إعراضهم عن سماعه"[1]، وكذلك فيه توقيفٌ وتوبيخ، و"للتَّسجيل عليهم بأنَّ قلوبَهم مقفلة، لا يُتوصَّل إليها ذكر"[2]، مع ما فيه من معنى الإنكار عليهم لعدم تدبُّر القرآن.

تقديرُ المعطوفِ عليه بالفاء:

الإعراضُ عن القرآن يُقابله التَّدبُّر

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ للعطف على جملة محذوفة[3]، أي: أَيُعرِضون عن القرآن، فلا يتدبَّرونه؟[4] ولطيفة حذفها عدم التَّصريح بالإعراض عن القرآن الكريم؛ لأنَّه ليس بمنزلة أن يُعرَض عنه؛ فلم يصرِّح بما يحذِّر منه، ويدعو إلى خلافه.

توجيهُ معنى حرف النَّفي:

نفيُ التَّدبُّر بيانٌ لإثباتِ الإعراض

دلَّ حرف (لا) على النَّفي، ولمّا كان الاستفهام دالًّا على الإنكارِ الَّذي فيه معنى النَّفي؛ أصبح مثبتًا؛ لأنَّ نفي النَّفي إثبات له، فكأنَّه قيل: هل يُجدِّدون التَّدبُّر تجديدًا مستمرًا لِتَرِقَّ قلوبُهم به، وتنير بصائرهم له، فيكفّوا عن الإفساد والتَّقطيع[5]، ويتَّضح معنى النَّفي على تقدير المحذوف، والمعنى: أيُعرضون، فلا يتدبَّرون، فيكون معنى نفي التَّدبُّر بيانًا لمعنى إثبات الإعراض، فيقع الاستفهام عليهما.

بلاغةُ استعمال مفردة التَّدبُّر:

التَّدبُّر خاصٌّ بالآيات القرآنيَّة والتَّفكُّر بالآيات الكونيَّة، وكلاهما دليل موصل للحقِّ

التَّدبُّر هو التَّفكُّر الكاشف عن عواقب الأمور وأدبارها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 113.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 326.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 239.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/ 276.
(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 243.

وعواقبها[1]، و"التَّفهُّم في دبر الأمر - أي: ما يخفى منه - وهو مشتقٌّ من دُبُر الشَّيء، أي: خلفه"[2]، وقد خُصَّ استعمال التَّدبُّر في الآيات القرآنيَّة، بخلاف التَّفكُّر، فخُصَّ في الآيات الكونيَّة، واستُعمل التَّدبُّر في شأن الآيات القرآنيَّة لما فيه من معنى التَّدقيق في عواقب الأمور وأدبارها، أي: مآلاتها، فهي تحتاج إلى مزيد عقلٍ، بخلاف التَّفكُّر؛ فهو بحاجة إلى سريان الفكر في الكون الظّاهر، دون النَّظر في عواقبه؛ إذ الكون هو الدَّليل العقليُّ الموصل إلى تصحيح الاعتقاد، والقرآن هو الدَّليل النَّقليُّ الموصل إلى تصحيح المسار العقديِّ.

غرضُ التَّعبير بصيغة المضارع:

يـزداد تَـعلُّـقُ المتدبِّر بالكتاب المجيد؛ كلَّما ازداد تدبُّرًا فيه

المضارعة في فعل التَّدَبُّر ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾ تدعو إلى الحثِّ على التَّدبُّر النَّشِط الواعي، والمتجدِّد بلا خمول، فالمعنى: "هل يُجدِّدون التَّدبُّر تجديدًا مستمرًا لِتَرِقَّ قلوبُهم به، وتنير بصائرهم له، فيكفّوا عن الإفساد والتَّقطيع"[3]، فهي دعوة للتَّدبُّر في الحال والاستقبال، ولو أتى بالماضي؛ لكان إنكارًا عليهم لما كان في ماضي الزَّمان فحسب، والآية جاءت لتجمع بين الأمرين: الإنكار عليهم فيما مضى، والتَّحضيض لما سيأتي.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾:

القرآنُ عَلَمٌ بالغَلَبة على الكتاب المنزل على خاتم النَّبيِّين

(أل) في ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ عهديَّة؛ إذ تأخذ بالأذهان إلى "كلام الله تعالى، المنزَّل على نبيِّنا محمَّد ﷺ المتعبَّد بتلاوته، لفظُه ومعناه من الله سبحانه، المكتوب في المصاحف المنقول بالتَّواتُر"[4]، فالقرآن صار خاصًّا بكتاب الله تعالى المنزل على خاتم النَّبيّين ﷺ وهو عَلَمٌ بالغلبةِ، وذلك هو الجدير بقضاء الأوقات وإفناء الأعمار في تدبُّره،

(1) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: 2/ 615.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 113.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 243.
(4) الداني، التيسير في القراءات السبع، ص: 17.

وتجديد النَّظر فيه مرَّة بعد مرَّة وكرَّة تلو كرَّة، واستلهام إيحاءاته، والفوز ببركاته.

معنى ﴿أَمۡ﴾ ودلالتها:

﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ هي (أم) المنقطعة، وهي بمعنى (بل) وألف الاستفهام[1]، أي: "بل أعلى قلوب أقفالها؟ فهُم لا يفهمون، ولا يعقلون"[2].

بلاغةُ حرف الاستعلاء:

بيانُ مُكنة النِّفاق من القلوب

﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ حرف استعلاء، وهو هنا استعلاء مجازيٌّ، والمعنى: أنَّ النِّفاق سيطر على القلوب، وصرَّف قيادها إلى الضَّلال والكفر فعلًا عليها، وتمكَّن منها، وتسلَّط عليها، فهو بيانٌ لتمكُّن النِّفاق من القلوب، بإقفال دخول شيء من النَّقل أو العقل.

بلاغةُ الاستعارة المكنيَّة:

النِّفاقُ يُغلِق القلوب، فلا يدخلها الإيمان

شبَّه النَّظم الكريم القلوب في قوله تعالى: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ بالصَّناديق، دالًّا على ذلك التَّشبيه بذكر ما هو مختصٌّ بالصَّناديق من الأقفال[3]، على سبيل الاستعارة المكنيَّة؛ إذ شُبِّهت القلوب في عدم إدراكها المعاني بالأبواب أو الصَّناديق المغلقة، والأقفال تخييلٌ، والمراد: التَّسجيل عليهم بأنَّ قلوبَهم مغلقة، لا يدخلها الإيمان، ولا يخرج منها الكفر والنِّفاق[4].

لطيفةُ التَّعبيرِ بالقلوب دون الأفئدة:

لا ثمرةَ لقلبٍ محروم من الرَّزانة والصَّبر على التَّدبُّر والتَّفكُّر

استعمل النَّظم الكريم مفردة القلوب في قوله تعالى: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ دون الأفئدة؛ وذلك لأنَّ القلب هو الاسم العلم، ولا

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 119.
(2) خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 71.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 243.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 239.

يُعدل عن الاسم العَلَم إلى غيره إلّا لوجود نكتة، والفؤاد يُستعمل في مواضع توقد القلب، مع ما في استعمال القلب من لطيفة الإيحاء إلى أنَّ قلوب المنافقين المكذِّبين مذبذبة متقلِّبة لا رزانة فيها، ولا رسوخ لها في ميدان النَّظر والتَّدبُّر، وأنَّها ما لم تثبُت، وتصبر على التَّدبُّر؛ لم تنتفع به.

دلالة جمع لفظ ﴿قُلُوبٍ﴾:

المنافقون على درجاتٍ متباينة، وقلوبهم في غفلة عظيمة

جُمِع لفظ ﴿قُلُوبٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ باعتبار جموع المنافقين المخبَر عنهم، وباعتبارِ اختلاف درجات نفاقهم، فإنَّ المنافقين لم يكونوا على درجة واحدة، ونُكِّر لفظ ﴿قُلُوبٍ﴾؛ للدَّلالة على "التَّنويع أو التَّبعيض، أي: على نوع من القلوب أقفال، والمعنى: بل بعض القلوب عليها أقفال، وهذا من التَّعريض بأنَّ قلوبهم من هذا النَّوع، لأنَّ إثبات هذا النَّوع من القلوب في أثناء التَّعجيب من عدم تدبُّر هؤلاء القرآن يدلُّ بدلالة الالتزام على أنَّ قلوب هؤلاء من هذا النَّوع من القلوب ذوات الأقفال، فكون قلوبهم من هذا النَّوع مستفاد من الإضراب الانتقاليِّ في حكاية أحوالهم"[(1)].

وفي تنكير ﴿قُلُوبٍ﴾ كذلك تهويل لقساوتها وجهالتها، فهي قلوب منكَرة، لا يُعْرَف مثل حالها، ولا يُقادَر في الغفلة والجمود قَدْرُها.

نكتةُ إضافة الأقفال إلى الضَّمير دون القلوب:

القلبُ سلطان الإنسان، فهو الإنسان مختصَرًا، وقلب المنافق لا ينفعه

في تحاشي إضافة القلوب إلى ضمير المنافقين في قوله تعالى: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾، دون أن يقول: (على قلوبهم أقفال) تنبيهٌ إلى "عَدم نفْعِها إيّاهم"[(2)]، فهي في الأصل قلوبهم الَّتي ينبغي أن يتدبَّروا بها، وأن ينتفعوا بها من آيات الكتاب البيِّنات، لكنَّهم لم يفعلوا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 114.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 56.

وإضافة الأقفال إلى ضمير القلوب في ﴿أَقۡفَالُهَآ﴾ "تنبيهٌ على أنَّ المراد بها ما هو للقلوب بمنزلة الأقفال للأبواب؛ إذ ليست للقلوب أقفال حقيقيَّة"[1]، و"إشارةٌ إلى أنَّ لهذه القلوب أقفالًا خاصَّة بها، مقدَّرة بقدرها، فلكلِّ قلب قفْلُه الَّذي يلائمه"[2]، فهي أقفال مخصوصة بها، مناسبة لحالها من القسوة والفظاظة، غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة[3].

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿أَقۡفَالُهَآ﴾:

قلوب الكفّار مقفَلة؛ فلا الكفر يُغادرها، ولا الإيمان يدخلها

آثر النَّظمُ الكريم استعمال مفردة (أقفال)؛ ليدلَّ على شدَّة إحكام انغلاق القلوب عن التَّأثُّر بسماع الحقِّ ورؤية دلائله، وأنَّ هذه القلوب مغلقة إغلاقًا تامًّا لا مواربة فيه، بحيث "لا يداخلها زاجر التَّنبيه، ولا ينبسط عليها شعاع العلم، فلا يحصل لهم فهْمُ الخطاب، فالباب إذا كان مقفلًا، فكما لا يدخل فيه شيءٌ؛ لا يخرج منه شيء، كذلك قلوب الكفّار مقفَلة، فلا الكفر الَّذي فيها يخرج، ولا الإيمان الَّذي هم يُدعَوْن إليه يدخل في قلوبهم"[4].

فائدة جمع لفظ (أقفال):

جمع لفظ (أقفال) في قوله تعالى: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾؛ لترشيح الصّورة، ببيان كثرة الموانع وتراكمها، فهي أقفالٌ كثيرة مانعةٌ من الهدايةِ، فهناك أقفال الكِبر والغرور والعناد والطُّغيان والجبروت وحبِّ المال.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿أَقۡفَالُهَآ﴾:

تشبيهُ أسباب الإعراض بالأقفال؛ لبيان مُكنة الامتناع عن تلقّي الوحي

جاء التَّعبير عن أسباب انسداد قلوب المنافقين بالأقفال، في قوله تعالى: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾؛ إذ شُبِّهت أسباب الانسداد

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 127.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 361.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 966.
(4) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 413.

بالأقفال، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة، وهو من تشبيه المعنويِّ بالحسّيِّ؛ لتشخيص المعنويّات وبيان تمكُّنها من أصحابها، ونكتة الاستعارة المبالغة في بيان تأثير تلك الموانع الحائلة دون دخول الهُدى والإيمان إلى القلوب وخروج النِّفاق والكفر منها، ووراء تلك الصورة كنايةٌ عن تمام الانسداد.

بلاغةُ فنِّ الاحتباك:

الاحتباك يحقِّق للتَّركيب التَّواثُق والالتئام؛ بحيث يوضع في النَّفس وضعًا واحدًا

في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ احتباك بديعٌ؛ إذ "ذُكِر التَّدبُّر أوَّلًا دليلًا على ضدِّه ثانيًا، والأقفال ثانيًا دليلًا على ضدِّها أوَّلًا"[1]، وتقدير الاحتباك: أفلا يتدبَّرون القرآن بقلوبٍ واعية منفتحة، أم على قلوب أقفالها، فهي معرضة عن التَّدبُّر، "وسِرُّه أنَّه ذَكر نتيجة الخير الكافلة للسَّعادة أوَّلًا، وسببَ الشَّرِّ الجامع للشَّقاوة ثانيًا"[2]، فسببُ السَّعادة التَّدبُّر في القرآن، وسبب الشَّقاوة العناد بإقفال مقفلات القلوب، وهذا الاحتباك حقَّق للتَّركيب تواثقه والتئامه؛ إذ يضعه في النَّفس وضعًا واحدًا؛ وكأنَّ الآية كلَّها كلمة واحدة.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّولّي والإعراض والصَّدُّ:

التَّولّي والإعراض مدابرة الحقِّ، والصَّدُّ عدولٌ مع قِلًى

المتولّي والمعرض يشتركان في ترك السُّلوك القويم، إلّا أنَّ المعرض أسوأ حالًا؛ لأنَّ المتولّي متى ندِم؛ سهُل عليه الرُّجوع، والمعرض يحتاج إلى طلب جديد، وغاية الذَّمِّ الجمعُ بينهما، أمّا الصَّدُّ؛ فهو العدول عن الشَّيء عن قلًى[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 244.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 244.

(3) ابن حميد، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: 9/ 3913.

القلب الاسمُ العلم، والفؤاد باعتبار تفؤُّده وتوقُّده وكونه محلًّا للمشاعر والانفعالات

القلب والفؤاد:

سُمّي القلبُ قلبًا؛ لكثرة تقلُّبه[1] وقابليَّته للتَّغيُّر، فالطَّبع فيه عدم الثَّبات، وهو اسم علم على هذه المضغة في الجسد، وهو أعمُّ في الاعتبارات من غيره، والفؤاد يُطلق على ما يُطلق عليه القلب، لكن باعتبار معنى التَّفؤُّد فيه، أي: الحرارة والتَّوقُّد، يقال: فَأَدْتُ اللَّحْمَ: شَوَيْتُهُ، وهَذا فَئِيدٌ، أي: مَشويٌّ، الفُؤادُ، سُمّيَ بذلكَ لِحَرارَته[2]، وعلى هذا كان التَّعبير به في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾ [القصص: 10]؛ لأنَّ قلبها كان متوقِّدًا محترقًا على وليدها، ولذلك قال بعده: ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ [القصص: 10]، أي: ثبَّتنا قلبها؛ كي لا يتقلَّب بها إلى مكروه، فهنا أُطلِقَ كلٌّ مِن الفؤاد والقلب على نفس الشَّيء وذاته، ولكن بالاعتبارين المذكورين.

(1) الراغب، المفردات: (قلب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فأد).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ٢٦﴾

[محمّد ﷺ: 25 - 26]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

الانتقال من موقفِ الإعراض عن التّدبُّر إلى موقف الرِّدَّة

لمّا ذكرتِ الآيات السّابقة نكوث المنافقين عن القتال بعد إذن اللّه تعالى لهم به، وفرْضِه عليهم، وحذَّرهم من أنَّ نكولهم عن الجهاد طريقُ الإفساد في الأرض وتقطيع الأرحام، وبيَّن أنَّ سببه إغلاق قلوبهم بأقفال النِّفاق عن تدبُّر القرآن؛ ناسب أن يواصل النَّظم الكريم الإخبارَ بأنَّ هؤلاء ارتدّوا عن طريق الإيمان - بعد وضوح الحقِّ وتبيُّن الهُدى - بتَسْويل الشَّيطان الرَّجيم، وإغرائه إيّاهم بطول العمر ووفور فرص النَّجاة من المخاطر، والإخبار بأنَّ دخائلهم مطويَّة على موالاة الكفّار الَّذين يكرهون الدّين، ومواعدتهم إيّاهم على طاعتهم فيما يمكنهم فعله في العَلانية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱرۡتَدُّواْ﴾: الرَّدُّ: صرف الشَّيء بذاته، أو بحالة من أحواله، يقال: رَدَدْتُه، فارْتَدَّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام: 147]، فمن الرَّدِّ بالذّات قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: 28]، ومن الرَّدِّ إلى حالة كان عليها قوله: ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ [آل عمران: 149].

والارتدادُ والرِّدَّةُ: الرُّجوع في الطَّريق الَّذي جاء منه الإنسان، لكن الرِّدَّة تختصُّ بالكفر، والارتداد يُستعمل فيه وفي غيره، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم﴾(1).

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (ردد).

2) ﴿أَدۡبَٰرِهِم﴾: الدُّبُر والدُّبْر أيضًا: خلافُ القُبُل والقُبْل، ودُبُر الأمر ودُبْره: آخره، وأدبر: أعرض، وولَّى دُبُره، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣﴾ [المدثر: 23]، قال ﷺ: «لا تقاطعوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»، وقيل: لا يذكر أحدكم صاحبه مِن خلفه، والاستدبار طلب دُبُر الشَّيء، وتَدابَر القوم؛ إذا ولَّى بعضُهم عن بعض، والدِّبار: مصدر دابرته، أي: عاديته مِن خلفه[1].

فمعنى قوله تعالى: ﴿ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم﴾ رجعوا إلى الكفر، وارتدّوا عن الدّين، وذلك على سبيل الاستعارة التَّمثيليَّة.

3) ﴿سَوَّلَ﴾: السُّؤْلُ: الحاجة الَّتي تحرص النَّفس عليها، قال تعالى: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦﴾ [طه: 36]، وذلك ما سأله بقوله: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥﴾ [طه: 25]، والتَّسويلُ: تزيين النَّفس لما تحرص عليه، وتصوير القبيح منه بصورة الحسن، قال تعالى: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: 18]، وقال: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ﴾[2]، فمعنى تسويل الشَّيطان لهم: تزيينه الكفر؛ ليختاروه على الإيمان، وإغواؤه إيّاهم بأفضليَّته عليه.

4) ﴿وَأَمۡلَىٰ﴾: الإملاءُ: الإمداد، ومنه قيل للمدَّة الطَّويلة: مَلاوةٌ من الدَّهر، ومَليٌّ من الدَّهر، قال تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦﴾ [مريم: 46]، وتمليَّت الثَّوبَ: تمتَّعت به طويلًا، والمَلَوانِ قيل: اللَّيل والنَّهار، وحقيقة ذلك تكرُّرهما وامتدادهما، قال تعالى: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف: 183]، أي: أمهلهم، وقوله: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾، أي: أمهل، ومن قرأ: (أُملي لهم)؛ فمِن قولهم: أمليَتُ الكتابَ أُمليهِ إملاءً، قال تعالى: ﴿أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ﴾ [آل عمران: 178]، وأصل أمليت: أمللت، فقُلب تخفيفًا، قال تعالى: ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥﴾ [الفرقان: 5]، وفي موضع آخر: ﴿فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [البقرة: 282][3].

5) ﴿إِسۡرَارَهُمۡ﴾: الإسرارُ: خلاف الإعلان، قال تعالى: ﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ [إبراهيم: 31]، ويُستَعمل في الأعيان والمعاني، والسِّرُّ هو الحديث المكتوم في النَّفس، قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾ [طه: 7]، وسارَّهُ؛ إذا أوصاه بأن يسرَّه، وتَسارَّ القومُ، وقوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾

---

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 2/ 586.

(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (سول).

(3) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (ملا).

[يونس: 54]، أي: كتموها، وأسرَرْتُ إلى فلان حديثًا: أفضيت إليه في خفية، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾ [التحريم: 3][1]، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾: يعلم ما يضمرونه في أنفسهم من الكفر.

المَعنى الإجماليُّ:

من ترك تدبُّر القرآن؛ فمصيره الرِّدَّة على الأدبار

تُبيِّن الآيتان أنَّ تراجُع المنافقين عن الإسلام بعد تحقُّقهم صِدقه، وتبيُّنِ حقِّه، وكذا تراجع اليهود عن الإيمان حسدًا منهم أن نزَل على محمَّد ﷺ دونَهم، إنَّما هو بخضوعهم لتزيين الشَّيطان وإغرائه لهم بالضَّلال.

وأنَّ مظهر استجابتهم لتزيين الشَّيطان تجلَّى بمواعدتهم بعضهم بعضًا بالتَّعاون على معاداة الدّين وتعطيل مسيرة الإسلام قدر الطّاقة، في حدود ما يمكنهم فعلُه علانية، وقد كشف الله تعالى ذلك التَّعاون الآثم للرَّسول ﷺ والمؤمنين، فأخزى بذلك اليهود والمنافقين، وهدَّدهم بأنَّه سبحانه يعلم أسرارهم، وكِتمانهم الحقد على الدّين، ويمكن فضْح دسائسهم، وما يحيكونه سرًّا، ويخزيهم بها على رؤوس النّاس.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل الآية عن السّابقة:

قطْعُ الجملة عن الجملة لا يعني الانقطاع الدَّلاليَّ بل التَّركيبيَّ

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم﴾، عن قوله تعالى قبله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ لكمال الانقطاع؛ إذ السّابق إنشاء ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾، واللّاحق خبر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ﴾، ولا يعطف الخبر على الإنشاء عند جمهور البيانيّين، ولا يقصد بكمال الانقطاع هنا أنَّ العلاقة بين الجملتين مبتورة؛ لأنَّهما تعالجان قضيَّة النِّفاق وما يتسبَّب فيها، وإنَّما المقصود تغاير الأسلوبين تغايُرًا لا يحسُن معه العطف.

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (سرر).

فائدة استعمال مفردة الرِّدَّة:

أعظمُ الخسران خسران المرتدّين

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ عن تصميم المنافقين على الكفر - بعد مشاركتهم المسلمين في أحوالهم، في مجلس النَّبيِّ ﷺ، والصَّلاة معه، وسماع القرآن والمواعظ - بالارتداد؛ لأنَّه مفارقَةٌ لِتلك الأحوال الطَّيِّبة، أي: رجعوا إلى أقوال الكفر وأعماله، وذلك إذا خلوا إلى شياطينهم"[1]؛ "عنادًا لأمرِ الله تعالى ذكرُه من بعدِ العلم"[2].

ومادَّة الارتداد في أصل وضعها اللُّغويِّ مصوِّرة معبِّرة، بما تقيمه في الذِّهن من التَّقهقر إلى الخلف للقَفا، وكأنَّ دبرَ المرتدِّ تقوده إلى الوراء، فيضرب خبطَ عشواء، ولا يسير على هدًى وبصيرة، فصوَّر هذا اللَّفظ شناعة كفرهم ونفاقهم؛ إذ قد رجعوا من الخير العظيم إلى الخسران المبين.

بلاغة الاستعارة التَّمثيليَّة:

الـرُّجـوعُ إلى الـكـفـر بـعـد الإسـلام سلوكٌ قبيحٌ مستقذر

الارتداد هو التَّقهقر إلى الوراء، وهو في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم﴾، مستعملٌ في الرُّجوع إلى الكفر بعد الإسلام، وعلى ذلك ففيه تشبيهُ صورة الرُّجوع إلى الكفر بعد الإسلام بمن يرتدُّ إلى الخلف تائهًا ضالًّا لا يعرف أين يضع قدمه، من باب الاستعارة التَّمثيليَّة، وهي استعارة دقيقة الإبانة عن قبح الصّورة بِذِكر الأدبار، وهي الأعجاز، مع ما فيه من دلالة الانتكاس والتَّخلُّف والتَّقهقُر.

بلاغةُ حرف الاستعلاء:

تـضـمـينُ فعل الارتداد السُّقوط على القفا إيماء إلى التَّعثُّر

استُعمِل حرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الارتداد متمكِّن مِن جهة الأدبار، كما يقال: على صراط مستقيم[3]، وفيه إشارة إلى تضمين الفعل ﴿ٱرۡتَدُّواْ﴾ معنى الفعل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 115.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 217.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 115.

(سقطوا)، فيكون ارتدادهم إلى الوراء مشيًا بالظَّهر، يَتخلله سقوطٌ على القفا؛ وبذلك تتَّسق دلالة فعل الارتداد مع دلالة حرف ﴿عَلَىٰٓ﴾ قبلها، وقبح إيحاء الأدبار بعدها.

غرضُ إضافة لفظ الأدبار إلى الضَّمير:

بيانُ صورة المرتدِّ القبيحة وتشنيع حقيقته البغيضة

أُضيف لفظ الأدبار إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿أَدۡبَٰرِهِم﴾؛ لتشنيع صورتهم، والإضافة بمعنى اللّام ففيه معنى الاختصاص، أي: أدبار لهم، فتصوير لفظ الأدبار بالتَّعريف بـ(أل)، لا يخصُّ كما في الإضافة، ولذلك لم يقل: (ارتدّوا على الأدبار)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ [الفتح: 22]، يختلف سياقه، فهو في تصوير عموم التَّولية؛ لبيان انكسارهم، أمّا هنا؛ فلبيان خصوص توليتهم، فهي تولية من نور الإيمان إلى ظلمات الشِّرك، وفي هذا تشنيع لصورتهم القبيحة، وتحقيق لذمِّهم، وإزراء بهم وإخجال لهم وإخزاؤهم.

دلالة استعمال الظَّرف ﴿بَعۡدِ﴾:

قبحُ المرتدِّ يجتمع في كونه عرف الحقَّ، ثمَّ ارتدَّ عنه

استعمل النَّظم الكريم الظَّرف ﴿بَعۡدِ﴾، في قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾ لذمِّ المرتدّين؛ لأنَّه ينبِّه إلى أنَّهم "لم يعودوا إلى الكفر عن جهالة، وإنَّما عادوا إليه ﴿مِّنۢ بَعۡدِ﴾ أن شاهدوا الدَّلائل الظّاهرة، والبراهين السّاطعة على أنَّ الرَّسول ﷺ صادقٌ فيما يُبلِّغه عن ربِّه، وعلى أنَّ الإسلام هو الدّين الحقُّ"(1).

دلالةُ التَّعبير بمفردة (التَّبيُّن):

بيانُ الحقِّ ينفي ريبةَ المنافقين وشكَّ الفاسقين

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة (التَّبيُّن) في قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾؛ لينفي عن المرتدّين العذر في ردَّتهم المَقيتة، فمادَّة (التَّبيُّن) صريحة في تمام الإبانة والكشف، وذلك مركوز في أصل دلالتها (بين)، وبما فيها من تضعيف عين الكلمة، فتشديد

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 240.

الياء في ﴿تَبَيَّنَ﴾ يَضغط على هذه الجزئيَّة من المعنى، ويقرِّرها قصدًا مقصودًا، ممّا يضيِّق عليهم منافذ الاعتذار بالجهالة وعدم استبانة الحقِّ، فليس مع هذا التَّبيُّن ما يوجب ريب المرتابين[1]، فانتفت أعذارُهم كلُّها.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي:

جاء فعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الهدى قد تبيَّن لهم، وتحقَّق في قلوبهم، فلا عذر لهم بعده.

نكتةُ تقديم ﴿لَهُمُ﴾ على ﴿ٱلۡهُدَى﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهُمُ﴾ على الفاعل ﴿ٱلۡهُدَى﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾؛ للعنايةِ بتأكيد أنَّ تبيُّن الهدى قد تحقَّق لهم، مع ما فيه من التَّبكيت الضِّمنيِّ.

معنى (اللام) في القيد ﴿لَهُمُ﴾:

(اللام) في القيد ﴿لَهُمُ﴾ بمعنى الأجل، أي: إنَّ ذلك التَّبيُّن إنَّما هو لأجلهم لا لشيءٍ آخر، وذلك يدعم خصيصة تقديم القيد ﴿لَهُمُ﴾ على الفاعل، وأنَّهم هم المعنيّون بذلك التَّبيُّن.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡهُدَى﴾:

الـهُـدَى وصـفٌ جـامـعٌ لـكـلِّ ما يوصل إلى الرِّضا الإلهيِّ

المراد بالهدى في قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾ هو الإيمان ونور القرآن وصدق الرَّسول ﷺ، و(أل) في ﴿ٱلۡهُدَى﴾ للعهد، أي: من بعد ما تبيَّن لهم الهدى، الَّذي أتاهم به الرَّسول ﷺ[2]، الَّذي لا تغشاه غاشية من ضلال، ولا يعشو عنه ذو فطرة سليمة ونفس مستقيمة، والهدى الَّذي لا هدى غيره، بل كلُّ ما دونه ضلالٌ مهما تَزيَّن، أو زُيِّن للنّاس.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 115.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 245.

براعةُ المفاجأة في النَّظم:

مخالفة أنساق الغالب من التَّركيب قَرْعٌ لأذهان المخاطَبين

جاءت جملة: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ﴾ خبرًا للاسم الموصول، وهي مكوَّنة من مبتدأ وخبره، كقولك: إنَّ زيدًا عمروٌ مَرَّ به[1]، ومجيء الجملة على هذا التَّركيب مخالف للنَّظم المطَّرد الغالب، فالغالب في مثله أن يُقال: (إنَّ الَّذين ارتدّوا على أدبارهم سوَّل الشَّيطان لهم)، ونكتةُ ذلك إبراز عنصر المفاجأة بذكر لفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ إذ مجيء لفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ يأتي مهمازًا للقلوب النّائمة، والعقول الخاملة، فمن غفل عن الشَّيطان وأثره في ضلال الإنسان؛ فليستيقظ من سباته، كما أنَّ النَّظم بهذا التَّركيب يوحي بغضب الله تعالى على الَّذين تركوا سبيل الرَّحمن، واتَّبعوا طريق الشَّيطان.

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

الشَّيطان بعيدٌ ضعيفٌ، قوَّته تُحيط بأمثاله من البشر

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ لما لها من أثر في إبراز البُعد الَّذي تحويه هذه اللَّفظة، فالشَّيطان مشتقٌّ من (شطن)، وهو البُعد، فالابتداء به يوحي أنَّ هؤلاء المنافقين قد أحرقوا أنفسهم بنفاقهم وارتدادهم، وأبعدوها غاية البعد عن كلِّ خير، وأنَّهم في غاية أمرهم ومنتهى شأنهم أتباعٌ لهذا المحترق باللَّعنة البعيد من الرَّحمة[2].

نكتةُ تقديم المسند إليه على المسند الفعليِّ:

جاء المسند اسمًا، وخبره جملة فعليَّة في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ﴾؛ للاهتمام به في غرض ذمِّ المنافقين، وليُفيد تَقوّي الحُكم[3]، وثبوت الحكم ودوامه على المنافقين.

بلاغةُ استعمال مفردة التَّسويل:

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة التَّسويل في قوله تعالى:

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 326.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 246.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 115.

لفظُ التَّسويل يجمع معنى التَّسهيل والتَّزيين والاحتيال النَّفسي

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ﴾، وذلك أنَّه يدلُّ على معنى تسهيل الأمر، الَّذي يُستشعَر منه صعوبةٌ أو ضُرٌّ، وتزيين ما ليس بِحَسَنٍ[1]، فهو جامعٌ لأمرين اثنين، التَّسهيل والتَّزيين، وفي ذكر لفظ التَّسويل دليل على أنَّ المنافقين ارتدّوا "لا عن دليلٍ دلَّهُم ولا برهان، وإنَّما هو تسويل من عدوِّهم ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ وتزيينٌ لهم، وإملاء منه لهم: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠﴾ [النساء: 120]"[2].

نوع الواو ودلالتها:

احتمال العطف والاستئناف بحسب إسناد الفعل

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ عاطفة، عطفت ما بعدها على الخبر قبلها ﴿سَوَّلَ﴾[3]، فالشَّيطان جمع للمنافقين بين التَّسويل والإملاء، وذلك بتزيينه سوء أعمالهم، وإغوائه الَّذي حصل لهم منه استرخاء في عزائمهم وفتور في هممهم، فجروا معه في مراده في طول الأمل، وأطال في ذلك، ووسَّع بتكرار ذلك عليهم على تعاقب الملوين ومرِّ الجديدين، حتّى نسوا المواعظ، وأعرضوا عن الذِّكر[4].

بلاغةُ استعمال مفردة (أملى) مادّة وصيغة:

احتمال المفردة لمعانٍ مختلفة بحسب تعيين الفاعل

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الإملاء، ومعناها - إذا كان مسندًا للشَّيطان -: تأميلُ الشَّيطان أولياءه بطول العمر، واتِّساع زمان التَّوبة، وتسويفه ذلك تسويفًا لا ينقطع، كما قال لآدم عليه السلام: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠﴾ [طه: 120][5]، وتكون دلالة المضيِّ في الفعل ﴿وَأَمۡلَىٰ﴾؛ لبيان تحقُّق التَّأميل ووقوعه.

توجيه القراءات القرآنيَّة:

اختلَفت القرّاء في قراءةِ الفعل ﴿وَأَمۡلَىٰ﴾، "فقرأ البصريّان بضمِّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 115.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 789.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 703.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 246.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 116.

الـقـراءات القرآنيَّة تثري الـدَّلالات الـتَّركيبيَّة، والـلَّطـائـف البلاغيَّة

الهمزة وكسر اللّام، وفتح الياء أبو عمرو: ﴿وَأُمْلِيَ لَهُمْ﴾، وأسكنها يعقوب: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾، وقرأ الباقون بفتح الهمزة واللّام وقلب الياء ألفًا: ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾"[1]، فعلى قراءة البصريّين - أبي عمرو ويعقوب - فالمعنى: أنَّ اللّه هو الَّذي يملي لهم، ويكون المعنى على قراءة يعقوب بسكون الياء أحد وجهين: أحدهما: أن يكون مضارعًا مسندًا لضمير المتكلِّم، أي: وأملي أنا لهم، وأن يكون ماضيًا كقراءة أبي عمرو سُكِّنت ياؤه تخفيفًا، وعلى قراءة أبي عمرو بفتح الياء يكون الفعل ﴿وَأُمْلِيَ﴾ ماضيًا على صيغة المبني للمفعول[2]، وتكون الواو استئنافيَّة، وتحتمل الحاليَّة[3]، وعلى قراءة الجمهور فهي تحتمل أن يكون الفعل مسندًا إلى الشَّيطان، وتكون الواو عاطفة، وتحتمل أن يكون الفعل مسندًا إلى الرَّحمن، فتكون الواو استئنافيَّة؛ لذلك قال بعض العلماء: إنَّه "يحسن الوقف على قوله: ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾؛ لأنَّه فعلُ الشَّيطان، والإملاء فعلُ اللّه تعالى، ولا يحسن الوقف؛ إذا كان الفعل في جملة: ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ بمعنى: مدَّ لهم الشَّيطان في الأمل"[4].

علَّة فصل جملة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ﴾ عمّا قبلها:

الاستئناف البيانيُّ يُحرِّك الأذهان لمعرفة وجه الارتباط بين الجمل

فُصلت جملة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ﴾ عن جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ﴾؛ لِما بينهما من شبه كمال الاتِّصال، وهو الاستئناف البيانيُّ؛ إذ التَّقدير أن يسأل "سائل عن مظهر تسويل الشَّيطان لهم الارتداد بعد أن تبيَّن لهم الهدى؛ فأُجيب بأن الشَّيطان استدرجهم إلى الضَّلال عندما تبيَّن لهم الهدى، فسوَّل لهم أن يوافقوا أهلَ الشِّرك والكفر في بعض الأمور، مُسَوِّلًا أنَّ تلك الموافقة في بعض الأمر لا تنقُض اهتداءهم، فلمّا

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 374.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 703.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 99.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 127.

وافَقوهم؛ وجدوا حلاوةَ ما أَلِفوه من الكفر، فيما وافقوا فيه أهل الكفر، فأخذوا يعودون إلى الكفر المألوف حتّى ارتدّوا على أدبارهم، وهذا شأن النَّفس في معاودة ما تُحبُّه بعد الانقطاع عنه؛ إن كان الانقطاع قريبَ العهد"[1].

دلالةُ الإشارة بأداة البُعد:

الـرِّدَّة أمرٌ قبيح بعيدٌ عن ساح الطُّهر والعفَّة

اختُلِف في مرجع اسم الإشارة، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ﴾، فقيل: يرجع إلى الارتداد، وقيل: إلى الإملاءِ[2]، والارتداد من آثار التَّسويل، فهو الأولى بأن يكون مرجع الإشارة إليه، ولطيفةُ استعمالِ اسم الإشارة للبعيد التَّنبيهُ على أمر الارتداد، وتنزيله منزلة الشَّيء البعيد المُشار إليه لخطورة أمره.

نوع الباء ودلالتها:

مداهنةُ الكافرين ومطاوعتهم في كفرهم ردَّةٌ تستوجب طردًا

(الباء) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ﴾ للسَّببيَّة، أي: إنَّ الله "لم يوفِّقْهم للهدَى من أجلِ أنَّهم قالوا للَّذين كرِهوا ما نزَّل الله مِن الأمرِ بقتالِ أهلِ الشِّركِ به من المنافقين: سنُطيعُكم في بعضِ الأمرِ الَّذي هو خلافٌ لأمرِ الله ﷻ، وأمرِ رسولِه ﷺ"[3].

تعيين مرجع الضَّمير في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾:

المنافقون واليهود والمشركون بعضهم أولياء بعض

الضَّمير المنصوب (هم)، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ﴾، يعود إلى المنافقين الَّذين قال فيهم: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾، وقالوا لليهود: ﴿سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾، ويحتمل أن يكون القائلون هم اليهود، قالوه للمنافقين، أو قاله المنافقون واليهود للمشركين، ولا مانع من أن يقوله كلُّ هؤلاء بعضهم لبعض، فالكفر ملَّة واحدة، وكلُّهم على الإسلام والمسلمين يدٌ واحدة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 116.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 99.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 220.

نوع (اللّام) ودلالتها في قوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾:

المنافقون يُبلِّغون الكافرين اعتقادَهم، ويسارعون في إرضائهم

(اللّام) في القيد ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُواْ﴾ لام التَّبليغ، أي: إنَّهم بلَّغوهم هذا القول: ﴿سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾، وقصروه عليهم، وكتموه عن غيرهم، وقد قالوه لصالح المقول لهم، ولأجلِ إرضائهم؛ تقرُّبًا إليهم، وتفضيلًا لهم على الرَّسول ﷺ ودينه القويم.

علّة التَّعبير بالموصول: (الذين):

الموصول عنصر تشويق، وآلةٌ لإفساح العبارة لتفاصيل كثيرة

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالموصول (الذين)، في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾، دون التَّعبير بالاسم الصَّريح، فلم يقل: (ذلك بأنَّهم قالوا لليهود: سنطيعكم)؛ وذلك لأنَّ الموصول يُفسِح التَّعبيرَ لِجملة ﴿كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾، ويُهَيِّئ لها بما فيها من النَّصِّ على ذِكر كُرْههم ما نزل الله تعالى، وصوغه ماضيًا، والتَّعبير باسمه الجليل سبحانه، وغير ذلك ممّا سيأتي تحليله - إن شاء الله تعالى - إضافة إلى ما يتحلَّى به الموصول مِن الإبهام المشوِّق، وفَقْر الدَّلالة المثير.

و"الذين كرهوا ما نزَّل الله هم الَّذين كرهوا القرآن، وكفروا، وهم: إمّا المشركون من أهل مكَّة، وقد كانت لهم صلة بأهل يثرب، فلمّا هاجر النَّبيُّ ﷺ إلى المدينة؛ اشتدَّ تعهُّد أهل مكَّة لأصحابهم من أهل يثرب؛ ليتطلَّعوا أحوال المسلمين، وإمّا اليهود من قريظة والنَّضير؛ فقد حكى الله عنهم في قوله: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحشر: 11]"[1].

دلالةُ التَّعبير بمفردة الكره:

الكره لفظ دالٌّ على أسباب الكفر ورفض الإيمان

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الكُره في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ وصفًا لحال المشركين؛ لبيان علَّة كفرِهم، وهو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 116.

كره إنزال القرآن الكريم، والزُّهد فيه، واشمئزازه، وتفضيل غيره عليه، وهو دليل ظلمة النَّفس، وتغلغل الكفر والنِّفاق في القلب، وإن ادَّعى فاعله أنَّه مؤمن؛ إذ لا يلتقيان في قلبٍ واحد، فإنَّ كره القرآن كفْرٌ عريض، وكفى به كفرًا، ذلك أنَّه يجمع معنى الإعراض والعصيان وإباء الإيمان، فكان ذلك مترجمًا عنه بالكره، فالكره نتيجةٌ لما سبقها من أمراض القلب وكفر العقل.

كرهُ القرآن كفرٌ متغلغل في أعماق الكافرين والمنافقين

دلالةُ صوغ ﴿كَرِهُواْ﴾ ماضيًا:

دلَّ صَوْغُ فعل الكُره ماضيًا ﴿كَرِهُواْ﴾ - مع أنَّهم لا يزالون وقت إنزال السّورة الكريمة يَكرهون ما نزل اللّٰه ﷻ، وسيظلُّ كلُّ جيلٍ مِن الكفّار والمنافقين والمشركين يكره ما نزَّل اللّٰه سبحانه - على تَغَلْغُله في نفوسهم، واستتبابه واستكنانه في ضمائرهم بحيث لا يمكنهم الانفصال منه، أو التَّبرُّؤ من آثاره الخطيرة.

الإيماء إلى حقيقة الحسد في قلوب الكافرين بسبب تنزيل القرآن

فائدة التَّعبير بمفردة التَّنزيل مادَّةً وصيغةً:

آثر النَّظم الكريم ذِكر التَّنزيل في جملة: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾؛ وذلك لبيانِ أنَّ كره الكافرين للقرآنِ هو باعتبار تنزيله، وهو ما يومئُ إلى الحسد في قلوبهم، والتَّنزيل في اللُّغة للمحسوسات، يُقال: نَزَّل الشَّخصَ، ونَزَّل الشَّيءَ: أنزله، وجعله يَهْبِط[1]، والقرآن كثيرًا ما يستعمله في المعقولات كما هنا، فيُضْفي عليها صِفَة المحسوسات من الوضوح، ويمنحها صفة التَّجسيد؛ ليُحقِّقَ المبالغة في تَمايُز المُنَزَّل الشَّريف، ويُجَلّيه أمام بَصر القلوب، فيصيرَ كأنَّه كُتلةٌ محسوسةٌ تُدرَك بالحواس الظّاهرة، وفي ذلك التَّجسيد تنويهٌ بعظمة ما يكرهون، بتشبيهه بالشَّيء الحِسّيّ الثَّمين، والتَّشديد في الفعل ﴿نَزَّلَ﴾ يَحكي ثِقَل عظمة المنزَّل، وتميُّزه أمام العقول كتميُّز المحسوسات أمام العيون، فكره المنزَّل عند الكافر لمحض الحقد والعداوة لا لدواعٍ واقعيَّة.

(1) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (نزل).

وفي التَّشديد كذلك بيان أنَّ القرآن الكريم نزل بعضه، واستقرَّ، وتمكَّن، وهو تنزيل تدريجيٌّ، لا إنزال كليٌّ، فكراهيتهم مستمرَّة، لما يوحي إليه التَّعبير بالتَّنزيل إلى استمراره في الأيّام القادمة؛ قياسًا على ما مضى، ولعلمهم بأنَّ الوحي لا يوجد فيه ما يوحي إلى اقتراب توقُّف التَّنزيل.

لطيفةُ إسناد الفعل ﴿نَزَّلَ﴾ إلى الاسم الجليل:

ذِكــرُ الاســم الجليل في سياق التَّكاليف يُضفي عليها جلالًا ومهابةً

إسناد فعل التَّنزيل ﴿نَزَّلَ﴾ إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ ﷻ في جملة: ﴿نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ دون إسناده إلى اسم الرَّبِّ سبحانه وتعالى يحقِّق المناسبة؛ لأنَّ الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ تعالى يضفي على تلك التَّكاليف جلالًا، ويمنح افتراضها تأكيدًا؛ لذلك يكثر إسناد الأمور الجليلة إلى الاسم الجليل في الذِّكر الحكيم، فكراهة ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ تعالى تخلع على المنزَّلِ المهابةَ والإجلال، وتوجب على المكلَّفين توقيره وتَهَيُّب التَّقليل من شأنه، فإذا بهؤلاء يكرهونه كُرهًا، وفي ذلك من التَّعريض بالوعيد ما فيه.

دلالةُ التَّعبيرِ بمفردة الطّاعة:

تقديم طاعة البشر على طاعة الله ذلٌّ ومهانةٌ تفرح به قلوب المنافقين

ذكر النَّظم الكريم حكاية عن قول المنافقين للكارهين: ﴿سَنُطِيعُكُمْ﴾، وذلك لترجمة حقيقة الخنوع الَّذي رضيه هؤلاء المنافقون في مقابل رفض الطّاعة لربِّ العالمين، فهُم يُصرِّحون بالطّاعة لغير الله تعالى، ويأبونها مع الله المستحقِّ للطّاعة المطلقة، فأتى النَّظم الكريم باللَّفظ الدّالِّ على كفرِهم، وأنَّهم أصحاب قابليَّة للخنوع والخضوع والذُّلِّ لغير الله، لكنَّهم مع أحكام الله تعالى وطاعته فيما يأمر، وينهى، فإنَّهم عصاة فاجرون، كأنَّهم قالوا: سنتآزر نحن وأنتم معًا في الكيد للإسلام، ومحاربة الرَّسول ﷺ وتعطيل دعوته، ووراء ذلك دلالة على قوَّة سلطان كيد المطاعين، وشدَّة تأثيره في القائلين، وكذا قوَّةُ تعلُّق القائلين ورضاهم وحبُّهم

لما عليه المطاعون من الكفر والحقد على الدّين، فهُم جميعًا ذرّيَّة بعضها من بعض.

دلالةُ حرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

استعمل النَّظم حرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾، في قوله: ﴿سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾؛ لتطمين المخاطَبين بأنَّ طاعتهم ستكون متغلغلة فيما يرضيهم.

معنى قوله: ﴿بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾:

يسعى المنافقون إلى التَّخذيل عن المسلمين بكلِّ الطُّرق

تقدَّم أنَّ المراد بقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾: إمّا المشركون من أهل مكَّة، وإمّا اليهود من قريظة والنَّضير، "فالمراد بـ﴿بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ على الوجه الأوَّل في محمل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم﴾، إفشاء بعض أحوال المسلمين إليهم، وإشعارهم بوفرة عدد المنافقين، وإن كانوا لا يقاتلون لكراهتهم القتال، والمراد بـ﴿بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ على الوجه الثّاني بعض أمر القتال، يعنون تلك المكيدة الَّتي دبَّروها للانخذال عن جيش المسلمين"[1].

بلاغةُ التَّقييد بقوله: ﴿بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾:

مخالفةُ أمر الله تعالى ولو كان قليلًا سبب للفتنة والعذاب

تقييد الطّاعة بـ﴿بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ في قول المنافقين للكافرين: ﴿سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ "الشَّيطان استدرجهم إلى الضَّلال عند ما تبيَّن لهم الهدى، فسوَّل لهم أن يوافقوا أهل الشِّرك والكفر في بعض الأمور؛ مسوِّلًا أنَّ تلك الموافقة في بعض الأمر لا تنقض اهتداءهم، فلمّا وافقوهم؛ وجدوا حلاوة ما ألفوه من الكفر، فيما وافقوا فيه أهل الكفر، فأخذوا يعودون إلى الكفر المألوف حتّى ارتدّوا على أدبارهم، وهذا شأن النَّفس في معاودة ما تحبُّه بعد الانقطاع عنه؛ إن كان الانقطاع قريب العهد"[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 117.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 116.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡأَمۡرِۖ﴾:

يحتمل الأمر معنى الموصوليَّة والمصدريَّة

لفظ ﴿ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ يدلُّ على الشَّأن والحَدَث الَّذي جمعه أمور، لا (الأمر) المُقابل للنَّهي الَّذي جمعه أوامر، وتحتمل (أل) في كلمة ﴿ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ المصدريَّة، كما تحتمل معنى الموصوليَّة، أي: سنطيعكم في "بعض ما تأمرون به، أو في بعض الأمر الَّذي يهمُّكم"[1].

و"الأمر هو: شأن الشِّرك وما يلائم أهله، أي: نطيعكم في بعض الكفر، ولا نطيعكم في جميع الشُّؤون؛ لأنَّ ذلك يفضح نفاقهم، أو المراد: في بعض ما تأمروننا به من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول كالخلق على المخلوق، وأيًّا ما كان؛ فهُم قالوا ذلك للمشركين سرًّا، فأطلع اللّه عليه نبيَّه ﷺ ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾"[2].

نوعُ (الواو) ودلالتها:

الحال أنَّ المنافقين مكشوفون، وهم يظنّون خلاف ذلك

(الواو) في جملة: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾ حاليَّة، أي: يقولون ﴿سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾، والحال أنَّهم مراقَبون مِن قِبل اللّه تعالى، و"أنَّ الملك الأعظم المحيط بكلِّ شيء علمًا وقدرة ﷻ: ﴿يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾"[3]، معلوم كيدهم وتدبيرهم، مكشوف أمرُهم لديه ﷻ، وفي ذلك من التَّهديد والوعيد ما من شأنه أن يزجر عن التَّمادي في الغيِّ.

دلالةُ إسناد فعل العِلم إلى الاسم الجليل:

لذكر الاسم الجليل في مقام التَّهديد مزيد تخويف وترهيب

في إيثار إسناد الفعل ﴿يَعۡلَمُ﴾ إلى الاسم الجليل في جملة: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾ مزيد تهديد؛ وذلك لجلال الاسم الجليل، وإضفائه مزيد ترهيب وتخويف في مقام التَّهديد، بخلاف وصف الرَّبِّ، الَّذي يَكثر استعماله في مقامات الرَّحمة والعطاء.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 327.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 117.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 249.

نكتةُ تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

قُدِّم المسند إليه على المسند الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾؛ لقَصْر علم أسرارهم عليه ﷻ، والقصر مُنتزعٌ من السّياق، فلا يعلم أحدٌ أسرار المنافقين إلّا هو ﷻ، ووراء ذلك القصر أنَّهم يجتهدون في إخفاء كيدهم، وستر نفاقهم؛ حتَّى لا يمكن لأحد أن يطَّلع عليه إلّا اللّه تعالى، وها هو يفضحهم عند رسوله ﷺ والمؤمنين، ويحكي كلامهم بنصِّه وفصِّه، وكان ذلك جديرًا بأن يتوبوا لكن هيهات لأهل النِّفاق أن يتخلَّصوا من شباكه!

لا يعلم الغيبَ إلّا اللـه، ولا يكشف السِّرَّ إلّا هو

بلاغةُ استعمال صفة العلم دون السَّمع والبصر:

آثر النَّظم الكريم استعمالَ مفردة العلم في جملة ﴿يَعۡلَمُ﴾ دون (يسمع) أو (يرى) أو غيرهما من صفاته العُلا ﷻ؛ وذلك لبيانِ إحاطة علمه ﷻ بهم من كلِّ جانب، سواء ممّا هو مسموع أو مرئيٌّ، وفي استعمال العلم "تهديدٌ لهم على هذا الدَّسِّ والكيد والتَّآمر على الإسلام وأتباعه، أي: واللّه تعالى يعلم ما يُسرّونه من أقوال سيِّئة، ومن أفعال قبيحة، وسيعاقبهم على ذلك عقابًا شديدًا"[(1)]، وللإيماءِ إلى علمه بمضمرات القلوب والنُّفوس، فهو يعلمها دون كلام أو أفعال.

علمُ اللـه تعالى محيطٌ بالمسموعات والمبصرات والمضمرات

دلالة صيغة المضارعة في الفعل ﴿يَعۡلَمُ﴾:

علمُ اللّه تعالى مطلقٌ ثابت دائم أزليٌّ، وقد آثر النَّظم الكريم صوغ الخبر ﴿يَعۡلَمُ﴾ فعلًا مضارعًا متجدِّدًا؛ وذلك لبيان أنَّه كلَّما تجدَّدت لهم أقوال؛ فاللّه تعالى يعلمها قبل أن تصدر عنهم، فالتَّجديد في الفعل للإبلاغ بعلمه بما يتجدَّد عنهم، واللّه يعلم الأمر قبل صدوره، والكلام قبل قيله، وفي ذلك تهديدٌ ووعيد؛ لأنَّه يرصدهم، ويرصد أقوالهم وأفعالهم.

إثباتُ تجدُّدِ العلم باعتبار صدوره عن النّاس لا باعتبار علمه تعالى

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 241.

توجيه القراءات القرآنيَّة في مفردة ﴿إِسْرَارَهُمْ﴾:

قرأ حمزة والكسائيُّ وخلف وحفص بكسر الهمزة: ﴿إِسْرَارَهُمْ﴾، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَسْرَارَهُمْ﴾[1]، ومعنى القراءة بكسر الهمزة، أي: يعلم إخفاءهم وسترهم، أي: ما يُخفونه، وما يسترونه، ومعناها بفتح الهمزة: جمع السِّرِّ، أي: يعلم "جميعَ أسرارِهم الَّتي مِن جُملتها قولُهم هذا، والجملةُ اعتراضٌ مقرِّرٌ لِما قبله، متضمِّنٌ للإفشاءِ في الدُّنيا والتَّعذيبِ في الآخرة"[2].

تنوُّع القراءات القرآنيَّة يثري الدَّلالات واللَّطائف

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 374.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 100.

﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ٢٧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٢٨﴾ [محمّد ﷺ: 27 - 28]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

الفرار من القتال في سبيل الله يُناسبه الإخبار بميتة السوء

لمّا بيَّنتِ الآيات السّابقة ردَّة المنافقين عن دين اللّه تعالى، واتِّباعهم ما أسخط اللّه، وقبولهم لطاعة المشركين واليهود، كلُّ ذلك بسرٍّ وخفاءٍ، وبيَّنت إحاطة علمه تعالى بهم؛ أتبعه إحاطة قدرته بهم[1]، وما سيلحقهم من العذاب والهلع من الملائكة، سواء أكان ذلك عند موتهم، أم عند فرارهم من القتال[2].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَفَّتۡهُمُ﴾: وفَى الكيلُ، ووَفَى الشَّيءُ، أي: تَمَّ، وأوفَيْتُه أنا أتمَمته، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ [الإسراء: 35]، وأَوْفَى الرَّجلَ حقَّه، ووَفّاه إيّاه بِمَعنَى: أكمَلَه له، وأعطاه وافيًا، وفي التَّنْزيلِ العَزيزِ: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ [النور: 39][3]، و"الوَفاة الموتُ"[4]، وتَوَفّاهُ اللّه تعالى: أماتَهُ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر: 42]، وأصلُهُ استيفاءُ العَدَدِ، أي: يَستَوفي عَدَدَ أيّامه وأنفاسه وأرزاقه"[5]، فمعنى ﴿تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾: قبضت أرواحهم عند استيفائهم آجالهم.

2) ﴿أَسۡخَطَ﴾: يقال: أسخطَ يُسخِط إسخاطًا، فهو مُسخِط،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 249.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 118.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وفى).
(4) ابن سيده، المخصص: (وفى).
(5) النسفي، طلبة الطلبة، ص: 54.

والمفعول مُسخَط، وأسخط فلانًا: أغضبه، وأغاظه، وأسخَط والديه بتصرُّفاته، ولا تفعل ما يُسخط الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾"[1]، فمعنى ﴿أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾: فعل ما يغضبه سبحانه، وأتى ما يوجب عقابه ﷻ.

3) ﴿رِضۡوَٰنَهُۥ﴾: رضيت الشَّيء، ورضيت به رضًا: اخترته، وارتضيته مثله، ورضيت عن زيد، ورضيت عليه، لغةٌ لأهل الحجاز، والرِّضوان بكسر الرّاء وضمِّها لغة قيس وتميم بمعنى الرِّضا، وهو خلاف السُّخط، وشيء مرضيٌّ أكثر من مرضوٍّ، وأرضيته إرضاء، وراضيته مراضاة ورضاء، مثل: وافقته موافقة ووفاقًا وزنًا ومعنًى[2].

والمقصود بـ ﴿رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ هنا فعل ما يرضيه عزَّ وعلا، فعُبِّر بالمسبَّب وهو الرِّضوان، عن السَّبب وهو الفعل، وعن الطِّيبيِّ: الرِّضوان: هو الرِّضا الكثير، ولمّا كانَ أعظم الرِّضا رضا الرَّحمن؛ خُصَّ لفظ الرِّضوان في القرآن بما كانَ من اللّه تَعالَى[3]، فقوله تعالى: ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾، أي: أبغضوا ما يحبُّه ﷻ، وما يختاره لهم، ويقبله منهم.

4) ﴿فَأَحۡبَطَ﴾: حَبِطَ حَبَطًا، وأحْبَطَه الضَّرْب، والحبَطُ: وجَعٌ يَأْخُذ البَعيرَ في بَطْنه مِن كلَأٍ يَستَوبِلُه، وقد حَبِط حَبَطًا، فهوَ حَبيطٌ، وحَبِطَت الشّاة حَبَطًا: انتفخ بَطنها عن أكل الذَّرق، وحَبط عمله حَبْطًا وحُبوطًا: فسد، واللّه أحْبَطَه، وفي التَّنزيل: ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾[4]، أي: أفسدها، وأبطل أجرها.

۞ المَعنى الإجماليُّ:

يتابع السّياق الشَّريف الحديثَ عن المرتدّين، وما ينتظرهم

أقبح ما عرف البشر من أنواع الموت ما جاء بيانه في هذه الآية

(1) عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (سخط).
(2) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (رضي).
(3) أبو البقاء، الكليات، ص: 478.
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (حبط).

من عقوبة تبدأ مِن أوَّل مراحل اليوم الآخر، حال نزول الموت بهم، وأثناء معالجة ملائكة الموت ذلك، فكيف ستكون معاناتهم وشدَّة عذابهم والملائكة تضربهم ضربًا شديدًا على أشرف شيء فيهم، وهو وجوههم، وتهينهم بالضَّرب على مؤخِّراتهم، فيُجمَع عليهم العذاب المهين إلى العذاب الأليم؛ عقابًا لهم جزاء كرههم ما أنزل الله، وهروبهم من القتال في سبيله.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الفاء ودلالتها:

يستهلُّ المنافقون عـذابَـهـم الأخـرويَّ بداية مـن لـحظة المـوت، ثـمَّ يتواصل عليهم

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ لترتيب ما بعدها على ما قبلَها[1]، أو تفريعيَّة، تُفرِّع التَّعجيب من تعذيب المرتدّين، وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند وفاتهم، على ما سبق من ارتدادهم، وقولهم للَّذين كرهوا ما أنزل اللّه تعالى: ﴿سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِ﴾.

و"التَّفريع؛ لبيان ما سيلحقهم من العذاب عند الموت، وهو استهلال؛ لما يتواصل من عذابهم عن مبدأ الموت، إلى استقرارهم في العذاب الخالد.

ويجوز أن يكون التَّفريع على المحمل الثّاني، وهو أنَّ المراد الارتداد عن القتال، وتكون الفاء فصيحة، فيفيد: إذا كانوا فرّوا من القتال هلعًا وخوفًا؛ فكيف إذا توفَّتهم الملائكة، أي: كيف هلعهم ووجلهم الَّذي ارتدّوا بهما عن القتال، وهذا يقتضي شيئين: أوَّلهما أنَّهم ميّتون لا محالة، وثانيهما أنَّ موتتهم يصحبها تعذيب، وهذا التَّعجيب مؤذن بأنَّها حالة فظيعة غير معتادة؛ إذ لا يُتعجَّب إلّا من أمر غير معهود، والسّياق يدلُّ على الفظاعة"[2].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 100.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 117.

غرضُ الاستفهام وبلاغته:

الاستفهام في جملة: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾؛ للاستعظام والتّهويل[1]، والتّعجيب مِن شدَّة الإهانة والإيلام اللّذين سيتجرَّعُهما المنافقون المرتدّون واليهود والمشركون عند حلول آجالهم من ضربِ الملائكة وجوهَهم وأدبارهم.

من رحمة الله تعالى بالعبادِ تعظيمُ أحوال الموت وتهويلُها

ففيه تخويف وتشديد[2]، وتفظيع وتبشيع لِما ينتظرهم في أوَّل مراحل الآخرة عند الموت، فحينئذٍ "كيف يعملون؟ وما حيلتهم حينئذٍ؟"[3].

نكتةُ استعمال أداة ﴿إِذَا﴾ دون (إنْ):

جاء استعمال ﴿إِذَا﴾ دون (إنْ) في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ لمناسبته لمقام التَّوفّي، والقطع ليس للتَّوفّي؛ فلا يشكُّ أحدٌ بوقوعه، وإنَّما في كونه على الصّورة المذكورة، وأنَّه لا شكَّ آتٍ، وكلُّ آتٍ قريب، فالجدير بأهل هذا الوعيد أن يثوبوا إلى الحقِّ، فإنَّ أحدًا لا يَشكُّ في نزول الموت به أصلًا، وتأتي ﴿إِذَا﴾؛ لتوقظ الغافلين، وتقرِّع المعاندين، أمّا (إنْ)؛ فلا تتَّسق دلالتها مع هذا السّياق المفعَم بالتَّهديد والوعيد؛ لِما فيها مِن تهوين الشَّكِّ وتضعيف الوقوع.

المقطوعُ بوقوعه هو الصّورةُ المذكورة في الآيةِ لا التَّوفّي

بلاغةُ المجاز بالحذف:

"﴿إِذَا﴾ متعلّق بمحذوف دلَّ عليه اسم الاستفهام، تقديره: كيف حالهم أو عملهم حين تتوفّاهم الملائكة.

تقديرُ المحذوف أحوالٌ عجيبة ومواقف رهيبة

وكثر حذف متعلّق كيف في أمثال هذا مقدَّرًا مؤخَّرًا عن (كيف) وعن (إذا)، كقوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾ [النساء: 41]، والتَّقدير: كيف يصنعون، ويحتالون"[4].

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 242.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 47.
(3) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 329.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 118.

دلالةُ التَّعبير بفعل التَّوفي مادَّة وصيغة:

لن يُعاقب الله المرتدّين بتقصير أعمارهم وتقريب آجالهم

التَّعبير بفعل التَّوفّي في جملة ﴿تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يدلُّ على استيفاء المرتدّ رزقَه على التَّمام، وعلى حينونة[1] أجله المقدَّرِ المؤجَّلِ له، وأنَّ اللّه تعالى سيُعطيهم كامل أجلهم، وتمام مدَّتهم، ولن يُنقصهم شيئًا منها بسبب ردَّتهم، وفي صوغه ماضيًا مع اقترانه بـ﴿إِذَا﴾ دليل على وقوعه مستقبلًا، ولتصوير ما سيكون حين الوفاة.

بلاغةُ التَّقييد بجملة الحال:

مناط التَّهديد في القيد الخاصّ بالمنافقين لا بالفعل العامِّ لجميع النّاس

تقييد جملة: ﴿تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بجملة الحال في قوله تعالى: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾؛ لأنَّها مناطُ التَّهديد والوعيد، وذلك أنَّ أصل الخبر، وهو التَّوفية، فأمرٌ مقرَّر لجميع الأحياء، فالغرضُ يكمن في القيد لا في أصل الخبر، وهذا ما قرَّره عبد القاهر الجرجانيُّ من "أنّه ما مِن كلام كانَ فيه أمرٌ زائدٌ على مجرَّدِ إثباتِ المعنى للشَّيء، إلّا كان الغرضَ الخاصَّ من الكلام، والَّذي يُقْصَد إليه، ويُزْجى القولُ فيه"[2].

ويقرِّر ذلك ورودُ توفّي الملائكة بشارةً في مقام آخر، وذلك خاصٌّ بالمؤمنين، يقول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ [النحل: 32]، فثبت أنَّ مناط التَّهديد متعلِّق بِضَرب الملائكة وجوه المنافقين وأدبارهم.

بلاغةُ مجيءِ الحال جملةً:

إتاحةُ مجموعةٍ من الدَّلالات ما لا تُتيحه الحالُ المفرَدة

قوله تعالى: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ "حالٌ مِن ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أو من ضمير المفعول؛ لأنَّ في الكلام ضميرًا يرجع إليهم"[3]، وجاء

(1) "الحينُ: وقتٌ من الزّمان، حان يحينُ حينونةً، ويُجمعُ على الأحيان، ثُمّ على الأحايينِ، وحيّنتُه: جعلت له حِينًا.
والحينُ: يومُ القِيامةِ"، ينظر: ابن عباد، المحيط في اللغة: (حين).

(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 280.

(3) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1164.

الحال جملة لا مفردًا، فلم يقل: (فكيف إذا توفَّتهم الملائكة ضاربين وجوههم)؛ لِما تتميَّز به الجملة من التَّنويه بِتحقُّق الوقوع عَبْر صيغة المضارعة في ﴿يَضۡرِبُونَ﴾، وما تقضي به من تجدُّد ضرْب وجوههم وأدبارهم، وتطاوله على المرتدّين.

دلالةُ التَّعبير بمفردة الضَّرب:

فرارُ المنافقين من القتال الكريم أوقعهم في ضرب الملائكة المهين

جاء التَّعبير بمفردة الضَّرب في جملة: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾؛ ليدلَّ على شدَّة المعاناة الَّتي يُقاسيها هؤلاء المشؤومون عند موتهم، فإنَّهم يُضربون ضربًا، فضربهم حقيقة غيبيَّة نؤمن بها، وفي التَّعبير بالضَّرب "تصويرٌ لتوفّيهم على أهول الوجوه وأفظعها، وإبراز لِما يخافون منه، ويجبُنون عن القتال لأجله؛ فإنَّ ضرْبَ الوجوه والأدبار في القتال والجهاد ممّا يُتَّقى"[1]، فلمّا فرّوا من هذه الحال في القتال؛ كان جزاؤهم بها.

توجيهُ تخصيص الوجوه والأدبار بالذِّكر:

الوجوه والأدبار أشدُّ الأعضاء حساسيَّة عند الإنسان

ضرْبُ ملائكة الموت المنافقين فيما أخبرت به الآية يتناول الوجوه والأدبار، والأصل في الأخبار الغيبيَّة التَّوقُّف عند حدود الخبر، وعدم إجرائه على المعتاد في عالم الشَّهادة، لكن يحتمل نظم الآية: ﴿وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ أن يكون "المراد بوجوههم كلَّ ما أقبل منهم، وبأدبارهم كلَّ ما أدبر من أجسامهم"[2]، وعليه فيكون توجيه ذلك أنَّهم يُضربون على أكرم الأبدان، وهي الوجوه، وعلى أشدِّ الأعضاء إهانة، وهي الأدبار؛ وذلك لإهانتهم من أعظم الجهتين، كما أنَّ "وجوههم الَّتي وقوها مِن الضَّرب حين فرّوا من الجهاد، فإنَّ الوجوه ممّا يُقصد بالضَّرب بالسّيوف عند القتال، ويضربون أدبارهم الَّتي كانت محلَّ الضَّرب لو قاتلوا، وهذا تعريض بأنَّهم لو قاتلوا؛ لَفَرّوا فلا يقع الضَّرب إلّا في أدبارهم"[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 230.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 242.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 118، بتصرف.

بلاغةُ الكناية ودلالتها:

الوجه مجمعُ المحاسن، وموضع التَّكريم، فضربه إذلالٌ وتحقير، وضرب الأدبار إهانة وتهوين، وبذلك يُجمَع على الكافرين نوعا العذاب الحسّيِّ والرّوحيِّ - إلى ما في ذكرهما من عموم الجهات - ففي تخصيصهما بالضَّرب كنايةٌ عن كمال إهانتهم إهانة مزرية، قد تُجدي في ردع من يتلقَّى هذا البيان الوافي عن الكفر والنِّفاق قبل حلول ذلك به.

ضـرْبُ الوجوه إذلالٌ، وضرب الأدبار إهانة

علَّةُ فصل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ﴾ عمّا قبله:

فصل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ عمّا قبله؛ لِما بينهما من كمال الاتِّصال، فالثّانية بيان لسَببِ الأولى، وأنَّهم إنّما عوقِبوا بضرب الملائكة وجوهَهم وأدبارهم، وأنَّه إنَّما عُجِّل لهم هذا العذاب عند الموت؛ بسبب اتِّباعهم ما أسخط اللّه تعالى وكُرههم رضوانه، وبُغضهم دين التَّوحيد الَّذي يرضاه عباده، فالآية فيها معنى التَّعليل.

من صدَّ عن سبيل الله؛ خُتِم له بسوء الخاتمة

دلالةُ استعمال اسم الإشارة:

في إيثار المسند إليه اسمَ إشارة مع لام البُعد: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ يوحي بخطورة المشار إليه، وهو ضرب الوجوه والأدبار، وتدلُّ على بُعده خطورةً وبشاعةً وفظاعةً، وذلك يُسهم في ترهيب مَن كان له قلب.

ضربُ الملائكة المنافقين مشهدٌ بعيدٌ في آلامه ومآلاته

نوع الباء ودلالتها:

(الباء) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ للسَّببيَّة، أي: تتوفّاهم الملائكة ضاربين وجوههم وأدبارهم؛ بسبب اتِّباعهم ما أسخط اللّه تعالى وكراهيَّتهم رضوانه.

معنى (أنَّ) ودلالتها:

(أنَّ) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ توكيديَّة، تقرِّر خطورة ذلك السَّبب، وأنَّه بحيث يؤهِّل صاحبه إلى تلقّي الضَّرب والإهانة عند الموت.

دلالة صوغ فعل الاتِّباع ماضيًا:

المنافقون لا يزالون يَتَّبِعون ما يُسخط الله تعالى على امتداد الزَّمان

صوغ فعل الاتِّباع ماضيًا في جملة الخبر: ﴿ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ يدلُّ على ترسُّخِ ذلك فيهم عقيدة وسلوكًا؛ ذلك أنَّهم ﴿ٱتَّبَعُواْ﴾، ولا يزالون يتَّبعون إلى وقت نزول الآية الكريمة، وسيتَّبعه كلُّ منافق على امتداد الزَّمان واتِّساع المكان، على أنَّه "لا أحد يَقصد قصد اتِّباع ما أسخط اللّه، ولا كراهة رضوانه، لكنَّهم لمّا اتَّبعوا الفعل الَّذي كان اللّه يُسخط ذلك الفعل، فكأنَّهم اتَّبعوا سخطه، وكذلك إذا تركوا اتِّباع ما كان اللّه يرضاه، وكرهوه، فكأنَّهم كرهوا رضوانه، وهو كقوله تعالى: ﴿لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [يس: 60].

ولا أحد يَقصد قصد عبادة الشَّيطان، لكنَّهم لمّا اتَّبعوه فيما يأمرهم، ويدعوهم إليه؛ فكأنَّهم عبدوه، وهو تسمية الشَّيء باسم سببه، واللُّغة غير ممتنعة عن تسمية الشَّيء باسم سببه"[1].

بلاغةُ الاستعارة في تركيب ﴿مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾:

تصوير حرص المنافقين على ما يُسخط الله تعالى

قوله تعالى: ﴿مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ فيه استعارةٌ؛ إذ شبَّه النَّظم الكريم ﴿مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ بشخصٍ يُتَّبع، وحُذِف المُشبَّه به، وذُكِر المشبَّه، ورُمز له بكونه متَّبعًا، على سبيل الاستعارة المكنيَّة، وفائدة الاستعارة تشخيص حالة الاتِّباع وتصويرها؛ لبيان حقارة فِعلهم في الحرص على ما يُسخط اللّه تعالى، فإنَّ شأنَ المتَّبع الحرص على اتِّباع محبوبه.

علَّة التَّعبير بالموصول ﴿مَآ﴾:

اتِّساع دلالة الموصول أبرُّ وأوفى بمقتضيات السّياقات المفعمة

﴿مَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ موصولة، أي: اتَّبعوا الَّذي أسخط اللّه تعالى، والتزموه، وآثروه على ما يحبُّه اللّه تعالى، وفي إيثار هذا المفعول موصولًا توسيع لِلَفظٍ يسير ﴿مَآ﴾؛ ليشمل

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 281.

جميع ما أسخطه ﷻ، ولا تطيق العبارة هنا تعديدَه باسمه الصَّريح، فكان الموصولُ أبرَّ بالسّياق، وأعمَّ للأنواع وأجمعَ للتَّفاصيل.

و﴿مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ تعالى كثير، مثل الكفرِ باللّه تعالى، وموالاة أعدائه، ومناواة أوليائه، وكتمان نعمة رسول اللّه ﷺ وكتمان اليهود التَّوراة - وأغلب المنافقين يهود - ومعاونة الكافرين[1]، وكراهة الجهاد الَّذي كان الفاضح لنفاقهم، وغير ذلك كثير ممّا بيَّنه الدّين.

دلالة التَّعبير بمفردة الإسخاط:

السُّخط يُستعمل فيما يكون مِن الكبير على الصَّغير ولا يُعكَس

التَّعبير بمفردة (الإسخاط) في جملة: ﴿أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ يدلُّ على فظاعة الجرم الَّذي ارتكبه هؤلاء المنافقون؛ إذ مادَّة السُّخط تُستعمل فيما يكون مِن الكبير على الصَّغير ولا يُعكَس، بخلاف الغضب، فيكون مِن كليهما على كليهما[2]، ولا شكَّ أنَّ سخط الأكبر سبحانه يكون أعظم؛ فلا يُقام له، ولأنَّ الخالق العظيم ﷻ لا يجري عليه ما يجري على المخلوقين من إحساس السُّخط، فـ "السُّخط مستعارٌ لِعدم الرِّضا بالفعل، وكراهتُهم رضوانَ اللّه تعالى كراهتُهم أسبابَ رضوانه، وهو الإسلام"[3].

لطيفةُ التَّعبير بالاسم الجليل:

مهابةُ الجليل سبحانه تمنع من إغضابه، وتدعو إلى رضوانه

في إيثار مفعول السُّخط اسمَ الجلالة تهويل وتخويف؛ لأنَّ الاسم الجليل يشتمل على معاني الجلال والرَّهبة، فلله ﷻ مهابةٌ تَحول دون الميل إلى ما يسخطه، فما الظَّنُّ بمصير من يَتَّبع ما يسخطه؟ ففيه تعريضٌ بسوء صنيعهم، وقبح أفعالهم، فهُم إنَّما يحرصون على العذابِ كحرص المؤمنين على النَّجاة.

---

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 128، والزمخشري، الكشاف: 4/ 327، والنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 329، والبقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 250.
(2) النشر الإسلامي، الفروق اللغوية الحاوي لكتابي العسكري والجزائري، ص: 386.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 119.

نوعُ الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾:

المنافقون يَجمعون بين جريمتَي اتِّباع ما يُسخط الله تعالى وكراهة ما يرضيه

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ عاطفة، تجمع على هؤلاء المنافقين المرتدّين واليهود جريمتين في قرنٍ واحد: ﴿ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾، ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾، فهُم لم يكتفوا باتِّباع ما يسخطه اللّه تعالى، حتى رسَّخوا في أنفسهم كرْهَ ما يرضيه سبحانه.

و"لمّا كان فعل ما يُسخِط قد يكون مع الغفلة عن أنَّه يُسخِطُ؛ بيَّن أنَّهم ليسوا كذلك، فقال تعالى: ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾"[1]، أي: عمدوا إلى ذلك عمدًا.

بلاغةُ ازدواج فنِّ الطِّباق:

التَّضاد بين السُّخط والرِّضوان والاتِّباع والكراهية

جمع السّياق في الآية بين مفردتَي الإسخاط والكُره، والأوَّل للّه تعالى، والثّاني للمنافقين، وسبق أنَّ الإسخاط يكون من الكبير على الصَّغير، وأنَّ الكره يكون من هذا على ذلك، ومن ذلك على هذا، وعليه فقد وزَّعها النَّظم الكريم توزيعًا دقيقًا، فأسند الكره إليهم في جملة: ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾، وفي ذِكر اتِّباع ما أسخط اللّه وكراهة رضوانه مُحسِّنُ الطِّباق مرَّتين للمضادَّة بين السُّخط والرِّضوان، والاتِّباع والكراهية[2].

دلالة المضيّ في الفعل ﴿وَكَرِهُواْ﴾:

كُرْهُ المنافقين ما يرضي الله تعالى مُتَغَلْغِلٌ في قلوبهم

تدلُّ صيغة الماضي في الفعل ﴿وَكَرِهُواْ﴾ على تحقُّق تغلغُل كُرههم رضوانَه ﷻ في سويداء قلوبهم، ورسوخه والقطع به بما لا يؤمَّل معه توبتُهم، فقُضي لهم بالموت على حالة ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم.

دلالةُ الإضافة في لفظ ﴿رِضۡوَٰنَهُۥ﴾:

من فاته رضوانُ الله تعالى؛ فاته الخيرُ، ولَحِقه الشَّقاءُ

إضافة لفظ (رضوان) إلى ضمير العظمة في قوله سبحانه: ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ يزيد جريمتهم جُرمًا، ويوجب لهم مع الوعيد

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 250.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 119.

وعيدًا؛ لأنَّهم كرهوا رضوان مالك الملك، جبّار السَّماوات والأرض، فمَن فاته رضوان اللّه تعالى؛ فاته الخير كلُّه، ولحقه الشَّقاء والشَّرُّ، والإضافة بمعنى (من)، أي: رضوان من اللّه، وهو الإسلام.

نوعُ الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَأَحۡبَطَ﴾:

إحباطُ الأعمالِ فرعُ أصلِ كراهية رضوان الله

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ تفريعيَّة، تُفَرِّع إحباط أعمالهم على اتِّباعهم ما يسخطه ﷻ وكُرههم ما يرضيه، "فكان اتِّباعهم ما أسخط اللّه، وكراهتهم رضوانه سببًا في الأمرين: ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند الوفاة، وإحباط أعمالهم"[1].

وفي ذلك التَّفريع تقرير لمصير من يتَّبع الكفر والنِّفاق، وما يُسخط اللّه ﷻ، وإذا أحبطت أعمالهم؛ فما بقي لهم إلّا النّارُ، وبئس المصير.

بلاغةُ الكناية في استعمال مفردة (أحبط):

الحبط إفسادٌ للعمل الصّالح ووعيدٌ بالعذاب الماحق

الحبط: إبطال العمل، والعمل لا يُبطَل، وإنَّما تُبطَل ثمرته، فاللّه ﷻ قد أهدر "ثواب أعمالهم وأذهبه"[2]، فهؤلاء أُبطِل انتفاعُهم بأعمالهم، الَّتي عملوها مع المؤمنين مِن قول كلمة التَّوحيد، ومن الصَّلاة والزَّكاة، وغير ذلك[3] من الأعمال الصّالحة، واستُعمِلت هذه المفردة لتشبيه حبط أعمال المنافقين بحبط الدّابَّة، فإنَّ الدّابَّة إذا أكلت فوق طاقتها؛ أحبطت الأكل النّافع فذهبت فائدته، وانقلب إلى ضررٍ قاتل[4]، وكذلك المنافق لمّا أتى الأعمال الباطلة؛ أحبط الأعمال الصّالحة، وهذا الاستعمال كنايةٌ عن الوعيد يوم القيامة، فمن حبط عملُهُ؛ فقد حاز الخسران المبين.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 119.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 221.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 120.

(4) حبِطت الشّاة حبطًا: انتفخ بطنها عن أكل الذرق، وفي الحديث: «إن ممّا يُنبت الرّبيعُ ما يقتل حبطًا أو يُلِمُّ»، وذلك الدّاء الحُباطُ، وحبِط عمله حبطًا وحُبُوطًا: فسد، والله أحبطه، وفي التّنزيل: ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٢٨﴾، أي: أفسدها، وأبطل أجرها، ينظر: ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (حبط).

دلالة المُضيِّ في الفعل ﴿فَأَحْبَطَ﴾:

وعيدُ الله ﷻ نافذ لا محالة

جاء الفعل ﴿فَأَحْبَطَ﴾ ماضيًا، والإحباط سيكون يوم القيامة؛ للدَّلالة على تَحقُّق الإحباط يوم القيامة؛ وذلك لأنَّ وعيد اللّه ﷻ نافذ لا محالة، كما أنَّ وعْدَه سبحانه نافذ لا محالة، فإذا قضى أمرًا؛ فإنَّما يقول له كن فيكون؛ لذلك جاء الفعل ﴿فَأَحْبَطَ﴾ ماضيًا.

لطيفة جمع لفظ ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾:

مهما كثُرت أعمال المنافقين؛ فهي إلى محقٍ ساحق

جاء لفظ ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ جمعًا؛ لبيان أنَّ أعمالهم الصّالحة مهما تنوَّعت، وكثرت؛ فلن تنفعهم بشيء؛ ذلك لأنَّها قد رُميت بسهام النِّفاق، فقتلتها، فلم تثبت في حياة أصحابها، وفي الجمع دلالةٌ على دخول أعمال الجوارح والأعضاء كلِّها، مثل عمل اللِّسان من النُّصح والتَّوجيه، وصدق القول، وما إلى ذلك، فكلُّه هدَرٌ لا قيمة له.

دلالةُ إضافة لفظ العمل إلى الضَّمير:

لا يفيد مع النِّفاق أيُّ عمل من الأعمال

إضافة الأعمال إلى ضمير المنافقين واليهود في جملة: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ بمعنى اللّام، فهي أعمال لهم ابتداءً، وهذه الإضافة تزيدهم ألمًا؛ لأنَّهم قد عملوها، وكان الأصل أن تكون منفعتُها لهم، وفي هذا تحسير، وتحذير ممّا يكون على منوالها، وهي "الأعمال الَّتي صورتُها صورةُ الطّاعة من صلاة وزكاة وصيام، أو ما كانوا قد عملوا مِن الخير قبل الرِّدَّة[1]، فـ "اللّه ﷻ لم يقبل منهم عملًا، حتّى ولو كان ممّا يحسب في الأعمال الصّالحة للمؤمنين؛ لأنَّهم غير مؤمنين باللّه، والإيمان باللّه شرط أوَّل في قبول العمل"[2].

❁ الفروق المُعجَميَّة:

السُّخط والغضب:

الغضب يكون من الصَّغير على الكبير، ومن الكبير على الصَّغير،

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 47.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 364.

السُّخط يصدر عن الأعلى، ويستلزم العقاب، بخلاف الغضب؛ فهو أعمُّ

والسُّخط لا يكون إلّا من الكبير على الصَّغير، يقال: سخط الأمير على الحاجب، ولا يقال: سخط الحاجب على الأمير، ويُستعمل الغضب فيهما، والسُّخط إذا عدَّيته بنفسه؛ فهو خلاف الرِّضا، يقال: رضيه، وسخطَه، وإذا عدَّيته بـ (على)؛ فهو بمعنى الغضب، تقول: سخط اللّه عليه؛ إذا أراد عقابه[1]، والغضب لا يستلزم العقاب ضرورة، بخلاف السُّخط، فيلزم عنه العقاب.

(1) النشر الإسلامي، الفروق اللغوية الحاوي لكتابي العسكري والجزائري، ص: 386.

﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ٢٩﴾ [محمّد ﷺ: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ما بعد التَّعريض إلى التَّصريح

لمّا عرَّضت الآيات السّابقة مجرَّد تعريض باحتمال فضْحِه تعالى نفاق المنافقين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾؛ أتبَعَه هنا بتهديدِهم بصريح العبارة أنَّه سيكشفُ ستره عن ضغائن نفوسهم، وسيفضحُ أحقادهم على الرَّسول ﷺ وعلى المسلمين، فينتقمون منهم بالقتل، أو بالطَّرد، أو بغيرهما، فقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾، فهو انتقال من التَّعريض إلى التَّصريح.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَسِبَ﴾: الحَسَبُ: الشَّرَف الثّابت في الآباء، رجل كريم الحَسَب حسيبٌ، وقَوْمٌ حُسَباءُ، والحِسابُ: عَدُّكَ الأشياء، والحِسابةُ مصدر قولِكَ: حَسَبْتُ حِسابةً، وأنا أَحْسُبُه حِسابًا، وحِسْبة أيضًا، والحِسبان من الظَّنِّ، حَسِبَ يحسَبُ - لغتان - حُسْبانًا[1]، فمعنى قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: أم يظنُّ هؤلاء أن يديم الله تعالى عليهم ستره، وهم لا يرعوون، ولا يتوبون من نفاقهم؟.

2) ﴿أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾: الضِّغْن بالكسر: إبطُ الجَبَل، والحِضْنُ، وقَناةٌ ضَغِنَة كفَرِحة: مُعْوَجَّة، فالضِّغن: غؤور أو امتداد في داخل جِرْم كثيف: كإبط الجبل، وحَنْية القناة، والضِّغْنُ: الحِقْدُ والعداوة والبغضاءُ المستكنَّة في النَّفس، وهي مشاعر غليظة، ضَغِنَ الرَّجلُ على وزن تعب: وغِرَ صَدْرُه،

(1) الخليل، العين: (حسب).

ودَوِيَ، واضطَغن فلان على فلان ضغينة: اضطَمرها، ومعنى ﴿وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ۝٣٧﴾ [محمد ﷺ: 37]: يُثِر، ويولِّد الكراهة والحقد؛ بسبب شحِّ النَّفس بالمال(1)، فمعنى ﴿يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾: يفضح أحقادكم على الدّين والرَّسول، ويكشف أسراركم الخبيثة.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

المنافقون أولى بالفضحِ، وهم أجدر بالكشف

تُبيِّن الآية الكريمة ما يظنُّه هؤلاء المنافقون أنَّ بغضهم المكتومَ للدّين، وحقدهم الدَّفين على الرَّسول ﷺ وصحْبه الكريم يظلُّ مستورًا، لا يُطْلِع اللّه تعالى عليه المؤمنين، فيتمكَّن هؤلاء المنافقون من الكيد للدّين والتَّبييت لأهله، ولا يَفطن إليهم أحد، وقد "جعل اللّه ﷻ في إظهار ما أسرَّ أهل النِّفاق وإبداء ما أخفوه فيما بينهم آيةً عظيمة، ودلالة ظاهرة على رسالة رسوله ﷺ"(2).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوع ﴿أَمۡ﴾ ودلالتها:

إظهار الله تعالى أسرار المنافقين آيـة عظيمة ظـاهرة على رسالته ﷺ

﴿أَمۡ﴾ في جملة: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾ هي ﴿أَمۡ﴾ المنقطعة، الَّتي بمعنى (بل)، وفيها إضراب انتقاليٌّ من التَّهديد والوعيد بإحباط العمل، وما يستلزمه من عقاب عند الموت، ومن التَّعريض بِفَضْح نفاقهم، إلى التَّهديد بفضح أسرارهم فعلًا، وإظهار مضمرات نفوسهم.

غرضُ الاستفهام وبلاغته:

سترُ الله تعالى لا يدوم على منافق، وفضحُه عمّا قليلٍ قائمٌ

دخلت ﴿أَمۡ﴾ على استفهام مضمر؛ ليصحَّ العطف هنا، والمعنى: "بل أحسبَ الَّذين في قلوبهم حقد وعداوةٌ للمؤمنين أنَّه لن يُخرجَ اللّه أحقادَهم؟"(3) كلّا، بل سيفضح أضغانهم، ويظهر نفاقهم؛ إن

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ضغن).
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 281.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 100.

لم يتوبوا منه، ويعودوا إلى الدّين الحقِّ، فهو استفهام "للإنكار"[1]، والتَّكذيب لهذا الزَّعم، والتَّوبيخ لِفساد معتقدهم، وإلى ذلك يفيد الاستفهام هنا أنَّ نفاقهم قد فاق الحدود كلَّها في الخُبث، والإضرار بالدّين والرَّسول والمؤمنين، وأنَّه "ممّا لا يكادُ يدخلُ تحتَ الاحتمال"[2].

دلالة استعمال مفردة الحِسبان مادَّة وصيغة:

الأوهام هي الموقعة في باطل الأفهام

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الحِسبان، في قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وهو من الظَّنِّ الخاطئ، المؤسَّس على غير اعتقادٍ صحيح، والمعنى: أظنَّ هؤلاء المنافقون دوامَ ذلك السِّتر على ما في قلوبهم من حقدٍ على الدّين وعلى الرَّسول ﷺ؟ وتدلُّ صيغة المُضيِّ في الفعل ﴿حَسِبَ﴾ على أنَّ المنافقين قد جهِدوا في إخفائه حينًا من الزَّمن، وأنَّهم قد صدقوا أنفسهم وأولياءهم بأنَّ نفاقهم سيظلُّ خفيًّا على المؤمنين، وأنَّ ذلك الظَّنَّ قد استقرَّ في نفوسهم حتّى قرَعهم هذا التَّهديدُ المُزَلْزِل.

علَّةُ التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

التَّعبير بالموصول يهيِّئ التَّركيب لما لا يهيِّئه له الاسم الصَّريح

الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، يُتيح ما لا يتيحه الاسم الصَّريح (المنافقون) من دلالات جملة الصِّلة، فإنَّ صلة الموصول جاء فيها ذِكرُ مرض قلوبهم، وتنكيرُه، وتقديمُ الجار والمجرور ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾.

دلالةُ حرف الظَّرفيَّة:

قلوبُ المنافقين لأمراض النِّفاق كأوعية المخزونات الحسّيَّة

﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ظرفيَّة، توحي بأنَّ قلوبهم صارت لأمراض النِّفاق والكفر كالأوعية للمخزونات الحسّيَّة، وأنَّ النِّفاق والكفر قد استقرّا ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾ وثبتا، وهي تُشير

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 120.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 101.

إلى تغلغل هذه الأمراض في القلوب، ممّا يستدعي منهم الوجل والخوف من ذلك، فيسارعون إلى علاجها قبل الموت الماحق.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿مَّرَضٌ﴾:

النِّفاق مرضٌ خفيٌّ يُناسب أن يكون في العضو الخفيِّ

المقصود بـ ﴿مَّرَضٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شكٌّ، أو: نِفاق[1]، أي: "في قلوبهم شكٌّ في دينهم وضعف في يقينهم، فهُم حيارى في معرفة الحقِّ"[2]، فشبَّه النِّفاق بالمرض على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة، بِجامع الإضرار بصاحبه، ولِكون الكُفر مقرُّه العقل المعبَّر عنه بالقلب؛ كان ذِكر القلوب مع المرض ترشيحًا للاستعارة؛ لأنَّ القلب ممّا يُناسب المرضَ الخفيَّ؛ إذ هو عضوٌ باطن؛ فناسب المرض الخفيَّ، والمعنى أنَّه يخرجها من قلوبهم[3].

وفي تلك الاستعارة مزيد إيضاح لِقوَّة تأثير النِّفاق في انحراف القلوب عن سبيلها القويم، وتعطيله إيّاها عن القيام بمهمَّتها من اليقين بتوحيد اللّه تعالى، وسلوك صراطه المستقيم.

نكتة تنكير ﴿مَّرَضٌ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿مَّرَضٌ﴾ دلالة على خطورة النِّفاق، وشدَّة إتلافه لاستقامة القلوب وتلويثه لِطُهر النُّفوس، فهو ﴿مَّرَضٌ﴾ خطير منكَر فظيع، فالتَّنكير لتعظيم خطر هذا النِّفاق.

نوع ﴿أَن﴾ ودلالتها:

المنافقون يَعتقدون دوامَ خفاء نفاقهم

﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾ هي ﴿أَن﴾ المخفَّفة من الثَّقيلة؛ إذ تُؤكِّد اعتقادَ المنافقين دوامَ خفاء نفاقهم وحقدهم على الدّين، فكشف اللّه تعالى ذلك الاعتقاد، وفَضَحه عليهم، وهدَّدهم بكشف جميع أضغانهم،

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 304.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 221.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 120.

وذلك خطير عليهم؛ لأنَّه يستعدي على الفتكِ بهم، وهي توحي باستحالة إخراج الأضغان فيما يحسبه المنافقون، فهي دالَّة على استخفاف عقولهم، وضعف أفئدتهم.

نكتة النَّفي بأداة ﴿لَّن﴾:

السِّتر يدوم لمن طلب دوامه مؤمنًا بالله مُقبلًا عليه

﴿لَّن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾ تفيد النَّفي في المستقبل، أي: إنَّ المنافقين يطمَعون في إدامة السِّتر عليهم، وعدم فضْح نفاقهم أبدًا فيما يُستقبل من الزَّمن، فهي كناية عن الأمن من الفضيحة.

وذلك ما أنكره الله تعالى عليهم، وكذَّبهم فيه، فالله تعالى يستر عباده؛ حتى يتوبوا، لكنَّه لا يديم السِّتر؛ إذا تمادى العباد في الكفر والنِّفاق والفجور، وإنَّما يُديمه على التّائبين الصّادقين، تلك سنَّة الله تعالى في خلقه، وهي سارية عليهم كسريانها على غيرهم.

بلاغةُ الاستعارة في فعل ﴿يُخۡرِجَ﴾:

فضحُ المنافقين ظاهرٌ لكلِّ مبصر، بيِّنٌ لكلِّ ناظر

الإخراج في اللُّغة "استلالُ شيء من مكمنه، فاستُعير هنا للإعلام بخبرٍ خفيٍّ"[1]، فالمقصود بالإخراج في قوله تعالى: ﴿أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾ الإظهار والإبراز والكشف والفضح، فشُبِّه ذلك كلُّه بالإخراج والاستلال على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، أي: "يظهر الله ذلك من سِتر الكتمان"[2]، ويبرزه "لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، ويظهره على نفاقهم وعداوتهم لهم، وكانت صدورهم تغلي حنقًا عليهم"[3]، واستعمال فعل ﴿يُخۡرِجَ﴾؛ لبيان الأمر بمشهد حسّيٍّ لا يخفى على متأمِّل.

دلالةُ التَّعبير بصيغة المضارع:

تَدعَم المضارعة في الفعل ﴿يُخۡرِجَ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَن لَّن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 120.

(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 128.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 327 (بتصرف).

كلّما تجدّد نزول سورة؛ تجدّدت الفضائح بالتّدقيق في الملامح

﴿يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾، تهديدَ المنافقين بكشف فضائحهم، وإطلاع الرَّسول ﷺ والمؤمنين على ضغائنهم وأحقادهم، وأنَّ ذلك الإظهار والفضح سيكونان متجدِّدَين متتابعَين من غير توقُّف، فكلَّما نزلت سورةٌ؛ تجدَّدت فضائحهم، وظهرت ملامح شخصيّاتهم.

دلالةُ إسناد فعل الإخراج إلى اسم الجلالة:

من يفضحه الله تعالى لا يستره شيء

في إسناد فعل الإخراج إلى الاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ مزيدُ تَهديد، وعظيم زجرٍ عن إضمار النِّفاق واحتضان الكفر في القلوب؛ لأنَّ من يفضحه اللّه تعالى لا يستره شيء، بالإضافة إلى ما للاسم الجليل من جلالٍ عظيم، فإذا كان المخرِجُ هو اللّه ﷻ؛ كان إخراجه إخراج إذلال وإهانة.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿أَضْغَٰنَهُمْ﴾:

التّعريضُ بإهلاك المنافقين بعد إخراج الضّغائن

الأضغان في جملة: ﴿يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ جمع ضِغْن، وهو الحِقْدُ والعداوة والبغضاء المستكنَّة في النَّفس، وهي مشاعر غليظة[1]، وفي التَّهديد - بأن يخرج اللّه تعالى تلك الأحقاد والعداوات والبغضاء - كناية عن إهلاكهم وإبادتهم على أيدي المؤمنين؛ لأنَّه يستلزمه، فضلًا عمّا في إخراجها من إخزائهم وإخجالهم، ممّا يَحُطُّ شأنَهم حطًّا.

دلالةُ الإضافة في ﴿أَضْغَٰنَهُمْ﴾:

ساءت ظواهر المنافقين، وساءت سرائرهم

في إضافة الأضغان إلى ضمير المنافقين، في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾، إضفاءٌ لمعاني القبح والبشاعة والخطورة بقدر قبح المضاف إليه وبشاعة فعله، وخطورة نفاقه، وتلك (أضغان) تليق بهم، وتتَّسق مع اسوداد قلوبهم، وإظلام نفوسهم الشِّرّيرة، والإضافة في قوله: ﴿أَضْغَٰنَهُمْ﴾ بمعنى اللّام، أي: أضغان لهم.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ضغن).

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٠﴾ [محمّد ﷺ: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

إخراج الضّغائن متبوعٌ بتأكيد تحقُّقِه

لمّا أخبر النّظم الجليل في الآية السّابقة بأنّه مُخْرِجٌ أضغانَ الذين في قلوبهم مرضٌ، أتبَعَه في هذه الآية بتأكيد مفهوم الكلام السّالف، وأنّه تعالى سيُظهِر تلك الضّغائن حتّى يُعرف أصحابُها(1). ومنها: أنّه لمّا ذكر في الآية السّابقة أنّهم يبالغون بكِتمان ما في قلوبهم من الضّغائن، وبيّن أنّهم ظنّوا أنّ أحدًا لا يعلم بذلك؛ أتبعه في هذه الآية بما يُظهِر خيبةَ ظنونِهم، بأنّه سَيَكْشِفُ ما يسترونه ويبالغون بإخفائه(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾: (وسم) أصلٌ يدلّ على أثَرٍ ومَعْلَم(3)، والوَسْمُ: التّأثير، والسِّمَةُ: الأثَرُ. يقال: وسَمتُ الشّيءَ وسْمًا، إذا أثَّرْتَ فيه بِسِمَةٍ، وفلانٌ مَوْسومٌ بالخير والشّرّ، أي: عليه علامتُه. وتوسَّمتُ فيه الخَيْرَ والشَّرّ، أي: رأيت فيه أثَرًا(4). واتَّسَمَ الرّجلُ، إذا جَعَلَ لِنَفْسه سِمَةً يُعْرَف بها(5)، قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: 29]، وقال: ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ [البقرة: 273](6). والمراد به في الآية الكريمة العلامة، وهي السّيمياء(7).

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 71.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 252.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وسم).
(4) الخليل، العين: (وسم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (وسم).
(6) الرّاغب، المفردات: (وسم).
(7) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 15.

2) ﴿لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾: (لحن) أصلٌ يدلّ على إمالة شيء من جهته[1].
واللَّحْنُ: صرفُ الكلام عن سَنَنه الجاري عليه، إمّا بإزالة الإعراب، أو التّصحيف، وإمّا بإزالته عن التّصريح وصرفه بمعناه إلى تعريض وفحوى، وهو محمود عند أكثر الأدباء من حيثُ البلاغةُ[2].
واللّحن: ما تلحن إليه بلسانك، أي: تميل إليه بقولك، ومنه قولُه ﷻ: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾. والمراد به في الآية الكريمة: مَقْصِد الكلام وطريقته[3]، وهو "الكلام المُحالُ به إلى غير ظاهره؛ ليَفْطَنَ له مَن يُراد أن يفهمَه دون أن يفهمَه غيرُهُ"[4].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

الـوعـد بكـشف سرائر المنافقين

في هذه الآية تسليةٌ من الله لرسوله ﷺ بقوله: لو نشاء - أيّها الرّسول الكريم - لعرّفناك أشخاصَهم، فَعَرفتَهُم بأعيانهم بعلاماتٍ غالبة عليهم تكشفُهم عمّن سواهم؛ لكنّنا لم نشأ ذلك؛ سَترًا عليهم وحرصًا على ألّا يُؤذى ذَوو قرابتِهم من المُخلِصين، ولكنّك ستعرفُهم من كلامهم الدّالِّ على سرائرهم، والله تعالى عالِمٌ بأحوال عباده جميعًا، لا يَخفى عليه من أعمالهم شيءٌ من الطّاعات والمعاصي، وهو سيجازيهم بما يستحِقّون[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ﴾:

مبالغة المنافقين في سَترِ غيظِهم، لا تـحـول عن كشفه وإظهاره

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالواو في قوله: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ﴾؛ لتَعدُّد المراد بها، ويجوز أن تكون للعطف؛ وذلك بعطف قوله جلّ شأنه:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لحن).
(2) الرّاغب، المفردات: (لحن).
(3) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 284.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 122.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 71، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 510.

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾، على قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ٢٩﴾ [محمّد ﷺ: 29]، ويكون غرضُ ذلك الدّلالةَ على أنّ ما يبالغون في سَترِه وإخفائه سيَكۡشِفُه اللّه تعالى ويُخۡرِجُه للنّاس[1]. ويجوز أن تكون استئنافيّةً[2]، "كأنّ قائلًا قال: فلِمَ لم يَظهر؟ فقال: أخَّرۡناه لَمحضِ المشيئة، لا لخَوۡفٍ منهم"[3].

دلالة التّعبير بـ (لو):

امتناعُ العلمِ بعلاماتِ المنافقين؛ لانتفاء مشيئته تعالى ذلك

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بـ (لو) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ﴾؛ وذلك لأنّ (لو) تُستعمَل لِما كان سيقع لو وقع غيرُه[4]، فهي حرفُ امتناع لامتناع، فامتنع العلمُ بعلاماتهم، لانتفاء مشيئته تعالى ذلك.

الغرض من التّعبير بأسلوب الشّرط:

معرفة رسول اللّه للمنافقين بسيماهم موقوفٌ على مشيئته سبحانه

عبّر النّظمُ الجليل بأسلوب الشّرط في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾؛ لأنّ أسلوب الشّرطِ دلّ على أنّ معرفتهم بعلاماتهم متوقّفٌ على مشيئة اللّه تعالى، فلا شيءَ يقع إلّا بإذنه ﷻ.

سرّ التّعبير بالمشيئة دون الإرادة:

ما شاءه اللّه كائن لا محالة، وأمّا الإرادة فلا تقتضي وجودَ المرادِ لا محالة

آثَر النّظمُ القرآنيّ التّعبير بالمشيئة في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ﴾؛ لأنّ المشيئة من اللّه تقتضي وجودَ الشّيء، ولذلك رويَ: «ما شاء اللّه كان، وما لم يشأ لم يكن»[5]؛ بخلاف الإرادة منه سبحانه؛ فهي لا تقتضي وجودَ المراد لا محالة؛ ألا ترى قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 252، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 233.
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 108.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 59.
(4) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 108.
(5) رواه أبو داود في سننه، برقم: (5075).

﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185]، ومعلوم أنّه قد يحصل العسرُ بين النّاس. ومن الفرق بينهما: أنّ إرادة الإنسان قد تحصل من غير أن تتقدّمها إرادةُ اللّه؛ فإنّ الإنسان قد يريد ألّا يموت، ويأبى اللّه ذلك؛ بخلاف مشيئة الإنسان فإنّها لا تكون إلّا بعد مشيئته سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [التّكوير: 29]. ولمّا كانت الأمور كلُّها موقوفةً على مشيئته تعالى، ومنها إراءةُ المنافقين بسيماهم لرسول اللّه ﷺ؛ عبّر بالمشيئة دونَ الإرادة[1].

دلالة التّعبير بالفعل ﴿نَشَآءُ﴾ مضارعًا بصيغة التّعظيم:

المشيئة الصّادرةُ عن كمال العَظَمة لا يحول دونَها شيءٌ

عبّر النّظمُ الجليل بالفعل ﴿نَشَآءُ﴾ بصيغة التّعظيم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾ دون أن يقول: (ولو شئتُ)؛ وذلك لإظهار العناية بمضمون الخطاب[2]، أي: إنْ شئْنا بما لنا من العَظَمة، وهذا يُفيد أنّ تلك الرّؤيةَ ستكون محقّقةً لو تحققّت المشيئة. وممّا يُذْكَر في دلالة التّعبير بالمضارع ﴿نَشَآءُ﴾ مع أنّ الأصل التّعبيرُ بالماضي؛ الدّلالةُ على استمرار الفعل فيما مضى وفي الحال وفي الاستقبال، وفي ذلك طمأنةٌ لرسول اللّه ﷺ، وتحذيرٌ للمنافقين.

بلاغة الالتفات في قوله: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾:

إبراز العناية، والاهتمامِ بالإراءَة

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾ التفاتٌ من الغَيْبَة إلى التّكلّم؛ وذلك أنّ الآية السّابقة كانت بأسلوب الغَيْبَة؛ ثمّ التفتَ في هذه الآية إلى التّكلّم بنون العَظَمة؛ لإبراز العناية، والاهتمامِ بالإراءَة.

دلالة حذف مفعول ﴿نَشَآءُ﴾:

دلالة السّياق عليه

حُذِف مفعولُ الفعل ﴿نَشَآءُ﴾ في قوله: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ﴾؛ لدلالة سياق الكلام عليه، فتقديرُه: فلو نشاء إراءتَك إيّاهم لأريناكهم. ولمّا كانت الإراءةُ غيرَ محقَّقةِ الوقوع، ناسبَ ذلك حذفُ المفعولِ الذي يدلّ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 35.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 101.

على عدم الثّبوت. وأيضًا: لأنّ الكلام في شأن المنافقين؛ فناسبَ حذف المفعول من باب التّهوين والتّقليل لهم.

دلالة اللّام الدّاخلةِ على الفعل ﴿لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾:

تعلّق الجواب بالشّرط

عبّر النّظمُ الجليل بـ (اللّام) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾، وهي اللّام الرّابطة لجواب (لو) بشرطها[1]، فتُظْهِرُ بذلك تعلّقَ الجوابِ بالشّرط، فرُؤيتُه ﷺ لهم متعلّقةٌ بمشيئته تعالى، وفي هذا دليلٌ على أنّه لا يقع شيءٌ إلّا بمشيئته سبحانه، ولا مانع لفعله. وممّا يُذْكَر في سِرّ دلالة اللّام: أنّ المنافقين لشِدّة جهلهم لا يتصوّرون أنّ سرائرهم كلّها معلومةٌ، مقدورٌ على العِلْم بما فيها؛ فأكّد ذلك باللّام للدّلالة على وقوع الرّؤية الكاشفة لرسول اللّه ﷺ لما يُخْفونَه في ضمائرهم[2].

دلالة التّعبير بالرّؤية في قوله: ﴿لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾:

الدّلالة على كمال عِلْمه سبحانه بالمنافقين

عبّر النّظمُ الجليل بالرّؤية في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾ دون: (أطلعناك)؛ لتَعدُّد معناها؛ فيجوز أن تكون من الرّؤية بمعنى العِلم، أي: "عَلَّمناكَهُم، وعَرَّفْناكَهُم، ودَلَلْناكَ عليهم. تقول العربُ: سأريك ما أصنع؛ أي: سأُعْلِمُك، ومنه قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النّساء: 105] أي: بِما أَعْلَمَكَ"[3]. ويجوز أن تكون من الرّؤية البصريّة، بدلالة أنّها لم تنصب سوى مفعولين[4]. وعلى كِلا الدّلالتَين فإنّ التّعبير بالرّؤية يدلّ على كمال العِلْم بهم وقوّته، فهو عِلمٌ واقعٌ بالعِلْم والإدراك، وبالنّظر بالعين؛ وذلك لأنّ الرّؤية أعلى درجاتِ الإدراك، فهي أعلى من البصر والنّظر. ولأنّ الرّؤية تتميّز

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 101.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 174.

(3) ابن الأحنف، البستان في إعراب مشكلات القرآن: 3/ 85، وينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 59.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 225.

باليقين؛ بخلاف: (أطلعناك)، فلا تؤدّي هذه المعاني؛ لأنّ مادة (طلع) في اللّغة تدلّ على الظّهور والبُروز، يقال: طلعتِ الشّمسُ طُلوعًا، إذا ظهرت، وهذا المعنى غيرُ مناسبٍ لسياق الحديث عن المنافقين، وهو مبنيٌّ على السَّتر؛ للحفاظ على لُحْمَة المجتمع.

سرُّ إسنادِ الرّؤية إلى ضمير التّعظيم:

خِـداعُ المنافقين مــفـضــوحٌ ومكشوفٌ أمامَ العَظمة الإلَهيّة

أسند النّظمُ الجليل فعلَ الرّؤية إلى ضمير التّعظيم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾؛ للدّلالة على أنّها ستكون رؤيةً تامّة، بحيثُ إنّها تكشف الغطاءَ عنهم[1]. فهي رؤيةٌ تُظْهِر المُشاهَدَ بلا شَكّ فيه، بحيثُ إنّك تقدِرُ على أن تصفَهم لغيرك[2]. وأيضًا لمّا كان المنافقون يبالغون في إخفاء ما يريدون، بيّن اللّٰه تعالى أنّ ذلك منهم لا وزن له؛ لأنّ الذي يُري الرَّسولَ ﷺ هو اللّٰه تعالى.

دلالة الفاء واللّام في ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾:

معـرفة رسـول الـلـه بالمنافقين مـترتّـبـةٌ علـى الإرادة المؤكّدة

افتتح النّظمُ الجليل الجملةَ بالفاء العاطفة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ﴾ المفيدةِ للتّرتيب والتّعقيب والسّببيّة[3]؛ للدّلالة على أنّ المعرفة مترتّبة على الإراءة، وأنّها واقعة عقبَها[4]. ويجوز أن تكون الفاء للتّفريع، والمراد: تفريع معرفتِه ﷺ على تعريف اللّٰه له، وبذلك تكون الفاء أفادت معنى التّرتيب، وتكون اللّام في قوله: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ دالّةً على تأكيد المعرفة وتحقّقها[5]، فكأنّه قال: ولو نشاء لعرفتهم، فتكون المعرفة غيرَ متأخّرةٍ عن التّعريف المُتحقّق بالإراءة، فتُفيد تأكيدَ التّعريف، أي: لو نشاء لعرّفناكَ بهم تعريفًا تُحَقّق معه المعرفةَ لا تتأخّر بعدَه[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 253.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 29.
(3) قباوة، المُفصّل، ص: 1800.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 253، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 101، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 225.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 261.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 59.

سِرّ التّعبير بالمعرفة دون العِلم:

المعرفة تُـدْرَك بتفكّر وتدبّر لآثار الشّيء؛ فتُنسب لـلإنـسـان ولا تُنسب إلى الله تعالى

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالمعرفة دونَ العِلم في قوله تعالى: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾؛ لوجود فرق بينهما؛ فالعِلم: هو إدراك الشّيء على حقيقته، أو هو مَلَكة يُقْتَدَر بها على إدراك الكلّيّات والجُزئيّات، ونقيضُ العِلم الجهلُ، ويفترق عن المعرفة في أنّها تُدْرَك بتفكّر وتدبّر لآثار الشّيء؛ لأنّها مأخوذةٌ من عرفان الدّار، أي: آثارها التي تُعْرَف بها، ويضادُّها الإنكارُ. ولمّا كانت المعرفة تُستعمَل في العِلم القاصر المُتوصَّلِ إليه بتدبّر آثارِه دونَ إدراك ذاته؛ امتنع استعمالُها في جانب المولى سبحانه؛ فتقول: (إنّ الله يعلم)، ولا تقول: (إنّ الله يعرف)؛ يُؤكّد هذا: أنّه لم يَرِد في القرآن الكريم إسنادُ المعرفة إليه سبحانه؛ إذ لا يجوز أن يكون عِلم الله تعالى بالأشياء من جهة الأثر والدّليل؛ إنّما عِلْمه يكون على التّفصيل. والنّاظر في آيات القرآن يجد ورودَ المعرفةِ لتمييز المعلوم من غيره بالتماس آثاره ودلائله، قال تعالى: ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ [البقرة: 273]، فالسّيماءُ علامةٌ يُتَوَصّل بها إليهم؛ لذلك كان التّعبير بها مع المنافقين في قوله: ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾؛ فعلامةُ المنافقين تُعْرَف في فحوى الكلام. وممّا يُؤَكِّد الفرقَ بين العِلْم والمعرفة المغايرةُ بينهما في الآية؛ حيثُ أسنَد المعرفةَ إلى رسول الله، والعِلم إلى الله في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾[1].

دلالة التّعبير بالماضي (عرفتهم):

تـحـقُّـقُ وقـوعِ مـعـرفـتـه ﷺ بالمنافقين

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن المعرفة بالفعل الماضي دون المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾؛ للدّلالة على تَحقّق المعرفةِ ووقوعِها بلا شكّ.

(1) محمد ياس خضر، دقائق الفروق اللغوية، ص: 189.

العلامات المميّزة لهم هي السّبب بإظهارهم

دلالة الباء في ﴿بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾، وهي هنا مستعملة للدّلالة على السّبب، أي: تعرفهم "بسبب علاماتهم التي نجعلها عاليةً عليهم، غالبة لهم في إظهار ضمائرهم عليها، لا يقدرون على مدافعتها بوجه"[1]. ويجوز أن تكون للإلصاق، والمراد: أنّ علامة النّفاق لاصقةٌ بهم، لا تنفكّ عنهم، وإن حاولوا إخفاءَها.

للإشارة إلى قوّة التّعريف وزيادتِه

سِرّ التّعبيرِ بقوله: ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم﴾ بعد الإراءة التي يلزم منها التّعريف:

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بالمعرفة في قوله: ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم﴾ بعد الإراءَة التي يلزم منها التّعريفُ في قوله: ﴿لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾؛ لزيادة فائدة، وهي أنّ التّعريف قد يُطلَق ولا تَلزمُ منه المعرفةُ، يقال: عرفتُه ولم يَعْرِف، وفهمتُه ولم يَفْهَم؛ فقال هنا: ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم﴾ يعني: عَرّفناهم تعريفًا تعْرِفُهم به، وفي ذلك إشارةٌ إلى قوّة التّعريف[2].

صفات المنافقين واحدة متوافقة متجانسة

سرّ إيثار التّعبير بالسّمة مفردةً دونَ العَلامة:

آثرَ القرآنُ التّعبيرَ بالسِّمة مفردةً دونَ العلامة؛ لأنّها ضربٌ من العلامات مخصوصٌ، وهو ما يكون بالنّار في جسد حيوان، مثل سمات الإبل وما يجرى مجراها؛ قال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ١٦﴾ [القلم: 16]؛ عبّر بالسّمة لوجود الأثرِ على أنفه، كما يُفعَل مع الإبل. ولمّا كان الأمر مع المنافقين وما يفعلونه له تأثيرٌ في المجتمع، عبّر بالسّمَة كأنّها علامة مخصوصة تظهر على وجوههم، كما قال تعالى في شأن الكافرين: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾ [الرّحمن: 41][3]. وأفرد النّظم الجليل لفظَ السّمة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 253.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 17/ 467.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 82.

لأنّها اسمُ جنس جاء بصيغة الإفراد؛ للتّنبيه على أنّ علاماتِهم متّحدةُ الجنس وإن كانوا كثيرين؛ لأنّ مدلولَها واحدٌ وهو النّفاق[1].

سرّ التّعبيرِ بـ (سيماهم) دون (أسمائهم):

السَّتر على المنافقين لإتاحة التّوبة لهم، وإبقاءً على قراباتهم من المؤمنين

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بـ (سيماهم) في قوله: ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾ دونَ أن يقول: (فلعرفتهم بأسمائهم)؛ لأنّ القرآن يدعو إلى السّتر على العصاة لكي يتوبوا؛ لذلك لم يذكرهم القرآنُ بأسمائهم، سَترًا عليهم، وإبقاءً على قراباتهم المُخْلِصين من الفتن[2].

دلالة الإضافة في (سيماهم):

للمنافقين علاماتٌ تميّزهم عمّن سواهم

أضاف النّظمُ الجليل السّمة إلى الضّمير في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾؛ وذلك للدّلالة على أنّ تلك العلامات خاصّةٌ بهم، تميّزهم عن سواهم، وذلك أنّه جعل في وجوههم سماتٍ تميّزهم[3]، والمعنى: "لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامةً، وهي السّمة"[4]. فلمّا كانت السّمات خاصّةً بهم، بحيثُ إنّها تكشفُهم وتميّزُهم عمّن سواهم، أضافها إليهم، وفي ذلك دلالةٌ على أنّ كلّ فريقٍ له سِمةٌ تميّزُه وتُضاف إليه.

سرّ تقديمِ الرّؤيةِ على المعرفة:

الرّؤية أبلغُ في المعرفة من الصّفات والعلامات

قُدِّمت الرّؤيةُ على المعرفة في قوله تعالى: ﴿لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم﴾؛ لأنّ معرفة أحدٍ ما برؤيته بصرًا أبلغُ من معرفته بالصّفات والعلامات، فقولُ الشّاهدِ: هذا هو الذي شهِدتُ عليه، أبلغُ من معرفتِه إيّاه بصفاته؛ فلمّا كانت الرّؤية أَبْلَغَ من العلامات والسّمات؛ قُدِّمَتِ الرّؤية عليها.

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 41.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 174.
(3) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 5/ 183.
(4) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 15.

سِرّ ذِكْر المعرفة بالسِّمَة بعد المعرفة بالرّؤية:

الجمع بينهما لدوام فَضْحِ حيَلِ المنافقين

ذَكَرَ النّظمُ الجليل المعرفةَ بالسّمةِ بعد المعرفة بالرّؤية في قوله جلّ شأنه: ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ﴾، مع أنّ المعرفة بالرّؤية أبلغُ من المعرفة بالسّمة، فكيف أكّد الأقوى بالأضعف؟ والجوابُ على ذلك: أنّ ذِكْر السّيماء جيءَ به للدّلالة على دوام المعرفة في المستقبل[1]، فلا يعتريها نسيانٌ أو اشتباه[2].

بلاغة العطف بالواو في قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾:

تعليق الرّؤية بمشيئته لا ينفي تحقّقَ العِلم بهم عن لحن القول

عطف النّظمُ الجليل المعرفةَ بلحن القول في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ﴾ على الجملة المستأنفة في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ٢٩﴾ [محمّد ﷺ: 29] بالواو العاطفة؛ لأنّه لمّا علّق المعرفةَ بهم بمشيئته بالفعل الماضي بقوله: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾، أتبعَهُ بما يُظْهِر كشفَ أمرِهم في المستقبل[3]. وفائدةُ هذا العطفِ: التّنبيهُ على أنّ تعليق المشيئة بـ (لو) قد يُفهَم منه عدمُ وقوعِها، فاحترسَ بالعطف على تحقّق تلك المعرفة بلحن القول، أي: "إن لم نُرِكَ إيّاهم بسيماهم، فَلَتَقَعنّ معرفتُك بهم من لحن كلامِهم، بإلهامٍ يجعلُه اللّه في عِلم رسولِه ﷺ، فلا يخفى عليه شيءٌ من لحن كلامهم"[4].

دلالة (اللّام) في قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾:

إعلامُ النّبيّ ﷺ بِمَكْنونِهِم الخبيث حقيقةٌ يُقْسَمُ عليها

عبّر النّظمُ الجليل باللّام الموطِّئة للقَسَم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ﴾، والقَسَم محذوفٌ، والتّقدير: ولتعرفنّهم واللّه[5]. أو: وبعزّتي وجلالي لَتَعْرِفنّهم. والغرضُ من حَذْفِ القَسَم

---

(1) البسيليّ، نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد: 3/ 531.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 41.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 253، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 233.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 121.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 59، والسمين الحلبي، الدّرّ المصون: 9/ 706.

والاكتفاءِ بجوابه الإيجازُ والاقتصاد في التّعبير. وممّا يُذْكَر في سرّ التّعبير باللّام في قوله: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ﴾؛ إفادةُ التّأكيد على المعرفة لمن استبعدَ ذلك منهم، أو ممّن شاركهم في مرض القلب من غيرهم.

دلالة توكيد الفعل المضارع ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ﴾:

المعرفة بأسرار القلوب ومكنونها لا تُعجِزُ علّامَ الغيوب

أكّد النّظمُ الجليل الفعلَ المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾؛ للرّدّ والإنكار على استبعاد مَن يستبعد تحقّقَ تلك المعرفةِ الكاشفةِ لأسرار القلوب، وجاء التّعبيرُ بصيغة المضارع للدّلالة على تجدّد المعرفة بحالهم، بحسب تجدّدِ أقوالهم، فهذه المعرفة مستمرة باستمرار ضمائرهم الخبيثة، وإسرارهم في لحن القول الصّادر منهم[1].

دلالة التّعبير بالظّرفيّة ﴿فِي﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ ﴿فِي﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾، وهي هنا للظّرفيّة؛ وذلك لإفادة تحقّقِ المعرفة في وقت تلبّسهم بلحن القول. ويجوز أن تكون دالّة على السّببيّة، أي: تعرفهم بسبب لحن القول.

دلالةُ التّعبير بـ﴿لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾:

يحرّفون الكَلِمَ ويُخفون مقاصدَه، ولكنّها لا تخفى على ذي اللّبّ الحصيف

عبّر النّظمُ الجليل بالمركّب الإضافيّ ﴿لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾؛ لأنّه يدلّ على معنى القول، والوجهِ الخفيّ من القول، وهو أسلوبٌ من أساليب القول المعروفة، لكنّه منحرف عن سبيل الصّواب[2]، فإنّ المنافقين عَمَدوا إلى التّحدّث بينهم بما يدلّ على ما عندهم، وما قَرَّ في قلوبهم من غير تصريح به[3]، فيُميلون كلامَهم ليَفْطَن لهم أصحابُهم الذين عَهِدوا مُرادَهم، ويخفى على مَن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 253.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 41.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 261.

لم يكن له عهدٌ بمُرادهم، فهو خطابٌ خفيّ يصحبُه حالٌ يُظْهِر المقصودَ من خطابه، ويعجز عن إخفائه على وجه التّمام[1]. ولأنّه يدلّ على ما يصدر منهم من معاني النّفاق، كقولهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: 13]، وقولهم: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: 8]؛ فهذه معانٍ تدلُّ على النّفاق، وليشملَ الوجهَ الخفيَّ من لحن القول الذي يفهمه النّبيّ ﷺ، ولا يفهمُه غيرُه[2].

سرّ إسناد اللّحن إلى القول دون الفعل:

القول وسيلة التّواصل الأقرب والأعمّ بين أفراد المجتمع

أسند القرآنُ الكريم اللّحنَ إلى القول دون الفعل؛ لأنّ القول هو وسيلةُ التّواصل بين الأفراد في المجتمع على وجه العموم، وبين رسول الله ﷺ من جهة، والمنافقين من جهة أخرى، ولمّا كان هذا القولُ قولًا خاصًّا في بيان العلاقة بين الرّسول ﷺ وبين المنافقين، حاول المنافقون إيجادَ أساليبَ يظنّون أنّها تَخْفَى عليه في المُراوغة والمُخادعَة تصريحًا أو تلميحًا؛ فعبّر القرآنُ بما يفضح سرائرَهم بلَحْن القول؛ بخلاف الفعل فليس محلًّا لذلك؛ فكانوا يأتون بالأفعال من صلاة وصيام ونحوِ ذلك على وجهها دونَ خَلَلٍ فيها؛ لأنّهم أجبنُ النّاس في أن يُعَرّضوا أنفسَهم للنّقد من عموم المسلمين إذا أَخَلّوا بظاهر الأفعال التّكليفيّة.

سرّ قَصْرِ معرفة المنافقين عليه ﷺ:

السّترُ عليهم، وفتحُ باب التّوبة لهم حفاظا على نسيج المجتمع

النّاظر في أسلوب الآية القرآنيّة يجد أنّ الكلام موجّه إلى الرّسول ﷺ في قوله: ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾، فكلّها موجّهةٌ للرّسول ﷺ دون المؤمنين؛ وذلك من باب السَّترِ عليهم، لعلّهم يتوبوا، ولمراعاة شعور أقاربِهم من المؤمنين المُخْلِصين، وللحفاظ على لُحْمَة المجتمع من التّفرّق والتّنازع.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 254.

(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 17/ 467.

دلالة الإضمار في الآية عن الذين في قلوبهم مرض دون الإظهار:

الإضمارُ مناسبٌ لسلوك المنافقين الباطنيّ، وللتّهوين من شأنهم

النّاظر في الآية بِدءًا من قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾ يجد أنّ القرآن عبّر عن الذين في قلوبهم مرض بضمير الغَيْبَة؛ وذلك من باب التّناسب مع سلوكهم؛ فأهلُ النّفاق لا يعيشون إلّا في الخفاء، ولا يكيدون للمسلمين إلّا بعد أن يُضْمِروا في قلوبهم الغِلّ والحِقد؛ فكان الإضمارُ مناسبًا لسلوكهم الباطنيّ، وللتّهوين من شأنهم؛ فليسوا أهلًا لأن يُصَرَّح بهم.

بلاغة الاحتراس:

يظهر في قوله: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ معنى الاحتراس، ممّا يقتضيه مفهومُ ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾ من عدم وقوعِ المشيئة لإراءَتِه إيّاهم بنُعوتِهم، ويكون المعنى: فإن لم نُرِكَ إيّاهم بسيماهم، فَلْتَقَعَنّ معرفتُك بهم من لحن كلامِهم، بإلهامٍ يجعله اللّه في علم رسولِه ﷺ؛ فلا يخفى عليه شيءٌ من لحن كلامهم[1].

دلالة تصدير فاصلة الآية بالواو:

عِلم الله لا نهاية له؛ فلا يُعجِزه كشفُ سرائرِ المسلمين

صُدِّرت فاصلةُ الآية بالواو في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾؛ لأنّها جملة مُستأنَفَةٌ سيقت تذييلًا للآية[2]، فإنّ ما ذكره تعالى من أمر المشيئة وتأكيد تَحَقُّقِ العِلم بحالهم وانكشافِه مؤكَّدٌ؛ لأنّ اللّه تعالى يعلم بأعمال عباده، لا يخفى منها شيءٌ عنه، فالعبارةُ حُكْمٌ عامٌّ، "وَبالجملة: اللّه المُطَّلِعُ بعموم أحوال عباده يَعْلَمُ منكم أعْمالَكُم ونيّاتِكم فيها، ومقاصدَكم عنها، فيُجازيكم على مقتضى علمه"[3]. ويجوز أن تكون الواو عاطفةً للدّلالة على أنّه سبحانه محيطٌ بالكلّ؛ فتكون الجملة معطوفة على ما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 121.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 122.
(3) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 331.

تقديره: فاللّه يعلم أقوالَكم ويعلم أعمالَكم" على قيل من أوجه في تقدير الواو(1).

الغرض من التّذييل:

عِلمُ الله بما يصنع العبادُ وعْدٌ ووعيدٌ، وتعليمٌ وتنبيه

ذيّل النّظمُ الجليل الآيةَ بقوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾، والمراد منه: تعليمُ عبادِه وإخبارُهم بأنّه يعلم ما يصنعون، كما أنّه يُشير إلى التّهديد والوعيد للعصاة، والتّبشيرِ والوعدِ للصّالحين، وفيه تنبيهٌ للمنافقين بأنّ اللّه تعالى يوشِكُ أن يفضح نفاقَهم(2)، كما أنّه تطمينٌ للمؤمنين بأنّ اللّه تعالى يعلم أعمالَهم، وأنّ حالهم ليس كحال المنافقين(3).

دلالةُ تقديم لفظِ الجلالة (الله) على المُسند الفعليّ:

عظَمةُ علم الله تدلُّ على شمول إحاطته

قَدَّم النّظمُ الجليل لفظَ الجلالة على المسند الفعليّ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾؛ وذلك لتأكيد الحُكم بإحالته إلى جملة اسميّة تدلّ على ثبوت المعنى، كما أفاد ذلك الدّلالةَ على تجدّد الحُكم بما دلّ عليه المسند الفعليّ، فجَمَعَ بين الثّبوت والتّجدّد في المعنى، فعِلْمُ اللّه تعالى ثابتٌ متجدّد في إظهار آثاره، من باب: أمور يُظهرُها ولا يُنشئها. وفي تقديم لفظ الجلالة التّنويهُ بعظَمة علمِه تعالى.

سرّ التّعبير بلفظ الجلالة دونَ لفظِ الرّبّ:

لفظُ الجلالة أوقعُ للمهابة في النّفوس، وهو الأنسب لزَجْر المنافقين عمّا يفعلونه

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بلفظ الجلالة (اللّه) في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ دون لفظِ الرّبوبيّة، بأن يقول: (ربّكم يَعْلَم أعمالَكم)؛ لأنّ لفظ الجلالة يدلّ على المهابة في القلوب، وهو المناسب لسياق القرآن في حديثه عن المنافقين؛ لزجرهم عمّا يفعلونه من لَحْنِ القول، بخلاف لفظ الرّبّ؛ فإنّه يأتي في مقام الإنعام والتّربية، وهذا غيرُ مراد في سياق الآية.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 175.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 122.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 101.

دلالة التّعبير بالعِلم مادّةً وصيغةً:

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالعِلْم بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾، والمراد من العلم لازمُه، وهو المجازاة؛ وذلك لأنّ الجزاء على العمل يتعلّق بالعِلم به[1]، فالإخبارُ بالعِلم بالأعمال إنّما يُراد منه الإخبارُ عن المجازاة عليها. وجاء التّعبير عن ذلك بالفعل المضارع للدّلالة على أنّ علمه تعالى بأعمال النّاس دائمٌ لا ينقطع[2].

علمُ الله دائمٌ لا ينقطع

دلالة التّعبير بالعمل مادّةً وصيغةً:

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالعمل بصيغة الجمع في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على أنّه تعالى سيُجازيهم على أعمالهم التي عملوها بقصدٍ ونيَّةٍ؛ لأنّ العمل ما عمله الإنسان قصدًا[3]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ ما صدر من المنافقين من المُخادعة والمُراوغة كان بقصدٍ؛ للتّقليل من شأن رسول الله ﷺ والمؤمنين. وجاء التّعبيرُ بصيغة الجمع للدّلالة على أنّ علمه تعالى يشمل جميعَ الأعمال، ما كان منها قولًا وما كان فعلًا، وما كان جَليًّا وخَفيًّا[4].

جميع ما قصدَه النّاسُ سيحاسبون عليه

دلالة الإضافة في قوله: ﴿أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾:

أضاف النّظمُ الجليل لفظَ الأعمال إلى ضمير المُخاطَبين في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على الأعمال التي يقوم بها العِبادُ، فهو يعلم أعمالَهم التي يعملونها[5]، فيكون هذا أبلغَ في مقاصد التّذييل من الوعد والوعيد والتّنبيه. فالعِلم بالأعمال التي تَخصُّهم أدعى لإيقاع العِظة والاعتبار لهم.

كلّ أعمالِ العِباد في حَيّز علمِه تعالى

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 42، والشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 48.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 122.
(3) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 255.
(5) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 5/ 184.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾ [محمّد ﷺ: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

معرفة بواطن المنافقين بلَحْن القولِ متبوعةٌ بإظهار سرائر النّاس جميعًا

لمّا أخبر ﷻ في الآية السّابقة أنّه يُري المنافقين لرسوله ﷺ بسيماهم وفي لَحْن القول؛ بيّن في هذه الآية بأنّه يُعَرِّفُهم لكافة المؤمنين بامتحانهم بالجهاد في سبيل اللّه[1].

ومنها: لمّا أخبر النّظمُ الجليل بأنّ اللّه تعالى يعلم أعمالَ عبادِه، وأنّ أمرَ المنافقين غيرُ خافٍ على مَن يفطن لِلَحْن أقوالِهم؛ أتبعه في هذه الآية بأنّه سيُظْهِر بواطنَ الجميع بابتلائهم بالجهاد، ليعلمَ الصّادقَ في الإيمان، والصّابرَ على مشاقّ التّكاليف من غيره[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾: (بلا، بلو، بلى) أصلٌ يدلّ على إخلاق الشّيء، وعلى اختباره[3]. وناقةٌ بِلْوُ سَفَرٍ، أي: قد أبلاها السَّفَرُ[4]. يقال: بَلِيَ الثّوبُ بِلًى وبَلاءً، أي: خَلَق، ومنه قيل لمن سافر: بِلْوُ سفرٍ، أي: أبلاه السّفر، وبَلَوْتُهُ: اختبرتُه، كأنّي أَخْلَقْتُه من كثرة اختباري له[5]. وبَلَوْتُ الرّجلَ بَلْوًا وبَلاءً وابْتَلَيْتَه: اخْتَبَرْتُه، وبَلاهُ يَبْلوه بَلْوًا: إذا جَرَّبَه واخْتَبَره[6]. ويكون البلاء في الخير والشّرّ. واللّه تعالى يبلي العبد بلاءً حسنًا وبلاءً سيّئًا؛ ليَختبرَ صبرَه وشُكرَه[7].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 175.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 69، وينظر: البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 256.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلوي).
(4) الخليل، العين: (بلو).
(5) الرّاغب، المفردات: (بلى).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (بلا).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلوي).

2) ﴿أَخۡبَارَكُمۡ﴾: (خبر) أصلٌ يدلّ على العِلم[1]، والخُبْرُ: العِلم بالأشياء المعلومة من جهة الخَبَر، قال تعالى: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ [التّوبة: 94]، أي: من أحوالكم التي نُخْبَرُ عنها[2]. وخَبَرتُ الأمرَ أَخْبُرُهُ: إذا عَرَفْتَهُ على حقيقته[3]. والخَبَرُ: ما أتاك من خبر عمَّن تَسْتَخْبِر. وجمعُه: أَخْبارٌ[4]. وليس في القرآن من التّركيب ما يخرج عن (الخُبْر) و(الخَبَر) و(الأخبار) و(الخبير) بمعنى العِلم بالحقيقة[5]. والمُراد به في الآية الكريمة: الخبر الذي يُحْكَى ويُخْبِر عن الأعمال[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الابتلاء لتحقيق التّمايز بين الصّادق والكاذب في الإيمان

يقول اللّه تعالى: ولَنختبرنّكم بالأمر بالجهاد وسائرِ التّكاليف الشّاقّةِ حتّى يتبيّنَ المجاهدُ الصّابرُ من غيره، ويُعرفَ ذو البصيرةِ في دينه من ذي الشّكّ والحَيرةِ فيه، والمؤمنُ من المنافق، ونبلوَ أخبارَكم؛ فيَمتازَ أهلُ الجهاد والصّبر على قتال أعداء اللّه، من غيرهم من المنافقين، وأنّه يبتلي أخبارَهم وأحوالَهم، فيظهر الصّادقُ من الكاذب[7].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾:

عِلْمُ الله بأعمال عباده غيبيٌّ وشُهوديٌّ

دلّتِ الواوُ على عطف جملة: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على جملة: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾، وفائدةُ هذا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خبر).
(2) الرّاغب، المفردات: (خبر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (خبر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خبر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خبر).
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 328.
(7) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 72، والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 195، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 510.

العطفِ الاحتراسُ ممّا قد يقع من التّوهّم للسّامعين من قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾، بأنّه استغناء عن التّكليف، فإنّ عِلْم اللّه تعالى يتعلّق بأعمال العِباد قبلَ وقوعِها وبعدَه[1].

دلالة اللّام في قوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾:

التّأكيد على تَحقُّق الابتلاء

عبّر النّظمُ الجليل باللّام الموطّئة لقَسَم محذوفٍ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ﴾، والتّقدير: واللّه لنَبلونّكم[2]، وذلك تأكيدًا لتَحقُّقِ الابتلاء.

سرّ التّعبير بالابتلاء دونَ الاختبار:

في الابتلاء يَميز اللّه أهلَ الطّاعة من أهل المعصية

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالابتلاء في قوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾ دون الاختبار؛ لأنّ الابتلاء نوعٌ من الاختبار، ولأنّ الابتلاء لا يكون إلّا بتَحمّل المكارِه والمشاقّ؛ بخلاف الاختبارِ فيكون في المحبوب والمكروه، ألا ترى أنّه يقال: اختبره بالإنعام عليه، ولا يقال: ابتلاه بذلك، ولأنّ الابتلاء يقتضي تمييزَ المطيعِ من العاصي؛ بخلاف الاختبار فإنّه يقتضي وقوعَ الإخبارِ عن حاله؛ لذلك آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالابتلاء؛ لأنّه هو المناسب في بيان أهل الطّاعة من أهل المعصية[3].

بلاغة المجاز في التّعبير بالابتلاء:

مشقّة التّكليف مُظْهِرةٌ للمُطيع من العاصي

عبّر النّظمُ الجليل بالابتلاء في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مجازًا عن التّكليف؛ لأنّ التّكليف يَلْزمُه الابتلاءُ، فالمُراد بالابتلاء الأمرُ والنّهيُ في التّكليف، فكما أنّ التّكليف يُظْهِرُ المُطيعَ من العاصي، فإنّ الابتلاء يَكشف الحقائقَ ويُظْهِر البواطِنَ، فسُمّي التّكليفُ ابتلاءً لذلك، على طريقة المجاز المُرسل[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 123.

(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 108.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلوي)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 10.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 123.

دلالة تأكيد الابتلاء وإسناده لنون التّعظيم:

ابتلاءُ الله لخلقه سُنّةٌ قَدَريَّةٌ

أكّد النّظمُ الجليل فعلَ الابتلاء في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ للرّدّ على ظنّهم بأنّ لديهم من الفِطنة والمَلَكة الشّديدةِ ومن كمال العقل ما يُخْفون به حالَهم عن سواهم، ولِلَفْتِ انتباهِ المؤمنين على وقوع الابتلاء لهم للتّمحيص، ولإظهارِ المطيعِ منهم من العاصي، وأسندَه إلى نون التّعظيم؛ للدّلالة على كمال الابتلاء، أي: نبتليكم بما لنا من صفات العَظمة[1].

دلالة التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾:

إخبارُ القرآن بالابتلاء قبلَ وقوعِه

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بالمضارع في قوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾؛ للإعلام بوقوع الابتلاء، ليوطِّنوا أنفسَهم عليه، ومِن ثَمَّ يكونوا مُؤهَّلين لتَحَمُّلِ مشاقِّ الجهاد، وليَصْبروا على آثاره. وعلى أنّ الخطاب للمنافقين، يكون من باب الزّجر لهم والتّخويف؛ حتّى يعودوا إلى رُشْدِهم.

دلالة التّعبير بـ ﴿حَتَّىٰ﴾:

غايةُ الابتلاء إظهارُ عِلْمِه وإقامةُ الحُجّة

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ للدّلالة على العِلّة، فعِلّةُ الابتلاءِ إظهارُ العِلْم[2]؛ لأنّها حرفٌ دالٌّ على الغاية[3]، فما بعدَها غايةٌ لما قبلَها، وهي مستعملة هنا في هذا المعنى.

بلاغةُ المجاز بالتّعبير بالعِلْم:

إظهارُ عِلم الله الغيبيّ إلى عالَم الشّهادةِ لإقامة الحُجّة

عبّر النّظمُ الجليل بالعِلم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ مجازًا عن الكشف والإظهار، فإنّ الله تعالى "قَدْ عَلِمَ قَبْلَ خَلْقِهم المجاهدينَ منهم والصّابرين، ولكنّه أراد العِلم الذي يقع به الجزاءُ؛ لأنّه إنّما يُجازيهم على أعمالهم. فتأويلُه: حتّى يعلمَ المجاهدين عِلْمَ شهادةٍ، وقد علمَ ﷻ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 256.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 123.

(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 234.

الغيب، ولكنّ الجزاءَ بالثّواب والعقاب يقع على عِلْم شهادة"[1].
فيكون العِلْم المُتحَقّقُ بالابتلاء عِلْمًا يُشاهدُه كلَّ أحدٍ، مطابقًا لما يعلمه اللّه تعالى في الغيب، فيُخْرِجُ بالابتلاء ما يُخْفونه من شأن الطّاعة والمعصية[2]. فالمرادُ من العِلم: ما يقع في الوجود ظاهرًا، تقوم به الحُجّة على النّاس بما يَصْدُر منهم[3].

دلالة (أل) التّعريفيّةِ في ﴿ٱلۡمُجَٰهِدِينَ﴾:

جميع المجاهدين في سائر الأعمال امتثالًا لأمر الله تعالى

عرّفَ النّظمُ الجليل المجاهدين بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ للدّلالة على جنس المجاهدين، أي: نَعرفُهم واحدًا واحدًا. كما أنّه يشمل جميعَ المجاهدين في سائر الأعمال؛ في القتال والشّدائد والأهوال، امتثالًا لأمر اللّه تعالى[4].

سرّ التّعبير بالاسميّة دونَ الفعليّة:

الاسميّة تدلّ على الثّبات والاستمرار في جهاد النّفس وكفّها عن شُبهات المنافقين

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بـ ﴿ٱلۡمُجَٰهِدِينَ﴾ دون (الذين جاهدوا)؛ لأنّ سياق الآية في جهاد النّفس، وكَفِّها عن شُبهات المنافقين، ومثلُ ذلك يناسبُه التّعبير بالاسميّة التي تدلُّ على الثّبوت؛ بخلاف التّعبير بقوله بالفعليّة: ﴿ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ﴾ [آل عمران: 142] كما ورد في سورة آل عمران؛ فإنّه جاء في سياق حديث القرآن عن غزوة أُحُد، والتّعبير بالماضي مع اسم الموصول يناسب سياقَ التّعقيب على الغَزوة، وهو حَدثٌ انتهى.

دلالة التّعبير بـ (مِنْ) في قوله: ﴿مِنكُمۡ﴾:

بيانُ جنس المجاهدين من عموم النّاس

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ (مِنْ) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وهي هنا

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 16.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 256.
(3) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 284.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 256.

بيانيّة، فهي تبيّن المجاهدين من غيرهم[1]، أي: المجاهدين من نوعكم وجِنسِكم، وهذا على أنّ المراد بالجهاد العموم؛ فيشملُ جهادَ النّفس، وجهادَ تركِ المعصية، ونحوَ ذلك. ويجوز أن تكون تبعيضيَّةً للدّلالة على أنّ المجاهدين بعضٌ من المؤمنين، وفي هذا دلالةٌ على أنّ الجهاد فرضُ كفاية.

دلالة العطف لقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

الصّبرُ عمودُ الجهاد وأصلُه

عطف النّظمُ الجليل (الصّابرين) على ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ لمناسبة أنّ الجهاد يقوم على الصّبر على المكاره، فهو عِمادُه، وفي هذا دليلٌ على التّلازُم بين الجهاد والصّبر؛ لذلك كان[2] العطفُ لتأكيد شِدّة الابتلاء التي تُظْهِرُ المُجاهدين الذين صبروا على المكاره والمَشاقِّ.

دلالة تعريف (الصّابرين) بـ (أل):

الصّبر عامٌّ في كلّ التّكاليف

عرّف النّظمُ الجليل لفظ (الصّابرين) بالألف واللّام، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وهي هنا لإفادة الجِنس، فيشملُ كلَّ مَن صبرَ على شِدَّة ما، سواءٌ كان ذلك في الصّبر على شدائد الجهاد، ومَن صبر على غيره مِنَ الأنكاد[3].

سرُّ التّعبير بـ (الصّابرين) دونَ (الذين صَبروا):

(الصّابرين) اسمُ فاعل يُفيد الثّبوتَ والاستمرار؛ لأنّ الصّبر مطلبٌ عامّ في كلّ عبادة

آثَر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بـ (الصّابرين) دونَ (الذين صبروا)؛ لأنّ الصّبر مطْلَبٌ عامّ في كلّ عبادة؛ فلا توجد عبادةٌ إلّا والصّبر مطلوب فيها، سواء كان الأمرُ يتعلّق بالطّاعة أو بتَرْكِ المعصية؛ لذلك عبّر بالاسميّة التي تُفيد الثّبوت والاستمرار؛ بخلاف التّعبير بالفعليّة التي تُفيد التّجدّدَ والحدوثَ، وهذا غيرُ مُرادٍ في هذا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 60.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 256، 257.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 256، 257.

السّياق؛ لذلك عَبّر بالاسميّة (الصّابرين)، وهو اسم فاعل؛ فيدلُّ على الفعل، وعلى مَنِ اتّصف به.

سرّ تخصيصِ (الصّابرين) بالذّكر، مع أنّ لفظَ ﴿ٱلۡمُجَٰهِدِينَ﴾ يتضمَّن ذلك:

ذِكْرُ الصّابرين بعد ذِكْر المجاهدين أفاد عمومَ الصّبر

خصّ القرآنُ الكريم (الصّابرين) بالذّكر، مع أنّ لفظ ﴿ٱلۡمُجَٰهِدِينَ﴾ يتضمّن ذلك؛ لإفادة معنًى زائدٍ على صبر الجهاد والقتال بالسيف، وهو الصّبرُ على جهاد النّفس، وعلى فعل الطّاعات وتركِ المعاصي، ولو اقتصر على لفظ ﴿ٱلۡمُجَٰهِدِينَ﴾ دونَ ذِكْر (الصّابرين) لكانتِ الإشارةُ إلى صبر الجهاد والقتال فقط؛ لكنّ ذِكْر الصّابرين أفاد العموم.

سرّ ذِكْر ﴿مِنكُمۡ﴾ مع المجاهدين دون الصّابرين:

الصّبر أمرٌ عامٌّ لكلّ مُكلَّف، وليس كذلك الجهاد

ذَكرَ القرآنُ الكريم الجارَّ والمجرور ﴿مِنكُمۡ﴾ مع المجاهدين دون الصّابرين؛ للدّلالة على أنّ أمر الجهاد يقوم به البعضُ وليس الكلّ؛ بخلاف الصّبر فهو أمرٌ عامٌّ، الكلُّ مشترِكٌ فيه.

سرّ حذفِ مُتَعَلّقِ ﴿ٱلۡمُجَٰهِدِينَ﴾ و(الصّابرين):

عدم ذِكر متعلّق (المجاهدين) و(الصّابرين) لإفادة العموم

لم يذكرِ القرآنُ الكريم في هذه الآية متعلّقَ الجهادِ كما هو شائعٌ في القرآن بأنّه في سبيل الله؛ وذلك لإفادة العموم، حتّى يشملَ جهادَ القتال للأعداء، وجهادَ النّفسِ لفعل الطّاعات وتركِ المعاصي. ولم يذكر متعلّقَ الصّبر كما ذُكِر في بعض المواطن في المصيبة؛ لإفادة العموم أيضًا.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَنَبۡلُوَاْ﴾:

للابتلاء عِلَلٌ وغايات

الواو في قوله: ﴿وَنَبۡلُوَاْ﴾ عاطفة لهذه الجملة على قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ﴾، من باب عطف البَلوِ على العِلم في قوله جلّ شأنه: ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾[1]، لما بينهما من الاشتراك؛ فكما أنّ الابتلاء يكشف المجاهدين والصّابرين ذواتًا،

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 267.

فكذا يكون الابتلاء مِسْبارًا للمعرفة للأخبار[1]. فبَلْوُ الأخبارِ علّةٌ ثانية للابتلاء بعد العلّة الأولى، وهي العِلم بذواتهم، فعَطَفَ العِلمَ بالأخبار على العِلم بالذّوات[2].

بلاغة تَكرار لفظِ الابتلاء:

ابتلاءُ الله مُؤكَّدٌ ومُحَقَّق

كرّر النّظمُ الجليل لفظَ البَلوِ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾؛ وذلك "للمبالغة في بَلوِ الأخبار لأنّه كناية عن بَلْوِ أعمالِهم، وهي المقصود من بَلو ذواتِهم، فذِكْرُه كذِكْر العامّ بعد الخاصّ، إذ تعلّقُ البَلوِ الأوّل بالجهاد والصّبر، وتعلّقُ البَلوِ الثّاني بالأعمال كلّها، وحصل مع ذلك تأكيدُ البَلوِ تأكيدًا لفظيًّا"[3].

أثرُ تعدّدِ القراءات في الأفعال الواردة في الآية:

قرأ شعبة بالياء التّحتيّة في الأفعال الثّلاثة ﴿وَلَيَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾ ﴿يَعۡلَمَ﴾ ﴿وَيَبۡلُوَاْ﴾، والباقون بالنّون ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾﴿نَعۡلَمَ﴾ ﴿وَنَبۡلُوَاْ﴾ مع فتح الياء، وقرأ رَوَيس بإسكان واو ﴿وَنَبۡلُواْ﴾[4]. ووَجْهُ من قرأ بالياء في هذه الأفعال: أنّها وافقت ما قبلَها من إسناد الفعل إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾؛ فكانت القراءةُ بالياء من باب الموافقة لما قبله. ووَجْهُ من قرأ بالنّون في هذه الأفعال أنّه جاء من باب الإخبار عن النّفس بلفظ الجمع؛ تعظيمًا وموافقةً لما قبله في قوله: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾؛ فهذه المواضع قُرِئَت بالنّون من باب الحَمل عليها.

ووجهُ قراءةِ رَوَيس عن يعقوب بإسكان الواو في قوله: ﴿وَنَبۡلُواْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾، على أنّه استئنافٌ، والمعنى: (وسنبلو أخباركم)، ووجهُ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 257.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 124.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 124، 125.

(4) القاضي، البدور الزاهرة: 2/ 840.

ذلك: الإشارةُ إلى أنّ إحالةَ حالِ المُخْبَر بعد ظهور خبرِه أسهلُ من إحالته قبلَ ظهوره[1].

بلاغة الكناية في قوله: ﴿وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾:

حُسْنُ الخبر وقُبْحُه على حسب المُخْبَر عنه، وهو العمل

تظهر بلاغةُ الكناية في قوله: ﴿وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ في إظهارها لِحَسَنِ الأخبارِ وقَبيحِها، وبذلك يكون الكلامُ كنايةً عن بلاء أعمالهم؛ فإنّ الخبر حُسْنُهُ وقُبْحُهُ على حسب المُخْبَرِ عنه؛ فإذا تميّزَ الحَسَنُ عن الخَبرِ القَبيح؛ فقد تميّز المُخبَر عنه، وهو العمل[2].

سرّ التّعبيرِ بـ ﴿أَخۡبَارَكُمۡ﴾:

التّعبير بالأخبار أعمّ من التّعبير بالأعمال

آثَر القرآنُ الكريم التّعبير بـ ﴿أَخۡبَارَكُمۡ﴾ دون (أعمالكم)؛ لأنّ الأخبار أعمّ من الأعمال، ويكون المرادُ بها أخبارهم عن إيمانهم وموالاتهم للمؤمنين؛ بخلاف التّعبير بالأعمال فهي أخصّ من الأخبار.

دلالة التّعبير بالجمع ﴿أَخۡبَارَكُمۡ﴾ دون الإفراد:

ابتلاء المنافقين لكلّ ما يصدر منهم من أقوال وأفعال، ظاهرة وباطنة

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالجمع في قوله: ﴿أَخۡبَارَكُمۡ﴾ دونَ الإفراد؛ لإفادة العموم في الابتلاء لكلّ ما يصدر منهم من الأقوال والأفعال الظّاهرة والباطنة.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿أَخۡبَارَكُمۡ﴾:

كشفُ أخبارِ المقصود بالخطاب موعظةٌ بليغةٌ

أضاف النّظمُ الجليل الأخبارَ إلى ضمير المخاطَبين في قوله جلّ شأنه: ﴿وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾؛ تصريحًا بأنّ مقصود الابتلاء هو أعمالُ المُخاطَبين أنفسِهم لا مطلق الأخبار، فيكون ذلك أوقعَ في الموعظة والتّرهيب.

(1) ابن أبي مريم، الموضح في وجوه القراءات: 3/ 1185، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 176.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 26/ 78.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢﴾ [محمّد ﷺ: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ذِكْرُ الكافرين بعد ذِكْر المنافقين

بعد أن ذَكرَ النّظمُ الجليل فيما سبق شأنَ المنافقين الذين يُسِرّون الكفرَ ويُظهرون الإسلامَ وفَرَغَ منهم؛ عاد في هذه الآية إلى الحديث عن الكفّار الذين يُعلنون كفرَهم ويُجاهِرون به.

ومنها: أنّه لمّا أخبر تعالى عن الكافرين فيما سبق بأنّه أضلَّ أعمالَهم، وأمرَ بضَرْبِ رقابِهم، وأنّ التّعْسَ لهم، وأنّ اللّه أهلك قرًى هي أشدّ منهم قوّة؛ بيّن في هذه الآية أنّهم لن يضرّوا اللّه تعالى شيئًا، وأنّهم لن يستطيعوا ضَرَّ رسولِ اللّه مع مُشاقّتهم له ﷺ[(1)].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَصَدُّواْ﴾: (صدّ) أصلٌ يدلّ على إعْراضٍ وعُدولٍ، وصددتُ فُلانًا عن الأمر، إذا عَدَلْتَهُ عنه. والصّدّانِ: جانبا الوادي، الواحد صَدٌّ[(2)]. وصَدَّ عنه يَصِدُّ صُدودًا: أعرض. وصَدّه عن الأمر صَدًّا، مَنَعَهُ وصَرَفَه عنه[(3)]. وصَدَدتُه عن كذا أصُدُّه صَدًّا، أي: عَدَلْتُه عنه وصَدَدْتُ عنه بنفسي صُدودًا[(4)]. والصّدُّ: المنع، مأخوذ من صَدّ الجبل، وهو ما يحول بينك وبينه. ومنه الصَّديدُ: وهو ما حالَ بين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 125.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صد).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (صدد).
(4) الخليل، العين: (صدد).

اللّحم والجِلد منَ القيح، وعليه قوله تعالى: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦﴾ [إبراهيم: 16][1]. والمراد به في الآية الكريمة: المنع عن الإسلام[2].

2) ﴿وَشَآقُّواْ﴾: (شقّ، شقق) أصلٌ يدلّ على انْصِداعٍ في الشَّيْءِ[3]، والشُّقَّةُ: النّاحية التي تَلْحَقُكَ المشقّةُ في الوصول إليها، قال تعالى: ﴿بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ [التّوبة: 42]، والشِّقاقُ: المخالفة، وكونك في شِقٍّ غير شِقّ صاحبِك، قال تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا﴾ [النّساء: 35][4]، والشِّقاقُ: الخِلافُ[5]، والمُشاقَّةُ والشِّقاقُ: غَلَبَةُ العداوةِ والخِلافِ، سُمّيَ ذلك شِقاقًا لأنّ كُلَّ فَريقٍ قصد شِقًّا غيرَ شِقِّ صاحبه[6]. والمُراد به في الآية الكريمة: العَداوَةُ والخِلافُ[7].

3) ﴿وَسَيُحۡبِطُ﴾: (حبط) أصلٌ يدلّ على بُطْلانٍ[8]، وأصله من قولهم: حَبِطَتِ الدّابَّةُ، إذا أكلَت أكلًا انتفخ بطنُها منه فماتت[9]، وحَبِطَ عملُهُ حَبْطًا بالتّسكين، وحُبوطًا: بطَلَ ثوابُه. والإحباط: أن يذهب ماءُ الرَّكيَّةِ فلا يعودَ كما كان[10]. وحَبِطَ عَمَلُه: فَسَدَ، وأحبَطَه صاحبُه، واللّه مُحْبِطٌ عملَ من أشْرَكَ[11]. والمُراد به في الآية الكريمة: إبطالُ العملِ[12].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مكايدُ الكافرين لا تَضُرّ الله شيئًا

يُؤكّد اللّه تعالى على أنّ الكافرين الذين أنكروا وحدانيّته،

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (صدد).
(2) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 76.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شق).
(4) الرّاغب، المفردات: (شق).
(5) الخليل، العين: (شقق).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (شقق).
(7) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 76.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حبط).
(9) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (حبط).
(10) الجوهريّ، الصّحاح: (حبط).
(11) الخليل، العين: (حبط).
(12) السّمعاني، تفسير السّمعاني: 5/ 184.

وجَحَدوا بآلائِه ونِعَمِه، ولم يَكْتَفوا بكُفْرِهم، بل ذهبوا يَصُدّون النّاسَ عن دينه، ويمنعونهم منِ اتّباعه، وأظهروا الخصومةَ للنّبيِّ ﷺ، فخالفوه وقاتلوه، بعد أنِ استبان لهم صدقُه، وظهرت لهم الآياتُ على - مبيّنًا أنّ أولئك الكافرين المُعرضين لن يضرّوا اللّه شيئًا، وأنّه تعالى سيُبطِلُ مكايدَهم التي نَصَبوها لإبطال دينه ومُشاقَّةِ رسوله، ولا يَصِلون بها إلى ما يبغون، ويُبْطِلُ ثوابَ أعمالِهم الحسنةِ التي عملوها في الدّنيا؛ لأنّهم لم يريدوا بها وجهَ اللّه تعالى[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ فصلِ هذه الجملة عمّا قبلَها:

الـحُـكـم على الكافرين بخيبة سعيهم تمهيدٌ لنَهي المؤمنين عن الوَهن

فصل النّظمُ الجليل جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها مستأنَفَةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ سيقَت للتّهيئة لما بعدَه من الأوامر في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾[2].

دلالة تأكيد الجملة بـ ﴿إِنَّ﴾:

ظَنُّ الكافرين الغالبةَ مدفوعٌ بتأكيد خُسْرانِهم

أكّد النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بحرف التّأكيد ﴿إِنَّ﴾؛ وذلك للرّدّ على ظنّهم على جهة اليقين بأنّهم هم الغالبون[3]، وأنّ سعيهم بصدّ النّاس عن سبيل اللّه سيُؤْتي ثمارَه، فدلّ التّأكيدُ على إنكار ظنّهم، وتخييب أملِهم. وفيه إشارةٌ للاهتمام بالخبر، ولفتِ الانتباه إلى التّفريق بين منِ اقتصروا على الكفر فقط، وبين من ضَمّوا إليه الصَّدَّ عن سبيل اللّه، ومشاقَّةَ الرّسول.

دلالة التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الكفر معهودٌ من المشركين ومن الضّالّين من أهل الكتاب

عبّر النّظمُ الجليل بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله جلّ شأنه:

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 196، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 510.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 125.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 258.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّهم قوم معهودون معروفون تعيينًا، والمُراد بهم اليهود من بني قريظةَ والنَّضير[1]، فقد عُهِد منهم الكفرُ حتّى صاروا معروفين بالصّلة في حيّز الموصول. أو المُراد الكفّارُ المذكورون في صدر السّورة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ١﴾ [محمّد ﷺ: 1]، وفيما بعدَه من الآيات، فعاد الكلامُ إليهم بعد الفراغ من ذِكْر المنافقين[2].

دلالة التّعبير بالكفر مادّةً وصيغةً:

حَجْبُ الأدلّةِ الظّاهرة عادةٌ راسخةٌ في الكافرين والضّالّين

عبّر النّظمُ الكريم بالكفر في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالة على أنّهم جحدوا الآيات وغطّوا الدّلائل الظّاهرة في تأييد النّبيّ ﷺ[3]، وأوثِر التّعبيرُ بصيغة الماضي للدّلالة على رسوخهم بالكفر وتحقّقه بهم.

سرّ التّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون (الكافرين):

لذَمّهم وتقريعهم والتّأكيدِ على رسوخ الكُفر في قلوبهم وتمكّنه منهم

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون (الكافرين)؛ للإشارة إلى ذَمّهم وتقريعهم على ما فعلوا من الكفر الذي رسخ في قلوبهم وتمكّن منهم، فما عادوا أهلًا لقَبول الإيمان.

دلالة حَذْفِ متعلّق ﴿كَفَرُواْ﴾:

عمومُ كفرهم بكلّ ما أُمِروا بالإيمان به

لم يذكر القرآنُ الكريم متعلّقَ الفعلِ ﴿كَفَرُواْ﴾؛ لإفادة العموم، فكفرُهم لم يقتصر على الكفر باللّه تعالى وبرسوله؛ بل كَفَروا كلَّ نعمةٍ أنعم اللّه بها عليهم؛ فجمعوا بين كُفْرِ العقيدة وكُفْرِ النّعمة.

دلالة العطف في قوله: ﴿وَصَدُّواْ﴾:

عطف النّظمُ الجليل الصّدّ على الكفر في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالة على أنّهم لم يكتفوا

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 124.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 126.
(3) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 34.

بالكفر والجُحود، بل عملوا على منع غيرهم مِن اتّباع الحقّ، فالتّصريحُ بصَدّهم عبارةٌ عن بيان زيادة كفرهم، وإصرارِهم على الباطل[1]. وفي هذا إشارةٌ إلى التّفريق بين الكافر الذي لا يتجاوز كفرُه إلى غيره، والكافرِ الذي يمنع غيرَه منَ الدّخول في الإسلام، بأن يَصُدَّه عن الإيمان بالرّسول والقرآن.

مـنـعُ الـنّـاسِ مِن اتّباع الحَقّ إصرارٌ مِنَ الكفّار على كُفْرهم

دلالة التّعبير بالصّدّ:

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالصّدّ دونَ غيره في قوله تعالى: ﴿وَصَدُّواْ﴾؛ لأنّ الصّدّ في اللّغة يدلّ على الإعراض والعُدول والمَنع؛ تقول: صددتُ فلانًا عن الأمر، أي: منعتُه وصرفتُه عنه، وهذا ما كان يفعله الكافرون من صَدّ النّاسِ عن الإيمان باللّه وبرسوله، وذلك بأن يجعلوا حائلاً بين النّاس وبين رسول اللّه والمؤمنين، سواءٌ كان ذلك الحائل مادّيًّا أو معنويًّا، وذلك ليدخلَ ما كان يفعله كفّارُ مكّةَ من صَدّ النّاس عن الإيمان بالقوّة، وما كان يفعله المنافقون بالحيَل والتّشكيك في أمر النّبوّة والكتاب.

الصّدّ عن سبيل الله منعُ النّاس عـن الإيـمـان بـالـقـوّة، أو منعهم بالحيلَةِ والتّشكيك

دلالة التّعبير بالماضي (صدّوا):

جاء التّعبير بالماضي في قوله: (صدّوا) للدّلالة على رسوخ الكفر ومحاربة الإسلام في قلوبهم، وأنّهم بذلوا لهذا الصّدّ كلّ الأسباب، حتّى صار طريقًا لهم في العدوان على رسول اللّه وعلى المسلمين، ولإبراز الموافقة في التّركيب الأسلوبيّ بين ﴿كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾.

رسـوخ الـكـفـر ومـحـاربـةِ الإسـلام في قلوب المنافقين

سرّ تقييد الصّدّ بشِبه الجملة:

قيّد النّظمُ الجليل الصّدّ بشِبه الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالة على شناعة صنيعهم، فلم يصدّوا النّاسَ عن منهاج يمكن أن يُترَك أو يتّصفَ بالنُّقصان وعدمِ

الصّدّ عن سبيل الـلـه أشـدّ من مطلق الكفر به

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 258، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 74.

الصّلاح، بل منعوهم مِن اتّباع نهجِ ربِّهم الذي ارتضاه لهم، وهذا أشنعُ من مطلق الكُفر.

سرّ التّعبير بالسّبيل دونَ الطّريق:

أعظِم بسبيلٍ منسوب إلى خالق النّاس، صالحٍ وجديرٍ بالاتّباع

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالسّبيل في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالة على أنّه طريق واضح صالح للنّاس، فقد نهجَه اللّه تعالى لهم، وهو الملِك الأعظم[1]، ولأنّ الخير والرّشاد فيه، وهذا واضحٌ في سياقات القرآن الكريم، بأنّ تعبير ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يحمل معانيَ الهُدى والرّشاد والسّهولة.

دلالة إضافة السّبيل إلى لفظ الجلالة:

تعظيمُ السّبيلِ وتزكيتُه، والتّشنيعُ على مَن صَدّ عنه

دلّت إضافةُ السّبيل إلى لفظ الجلالة في قوله: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على تزكية هذا السّبيل وتعظيمه، فهو سبيلٌ وأيّ سبيل، فهو الذي ينبغي لكلّ ذي لُبّ سلوكُه؛ لأنّه السّبيلُ الذي يصلح أن يُتّبع؛ لما فيه من الخير واليسر. كما أنّ في الإضافة زيادةً في التّشنيع على صدّهم النّاسَ عنه.

دلالة عطف المُشاقّة على الكفر والصّدّ:

حشدُ الصّفاتِ المذمومة دليلٌ على قُبْح أفعالهم

عطف النّظمُ الجليل المشاقّةَ على الكفر والصّدّ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾؛ لبيان أنّهم "مع كفرهم وضلالهم في أنفسهم قد صَدّوا وصرفوا عَنْ سَبيلِ اللّه ضعفاءَ عبادِه، ومع ذلك شاقّوا وخاصموا الرَّسولَ المرسلَ من عنده سبحانه، المبعوثَ إليهم للإرشاد والتّكميل"[2]، فدلّ العطفُ على حشد صفات تمرُّدهم وقبيحِ أعمالهم؛ إيغالًا في التّشنيع عليهم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 258.
(2) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 331.

دلالة التّعبير بالفعل (شاقّوا) مادّةً وصيغةً:

مخالفةُ المنافقين للنّبيّ ﷺ مناوأتُهم له صفةٌ راسخةٌ فيهم

عبّر النّظمُ الجليل بالمشاقّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾؛ للدّلالة على مخالفتهم النّبيَّ ﷺ، وأنّهم كانوا في جانبٍ مناوئٍ للنّبيّ ﷺ، وجاء التّعبيرُ عن ذلك بصيغة المفاعلةِ؛ للدّلالة على أنّ كِلا الفريقين مخالفٌ للآخر، فالكفّارُ مستقرّون بشِقٍّ، والنّبيُّ ﷺ مستقرٌّ بشِقّ آخر[1]. وفيه إشارةٌ إلى مبالغتهم في المُشاقّة والمخالفة لرسول اللّه ﷺ، ممّا يدلّ على بُعدهم عن الهداية والإيمان، ويُؤكّد ذلك التّعبيرُ بصيغة الماضي (شاقوا)، الذي يدلُّ على رسوخ هذا الفعلِ فى سلوكهم العدوانيّ مع الرّسول ﷺ.

سرّ إيثارِ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾، ودلالةُ تعريفِه باللّام:

الـكـمـالُ في الرّسالة يقتضي اتّباعَ الرّسول، لا الكفرَ به ومشاقّتَه

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالرّسول دونَ النّبيّ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾؛ لأنّ الرّسول يدلّ على أنّه مُحمّلٌ برسالة، والتّعريف فيه دلّ على كمال الرّسالة، وأنّه في غاية المعرفة[2]، فهو تفخيمٌ لشأن النّبيّ ﷺ، ويؤول ذلك إلى تشديد التّشنيع عليهم؛ لاجترائهم على هذه المشاقّةِ والمخالفةِ لرسول اللّه ﷺ.

سرّ اقتصار نسبةِ المشاقّةِ مع ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ دونَ لفظ الجلالة:

بيان عُلوّ قَدْرِه ﷺ، ورفعةِ مكانته، وجَعْلُ مشاقّتِه كمشاقّة الله

النّاظِرُ في الآية يجد اقتصارَ نسبةِ المشاقّةِ مع ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ ﷺ في قوله: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾، دون نسبتها إلى اللّه تعالى كما ورد في آيات أخرى؛ مثل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ [الأنفال: 13]، وقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 13]؛ وذلك لبيان عُلوّ قَدْرِه ﷺ، ورِفعةِ مكانته؛ حيثُ جعل مشاقّةَ الرّسولِ كمَن يشاقّ اللّه تعالى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 125.

(2) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 34.

دلالة التّرتيب بين أفعال الكافرين في الآية:

أفعالُ المنافقين المذمومة مقصودةٌ

النّاظر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ يجد ترتيبَ أفعالِ الكافرين بدءًا بالكفر وانتهاء بالمشاقّة، وهذا يُدَلِّلُ على أنّ أفعالهم المذمومةَ مقصودةٌ؛ فهم كفروا باللّه أوّلًا، ثمّ تمادَوا في كفرهم، فصدّوا النّاسَ عن سبيل اللّه، ولمّا لم يجدوا لذلك سبيلًا يشفي غليلَهم، بالغوا وشاقّوا رسولَ اللّه، بإعلانِ العداوةِ الظّاهرةِ؛ فجعلوا أنفسَهم في شِقٍّ ورسولَ اللّه في شِقّ آخَر.

سرّ تقييد المشاقّةِ بشِبه الجملة:

الإعراض والمُشاقّةُ عن إصرارٍ وعِنادٍ لا عن شُبهة

قيّد النّظمُ الجليلُ مشاقّةَ الكفّارِ للنّبيّ ﷺ بأنّها حصلت بعد ظهور الهدى وتبيّنه في قوله جلّ شأنه: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾؛ وذلك للدّلالة على أنّهم صدّوا وأعرضوا وخاصموا النّبيَّ ﷺ، لا عن شُبهة صدرت عنه تدلّ على كَذِبه وافترائه، بل أعرضوا عنه وخاصموه بعد أن ظهر لهم الهدى، وثبتَ عندهم صِدقُه وهدايتُه[1]. فبيّن هذا القيدُ شِدّةَ كفرِهم وإصرارهم عليه.

دلالة التّعبير بـ ﴿مِنۢ﴾:

إعلانُهمُ الكفرَ والمُشاقّةَ بعد ظهور الحقّ ووضوحِه

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ ﴿مِنۢ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾، وهي هنا لابتداء الغاية الزّمانيّة[2]، أي: ابتدأ خصامُهم وشقاقُهم بعد تبيّنِ الحقّ وظُهورِ الهُدى. وجَعلَها الإمامُ البِقاعيُّ دالّةً على التّبعيض، فقال: "ولمّا كان سبحانه قد عفا عن إهمال الدّليل العقليّ على الوحدانيّة قَبْلَ الإرسال، قال مُثبتًا الجارَّ؛ إعلامًا بأنّه لا يغفر لمُضيّعه بعدَ الإرسال ولو في أدنى وقتٍ"[3].

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 331.

(2) قباوة، المفصّل، ص: 1800.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 258.

دلالة التّعبير بالمصدر المؤوّل:

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالمصدر المُؤوّل دونَ المصدر الصّريح في قوله جلّ شأنه: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾، فلم يقل: (من بعدِ تبيُّنِ الهدى)؛ وذلك لدلالة الفعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ على حدوث البيان ووقوعه، "بحيثُ صار ظاهرًا بنفسه غيرَ محتاج ما أظهرَهُ الرّسولُ من الآيات الظّاهرة"[1]. فهو تأكيدٌ لظُهور الحُجّة عليهم ظهورًا متدرِّجًا، وقع شيئًا فشيئًا، بحيثُ يُتيح لهم زمانَ وقوعِه إدراكَه والتّحقّقَ منه، ولكنّهم أصَرّوا واستكبروا استكبارًا.

ظهور الهدى وحصولُه بزمان يتيح لهم إدراكَ الحقّ فيه

دلالة التّعبير بالفعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ مادّةً وصيغةً:

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالفعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾؛ لإقامة الحُجّة عليهم في أنّ ما فعلوه من المشاقّةِ والكُفر والصّدّ لم يكن عن جهل؛ بل عن إصرار وعِناد؛ لأنّ التّبيين يدلّ على الظّهور والوضوح؛ لذلك جاء على صيغة (تَفَعَّل) التي تُبْرِز معنى الوضوحِ والظّهورِ في إقامة الحُجّة عليهم، من خلال الآيات والأدلّة.

إقامةُ الحُجّة عليهم في أنّ ما فعلوه من المشاقّةِ والكُفر والصّدِّ لم يكن عن جهل

الغرض من تقديم شِبه الجملة على الفاعل:

قدّمَ النّظمُ الجليل شِبهَ الجملة من الجارّ والمجرور على الفاعل في قوله جلّ شأنه: ﴿تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾، فلم يقل: (تبيّن الهدى لهم)؛ وذلك لتخصيص ظهورِ الهُدى لهم، فكأنّ الهُدى ظهرَ لهم على وجه الخصوص، فلو كان أحدٌ تظهر له الهدايةُ لكان هم دونَ سواهم، لما أتاهُم به النّبيُّ ﷺ من الحُجَج والبراهين مع القرآن الكريم. كما أنّ تقديم شِبهِ الجملة المتضمِّنةِ الضّميرَ العائدَ لهم اهتمامٌ بهم؛ لأنّ السّياق جرى في الحديث عنهم وعن كُفرِهم وضلالِهم، فكان تقديمُ ذكرِهم أولى.

اختصاصُهم بظُهور الهدى لهم، لشُهودهمُ النّبيَّ ﷺ بينَهم

---

(1) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 34.

سرّ التّعبير بالهدى، ودلالةُ اللّام فيه:

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالهدى دون غيره؛ لأنّه يحمل في طيّاته الكثيرَ من المعاني من الرّشاد والدّلالة، وذلك من خلال الآيات الحِسّيَّة والمعنويّة التي جاء بها الرّسولُ ﷺ. وفي التّعبير بالهدى إشارةٌ إلى أنهم على الضّلال؛ حيثُ تركوا أسبابَ الهداية.

وعرّف النّظمُ الجليل ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ لدلالتها على الجنس، أي: وقع الهدى كلُّه لهم، وفيه تفخيمٌ لشأنه، فهو الهدى الوحيدُ الجديرُ بالاتّباع.

دلالة التّعبير بخبر ﴿إِنَّ﴾ جملةً فعليّة:

عَجْزُ الكافرين عن الضّرر مستمرٌّ لا ينتقض يومًا

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن الضّرر المنفيِّ بالجملة الفعليّة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾؛ وذلك للدّلالة على تجدّد النّفي واستمراره، فإنّ الكافرين غيرُ مُسْتَطيعينَ تحقيقَ ضَررٍ بكفرهم للّه تعالى.

دلالة النّفي بـ ﴿لَن﴾:

لا يبلغ ضَرُّ الكافرين إلى الله تعالى مهما طال الزّمان

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بنفي المضارع بحرف النّفي ﴿لَن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ لأنّها تنفي المستقبلَ، فدلّ على أنّهم ليسوا بقادرين على فعل ما يضرُّ اللّه تعالى في مطلق الزّمان حتّى منتهاه، وفي ذلك تيئيسٌ للكافرين، وبشرى للمؤمنين بأنّهم لن ينالَهم أذًى من الكفّار.

دلالة التّعبير عن نفي الضَّرّ بالمضارع:

كفرُ الكافر لا يضرّ الله شيئًا مهما تطاول الزّمان

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن نفي الضَّرّ بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾؛ للدّلالة على تجدّد النّفي واستمراره، فانتفاءُ وقوعِ الضَّرّ الآنَ ومستقبلًا متجدّدٌ مستمرّ، وهذا تبكيتٌ وتأييس لهم.

الغرض من التّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾:

ذو الكمال والعزّة والجلال لن يلحقَه ضَرٌّ من الخَلْق

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالاسم الجليل في قوله جلّ شأنه: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾؛ تذكيرًا للسّامع بأنّه ملكُ الملوك، فأنّى يلحقُه ضرُّ الكافرين به[1]. وفيه تأكيدٌ لعدم استطاعتِهم إلحاقَ ضررٍ ما؛ فإنّ اللّه تعالى ذا العِزّة والجلال والكمال لا يَلحَقُه ضررٌ من خَلْقِه بكفرهم، ولا نفعٌ من إيمانهم.

الغرض من التّعبير بالشّيء وتنكيره:

لن يبلغوا أن يَضرّوا الله شيئًا مهما قلّ مقدارُه

عبّر النّظم الجليل بلفظ الشّيء في قوله جلّ شأنه: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾؛ وذلك للدّلالة على أنّهم لن يضرّوا اللّه تعالى شيئًا من الأشياءِ، أو شيئًا من الضّرر[2]، ولا بأيّ مقدار من الضّرر مهما قلّ.

سرّ التّعبيرِ بقوله: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾، دون أن يقول: (لن يضروكم):

نفي ضُرِّ الكافرين لله تعالى طمأنةٌ للرّسول وللمؤمنين

جاء التّعبيرُ القرآنيّ بنفي ضررِهم للّه تعالى في قوله: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾، دون أن يقول: (لن يضروكم)، مع أنّ ذلك هو مقصودُهم؛ لطمأنة الرّسول والمؤمنين، وأنّ فعلهم مع اللّه في زعمهم بإيقاع الضّرر عليه سبحانه دليلٌ على قُبح فكرِ هؤلاء.

دلالة العطف بالواو في قوله: ﴿وَسَيُحۡبِطُ﴾:

ضياعُ الجهودِ في الدّنيا متبوعٌ بضياع الأُجور في الآخرة

عطف النّظمُ الجليل الإحباطَ على انتفاء الضّرِّ في قوله جلّ شأنه: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، فلمّا نفى عنهم قدرتَهم على إلحاق ضررٍ باللّه المنزّهِ في ذاته عن ذلك، أتبعَه ببيان شِدّة خُسرانهم وكمالِه، وبُطلان سعيهم بما حاكوه من مكايد للإضرار بالنّبيّ ﷺ، فإنّهم لن يصلوا إلى مقاصدهم منها، بل إنّهم لن يروا إلّا القتلَ والجلاءَ عن أوطانهم[3].

---

(1) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 34.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 101.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 124، والنّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 331.

إبطال الأعمال واقـعٌ على وجه اليقين الأكيد

دلالة التّعبير بحرف الاستقبال:

أدخل النّظمُ الجليل حرفَ التّنفيس الدّالَّ على الاستقبال في قوله جلّ شأنه: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، وهو هنا مستعمَلٌ للدّلالة على تأكيد تحقيق الفعل؛ وذلك لأنّ اللّه تعالى أبْطَلَ أعمالَهم من الآن، فاللّه تعالى لا يُعجزه ذلك حتّى يتوعَّدَهم به في المستقبل(1). وفي التّعبير به طمأنةٌ لرسول اللّه وللمؤمنين بأنّهم في مأمن من عدوان هؤلاء؛ لأنّ اللّه يُبطِل أعمالَهم التي يعملونها ضِدّكم، وتوبيخٌ وتبكيت للكافرين؛ لأنّ ما قدّموه من أعمال يظنّون فيها الخيرَ، يحبط اللّه ثوابَها لهم في الآخرة.

إبطالُ الأعمال بسبب الكفر من صـفـات الـحـقّ الدّائمة

دلالة التّعبير بالإحباط مادّةً وصيغةً:

عبّر النّظمُ الجليل بالحُبوط في قوله جلّ شأنه: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ دون غيره كالبُطلان؛ لأنّ الحُبوط أعمّ، فيشملُ حبوطَ كلِّ أعمالِ الكافرين، سواء كانت أعمالهم دنيويّةً أو أُخرويّةً في زعمهم؛ فإنّها لا تُغْني عنهم شيئًا، وتكون يومَ القيامة كالهباء المنثور؛ يُؤكّد هذا أنّ الحُبوط يدلّ على البُطلان والخُسران؛ فكما أنّ الدّابّة تكثر الأكل من الحَبَطِ حتّى ينتفخَ بطنُها بسبب الطّعام(2)، ويُسبّب لها الخُسران، فكما خسرت الدّابةُ الانتفاعَ من الطّعام فاستحال ضَررًا عليها، فكذلك الكافرُ يبطل عملُه فلا ينتفع منه.

أمّا البُطلان فلا يؤدّي هذا المعنى؛ لأنّه يكون لِمَن فقد شروط الصّحّة وهو في مقابلة الحقّ، وأعمالُ الكافرين لا تُبْنَى على الحقّ؛ لذلك ناسبَ التّعبيرُ بالحبوط دونَ البُطلان. وجاء التّعبير بالفعل المضارع للدّلالة على تجدّد ذلك واستمرارِه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 126، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 196.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حبط).

دلالة التّعبير بالأعمال جمعًا، وإضافتُها للضّمير:

شمول الإحباط لجميع أعمال الكافرين

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن الأعمال بصيغة الجمع في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾؛ للدّلالة على شمول الإحباط لجميع الأعمال، كالمكايد والغوائل التي قصدوا بها النّبيَّ ﷺ، ويتناول ما قاموا به من أعمال الخير كإطعام الطّعام، وصلة الأرحام، وغيرها(1). فكلّ أعمالِهم تلك تذهب أدراجَ الرّياحِ. وقد دلّت إضافتها إلى ضمير الغائبين أنّها الأعمال التي صدرت عنهم، وانتسبت لهم(2).

سرّ اختلاف التّعبير في إحباط الأعمال:

التّعبير بالماضي إشارةٌ إلى أنّ الإحباط في الدّنيا، والتّعبيرُ بالمضارع يكون للمستقبل

النّاظر في آيات سورة محمّد ﷺ يجد اختلافَ التّعبير عنها؛ حيثُ عبّر في أوّل السّورةِ بالفعل الماضي في قوله: ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩﴾ [محمّد ﷺ: 9]، وفي الآيات الأخيرة من السّورة عبّر بقوله: ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾؛ حيثُ اختار المضارع، وفيما مضى اختار الماضي، وسرُّ ذلك: أنّ التّعبير بالماضي إشارةٌ إلى أنّ الإحباط في الدّنيا، والتّعبيرُ بالمضارع يكون للمستقبل. ويجوز أن يكون المرادُ بالذين كفروا في أوّل السّورة (المشركون)، ومن أوّل الأمر كانوا مبطلين لأعمالهم؛ لأنّها كانت على غير شريعة، وفي الموضع الأخير يكون المُراد (الذين كفروا من أهل الكتاب)، وكانت لهم أعمالٌ قبلَ الرّسول ﷺ؛ فأحبطها الله تعالى بسبب تكذيبهم للرّسول ﷺ. ويجوز أن يكون المُراد بالأعمال في أوّل السّورة ما ظنّوه من الأعمال الحَسَنة، وفي الموضع الأخير مكايدُهم في القتال، والله سيبطلُها بنصر رسوله والمؤمنين. ويجوز أن يوَجَّه اختلافُ التّعبير على أنّ حصول الإحباط في المستقبل يدلّ على أنّ الله محبِطٌ أعمالَهم منَ الآن(3).

(1) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 76.
(2) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 331.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 325، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 43.

﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٣﴾ [محمّد ﷺ: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

دعوةُ المؤمنينَ إلى حفظِ أعمالهم بعد ذِكْر بُطلان أعمال المشركين

لمّا ذكر النّظمُ الجليل في الآية السّابقة حالَ المشركين في صدّهم عن سبيل الله تعالى ومشاقّتِهم النّبيَّ ﷺ، أتبعَهُ في هذه الآية بخطاب المؤمنين بالأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ؛ ليجتنبوا ما يُبطل أعمالَهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُبۡطِلُوٓاْ﴾: (بطل) أصله يدلُّ على ذهاب الشَّيء وقِلَّة مُكْثِه ولُبْثِه[2]، يُقالُ: بَطَلَ الشَّيءُ: ذهبَ ضياعًا وخُسْرًا[3]، وذهب دَمُهُ بُطلًا؛ أي: هَدَرًا؛ وذلك إذا قُتِل ولم يُؤخَذْ له بثأرٍ ولا دِيَة[4]. والإبطال: إفسادُ الشّيء وإزالتُه، حقًّا كان أو باطِلًا، قال الله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ [الأنفال: 8]، وقولُه تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٧٨﴾ [غافر: 78] أي: الذين يُبطلون الحقّ[5]. والمُراد به في الآية الكريمة: إفسادُ الأعمالِ وجَعْلُها بلا فائدة[6].

المَعنى الإجماليُّ:

طاعةُ الله ورسولِه سبيلُ قَبولِ الأعمال

يقول الله تعالى مُخاطِبًا المؤمنين: يا أيّها الذين آمنوا وصدَّقوا بوحدانية الله تعالى، وصدّقوا بالنّبيّ ﷺ فيما جاء على لسانه من الشرائع وأخبر به عن الله تعالى - أطيعوا الله الذي تؤمنون به،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 127.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطل).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بطل).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (بطل).
(5) الرّاغب، المفردات: (بطل).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 127.

وأطيعوا الرّسول الذي صدّقتم بدعوته، فاتّبعوا ما أمروا به، وانتهوا عمّا نهوا عنه(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ فصلِ هذه الآية عمّا قبلها:

طاعةُ الله ورسوله تُجَنِّبُ المؤمنين بُطلان أعمالِهم

فُصِلت هذه الآيةُ عمّا قبلَها؛ لكونها اعتراضًا بين الآية السّابقة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾، واللّاحقة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾، وفائدةُ هذا الاعتراضِ توجيهُ الخطاب إلى المؤمنين بالطّاعة؛ ليتجنَّبوا إبطالَ أعمالِهم الصّالحةِ، كما حَكَى من حال المشركين الذين أُبطلَت أعمالُهم(2).

الغرض من التّعبير بأسلوب النّداء:

تنبيهُ الأذهان إلى خطورة مضمونِ البيان

افتتح النّظمُ الجليل الآيةَ بالنّداء في قوله جلّ شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾؛ للتّنبيه على أهمّيَّة مضمونِ الخطاب، استجلابًا للسّمع، وإيماءً إلى أنّه ينبغي الاهتمامُ به، ودعوةً للمؤمنين إلى أن يجمعوا قلوبَهم وعقولَهم إلى تلقّي ما بعدَ النّداء بالسّمع والطّاعة.

سرّ نداءِ المؤمنين بصفة الإيمان:

تحفيز المؤمنين لتلقّي الأوامر الإلهيّة بالقَبول

نادى القرآنُ أهلَ الإيمان في قوله جلّ شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ بصفة الإيمان؛ تذكيرًا لهم بأنّهم أقرّوا وصَدّقوا(3)، وإشارةً إلى الإيمان الذي أوجب عليهم الطّاعةَ، التي هي من لوازم الإيمان وأعماله، فإنّه من "مقتضى إيمانكم إطاعةُ الله وإطاعةُ رسولِه"(4). وفيه إشارةٌ إلى أنّ الأمر بالطّاعة لله

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 74.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 126، 127.
(3) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 34.
(4) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 332.

وللرّسول تكتنفُه بعضُ الصّعوباتِ والمشاقّ، ولا يستطيع تَحَمُّلَها إلّا من أوتيَ صفةَ الإيمان.

دلالة الأمر بالطّاعة:

الامتثال لتعاليم الشّريعة واجبٌ على المؤمنين

أمَرَ اللّه تعالى المؤمنين بالطّاعة في قوله جلّ شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾؛ للدّلالة على وجوب الامتثال لما أُمروا به ونُهوا عنه من أحكام الشّريعة والدّين[1]، كما أنّ في الأمر بالطّاعة مقابلةً لما ذُكِر من مشاقّة الكفّار للنّبيّ ﷺ[2]، فيكون إشارةً إلى أنّ عدم الطّاعةِ هو سبيلٌ للمشاقّة، وفي ذلك تبكيتٌ وتقريعٌ للكافرين وللمنافقين؛ لأنّهم لم يلتزموا طاعةَ اللّه وطاعةَ رسولِه.

دلالة إسناد الطّاعة إلى اسم الجلالة:

ذِكْرُ المَلِكِ الأعظم مُشَوِّقٌ لامتثال الأمر

أسند القرآنُ الكريم الطّاعةَ إلى اللّه ﷻ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾؛ تذكيرًا لهم بأنّ مَن أُمِروا بطاعته هو المَلِكُ الأعظم، وحثًّا لهم بأن يجتهدوا فيها، ويُخْلِصوا للّه تعالى بها[3]. وفيه إشارةٌ إلى اعتراف العبد بعبوديّتِه لرَبّه، من خلال وجوبِ طاعتِه للإله الواحد.

دلالة عطفِ طاعةِ الرّسولِ على طاعة الله تعالى:

طاعةُ رسولِ الله من طاعةِ الله

عطف النّظمُ الجليل طاعةَ الرّسولِ ﷺ على طاعة اللّه تعالى في قوله جلّ شأنه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾؛ تنبيهًا على أنّ طاعته ﷺ هي من طاعة اللّه تعالى، الذي أرسلَه وجَعلَه رسولًا[4]. كما أنّه إشارةٌ إلى أنّ سببَ طاعةِ الرّسولِ ﷺ كائنةٌ بسبب طاعةِ اللّه تعالى، فهو من باب عطف المُسَبَّب على السّبب؛ وذلك لأنّ طاعة اللّه تعالى محمولةٌ على طاعة الرّسول ﷺ[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 127.
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 110.
(3) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 34.
(4) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 34.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 60.

سرّ تكرارِ فِعْلِ الأمر:

كرّر النّظمُ الجليل فعلَ الأمرِ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، دونَ أن يقول: (أطيعوا اللّه والرّسولَ) بواو العطف، ومعلومٌ أنّها تُغْني عن إعادة الفعل؛ لكنّ القرآنَ كَرَّر الفعلَ تعظيمًا لطاعة النّبيّ ﷺ[1]، وتأكيدًا لوجوب طاعته ﷺ، فهي من الوجوب بمكان، بحيثُ إنّها تُفْرَدُ في الذّكر؛ لدَفْعِ تَوَهّمِ من لم يمتثل أمرَ طاعتِه ﷺ في السُّنّة. وفيها دلالةٌ على استقلاليّته ﷺ بالطّاعة فيما أمر ونَهى.

طاعةُ النّبيّ ﷺ واجبةٌ وُجوبًا مُؤَكَّدًا

إيثارُ التّعبير بالرّسول في هذا السّياق على التّعبير بالنّبيّ:

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الرّسول دون النّبيّ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾؛ لأنّ السّياق في الأمر بالطّاعة، والطّاعةُ إنّما تكون لِمَن حُمِّلَ رسالةً، فكان الرّسولُ أنسبَ لذِكْر الطّاعة، ولأنّ الطّاعة تكون في الأوامر والنّواهي، وهذا من التّشريع الذي يأتي به الرّسول؛ بخِلاف لفظ النّبيّ؛ فلا يلزمُ منه وجودُ تشريعاتٍ، بل يكون الأمرُ للاقتداء.

السّياق في الأمر بالطّاعة، والطّاعةُ إنّما تكون لَمن حُمِّلَ رسالةً

دلالة حَذْفِ متعلّق فعلِ الطّاعة:

لم يُذْكَر متعلِّقُ فعلِ الطّاعة مع قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لإفادة العموم، أي: أطيعوا فيما أمركم به من الفرائض، وفيما نهاكم عنه من النّواهي. ومثل ذلك - أيضًا - يُقال مع طاعة الرّسول ﷺ؛ أي: أطيعوا الرّسول فيما أمركم به أو نهاكم عنه، سواء ورد ذلك في القرآن أو في السُّنّة الصّحيحة.

لم يُذْكَر متعلِّقُ فعلِ الطّاعة لإفادة العموم

دلالة عطف النّهي على الأمر:

عطف النّظمُ الجليل النّهيَ عن إبطال الأعمال على الأمر بالطّاعة في قوله جلّ شأنه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ

تركُ الطّاعةِ يُبطِلُ الأعمالَ

(1) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 34.

﴿أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾؛ لأنّ الطّاعة قد تكون ظاهرًا وصورةً وحَسْبُ، فنبّهَ بعطف النّهي عن إبطال الأعمال، على وجوب الإخلاص بالطّاعة؛ لتكون كاملةً ظاهرًا وباطنًا، صورةً وشَكْلًا[1]. كما أنّه يشير إلى أن ترك الطّاعةِ هو المُسَبِّب ببُطلان الأعمال، أي: لا تبطلوا أعمالَكم بترك طاعتِه ﷺ، كما أبطلَ أهلُ الكُفْر أعمالَهم بالكفر والصّدّ ومخاصمة النّبيّ ﷺ[2].

الغرض من النّهي عن الإبطال:

وجوبُ الكَفِّ عن مُسَبِّبات بُطلانِ الأعمال

عبّر النّظمُ الجليل بأسلوب النّهي في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على وجوب الكَفّ عن مُسبِّبات بُطلان الأعمال، فهو نهيٌ وتحذير عن كلّ ما بيّن الدّينُ أنّه مُبطلٌ للعمل؛ كالرِّدّة والرّياء في العمل الصّالح[3]. والذي يُبْطِل الأعمالَ هو الإعراضُ عن اللّه تعالى وطاعته، والانصرافُ عن متابعة النّبيِّ ﷺ[4]، فالنّهيُ: هو تحريمُ الإعراضِ عن أوامر الشّريعة، التي أمر بها اللّه تعالى، وأرسلَ بها النّبيَّ ﷺ.

سرّ التّعبيرِ بقوله: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ﴾:

الإبطال جَعْلُ الشّيءِ باطلًا غيرَ نافعٍ لما أُريدَ منه إجزاءً أو إثابةً

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالإبطال دونَ غيره، فقال: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ﴾؛ لأنّ الإبطال جَعْلُ الشّيء باطلًا غيرَ نافعٍ لما أُريدَ منه، ويكون المُرادُ ببُطلان العمل عدمَ تَرَتُّبِ الأثرِ الشّرعيّ عليه، سواء كان العمل واجبًا أم تطوّعًا؛ فإن كان العملُ واجبًا، فبُطلانُه عدمُ إجْزائِه، بحيثُ لا تبرأُ ذِمّة المُكَلّف من ذلك العملِ، حتّى يأتيَ به على الوجه الصّحيح، وإن كان العملُ تطوّعًا، كان البُطلان راجعًا إلى عدم الثّواب. وفيه إشارةٌ إلى تنبيه المؤمنين إلى أن يعملوا الأعمالَ وفْقَ المنهجِ الصّحيح، حتّى يتحقّقَ لهم الثّوابُ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 260.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 61.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 127، وينظر: المراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 75.
(4) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 332.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 47.

دلالة التّعبير بالأعمال جمعًا مع دلالة الإضافة:

تنبيهُ العبادِ على تركِ أسباب إبطال الأعمال

عبّر النّظمُ الجليل عن الأعمال بصيغة الجمع في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على أنّ معصيةَ اللّه تعالى ورسولهِ تُبطل جميعَ الأعمال، فهو "يتناول الأعمال الموجبة؛ كمَن شرع في نافلة لا يحلّ له أن يقطعها، ويتناول البشريّة؛ كمَن يتصدّق بدرهم ثمّ آذى الفقيرَ، أو مَنَّ به عليه"[1]. وإضافتُه إلى ضمير المُخاطَبين - المُراد بهم المؤمنين - يُشير إلى الأعمال الصّالحة، أي: أعمالكم التي اجتهدتم بها، وهذا تنبيه وتحذير من خُسران أجرِ تلك الأعمالِ، فيكونون بهذا الخُسران مثلَ أولئك الذين شاقّوا النّبيّ ﷺ[2].

بلاغة الاحتباك في الآية:

في هذه الآية احتباكٌ، حيثُ ذَكرَ الطّاعة أوّلًا دليلًا على المعصية ثانيًا، والإبطالَ ثانيًا دليلًا على الصّحّة أوّلًا، وسِرُّه أنّه أمر بمبدأ السّعادة أوّلًا، ونهى عن نهاية الفساد ثانيًا؛ لأنّه أعظم في النّهي عن الفساد، لما فيه من تقبيح سيرته، وهتكِ سريرتِه[3].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 30.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 260.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 177.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ٣٤﴾ [محمّد ﷺ: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بُطلانُ عملِ الكافرين متبوعٌ بحِرمانهم من مغفرة الله تعالى

لمّا أخبر تعالى فيما سبق من الآيات عن الذين كفروا بأنّهم صدّوا عن سبيل الله وشاقّوا الرّسولَ ﷺ؛ جاءت هذه الآية بمزيد بيان لتفصيل أحوالهم في الدّنيا، ونهايتهم المُؤلمة في الآخرة بعدم انتفاعِهم بمغفرة الله إذ ماتوا مُصِرّين على الكفر[1]. وبذلك تكون العلاقةُ بينهما واضحةً: فالآية الأولى مسوقةٌ لعدم الاكتراث بمكايدهم وخصومتهم، ولبيان أنّ الله مُبطلٌ تلك المكايد. والثّانية لبيان حالهم في الآخرة.

ومنها: لمّا أخبر فيما سبق عن صفاتهم ومكايدهم التي أعقبها بُطلان أعمالهم؛ أتبعَهُ هنا بحُكمٍ آخر، وهو أنّه لا يغفر لهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَغۡفِرَ﴾: (غفر) الغَفْرُ في الأصلِ: التَّغْطيَةُ والسَّترُ، ويُرادُ بها التَّجاوُزُ عَنِ الذَّنْبِ وعَدَمُ المُؤاخَذَةِ به، يُقالُ: غَفَرَ اللهُ ذَنْبَهُ غَفْرًا ومَغْفِرَةً وغُفْرانًا، أي: سَتَرَها وتَجاوزَ عنها[3]. والغُفْرةُ: ما يُغطّى به الشّيءُ[4]، وغفرَ اللهُ ذنوبَه: سَترَها، ولم يفضَحهُ بها على رُؤوسِ المَلأ. وكلُّ شَيءٍ سترتَه فقد غفرتَه[5]. والاسْتِغْفارُ: طَلَبُ ذلك بالمقال، والغُفْرانُ والمَغْفِرَةُ منَ اللهِ هو أن يَصونَ العَبدَ من أن يَمَسَّهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 129.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 75.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (غفر).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غفر).

العذابُ(1). وكلُّ ما جاءَ في القرآنِ من (غفر) وتركيباته، فهو من مغفرةِ الذّنوبِ(2).

المَعْنى الإجْماليُّ:

الموت على الكفر مانعٌ من نَيْلِ المغفرة

يقول اللّه تعالى: إنّ الكفّار الذين جَحَدوا وأنكروا أنّ اللّه تعالى هو الإلهُ الواحد الحقّ، وحده لا شريكَ له، وعَمَدوا إلى منع النّاس وصَدِّهم عن دينه القويم، حتّى ماتوا على ذلك، فإنّ اللّه تعالى لن يغفرَ لهم ذنوبَهم، بل سيُعَذّبُهم عقابًا لهم على كفرهم، ويفضحُهم على رؤوس الأشهاد(3).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ فصلِ هذه الآية عمّا قبلها:

بيانُ عقابِ المُصِرّين على الكفر إلى أن ماتوا عليه بحرمانهم من المغفرة

فصل النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّها مُستأنَفَةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، سيقت لبيان أنّ الكافرين الذين يموتون مُصِرّين على كفرهم، لن ينالوا مغفرةَ اللّه تعالى(4). فاستأنف السّياقُ ذِكْرَ جزاءِ الكافرين الذين شاقّوا النّبيَّ ﷺ وصدّوا النّاسَ عن الإيمان، الذين سبق بيانُ خُسرانهم الأعمالَ التي قاموا بها.

وممّا يُذْكَر في سرّ الفصلِ بالتّعليل أنّ المعنى كأنّه قيل: لا تُبْطِلوها بالصّدّ عن سبيل اللّه؛ لأنّكم إن فعلتُم ذلك فاتتكم المغفرةُ(5).

دلالة التّوكيد بـ ﴿إِنَّ﴾:

قَطْعُ أطماعِ الكافرين في نَيْلِ المَغفرة

أكّد النّظمُ الجليل الجملةَ بـ ﴿إِنَّ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك للرّدّ على مَن يظنّ أنّ بُطلان

(1) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غفر).
(3) جماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 510.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 129.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 178.

أعمالِهم المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، لا يحول دونَ مغفرةِ سيّئاتِهم بفضل اللّه تعالى الذي يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النّساء: 48] - فأكّد الخِطابُ إبطالَ هذا الظّنّ والتّطلّعَ لنَيْلِ المغفرةِ مع الإصرار على الكفر والموت عليه[1].

وممّا يُذكَر في سرِّ التّأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾: لفتُ الانتباه إلى الخبر الذي يُلقى في الحُكم على الذين كفروا وصدّوا عن سبيل اللّه؛ لأخذ الحذَر والاعتبارِ بحُكم اللّه فيهم.

دلالة التّعبير باسم الموصول:

حِرمانُ الكفّار مغفرةَ الله بما كسبت أيديهم

عبّر النّظمُ الجليل عن الكافرين بالاسم الموصول دونَ الاسم الصّريح في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك للإشارة إلى علّة الجزاء المذكورة في حيّز الصّلة، فالكفرُ والصّدّ والموتُ على ذلك هو العِلّة في انتفاء نَيْلِهم مغفرةَ اللّه تعالى، وفيه إشارةٌ إلى كمال ذمّهم، واستحقاقهم للحِرمان من المغفرة بسبب كفرهم وصَدّهم عن سبيل اللّه.

دلالة التّعبير بالكفر مادّةً وصيغةً:

كفرُ الكافرين راسخٌ في قلوبهم

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالكفر في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للدّلالة على سَترِهمُ الآياتِ الدّالّةَ على الحقّ، وجاء التّعبيرُ بالفعل الماضي للدّلالة على أنّهم أوقعوا الكفر[2] وحقّقوه في واقعهم، حتّى صار حَدَثًا مَرويًّا. وممّا يُذْكر في سرّ التّعبير بالماضي؛ الدّلالةُ على أنّ كفرهم باللّه ورسولِه راسخٌ في قلوبهم رسوخًا منعهم من التّفكير في آيات اللّه.

دلالةُ حَذْفِ متعلّق الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾:

إفادة عموم كُفرانِهم للعقيدة والنّعمة

حُذِفَ متعلّق الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 61.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 261.

﴿كَفَرُواْ﴾؛ لإفادة عموم كفرِهم في كُفران العقيدة وكُفران النّعمة؛ فَهُم كفروا باللّه وبرسوله وبكتابه، وكفروا بكلّ أَنْعُم اللّه؛ فلم يصلوا بها إلى الإيمان.

دلالةُ عَطْفِ قولِه: ﴿وَصَدُّواْ﴾:

بيانُ عظيمِ جُرمِهم بالجمع بين الكفر والصّدِّ عن سبيل الله

عَطَفَ النّظمُ الجليل الصّدَّ على الكفر في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وذلك لبيان عظيم جُرمهم؛ فإنّهم لم يكتفوا بالكفر والجُحود بأنفسهم، بل عملوا على إضلال غيرهم ومنعهم عن اتّباع الحقّ، فعَطْفُ الصّدِّ على الكفر بيانٌ لزيادة كفرهم، وإصرارِهم على الباطل(1).

سرّ التّعبيرِ بالصّدّ في قوله: ﴿وَصَدُّواْ﴾:

الصّدُّ أشدّ المنع عن الإيمان، وهو ما كان يفعله الكفّار مع رسول الله والمؤمنين

آثَر القرآنُ التّعبيرَ بالصّدّ في قوله: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ﴾ دون غيرِه كالمَنع؛ لأنّ الصّدّ هو أشدّ المنع؛ فمادَّته اللّغويّةُ تدور حولَ المنعِ الشّديد؛ فالصّدّ من الجبل ما يحول بينك وبين ما تريد لشِدّته، ومنه الصّديد الذي يحول بين اللّحم والجِلد. وعلى هذا فالصَّدُّ هو المنع بشِدّة، وهذا ما كان يفعله كفّارُ مكّةَ من صَدّ النّاس عن الإيمان باللّه ورسوله بكل قوّة حتّى بالتّعذيب، وأيضًا ما فعلوه مع رسول اللّه ﷺ في عُمرةِ الحُدَيْبِيَة سمّاه القرآنُ صدًّا؛ لأنّه منعٌ بشِدّة.

دلالة الجمع بين الكُفران والصّدّ:

الكفرة صِنْفان؛ صِنْفٌ بقي على كُفْرِه، وصنفٌ ضَمّ مع الكفر الصّدّ

جمع الأسلوبُ القرآنيُّ في هذه الآية بين الكفر والصّدّ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ الكَفَرة صِنْفانِ: صِنْفٌ بقي على كُفره، وهم عوامُّ الكفّار، وصنفٌ ضَمّ مع الكفر الصّدّ، وهم القادةُ وأئمّةُ الكفرِ.

دلالة تقييد الصّدّ بقوله: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

قيّد النّظمُ الجليل الصّدّ بشبه الجملة في قوله جلّ شأنه:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 258، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 74.

بيان شدّةِ جُرم الكافرين في منعهمُ النّاسَ عن المنهج الواضح

﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك للدّلالة على شناعة صنيعهم؛ حيثُ إنّهم صدّوا النّاسَ عنِ اتّباع نهجِ ربِّهم الذي ارتضاه لهم، وهو المنهاج الواضح المستقيم الذي يبلغ بالنّاس إلى كلّ ما يلزمهم من الهدى والبيان[1]، وهو أصلح لهم لتضمُّنِه الخيرَ للجميع، وهذا أشنعُ من الكفر.

دلالة إضافة السّبيل إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾:

في إضافة السّبيل للاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ تزكيَةٌ له، وتعظيمٌ لشأنه، ورفعٌ لمكانته، وبيانٌ لشِدّة قُبحِ صَدِّهم عنه وكفرِهم به.

سرّ تكرارِ الجمع بين الكُفر والصّدّ:

اختلافُ المراد باسم الموصول في كلٍّ من الآيتين والغرض المَسوقِ له

النّاظِرُ في هذه الآية يجد تكرارًا للجمع بين الكفر والصّدّ؛ حيثُ سبق ذِكرُهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وفي أوّل السّورة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ولعلّ السّرّ في ذلك اختلافُ المراد باسم الموصول في كلٍّ منهما والغرضِ المَسوقِ له: ففي هذه الآية التي معنا المُراد بهمُ الكفّارُ الذين امتنعوا عن الدّخول في الإسلام وماتوا على ذلك؛ ويُؤكّد ذلك ما رويَ أنّها نزلت في أهل القَليب، والآيةُ الأولى في صدر السّورة المُرادُ بهم المُطْعِمون يومَ بدر الكبرى، وهذا لا يمنع من حملها على العموم. أمّا قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ فالمُراد بهمُ الكفّارُ من أهل الكتاب؛ لأنّهم كفروا بعدما شاهدوا من نَعْتِه ﷺ في التّوراة، أو بما ظهر على يديه من المعجزات[2].

وممّا يُذكر في سرّ تَكْرارِ الجمع اختلافُ الغرض المسوقِ له كلّ آية: فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 261.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 26/ 79، 80.

مسوقةٌ لعدم الاكتراث بمشاقّتِهم، ولبيان أنّ اللّه مبطلٌ صنائعَهم. والآية التي معنا مسوقةٌ لبيان عدمِ انتفاعِهم بمغفرة اللّه، إذ ماتوا على الكفر(1).

دلالة العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

دأبوا على الكفر والصّدّ، حتّى بلغوا أجلَهم، فأنّى يُغفر لهم؟

عطف النّظمُ الجليل الموتَ على الصّدّ والكفر في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ للدّلالة على أنّهم استمرّوا بكفرهم وصَدِّهم، وتمادَوا فيه حتّى بلغوا غايةَ البُعدِ في التّمادي، وأنّ اللّه تعالى قد أرخى لهم في أعمارهم ومدّ لهم، فَدَأبوا على نهجهم الضّالّ حتّى بلغوا الموتَ، وفارقوا الحياة على ذلك الحال(2).

وممّا يُذْكَر في سرّ العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ التّناسبُ بين فعلهم من الكفر والصّدّ وبين الجزاءِ المُعَدّ لهم في الآخرة بقوله: ﴿فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾، فلذلك ناسبَ التّعبيرُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي تُدلِّلُ على طول الزّمن الذي مُنِحَ لهم لكي يخرجوا من كفرهم إلى الإيمان.

دلالةُ التّعبير بالموت في قوله: ﴿ثُمَّ مَاتُواْ﴾ مادّةً وصيغةً:

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالموت في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَاتُواْ﴾ دون غيره كالقتل؛ للإشارة إلى أنّهم تركوا الحياةَ بعد زوال القوّة النّامية لهم، الموجودة في الجَسد، سواء كانت قوّةً حسيّةً أو معنويّةً، وهذا يدلُّ على أنّ اللّه أرخى لهم العِنانَ، فكانت أمامَهم فرصةٌ للعودة والخُروج ممّا هم فيه؛ بخلاف ما لو عبَّر بالقتل، فقد يتوهَّم مُتَوهّم أنّهم لو لم يُقَتّلوا لتابوا من كفرهم، لكنّ التّعبير بالموت يُؤكّد على إصرارهم على الكفر، ويساعد على هذا المعنى التّعبير بالماضي.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 129.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 262.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾:

ماتوا في حالة كفرهم

أدخل النّظمُ الجليل الواوَ الحاليّة على الجملة الاسميّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾؛ للدّلالة على حالهم في موتهم، أي: ماتوا في حالة كفرهم[1]، ولم ينفكّ ذلك عنهم؛ لذلك قيّد النّظمُ الحكيم انتفاءَ المغفرةِ بقيد الموتِ على الكفر؛ لأنّه تعالى جعل باب التّوبة مفتوحًا لا يُغلق على مَن كان حيًّا[2].

سرّ التّعبير بالجملة الاسميّة ﴿وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾:

الكفر صفةٌ راسخة فيهم وماتوا عليها

آثَر النّظمُ الكريم أن يكون الحال جملةً اسميّة في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾، دونَ أن يكون مفردًا، بأن يقول: (ثمّ ماتوا كافرين)؛ وذلك لأنّ الإخبار عن شيء بالجملة أبلغُ من الإخبار عنه بالمُفرد، لأنّ الجملة الاسميّة تدلّ على تأكيد المعنى وثبوته، والمفرد إنّما يدلّ على المعنى دون تأكيده. قال ابن عرفة: "فإن قلتَ: ما الفرق بين قولكم: (ماتوا كافرين)، وبين قوله: و﴿مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾؟ فالجوابُ: كان بعضهم يقول: الثّاني أبلغ لأنّه تصديق، والأوّل راجع لقسم التّصوّر؛ لأنّ الثّاني جملةٌ إسناديّة خبريّة، والأوّل قيد في الجملة فهو مفرد"[3]. فدلّ على أنّ كفرهم الذي ماتوا عليه كان صفةً راسخة فيهم، فليس الكفر مجرّدَ حالٍ، بل هو خبر وصفة ثابتة فيهم، فالإخبارُ عن حالة موتهم بالجملة الاسميّة أبلغُ من المفرد.

دلالة التّعبير بـ ﴿كُفَّارٌ﴾ في قوله: ﴿وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾:

شدّةُ كفرهم، وكثرةُ قيامهم بأفعال تدلّ عليه

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بصيغة ﴿كُفَّارٌ﴾ دون غيرِها من الصّيغ؛ لأنّ صيغة (فُعّال) تدلّ على كثرة القيام بالفعل، وهذا

(1) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 35.
(2) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 78.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 30.

ما يناسِب سياقَ الآية في بيان شدّة جُرمهم؛ لأنّهم لم يقفوا عند حَيِّزِ الكفر؛ بل زادوا وصَدّوا عن سبيل الله، وبذلك يكون اختيارُ صيغةِ (فُعّال) للدّلالة على شدّة كفرهم. يُؤكّد هذا استعمالُ القرآنِ الكريم؛ حيثُ استعمل لفظ (الكفّار) في المواقف العِدائيّة من أهل الكفر لأهل الإيمان، قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤﴾ [المطففين: 34]، وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ [التّوبة: 123]، إلى غير ذلك من الآيات القرآنيّة التي تُبرز شدّة العِداء من الكفّار[1].

دلالة الفاء في ختام الآية:

الموت على الكفر مسبِّبٌ لامتناع المغفرة

افتتح النّظمُ الجليل ختامَ الآية بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾؛ لأنّ الجملة واقعةٌ خبرًا عن (إنّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾، ولمّا كان اسمُ (إنّ) اسمًا موصولًا صلتُه فعلٌ، أشبَهَ ذلك أسلوبَ الشّرطِ، فدخلت الفاءُ في الخبر كما تدخل في جواب الشّرط للرّبط[2]. قال الإمام البِقاعيُّ: "ولمّا كان السّبب الأعظم في الإحباط الموتَ على الكفر، نَبَّهَ عليه بالفاء الدّالّة على ربط الجزاء بالشّرط وتسبّبه عنه"[3]. فلمّا كان تعلّق السّبب بالمسبِّب كتعلّق الجواب بالشّرط، نبّهَ بالفاء على التّرابط بين الموت على الكفر وبين امتناع المغفرة. فالمراد بالخبر: "كلّ من تحقّقت فيه ماهيّة الصّلة، وهي الكفر والموت على الكفر"[4].

دلالة النّفي بـ (لن):

تأكيد نفي المغفرة

آثَر النّظمُ الكريم النّفيَ بـ (لن) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَن يَغۡفِرَ

(1) خضر، دقائق الفروق اللّغويّة، ص: 260.
(2) ابن الأحنف، البستان في إعراب مشكلات القرآن: 3/ 88.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 262.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 129.

﴿ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾، دونَ غيرِها من حروف النّفي؛ للدّلالة على تأكيد نفيِ المغفرة[1]، فهي لن تكون الآن ولا مستقبلًا؛ لأنّ المغفرة تكون يوم القيامة، وهو يقع في المستقبل.

دلالة التّعبير بالمضارع المَنْفيّ ﴿فَلَن يَغۡفِرَ﴾:

امتناعُ المغفرة دائمٌ متجدِّد لا ينقطع

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن نفي المغفرة بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾؛ للدّلالة على تجدّد النّفي واستمراره، فليس هناك من زمان يأتي ينالون فيه مغفرةَ اللّه تعالى.

دلالةُ حَذْفِ متعلّق الفعلِ ﴿يَغۡفِرَ﴾:

عموم نفي المغفرة لهم

حُذِفَ متعلّقُ الفعل ﴿يَغۡفِرَ﴾؛ لإفادة العموم، فالمعنى: لا يغفر اللّه لهم الكفرَ الذي ماتوا عليه، ولا الصّدَّ عن سبيل اللّه، ولا المشاقّةَ لرسوله ﷺ، ولا لعدوانهم على المسلمين.

سرّ التّعبير بالمغفرة دون العفو:

المغفرة أعمُّ من العفو

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالمغفرة في قوله: ﴿فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾، دون أن يقول: (فلن يعفو اللّه عنهم)؛ لأنّ المغفرة أعمّ من العفو؛ فهي تدلّ على السَّترِ والتّسامحِ، وعلى عدم المُؤاخذة على الذّنب، ونحو ذلك من المعاني التي تدور حول السَّتر. وهذه المعاني هي المناسبة لسياق الآية؛ بخلاف العفو؛ فلا تتأتّى منه هذه المعاني؛ لذلك كان التّعبير بالغُفران دونَ العفو.

سرّ التّعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله: ﴿فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾:

انتفاء المغفرة للكافرين من مقتضيات كمالِ العدل الإلهيّ

أسند النّظمُ البليغ عدمَ المغفرة للكافرين إلى الاسم الجليل في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾؛ إشارةً إلى صفات الكمال والجلال التي تقتضي العدلَ، ومن لوازم العدل أن لا تكون تسويةٌ بين المُحسن والمُسيء[2].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 262.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 262.

سرّ التّقييد بالجارّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾:

عدم المغفرة مقصودٌ به الكفّارُ المُصِرّين على الكفر

قيّد النّظمُ الجليل المغفرةَ المَنفيّةَ بشِبه الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾؛ للدّلالة على أنّهم هم المقصودون بالحُكم، فعَدَمُ المغفرةِ فضلٌ من اللّه، لن يكون لهم فيه نصيب.

دلالة الإضمار في قوله: ﴿لَهُمۡ﴾:

التّهوين من شأنهم وتقبيحُ فعلهم

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بالإضمار ﴿لَهُمۡ﴾ دون الإظهار؛ للتّهوين من شأنهم، وتقبيح فعلهم، وأنهم لا وزنَ لهم عند اللّه تعالى، مع كلّ ما يحاولون إظهارَه من زعامات في الكفر والصّدّ عن سبيل اللّه.

﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٥﴾ [محمّد ﷺ: 35]

دعوة المؤمنين للثّبات والصّبر بعد تهوين شأن الكافرين

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا أخبر النّظمُ الجليل في الآية السّابقة أنّ اللّه تعالى لن يغفر للكافرين الذين يموتون مُصرّين على كفرهم؛ أتبَعَ ذلك بنهي المؤمنين عن الوَهن في هذه الآية؛ وذلك لأنّ عدم مغفرته للكافرين يقتضي "إبعادَه لهم، وإبقاءَه عليهم، يُؤذِنَ بفشلهم وضَعفِهم أهلَ الإيمانِ، فنُهِيَ المؤمنون عن الاتّصاف بصفتهم التي أوجبت لهم الطّردَ والإبعاد عن رحمة اللّه ﷻ"[1].

ومن المناسبة كذلك: أنّه تعالى لمّا ذمّ الكفرةَ، وأخبر أنّه مُبطلٌ أعمالَهم في الحرب وغيرها، وذكر أنّه لن يغفر لهم؛ دلّ على أنّ عداوتَه لهم متحتّمةٌ لا انفكاكَ لها، فأوجبَ ذلك الاجتراءَ عليهم، فأتبع ذلك النّهيَ عن الضّعف أمامَهم، مُرغِّبًا المؤمنين بلزوم الجهاد والثّبات عليه، ومُحذّرًا من تَركه[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَدات:

1) ﴿تَهِنُواْ﴾: (وهن) أصلٌ يدلّ على ضَعْفٍ[3]، والوَهْنُ: الضَّعْفُ في العمل وفي الأشياء، وكذلك في العَظْم ونحوه[4]، وقال اللّه جلّ وعزّ: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمران: 146]، أي: فما فَتَروا وما جَبُنوا عن قتالِ عدوّهم[5]. وهو ضعفٌ في الخَلْق والخُلُق[6]، قال

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 31.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 262 - 263.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وهن).
(4) الخليل، العين: (بطل).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بطل).
(6) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (وهن).

تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ [مريم: 4]، ﴿وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٍ﴾ [لقمان: 14] أي: كلّما عَظُمَ في بطنها؛ زادها ضَعْفًا على ضعف. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾ [النّساء: 104][1]. والمراد به في الآية الكريمة: لا تَضْعُفوا[2].

2) ﴿ٱلسَّلۡمِ﴾: (سلم) أصلٌ يدلّ على الصِّحَّةِ والعافيَةِ، فالسَّلامَةُ: أَنْ يَسْلَمَ الإنسانُ مِنَ العاهَةِ والأذى[3]، والسَّلْمُ: ضِدُّ الحَرْب[4]. والسَّلامُ والسِّلْمُ والسَّلَمُ: الصُّلْح، قال تعالى: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ﴾ [الأنفال: 61]، فالسِّلْمُ: اسمٌ بإزاء حرب[5]. والمُراد به في الآية الكريمة: الصّلحُ[6].

3) ﴿يَتِرَكُمۡ﴾: (وتر) أصله يدلّ على تجرّد الشّيء[7]. وتَرتُ الرّجلَ: إذا قتلتَ له قتيلًا، أو أخذتَ له مالًا. فهو أن يجني الرّجلُ جناية، يَقتل له قتيلًا، أو يذهبُ بماله وأهله، فيقال: وتَر فلانٌ فلانًا أهلَه ومالَه، أي: نَقَصَ أهلَه ومالَه وبَقيَ فَرْدًا، يقال: قد وترَهُ حَقَّه، إذا أنقَصه[8]، والموتور: الذي قُتِل له قتيلٌ فلم يُدرك بدمه. تقول منه: وتَرَهُ يَتِرُهُ وترًا وتِرَةً. وكذلك وتَرَهُ حَقَّه، أي: نَقَصَه[9]، فلمّا نقصه حقّه كأنّه جَرّدَه منه[10]. والمراد به في الآية الكريمة: لا يَنْقُصُكُم شيئًا من ثوابكم[11].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول تعالى ناهيًا عبادَه المؤمنين عن الوَهن والضّعف: لا تَضْعُفوا عن القتال، ولا تخافوا، بلِ اصبروا، ووَطِّنوا أنفسَكم على القتال والجهاد، ولا تَدْعوا إلى المصالحة والمسالمة

(1) الرّاغب، المفردات: (وهن).
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 270.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (بطل).
(5) الرّاغب، المفردات: (سلم).
(6) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 78.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وتر).
(8) الأزهري، تهذيب اللّغة: (وتر).
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (وتر).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وتر).
(11) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 16.

مع أعدائكم، تبتغون الرّاحةَ، والحالُ أنّكم غالبون ظاهرون على عدوِّكم، وأنّ اللّه تعالى معكم ينصركم عليهم، وهو لن ينقصَكم أجورَ أعمالِكم[1] بنقص ثوابها.

الدّعوة إلى الثّبات والبُعدِ عن الوَهن والضّعْف

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾:

النّهيُ عن الوَهْن متفرِّعٌ ومترتِّبٌ على ما سبق بيانُه في السّورة

افتتح النّظم الجليل الجملة بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾؛ لأنها في جواب شرط مُقدّر تقديرُه: إذا تبيّن لكم أنّه تعالى يُبْطِل أعمالَهمُ الحسنةَ ويعاقبهم على كفرهم المفهوم من عدم المغفرة؛ فلا تُظْهِروا الضّعفَ، بل أظهروا القوّة والجَلادة[2]. ويجوز أن تكون الفاء هي الفصيحة للاستئناف والسّببيّة، أي: بعد أن تبيّن لكم وجوبُ الطّاعة وإبطالُ أعمالِ الكافرين؛ فلا تتخاذلوا وتميلوا إلى موادعتهم[3]. ويجوز أن تكون للتّفريع، وذلك لأنّ النّهي عن الضّعف والوهن مترتّب ومتفرّع على ما تقرّر في نفوس المؤمنين من خِذلان اللّه تعالى المشركين بما أخبر به من أنّه أضلّ أعمالَهم، وقدّر لهم التّعسَ، وبما ضربَ لهم من مصاير أمثالهم من الأمم السّابقة، وما وعد به المؤمنين من النّصر عليهم، وما أمرهم به من قتالهم، وما وعدَهم من الجزاء في دار الخُلد - فعلى ذلك كلِّه فَرَّعَ نهيَهم عن الوهن، وعن المَيل إلى الدّعة، ووعدَهم بأنّهم المنتصرون، وأنّ اللّه مؤيّدهم[4].

الغرض من النّهي:

كلّ ما يُؤدّي إلى الوَهن والضّعف منهيٌّ عنه

نهى النّظمُ الجليل المؤمنين عن الوهن في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾، والمراد: النّهي عن سلوك ما

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 790.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 45.
(3) قباوة، المُفصّل، ص: 1800.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 129، 130، وينظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 102.

يؤدّي إلى الوهن؛ لأنه أمر نفسيٌّ إذا تسرّبَ إليها وتمكّن منها ترتَّبَ عليه الاستسلامُ، والمعنى: لا تَضْعُفوا ضعفًا يجعلكم في حالة الهوان والذّلّ[1]، فهو إيجابٌ على المؤمنين بعدم الدّعوة إلى الصُّلح خَوَرًا وضَعْفًا، وذلك لأنّه إعطاءٌ للدَّنيَّة[2].

سرّ التّعبير بالوَهْن دونَ الضَّعْف:

الـوَهْـنُ أشـدّ الضَّعْف، وكلُّ وهـنٍ ضَـعْـفٌ، ولـيـس كـلُّ ضَعْفٍ وهنًا

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالوَهْن في قوله: ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾؛ لأنّ الوهن أشدُّ الضّعف؛ فإذا قلت: وهَنَ في الأمر؛ فمعناه: أنّه أخذ فيه أخذَ الضّعيف، ولأنّ لفظ الوهنِ يحمل معنى الانكسارِ بالخوف وغيره؛ بخلاف الضّعف، فهو نقصانُ القوّة. وليس كلّ ضعفٍ يكون في موضع الذّمّ؛ لأنّ الإنسان قد يكون ضعيفًا في جانبٍ، وقويًّا في جانب؛ بخلاف الوهن، فإنّه يحمل معنى الضّعفِ النّفسيّ الذي يُؤَثّر على قوّة الجسد، ولذلك يوجَد بينهما عمومٌ وخصوصٌ؛ فكلُّ وهنٍ ضعفٌ، وليس كلُّ ضعفٍ وهنًا. وممّا يُؤكّد الفرقَ بينهما أنّ البُنيةَ الصّوتيّة لمادّة (ضعف) تختلف عنها في مادّة (وهن) من ناحية القوّة والضّعف، ولذلك كان التّعبيرُ بالنّهي عن الوَهْنِ هو المناسِبُ لسياق الآية، يُرشِّحُ ذلك نهيُ القرآنِ عن الدّعوة إلى السَّلْم من أجل الرّاحة في قوله: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ﴾.

دلالة العطف بالواو في قوله: ﴿وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ﴾:

النَّهيُ مُنْصَبٌّ عـلى فِـعْـلَي الوهنِ والدّعوةِ إلى السَّلم

عَطَف النّظم الجليل الدّعوة إلى السَّلْم على الوهن في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾، وذلك لأنّ غرضَ العطفِ بيانُ أنّ النّهيَ منصَبٌّ على الفِعْلَين[3].

سرّ نَهي القرآنِ المؤمنين عن الدّعوة إلى السَّلْم في حالة الوَهن:

نهى تعالى المؤمنين في النّظم الجليل عن الدّعاء إلى المصالحة

(1) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 35.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 102.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 270، وابن الأحنف، البستان في إعراب مشكلات القرآن: 3/ 88.

الصّلحُ الذي يُغري الأعداء بالمؤمنين صلحٌ منهيٌّ عنه

والسَّلْم في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾؛ لأنّ "المشركين يومَئِذ كانوا متكالبين على المسلمين، فربما ظنّ المسلمون أنّهم إن تداعَوا معهم للسّلْم أمِنوا منهم، وجعلوا ذلك فرصةً ليَنشروا الدّعوة، فعَرَّفَهمُ اللّه أنّ ذلك يعود عليهم بالمَضرّة؛ لأنّه يَحُطّ من شوكتِهم في نظر المشركين، فيَحْسبونهم طلبوا السّلْمَ عن ضعفٍ، فيزيدُهم ذلك ضراوةً عليهم، وتستخِفُّ بهم قبائلُ العربِ بعدَ أن أخذوا من قلوبهم مكانَ الحُرْمةِ وتَوقّعَ البأسِ. ولهذا المَقصِد الدّقيق جَمَعَ بين النّهي عن الوَهنِ والدّعاءِ إلى السّلْم"[1].

سرّ التّعبير بقوله: ﴿وَتَدۡعُوٓاْ﴾:

تصويرٌ لِما يظنُّه المسلمون مصلحةً لنَشْر الدّعوة

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالنّهي عن الدّعاء إلى السّلم في قوله: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ﴾؛ لأنّه تصويرٌ لِما يظنُّه المسلمون مصلحةً من أجل نَشْرِ الدّعوة الإسلاميّة في حالة استبقاء النّفوسِ سالمةً من عُدوان العَدوّ؛ لذلك عبّر عن ذلك بالدّعوة، ومع ذلك نهاهم اللّه عنه؛ لأنّه يعود عليهم بالمَضَرّة.

دلالة التّعبير بـ ﴿إِلَى﴾ في قوله: ﴿وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ﴾:

غاية الدّعوة بلوغ السّلْم والمصالحة

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ ﴿إِلَى﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ دون اللّام؛ لأنّها دالّةٌ على الغاية، أي: أنّ الغاية من الدّعوة هي المصالحة والموادعة، فبيّن بذلك أنّ الصّلحَ لم يكن حاصلًا بينهم، فلا ينبغي بَدءُ المؤمنين به وهم في حالة عُلوٍّ؛ طلبًا للدّعَة والرّاحة.

دلالة التّعبير بالسَّلْم:

السَّلْمُ لفظ عامٌّ، يُطلَق على الصّلح والمُسالمة

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بكلمة ﴿ٱلسَّلۡمِ﴾ دونَ غيرِها؛ لما فيها من العموم، فهي تُطلَق على الصّلح، وعلى المسالمة التي تُطلَق على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 131، وينظر: طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 248.

معنى الإسلام في بعض المواضع، وإن كان هذا غيرَ مُرادٍ، إلّا أنّ قولَه: ﴿وَتَدۡعُوٓاْ﴾ قد يُفْهَم منه أنّهم لمّا دَعَوا إلى السَّلْمِ كان غرضُهم الدّعوةَ إلى نَشْر الإسلام.

توجيه القراءات في قوله: ﴿ٱلسَّلۡمِ﴾:

اللّغات ثراء للمعاني التفسيرية

قوله تعالى: ﴿ٱلسَّلۡمِ﴾ قرأه الجمهور بفتح السين، وهي لغة في (السِّلْم) الذي هو الإسلام، قال أبو عُبيدة والأخفش: (السِّلم) بالكسر الإسلام. ويجوز أن يكون ﴿ٱلسَّلۡمِ﴾ بالفتح اسمًا بمعنى المصدر، الذي هو الإسلام كالعطاء والنبات، بمعنى: الإعطاء والإنبات. ويجوز أن يكون الفتح في ﴿ٱلسَّلۡمِ﴾ بمعنى الصلح، وهو يريد الإسلام. وقرأ شعبة وحمزة وخلف العاشر بكسر السين: ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾[1]. فأما من كسر السين فهو واقع على الإسلام، وهو المعروف في اللغة (السِّلْم) بالكسر: الإسلام. وروى عبد الرحمن بن أبزى أن النبي ﷺ قرأ: ﴿ٱلسَّلۡمِ﴾ في البقرة والأنفال و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [محمّد ﷺ: 1] بالفتح في الثلاثة[2]. ومعنى المسالمة والصلح هو الأقرب لسياق الآيات هنا، ويكون معنى النهي: عدم الدعوة إلى الاستسلام والخنوع.

دلالة التّقييد بقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾:

قوّةُ الإيمان تمنع الصّلحَ على الذُّلِّ والوَهْن

دلَّ التّقييدُ بالجملة الاسميّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ على النّهي عن المصالحة في حالة الهَوان والضَّعْف، والفائدة من هذا القيد: تقريرُ معنى النّهي، وتأكيدُ وجوبه، فإنّ اتّصاف المؤمنين بالعُلوّ موجِبٌ عليهم اجتنابَ ما يوهِمُ أنّهم في ذُلّ وضعف وضَراعة[3].

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 227.
(2) مكّي، الكشف: 1/ 287.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 102.

دلالة التّعبير بالحال جملةً اسميّة:

جيء بالحال جملةً اسميّةً في قوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾؛ للدّلالة على ثُبوت الغَلَب لهم، وظهورِهم على عَدوّهم[1]، ولم يأت مُفردًا بأن يقول: (فلا تهنوا وتدعوا إلى السّلم عالين)؛ وذلك لأنّ العُلوّ في الجملة خبرٌ، فيدلّ على أنّه وصفٌ ثابت، فهو أبلغُ من التّعبير بالمُفرد.

ثُبوتُ الغَلَبِ للمؤمنين وظهورِهم على عَدوّهم

دلالة التّعبير بالعُلوّ مادّةً وصيغةً:

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ العُلوّ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾؛ للدّلالة على الغَلَب والظَّفَر، أي: وأنتم الغالبون[2]. وللإشارةِ إلى عُلوّ المؤمنين في الدّنيا والآخرة؛ ففي الدّنيا هم الأعلى بالحُجّة والتّمسّكِ بدين اللّه، ولأنّ العاقبة لهم فسيظفرون بأعدائهم ويَرثون أرضَهم، وفي الآخرة لهم الجنّة؛ أمّا أعداؤهم ففي النّار.

غَلَبُ جماعةِ الإيمانِ حقيقةٌ مُؤكَّدة

دلالة التّعبير بصيغة التّفضيل ﴿ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾:

جاء التّعبيرُ بصيغة التّفضيل ﴿ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾؛ للدّلالة على المبالغة في الوصف[3]، وليس من باب المفاضلة؛ إذ لا مشاركةَ بين أهل الإيمان وأهل الكفر في صفة العُلوّ.

لا مشاركةَ بين أهل الإيمان وأهل الكفر في صفة العُلوّ، وإنّما هي للمبالغة في الوصف

بلاغة أسلوب القَصْر في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ جملة اسميّة تُفيد القَصْر؛ فكأنّه قَصَر العُلوَّ على أهل الإيمان دونَ غيرهم، والمعنى: المؤمنون هم الذين يستحقّون هذا العُلوّ؛ فلا عاليَ مثلهم يشاركهم هذا الوصف.

قَصْرُ العُلوِّ على أهل الإيمان دونَ غيرهم

دَفْعُ توهُّمِ وجودِ تعارضٍ بين هذه الآية وآية الأنفال:

قد يَتوهَّمُ البعضُ وجودَ تعارضٍ بين قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 132.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 270، وابن الأحنف، البستان في إعراب مشكلات القرآن: 3/ 89.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 132.

لكلّ آيةٍ منهما حالةٌ خاصَّة تستوجب حُكمًا خاصًّا

﴿إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾، مع قوله تعالى في الأنفال: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال: 61]. وبالنّظر إليهما لا يوجد أيُّ تعارض؛ فلكلّ آيةٍ منهما حالةٌ خاصَّة؛ فآيةُ الأنفال خاصّةٌ بكون المسلمين في حالة قوّةٍ ومَنَعَةٍ؛ بحيثُ يَدْعون إلى السّلْم لمصلحة المسلمين؛ فلهم أن يبدَؤوا به إذا احتاجوا إليه، وأن يُجيبوا إذا دُعوا إليه؛ بخِلاف موضِع سورة محمّد؛ فالحالةُ فيها مختلفةٌ، فليسوا على هذه القوّة؛ لذلك نهاهم الإسلام عن الوَهْن والدّعوة إلى السّلْم خوفًا من أن يتكالب عليهم الكافرون[1].

دلالة تقييد النّهي بقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾:

مَن كان الله معه فلا ينبغي له الوَهْنُ والضّعف

قيّد النّظمُ الجليل النّهيَ عن الوَهن بجُملة حاليّةٍ اسميّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾، بعد تقييده بقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾، وهي أيضًا جملةٌ حاليّةٌ[2]، وفائدةُ الحال هنا تأكيدُ وجوبِ النّهي وتقريرِه؛ فإنَّ معيَّةَ الله تعالى لهم مانعةٌ لهم سلوكَ ما يوْهِم الذّلَّ والضّعفَ[3]؛ لذلك جيءَ بالحال جملةً اسميّةً؛ للدّلالة على ثُبوت عنايةِ الله تعالى بهم[4].

سرّ ذِكر قيد ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ بعد قيد العُلوّ:

هدايةٌ وإرشاد يمنع المُكلَّف من الإعجاب بنفسه

جاء قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾، وقد أحسن الفخرُ الرّازيّ في بيان فائدة ذِكر هذا القيد بعد قيد العُلوّ، إذ قال: "إنّ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ هدايةٌ وإرشاد يمنع المُكلَّفَ من الإعجاب بنفسه؛ وذلك لأنّه تعالى لمّا قال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ كان ذلك سببَ الافتخار، فقال: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ يعني: ليس ذلك من أنفسكم بل من الله. أو نقول: لمّا قال: ﴿وَأَنتُمُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 131.
(2) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 9/ 707.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 102.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 132.

﴿ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ فكان المؤمنون يرون ضعفَ أنفسِهم وقتلَهم مع كثرة الكفّار وشوكتهم، وكان يقع في نفس بعضِهم أنّهم كيف يكون لهم الغَلَبة؟ فقال: إنّ اللّه معكم، لا يبقى لكم شكٌّ ولا ارتيابٌ في أنّ الغَلَبة لكم"[1].

دلالة التّعبير بالاسم الجليل (الله):

مـن كـان اللـه معـه فـمَـن ذا يغلبُه؟

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ باسم الجلالة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾؛ تحريضًا للمؤمنين وتثبيتًا لهم، فإنّ اللّه تعالى هو المَلِكُ الأعظم بجلاله وقوّته وعِزّته معكم، وهو لا يعجزُه شيءٌ، وليس له كُفْءٌ[2].

دلالة التّعبير بـ ﴿مَعَكُمۡ﴾ مع الإضافة:

مَن كان في معيّة الله تعالى بَعُدَ عـنـه الـوهْـنُ والضَّعْفُ

عبّر النّظمُ الجليل بـ (مع) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾، وهي ظرفيّةٌ دالّة على المصاحبة[3]، وهي مصاحبةٌ مجازيّةٌ، بمعنى المعيّة بالنّصر والتّأييد، وفائدةُ ذلك تثبيتُ قلوبِهم؛ فإنّ مَن عَلِمَ أنّ سيّدَه وخالقَهُ معه لا يُبالي بشيء[4]. كما أنّ في إضافته إلى ضمير المخاطَبِ تشريفًا لهم بهذه المعيّة، وهي مؤكِّدة ومُقرِّرة للنّهي عن الوَهن والضّعف.

دلالة العطف بالواو في قوله: ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ﴾:

وَعْــــدُ الـلـه للمؤمنين بعدم ضياع أجورِهم

عطف النّظمُ الجليل الجملةَ الفعليّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ على الظّرف في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾، أي: واللّه لن يتركم[5]. وهو وعْدٌ بعدم ضياع أجورهم من الجهاد، والمرادُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 61، 62.
(2) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 35.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 237.
(4) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 35.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 211.

به: التّحريض على الجهاد بالوَعْدِ بإيفائهم أجرَهُم عليه كاملًا[1].

كما دلّ ذلك على تعظيم جهاد المؤمنين؛ وذلك أنّه لمّا قال: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ ربّما توهّم البعضُ وقال: طالما أنّ النّصر من الله تعالى، فما لأعمالنا مِن اعتبار؛ فأخبر أنّه لن يُضيعَ أعمالَهم، فيكون كأنّ النّصرَ جُعِلَ بهم ومنهم، حتّى كأنّهم استقلّوا بتحقيقه بجهدهم[2].

دلالة الجمع بين هذه المذكورات الثّلاثة:

الدّلالة على توفّر أسباب النّصر

جمع النّظمُ الجليل الأمورَ الثّلاثة المذكورة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾؛ لأنّ كُلًّا منها يقتضي الصّبرَ وعدمَ الوَهنِ: **الأوّل:** أنّهم الأعلون الغالبون، فدلّ ذلك على توفّر أسبابِ النّصر، والإنسانُ لا يَضْعُف إلّا إذا كان أذلَّ من غيره وأقلَّ عددًا. **والثّاني**: أنّ الله معهم، وهذا موجِبٌ لقوّة قلوبِهم، وإقدامِهم على عَدوّهم. **والثّالثُ**: أنّ الله لا يَنْقُصُهم من أجرهم شيئًا، ومعرفةُ الإنسانِ أنّ الله تعالى لا يُضيعُ أجرَه تزيدُه نشاطًا، وقُدرةً على بَذْلِ الجهد. فاجتماعُ هذه الأمورِ يوجبُ النّشاطَ التّامَّ، وهو ترغيبٌ منَ الله تعالى للمؤمنين، وتنشيطٌ لهم على الجهاد والبَذْل وعدمِ الضّعف[3].

دلالة النّفي بـ (لن):

الـوَعْـدُ بإيفاء الأجور والثّواب

عبّر النّظمُ الجليل بأسلوب النّفي بالحرف (لن) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾، وهو حرفٌ يَنفي المستقبلَ، وبه نفى نقصانَ أجورِهم يومَ القيامة، فنفيُ المستقبلِ جيءَ به للوَعْد[4]، فهو وعدٌ بإيفاء الأجور.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 132.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 62.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 790.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 62.

سرّ التّعبير بالفعل ﴿يَتِرَكُمْ﴾ دونَ غيره:

إشارةٌ إلى عدم بُطلان الأعمال

آثَر النّظمُ القرآنيُّ التّعبيرَ بالفعل ﴿يَتِرَكُمْ﴾ دونَ غيره؛ لأنّه يدلّ في اللّغة على النّقصان؛ لأنّه مأخوذ من وتَرَه يَترُه وترًا، إذا نَقَصَه؛ فالمؤمنون حين يُقْتَلون في سبيل اللّه تعالى فإنّهم يَنْقُصُ من عددهم، دونَ أن يَنْقُصَ من عملهم شيءٌ[1]. وفي التّعبير بالفعل ﴿يَتِرَكُمْ﴾ إشارةٌ إلى عدم بُطلان الأعمال؛ لأنّه إذا كان لا يَنْقُصُها، فمن باب أولى لا يُبطلُها[2].

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ﴾:

الـوعـد بعـدم نُقْصان الأجـورِ دائمٌ لا ينقطع

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن وترِ الأعمال بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على تجدّد النّفي واستمرارِه، فإنّ الوعد بعدم نقصان أجورهم على أعمالهم وعدٌ دائمٌ مُتجدّدٌ.

سرّ التّعبيرِ بالأعمال جمعًا مع دلالة الإضافة:

عدمُ نقصِ أُجورِ جميعِ الأعمال للمؤمنين

عبّر النّظمُ الجليل عن الأعمال بصيغة الجمع في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على حِفظ أجورِ جميع أعمالهم، صغيرِها وكبيرِها. ودلّت الإضافةُ على أنّ المقصود بالأعمال أعمالُهم الصّالحةُ التي عملوها ونُسِبَت إليهم.

بلاغة فاصلة الآية:

وَعْـدُ اللـه لـلـمؤمـنين بـتـسـديـد أعـمـالـهـم ونجاحِها

خُتِمَت الآيةُ بقوله: ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾، لما تحمله من وعْدِ اللّه للمؤمنين بتسديد الأعمال ونجاحِها، عكسَ ما قالَه في أوّل السّورةِ عن الذين كفروا وصَدّوا عن سبيل اللّه بأنّه أضلَّ أعمالَهم؛ أمّا مع أهل الإيمان فكنّى عن قَبول أعمالِهم ونجاحِها بعدم وترِها ونقص ثوابها، وفي ذلك بشارة للمؤمنين وتبكيت للكافرين[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 62.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 132.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 132.

﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ٣٦ إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ٣٧﴾ [محمّد ﷺ: 36 - 37]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

التّهوين من شأن الدّنيا من دواعي الثّبات على الجهاد

لمّا نهى النّظمُ الجليل المؤمنين في الآية السّابقة عن الوَهن والضَّعف، وأمرَهم بالتّشمير عن ساعد الجدّ للجهاد، وعدمِ مهادنة الأعداء؛ لأنّهم هم الغالبون، ولأنّ الله تعالى معهم، ولن يضيع أجورَهم - جاءت هذه الآية بتأكيد المعنى، وذلك ببيان أنّ الدّنيا لا ينبغي للمؤمنين الحرصُ عليها؛ فإنّها ظِلٌّ زائل، وأنّ لذّاتِها مؤقّتَة لا بقاءَ لها[1].

ومن المناسبة أيضًا: أنّه لمّا أتمّ الكلامَ عن العِلّة الأولى الصّادَّةِ عن الطّاعة؛ أقبل على العِلّة الثّانية التي تقود إلى المعصية الملائمة للشّهوة المُبطلة للأعمال الموجبةِ للتّهاون، المُؤدّي إلى عدم المغفرة؛ فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾[2].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَعِبٞ﴾: (لعب) أصلٌ يدلّ على الذّهابِ على غَيْرِ اسْتِقامَةٍ[3]. وأصلُ الكلمة اللُّعابُ، وهو البُزاق السّائل، وقد لَعَبَ يَلْعَبُ لَعْبًا: سال لُعابُهُ، ولَعِبَ فلانٌ: إذا كان فعلُه غيرَ قاصدٍ به مقصدًا صحيحًا[4]. واللّعِبُ: فِعْلُ ما لا فائدةَ فيه، وهو بمعنى الهَزْل، فهو ضِدّ الجِدّ[5]،

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 77.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 179.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لعب).
(4) الرّاغب، المفردات: (لعب).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (لعب).

فأخذَت دلالةَ اللّعِب من التّسيّب في الحركة والاضطراب، كَلُعاب الصّبي، فدلَّ على عدم القصد في الاتّجاه والتّصرف. ويقال لكلّ مَن عمل عملًا لا يُجدي عليه نفعًا: إنّما أنتَ لاعِب، ففيه معنى العَبَثيّة التي هي عدمُ القَصْد والجدوى[1]. والمُراد به في الآية الكريمة: الفعل الذي يريد به فاعلُه الهَزْل دونَ اجتناءِ فائدة[2].

2) ﴿وَلَهۡوٞۚ﴾: (لهو، لهى، لها) أصلٌ يَدُلُّ على شُغْلٍ عَنْ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، وكلُّ شيء شَغلَكَ عن شيء، فقد ألْهاكَ، ولَهيتُ عن الشّيء، إذا تركتَه لغيره[3]. واللّهْو: ما شغلكَ من هَوًى أو طَرَب، وهو الصُّدوفُ عن الشّيء. ويقال: ألهيتُه إلهاءً، أي: شغلتُه[4]. وهو الانشغال عن مهمّات الأمور. يقال: لَهَوتُ بكذا، ولَهَيْتُ عن كذا، وقوله تعالى: ﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [الأنبياء: 3] أي: متشاغلةً عمّا يَهمّها ويُعنيها[5]. والمراد به في الآية الكريمة: العملُ الذي يَصْرِف عن الجِدّ، وينشغل عمّا يَهمُّه[6].

3) ﴿فَيُحۡفِكُمۡ﴾: (حَفَى، حفي، حفو) أصلٌ يدلّ على اسْتِقْصاءِ السُّؤالِ. وحَفيتُ إلَيْهِ في الوَصيَّةِ: بالغتُ، وتَحَفَّيْتُ به وأحْفَيْتُ: بالغتُ في إكْرامه، والحَفيُّ: المُسْتَقْصي في السُّؤالِ[7]. وأحْفاني: إذا بَرَّح بي في إلحاحٍ أو سؤال[8]. وأحْفى فلانٌ فلانًا: بَرَّحَ به في الإلْحاحِ عليه، أو سَأله فأكْثَرَ عليه في الطَّلَبِ[9]. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾ [الأعراف: 187] أي: كأنّك استحفيتَ بالسّؤال عنها حتّى علمتَها، أي: أكثرت المسألة عنها. يقال: أحْفَى في سؤاله وألْحَفَ وألَحَّ، كلّه بمعنًى. قال تعالى: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ﴾ أي: يُبالغ في مسألتكم، ولمّا اعتُبِر معنى المبالغة، قيل: فلانٌ حَفيٌّ بفلانٍ، أي: مبالغٌ في بِرِّه. قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧﴾ [مريم: 47] أي: مبالِغًا في إيصال الخير إليّ[10]. والمراد به

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لعب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 133.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لهو).
(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (لهو).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (لهو).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 133.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حفى).
(8) الخليل، العين: (حفو).
(9) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (حفو).
(10) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (حفي).

في الآية الكريمة: المبالغةُ في السّؤال والإلحاح فيه، وبلوغ الغاية في كلّ شيء[1].

4) ﴿تَبۡخَلُواْ﴾: (بخل) أصلٌ يدلّ على إمساكِ ما يُتَطلّب إخراجُه، فيمتنع عن إرساله[2]. فالبُخْلُ: إمساكُ المقتنيات عمّا لا يحِقّ حبسُها عنه، يقال: بَخِلَ فهو باخِلٌ، وأمّا البَخيل: فالذي يَكْثُر منه البُخلُ، كالرّحيم من الرّاحم. والبُخْلُ ضربان: بخلٌ بمقتنيات نفسه، وبخلٌ بمقتنيات غيره، وهو أكثرها ذَمًّا[3]. والبُخل ضِدُّ الكَرَم[4]. وهو في الشّرع يعني: مَنعُ الواجِبِ، وعند العرب: منعُ السّائِلِ مِمّا يَفْضُلُ عِنْدَهُ[5]. والمراد به في الآية الكريمة: الامتناع عن العطاء[6].

5) ﴿أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾: (ضغن) أصلٌ يدلّ على تغطية شيء في مَيْلٍ واعوجاج، ولا يدلُّ على خير[7]. والضَّغْنُ والضَّغينةُ: الحقد، وضَغِنَ عليه، أي: حقد[8]. وهو الحِقْدُ الشّديدُ، وجمعُه: أَضْغانٌ. قال تعالى: ﴿أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ٢٩﴾ [محمّد ﷺ: 29][9]، ويقال: اضْطَغَنَ فلانٌ على فلان ضغينةً: إذا أضمرَها[10]. والمُراد به في الآية الكريمة: الأحقاد[11].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تزهيدُ العِباد بالحياة المتّصفة بالنّفاد تثبيتًا على الأمر بالجهاد

يقول الله تعالى لعباده المؤمنين: اعلموا أنّما الحياة الدّنيا لعبٌ ولَهْوٌ وباطلٌ زائل، فلا يَشغلُكم ذلك عن العمل الصّالح الذي هو

(1) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 35.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بخل).
(3) الرّاغب، المفردات: (بخل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بخل).
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (بخل).
(6) البقاعيّ، نظم الدرر: 18/ 267.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضغن).
(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (ضغن).
(9) الرّاغب، المفردات: (ضغن).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضغن).
(11) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 80.

زادُكم في الآخرة، وهو علامةُ الإيمان والتّقوى، ولذلك بيّن لهم جزاءَ الإيمانِ والتّقوى، فقال: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾. والمعنى: إنّ تؤمنوا باللّه تعالى وتَتَّقوه يُؤْتِكُم ثوابَ أعمالِكم وافيَةً، وإنّه تعالى لا يأمرُكم بإنفاق جميعِ أموالكم، بل يأمرُكم بإخراج القليل منها، وهو رُبُع العُشْرِ للزّكاة، مواساةً للفقراء، مع أنّ نفع ذلك عائدٌ إليكم لا إلى غيركم[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ فَصْلِ جملة: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾:

وصفُ الحياةِ باللّعِب واللّهْو يقتضي عدمَ الإنصرافِ إليها

فَصَلَ النّظمُ الجليل جملةَ ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها مستأنَفةٌ استئنافًا تعليليًّا، سيقت لتعليل مضمون قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾، فقَصْرُ الحياةِ على اللّعب يقتضي عدمَ الانصرافِ إليها وتركِ الجهاد[2].

بلاغة الحَصْر بـ ﴿إِنَّمَا﴾:

شأن الدّنيا اللّعبُ واللّهْو في الغالب

عبّر النّظمُ الجليل بأسلوب الحصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾، فقَصَرَ شأنَ الدّنيا على اللّعب واللّهْو، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ؛ إذِ الدّنيا لا تقتصر على ذلك، ففيها يُعْبَدُ اللّه، ويُجاهَدُ في سبيله، فجعلها محصورةً على اللّعب واللّهْو في الغالب، وذلك لانشغال النّاس بهما، وهما السّببُ في شِدّة تعلّق النّاس بالدّنيا، والمُراد من الحَصْر هنا الإشارةُ إلى حقارة الدّنيا[3].

بلاغة التّشبيه:

عبّر النّظمُ الجليل بأسلوب التّشبيه في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَا

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 77.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 132.
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 114.

تحذير المؤمنين من التّعلّق بالدّنيا وترك الآخرة

﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾، وهو تشبيه بليغ؛ حيثُ حُذِفت منه الأداةُ ووجهُ الشَّبَه، فَشَبَّه أحوالَ الدّنيا باللّعب واللّهْو، ووَجْهُ الشّبهِ: عدمُ ترتّبِ فائدةٍ ونفعٍ عليها؛ وذلك لأنّها تفنى وتنقضي. والغَرضُ منه: تحذير المؤمنين مِن انصرافهم عن الجهاد ومقابلةِ العَدوِّ بسبب حُبِّ الدّنيا ومَلذّاتها[1]، وتقريرُ حالةِ الدّنيا وقيمتِها في ذِهْن السّامع؛ فلا يَغْتَرَّ بها.

سرّ وصفِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾ بـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

الحياة الدّنيا زائلةٌ، فلا ينبغي للعاقل صرفُ الجُهد في مَلذّاتها

وصف النّظمُ الجليل ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾ بصفة ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾، مع أنّه ورد في بعض الآيات الاكتفاءُ بلفظ الدّنيا؛ لكنّه ورد في هذا الموضع بوصف الحياة بالدّنيا؛ لتَعلّق النّاسِ بها، يُؤكّد هذا التّعبيرُ باللّعب واللّهْو، وهما مرتبطان بحياة الصّبا والشّباب؛ لذلك أراد التّهوينَ من شأنها، حتّى لا يَزداد تعلّقُ النّاس بها، ولا سيما الشّباب؛ فكان التّعبيرُ بقوله: ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ وذلك لبيان دناءتِها وتهوينِ شأنِها عند الله تعالى، والمُراد به: تنفيرُ المُؤمنين عنها[2].

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾:

الحياةُ الدّنيا المعروفة التي يحياها النّاسُ

(أل) في ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ للتّعريف، والمرادُ بها الحياةُ المعروفة الّتي يحياها النّاسُ، ويعيش فيها الخَلْقُ بالأجل المَضروبِ لها من الله، وبأحوالها التي قَدّرها الله لها، ومع كلّ ما فيها من اللّذائذ والمُتع؛ فهي موصوفةٌ بالدّنيا؛ فلا ينبغي إيثارُها على الآخرة.

دلالة التّنكير في قوله: ﴿لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾:

التّنكير للتّهوين من شأنها، والتّقليل من نفعها

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن اللّهْو واللّعب بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾: تهوينًا لشأنها،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 133.
(2) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 35.

وتقليلًا لنفعها، فهي أعمالٌ ضائعة سافلة، ومشاغلُ تُثير اللّذّاتِ، لا طائلَ من ورائها[1].

علّة تقديم اللّعب على اللّهْو:

اللّعب عِلّةٌ للهوِ وآلةٌ له

قدّم النّظمُ الجليل ذِكْر اللّعب على اللّهْو في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌۚ﴾، مع أنّه في بعض الآيات قَدّمَ اللّهْو على اللّعب، ولكلّ موضعٍ سياقُه المناسبُ لتقديم كُلٍّ منهما أو تأخيرِه. وهنا قَدّمَ اللّعبَ على اللّهْو؛ لأنّ اللّعب يدلّ على فعلٍ ما لا فائدةَ فيه، وهو بمعنى الهَزْل، فهو ضِدُّ الجِدّ[2]، واللّهْو يدلّ على الاشتغال عنِ الشّيء بشيء آخر[3]؛ فقَدَّم اللّعبَ لأنّه يجري مجرى السّببِ للهو. فَعِلّةُ اللّهْو وجودُ اللّعبِ؛ لأنّ الانصراف عن النّافع إلى غيره، والانشغالَ عن المفيد - وهو مدلول اللّهْو - إنّما كان بسبب فعلِ ما لا فائدةَ منه، وهو مدلولُ اللّعب، فاللّعِبُ يُسبِّبُ اللّهْو وهو أصلُه، فَقُدِّمَ عليه.

وممّا يُذْكَر في سرّ تقديم اللّعب على اللّهْو: أنّ اللّعِبَ يتعلّق بزَمن الصّبا، واللّهْو بزمن الشّباب، وزمانُ الصّبا مُقدَّمٌ على زمان الشّباب. ويمكن أن يقال في عِلّة التّقديم: أنّه جاء مناسبًا لمَقْصِد السّورة، وهو الحَثّ على الجهاد؛ فبدأ باللّعب الذي لا جَدْوَى منه؛ بخلاف اللّهْو، فقد يُتوهَّم وجودُ منفعةٍ فيه، والقرآن في هذا الموضع أراد إرشادَ المؤمنين إلى الحَقّ والجِدّ، وذلك بالجهاد والإنفاق، وليس باللّعِبِ واللّهْو. يُؤكِّدُ هذا: أنّ الخطاب قبل هذه الآيةِ للمؤمنين بالأمر بالطّاعة للّه ولرسوله، وإعلامِهم بحال عدوِّهم من الكفّار[4].

سرّ الجمعِ بين اللّعب واللّهْو:

بين اللّعب واللّهو عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ

جمع القرآنُ الكريم بين اللّعب واللّهْو في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ

(1) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 35.
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (لعب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لهو).
(4) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/ 156.

﴿ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾؛ وذلك لما بينهما من علاقة قَويّة؛ فبينهما عمومٌ وخصوص وجهيٌّ؛ فهما يجتمعان في العمل الذي فيه ملاءمةٌ ويقارنُه شيءٌ من الخِفّة والطّيش؛ كالطّرب واللّهْو بالنّساء، وينفرد اللّعبُ في لَعِب الصّبيان، وينفردُ اللّهْوفي لهو الشّباب؛ نحو: الميسر والصّيد[1].

دلالة العطف بالواو في قوله: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ﴾:

الإيمان والتّقوى تذكيرٌ بوجوب امتثال النّهي عن الوهن

عَطَفَ النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾ بالواو على الجملة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾، وفائدة هذا العطفِ التّذكيرُ "بأنّ امتثالَ هذا النّهيِ هو التّقوى المحمودةُ، ولأنّ الدّعاءَ إلى السَّلْم قد يكون الباعثُ عليه حُبَّ إبقاءِ المالِ الذي يُنفق في الغَزو، فذُكِّروا هنا بالإيمان والتّقوى؛ ليَخْلَعوا عن أنفسهم الوَهْنَ؛ لأنّهم نُهوا عنه وعن الدّعاء إلى السَّلْم، فكان الكَفُّ عن ذلك من التّقوى"[2]. كما أنّه إعادةٌ للوَعد المذكور في الآية السّابقة: ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾[3].

دلالة التّعبير بـ (إنْ):

الدّوام على الإيمان لا افتراضُ وقوعِه

عبّر النّظم الجليل بحرف الشّرط (إنْ) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾؛ وذلك لأنّ المخاطَبين بالآية هم مؤمنون، فوقوعُ الإيمانِ في الشّرط لا يُراد منه تحقيقُ الإيمان؛ لكونه مُحقَّقًا حاصِلًا، فالمُراد من الشّرط الدّوامُ على الإيمان، لا افتراضُ وقوعه[4]، فلذا جاء بالأداة الدّالّة على التّوقّع والافتراض.

دلالة التّعبير بأسلوب الشّرط:

جاء التّعبير بأسلوب الشّرط بقوله: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 193.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 133.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 62.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 134.

تعليقُ إيتاء الأجر بالمداومة على الإيمان؛ للدّلالة على وقوع الجزاءِ على وجه اليقين

﴿أُجُورَكُمۡ﴾؛ وذلك بتعليق إيتاء الأجر بالمداومة على الإيمان؛ للدّلالة على وقوع ذلك الجزاءِ على وجه اليقين، فجرى ذِكْرُه كطريقة التّعاقد. وفيه دعوةٌ إلى المداومة على الإيمان والتّقوى؛ لتحصيل الأجر العظيم الذي أعدَّهُ اللّه لِمَن امتثلَ أمرَ الإيمانِ، والتزمَ التّقوى، ولبيان أنّ الإيمان والتّقوى هما طريقُ السّعادةِ في الدّنيا والآخرة.

دلالة التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾:

تحقّقُ الجزاءِ يكون بالمداومة على الإيمان والتّقوى

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع في فعل الشّرط في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على الدّوام على الإيمان والتّقوى وتجدُّدِهما، وأنّ إيتاءَ الأجرِ إنّما يكون بشرط الدّوام عليهما.

دلالة عطفِ التّقوى على الإيمان:

الإيمانُ ما وقَرَ في القلب وصَدّقه العملُ

عطف النّظمُ الجليل التّقوى على الإيمان في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على أنّ مُطلَقَ الإيمانِ لا يكفي في تحقيق الأجور، بل العملُ هو ما يُصَدّق الإيمانَ، فالإيمانُ اعتقادٌ والتّقوى عملٌ، أي: "وإن تؤمنوا باللّه وتتّقوا الكُفرَ والمعاصي"[1].

سرّ تقديم الإيمان على التّقوى:

الإيمان باللّه ورسوله أوّلًا ثمّ التّقوى؛ فمَرتبةُ التّقوى أعلى من مرتبة الإيمان

قَدّمَ النّظمُ القرآنيُّ الإيمانَ على التّقوى في قوله: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾؛ لأنّ الإيمان باللّه وبرسوله يأتي أوّلًا؛ ثمّ بعدَ ذلك تأتي التّقوى؛ التي هي امتثالٌ لكلّ ما أمر اللّه به، واجتنابٌ لكلّ ما نهى اللّه عنه، وعلى ذلك تكون مرتبةُ التّقوى أعلى من مرتبة الإيمان.

دلالةُ حَذْفِ متعلّق ﴿تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾:

حُذِفَ متعلّق كُلٍّ من الإيمان والتّقوى في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ

(1) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 79.

﴿وَتَتَّقُواْ﴾؛ لإفادة العموم، وهو الإيمانُ بكلِّ الأركان، ولا يكون إيمانُ العبدِ كاملًا إلّا إذا تحقّقَ بكلِّ هذه الأركانِ. وكذلك مع التّقوى حُذِفَ المُتعلِّقُ لإفادة العموم، والمُراد: اجتنابُ كُلِّ أنواعِ المخالفات والمعاصي، التي توصِلُ إلى غضب اللّه تعالى؛ فضلًا عن الحِرمان من الثّواب.

حُذِفَ متعلِّقُ الإيمان والتّقوى لإفادة العموم

سرّ التّعبير بالإيتاء في قوله: ﴿يُؤۡتِكُمۡ﴾:

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالإيتاء في قوله: ﴿يُؤۡتِكُمۡ﴾؛ لأنّه يُستعمَل في الأمر العظيم والعطاء الكثير؛ لذلك كان مناسبًا أن يُعَبّر به مع الأجر، وفي هذا ترغيبٌ بالإيمان والتّقوى؛ للفَوز بالأجر العظيم؛ لأنّ الذي يُعطيه هو اللّه تعالى.

يُستعمَل الإيتاء في الأمر العظيم والعطاء الكثير

دلالة التّعبير بالجواب فعلًا مضارعًا:

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن الإيتاء في جواب الشّرط بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾؛ وذلك للدّلالة على دوام منحتِه لهم، وتَجدُّدِ إكرامِه بالإيفاء بمجازاتهم، تعبيرًا عن سعة رزقِه ورحمتِه.

الإكرام الإلهيّ متجدِّدٌ غيرُ منقطعٍ

دلالة التّعبير بالأجور جمعًا:

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن الأجر بصيغة الجمع في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على أنّ الأعمال كثيرةٌ، فكانت الأجورُ كثيرةً تبعًا لها، أي: "ثوابُ كلِّ أعمالكم ببنائها على الأساس، ولأنّه غنيٌّ لا يُنقِصُهُ الإعطاء"[1].

كثرةُ الأجور دلالةٌ على كثرة الأعمال الصّالحة

سرّ التّعبير بالأجر دونَ غيره:

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالأجر دون الجزاء أو الثّواب؛ لأنّ الأجر يَحْمِلُ معنيين: **الأوّل:** جزاء العمل، **والثّاني:** جبرُ العَظْمِ

(1) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 35.

الأجر جبرٌ وتعويضٌ عمّا بَذله العاملُ من جُهْد

المَكسور. وهذا المعنى واضحٌ في أُجرة العامل؛ لأنّها بمنزلة تعويضِه عمّا بَذله من جُهْد؛ فهذا التّعويضُ كأنّه شيءٌ يُجْبَر به كما يُجْبَر العَظمُ المَكسور، ولأنّ الأجر في القرآن لا بدّ وأن يسبقَه عملٌ وجُهْدٌ، وهذا واضحٌ في سياق الآيات، من امتثال الطّاعة لله ورسوله في فعل الخيرات وتلبية الجهاد[1].

دلالة إضافةِ الأُجور إلى ضمير المخاطَبين:

الأعمالُ الصّالحة تُثْمِر الأُجور، ويُجازي الله العاملين عليها

إضافةُ الأُجورِ إلى ضمير المخاطَبين في قوله: ﴿أُجُورَكُمْ﴾؛ للدّلالة على أنّ هذه الأُجور هي جزاءٌ عن أعمالهم التي قدّموها[2]، فهو تبشيرٌ لهم بأنّ أعمالَهم تُثْمِر الأُجور، وأنّ الله تعالى يُجازيهم عليها.

دلالة عطفِ نفي سؤالِ المالِ على إيتاء الأجور:

إيتاءُ الأجر تفضُّلٌ من الله بلا كُلفةٍ في مالهم

عطف النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾ على جملة جواب الشّرط[3]، وهي قوله تعالى: ﴿يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على أنّ الله تعالى يتفضّل عليهم بالخيرات، وذلك بإيتاء أُجورِهم تفضّلًا منه، فلا يحتاج إلى أموالهم.

سرّ ذِكْر المالِ في الجملة المعطوفة على الجواب:

المالُ والاهتمام به من أهمّ بواعث الدّعاء إلى السَّلْم

ذُكِرَ المالُ في الجملة المعطوفة على الجواب في قوله: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾، في سياق ذِكْر النّهي عن الوَهْن والدّعاء إلى السَّلْم؛ لأنّ المالَ والاهتمام به من أهمّ بواعث الدّعاء إلى السَّلْم[4].

سرّ التّعبيرِ بالسّؤال دونَ الطّلب:

لمّا كان السّؤال يتعلّق باستدعاء المال أو ما يُؤدّي إليه؛ ناسبَ التّعبيرُ به دونَ الطّلب

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالسّؤال دونَ الطّلب في قوله: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ﴾؛ لوجود فرقٍ بينهما؛ فالسّؤال لا يكون إلّا كلامًا، والطّلب يكون بالسّعي. وأيضًا: فإنّ السّؤال استدعاءُ معرفةٍ أو ما يُؤدّي

(1) محمّد داوود، الفروق الدّلاليّة، ص: 47.
(2) ابن الأحنف، البستان في إعراب مشكلات القرآن: 3/ 90.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 239.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 134.

إلى المعرفة، واستدعاءُ مالٍ أو ما يُؤدّي إلى المال؛ فلمّا كان السّؤال يتعلّق باستدعاء المال؛ ناسبَ التّعبيرُ به في قوله: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾؛ بخلاف الطّلب فإنّه يُطلَق على الفَحْص عن وجود الشّيء عينًا كان أو معنًى، وهذا غير مناسب لسياق الآية[1].

دلالة التّعبير بالمضارع المَنْفيّ ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ﴾:

رفعُ المشقّة عن العباد في عدم تكليفهم بما لا يطيقون

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع المَنفيِّ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على تجدّد انتفاء سؤالِهم أموالَهم، وأنّه حكمٌ دائم مستمرّ، فنفيُ المضارعِ يدلّ على تجدّد النّفي، لا على نفي التّجدّد.

دلالة التّعبير بالأموال جمعًا مضافًا:

لا يريد الله تعالى العنتَ بعباده فلا يسألهم عمومَ أموالِهم

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن الأموال بصيغة الجمع في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على أنّه لا يسألهم جميعَ مالِهم، بل المسؤولُ منها جُزءٌ يسير، وهو رُبُع العشرِ[2]. وإضافته تدلّ على العموم؛ لأنّ الجمع عند إضافته يكون من صيغ العموم، فالمُراد: جميع أموالكم[3]؛ وذلك لأنّ سؤال جميعِ الأموال سيُخلّ بالمعاش، فلذا اقتصر على جُزء يسير منها[4].

سرّ فصلِ قوله: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ﴾:

عدمُ سؤالِه لعموم الأموال لعلمه سبحانه بطبيعة الإنسان

فَصَلَ النّظمُ الجليل جملةَ: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها سيقت لتعليل النّفي السّابق، فلمّا قال تعالى: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾ أتبعَه ببيان عِلّة عدم سؤالِه جميعَ أموالهم[5]، فالجملة استئنافٌ تعليليٌّ.

(1) الرّاغب، المفردات: (سأل، طلب).
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 62.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 220.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 102.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 135.

سرّ التّعبير بأسلوب الشّرط:

البُخل متعلّق بسؤال جميع الأموال تعلّقَ السّببِ بالمُسبِّب

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بأسلوب الشّرط في قوله: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ﴾؛ لأنّ البُخل متعلّق بسؤال جميع الأموال تعلّقَ السّببِ بالمُسبِّب، فوقوعُه حتميّ مؤكّد.

دلالة التّعبير بـ ﴿إِن﴾ في قوله: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا﴾:

استخدام (إنْ) دالٌّ على القِلّة في وقوع الحَدَث في بعض معانيها

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بـ ﴿إِن﴾ في قوله: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا﴾ دونَ غيرِها؛ لأنّها تدلّ على القِلّة في وقوع الحَدَث في بعض معانيها، وهو المناسِبُ هنا لما تقدَّم من قوله: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾، ولو سألكم لبَخِلتم، ولا تعطوا شيئًا؛ فأمرُ السّؤال هنا مبنيٌّ على الفَرَض؛ أي: إن يَأۡمُركُم بإخراج جميع أموالِكم تبخلوا بها.

دلالة التّعبير عن السّؤال بالفعل المضارع:

السّؤال المُتجدّد يُظهِر البُخلَ ظهورًا متجدّدًا

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع في فعل الشّرط في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على أنّ تجدّد الشّرط يدلُّ على تجدُّدِ الجوابِ على الدّوام، فتكرارُ سؤالِهم الأموالَ سيتكرَّرُ معه البُخلُ.

سرّ العطفِ بالفاء في قوله: ﴿فَيُحۡفِكُمۡ﴾:

الإحفاءُ يَعقِبُ السّؤالَ ويتسبّب عنه

عطف النّظمُ الجليل الإحفاءَ على السّؤال في الشّرط في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ﴾؛ لجعل كِلا الفعلين للشّرط[1]، وإنّما آثَر العطفَ بالفاء للإشارة إلى أنّ الإحفاء يَعْقِبُ السّؤالَ ويتعلّقُ به، فلا يكون إحفاءً إلّا بتقدّم السّؤال[2]، وهذا المعنى لا يتأتّى من العطف بالواو؛ لأنّ العطف بالواو يكون للمِثْلَين[3].

(1) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 9/ 707.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 63.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 328.

سرّ التّعبير بالإحفاء في قوله: ﴿فَيُحۡفِكُمۡ﴾:

الإحفاءُ المبالغةُ وبلوغُ الغاية في طلب الشّيء

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالإحفاء في قوله: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ﴾؛ لأنّه يحمل معنى المبالغة، وبلوغِ الغاية في طلب الشّيء، يقال: أحفى شاربَه إذا استأصله؛ أي: أخذ أصلَه، وهو كنايةٌ عن أخذ الجميع؛ فيكون المعنى: فيُجْهِدُكم بطَلَبِ الكلِّ، وفي ذلك مشقّةٌ عليكم، وهذا غيرُ مُراد(1).

دلالة التّعبير عن الإحفاء بالمضارع:

تجدّدُ الإحفاء تبعًا لتجدّد السّؤال

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن الإحفاء بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾؛ لأنّه مُسَبّبٌ عن السّؤال، والسّؤال جيء به بصيغة الفعل المضارع، فكان متجدّدًا، فيكون الإحفاء في السّؤال متجدِّدًا كذلك.

دلالة التّعبير بجواب الشّرط فعلًا مضارعًا:

لو تكرّر السّؤال لتكرّر البُخل

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع في جواب الشّرط في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على تجدّده بتجدُّد الشّرطِ، فلو طلبها على وجه التّكرار والاستمرار لظهر منكم البُخلُ على الدّوام.

سرّ التّعبير بالبُخل في قوله: ﴿تَبۡخَلُواْ﴾:

البُخل منعُ ما يرتضيه الشّرعُ والمُروءة

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالبُخل في قوله: ﴿تَبۡخَلُواْ﴾؛ لأنّ البُخل معناه عدمُ الإعطاء، وهذا بيانٌ لطبيعة النّفس التي تحرص على اقتناء المال، ولمّا كان الأمر يتعلّق بالإنفاق على الجهاد، أو في أمر الزّكاة؛ كان المُراد بالبُخل منعَ ما يرتضيه الشّرعُ والمُروءة، ولا سيما إذا كان السّؤال للمال كلّه.

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 48.

دلالة عطفِ الإخراج على البُخل:

إظهارُ الضّغائن متحتّمٌ لو وقع السّؤالُ بعموم الأموال

عطف النّظمُ الجليل إخراجَ الأضغانِ على البُخل[1] في قوله جلّ شأنه: ﴿تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾؛ لأنّ سؤال الأموال علّةٌ في إخراج الضّغائن، فقد راعى اللّه تعالى بعدم سؤالِ عموم الأموال حالَ كثيرٍ من النّاس في المدينة، ممّن هم حديثو عهدٍ بالإسلام، وقد بذل بعضُهم من ماله للمهاجرين، فلم يسألهمُ اللّه تعالى زيادةً على ذلك، وكان بينهم من أهل النّفاق من يترصّد الفُرصَ للفتنة، كما حكى القرآنُ الكريم عنهم: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ [المنافقون: 7]، فعَطْفُ إخراج الضّغائن يدلّ على أنّ الضّغائن قد حدثت، فيكون السّؤالُ علّةً في ظهورها[2].

دلالة التّعبير بالإخراج مادّةً وصيغةً:

إظهارُ الأضغان وإبرازُها مع تكرار ظهورها وتجدّدها

عبّر النّظمُ الجليل بالإخراج في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على إظهار الأضغان وإبرازها[3]، وجاء التّعبيرُ بصيغة المضارع للدّلالة على تكرار وتجدّد ظهور الضّغائن.

سرّ التّعبير بالأضغان في قوله: ﴿أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾:

الضّغنُ يدلّ على قوّة الحقد وشدّته مع محاولة إخفائه

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالأضغان في قوله: ﴿وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾ دونَ الأحقاد؛ لأنّ الأضغان تدلّ على الحقد الشّديد والخفيّ، ولأنّ الإضغان في اللّغة معناه الاشتمال بالثّوب وبالسّلاح، وهما يُشيران إلى قوّة الحقد ومحاولةِ إخفائه، ولذلك جاء وصفُ الضّغن مع المنافقين؛ لأنّهم يحقدون على المسلمين حِقدًا شديدًا. وممّا يُؤكّد هذا أنّ البنية اللّغويّة لمادة (ضغن) أقوى من مادة

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 228.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 135.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 63.

(حقد)؛ فالصّفات الموجودة في الضّاد تُدَلّل على ذلك؛ ففيها الشّدّة والاستعلاء.

دلالة التّعبير عن الأضغان جمعًا مضافًا:

لكلّ إنسان نصيبٌ من الضّغن إلّا من عَصَمَه الله

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن الأضغان بصيغة الجمع في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على كثرتها، ودلّت إضافتُها للضّمير على أنّ " كلّ إنسانٍ ينطوي بما له من النّقصان، على ما جُبِلَ عليه من الأضغان، إلّا مَن عصمَ الرّحيمُ الرّحمن"[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 267.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمّد ﷺ: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

إقامة الدّليل على وجود صفة البُخل في طلب القليل

لمّا أخبر النّظمُ الجليل في الآية السّابقة بأنّهم سيبخلون لو سألهم إنفاقَ جميعِ أموالِهم؛ أتبعَهُ بتأكيد ذلك المعنى في هذه الآية، وأشار إلى دليله بأنّ منهم مَن يبخل بما سألهم إيّاه، وهو جُزء يسير من أموالهم، فالآيةُ تأكيد وتقريرٌ لما سلف(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾: (غني، غنى) أصلٌ يدلّ على الكفاية(2)، والغنيّ: ذو الوَفرة، والغَناءُ: الاستغناء والكفاية، ورجلٌ مُغْنٍ، أي: مُجزئ. والغانيةُ: الشّابةُ المُتَزَوِّجة غَنيَت بزَوْجها، وغَنيَت بجمالها عن الزّينة(3)، والغُنْيَةُ: اسْمٌ من الاسْتِغْناءِ عن الشَّيْءِ(4). والغِنَى يكون مُطلقًا، وهو عدم الحاجةِ بالكليَّة، وليس ذلك إلاَ للّه تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٦﴾ [لقمان: 26]. ويكون الغنى باعتبار قلَّة الحاجات، وهو المُشار إليه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾ [الضّحى: 8](5). والمُراد به في الآية الكريمة: "المُتنزِّهُ عن الحاجة إلى أموالكم"(6).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 268، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 78.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غني).
(3) الخليل، العين: (غني).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (غني).
(5) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (غنى).
(6) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 81.

2) ﴿يَسۡتَبۡدِلۡ﴾: (بدل) أصلٌ يدلّ على قيام الشّيء مقامَ الشّيءِ الذّاهب؛ يقال: هذا بدلُ الشّيء وبديلُه[1]. والبَدَلُ: خَلَفٌ من الشّيء، واستبْدَلْتُ ثوبًا مكانَ ثَوبٍ، وأخًا مكانَ أخٍ، ونحوُ ذلك المُبادَلةُ[2]. يقال: أبدَلْتُ الخاتم بالحلْقَة: إذا نَحَّيتَ هذا وجعلت هذا مكانَه، وبَدَّلْتُ الخاتمَ بالحَلَقة[3]، والتّبديل قد يقال للتّغيير، وإن لم يأت ببدله، قال تعالى: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ﴾ [سبأ: 16]. وقولُه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ المُراد به في الآية الكريمة: "يُقِم مقامَكم قومًا آخَرين"[4].

3) ﴿أَمۡثَٰلَكُم﴾: (مثل) أصلٌ يدلّ على مناظرة الشّيءِ للشّيء[5]. والمِثلُ: شِبْهُ الشّيءِ في المِثال والقَدْر ونحوه، حتّى في المعنى. ويقال: ما لهذا مَثيلٌ. والمِثالُ: ما جُعِلَ مِقدارًا لغيره[6]. والمَثَل والمَثيل، كالشِّبْه والشَّبَه والشّبيه لفظًا ومعنًى، والجمع: أمثال[7]. والمِثل يقال على وجهين؛ أحدهما: بمعنى المِثْل، نحو: شِبْهٍ وشَبَهٍ. والثّاني: عبارةٌ عن المشابهة لغيره في معنًى من المعاني[8].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

التّنفير من عواقب البُخل بالدّعوة إلى الإنفاق

يخاطب اللّه عبادَه المؤمنين بقوله: ها أنتم تُدْعَون إلى النّفقة في جهاد أعداء اللّه ونُصْرة دينِه، فمنكم مَن يَبْخَلُ بالنّفقة في سبيل اللّه، ومَن يَبْخَلْ فإنّما يبخلُ عن نفسه، فهو الذي يخسر أجرَ الإنفاق في سبيل اللّه، فإنّ اللّه تعالى هو الغنيُّ عن عباده، وأنتم الفقراء المحتاجون

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).
(2) الخليل، العين: (بدل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بدل).
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 125.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).
(6) الخليل، العين: (مثل).
(7) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (مثل).
(8) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (مثل).

إليه، وإنّما حَضَّكُم على النّفقة فى سبيله، لتنالوا بذلك الأجرَ والثّوابَ، وإنّكم إن أعرضتُم عن الإيمان باللّه وامتثالِ أمره، فإنّه يستبدلُكم ويأتِ بقوم آخَرين، ثمّ لا يكونوا أمثالَكم في التّولي عن أمر اللّه، بل يطيعونَه ويطيعونَ رسولَه، ويجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ فصلِ هذه الجملةِ عمّا قبلَها:

البُخلُ صفةٌ فطريّةٌ في النّاس إلّا مَن رحم ربي

فُصِلَت جملةُ: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبلَها لأنّها مستأنَفَةٌ[2]، سيقت لتأكيد مضمونِ الكلام السّابق وتقريره، والمعنى: ها أنتم أيّها المؤمنون تُدْعَون إلى النّفقة، فيَبخلُ بعضُكم[3]، "والدّليل على ذلك أنّ اللّه لو طلب منكم أموالَكم وأَحْفاكُم بسؤالها، فإنّكم تَضنّونَ - بفتح الضاد وكسرها - بها في الوجه الذي فيه مصلحتُكم الدّينيّة والدّنيويّة، قال تعالى: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ﴾"[4]. فهي مُساقةٌ لتأكيدِ المعنى بالدّليل.

دلالة التّعبير بـ ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

جَذْبُ انتباهِ المخاطَبِ لسماع ما يُلْقَى إليه

افتتح النّظمُ الجليل الآيةَ بـ ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بحشد مُؤثّراتٍ لُغَويّةٍ تجعل المُخاطَب في أعلى درجات الانتباه؛ فافتتحه بـ (ها) التّنبيه ليستجلبَ سماعَ المخاطَبِ لما يُلْقَى إليه، فيستمعَ له بحضورٍ وتفهّم[5]. وجيء بضمير المخاطَبِ (أنتم) لتَعيين المرادِ بالتّنبيه ومتعلّق الحُكم، وجيء بـ (ها) الثّانية في اسم الإشارة لتأكيد التّنبيه للمخاطَبين، أي: أنتم أيّها المخاطبون[6].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 78، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 510.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 240.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 78.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 790.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 212.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 137، وينظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 102.

دلالة التّعبير باسم الإشارة مع (ها) التّنبيه:

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ باسم الإشارة مع حرف التّنبيه في قوله جلّ شأنه: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دون أن يقول: (ها أنتم أولاء)؛ فإنّ الأكثر في مثل هذا التّركيب أن يأتي بدون (ها) اكتفاءً بـ (ها) الأولى الدّاخلةِ على ضمير المخاطَب، فجاء بها هنا للتّأكيد والتّنبيه[1]. فمضمونُ الخطابِ يتضمّن مفارقةً يجب الانتباهُ إليها، فإنّه إذ سألَكمُ القليلَ فَبَخِلتُم به، فماذا لو كان قد سألكم عمومَ المال؟ وفي التّعبير باسم الإشارة استحضارٌ للمُخاطَبين في ذِهْن السّامع، ومحاولةُ التّخلّصِ من أمر البُخل الذي يكون علامةً على البخيل بين النّاس.

الحقائق التي تُنكرُها النّفسُ تقتضي تأكيدَ التّنبيهِ عليها

سرّ فَصْلِ جملة ﴿تُدۡعَوۡنَ﴾:

فُصِلَت جملةُ ﴿تُدۡعَوۡنَ﴾ عمّا قبلها في قوله جلّ شأنه: ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّها جملةٌ استئنافيّة سيقت لتأكيد ما سبق وتقريره، لاتّحاد مُحَصِّلٍ للمعنى فيهما؛ فإنّ دعوتَهم للإنفاق هو سؤالُ الأموال منهم[2].

سرّ التّعبيرِ بقوله: ﴿تُدۡعَوۡنَ﴾:

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بقوله: ﴿تُدۡعَوۡنَ﴾ دون (تؤمرون)؛ لِما تحمله الدّعوةُ من التّرغيب في الإنفاق، ولمّا كان المَقامُ في الإنفاق على الجهاد في سبيل الله هو عينُ الدّعوة؛ جاء التّعبير بقوله: ﴿تُدۡعَوۡنَ﴾. وفيه مخاطبةٌ للنّفس بما تُحِب؛ بخلاف الأمر؛ فإنّها تأنفُ منه؛ يُؤَكّد ذلك أنّ الفعل جاء مبنيًّا للمعلوم، وجاء التّعبير بصيغة المضارع ﴿تُدۡعَوۡنَ﴾ للدّلالة على تَجدُّدِ هذه الدّعوة للإنفاق؛ سواء كان في أمر الجهاد أو في حاجة الفقراء والمساكين.

التّرغيب في الإنفاق على الجهاد في سبيل الله هو عينُ الدّعوة

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 212، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 137.

(2) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 80.

الغاية من الدّعوة حثّ المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله

دلالة اللّام في قوله: ﴿لِتُنفِقُواْ﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ (اللّام) في قوله جلّ شأنه: ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّها دالّةٌ على التّعليل[1]، فالغايةُ من تلك الدّعوة الحثّ على الإنفاق في سبيل الله تعالى.

بذلُ المالِ على حُبّه شعارُ أهلِ الإيمان

التّعبير بالنّفقة مادّةً وصيغةً:

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالنّفقة في قوله جلّ شأنه: ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ الإنفاق يدلّ على انقطاع شيء وذهابه، والنّفقةُ سُمّيت بذلك لأنّها تمضي لوجهها[2]. فالتّعبيرُ يدلّ على ذهاب المال لما أُريد له، وجاء التّعبيرُ بصيغة الفعل المضارع للدّلالة على وجوب دوام الإنفاق واستمرارِه، والتّأكيدِ على ثبوت وصْف الإيمان.

حذفُ المعلوم من السّياق إيجازٌ بليغٌ

سرّ حذفِ المفعول به:

حَذَفَ النّظمُ الجليل المفعولَ به لفعل النّفقة في قوله جلّ شأنه: ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فلم يَقُلْ: (لتنفقوا بعضَ أموالكم)؛ لظُهور المعنى من السّياق، إذِ الحديثُ يجري عن إنفاق الأموال، وطلبًا للإيجاز بالاعتماد على وروده سابقًا في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾.

سبيلُ الله تعالى هو الظّرفُ الذي تُنْفَقُ فيه الأموالُ

دلالة التّعبير بالظّرْفيّة:

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ ﴿فِي﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وهي دالّةٌ على الظّرفية، فسبيلُ الله تعالى هو الظّرفُ الذي تُنْفَقُ فيه الأموالُ. وفي التّعبير بالظّرفيّة إشارةٌ إلى توسيع دائرة الإنفاق في كلّ جوانب ما يَحْتَمِلُه التّعبير ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، سواء كان في أمر الجهاد، أو في أمر الاحتياج للفقراء والمساكين، ونحو ذلك.

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 212.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفق).

سِرُّ إيثار السّبيل ودلالةُ إضافتِه لاسم الجلالة:

سِمةُ اليُسْرِ والسُّهولةِ والصّلاحِ عنوانٌ لكلِّ سبيلٍ

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالسّبيل في قوله جلّ شأنه: ﴿لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك للدّلالة على أنّه طريق واضح، صالحٌ للنّاس، فقد نَهَجَهُ اللّه تعالى لهم، وهو المَلِك الأعظم[1]، فإضافتُه إلى الاسم الجليل تزكيةٌ وتشريف له، فسبيلُ اللّه تعالى ينبغي لكلّ ذي لُبٍّ سلوكُه، فهو السّبيلُ الذي يصلح أن يُتّبع. كما أنّه فيه زيادةٌ في التّشويق والحَثّ على إنفاقهم أموالَهم في سبيل نُصْرة الحقّ.

دفعُ توهُّمِ التّعارض بين قوله: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾، وبين قوله: ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

مَن يقرأ قولَ اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾ فيما سبق، يجد أنّه ينفي سؤالَ الأموالِ، ومَن يقرأ قوله: ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجد أنّها تدلّ على السّؤال. وأُجيبَ على ذلك: يجوز أن يكون المعنى: تدعون لتنفقوا في سبيل اللّه لتدفعوا أعداءَكم عنكم، وليس ذلك لينتفع به اللّه تعالى؛ لأنّه الغنيُّ وأنتم الفقراء. ويجوز أن يُحمَل لفظُ ﴿تُدۡعَوۡنَ﴾ على معنى دعوة التّرغيب؛ فتكون الآية تمهيدًا للآيات المقتضية إيجابَ الإنفاق في المستقبل؛ مثل: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [التّوبة: 41]، وعلى ذلك فلا يُتوهَّم التّعارض بينهما[2].

دلالة التّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَمِنكُم﴾:

تفصيل حالِ النّاس في أمر الإنفاق

عبّر النّظم الجليل بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ﴾ وهي هنا للتّفريع[3]، فلمّا ذكر الدّعوةَ إلى الإنفاق أتبعَهُ بتفصيل شأنهم معها[4]، وتفصيلُ حالِهم إنّما يترتّب على ذِكر ما سبق من أمر الدّعوة إلى الإنفاق.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 269.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 136.

(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 119.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 269.

دلالة التّعبير بالجارّ والمجرور (منكم):

البُخل ليس على العموم المطلق، بل هو موجودٌ لدى البعض دون البعض

دلّ التّعبيرُ بالجارّ والمجرور (منكم) على أنّ أمر البُخل موجودٌ لدى البعض دونَ البعض، وليس على العموم المطلق؛ لوجود من يوصفون بالكرم، ولذلك يكون تقديرُ الكلام: فمنكم مَن يبخل، ومنكم من يَجود، وهذا من إنصاف الأحكامِ في القرآن.

دلالة التّعبير بالاسم الموصول ﴿مَّن﴾:

البُخل صفةٌ ظاهرة في عموم النّاس

عبّر النّظمُ الجليل بالاسم الموصول ﴿مَّن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ﴾ دون (الذي)؛ لدلالته على العموم، فليس المرادُ التّعريفَ بالذين يبخلون وإبرازَهُم، بل إظهار أنّ بعضَهم كذلك. فالحكمُ صالحٌ أن يقع على كلّ أحدٍ؛ لأنّه حُكْم عامٌّ لا يختصّ بأحد دون أحد. كما أنّ في الإعراض عن تشخيص مَن يتّصف بتلك الصّفة المذمومة؛ مثالًا مِنْ دَأْبِ القرآنُ على تقديم السّتر والاهتمامِ بالموعظة دون التّشخيص.

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ﴾:

ضَررُ الشّح والبُخل عائدٌ على البخيل نفسِه

افتتح النّظمُ الجليل الجملةَ بالواو الاستئنافيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾؛ لأنها مستأنَفةٌ[1]، سيقت لتقرير أنّ ضَررَ البُخل إنّما يعود على البخيل نفسه، فإنّه يمنع نفسَه الأجرَ والثّوابَ العظيمَ الذي يترتّب على الإنفاق[2].

دلالة التّعبيرِ بأسلوب الشّرط:

ضررُ النّفسِ حاصلٌ ما حصلَ البُخلُ

عبّر النّظمُ الجليل بأسلوب الشّرط في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾؛ للدّلالة على تلازم الضّررِ الذي يقع على النّفس والبُخل الذي يقع من النّفس، وآثَر التّعبيرَ باسم الشّرط (مَن) للدّلالة على عموم الحُكم.

---

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 120.

(2) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 80.

بلاغة أسلوبِ القَصْر في جواب الشّرط:

انتفاءُ المنافع بالبُخل ملازمةٌ للبخيل على وجه الحَصْر

عبّر النّظمُ الجليل عن جواب الشّرط بأسلوب القَصْر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾؛ للدّلالة على أنّ البُخل متعلّقٌ باقتصار ضررِه على صاحبه، فدلّ على الحصر والتّعليق، فكان الكلامُ في غاية التّأكيد. وإنّما أكّده "لأنّه لا يكاد أحدٌ يُصَدّق أنّ عاقلًا يتجاوز بماله عن نفع نفسه"[1]. والقصر فيه قصرُ قَلْبٍ؛ وذلك لأنّ الذي يبخل ظنّ أنّه ببخله يمنع النّفعَ عن غيره، ولكنّ انتفاء النّفع عاد عليه، فَحَرمَ نفسَه من أجر الإنفاق[2].

سرّ تعديةِ الفعل ﴿يَبۡخَلُ﴾ بـ ﴿عَن﴾:

البُخل عن النّفس هو الإمساك عن تحقيق المنافع لها

عدّى النّظمُ الجليل الفعلَ ﴿يَبۡخَلُ﴾ بحرف الجَرّ ﴿عَن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾، مع أنّه يتعدّى بالحرفين (على، وعن)، ولكنه عُدّيَ بـ ﴿عَن﴾ التي تُفيد المُجاوزة؛ لأنّ فعل ﴿يَبۡخَلُ﴾ ضُمِّنَ معنى الإمساك[3].

سرّ التّعبير بالبُخل دونَ الشّحّ مع دلالة تكراره:

تقريع الأسماع بأبغض الصّفات تنفيرًا لهم منها

آثَر القرآنُ الكريم التّعبير بالبخل دونَ الشّحّ؛ لوجود فرق بينهما، فالبُخل غالبًا يكون في الجانب المادّيّ المتعلّق بعَرَض الدّنيا، ولذلك يقابَلُ بالجود؛ بخلاف الشّحّ؛ فهو ما ينبعث عن النّفس من الحرص على منع الخير، ولذلك فهو أوسع من أن يبخل الرّجلُ بماله وفضلِ اللّه عليه؛ فهو يشمل المادّيّ والمعنويّ؛ ولأنّه يتعلّق بمنع الخير من نفسه أو من غيره، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: 9]؛ ولمّا كان البخل يتعلّق بالجانب المادّيّ أو بأعْراض الدّنيا؛ كان مناسبًا لسياق الآية التي تتكلّم عن الأموال[4]. وكرّر النّظمُ الجليل لفظَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 269.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 137.
(3) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 9/ 708.
(4) محمد خضر، دقائق الفروق اللّغويّة، ص: 176.

البُخل في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾؛ وذلك لاستهجانه والتّنفير منه[1]. وفيه تقريعٌ لهم بتَكْرار الصّفة التي هي من أقبح الصّفات لديهم.

دلالة التّعبير بالنّفس وإضافتِها:

الضّرُّ عائدٌ على الباخل لا على غيره

عبّر النّظمُ الجليل بالنّفس في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾؛ للدّلالة على أنّ الضّرر النّاجمَ من البخل لا يعود إلّا على الباخل نفسِه، فإنّ المريض الذي يبخل على نفسه بأُجرة الطّبيب وثمنِ الدّواء، فهو لا يبخل إلّا على نفسه[2]. وفيه تبكيتٌ وتوبيخ للذين يُمسكون أموالَهم ولا ينفقونها في سبيل الله؛ بأن ضرر ذلك يعود عليهم؛ لأنّ الله غنيٌّ عن عباده، فلا يحتاج إلى أموالهم.

بلاغة حَذْفِ مقابلِ البخيل:

مقصود الخطاب بيانُ خُسران البُخلاء

حَذَف النّظمُ الجليل القِسْمَ الآخَرَ من النّاس، وهم الذين يجودون ويستجيبون لدعوة الإنفاق في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ﴾، فلم يَقُلْ: (ومنكم مَن ينفق ويَجود)؛ وذلك لأنّ المُرادَ من السّياق ذَمُّ مَن لا يُنفِقون، والاستدلالُ على ما سبق من ذِكْر البُخل في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ﴾[3].

دلالة التّعبير بالواو في صدر الجملة:

الغنيّ عن العباد لا يسألهم أموالَهم

افتتح النّظمُ الجليل الجملةَ بالواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾، وهي هنا استئنافيّة[4]، والجملةُ مُساقَةٌ تذييلًا لتقرير أنّ الله تعالى غنيٌّ مطلقًا، ومن كان كذلك فإنّه لا يسأل النّاس مالًا لنفسه، والمُخاطَبون فقراءُ محتاجون إليه[5]. كما أنّ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 220.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 17/ 472.
(3) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 35.
(4) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 120.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 138.

الجملة ترفع وهَمَ من يَظُنّ أنّ بُخْلَ النّاسِ يَضرُّ اللّه تعالى، فَرَدّ على ذلك الوَهَمِ بتقرير أنّه غنيٌّ، لا يَحوجُه شيءٌ من عباده[1].

دلالة التّعبير باسم الجلالة:

تعظيمُ حقِّ الألوهيّة للمَلِك الأعظم المتّصفِ بجميع صفات الكمال والجلال

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ باسم الجلالة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾ دون لفظ الرّبّ؛ فلم يقل: (وربّك الغنيّ) كما ورد في بعض المواضع؛ للدّلالة على أنّه المَلِكُ الأعظم المتّصف بجميع صفات الكمال والجلال[2]، فلا يحتاج نفقةً من عباده المُفْتَقِرين إليه. وفي التّعبير بلفظ الجلالة تعظيمٌ لحقّ الأُلوهيّة الذي يلزم منه وجودُ العبوديّة الحَقّة من الإنسان لربّه.

بلاغةُ القصْر في قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ﴾:

الغِنى المُطْلق لا يكون إلّا لله

تَظهر بلاغة القَصْر في قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ﴾، وذلك بتعريف طَرَفَيِ الجملةِ؛ للدّلالة على حَصْر الغَناءِ به تعالى، فاللّه تعالى الغَنيّ لا أحدَ غيرُه، وهو قَصْرُ صفةٍ على موصوف قَصْرًا ادّعائيًّا؛ لأنّه تعالى يجعل بعضَ عبادِه مستغنيًا عن بعضٍ غَناءً جُزئيًّا، والتعْريف باللّام لتعريف الجِنس، فجِنسُ الغَناء المُطلقِ له تعالى مقصورٌ عليه، وفي هذا تعبيرٌ عن كمال غناه ﷻ[3].

دلالة التّعبير بالواو في قوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾:

غنى الغنيّ مُؤكَّدٌ بفقر الخَلْقِ إليه

عَطَفَ النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ﴾[4]، فكِلا الجُملتَين سيقتا للتّذييل؛ تقريرًا لمعنى الآية. فلمّا قَرَّر أنّ اللّه تعالى هو الغنيّ أتبعَهُ بتقرير فقرِهم، وحَصَرَ صفةَ الفقرِ بهم، لتأكيد غناه عنهم؛ أي: وأنتم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 269.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 270.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 138.
(4) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 120.

"المقْصورون على الفقر والاحتياج الذّاتيّ إلى ما عنده سبحانه من أنواع الإنعام والإحسان"[1].

دلالة التّعبير بالجملة الاسميّة: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾:

الفقر صفةٌ خاصّةٌ بالنّاس

عبّر النّظمُ الجليل بالجملة الاسميّة بتعريف طرفيها في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾؛ للدّلالة على حصر صفة الفقر في العباد، أي: أنتم الفقراء خاصّة[2]. وهو قَصْرُ صفة على موصوف، والتّعريفُ فيه تعريفُ الجنس؛ للإيذان بكمال الوصف فيه[3]، كأنّهم لكثرة افتقارِهم وشِدّة احتياجِهم هم الفقراء دونَ غيرِهم.

دلالة التّعبير بالفقر:

الاحتياجُ صفةٌ ذاتيّةٌ في البشر

عبّر النّظم الجليل بالفقر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾؛ للدّلالة على الاحتياج، أي: أنتُم الفقراء المحتاجون إلى ما عندَه من الخير والبَركة والرّحمة[4]، فالعبادُ بهم حاجةٌ ذاتيّة لما عندَه سبحانه من الإنعام والإحسان[5].

دلالة التّعبير بالواو في قوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾:

عدمُ الإيمان والتّقوى سبيلٌ للاستبدال

عَطفَ النّظمُ الجليل الجملةَ الشّرطيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾، على الجملة الشّرطيّة[6] وهي قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾، أي: إن تتولّوا عن الإيمان والتّقوى، فإنّه يَستَبْدِلُ قومًا آخرينَ بِكُم أطوعَ للّه منكم[7].

دلالة التّعبير بـ (إنْ) الشّرطيّة:

تولّي المؤمنين غيرُ واقعٍ إلّا على سبيل الافتراض

عبّر النّظمُ الجليل بأداة الشّرطِ (إنْ) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن

---

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 333.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 270.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 138.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 274.
(5) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 333.
(6) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 17/ 472.
(7) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 81، وينظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 138.

﴿تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾؛ لأنّ السّياق في الافتراض، وأنّه ليس متوقَّعًا حدوثُه من أهل الإيمان.

دلالة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

تأكيدُ وقوعِ الجوابِ عند وقوعِ الشّرطِ، فالاستبدالُ حتميٌّ عند التَّوَلّي والإعراض

جاء التّعبير بالجملة الشّرطيّة: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على تأكيد وقوع الجواب عند وقوع الشّرط، فالاستبدالُ حتميّ عند التّولي والإعراض؛ فبينَ التّولّي والاستبدال تلازمٌ ظاهِر.

دلالة التّعبير بالتّولّي مادّةً وصيغةً:

مخالفة الفطرة بترك طاعةِ الله تعالى لا تقع إلّا بِكُلْفَةٍ

عبّر النّظمُ الجليل بالتّولّي في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ دونَ الإعراض؛ لأنّه أعمُّ، فقد يكون بالجِسْم، وقد يكون بترك الإصغاء أو الائتمار، بخلاف الإعراض؛ فإنّه يكون بالوجه، يقال: أعرض، أي: أظهر عَرْضَه، أي: ناحيتَه، فإذا قيل: أعرض عنّي؛ فمعناه: ولّى مُبديًا عَرْضَه، وعلى هذا فالتّولّي أعمّ من الإعراض؛ لذلك آثَر التّعبيرَ به لدّلالته على الإعراض وتركِ الطّاعة[1]. وجاء التّعبير بصيغة (التّفعّل) للدّلالة على تكلّف التّولّي والاجتهاد فيه. والتّولّي يكون مُتكلَّفًا؛ لأنّه مخالفٌ للفطرة، فهو إجبارٌ للنّفس للسّير ضِدّ ما فطرها اللّه تعالى عليه[2].

دلالة التّعبير بالاستبدال مادّةً وصيغةً:

شدّةُ المُبالغة في التّهديد للعصاة، باسْتِبْدالِ قومٍ آخرينَ بهم

عبّر النّظمُ الجليل بالاستبدال في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾؛ لدلالته على جَعْل شيءٍ مكانَ آخَر[3]، فإنّه تعالى سيأتي بقوم يُطيعون اللّه تعالى ولا يعصونَهُ، فيكونون أطوعَ من المُخاطَبين[4]. وجاء التّعبير بصيغة الفعل المضارع للدّلالة على

---

(1) الرّاغب، المفردات: (ولي).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 270.
(3) الرّاغب، المفردات: (بدل).
(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 17.

وقوع ذلك كلّما وقعَ التّولّي، فهو وقوعٌ مُتكرِّرٌ مُتجدِّدٌ، والسّين والتّاءُ فيه للدّلالة على المبالغة(1).

دلالة التّعبير بلفظ القومِ وتنكيره:

الوصفُ بالقوم مُنَكَّرًا؛ فيه ثناءٌ ومـــدحٌ لـهـم، وأنّهم ذَوو قوّةٍ وكفايةٍ لما يُطلب منهم

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ (القوم) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على أنّهم ذَوو قوّةٍ وكفايةٍ وقُدرةٍ على ما يطلب منهم فعلُه(2). فالتّعبير بالقوم هنا فيه ثناءٌ ومدح لهم، وتوبيخٌ وتَبْكيتٌ للعُصاة الذين أعرضوا عن منهج اللّه.

دلالة التّعبير بـ (غير) مع دلالة إضافتِها إلى ضمير المخاطَب:

الـقـوم الـذيـن سيأتي الله بهم مخالفون لصفة المُخاطَبين ممّن يبخل منهم

عبّر النّظمُ الجليل بـ (غير) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على أنّ القوم الذين سيأتي بهم اللّه مخالفون لصفة المخاطَبين ممّن يبخل منهم، فهم راغبون في الإنفاق في سبيل اللّه تعالى(3). وإضافة (غير) لا تُكسِبه تعريفًا لأنّه موغِلٌ في الإبهام؛ لأنّ ﴿غَيۡرَكُمۡ﴾ تشمل كلَّ النّاسِ من الأقوام الآخَرين، فالمُراد هو المخالفة في الصّفة التي ذُكِرت في السّياق، وهي التّولّي، فالمغايرةُ وقعت في صفة التّولّي التي حُذِّرَ منها المُخاطَبون(4).

سرّ العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾:

الدّلالة على أنّ هؤلاء القومَ في غاية البُعْد عن البُخل والتّولّي

عطفَ النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ على جملة الاستبدال في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾(5)؛ لأنّ كلتا الجُملتَين واقعتان في حيّز الشّرط، وقد جاء العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ للدّلالة على أولئك القوم الذين سيكونون في غاية البُعْد عن مشابهتهم، فلا يقع منهم البُخل ولا التّولّي. ويجوز أن

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 138.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 270.
(3) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 285.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 271.
(5) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 9/ 708.

تكون "للتّرتيب الرُّتبيِّ؛ لإفادة الاهتمام بصفة الثّبات على الإيمان وعُلوّها على مُجَرّد الإيمان، أي: ولا يكونوا أمثالكم في التّولّي"(1).

دلالةُ التّعبير بنَفْيِ فعلِ الكَوْن:

المبالغة في نفي التّشابهِ بين السّابقين واللّاحقين نفيًا وجوديًّا

عبّر النّظم الجليل بنفي فعل الكون في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾؛ للدّلالة على نفي التّشابهِ نفيًا وجوديًّا، وهذا مبالغةٌ في النّفي، فلم يقل: (قومًا غيركم لا يشبهونكم)؛ لأنّ نفي الكونِ على صفة المشابهة أبلغُ من نفي المشابهة مباشرة.

دلالة التّعبير بالأمثال مادّةً وصيغةً:

كلّ فَردٍ من القوم مغايرٌ لكلّ واحد من الذين يبخلون

عبّر النّظمُ الجليل بالأمثال في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾؛ للدّلالة على نفي صفة المماثلة، والمقصودُ أن ينفيَ وجهَ الشّبهِ، أي: لا يكونوا مثلَهم في التّولّي عن الإنفاق(2). وجاء التّعبير بصيغة الجمع ليكون شاملًا لكلّ فردٍ منهم.

علاقة ختام السّورةِ بمطلَعِها:

التّناسبُ والارتباطُ الواضح بين ختام السّورة وصَدرِها

النّاظر في ختام سورة محمّد ﷺ يجد ارتباطًا واضحًا بين الختام وصَدرِ السّورة؛ حيثُ بدأت السّورةُ بالحديث عن الكافرين وصَدّهم عن سبيل اللّه؛ ثمّ جاء ختامُ السّورةِ في نفس السّياق؛ حيثُ تحدّثَ عن الذين كفروا وصَدّوا عن سبيل اللّه، وشاقّوا الرّسولَ. وفي أوّل السّورة تحدّث عن بُطلان أعمالهم وحُبوطِها، وفي ختام السّورة تَحَدَّث عن حُبوط أعمالهم بقوله: ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، وهكذا من أوجه التّشابه بين آخر السّورة وصَدرِها؛ لأنّ موضوع السّورة يدور حولَ الكفرِ والصّدِّ عن سبيل اللّه ونتائجِه. وأيضًا: ممّا يُذْكَر في علاقة ختام السّورة بأوّلِها: أنّ موضوعَ الجهادِ في سبيل اللّه ذُكِر في أوّلها وصَدّ الكفّار عنه، وختامُ السّورةِ يدعو إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 139.
(2) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 36.

الإنفاق في سبيل اللّه في كلِّ وُجوه الخير، وعلى رأسها الجهادُ، إلى غير ذلك من الوجوه.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التولي والإعراض:

التّوَلّي ابتعادٌ عن المَدعوِّ إليه، والإعــراض صَدٌّ ورفضٌ

التّولّي إذا عُدّي بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا، فإنّه يقتضي معنى الإعراض وتَرك القُرْبِ من الشّيء، وهو قد يكون بالجِسْم، وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار[1]، فيدلّ على ترك الطّاعة. أمّا الإعراضُ: فأصلُه من العَرْض الذي يخالف الطّوْل. وأعرضتُ عن فُلان، وأعرضتُ عن هذا الأمر، وأعرض بوجهه؛ لأنّه إذا كان كذا، ولّاهُ عَرْضَه[2]، وأعْرَضَ عنّي، معناه: ولّى مُبديًا عَرْضَهُ[3]. فالإعراضُ: صَدٌّ وعدمُ قَبولٍ. أمّا التّولّي: فَرَفْضٌ وتَرْكٌ للطّاعة وبُعْدٌ عنه. وقد آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالتّولّي لأنّ المُخاطَبين هم في حِزْب الإيمان، فكان تركُهم الطّاعةَ مُعبِّرًا عن بُعْدِهم بعد قُرْبِهم.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (ولي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرض).
(3) الرّاغب، المفردات: (عرض).

سُورَةُ الفَتح

سُورَةُ الفَتْحِ

التَّعريف العامُّ بالسّورة

المكّيُّ والمدنيُّ:

سورة الفتح كلُّها مدنيَّة

سورة الفتح كلُّها مدنيَّة بالاتِّفاق[1]، نزلت على رسول اللّه ﷺ أثناءَ مُنْصَرَفِه من الحُديبية - وهي قريبة من مكَّة - باتِّجاه المدينة، وفي ذلك أحاديثُ كثيرة، ويكون هذا هو مستند الإجماعِ على مدنيَّتِها[2]؛ لأنَّ المدنيَّ من السّور ما نزلَ بعد هجرة النَّبيِّ ﷺ، ولو في غير المدينَةِ النَّبويَّةِ.

ترتيب النُّزول، وترتيب المصحف، وعدُّ الآي:

هذه السّورة هي الثّامنة والأربعون في التَّرتيب المصحفيِّ الشَّريف، وقد جاءَت بين سورتَي محمَّدٍ والحُجراتِ، وهي التّاسعةُ بعدَ المئة في ترتيبها النُّزوليِّ، وذهب بعضُ أهل العِلمِ إلى أنَّ ترتيبها الثّالثةَ عشرةَ بعد المئة، أي: إنَّها من أواخر ما نزلَ من القرآن الكريم، وقد نَزَلَت بين سورتَيِ الصَّفِّ والمائدة، أو بين الصَّفِّ والتَّوبة[3]، وسورةُ الفتحِ عشرون وتسعُ آياتٍ عند جَميع علماء العدَد، لَيسَ بينَهم فيها اختِلاف[4].

فضائل السّورة:

هذه السّورة الكريمة من أحبِّ السّور إلى قلبِ النَّبيِّ ﷺ، وقد ورد في فضل هذه السّورة الكريمة عددٌ من الأحاديث الصَّحيحة، منها: ما أخرجه البخاريُّ في صحيحه عن زيد بن أسلمَ عَن أبيهِ:

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 128، والسّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 79.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 109.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 142، دروزة، التّفسير الحديث: 8/ 298.
(4) الدّاني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 229.

أنَّ رَسولَ اللّه ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وعمر بن الخطّاب يسير معه ليلًا، فسأله عمر بن الخطّاب عن شيء، فلم يُجبه رسولُ اللّه ﷺ، ثمَّ سأله، فلم يُجبه، ثمَّ سأله، فلم يُجبه، فقال عمرُ بن الخطّاب: ثَكِلَتك أمُّكَ يا عمرُ، نَزَرْت رَسولَ اللّه ﷺ ثَلاثَ مرّات، كلُّ ذلك لا يُجيبك، قال عمر: فحرَّكتُ بعيري، ثُمَّ تقدَّمتُ أمامَ المُسلِمين، وخشيتُ أن يَنْزِل فيَّ قرآنٌ، فما نَشِبْت أن سمعتُ صارخًا يصرخُ بي، قال: فقلتُ: لقد خشيتُ أن يكون قد نزل فيَّ قرآنٌ، وجئتُ رسولَ اللّه ﷺ، فسلَّمتُ عليه، فقال: «لَقَد أُنزلَت عَلَيَّ اللَّيلَةَ سورَةٌ، لَهيَ أَحَبُّ إلَيَّ مِمّا طَلَعَت عَلَيهِ الشَّمسُ»، ثُمَّ قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾[1].

وأخرج مسلمٌ والتِّرمذيُّ عَن أنَس بن مالكٍ أنَّه قالَ: أُنزِلَت على النَّبيِّ ﷺ: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مَرجِعَهُ مِنَ الحُدَيبيَةِ، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: «لَقَد نَزَلَت عَلَيَّ آيَةٌ أَحَبُّ إلَيَّ مِمّا عَلى الأَرضِ»[2].

دلالةُ التَّوقيتِ الزَّمنيِّ لنزول السّورة:

نزلت هذه السّورة الكريمة أثناءَ عودة النَّبيِّ ﷺ من صلح الحديبية، وما رافق ذلك الصُّلحَ من أحداث جسيمةٍ وتهديدات خطيرة، ثمَّ ما نتج عن توقيع الصُّلح من شعورٍ بالهزيمة من قبل بعض الصَّحابة، ورغبتهم في إتمام عُمرَتِهم حتّى تباطَؤوا في التَّحلُّل من الإحرام عند الإحصارِ.

اسم السّورة ومُناسبةُ تسميتها:

وردت تسميتُها بسورة (الفتح) في كتب السُّنَّة والتَّفسير، فقد ذكر البخاريُّ والتِّرمذيُّ تسميتَها بذلك[3]، قال ابن عاشور: "لا يُعرفُ لها اسمٌ آخر"[4]، ووجهُ التَّسمية: أنَّها تضمَّنت حكايةَ الفَتحِ فيها في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾.

وقد حاول البقاعيُّ الرَّبطَ بين اسمِها ومقصودها، فذكَر أنَّ مقصودَها في اسمِها - وهو الفَتحُ - الَّذي يَعمُّ فتحَ مكَّة وما تقدَّمَه من صُلح الحُديبية وفتحِ خيبرَ ونحوِهما، وما

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (4177).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (1786)، والتّرمذيّ في سننه، برقم: (3263)، وقال: حديث حسن صحيح.

(3) فقد بوّب البخاريّ في صحيحه في كتاب تفسير القرآن، سورة الفتح 6/ 134، وبوّب في كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الفتح: 6/ 188، وبوّب التّرمذيّ في سننه في أبواب تفسير القرآن، بابٌ: ومن سورة الفتح: 5/ 385.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 141.

تفرَّع عنه من إسلام أهل جزيرةِ العربِ، وقتالِ أهل الرِّدَّةِ، وفتوح جميع البلاد، الَّذي يجمعُه كلَّه إظهارُ هذا الدّين على الدّين كلِّه[1].

سورةُ الفتحِ اشتُهرت بهذا الاسم، ولا يُعرف لها اسمٌ آخَرُ

وقد تكرَّر في هذه السّورة ذِكْرُ الفتح بلفظهِ ومعناه، فقد جاءت هذه السّورة مبشِّرةً به، كما جاء النَّبيُّ ﷺ مُبشِّرًا لأُمَّته، فقد بشَّرت السّورة النَّبيَّ ﷺ بتحقُّق رُؤياهُ، وبالفتح المبين بدُخول المسجِد الحرام هو وأصحابُهُ آمنين، وبشَّرت المُبايعين للنَّبيِّ ﷺ برضوان اللّه تعالى عليهم، وبشَّرتهم بالغنائم في الدُّنيا وبالجنَّة في الآخرة، وبشَّرتهم بما وُصِفوا به في التَّوراة والإنجيل، فقد تتابعت البُشْريات بين آيات هذه السّورة، فكان تسميتُها بالفتحِ إيذانًا بأنَّ الظَّفَرَ والفلاح هو مآل الَّذين آمنوا باللّه ورسولِه ﷺ، وبايعوه على النُّصرة، وأنَّ شرَّ الهزيمة هو مصير الَّذين حاربوه، وصدّوا عن دعوته.

المحور العامُّ للسّورة:

محورُ السّورة يقوم على بيان أنَّ غلبة الحقِّ للباطلِ كائنةٌ لا محالة

جاءت سورةُ (الفتحِ)؛ لبيان عاقبة الجهادِ الَّذي أُمِرَ به في سورة (مُحَمَّد)، بإعلانه على الكافرينَ بدعوة النَّبيِّ ﷺ، فثَمَرَةُ هذا النَّفير لِمُقارَعَة الأعداء إنَّما هو الفَتحُ المبين الَّذي بشَّرت به هذه السّورة، فمِحور هذه السّورة: هو بيانُ سنَّة اللّه تعالى في نُصرة المؤمنين وتبشيرِهم بالفتح العظيم على أعدائهم، وهذا فيه بيانُ سنَّة اللّه تعالى في تحقيقِ أهداف الأنبياءِ والمُرسلين ورؤاهم، إن هُم أخذوا بالمنهج المَرسوم لهم، واستَقاموا عليه.

وجاءت الآياتُ في السّورة بما يُؤكِّد المِحور العامَّ للسّورة على التَّرتيب الآتي:

أوّلًا: بيَّنت السّورةُ في آياتها الأولى البُشرى بهذا الفتحِ، وذكرت عِلله ومُسَوِّغاتِه، فقال سُبحانَهُ: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ

(1) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 2/ 492.

﴿وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾، وقال ﷻ: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾.

ثانيًا: اقتضى كذلك أن تُبَيَّن عِلَّةُ إرسالِ النَّبيِّ ﷺ للنّاس، والمُهمّات الموكَلة إليه، كما في قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ۝٢٨﴾ [الفتح: 28].

ثالثًا: ذَكَّرتِ السّورةُ النّاسَ ببعض المشاهد المختلفةِ لما جرى في صُلْح الحديبيَّة، فعَرضت نماذجَ مُشْرِقةً للصَّحابة، الَّذين بايعوا النَّبيَّ ﷺ تحت الشَّجرة على نُصرته، مبيِّنةً رِضا اللّٰه تعالى عنهم، وعرَضَت في مقابل ذلك الصّوَرَ المُشوَّهةَ للمُخَلَّفين من الأعراب، ناعيةً عليهم أعذارَهم الواهية، وكاشفةً مسوِّغات تخلُّفهم الحقيقيَّة، ورافعةً الحرجَ عن أصحابِ الأعذارِ، من نحو الأعمى والأعرج.

رابعًا: بيَّنت السّورة المغانمَ الدُّنيويَّة والأُخرويَّة الَّتي تنتظر المؤمنين الَّذين صَدَقوا في بَيْعَتِهمُ النَّبيَّ ﷺ، وأن يُذكَّروا بنِعْمَة اللّٰه تَعالى عَلَيهم بحَقْن دمائهم ودماءِ غيرهم، حتّى لا يُصيبوا نفرًا من المؤمنين المُتَخفّين في مكَّةَ بأدنى سوءٍ.

موضوعاتُ السّورة وخصائصها:

مَدارُ السّورة يدور حولَ بشرى المؤمنين بنَصْرِهم على أعدائهم

تنوَّعت موضوعاتُ السّورة بما يتناسب مع محورها العامِّ، وهذه الموضوعات أتت على التَّرتيب الآتي:

أوّلًا: افتُتِحَت هذه السّورةُ الكريمة ببشارة النَّبيِّ ﷺ بالفتح الأعظم، وانتشارِ الإسلام بعد فتح مكَّةَ الَّذي كان صُلحُ الحُديبية مفتاحًا له.

ثانيًا: جاءت الآياتُ للإخبار بوعد اللّه تعالى المُنْجَزِ لا محالةَ للمؤمنين، ووعيدهِ للكافرين والمنافقين، وبيَّنَت مهامَّ النَّبيِّ ﷺ، من الشَّهادة على أُمَّته وعلى الخَلْق يومَ القيامة، والبِشارة والنِّذارةِ، ثمَّ بيَّنت أمرينِ متميِّزين، أحدهما: الإشادة بالصَّحابة الَّذين بايعوا تحتَ الشَّجرة في الحُديبية، وبيانُ أنَّ بيعتَهُم في الحقيقة إنَّما هي للّه تعالى، وتسجيلُ رضوان اللّه تعالى عَلَيهِم، ووَعْدُهُم بالنَّصر في الدُّنيا، وبالجنَّة في الآخرةِ. والآخَرُ: ذَمُّ المنافقين الَّذين تخلَّفوا عن الخروج مع رسول اللّه ﷺ عامَ الحُديبية، وكانوا من أعراب المدينة.

ثالثًا: ذكرت هذه السّورةُ رفعَ الحَرَجِ عن أصحاب الأعذارِ في تركهم الجهاد، واكتفت منهم بطاعة أمرِ اللّه تعالى ورسوله ﷺ، فإنَّ ذلك مُؤْذِنٌ بدُخولِ الجنَّة.

رابعًا: ذكَّرتِ السّورةُ بِفَضْلِ اللّه تعالى على أهل الإيمان في إبرام الصُّلح، والكفِّ عن القتال بينهم وبين أهل مكَّة، وهُم كفّارُ قريشٍ الَّذين كفروا، وصدّوا المُؤْمنين عن المسجد الحرامِ، وبيَّنَت تأثُّرَهُم بحميَّة الجاهليَّة من الأَنَفَةِ والكِبْر والعصبيَّة، كما اشتملَتِ على تثبيتِ المؤمنين على كلمة التَّقوى، وهي طاعة اللّه تعالى والرَّسول ﷺ وقَبولُ شروطِ الصُّلح، بالرَّغم من إجحاف بُنودِه في الظّاهر بحقوق المسلمينَ.

خامسًا: تحدَّثت بعدُ عن البُشْرى بتحقُّق رؤيا النَّبيِّ ﷺ التي رآها في المدينة النَّبويَّةِ أنَّهم يدخلون المسجد الحرامَ آمنين مُطْمَئِنّين، وقد تمَّ ذلك فِعْلًا في العام القابلِ(1).

الخصائصُ الموضوعيَّة لسورة الفتح:

أوّلاً: اختصَّت هذه السّورةُ الكريمة بموضوعاتٍ لم تَرِد في غيرها من سور القرآن الكريم، مثلِ الكلام عن صُلْحِ الحُديبية، وإنزالِ السَّكينة على المؤمنين، وبَيْعَتهم للنَّبيِّ ﷺ تحتَ الشَّجرة، والحديثِ عن المُخَلَّفين من الأعراب وأعذارهم الزّائفة، وعن المغانم الَّتي وعدها اللّه تعالى المؤمنين، وتحقيق رُؤيا النَّبيِّ ﷺ، وكذلك حديثها عمّا جرى من كفِّ أيديهم عن قتال أعدائهم، وإلماحِها إلى فتح مكَّة، وكذلك انفرادُها بذِكر صورة النَّبيِّ ﷺ وصورةِ أصحابه في التَّوراة والإنجيل.

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 26/ 143، 144.

تـمـيَّـزت سـورةُ الفتح بخصائص أفـردتـهـا عـن غيرها من السّور

ثانيًا: تميَّزت السّورةُ الكريمة بحَشْدِ المبشِّرات فيها، فقد ابتُدِئت بذِكْرِ البُشرى في الفتح، ثمَّ المغفرة للنَّبيِّ ﷺ وللمؤمنين، ثمَّ وعدِ المؤمنين بدخول الجنّات، ثمَّ إرسالِ النَّبيِّ ﷺ مبشِّرًا ونذيرًا، ثمَّ بشرى للمُبايِعين تحتَ الشَّجرة، وأنَّ بيعتَهُم هي مع اللّٰه تَعالى، ثمَّ الوعدِ لهم بالغنائم وأشياءَ لَم يقدروا عليها، فضلًا عن تَكرار البُشرى بالسَّكينة الَّتي تتنزَّل عليهم، وكذلك البشرى بكفِّ أيديهم عن القتال؛ حفاظًا على أرواحهم وأرواح إخْوَةٍ لهم، وكذلك البشرى بتحقُّق الرُّؤيا بدخول البيت الحرام، ثمَّ البشرى لهم بذِكر أوصافهم الحميدة في التَّوراة والإنجيل.

ثالثًا: كما تميَّزت السّورةُ الكريمة ببراعة الاستهلال، بذِكْرِ حرف التَّوكيدِ، والمسنَدِ إليه بضمير العَظَمَةِ، وهذا، وإن شاركَتها في مَطْلَعِها سورَةُ نوحٍ والقَدرِ والكوثرِ؛ إلّا أنَّها تميَّزت عنها جميعِها بالبُشْرى بالفتحِ المُبين للنَّبيِّ ﷺ.

الخصائصُ الأسلوبيَّة لسورة الفتح:

أوّلًا: تميَّزت السّورةُ الكريمة بكثرة ذِكْرِ بعض الألفاظ فيها، وهي ألفاظٌ تَرْتَبِط بمِحْوَرِها العامِّ؛ إذ ورد فيها الاسمُ الأحسنُ صريحًا تسعَةً وثلاثينَ مرَّةً، وهذا بخلاف الضَّمائر العائدة إليه، وكذا تكرَّر فيها لفظُ الفَتحِ بمشتقّاته المختلفة أربعَ مرّات[1]؛ إذ وُصِف هذا الفتحُ تارةً بأنَّه مبينٌ، ومرَّتَيْن بأنَّه قريبٌ، وورد فيها ذِكْرُ السَّكينةِ ثلاثَ مرّات[2]؛ إذ عُدّيت السَّكينة بـ (على) مرَّتَيْن، وبـ (في) مرَّةً واحدة، وورد فيها ذِكْرُ الإيمان ومشتقّاته خمسَ عشرةَ مرَّةً[3]، وكذلك تكرَّر فيها ذِكْرُ الرَّسولِ ﷺ سَبْعَ مرّات[4]، ولفظةُ

(1) الآيات: 1 (مرّتين)، 18، 27.

(2) الآيات: 4، 18، 26.

(3) الآيات: 4 (ثلاث مرّات)، 5 (مرّتين)، 9، 12، 13، 18، 20، 25 (مرّتين)، 26، 27، 29.

(4) الآيات: 9، 13، 17، 26، 27، 28.

(المخلّفون) أربعَ مرّات[1]، وورد فيها ذِكْرُ المسجدِ الحرام مرَّتيْن[2]، والمغانمِ ثلاثَ مرّات[3]، و(عذابًا أليمًا) ثلاثَ مرّات[4].

ثانيًا: ذُيِّلت كلُّ فواصلِ السّورة بالألف المُنوَّنة بتنوين الفتحِ، ممّا أعطاها قوَّةً في حبس النَّفس عليها عند الوقوف على حرف الألف، دونَ زيادةٍ لحرفِ الهمزة أو الهاء أو النّون، ممّا يمكن للقارئِ غيرِ المجيد أن يُضيفها؛ لصعوبة حبس النَّفس على حرف الألف دون النُّطق بحرفٍ آخر، ممّا يومِئُ إلى ضرورة ضَبْطِ النَّفْسِ وحَبْسِها على مواقف البلاء والشِّدَّة.

ثالثًا: تميَّزت هذه السّورة الكريمة بأنَّ اسمَ النَّبيِّ ﷺ ورد ذِكْرُه فيها، وهيَ إحدى أربَعِ سوَرٍ مَدنيَّة ذُكِرَ فيها اسمُه العَلَمُ، وكلُّها عالجَت موضوعَ الجهادِ والقتال في سبيل الله، وتناولَت كلُّ واحدةٍ منها بعضَ غزواته ﷺ، ففي آل عمران ورد اسمُه فيها في سياق الحديث عن غزوةِ أُحُد، وفي الأحزاب عن غزوة الخندق وبني قُريظة وأحداثِهما، وكذا وردَ اسمُهُ في سورَةِ القتالِ (محمَّدٍ) الَّتي سبَقَت هذه السّورة.

رابعًا: السّورة الكريمة زاخرَةٌ بأنساق تعبيريَّة خاصَّة بها، حتّى كأنَّ كلَّ تراكيبها كانت كذلك، ممّا يُؤكِّد أنَّ لهذه السّورة نَظْمًا خاصًّا بها، وهي بهذا تُشْبِه سورةَ محمَّدٍ الَّتي سبَقَتها بخصوصيَّة تركيباتها وأنساقها التَّعبيريَّة.

خامسًا: حوت السّورةُ أبنيةً صرفيَّةً - إمّا استقلالًا وإمّا مقرونًا إليها توابِعُها من ضمائرَ اتَّصلت بها ونحو ذلك - لم تأتِ في غيرها من السّور مثل: ﴿تَقَدَّمَ﴾، ﴿وَيَنصُرَكَ﴾، ﴿ٱلظَّآنِّينَ﴾، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾، ﴿وَتُوَقِّرُوهُۚ﴾، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾، ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ [الفتح: 10]، ﴿يُبَايِعُونَ﴾ [الفتح: 10]، ﴿نَّكَثَ﴾ [الفتح: 10]، ﴿يَنكُثُ﴾ [الفتح: 10]، ﴿شَغَلَتْنَآ﴾ [الفتح: 11]، ﴿ٱنطَلَقْتُمْ﴾ [الفتح: 15]، ﴿ذَرُونَا﴾ [الفتح: 15]، ﴿نَتَّبِعْكُمْۖ﴾ [الفتح: 15]، ﴿يُبَدِّلُواْ﴾ [الفتح: 15]، ﴿تَتَّبِعُونَا﴾ [الفتح: 15]، ﴿تَحْسُدُونَنَاۚ﴾ [الفتح: 15]، ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾ [الفتح: 16]، ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ﴾ [الفتح: 16]، ﴿يُسْلِمُونَۖ﴾ [الفتح: 16]، ﴿يَأْخُذُونَهَاۗ﴾ [الفتح: 19]، ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: 20]، ﴿بِبَطْنِ﴾ [الفتح: 24]، ﴿أَظْفَرَكُمْ﴾ [الفتح:

(1) الآيات: 3، 11، 15، 16.
(2) الآيتان: 25، 27.
(3) الآيات: 15، 19، 20.
(4) الآيات: 16، 17، 25.

24]، ﴿مَعۡكُوفًا﴾ [الفتح: 25]، ﴿تَطَـُٔوهُمۡ﴾ [الفتح: 25]، ﴿مَّعَرَّةُۢ﴾ [الفتح: 25]، ﴿تَزَيَّلُواْ﴾ [الفتح: 25]، ﴿ٱلۡحَمِيَّةَ﴾ [الفتح: 26]، ﴿حَمِيَّةَ﴾ [الفتح: 26]، ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ﴾ [الفتح: 26]، ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ [الفتح: 27]، ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: 27]، ﴿شَطۡـَٔهُۥ﴾ [الفتح: 29]، ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ [الفتح: 29]، ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ [الفتح: 29]، ﴿سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: 29]، ﴿ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: 29]، وغيرها.

سادسًا: تميَّزت هذه السّورةُ الكريمة بأنَّها حوت لفظةً فريدة في مادَّتها وبنائها الصَّرفيِّ، وهي: ﴿مَكَّةَ﴾ [الفتح: 24]؛ وذلك لأنَّ السّورةَ كانت فتحًا مُبينًا، بشَّرت فيه بفتح مكَّة المكرَّمة.

مناسبة السّورة لما قبلَها:

سورة الفتح متَّصلة بسورة محمَّد أتمَّ اتّصالٍ مضمونًا وأسلوبًا

هذه السّورة مُتمِّمَة لما تقدَّمها في سورة محمَّد، وهي مرتبطةٌ بها أتمَّ ترابطٍ وأنسَبَهُ، وذلك من وجوهٍ، مِنها: أنَّ سورة محمَّد لمّا أُمروا فيها بقتال عدوِّهم في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمّد ﷺ: 4]، وأُشعِروا بالمَعونة عند وقوع الصِّدق في قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمّد ﷺ: 7]؛ اقتضى ذلك تطلُّعَ النُّفوسِ إلى حال العاقبةِ، فَعُرِّفوا بذلك في طالعَةِ سورة الفتح، فقال سُبحانَهُ: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾، فعرَّف تعالى نبيَّه ﷺ بعظيم صنعِه له، وأتبعَ ذلك بالبشارة العامَّةِ للمؤمنين، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ثُمَّ انتقلَ الحديثُ إلى التَّعريف بحال من نكَثَ مِن مبايعته ﷺ، وحُكم المُخلَّفين من الأعراب، والحضِّ على الجهاد، وبيانِ حال ذوي الأعذار، وعظيم نعمته سبحانه على أهل بيعته في قوله سبحانه: ﴿۞لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح: 18]، وإثابتِهم الفتحَ وأخْذَ المغانم، وبشارتِهم بفتح مكَّة في قوله ﷻ: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [الفتح: 27]، إلى ما ذكَرَ سُبحانه من عظيمِ نِعَمِه عليهم.

وثمَّة وجهٌ آخَرُ في التَّناسُبِ بين السّورتَيْنِ، وهو أنَّ اللّه تعالى لمّا قال في آخر سورة محمّد ﷺ: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدۡعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَـٰلَكُمۡ ۝٣٥﴾ [محمّد ﷺ: 35]؛ كان هذا إجمالًا في عظيمِ ما منحهم وجليلِ ما أعطاهم، فجاءت بعدُ سورةُ الفتحِ بيانًا لهذا الإجمالِ وبَسْطًا له[1].

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 307، 309، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 26/ 142، 143.

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١﴾ [الفتح: 1]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

أُتبِعت سورةُ القتالِ بسورة الفتح؛ بشارةً لِلمجاهدين بالنَّصر والتَّمكين

لمّا كانت سورَة محمَّد تُسمَّى سورةُ القتالِ، والقتالُ هو الجهادُ؛ أُتبِعَت بِسورة الفتح الَّتي فيها بشارة للمجاهدين مِن أهل هذا الدّين، بالفوزِ والنَّصر والظَّفر على كُلِّ مَن كفَرَ[1]، ولأنَّ الفَتحَ - بمعنى النَّصرِ - مرتَّبٌ على القتالِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَحۡنَا﴾: (فتح) تدُلُّ تصريفاتُه على ضِدِّ الإغلاق، والفَتحُ: الماء يخرج من عَيْنٍ أو غيرها، والفَتحُ أيضًا: النَّصر والإظفار، واستفتَحْتُ: استنصرت[3]، وفاتِحَةُ كلِّ شيء: مبدَؤُه الَّذي يُفتَح به ما بَعدَه، وبه سُمّيت فاتحة الكتاب، ويُقال: افتَتَحَ فلانٌ كذا؛ إذا ابتدأ به، وفَتَحَ عليه كذا؛ إذا أعلمه، ووقَّفه عليه، كما في قوله تعالى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: 76]، وفَتَحَ القَضيَّةَ فِتاحًا، أي: فَصَلَ الأمرَ فيها، وأزال الإغلاقَ عنها، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ [الأعراف: 89]، والمُراد بالفتح هنا: صُلْحُ الحُدَيبية.

2) ﴿مُّبِينٗا﴾: (بين) تدور اشتقاقاتُه على بُعدِ الشَّيء وانكِشافِه، يُقال: بان، بمعنى: فارق، وبانت المرأةُ بالطَّلاق، وأبانها زوجُها، وأبَنْتُ الأمرَ وبَيَّنتُه: أظهرتُه بيانًا وتبيانًا، والبيِّنة: الأمر الواضح، ومنه قوله: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: 57]، والبَيِّنة: الحُجَّة، ومنه

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 18/ 273.
(2) السّيوطيّ، تناسق الدّرر في تناسب السّور، ص: 117.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فتح).

قول النَّبيِّ ﷺ: «البَيِّنة على المُدَّعي»[1]؛ لأنَّ بها ينكشف الحَقُّ، ويتَّضح، والبيِّنة: الدَّلالة الواضحة عقليَّةً كانت أو حسّيَّةً[2]، والمراد بالمُبِينِ في قوله: ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾، أي: ظاهرًا واضِحًا[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخاطب اللّه تعالَى نبيَّه ﷺ قائِلًا له: إنّا فتَحْنا لك - أيُّها الرَّسولُ - بصُلحِ الحُدَيبيَة فَتحًا بَيِّنًا ظاهرًا، يُظْهِر اللّه فيه دينَكَ، وينصرك على عَدوِّك[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الافتتاح بـ (إنَّ) مقرونةً بنون العَظَمَة:

تفخيمُ شأنِ صُلْح الحُديبية وتعظيمُهُ

صُدِّرت الجملةُ الخبريَّةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ بـ (إنَّ) واسميَّة الجملة؛ للاعتِناءِ بشأنِ الفَتح، وهو صُلْح الحُديبية في قول أكثر المُفسِّرين، كما أنَّ التَّأكيد بـ (إنَّ)؛ للاعتناءِ بمضمون الخبَرِ والاهتمام بِه، لا لِرَدِّ إنكارٍ ولا تردُّدٍ، أو أنَّ الحُكْمَ - لِعَظَم شَأْنه - مَظِنَّةٌ لِلإنكارِ، وذهب بعضُ أهلِ العِلم إلى أنَّ بَعْضَ الصَّحابة الكِرام رضوان اللّه عليهم مِمَّن كانوا مع الرَّسول ﷺ قد أصابَهم الغَمُّ على أن أُجيبَ المشركون إلى سُؤالِهم الهُدنة، فالتَّأكيد مصروفٌ للسّامعين على طريقة التَّعريض، أو أنَّ التَّوكيدَ مراعاةٌ لِكونِ بَعضِ السّامِعينَ مُنْكِرًا أن يكونَ ما وقَعَ فَتحًا[5]، وقَرْنُ حرفِ التَّوكيد (إنَّ) بنون العَظَمَة (نا) في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾؛ لاستناد أفعال العِباد إليه تعالى خَلْقًا وإيجادًا[6]، كما أنَّ في الإسنادِ إلى نون

(1) أخرجه التِّرمذيّ في سننه، برقم: (1341)، وهو حديث صحيح، كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني، رقم: (2897).
(2) السمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (بين).
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 229.
(4) نخبة من أساتذة التفسير، التّفسير الميسر، ص: 511.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 239، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 146.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 103.

العظَمة تفخيمًا للفتحِ؛ لأنَّه فعلٌ عظيمُ الشَّأن، وأنَّه أمرٌ صعب يحتاج إلى كمال القُدرة والعظَمَة[1].

سِرُّ إيثارِ فعلِ الفَتحِ مادَّةً وصيغةً:

الظَّفرُ لازمٌ للفتحِ

فَتحُ البلادِ عبارةٌ عن دخولها عُنْوةً أو صُلحًا، فشُبِّهت بالدّار المُغْلَقَة، فيكون الفَتحُ مأخوذًا من فَتح باب الدّار، وذلك مَجازٌ مرسلٌ بعلاقة المَلزوميَّة؛ إذِ الظَّفر لازِمٌ لفتح باب الدّار، فذُكِر الملزوم، وأُريد اللّازم، ويحتمل أن يكون استعارَةً تَبعيَّة[2]، وعلى رأْي الجُمهور الذين يرونَ أنَّ المُرادَ بالفتح هنا هو صُلْحُ الحُدَيْبِيَة، يكون إطلاقُ اسمِ الفَتحِ عليه مَجازًا مُرْسَلًا بعلاقة ما سيكون، أو بعلاقةِ السَّببيَّة باعتبار أنَّه آلَ إلى فَتح خَيْبَر وفَتحِ مكَّة، أو كان سَبَبًا فيهما[3].

تفخيمُ شأنِ الفَتحِ والإيماءُ إلى تحقُّق وقوعِه

أمّا على رَأي من قال: إنَّ المراد بالفتح في الآية الكريمة فَتحُ مكَّة؛ فيقال: شُبِّه الفتحُ في المستقبل بالفتح في الماضي في كونه محقَّقَ الوقوع، أي: إنَّ التَّعبيرَ عن فتح مكَّة بلفظ الماضي - وهي غيرُ مفتوحةٍ بعدُ عند نزول هذه الآية - لِلدَّلالَةِ على تَحقُّق وقوعِ الفَتحِ، وفي التَّعْبير عَمّا سيقع بلفظ الماضي من الفخامة والدَّلالة على عُلوِّ شأن المخبَر ما لا يخفى[4]؛ لأنَّ هذا الأسلوبَ إنَّما يُستعمَلُ في أمرٍ يعظُم منالُه، ويبعُدُ الوصول إليه، ولا يَقْدِر على نيله إلّا مَن له قَهْرٌ وسلطان، ومَن يَغلب، ولا يُغْلَب، ولذلك يَرِدُ ذِكْرُ أحوالِ يوم القيامَة على هذا الأسلوبِ، وفتحُ مكَّة من أُمَّهات الفتوحِ، وبه دخل النّاسُ في دين الله أفواجًا، وعليه، ففيه تشبيهُ الفتحِ في المُستقبل بالفَتحِ في الماضي لِكونه مُحَقَّقَ الوقوعِ، والفتحُ في الماضي مُستَعارٌ للفتح في المستقبل من باب الاستعارةِ التَّصريحيَّة، وقدِ اشتُقَّ

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 18/ 51.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 18/ 52.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 104، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 239، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 146.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 332.

الفعلُ (فَتَحَ) مِن الفتحِ على سبيلِ الاستعارة التَّبعيَّة[1]، وبذلك تكونُ هذه الجملةُ الموجَزة قدِ اختزلَت صورًا شتَّى مِن البلاغة، وهذا قمَّةُ الإيجاز والإعجاز.

سرُّ حذفِ مفعول ﴿فَتَحۡنَا﴾:

الإعلامُ بجنسِ الفتحِ لا بخصوصِ المفتوحِ

حُذِفَ مفعولُ ﴿فَتَحۡنَا﴾ من قول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾؛ لأنَّ المقصودَ الإشارةُ إلى الفعلِ بقطعِ النَّظر عن متعلِّقه، والإيذانُ بأنَّ مناط التَّبشيرِ نفسُ الفتحِ الصّادر عنه سُبحانه، لا خصوصيَّةُ المفتوح، فالمقصودُ: الإعلامُ بجنس الفتحِ لا بالمفتوح الخاصِّ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمسنَدِ فعلًا ﴿فَتَحۡنَا﴾:

الإيماءُ إلى عظَمَةِ الفَتحِ

جاء التَّعبيرُ بالمسنَدِ فِعْلًا في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا﴾؛ لتقويةِ الإسنادِ في الخبرِ؛ إذ فيه تكرارُ النِّسبة مرَّتين، إحداهما: في إسناد فعلِ الفَتحِ إلى ضمير العَظَمَة (نا) في ﴿إِنَّا﴾، والآخر: في إسناد فعل الفتح إلى ضمير العظَمَة المتَّصلِ به في ﴿فَتَحۡنَا﴾، فأفاد ذلك ترشيحًا للنِّسبةِ وتأكيدًا لها، وهذا مُشْعِرٌ بعظَمَةِ الفَتحِ.

معنى اللّامِ في ﴿لَكَ﴾، ودلالةُ ضميرِ الخِطابِ:

مكانةُ خيرِ المُرسَلين عند رَبِّ العالَمين

اللّامُ في ﴿لَكَ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَتَحۡنَا لَكَ﴾ لامُ العِلَّة، أي: فَتَحْنا لأجلك فتحًا عظيمًا، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١﴾ [الشّرح: 1][3]، وخُصَّ ذلك بضمير الخطاب ﴿لَكَ﴾ العائدِ إلى النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ منفعةَ الفتح تعود إليه ﷺ أصالةً، ولأنَّ إعلاءَ كلمةِ اللّه تعالى يكونُ به، فَيُعْلِيه، وتَمتلئَ الأرضُ مِن أمنِه، فلا يعمل منهم أحدٌ حسنةً إلّا كان له مِثْلُ أجرِها، ويكونون على قِصَرِ زَمَنِهم ثُلُثَي أهلِ الجنَّة، فيكون ذلك شَرَفًا له، إلى غير ذلك من الأسرار[4].

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 18/ 52، 53، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 147، وصافي، الجدول: 26/ 242، 243.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 146.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 146.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 18/ 279.

تعجيلُ البشارة للنَّبيِّ ﷺ

نُكْتَةُ تقديم شِبه الجملةِ على المفعول المُطلَق:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَكَ﴾ على المفعول المطلق ﴿فَتْحًا﴾، من قول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ على خلاف الأصل في تَرْتيب مُتَعَلِّقات الفعل؛ وذلك لِقَصد الاهتمام والاعتناء بهذه العِلَّة[1]، ولتعجيلِ بشارته ﷺ.

صُلْحٌ عظيم، ونصرٌ مُبينٌ

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمفعول المُطلقِ المُبيِّن للنَّوع:

في التَّعبير بالمفعول المُطلَقِ المُبيِّن لنوعه بوصفه بالمبين، في قوله: ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾، يُراد به التَّفخيم والتَّعظيم، فصُلْح الحُديبيةِ هو السَّبَبُ الَّذي تَهَيَّأ به للمسلمين أن يجتمعوا بالكُفّار، فَيَدعوهم إلى الإسلام، ويُبيِّنوا لهم مَحاسِنَه، فدخل كثيرٌ مِن قبائِل العربِ؛ بسبب ذلك في الإسلام[2]، وتسميتُهُ ﴿فَتْحًا﴾ ليس مَجازًا للظَّفر بل هو مجاز للصُّلح؛ لأنَّ صُلْح الحُديبية كان بَعْدَ غلبته ﷺ عَلى المُشْركين؛ إذ سألوا الصُّلْح، وسؤالُهم الصُّلحَ دليلٌ على ظهوره ﷺ عليهم، فيكون الفتح مستعارًا للصُّلح؛ لكونِه مشابهًا له في الغلبَة، وقد كان هذا الصُّلحُ سببًا في فتح مكَّة، وفرغَ بِهِ رسولُ الله ﷺ لسائر العربِ، فَغَزاهُم، فيكون الفتحُ بهذا الاعتبارِ مَجازًا مُرسلًا؛ إذ ذُكِرَ المُسَبَّب، وأُريدَ السَّبَبُ[3].

تأكيدُ الخبر لخير البَرِيَّة تعظيمًا له وتفخيمًا

بلاغةُ حشدِ المُؤكِّدات في الآية:

أُكِّد الخبرُ في الآيةِ الكريمةِ بجملةٍ مِن المُؤكِّدات، وهي: (إنَّ)، والجملة الاسميَّة، والتَّخصيص بالتَّقديم في ﴿لَكَ﴾، والمفعول المطلق ﴿فَتْحًا﴾؛ لتقرير منفعةِ صُلْح الحُديبية للرَّسول ﷺ ابتداءً، ثُمَّ لأُمَّته تبعًا له.

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 18/ 53، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 146.

(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 18/ 275.

(3) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 18/ 53.

﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح: 2 - 3]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

الإشارةُ إلى عِلَّة الفَتح

لمّا ذكر اللّه تعالى الفَتحَ بعد سورة محمَّدٍ التي مطلَعُها: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝١﴾ [محمّد ﷺ: 1]؛ بشارةً بظهور الإسلام وأهلِه وإدبار الكُفْر وأهله؛ أعقبَهُ ببيانِ علَّةِ الفتحِ، وهي المغفرةُ وما ذُكر بعدَها؛ إيماءً إلى وفاة النَّبيِّ ﷺ، وإشارةً إلى أنَّ المقصودَ من إخراجه إلى الدُّنيا هو إظهار الدّين القيِّم وإزْهاق الباطلِ؛ لترتَفِعَ درجتُه ومنزلَتُه، وتَعْظُمَ مكانَتُهُ(1).

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَزِيزًا﴾: (عزز) تدلُّ تصريفاتُه عَلى شِدَّةٍ وقوَّةٍ وغلَبَة وقَهْرٍ(2)، والعِزَّةُ: حالٌ مانعة للإنسان مِن أن يُغْلَب، مِن قولهم: أرضٌ عَزازٌ، أي: صُلْبَةٌ، والعَزيزُ: الذي يَقْهَر، ولا يُقْهَر(3)، وعَزَّه: غَلَبَهُ، يُقال: مَنْ عَزَّ؛ بَزَّ، أي: مَن غَلَبَ؛ سَلَبَ، والعِزَّة يُمدَح بها تارةً، ويُذمُّ بها تارةً، كَعِزَّة الكفّار، ووجهُ ذلك: أنَّ العزَّة للّه تعالى ولرسوله ﷺ هي الدّائمة الباقية، وهي العِزَّة الحقيقيَّة، والعِزَّة التي هي للكافر هي التَّعَزُّز، وهي في الحقيقة ذُلٌّ؛ لأنَّه تشبُّع بما لم يُعطَ(4)، والعَزيزُ مِن أسماءِ اللّه تعالى، هوَ كما قالَ الزَّجّاجُ: المُمتَنِعُ، فَلا يَغْلِبُهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 18/ 278.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عز).
(3) الرّاغب، المفردات: (عز).
(4) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (عز).

شَيءٌ، وقالَ غَيْرُهُ: هوَ القَويُّ الغالِبُ كُلَّ شَيءٍ[1]، وقولُه تعالى: ﴿نَصۡرًا عَزِيزًا﴾، أي: نصرًا غالبًا منيعًا، لا يتبعُهُ ذُلٌّ[2].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

يَذكُرُ اللّه تعالى أنَّه فتح لك - أيُّها النَّبيُّ الكريمُ - هذا الفتحَ العظيمَ، ويسَّره لك؛ ليغفرَ لك ما تقدَّم من ذنبك، وما تأخَّر؛ بسبب ما حصل مِن هذا الفَتح من طاعاتٍ كثيرةٍ، وما تعرَّضْتَ له مِن مشقّات في سبيل ذلك، ويُتِمَّ نعمتَه عليك بإظهار دينكِ ونصرِك على أعدائك، ويُرشِدَكَ طريقًا مستقيمًا في الدّين لا اعوجاجَ فيه، وينصرِكَ نصرًا عزيزًا لا يُقاوَم، يُعَزُّ به الدّين، ويُرفَعُ شأنُه[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى اللّام في ﴿لِّيَغۡفِرَ﴾:

اجتِماعُ عِزِّ الدُّنيا والآخِرة للنَّبيِّ ﷺ

اللّام في ﴿لِّيَغۡفِرَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ للتَّعليل، والمعنى: إنا فَتَحْنا لك فتحًا مبينًا؛ ليَجْتمع لك مع المغفرة تمامُ النِّعمة في الفتح[4]، ولم يُجْعَل فتحُ مكَّة علَّةً للمغفرةِ، ولكن لمّا اجتمعَ ما عُدِّد من الأمور الأربعة، وهي: المغفرةُ وإتمامُ النِّعمة وهداية الصِّراط المستقيم والنَّصرُ العزيز، كأنَّه قيل: يَسَّرنا لك فتحَ مكَّة، ونصرناك على عدوِّكَ؛ لنجمعَ لك بين عِزِّ الدُّنيا والآخرة، وأغراضِ العاجلِ والآجلِ[5].

فائدةُ تكرارِ القَيْد ﴿لَكَ﴾، وتقديمِه على الفاعلِ:

التَّأكيدُ على مكانة النَّبيِّ ﷺ

كُرِّرَت شبهُ الجملة ﴿لَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾؛ تأكيدًا على

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عز).
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 231.
(3) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 511.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 7/ 297، والشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 53.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 332.

تخصيص الرُّسول ﷺ بالمُبَشِّرات، وتأكيدًا على مكانته السّامية، ومقامِه الرَّفيع عند رَبِّه سبحانه، وقُدِّم ﴿لَكَ﴾ على الفاعل في قوله: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾؛ تعجيلًا لِلبُشْرى والسُّرورِ للنَّبيِّ ﷺ، واهتمامًا بالمُقدَّم؛ بيانًا لعظَمَةِ قَدْره ﷺ.

مغفرةُ الله تعالى لنبيّه ﷺ مغفرةً عظيمةً تليقُ بمقامه

بلاغةُ الالتفاتِ مِن التَّكلُّم إلى الغَيْبَة:

في قوله تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ التفاتٌ مِن التَّكلُّم في قوله تعالى في الآية السّابقة: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا﴾ إلى الغَيْبة بذِكرِ الاسمِ الأحسَن ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله سبحانه: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾؛ وذلك لأنَّ الاسمَ الظّاهرَ في حُكم الغَيْبَة، وقد أشار هذا الالتفاتُ إلى غاية الكِبْرياء بالإسنادِ إلى الاسمِ الأعظَم، إلى أنَّ هذه المغفرةَ بحسَبِ إحاطةِ هذا الاسمِ الجامع لجميع الأسماء الحُسْنى[1]، وأيضًا في الالتفاتِ إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾ المُستَتبِع لِجَميع صفاتِ الجَلال والعَظَمة والكمال إشعارٌ بأنَّ كُلَّ واحدٍ مِمّا انتظم في سِلْك الغاية مِن أفعاله تعالى صادرٌ عنه تعالى مِن حيثيَّةٍ غير حيثيَّة الآخر، مترتِّبةٍ على صفة مِن صفاته تعالى[2].

الاهتمامُ بأمرِ المَغفِرَة ومتعلّقها

نُكْتَةُ إسنادِ المَغْفِرة إلى الله تعالى:

أُسنِد فعلُ المغفرة ﴿لِّيَغۡفِرَ﴾ إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾، في قول الله تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾؛ قصدًا للتَّنويه بهذه المغفرة؛ لأنَّ الاسم الظّاهر أنفذُ في السَّمع، وأجلَبُ للتَّنبيه؛ وذلك للاهتمام بالمُسْنَد وبمُتَعلِّقه؛ لأنَّ هذا الخبرَ أُنُفٌ لم يكن للرَّسول ﷺ عِلمٌ به، ولذلك لَم يَبْرُز الفاعلُ في ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾؛ لأنَّ إنعام الله عليه معلومٌ، وهدايتَه معلومة، وإنَّما أخبر بازديادهما[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 18/ 280.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 104، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 244.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 146.

كما أنَّ في إسناد المغفرة إليه تعالى بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ بعد إسناد الفتح إليهِ تعالى بنون العظَمةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾؛ إيماءً إلى أنَّ المغفرة ممّا يتولّاها اللّه سبحانه بنفسه، وأنَّ الفتح ممّا يتولّاه ﷻ بالوسائِطِ[1]، والمُراد هنا: أنَّ اللّه تعالى فتحَ لكَ؛ ليَجْعَلَ ذلك أمارةً وعلامةً لغُفْرانِه لك، فكأنَّها لامُ صيرورةٍ[2].

نُكْتَةُ إيثارِ المَوْصولِ (ما) وتَكرارِه:

عمومُ مغفرَة الله تَعالَى لنبيِّه ﷺ

أوثِر التَّعبيرُ بالاسمِ المَوصول (ما) في قوله تعالى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾؛ لدلالته على العموم والإحاطة والشُّمول، وفي تكرارِه تأكيدٌ على تلك الإحاطةِ وشُمولها، وهذا يتناسَبُ معَ الخبر في الآية الكريمةِ بتبشير النَّبيِّ ﷺ بمغفرة جميع ما تقدَّم وما تَأخَّرَ من تركِ الأفضَلِ وخِلافِ الأوْلى ممّا يجوزُ أن يُسمّى ذنبًا بالنَّظر إلى مقامِهِ الشَّريفِ ﷺ، وإن كان لا يُسمّى ذنبًا بالنَّظر إلى غيره، ومِن ثَمَّ قيل: حسناتُ الأبرارِ سيِّئاتُ المُقرَّبين[3].

بلاغةُ الطِّباقِ في قوله تعالى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾:

تأكيدُ عمومِ مغفرةِ الذَّنب

في قول اللّه تعالى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ طباقُ إيجابٍ بينَ ﴿تَقَدَّمَ﴾ و﴿تَأَخَّرَ﴾، وهو تأكيدٌ آخرُ لتعميم المغفرة للذَّنب، ولا يقتضي ذلك أنَّه ﷺ فَرَط منه ذَنْب، أو أنَّه سيقع منه ذَنْب، وإنَّما المقصود أنَّ اللّه تعالى رَفع قَدْرَه رفعةَ عدمِ المؤاخذة بِذَنبٍ لو قُدِّر صدورُه منه[4]، أو أنَّ الذَّنْبَ مستعمَلٌ في تركِ الأفضلِ، وسُمّيت ذنبًا بالنَّظر إلى عَظَمةِ مقامه ﷺ[5].

(1) محمود الصّافي، الجدول: 13/ 242.
(2) ابن عطِيّة، المُحرِّر الوجيز: 5/ 126.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 230.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 146، والبِقاعيّ، نظم الدُّرر: 18/ 281.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 230.

معنى ﴿مِن﴾ ودِلالَتُها:

بيانُ الإبهامِ وتفسيرُه

﴿مِن﴾ في ﴿مِن ذَنۢبِكَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بيانيَّة؛ وذلك لتقدُّم ﴿مَا﴾ الموصولة، وفيها ضَرْبٌ مِنَ الإبهامِ مقرونًا بما اتَّصلت به مِن فعلٍ، فجاء البيانُ في قوله سبحانه: ﴿مِن ذَنۢبِكَ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بالذَّنب مُضافًا إلى الضَّمير:

الـرَّسـول ﷺ بَشَرٌ قد يفوتُه الأَوْلى

الذَّنْب في الأصلِ: ما استلزم الذَّمَّ والعَتَبَ أو العقوبة، وعذابُهُ بِمَعْنى المُؤاخذَة، وعدمُ المؤاخذة يُبْطِل لازمَهُ، فيبطل الذَّنْبُ، فلا ذَنْب ثَمَّ، ونظير هذا ما جاء في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [محمّد ﷺ: 15]، وليست الدّارُ دارَ تكليفٍ، فلَم يكُنْ فيها ذَنْبٌ يُغْفَر، وإنَّما ذلك راجِعٌ لِعَدَمِ المؤاخذة بما يفعلونَ، وذلك الواردُ في سورة الفَتحِ، وجائزٌ أن تكونَ المغفرةُ مستعملةً في سَترِ المعصيةِ، أي: الحِفظ منها، ومستعملةً على سَترِ المُرَتَّب عليها، أي: التَّجاوز عنهُ[1]، وقد يُراد بالذَّنب ذَنْبُ المؤمنين، أو الصَّغائر، فَإنَّها جائِزَةٌ على الأنبياء[2]، وفي التَّعبير بالذَّنب مُضافًا إلى الضَّمير العائدِ إلى النَّبيِّ ﷺ تأكيدٌ على بَشريَّته ﷺ، فهو بَشَرٌ قد يفوته فِعْلُ الأفْضَل.

دلالةُ العطفِ بالواوِ:

تـعـديـدُ البُشريات لخيرِ المخلوقاتِ

أوثِر العطفُ بالواو في قول اللّه: ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾؛ لتَعْديد البُشرياتِ وسَرْدِ نِعَم اللّه تعالى على رسوله ﷺ وتَفْصيلها، وبين الجُمَلِ الثَّلاث توسُّطٌ بين الكمالين؛ إذِ الجُمَلُ الثَّلاثُ جُمَلٌ خبريَّةٌ، وبينها تناسُبٌ لفظًا ومَعنًى، فأمّا في اللَّفظِ؛ فاشتراكُها في الفعليَّةِ والمضارعيَّة،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 33.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 66، والماورديّ، النُّكت والعيون: 5/ 310.

واتِّحادِ المُسنَدِ إليه فيها، وأمّا في المعنى؛ فاشتِراكُها في كونِها نِعَمًا جليلةً وآلاءً جسيمَةً.

سرُّ إيثار فعل الإتمامِ مُضارعًا:

سعَةُ إنعامِ الله تعالى على نبيِّه ﷺ واستِمراره

أوثِر التَّعبيرُ بالفعل المضارع (يُتِمَّ) على غيره؛ لأنَّ التَّمامَ يَرِدُ على النّاقِصِ، فيتمُّه، وقد عُبِّر عنه بصيغة المضارعِ؛ للدَّلالة على استِمرارِ إتمامِ نعمَةِ اللّه تعالى على رسوله ﷺ وزيادَتِها.

وجهُ التَّعبيرِ بلفظ النِّعمة مضافًا إلى ضميرِ الاسمِ الأحسن:

شَـرَفُ النِّـعمة مِن شَرَف المُنعِم

في التَّعبير بلفظ النِّعمة مُضافًا إلى الضَّمير العائدِ إلى اللّه ﷻ تشريفٌ لتلك النَّعمةِ وتعظيمٌ لها؛ لأنَّ المُنْعِمَ بها هو اللّه تعالى، وفي مَعْنى تلك النِّعمةِ أقوالٌ، فقيل: هي الجَنَّة، وقيل: النُّبوَّة والمغفرة، وقيل: فتحُ مكَّة والطّائف وخيبر، وقيل: إظهار دينِك على سائر المِلَلِ[1]، وهذا ليس من الخِلافِ، وإنَّما هو تنويعٌ في العبارةِ وتفسيرٌ بالمثالِ، فكلُّ هذه وغيرِها نِعَمٌ داخلةٌ في قوله: ﴿نِعۡمَتَهُۥ﴾؛ لأنَّه لفظٌ مفردٌ مضافٌ، فيَعُمُّ.

فائدةُ التَّقييدِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡكَ﴾:

تخصيصُ النِّعَمِ الكاملةِ بالنَّبيِّ ﷺ

جاء التَّقيد بالجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡكَ﴾، في قول اللّه تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾؛ لتخصيص الرَّسول ﷺ بالبُشرى، مع ما في الخِطاب مِن تشريفه ﷺ وتأنيسه، وفي التَّعبير بحرف الجرِّ (على) في ﴿عَلَيۡكَ﴾ - وهو حرفٌ دالٌّ على الاستعلاءِ - إيماءٌ إلى غَشَيانِ النِّعَم عليه مِن كُلِّ جانبٍ واشتمالِها عليه.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الهداية مُضارعًا مقرونًا بِضمير الخطاب ﴿وَيَهۡدِيَكَ﴾:

عِـظَـمُ هـدايـةِ الـرَّسـول ﷺ وجلالتُها

جاءَ التَّعبيرُ بفعل الهداية فعلًا مضارعًا في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾؛ للدَّلالةِ على دوام الهداية وتجدُّدِ أجناسِها، ولمّا كانت هدايةُ المؤمنين من هدايتِهِ؛ قُرِنَ فعلُ الهدايةِ

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير في علم التّفسير: 4/ 128.

بضمير الخطابِ المُرادِ به النَّبيُّ ﷺ؛ إيماءً إلى أنَّها هداية جليلةٌ تليقُ بجنابهِ العظيم ﷺ(1).

لطيفةُ تَعديَةِ فعلِ الهدايةِ بنَفْسِه في ﴿وَيَهۡدِيَكَ﴾:

تعدُّدُ الدَّلالات في اختلاف تعديَة الفعل بِنَفْسه أو بغيره

الأفعالُ المتعدّيَة بأكثَرَ من حرفٍ تفيدُ دلالاتٍ مختلفةً، يخلَعُها عليها الحرفُ الَّذي تتعدَّى به(2)، وقد ورد فعلُ الهدايَةِ في القرآن الكريم على أربعة معانٍ، هي: الإرشادُ، والتَّوفيق، والإلهام، والدَّلالة(3)، فإذا عُدّي فعلُ الهداية بحرف الانتهاءِ (إلى)؛ أفاد الإيصالَ إلى الغاية المطلوبة، ومتى عُدّي باللّام، تَضمَّن التَّخصيصَ بالشَّيء المطلوب، ولذا جيءَ باللّام الدّالَّة على الاختصاص والتَّعيين، فإذا قيل: هَدَيتُه لِكذا؛ فُهِم معنى: ذَكَرْتُه له، وجَعَلْتُه له، ومَهَّدتُه له، وتعديةُ فعلِ الهدايَةِ بـ (اللّام) و(إلى) تكونُ لِمَن لم يَكُن في الصِّراط، كما قال اللّه تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢﴾ [ص: 22]، وقال سبحانه: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٥﴾ [يونس: 35]، ويُستَعمل المُعدّى باللّام، كقولك: هداهُ له، بمعنى: بَيَّنَ له، والهداية على مراحلَ، فالبَعيدُ عن الطَّريق، الضّالُّ، يحتاج مَن يوَصِّلُه إليه، ويدُلُّه عليه، وكذا الَّذي يَصِلُ إلى الطَّريق مُحتاجٌ إلى هادٍ يُعَرِّفُه بأحوال ذلكَ الطَّريق، وبأماكن الأمنِ والنَّجاة والهلاك، ثُمَّ إذا سَلَكَ الطَّريقَ؛ يحتاج إلى مَن يُريه غايتَه، ولذا جاءَ فعلُ الهدايةِ معدًّى باللّامِ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعراف: 43]، وهذه نهايةُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 18/ 282.

(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/ 21، ومحمّد الأمين الخضريّ، مِن أسرار حروف الجرّ في الذِّكر الحكيم، ص: 223.

(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 1/ 23.

الهداياتِ وخاتمتُها[1]، وتعديةُ فعلِ الهدايةِ بنفسه يقتَضي الهدايَةَ إلى الصِّراطِ والهدايَةَ فيه، فقوله سُبحانَهُ: ﴿وَيَهۡدِيَكَ﴾، أي: يهديَكَ إلى الصِّراطِ، وهوَ لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من المِلَلِ، ويهديكَ في الصِّراطِ، وذلك شاملٌ لجميع التَّفاصيل الدِّينيَّة علمًا وعملًا[2].

نُكْتَةُ إيثارِ التَّعبير بالصِّراط:

التَّعبير بالصِّراط أنسَبُ لمقامِ الامتنانِ

أوثِر التَّعبيرُ بالصِّراط في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ دونَ التَّعبير بالطَّريق؛ لأنَّ الصِّراط هو أوسع الطُّرُق وأسهلُها[3]، فالصِّراطُ على وزن (فِعال)، وهو من الأوزان الدَّالَّة على الاشتمال، كالحِزام والشِّداد والخِمار والغِطاء والفِراش، ولفظُ الصِّراطِ يدلُّ على أنَّه واسعٌ رَحْبٌ يَتَّسع لِكُلِّ السّالكين، ويشملُهم، وسُمّي الصِّراط صراطًا؛ لأنَّه كأنَّه يَسْرُط السّالكين، ويبلَعُهم[4]، أمّا كلمة الطَّريق؛ فهي على وزن (فَعيل) بمعنى مفعولٍ، أي: مطروق، فهو مسلوكٌ، وليس في ذلك إشارةٌ إلى اتِّساعه[5]، فكان التَّعبيرُ بالصِّراطِ أدخلَ في مقامِ الامتنانِ وأليقَ.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿صِرَٰطٗا﴾، ودلالَةُ وصفِه بالاستقامَةِ:

أحْسَنُ الطُّرُق ما كانَ مُسْتَقيمًا

نُكِّر لفظُ ﴿صِرَٰطٗا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ للتَّعظيم؛ لأنَّه الصِّراطُ الموصِلُ لكلِّ خيرٍ: دنيويٍّ أو أُخرَويٍّ، ولكونِ الهادي إليه هو اللّه تعالى، ووُصِف الصِّراطُ بالاستقامَةِ؛ للإشارة إلى أنَّه واضح جليل جَليٌّ، موَصِّل إلى المُراد بهدايَةٍ تَقتضي لُزومَه والثَّباتَ عليه[6]، والمُستَقيمُ أيضًا هو الَّذي لا اعوجاجَ فيه، وأحسن

(1) فاضل السّامرائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 66، 67.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 39.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 334.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 3.
(5) فاضل السّامرائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 26.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 18/ 283.

الطُّرُق ما كان مُستقيمًا، وهو الجادَّةُ؛ لأنَّه باستقامَتِه يَكون أقْرَبَ إلى المَكان المَقْصود مِن غيْره، فَلا يَضِلُّ فيه سالِكُه، ولا يَتَرَدَّدُ، ولا يَتَحَيَّرُ[1]، ولأنَّ المستقيم أبعدُ عَنِ المَخاوفِ والآفاتِ، وأقربُ إلى الأمان، بخلاف المُعوَجِّ، ونُكِّر الوصفُ ﴿مُّسْتَقِيمًا﴾؛ لإرادةِ التَّعظيم والتَّفخيمِ أيضًا.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ الصِّراط:

إخراجُ المعنويّات في صورة الحِسّيّات أعلَقُ بالذِّهنِ وأبيَنُ في الفَهمِ

في لفظ (الصِّراط) من قول اللّه تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ استعارَةٌ تصريحيَّة؛ لأنَّ الصِّراطَ يُطلَق في الأصل على الطَّريق الحِسّيِّ المخصوص، فاستعمالُهُ هنا لدينِ الإسلام من باب الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة؛ إذ شُبِّهَ دينُ الإسلام بالطَّريق المخصوص الحسّيِّ، والجامع بينهما: أنَّ كُلًّا مِنهُما موَصِّل للمقصودِ، فصُرِّحَ باسم المُشَبَّه به، وطويَ ذِكرُ المُشبَّه، وفائدةُ الاستعارة هاهنا: التَّنْبيهُ على وضوحِ الطَّريقِ وعدمِ اشتباهه؛ إذِ الحِسّيّاتُ أظهَرُ في التَّصوُّرِ وأقربُ إلى الذِّهْنِ مِنَ العقليّاتِ، أو هو مُستَعارٌ لِلدّينِ الحَقِّ في تَبْليغ الرِّسالةِ وإقامَةِ الحُدود، والمستقيمُ هُنا مُستَعارٌ استعارةً تصريحيَّةً للحَقِّ البَيِّنِ الَّذي لا تُخالِطُه شُبْهَةُ باطِلٍ، فَهو كالطَّريق، وأحْسَنُ الطُّرُق الَّذي يَكون مُستَقيمًا، لا تَتَخَلله بُنَيّاتٌ[2].

توجيهُ التَّعبيرِ بالنَّصر فعلًا مُضارعًا مقرونًا بِضمير الخِطاب:

الـوَعْـدُ الإلـهيُّ باستمرارِ العَوْنِ والتَّأييدِ

عُبِّرَ عَنِ النَّصر بالفعل المضارعِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾؛ للإشارة إلى استمرارِ التَّأييد الإلهيِّ لرَسول اللّه ﷺ، وأُضيفَ إلى ضميره ﷺ؛ تأنيسًا لهُ وتشريفًا، وبيانًا لعُلوِّ قَدْره ورفيعِ مكانَته ﷺ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 145.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 145.

بلاغةُ الإظهارِ في موضع الإضمارِ:

تعظيمُ النَّصرِ بإسنادِهِ إلى الاسم الأحسن (الله)

في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ إظهارٌ في موضع الإضمارِ؛ وذلك لأنَّ مقتضى الظّاهر أن يَرِدَ البيانُ القرآنيُّ: (وينصرَك نصرًا عزيزًا)؛ لتقدُّم التَّصريح بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾، في قوله: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾، إلّا أنَّه عُدِلَ عن ذلك إلى الإظهارِ؛ اهتِمامًا بِهَذا النَّصْرِ وتَشْريفًا له، بِإسناده إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾، الجامعِ لصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، والتَّصريحُ أدْعى إلى السَّمعِ، والكَلامُ مَع الإظهارِ أعْلَقُ بالذِّهْنِ(1).

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمفعول المُطلق ﴿نَصۡرًا﴾ نكرةً:

عـمـومُ الـنَّـصْـرِ وشُمولُهُ

عُبِّر بالمفعول بالمُطْلَق ﴿نَصۡرًا﴾، من قول اللّه تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ نكرَةً؛ للدَّلالة على تَفْخيمِه، أي: إنَّه نَصْرٌ يَليق بذاته سبحانه، وبِمَن بُشِّر به، وهو النَّبيُّ ﷺ، وفي التَّنكير أيضًا دلالةٌ على عُموم النَّصْرِ وشموله واتِّساعه.

بلاغةُ وصْفِ النَّصْرِ بالعِزَّةِ:

نصْرُ الله تعالى لنبيِّه ﷺ نَصْرٌ لا ذُلَّ بَعدَهُ

وُصِفَ النَّصْرُ بالعِزَّةِ في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾، وهو وصفٌ مُنَكَّرٌ تبعًا لتنكير المصدَرِ ﴿نَصۡرًا﴾؛ تعظيمًا لهذا النَّصر، فهو نَصْرٌ يَليقُ بِمَن أُسنِدَ إليه، وهو اللّه تعالى، المُحيطُ بسائرِ أنواع العظَمَةِ، وهو نصرٌ عزيزٌ يَغْلِب المنصورُ به كُلَّ مَن ناوأَهُ، ولا يغلِبُهُ شيءٌ مَعَ دوامِه، فلا ذُلَّ بَعْدَ هذا النَّصرِ؛ لأنَّ الأُمَّة الَّتي تَتَّصِفُ به لا يَظهر عليها أحَدٌ، والدّينُ الَّذي قضاه لأجله لا ينسخُه شيءٌ(2).

بلاغَةُ المَجاز العقليّ في ﴿نَصۡرًا عَزِيزًا﴾:

المُبالَغةُ في وصفِ المَنصورِ بالعِزَّةِ

وَصْفُ النَّصْرِ بالعَزيزِ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ مجازٌ عَقْليٌّ بعلاقة المصدريَّة؛ إذ أُسْنِد العِزُّ والمَنَعةُ إلى

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 147.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 18/ 283.

النَّصر، والمقصودُ: أنَّه نصرٌ قويٌّ منيعٌ، فهو على وصْف المصدر بِوَصْف صاحبِه من باب المجازِ لقصْدِ المُبالغَةِ، وهذهِ الصِّفاتُ في الأصلِ للمَنْصورِ، وليسَت للنَّصر[1]، أو هو فيه تجوُّزٌ في الإسنادِ من جهةِ وصْف المصدرِ بصيغة المفعولِ لا الفاعل؛ إذِ الوصف بصيغةِ الفاعِلِ قليلُ الفائدةِ، ولا يناسِبُ المقامَ، وذلك أنَّ الكلامَ في شأن المُخاطَب المَنْصورِ لا المُتكلِّم النّاصر[2]، ووجه هذا: أنَّ أصل المعنى: ينصُرك نصرًا فيه عِزٌّ ومَنَعَةٌ، لكِن عَدَلَ النَّظمُ القرآنيُّ عن هذا، وجاء التَّعبيرُ ﴿نَصۡرًا عَزِيزًا﴾؛ لإرادَةِ المُبالَغَة، ولو جاء التَّعبير بالظَّرفيَّة (نصرًا فيه عزٌّ)؛ لكان مجازًا مفيدًا المُبالَغَة، ومعنى كون العِزِّ فيه: كونُ المنصور عزيزًا به، رفيعَ الشَّأنِ بسَبَبه، فالعزيزُ وصْفُ المنصورِ، ويُعَزُّ به، لكنَّ النَّظمَ القرآنيَّ وصَفَ النَّصرَ بالعزَّةِ لإرادَةِ المُبالَغَة في وصْف المنصورِ به؛ حتّى كأنَّه لكمال وصْفه به سَرى عِزُّهُ إلى نَفْس النَّصر[3]، وهذا أقوى مبالغةً من الظَّرفيَّةِ وأبلَغُ.

إسنادُ العطايا الأربعةِ إلى ضَمير الخِطاب:

التَّشريفُ بالخِطاب والإيناسُ به

أُسنِد فعلُ المغفرةِ في قوله: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ إلى الاسم الأحسَنِ؛ تنويهًا لهذه المغفرة، ثُمَّ أُعيد الاسمُ الأحسنُ ﴿ٱللَّهُ﴾ في: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّه بَعُدَ عَمّا عُطِفَ عليه، وليَكونَ المبدَأُ - وهو المغفرةُ - مسنَدًا إلى الاسم الظّاهر، والمنتهى - وهو النَّصرُ - كذلك، ولمّا كان الغُفْرانُ وإتمامُ النِّعمةِ والهدايةِ والنَّصرِ تَشترك في إطلاقِها على الرَّسول ﷺ وغيره، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النّساء: 48]، وقال سُبحانَهُ: ﴿إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢﴾ [الصّافات: 172]، وكان الفتحُ لم يبقَ لأحدٍ إلّا للرَّسول ﷺ؛ أسنَدَهُ اللّه تعالى إلى

(1) محمود الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 243، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 103، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 18/ 53.

(2) الشِّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 55.

(3) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 58.

نون العظَمةِ؛ تفخيمًا لشأنه في قوله: ﴿فَتَحْنَا﴾، وأسندَ أوَّلَ الأربعةِ وآخرَها إلى الاسم الظّاهرِ، وقدِ اشتركتِ الأمورُ الخمسةُ - وهي الفَتحُ، والمغفرةُ، وإتمامُ النِّعمة، والهدايةُ، والنَّصر - في خطاب النَّبيِّ ﷺ؛ إيناسًا له وتشريفًا، ولم يُعبَّر بالاسم الظّاهر، فلم يأتِ النَّظمُ القرآنيُّ: (إنّا فتحنا لمحمَّد فتحًا مبينًا)؛ لأنَّ في الإقبالِ على المُخاطَبِ مِنَ الإيناسِ والتَّعظيمِ ما لا يكونُ في الاسمِ الظّاهر[1].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 483، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 66، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 105.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٤﴾ [الفتح: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ وجهِ النَّصْرِ ونوعه

لمّا ذكر اللّه تعالى نصرَ نبيِّه ﷺ في قوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾؛ أعقبه ببيان وجه هذا النَّصرِ؛ وذلك لأنَّ اللّه ﷻ قد ينصُرُ رُسُله بصَيحَةٍ يُهلِكُ بها أعداءَهُم، أو برجفَةٍ تُفْنيهم، أو بجُنْدٍ يُنزِلُه اللّه تعالى من السَّماء، أو بتثبيتِ قلوب أتباعِهم من المؤمنينَ؛ ليكون لهم بذلك الجزاءُ الحسنُ العظيمُ، فقال سُبحانَهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾: أصْلُ (سكن) يدُلُّ على خِلافِ الاضطِرابِ[2]، وهو السُّكونُ والطُّمأنينةُ مِن السُّكون الَّذي هو الوَقارُ، وزوالُ الرُّعبِ، والرَّبط على القلوب بما تَثْبُت به الشَّجاعةُ، ويزول به الخوفُ، والسُّكونُ: ثبوت الشَّيء بعد تحرُّك، والسَّكينَةُ في قول اللّه تعالى: ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الطُّمأنينةُ، وسكونُ النَّفسِ بالتَّشجيعِ أو الصُّلْحِ[3].

2) ﴿جُنُودُ﴾: (جند) تدلُّ تصريفاتُه على التَّجَمُّع والنُّصْرَة، والجَنَدُ: الأرض الغليظَةُ فيها حِجارَةٌ بيضٌ[4]، والجُنْد: الأعوانُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 67.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 92، 186، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سكن).
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 284.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جند).

والأنصارُ[1]، وقول اللّه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، معناه: للّه أسبابُ النَّصرِ[2].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يُبَيِّن اللّه تعالى أنّه هو الَّذي أنزلَ الطُّمأنينة والسَّكينةَ في قلوب المؤمنين باللّه ورسوله يوم الحُديبية، فهانَت عليهم المَصاعِبُ، وثبَتوا، وسَكَنوا، وزادَهُم ذلك إيمانًا فوقَ إيمانهم، ويقينًا راسِخًا يُعَزِّز تَمَسُّكَهم بِدينهم واتِّباعَهُم لرَسولِه الكريم ﷺ، ويُبيِّنُ سُبحانَهُ أنَّ جُنود السَّماوات والأرضِ بيَدِه ينصُر بها عبادَهُ المُؤمنين حينَ يشاءُ، وهو سُبْحانه عليمٌ بحالِ عبادهِ ومَصالِحِهم، حكيمٌ في أحكامه وتدبيرِه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملة ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ﴾ ممّا قبلَها:

بيانُ عِنايَةِ اللّه تـعالى بإصلاحِ قُلوب الصَّحابةِ الكرامِ

وقعَت جُملَةُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بدلَ اشتِمالٍ مِن مضمون جُملَة: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾، وأفادتِ الانتقالَ إلى بيانِ ذِكْر حَظِّ المسلمين مِن فَتح الحُديبية بَعد بيان إنعام اللّه تعالى على رسولِه ﷺ، فالمُؤمنون هم الجُنود الَّذين قد نُصِرَ النَّبيُّ ﷺ بهم، كما قال اللّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢﴾ [الأنفال: 62]، فكان في ذِكْر عنايةِ اللّه سُبحانَهُ بإصلاحِ نُفوسِهم وإذهابِ خواطر الشَّيطان عنهم، وإلهامهم إلى الحقِّ في ثبات عزمهم، وقرارةِ إيمانهم، تكوينٌ لأسباب النَّبيِّ ﷺ؛ ليَنْدَفعوا حين يستنفرُهم إلى العدوِّ بقلوب ثابتَةٍ[4].

---

(1) الجوهريّ، الصِّحاح: (جند).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 151.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 791.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 149.

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّمير ﴿هُوَ﴾، ودلالَتُه:

إضمارُ ما يُعلَم مِن غيرِ حاجَةٍ إلى التَّصريح به

ضميرُ الغَيْبَةِ ﴿هُوَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ يَرْجِعُ إلى الله تعالى، وإنَّما أُضْمِرَ؛ لتقدُّمِ التَّصريحِ بالاسمِ الأحسنِ في الآية قبلُ: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾، وفي إضماره إشعارٌ بالعِلْمِ بهِ، وأنَّه لا يُحتاج إلى التَّصريح بِهِ حتّى يُعْلَمَ؛ إذ لا يُنْزِلُ السَّكينَةَ في القلوبِ إلّا الله ﷻ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمُسْنَدِ موصولًا ﴿ٱلَّذِىٓ﴾:

اختِصاصُ إنزالِ السَّكينةِ في قُلوبِ المُؤمِنين بالله تعالى

جاءَ التَّعبيرُ بالموصول الاسميِّ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ في قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لتعليل النَّصْرِ المَذكورِ قبلُ في قوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ إنزالَ السَّكينَةِ من الأمور المُشتهرِ اختصاصُها بالله تعالى؛ إذ من شأن جملةِ الصِّلة أن تكون ممّا اشتهرَ بها مرجِعُ الموصولِ، وفي التَّعبير بالمسنَدِ موصولًا أيضًا دلالةٌ على القَصْرِ؛ إذِ الموصول معرفةٌ، والمُسنَدُ إليه هاهنا - وهو الضَّمير ﴿هُوَ﴾ - معرفةٌ، وتعريف طَرَفي الجملةِ مُفيدٌ القَصْرَ والاختصاصَ، فالَّذي يُنزلُ السَّكينَةَ والطُّمأنينة في قُلوب المُؤمنين هو الله سبحانَهُ لا غيرُهُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الإنزال ماضيًا:

تحقُّقُ حلولِ السَّكينةِ في القلوبِ وثُبوتُها

عُبِّر بفعل الإنزالِ ماضيًا ﴿أَنزَلَ﴾، في قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ إشارةً إلى قوَّةِ ثبوت السَّكينة واستقرارِها في القلوب؛ لأنَّ الإنزال يَقْتَضي الثُّبوتَ لا سيَّما من موضعٍ مرتَفِعٍ بعيدٍ[1]، كما يُفيدُ تحقُّقَ هذا الإنزالِ وحدوثَهُ قطعًا، فأُخْبِرَ عنه، وإنزالُ السَّكينة: إيقاعُها في القَلْبِ بإيجادِ أسبابِها، وأُطلق على ذلك الإيقاع فعلُ الإنزالِ؛ تشريفًا لذلك الوِجْدانِ بأنَّه كالشَّيء الَّذي هو في مكانٍ مرتفعٍ فوقَ النّاس، فأُلقيَ إلى قلوبهم،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 33.

وتلك رِفعةٌ تخييليَّة مرادٌ بها بيانُ شرَفِ ما أُثْبِتَ لهُ على طريقة الاستعارة التَّخييليَّة[1].

سِرُّ إيثارِ الفعلِ ﴿أَنزَلَ﴾ على (قَذَفَ):

تكريمُ أهلِ الإيمانِ وتَشْريفُهُم

أوثِر فعلُ الإنزالِ على القذف في قول اللّه ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنَّ فِعْلَ القذفِ فيهِ نوعُ إزعاجٍ وإصابةٍ ورُعْب، بخلاف الإنزالِ؛ فإنَّ فيه إثباتًا وترطيبًا وتهيئَةً، ولذا وردَ القذفُ في القلوبِ مختصًّا بالكفّار، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: 26]؛ لِما في لفظ الرُّعب من الإزعاج، بخلاف أهل الإيمان، فقد جاءَ التَّعبيرُ عنهم بِلَفْظِ الإنزالِ، فقال سبحانه: ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفيه معنًى حكميٌّ، وهو أنَّ مَن عَلِم شيئًا مِن قبلُ، وتَذَكَّره، واستدام تذكُّرَه، فإنَّه إذا وقع؛ لا يتغيَّر، ومَن كان غافلًا عن شيء، فيقع دفعةً يَرْجُفُ فؤادُه، بدليلِ أنَّ مَن أُخْبِر بوقوعِ صيحَةٍ، وقيلَ له: لا تنزَعِج منها، فوقعت الصَّيحةُ؛ لا يَرْجُفُ، ومَن لَم يُخْبَر بها قبلُ، أو أُخْبِر، وغفلَ عنها؛ يرتجفُ إذا وقعَت، فكذلك الكافِرُ، فإنَّ اللّه تعالى أتاهُ من حيثُ لا يحتَسِب، وقذف في قلبِهِ، فارتَجَف، وأمّا المؤمنُ؛ فقد أتاه اللّه مِن حيثُ كان يَذْكُرُه، فسَكَنَ، واطمأنَّ[2]، وفي التَّعبير عن السَّكينة والطُّمأنينة والثَّبات بالإنزال إشعارٌ بِعُلُوِّ شأنِها، حتّى لكأنَّها كانت مودعَةً في خزائنِ رحمةِ اللّه تعالى، ثُمَّ أنزلَها بفضْله في قُلوبهم بعدَ ذلكَ[3].

دلالةُ تعريفِ لفظِ السَّكينة:

عُمومُ السَّكينةِ المُنَزَلَة وكَمالُها

السَّكينةُ: مِن السُّكون، وهي الطُّمأنينة والوَقار، وقد جاء عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّه قال: "كُلُّ سَكينة في القرآن؛ فهي طمأنينةٌ، إلّا الَّتي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 149.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 67.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 261.

في سورة البقرة[1]، يعني بذلك قولَ اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [البقرة: 248]، والمراد بالسَّكينَةِ في آية الفَتح: الثَّبات والطُّمأنينة التي أودعها سبحانهُ في قلوب المؤمنين، فترتَّب على ذلك أن أطاعوا اللّٰه سُبحانَه ورسولَه ﷺ، وانشرحَت صُدورُهم لهذا الصُّلْح بَعد أن ضاقَت في أوَّل الأمر، وبعد أن ظنّوا أنَّ في شروطِ صُلْحِ الحُديبية ظُلْمًا لهم، وأن بايَعوا النَّبيَّ ﷺ على المَوْتِ بعد أن بلغهم أنَّ عثمانَ ﵁ قد قتله المشركون[2]، وفي التَّعبير بلفظ السَّكينة مُعرَّفًا باللّام إشارةٌ إلى شُمولِها وعُمومِها، وكأنَّ اللّٰه تعالى قد خصَّ هؤلاء الصَّحابةَ الكرام - رضوانُ اللّٰه عليهم أجمعين - من المؤمنين الذين كانوا مع النَّبيِّ ﷺ يوم فتح الحديبية بجِنْس السَّكينة كُلِّه؛ تكريمًا لهم وتشريفًا وتثبيتًا، ويجوزُ أن تكون اللّامُ دالَّةً على الكمال، أي: أنزلَ السَّكينَةَ الكاملَةَ، ولا تنافيَ بين المعنيين، فيكون المُرادُ: أنَّ اللّٰه تعالى أنزل أنواعَ السَّكينَةِ كلِّها بأكمَلِ صوَرِها، وعلَّةُ إنزالِ السَّكينةِ أن يكون ذلك الإنزالُ سببًا لمعرفةِ المُؤمنين فضلَ اللّٰه عليهِم بتيسير الأمنِ لهم بعد الخوفِ، ثُمَّ يكون ذلك العرفانُ سببًا لأن يتَلَقّوها بالشُّكْر مِن الأعمال الصّالحة، فيستأهِلوا به الثَّوابَ والجزاءَ الحَسَنَ، فيُثيبهم اللّٰه تعالى بإدخالهم جنّاتٍ تجري مِن تحتها الأنهارُ[3].

معنى حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ ودلالتُهُ:

صفاءُ قُلوبِ الصَّحابةِ ونَقاؤُها واطمِئْنانُها

أشارَ حَرْفُ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾، في قولِ اللّٰه تَعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، إلى استِقرارِ الوَقار والسَّكينة والطُّمأنينة التي أنزلَها اللّٰه تعالى؛ إكرامًا منهُ سبحانَهُ في قُلوبِ

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/ 223.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 261.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 376.

صحابَةِ الرَّسول رضوان اللّه عليهم، الصّابرين لِحُكمه، فكأنَّ قلوبَهم العامرةَ بالإيمان استحالت وِعاءً للسَّكينة، وظَرْفًا لثُبوتِها ورُسوخِها وتمكُّنِها مِن تلك القلوب المُطْمئِنَّة بوَعْدِ اللّه تعالى، وفي هذا ثناءٌ على تلك القلوب النَّقيَّة التي تَلقَّفت تلك السَّكينةَ، وهذا المعنى لا نجده فيما لو جاء النَّظمُ القرآنيُّ: (أنزل على قلوب المؤمنين) بحرف الاستعلاء (على).

دلالَةُ جَمعِ لَفْظِ ﴿قُلُوبِ﴾:

شِدَّةُ عنايةِ الله تَعالى بالصَّحابة الكرامِ

في التَّعبير عن القلوب بلَفْظِ الجَمعِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إيماءٌ إلى كثرة المُؤْمنين، ولازِمُ ذلك الإشارةُ إلى سعَةِ فَضْلِ اللّه تَعالى وعموم إنعامه بإنزاله السَّكينة على هذه القلوبِ كلِّها، كما أنَّ جمعَ لَفْظِ القُلوبِ ملائمٌ لجمعِ المُؤْمنين، والقاعِدَةُ: أنَّ مُقابلَةَ الجَمعِ بالجَمعِ تقتَضي القِسْمَةَ آحادًا، فالسَّكينةُ نازلَةٌ عَلى قَلْبِ كلِّ مؤمنٍ مِنهُم، وذلك يدلُّ على شِدَّة عنايَةِ اللّه تَعالى بكُلِّ فردٍ من أفراد الصَّحابة ﭫ.

سِرُّ تعريفِ القُلوبِ بالإضافَةِ:

بـيـانُ فَـضْـلِ أهـلِ الحُدَيْبية وشَرَفِهم

أشارَ التَّعبيرُ بالقلوبِ وجَمعِها في قول اللّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، إلى أنَّ تلك القلوبَ الرّاضيةَ المُطْمَئِنَّة بوعد اللّه تعالى لها، بمنزلةِ أرضٍ خَصْبة نقيَّة صالحةٍ للإثمار والإنتاج الوفير، فيزداد إيمانُ أصحابِها، ويقوى يَقينُهُم، كما أومأ تعريفُ القُلوبِ بالإضافَةِ في قولِه تَعالى: ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى تخصيص هؤلاءِ - وهم أهْلُ الحُدَيْبِيَةِ - بفضل اللّه عليهم ببثِّ السَّكينة والوقار في قلوبهم؛ لرسوخ الإيمان في قلوبهم، بَعدَ أن دَهَمَهم فيها ما مِن شأنِه أن يُزْعِجَ النُّفوسَ، ويُزيغ القلوبَ مِن صَدِّ الكفّار ورجوع الصَّحابة - رضي اللّه تعالى عنهم - دون مَقْصودهم، فلم يرجِع أحدٌ مِنهُم عن الإيمانِ بعدَ أن ماج النّاسُ،

وزُلْزِلوا[1]، وفي إضافةِ القلوب إلى المؤمنين أيضًا دلالَةٌ على العُموم؛ وذلك لأنَّ الجمعَ المُضاف يدلُّ على ذلك، فأفاد ذلك أنَّ اللّه تعالى أنزلَ السَّكينةَ على عموم أهلِ الإيمان مِن أهلِ الحُديبية، وفي التَّعبير بالجمع ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلماحٌ إلى أنَّ تلك الفِئَة مِن الصَّحابة - رضي الله عنهم - بمنزلَةِ أُمَّةِ المؤمنين كلِّهم، وهذا ما دلَّ عليه هذا الجَمعُ، وأيُّ تشريفٍ لهم وتكريم بَعْدَ هذا؟.

معنى اللّام في ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ﴾:

إنْـزالُ السَّكينةِ عِـلَّـةٌ لـزيـادَةِ الإيـمـانِ وتَـرْسيـخِـه في القُلوبِ

اللّام في ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ﴾ حرفٌ يُرادُ به التَّعليلُ، أي: إنَّ اللّه سُبحانَه أنزل السَّكينةَ في قلوب أهل الإيمانِ من أجلِ أن يَزدادوا؛ بسبب تلك السَّكينةِ إيمانًا مُنْضمًّا إلى إيمانهم الحاصلِ لهم مِن قَبلُ[2]؛ وذلك لأنَّ اللّه سُبحانَهُ عَلِم أنَّ السَّكينة إذا حصلت في قُلوبِهم؛ رسخَ إيمانُهم، فعومِل المعلومُ حُصولُه مِن الفعل مُعاملةَ العِلَّة، وأُدخل عليه حرفُ التَّعليل، فكان في ذلك الحادث خيرٌ عظيمٌ لهم، كما كان فيه خيرٌ للنَّبيِّ ﷺ بأنْ كانَ سببًا لتَشْريفِه بالمغفرةِ العامَّة، ولإتمامِ النِّعمة عليه، ولهدايَتِه صراطًا مستقيمًا، ونَصْره نَصْرًا عزيزًا[3].

التَّعبيرُ بالفِعْلِ (يزدادوا) مضارعًا، مسندًا إلى واو الجماعَةِ:

تجدُّدُ إيمانهم بتَجَدُّدِ طاعاتهم

عُبِّر بالفعل (يزدادوا) من قول اللّه تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ﴾ مضارعًا؛ للدَّلالَةِ على تجدُّدِ الإيمانِ واستمرارِ ازدياده بزيادَةِ طاعاتهم وتقرُّبِهم إلى ربِّهم سُبحانَهُ، وأُسْنِدَ إلى واو الجماعَةِ حَملًا على الجمعِ الواردِ قبله في قوله: ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فيكون ذلك دالًّا على أنَّ كلَّ واحدٍ من أفرادِ المؤمنينَ يزدادُ إيمانًا مع إيمانه؛ إذ قوبِل الجمعُ بالجمع، وذلك يقتضي القسمةَ آحادًا.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 18/ 284.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 154.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 150.

تَفخيمُ شأنِ إيمانِ الصَّحابة رضي الله عنهم وتَعْظيمُه

غرضُ التَّنكير في ﴿إِيمَٰنًا﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿إِيمَٰنًا﴾ في قول الله تعالى: ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾؛ لكونه تمييزًا، ومِن شأنِ التَّمييز أن يكونَ نكرةً، ولا يمنَعُ جريانُ الكلمةِ على الأصلِ التماسُ نُكتَةٍ لها، كما ذكر الشِّهابُ الخفاجيُّ أنَّ كونَ اللَّفْظِ "أمرًا لازمًا بحسَبِ القاعدة النَّحويَّة لا يُنافي قصدَ إفادةِ ما يقتضيهِ المقامُ"[1]، ونُكْتَةُ تنكير لفظ الإيمانِ في الآيةِ الكريمةِ هو التَّعظيمُ والتَّفخيم والتَّشريف، فإنَّ الصَّحابة - رضي الله عنهم - رُزقوا إيمانًا عظيمًا لا يُقارَنُ بإيمانِ مَن جاءَ بعدَهُم.

تـصـويـرُ قـوَّةِ الإيمانِ وعظمتِه

معنى ﴿مَّعَ﴾ ودلالتُها:

دلَّ الظَّرفُ ﴿مَّعَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ على المُصاحبَةِ؛ إذ جُعِلَت قوَّةُ الإيمان بمنزلة إيمانٍ آخَرَ دخلَ على الإيمانِ السّابقِ؛ إذِ الواحدُ من أفراد الجِنْس، إذا انضافَ إلى أفرادٍ أُخَرَ؛ زادها قوَّة، فلذلك عَلَّق بالإيمان ظرفَ ﴿مَّعَ﴾ في قوله: ﴿مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾، فكان في صُلح الحُديبية خيرٌ عظيمٌ لهم، كما كان فيهِ خيرٌ للنَّبيِّ ﷺ، بأن كان سببًا لتَشريفه بالمغفرة العامَّة، ولإتمام النِّعمة عليه، ولهدايته صراطًا مستقيمًا، ولنَصْرِه نصرًا عزيزًا، فما أعظَمَهُ من حَدَثٍ أعْقَبَ هذا الخيرَ الكبيرَ[2]!

تَأصُّلُ الإيمانِ ورسوخُه

دلالةُ تعريفِ الإيمان بالإضافةِ إلى ضميرِ المؤمنين:

عُرِّف لفظُ الإيمان بالإضافة في ﴿إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ من قول الله جل جلاله: ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾؛ للدَّلالةِ على تَشْريفِهم بالإيمانِ واختِصاصِهم بِهِ، وفيه إيماءٌ إلى رسوخِ الإيمانِ في قلوبِهم وتجذُّره فيهم وتأصُّله.

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 229.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 150.

معنى الواو في ﴿وَلِلَّهِ﴾، ودلالتُها:

الواوُ بين الاستئنافيَّة والاعتراضيَّة

الواوُ في ﴿وَلِلَّهِ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ استئنافيَّة[1]، والجملة بعدَها مستأنفةٌ، ويجوزُ أن تكون اعتراضيَّةً، وجملة التَّذْييل مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ العِلَّة، وهي قوله: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾، وبين مُعَللها، وهو قولهُ: ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ ولذلك عَمَّمَهُما، وجعل بعضَ قضاياهُما إنزالَ السَّكينة والطُّمأنينة - بسبب صلح الحُديبية - والأمن في قلوب المُؤمنين[2].

معنى اللّام في (لله)، وسرُّ إظهار الاسمِ الأحسَنِ:

تَنوُّعُ نَصْرِ الله تعالى لأوليائِه

اللّام في (للّه) من قول اللّه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ للمُلْك، والمالك يتصرَّف في مُلْكه بما يشاءُ، وذلك يقتضي نصرَهُ سُبحانَهُ لأوليائه بِصُنوفٍ من النَّصْرِ، مِنها: نصرُهُم بجنودِه.

إدخالُ المَهابةِ والرَّهبةِ في قُلوبِ السّامعين

وأُظهِرُ الاسمُ الأحسنُ (اللّه)، وكان مقتضى الظّاهِرِ إضمارُهُ، فيأتي النَّظم القرآنيُّ: (وله جنودُ السَّماوات والأرض)؛ جريًا على قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾، ولكن عُدِلَ عن ذلك إلى الإظهار؛ لتربيةِ المهابَةِ وإدخالِ الرَّهبةِ في نفوسِ المتلقّين.

بلاغةُ تقديم متعلِّق الخبَرِ (للّه):

عَظَمَةُ جندِ الله سُبحانَهُ

قُدِّم الجارُّ والمجرور (للّه) - وهو متعلِّق الخبرِ المحذوف - في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لإفادَةِ القصْرِ والاختصاصِ؛ إذ قُصِر مُلْكُ جنودِ السَّماوات والأرض على اللّه سُبحانَهُ قَصْرَ صفةٍ على موصوفٍ قَصْرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، ويجوزُ أن يكون قصرًا ادِّعائيًّا، بالنَّظر إلى أنَّ الملوكَ والفاتحين لهم من

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 234.

(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 375.

الجنودِ ما لهم، ولكن لا اعتدادَ بذلك بالنِّسبة لما للّه تعالى من الجُنْدِ والغَلَبَةِ[1].

سِرُّ جمعِ ﴿جُنُودُ﴾ جمعَ كثرةٍ، وتعريفِها بالإضافَةِ:

كثرةُ جُنودِ الله تعالى كثرةً تَسْمو عن العدِّ

جُمِعَ لفظُ الجنود في قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ جَمعَ كثرَةٍ؛ للإشارَةِ إلى أنَّ جنودَهُ سُبْحانَهُ تفوقُ الحصر والعَدَّ والوَصْفَ، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر: 31]، وإضافتُهم إلى السَّماوات والأرضِ ترشيحٌ لبيانِ كثرتِهم؛ حتّى كأنَّ جنودَ كلِّ سماءٍ جِنسٌ مستقلٌّ عن جنودِ السَّماءِ الأخرى، وأنَّ جنودَ السَّماواتِ جنسٌ، وجنودَ الأرض جنسٌ آخَرُ.

بلاغَةُ الطِّباقِ بينَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و(الأرض):

بيانُ عظمَةِ مُلْكِ الله سُبْحانَهُ

بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و(الأرض) من قول اللّه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ طباقٌ، وفائدَتُهُ: المبالغَةُ في الدَّلالة على كثرة جنودِ اللّه تعالى، وأنَّهم مُستَوعِبونَ أقطارَ الكَونِ سماءً وأرضًا، فما مِن بُقْعَةٍ في هذا الكَوْنِ إلّا وللّه تعالى جنودٌ فيه.

سِرُّ التَّعبيرِ بفِعْلِ الكوْنِ ماضيًا:

عِلْمُ الله تعالى وحِكْمَتُه لازِمان له لا يَنْفَكّان عنهُ بحالٍ

التَّعبيرُ بفعل الكَوْنِ ماضيًا في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ للدَّلالة على قِدَمِ عِلْمه سبحانه وحكمته، وأزليَّتِهما واستمراريَّتِهما أيضًا، فهو سبحانه كان ولا يزالُ عليمًا حكيمًا، و(كان) في هذا الموضِعِ وما يشبهُه تدلُّ على الاستمرارِ.

نُكْتَةُ إظهارِ الاسمِ الأحسَنِ:

جَمْعُ الاسمِ الأحسَنِ (الله) لِصِفاتِ الجَلالِ والجَمالِ والكَمالِ

في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ إظهارٌ في مقام الإضمارِ، وذلك أنَّ مقتضى الظّاهر أن يَرِدَ التَّعبيرُ القرآنيُّ: (وَكان عليمًا حكيمًا)؛ لتقدُّم ذِكْرِ الاسم الأحسَنِ (اللّه) في الجملةِ قبله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، وعُدِلَ عن الإضمارِ؛ لِما في الاسم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 151.

المُظْهَرِ، وهو الاسم الأحسنُ ﴿ٱللَّهُ﴾ من صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، والعِلمُ والحِكْمَةُ مِن أفرادِ تلك الأوصافِ الكُلّيَّةِ، وفي الإظهارِ إدخالُ المهابَةِ في نفوس المُتلقّينَ، وإشعارٌ بعِلَّةِ الحُكم؛ لأنَّ الألوهيَّةَ مَنْشَأٌ لاتّصافه سبحانَهُ بصفات الكمالِ، كما أنَّ إظهارَ الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾ يجعل التَّذييلَ بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ جاريًا مجرى المثَلِ؛ لاستقلاله بالإفادَةِ، وعَدَمِ افتقاره إلى غيرِهِ في الكشْفِ عن تمامِ المرادِ مِنهُ، بخلاف ما لو أُضْمِرَ؛ لكان مِن التَّذييل غير الجاري مَجْرى المثَلِ، والأوَّلُ أليقُ بهذا المقامِ.

سرُّ إيثار صِفَتَي: (العِلْم والحكمة)، وترتيبِهما:

اقتضاء المقام لِصفتي العِلْم والحكمة

اقتَضى مقامُ الآية الكريمة إيثارَ خَتمِها بصِفَتَي العِلْم والحِكْمةِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ وذلك أنَّ اللّه تعالى لمّا ذَكَر القلوبَ في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ كان مِن الملائم ذِكْرُ العِلْم إشارةً إلى أنَّه سُبْحانَهُ يعلَمُ خَفاياها، وأُتبِع هذا الوصفُ بوصف الحِكمة إيماءً إلى أنَّه تعالى يَفْعَلُ ما يفعَلُ على وفْقِ العِلْم، وقد أشار الفَخْرُ الرّازيُّ إلى هذا المعنى، فذكر أنَّ اللّه تعالى لمّا قال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وكان عَدَدُهم كثيرًا لا يُحْصى؛ أثبتَ العِلْمَ له سُبحانَهُ؛ للإيماءِ إلى أنَّه تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: 3]، وأيضًا: فإنَّه سُبحانَهُ لمّا ذكر القلوبَ؛ أتبعَهُ بذكر العِلْم؛ للإشارةِ إلى أنَّه يعلم السِّرَّ وأخفى، وذِكْرُ الحَكيم بعد العليم إيماءٌ إلى أنَّ فِعْلَه جارٍ على وفقِ عِلْمه؛ إذِ الحكيمُ هو مَن يعملُ الأمر على وجه الإتقانِ، ويعلَمُهُ، بخلاف مَن يقعُ مِنه صنعٌ عجيب اتِّفاقًا من غير قصْدٍ، فإنَّه لا يُسمّى حكيمًا، وكذا من يعلَمُ، ويعمَلُ على خلاف العلم، لا يُقال له: حكيمٌ[1].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 68، والبقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 287.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿عَلِيمًا﴾ و﴿حَكِيمًا﴾:

نُكِّر الاسمانِ الجَليلان ﴿عَلِيمًا﴾ و﴿حَكِيمًا﴾، من قولِ اللَّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تعظيمًا لِمَدْلولهما، فاللَّه سُبحانَهُ له مِن سعَةِ العِلْمِ ودِقَّةِ الحِكْمَةِ ما لا مُنْتَهى لِكَمالهما.

وَجهُ التَّعبيرِ عن الصِّفَتَينِ بصيغَةِ (فعيل):

جَلالَةُ عِلْمِ الله تعالى وحِكْمَتِه

في ذِكْرِ الاسمَينِ الكَريمَينِ الوارِدَين في قولِ اللَّه ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ - بصيغةِ المُبالَغَة على زِنَةِ (فَعيل) فيهما - إيماءٌ إلى جلالةِ ما تضمَّناهُ مِنَ الأوصافِ وسَعتِها وعَظَمَتِها، وهيَ وصْفُ العِلْمِ، ووصفُ الحِكْمَةِ.

بلاغَةُ التَّذييل:

عُمومُ عِلْمِ الله تَعالى وسَعَةُ حِكْمَتِه

جاءَ قولُ اللَّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تذييلًا؛ لِما ذُكِرَ مِن الفَتحِ والنَّصرِ وإنزالِ السَّكينَةِ في قُلوبِ أهل الإيمانِ؛ تعميمًا لما ذُكر، ولِما لَم يُذكَر، وتقريرًا لمضمون الآيةِ، وأنَّه سُبحانَهُ عَليمٌ بِأسْبابِ الفَتحِ والنَّصرِ، وعَليمٌ بما تَطْمَئِنُّ به قُلوبُ المُؤمِنينَ بَعدَ البَلْبَلَةِ، وأنَّهُ تعالى حَكيمٌ يَضَعُ مُقتَضَيات عِلْمِه في مواضِعِها المناسِبة وأوقاتِها المُلائمة(1).

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

السَّكينةُ والطُّمأنينة:

السَّكينةُ هدوءٌ بعدَ عَدَمِه، والطُّمأنينةُ استقرارٌ بعد عدَمِه

السَّكينةُ تُستعمَلُ في الإنسانِ وغيرِه، بخلافِ الطُّمأنينة فإنَّها لم تُستعمَل إلّا في الإنسان، فيقال: سَكَنت الرِّيحُ، ولا يُقال: اطمأنَّت الرِّيح، كما قال اللَّه سُبحانَهُ: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓ﴾ [الشّورى: 33]، واستُعمل لفظُ السُّكون في الاستيطانِ، فيقال: سكَنَ فلانٌ كذا، أي: استوطنَهُ، ومنهُ قول اللَّه ﷻ: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 151.

﴿ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: 37]، فالسَّكينَةُ يُراد بها الهدوء بعد عدمه، ولذا يُستعمَل في الأمن بعد فَقْده، كما في قول الله ﷻ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التّوبة: 40]، ولذا قال أبو هلال: "السَّكينَةُ: مُفارقَة الاضطِراب عندَ الغَضَب والخَوْفِ، وأكثَرُ ما جاء في الخَوفِ"[1].

وأمّا الطُّمأنينةُ؛ فيُراد بها الاستقرار بعد عدمه، ومنه الاستقرار بالرُّجوعِ إلى الوطن بعد مفارقَته بالسَّفر، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ١٠٣﴾ [النّساء: 103]، وتُستَعمل بمعنى الاستقرارِ على اليقينِ بعد شكٍّ وتردُّدٍ، كما قال تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: 260]، وقال سُبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرّعد: 28]، والحاصل: أنَّ السَّكينَةَ هدوءٌ بعدَ عَدَمِه، والطُّمأنينةَ استقرارٌ بعد عدَمِه[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 202.

(2) عبد الجبّار فتحي زيدان، الفروق اللّغويّة في القرآن الكريم، ص: 624، 626.

﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٥﴾ [الفتح: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا ذكر اللّه تعالى الفتحَ بالنَّصرِ وما مَعَهُ، وبيَّن وجهَ هذا النَّصرِ وصورتَهُ؛ علَّلَ عِلَّةَ الدَّليل، وهي قوله سُبحانَهُ: ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾، وعلَّل ما دلَّ عليه مُلْكُ الجنودِ من تسخيرهم وتدبيرِهم؛ زيادَةً في السَّكينَةِ وترشيحًا لها، فقال سُبحانَهُ: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[1].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿لِّيُدۡخِلَ﴾: (دخل) تدلُّ تصريفاتُه على الوُلوج، ومنهُ الدُّخول، وهو نَقيضُ الخُروج، والدَّخَلُ: العَيْبُ في الحَسَبِ[2]، وداخِلَةُ الإزارِ: طَرَفُه الَّذي يَلي الجَسَد ويَلي الجانِبَ الأيمَنَ، وداخلةُ الأرض: خَمَرُها وغامِضُها، وجَمعها: دَواخِلُ[3].

2) ﴿تَجۡرِي﴾: (جري) تدور اشتقاقاتُه على انتقالٍ بحركة خفيفةٍ سريعة مسترسلة متَّصلة، كسيلان الماء والدَّم[4]، ومِنه: الجَرْي، وهو المَرُّ السَّريع، وأصلُه كمَرِّ الماء، ولما يجري بجَرْيِه[5]، والجاريةُ: الشَّمسُ، والسَّفينةُ، ويُقال: جاراهُ مُجاراةً وجِراءً، أي: جَرى معَهُ[6].

3) ﴿خَٰلِدِينَ﴾: (خلد) تدلُّ تصريفاتُه على بقاء الشَّيء لازمًا موضعَهُ أو حالَه أمدًا طويلًا، رغْمَ زوالِ نظيره أو قرينه[7]، ومِنهُ: الخُلْدُ، وهو المُكْث الطَّويل، والخُلْد: دَوامُ البَقاءِ في دارٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 18/ 287.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دخل).
(3) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (دخل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جرى).
(5) الرّاغب، المفردات: (جرى).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (جرى).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خلد).

لا يَخْرُجُ مِنها، يُقال: خَلَدَ يَخْلُدُ خُلْدًا وخُلودًا؛ إذا بَقيَ، وأقام، ودارُ الخُلْد: الآخِرَةُ؛ لبقاءِ أهلها فيها، وخَلَّده اللّه تعالى، وأخْلَده تَخْليدًا، وقد أخْلَد اللّه أهلَ دارِ الخُلْد فيها، وخَلَّدهم، وأهلُ الجَنَّةِ خالدونَ مُخَلَّدون آخِرَ الأبد[1]، والعرب تَصِف بالخُلود كلَّ ما تباطأ تَغَيُّره وفسادُه، وكذلك وُصِفت الأيّام بالخوالدِ لِطول مُكْثها لا لدَوام بقائِها[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبَيِّن اللّه تعالى في هذه الآيَةِ أنَّه سيُدخِلُ المُؤمنين والمُؤْمِنات جَنّاتٍ تَجْري من تحتِ أشجارِها وقصورِها الأنهارُ، ماكثينَ فيها مُكثًا مؤبَّدًا، ويَمحو اللّه تعالى عَنْهُم سيِّئاتِ أعمالِهم، فلا يُعاقِبُهم عليها، وذلكم عِنْدَ اللّه سُبحانَهُ هوَ الفوزُ العظيمُ، الَّذي لا يُقادَرُ قَدْرُهُ، وهو النَّجاة التّامَّة من كلِّ غَمٍّ، والظَّفَرُ بكلِّ خيرٍ[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى اللّام في ﴿لِّيُدۡخِلَ﴾ ودلالتُها:

تعليلٌ بَعد تعليلٍ

اللّام في ﴿لِّيُدۡخِلَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ للتَّعليل، وهي متعلِّقةٌ بفِعْلِ (يزدادوا) من قوله سُبحانَهُ: ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾، فَما بَعْد اللّام عِلَّةٌ لِعِلَّةِ إنزال السَّكينة، فتكون عِلَّةً لإنزال السَّكينة أيضًا بواسطة أنَّه عِلَّة للعِلَّة[4].

دلالةُ التَّعبير عن الإدخالِ بالفِعلِ المُضارِعِ:

تحقُّقُ إدخالِ أهلِ الإيمانِ الجَنَّةَ

عبَّر النَّظمُ الكريم عن فعل الإدخال بصيغة المضارع (يُدْخِل) في قول اللّه تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خلد).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (خلد).
(3) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 511.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 151.

﴿تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ تأكيدًا على وقوعِه؛ إذ المضارعُ في الأصل يدلُّ على الحالِ، فكأنَّ الإدخالَ قد شُرِعَ فيه وقتَ نزولِ الخطابِ؛ تحقيقًا لوقوعه في المستقبَل وقُرْبِ ذلك الإدخالِ.

نُكْتَةُ الإظهارِ في مقامِ الإضْمارِ:

دخــولُ الجَـنَّـة عامٌّ لكلِّ مُؤْمِنٍ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ إظهار في مقام الإضمار؛ وذلك لتَقدُّم ذِكْرِ المؤمنين في قولِ اللّه ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فكان مقتضى الظّاهر أن يَرِد النَّظمُ القرآنيُّ: (ليدخِلهم جنّاتٍ)، ولكن عُدِلَ عن ذلك لإفادةِ العُموم؛ إذ لو أُضمِرَ؛ لتُوُهِّم أنَّ إدخالَ الجنَّةِ خاصٌّ بالمؤمنين الَّذين أنزلَ اللّه تعالى السَّكينةَ عليهم في الحُديبية، فبيَّن سُبحانَهُ بالإظهارِ أنَّ إدخالَ الجنَّةِ عامٌّ لجميع أهل الإيمانِ.

نُكْتَةُ عطفِ ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ على ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

تقديرُ دَوْرِ المرأةِ المُسْلِمَةِ في خِدْمةِ دينِها

أُرْدِف لفظُ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بـ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾؛ تقديرًا على أصالةِ دورهنَّ في خِدْمة الدّين، وإزالةً لِتَوَهُّم اختصاصِ هذا الوعد بالرِّجال، ولذا فإنَّ البيانَ القرآنيَّ ينصُّ على المؤمناتِ في المواضع الَّتي فيها ما يوهم اختصاصَ المؤمنين بالجزاء الموعود بِهِ، مع كونِ المؤمنات يَشْتَرِكن معهُم، أمّا المواضع التي لَيْسَ فيها ما يوهِم ذلكَ؛ فإنَّه يَكْتَفي بدخولهنَّ في المؤمنينَ[1]، وفي آية الفَتحِ ما يوهِمُ اختصاصَ الجزاءِ بالرِّجالِ؛ لأنَّ الإدخالَ المذكورَ واقعٌ عِلَّةً لِعِلَّة الفتحِ والنَّصر، وهي من ملابَساتِ الرِّجالِ، وإن كان النِّساءُ لا يَخلونَ من مشاركةٍ في ذلك، ممَّن يَقُمن على المرضى والجرحى وسقي الجيش، ونحوِ ذلك، ومن صبرِ أفرادٍ منهنَّ على الثَّكل أو

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 69.

التَّأيُّم، وصبرِهنَّ على غيبةِ الأبناء والآباء والأزواج ونحو ذلك من ذوي القَرابةِ(1).

نُكْتَةُ جمعِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾، وتنكيرِها:

عظَمةُ ثوابِ الآخِرة وتَنوُّعُه

جُمِعَ لفظُ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾؛ لِلإيماءِ إلى تعدُّدِها وكثرتِها، وذلك أنَّ الجنَّةَ في الآخرةِ تشتمِلُ على جِنانٍ كثيرةٍ، ونُكِّرت؛ للإشعارِ بتنوُّعِها واختلافِها، وهذا أقوى في التَّرغيبِ، وأنشَطُ لقلوب المتلقّينَ على فعل أسبابِ تحصيلِها، والمراد بإدخالهم الجنَّةَ أنَّه إدخالٌ خاصٌّ، وهو إدخالُهُم منازلَ المُجاهدينَ، وليسَ هو الإدخالَ الذي استحقّوه بمقتضى الإيمانِ وصالح الأعمال الأخرى(2).

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿تَجۡرِي﴾ مضارعًا:

عُبِّرَ بالفعل ﴿تَجۡرِي﴾ مضارعًا في قول اللّه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ للإشارة إلى استمرار جريان أنهار الجنَّة، وهذا ممّا يزيد مُتعةَ أهلِ الجنَّة ونعيمَهم.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

﴿مِن﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ابتدائيَّة، أي: إنَّ ابتداء جَرْيِ أنهار الجنّات يكون مِن تحتِ قصورِها وأشجارِها.

سرُّ إيثار الظَّرف ﴿تَحۡتِهَا﴾، وبيانُ مرجِعِ الضَّمير في ﴿تَحۡتِهَا﴾:

جَريانُ أنهارِ الجنَّة في غيرِ أُخْدودٍ

أوثِر الظَّرف ﴿تَحۡتِهَا﴾ في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ مجرى الأنهارِ ليس شديدَ الاتِّصالِ بأرضِ الجنَّةِ على وجهٍ يجري فيه الماءُ في مكان محفورٍ، كما جاءَ عن بعض السَّلَفِ أنَّ أنهارَ الجنَّة تجري في غير أخدودٍ(3)؛ إذِ الظَّرفُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 151.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 152.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 1/ 384.

(تَحْتَ) يُستعمَل في التَّعبير عن المُنفصل، أو ما يمكن انفصالُه، بخلاف الظَّرف (أسفل) فإنَّه يُستعمَل في التَّعبير عن المُتَّصِل بعضِه ببَعض[1]، وممّا هو معلوم أنَّ الأنهار ليست مُتَّصلةً بالجنّات، بل هي منفصلَةٌ عَنها، وإن جمعهما مكانٌ واحد، والضَّمير في ﴿تَحۡتِهَا﴾ راجِعٌ في الجَنّاتِ المذكورة قبلُ في قوله تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾.

نُكْتَةُ جمعِ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

كثرةُ أنهارِ الجنَّة وتنوُّعُها

جُمِعَ لفظُ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ للدَّلالة على كثرتِها وتنوُّعها؛ إذ منها أنهارُ عسَلٍ، وأنهارُ لَبَن، وأنهارُ خَمرٍ لَذَّةٍ للشّاربين، وأنهارُ ماءٍ، كما قال الله سُبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [محمّد ﷺ: 15].

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

أنهارُ الجنَّة نعمَةٌ مستقِلَّةٌ

(أل) في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ يُراد بها تَعريفُ الجِنْسِ[2]، فيكون في قوَّة النَّكرةِ، ويحتملُ أن تكون (أل) لِلعَهْدِ التَّقديريِّ؛ وذلك أنَّه لمّا ذُكرت الجنّاتُ؛ استَحْضَرَ السّامعُ لوازمَها ومقارناتِها، فساغَ لِلمُتَكَلِّم أن يُشير إلى ذلك المعهودِ، فَجيء بـ(أل)[3]، ويحتمل أن تكون لِلعَهْدِ الخارجيِّ، والإشارةُ فيه إلى قول الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [محمّد ﷺ: 15][4]، ولم تُضَفِ الأنهارُ إلى ضمير الجنّاتِ، بأن يقال: (تَجْري مِن تحتِها

---

(1) الرّاغب، المفردات: (تحت)، ومحمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 158.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 107.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 354، 355.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/ 69، والآلوسيّ، روح المعاني: 1/ 204.

أنهارُها)؛ لِما في الإضافة مِن كُلفَةٍ في الكلام، ولِلتَّنْبيه على أنَّ نعمةَ الأنهارِ مُسْتقِلَّةٌ، فيكون التَّمَتُّع بها تنعُّمًا مستقِلًّا لا تبعًا لِلجَنّاتِ[1]، ومالَ ابنُ عاشور إلى أنَّ تعريفَ الأنهار إنَّما هو لِلتَّفنُّنِ؛ لئلّا يُعادَ التَّنكيرُ مرَّةً أخرَى بعد تنكيرِ (جنّاتٍ)[2].

بلاغةُ المجاز في إسنادِ الجَرْيِ إلى ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

وَفْرَةُ مياه الجنَّة وكثرتُها

إسنادُ الجري لِلأنهارِ مجازٌ عقليٌّ؛ إذِ النَّهرُ في الأصل هو الشَّقُّ في الأرض، وهو لا يَجْري، وإنَّما يجري الماءُ الَّذي فيهِ[3]، فعلاقَةُ المجازِ: مكانيَّةٌ، وفائدةُ المجازِ هاهنا: التَّنْبيهُ على وفْرَةِ المياهِ الجاريةِ وكَثْرَتِها، حتَّى كَأنَّ نفسَ المكانِ يَجْري.

دلالةُ التَّعبير بالحالِ ﴿خَٰلِدِينَ﴾:

بُشرى المؤمنينَ بالخُلودِ في النَّعيمِ

في التَّعبير بالحال ﴿خَٰلِدِينَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، بُشرى للمؤمنين والمؤمنات بالنَّعيم الدّائم غير المنقطع.

فائدةُ التَّعبير بِشِبْهِ الجُملَةِ ﴿فِيهَا﴾:

التَّأكيدُ على خلودِ المؤمنين في الجنَّة واستقرارِهم فيها

في التَّعبير بالجارِّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ إيماءٌ إلى الاستقرارِ، والانغماسِ التّامِّ في نعيم الجنَّة، كما يدلُّ عليه حرف الظَّرفيَّة (في)، فيكون ذلك تأكيدًا على خلودِ أهل الجنَّة، واستمرارِ نعيمهم فيها ودوامِه.

دلالةُ العطْفِ في ﴿وَيُكَفِّرَ﴾:

بيانُ الجزاءِ الَّذي أعدَّهُ الله تعالى للمُؤمنينَ

الواوُ في ﴿وَيُكَفِّرَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ﴾ عاطفةُ الجملةَ بعدَها على جملةِ: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾؛ وذلك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 355.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 355.
(3) الجرجانيّ، درج الدّرر في تفسير الآي والسّور: 1/ 124، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 18/ 290.

لما بين الجُملتين من التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ إذِ الجُملتانِ خبريَّتان، وبينَهُما تناسُبٌ في اللَّفْظِ والمَعْنى، فأمّا اللَّفْظُ؛ فلاتِّحادهِما في الفِعليَّةِ والمضارعيَّةِ، واتِّحاد المسنَدِ إليه فيهما، وأمّا المعنى؛ فلاشتِراكِهِما في بيانِ الجزاء الَّذي أعدَّه اللّٰه تعالى لأهل الإيمانِ.

سِرُّ التَّعبير بلفظِ التَّكفير مادَّةً وصيغةً:

تكفيرُ الذُّنوب عن العِباد سبَبٌ لِدُخولهم الجنَّة

عُبِّر بتكفير السَّيِّئاتِ عَنهم في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ﴾؛ لرَفْعِ تَوَهُّم أنَّ الجزاءَ الموعودَ به عبادُ اللّٰه المؤمنون إنَّما كان باستحقاقٍ تامٍّ؛ ولذا أُشير إلى أنَّه لا سببَ إلّا رحمةُ اللّٰه تعالى الواسعةُ بعباده، وتجاوزُهُ عن سيِّئاتهم، فقال تعالى: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ﴾، أي: يستُرُ ذنوبَهُم سترًا بليغًا عامًّا، مع ترك المؤاخذةِ عليها، فكان ذلك التَّكفيرُ سببًا لدخولهم الجنَّة[1]، وعُبِّر عنه بالفعل المضارِعِ؛ للإيماءِ إلى تجدُّدِ هذا التَّكفيرِ حتّى يستوعِبَ جميعَ ذنوبهم، فيدخلوا الجنَّة، وهم مطَهّرونَ منها مُنزَّهون عَنها.

دلالةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿عَنۡهُمۡ﴾:

الاهتمامُ بالمُقدَّم وإظهارُ شرفه

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَنۡهُمۡ﴾ على المفعولِ به في قول اللّٰه تَعالى: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ﴾؛ لإرادَةِ الاهتمام بالمُقدَّم، وهم المؤمنونَ الموعودونَ بالجنَّةِ وتكفيرِ السَّيِّئات، ولإظهار شرَفهم.

سِرُّ تعريفِ السَّيِّئات بالإضافة، وبيانُ مرجعِ الضَّمير فيه:

جلالةُ مِنَّة اللّٰه تعالى على أهل الإيمانِ

الضَّمير في ﴿سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ﴾ مِن قولِ اللّٰه تَعالى: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ﴾ يعود على أهل الإيمانِ رجالًا كانوا أو نساءً، وهم المذكورون في صدر الآية في قول اللّٰه سُبحانَه: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾، وجاءَ تعريفُ السَّيِّئات بالإضافة إلى ضمير المؤمنين؛ للدَّلالةِ على التَّخصيص، وذلك أدخَلُ في ثبوتِ صدورِ السَّيِّئاتِ مِنهم، فيكون تجاوزُ اللّٰه تعالى عنهم بعد تحقُّقِها مِنهم منَّةً عظيمةً ونعمةً جليلةً.

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 288.

سرُّ ذِكْرِ تكفيرِ السَّيِّئات بعدَ إدخالِ الجنَّةِ:

تكفيرُ السَّيِّئات مِن لوازمِ دُخولِ الجنَّة

أُخِّر ذِكْرُ تكفير السَّيِّئات عن إدخال الجنَّة، في قول الله تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ﴾، مع أنَّ تكفير السَّيِّئات يكون قَبْلَ إدخالِهمُ الجنَّةَ؛ لأنَّ الواوَ لا تَقتَضي ترتيبًا، وبهذا يَرتَفِع الإشكالُ، كما أنَّ تكفيرَ السَّيِّئات والمَغفِرَةَ وغَيْرَهما مِن تَوابع كَوْن المُكَلَّفِ من أَهْلِ الجنَّة، فَقُدِّمَ إدخالُ الجنَّةِ في الذِّكْرِ؛ لأنَّه المقصودُ أصالةً، وغيرُهُ تبَعٌ له[1]، كما أنَّ التَّرتيبَ المذكورَ ترتيبٌ في الذِّكْر فحسبُ، لا ترتيبٌ في الوُقوع، وقُدِّم التَّبشير بدخول الجنَّة؛ لكونه الأهمَّ[2].

مَعنى الواوِ في قوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾، ودلالةُ فِعلِ الكونِ ماضيًا:

الواوُ بين العَطْفِ والاعتراضِ

الواوُ في ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ مِن قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ يجوزُ أن تكونَ عاطفةً على ما قبلها؛ لِما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ إذِ الجملتان خبريَّتانِ، وبينهما تناسبٌ لفظًا ومَعْنًى، ويجوزُ أن تكونَ الواوُ اعتراضيَّةً، والجملة بعدَها اعتراضٌ بين ذِكْرِ جَزاء المؤمنينَ الواردِ في قوله: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾، وبينَ جزاءِ المُنافقين والمُشْركينَ الواردِ في قول الله سُبحانَهُ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾.

دلالةُ فِعلِ الكونِ ماضيًا:

دخولُ الجنَّةِ وتكفيرُ السَّيِّئات هو الفوزُ العَظيمُ

عُبِّرَ بفعل الكَوْنِ في قول الله ﷻ: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾؛ لإفادةِ أنَّ مضمونَ ما تقدَّم من إدخالِ الجنَّة وتكفيرِ السَّيِّئاتِ قد قضى الله تعالى أنَّه فوزٌ عظيمٌ في الأزلِ، وأنَّ الحُكمَ بكونه فوزًا عظيمًا لا يزالُ مستمرًّا؛ حثًّا للمخاطَبينَ على تلمُّسِ أسبابه.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 70.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 284.

دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارَةِ:

تعظيمُ دخولِ الجنَّةِ وتكفيرِ السَّيِّئاتِ

عُبِّرَ باسم الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾؛ لتصويرِ الأمر العَظيم مِن إدخالِ الجنَّةِ وتكفير السَّيِّئاتِ في صورةِ المحسوس؛ مبالغةً في تعيينه وتثبيته في ذهنِ المتلقّي، وفي إيثار اسم الإشارةِ الدّالِّ على البُعْدِ دلالَةٌ عَلى تعظيمه وتفخيمه[1].

سرُّ إيثارِ الظَّرف ﴿عِندَ﴾:

تقويةُ ثِقَةِ المُؤمِنين بوَعْدِ الله سُبْحانَه

جاء التَّعبيرُ بالظَّرف ﴿عِندَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾، دون (لَدى)؛ لِما يدلُّ عليه الظَّرفُ ﴿عِندَ﴾ من الكَونِ في العِلم أو الحُكم، ولو لم يكُن حاضِرًا، بخلافِ (لدى) فإنَّها تختصُّ بما كان حاضرًا[2]، والفوزُ العظيمُ المذكور في الآيةِ - الَّذي حقيقتُهُ إدخالُ الجنَّةِ وتكفيرُ السَّيِّئاتِ - ليس بحاصِلٍ في الدُّنيا، لكنَّه ثابتٌ في علم اللّه ﷻ وموعوده، ولذا كان الأنسبُ أن يَرِدَ البيانُ القرآنيُّ: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: في حُكْمه وتقديره، ولم يَرِد (لدى اللّه) الَّتي توهِمُ الحضورَ العينيَّ، والتَّعبيرُ بـ ﴿عِندَ﴾ يُشْعِرُ بثباتِ هذا الفوز العظيم في ميزان اللّه تعالى وحُكْمه، وإن تأخَّر ظهورُهُ عن الدُّنيا، وذلك يُقوّي الثِّقة بوعد اللّه سُبحانَهُ، ويُرشِّحُ الرَّجاءَ في قلوب أهل الإيمان.

دلالةُ تقْديمِ الظَّرف على الخَبَرِ:

كَرَمُ الله سُبْحانَهُ في مُعاملتِه خَلْقَهُ

قدِّمَ الظَّرْفُ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ على الخبَرِ ﴿فَوۡزًا﴾، في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ الواقع حالًا من الفوز[3]؛ تَعْظيمًا واهتمامًا بتلك المكانَةِ العَليَّةِ، وهذهِ المُعاملةِ ذاتِ الكرامَةِ؛ إذ لَقيَ المؤمنون والمؤمنات الفوزَ والظَّفر في مُعاملةِ اللّه تَعالى لهُم[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 288.

(2) السّيوطيّ، الأشباه والنّظائر في النّحو: 2/ 235.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 232.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 18/ 288، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 151.

سِرُّ التَّعبيرِ بلَفظِ الفَوزِ مَصدرًا نَكِرةً، ودلالةُ وصفهِ بالعظَمَةِ:

تَفْخيمُ شأنِ الفَوزِ الأُخرَويِّ

الفوز: هو الظَّفر بالخير والنَّجاح مع حصول السَّلامة[1]، وجاء التَّعبيرُ بالفوز في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا﴾، وهو مصدرٌ؛ لأنَّ الوصف به أبلغُ؛ لِما يُفيدهُ من التَّمكُّن والتَّحقُّق التّامِّ مِنَ المعنى، حتّى كأنَّ المذكورَ هو عينُ الفوزِ، وجيءَ بالمصدر مُنَكَّرًا في قوله: ﴿فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ لإرادة التَّعظيم، فهو فوز عظيمٌ لا يُدرك كُنْهُهُ، ولا يُبلَغ مداه، ويكون وصْفُهُ بالعظيم بمنزلة التَّأكيد المعنويِّ؛ إذِ العَظَمة مستفادةٌ من التَّنكير، فقوّيت هذه الدَّلالةُ بالوَصْفِ؛ زيادةً في التَّفخيم وتشريفًا له؛ لأنَّه مُنْتَهى ما يُطلَب مِن جَلْبِ نَفْعٍ، أو دَفْعِ ضُرٍّ[2].

دِلالَةُ صَوْغِ الوَصْفِ ﴿عَظِيمًا﴾ على زِنَةِ (فَعيلٍ):

ثبوتُ العَظَمَةِ للفَوزِ ودَوامُها

جيءَ بالوصف ﴿عَظِيمًا﴾ على زِنَةِ (فَعيل)، في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾؛ لإفادَةِ ثبوتِ الوصفِ لموصوفه ودوامه له؛ إذ لفظُ (عظيم) صفةٌ مشبَّهةٌ، وهي ممّا شأنُهُ الدَّلالةُ على الثُّبوتِ والدَّوام، فدلَّ على أنَّ الفوزَ قَد بلغ في العظَمَةِ مبلغًا لا يُحيط الوصفُ بهِ.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (فوز).

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 127.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ٦﴾ [الفتح: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا ذكر اللّه سُبحانَهُ فوزَ أهلِ الإيمانِ بإدخالهم الجنَّةَ وتكفيرِ سيِّئاتِهم، وكان من أعظم الفوزِ وتمامِه إقرارُ العين بالانتقام من العدوِّ؛ أُتبِعَ ببَيانِ انتقام اللّه سبحانَهُ من أعداءِ المؤمنينَ، وبدأ بالعدوِّ المُكاتم؛ لكونه أشدَّ من العدوِّ المجاهرِ المُراغم، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلظَّآنِّينَ﴾: (ظنن) تدلُّ اشتقاقاتُه على مَعنَيَينِ مُختَلِفَين: شَكٍّ ويَقينٍ[2]، إلّا أنَّه ليس بيقينِ عيان، إنَّما هو يقينُ تدبُّر، فأمّا يقينُ العيان؛ فلا يُقال فيه إلّا عِلْم، ويكون اسمًا ومصدرًا، وجَمعُ الظَّنِّ الَّذي هو الاسمُ: ظُنونٌ[3]، وقد ورد الظَّنُّ في القرآن مجملًا على أربعة أوجه، بمعنى اليقين، وبمعنى الشَّكِّ، وبمعنى التُّهَمَة، وبمعنى الحِسبان[4]، والظَّنينُ: الرَّجُل المُتَّهَمُ، والظِّنَّةُ: التُّهَمَة، والجمع: الظِّنَنُ[5].

2) ﴿ٱلسَّوۡءِۚ﴾: (سوأ) تدور تصريفاتُه على القُبح، يقال: رجل أسْوَأ، أي: قبيح، وامرأة سوْءاء، أي: قبيحة، ومنه سُمّيت السَّيِّئةُ سيِّئةً، وسُمّيت النّار: سوءى؛ لقُبحِ مَنظَرِها[6]، والسّوء والسَّوْء: مصدر ساءَه يسوؤه سَوْءًا، أي: فَعَل به ما يكرهه، وهو نقيضُ سَرَّه، ويقال: هذا رَجُل سَوْء، أي: إنَّه سيِّئ بذاته، بِكُلّيَّته وبكُلِّ خِصاله[7]، والكَلِمَةُ تدلُّ على معاني الشَّرِّ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 18/ 289.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظن).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ظن).
(4) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (ظن).
(5) الجوهريّ، الصِّحاح: (ظن).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (ظن).
(7) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (سوء).

والضَّرر، والفسادِ والإفساد، والعذاب والعُقوبَة، و﴿ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ هو ظَنُّ أنَّ اللّه تعالى لا ينصُر دينَه، ولا يُعْلي كَلِمَتَه، وأنَّ أهلَ الباطل ستكونُ لهُم الدّائرة على أهل الحقِّ[1].

3) ﴿دَآئِرَةُ﴾: (دور) تدلُّ اشتقاقاتُه على إحداقِ شيءٍ بشيءٍ مِن حَواليهِ[2]، يُقال: دارَت عليهِ الدَّوائر، أي: نزلَت به الدَّواهي، والدّائرة: الهَزيمَةُ والسّوء، يُقال: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾[3]، وتُطلَق الدّائرة غالبًا في المكروهِ[4]، وهوَ المُراد هنا.

4) ﴿وَغَضِبَ﴾: (غضب) تدور تصريفاتُه على انضمامِ الشَّيء على غليظٍ أو حادٍّ في باطنه، يظهر جِرمُه أو أثره[5]، والغَضَبُ - في حقِّ المخلوقِ - ثورانُ دَم القلبِ لإرادة الانتقام[6]، والغضَب: نقيض الرِّضا[7]، وغَضِب عليه غَضَبًا ومَغْضَبَة: سخِطَ[8]، فهو غَضِبٌ وغضبان، والجمع: غِضاب، وهي غَضْبى، والجمع: غَضابى، وأغضبه: حمله على الغضب، وغاضب فلانًا: هَجَره، وتباعدَ عنه، والغضبُ مِنَ الصِّفاتِ المعنويَّةِ الَّتي تُدْرَكُ بآثارِها، وتفسيرُ الغضبِ بإرادَةِ الانتقام لا يصحُّ، ويدلُّ لذلك قولُ اللّه تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٥﴾ [الزّخرف: 55]، فإنَّ معنى ﴿ءَاسَفُونَا﴾ [الزخرف: 55]: أغضبونا، فجُعِل الانتقام أثرًا مترتِّبًا على الأسَفِ، فدلَّ على أنَّهُ غيرُهُ[9]، والغضَب المذكورُ في قوله سُبحانه: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ هو غضبٌ يليقُ بجلاله وعظَمَته.

5) ﴿وَلَعَنَهُمۡ﴾: (لعن) تدور اشتقاقاتُه على إبعادٍ وطَردٍ[10]، واللَّعْن: الطَّرْدُ والإبعاد على سبيل السَّخَط، وهو مِن اللّه تعالى في الآخرة: عقوبَةٌ، وفي الدُّنيا: انقطاعٌ مِن قَبول فَيْضِه وتوفيقه، وأمّا مِن النّاس؛ فهو الدُّعاء بذلك[11]، يُقال: لعنَهُ اللّه يلعَنُه لعنًا، أي:

---

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 791.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دور).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (دور).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (دور).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غضب).
(6) الرّاغب، المفردات: (غضب).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (غضب).
(8) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (غضب).
(9) ابن عثيمين، القول المفيد: 1/ 422.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لعن).
(11) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (لعن).

طَردَه، وأبعدَهُ مِن الخير، فَهو ملعونٌ، ولعن فلانًا: سَبَّه، وأخزاه، فهو لاعِن ولَعّان، واللَّعنة: العذابُ[1].

6) ﴿وَسَآءَتۡ﴾: (سوأ) تدلُّ تصريفاتُه على القُبْح[2]، والمَساءة: نَقيض المَسرَّة، والسَّيِّئة: الخطيئة والصَّغير مِن الذَّنب، والعَيب والنَّقْص، والسَّوْءَة: العَوْرة والفاحشة والعمل الشّائن، والمَساوي: المَعايبُ والنَّقائص[3].

7) ﴿مَصِيرًا﴾: (صير) تدور اشتقاقاتُه على المآلِ والمرجِع[4]، ومِنهُ المَصيرُ، وهو الموضعُ الَّذي ترجِعُ إليه المياهُ[5]، والمصيرُ: المرجِعُ والمآلُ[6]، وقولُه تعالى: ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ معناه: ساءت جهنَّم لأهلِها الَّذين صاروا إلَيها من المنافقين والمشركين مَرجِعًا ومَسكنًا ومأوًى[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بَيَّنَ اللّه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّه يُجازي المنافقين والمنافقاتِ والمُشْركين والمشركات الظّانّين باللّه تَعالى أنَّه لا ينصُر دينَه ولا رسوله ﷺ ولا عبادَه المؤمنين، وأنَّهُ لا يُعْلي كَلِمَتَه، بثلاثِ عقوباتٍ، وهيَ غضبُهُ، ولعنتُه، ونارُ جهنَّم[8].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالواوِ في الآيَةِ:

الانـتـقـامُ مِـن أعداءِ اللّه تعالى نَصْرٌ للمُؤْمنينَ

الواوُ في ﴿وَيُعَذِّبَ﴾ مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها بجملة:

(1) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الكبير: (لعن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوأ).
(3) ابن منظور، لسان العرب، ومجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الكبير: (سوأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صير).
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (صير).
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (صير).
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 206.
(8) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 342.

﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾؛ لما بينَهما من التَّوسُّطِ بين الكمالينِ؛ وذلك لاتِّحاد الجُملتين في الخبريَّةِ، وبينهما مناسبةٌ لفظيَّةٌ وأخرى معنويَّةٌ، فأمّا اللَّفظيَّةُ؛ فاشتراكُهما في الفعليَّةِ والمضارعيَّةِ، واتِّحادُ المسنَدِ إليه فيهما، وهو الضَّمير المستترُ العائدُ إلى اللّه تعالى، وأمّا المناسبةُ المعنويَّةُ؛ فاشتِراكُ الجُملَتَينِ في بيانِ أوجُهِ النَّصرِ، فإنَّ إهلاكَ أعداءِ اللّه تعالى والانتقام منهم هو نصرٌ لأهل الإيمان.

اتِّصالُ الجُملَةِ بما قبلَها اتِّصالَ العِلَّةِ بِمَعْلولِها

ويجوزُ أن تكون الآيةُ موصولةً بما قبلَها اتِّصالَ العِلَّة بالمعلول؛ إذ ذُكِر النَّصرُ قبلَها تلميحًا في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، وهذا المعلولُ جاء بَعْدَه عِلَّةُ هذا النَّصر، وهو أنَّ اللّه تعالى يُعَذِّب بسببه أعداءَ أوليائه المؤمنين، ووجه ذلك: أنَّ الكلام عن جنود اللّه تعالى في معرض ذِكْر نصرِه سُبحانَهُ يستلزِمُ قطعًا فريقًا مهزومًا بتلك الجنودِ، وهُمُ العدوُّ، فإذا كان النَّصر الَّذي قدَّره اللّه تعالى معلولًا بما بَشَّر به المؤمنين، فلا ريبَ في كونه يقتضي أنَّه معلول بما يسوءُ العدوَّ وحِزْبَه، فذَكَرَ اللّه تعالى مِن عِلَّة ذلك النَّصرِ أنَّه يُعَذِّب بسببه المنافقين حِزْبَ العدوِّ، والمشركين صميم العدوِّ، فكان قولهُ سُبحانَهُ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ معطوفًا على قوله قبلُ: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾[1].

وجهُ التَّعبيرِ بالفعل (يعذِّب) مضارعًا:

شِدَّةُ عذابِ المُنافِقين والمُشرِكين ودوامُهُ

عُبِّر بالفعل (يُعَذِّبَ) من قول اللّه تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ بصيغةِ المضارعِ؛ للإشارة إلى استمرارِ عذابِ المذكورين، فَهُم في عذاب دائم مستمرٍّ لا ينفكُّ عنهم في الدُّنيا ولا في الآخرة، وأُضمِرَ الفاعلُ، وهو الاسمُ الأحسَنُ؛ لتقدُّمِ ذِكْره ولِلعِلْم به؛ إذ لا يُعذِّب هؤلاء ذلك العذابَ الشَّديدَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 151.

المذكورَ إلّا اللّه تعالى، والفعل (يُعذِّب) معطوف على (يُدْخِل)، والمعنى: أنَّه سُبحانَهُ يُعَذِّبهم في الحياةِ الدُّنيا بإيصال الهموم والغموم إليهم؛ بسبب عُلوِّ كَلِمَة أهل الإيمانِ، وما يرونَهُ مِن ظهور الإسلام، وبأن يُسَلِّط النَّبيَّ ﷺ عليهم قتلًا وأسرًا واسترقاقًا في الدُّنيا، وفي الآخرة بعذاب جهنَّم(1).

دلالةُ التَّعريف والجَمعِ في قوله: ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾:

النِّفاق والشِّرك من أعظمِ أسبابِ العذابِ

عُرِّفَت الألفاظُ الأربعَةُ في قوله تَعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ بـ(أل)؛ لإفادَةِ العموم والشُّمول؛ لأنَّ الجمع المعرَّفَ بـ (أل) يدلُّ على ذلكَ، وهذا يقتضي أنَّ عذاب اللّه تعالى يشمل كُلَّ صوَر النِّفاق والشِّرْك بمختلف أشكالِه وأنواعه وصوَرِه ومَذاهبه، وفي هذا توسيعٌ لدائرة مَن يشملهم عذابُ اللّه تعالى، وفيه شفاء لصدور المؤمنين، وفي جمع الألفاظ المذكورةِ جمعَ تصحيح إيماءٌ إلى أنَّ المقصودَ فيها هو الوصفُ، فيكون فيه إيماءٌ إلى علَّة التَّعذيبِ، وهو النِّفاقُ والشِّركُ.

سِرُّ تقديم ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ على (المنافقات):

النِّفاقُ في الرِّجال أكثر مِنهُ في النِّساء

قُدِّم المنافقونَ على المنافقاتِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾؛ جريًا على عادة العربِ في تقديمِ المُذَكَّر غالبًا، وفي تقديمهِم أيضًا إيماءٌ إلى أنَّ ظهور صفة النِّفاق في الرِّجال أكثرُ مِنهُ في النِّساء، وذلك لكثرة اختِلاط الرِّجال منهم بغيرهم مِن المؤمنين، فيحتاجونَ إلى سُلوكِ بُنيّاتِ الطَّريقِ وإخفاءِ كُفْرهم وإضماره.

توجيهُ عطف (المنافقات) على ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾:

لم يُكْتَفَ بالنَّصِّ على ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وهو جمعُ مذكَّرٍ سالمٌ، وهو

(1) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 91.

مشاركةُ نساءِ المُنافقين لرجالهنَّ في الكيدِ للإسلامِ وإيذاءِ أهلِه

ممّا يشمل المؤنَّثَ من باب التَّغليبِ، بل نُصَّ على المؤنَّثِ صراحَةً في قول الله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ﴾؛ وذلك لِدَفْع تَوهُّم أن يكون الوَعيد بهذا العَذاب مُختصًّا بالرِّجال؛ وذلك لمشاركة نساء المنافقين لأزواجهنَّ في الكَيْد لأهل الإيمانِ، والتَّخطيط لإيذائهم، والحِقد على الإسلام وأهله.

توجيهُ عطف صفةِ الإشراكِ على صفة النِّفاق:

اشتراكُ مِلَلِ الكُفرِ على مُعاداةِ الإسلامِ وأهْله

أشار عطف صفة الإشراكِ على صِفَة النِّفاق في قوله: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ إلى أنَّ الكفّارَ مهما اختلف وجهُ كُفْرهم؛ فإنَّهم متَّفقونَ على حَرْبِ الإسلامِ وأهله، وأنَّ تعذيبَهُم كلِّهم ممّا يشفي صدورَ المؤمنينَ، وأنَّ ذلك مِن جملة نصرِ الله تعالى لأوليائه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ العذابَ لا يَقتَصِرُ على الكافرين الَّذين يُبطنون الكُفْرَ فحسبُ، بل تتَّسع الدّائرةُ؛ لتشملَ المُجاهرينَ به أيضًا.

سرُّ تقديمِ صفة النِّفاق على صِفَةِ الإشراكِ:

المنافقون أشدُّ مَكرًا وأكثرُ خطرًا على المُسْلِمين

بُدِئَ بِذِكْر المنافقين في التَّعذيب قبل ذِكْرِ المشركين في قول الله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾؛ لأنَّ المنافقين أكثَرُ ضَرَرًا على المُسْلمين من المُشْركين[1]؛ إذِ المؤمن كان يتوقَّى المُجاهِرَ بكفره، ويُخالِطُ المُنافقَ لظنِّه إيمانَه، وربَّما أفشى إليه سِرَّه، ولذا كان خطرُ المنافقينَ أعظمَ وجُرمُهُم أشنَع، وفيه دلالة على أنَّهم أشدُّ منهم عذابًا[2]، كَما أنَّ من أعظم الفَوْزِ إقرارَ العينِ بالانتقام من العَدوِّ، والعدوُّ المُكاتم أشدُّ من العدوِّ المجاهِرِ المُراغِم[3]، وفيه تنبيهٌ لِلمسلمين على شِدَّة خطورة كُفر هؤلاءِ لخَفائه.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 485.

(2) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 91، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 105، والشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 54.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 18/ 289.

سرُّ إيثارِ لفظ ﴿ٱلظَّآنِّينَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

اشتراكُ المنافقينَ والمُشْـرِكـين في الظُّنون الباطِلَةِ في حــقِّ الـلـه تَعالى ودينه

عُبِّر بلفظِ الظَّنِّ في قول اللّه تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾؛ للإيماءِ ابتداءً إلى أنَّهم اعتقدوا في اللّه تعالى وفي دينه ما لا ينبغي، وفي التَّعبير عن الظَّنِّ باسم الفاعلِ ﴿ٱلظَّآنِّينَ﴾، وهو جمعُ مُذَكَّرٍ سالمٌ؛ لِما يُعطيه هذا الوصفُ مِنَ دلالةٍ على دوامِهم واستمرارِهم على هذا الظَّنِّ، حتّى صارَ صفةً لهم، وهذا الوصفُ راجعٌ لجميع مَن ذُكِرَ مِن المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات؛ إذِ الأصلُ في الصِّفة الواردة بَعْد متعدِّد أن تعود إلى جميعِ ما تقدَّمَها، ما لم يكن ثمَّة مانعٌ لفظيٌّ أو معنويٌّ، ولا مانعَ هاهنا[1].

دلالةُ التَّعبير بالاسمِ الأحسَنِ (الله):

قُبحُ صَنيعِ أهلِ الكُفر في ظنِّهم الـسَّيِّـئ بالله تعالى

أوثِر التَّعبيرُ بالاسم الأحسَنِ في قوله سُبحانهُ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾؛ تقبيحًا لِظَنِّهم السَّيِّئ، وتهويلًا لصنيعهم؛ إذ ظنّوا هذا الظَّنَّ القبيحَ باللّه تعالى، الجامع لجميع صفات الجلال والكمال والعَظَمة.

دلالةُ تعريفِ ﴿ظَنَّ﴾ بالإضافَةِ:

إضـافـةُ الصِّفة إلى الموصوف

أُضيفَ لفظُ ﴿ظَنَّ﴾ إلى ﴿ٱلسَّوۡءِۚ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ من باب إضافة الموصوفِ إلى الصِّفة، والمُراد بظنِّ السّوء: ظنُّهم أنَّ اللّه تعالى لن يَنْصرَ رسوله ﷺ والمؤمنين[2]، وأنَّ المشركين سيستأصلون أهلَ الإيمان، ولا يُنْصَرون، والواقعُ عكسُ ذلك، كما يدلُّ عليه قوله سُبحانَهُ بعدُ: ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾[3]، وفي الإضافة مَعْنى البيانِ[4]؛ إذ بَيَّنت نَوْعَ ظَنِّهم، وأنَّهُ من جنسِ الظَّنِّ الباطِلِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 153.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/ 432.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 480.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 233.

التَّكاملُ الدَّلاليُّ للقراءات القُرآنيَّة

توجيهُ القراءات في ﴿ٱلسَّوۡءِ﴾:

اتَّفق القُرّاء العَشَرةُ على فتحِ السّين من ﴿ٱلسَّوۡءِۚ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾، وأمّا في قوله سُبحانَهُ: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾؛ فَهو بفتح السّينِ في قراءة الجُمهور، وقرأها ابنُ كثير وأبو عمرٍو بضمِّ السّين: ﴿ٱلسُّوٓءِ﴾[1]، والفرق بين ﴿ٱلسُّوٓءِۚ﴾ و﴿ٱلسَّوۡءِۖ﴾، أنَّ ﴿ٱلسُّوٓءِۚ﴾ - بالضَّمِّ - اسمٌ جامِعٌ لكلِّ مكروهٍ من آفة أو فساد أو داء، بخلاف ﴿ٱلسَّوۡءِۖ﴾ - بالفَتحِ - فهو كلُّ عملٍ قبيحٍ أو رديءٍ[2]، وذكر الزَّمخشريُّ أنَّ ﴿ٱلسَّوۡءِ﴾ - بالفَتحِ - يُضاف إليه ما يُراد ذَمُّه مِن كُلِّ شيءٍ غالبًا، بخلاف ما كان بالضَّمِّ ﴿ٱلسُّوٓءِۚ﴾، فهو جارٍ مَجرى الشَّرِّ الَّذي هو نقيضُ الخير، يُقال: أراد به السّوءَ، وأراد به الخيرَ، ولذا أُضيفَ الظَّنُّ هاهنا إلى المَفتوحِ؛ لكونهِ مذمومًا، وكانت الدّائرة محمودةً، فكان حقُّها ألّا تضافَ إليه إلّا على تأويلٍ، وأمّا دائرة السّوء بالضَّمِّ؛ فلأنَّ الَّذي أصابهم مكروهٌ وشِدَّة، فصحَّ أن يقع عليه اسمُ السُّوء[3].

عاقبةُ سوءِ الظَّنِّ بالله تعالى

عِلَّةُ فصلِ قولِه: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ عمّا قبله، ودَلالةُ اسميَّةِ الجُملَة:

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ عمّا قبله؛ لوقوعه استئنافًا بيانيًّا[4]، فيكون بينَ الجُملَتين شِبهُ كمالِ الاتِّصال؛ وذلك لأنَّ قوله تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ يثير في نفسِ المُتَلَقّي سُؤالًا، وهو: ما جزاءُ الَّذي تجرَّأ على اللّه سُبحانَه بظَنِّ السّوء؟ فجاءَ الجوابُ في قولهِ تَعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾، وجملةُ: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ إمّا أن تكون دعاءً على أهل الشِّرْك والكفر والنِّفاق، أو أن

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 280.
(2) محمد ياس الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآني، ص: 351.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 334.
(4) محمود الصّافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 26/ 245.

تكونَ وعيدًا لهم؛ ولذا عُبِّر بالجملة الاسميَّة لصلاحيَّتِها لذلكَ[1]، وعَدُّ الجملةِ دُعائيَّةً أبلغُ مِن اعتبارها خبرًا عن وقوع السّوء[2]؛ لِما تدلُّ عليه من شِدَّة الوعيدِ لهم والغضَبِ عَلَيهِم.

نُكْتَةُ تَقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

تَعْجيلُ مساءَةِ المُنافِقين والمُشْرِكينَ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ - وهو متعلِّق الخبَرِ - على المبتدأ في قول الله تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾؛ لإفادةِ القصر والاختصاصِ، أي: إنَّ عاقبةَ سوءِ ظنِّهم في هلاك المؤمنين ودمارِهم مخصوصٌ بهؤلاء الظّانّين، ومَقْصورٌ عليهم لا يتعدّاهم إلى المُؤمِنين، مِن باب قصر الصِّفة على الموصوف، كما أفاد تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ تعجيلَ الدُّعاء عليهم، وتبشيرَهُم بما يَسوؤُهُم.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿دَآئِرَةُ﴾:

اجتماعُ العَذابِ النَّفْسيِّ والجَسَديِّ على أهلِ الكُفْرِ

الدّائرةُ مصدر بِزنة اسم الفاعل، وسُمّيت بها مصائبُ الزَّمان من بابِ استعارة المحسوس للمعنويِّ؛ بجامِعِ الإحاطَةِ في كلٍّ، فقد أحاطت بهم إحاطةً معنويَّة كإحاطة الدّائرة إحاطةً حِسّيَّة[3]، والتَّعبير بلفظ ﴿دَآئِرَةُ﴾ يورثُ الخوفَ والرُّعبَ لدى المُتلقّي؛ إذ يُشْعِرُ اللَّفظُ بالعذاب السّاحق الَّذي يحلُّ بهؤلاء المشركين والكفّار الظّانين بالله تعالى ظنَّ السَّوء، وفيه تصويرٌ لشموليَّة عذابهم، وإحاطته بهم مِن كُلِّ جانب، فَهُم لا يجدون منه مهربًا، كما أنَّه مُسلَّط عليهم خاصَّة، ومُعَدٌّ لهم، كما يوحي بذلك تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، كما يومِئُ التَّعبير بالدّائرة إلى استمرارِ العذاب وشموليَّته، وهكذا قذفَت هذه الكلمةُ الرُّعب والهلعَ في أفئدة هؤلاءِ، وهذا عذابٌ نفسيٌّ يُضافُ إلى العذابِ الجَسَديِّ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 154.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 18/ 62.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 18/ 62.

دلالةُ تعريف ﴿دَآئِرَةُ﴾ بالإضافةِ:

بيانُ حقيقةِ الإحاطَةِ المُستَفادَةِ مِن لَفْظِ (دائرة)

الدّائرة في الأصل: عبارة عن الخطَر المحيط بالمَرْكَز، ثُمَّ استُعْمِلت في الحادثة المحيطة بِمَن وقعت عليه، إلّا أنَّ استعمالَها في المكروه هو الغالِب، وإضافةُ الدّائرة إلى السَّوْء هوَ مِن إضافة العامِّ إلى الخاصِّ، فتكون الإضافةُ بيانيَّةً، كقولِهم: خاتَمُ فِضَّةٍ، أي: خاتَمٌ هو فضَّةٌ، وكذلك ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾، أي: دائرةٌ هي السَّوءُ، والمراد الإحاطَةُ والشُّمول بحيثُ لا يتخَطّاهُم السَّوء، ولا يَتَجاوَزُهُم[1]، ويجوزُ أن تكون الإضافَةُ في ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾ من إضافةِ المُشَبَّه به إلى المشبَّه، أي: عليهم سَوءٌ محيطٌ بهم كالدّائرةِ، فتكون الدّائرة مستعملَةً في معناها الحقيقيِّ[2].

علَّةُ التَّكرار اللَّفظيِّ لـ ﴿ٱلسَّوۡءِ﴾:

الـجـزاءُ مِـن جِنْسِ العمل

كُرِّر لفظُ ﴿ٱلسَّوۡءِ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾؛ تأكيدًا على شِدَّة العذاب، الَّذي سَيَلْحَقُ أعداءَ اللّه تعالى ورسولِه ﷺ والمؤمنين، وعلى استمراره جزاءً وفاقًا لسوءِ ظَنِّهم باللّه تَعالى، فسوءُ ظنِّهم أورثَهم سوءَ العذابِ.

دلالةُ الواو في ﴿وَغَضِبَ﴾، وفي ﴿وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ﴾:

تعديدُ صُنوف العقابِ

كُرِّر العطفُ بالواوِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ﴾، وفي ذلك إشارةٌ إلى استقلالِ كُلِّ جملةٍ بِمَضْمونِها في الوعيدِ، وإلى تَعدادِ ما يَحلُّ بالمشركين والكفّار مِن عقاب دنيويٍّ وأُخرويٍّ، وفي عطفِ هذه الأفعالِ الثَّلاثة بعد قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾ زيادةٌ في الإفادَة؛ لأنَّ من نزلَ به بلاءٌ ضربانِ، قد يكون مبتلًى به على وجهِ الاختبار والامتحانِ، فيكون مآلُ ذلك ثوابًا له، وقد يكونُ مُصابًا به على وجهِ العذاب والعقوبةِ، ولذا جاء قولُ اللّه

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 233.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 18/ 62.

سُبحانَهُ: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لبيانِ أنَّ الَّذي نزلَ بهم كان على وجهِ التَّعذيب[1].

نُكتَةُ إيثارِ فعلِ الغَضَب ماضيًا، ودلالةُ تقديمه:

تقديمُ الأشدِّ عقوبةً

أوثِر فِعْلُ الغضب ماضيًا في قول اللّه تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ للتَّأكيدِ على وقوعِه وتحقُّقه، وكذا يقال في وجهِ التَّعبير بالفعل الماضي في قوله: ﴿وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ﴾، والأفعال الواردةُ في قوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ﴾ واردةٌ على وجهِ الإخبارِ عمّا جَنَوه مِن سوءِ فِعلِهم، فكان التَّعبيرُ بالماضي أظهَرَ وأبلَغَ وأنسبَ[2]، وقُدِّم الغضَبُ على ما بعدَهُ؛ لكونه أشدَّ مِن اللَّعن[3]، ويجوزُ أن يكون تقديمُ الغضبِ؛ لكونِ ما بعدَهُ مترتِّبًا عليه، فإذا اشتدَّ غضبُ اللّه تعالى على قومٍ؛ لعَنَهُم، وأعدَّ لهم جهنَّمَ.

سرُّ إظهار الاسمِ الأحسَنِ:

تهويلُ الوعيدِ وتَفْخيمُه

أُظْهِر الاسمُ الأحسَنُ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ﴾؛ لإدخال المهابَةِ في نفوس المتوعَّدين، فيُقْذَفُ الرُّعبُ في أفئدتهم، وفيه أيضًا الإيماءُ إلى شدَّة هذا الغضبِ؛ لصدوره عن العظيم ﷻ، الَّذي له صفاتُ الجلال والكمالِ[4]، وما يَصْدُرُ عن العظيمِ عظيمٌ.

دلالةُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

بيانُ شدَّةِ غضَبِ اللهِ تعالى عليهم

أُكِّد لحاقُ غضَبِ اللّه تعالى بهم بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾، ووجه ذلك: ما في حرف الجرِّ (على) من الدَّلالةِ على الاستعلاء، فيكون فيه إيماءٌ إلى نزولِ الغضبِ عليهم بحيثُ لا يقدرونَ على توقّيه واجتنابِه، وفيه أيضًا إشعارٌ بغَشَيانِ الغضبِ عليهِم، وإحاطته بهم مِن كُلِّ جانبٍ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 71.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 154.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 18/ 63,
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 18/ 290.

دلالةُ عطفِ اللَّعن على الغضبِ بالواوِ:

الغَضَبُ لا يَستَلزِمُ الإهانةَ والإبعادَ

الواوُ في ﴿وَلَعَنَهُمۡ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على جملةِ: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ لاشتراكِ الجملتَيْن في الخبريَّة، ولما بينهما من التَّناسبِ اللَّفظيِّ والمعنويِّ، فاللَّفظيُّ: اتِّحادهما في الفعليَّةِ والماضويَّة، والمعنويُّ: اشتراكُهما في تعدادِ صنوفِ العذابِ الحالِّ بهم، وفي إيرادِ اللَّعْنِ بعد الغضب احتراسٌ بديعٌ؛ وذلك لأنَّ الغضَبَ لا يستلزِمُ الإهانَةَ والإبعادَ، فإنَّ الإنسانَ قد يغضبُ على ولَده لصنيعِ سيِّئٍ فعله، ولا يوجِبُ ذلك منه طردًا وإبعادًا، ولكنَّ هؤلاءِ الكفّارَ فعلوا ما استوجَبَ الغضبَ والطَّردَ والإبعادَ عن رحمةِ اللّه تعالى، فبَعُدوا عن كلِّ خيرٍ وفلاحٍ[1].

نُكْتَةُ إيثارِ فعل اللَّعن ماضيًا مقرونًا بِضميرهم:

تحقُّق وقوعِ اللَّعْن بالكُفّار

في إيثار فعل اللَّعن ماضيًا مقرونًا بالضَّمير الرّاجعِ إلى المنافقينَ والمُشركين في قول اللّه تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ وقوعِ اللَّعْنِ عليهم، وفي قَرْنه بالضَّمير تخصيصٌ لهم باللَّعْنِ؛ ليكونَ أبلغَ في ذمّهم وبيانِ سوءِ عاقبتِهم.

دلالةُ عطف قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ﴾ بالواوِ:

اجتماعُ صُنوفِ العُقوباتِ على أهلِ النِّفاق والشِّرك لعِظَمِ جُرْمهم

عُطِفَ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ﴾ على ما قبله؛ لما بينهما من التَّوسُّط بين الكمالين، فإنَّ الجملتين خبريَّتان، وهما واردتان؛ لبيانِ عقوبةِ المُنافِقين والمشْرِكينَ، وسوءِ مآلِهم، وحَسَّنَ العطفَ بينَهُما اشتراكُهما في الفعليَّة والماضويَّة، وقد جاءت هذه الجملةُ: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ﴾؛ بيانًا لمآلهم في الآخرة، وما يترتَّبُ على الغضب واللَّعنة.

سرُّ إيثارِ الفعل (أعَدَّ) ماضيًا دون (هيَّأ):

فِعْلُ الإعدادِ أوسَعُ دِلالةً من فِعْلِ التَّهيئةِ

أوثِر التَّعبيرُ بالفعل الماضي (أعَدَّ)، من قول اللّه تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ﴾؛ للدَّلالةِ على تأكُّدِ وقوع الإعداد وتحقُّقِه، وعُبِّر بفعْل

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 18/ 290.

الإعدادِ؛ لكونه فعلًا عامًّا واسعةً دلالتُهُ[1]، بخلافِ فعلِ (هيَّأ)؛ فإنَّه وإن شاركَ فعل (أعَدَّ) في أصلِ المعنى، إلّا أنَّه يُفارِقُهُ في أنَّ (هيَّأ) يحمل مَعْنى القَبول، كما في قوله تعالى: ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾ [الكهف: 10]، فكان التَّعبيرُ بالإعدادِ أليقَ بمقامِ الوعيدِ وأنسبَ.

معنى اللّام في ﴿لَهُمۡ﴾، وفائدة التَّقييد بالجارِّ والمجرور:

استِحقاقُ المُنافقينَ والمُشْركينَ للعَذابِ الأليمِ

اللّام في ﴿لَهُمۡ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ﴾ للاستحقاق، فهُم حقيقون خليقون بهذا العذابِ المُعَدِّ لهم؛ لما اقترفوهُ من النِّفاقِ والشِّركِ، وتقييدُ إعداد جهَنَّم بالجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُمۡ﴾؛ ليُراد به التَّخصيص، حتّى كأنَّ جهنَّم لم تُخلق إلّا لَهم، ولا يُعَذَّب فيها غيرُهم، كما يدلُّ على هذا المَعْنى أيضًا تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ به؛ إذ أصلُ التَّركيب: (وأعدَّ جهنَّم لهم).

سرُّ إيثارِ لفظ ﴿جَهَنَّمَۖ﴾ دون غَيْرِها:

دقَّةُ البيانِ القُرآنيِّ في انتقاءِ الألفاظِ المُلائمَةِ لِسياقاتِها

اختيرَت لفظة ﴿جَهَنَّمَۖ﴾ دون غيرها من نحو: النّار، والسَّعير، والجَحيم، في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ﴾؛ لما تدلُّ عليه من معاني العُبوسَة والغَيْظ والزَّفير والتَّجَهُّم، مع ما فيها مِن العَذاب بالحَرِّ والبَرْد والإحراق وغيرِ ذلك من أنواع المَشاقِّ[2]، فكما كانوا يُؤذون المؤمنين في الدُّنيا بأنواعِ من العذابِ؛ جوزوا من جنسِ عملهم بأصنافٍ من العذاب.

معنى الواو في ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾، ودلالتُها:

بيانُ فَظاعَةِ عُقوبَةِ أهلِ النِّفاقِ والشِّرْكِ

الواوُ في ﴿وَسَآءَتۡ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على جملة: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ﴾؛ لما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن، فإنَّ الجُملتين خبريَّتانِ، وبينهما تناسُبٌ لفظيٌّ؛ إذ كلتاهما جملةٌ فعليَّةٌ ماضويَّةٌ، كما أنَّ بينَهما تناسُبًا معنويًّا، وهو

---

(1) محمد داود، معجم الفُروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 338.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 18/ 290.

تَعداد عقوباتِهم وبيانُ فظاعَتِها، وذكرَ البقاعيُّ أنَّ الجملةَ معطوفَةٌ على محذوفٍ، والتَّقدير: وأعدَّ لهم جهنَّم، فساءَت مُعَدًّا، وساءَت مصيرًا[1]، وعلى هذا التَّقدير يكون في الآية احتباكٌ - وهو المُسمّى: الحذف المقابَليَّ أو حذفَ التَّقابُلِ - والتَّقدير: أعدَّ لهم جهنَّم، وهي مصيرٌ لهم، فساءَت مُعَدًّا، وساءت مصيرًا، فحُذِف من الأوَّل - وهو المصير - ما دُلَّ عليه ثانيًا - وهو ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ - وحُذِفَ من الثّاني - وهو المُعَدُّ - ما دُلَّ عليه أوَّلًا، وهو قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ﴾؛ إيجازًا واقتصادًا في اللَّفظِ، وحثًّا على التَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ في المَقولِ، ويجوزُ أن تكون الواو استئنافيَّةً[2]، والجملةُ بعدها مستأنفة يُرادُ بها وصفُ العذابِ المُعَدِّ لهم، وهو جَهَنَّمُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ (ساءت) ماضيًا:

تهويلُ عذابِ أهلِ الكُفرِ وتَفْخيمُه

عُبِّر بالفِعْلِ ﴿وَسَآءَتۡ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ ماضيًا؛ لإفادَةِ تحقُّق الوصفِ، والمخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ، والتَّقدير: ساءت مصيرًا جهنَّمُ، وأُنِّثَ الفعلُ ﴿وَسَآءَتۡ﴾؛ مراعاةً لتأنيث لفظِ ﴿جَهَنَّمَۖ﴾[3]، وعُبِّر بالتَّمييز ﴿مَصِيرٗا﴾ نكرةً؛ لكونِ الأصلِ في التَّمييزِ أن يكونَ كذلكَ، وفي تنكيره أيضًا معنى التَّهويل والتَّفخيم؛ إذ جريانُ اللَّفْظِ على الأصلِ لا ينافي قصدَ إفادَةِ ما يقتضيه المقامُ[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الغضب والسُّخْط:

بينَ الغَضَبِ والسُّخْطِ عمومٌ وخُصوصٌ وجْهيٌّ

الفرقُ بينَهُما مِن وجهين، أحدهما: أنَّ الغضَبَ يكون مِن الصَّغير على الكبير، ومِنَ الكبير على الصَّغير، بخلاف السُّخْط، فلا يكون

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 290.
(2) الدّعّاس، إعراب القرآن: 3/ 242.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 71.
(4) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 229.

إلّا مِنَ الكبير على الصَّغير. والآخرُ: أنَّ الغضبَ هو اشتدادُ السُّخْطِ، فهو أخصُّ، وبهذا يتبيَّنُ أنَّ الغضبَ أعمُّ مِنَ السُّخْطِ من وجهٍ، وأخصُّ مِنهُ مِن وجهٍ آخرَ[1]، وأوثِر التَّعبيرُ بالغضب هنا؛ لأنَّه أشدُّ من السُّخْطِ، وذلكَ أليقُ بمقامِ الوعيدِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 386.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٧﴾

[الفتح: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ عظَمَةِ القوّةِ الإلهيّة

لمّا ذكَر اللّه تعالى جزاءَ المنافقين والمشركين من إحاطة العذابِ بهم، وغضبِ اللّه عليهم، ولَعْنهم، وإعدادِ جهنَّمَ لهم، وكان هذا مُشْعِرًا بأنَّ الكفّار لا اعتبارَ لهُم - مع ما يَظهر مِنهُم مِنَ الكَثرَة والقوَّة - لأنَّ البلاءَ قد أحاط بهِم في الدُّنيا والآخِرَة، وكان هذا الأمرُ موجبًا تشعُّبَ الفِكْرِ في المُؤَثِّر فيهم؛ أتبعَهُ ببيانِ أنَّ التَّدبير على هذا الوجهِ إنَّما هو لِحِكَم ومصالحَ تقصُر أفهامُ الخَلْقِ عنها، فَذَكر سُبحانَهُ أنَّ القوَّة له جميعًا، يفعَلُ ما يشاءُ بما يوافقُ حِكمتَهُ الواسعةَ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ[2]:

براعَةُ البَيانِ القُرآنيِّ في ختم الآيات بما يُلائِمُ مَضامينَها

اقتضى مقامُ الآيتين الكريمتين خِتامَ كُلٍّ منهما بما خُتِم به، وبيان هذا: أنَّ المقصود من ذِكْر الجنود هنا تهديدُ المُنافِقين والمُشْركين، وإنذارُهم ووعيدُهم بهزائمَ تحُلُّ بساحتهم، وأنَّهم في قبضته تعالى، فناسَبَ هذا أن تُختَمَ الآيةُ هنا بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ لأنَّ العِزَّة تقتضي الغلبةَ والقَهْرَ.

ولمّا كان المقصودُ مِن ذِكْر الجنود في الآية الرّابعة: بيانَ أنَّ المُدَبِّر لهذا الكونِ هو اللّه تعالى؛ ناسبَ أنْ تُخْتَم الآيةُ هناك بقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[3]، وفي هذا التَّغايُرِ تَنبيهٌ على

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 18/ 290.
(2) سبق تفسيرُ نظيرِ هذه الآية الكريمة عند التّعرّض لتفسير الآية الرّابعة من هذه السّورة المباركة.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 263، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 154.

أنَّ للّه تعالى جنودَ الرَّحمة وجنودَ العذاب، وأنَّ المرادَ هنا جنودُ العذابِ، بدليل ذِكْر صفة العِزَّة، أو المُراد بالأوَّل المُدَبِّرُ لأمر المخلوقات بمقتضى حِكْمَتِه؛ لذا كان مِن الملائمِ ختامُ الآية بصفتي العِزَّة والحِكمة[1].

وذكر الكرمانيُّ أنَّ اللّه تعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ثمَّ قال بعدُ: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ لأنَّ الأوَّل مُتَّصِلٌ بإنزال السَّكينَة وازدياد إيمان المُؤمنينَ، فَكانَ الموضع مَوضِعَ عِلْم وحِكْمَة، بخلاف الثّاني فمتَّصلٌ بِذِكر العَذابِ والغَضَب، فَكانَ الموضعُ مَوضِعَ عِزٍّ وغَلَبَة وحِكْمَة[2].

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 18/ 63.
(2) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 227.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨﴾ [الفتح: 8]

ذِكْرُ حِكْمَةِ الله تعالى في إرسال رسوله ﷺ

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا أُريد الانتقالُ من الوعد بالفتح والنَّصْرِ وما استلزمَ ذلك ممّا اتَّصلَ به ذِكْرُهُ إلى بيانِ أحداث الحُديبية، وإبلاغِ كلِّ مَن له حظٌّ فيها نصيبَهُ المستحقَّ من ثناءٍ أو غيره؛ صدَّر ذلك بذكر مقصود اللّه تعالى من إرسالِ رسولِه محمَّد ﷺ؛ ليكونَ ذلك بمنزلةِ المُقدِّمةِ لذِكْرِ تلك الأحداثِ، فنُصَّ على حكمةِ اللّه تعالى في إرساله ﷺ بما له مزيدُ اختصاصٍ بحادثة الحُديبية، فقال سُبحانَهُ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَٰهِدٗا﴾: (شهد) تدور تصريفاتُه على حضورٍ وعِلْم وإعلام[2]، والشُّهودُ والشَّهادَةُ: الحضور مع المشاهدة إمّا ببَصَرٍ أو بصيرَةٍ، والشَّهادَةُ: قولٌ صادر عن عِلْم حَصَل بمشاهدة بصيرة أو بَصَر[3]، وزِنَةُ (فعيل) مِن أبنية المبالغة في (فاعل)؛ فإذا اعتُبِر العِلْمُ مطلقًا؛ فهو العليم، وإذا أُضيفَ إلى الأمور الباطنة؛ فهو الخبير، وإذا أُضيف إلى الأمور الظّاهرة؛ فهو الشَّهيد[4]، والشّاهِدُ: العالم الذي يُبَيِّنُ ما عَلِمَه، وهو المراد هنا.

2) ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾: (بشر) تدلُّ اشتقاقاتُه على ظُهورِ شيءٍ مع حُسْن وجمال[5]، والتَّباشيرُ: البُشْرى، وتَباشيرُ الصُّبحِ: أوائلُه، وكذلك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 155.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شهد).
(3) الرّاغب، المفردات: (شهد).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (شهد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بشر).

أوائلُ كلِّ شيءٍ، والبشير: المُبَشِّر، والمُبَشِّرات: الرّياح الَّتي تُبَشِّرُ بالغيث، والبَشيرُ: الجميلُ[1]، والبِشارة: أوَّل خبرٍ سارٍّ، ولا يقع في شَرٍّ إلّا على سبيل التَّهكُّم، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21]، وامرأةٌ بشيرةٌ وناقةٌ بَشيرَةٌ، أي: حَسَنَة[2].

3) ﴿وَنَذِيرًا﴾: (نذر) تدلُّ تصريفاتُه على تَبِعةٍ تُلْتَزَم، أو يُخْشَى مِن لزومها[3]، والنَّذْر: أن يوجِب العبدُ على نَفْسِه ما ليس بواجبٍ عليه في أصل الشَّرْع، والإنذارُ: إخبارٌ فيه تخويف[4]، والنَّذير: الإنذار، والنَّذير: المُنْذِر، والنَّذير: المُحَذِّر، وهو فعيل بمعنى: مُفْعِل، والجمع: نُذُر[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يَذْكُر اللّٰه تعالى أنَّه أرسلَ رسولَه محمَّدًا ﷺ شاهدًا على أُمَّته بالبلاغِ، مُبيِّنًا لهم ما أُرسِل به إلَيهم، ومبشِّرًا مَن أطاعَهُ بالجنَّة ورِضْوانِ اللّٰه تَعالى، ومُنْذِرًا مَن عصاهُ بالعِقاب في العاجِلِ والآجِلِ[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

التَّمهيدُ لذِكْرِ أحداث الحُدَيْبِية

فُصِلَ قول اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ عمّا قبله؛ لكونه مُستأنَفًا استئنافًا ابتدائيًّا، والغرضُ هوَ التَّمهيد لذِكْرِ أحداثِ الحُديبية، بذِكْرِ أوصافِ النَّبيِّ ﷺ، الَّتي لها مزيدُ اختصاصٍ بهذه الواقعة.

دَلالَةُ التَّوكيد بِـ (إنّ):

الاهتمامُ بشَأْنِ الرِّسالَةِ

أُكِّدَت الجملةُ الخبريَّةُ في قول اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا

---

(1) الجوهريّ، الصِّحاح: (بشر).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (بشر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نذر).
(4) الرّاغب، المفردات: (نذر).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (نذر).
(6) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 511.

﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ بـ (إنَّ)؛ للاهتمام بمضمون الخبرِ لا لردِّ إنكارٍ أو تردُّد، فإنَّ الخطابَ موجَّهٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، ولا يُتصوَّرُ منهُ تردُّدٌ في مضمون هذا الخبرِ فضلًا عن الإنكارِ.

وجهُ التَّعبيرِ بفعل الإرسالِ ماضيًا مسندًا إلى ضمير العَظَمةِ:

تعظيمُ المُرْسِل وتشريفُ المُرْسَل

عُبِّر بفعلِ الإرسال ماضيًا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾؛ لتقرير الإرسال وتحقيقه، وأُسْنِد إلى ضمير العظَمَةِ؛ تعظيمًا للمُرسِلِ، وهو الله تعالى، وتشريفًا للمُرسَلِ، وهو النَّبيُّ ﷺ.

سِرُّ التَّعبير باسم الفاعل ﴿شَٰهِدٗا﴾:

شهادةُ الرَّسول ﷺ على الأُمم

عُبِّر باسم الفاعل ﴿شَٰهِدٗا﴾ من قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾؛ لوقوع الشَّهادة منه ﷺ على أُمَّته بالإيمان لِمَن آمن منهم، وبالكفر على من كَفر بَعد أن بَلَّغ الرِّسالة، وأدَّى الأمانة.

دَلالةُ الحاليَّةِ في قوله: ﴿شَٰهِدٗا﴾:

أثـرُ الـدَّلالـةِ النَّحويَّة في بيان دَقائِق المَعاني

لفظُ ﴿شَٰهِدٗا﴾ من قول الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ منصوبٌ على الحالِ، وهذه الحالُ مقارنَةٌ؛ إذا حملنا الشَّهادَةَ على كونها حاصلةً في الدُّنيا والآخرةِ[1]، وتكونُ الحالُ مقدَّرةً - أي: متأخِّرةً عن عاملِها، وهو (أرسلنا) في الزَّمن - إذا خَصَصْنا الشَّهادةَ بكونِها حاصلةً في الآخرةِ، كما يدلُّ عليه قولُ الله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النّساء: 41].

عِلَّةُ تقديم وصفِ الشّاهِد:

البِشارَةُ والنِّذارة وصفان متفرِّعانِ عـن وصـف الشَّهادَةِ

قُدِّمَ وصفُ الشّاهد في قول الله سُبحانَهُ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾؛ لأنَّه وصفٌ يَتَفَرَّعُ عنه الوَصفان اللَّذانِ بَعْدَه، والمَعْنى: إنّا أرسلناك حالَ كونِك شاهدًا على الأُمَّة بالتَّبليغ، بحيثُ يُقطَعُ العُذرُ عمَّن خالف شريعتَكَ، وشاهدًا على الأمم أيضًا،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 155.

ويترتَّب على هذا التَّبليغِ المشهودِ به أنَّك تُبشِّر أهلَ الطّاعة، وتُنذِرُ أهلَ المعصيةِ بحسب درجات عصيانهم[1]، وجمع سبحانه بين كونه ﷺ مُبَشِّرًا ونَذيرًا؛ لأنَّ مِن النّاس مَن ينفعُه التَّرغيبُ في الثَّواب، ومنهم مَن لا يزجره إلّا التَّخويف مِن العقاب[2].

دلالةُ العطفِ بالواو:

تكامُلُ مهامِّ النَّبيِّ ﷺ واتِّساقُها

عُطِفَت الأوصافُ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ بالواو؛ للإشارة إلى استقلال كُلِّ صِفةٍ، وأنَّها قائمة برأسها، وفي ذلك إبرازٌ للتَّكامُلِ بين مهامِّ النَّبيِّ ﷺ، ففي الشَّهادَةِ دلالةٌ على تبليغِ الرِّسالةِ، وفي البِشارة إيماءٌ إلى رحمته ﷺ بمَن يتَّبعُ الحقَّ، وينقادُ له، وفي النِّذارةِ إشارةٌ إلى حرصه على دعوةِ المُعرِضينَ عن الحقِّ؛ ليَرْجِعوا إليه.

سِرُّ التَّعبير باسم الفاعل (مُبشِّرًا):

البِشارَةُ مِن صميم الرِّسالة النَّبويَّة

عُبِّر باسم الفاعل (مبشِّرًا) من قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا﴾؛ لصدورِ البِشارةِ منه ﷺ، ولإفادَةِ ثباتِ الوصفِ ودوامه، وأنَّ البِشارةَ من صميم رسالته ﷺ.

سِرُّ التَّعبير بصيغة (فَعيل) في (نذيرًا):

لا يُقْدِم على النِّذارة إلّا مَن عَرفَ منافِعَها

جاءَ وصفُ النِّذارة (نذيرًا) في قول اللّه ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾، بصيغَةِ (فعيل)، وهي من أوزانِ المبالغَة، وكان مقتضى صَوْغِ البِشارةِ بصيغة اسم الفاعل (مبشِّرًا) أن يردَ وصفُ النِّذارة كذلك، فيكون النَّظمُ القرآنيُّ: (ومبشرًا ومُنْذِرًا)، إلّا أنَّ البيانَ القرآنيَّ عدل عن هذا، ووجه ذلك: أنَّ البشارة لمّا كانت محبَّبةً إلى النُّفوس؛ رغَّبهم فيما عِنْده من الخيراتِ من غير حاجةٍ إلى المبالغَة؛ اكتفاءً بالدّاعي الطَّبعيِّ لها، بخلاف النِّذارة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 155.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 264.

فإنَّها لمّا كانت النُّفوسُ في الغالب تنفِرُ مِنها، ولا يُقْدِم على إبلاغها إلّا مَن كَمُلت معرفتُهُ بما تضمَّنته من المنافِعِ الَّتي توجِبُ الإقدامَ على احتمالِ مرارةِ الإقدامِ في الصَّدْعِ بها؛ جيءَ بصيغةِ المبالغةِ (نذيرًا)[1]، وفيه إيماءٌ إلى كثرةِ المُنْذَرين؛ وذلك لأنَّ أهل الكفرِ أكثَرُ عددًا مِن أهل الإيمانِ.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ الألفاظ الثَّلاثةِ ﴿شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾، وحذْفِ متعلَّقاتِها:

جاءت الأوصافُ الثَّلاثةُ الواردةُ في قول اللّه ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ مُنَكَّرةً؛ لإفادة التَّعظيم والتَّفخيم، فرسولُ اللّه ﷺ خيرُ شاهد وأعظَمُهُ، وخيرُ مُبَشِّرٍ وأفخَمُهُ، وخيرُ نذيرٍ وأبيَنُهُ، وحُذِفت متعلَّقاتُ الأوصافِ الثَّلاثة؛ لإفادَةِ العموم، وذلك لأنَّ حذف المتعلِّق مُؤذِنٌ بذلك مُشْعِرٌ به، فهو شاهدٌ على العبادِ كلِّهم في الدُّنيا والآخرةِ - أو في الآخرة فقط - ومبشِّرٌ لكلِّ مؤمنٍ بجميع ما يسرُّه مِنْ خيري الدّارَين، ونذيرٌ لكلِّ عاصٍ من كلِّ ما يسوؤُه في الحياة الدُّنيا وفي الدّار الآخرةِ.

رسولُنا ﷺ خيرُ شاهدٍ، وخيرُ مُبَشِّرٍ، وخيرُ نذيرٍ

دلالةُ الطِّباقِ بين (مبشِّرًا) و(نذيرًا):

بينَ (مُبَشِّرًا) و(نَذيرًا) مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ طباقُ إيجابٍ، وفيهِ إيماءٌ إلى عُمومِ بِعْثَةِ النَّبيِّ ﷺ إلى الخَلْقِ؛ إذِ الخَليقةُ لا تَخْلو من مُسْتَحَقٍّ للبِشارَةِ أو مُسْتَحقٍّ للنِّذارَةِ، بَل حالُ العبدِ الواحدِ في نَفْسه لا تَخْلو إمّا مِن عمَلٍ يَسْتَحِقُّ عليهِ البِشارَةَ بالثَّواب، أو عملٍ يستحقُّ عليهِ النِّذارةَ بالعَذابِ.

أفعالُ العبادِ دائرةٌ بين الحُسْنِ والقُبْحِ

سرُّ ترتيبِ الأوصافِ الثَّلاثةِ في الآيةِ:

رُتِّبت الأوصافُ الثَّلاثة في قول اللّه سبحانَهُ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ ترتيبًا بديعًا؛ إذ بَيَّنت الصِّفةُ الأولى وظيفتَه ﷺ، وهي كونُهُ ﴿شَٰهِدٗا﴾؛ لأنَّ ذلك يقتضي التَّبليغَ، ويترتَّب على

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 18/ 292.

دقَّةُ البيانِ القُرآنيِّ في ترتيبِ الأوصافِ المتَعاطِفَةِ

التَّبليغ: البِشارة لِمَن آمن به، وصَدَّق دَعوتَه، والنَّذارة لِمَن أعرض عن رسالَتِه، وخالفه فيها[1]، وقُدِّمَت البِشارةُ على النِّذارة؛ لكونِها أحبَّ إلى النُّفوس، وللإيماءِ إلى أنَّ الشَّرْعَ متشَوِّفٌ من العبادِ أن يدخلوا الجنَّةَ ببذْلِ أسبابِها، وأعظمُ ذلك التَّوحيدُ.

بيانُ المتشابه اللَّفظيِّ:

التَّصرُّف في الألفاظِ إجمالًا وتفصيلًا بما يُلائِمُ المقَامَ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦﴾ [الأحزاب: 45 - 46]، فقدِ اقتصَرَ البيانُ القرآنيُّ في آية الفَتحِ على ثلاثةِ أوصافٍ من خمسةٍ، وذلك لأنَّ أكثر السّورة في سياق ذِكر النَّبيِّ ﷺ وأحوالِه، وذِكْرِ المبايعَة والوعدِ والدُّخول، فكان الأنسبُ التَّفصيلَ في الأحزابِ، بخلافِ الفَتحِ، وثَمَّ وجهٌ آخَرُ، وهو أنَّ الوصفَين المَذكورَين في الأحزاب ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦﴾ [الأحزاب: 46] قد صُرِّح بهما فيها، وذُكِرَ في سورة الفَتحِ بطريق الرَّمزِ والإشارة، فإنَّ قوله: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ دليلٌ على كونه داعيًا إلى شيءٍ يجبُ الإيمانُ به، وقولُهُ: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ﴾ دليلٌ على كونِه سراجًا منيرًا؛ لكونه جاءَ بما يجبُ من التَّعظيمِ[2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 72.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 72.

﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾ [الفتح: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ فوائدِ بعثَتِه ﷺ

لَمّا ذكرَ اللّه تعالى بيانَ وظيفةِ الرَّسول ﷺ بذِكر الأوصافِ الثَّلاثةِ - وهي كونُهُ شاهدًا ومبشِّرًا ونذيرًا - أعقبَهُ ببيانِ فائدة إرساله ﷺ؛ ليرتِّبَ على ذلك ذِكْرَ البَيْعَةِ[1]، وثَمَّ وجهٌ آخَرُ في التَّناسُبِ بين الآيتين، وهو أنَّ الآيةَ المتقدِّمَةَ ذكرت حالَ الرِّسالةِ، فأُتبِعَت بهذه الآية، وفيها ذِكْرُ عِلَّتِها[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾: (عزر) تدلُّ تصريفاتُه على معنيين، أحدهما: التَّعظيم والنَّصر، والآخَرُ: جِنسٌ من الضَّرْب[3]، فالكلمة مِن الأضدادِ، يُقال: عَزَّرَه؛ إذا فخَّمَه، وعظَّمه، وهو المرادُ في آية الفَتحِ، والعَزْر: النَّصر بالسَّيف، وعَزَّره عَزْرًا: أعانه، وقوّاه، ونَصَره، والتَّعْزيرُ: التَّوقيفُ عَلى الفَرائِضِ والأحكام، وأصل التَّعْزير: التَّأديب، ولِهَذا يُسَمَّى الضَّربُ دونَ الحَدِّ تَعْزيرًا[4].

2) ﴿وَتُوَقِّرُوهُۚ﴾ (وقر) تدور اشتقاقاتُه على تجمُّعٍ بثِقَلٍ وتمَكُّنٍ في أثناء بَدَن أو حَيِّزٍ، ومِنهُ: الوَقرُ، وهو ثقلٌ في الأُذُن[5]، والوَقار: هوَ

---

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 26/ 162.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 18/ 292.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عزر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عزر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقر).

السُّكون والحِلْم، يقال: هو وقور ووَقار ومُتَوَقِّر[1]، والتَّوقيرُ: التَّعظيم، وهو المراد في آيةِ سورةِ الفَتحِ، والوَقارُ: الرّزانةُ[2]، والوِقْرُ: الحِملُ[3].

3) ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ (سبح) تدلُّ تصريفاتُه على معنيين، أحدهما: ضربٌ مِن العبادة، والآخر: ضربٌ مِن السَّعْي[4]، والتَّسبيح: تنزيهُ اللّه تعالى، وهو المراد في آية سورة الفَتحِ، وأصلُه: المَرُّ السَّريع في عبادة اللّه تعالى، وجُعِل ذلك في فِعل الخير، كما جُعِل الإبعادُ في الشَّرِّ، فقيل: أبْعَدَهُ اللّه تعالى، وجُعِل التَّسْبيح عامًّا في العبادات قولًا كان أو فعلًا أو نيَّة[5]، وسَبَّح تسبيحًا؛ إذا قال: "سبحان اللّه"، وسُبّوح قُدّوس: مِن أسمائه تعالى المشتملةِ على وصفَي التَّسبيح والتَّقديس؛ لأنَّه سُبحانَهُ يُسَبَّح، ويُقَدَّس، وسُبحان اللّه: تنزيهٌ للّه تَعالى مِن كلِّ نقصٍ، كتنزيههِ ﷻ من الصّاحبة والوَلَد[6].

4) ﴿بُكۡرَةٗ﴾ (بكر) تدور اشتقاقاتُه على بداية الشَّيء وأوَّله، ومِنهُ البُكْرَة، وهي: الغَداة، والجمع: البُكَر، والتَّبكير والبُكور والابتِكار: المُضيُّ في ذلك الوقت، والإبكار: البُكْرة، كما أنَّ الإصباحَ اسمُ الصُّبَح، وباكرتُ الشَّيءَ؛ إذا بَكَرْتَ عليه[7].

5) ﴿وَأَصِيلًا﴾ (أصل) تدلُّ تصريفاتُه على امتدادٍ في عُمقٍ يقوم عليه شيءٌ، ويمتدُّ منه إلى أعلى[8]، والأصيلُ: العَشيُّ، مِنَ العصر إلى المغرب، وهو المراد هنا في آية الفَتح، وجمع الأصيل: أُصُل وآصال، وجمع الأصيلة: أصائِل[9]، ورَجُلٌ أصيل: له أصْل، ورَأْيٌ أصيل: له أصل، ورَجُلٌ أصيل: ثابِتُ الرَّأي عاقِلٌ، والأَصْلُ: أسفلُ كُلِّ شَيءٍ، وجَمعُهُ: أُصول[10].

❁ المَعْنى الإجماليُّ:

يُبيِّن اللّه تعالى أنَّهُ أرسلَ محمَّدًا ﷺ شاهدًا ومبشِّرًا ونذيرًا؛ لتؤمنوا بربوبيَّة اللّه

(1) السمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (وقر).
(2) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (وقر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (وقر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سبح).
(5) الرّاغب، المفردات: (سبح).
(6) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (سبح).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بكر).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أصل).
(9) الرّاغب، المفردات: (أصل).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (أصل).

ذِكْـرُ مقاصِدِ الرِّسالة

تعالى وأُلوهيَّته وأسمائه وصفاته، وتؤمِنوا برسوله ﷺ وتنصروا اللّه سبحانه بِنَصْرِ دينِهِ ونبيِّه ﷺ، وتُعَظِّموا اللّه ﷻ، وتُبَجِّلوهُ، وتُسَبِّحوه، وتُنزِّهوهُ عمّا لا يليق به أوَّلَ النَّهار وآخِرَه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى اللّام في ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ﴾:

دلالةُ اللّامِ بين التَّعليل والأمرِ

اللّام في ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ للتَّعليل، ويكونُ المعنى: أنَّهُ بِسَبب دعوة الرَّسول لكم، وتعليمِه إيّاكُم ما ينفعُكُم في دينِكم ودنياكُم؛ أرسلناهُ شاهدًا ومُبشِّرًا ونذيرًا، من أجلِ أن تُؤمنوا باللّه ورسولِه الإيمانَ المُستلزِمَ لطاعَتهما في جميع الأمور[2]، ويحتَمِلُ أن تكون اللّامُ لامَ الأمرِ[3]، والفعلُ بعدَها مجزومٌ بِها، والجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا نحويًّا.

دلالةُ التَّعبيرِ عنِ الإيمان فعلًا مُضارعًا مُسندًا لواوِ الجماعَةِ:

وجوبُ المُداومَةِ علـى الإيـمـانِ وتَجْديدِه

عُبِّر عن الإيمان بالفعل المضارع (تؤمنوا) في قول اللّه تعالى: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على وجوبِ المداومَةِ على الإيمانِ وتجديده بزيادَةِ الأعمال الصّالحَةِ، وأُسنِدَ الفعل إلى واوِ الجماعة؛ لأنَّ الخطاب للأُمَّةِ مع رسولِها ﷺ أو للأمَّة وحدَها[4]، وعلى كِلا الاحتمالينِ فإنَّ ذلك موجِبٌ للجَمعِ.

بيانُ مرجعِ الضَّمير في ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ﴾:

تلوينُ الخِطاب والتَّفنُّن فيه

الواوُ في ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ راجعةٌ إلى النَّبيِّ ﷺ وأمَّته، ولا يُشكِلُ على هذا ذِكْرُ الرَّسول هنا؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ مأمورٌ بأن يؤمِنَ أنَّه رسولُ اللّه، ولذا كان يقول في

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 242، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 511.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 792.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 156.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 155، 156.

تشهُّده، كما تقولُ أُمَّته: "وأشهَدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ"، وعلى هذا فيكونُ في الآيةِ تلوينٌ للخطابِ؛ إذِ الخِطاب خُصَّ أوَّلًا بالرَّسول ﷺ؛ لأنَّ ما تقدَّمَ هوَ ذِكرٌ لوظيفَتِه، ومختصٌّ به، بخلاف الإيمان، فإنَّه عامٌّ له ولأُمَّته، ويجوزُ أن يكون الخطابُ للأُمَّة فقط، ووجهُ ذلك: أنَّه عليه السلام إمامُ أُمَّته، فيكون خطابُه مُنَزَّلًا منزلةَ خطابِهم[1].

توجيهُ القراءاتِ في ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ﴾:

التَّكامُل الدَّلاليُّ بين القِراءات القُرآنيَّة

قرأ الجمهورُ بالتّاء بصيغة المخاطَب في الأفعال الأربعة كلِّها في قوله: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ﴾، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو الأفعالَ الأربعةَ جميعَها بالياء بصيغةِ الغائبِ: ﴿لِّيُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَيُعَزِّرُوهُ وَيُوَقِّرُوهُۚ وَيُسَبِّحُوهُ﴾، والقراءتان متواترتان صحيحتان[2]، وعلى الأولى: الخطاب لرسول اللّه ﷺ وأُمَّته، وعلى الثّانية: المُراد المُبَشِّرون والمُنْذِرون[3]، ووجهُ قراءة الجمهور بالخطاب أنَّ قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ يقتضي أنَّ ثمَّة مُرسَلًا إليهم، فخُصَّ المؤمنون بالخطاب؛ لأنَّهم المنتفعون بهذا الإرسال، المستجيبون لدعوة الرَّسول ﷺ، وأمّا قراءة ابن كثير وأبي عمرو بالغيبة؛ فإنَّ قول اللّه ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ يستلزم أنَّ ثمَّةَ مرسَلًا إليهم، وهم غُيَّبٌ، ولذا عُبِّر بالغَيْبَةِ عن المرسَلِ إليهم[4].

معنى الباء في ﴿بِٱللَّهِ﴾:

الـدَّوامُ على الإيمانِ والثَّباتُ عليه

الباء في ﴿بِٱللَّهِ﴾ من قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ دالَّةٌ على الإلصاقِ، وقد أفاد ذلك الرَّبْطُ بين فعل الإيمان ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ﴾ ومتعلِّقِه، وهو قوله: ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: أنَّه شديدُ الارتباطِ والصِّلَةِ

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 18/ 63، 64.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 207.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 56.
(4) محمّد سالم محيسن، المغني في توجيه القراءات العشر: 4/ 253.

بِهِ، لا ينفكُّ عَنْهُ بحالٍ، وهكذا حالُ المؤمنين، إذا دخلَ الإيمانُ قلوبَهُم، وذاقوا حلاوَتَهُ؛ فإنَّهم لا ينتقلونَ عَنْهُ إلى غيره.

بلاغةُ الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ:

تعظيمُ شأنِ الإيمانِ بالله تعالى

في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار، وذلك لأنَّ مقتضى الظّاهرِ أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (لتؤمنوا بنا)؛ ليكون أنسبَ في اللَّفظِ لقوله قبلُ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، إلّا أنَّه عُدِلَ عن الإضمار إلى الإظهارِ؛ تعبيرًا بالاسمِ الأحسن (اللّه)؛ لإدخال المهابَةِ وتعظيمِ شأن الإيمان، بذِكْرِ الاسمِ الجامعِ لصفات الجلال والجمال والكمال.

دلالةُ عطف الرَّسول بالواو في ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾:

الارتباطُ الوثيقُ بينَ الإيمانِ بالله تَعالى والإيمانِ برَسولِه ﷺ

عُطِفَ ذِكْرُ الرَّسول ﷺ على اللّه تعالى بالواو في قول اللّه تعالى: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ تأكيدًا على أنَّ الإيمان باللّه تعالى يستلزمُ الإيمان برسوله ﷺ، فهما أمرانِ مُتلازِمان، لا يُغني أحدُهُما عن الآخر، فلا يَصِحُّ الإيمان باللّه تعالى دونَ الإيمان برسوله ﷺ كما أنَّ في عطفِ الرَّسول على الاسم الأحسَن (اللّه) اعتدادًا بأنَّ الإيمان بالرَّسول ﷺ إيمانٌ باللّه تَعالى، فالمقصودُ هو الإيمان باللّه سُبحانَهُ[1].

دلالَةُ إضافَةِ الرَّسول إلى الضَّمير العائد إلى الله تعالى:

تشريفُ مَقامِ النَّبيِّ ﷺ

أضيفَ لفظُ الرَّسول الضَّمير العائد إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ تشريفًا للمُضافِ، وتعظيمًا لمقامه عند ربِّه تعالى، وهو رسولُ اللّه ﷺ.

دلالةُ العطفِ بالواو في قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ﴾:

آدابُ التَّعامل مع الله تعالى

أشار العطف بالواو في قوله: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ إلى التَّكامُلِ والتَّلازم بين هذه الأعمال، وفيه إيماءٌ إلى شموليَّة أفرادِ العبادة، كما أفاد العطفُ بالواو الجمعَ بينَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 156.

الآدابِ المَذْكورَةِ وتَساويها في الحُكْم، وإلى استقلاليَّة كُلِّ فعل مِن هذه الأفعال المذكورة في الأهمّيَّة، فتعزيزُ اللّه تعالى - أي: نصرةُ دينه - وتوقيرُهُ وتسبيحه لها أهميَّةٌ عُظْمى.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع المُضَعَّف في قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ﴾:

دلالةُ التَّضعيفِ علـى الـتَّـكـثـير والمُبالَغة

دلَّ التَّعبيرُ بالفعل المضارع المُضَعَّف في قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ﴾، على التَّكثير والمبالغة في نُصْرَة دين اللّه تعالى وتعظيمه وتسبيحِهِ، والاستمرارِ على ذلك، وتجديدها بتجدُّدِ أفرادِها.

بيانُ مرجِعِ الضَّمير في قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ﴾:

الـقـرائِـنُ السّياقيَّة تُرَجِّح عَـودَ الضَّمائر إلى الله تعالى

الضَّمائر الثَّلاثةُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ راجعةٌ إلى اللّه ﷻ[1]؛ لأنَّ المذكورَ قبلَ الضَّمائر اسمان، وهما الواردان في قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، فيتعيَّنُ أن يكون المرجِعُ أحدَهما، وحُمِلَ على أنَّ المرادَ هو اللّه تعالى؛ لأنَّ الضَّميرَ في قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ يتعيَّنُ أن يُرادَ بِهِ اللّه تعالى، ولأنَّ الضَّمير قبل الألفاظِ الثَّلاثة في قوله: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ يرجعُ إلى اللّه سُبحانَهُ[2]، وجوَّزَ بعضُ أهلِ العلم أن يكون الضَّميرانِ في ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ﴾ راجعَيْنِ إلى النَّبيِّ ﷺ، والضَّميرُ في ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ للّه تعالى[3]، والقول الأوَّل أظْهَرُ؛ مَنْعًا لِتفكُّك الضَّمائر.

بلاغةُ الكنايةِ في تقييد التَّسبيح بظَرفَي الزَّمان ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾:

عـمـارَةُ الأزمـنَـةِ بـطـاعـةِ الـلـه تعالى

قُيِّدَ التَّسبيحُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ بظَرفَي الزَّمان ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾؛ للإشارَةِ إلى المُداومَةِ على تسبيحِ اللّه تعالى، أو يكونُ ذلك كنايةً عنِ استيعابِ الأوقاتِ في اليوم كُلِّه في أوَّل النَّهار وآخرِه بالتَّسبيح والإكثار مِنه، كما يقال: شرقًا وغربًا؛ لاستيعاب

(1) ابن عطيّة، المُحرِّر الوجيز: 5/ 129، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 379.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 157.

(3) ابن جُزِّي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 287.

الجهاتِ كُلِّها؛ إذ مِن القواعِدِ المُتقرِّرة أنَّ البَيْنَ مستحضَرٌ في الطَّرفين، والبُكرةُ والأصيلُ هما طرفا النَّهار؛ فدلَّ على أنَّ ما بينَهُما مقصودٌ بالكلام مستحضَرٌ فيه، فيكون التَّسبيحُ أوَّلَ النَّهارِ وآخرَهُ وما بينَهُما، وجوَّز بعضُ أهل العِلم أن يكون التَّسبيحُ كنايةً عَنِ الصَّلوات الواجبَة(1).

علَّةُ تقديم البُكْرة على الأصيل:

في البُكورِ فضلٌ وبَرَكَةٌ

قُدِّم التَّسبيحُ في البُكْرَة في قول اللّه تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾؛ لأفضليَّة التَّسبيح في هذا الوقتِ على التَّسبيح في وقتِ الأصيل؛ لأنَّه بداية النَّهار، ولِما في البُكْرة من البَرَكَة والفضل، ولما ترمز إليه مِن الجِدِّ والنَّشاط، وفي هذا إشارةٌ إلى أفضليَّة العبادة وقتَ النَّشاط، وإلى حثِّ المسلم على استهلالِ بدايةِ يومه بطاعة اللّه تعالى، ويُضافُ إلى ذلك على وجْهِ التَّبَعِ أنَّ في تقديمِ البُكرةِ وتأخيرِ الأصيلِ في الذِّكرِ تناسُبًا لرؤوسِ الآي.

سِرُّ تنكيرِ لفظَي: ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾:

حثُّ العبادِ عَلى شَغْلِ أوقاتهم بِما يَنْفَعُهم

نُكِّرَ لفظا ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾؛ للإشارَةِ إلى إطلاق الوقتِ في تسبيح اللّه تعالى؛ ليقعَ أوَّلَ النَّهار أو آخرَه من غير تقيُّدٍ بوقت خاصٍّ، كما أنَّ التَّنكير يومِئُ إلى استحباب استمراريَّة تسبيح اللّه تعالى في مختلف الأوقات دونَ انقطاع، وأن يملأ المسلمُ وقتَهُ بِذِكْر اللّه تعالى.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّعزيرُ والنَّصرُ والتَّأييدُ:

النَّصر: يتضمَّن عِدَّة معانٍ، منها: العون، والعطاء، ودَفْعُ الضُّرِّ، ولا يكون إلّا على المُنازع والخَصْمِ والمُناوئِ المُشاغِبِ(2)، وأمّا التَّأييد:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 157.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 189.

تَمَيُّز الألفاظِ المُتقارِبَةِ في دلالاتِها بِمعانٍ دقيقةٍ تَخُصُّها

فيتضمَّن معنى تحصينِ الشَّيء وتقويَتِه ما حوله[1]، وأمّا التَّعزير؛ فهو نُصرَةٌ مُقترنةٌ بالتَّعظيم والتَّوقير، ولذا يُقال: عزَّره؛ إذا عظَّمَهُ، وكذا في لفظِ التَّعزير مَعْنى القوَّة في النَّصرِ، ومنهُ قولُهم: عَزَّرَه؛ إذا نصرَهُ بالسَّيف[2]، فكان لفظُ التَّعزير متضمِّنًا مَعْنى التَّعظيم والقوَّة في النَّصرِ، ولذا أوثِر التَّعبيرُ بِهِ في آيةِ سورة الفَتحِ.

التَّوقيرُ والإجلال والتَّبجيل والتَّعظيم:

التَّـعـظـيـمُ أشمَلُها وأعمُّها

تشتركُ هذه الألفاظُ الأربعَةُ في مطلق التَّعظيم، فأعمُّها دلالَةً لفظُ التَّعظيم، ثُمَّ الألفاظُ الثَّلاثةُ الباقيةُ أخصُّ مِنهُ، ويمتازُ كلُّ واحدٍ بخَصيصةٍ.

فالتَّوقير: يتضمَّن معنى التَّعظيم، ومنه قولهم: وقَّرتُهُ، أي: عَظَّمتُه، ومنه قول الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [نوح: 13]، أي: لا تخافون له عظَمَةً[3]، وأمّا التَّبجيل؛ فَفيه تعظيمٌ وتفخيمٌ وتضخيمٌ، فهو أقوى من مُطلقِ التَّعظيم؛ لأنَّه من شدَّة التَّعظيم فيه، حتّى كأنَّهُ صَوَّر المُعظَّمَ في صورةِ المحسوسِ الضَّخْمِ[4]، وأمّا الإجلالُ؛ فتعظيمٌ مضمَّنٌ مَعْنى الهَيْبَةِ والمخافَةِ[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أيد).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عزر).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 203.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بجل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هيب).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ١٠﴾ [الفتح: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مبايعة المؤمنين للنبي ﷺ مبايعةٌ لله ﷻ

لّما بيَّن ﷻ أنَّ محمَّدًا ﷺ هو رسولُه في قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٨﴾ [الفتح: 8]، وأوْجبَ الإيمان به في قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الفتح: 9]؛ ذكرَ هنا أنَّ مَنْ بايعَ رسوله فقد بايعَ اللّه[1].

وجعل ما تقدَّمَ هذه الآيةَ توطئةً للتَّرغيب في اتِّباعِه، وترهيبًا لأتباعِه عن أدْنَى فترةٍ أو توانٍ فيما دخلوا فيه من الإيمانِ الَّذي هو علَّةُ الإرسال، وأنَّ من الإيمانِ مبايعةَ رسولِ اللّه الَّتي تُعَدُّ مبايعةً للّه، والوفاءَ بها، وعدمَ النُّكوث، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ الآية[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾: (بيع) أصلٌ واحد، وهو بَيْعُ الشّيءِ بإعطاءِ المثمَّن وأخْذِ الثَّمن، وربَّما سُمّيَ الشِّرَى بَيْعًا، والمعنَى واحد، يُقال: بعتُ الشَّيءَ بيعًا، فإن عَرَضْتَه للبيعِ قلتَ: أبَعْتُه. ويقالُ للبيْعِ: الشِّراء، وللشِّراءِ البيع، وذلك بحسبِ ما يُتَصوَّرُ من الثَّمنِ والمثَمَّن، وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: 20]. والمبايَعَةُ والمشاراةُ تُقالان فيهما، قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ۚ﴾ [البقرة: 275]. وبايعَ السُّلطانَ: إذا تضمَّنَ بَذْلَ الطّاعةِ له بما رضخَ له، ويقال لذلك: بَيْعَةٌ ومُبايَعَة[3]. والمرادُ بـ ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ في الآية: يعاهدونك على قتال قريش.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 73.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 295.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (بيع).

2) ﴿يَدُ﴾: الياءُ والدّالُ أصلُ بناءِ اليَدِ للإنسانِ وغيرِه، ويُستعارُ في المِنَّةِ والنِّعمة، فيقال: له عليه يدٌ، ويُجمَعُ على: الأيدي والأيادي واليُديِّ. واليَدُ: الجارحةُ، أصلُه: يَدْيٌ؛ لقولِهم في جمعِه: أيْدٍ ويَديٌّ[1]، و(أفْعُلٌ) في جمعِ (فَعْلٍ) أكثر، نحو: أفْلُسٌ وأكْلُبٌ، وقد جاء في جمعِ (فَعَلٍ) نحو: أزْمُنٍ وأجْبُلٍ، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: 195].

واليَدُ: القوَّة، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص: 17] وقال سبحانه: ﴿أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: 45]؛ أي: القوَّة. والمُراد باليد في الآية القوة، والمعنى: قوة الله معهم، ونصره فوق كل نصر، وتأييده فوق كل تأييد.

3) ﴿نَّكَثَ﴾: (نكث) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على نَقْضِ شيء، واسْتُعيرَ النَّكْثُ لنقضِ العَهْد، يُقال: نَكَثَ العهدَ يَنْكُثُه نَكْثًا، قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم﴾ [التَّوبة: 12]. وانْتَكَثَ الشَّيءُ: انْتقض، وقال قولًا لا نكيثَةَ فيه؛ أيْ: لا خُلْفَ، ومنه: طلبَ حاجةً، ثمَّ انْتكثَ لِأُخرَى، كأنَّه نَقَضَ عزمَه الأوَّل. والنِّكْثُ أن تُنقضَ أخلاقُ الأكْسيةِ وتُغزَلَ ثانيةً، وبها سُمّيَ الرَّجُلُ نِكْثًا[2]. والمعنى هنا: فمَنْ نقضَ بَيْعتَه.

4) ﴿أَوْفَىٰ﴾: (وفى) أصلٌ يدُلُّ على إكمالٍ وإتمام، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ [الإسراء: 35]، ومنه الوفاءُ وهو: إتمامُ العهدِ وإكمالُ الشَّرط، يُقال: وفَى بعهدِه يفي وفاءً، ووَفَى: أوْفَى، فهو وفيٌّ، ويقولون: أوْفيتُكَ الشَّيءَ، إذا قضيتَه إيّاهُ وافيًا، وتوفَّيْتُ الشَّيءَ واسْتوفيتُه: إذا أخذتَه كلَّه حتَّى لم تتركْ منه شيئًا، ومنه يُقالُ للميَّت: توفّاهُ اللّه[3]. وقولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ أي: أوْفَى بإتمامِ العهدِ مع اللّه من الصَّبر عند لقاءِ العدوِّ في سبيلِ اللّه ونُصرةِ نبيِّه ﷺ على أعدائه[4].

5) ﴿عَٰهَدَ﴾: (عهد) أصلُ هذا الباب دالٌّ على معنًى واحد، أصلُه الاحْتفاظُ بالشَّيءِ وإحداثُ العهدِ به، يقال: عَهِدَ الرَّجُلُ يَعْهَدُ عَهْدًا، وهو من الوصيَّة، وإنَّما سُمّيت بذلك؛ لأنَّ العهدَ ممّا ينبغي الاحتفاظُ به، ومنه اشْتقاقُ العهدِ الَّذي يُكتَبُ للوُلاةِ من الوصيَّة، وجمعُه

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (يدّ)، وأبو علي الفارسي، المسائل الحلبيّات، ص: 163.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (نكث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (وفى).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 210.

عُهود[1]. والعَهدُ: حفظُ الشَّيءِ ومُراعاتُه حالًا بعد حال، وسُمّيَ المَوْثِقُ الَّذي يلزمُ مراعاتُه عَهْدًا، قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ [الإسراء: 34][2]. وعَهِدْتُ الرَّجلَ والشَّيءَ يفعلُ كذا وكذا عهدًا: عرفتُه. وعَهِدْتُ: حَلَفتُ، والعهدُ: اليمين، قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل: 91][3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الوفاءُ بالعهدِ جـزاؤه الجنَّة، ومَنْ خانَه يعودُ وبالُه عليه

أثنى اللّه ﷻ على الذين صَدَقوا ما عاهدوا عليه، وأوفَوا بعهدهم للنبيِّ ﷺ يوم الحديبية، فقال جلَّ وعزَّ: إنّ الذين يُبايعونك - يا محمّد - بالحُدَيبيَةِ على ألّا يَفِرّوا عندَ لِقاءِ الكُفّارِ؛ إنَّما يُبايعونَ اللّه تعالى، قوةُ اللّه وتأييدُهُ معهم وقتَ بَيعتِك. ثم أرهبَ سبحانه مَن نَكَث العهد ورغّب في الوفاء بها، فمَنْ نَقَض بَيعَتَه فإنَّما يَضُرُّ نَفْسَه بذلك؛ لاستِحقاقِه العِقابَ، ومَن أوفَى بما عاهَدَ اللّه تعالى عليه في البَيعةِ فسيُؤتيه اللّه ثَوابًا جَزيلًا[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾:

الـشُّـروعُ في المبايعةِ المؤدّيةِ للفتحِ والنَّصر

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ مستأنَفٌ؛ فهو شُروعٌ في الغرضِ الأصْليِّ من هذه السّورة، وهو النَّصرُ لدينِ اللّه ورسولِه ﷺ، وكأنَّ هذه المبايعةَ للّه ورسوله ﷺ بدايةُ الفتحِ القريبِ على جماعةِ المسلمين الأوائلِ بقيادةِ رسولهم ﷺ بالنَّصرِ المبين[5].

غرض التَّوكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ وسِرُّ التعبير بالمُسند إليه اسمًا موصولًا:

العناية بالبيعة، والـتـنـويـه بالمبايعين

جاء التَّوكيدُ بـ ﴿إِنَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عهد).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (عهد).
(3) السّرقسطي، الأفعال: 1/ 306.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 255، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 268، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 792.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 157.

لمزيدِ الاهْتمامِ بهذه البيعة، فهي بيعةٌ للّه ورسوله على الجهادِ وعدمِ الفرارِ من قتالِ الأعداءِ حتَّى الموت[1]. وأتى التَّعبيرُ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ تشريفًا لهم بما في حيز الصِّلةِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ للمبالغةِ والتَّأكيدِ في أهميَّة هذه المبايعة وبيانِ منزلةِ المبايعين، حيث إنَّ مبايعتهم للّه ولرسوله ﷺ على قتالِ المشركين وعدمِ الفرارِ - ولو أدَّى إلى الموت - لهو شهادةٌ في سبيلِ اللّه.

دلالة التعبير بالمضارع مادَّةً وصيغةً:

استحضارُ الماضي بيـانٌ لعظيـم المبايعة وتنويهٌ بشأنها

وقعتِ المبايعة قبل نزولِ الآية، بصيغةِ المضارعِ لاسْتحضارِ الحالِ الماضية، والترغيب في تجديدِ مثل ذلك والاسْتمرارِ عليه، فهو يدلُّ على مُطلَقِ الوقوعِ لا بقَيْدِ زمنٍ معيَّن[2]. وهي (مفاعلةٌ) من البيع، يُقال: بايعَ السُّلطانَ مبايعةً، إذا ضمنَ بذلك الطّاعةَ له بما رضَخَ له، وكثيرًا ما تقالُ على البيعةِ المعروفةِ للسَّلاطين ونحوهم، وإن لم يكن رضْخٌ، وفي صيغة المشاركة تشريف للمبايعين.

مرجع الضَّمير في ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ ودلالته:

التعبير بضمير الحضور تنويه بالمقام

يعودُ الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ إلى الرَّسولِ ﷺ، أيْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يا محمَّدُ إنَّما يُبايعونَ اللّه[3]، وفيه تنويهٌ بِقَدْرِه وتعظيمٌ لمقامِه عند ربِّه بضمير الحضور.

غرض التعبير بأسلوب القَصْرِ في: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ﴾:

تعظيمُ البيعةِ للـه والترغيـب فيها

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ﴾ حصرٌ للفعلِ في مفعوله، فكانوا في بيعتِهم للرسولِ ﷺ كأنَّهم لم يُبايعوا إلا اللّه، إذ هو الذي أرسلَه واصطفاه وجعل بيعته بيعةً له؛ هذا قصرٌ ادِّعائيٌّ، فنزَّلَ الغرضَ فيه منزلةَ الوسيلة، إذ جُعلَت غايةُ البيعةِ ومرادُها الأسمى نصرة

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 157.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 295.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 251.

دينِ اللّه ورسولِه ﷺ، كأنَّهم لم يعقدوا البيعةَ إلا على ذلك، ولم يمدّوا أيديَهم إلا لعهدِ اللّه وميثاقِه، فهو عهدٌ موثَّقٌ بين العبدِ وربِّه، لا ينعقدُ إلا بإذنه، ولا يكونُ إلا في سبيلِه[1]. وفي اصطفاء ﴿إِنَّمَا﴾ دلالة على أن المعنى من الوضوح بمكان، إذ تستخدم ﴿إِنَّمَا﴾ فيما لا يجهله المُخاطَب، ولا يُنكره، وفي ذلك إلماحة إلى التأكيد على مكانة المبايعين عند رب العالمين.

سِرُّ تكرارِ المضارع ﴿يُبَايِعُونَ﴾:

في تكرارِ المضارع ﴿يُبَايِعُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ تقريرٌ وتأكيدٌ لاسْتمرارِ بَيْعتِهم، فهي بيعةٌ منهم للّه متجدِّدةٌ دائمةٌ، فـ"المقصودُ توثيقُ العهدِ بمراعاةِ أوامرِه ونواهيه سبحانه"[2].

سِرُّ التَّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾:

تعظيمُ البيعةِ للّه والترغيب فيها

أظهرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ تعظيمًا للبيعةِ وترغيبًا بها ترغيبًا مُشعِرًا بالجلال، وتنبيهًا على أنَّ عملَ العبدِ كلَّه للّه، فهو الملكُ الأعظم الأحقُّ بالمبايعةِ على التزامِ أوامرِه واجْتنابِ نواهيه، والجهادِ في سبيلِه لنشرِ دعوةِ الإسلام حتَّى تنقضيَ الحياةُ على هذه السّيرةِ وهذا المنهج[3].

بلاغةُ التعبير بالاسْتعارةِ في قوله: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾:

العهدُ مع الله التزامٌ لا رجعةَ فيه، ووفاءٌ لا تَردُّدَ معه، ورضًا مُتبادَلٌ بين العبدِ وربِّه

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ اسْتعارةٌ، وقد جرى الكلام على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبَعيَّة، إذ شُبَّه شُبِّه العهدُ الوثيقُ الذي ينعقدُ بين المؤمنِ وربِّه بالمُعاوضة المالية التي تقعُ بين المُتعاقدَيْن، تنزيلاً للعهدِ منزلةَ البيعِ؛ وذلك لما فيه

(1) راجع: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 175.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 175.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 295.

من التزام لا رجعةَ فيه، ووَفاءٍ لا تَردُّدَ معه، ورضًا مُتبادَلٌ بين العبدِ والمولى ﷻ(1).

موقعُ قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ مما قبلها ودلالتُه:

لَمّا عظَّمَ بيعتَه ﷺ بما رغَّبَ فيها ترغيبًا مُشعِرًا بالتَّرهيب؛ زادَها تعظيمًا بما التَّرهيبُ فيه أظْهرُ من الأوَّلِ، فقال مبيِّنًا للأوَّلِ" - وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ - مضيفًا اليدَ إلى لفظِ الجلالة ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾؛ أيِ: المتَّصِفِ بالكبرياء، المتعالي عن مشابهةِ خَلْقِه، المنزَّهِ عن كلِّ نقْصٍ وعَجْزٍ. فبين الجملتَيْن على ذلك كمالُ اتِّصالٍ(2).

البيعة كانت لله حقًّا، وعهدُهم معه هو ميثاقٌ لا يُنكثُ ولا يُبدَّلُ

أو يكون قولُه تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ وقع استئنافًا مؤكِّدًا لما تقدَّم من بيانِ أنَّ مبايعتَهم لرسولِ اللّه ﷺ هي مبايعةٌ للّه جلَّ شأنُه؛ فجاء التقريرُ الإلهيُّ توثيقًا وتوكيدًا، يُرسِّخُ المعنى في القلوبِ أن تلك البيعة كانت للّه حقًّا، وعهدَهم معه هو ميثاق لا يُنكثُ، ولا يُبدَّلُ(3). ومن الممكن أن يكون حالًا، وفي ذلك دلالة على تأكيد مكان بيعة رسول اللّه ﷺ وصَحْبِه عند ربِّ العالمين.

الغرض من التعبير بقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾:

في التأكيد على البيعة حَملٌ على الوفاء بها وعظيم قدرها

يُخبر اللّه تعالى بأنَّ الذينَ يمدّون أيديَهم لمبايعتِك - أيها الرسول الكريم - إنَّما يمدّونها لمبايعةِ اللّه، فعَقْدُهم إنَّما هو ميثاقٌ موثَّقٌ بينَهم وبينَ ربِّهم. ثم بلغَ الأمرُ من شدَّة التأكيدِ مبلغًا عظيمًا، فقال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾، "أَيْ: كأنَّهم بايعوا اللّه و صافحوه بتلك المُبايعة، وكُلُّ هذا لزيادة التَّأكيد والتَّقوية وحملهم على الوفاء بها"(4). والأمر جارٍ على التَّنزيه عن الجارحة لقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: 11]، وقد "أَوْمأ إلى نَفْيِ ذلك بالفوقيَّةِ، مع ما

(1) الجمل، حاشية على الجلالين: 7/ 212، والصّافي، الجدول: 26/ 248.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 296.

(3) المظهري، التّفسير المظهري: 9/ 6، وحجازي، التّفسير الواضح: 3/ 482.

(4) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 792.

فيه من الدَّلالةِ على تعظيمِ البَيْعةِ[1]. وفي إضافة كلمة ﴿يَدُ﴾ إلى الاسم الجليل تربية للمهابة، ويمكن حمل اللفظ في ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ على المشاكلة مقابلةً للفظ ﴿أَيْدِيهِمْۚ﴾؛ والمعنى أن عقد الميثاق مع رسول اللّه ﷺ كعقده مع اللّه ﷻ من غير تفاوت. والجملة كلها كناية عن تأييد اللّه وحفظه ورعايته وإنعامه على الرسول ﷺ وعلى صحبه الكرام رضوان اللّه عليهم أجمعين. وفي جمعِ الأيدي تقريرٌ لمضمونِ جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ وتأكيدٌ لبيعتِهم للّه، وإن كانت في الظّاهرِ لرسولِه ﷺ[2].

نكتةُ تكرير لفظِ الجلالةِ في آية المبايعة:

الإشـــارةُ إلى عَـظَـمَـةِ اللـه وعظيمِ بيعتِه مع كمالِ تنزيهِ سبحانه

كرَّرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ الجلالةِ ثلاثَ مرّاتٍ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ إشارةً إلى العظَمةِ الفائقةِ للوصف، والغَيْبِ العالي عن الإدراك مع تعظيم البيعةِ وإجلالِ الرَّسولِ ﷺ مع العلم القطعيِّ بتنزيهِ اللّه ﷻ عن كلِّ شائبةِ نَقْصٍ من حُلولٍ أو اتّحادٍ[3].

معنَى الفاء ودلالتُها في قوله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾:

أمـرُ البـيـعـةِ عظيمٌ في الوفاءِ بمـا وقـعَ عليه التَّبايعُ وفي نَكْثِ ذلك

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ للتَّفريع، وقد "فُرِّعَ قولُه: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ﴾ على جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾؛ فإنَّه لَمّا كشفَ كُنْهَ هذه البيعةِ بأنَّها مُبايعةٌ للّه ضرورةَ أنَّها مبايعةٌ لرسولِ اللّه ﷺ باعْتبارِ رسالتِه عن اللّه، صارَ أمرُ هذه البيعةِ عظيمًا خطيرًا في الوفاءِ بما وقعَ عليه التَّبايع وفي نَكْثِ ذلك"[4].

غرض التعبير بالجُملة الشَّرطيَّة: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا﴾:

تحذيرٌ مَن نكثَ البيعة

في الجملةِ الشَّرطيَّةِ في قوله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 296.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 158.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 296.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 159.

عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾ تحذيرٌ لِمَنْ نَكَثَ هذه البيعة، وتفظيعٌ له؛ لأنَّ الشَّرطَ يتعلَّقُ بالمستقبل، فمَن نَكَثَ فإنَّما نكثُه عائدٌ عليه بالضُّرّ، كما دلَّ عليه حرفُ ﴿عَلَىٰ﴾[1].

سرُّ إيثارِ اسْمِ الشَّرطِ (مَنْ):

العـاقـل يَـنـأى بـنـفـسِـه عـمّـا يـسـبِّـبُ لـها الضَّرر

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ اسْمَ الشَّرطِ (مَنْ) لإفادتِه للعاقل[2]، فإنَّ المُخاطَبينَ همُ المؤمنون، الَّذين بايعوا اللّه بمبايعةِ رسوله ﷺ على السَّمعِ والطّاعةِ وقتالِ الأعداءِ دون الفرار، ولذلك جاءَ جوابُ الشَّرطِ بالوعيدِ الشَّديدِ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾؛ أيْ: نقضُه للعهدِ يعودُ على نَفْسِه بالضَّرر، والأصلُ في العاقل أن يَنأى بنفسِه عمّا يسبِّبُ لها الضَّرر.

بلاغة التعبير بالاستعارة المَكْنيَّة في ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ﴾:

ليس من العقل أن يَـنـقـضَ الـغـازلُ نَسْجَه كـذلـك صاحب العهد

يُستخدم النَّكْث في الأصل في نقض الحَبْلِ والغَزْلِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ [النَّحل: 92]؛ أيْ: لا تنقضوا العهود كما تفعل المرأة التي تفكُّ غَزْلَها وتحلُّه أنقاضًا بعد إحكامه، فقد استُعير النكث لنقض العهدِ والميثاقِ، إذ بينهما مشابهةٌ جليَّة، فكما أنَّ الحبلَ إذا نُقِضَ عادَ إلى التفرُّقِ والاضطراب بعد اجتماعٍ وإحكام؛ فكذلكَ العهدُ إذا نُكِثَ زالَت قوَّته، واضطربَ بُنيانُه، وانفرطَ نظامُه. ومَنْ نقضَ بيعتَه، وأبطلَ ما أبرمَ من عهده، لم يَجْنِ إلّا على نفسه؛ إذْ لا يتعدَّى ضررُ نكثِه إلى غيره، ولا يرتدُّ أثرُ غدرِه إلّا عليه[3]. ففي التَّعبير بالنَّكث هُنا استعارةٌ مَكْنيَّة، حيث شُبِّه نقض العهد بنقض الحبل، بجامع الإزالة بعد الإبرام، فحُذف المشبَّه به (نقض الحبل) ورُمز له بشيء من لوازمه (النَّكث).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 160.

(2) الجوجري، شرح شذور الذّهب: 2/ 597 - 598.

(3) حقّي، روح البيان: 9/ 21.

معنَى الفاء ودلالتُها في ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ﴾:

التَّرهـيـبُ من نقض البَيْعة بعد انعقادها

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرط، وهي للتَّهويلِ والتَّرهيبِ من نقضِ العهد، فمَن نقضَ البيعةَ يكونُ قد جعلَها كالكساءِ الخَلَقِ والحَبْلِ البالي الَّذي يُنقَض[1].

غرض التعبير بأسلوب القَصْرِ، ودلالة التعبير بـ (إنما):

النّاكثِ بالعهدِ يجلب الـضَّـررَ لنفْسِه

(إنَّما) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ﴾ للقَصْرِ، وهو لقَصْرِ النَّكْثِ على مَدلولِ ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ يُرادَ: لا يَضُرُّ بنَكْثِه إلّا نَفْسَه، ولا يَضُرُّ اللهَ شيئًا، فإنَّ نَكْثَ العهدِ لا يخلو من قصدِ إضرارٍ بالمنكوث، فجيء بقَصْرِ القَلْبِ لقَلْبِ قَصْدِ النّاكثِ على نَفْسِه لا على النَّبيِّ ﷺ[2]. وعُبِّر بأداة القصر (إنما) دلالة على أنَّ وبالَ النكث واقع لا محالة؛ إذ (إنما) تستخدم فيما لا يجهله المخاطَبُ ولا يُنكِره.

سِرُّ وقوع الفعل ﴿يَنكُثُ﴾ في الجواب مضارعًا:

عُبِّر بالفعل ﴿يَنكُثُ﴾ في الجواب مضارعًا إشارةً إلى أنَّ مَنْ فعلَ النَّكْثَ فهو في كلِّ لحظةٍ ناكثٌ نكثًا جديدًا، مُجدِّدٌ نقْضَه للعَهْد، جالبٌ لنَفْسِه دوامَ المذمَّةِ بدوامِ نَكْثِه[3]. وتَكْرارُ الفعل وتجديدُه يقتضي تجديدَ العقوبة، ومعاناة وبالها.

معنَى ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾:

ما أشقى المرءَ حين يتمكَّن منه النَّكثُ

أفادَ حرفُ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ تمكُّنَ النَّكثِ من نَفْسِه واسْتحواذَه عليها، بحيث لا عُذْرَ له في نَقْضِه للبَيْعةِ مع اللهِ ﷻ فمَنْ بايعَ يجبُ عليه الوفاءُ ببيعتِه مع المبايَع.

دلالة التَّعبير بـ ﴿نَفْسِهِۦ﴾:

كـلُّ نَـفْـسٍ بما كسبَت رَهينة

التَّعبيرُ بـ ﴿نَفْسِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 297.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 160.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 297.

بيانٌ عن حماقتهم وسَفَههم، إذ يجتهدون في إلحاق الضَّررِ بأنفسهم، فَهُم أشدُّ الناس غباءً. وفيه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وبشارةٌ بالنصر وعدم إلحاق أي أذى به.

معنى الواو ودلالتُها في: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ﴾:

في الوفاءِ بالعهد إقامةٌ للدّين على أبْلغِ وجه

لمّا أتمَّ التَّرهيبَ في قوله: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ أتبعَه الترغيبَ[1]، وجاء العطفُ بالواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ﴾ بعد إتمام التَّرهيب من نكث البيعة؛ ذلك لأنَّ المقامَ مقامُ الحثِّ على الوفاءِ الَّذي به قيامُ الدّين على أبْلغِ وجه، ولذلك جاء العطفُ في السّياق على ما تقدَّمه إتباعًا - على عادتِه - التَّرغيبَ على التَّرهيب، إتمامًا للحثِّ وتحفيزًا للوفاء[2].

الغرض من التعبير بالجملةِ الشَّرطيَّة:

الصَّحابةُ المُبايعون رضي الله عنهم أهلٌ للوفاءِ ببيعتِهم

في إيرادِ الجملةِ الشَّرطيَّةِ في قوله تعالى ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ﴾ تحفيزٌ للوفاءِ بالعهد، وترغيبٌ في إتمامِه والإكثار منه، وعدمِ الخُلْفِ في أيِّ عهدٍ مع الله، وأوْلاهُ ما جاءَ السّياقُ في حديثِه عنه في بيعةِ الرِّضوان[3]، وأوْحَت بأنَّ الصَّحابةَ المبايعينَ رضي الله عنهم أهلُ الوفاءِ ببيعتِهم. كما أن المعنى جاء في أسلوب الشرط لبيان أنه عَقْدٌ بين الموفين بالعهد وبين الله عز وعلا، والتعليق والتعاقد من أهم سمات هذا الأسلوب.

دلالة التعبير بالفعل الماضي ﴿أَوۡفَىٰ﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استخدامَ الفعلِ ﴿أَوۡفَىٰ﴾ ماضيًا للدَّلالةِ على الإتمام؛ فمعنى ﴿أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ﴾ أيْ: أتمَّه على أحْسنِ وجهٍ وأكملِه[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 297.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 297.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 297.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 252.

لا يُتصوَّرُ ألّا يَفيَ المؤمنُ بعهده مع الله

معنَى الباء ودلالتها في ﴿بِمَا عَٰهَدَ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ﴾ للإلصاق؛ أيْ: أوْفى بعهدِه مع اللّه وفاءً قائمًا ملصقًا بمضمونه دون تردُّدٍ أو خُلْف. ويجوزُ أن تكونَ الباءُ للسَّببيَّة؛ أيْ: أوْفى بسببِ ما عاهدَ عليه اللّه، فالعهدُ سببٌ للوفاء، وهو مترتِّبٌ عليه فلولا العهدُ ما حصلَ الوفاء.

دلالة التعبير بالفعل ﴿عَٰهَدَ﴾ ماضيًا:

آثر النَّظمُ الكريمُ المجيءَ بالفعلِ ﴿عَٰهَدَ﴾ ماضيًا للدَّلالةِ على تحقُّقِ المعاهِدِ بالقيام بعهدِه، وفيه تنبيهٌ على ضرورةِ إتمامِ العهدِ بكمالِه، وعدمِ التَّقاعُسِ في التزامِه قولًا وعملًا.

العهدُ مع الله مُتمكِّنٌ من صاحبه لا يرومُ إلا قضاءَهُ

فائدةُ القَيْدِ ﴿عَلَيۡهُ﴾ وغرض تقديمه على الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾:

جاءَ ذِكْرُ القيدِ ﴿عَلَيۡهُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ﴾ للتَّنبيهِ على أهميَّةِ هذا العهدِ وضرورةِ إنْجازه، فهو عهدٌ مُتمكِّنٌ من صاحبه، لا يَرومُ إلّا قضاءه؛ لأنَّه عهدٌ مع اللّه ﷻ[1]. وقدَّمَ النَّظمُ الكريمُ القيد (على) اهْتمامًا بالعهدِ الَّذي بايعَ به الصَّحابةُ إلهَهم ﭫ في بيعةِ الرّضوان[2].

تفخيمُ العهدِ وتعظيمُه لكونه مع الجليل

تَنوُّعُ القراءاتِ في الهاء في ﴿عَلَيۡهُ﴾ وثراءُ المعنى في ﴿عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ﴾:

قرأ الجمهورُ ﴿عَلَيۡهِ﴾ بكسرِ الهاءِ كما هو الشّائعُ في سائر القرآن الكريم، لكن قرأها حفصٌ مضمومةً ﴿عَلَيۡهُ﴾[3]، وحسب الآلوسي فإنَّ "وجْه الضَّمِّ أنَّها هاءُ (هو) وهي مَضْمومَةٌ، فاسْتَصْحَبَ ذَلكَ كَما في (له) وضَرَبَهُ، ووَجْهُ الكَسْرِ رِعايَةُ الياءِ وكَذا في (إلَيْهِ) و(فيهِ)، وكَذا فيما إذا كانَ قَبْلَها كَسْرَةٌ نَحْوَ (به) ومَرَرْتُ بِغُلامه لِثِقَلِ الانتقالِ من الكَسْرِ إلى الضَّمِّ. وحَسَّنَ الضَّمَّ في الآيَةِ التَّوَصُّلُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 297.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 297.

(3) ابن الجزري، النّشر: 2/ 375.

به إلى تَفْخيم لَفْظِ الجَلالَةِ المُلائِم لِتَفْخيم أمرِ العَهْدِ المُشْعِرِ به الكَلامُ، وأيْضًا إبْقاءُ ما كانَ عَلى ما كانَ مُلائِمًا لِلْوَفاءِ بالعَهْدِ وإبْقائه وعَدَم نَقْضه"[1].

سِرُّ التعبير بالاسم الجليل في: ﴿عَلَيۡهُ ٱللَّهَ﴾:

عَبَّر النظْم الجليل بالاسم الجليل منصوبًا على التعظيم تربيةً للمهابة في قلوب المؤمنين وبيانًا لِعظَم العهد مع الحق.

معنَى الفاء والسين ودلالتُهما في ﴿فَسَيُؤۡتِيهِ﴾:

الوفاء بالعهد جزاؤه عظيمٌ مُنجَزٌ عاجلٌ

جاءتِ الفاءُ العاطفةُ في قوله تعالى: ﴿فَسَيُؤۡتِيهِ﴾ بمعنَى التَّرتيبِ مع التَّعقيبِ الَّذي يفيدُ الإنجازَ المباشرَ للوعدِ مع مَنْ أوفَى بعهدِه مع اللّه، والسّينُ "تفيدُ تحقُّقَ الوعدِ؛ أيْ: فسيؤتيهُ اللّه بوعدٍ منه تعالى لا خُلْفَ فيه"[2].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع في (يؤتيه):

استمرارُ الإيتاءِ لِمَنْ قامَ بالوفاء

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ (يؤتيه) للدَّلالةِ على تجدُّدِ هذا الإيتاء واستمراره؛ أيْ: سنستمرُّ في إيتاءِ مَنْ أَوْفَى بعهدِه مع اللّه الأجرَ العظيم، أجرًا لا ينقطعُ رِفدُه، ولا يَنضُبُ معينه؛ لأنَّ المُؤتي هو اللّه تعالى، وإيتاؤه دائمٌ سَيّال.

تنوُّعُ القراءاتِ في ﴿فَسَيُؤۡتِيهِ﴾ وثراءُ المعنى:

عَظَمَةُ الإيتاءِ من عَظَمَةِ الله المُؤتي

في قوله تعالى ﴿فَسَيُؤۡتِيهِ﴾ قراءتان متواترتان[3]: الأولى: ﴿فَسَنُؤۡتِيهِ﴾ بنونِ العظمة على الالتفاتِ من الغَيْبةِ إلى التَّكلُّم، ومَنْ قرأ بالنون أظهرَ ما سُتِر في الجلالةِ من التَّعظيم. والثّانيةُ ﴿فَسَيُؤۡتِيهِ﴾ بالياءِ التَّحتيَّة، وهي ياءُ الغَيْبةِ، عائدًا ضميرُه على اسْمِ الجلالة[4].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 252.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 297.

(3) القراءة الأولى لابن كثير ونافع وابن عامر وأبي جعفر وروح، والثّانية للباقين من العشرة، الفارسي، الحُجّة: 6/ 201، وابن الجزري، النّشر: 2/ 375، وراجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 512.

(4) مكّيّ بن أبي طالب، الكشف: 2/ 280، والسمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 9/ 712، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 160.

الغرض من تنكير ﴿أَجْرًا﴾:

أجرُ الموفي بعهدِه مع الله عظيمٌ وكثير

أوردَ النَّظمُ الكريمُ قولَه تعالى ﴿أَجْرًا﴾ نكرةً للدَّلالةِ على عظمتِه في نَفْسه، وفخامتِه في كونِه من الله تعالى فالله العظيمُ لا يُعطي مَنْ وفَّى بعهدِه إلّا أجرًا عظيمًا، وكذلك فإنَّ النَّكرةَ تدلُّ على كثرتِه وتنوُّعِه بحيث لا يسعُ العقولَ إدراكُه والإحاطةُ بوصفِه[1].

سرُّ وصفِ الأجرِ بـ ﴿عَظِيمًا﴾:

العـظـمـةُ في الأجرِ من عظمةِ واهبِه

وصفَ النَّظمُ الكريمُ الأجرَ بـ ﴿عَظِيمًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ للدَّلالةِ على عِظَمِ أجْرِ الموفين بعهدِهم مع الله وهو الجنَّة؛" لأنَّ مآكلَ الجنَّةِ تكونُ من أرفعِ الأجناس، وتكونُ في غايةِ الكَثْرة، وتكونُ ممتدَّةً إلى الأبدِ لا انْقطاعَ لها، فحصلَ فيه ما يُناسبُ أن يقالَ لهم عظيم، والعظيمُ في حقِّ الله تعالى إشارةٌ إلى كمالِه في جهاتِه ﷻ"[2]. وجاءت هذه الصِّفةُ ﴿عَظِيمًا﴾ على هيئةِ المبالغةِ فيها في حقِّ الله تعالى؛ إشارةً إلى كمالِ الله في صفاتِه وجليلِ إنعامِه على المؤمنين الموفين بعهدِهم مع الله ﷻ[3]. ولبيانِ أنَّ ذاك الأجرَ من شدَّةِ عظمتِه لا يسعُ عقولَكم شرحُ وصْفِه[4].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّكث والنَّقض:

جـمـيـعُـهـا مـشـتـركـةٌ في معنَى النَّقض، لكنَّ النَّكثَ أوْفَى بالسّياقِ لتقديمِ الـعـزمِ على الوفاءِ

النَّكثُ: نقضُ العَزْمِ الأوَّل، كمَنْ طلبَ حاجةً، ثمَّ انْتكثَ لأُخرى[5].

وهو المناسب لسياق البيعة سِباقًا، وجزاء الوفاء بالعهد لِحاقًا.

والنَّقضُ: الكَسْر، ويُطلَقُ النَّقضُ على وجودِ العلَّةِ بلا حكم،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 298.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 73.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 73.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 298.
(5) الرّاغب، المفردات: (نكث)، والكفوي، الكلّيّات، ص: 915.

ونقيضُ كلِّ شيء: رفعُ تلك القضيَّة، فإذا قلنا: كلُّ إنسانٍ حيوانٌ، فنقيضُها: أنَّه ليس كذلك.

والنَّقضُ: انْتثارُ العَقدِ من البناءِ والحَبْلِ والعِقْد، وهو ضدُّ الإبرام، يُقال: نقضتُ البناءَ والحبلَ والعِقْد، ومن نَقْضِ الحبلِ والعِقْدِ اسْتُعيرَ نَقْضُ العهد، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: 27](1) وهو المناسب لسياق التوثيق.

الإيتاء والإعطاء:

الإيتـاءُ تمليكٌ للمُؤتَى وثباتٌ له وقرار

آثرَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ الإيتاءِ دون الإعطاءِ، لأنَّ الإيتاءَ أقوى من الإعطاءِ إذْ لا مُطاوِعَ له، يُقال: آتاني فأخذتُه، وفي الإعطاء، يُقال: أعْطاني فعطَوْت، وما له مُطاوِعٌ أضْعفُ في إثباتِ مفعولِه ممّا لا مطاوعَ له.

والإيتاءُ أبلغُ من الإعطاءِ مع ما فيه من معنَى التَّمليك، ولذلك يُقالُ (الإيتاءُ) فيما له ثباتٌ وقرار، كما هو ثباتُ الأجرِ العظيم - هنا - لِمَنْ أوْفَى بعهدِه مع اللّه، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: 269]، وقولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحِجر: 87](2).

العهد والميثاق والعقد:

بين الجميع اشْتراكٌ في معنَى التَّوكيد، والعهدُ أنسبُ للسّياقِ لما فيه من معنَى الحفظِ والمراعاةِ الدّائمةِ لمضمونه

العهدُ: حفظُ الشَّيءِ ومراعاتُه حالًا بعد حال، وسُمّيَ الموثّقُ الَّذي يلزمُ مراعاتُه عَهْدًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ۝٣٤﴾ [الإسراء: 34]؛ لذا استخدم العهد هنا؛ لأنه ألصق بسياق الحديث عن البيعة.

والميثاقُ: توكيدُ العَقْد، من قولك: أوْثقْتُ الشَّيءَ إذا أحكمتَ

(1) الرّاغب، المفردات: (نقض)، والجرجاني، التّعريفات، ص: 245.
(2) العسكري، الفروق، ص: 86، والكفوي، الكلّيّات، ص: 212.

شدَّه، ووثقتَ به: سكنتُ إليه واعتمدتُ عليه، وأوثقتُه: شددتُه، والميثاقُ عقدٌ مؤكَّدٌ بيمينٍ وعهد، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 81][1].

والعَهْدُ يكون حالًا من المتعاهدَيْن، والميثاقُ يكونُ من أحدهما، والعَقْدُ: والعقْدُ فيه معنَى الاسْتيثاقُ والشَّدّ، ولا يكونُ إلّا بين متعاقدَيْن. والعَهْدُ قد ينفردُ به الواحدُ فبينَهما عُمومٌ وخُصوص[2].

(1) العسكري، الفروق، ص: 525، والرّاغب، المفردات: (عهد) و(وثق).

(2) العسكري، الفروق، ص: 365 - 366، والرّاغب، المفردات: (عقد)، الكفوي، الكلِّيّات، ص: 597.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ١١﴾ [الفتح: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا ذكرَ أهلَ بيعة الرِّضوانِ أتبعَه الخبرَ عنِ المنافقين المتخلِّفين

لمّا فصَّلَ الخطابُ الإلهيُّ حالَ المنافقين عطفَ بعده على ذِكْرِ المُتخلِّفين من الأعراب، وهم طائفةٌ نكصوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ، إذْ داخلَ قلوبَهم وهَنٌ، وظنّوا برسول الله الظنّ السّوء، فقالوا: إنّ أهل مكّةَ يُقاتِلونَ عن ديارِهم وهم في عُقر دارِهم، فكيف يكونُ حالُنا إذا صرنا في بلادِهم وأحدقَ بنا العدوّ من كلّ صوبٍ؟ فاحتجبوا عن الجهاد، وتخلّفوا عن الرَّكْب، ثمّ جاؤوا يعتذرون كذبًا وزورًا، وقالوا: ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ﴾، وما قالوه بلسانِهم إلّا نفاقًا، وقلوبُهم به مُكذِّبة، وما ذلك الاعتذارُ ليصرفَ عنهم ضُرًّا قدّره الله، أو ليجلبَ لهم نفعًا لم يُكتب لهم، فإنّ الأمرَ كلَّه بيد الله العليم بذات الصدور، الخبيرُ بسرائر الأمور(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾: (خلف) أصولٌ ثلاثةٌ: أحَدُها: أنْ يجيءَ شيءٌ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَه، والثّاني: خلافُ قُدّام، والثّالثُ: التَّغيُّر. والخَلَفُ: ما جاءَ بعد؛ قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ [الأعراف: 169]. والخِلّيفَ: الخِلافةُ، وإنّما سُمّيت (خلافة)؛ لأنَّ الثّاني يجيءُ بعد الأوَّلِ قائمًا مقامَه. وخَلَّفتُه: تركتُه خَلْفي، قال تعالى: ﴿فَرِحَ

(1) انظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 74، والبقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 299.

﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: 81]. والخالف: المُتأخِّرُ لنُقصانٍ أو قُصورٍ كالمُتخلِّف، قال تعالى: ﴿فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ٨٣﴾ [التّوبة: 83][1]. وقولُه تعالى: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾؛ أيِ: الذين خلَّفهم اللّه عن شرف الجهاد مع النّبيِّ ﷺ.

2) ﴿ٱلْأَعْرَابِ﴾: (عرب) أصولٌ ثلاثةٌ؛ أحدُها الإنابة والإفصاح، والآخَرُ النَّشاطُ وطيبُ النَّفْس، والثّالثُ: فسادٌ في جِسْمٍ أو عُضو. يُقال: أعْرَبَ الرَّجُلُ عن نَفْسِه، إذا بيَّنَ وأوْضح، وإعرابُ الكلام أيضًا من هذا القياس؛ لأنَّ بالإعرابِ يُفرقُ بين المعاني في الفاعلِ والمفعول، والنَّفيِ والتَّعجُّبِ والاسْتفهام. والعَرَبُ: ولدُ إسماعيلَ عليه السلام – و(الأعرابُ) جمعُه في الأصل، وصار ذلك اسْمًا لسكّانِ البادية، قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التّوبة: 97][2] وهو المعنى المقصود في الآية.

3) ﴿شَغَلَتْنَآ﴾: (شغل) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على خلافِ الفراغ، تقولُ: شَغَلْتُ فُلانًا فأنا شاغلُه، وهو مشغول، وشُغِلْتُ عنكَ بكذا، ويُقال: شُغْلٌ شاغِلٌ، وجمعُ الشُّغْلِ: أشغال، واشْتُغِلَ فلانٌ بالشَّيء، وهو مُشتَغِلٌ. والشَّغْلُ والشُّغلُ: العارضُ الَّذي يُذهِلُ الإنسان، قال ﷻ: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ٥٥﴾ [يس: 55][3]، وقولُه تعالى: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ أيْ: شَغَلَتنا عنِ الخروجِ معكَ معالجةُ أموالِنا وإصلاحُ معايشِنا وأهلونا[4].

4) ﴿يَمْلِكُ﴾ (ملك) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ وصِحَّة، يُقال: أملَكَ عجينَه: قوَّى عَجْنَه وشدَّه، وملَّكتُ الشَّيءَ: قوَّيتُه، والأصلُ هذا، ثمَّ قيل: مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ يملِكُهُ مَلْكًا، والاسْمُ: المِلكُ؛ لأنَّ يدَهُ فيه قويَّةٌ صحيحة، فالمِلْكُ: ما مُلِكَ من مال، والمُلْكُ: ضبطُ الشَّيءِ المتصرَّفِ فيه بالحكم، والمِلْكُ كالجِنْسِ للمُلْك، فكلُّ مُلكٍ مِلْك، وليس كلُّ مِلكٍ مُلْكًا، قال تعالى: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [يونس: 31][5]. وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ أيْ: مَنْ ذا الَّذي يقدِرُ على دفعِ ما أرادَ اللّه بكم من خيرٍ أو شرّ[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (خلف).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (عرب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (شغل).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 211.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (ملك).
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 211.

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَنْ تخلَّفَ عن رسولِ الله ﷺ لانْشغالِه بالدُّنيا لقيَ ما لا يَرْضَى

أخبرَ اللّه تعالى نبيَّهُ ﷺ عن حالِ الأعرابِ الذين تخلَّفوا عن الخروجِ معهُ وآثروا السُّكونَ إلى الأهلِ والأموالِ، فلمّا عادَ رسولُ اللّه ﷺ اعتذروا بأنَّ الشُّغلَ صدَّهم، والعُذرَ ألجأهُم، وسألوا أن يستغفرَ لهم، لا عن ندمٍ منهم صادقٍ؛ بل كان قولًا باللِّسانِ مُداراةً ومُصانعةً، فأُمِرَ النبيُّ ﷺ أن يردَّ عليهم بما يكشفُ سترَهم، ويُظهرُ نفاقَهم، فقالَ اللّه تعالى: ﴿بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾؛ أي: إن اللّه قد اطَّلعَ على مكنونِ صدورِكم، وعَلِمَ حقيقةَ أمرِكم، فلا يقدرُ أحدٌ أن يردَّ ما أرادَه اللّه فيكم؛ فهو العليمُ بسرِّكم، الخبيرُ بضمائرِكم، فلا يُجديكم التَّحيُّل، ولا ينفعُكم الاعتذار[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله: ﴿سَيَقُولُ﴾:

اسْتِئنافُ ذِكْرِ المُخَلَّفينَ بعد ذِكْرِ الإيفاءِ أوِ النَّكْث

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾ مستأنَفَةٌ اسْتِئنافًا ابْتدائيًّا لمناسبةِ ذكرِ الإيفاءِ والنَّكث، فكُمِّلَ بذكرِ مَنْ تخلَّفوا عن الدّاعي للعهد، فالمنافقون يقولون ذلك عند مرجعِ النَّبيِّ ﷺ إلى المدينةِ معتذرينَ كاذبين في اعْتذارِهم[2].

معنَى السّين ودلالتُها في ﴿سَيَقُولُ﴾:

تحقّقُ قولِ المنافقين للرسول ﷺ

السّينُ في قولِه تعالى: ﴿سَيَقُولُ﴾ للاسْتقبال، وهي في حقِّ إخبارِ اللّه أمرٌ واقعٌ لا محالة، فهي تفيدُ التَّحقُّقَ واليقينَ بما سيقولُه المنافقون؛ أيّ: بوعدٍ لا خُلْفَ فيه[3]، فأخبرَ اللّه رسولَه ﷺ بما بيَّتوه في قلوبهم، وفضَحَ أمرَهم من قبلِ أن يعتذروا، وهذه من معجزاتِ القرآنِ بالإخبارِ بالأحداثِ قبل وقوعِها[4].

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 170.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 161.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 299، وانظر: ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 33.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 161.

دلالةُ التعبير بالفعل المضارع ﴿سَيَقُولُ﴾:

الفعلُ المضارعُ ﴿سَيَقُولُ﴾ يدلُّ على تجدُّدِ واسْتمرارِ مقولتِهم تلك، فهم مستمرّون على نفاقِهم وكذبِهم في: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾[1].

معنَى اللّامِ ودلالتُها في ﴿لَكَ﴾:

تـخـصـيـصُ الـرَّسـولِ ﷺ بـالاعْـتـذارِ لعظيمِ رأفتِه بأمَّتِه

اللّامُ في قولِه: ﴿لَكَ﴾ بمعنَى الاخْتصاص؛ أيْ: يخصُّكَ المنافقون بقولهم - معتذرينَ عن صُحبتِكَ وأصحابِكَ في الذَّهابِ لأداءِ العمرة ثمَّ المبايعةِ للّه وأداءِ مضمونها -: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾؛ "لعلمِهم أنَّك ألْطفُ الخَلْقِ عِشْرَةً، وأعْظمُهم شفقةً على عبادِ اللّه، فهم يطمعونَ في قَبولِك من فسادِ عُذرِهم ما لا يطمعونَ فيه من غيرِكَ من خُلَّصِ المؤمنين، وغابَ عنهم - لما عندَهم من غِلَظِ الأكباد - أنَّ الكذبَ بحضرتِكَ في غايةِ القَباحة؛ لأنَّكَ أعظمُ الخلقِ وأفْطَنُهم، مع ما يأتيكَ من الأنباءِ عن علّامِ الغُيوب"[2].

غرض تقديمِ شِبْهِ الجملةِ ﴿لَكَ﴾ على الفاعل ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾:

تأكيدُ نفاقِهم مـع اهـتـمـامِ رسولِ الله ﷺ بهم

تقديمُ شبهِ الجُملةِ في قولِه: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ يُفيدُ تأكيدَ أمرِ نفاقِهم، تنبيهًا على جَلدِهم فيه ووقاحِهم به، ولُطفِ النَّبيِّ ﷺ وشدَّةِ رحمتِه ورِفْقِه وشفَقَتِه، واهْتمامِه بهم حرصًا على قيامِهم بأمرِ اللّه والتزامِ عهدِه والوفاءِ به.

دلالةُ التعبير بالفاعل اسم مفعول جمعًا مُعرَّفًا باللّام ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾:

تـحـقـيرُ أمـرِ المُخلَّفينَ وتفاهةُ عقولِهم

أوردَ النَّظمُ الكريمُ بيانَ مَنْ تخلَّفوا عن رسولِ اللّه ﷺ للذَّهابِ إلى مكَّةَ وأداءِ العمرةِ بصيغةِ ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ وهي صيغةُ اسم مفعول جمعًا، للإيحاءِ بتحقيرِ أمرِهم، وبسلبِ العقلِ عنهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّهم طُرِدوا عن هذا المقامِ العظيمِ في صحبةِ رسولِ اللّه ﷺ ومُبايعتِه مع الصَّحابة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 299.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 299.

ﷺ بيعةَ الرِّضوان؛ لأنَّهم أشرارٌ لئام، وهم جماعةٌ خلَّفهمُ اللّه عنك يا محمَّد ﷺ، ولم يرضَهم لصحبتِك في هذه العمرة، فجعلَهم كالشَّيءِ التّافِهِ الَّذي يُخلِّفُه الإنسان؛ لأنَّه لا فائدةَ فيه، فلا يُؤبَه له، ولا يُعبَأُ به[1]. وقد جاء التَّعبير بصيغة التَّخلف في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾، فَخُلِّفوا مأخوذ من التَّفعيل؛ وقد جاء مُطابقًا لمقتضى النَّظم الجليل، وموافِقًا لبلاغة الإعجاز، إذ لم يكن تَخَلُّفهم عن النَّبي ﷺ أمرًا أُجْبِروا عليه، ولا عذرًا صادقًا حال بينهم وبَين المسير، بل هو تخلُّفٌ وقع باختيارهم، واستحبابهم القعود عن النَّفير، فناسب أن يُصاغ الفعل بصيغة (التفعُّل)؛ لما فيها من المُبالغة الدّالة على أن هذا الأمر كان منهم على عمدٍ وتصميم، دلالةً على استثقالهم للجهاد، وانصراف هممهم عن نصرة الدّين[2].

معنَى ﴿مِنَ﴾ ودلالتها في ﴿مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

بعضُ الأعراب تخلَّفوا عن رسولِ الله ﷺ

﴿مِنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ تبعيضيَّة، ذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ لَمّا أرادَ الاعْتمارَ ندبَ أصحابَه - ﷺ - لذلك، وندبَ من الأعرابِ والَّذين حولَ المدينةِ الشَّريفةِ مَنْ كان قد أقرَّ منهم بالإسلام، ولم يكنِ الجميعُ مُقرّين بالإسلام[3]. كما يَحْتَمِلُ أنَّ تكون ﴿مِنَ﴾ هنا بيانيَّة؛ على اعتبار أنَّ المُخلَّفين من الأعراب هم سوادهم وأغلبهم[4].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ وجمعِه:

الأعرابُ المتخلِّفونَ همُ ضعافُ الإيمان

جاء تعريفُ ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ لأولئك الَّذين هم حولَ المدينةِ الشَّريفةِ ممّنْ كان قد أقرَّ بالإسلام، فلم يُرِدِ اللّه حضورَهم؛ لأنَّ إسلامَهم لم

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 299 - 300.
(2) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 67.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 543.
(4) يرى بهجت صالح أن حرف الجر: (من) هنا، بيانيٌّ، ينظر كتابه إعراب القرآن الكريم: 9/ 396.

يكن خالصًا فلو حضروا لفسدَ بهمُ الحال، وهم أهلُ الباديةِ الَّذين لم يتمكَّنِ الإيمانُ في قلوبِهم، وعُرِفوا بالكذبِ والبُهتانِ والجُرأةِ على اللّه ورسولِه[1]. وعَبَّرَ بالجمع تشنيعًا على تصرفاتهم إذ اجتمعوا في صفة غاية في الحقارة، وهي صفة النفاق.

دلالة التَّعبيرِ بالماضي ﴿شَغَلَتۡنَآ﴾:

الشغل عن رسول الله ﷺ موجبٌ للذَّمِّ

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي ﴿شَغَلَتۡنَآ﴾ للدَّلالةِ على تحقُّقِ ادِّعائهم في انْشغالِهم عن صُحبةِ الرسولِ ﷺ للذهابِ إلى مكَّةَ للعُمرة، لإماطةِ أيِّ شكٍّ أو ظنٍّ في عدمِ صدقِهم، وفيه مَذمَّة لهم.

غرض التعبير بالمُسنَد إليه ضمير جمع في ﴿شَغَلَتۡنَآ﴾:

جرأةُ المتخلِّفين في كذبِهم

أسندَ النَّظمُ الكريمُ انْشغالَهم إلى ضميرِ جمعِ المتكلِّم، حيث تعلَّلَ الأعرابُ المتخلِّفون بقولهم: شَغَلَتنا إيهامًا بشدَّةِ انْشغالِهمُ الَّذي أقعدَهم عن دعوةِ رسولِ اللّه ﷺ للخروجِ معه إلى مكَّة، وفيه دلالةٌ على جُرأتِهم على اللّه ورسولِه القائمةِ على الكذبِ والبُهتان، إذْ لو صدقوا في إيمانِهم باللّه ورسولِه ما شغلَهم شيءٌ عن تلبيةِ دعوةِ رسولِ اللّه ﷺ[2].

دلالة التعبير بالجمع ﴿أَمۡوَٰلُنَا﴾ وسر الإضافة إلى ضميرِ التَّكلُّم:

حفظُ ما جُمِعَ من أموالِهم مع كثرتِها أرجَى للاعْتذار

وردتِ الأموالُ بالجمعِ مع إضافتِه إلى ضميرِ التَّكلُّم في قوله تعالى: ﴿أَمۡوَٰلُنَا﴾؛ ليستدلوا بها على صدقِ اعتلالِهم بالشُّغلِ بكثرةِ أموالِهم نوعًا وكمًّا، وأنَّه ليس لهم مَنْ يقومُ بأشغالهم؛ فيُعذَروا بذلك[3]. ويجوزُ أن تكونَ علَّةُ إضافةِ الأموالِ في ﴿أَمۡوَٰلُنَا﴾ دون (أموال) "لأنَّ مجرَّدَ الجمعِ لا يَصلُحُ عذرًا؛ لأنَّه لا نهايةَ له، وأمّا حفظُ ما جُمِعَ من الشَّتات ومنعُ الحاصلِ من الفوائتِ يَصلُحُ عُذرًا، فقالوا: شغلَتنا أموالُنا، أي: ما صارَ مالًا لنا لا مطلقَ المال"[4].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 130، والبقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 300.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 300.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 543.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 74.

دلالة العطفِ بالواوِ في ﴿وَأَهْلُونَا﴾ ونكتةُ التَّعلُّلِ بهم:

المبالغةُ في الاعتذارِ بحفظِ الأهلِ مع المال

جاءتِ الواوُ العاطفةُ في قوله: ﴿وَأَهْلُونَا﴾ للمبالغةِ في اعْتلالِهم، حيث لم يكن سببَ انشغالهم أموالُهم فقط؛ بلِ الأهلونَ كذلك، ولم يكن لهم مَن يقومُ بحفظِ أموالِهم زيادةً منهم في الاعْتلالِ والاعْتذار[1]. وتعلَّلوا بالأهلِ زيادةً منهم في الاحْتياط، وإيغالًا في الكذِب، فلو أنَّ قائلًا قالَ لهم: المالُ لا ينبغي أن يبلغَ إلى درجةٍ يمنعُكم حفظُه من متابعةِ الرَّسولِ ﷺ؛ لكان لهم أن يقولوا: فالأهلُ يمنعُ الاشْتغالُ بهم وحفظُهم عن أهمِّ الأمور[2].

غرض الإضافة إلى ضمير التكلم ﴿وَأَهْلُونَا﴾:

تأكيد الاعْتلالِ بعدمِ مَن يقومُ برعايةِ أهلِهم

قولُه: الأهلون، جمعُ (أهلٍ) على غيرِ قياس؛ لأنَّه غيرُ مُستَوْفٍ لشروطِ الجمعِ بالواوِ والنّونِ أوِ الياء والنّون، فعُدَّ ممّا أُلحِقَ بجمعِ المذكَّرِ السّالم، وأُضيفَ الجمعُ إلى ضميرِ التَّكلُّم تأكيدًا لاعْتلالِهم، ثمَّ إعذارِهم، فأهلوهم كثيرون يحتاجون إلى مَنْ يقومُ على رعايتِهم وتفقُّدِ أحوالِهم[3].

سرُّ تقديمِ الأموالِ على الأهلين:

بالأموالِ قِوامُ العَيْشِ والحياة

لمّا كان بالأموالِ قِوامُ العيشِ ومادَّةُ الحياةِ، قدَّمها المخلَّفونَ في اعتذارِهم على ذِكْرِ الأهلين، إذ بالأموال يكونُ سدُّ الخَلَّة، وتدبيرُ المعاشِ، وصلاحُ الحالِ؛ فكانت عندهم أوْلى بالذِّكر، ثمَّ أردفوها بذِكْرِ الأهل؛ لأنَّهم مع حرصِهم على الأموالِ كانوا أشدَّ مُحافظةً على الأهلين، وأكثرَ خوفًا على ذهابِهم وضياعِهم[4].

غرض حذفِ متعلِّقِ جملة ﴿شَغَلَتْنَآ﴾:

في قوله تعالى: ﴿شَغَلَتْنَآ﴾ أي: عن إجابتِكَ في هذه العمرة،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 488.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 74.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 543، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 161.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 488.

البيانُ عن خفايا نفوسِ المُخلَّفين بغايةِ الفصاحةِ والبلاغةِ

وهذا دليلٌ على كذبِهم وبُهتانِهم وجُرأتِهم على اللّه ورسولِه، فإنَّ مَن صَدقَ مع الله لا يَشْغَلُهُ عنه ﷺ شاغل، ومَن شغلَه عنه شيءٌ كان شُؤمًا عليه(1). وتقدير المحذوف في شغلتنا: عن الخروجِ معك، وصرفَتنا عن إجابتِك في هذه النُّصرة، فلولا ذلك لكُنّا من السّابقين إليها، والممتثلين لأمرها، فإنّا إن تركناهم دون رعايةٍ ضاعوا، إذ لم يكن لنا من يلي أمرَهم ويدبِّرُ شأنهم، وقد نهَيتَ - يا رسولَ اللّه - عن تضييعِ المالِ والتفريطِ في العيالِ، فكان اعتذارُنا مبنيًّا على الحرصِ على ما أمرتَ بحفظِه، والرعايةِ لما أوجبتَ صونَه، فإن كنتَ ترى في ذلك تقصيرًا، واستشعرتَ فيه تفريطًا، فاستغفرْ لنا اللّه فما تخلفْنا إلا عَن اضطرارٍ، ولا قعدْنا إلا لعُذرٍ(2) - فطوي ذِكْر هذا التَّفصيل واستُغني عنه بذِكْر اشتغالهم بالأموال والأهلين في إيجاز عجيب جمع المعاني الكثيرة في ألفاظٍ قليلةٍ؛ فجاء البيانُ مُعبِّرًا عن خفايا نفوسِهم بغايةِ الفصاحةِ والبلاغةِ.

معنَى (الفاء) ودلالتها في ﴿فَٱسۡتَغۡفِرۡ﴾:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرۡ﴾ تَحتَمِل السَّببيَّة؛ أيْ: سبَّبوا عن القولِ المُرادِ به السّوء(3). وقد تكون الفاء فصيحةً "لأنها تُفصحُ عن شرطٍ مُقدَّرٍ، والتقدير: وإذا كان ذلك حاصلًا وواقعًا ﴿فَٱسۡتَغۡفِرۡ﴾(4).

سرُّ إيثارِ فعلِ الاسْتغفارِ دلالةً وصيغةً:

سؤالُهمُ المغفرةَ أعْمَى بصيرتَهم عن علمِ الله بحقيقتِهم

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ الاسْتغفارِ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ﴾ على وزن اسْتفعِلْ - للدّلالةِ على طلبِ المغفرة؛ أي: "اسْألْ لنا المغفرةَ من اللّه، إذ كانوا مؤمنين، فهو طلبٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّهم كانوا مؤمنين،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 300.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 300.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 300.
(4) الدُّرة، تفسير القرآن الكريم: 9/ 135.

ولكنَّهم ظنّوا أنَّ اسْتغفارَ النَّبيِّ ﷺ لهم يمحو ما أضْمروه من النَّكث، وذَهَلوا عن علمِ اللّه بما أضمروه، كدَأبِ أهلِ الجهالة"(1).

معنَى اللّام ودلالتُها وسِرُّ التعبير بالقَيْد ﴿لَنَاۚ﴾:

تخصيصُهم بالاسْتغفار؛ كأنَّ تخلُّفَهم عن اضْطرار

اللّامُ في ﴿لَنَاۚ﴾ لامُ الاخْتصاص؛ أيْ: خُصَّنا بالاسْتغفار، وهذا من الجرأة والإمعان في النفاق، وجاءَ القيدُ ﴿لَنَاۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ﴾ لّما علموا أنَّ ذلك التخلُّفَ عنِ الرَّسول ﷺ كان معصية، فسألوا رسولَ اللّه ﷺ أن يستغفرَ لهم ويخصَّهم باسْتغفارِه بسببِ تخلُّفِهم عنه ﷺ، الَّذي لم يكنْ عنِ اخْتيار، بل عنِ اضْطِرار كما تَوَهَّموا.

دلالةُ التعبير بالمضارعِ المجموعِ مُسندًا لواو الجماعة ﴿يَقُولُونَ﴾:

الكَذِبُ دَيْدَنُ المنافقين

اسْتخدمَ النَّظمُ الكريمُ المضارعَ المُسْنَدَ لواو الجماعة ﴿يَقُولُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ قولَهم هو ظاهرٌ على ألْسنتِهم فقط، وليس ذلك حقيقةً في قلوبهم، "فيكون معنى يقولون: أي يُظهِرون، والتَّعبيرُ بالمضارعِ إشارة إلى أنَّ هذا دَيْدَنٌ لهم لا يَنفكّون عنه"(2). كما أنَّ قولهم في صيغة المضارع قد جاء استحضارًا للصورة والحال التي كانوا عليها(3). وفي الإسناد إلى واو الجماعة كشفٌ عن اتّحادِهم في صفة النِّفاقِ حتى في القول الظاهر.

موقعُ جملةِ ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم﴾ مما قبلها ودلالته:

الكشفُ عن نِفاقِ القوم ببيانِ حالهم في مناقضة ظاهرهم لباطِنِهم

جملةُ ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم﴾ في موضعِ الحال، أي: والحالُ أنَّهم يقولونَ بألسنتِهم، تأكيدًا لمخالفةِ ظاهرِهم لباطنِهم. ويجوزُ أن يكونَ بدلَ اشْتمالٍ من جملة ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾(4)؛ فالحال هنا جاءت كاشفةً لنفاقِ القوم، مُبرِزةً التناقضَ بين ظاهرهم وباطنهم، وموحيةً بضَعْفِ حُجَّتهم وتكلُّفِهم في الأعذار.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 162.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 301، والعليمي، فتح الرّحمن: 6/ 339.
(3) فتح الرحمن في تفسير القرآن: 6/ 3355.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 162.

معنَى الباء ودلالتُها في ﴿بِأَلۡسِنَتِهِم﴾:

قولُهم مصاحبٌ لألسنتهم مخالفٌ لقلوبهم

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِأَلۡسِنَتِهِم﴾ للإلصاقِ والمصاحبة، أي: يقولون قولًا مُلصَقًا على ألْسنتِهم لا يُغادرُها مخالفًا لما في قلوبِهم الَّتي انْعقدت على ضعفِ الإيمانِ، والشَّكِّ في رسولِ اللّه ﷺ في قدرتِه على مواجهةِ كُفّارِ قريشٍ في منعِه بالقوَّةِ من أداءِ العمرة، وهم في حقيقةِ الأمرِ لا يُبالونَ باسْتغفارِك، وإنَّما هو كلامٌ جرَى على ألسنتِهم[1].

توجيهُ ذِكْرِ الألسُنِ هنا وذِكْرِ الأفواه في سورة آل عمران:

الإنـباءُ عن مـبالـغةٍ واستحكامٍ وتَمكُّنٍ في القصد لا يكون في ذِكْرِ الألسن

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الألسنة) على (الأفواهِ) في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم﴾ مع أنَّ التَّعبيرَ بالأفواهِ دَأْبُه في المنافقين في إظهارِ ما يخالفُ ما في قلوبِهم، قال ابن عرفة: "والجواب: أنَّ قولهم هنالك (يعني آل عمران) أكثرُ وأعظمُ وأشنعُ؛ لأنهم قالوا: ﴿لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ [آل عمران: 167]، وبدليل قول اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾ [آل عمران: 167]؛ فدلَّ على كثرة قولهم، فنسب (الكثير) لـ(الأفواه)؛ إذ هي أوسع من (الألسنة)"[2].

وبهذا القول قال ابن الزبير الغَرْناطيُّ وزاد "قوله في الأولى: ﴿بِأَفۡوَٰهِهِم﴾ [آل عمران: 167] ينبئُ عن مبالغةٍ واستحكام وتمكُّنٍ في اعتقادٍ أو قصدٍ لا يحصل من قوله: ﴿بِأَلۡسِنَتِهِم﴾، ألا ترى قولَهم: (تكلَّمَ بملءِ فيهِ) حين يريدون المبالغة؟"، ثم ساق كلامًا متينًا ختمه بقوله: "فعبَّر بالألسنة إشعارًا بأنَّ حال هؤلاء ليس كحال المنافقين المقصودين في آية آل عمران؛ فلاختلافِ الطائفتين اختلفتِ العبارةُ عما صدر منهم"[3].

---

(1) العليمي، فتح الرّحمن: 6/ 339.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 34.

(3) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/ 94.

بلاغةُ التعبير بالمجازِ المُرسل في لفظِ الألْسِنة:

المبالغة في الكشف عن نفاقهم

عبرّ بالألسنة على سبيل المجاز المُرسل وعلاقته الآلية، والأصل: (يقولون بكلامهم)، ففي ذكر الآلة مبالغة؛ كأنهم ليس في مضمون كلامهم أيُّ فائدة، وإنما يتحدث اللسان دون أن يكون له أثر في قلوبهم.

غرض الإضافة في ﴿بِأَلۡسِنَتِهِم﴾ ودلالة التعبير بصيغة جموع القلة:

التهوين من شأنهم وضآلة تأثير كلامهم

في الإضافة تحقيرٌ لهم، ولكلامهم الناتج عن ألسنتهم، ويؤيده اصطفاء صيغة جمع القلة، إشارة إلى تفاهة أثر كلامهم، وتوهينًا لهم على كثرتهم، وكشفًا عن ضَعْفِهم وهوانهم على المؤمنين.

غرض التعبير بالمفعول به اسمًا موصولًا مُبهمًا في: ﴿مَّا لَيۡسَ﴾:

الإمعان في إخفاء ما في قلوبهم من حقيقة النفاق وفضحه

عُبِّر بالمفعول به بالاسم الموصول الأعمِّ والأدْخَلِ في الإبهام، ليشاكلَ ما أضمروه من النفاق في قلوبهم، والتعمية عليه بالكلام الكذب، وليكون أشمَلَ لكلِّ ما وعَته قلوبُهُم من أكاذيبَ وحبِّ الدنيا وإيثارِها على حبِّ اللّه ورسوله.

دلالة النَّفْي بـ ﴿لَيۡسَ﴾:

عَوْدُ النَّفي إلى كَذِبِهم في انشغالهم، وخُبْثِهم في طلبِ الاستغفار

النَّفيُ بـ ﴿لَيۡسَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ يَصرِف النَّفيَ للماضي، وهذا يعني أنهم لم يستقرَّ الإيمان في قلوبهم يومًا، والظّاهرُ أنَّه راجعٌ إلى الجملتَيْنِ المقولتَيْنِ من الشُّغْلِ، وطلبِ الاسْتغفار؛ لأنَّ قولَهم: شَغَلَتنا، كَذِبٌ، وطَلَبَ الاسْتغفار؛ خُبْثٌ منهم، وإظهارُ أنَّهم مؤمنونَ عاصون[1].

معنَى ﴿فِي﴾ ودلالتها في: ﴿فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾:

عَبَّر بحرف الوعاء كشفًا عن إمعانهم في إخفاء النِّفاق والاجتهاد في التظاهر بالصدق، ولم يُغنِ عنهم هذا الاجتهاد مع اللّه شيئًا، وفيه فضحٌ لدواخلهم.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 488.

الإمعانُ في فضحِهم بالكشف عن حقيقة أمرهم في الشَّتاتِ وعدمِ الاتحاد

غرض الإضافة في ﴿قُلُوبِهِمۡۚ﴾ وعِلَّةُ جمعِ (قلوب) على صيغة جموع الكثرة:

في إضافة القلوب إليهم تحقيرٌ لهم ولما وعَوْه فيها، وعَبَّر بصيغة الجمع الدّالِّ على الكثرة، إشارةً إلى شتات أهوائهم، وتفرُّق وحدتهم إذ تجابذتهم الأموال والشياطين من كل جانب كما قال ربنا: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ [الحشر: 14] وهو مقابلٌ للتعبير بصيغة جمعِ القِلَّةِ في الألسن الموحي بوحدتهم واتحادهم.

وجوبُ الجوابِ لِمَن يخدعُ ويكذِب

دلالة الاستئناف في: ﴿قُلۡ فَمَن﴾:

لَمّا كان فعلُهم من تخلُّفِهم واعْتلالِهم وسؤالِهمُ الاسْتغفارَ، ظنًّا منهم أنَّهم يدفعونَ عن أنفُسِهم بذلك المكروهَ، ويُحصِّلونَ لها المحبوب، وكان كأنَّه قيل: قد عُلِمَ كذبُهم، فماذا يُقال لهم؟ اسْتأنفَ سبحانه الجوابَ بقوله ﴿قُلۡ﴾ - أي: يا محمَّدُ - قل لهم واعظًا - والحوارُ بينهما قائم -: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ الآية[1].

بيانُ أنَّ الخيرَ والشَّرَّ بيدِ الله

معنَى (الفاء) ودلالتُها في قوله: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ﴾:

يَحْتَمِل أن تكون الفاء هنا فصيحة واقعة في جواب شرط مُقدَّر؛ إذ المعنى: إنْ أراد اللّه إهلاككم، فمَنْ ذا الذي يملك دفع الهلاك عنكم أو ردَّ قضاء اللّه فيكم؟ فجاءت الفاء كاشفةً عن هذا التقدير مُفصحةً عنه، إذ لا مُعقِّب لحُكْمِه، ولا رادَّ لمشيئته، ولا مانعَ لما أراده سبحانه[2]. كما يَحتَمِل أن تكون الفاء للسَّببيَّة، حيث كان التعلُّل المذكور منهم سببًا في ورود هذا الاستفهام الذي أُريد به الإنكار عليهم[3].

غرض التعبير بالاستفهام ﴿فَمَن يَمۡلِكُ﴾:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ﴾ خرج عن معناه الحقيقيِّ إلى الإنكار وغرضه النفي، والمعنى: لا يَقْدِر أحدٌ على مَنْع

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 301.
(2) ياقوت، إعراب القرآن: 9/ 4383، والصافي، الجدول: 26/ 250.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 67.

لا قـدرةَ لأحـدٍ على جَلْبِ نَفْعٍ أو دَفْعِ ضَرٍّ أراده الله بعباده

شيء أراده اللّه من جَلْب نفعٍ أو دفع ضَرٍّ، وخرج المعنى في صورة الاستفهام ليجعلَهم في موقف المسؤولين، فيرجعون للبحث عن جواب فلا يجدون سوى الإقرار بقدرة اللّه وحده، والغايةُ من ذلك أن يَنْفُوا حصول ذلك بأنفسهم، وهو خيرٌ من تلقينهم معنى النفي.

بلاغة التعبير بالمجاز المُرسل في ﴿يَمۡلِكُ﴾:

نفيُ القُدرةِ على دفـع الـضـر أو جلب الخير عن كل مخلوق

المِلك في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ﴾، دالٌّ على القدرة والاستطاعة لا مجرَّدَ التصرّف، إذ لا يقدر أحدٌ على تغيير ما أراد اللّه أو أن يردَّ قضاءه، والمِلك في أصله إمساكٌ بقوة، وضبطٌ بإحكام، فهو حفظٌ عن حزم، كما يُقال: (لا أملك رأس البعير)؛ أيْ: لا أستطيع ضبطه وإمساكه، فإذا قيل: لا أملك، كان ذلك نفيًا للاستطاعة وإقرارًا بالعجز، إذ الأصل في الطاقة أنها إمساكٌ ومنع؛ فالمعنى هنا: فمَنْ ذا الذي يستطيع أن يُمسك عنكم شيئًا من قُدرة اللّه أو يمنع وقوع ما أراده بكم من ضرٍّ أو نفع. ففي لفظ ﴿يَمۡلِكُ﴾ مجاز مرسلٌ، حيث استُعمل بمعنى القدرة والاستطاعة بعلاقة السَّببيَّة؛ لأنَّ المِلك الحقيقيَّ يستلزم القدرة والاستطاعة، فالملك هنا: القدرة على منع قضاء اللّه أو تغييره، وهو أمرٌ ممتنع على المخلوقين[1]. فقد استُعمل "المِلك" في معنى "المنع"، وهو ليس معناه الأصلي، وإنما هو لازم من لوازمه، وهو أبلَغُ في نفي أي قدرة للعبد على ردّ أمر اللّه[2].

سرُّ التعبير بالقيد ﴿لَكُم﴾ وغرض تقديمه على المفعول به ﴿شَيۡـًٔا﴾:

اللام في ﴿لَكُم﴾ لام الملك، وقد جاءَ القيدُ ﴿لَكُم﴾ في قولِه: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم﴾ للإشارةِ إلى أنَّ ما هو داخلٌ في حيازتِكم من الأموالِ والأهلين، فلا ينفعُها حضورُكم إن أرادَ اللّه إهلاكَها أو

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 253.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 67.

إهلاكَكم[1]. وقدَّمَه على المفعول به زيادة في التأكيد على عجز أي مخلوق عن نفعكم أو ضَرِّكم.

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها، وسرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالة في ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

إثـارةُ المهابةِ في قلوبِهم ليعودوا إلى رُشدِهم

﴿مِّنَ﴾ هنا ابتدائية؛ والمعنى: لايستطيع أحدٌ مَنْعَ أمرٍ ابتداؤه من اللّه، والتَّعبيرُ بلفظِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ لزرعِ المهابةِ في القلوب، أي: الملكُ الَّذي لا أمرَ لأحدٍ معه؛ لأنَّه لا كُفُؤَ له، ولا يَخْفَى عليه خافيةٌ ممّا تُضمرونَه في قلوبكم وتخالفونَه بألسنتِكم، ولا يملكُ أحدٌ ردَّ أمرِه بالضَّر، أو بالنَّفع[2].

الغرض من تنكير ﴿شَيۡـًٔا﴾:

التعميم في نفي دفع مراد الله

جاءَ التَّعبيرُ بالنَّكِرَةِ ﴿شَيۡـًٔا﴾ في قوله تعالى ﴿فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾، لإفادةِ العموم، أي: لا أحدَ يملِكُ أيَّ شيءٍ مع أمرِ اللّه في إنفاذِ شيءٍ أو منعِه، فلا أمرَ لأحدٍ مع اللّه؛ لأنَّه لا سَميَّ له ولا كُفُؤَ ولا نَظير[3].

بلاغة التعبير بالتتميم في قوله: ﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢا﴾:

الغرض التأكيد عـلى عجـز المخلـوقين عن النـفع أو دفع الـضَّرِّ مع مراد الله

كان يمكن الاكتفاء بنفي أن يملك أحدٌ لهم شيئًا إذا أراد اللّه ضَرَّهم دون زيادة ﴿أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢا﴾؛ إذ المعنى يُفهَم بمجرَّدِ نفي الملك في حال الضَّرّ، لأنَ مَن لا يملك دفع الضر، فهو عن جلب النفع أعجز، إلّا أنَّ هذه الزّيادة جاءت للتتميم والاستيعاب حتى لا يبقى في النفس مُتعلَّقٌ بوهم، أو شبهةٌ بأن النفع قد يُنال من غير اللّه كما أنَّ الضُّر لا يُدفع إلا به، فجاءت العبارة مستوفيةً للمعنيَيْن جميعًا، فنُفيتِ القدرة على جلب النفع كما نُفيت القدرة على دفع الضرّ، تحقيقًا لمعنى الكمال والتَّمام في التَّصرف.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 302.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 301.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 301.

دلالةُ التعبير بالماضي في ﴿أَرَادَ﴾ ودلالة التعبير بـ ﴿إِنْ﴾:

تحقُّق إرادةِ الله على وفقِ علمِه إعطاءً أو مَنْعًا

عَبَّر بـ ﴿إِنْ﴾ الشرطية، وبدأ بالضَّرِّ دلالة على قلة وقوع ذلك من اللّه بخلقه، وجاء التعبير بالفعل الماضي ﴿أَرَادَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًاۢ﴾، للدلالة على تحقُّق إرادته سبحانه ومشيئته، فما شاءه اللّه قد جرى وفق علمه المحيط، فلا مردَّ لقضائه، ولا مُعَقِّبَ لحُكْمِه، فإذا أعطى النفع لعباده، أو أصابهم بضرٍّ، فذلك بإرادة نافذة لا يُعطِّلها شيء.

معنَى الباء ودلالتها في ﴿بِكُمْ﴾:

الباءُ في ﴿بِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ للإلصاقِ أو المصاحَبة؛ أيْ: إن أرادَ إلصاقَ الضُّرِّ بكم، أو جَعْلَه مصاحبًا لكم لا يُفارقُكم.

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿بِكُمْ﴾:

العناية بالتهديد والوعيد قد تكون سبيلًا لرَدّهم إلى ربِّهم

قَدَّمَ النَّظْمُ الكريمُ شِبْهَ الجملة ﴿بِكُمْ﴾ على المفعول به للعناية والاهتمام بتهديد المخاطَبين، ويؤيِّدُه التعبيرُ بكاف الخطاب مما صعّد من شأن التهديد والوعيد لما في الخطاب من المواجهة بالتهديد.

غرض تنكير المفعول به: ﴿ضَرًّا﴾:

التعميم في الضُّرِّ يُضاعف من التحذير

آثرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ضَرًّا﴾ نكِرةً لإفادةِ العموم؛ "أيْ: نوعًا من أنواعِ الضَّررِ عظيمًا أو حقيرًا، فأهْلَكَ الأموالَ والأهلين، وأنتُم مُحتاطون في حفظِهما، فلا ينفعُها حضورُكم أو أهْلَكَكُم أنتم"[1].

معنى ﴿أَوْ﴾ ودلالتُها في ﴿أَوْ أَرَادَ﴾:

مِنَ المخلَّفين مَن ارْتَدَّ ومنهم مَن ثَبَت

﴿أَوْ﴾ للعطف والتقسيم، وقد دلَّ تصنيفُه ﷻ لهم إلى صِنْفَيْن على: أن إرادته قد تعلَّقت بإلحاق الضرِّ ببعضهم، إذ كان فيهم مَنْ زاغ عن الحقِّ وارتدَّ زمن الفتنة، كما تعلَّقت إرادتُه بإنعامِ آخرين،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 301 - 302.

إذْ ثبتوا على الإسلام؛ فكان لهم النفع والنَّجاة. ففي هذا التَّصنيف إشارةٌ إلى سَبْق العلم الإلهي بمصاير العباد، وأنَّ ما أصابهم من ضرٍّ أو نفع، إنما هو بمشيئته النافذة، وقضائه المُبْرَم.

فائدةُ التَّكرارِ اللَّفظيِّ لجملةِ ﴿أَرَادَ بِكُمْ﴾:

الـضُّـرُّ والـنَّـفـعُ منوطٌ بإرادةِ الله وحدَه

تكرَّرَ اللَّفظُ ﴿أَرَادَ بِكُمْ﴾ للدَّلالة - مع التَّأكيد - أنَّ الضُّرَّ والنَّفعَ منوطٌ بإرادةِ اللّه تعالى أي: "الإرادةُ الَّتي جرت على وفقِ علمِه من إعطائِه النَّفعَ إيّاهم، أو إصابتِهم بضرٍّ، وفي هذا الكلامِ توجيهٌ بأنَّ تخلُّفَهم سببٌ في حرمانِهم من فضيلةِ شُهودِ بيعةِ الرِّضوان، وفي حرمانِهم من شهودِ غزوةِ خيبَر بنَهيه عن حضورِهم فيها، وكلُّ ذلك متعلِّقٌ بإرادةِ اللّه تعالى في إيصالِ ما يَضرُّهم أو ما ينفعهُم"[1].

بلاغة التعبير بالطِّباق بين ﴿ضَرًّا﴾ و﴿نَفۡعَۢا﴾:

الله القدير على الشيء وضده

طابَقَ النَّظمُ الكريمُ بين ﴿ضَرًّا﴾ و﴿نَفۡعَۢا﴾ في قوله: ﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢا﴾ بيانًا لجلال القادر على الضِّدَّيْن؛ وهذا أنسب لمقام التهديد والوعيد، ومن حُسن المطابقة جاءا مُنَكَّرَيْن؛ للتَّعميم، تناسبًا مع القدرة والجلال، وبدأ بالضر تناسبًا مع سياق التهديد.

بلاغةُ التَّعبيرِ باللَّفِّ والنَّشرِ في جملةِ إرادةِ الضُّرِّ والنَّفع:

في المضرَّةِ والنَّفعِ نفيٌ لدفعِ المقدَّرِ من خيرٍ وشرّ

في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢا﴾؛ فنُّ اللَّفِّ والنَّشر، إذ كانَ الأصل: فمَن يملكُ لكم من اللّه شيئًا إنْ أرادَ بكم ضَرًّا، ومَنْ يحرمكُمُ النَّفعَ إنْ أرادَ بكم نفعًا؛ لأنَّ مِثْلَ هذا النَّظم يُستعمَلُ في الضُّرّ، وكذلك وردَ في الكتابِ العزيزِ مُطَّردًا، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة: 17]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [المائدة: 41][2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 163.

(2) صافي، الجدول: 13/ 252.

وسرُّ اخْتصاصِه بدفعِ المضَرَّةِ "أوّلاً: أنَّ الملكَ مضافٌ في هذه المواضعِ باللّام، ودفعُ المضرَّةِ نفعٌ يُضافُ للمدفوعِ عنه، وليس كذلك حرمانُ المنفعة، فإنَّه ضررٌ عائدٌ عليه لا له؛ فإذا ظهرَ ذلك فإنَّما انْتظمتِ الآيةُ على هذا الوجه؛ لأنَّ القسمَيْنِ يشتركان في أنَّ كلَّ واحدٍ منهما نفيٌ لدفعِ المقدَّرِ من خيرٍ وشرّ، فلمّا تقارَبا أدْرَجَهما في عبارةٍ واحدة، وخصَّ عبارةَ دفعِ الضَّرّ؛ لأنَّه هو المتوقَّعُ لهؤلاء، إذِ الآيةُ في سياقِ التَّهديدِ أو الوعيدِ الشَّديد، وهي نظيرُ قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: 17]، فإنَّ العصمةَ تكونُ من السّوء لا من الرَّحمة"(1).

توجيهُ المتُشابه اللَّفظيّ بين هذه الآية وآية المائدة:

بـيـان عـمـوم الـخـطـاب هنا للناس أجمعين وتقييده في آية الفتح بالمُخَلَّفينَ

من لطيف المُتشابه اللَّفظي بين قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ زيادة لفظة ﴿لَكُم﴾ هنا في سورة الفتح على ما في سورة المائدة وهو قوله تعالى: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: 17]: ففي آية المائدة عمومٌ يستدعي الإطلاقَ وعدمَ التَّقييد بالمخاطَبين، وفي سورة الفتح خصوصٌ يستدعي التَّخصيصَ بآية الخِطاب للمواجَهين به، وذلك أنَّ الإخبار في سورة المائدة إنَّما هو للنَّصارى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 17]، وهذا حكاية قولهم، ثمَّ أعلَمَ تعالى بقدرته وقهره للكلِّ فقال: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: 17] أيْ: (فمَن يدافع مراده في خلقه إن أراد هلاكهم)، ثمَّ ذكر سبحانه خَلْقَهُ المقهورين من سكّان الأرض فبدأ بالمسيح وأمِّه ﵉، ثمَّ قال: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 17] فعَمَّ الكُلَّ، فلم يكن ليُناسب هذا العموم أداة خِطابٍ تَخُصُّ.

أمّا آية الفتح فقبْلَها إخباره سُبحانه عن المُتَخَلِّفينَ عن غزوة الحديبيَةِ فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 493.

﴿أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾، ثُمَّ أعلَمَ تعالى نبيَّه ﷺ والمؤمنين بأنَّ قول المُخَلَّفين قولٌ بألسنتهم غيرُ مُطابق لما في قلوبهم فَقال: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾؛ أيْ: قلْ - يا محمَّد - مَن يملك لكم مَعْشَرَ المُخَلَّفينَ من اللّه شيئًا؟ أيْ: من يدفعُ عنكم الضُّرَّ إن أراده بكم، أو يوصِلُ إليكمُ النَّفع إنْ مَنَعَهُ عنكم؟ فالإخبار إنَّما هو عنهم وتقدير النَّفع والضُّر مرفوعًا أو لاحقًا خاصٌّ بهم لم يُرِدْ بذلك غَيْرَهم؛ فَوَرَدَ بخطاب المواجهة فقال: ﴿لَكُم﴾ ولم يكن بُدٌّ من ذلك ليُعلم أنَّ الإخبار عنهم والخطاب بما بعدُ لهم؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسب ويَجِبُ ولا يُتَصَوَّر فيه العَكْسُ[1].

معنى ﴿بَلۡ﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا﴾:

إبطالُ اعْتذارِهم الكاذب

حرفُ ﴿بَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا﴾ "إضرابٌ لإبطالِ قولِهم: ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾، وبه يزدادُ مضمونُ قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ تقريرًا؛ لأنَّه يتضمَّنُ إبطالًا لعُذرِهم، ومن معنَى الإبطالِ يحصُلُ بيانُ الإجمالِ الَّذي في قولِه تعالى: ﴿كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا﴾ إذ يفيدُ أنَّه خبرٌ بكذِبِهم في الاعْتذار، فلذلك أبْطلَ اعْتذارَهم بحرفِ الإبطال"[2]، فهو إضرابٌ عمّا زعموه، وإبطالٌ لمقالتهم بعد كشف فسادها على فرض التسليم بصدقها؛ أيْ: ليس الأمر على ما يدَّعون؛ بل إنَّ اللّه تعالى كان خبيرًا مُحيطًا بجميع الأعمال، لا تخفى عليه خافيةٌ، ومن جملتها تخلُّفكم، وما انطوت عليه نفوسكم من الدوافع الخَفيَّة لذلك[3].

دلالةُ التعبير بفعل ﴿كَانَ﴾ الماضي في ﴿بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ﴾:

تهديدُ المخلَّفين بعلمِ اللّه حقيقةَ كذِبِهم

في اسْتعمالِ فعلِ الكينونةِ الماضي ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى ﴿كَانَ

(1) الغرناطيُّ، ملاكُ التّأويل: 1/ 125.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 158 - 159، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 163 - 164.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 107، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 391.

﴿ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ تهديدٌ ووعيدٌ، فاللّه ﷻ مُطَّلِعٌ على ما في قلوبِهم من إنكارِ ما يقولونَه بألسنتِهم كذِبًا وزورًا[1]. وقد يفيد فعلُ الكينونة الماضي توكيدَ التهديد وتقويتَه.

سرُّ التعبير بالاسم الجليل في: ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾:

زَرْعُ المهابةِ في قلوبِ المخلَّفين بوعيدِهم على كذِبهم

أظهرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لزَرْعِ المهابةِ في قلوبِهم؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تهديدٍ ووعيد، فاللّه ﷻ هو المحيطُ أزَلًا وأبَدًا بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا، ومن ذلك ما انْطوت عليه قلوبُكم وما كان ظاهرًا على ألسنتِكم وأعمالِكم[2].

معنَى (الباء) ودلالتُها في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

إحاطةُ عِلمِ الله بجميعِ أعمالِ عباده

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ للملابَسةِ أو المصاحَبة؛ أي: علمُ اللّه مُلابسٌ ومُحيطٌ بكلِّ أعمالِكم، لا يفوتُه شيءٌ منها، وخبيرٌ بجميعِ ما تعملونَه من الأعمالِ الَّتي من جُملتِها تخلُّفُكم شكًّا ونفاقًا في قلوبِكم[3].

دلالةُ استعمالِ (ما) بين الموصوليَّةِ والمصدريَّة:

علمُ الله بعدمِ صدقِهم وسوءِ اعْتقادهم

(ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ اسْمُ موصولٌ بمعنَى الَّذي، أي: بالَّذي تعملون، أو مصدريَّة، أي: بعملِكم.

فـ (ما) في كلا المعنيَيْن تفيدُ علمَ اللّه بعدمِ صدقِهم في الَّذي يعملونَه، أو في عملِهم، أي: في اعْتقادهم، أي: ما اعْتقدوه في قلوبِهم من الشَّكِّ والنِّفاق، ممّا هو من أسبابِ تخلُّفِهم عن نفيرِ الرَّسولِ ﷺ، وكثيرًا ما سمَّى القرآنُ الاعْتقادَ عملًا[4]. وسِرُّ اصطفاء (ما) العموم لكونها أعمَّ الموصولات، وأدْخَلَها في الإبهام.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 164.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 302.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 302، والشّوكاني، فتح القدير: 5/ 64.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 164.

اسْـتـمـرارُ عِلْـمِ الـلّـه بـجـمـيـع أعمالِهم ظاهرةً وباطنة

دلالة التعبير بالفعل المضارع ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ مُسنَدًا لواوِ الجماعة:

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ الفعلِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ مضارعًا مُسنَدًا لواوِ الجماعة، للإشارةِ إلى أنه مهما وقع منهم من عمل أو تجدُّدٍ من تَخَلُّفٍ واستمرَّ من اعتذار؛ فإنَّ اللّه محيط بأعمالهم ومقاصدهم فيها إحاطةً تامَّةً، لا يَخفى عليه شيءٌ منها.

الاهْـتـمـامُ بذِكْرِ أعـمـالِـهـمُ الـقـائـمـةِ على الشَّكِّ والنِّفاق

الغرضُ من تقديم شِبهِ الجُملة ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على الخبر:

جاء تقديمُ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على مُتعلَّقِهِ ﴿خَبِيرَۢا﴾ "لقصدِ الاهتمام بذكرِ عملِهم هذا وبيانِ سوئه، حيث أقْصاهم عنِ الذَّهابِ مع رسول اللّه ﷺ لأداءِ العُمرةِ وما حدثَ مع أصحابه من بيعةِ الرِّضوان"[1].

عـمـومُ عـلـمِـه تـعـالى ببواطنِ الصُّدور

الغرض من تنكير الخبر ﴿خَبِيرَۢا﴾ وصَوْغِه على زِنَةِ المبالغة:

جاء تنكيرُ الخبرِ في قوله تعالى: ﴿خَبِيرَۢا﴾ لبيانِ عموم علمِه تعالى ببواطنِ الأمور، أي: يعلمُ اللّه بواطنَ أموركم وجميعَ ما تُخفونَه ممّا لا تريدون إظهارَه، ممّا في قلوبكم من شكٍّ ونفاقٍ دفعَكم للتَّخلُّفِ عن رسول اللّه ﷺ، كما يعلمُ أنَّ ما تقولونَه بألسنتِكم كذبٌ وبُهتان[2]. وجاء صَوْغُ ﴿خَبِيرَۢا﴾ على زِنةِ المبالغة للدلالة على إحاطة علم اللّه التامّ والدقيق بجميع الأعمال، ظاهرِها وباطِنِها، صغيرِها وكبيرِها، خفيِّها وجَليِّها، والَّتي من جُملتِها تخلُّفُكم وما هو من مباديه، إذِ المقامُ مقامُ تهديدٍ ووعيد[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 164.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 302.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 159، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 164.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾

[الفتح: 12]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا أضرب النَّظم الكريم عن زعمِهم بأنَّ كذبهم يخفى على اللّٰه تعالى، وجاء هذا الإضراب بأمرٍ عامٍّ شامل في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ مُقدِّمًا ذلك لكونه أبْلَغَ في الزَّجر، وأقْطَعَ للعُذر؛ أتبعَ هذا الإضرابَ العامَّ بإضرابٍ آخرَ خاصٍّ، فَسَفَّهَ رأيَهم، وأبطلَ ظنَّهم، فقال: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾؛ أيْ: لم يكن امتناعُكم إلّا مبنيًّا على سوءِ ظنٍّ باللّٰه ورسولِه، وظنٍّ بالهزيمةِ، ولكن خابَ ظنُّكم، وأصابَكم بسببه الهَلاكُ والخُسْرانُ.[1]

الكذبُ على الله لا يخفى لأنه سبحانه بكلِّ ما في القلوب عليمٌ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنقَلِبَ﴾: (قلب) أصلانِ صحيحان: أحدُهما يدُلُّ على خالصِ الشَّيءِ وشَريفِه، والآخَرُ على ردِّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهة. والأصلُ الآخرُ - وهو ما يناسبُ السّياق - قَلَبْتُ الشَّيءَ: كَبَبْتُه، وقلَّبتُه بيدي تقليبًا، وقولُهم: ما به قَلَبةٌ، قالوا: معناه ليست به عِلَّةٌ يُقْلَبُ لها فيُنظَرُ إليه. وقَلْبُ الشَّيءِ: تصريفُه وصَرْفُه عن وجهٍ إلى وجهٍ؛ كَقَلْبِ الثَّوب. وقَلَبَ الإنسانَ؛ أيْ: صَرَفَهُ عن طريقتِه، قال تعالى ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [العنكبوت: 21]. والانْقلابُ: الانْصراف، قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأعراف: 125][2]. ومعنى ﴿يَنقَلِبَ﴾ في الآية الكريمة: يرجع.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 302 - 304.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (قلب).

2) ﴿وَزُيِّنَ﴾: (زين): أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على حُسْنِ الشَّيءِ وتحسينِه، فالزَّيْنُ نقيضُ الشَّيْن، يُقال: زَيَّنْتُ الشَّيءَ تزيينًا، وأَزْيَنَتِ الأرضُ وازَّيَّنَت وازْدانَت إذا حَسَّنَها عُشْبُها. والزِّينةُ الحقيقيَّةُ: ما لا يَشينُ الإنسانَ في شيءٍ من أحوالِه لا في الدُّنيا، ولا في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 32]، وزَيَّنَه إذا أظهرَ حُسْنَه، إمّا بالفعلِ، أو بالقول، قال تعالى: ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: 108]. وقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [فصّلت: 12][1]. وقولُه تعالى: ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾؛ أيْ: حُسِّنَ.

3) ﴿بُورًا﴾: (بور) أصلان: أحدُهما هلاكُ الشَّيءِ وما يشبِهُه من تعطُّلِه وخُلوِّه، والآخَرُ ابْتلاءُ الشَّيءِ وامتحانُه. والَّذي يعنينا في السّياق الأصلُ الأوَّل، والبَوارُ: الهلاك، تقول: باروا وهو بورٌ؛ أي: ضالّون هَلْكَى، وأبارَهم فلانٌ، وقد يُقالُ للواحدِ والجميعِ والنِّساءِ والذُّكور: بور. والبورُ: الرَّجلُ الفاسدُ الَّذي لا خيرَ فيه، يقالُ: إنَّه لَفي حورٍ وبورٍ؛ أيْ: ضَيْعةٍ. والبائرُ: الكاسدُ، وأرضٌ بَوارٌ: ليس فيها زَرْعٌ[2]. والبورُ في كلامِ العرب: لا شيء، يقال: أصبحت أعمالُهم بورًا، ومساكنُهم قُبورًا[3]. ومعنى ﴿بُورًا﴾ في الآية: هَلْكَى.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ضِعافُ الإيمانِ لا يظنّونَ بالمؤمنينَ خَيْرًا

يُخاطبُ الحقُّ ﷻ المُخلَّفين من الأعراب موبِّخًا إيّاهم على سوء ظنِّهم، فيقول: لقد زعمتم في أنفسكم أنَّ رسولَ اللّٰه ومن معه من المؤمنين يُقتلون، فلا ناجٍ منهم ولا مُخْبِرٍ، وما كان هذا إلا ظنًّا سَيِّئًا حَمَلَكم عليه فسادُ قلوبكم، وخُبث سرائركم، فخاب ظنُّكم، وباءَ سعيُكم بالخُسران، وكنتم قومًا هَلْكَى لا تَصلُحونَ لشيءٍ من خَيْرٍ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (زين).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بور).
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 66.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم: 4/ 170.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

وجهُ تَكْرارِ الإضرابِ بـ ﴿بَلۡ﴾:

زيادةُ تحقيقِ معنَى علم الله بعملهم، فالله عليمٌ بظنِّكمُ السّوء

أُعيدَ حرفُ الإبطالِ زيادةً لتحقيقِ معنَى البدليَّةِ من جملةِ ﴿بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا﴾، كما يُكرَّرُ العاملُ في المبدَلِ منه[1]. فهذا إضرابٌ ثانٍ جاء بدلًا مما تقدَّمه من بيان حالكم، إذ لم تكتفوا بالظنِّ السيِّئ؛ بل أضمرتُم في نفوسكم موافقةَ أهل مكة وأظهرتم لهم الولاء والمُمالأةَ، وكنتم في الباطن على ما هم عليه من التَّربُّص بالمؤمنين. ثم لم يقتصر الأمر على ذلك، بل زُيِّن هذا الظنُّ الباطلُ في قلوبكم، وزيَّنه الشيطان لكم، حتى استقرَّ فيها ورسَخ، فخالَطَ أوهامَكم، وساقَكُم إلى ما أنتم عليه من التَّثاقُلِ عن نصرة دين الله[2].

دلالةُ التعبير بالماضي (ظن) في: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ﴾ وسِرُّ إسنادِه لضمير الجمع:

فَضْحُهم والتشنيعُ عليهم

الظَّنُّ هنا بمعنى اليقين، وقد جاء التعبير به ماضيًا تحقيقًا لوقوعه منهم، وأُسند الفعل لضمير الجمع المخاطَب، بيانًا لاجتماعهم على الفساد ومواجهتهم به فضحًا لهم وتشنيعًا عليهم.

سرّ التَّعبير بأنْ المخفَّفة ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ﴾:

المصدر المُؤَوَّل من ﴿أَن﴾ وما بعدها سَدَّ مَسَدَّ مفعولَيْ (ظَنَّ)؛ أيْ: (بل ظننتُم عدمَ انْقلابِ الرَّسولِ والمؤمنين إلى أهليهم)، وجاءَ هذا التَّعبيرُ تأكيدًا لعلمِ اللّه لظنِّهم ذاك[3].

دلالة النَّفي بـ ﴿لَّن﴾: ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ﴾ وسِرُّ التَّقييد بالظَّرف ﴿أَبَدٗا﴾:

التَّأكيد على سوء ظنِّهم يُغلِّظ العقوبة عليهم

آثَر النظمُ الكريم النَّفْيَ بـ ﴿لَّن﴾ على سواها لما فيها من تأكيد النَّفيِ، بيانًا لسوء ظَنِّهم بالرسول ﷺ والمؤمنين معه، وجاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 164.
(2) المظهري، التّفسير المظهري: 9/ 20، والضمدي، الفرات النمير: 3/ 190.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 164.

قولُه: ﴿أَبَدًا﴾ لتأكيدِ النَّفي بـ ﴿لَّن﴾؛ لأنَّ ظنَّهم كان قويًّا في نفي الانقلاب[1]؛ أي: تأكُّدُ ظنِّهم على زعمهم[2].

دلالةُ التعبير بالمضارع ﴿يَنقَلِبَ﴾:

استـمرارُ ظنِّ المُخلَّفينَ بعدمِ رُجوعِ الرَّسولِ والمؤمنين إلى المدينة

ذكرَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ ﴿يَنقَلِبَ﴾ مضارعًا لتجدُّدِ ظنِّ المُخَلَّفين استمرارَ عدمِ انْقلابِ الرَّسولِ وأصحابه إلى المدينة أحياءً، وقطعِهم به، مع عدمِ الدّليل عليه إلّا ما اسْتقرّ في قلوبِهم من الشَّكِّ والنِّفاق.

دلالةُ التعريف بالمُسند إليه مُعرَّفًا باللّام ﴿ٱلرَّسُولُ﴾:

الرَّسولُ المُكلَّفُ بأداءِ رسالةِ ربِّه

اللّامُ للعهد؛ فالرَّسولُ هو المعهودُ له بأداء الرِّسالةِ المكلَّفِ بها من اللّه بوحيه ﷺ، ولمّا كان شأنُ الرَّسولِ من الانْبعاثِ أداءَ الرِّسالةِ وبلوغَ الغايةِ المُرسَلِ من أجلِها، كما جاء تعريفُ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ للدَّلالةِ إلى أنَّ من أرسلَ رسولًا إلى شيءٍ، وهو لا يقدِرُ على نصرِه ليبلِّغَ ذلك الشَّيءَ إلى الغايةِ الَّتي أرادَها منه؛ كان عاجزًا عمّا يُريد، والمُرسِلُ هو اللّه القادر على كل شيء؛ ففي التعريف تهديد لهم.

دلالة عطفِ المؤمنين بالواو: ﴿ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ودلالة التعبير بالاسم:

تعظيمُ المؤمنين بوصفِ الإيمان

عطفَ النظم الكريم (المؤمنين) بالواوِ على ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ تعظيمًا للمؤمنينَ التّابعينَ لرسولِ اللّه ﷺ معبِّرًا بما يحقُّ لهم من الوصفِ المفهم للرُّسوخ[3]. كما أن في عطفهم على الرسول تشريفًا لهم وتعظيمًا لِقَدْرهم، فمكانُتهم رضوان اللّه عليهم تابعة لمكانته ﷺ.

وفي التَّعبير بالاسميَّة عن أهل الايمان بقوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ تنويهٌ بشأنهم وتشريفٌ لمقامهم، إذ جاء التَّعبير بالاسم المُفيد للثبات والرُّسوخ، دلالةً على رسوخ الإيمان في قلوبهم؛ فناسب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 164.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 302.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 303.

السّياقُ المقاميُّ هذا الوصف الإيمانيَّ الثابت؛ ليبيّن أنهم أهلُ يقينٍ ونُصرةٍ[1].

دلالةُ التعبيرِ بجمعِ القِلَّة ﴿أَهْلِيهِمْ﴾ مُضافًا إلى الضمير العائد على الرسول والمؤمنين:

النَّظمُ يفضح معتقَد المُخَلَّفين المنافقين في الاستخفاف بالمؤمنين

دلّ ذِكْر (الأهلين) بجمع القلة هنا جمعَ (الأهلِ) مع عودِ الضَّميرِ في قولِه: ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ﴾ على ما كان في قلوبِ المخلَّفين من الاسْتهانةِ بالمؤمنين[2]. ففي ذلك تأكيد لنفي انقلاب الرسول ﷺ والمؤمنين إلى أهليهم، وذلك لما في قلوبِ المُخلَّفين من عظَمةِ المشركين وضَعفِ المؤمنين، فحَمَلَهم ذلك على أن قالوا عنهم: ما هم في قريشٍ إلّا أكَلَةُ رأس[3] - كنايةً عن القِلَّةِ؛ أيْ: يُشبعُهم رأسُ بعيرٍ - لا يَرْجِعون؛ أيْ: هم قليلٌ بالنِّسبة لقريشٍ والأحابيشِ وكنانة، ومَنْ في حِلْفِهم[4].

دلالة العطف بالواو في ﴿وَزُيِّنَ﴾:

اجْتماعُ التّزيينِ مع الظَّنِّ ينتجُ قرارًا فاسدًا

لَمّا كان الإنسانُ قد يظنُّ ما لا يجبُ، وتلوحُ في ذهنِه صورةُ ذاكَ الظَّنِّ ثمَّ يعتريه التَّزيينُ وينضمُّ إليه ليرتكزَ في عقلِه، فيُحدثَ هاجسًا وخوفًا يسوقُه إلى قرارٍ خاطئ وعملٍ شَيْن. وهكذا كان شأنُ عقولِ المخلَّفين الضَّعيفة، عندما اعْتمدَت على ظنٍّ وتزيينٍ واهيَيْنِ ليس لهما أيُّ دليل[5].

بلاغةُ التعبير بالكنايةِ في ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾:

قَبولُ المخلَّفين لفرضيّةِ عدمِ رجوعِ الرَّسولِ ﷺ سالِمًا

جاءَ النَّظمُ الكريمُ بفعلِ التَّزيينِ ﴿وَزُيِّنَ﴾ "كنايةً عن قَبولِ ذلك، وإنَّما جُعِلَ ذلك الظَّنُّ مُزَيَّنًا في اعْتقادهم؛ لأنَّهم لم يفرضوا غيرَه من الاحْتمال، وهو أنْ يرجعَ الرَّسولُ ﷺ سالمًا. وهكذا شأنُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 303.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 303.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 303.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 164.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 303.

العقولِ الواهيةِ والنُّفوسِ الهاويةِ أنْ لا تأخذَ من الصّوَرِ الَّتي تتصوَّرُ بها الحوادثُ إلّا الصّورةَ الَّتي تلوحُ لها في باديء الرَّأي. وإنَّما تلوحُ لها أوَّلَ شيءٍ؛ لأنَّها الصّورةُ المحبوبة، ثمَّ يعتريها التَّزيينُ في العقل، فتَلْهو عن فَرْضِ غيرِها فلا تستعدُّ لِحدْثانه"[1].

الغرض من التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الإشـــــارةُ إلى بُعدِ ما زُيِّـنَ في قلوبهم من قُبحِ ظنِّهم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ باسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ للإشارةِ إلى الأمرِ القبيحِ الَّذي ظنُّوهُ في قلوبِهم في عدمِ رجوعِ الرَّسولِ ﷺ والمؤمنينَ سالمِينَ إلى المدينة؛ والإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ فيها من البُعدِ ما فيها، أي: بُعْدِ ما هم فيه من ظنِّ السّوءِ[2].

معنى ﴿فِي﴾: ودلالتها في قوله: ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾:

مهما اجتهد المنافقون في إخفاء سوءِ ظَنِّهم بالرسول والمؤمنين فإنَّ الله فاضِحُهم

عبّر النظم الكريم بحرف الوعاء ﴿فِي﴾ داخلًا على القلوب، مع أن الظَّنَّ محلُّه القلب، إمعانًا في فضحهم، دليلًا على اجتهادهم اجتهادًا بالغًا في إخفاء هذا الظّنِّ لِقُبْحِه. وفي ذلك أيضًا بيانٌ لهم عن إحاطة علمه سبحانه بما هو أخفى من السرِّ، وفيه تهديد خفيٌّ.

توجيهُ العطفِ بالواو، ودلالة التعبير بالظن مرة أخرى:

مَن بنى كلَّ فكره على ظنٍّ؛ كان أكثرَ الناس سفاهةً

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَظَنَنتُمْ﴾ للعطف، وهي للتَّصريحِ بعمومِ ظنِّهم، أي: ظننتُم بالأمرِ القبيحِ فيما زُيِّنَ لكم وبغيرِه ممّا يترتَّبُ عليه من إظهارِ الكفرِ وما يتفرَّعُ منه، فكان مبالغةً منهم في الظَّنِّ بسوءٍ يُحيط بالمؤمنين، فلا يَدَعَ شيئًا ممّا يُكرَه إلّا أصابَهم به[3].

وجاء الفعل (ظننتم) مرة أخرى بصيغة الماضي، زيادة في التأكيد على قبح ما انطوت عليه صدورهم، وعَبَّر بالظَّنِّ في الموضعين، مع أن المراد به اليقين، طعنًا عليهم، وتسفيهًا لهم؛ فكلُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 164.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 303.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 303.

شؤونهم مبناها الظن، فهم على باطل. وعبَّر النَّظمُ الكريم بالفعل الماضي (ظننتُم) مُسنَدًا للضمير المجموع؛ للإشارةِ إلى تحقُّقِ ظنَّهم جميعِهم دون استثناء، حيث لاحت أمامَهم صورةٌ واحدةٌ لا غير، وهي عدمُ رجوعِ الرَّسولِ ﷺ سالِمًا إلى المدينة(1).

دلالةُ التعبير بالمفعول المُطلَقِ مُضافًا:

تقبيحُ ظَنِّهم، وبيانُ أنه كله سوء

جاءَ المفعولُ المطلقُ مضافًا في قوله تعالى: ﴿وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ "ظنَّ السَّوءِ أعمُّ من ظنِّهم أنْ لا يرجعَ الرَّسولُ ﷺ والمؤمنون؛ أي: ظننتُم ظَنَّ السَّوءِ بالدّين وبمَن بقيَ من الموقنين؛ لأنَّهم جزموا باستئصالِ أهلِ الحُدَيْبية، وأنَّ المشركين ينتصرون، ثمَّ يَغزونَ المدينةَ بمن ينضمُّ إليهم من القبائل، فيُسقَطُ في أيدي المؤمنين، ويرتدّون عن الدّين، فذلك ظنُّ السَّوْءِ"(2). وتعريف ﴿ٱلسَّوۡءِ﴾ باللام الدالة على الجنس بيان أنه ظن شمل السوءَ كله، وفيه كذلك "التَّصريحُ به على وجهٍ يعمُّ غيرَه ممّا يترتَّب عليه من إظهارِ الكفر، وما يتفرَّعُ منه ظنُّ السَّوءِ الَّذي لم يدَعْ شيئًا ممّا يُكرَهُ غايةَ الكراهةِ إلّا أحاطَ به"(3).

دلالةُ التعبير بالجملة الاسميَّة ﴿وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾:

التأكيد على عاقبة ظن السوء وشنيع أثره

في التعبير بالجملة الاسميَّة دلالة على ثبوت ذلك العقاب واستمراره؛ كما هي سُنَّة العربية في دلالة التعبير بالجملة الاسميَّة وفي التعبير بـ(كان) إشارة إلى ثبوت ذلك في علم اللّه وتقديره، وكل ما يكون في علمه سبحانه فهو مُحقَّق الوقوع، وأنَّ الأمر فقط هو انكشافٌ؛ ففيه "دَلالةٌ على انْكشافِ أمرِ ﴿ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾ الَّذي ظَنّوه بالرَّسولِ ﷺ وبالمؤمنين، الَّذي أدَّى لانْكشافِ أثَرِه، أي: وكنتُم في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 164.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 164.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 303.

واقعِ الحال - بالنَّظرِ إلى جمعِكم من حيث هو جمعٌ في علمِنا قبلَ ذلك، بما جَبلْناكم عليه، وعلى ما كشفَه الحالُ عنه مَنْ له بصيرةٌ - قومًا بورًا"[1].

سِرُّ وصفِ القومِ بالبور مصدرًا مُنكَّرًا ﴿بُورًا﴾:

عمومُ بَوارِهم وملازمةُ صفتِه للمخلَّفين

دلَّ وصفُ القومِ بالبورِ في قولِه تعالى: ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ على "غايةِ الهلاكِ والكَسادِ والفسادِ وعدمِ الخير؛ لأنَّكم جُبلتُم على ذلك الفساد، فلا انْفكاكَ لهم عنه، وهذا بالنَّظرِ إلى الجميع من حيث هو جمعٌ لا بالنِّسبةِ إلى كلِّ فردٍ، فإنَّه قد أخْلصَ منهم بعدَ ذلك كثير، وثَبتوا فلم يرتدّوا"[2].وقد جاءَ التَّنكيرُ والمصدريَّةُ في قوله تعالى: ﴿بُورًا﴾ للدلالة على عموم بَوارِهم في كُلِّ فسادٍ مارسوه، وكذِبٍ قالوه، وكلِّ شكٍّ ونفاقٍ في قلوبِهم أضمروه، فأصابهمُ الهلاكُ والكسادُ والخُسران[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 303.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 304.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 304.

﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ١٣﴾

[الفتح: 13]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

كتب الله الهلاكَ على المنافقين، والسَّعيرَ للكافرين

لمّا كان المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ أنَّ ذلك إنَّما كان بسبب كفرهم وعدم إيمانهم؛ جاء العطف على هذا التقدير بقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا﴾، ليعمَّ الحكمَ ويشملَ المخلّفين وغيرهم(1). ويَحْتَمِلُ وجهًا آخَرَ في مُناسبة الآيتين، وهو أنَّ قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ لما تضمّن ذمّهم وبيان حالهم في سابق أمرهم، أتبعه الوعيد الصَّريح لهم، تنبيهًا إلى أنَّكم - بما أنتم عليه - من جملة من أُعدّت لهم النّار، فأنتم ممن شملهم هذا التَّهديد والوعيد الإلهي(2)، وذَكَرَ ما يَدُلُّ عَلَى أنَّهُم لَيْسوا بِمُؤْمِنِينَ فَقالَ: ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(3).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾: (عتد) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على حضورٍ وقُرْب، تقولُ: عَتُدَ الشَّيءُ، وهو يَعْتُدُ عَتادًا، فهو عَتيدٌ حاضرٌ، وقد أعتَدْناه، وهيَّأناهُ لأمرٍ إنْ حَزَب، ويقولون: هذا الفَرَسُ عَتَدٌ؛ أي: مُعَدٌّ متى شاءَ صاحبُه ركبَه(4). وقولُه تعالى: ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾؛ أيْ: أعدَدْنا.

2) ﴿سَعِيرٗا﴾: (سعر) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على اشْتعالِ الشَّيءِ واتِّقادِهِ وارْتفاعِه، والسَّعيرُ: سَعيرُ النّار، واسْتعارُها: توقُّدُها، والسِعْرُ: التهابُ النّار، واسْتَعَرَ الحربُ واللُّصوص، نحو: اشْتَعَل،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 304.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 131.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 489.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عتد).

وناقةٌ مَسْعورةٌ، نحو: موقدَةٌ ومُهيَّجَةٌ، والسُّعارُ: حَرُّ النّار، ومنه قولُه تعالى هنا في الآية.

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَنْ أعرضَ عن الإيمانِ يُعاقبُ يومَ القيامةِ بالنّيران

يقولُ ﷻ على سَنَنِ التهديدِ والزَّجرِ لهؤلاءِ المُنافقينَ من الأعرابِ، مُبيِّنًا سوءَ عاقبةِ الكفرِ والجحود: ومن لم يُؤمِنْ باللّه منكم ومن سواكم، ولم يُقرّوا بنبوَّة رسولِه ﷺ فقد هيأنا لهؤلاءِ الكافرين نارًا مُسعَّرةً، قد أُضرمت، وأُعدَّت لتكون لهم مأوى وسكنًا.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ﴾:

ارتكاسُهم في الشبهات قد يُفضي بهم إلى الكفر

الواو للاستئناف؛ فهو كلامٌ مبتَدأٌ من جهتِه تعالى غيرُ داخلٍ في الكلامِ الملقَّن، مقرِّرٌ لبَوارِهم، ومبيِّنٌ لكيفيَّتِه؛ أيْ: ومَن لم يؤمن بهما كدأْبِ هؤلاءِ المخلَّفين[1].

ويجوز أن تكون جملةُ قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ اعتراضًا واردًا في ثنايا القول المأمور به الوارد في صدر الآيات من قوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقد جاء هذا الاعتراض على سبيل التَّحذير، والتَّخويف من مَغبَّةِ ما هم عليه من التَّخلُّف عن رسول اللّه ﷺ، وللتَّنبيه على أنَّ ما يَرْتَكِسون فيه من الشُّبهات والعِلَلِ الكاذبة، وما يُبدونه من المعاذير الواهية، قد يُفضي بهم إلى الكفر الصُّراح عياذًا باللّه.

ويَحْتَمِلُ أن تكون الواو عطفًا على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ إلى آخره؛ فإنّه تعالى لمّا أشار إلى أنّ الغرض الأصليّ من إرساله ﷺ الإيمانُ باللّه ورسوله، وتعظيمُ دينه، والتَّنزيهُ عمّا لا يليق - مَدَحَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 159.

المؤمنين أوّلًا، ثمَّ أتبعَهُ بذمّ المنافقين من المُخلَّفين، ثمّ بذمّ الكافرين عمومًا جهارًا؛ وهو ظاهرُ عبارة البِقاعيِّ[1]، فالواو "عاطفةٌ لتقرير بوارهم وبيان كيفيَّته"[2].

الغرض من التَّعبيرِ بجملة الشرط ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ﴾:

تأكيدُ عدمِ إيمانِ المخلَّفين في حقيقةِ الحال، واستحقاقهم العذاب إن ماتوا على ذلك

الغرضُ من التعبير بأسلوب الشرط إرساءُ القواعد الثابتة القائمة على تحقق الجزاء، إذا تحقق الشرط، فكلُّ مَنْ لم يؤمن، فجزاؤه جهنَّم وبئس المصير، وقد حُذِفَ جواب الشرط في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ودلّ عليه ما بعده من قوله: ﴿فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا﴾، والتقدير: ومَنْ لم يُصدِّق بما أخبر اللّه به ويُقرُّ بصدق ما جاء به رسوله من الحق من عنده كهؤلاء المُخَلَّفين؛ فهو كافر مُستوجب لسُخط اللّه و عذابه، لأنّا أعْتَدْنا وهَيَّأنا للكافرين نارًا ملتهبة[3].

دلالة الجزمِ بـ ﴿لَّمۡ﴾:

تأكيدُ كفرِ مَن لم يجمعْ بين الإيمانِ بالله والإيمانِ برسولِه

لَمّا كانت ﴿لَّمۡ﴾ حَرْفَ نفيٍ وجَزْمٍ وقَلْب، فإنَّها أفادت في سياقِها هذه المعاني جميعَها، فقدْ نفَت إيمانَهم وجزمت بعدمِه تأكيدًا لكفرهم، وقلبت ما أظهروه بألسنتِهمُ الكاذبةِ من الأعذارِ الواهية، بأنَّه مخالفٌ لما هو في قلوبِهم من الشَّكِّ والنِّفاق، فهي تفيدُ التَّأكيدَ والمبالغةَ في كفرِ مَنْ لم يجمعْ بين الإيمانِ باللّه والإيمانِ برسولِه ﷺ.

معنَى الباءِ ودلالتُها في ﴿بِٱللَّهِ﴾ سرُّ التَّصريحِ بلفظِ الجلالة:

زيادةُ تعظيمِه تعالى في مقامِ الوعيد

الباء في ﴿بِٱللَّهِ﴾ باءُ الإلصاق، وهو أشهر معانيها والمصاحب لها دائمًا، لأن الإيمان إذا لم يكن مُلْصَقًا باللّه وحده، فهو مردودٌ على صاحبه، وقد صرَّحَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى:

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 304.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 239.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 251.

﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ تعبيرًا بالاسْمِ الأعظم، للزّيادةِ في تعظيمِه ﷻ، وزَرْعِ المهابةِ في القلوب، فإنَّ السِّياقَ في مقامِ التَّهديدِ والوعيدِ في إعدادِ النّارِ للكافرين[1]، فقد ظَنّوا أنَّ اللّه يُخلِفُ وعدَه[2]. وفيه أيضًا تفظيعٌ لشأنِ مَن لم يؤمن باللّه.

دلالة العطفِ بالواوِ في ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾:

كما لا يُظَنُّ بالله خُلْفًا، لا يُظَنُّ برسولِه كذِبًا

لَمّا سبقَ في قوله تعالى: ﴿وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾ أنَّ ذلك ظنُّهم بأنَّ "اللّه يُخلِفُ وعدَه، أو ظنُّهم بأنَّ الرَّسولَ كاذب، جاء بما فيه تهديدٌ ووعيدٌ لهم، فقال: ومَنْ لم يؤمنْ باللّه، ويَظُنُّ به خُلْفًا وبرسولِه كذبًا كما ظننتُم من قبل، فإنّا أعْتدْنا له سعيرًا"[3]. والعطف دالٌّ على ضرورة الإيمان برسوله، وأن الإيمان لا يكون إلا باللّه ورسوله.

سرُّ إضافةِ لفظِ الرَّسولِ إلى ضميرِ الجلالة في قوله: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾:

الـرَّسـولُ هـو الحقيقُ بالإضافةِ إليه ﷻ تشريفًا

أُضيفَ لفظُ (الرَّسولِ) إلى ضميرِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لأنَّه الحقيقُ بالإضافةِ إليه ﷻ، وأنَّ اللّه أرسله لإظهارِ دينِه، ولو كرِهَ الكافرون والمشركون[4]؛ ففي الإضافة تعظيمٌ لِقَدْرِه ﷺ.

معنَى الفاء ودلالتُها في ﴿فَإِنَّآ﴾:

الربط بالفاء تقوية لربط السبب بالمسبّب

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّآ﴾ هي الرّابطةُ لما دلّ على جوابِ الشَّرط، تفيدُ ترتُّبَ الجزاءِ على الفعل، أي: ترتُّبِ دخولِ النّارِ لمن لم يؤمنْ باللّه ورسوله، وهي ربط للمُسبِّب بالسَّبب[5].

بلاغة التعبير بالالتفاتِ من الغَيْبَة ﴿بِٱللَّهِ﴾ إلى التَّكلُّم ﴿فَإِنَّآ﴾:

جاء الالتفاتُ من الغَيْبَة ﴿بِٱللَّهِ﴾ إلى التَّكلُّم ﴿فَإِنَّآ﴾؛ زيادةً في تعظيمِ اللّه، وتحقيرِ شانِئِ الرَّسولِ ﷺ، وتَوْهيةِ كيدِه[6].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 304.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 75.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 75.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 304.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 304، والصافي، الجدول: 26/ 249.
(6) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 304.

دلالةُ التعبير بالماضي وإسناده إلى الضمير الدّالِّ على التعظيم ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾:

تحقُّقُ إعدادِ النّارِ من لَدُنِ الجبّارِ العظيم

اسْتعمالُ الفعلِ الماضي مُسنَدًا إلى ضميرِ التَّعظيمِ في قوله تعالى: ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ للدَّلالةِ على تحقُّقِ هذا الإعداد، وعدمِ الخُلْفِ به، مع الإشارةِ إلى أنَّ الَّذي أعدَّ هذا الجزاءَ وهيَّأ ذاك المصيرَ هو الله بعظمتِه وعزَّته ﷻ.

معنَى اللّام ودلالتها في ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾:

اللام في ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ للملك والاختصاص، وفي ذلك تناسب مع الفعل ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾؛ إذ أُعِدَّت لهم خِصّيصًا، تأكيدًا على الانتقام منهم لعظيم مرتكبهم.

دلالةُ التعبير بالمُظْهَر في موضع المُضمَر ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ مُعرَّفًا مجموعًا:

زيادةُ تقرير معنَى مَن لم يؤمنْ بالله ورسولِه

أقام النَّظم الكريم الاسمَ الظّاهر مقامَ الضَّمير في لفظ ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ من قوله تعالى: ﴿أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا﴾ تقريعًا لهم وذمًّا باسم الكفر، إذ لم يُكْتَفَ بإضمارهم؛ بل صُرِّح بوصفهم القبيح، إعلامًا بأنَّ مَن لم يجمع بين الإيمانِ باللّه والإيمانِ برسوله؛ فهو كافر مُستوجبٌ السَّعيرَ بكفره، لزيادة تقرير معنَى مَنْ لم يؤمنْ باللّه ورسولِه[1]. وفي إظهارِ (الكافرين) معرَّفًا مجموعًا إفادة التَّعميم.

غرضُ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ على المفعول به:

قَدَّمَ شِبْهَ الجملة ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ على المفعول به ﴿سَعِيرٗا﴾؛ زيادةً في العناية بتعذيبهم، وتخويفًا لهم من المآل.

الغرض من تنكير المفعول به ﴿سَعِيرٗا﴾:

تهويلُ النّارِ وشدَّةُ حرِّها تحريضًا على الإيمانِ والتَّوبة

تنكيرُ ﴿سَعِيرٗا﴾ للتَّهويلِ والتَّعظيم، وبيانِ الشِّدَّة، أي: نارًا شديدةَ الإيقادِ والتَّلَهُّب، فهي عظيمةُ الحرِّ توجبُ الجنونَ وإيقادَ

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 337، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 75، وحقّي، روح البيان: 9/ 28، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 165.

الباطنِ بالجوعِ بحيث لا يشبعُ صاحبُه، والانْتشارَ بكلِّ شرّ"[1]، أو لأنَّها نارٌ مخصوصةٌ[2].
وفيه إشارةٌ إلى أنَّها "لا يمكنُ معرفتُها واكْتناهُ كُنهِها[3]، وفي ذلك من التحريض على الإيمان، والدعوة إلى التوبة والإنابة ما لا يخفى على ذي لُبٍّ واعتبار؛ إذ عُرِضَت عاقبة الظَّنِّ الفاسد وما شابهه من المآثم تنبيهًا للقلوب الغافلة، واستنهاضًا للهمم الوانية"[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 304 - 305.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 159.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 254.
(4) المصعبي، هميان الزاد إلى دار المعاد: 13/ 468.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٤﴾ [الفتح: 14]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا ذكرَ جزاءَ المؤمنين والكافرينَ أردَفَه بالمغفرة والعذابِ وفقَ مشيئتِه

بعد أن أفصحَ النَّظم الكريم عن حالِ مَن نال الأجرَ العظيمَ من أهلِ البيعةِ، ومَن استحقَّ العذابَ الأليمَ من الظانّين الغاوين؛ أتبَعَ ذلك بما يدلُّ على نفوذِ مشيئتِه جلَّت قدرتُه؛ فإنّه يغفرُ لمن شاءَ من أولئك، ويُعذِّبُ من شاءَ من هؤلاء، على ما سبق في علمِه، لا يُسأل عمّا يفعل، وهو الحكيم العليم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اللهُ المالكُ هو الّذي يغفرُ ويعذِّبُ كيفَ شاء

يقولُ اللّه تعالى ذكرُه: وللّه سُلطانُ السَّماواتِ والأرض، فلا أحدَ يقدِرُ أيُّها المنافقونَ على دفعِه عمّا أرادَ بكم من تعذيبٍ على نفاقكم إنْ أصرَرْتُم عليه، أو منعِه من عفوِه عنكم إنْ عفا، إن أنتُم تبتُم من نفاقِكم وكُفرِكم، وهذا من اللّه جلَّ ثناؤه حثٌّ لهؤلاءِ الأعرابِ المتخلِّفينَ عن رسولِ اللّه ﷺ على التَّوبةِ والمراجعةِ إلى أمرِ اللّه في طاعةِ رسولِه ﷺ فإنَّ اللّه يغفرُ للتّائبين(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الواوِ في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ﴾:

الانتقالُ من التَّرهيبِ إلى التَّرغيب

جاءت الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ للعطفِ على ما تقدَّم من قوله جلَّ شأنه: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ فهي مِنْ سلكِ البيانِ الواحد، وجزءٌ من أجزاءِ القولِ المأمورِ به، لا مستأنَفٌ على جهةِ الانفصال. وفي هذا الانتقالِ البديعِ تلوينٌ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 215.

في الخطاب، ومزجٌ بين التهديدِ والترغيب؛ إذ لمّا خوَّفهم أوَّلًا بقوله: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾، أردفَه بهذه الجُملة الكريمة، ليَفتحَ لهم بابَ الرجاءِ، ويُطمِعَهم في مغفرةٍ قد ظنّوا بُعدَ نوالِها، فانتقلَ السياق بهذا العطف من صَرامةِ التخويف إلى رِقَّةِ الإطماع، ومن سَوطِ التهديد إلى بساطِ الرَّجاء[1].

معنَى اللّامِ ودلالتُها في ﴿وَلِلَّهِ﴾:

المُلك الحقيقيُّ لله وحده

سيق قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لإثباتِ التفرُّدِ بالمُلكِ المُطلق، والسلطانِ التامّ؛ فاللامُ دالَّة على المِلْكِ والاختصاص: تدلُّ على الملكِ الحقيقيِّ الذي لا يشوبه نقصٌ، ولا يعتريه زوالٌ، وتدلُّ على الاختصاص فله سبحانه وحده الخلقُ والأمرُ، والتصريفُ والتدبيرُ، والأمرُ والنهيُ، والثوابُ والعقابُ، فهو المالكُ لجميع ما في السماواتِ والأرضِ مُلْكًا وخَلْقًا وتدبيرًا، بتدبيرِ شؤونِ خلقِه، لا يُمانعُه مانع، ولا يُعقِّبُ حكمَه معقِّب[2].

موقعُ جملة ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ ودلالتُه:

بيان النَّتيجة بعد ذكر المُقدِّمة

وقعت جملة ﴿يَغۡفِرُ﴾ موقعَ الاستئناف البيانيِّ مما قبلها، ودلالتُه تكمن في إيضاح جانبٍ من جوانب الملك والقدرة الإلهيَّة، فلما قدَّم النَّظمُ الكريم بذِكْر المُلك العظيم الدّالِّ على القدرة العظيمة؛ أتبعَه بذِكْر نتيجة التفرُّد بالمُلك بما يقتضيه الحال من التَّرغيب و التَّرهيب؛ فقال: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾، تأكيدًا على التَّفرُّد بالقدرة والمشيئة المُطلقة[3].

دلالةُ التعبير بالمضارع في ﴿يَغۡفِرُ﴾ و﴿وَيُعَذِّبُ﴾ في أسلوب الطباق:

استمرارُ مغفرة الله لِمَنْ ثبَّته ولِمَنْ تابَ وفْقَ مشيئتِه تعالى

دلَّت صيغةُ المضارعِ في ﴿يَغۡفِرُ﴾ على تجدُّدِ واسْتمرارِ مغفرة اللّه لعباده، فهو ﷻ يثبِّتُ من يشاءُ على الإسلامِ فيغفرُ له، ويغفرُ لمن يشاءُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 131، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 166.
(2) الدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 139.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 306، والصّافي، الجدول: 26/ 252.

ممَّن تابَ من ذنبِه وقَبِلَ توبتَه؛ "فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمُذْنِبين، ويتجاوز عن الخَطّائين، ويتقبَّل توبة التّائبين، ويُنْزل خيرَه المِدْرارَ آناءَ الليل و النهار"[1]. وكذلك في جانب المُعَذَّبين عَبَّر بالمضارع لتجديد عذابٍ واستمرارِه بعد عذاب، ومما حسَّن المعنى وزاده بيانًا مجيؤه في أسلوب الطِّباق؛ تمييزًا لأهل مغفرته من أهل عذابه.

معنَى اللّامِ ودلالتها في: ﴿لِمَن﴾:

اللّامُ في ﴿لِمَن﴾ في قوله تعالى: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ للاخْتصاص، أي: يخصُّ اللّه مغفرتَه لمن يشاءُ من عبادِه.

غرض التعبير بالاسم الموصول (مَنْ):

على القلوب أن تتجه إلى الله

عبّر بالاسم الموصول (مَنْ) ليشمل كل عاقل، وليترتب على ذِكْرِ الموصول ذِكْرُ جملة الصِّلَة لتعليق ذلك بمشيئته سبحانه، لِتَتَّجِه القلوب إليه بالدعاء وطلب العفو والمغفرة.

دلالةُ التعبير بالفعل ﴿يَشَآءُ﴾ مُضارعًا في الجانبين:

استمرارُ مشيئةِ الله في مغفرته وعقابِه

جاء فعل المشيئة مضارعًا في قوله تعالى: ﴿يَشَآءُ﴾ للدَّلالة على تجدُّدِ مشيئته واستمرارِها في المغفرة والعذاب، فكلاهما لا ينفكّان عن مشيئةِ اللّه دون قيدٍ أو تعطيل، أو أن يكونَ لأحدٍ اعْتراضٌ على مشيئَتِه تعالى أو إيقافٌ لها. والعطف هنا من قبيل عطف الترهيب على الترغيب جريًا على عادة النظم الكريم في الجمع بينهما إظهارًا لعدل اللّه ورحمته، وحثًّا للسّامعين على العمل الصالح والتزام طاعة اللّه وحالهم بَيْنَ الرَّجاء والخوف.

فائدةُ التَّكرار اللَّفظيِّ لـ (مَنْ يشاء):

تكرُّرُ لفظِ (مَنْ يشاءُ) في قوله تعالى: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ إجمالٌ للمشيئةِ وأسبابِها، فالمشيئةُ مترتِّبةٌ على أحوالِ

(1) السِّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 793.

المغفرةُ والتَّعذيبُ تابعانِ لمشيئةِ الله، وحَسْمُ الأطماعِ في خلاف ذلك

العباد، واللّه ﷻ "إنَّما تعبَّدَهم بما تعبَّدَهم ليُثيبَ مَنْ أحسنَ ويُعاقبَ من أساء، فالمغفرةُ والتَّعذيبُ كلاهما تابعٌ لمشيئةِ اللّه ﷻ، وهو ﷻ ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾ [الأنبياء: 23][1]، من غيرِ دَخْلٍ لأحَدٍ في شيءٍ منهما وجودًا وعدَمًا. وفيه حَسْمٌ لأطماعِهمُ الفارغةِ في اسْتغفارِه ﷺ لهم"[2].

نكتة تقديمِ المغفرةِ على العذاب ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾:

تقريرُ معنَى التَّشويق للمبادرةِ لاسْتدراك التَّقصير

تقدَّم ذكر المغفرةُ على العذابِ في قوله تعالى: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ لبعث الرَّجاء في النُّفوسِ تقريرًا لمعنى الإطماع، فيطمعوا في فضل اللّه ورحمته، ويَبتدروا إلى التوبةِ واستدراكِ ما فاتَهم، وذلك تمهيدًا للوعدِ الآتي في قوله: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ [الفتح: 16]، حيثُ يُرشدهم إلى التَّوبة والرجوع إلى اللّه، ثم يُبشِّرهم بوعوده العظيمة في قوله: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ﴾ [الفتح: 16].

معنَى الواوِ ودلالتُها في ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾:

الواو للاستئناف، وقد جاءت في مطلعِ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ لزيادةِ رجاءِ المغفرةِ والرَّحمةِ وتأكيدِ وقوعِهما، وأنَّهما أقربُ من العقاب[3].

دلالةُ التعبير بفعل الكَيْنونة الماضي ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾:

تحقُّقُ مغفرة الله ورحمتِه لعباده

في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ جاء فعلُ الكينونةِ (كان) لتحقُّقِ حصولِ ما أُسنِدَت إليه، أي: تأكيدِ مغفرةِ اللّه ورحمتهِ لعبادِه، فضلًا منه تعالى، ووعدًا حَسَنًا من لَدُنْه ﷻ[4].

---

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 65، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 131، 26/ 166.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 159.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 166.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 166.

الغرض من التعبير بالمُسنَدِ إليه بالاسم الجليل ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾:

عظمةُ الله في قدرته المستمرَّة في مغفرته ورحمتِه

جيءَ باسم الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تنبيهًا على جلالِ الذّاتِ وكمالِ الصفات، ليُفاد مع عِظم الشَّأنِ أنَّ المغفرةَ والرحمةَ صادرتان عن إلهٍ عظيم، فهو الله المحيطُ بصفاتِ الكمالِ، الواسعُ في عطائه، العظيمُ في رحمته.

بلاغةُ تعدُّدِ المُسنَد ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

إكرامُه بالرَّحمةِ بعد السَّترِ للزَّلَّة

جيءَ باسم الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تنبيهًا على جلالِ الذّاتِ وكمالِ الصفات، ليُفاد مع عِظم الشَّأنِ أنَّ المغفرةَ والرحمةَ صادرتان عن إلهٍ عظيم، فهو اللّه، المحيطُ بصفاتِ الكمالِ، الواسعُ في عطائه، العظيمُ في رحمته.

﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥﴾ [الفتح: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا ذمَّ المخلَّفينَ وبيَّن خُسرانَهم أخبرَ عن منعِهم اتِّباعَ الرَّسولِ ﷺ طَمَعًا في الغنائمِ

لمّا ذَكَرَ تعالى المُخلَّفين وذمَّهم على تقاعسهم؛ بَيَّنَ أن من عقوبتهم الدنيوية حِرمانَهم مِنَ الغنائمِ، واختِصاصَ الصَّحابةِ الذين بذلوا الأرواح في سبيل اللّه، وحرمان المُخلَّفين منها، شرعًا وقدرًا، بسبب ما جَنَوْه على أنفسهم بتخلّفهم عن القتال أول مرة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱنطَلَقۡتُمۡ﴾: (طلق) أصلٌ صحيحٌ مطَّرِدٌ واحد، وهو يدلُّ على التَّخليَةِ والإرسال، يُقال: انْطلقَ الرَّجلُ ينطلِقُ انْطلاقًا، ثمَّ ترجعُ الفُروع إليه، تقول: أَطْلقتُه إطلاقًا، ورجلٌ طَلْقُ الوجهِ وطليقُه، كأنَّه منطلِقٌ، ورجلٌ طَلْقُ اللِّسانِ وطليقُه. وانْطلقَ فلانٌ: إذا مرَّ مُتخلِّفًا، وقيل للحلال: طَلْقٌ؛ أيْ: مُطلَقٌ لا حَظْرَ عليه، وعَدا الفَرَسُ طَلْقًا أو طَلْقَيْن اعْتبارًا بتخليةِ سبيلِه[2]. ومعنى ﴿ٱنطَلَقۡتُمۡ﴾ هنا في الآية: سِرْتُم.

2) ﴿مَغَانِمَ﴾: (غنم) أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على إفادةِ شيءٍ لم يُملَكْ من قَبْل، ثمَّ يختصُّ به ما أُخِذَ من مالِ المشركين بقَهْرٍ وغَلَبةٍ، قال اللّه تعالى: ﴿۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾ [الأنفال: 41]. والغُنْمُ: إصابتُه

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص 793.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (طلق).

والظَّفَرُ به، ثمَّ استُعمِلَ في كلِّ مظفورٍ به من جهةِ العِدَى وغيرِهم. والمغْنَمُ: ما يُغنَمُ، وجمعُه مغانمُ، قال تعالى: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌۚ﴾ [النّساء: 94][1]، وهو المعنى المراد في الآية.

3) ﴿ذَرُونَا﴾: (وذر) يُقال يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يقذِفُه لقِلَّةِ اعْتدادِه به، وذَرْهُ أي: دَعْه، يَذَرُهُ تَرْكًا، ويَدَعُه: يتركُه، ولا تقل: وذْرًا، وأصلُه: وذِرَهُ يَذَرُهُ، كوَسِعَهُ يَسَعُهُ، ولكنْ ما نطقوا بماضيه، ولا بمصدرِه، ولا باسْمِ الفاعل، قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ١١٢﴾ [الأنعام: 112]، وقال سبحانه: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ [البقرة: 234][2] يعني يتركون، وهو المعنى المراد في الآية.

4) ﴿تَحْسُدُونَنَاۚ﴾: (حسد) أصلٌ واحد، وهو الحَسَد الذي يعني تمنّي زوال نعمةٍ من مستحقٍّ لها، وربَّما كان مع ذلك سعيٌ في إزالتِها، قال تعالى: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: 109]، وقال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥﴾ [الفلق: 5][3]. وقولُه تعالى: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ﴾ أي: ما فعلتُموه بنا إلّا حسَدًا[4].

5) ﴿يَفْقَهُونَ﴾: (فقه) أصلٌ واحدٌ صحيح، يدلُّ على إدراكِ الشَّيءِ والعِلم به، تقولُ: فَقِهْتُ الحديثَ أفْقَهُهُ، وكلُّ علمٍ بشيءٍ فهو فِقْهٌ، ثمَّ اخْتُصَّ بذلك علمُ الشَّريعة، فقيل لكلِّ عالمٍ بالحلالِ والحرام: فقيه، وأفقهتُكَ الشَّيءَ إذا بيَّنْتُهُ لك، وفَقِهَ؛ أي: فَهِمَ، وتفقَّه: إذا طلبَه فتخصَّصَ به، والفِقْهُ أخصُّ من العلم، قال تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ٧٨﴾ [النّساء: 78][5]. وقولُه تعالى: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ أيْ: لا يعلمونَ.

المَعنى الإجْماليُّ:

يقولُ تعالى ذِكْرُه لنبيّه ﷺ: سيقولُ لك الأعرابُ الذين تخلَّفوا عن المسير معك، ومع أصحابك في عام الحُدَيبِيَة: إذا انطلقتَ أنت ومَن صَحِبك إلى خَيْبَرَ لِتَأخذوا المغانمَ التي وعدكم اللّه بها؛ دَعونا نَتَّبِعْكُم، في محاولةٍ منهم لتغييرِ ما قضى اللّه به من تخصيص غنائم خَيْبَرَ للمؤمنين الذين شهدوا الحُدَيْبِيَة، فيقولون بذلك: لنكن معكم في أخذ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (غنم).
(2) الرّاغب، المفردات، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (وذر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (حسد).
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 66.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (فقه).

مَن لا يحضرُ الغُرمَ لا يَنالُ الغُنْم

الغنائم، ثم يأمرُ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أن يردَّ عليهم، فيقولُ: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾، مُبيِّنًا لهم أنكم محرومون من المشاركة، كما قد قضى اللّه بذلك من قبلُ عند رجوعنا من الحُدَيبيَة، فلمّا منعهم رسولُ اللّه ﷺ من الذهاب معهم إلى خَيْبَرَ، قال أولئك المُخلَّفون من الأعراب: إنَّما مَنَعْتُمونا مِنَ الخُروجِ معكم لِكَيْ تَحسُدونَنا على ما رَجَوتُم من الغنائم، فهم قومٌ لا يفقهون ولا يعقلون، إلا قليلًا من الحكمة والفهم، حيث خَفيَ عليهم أن اللّه قد قضى بما هو خير لهم ولغيرهم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاسْتئنافِ في الآية ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾:

إعلامُ النَّبيِّ ﷺ بما سيقولُه المخلَّفونَ مع تأكيدِ كَذِبِهم السّابق

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ هو استئنافٌ ثانٍ بعد قوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾، في إعلام من اللّه تعالى لنبيِّه ﷺ بما سيقوله أولئك المُخلَّفون عن الحُدَيبيَةِ حين يتذرَّعون بالأعذار الكاذبة لِتخلُّفِهم عن الموقف؛ فإنهم سيندمون حين يرون ما اصطفى اللّه تعالى لأهل الحُدَيبِيَةِ من المغانم في غزوتهم. ويُظهر هذا الاستئناف تكذيبهم في اعتذارهم، ويؤكد أن تذرُّعهم بالأموال والأهلين كان كاذبًا، وأن الحرص على الغنائم في المعركة القادمة هو ما دفعهم إلى محاولة اللَّحاق بالرَّكْب، فيخالفون بذلك ما كانوا يدَّعونه من مشاغل الدنيا.

دلالة التَّعبيرِ بحرفِ الاسْتقبال ﴿سَيَقُولُ﴾:

اللّه ﷻ مُعِزٌّ جُندَه ومُنجِزٌ وعدَه

السين في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ دالَّةٌ على قُرب الوقوع، وهو قربٌ زمانيٌّ يَشي بسرعة تحقُّق المقول، ولمّا كانت خيبرُ أقربَ المغانم زمنًا إلى منصرفِ أهل الحديبية، تعيَّنت هي المُرادة بهذا الإخبار، إذْ هي أوَّلُ ما انْتَهضوا إليه بعد الصُّلح، فكانت إرادتها

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 261، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 270، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 337.

كالمُتَحَتِّمةِ، وقد صحَّت الأخبار أنَّ اللّه ﷻ وعَد أصحابَ الحُديبيَةِ أن يُعوِّضهم عن مغانم مَكَّة - وقد رجعوا عنها موادِعين لا غانمين - بغنائم خيبر، فأنجز وعْدَه، وأظْهَر صِدْقَ وعْدِه، جزاءً لصبرهم وثباتهم، واللّه لا يُخلِف الميعاد.

الغرض من تعريف المُسند إليه ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾:

المـخـلَّـفـون المذكـورون هنا هـم الأعـراب السّالف ذِكْرُهم

التَّعريفُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ للعهد، أي: سيقولُ المخلَّفونَ المذكورونَ من الأعراب إذا رَأَوْا مسيرَ رسولِ اللّه ﷺ إلى يهود، وهم عدوٌّ مُستَضْعَف، طلبوا الكَوْنَ معه رغبةً في عرَضِ الدُّنيا والغنيمةِ، فكان كذلك[1].

بيانُ المُتشابِهِ اللَّفظيّ مع مطلع الآية [11]:

لَمّـا حـصَـلـتِ الرَّغبةُ والصِّدقُ للمخلَّفين في طلب المغنَم قال (سَيَقولُ المُخَلَّفونَ)

في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ استُغني عن بيان كونهم من الأعراب، إذ قد تقدَّم ذِكْرُهم في قوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾؛ فصار ذِكْرُهم بعدُ من باب تعريف العهد، لا من باب بيان الجنس، ثُمَّ إنَّ هذه المقالة التي صدرت عنهم كانت نابعة عن رغبةٍ وحرصٍ ظاهر على إدراك الغنيمة، فناسب ذلك أن يُجرَّد القول من مُتعلّق الخطاب، فلم يُقَلْ: (سيقولون لك)، كما قيل في موضع العذر المصطنع، حيث جاء بلفظ: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ ليُفهم منه أن قولَهم الأول كان مَشوبًا بالتَّلبيس، ومُرادَهم به إقناعُ النبيّ ﷺ بصدقِ دعواهم، ولذلك قالوا: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾.

سر التَّعبير بـ ﴿إِذَا﴾ الشَّرطيَّةِ دون (إن):

تحقُّق الشَّرطِ في فعلِه وجوابِه بـ (إذا)

بيّنت أداة الشَّرط ﴿إِذَا﴾ أنَّ المُخَلَّفين سيطلبون الخروج مع النَّبيِّ ﷺ عند تحقق أمرٍ واقع مستقبلًا، وهو انطلاقه ﷺ وأصحابه إلى مغانم خيبر، فجيء بالتَّعبير بـ ﴿إِذَا﴾ المختصَّة بما يَتحقَّق وقوعُه،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 131، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 255.

بدلًا من (إنْ) المُفيدة للشكِّ والاحتمال، ودخلت على الفعل الماضي ﴿ٱنطَلَقۡتُمۡ﴾ لتحقُّق الوقوع، ليُعبّر عن اليقين بحصول الحدث وثبوته، لا عن احتماله.

دلالة التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿ٱنطَلَقۡتُمۡ﴾:

وقوعُ فعلِ المضيِّ في قوله: ﴿ٱنطَلَقۡتُمۡ﴾ بعد إذا مُستعارٌ لمعنَى التَّحقيق والوقوع، أي: إذا تحقَّقَ انْطلاقُكم، أي: تَخْلِيَتُكُم إلى خَيْبَرَ لأخذِ مغانمَ من قتالٍ غيرِ شديد[1].

معنَى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالتُها:

أشارَ مجيءُ حرفِ ﴿إِلَىٰ﴾ الدال على الانتهاء في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ إلى تمكينِ اللّه لهم من هذه المغانم، وحيازتِها جميعِها.

دلالة التعبير بصيغة منتهى الجموع ﴿مَغَانِمَ﴾ ومَجيئها مُنكَّرة:

عمومُ المغانم، وتنوُّعُها

وردت ﴿مَغَانِمَ﴾ نكرةً للدَّلالةِ على كَثرتِها وتنوُّعِها وعمومِ ما حوَته من زروعٍ وأموال وسلاحٍ وغير ذلك[2]. ولما كان الانطلاق والخروج في الأصل إلى غزوة خيبر، فقد عبّر عن الغزوة بـ (المغانم) بطريق المجاز المُرسل، حيث أُطلق ما يُفضي إليه الشيءُ على الشيء نفسه باعتبار ما يؤول إليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: 36]، فأطلق "الخمر" وأراد "العنب" لكونه يؤول إليه، وفي هذا المجاز إيذانٌ بتَيَقُّنِ الظَّفَرِ والنَّصر للمؤمنين في غزوتهم تشويقًا لهم، وتَهَكُّمًا بالمُخلَّفين، لأنهم حَرَصوا على المغانم لا على الجهاد.

معنَى اللّام ودلالتُها في ﴿لِتَأۡخُذُوهَا﴾:

لَمّا أفْهمَ لفظُ ﴿مَغَانِمَ﴾ الأخذَ، صرَّحَ بالبُغيةِ، وأظهرَ المقصودَ بلامِ العلّةِ أو لامِ (كي) على وجه الحقيقة، فقال: ﴿لِتَأۡخُذُوهَا﴾ أيّ: من خَيبَر.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 167.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 307.

دلالةُ التعبير بالمضارع ﴿لِتَأۡخُذُوهَاۖ﴾ مُسندًا لواو الجماعة:

أخذُ المؤمنين المغانمَ حقيقةٌ مع كثرتها

جيء بالفعلِ المضارعِ المُسْنَد إلى ضمير الجمع، في قوله تعالى: ﴿لِتَأۡخُذُوهَاۖ﴾ ترشيحًا للمجازِ السّابقِ في إطلاقِ المغانمِ على الغزوةِ، تقويةً للمجاز بإيراد ما يُلائم المعنى المجازي. وفيه إشعارٌ بأنَّ تلك الغنائمَ كأنَّها واقعةٌ في أيديهم، لا محالةَ لفوزِهم بها، وتحقيقِ الوعدِ فيها. كما أنَّ في صيغةِ الجمعِ ما يدلُّ على كثرةِ الآخذين، وكثرةِ المأخوذِ، وأنهم لم يُمنعوا منها شيئًا، بل حازوها أجمعين، فكان في ذلك تعويضٌ جزيلٌ لما فاتَهُم من فَتحِ مكة، وزيادةُ تكريمٍ وتسليةٍ على ما سبقَ من الامتحان.

دلالةُ التعبير بجملة ﴿ذَرُونَا﴾ مقولة القول:

شعورُ المُخلَّفينَ بأنَّ الرَّسولَ ﷺ سيمنعُهم من الخروجِ لخيبر

أشعرَ قولُه تعالى: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ﴾ بأنّ النَّبيَّ ﷺ سَيَحجُزُهم عن اللُّحوقِ به إلى غزوةِ خيبرَ، وقَصْرِ الخُروجَ على مَن شهد الحديبية، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ [غافر: 26]، فإنّه لم يكن مَمنوعًا من قتله، ولكنَّه عبّر بذلك لإشعارِ قومِه بأنَّه محجوبٌ عن مرادِه، فقد كانوا يكفّونه عن قَتلِ موسى عليه السلام، ويُهوِّنون أمرَه عليه، ويقولون: ليس هو الذي تُخافُ مَغَبَّتَه، إنْ هو إلّا ساحرٌ يُرينا الأعاجيبَ، فدَعْه وشأنَه، فإنّكَ لو قتلتَه ظُنَّ بك العجزُ عن معارضتِه بالحُجَّة والبيان[1]، فكذا هاهُنا. ويَحتَمِلُ أن يكون مرادُهم: خَلّوا سَبيلَنا إلى الخُروجِ معكم كيفَما اتَّفق، وعلى أيِّ حالٍ رضيتم بها منّا، ولو كانت حالةً دنيَّةً، إذِ الغايةُ عندهم الظَّفَرُ بالمغانم، لا الطّاعةُ ولا الجهادُ، ويجوزُ أن يكون "المرادُ: اتركونا نخرجْ معكم على أيِّ حالةٍ شئتُم من الأحوالِ الدَّنيَّة"[2].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 55.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 307.

سرُّ التَّعبير بالفعل ﴿نَتَّبِعۡكُمۡۖ﴾ دلالةً وصيغةً:

زيادةُ حرصِ المخلَّفين اتِّباع المؤمنين إلى خيبر

قولُه تعالى: ﴿نَتَّبِعۡكُمۡۖ﴾، مرادُهم: نقتصُّ آثارَكم، ونلحقُ بجماعتِكم، ونكونُ معكم في الخروجِ إلى خيبرَ بأنفسِنا وأبدانِنا، لا نُخلِفكم المشي، فجاء التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ المضعَّفِ؛ دلالةً على شِدَّةِ حرصِهم واستمرارِهم في الطَّلب، وإلحاحِهم في الرَّجاء. وهذا اللّفظُ حكايةٌ لمقالتِهم في مقامِ التَّودُّدِ والاستعطافِ، أرادوا به استِنزالَ القَبول، وتصويرَ أنفسِهم في صورةِ الأتباعِ الضُّعفاء، الرّاضين بأن يكونوا في مؤخرةِ العسكر، لا يُنافِسون في صَدرٍ ولا في غنيمةٍ وافرة، بل يرضَون من الغنائمِ بالحظِّ القليل، دلالةً على خضوعِهم، وتودُّدِهم، ومَسْكنتهم، وقد أخفى ذلك كلَّه طمعُهم وحِرصُهم الذي بان بعدُ في مواضعَ شتّى.

دلالةُ الفعل ﴿يُرِيدُونَ﴾ مضارعًا مُسنَدًا لضمير الجمع:

استمرارُ إرادةِ المخلَّفين في غزوِ خيبرَ تغييرَ أمرِ الله

لمّا كان في تمكينِ هؤلاءِ المُخَلَّفين من الخروجِ مع رسولِ اللّه ﷺ ما يُفضي إلى إخلافِ وعدِ اللّه الحقّ، إذ قد خَصَّ بالغنيمةِ أهلَ الحديبية، وجعلها لهم دونَ غيرهم، وكان في ذلك خِذْلانٌ للمنافقين، عَلَّل سبحانه مقالتَهم: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ﴾، بقوله: ﴿يُرِيدُونَ﴾، أي: يُضمِرون إرادةً مستمرةً في طلبِ اتِّباعِكم، لا نصرةً ولا رغبةً في الخير، بل ليُغيِّروا أمرَ اللّه الذي أنزله على رسولِه، ويُدخِلوا أنفسَهم فيما طُردوا عنه ومُنِعوا منه، وقد خابَ مسعاهم، وأظهر اللّه ما كانوا يُخفون.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّل ﴿أَن يُبَدِّلُواْ﴾ دون الصَّريح:

حرصُ المخلَّفين أن يتوصَّلوا للتَّشكيكِ في تغييرِ أمرِ الله

جاءَ قولُه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ﴾ تعليلًا لطلبِ اتِّباعهم، واسْتعمالُ أن المصدريَّة مع فعلِها أوْفَى في إفادةِ إرادتِهم وتعليلِها، كأنَّه قال: يريدون بذهابِهم معكم ليتوصَّلوا إلى تشكيكِ أهلِ الإسلامِ في أمرِ اللّه في أن لا يُشاركَ المؤمنين من الَّذين بايعوا بيعةَ الرِّضوانِ في

الحُدَيبيَة أحدٌ غيرهم في غنائمِ خَيْبَر[1]؛ إذ المرادُ بتبديلِ كلامِ اللّه - ﷻ - أن يُشرَكوا في المغانمِ دونَ أن يَخوضوا المعارك في الجهادِ، ولا أن يَنصروا دينَ اللّه، أو يُعلوا كلمتَه[2].

سرُّ التعبير بالمفعول به مُضافًا للاسم الجليل ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾:

الوعدُ الخاصُّ لأهلِ الحُديبيَةِ بغنائم خيبر

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ دون (القرآن)؛ لأن المُراد بكلامِ اللّه - ﷻ - هو ما أوحاه إلى نبيِّه ﷺ من وعدٍ لأهلِ الحديبيةِ بمغانمِ خيبرَ خاصَّةً لهم، وليس المقصودُ بكلامِ اللّه هنا القرآنَ الكريم، إذ لم يكن قد نزلَ في ذلك الحينِ من القرآن ما يُفصِّل هذا الوعدَ، وقد أُضيف ﴿كَلَٰمَ﴾ وهو مصدرٌ إلى لفظِ الجلالةِ فتعرَّفَ به[3]. وصرَّحَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ الجلالةِ ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ إظهارًا لشرف الوعدِ الإلهيِّ الَّذي وعدَه تعالى لرسولِه ﷺ بأن تكونَ غنائمُ خَيْبَرَ لأهلِ الحُديبيَةِ وبَيْعةِ الرِّضوانِ خاصَّةً لهم.

وفيه كذلكَ تشريفٌ لهم بهذا الوعدِ الإلهيِّ، وزرعُ المهابةِ في قلوبِ المخلَّفين الَّذين يريدون اتِّباعَ رسولِ اللّه ﷺ وجماعةِ المؤمنين إلى خَيْبَرَ طمعًا بالغنائم لعلَّهم يَرْعَوونَ عمّا هم عليه من نِفاقٍ، فاللّه المحيطُ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا قد حكمَ بأنَّ فتحَ خَيْبَرَ مختصٌّ بأهلِ الحُدَيبيَة[4].

دلالةُ القيد بالجملة الحاليَّةِ في: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾:

جملةُ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ في موضعِ الحال[5]، وفي هذا القيد فَضْحٌ لما انْطَوت عليه نواياهم، وأصَرَّت عليه قلوبُهم.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 307 - 308، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 168.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 96.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 66، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 489.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 308.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 308.

دلالة الاستئناف في الأمر بالقول في: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾:

ما يقولُه الرَّسولُ ﷺ هو من عندِ الله

لَمّا كان السّامعُ جديرًا بأن يسألَ عمّا يُقال لهم، قال مخاطبًا لأصدقِ الخلقِ ﷺ: قلْ لهم لن تتَّبعونا، للدَّلالةِ بأنَّ ما يقولُه الرَّسولُ ﷺ هو من عندِ اللّه، فهو مُبلِّغٌ عنِ اللّه مُؤتَمنٌ بإيصالِ رسالتِه وأحكامِه للنّاس[1].

دلالة الأمر بالقول في مقام التبليغ:

تشريفُ منزلةِ رسولِ الله ﷺ

في الأمر بالقول في مقام التبليغ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ رفعٌ لشأنِ رسولِ اللّه ﷺ، كأنَّ اللّه تعالى يقول: قل يا حبيبُ لهم - إذا بلغكَ كلامُهم - أنتَ بنفسِك، فإنَّ غيرَكَ لا يقومُ مقامَك في هذا الأمرِ المهمّ[2].

بلاغةُ التعبيرِ عن النَّهيِ في صورة النَّفْيِ:

تأكيدُ عدمِ خروجِهم لخيبرَ مع زَجْرِهم

النَّفيُ هنا بمعنى النَّهيِ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ للمبالغة، والمعنى: لا تتبعونا؛ فالخبر هنا مجاز عن النهي الإنشائي؛ وقد جاء إيثار النَّظم الكريم اسْتِخْدامَ ﴿لَّن﴾ تأكيدًا للقول، ليبيِّنَ بذلك أنَّهم لن يتَّبِعوا النَّبيَّ ﷺ، ولو اجتهدوا في ذلك أو حَرَصوا عليه، فـ﴿لَّن﴾ في هذا المقام دالَّةٌ على استحالة اتِّباعهم له، وقد ساقَها مساقَ النَّفيِ، رغم أنَّ المرادَ به النَّهْيُ، ليكون أقوى في النَّفي والإبعادِ، وهذا مع كونه عَلَمًا من أعلام النُّبوَّة، فهو أيضًا أزْجَرُ وأدَلُّ على الاستهانة بتمنّياتِهم، وكأنَّه يقول لهم: "لن يكون هذا، مهما حاولتم".

دلالةُ التعبير بـ ﴿تَتَّبِعُونَا﴾ مضارعًا مضعَّفًا مُسنَدًا إلى ضمير الجمع:

المنافقون لا يَدَّخِرونَ وُسْعًا في تثبيطِ المؤمنين

قولُه: ﴿تَتَّبِعُونَا﴾ أيْ: تقتفوا أثَرَنا، جاءَ هذا الفعلُ بصيغةِ المضارعِ المضعَّفِ المُسند إلى ضمير الجمع بعد النَّفيِ الَّذي يفيدُ النَّهيَ؛ لتأكيدِ تجدُّدِ نهيهم جميعِهم عنِ اتِّباعِ المؤمنين في خروجِهم

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 308.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 308.

إلى خَيْبَر، وأخذِ غنائمِها، وإنِ اجْتهدوا في ذلك مع المبالغةِ في هذا النَّهي الَّذي أفادَه التَّضعيف؛ ممّا يدلُّ على تأكيدِ النَّفي لقطعِ أطماعِهم في الإذنِ لهم باتِّباعِ الجيشِ الخارجِ إلى خَيْبر(1).

الغرض من التعبير بالمفعول به ضمير متكلِّمين:

الرسول ﷺ ليس وحده، وإنما هو وأتباعه كرجلٍ واحدٍ فتكلَّم بضمير الكلِّ، وفي ذلك تصغير لشأن المُخَلَّفين.

بلاغةُ التعبير بالتَّشبيهِ في ﴿كَذَٰلِكُمۡ قَالَ﴾:

قولُ الله بمنعِهم من الخروجِ لخَيْبَرَ قولٌ عظيمُ الشَّأن

لَمّا أذنَ هذا التَّأكيدُ في قولِه تعالى: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أنَّه من عند من لا يُخالَفُ أصلًا في مرادِه؛ بيَّنَه تعالى بقوله: ﴿كَذَٰلِكُمۡ﴾ أي: مثلُ هذا القولِ البديعِ الشَّأنِ العليِّ الرُّتبةِ قالَ اللّه تعالى من قبلِ هذا الوقت(2).

الغرض من التعبير باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على البُعد: ﴿كَذَٰلِكُمۡ﴾:

اسْمُ الإشارةِ في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكُمۡ﴾ للإشارةِ إلى بُعدِ منزلةِ هذا القولِ البديعِ الشَّأنِ وعُلوِّ رُتبتِه، فهو ليس كأيِّ قول، إنَّما هو قولُ اللّه الَّذي لا يُخالَفُ ولا يُرَدّ(3).

دلالةُ التعبير بالماضي في: ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾:

عَبَّر بالماضي في ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ للدّلالةِ على تحقُّقِ هذا القولِ وعدمِ مراجعتِه؛ لأنَّ اللّه لا يقولُ إلّا الحقَّ والحكمة، وتأكيدِ أنَّه من عندِ مَنْ لا يُخالَفُ أصلًا في مرادِه(4).

الغرض من التعبير بالمُسند إليه بالاسم الجليل: ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾:

قولُ الله القادرِ على كلِّ شيءٍ هو النّافذ

جاءَ التَّصريحُ باسمِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ ليُعَرِّفَ السّامعَ أنَّ هذا القولَ العظيمَ الرَّفيعَ الشَّأنِ هو قولُ اللّه ﷻ، الملك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 169.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 308.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 308.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 308.

الأعظم الذي لا مُعقِّب لحُكمه، ولا يُقاسُ قولٌ بقوله؛ ففي التَّصريح بذكره تنويهٌ بعظمةِ هذا القول، وعلوِّ شأنِه، ليظهر أنَّ قولَه لا شبيهَ له، وحُكْمَه لا مُعقِّب له.

معنَى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾:

التَّنبيهُ على سوءِ طَويَّتِهم مُترَتِّبٌ على أطماعِهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ استئنافية للتَّسبيب[1] أي: لَمّا كانوا منافقين، وهم يظنّون أنَّ أعذارَهم، إنَّما هي حيَلٌ على التَّوصُّلِ إلى المراداتِ الدُّنيويَّة، والأطماعِ المادّيَّة، سبَّبَ عن ذلكَ التَّنبيه على جلافتِهم وفسادِ ظُنونِهم، فقال: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾، أي: ليس الأمرُ كما ذكَر ممّا ادَّعى أنَّه قولُ اللّه[2]. وقد تكون الفاء رابطةً لجواب شرط مقدّر؛ أيّ: إذا منعتَهم من الخروج معك إلى غزوة خيبر أو إذا أبْديتَ لهم أن غزوة خيبر ستكون من نصيب المؤمنين الذين كانوا في الحديبية[3].

نكتةُ تَكْرارِ فعلِ القولِ المسبوقِ بسينِ الاسْتقبال ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾:

تـحـقّـق وقـوع قولهم عَلَمٌ من أعلام النُّبوَّة

تدلُّ (سين) المستقبل في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ و﴿سَيَقُولُ﴾ على أنَّ الأقوال التي ذكرها في المرَّة الأولى عن المُتخلِّفين، والتي أُمر النبيُّ ﷺ بأن يقولها لهم في الثانية؛ قد سبقت في التَّصوُّر والتقدير لما سيكون حالهم عند المواجهة[4]. وهذا يُعدُّ من قبيل ما يُنتظر أن يكون من قولهم وهو عَلَمٌ من أعلام النُّبوَّة إذ أخبر الحق سبحانه بما سيقولونه قبل صدوره منهم، قال ابن عاشور: "وقد قالوا ذلك بعد نحو شهر ونصف، فلما سمع المسلمون المتأهِّبون للخروج إلى خيبرَ مقالتَهم قالوا: قد أخبرنا اللّه في الحُدَيبيَةِ بأنهم سيقولون هذا"[5].

(1) بهجت، إعراب القرآن الكريم: 9/ 406.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 309.
(3) العلوان، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2259.
(4) دروزة، التّفسير الحديث: 8/ 595.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 169.

دلالة التعبير بـ ﴿بَلْ﴾:

إبطالُهم ما سبقَ باعتمادِهم تُهمةَ الحَسَد

﴿بَلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ تَحۡسُدُونَنَاۚ﴾ للإضرابِ عن ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ وهو إضرابُ إبطالٍ نشأ عن فَوْرةِ الغضبِ المخلوطِ بالجهالةِ وسوءِ النَّظَر، أي: ليس بكم الحفاظُ على أمرِ اللّه؛ بل بكم أنْ لا نُقاسمَكم في المغانمِ حَسَدًا لنا على ما نُصيبُ من المغانم[1]؛ فالمعنى: ليس هذا حُكْمَ اللّه تعالى؛ بل من عند أنفسكم حسدًا فتحسدوننا، فالإضراب رَدٌّ أن يكون حكم اللّه أن لا يتبعوهم وإثبات الحَسدِ[2].

دلالة التعبير بالمضارع المُسنَدِ إلى واو الجماعة في: ﴿تَحۡسُدُونَنَاۚ﴾:

المنافقون يزعمون أن إجماعَ المؤمنين من أهل الحُدَيبيَةِ على حَسَدِهم مُتَجَدِّد

عَبَّر بالفعل المضارع ﴿تَحۡسُدُونَنَاۚ﴾للدلالة على التَّجَدُّدِ والحُدوث، وكأنه شأن مستمر دائم من المؤمنين قبل المنافقين، وأسند الفعل إلى واو الجماعة تأكيدًا لدعوى المنافقين تجاه المؤمنين أن حَسَدَهم جماعيٌّ.. وقد ذكر غيرُ واحدٍ من المفسِّرين أنَّ ضمير الرَّفع في ﴿تَحۡسُدُونَنَاۚ﴾ مُرادٌ به المؤمنون من أهل الحُديبيَةِ، وقد نَسبوهم إلى الحسد لأنَّهم ظَنّوا أنَّ الجواب بمنعهم إنَّما هو لعدم رضى أهل الحديبية بمشاركتهم في المغانم[3].

نكتةُ تَكْرارِ ﴿بَلْ﴾ والفرقُ بين حرفَي الإضراب:

المنافقون حَسَدَةٌ فضلًا عن الجهل وقلَّةِ الفقه

في قوله تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ إضرابٌ انتقالي عن نسبتهم الحسدَ إلى المؤمنين، إلى ما هو أطمُّ وأشدُّ في باب المَذَمَّة، وهو الجهلُ وقِلَّةُ الفقه، فردَّ اللّه جلَّ شأنه كيدهم وأبان أنَّهم ما حُسدوا؛ بل هو حُكم اللّه تعالى فيهم، ولكنَّ جهلهم هذا أوقعهم في الزَّلل، وأعماهم عن مَهْيَعِ الحقّ؛ فاتَّهَموا أهلَ الإيمان بالحسد؛ وفي ذلك تعريضٌ بقُبح الجهل، وإشارة إلى ذمِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 169.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 490، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 73.

(3) السيواسي، عيون التفاسير: 4/ 127، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 256.

مَنْ لا فقه له، وأنَّ محبَّة الدنيا لا تكون شيمةَ العالم الرّاسخ، ولا خُلُقَ العاقل المتبصِّر[1].

والفرقُ بَيْنَ الاضرابين: أنَّ الأوَّلَ إضرابٌ معناه ردٌّ أن يكونَ حُكْمَ اللّه أنْ لا يتَّبعوهم، وإثباتُ الحَسَد، والثّاني رَدٌّ من اللّه لذلك و إثبات لجهلهم بأمور الدّين حيث أضرب عن وصفِهم بإضافةِ الحَسَدِ إلى المؤمنين إلى وصفِهم بما هو أطمُّ منه، وهو الجهلُ وقلَّةُ الفِقْه[2].

دلالةُ التعبير بـ ﴿كَانُواْ﴾:

جِبلَّةُ المخلَّفينَ قائمةٌ على قلَّةِ الفِقْه

لَمّا كان الأمرُ ليس كما زعموا مِنِ اتِّهامِهمُ المؤمنين بحسدِهم، رتَّبَ عليه قولَه تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ﴾ أي: تحقُّقُ ما جُبِلوا عليه وطُبِعوا من عدمِ فِقْهِهم إلّا قليلًا[3]؛ فالتعبير بـ (كان) للدلالة على أن غباءهم طبعٌ وجِبِلَّةٌ فيهم.

دلالة النَّفي بـ ﴿لَا﴾ في ﴿لَا يَفۡقَهُونَ﴾:

انتفاءُ فهمهم عامٌ في أمورِ الدّين

أفادَ النَّفيُ بـ ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا يَفۡقَهُونَ﴾ تعميمَ انتفاءِ الفهم عنهم؛ لأنَّ الفعلَ في سياقِ النَّفي كالنَّكرةِ في سياقِ النَّفي يعمُّ، فلذلك اسْتثنَى منه بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾؛ أي: إلّا فهمًا قليلًا في أمورِ دُنياهم، وأمّا أمورُ الآخرةِ فلا يفقهونَ منها شيئًا[4].

دلالةُ التعبير بالفعلِ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ مضارعًا مُسنَدًا إلى واو الجماعة:

اسْتمرارُ عدمِ فَهمِهم وعمومُه في أمورِ الآخرة

دلَّت صيغةُ الفعلِ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ المضارع على تجدُّدِ عدمِ فِقْهِهم واستمرار ذلك أنَّه محصورٌ في أمورِ دُنياهم، وأمّا أمورُ دينِهم فلا يفهمونَ منها شيئًا[5]. وفي الإسناد إلى واو الجماعة، دلالة على أن هذا الفعل مُنْتَفٍ عنهم جميعًا.

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 338، والقنوجي، فتح البيان: 13/ 102.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 545، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 129.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 309.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 271، والمراغي، تفسير المراغي: 26/ 97، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 170.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 309.

غرضُ التعبيرِ بأسلوب القَصْرِ ﴿لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾:

عُبِّر بأسلوب القصر، وبآكد أدواته ﴿لَا﴾ و﴿إِلَّا﴾، وهذا الطريق يأتي لمواجهة ما يُنكِره المخاطَبُ، وفي التعبير بالقَصْرِ تمكينُ المعنى وتقويتُه.

الغرض من تنكير ﴿قَلِيلٗا﴾:

استحقارُ فهمِهمُ القليلِ في أمورِ الدّين

جاءَ التَّعبيرُ بلفظ ﴿قَلِيلٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ صفةً لمصدرٍ محذوفٍ تقديرُه (فهمًا) أي: لا يفقهونَ إلّا فهمًا قليلًا، أو لا يفقهونَ فَهْمَ الحاذِقِ الماهرِ إلّا قليلًا. ووصفَ فَهْمَهم بقوله: ﴿قَلِيلٗا﴾ وهو نكرة، ازْدراءً واسْتحقارًا لفهمِهم وإدراكِهم السَّقيم، وذلك أنَّه فهمٌ في أمرِ دُنياهم، ومن ذلك إقرارُهم بالإيمانِ من أجلِها، وأمّا أمورُ الآخرةِ فلا يفهمونَ منها شيئًا، وذلك كما قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الرّوم: 7][1].

۞ الفُروقُ المُعجميَّة:

الفقه والعلم:

الفقهُ أخصُّ من العلم

الفقه هو العلم بمقتضى الكلام على تأمُّلِه وهو أخَصُّ من العلم، والعلم هو اعتقاد الشيء على ما هو به على سبيل الثقة، فهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع. وقد ناسب التعبير بنفي الفقه، لا بنفي العلم، لأن المُخلَّفين مسلمون، وفيهم مَن حَسُنَ إسلامه بعد ذلك، فناسب السياق نفي الأخص.

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 545، والبقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 309.

﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٦﴾ [الفتح: 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

اختبارُ الرِّجال يكشف خفايا القلوب وخبايا النُّفوس

لمّا تقدَّم الكلامُ عن المخلَّفين من الأعرابِ المُتقاعسين عن حضور الحُدَيبية مع رسول الله ﷺ، وذُكِرَ ما تَعَلَّلوا بهِ مِن شُغْلهم بالمال والأهل - وكذبوا في ذلك الزَّعم - وأُتبِعَ ذلك بما وعدَ اللّه تَعالى أهلَ الحُدَيبية مِن غنائم خيبَر بعد عَوْدَتِهم جبْرًا لخَواطِرِهم؛ رغِبَ المُخَلَّفون من الأعراب في اتِّباعهم لتَحْصيل شيءٍ مِنَ الغَنائم معهم، فمَنَعَهم اللّه تَعالى ذلك، وكان هذا المَنْعُ يبعَثُ في نفسِ المتلقّي سؤالًا عن هذا المَنعِ والطَّرْدِ، وهوَ: هل هذا الطَّرد مستمرٌّ؟ فبيَّن اللّه سبحانَهُ في هذه الآية بأنَّهم سيختبرُهُم اللّه سُبحانَهُ بأمرٍ شاقٍّ؛ ليتميَّزَ المُخْلِص مِن غيره[1]، فقال سبحانَهُ: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِّلۡمُخَلَّفِينَ﴾: (خلف) تدور اشتقاقاته على ثلاثَةِ أصولٍ، أحدها: مجيءُ شيءٍ بعد آخرَ يقومُ مقامَهُ، وثانيها: ضدُّ قُدّام، وثالثها: التَّغيُّر، ومن الأوَّل: الخَلَف، وهو ما جاء بعدُ، والخوالف في قول اللّه تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ [التوبة: 87]: النِّساءُ، سُمّينَ بذلك؛ لأنَّ الرِّجالَ يغيبونَ في الحربِ والتِّجارة، ونحو ذلك،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 310.

وهُنَّ يخْلُفْنَهم في البيوتِ، ومِنهُ قولُ العرب: الحيُّ خُلوفٌ؛ إذا كان الرِّجالُ غائبينَ والنِّساءُ مقيماتٍ[1].

والخَلْفُ: ضدُّ القُدّام، وخَلَفَ: ضدُّ تقدَّم، وسَلَف، والمُتأخِّر لقُصور مكانَته يُقالُ له: خَلْفٌ - بِسُكونِ اللّام - ولهذا قيل: الخَلْفُ: الرَّديء، وأمّا المتأخِّر؛ فلا لِقُصورِ منزلتِه يُقال له: خَلَفٌ - بفتحِ اللّامِ - ومِنَ الخَلْفِ بمعنى الرَّديءِ قولُ اللّه تعالى: ﴿۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ [مريم: 59][2].

والمُخَلَّفون في قولِ اللّه تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ هُمُ الذين خلَّفهم اللّه تَعالى عن صُحبة نبيِّه ﷺ حينَ خرجَ معتمرًا عامَ الحُدَيبية، وهُم أحياء خمسة: جُهينَة، ومُزينة، وأشْجَع، وغِفار، وأسلَمُ[3]، وزاد بعضُهم: الدُّئِل[4].

2) ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾: (عرب) تدلُّ تصريفاتُه على أصولٍ ثلاثةٍ، أحدها: الإبانَةُ والإفصاحُ، وثانيها: النَّشاطُ وطيبُ النَّفس، وثالثها: فسادٌ في جسم أو عضوٍ[5]، ومِنَ الأوَّل قولهم: أعربَ الرَّجُلُ عمّا في نفسهِ؛ إذا بيَّن، وأفصحَ[6]، والأعرابُ: جمعُ أعرابيٍّ، والأعرابُ هم سكّان الباديةِ من العربِ[7]، ومن أهل العِلْمِ من جعل الأعرابَ هم سكّان البادية مُطلقًا عربًا كانوا أو عجمًا[8].

3) ﴿بَأۡسٖ﴾: (بأس) تدور اشتقاقاتُه على معنى الشِّدَّة وما شابهَها، ومِنهُ: البأسُ، وهي: الشِّدَّةُ في الحَرْبِ، وتقول العربُ: رجلٌ بَئِيسٌ وذو بأسٍ، أي: شُجاعٌ[9]، ويُطلق البأسُ مرادًا به شدَّةُ المرض[10]، وقولُ اللّه تعالى: ﴿سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾، أي: أصحاب قوَّة شديدَةٍ في الحَرْبِ[11].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(2) الراغب، المفردات: (خلف).
(3) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 4/ 73.
(4) القِنّوجي، فتح البيان: 13/ 98.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرب).
(6) الحميري، شمس العلوم: (عرب).
(7) الفيومي، المصباح المنير: (عرب).
(8) الصنعاني، سبل السلام: 1/ 33.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بأس).
(10) القاضي عياض، مشارق الأنوار: (بأس).
(11) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 256.

4) ﴿يُسۡلِمُونَۖ﴾: (سلم) تدُلُّ تَصْريفاتُه على الصِّحَّة والعافيَةِ، ومنهُ السَّلامةُ، وهو أن يَسلَمَ المَرْءُ مِن عاهَةٍ أو أذًى[1]، وأسلَمَ أمرَهُ إلى اللّه تَعالى: انقادَ، وخضع لهُ، ومنهُ قولُ اللّه تَعالى: ﴿۞وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [لقمان: 22]، أي: مَن يَخْضَعْ لهُ، ويَنْقَدْ لهُ بفِعْلِ الشَّرائع مُخْلِصًا له دينَهُ[2]، والإسلامُ ضربانِ:

أحدهما: إسلامٌ كونيٌّ؛ وهو الاستسلامُ لحكمِ اللّه تعالى الكَوْنيِّ، وهذا عامٌّ لكلِّ مَن في السَّماوات والأرض، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [آل عمران: 83].

والآخر: إسلام شرعيٌّ، وهو الاستسلامُ لحكم اللّه سُبحانه الشَّرعيِّ، وهذا خاصٌّ بمن قام بطاعة اللّه تَعالى من الرُّسل وأتباعِهم[3]، وهو المرادُ بقولِ اللّه تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الحَثُّ على الجِهاد والتَّحْذيرُ مِنَ التَّخلُّف

يُبَيِّن اللّه تَعالى لِلمُخَلَّفين مِنَ الأعرابِ - وهُم سكّانُ الباديَةِ - أنَّهُم سيُدعَون إلى قتالِ قومٍ شَديدي البَأسِ والقوَّة في القتالِ، فإمّا أن يُقاتِلوا هَؤلاء القومَ، أو يُسلِموا دون قِتالٍ، فإن أطَعْتُم اللّه تَعالى في ذلكَ، وأدَّيْتُم ما كُتب عليكُم مِن جِهادٍ؛ أعطاكُم ثوابًا حسنًا مِن عِندِه، وهو الجنَّة، وإن عصَيْتُم اللّه سُبحانَهُ، وتَوَلَّيْتُم عن القتالِ، كَما فعَلْتُم مِن قبلُ حين تَخَلَّفْتُم عَن السَّير مع رسولِ اللّه ﷺ إلى مكَّة؛ أصابَتكُم عقوبَةٌ مُؤْلِمَة مِن عذابِهِ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم).
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 650.
(3) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلتها، ص: 61.
(4) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 513.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل الآيةِ عمّا قبلها:

إدْخالُ السُّرور عليهم بعدَ الحُزْنِ العارِضِ لهم

فُصِلَت الآية الكريمة عمّا قبلها؛ لوقوعِها استئنافًا بيانيًّا، فلمّا قال اللّه سبحانه: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥﴾ [الفتح: 15]؛ استنهض ذلك سؤالًا عمّا يُقال للمخلَّفين بعد أنِ اتَّهموا المُؤْمنين بأنَّهم يَحْسدونَهم، فجاء قول اللّه تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ﴾ جوابًا عن ذلك، ففُصِلَت عنها كما يُفْصَلُ الجوابُ عنِ السُّؤال؛ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصال.

وفي هذا الاستئنافِ انتقالٌ إلى طمأنَةِ المخلَّفين بأنَّهم سينالونَ مغانمَ في غزوات لاحقةٍ، وذلك ليكونَ هذا إشعارًا لهم بأنَّ حرمانَهم من الخروج إلى خيبرَ مع المسلمينَ ليس لزوال اسم الإسلام عنهم، ولكن لحكمةِ تعليق المسبَّباتِ بأسبابِها، فيكون في ذِكْرِ المغانم ههنا إدخالٌ للسُّرورِ عنهم بعد الحُزْنِ؛ ليَزولَ عنهم انكسار خاطرِهم بسببِ الحِرمانِ.

وفي هذه البشارةِ أيضًا فرصةٌ لهم لاستدراكِ ما اقترَفوهُ من التَّخلُّفِ عن الحُديبيةِ، وذلك كلُّه دالٌّ على عدمِ خروجهِم من الإيمانِ بالكلِّيَّةِ، ولذا لم يُعامَلوا معاملةَ المنافقينَ الذين أبطنوا الكُفْرَ[1].

غرضُ التَّعبير بصيغَةِ فِعلِ الأمرِ:

بيانُ علامَةِ قَبولِ التَّوبةِ

الأمر في قول اللّه تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ﴾ محمولٌ على ظاهرِه، وهو وجوبُ إبلاغِ مضمون هذه الآية للمخَلَّفين عن الغزو، فأمر اللّه تَعالى نبيَّه ﷺ بإخبارِ المُخلَّفين بأنهم سَيُؤْمرون بقتالِ عَدوٍّ ذي بأسٍ شديدٍ، وهذا يدلُّ على أنَّهم كانوا يُظْهِرون الإسلامَ، وينقادونَ إلى شرائعه في الجُملةِ، وإلّا لَم يكونوا أهلًا لِهَذا الأمر[2]، ولمّا كان هؤلاء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 170.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 132.

المخلَّفونَ عددًا كثيرًا من قبائلَ شتّى؛ دعت الحاجةُ إلى ذِكر قبولِ توبَتِهم؛ وذلك لأنَّهم لم يبقوا على ذلك، ولم يكونوا من المنافقينَ الظّاهري النِّفاقِ، بل إنَّ مِنهم من حسُنَ حالُهُ، وعَظُمَ صنيعُهُ في الإسلامِ، فجعل اللّه تَعالى علامَةً على قبولِ توبتِهم، وهي أنَّهم يُدعَون إلى قتالِ قومٍ ذوي قوَّةٍ شديدةٍ، فيُطيعونَ في ذلك[1].

نكتة التَّعبير بصيغة اسم المفعول:

الإيماءُ إلى عَدَمِ صلاحيَّتِهم لصُحبَةِ النَّبيِّ ﷺ

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بصيغة اسم المَفْعول ﴿لِّلۡمُخَلَّفِينَ﴾؛ إيماءً إلى حقارتِهم حالَ تخلُّفِهم، وفي جَعْلِهم مَفْعولًا بهم لا فاعلينَ إشارةٌ إلى أنَّهم طُرِدوا عن هذا المَقام، فكانَ قولُ اللّه تَعالى: ﴿لِّلۡمُخَلَّفِينَ﴾، أي: الذين خَلَّفَهُم اللّه تَعالى عَنْكَ، ولم يَرْضَهُم لصُحْبَتك في السَّير إلى مكَّةَ، فجَعَلهم كالشَّيء المتروكِ الَّذي يُخَلِّفُه الإنسانُ؛ لكَوْنِه لا فائدةَ فيه، فلا يُؤْبَهُ له[2].

غرضُ تكرار اسمِ (المخلفين):

التَّحذيرُ مِن سُلوكِ سبيلِ المُخَلَّفينَ

كُرِّرَ ذِكرُ المخلَّفين في هذه الآيةِ مع تقدُّم ذِكرهم بهذا الاسْم في قول اللّه تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ﴾ [الفتح: 15]؛ مبالغةً في ذمِّهم[3] كأنَّه لا يوجد مخلَّفون سواهم، ولبيانِ أنَّهم اتَّصفوا بهذا الوصف عن استحقاقٍ؛ ليلحقهم الذَّمُّ ويتبعهم الغمُّ، فيُشار إليهم بهذا العنوان في المحافل كلِّها؛ ليكونَ كذلك أمارةً لمن يقتفي أثرهم من سائرِ هذه الأمَّة، فيَحْذَرَ وصفَ القرآن لهم أن يَلْحَقَهُم.

مَعنى اللّام ودِلالَتُها:

تبليغُ النَّبيِّ ﷺ لما أُمِرَ به

اللّام في ﴿لِّلۡمُخَلَّفِينَ﴾ مِن قول اللّه تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 76.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 300، 299.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 109.

﴿مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ لام التَّبليغ، بالنَّظر إلى أنَّه قَد قالَ لهم هذا القولَ بِإِسْماعهم ما أمرهُ اللّه تَعالى به في مضمونِ هذه الآيةِ.

معنى ﴿مِنَ﴾ ودِلالَتُها:

الخطابُ متوجِّه إلـى بعض المخلَّفين من الأعـرابِ لا إلى جَميعهم

﴿مِنَ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ حرف جرٍّ يُرادُ به التَّبعيضُ، فيكون مختصًّا بالأعراب الذين خُلِّفوا عن الغَزْوِ، فلا يشمل المُخلَّفين كُلَّهم، فقد تخلَّف بالجَسَدِ مِن خُلَّصِ الأنصارِ وغيرِهم مَن كان حاضِرًا مع النَّبيِّ ﷺ بالقَلْبِ، ولذا أُخْرِجوا بِقَوْلِه: ﴿مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾، والمرادُ بهم: أهلُ البادِيَة[1]، فيكون هذا القيدُ للاحترازِ عَن المُتَخلِّفينَ مِن أهل المدينة، فيفيدُ نظمُ الآيةِ أنَّ الأعراب ينقسمونَ عندَ دعائِهم إلى القتالِ إلى مطيعٍ وعاصٍ[2].

معنى (أل) ودلالتها في لفظ ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

ذمُّ مَـن عُـرِف بالجَلافة وجفاءِ الطِّباع

(أل) في لفظ: ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ للعهد الذِّكري، والمرادُ: الأعرابُ الذين سبَقَ ذِكْرُهم في قول اللّه تَعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾ [الفتح: 11]؛ فلا يتوهَّم السّامعُ أنَّ المرادَ بالمخلَّفين كُلُّ من يقعُ مِنْه التَّخلُّف[3]، و(أل) في ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ في أوَّل موضعِ وُرودِها للعهد العِلْميِّ، أي: إنَّهم المعروفونَ من أهل الباديةِ المشهورونَ بالجَلافَة وغِلَظِ الطَّبْعِ، ولذا كُرِّر ذِكْرُهم هنا مبالغةً في ذمِّهم والنَّصِّ على قَسْوَتهم وجَفاءِ طباعِهم.

دلالةُ بِناء فِعْلِ ﴿سَتُدۡعَوۡنَ﴾ للمفعولِ:

وجـوبُ امتِثالِ أمـرِ وليِّ أمـرِ المُسْلمينَ

بُني الفعلُ ﴿سَتُدۡعَوۡنَ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعله؛ إشارة إلى إبهام الدّاعي؛ لأنَّ المرادَ الأمرُ بامتثالِ الدّاعي، وهو وليُّ الأمر المسلِم،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 300.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 310.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 171.

وذلك بقرينَةِ قوله بعدُ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، ودعوة خلفاءِ رسولِ اللّه ﷺ من بعده ترجعُ إلى دعوة اللّه تعالى رسول اللّه ﷺ[1].

دلالَةُ السّين في الفِعْلِ ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾:

الإيماءُ إلى قُرْبِ الـدَّعـوةِ إلى القِتال

السّين في ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ حرف دالٌّ على الاستِقبالِ، وأنَّ هذا الدُّعاء سيقع في المُستَقْبَل القَريب، وقد عَرَف المُسْلِمون بعدُ أنَّه أبو بكر رضي الله عنه؛ إذ دعاهم إلى قِتال بني حنيفةَ مِن أهلِ الرِّدَّة، وقد استُدِلَّ بهذه الآية على صِحَّةِ خِلافَته رضي الله عنه.

دلالةُ استِعمال الحَرْفِ ﴿إِلَىٰ﴾:

إظهارُ غائيَّة الفعل بيانٌ للمطلوبِ

عُدّي الفعلُ ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾ مِن قول اللّه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ﴾ بحرف الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾؛ لتضمُّنه معنى السَّيْرِ والمشيِ، وهذا فرقٌ دقيقٌ بين تعدية فعل الدَّعوة بحرْفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾، وبين تعديته بحرف الجرِّ (اللّام)، كقولك: دعوتُ فلانًا لما نابَني[2]، فإنَّها تُفيد الانتهاءَ والغايَة، أي: إنَّ غايتَكم الوصولُ إلى هؤلاء القوم وقتالهم؛ ليظهر صِدقكم من عدمه، ففيه إظهارٌ لجانب الغائيَّة من الدَّعوة التي ستوجَّه إليهم مع دلالَةِ السَّيْرِ والمشيِ إليهم.

غرضُ تنكيرِ لفظ ﴿قَوْمٍ﴾:

توجيهُ الأنظار إلى صفات القوم لا إلى ذواتِهم

نُكِّر لفظ ﴿قَوْمٍ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾؛ للدَّلالةِ على الإبهام، ولا يُراد به العمومُ؛ لوقوع النَّكرةِ في سياق الإثباتِ، وإنَّما هو دالٌّ على الإطلاقِ، فهُم ليسوا قومًا مَعْروفينَ معيَّنين[3]، وأنَّهم قومٌ موصوفون بما ذُكِرَ من قوَّةٍ في الحَرْبِ والقتالِ، وهذا الوصفُ مخصِّصٌ للنَّكرةِ لا معيِّنٌ لَها.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 171.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 171.

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 221 فما بعد.

فائدةُ التَّقييد بالوصف:

إبرازُ قوَّة الخصْمِ اختبارًا للعبادِ وحملًا لهم على الاستعدادِ

وُصِفَ لفظُ ﴿قَوۡمٍ﴾ بـ: ﴿أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ مِن قول الله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾؛ لإدخال الرَّهبةِ في النُّفوس اختبارًا لإيمانِهم، أيمتثلونَ لدعوتهم إلى قتالهم أم يجْبُنونَ؟ وفيه أيضًا حملُهم على الاستعدادِ لقتالِهم بإعداد العُدَّة الحسّيَّة والمعنويَّة.

موقعُ جملةِ ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ﴾:

تلبُّس الدَّعوة بقتال الكفّار أو إسلامهم

جملتا: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ﴾ و﴿يُسۡلِمُونَۖ﴾ من قول الله تعالى: ﴿سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾ حال[1] من واو الجماعةِ في ﴿سَتُدۡعَوۡنَ﴾، وهي ضمير المُخَلَّفين، أي: ستُدعَون إلى قومٍ مُتَلَبِّسين أنتُم بِقتالهم أو إسلامِهم، وذلك دالٌّ على عدمِ الفَصْلِ بيْنَ القتالِ والدَّعوة له، ففيه الإشارة إلى المُسارعَةِ إلى إجابةِ الدَّعوة مطلقًا، ويجوزُ أن تكون جملة: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ﴾ استئنافًا نحويًّا، وجملة: ﴿يُسۡلِمُونَۖ﴾ معطوفة عليها، أو تكون مستأنفةً على تقدير: أو هُم يُسلمون[2].

دلالةُ التَّعبير بصيغة المُضارع:

استحضارُ صورتَي القتال والإسلام

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع في ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ﴾؛ لاستحضار صورة القتال برهبته وشدَّته؛ تأكيدًا على صمودهم؛ إن كانوا صادقين، أو تولّيهم؛ إن كانوا كاذبين، وكذلك جاء الفعل مضارعًا في ﴿يُسۡلِمُونَۖ﴾؛ لاستحضار صورتهم، وهم مسلمون منقادون مذعنون لهم، وبُدِئَ بذِكْر القتال؛ لأنَّه الأشقُّ على النَّفس والأبغض إليها، مع أنَّ الأصل دعوة الكافرِ للإسلام قبل البدءِ بقتاله، ولكن لمّا كان المقام مقامَ امتحانٍ واختبار وابتلاءٍ؛ كان البدء بالقتال أنسبَ وأليقَ بالمقامِ.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 241.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 241.

مَعْنى ﴿أَوۡ﴾ ودلالتها:

قتالُ العربِ المشركين ينتهي بالإسلام

(أو) في قول الله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾ للتّنويع والحصر[1]، أي: إنَّ دعوتَكم يكونُ مِنْها أحدُ أمرينِ: إمّا المقاتلةُ، وإمّا الإسلامُ لا غيرُ، كما تُفصحُ عنه قراءةُ (أو يسلموا)[2]، أي: حتّى يسلموا، وهذا خاصٌّ بالمشركين، وأمّا مَن عداهُم من أهل الذِّمَّة؛ فينتهي قتالُهم بالجزيةِ، كما ينتهي بالإسلامِ[3].

مَعنى الفاء ودلالتها:

حالُ العبادِ معَ الأحكامِ الإلهيَّة إمّا إذعانٌ وإمّا إعراض

الفاء في ﴿فَإِن﴾ مِن قول الله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ﴾ عاطفةٌ[4] تفيد التَّفريع، والمعنى: أنَّ شأنَكُم مع دعوتكم إلى قتالِ هؤلاء القوم المذكورين إمّا أن يكونَ طاعةً، فَتُؤْجَروا، وإمّا أن يكونَ إعراضًا، فتُؤزَروا، وتُعذَّبوا.

نكتةُ استعمال حرف الشَّرط (إن) دون (إذا):

الإشعارُ بوقوع الطّاعة منهم على سبيل الظَّنِّ

دلَّ استعمال حرف الشَّرط (إن) في قول الله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ﴾ دون (إذا) على أنَّ الطّاعة في قتال المذكورين محلُّ ظَنٍّ، وليس مقطوعًا بوقوعه؛ إذ إنَّ (إن) تدلُّ في الأصل على الشَّكِّ في وقوع مدخولِها، ففيه إشعارٌ بأنَّ الطّاعة متوقَّعةٌ منهم، وفيه إيماءٌ إلى مَدْحِ المُطيع، والتَّلويح بذمِّ العاصي المُعرض.

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿تُطِيعُواْ﴾:

تجدُّد الطّاعة بتجدُّد الدّاعي إليها

جاء التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿تُطِيعُواْ﴾ في قول الله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ﴾؛ لتصوير ما سيكون منهم؛ إن اختاروا فعل الطّاعة، وفي هذا التَّصوير تقريبٌ للحالِ؛ ليقع القبول بِمضمونه من الطّاعة والإقبال على الجهاد، على أنَّ الطّاعة المطلوبة منهُم طاعَةٌ

---

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 60.

(2) هي قراءة أُبيّ بن كعب ﵁، كما ذكره مكيّ في مشكل إعراب القرآن: 2/ 676.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 109.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 241.

متجدِّدة كُلَّما دعاهم داعي الجهاد، وليست طاعةً مؤقَّتة منتهية عند هذه الدَّعوة، بل هي مطلقَةٌ تنبئ عن صِدق الطَّويَّة وحسن التَّوبة.

بلاغةُ حذف المفعول:

بناءُ السُّلوك على فعل الطّاعة أصلُ الاستجابة

آثرَ النَّظم الكريم حذْفَ المفعول في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ﴾؛ لِلعلم بهِ؛ إذ الطّاعة إنَّما هي طاعةُ اللّه تعالى وطاعةُ رسوله ﷺ، وفي هذا الحذفِ إيماءٌ إلى العِنايَةِ بفعل الطّاعة والاهتمام به، فإنَّ بناء الطّاعة في سلوك أولئك المخاطَبين هو المقصود بالدَّرجة الأولى، فهو لفْتٌ لأنظارهم إلى الطّاعة التي يجِب أن يمتَثِلوها ابتداءً، وعلى رأسِها الجهاد في سبيل اللّه تعالى.

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يُؤۡتِكُمُ﴾:

تجدُّد العطاء الإلهيِّ بتجدُّد الطّاعات

دلَّ التَّعبير بصيغة المضارع في جواب الشَّرط ﴿يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ﴾ على تجدُّد عطاء اللّه تعالى وإيصاله إلى المستجيبين، فكلَّما تجدَّدت الطّاعة، وحدث الخضوع والتَّسليم والانقياد والإذعان؛ آتاهم اللّه تَعالى أجرًا حسنًا، ففيهِ ترغيبٌ بالحرص على الطّاعة والانقياد لأمر اللّه تعالى في الجهاد؛ تكفيرًا عن الذُّنوب الماضية، وتحصيلًا للأجر العظيم القادم.

نكتةُ ذِكر الاسمِ الأحسَنِ:

الدّلالةُ على طلاقةِ القُدرة وعمومِ الإحاطةِ

أُسنِدَ فعلُ الإيتاء إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ﴾؛ تعظيمًا لهذا العطاء وتشريفًا لَه، وتنويهًا بأنَّ فاعله هو الجامع لصفات الجلال والكمال والجلال، وله الإحاطة والقدرة التّامَّتانِ على الإعطاء والمنع[1]، ولم يُذْكَر الاسمُ الأحسن مع فعل الطّاعةِ في قوله: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ﴾ للعلم به، وللنَّصِّ عليه في ذكره فاعلًا مع الإيتاء والعطاء في قوله: ﴿يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ﴾.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 312.

غرضُ تنكيرِ المفعول:

تعظيمُ الأجرِ وشمولُهُ لأجرِ الدُّنيا والآخرة

نُكِّر المفعول به ﴿أَجۡرًا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ﴾ لإرادة التَّعظيم، فهو أجرٌ عظيم من اللّه تَعالى يكافئ إذعانكم وطاعتكم، كما أفاد العموم كذلك، فـ ﴿أَجۡرًا﴾، وإن كان نكرةً في سياق الإثباتِ، وهي تدلُّ على الإطلاق، إلّا أنَّ مجيئَها في سياقِ الامتنانِ يُصيِّرها مفيدةً العموم، فهو أجرٌ ليس مقصورًا على أجر الدُّنيا، بل شامل أجرَ الدُّنيا والآخرة، فهو الغنيمة في الدُّنيا والجنَّة في الآخرة، ولو عُرّفَ؛ لتوُهِّم إرادةُ العهدِ العلميِّ، وأنَّه مختصٌّ بأجر الآخرة، فكان التَّنكير أقوى في الحثِّ على العمل، وأدعى لذهاب النَّفس في أنواع الأجور الآتية في حسنها من المُحْسِن ﷻ، ولذا وُصِفَ بقولهِ: ﴿حَسَنٗاۖ﴾، أي: خالصًا كاملًا لا نقص فيه، وهو وصف يوقِظُ فيهم روحَ القتال.

دلالةُ العطف وفائدته البيانيَّة:

بيانُ حالِ العصيان بعد بيانِ حالِ الإذعانِ

جاء عطف ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾ على الشَّرط المذكورِ قبلُ في قوله: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ﴾، لاستكمال طرفَي موقف المخاطَبين بين الاستجابة للقتال، والتَّولّي عنهُ؛ لبيان أنَّ الموقفين محتملان منهما، فوارد أن يكون منهم قتالٌ وطاعة؛ تكفيرًا عمّا سلف مِنْهم من تقصيرٍ، ووارِدٌ أن يكون منهم التَّولّي والإعراض، فقد كان هذا دأبَهم في السّابق.

براعةُ تقديم الطّاعة على التَّولّي:

حثُّ المخلَّفين على الطّاعة بتربيتهم على سماع ما يأنسون به

قُدِّم ذِكْرُ الطّاعة ﴿فَإِن تُطِيعُواْ﴾ على التَّولّي ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾ في الشَّرطَيْن، وجاء ذلك حثًّا على الطّاعة وترويضًا للمُخاطَبين على سماع ما يأنَسون به من الظَّنِّ الحسن بهم، فالنَّظم القرآنيُّ يومئ إلى أنَّ الطّاعة هي الأقرب منهم، وهي الأدنى من صنيعهم، وهذه قيمة تربويَّة يُخاطَب بها النَّظم القرآنيُّ هؤلاء المُخَلَّفين بقَصْدِ حثِّهم وترغيبهم على العمل، بخلاف ما لو عُكِسَ، فقُدِّم ذِكْرُ التَّولّي؛ لأوقعَ

في نفوسهم أنَّه لا يُتوقَّع منهم إلّا التَّولّي، فيكونَ فيه إشعارٌ بأنَّهم ليسوا أهلًا للعمل الشَّرعيِّ.

دلالةُ صيغة التَّفعُّل:

مخالفةُ فطرة الإيمان كلفةٌ شديدة ومنازعةٌ عنيدة

لمّا كانت مخالفة الرَّسول ﷺ ومن يقوم مقامه لا تكون إلّا مِن منازعة في الفطرة الأولى ومعالجةٍ لها؛ عُبِّر بصيغةِ التَّفعُّل، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾ عن قَبول دعوَتِه عِصيانًا[1]، فدلَّت صيغةُ التَّفعُّل على أنَّ التَّولّيَ والعصيانَ مخالف لِمَنازع الفطرة السَّويَّة، وفيه تكلُّفُ مخالفةِ أصل الإيمان، وتلاوة القرآن الَّذي سمعوه.

دلالةُ التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿تَتَوَلَّوۡاْ﴾:

تقبيحُ حال التَّولّي والإعراض

دلَّت صيغة المضارع للفعل ﴿تَتَوَلَّوۡاْ﴾ من قول اللّه تَعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ على تصوير حال التَّولّي؛ تقبيحًا لَها وبيانًا لِما فيها من الإعراض والإدبار عن الحقِّ والخير.

بلاغةُ التَّشبيهِ وغرضُه:

تبشيعُ صورة التَّولّي بالتَّذكير بما كان من أعمال العصيانِ

الكاف في ﴿كَمَا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ دالَّةٌ على التَّشبيه، وهو تشبيهٌ في مطلق التَّولّي؛ قصدًا إلى التَّبشيعِ والتَّشويه، وليس ذلك تشبيهًا فيما يترتَّب على التَّولّي[2]، وذلك لاختلاف المترتِّب على الحالَيْن، إحداهما: إرجاءُ التَّوبة بهذا العرض والاختبارِ، والأخرى: يتبعها عذابٌ أليم.

فقد شبَّه القرآنُ الكريمُ هيئة تولّيهم الثّانية بهيئة تولّيهم الأولى، وذلك في الحديبية، بجامع الإعراض والصَّدِّ في كلٍّ منهما، وفي هذا تبشيع لهيئة التَّولّي والإعراض وتشويه لصورته؛ ليرْتَدِعوا، وينفِروا منها، فلا يُعيدوا ما وعَدوا بتركِه، ويهتبلوا فرصة إحراز التَّوبة الصّادقة بالإقدام على القتال دون إدبارٍ عنه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 313.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 172.

مَعْنى ﴿مِّن﴾ ودلالتها:

إلماحٌ إلى التَّأنيب والتَّعنيف

﴿مِّن﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الابتداء، أي: إنَّ ابتداء تولّيكم كان يوم الحديبية، ووراءه إيعازٌ بالتَّأنيب والتَّعنيف واللَّوم، وفيه تذكير بما اقترفوهُ معَ رسول اللّه ﷺ مِن نكارةٍ وعصيان.

كما أنَّ في ﴿مِّن﴾ توكيدًا، وهو معنًى غالبٌ عليها؛ إذا قُرِنَت بـ (قبلُ) و(بعدُ).

غرضُ ذِكر الظَّرف ﴿قَبۡلُ﴾:

التَّذكيرُ بالماضي المذموم لئلّا يُكرَّر

جاء التَّعبير بالظَّرف ﴿قَبۡلُ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾؛ تذكيرًا للمُخاطَبين بماضيهم المذموم؛ كَي يرتدعوا عن الرُّجوع إليه، ويعتبروا منه في قابل الأيّام.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المُضارع ﴿يُعَذِّبۡكُمۡ﴾:

استحضارُ صورة العـذاب لتنفير النُّفوس عنه

دلَّت صيغةُ المضارع للفعل ﴿يُعَذِّبۡكُمۡ﴾ - في جواب الشَّرط من قول اللّه تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ - على استحضار صورة التَّعذيب؛ لتنفير النَّفس من بَشاعتها، والارتِداع عن الوقوع في أسبابها وموجِباتِها، وبيانِ أنَّ التَّعذيب كان بسبب ما صدر عنهم من التَّولّي الّذي كانت له بداية قبيحة، واستمرارٌ أقبح، فكان الجزاء من جنس العمل.

غرضُ التَّعبير بالمفعول المُطْلَق ﴿عَذَابٗا﴾:

الـتَّـأكـيـدُ على تحقُّقِ العـذابِ ودفـــعِ تَـوهُّـمِ المجاز

آثر النَّظمُ الكريم ذِكْرَ المفعول المطلق ﴿عَذَابٗا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾؛ تأكيدًا على تحقُّق عذابهم - إن هُم تولّوا، وأعرضوا - جزاءً وفاقًا، ودفعًا لتوهُّم إرادةِ المجاز في لفظ ﴿يُعَذِّبۡكُمۡ﴾، فبيَّن المفعولُ المطلق بأنَّه عذابٌ على الحقيقةِ لا يحتمل التَّأويل، فيكون فيه دلالةٌ على شدَّته ممّا يومئُ إلى غضب اللّه تعالى عمّا يمكِنُ أن يَصدر عن المُخَلَّفين من الإدبارِ والتَّولّي مرَّة أخرى.

سرُّ اختيار صفة ﴿أَلِيمَا﴾:

تعذيبُ المُخلَّفين بجنس ما ألحقوهُ بالمؤمنين من العذابِ

جاء المفعول المطلقُ مقيَّدًا بالصِّفة ﴿أَلِيمَا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمَا﴾؛ لبيان نوع العذابِ وشدَّته؛ إن هُم تولّوا، وأعرضوا، وأنَّ هذا العذاب سيكون شديدَ الإيلام في الدُّنيا بالسَّيف والقتل، وفي الآخرة بالنّار والحرق، والألمُ إحساس داخليٌّ يُصيب المتألِّم يكون أشدَّ ممّا يظهر على جسَدِه، ومناسبة هذا اللَّفظ أنَّ المُخَلَّفين لمّا تخلَّفوا عن الجهاد؛ ألحقوا ألمًا بأهل الإسلام، فناسب ذلك أن يكونَ عذابُهم أليمًا جزاءً وفاقًا، ولذلك آثر النَّظم الكريم وصف العذاب به، دون وصفه بالعِظَم أو الكِبَرِ ونحو ذلك.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الإيتاء والإعطاء:

الإيتاء أقوى من الإعطاء؛ لدلالَته على القَبول والرِّضا

الإعطاء هوَ اتِّصال الشَّيء إلى الآخِذ له ألا ترى أنَّك تُعْطي زيدًا المال؛ ليَرُدَّهُ إلَى عَمرو وتعطيه؛ ليتَّجر لَك به، ثمَّ كثر استعمال الإعطاء حَتّى صار لا يُطلق إلّا على التَّمليك، فَيُقال: أعطاهُ مالًا إذا ملَّكه إيّاه، والإعطاءُ لا يَقْتَضي إِخْراج المُعْطى من الملك، وذلِكَ أنَّك تُعْطي زيدًا المال ليَشْتَري لَك الشَّيء، وتعطيه الثَّوْب ليخيطَه لَك، ولا يخرج عَن ملكك بذلك[1].

فالإعطاء بذلك يشمل المعنيين: التَّمليكَ وعدمَه، حسب المقام والسّياق وقرائن الأحوال.

أمّا الإيتاء؛ فكلُّ مَوضِع ذُكر في وصف الكتاب (آتَيْنا)؛ فَهوَ أبلغ؛ لأنَّه يُقال فيمَن كانَ مِنهُ قبول، والإيتاء: أقوى من الإعطاء؛ إذ لا مُطاوع له، يُقال: آتاني فَأَخَذتُه، وفي الإعطاء يُقال: أعطاني، فَعَطَوْتُ؛ وما له مُطاوع أضْعَف في إثبات مَفعوله مِمّا لا مُطاوع له؛ لأنَّ الإيتاء في أكثر

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 167.

مَواضِع القُرآن فيما له ثبات وقرار، كالحكمة والسَّبع المثاني، والملك الَّذي لا يُؤتى إلّا لذي قوَّة، والإعطاءُ: فيما ينتَقل مِنهُ بعد قَضاء الحاجة منهُ كإعطاءِ كلِّ شَيءٍ خَلْقَهُ؛ لتكرُّر حُدوث ذَلِك باعتبار الموجوداتِ، وإعطاء الكَوْثَر للانتقال مِنهُ إلى ما هوَ أعظم منه، وكَذا ﴿يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: 5]؛ للتَّكرُّر إلى أن يرضى كلَّ الرِّضا[1].

ولَزِم من إبرازِ الفَرق بينَهُما أنَّ الإيتاء هنا في قول اللّه تَعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًاۖ﴾ أقوى وأنسبُ من (يُعْطِكم)؛ لأنَّ الإيتاء يُنْبئ عن القبول والرِّضا، وهو يدلُّ على ثبات العطيَّة وقرارِها.

التَّولّي والإعراض:

التَّولّي إدبارٌ يُرجى معه الرُّجوع، والإعراضُ انصرافٌ بالقلب

التَّولّي: الإعراض مُطلقًا، ولا يلْزمه الإدبار، فَإنَّ تولّي الرَّسول ﷺ عَن ابن أمِّ مَكتوم لم يكُن بالإدبارِ، والتَّولّي بالإدبار قد يكون على حَقيقَته، كَما في قَوْله تَعالى: ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: 57]، وقد يكون كِنايَةً عَن الانهزام، كَما في قَوْله تَعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥﴾ [التوبة: 25]، والتَّولّي: قد يكون لحاجَة تَدْعو إلى الانصراف مَعَ ثُبوت العقد، والإعراضُ: الانصِراف عَن الشَّيء بالقَلب، فالمُعرض والمتولّي يشتركان في ترك السُّلوك، إلّا أنَّ المعرض أسوأ حالًا؛ لأنَّ المُتَوَلّي مَتى نَدِم؛ سهل عَلَيهِ الرُّجوع، وأمّا المُعرض؛ فإنَّه يحْتاج إلَى طلبِ جَديد، والجمع بَينهما غايَة الذَّمِّ[2]، وأعْرض: ذهب عرضًا وطولًا، وأعرض عَنهُ: صدَّ[3].

والتَّولّي في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾ يكونُ بالإدْبارِ، والتَّعبير به مع المُخَلَّفين يشير إلى أنَّهم لا يزال يُرجى منهم الخير؛ لأنَّه ليس انصرافًا عن الشَّيء بالقلب كالإعراض، ومِن ثَمَّ يسهُل عليه الرُّجوع، وقد رجع منهم كثيرون، وتابوا، وحسُنَت توبَتُهم.

(1) الكفوي، الكليات، ص: 212.
(2) الكفوي، الكليات، ص: 28.
(3) الكفوي، الكليات، ص: 624.

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٧﴾ [الفتح: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من الوعيد لعموم المتخلِّفين إلى رفع الحرج عن أصحاب الأعذارِ

لمّا اشتملتِ الآيةُ السّابقة على وعيدِ المُتَخَلِّفين عن الجهادِ مع رسول اللّه ﷺ، وكان الوعيد شاملًا لكلِّ من تخلَّف عنه ﷺ؛ ناسب بيان من لا يشمله الوعيد على سبيل الاستثناء، بذكر الخبَر الموجب رفْعَ الحرج عن أصحاب الأعذار، فهو انتقال من الوعيد العامِّ لجميع المتخلِّفين، إلى تخصيص بعضهم؛ لِما يعتريهم من عوارضَ تمنَعُهُم مِن مزاولةِ القتال(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾: (عمي) تدور تصريفاتُه على سَترٍ وتَغطيَة، ومن ذلِكَ العَمى، وهو ذَهابُ البَصَرِ مِنَ العَينَينِ كِلتَيهِما، والفِعلُ مِنهُ: عَميَ يَعْمَى عَمًى(2).

ويُقال العمى: في افتقاد البصَر والبصيرة، وهو في الآية من افتقاد البصَر؛ لأنَّه في مقام رفع الحرجِ، وجمع أعْمَى: عُميٌ وعُميانٌ(3)، ولو كان مِن افتقادِ البَصيرةِ لَلَحِقَ صاحبَه اللَّومُ والوعيدُ.

2) ﴿حَرَجٞ﴾: (حرج) تدلُّ اشتقاقاته على تجمُّع الشَّيء وضيقه، ومنهُ: الحَرَج والحراج، وهوَ مجتمع الشَّيئين، وتُصوِّر منه ضيقُ ما بينهما، فقيل للضَّيّق: حَرَج، وللإثم حَرَج، قال اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 313.

(2) أحمد بن فارس، مقاييس اللغة: (عمي).

(3) الراغب، المفردات: (عمي).

﴿يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا﴾ [النساء: 65]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: 78][1]، والمراد به هنا: الذَّنب والإثم.

3) ﴿ٱلۡأَعۡرَجِ﴾: (عرج) تدور تصريفاتُه على أصولٍ ثلاثةٍ، مِنها: دلالتُها على المَيْلِ وعلى الصُّعودِ، ومنهُ: العُروجُ، وهو ذهابٌ في صعود، كما قال اللّه تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج: 4]، وقال سُبحانه: ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤﴾ [الحجر: 14]، والمَعارِجُ: المصاعد، وليلةُ المعراجِ سُمّيت بذلك؛ لصعود الدُّعاء فيها، وعَرَجَ عُروجًا وعَرَجانًا؛ إذا مشى مَشْيَ العارِجِ، أي: الذّاهب في صعود، كما يُقال: درَج؛ إذا مشى مشيَ الصّاعد في درجه، وعَرِجَ: صار ذلك خِلْقَةً له[2]، وهو بسببِ ما يعتريه في رجلِه مِن أذًى.

4) ﴿ٱلۡمَرِيضِ﴾: (مرض) تدلُّ اشتقاقاتُه على ما يخرج به الإنسان عن حيِّز الصِّحَّةِ[3]، ومِنهُ: المَرَضُ، وهو الخروج عن الاعتدالِ الخاصِّ بالإنسان، وذلك ضربان: أحدهما: مَرَضٌ جسميٌّ، وهو المذكور في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ﴾، والآخَرُ: عبارة عنِ الرَّذائل كالجهل، والجُبْن، والبُخل، والنِّفاق، وغيرها من الرَّذائل الخُلقيَّة، نحو قول اللّه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾ [البقرة: 10][4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

سماحةُ الشَّريعةِ في التَّخفيف عن أصحاب الأعذار

رفع اللّه تعالى في هذه الآية الحرج عن ذوي الأعذار في باب القتال، وهذه رحمة الإسلام بالمكلَّفين؛ إذ لا يُحاسب إلّا القادر، ولا يكلِّف اللّه تعالى نفسًا إلّا وسعها، ولذا يقول: ليس على الأعمى

(1) الراغب، المفردات: (حرج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرج)، والراغب، المفردات: (عرج).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرض).
(4) الراغب، المفردات: (مرض).

ذنبٌ أو إثم في تخلُّفه عن رسول الله ﷺ، وليس على الأعرج حرجٌ كذلك، ولا على المريض حرجٌ أيضًا في ترك الجهاد؛ إذ لا قدرة له عليه، ومن يطع الله تَعالى، ويطع رسول الله ﷺ في كلِّ أمرٍ ونَهْيٍ يُدْخله جنّات تجري من تحتها الأنهار، ومَن يتولَّ مُعرِضًا عن أمر الله سُبحانه وأمر رسوله ﷺ مُؤْثِرًا نفسَه وهواه، يُعذِّبه عذابًا أليمًا، ويدخله جهنَّم، وساءت مصيرًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

رفْعُ الحرجِ عن الزَّمنى دونَ سؤالٍ أو عتابٍ

أثار وعيدُ المُخلِّفين الخوفَ في نفوس المؤمنين من عموم الوعيدِ لَمن تخلَّف عن القتال، فحرَّك سؤالًا في نفسِ المخاطَب، فحواه: إذا كان هذا الوعيد للمُخَلَّفين؛ فما بال أهل الزَّمانة وذوي الأمراضِ، هل يلحقهم مِن الإثم ما لحِقَ هؤلاء؟ فجاء قول الله تَعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾ استئنافًا بيانيًّا مفصولًا عن سابقه، كما يُفْصَلُ الجواب عن السُّؤال؛ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصال بين الآيتين، مع ما فيه من حُسنِ البيان في الكشف عن سماحة الإسلام؛ إذ لم يُعْوِزْهُم إلى التَّصريح بالسُّؤال، وإنَّما أجابهم رافعًا عنهم الحرَجَ الَّذي يختلِج في نُفوسِهم.

غرضُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

مراعاةُ أصحاب الأعذار الدّائمة بدوام نفي الحرج عنهم

جاء قول الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾ جملة اسميَّة منفيَّة بـ﴿لَّيۡسَ﴾؛ ليدلَّ على نفي الحرج على الدَّوام، فهو نفيٌ ثابت لا يتغيَّر بتغيُّر الأحوال، فكما أنَّ مرض الأعمى والأعرج ثابتانِ، فكذلك رفْعُ الإثم عنهما، وأمّا المريض؛ فهو كذلك ملحقٌ بهما؛ لأنَّ المراد به على الغالب المَرَضُ المُزْمِن، بخلاف الطّارئ فعذرهُ

(1) الحجازي، التفسير الواضح: 3/ 487.

طارئ، ويُرفع عنه العذر بمجرَّد الصِّحَّة، وهذا من كمال رأفة دين الإسلام وسماحتِه.

غرضُ تقديمِ متعلّق خبرِ ليس على اسمها:

مواساةُ أهلِ الأعذارِ بذِكْرِ سبَبِ رفعِ الحَرَجِ ابتداءً

قُدِّم المسنَدُ ﴿عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ﴾، وهو متعلِّق خبرِ ﴿لَّيْسَ﴾، على اسمها، وهو: ﴿حَرَجٌ﴾ مِن قول اللّه تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾؛ للتَّصريحِ بذكر سبب رفْعِ الحرج ابتداءً، وهو العمى، فهو تقديم السَّبب؛ ليُعلم المقصود وتحقيق توقُّعه قبل ذِكره، مع ما فيه من مراعاة الصِّناعةِ النَّحويَّة، وهو كونُ الاسمِ نكرةً، فالتَّقديم يَحْمِل في مضمونه مواساة أصحاب الأعذار والاهتمام بهم، والتَّأكيد على عدم التَّغافل عنهم أو تجاهلهم.

نكتةُ استعمال حرف الاستعلاء:

نفيُ الحرجِ عن أصحابِ الأعذارِ يَقْتَضي ثبوتَ الحَرَجِ عن غيرهم

جاء استعمال حرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾؛ ليرفعَ عن كاهله اللَّوم وتأنيب الضَّمير، فإنَّ الحرج مرفوعٌ جملةً عن الأعمى والأعرج والمريض، وفيه تنبيهٌ على أنَّ الحرج واقعٌ في حقِّ مَن هو بخلاف أولئك المذكورين ومَن في حكمهم.

نكتةُ تنكير لفظ ﴿حَرَجٌ﴾:

التَّنبيهُ بنفي الأدنى على نفي الأعلى

نُكِّر المسندُ إليه - اسم ليس - وهو لفظ ﴿حَرَجٌ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾؛ لإرادة التَّقليل، وذلك ليُرفع عنهم أدنى درجات الحرج والضّيق، حتى تقرَّ عيونُهم أبدًا، أي: ليس عليهم أقلُّ الحرج، وإذا نُفي أقلُّ الحرج وأدناه؛ فإنَّ نفي ما فوقَ ذلك مِن بابٍ أولى وأحرى.

دلالةُ العَطف ومقصدُه:

رفْعُ الحرجِ عن الأعرجِ تابعٌ لحُكم رفعِه عن الأعمى

عُطِف على جملة: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ قولُه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾؛ للتَّوسُّط بين الكمالين، فهما جملتان خبريَّتان لفظًا ومعنًى، بينهما رابط قويٌّ، وهو رفْعُ الحرج عن الأعرج، وذلك لجعل

الأعمى - وهو أشدُّ أنواع المرض المُبعد عن القتال - أصلًا، وما بعده معطوفًا عليه؛ ليأخذ حكمَه، مع إرخاء الشُّعور بالراحة، وهو امتداد لإبراز سماحة الإسلام.

فائدةُ تكرار لفظ (حَرَجٌ):

رفْعُ الحرجِ عن كلِّ نوعٍ أقوى في تطييب النُّفوس

جاء تَكرار لفظ (حَرَجٌ) في الجمل الثَّلاث المعطوفة، وذلك في قول اللّه تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ﴾؛ للعناية بحالِ كلِّ منهم على سبيلِ الاستقلالِ، وللإشعار بأنَّ تقديم الأعمى في الذِّكر، لا يعني التَّبعيَّة الكاملة، بل لكلٍّ منهم حرجٌ مرفوعٌ يخصُّه؛ إمعانًا في تطييب نفوسهم، ورفعِ الضّيق عنهم.

نكتةُ تَكرار النَّفي بحرف (لا):

تـأكـيـدُ نـفي الـحـرج ودفْـعُ توهُّم الاجتماع

كُرِّر النَّفي بحرف (لا) في قول اللّه تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ﴾؛ ليدلَّ على تأكيد نفي الحرج مع استقلاليَّة كلِّ عُذر في رفع الحرج؛ لئلّا يُتَوَهَّم اشتراطُ اجتماعِها في نفي الحرج.

ولمّا كانت (ليس) فعلًا للنَّفي من أخوات كان، وهي تشمل نفْيَ الحالِ والماضي والمستقبل، إلّا إذا خُصَّت بقرينة الحال[1]، وكانت (لا) لنفي الحاضر والمستقبل؛ بدأ بما هو لمُطْلَق النَّفي؛ ليعمَّ جميع الأزمنة، وهو (ليس) مسلَّطًا على الأعمى لفظًا وعلى ما بعده معنًى؛ ليستغرق نفيُ الحرج كلَّ زمان.

نوعُ ترتيب الأصناف الثَّلاثة وبلاغتُه:

الـتَّرتـيـبُ على طـريـق الـتَّـدلّي بـذكـرِ الأشـدِّ فالأخفِّ

بدأتِ الآية بذكْرِ الأعمى فالأعرج فالمريض، وذلك لأنَّ الأعمى أشدُّ أنواع المانِعات من القتال، ثُمَّ ثُنّيَ بالأعرج باعتبار وجود ما يمنعه مِن الحركة الكاملةِ، والقدرةِ على العمل المُتقَن، ثم ثُلِّثَ

(1) المرادي، الجنى الداني في حروف المعاني: 493 - 499.

بالمريض؛ ليَدْخُلَ فيه مجموعةٌ من أنواع الأمراض المزمِنة، أو الَّتي تحتاج إلى وقتٍ ممتدٍّ في علاجها، باعتبارِ الشُّمول والعموم، فيعمُّ بذلك جميعَ المرضى الَّذين تمنَعُهم أمراضُهم من القتال، فلَيسَ عَلى الأعمى حَرَجٌ، وإن أمكنَه القتال بإحساس صوتِ مَشْيِ العدوِّ ومشي فرسِه، لكن يصعُب عليه حفظُ نفسِه عنه، ولا عَلى الأعْرَجِ حَرَجٌ، أي: وإن أمكنه القتال قاعدًا، لكن لا يُمكِنُه الكرُّ والفرُّ، ولا يقوى قوَّةَ القائم، ولا عَلى المَرِيضِ حَرَجٌ، أي: فإنَّه وإن أمكنه الإبصار والقيام، فلا قوَّة له في دفْعِ العدوِّ، فضلًا عن الغلبة عليه[1].

معنى الواو ودلالتها:

الثَّوابُ والعقاب نــاشئٌ مِــن الـتَّـخـفـيـف في الشَّريعةِ

جاءت الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ عاطفة لقاعدة عامَّة ناشئة من التَّخفيف في الدّين حين أشار تعالى إلى أنَّ هؤلاء - وإن فاتهم الجهاد - لا ينقص ثوابهم؛ إذا أطاعوا اللّه تعالى ورسوله ﷺ، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾، أي: ومن يتولَّ عن طاعتهما، وإن كان أعمى أو أعرجَ أو مريضًا[2].

غرضُ التَّعبير بأسلوب الشَّرط بأداة (مَنْ):

الإيــمــاءُ إلى الـتَّـسـويـة بين العبادِ في أصلِ الطّاعة

دلَّ الشَّرطُ بأداة (مَنْ) في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ على العموم، فيدخل في ذلك المذكورون من أصحاب الأعذار دخولًا أوَّليًّا، وغيرُهم من الأصحّاء؛ ليقومَ كلُّ عبدٍ بما عليه من واجبٍ، وللإشارة إلى أنَّ كلَّ نفس رهينة بما كسبت من خير أو شرٍّ، لا فرق في ذلك بين عبد وآخر، بما يُفْهِمُ مَعْنى العُموم والشُّمول.

دلالةُ استعمال مفردة ﴿يُطِعِ﴾ مادَّةً وصيغة:

دلَّ استعمال فعل الشَّرط ﴿يُطِعِ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 496.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 497.

﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ على كون المطيعِ مقبلًا على اللّه تعالى، وذلك لمُقابلته فعلَ التَّولّي في الجملة المعطوفة، وهي ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾، ففيه مزيدُ مدح وثناء على المطيع المُقبِل، كما أنَّ صيغة المضارع تدلُّ على تجدُّد الطّاعة للّه تعالى ولرسوله ﷺ في كلِّ أمر بالامتثالِ، وفي كلِّ نهي بالتَّرك والاجتنابِ، ووراءَ ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ العباداتِ لا تُنتَقى، والطّاعاتِ لا تُختار.

تـضـمُّـن فعل الطّـاعـة معنى الإقبال

غرضُ التَّعبير بالاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

جاء ذكر الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ مفعولًا به لفعل الطّاعة؛ تعظيمًا وتقديسًا لهذه الطّاعة، وزرعًا للهيبةِ في النُّفوس، وبيانًا أنَّها مصدرُ أمنِ العبد في الدُّنيا والآخرة، وأنَّ الدّين لا يُؤْخَذ بالأهواءِ والتَّشهّي، وإنَّما يُؤخذ من عند اللّه تعالى، فالتَّشريعُ له وحدَه، والأمر والنَّهي بيده دون سواه.

الـتَّـشـريـعُ لله تعالى وحدَهُ

دلالةُ عطف الرَّسول على الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾:

عُطف قوله: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ على الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ الدّين لا يكمُل إلّا بالطّاعتَيْن؛ طاعةِ اللّه تَعالى وطاعة رسوله ﷺ، ولا يُمكن الفصل بينهما، أو استقلال إحداهما عنِ الأخرى.

بيانُ التَّلازم بين طاعةِ الله تعالى وطـاعـةِ رسوله ﷺ

غرضُ التَّعبير بجواب الشَّرط فعلًا مضارعًا:

جاء جواب الشَّرط ﴿يُدۡخِلۡهُ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ﴾ فعلًا مضارعًا؛ لتحفيزِ المؤمنين على استحضار صورة دخول الجنَّة؛ حثًّا على التَّمسُّك بِطاعة اللّه تعالى ورسوله ﷺ، وأنَّ جزاءَ ذلك سيكون يوم الجزاءِ.

استِحضارُ صورَة دُخولِ الجِنانِ

تعيينُ مرجِع الضَّمير في قوله: ﴿يُدۡخِلۡهُ﴾:

يرجع الضَّمير في ﴿يُدۡخِلۡهُ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ﴾ إلى (مَنْ) باعتبار لفظها؛ فإنَّ لفظها مفردٌ مذكَّر،

عمومُ البُشرى لكلِّ مُطيع

و(مَنْ) دالَّةٌ في معناها على كلِّ مَن يُطيع اللّه ورسوله ﷺ؛ لِما تقرَّر من أسماءَ الشَّرط مفيدةٌ العمومَ، وفائدة هذا زفُّ البشرى إلى كلِّ مطيع؛ لرَبْطِ الجزاء والثَّواب بالعملِ الصّالِح.

توجيهُ القراءات القرآنيَّة:

التَّكاملُ الدّلاليُّ للقراءاتِ

اختلف القرّاء في قول اللّه تعالى: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ و﴿يُعَذِّبْهُ﴾، فقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو جعفرٍ بالنّون: ﴿نُدْخِلْهُ﴾ و﴿نُعَذِّبْهُ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ و﴿يُعَذِّبْهُ﴾ بالياء[1]، ففي قراءة النّون التفاتٌ مِنَ الغَيبَةِ إلى التَّكلُّم، وهي أظهر في إرادة العظمة، وأدخَلُ في الإخافةِ والتَّرهيبِ، وأَبلغُ في الإنعام والتَّرغيب[2]، وفيها إيماءٌ إلى قدرة اللّه جلَّ في علاه، وأنَّ زمامَ أَمر الثَّواب والعقاب في الآخرة بيده وحده دون سواه، وقِراءة الجُمهور بالياءِ فيه جَرْيٌ عَلى أُسلوبِ الغَيبَةِ بِعَودِ الضَّميرِ إلى الاسم الأحسَن ﴿ٱللَّهَ﴾[3].

فائدة جمع ﴿جَنَّٰتٍ﴾ منكَّرًا:

تعظيمُ الجنّات في الأذهان وتفخيمُ شأنِها في الآذان

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بصيغة الجمع المُنَكَّر لِلَفْظ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ مِن قول اللّه تعالى: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ وذلك لتعظيم تلك الجنّات وتفخيم شأنها، وبيان أنَّها جنّات تناسبُ سعةَ عطاءِ اللّه تَعالى، كما يُفيد الجمعُ الكثرةَ بما يتوافق مع مقام الثَّواب على الطّاعات، فإنَّ اللّه تعالى أعدَّ جنّاتٍ كثيرةً لعبادِه، وكثرة الجنّاتِ وتنوُّعُها هو بِحَسَبِ دَرجاتِ أهل التَّقوى، فإنَّهم في رُتَبٍ متبايِنَةٍ حسَبَ تحقُّقِهم مِن كَمالاتِ التَّقْوى.

وفي إبهامِ الجنّات فائدةٌ في تحريك الأذهان؛ لتذهَب النَّفسُ كلَّ مذهبٍ في تصوُّر جلالها وجمالها وبهائها.

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 248.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 315.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 172.

بلاغةُ الوصفِ بالجملة الفعليَّة:

مِن كمال النَّعيم تمام راحة المُقيم

قُيِّد لفظ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ في قول الله تعالى: ﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بالصِّفة؛ ليدلَّ على كمال النَّعيم وتمام المنَّة، فوُصِف المفعول به بجملة: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ لتفخيم هذه الجنّات وبيان ما توحي به من جمالٍ وجلال، فإنَّ الصِّفة تُزيل شيئًا من إجمال الموصوف، فتَنْقُله من الإبهام المحضِ إلى شيءٍ مِنَ البيان، وهو المُسمّى بالتَّخصيصِ، وقد أفاد التَّعبيرُ بالفعل المضارعِ ﴿تَجۡرِي﴾ استحضارَ صورة النَّعيم؛ ليرى المؤمنُ كمالَ نِعَم الله تعالى عليه بما أولاه إيّاه من نعيمٍ في المَظْهَر والمَخْبَر؛ ليُمتِعَ بذلك الجسدَ والبصر، والنَّفس والرّوح.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتها:

تزيينُ الجنَّة في قُلوب العِباد للتَّشويق إلَيْها

﴿مِن﴾ في قول الله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الابتداء، وقد أفاد أنَّ جريان الأنهار يبدأ من تحتِ تلك الجنّات، وأنَّها أسفل الجنّات، وهو ما يزيدُها جمالًا في نفسِها وشوقًا إليها.

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

جمالُ الجنَّة وجمالُ ما اشتَمَلَت عليه مِنَ النَّعيم

أصلُ الجَرْي في كلام العربِ: شِدَّةُ سُرعةِ المَشيِ، وإطلاقُهُ على سَيَلان الماء سَيلًا متكرِّرًا مُتَعاقبًا مَجازٌ[1]، وفي تخريجه مَسْلَكانِ:

أحدهما: أنَّه مجازٌ بالاستعارَةِ، ووجهُهُ: أنَّه شُبِّهَ سيَلان الماءِ سَيلًا مُتكرِّرًا متعاقِبًا لشِدَّة سُرعة المشيِ؛ لجامِعِ سُرعة الانتِقال والحركةِ في كلٍّ منهما، فيكونُ مِنَ الاستعارَةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

والآخَرُ: أنَّه مجازٌ مُرسَلٌ بعلاقةِ الإطلاق والتَّقْييد، فأصلُ الجري: شدَّةُ سُرعة المشيِ، ثُمَّ أُطلِقَ عَن قَيْدِ المشيِ، واستُعمِلَ في شِدَّة السُّرعةِ مطلقًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 354.

وهو على كِلا الوَجهَين أدخَلُ في مَدْحِ الماءِ الجاري؛ لاقتِضائهِ المُبالغةَ في جِدَّته بشدَّةِ جَرْيِه.

غرضُ تقديم شبه الجملة على الفاعل:

الإنباهُ إلى ما في المقدَّم من عجيبِ الأنباء

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على الفاعل ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ من قول الله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ يكون محطُّ القدرةِ أمامَ النَّفس، وذلك بتقديم متعلِّقات الفعل على الفاعل؛ ليثير كوامن دَهشَتِها؛ إذِ التَّحتيَّة هي محلُّ التَّعجُّب، فالجنّات تجري الأنهارُ من تحتِها في حالٍ بديعَةٍ تأخذُ بالعُقول والألباب، فكان في التَّقديم تنبيهٌ على أهمّيَّة الالتفات إلى نعمة المُقدَّم ذِكْرُه؛ لِما فيهِ مِنَ العَجَبِ العُجاب.

نكتةُ جمعِ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وتعريفِها:

بيانُ كثرةِ أنواع الأنهار المذكورة في القرآنِ

جاء المسند إليه في قول الله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ جمعًا؛ لبيان أنَّ الماءَ الَّذي يجري تحتَ تلك الجنّات ليس مقصورًا على نهرٍ واحد، وإنَّما هو أنهارٌ متعدِّدة لا تَتناهى، وهذا الجمع أظهرها في أبدع صورةٍ وأعجب مشهَدٍ.

و(أل) في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ من قولِ الله تعالى: ﴿يُدۡخِلَهُۥ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ لِتَعْريفِ الجِنسِ[1]، فتَكونُ في قوَّة النَّكرةِ.

ويَحتَمِلُ أن تكون لِلعَهدِ التَّقديريِّ، وذلك أنَّه لَمّا ذُكِرَتِ الجنّاتُ؛ استَحضَرَ السّامعُ لوازمَها ومقارناتِها، فساغَ للمتكلِّم أن يُشير إلى ذلك المعهودِ، فجيءَ بـ(أل)[2]، ويَحتَمِل أن تكون لِلعَهْدِ الخارجيِّ، والإشارةُ فيه إلى قَولِ الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ [محمد ﷺ: 15][3].

ولَم تُضَفِ الأنهارُ إلى ضمير الجنّاتِ بأن يقال: (تَجْري من

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 107.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 354 - 355.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/ 69، والآلوسي، روح المعاني: 1/ 204.

تحتِها أنهارُها)؛ لِما في الإضافة مِن كُلْفَةٍ في الكلام، وللتَّنْبيه على أنَّ نعمةَ الأنهارِ مُسْتقِلَّةٌ، فيكون التَّمَتُّع بها تنعُّمًا مستقِلًّا لا تبعًا للجَنّاتِ[1].

ومالَ ابنُ عاشور إلى أنَّ تعريفَ الأنهار إنَّما هو للتَّفنُّن؛ لئلّا يُعادَ التَّنكيرُ مرَّةً أخرى بعد تنكيرِ (جنّات)[2].

دلالةُ العطف بَيْنَ المتقابِلَيْن:

العاقِلُ يَختارُ ما حَسُنَت عاقِبَتُه

عطْفُ فعل ﴿يَتَوَلَّ﴾ على فعل ﴿يُطِعِ﴾ - من قول اللّه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ - يقتضي الجمعَ بين مَشهَدَين مُتقابلَين، وهما المُطيع المقبل على اللّه تعالى، والمُتَوَلّي المُعْرِض عن اللّه تعالى؛ لتوضَع الحالانِ أمام العاقل يختارُ أيَّهما شاءَ، وعطْفُ الجملتين المتقدِّمتين من بابِ التَّوسُّط بين الكمالين؛ لاشتراك الجملتينِ خبرًا، وبينَهما مناسبة في اللَّفظ والمعنى، فأمّا التَّناسُبُ اللَّفْظيُّ؛ فاتِّحاد الجملتينِ في الفِعْليَّة والمضارعيَّة، وأمّا التَّناسُبُ المعنويُّ؛ فلِما بينَهما من الجامعِ الوهميِّ وهو التَّضادُّ.

بلاغةُ استعمال أسلوب الشَّرط:

إظهارُ العدل الإلهي في اختيار طريق الرُّشد من الغيِّ

جاء التَّعبيرُ بأسلوب الشَّرط في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ ليبرز عقاب العاصي المعرض في مقابلة ثواب المطيع المقبل على اللّه تعالى، وفي ذلك بيانُ أنَّ التَّولّي هو سببُ العذاب، كما أنَّ الطّاعة هي سبب دخولِ الجنّات، وأنَّ اللّه تعالى لا يظلِم أحدًا، وإنَّما هو اختيارُ العبد لطريقِه في الدُّنيا، الموصل إلى أحد المآلين في الآخرة، فكانَ الشَّرط مُظهِرًا العدْلَ الإلهيَّ في إرخاء عِنانِ الاختيار للعباد، وإعلامهم بما يترتَّب على كلِّ طريق، ليَحْمِل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 355.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 355.

النَّفس على التَّسليم والإذعان لمراد اللَّه سُبحانَهُ، مع ما في ذلك من التَّرهيب عن الإعراضِ عن اللَّه تَعالى والتَّرغيب في الإقبال عليهِ.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿يَتَوَلَّ﴾ مادَّة وصيغة:

المتولّي كارهٌ للطّاعة مدبرٌ عن الحقِّ

دلَّ فعل الشَّرط ﴿يَتَوَلَّ﴾ من قول اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بمادَّته على تبشيع صورة الإعراض عن اللَّه تعالى والتَّنفير منها؛ إذِ التَّولّي هو الإعراض مع كراهية المُعْرَض عنه، فتضمَّن بذلك معنى المعصيةِ الشَّنيعة، وذلك بدلالته اللُّغويَّة، ومقابلته لِفِعْل ﴿يُطِعِ﴾، ودلَّ بمُضارعيَّته على أنَّ المراد: من يتجدَّد منه التَّولّي، ولا يجِد من نَفْسِه دافعًا يستحثُّه على الرُّجوع إلى اللَّه تعالى، فالتَّولّي المترتِّب عليه العذاب الأليم هو المداومُ عليه إعراضًا عن الطّاعة، بخلافِ ما وقعَ عارضًا من غيرِ كراهيةِ المُعرَضِ عنهِ، بل وقعَ لغلبةِ الشَّهوةِ والهَوى، فإنَّ صاحبَهُ وإن كان مؤاخذًا في الحالِ إلّا أنَّه مظنَّةُ الرُّجوعِ والأوبَةِ، وما كان كذلك؛ فهو أحرى بقبولِ اللَّه تَعالى توبتَهُ وأوبتَهُ.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿يُعَذِّبْهُ﴾ مادَّةً وصيغة:

الجزاء من جنس العمل، ومن ألحقَ العذابَ بالمؤمنينَ عُذِّب

جاء استعمال مفردة ﴿يُعَذِّبْهُ﴾ جوابًا للشَّرط ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ التَّولّيَ لونٌ من ألوان العذابِ الَّذي يُلحقه المعرض بجماعة المؤمنين، فإنَّ التَّولّيَ عن الطّاعة، والإعراضَ عن القتال في سبيل اللَّه تعالى يُلحق الضَّرر بالمؤمنين، ولذا جاء الثَّناء بعدها على المؤمنين، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، فناسب ذِكر العذاب؛ لأنَّ الجزاء من جنس العمل، فمَن أعرض، وتولّى، وهو يعلم أنَّه يُلحق الأذى والضَّرر والعذابَ بأهل الإيمانِ، فإنَّه مستحقٌّ العذابَ الأليم.

وجاء التَّعبيرُ عن فعل العذابِ بصيغَةِ المُضارعِ زيادةً في التَّرهيب

والتَّهويل والوعيدِ، وإيماءً إلى تجدُّدِ العذابِ على المتولّي كما كان هوَ مجدِّدًا الإعراضَ.

غرضُ تنكير لفظ ﴿عَذَابًا﴾:

تهويلُ العذاب وتفظيع شأنه

نُكِّر لفظ ﴿عَذَابًا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ تهويلًا وتفخيمًا لِشأن العذاب وتفظيعًا لحاله؛ لِما في تنكيرِ لفظِ ﴿عَذَابًا﴾ من الإبهامِ، فتذهبُ النَّفسُ كلَّ مذهبٍ في تصوُّرِ صنوفِ العذابِ.

نكتةُ وصف العذابِ بالإيلام:

الأليمُ عذابٌ مؤثِّرٌ غير ظاهر كالعظيم والكبير

آثر النَّظم الكريم وصفَ العذابِ بكونه ﴿أَلِيمًا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ لبيانِ شدَّة العذاب، وقوَّة إيلامه في النَّفس؛ جزاءً وفاقًا لمن تولّى، وأعرض عن أمر اللّه تعالى، فإنَّ مَن يتولّى عن أمر اللّه تعالى، ويُدبِّر؛ فإنَّه يُلحِق الألم بالمؤمنين، ولمّا كان الألمُ خفيًّا غير ظاهر؛ ناسب وصف العذاب بالأليم دون الكبير أو العظيم، فالجزاء من جنس العمل.

﴿۞لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح: 18 - 19]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

الانـتـقـالُ مِـن الـوعْـدِ والوعيد الأخـــرويِّ إلى جــزاءِ المؤمنين الدُّنيويِّ

لمّا ذكرتِ الآية السّابقة وعْدَ المطيع ووعيد العاصي في الآخرة؛ ناسب بعد ذلك الانتقالُ إلى بيانِ جزاء المؤمنين الطّائعين في الدُّنيا، فبَيْنَ الآيتين ارتباطٌ وثيقُ الصِّلة ومناسبةٌ واضحة، وفائدة هذا الانتِقالِ في حثِّ النُّفوس على المسارعة إلى طاعة اللّه تعالى، فذكر هنا مثلًا حيًّا للطّائعين المؤمنين، وما نالوهُ مِن رضا ربِّ العالمين(1).

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَضِيَ﴾: (رضي) تدلُّ تصريفاتُه على نقيضِ السُّخْط(2)، يقال: رَضيَ يَرْضَى رِضًا، فهو مَرْضيٌّ ومَرْضوٌّ، ورِضا العبد عن اللّه تَعالى: ألّا يكرهَ ما يجري به قَضاؤُه، ورِضا اللّه تعالى عن العبد هو أن يراه مُؤتمِرًا لأمره، ومنتهيًا عن نهيه(3)، والرِّضا: صفةٌ من صفات اللّه سُبحانَهُ، مُقْتَضاها محبَّة المرضيِّ عنه والإحسان إليهِ(4)، وهو المراد في الآية.

2) ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾: (بيع) تدور اشتقاقاتُه على انتقالِ ما في الحَوزة إلى حوزةٍ أُخرى، وهذا يصدُقُ على البَيْعِ المعهود والشِّراء(5)، وبايَعَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 315.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضي).
(3) الراغب، المفردات: (رضي).
(4) ابن عثيمين، مذكرة على العقيدة الواسطية، ص: 23.
(5) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بيع).

السُّلطان؛ إذا تضمَّن بذلَ الطّاعة له بما رضخ له[1]، ويقال لذلك: بَيْعَة ومُبايَعَة، وحقيقة المبايعَة: صفقَةٌ تُبذل فيها الطّاعةُ مقابلَ الرِّعايةِ والأمنِ، أو ثوابِ اللّه تَعالى وفضْله[2]، وقولُ ﷻ: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ [التوبة: 111]، فيه إشارةٌ إلى بَيْعَة الرِّضوان المذكورة في قولِه تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، وإلى ما ذُكِر في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: 111][3].

3) ﴿ٱلشَّجَرَةِ﴾: (شجر) تدلُّ تصريفاتُه على تداخل شيءٍ في شيءٍ، وعلوٍّ في شيءٍ وارتفاعٍ[4]، ومنه: الشَّجَرُ من النَّبات، وهو ما له ساقٌ، ولا يخفى ما فيه من ارتفاعٍ وتداخلٍ في الأغصانِ، يقال: شَجَرَةٌ وشَجَرٌ، نحو: ثمرة وثمر، وهو المعنى في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، و(أل) في ﴿ٱلشَّجَرَةِ﴾ للعهد، وهي الّتي كان تحتها بيعة الرِّضوان، وقد قال بعضُ أهل العلمِ: إنَّ الشَّجرة التي بويِع النَّبيُّ ﷺ تحتها هي شجرة السِّدر[5].

4) ﴿قُلُوبِهِمْ﴾: (قلب) تدور اشتقاقاتُه على معنيين كُلّيين: أحدهما: خالصُ الشَّيء وشريفُهُ، والآخر: ردُّ شيءٍ من وجهٍ إلى آخرَ، ومن الأوَّل: قلبُ الإنسان وغيرُه، وسمّي بذلك؛ لأنَّه أخْلَصُ شيءٍ فيه وأرفعهُ، وخالصُ كلِّ شيءٍ وأشرفُهُ: قلبُهُ[6].

ومن الآخرِ: قَلْبُ الشَّيء، وهو تصريفه وصَرْفُه عن وجهٍ إلى آخرَ، كقَلْبِ الثَّوب، وقلْبِ الإنسان، أي: صَرْفه عن طريقته، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [العنكبوت: 21]، والانقِلابُ: الانصراف، ومنه قوله سبحانه: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [آل عمران: 144]، ويجوزُ أن يكونَ قَلْبُ الإنسان من هذا الأصل؛ لكثرة تَقَلُّبه، ويُعبَّر بالقلب عن المعاني الّتي تختصُّ به من الرّوح والعلم والشَّجاعة وغير ذلك[7].

5) ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾: (سكن) تدلُّ تصريفاتُه على ضدِّ الحركةِ والاضطراب، ومنه:

---

(1) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (بيع).
(2) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بيع).
(3) الراغب، المفردات: (بيع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شجر).
(5) الراغب، المفردات: (شجر) و(سدر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).
(7) الراغب، المفردات: (قلب).

السَّكينةُ، وهو الوقارُ[1]، والرَّبط على القلوب بما تثبت به شجاعتكم، ويزول خوفكم، والسُّكونُ: ثبوت الشَّيء بعد تحرُّك، والسَّكينَةُ في قول الله تعالى: ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: 4]، الطُّمأنينةُ، وسكونُ النَّفسِ بالتَّشجيعِ أو الصُّلحِ[2].

6) ﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾: (ثوب) تدلُّ اشتقاقاته على العَوْد والرُّجوعِ، يُقالُ: ثابَ يَثوبُ؛ إذا رَجَعَ، والمَثابَةُ: المَكانُ يَثوبُ إلَيهِ النّاسُ[3]، وأثابَهُم: كافأهم على عَمَلهم، وأصل الثَّوب: رجوع الشَّيء إلى حالِه الأولى التي كان عَلَيها، والثَّواب: ما يَرْجِع إلى الإنسانِ مِن جَزاء أعمالِه، والثَّواب يُستعمَلُ في الخير والشَّرِّ، والأكثر استعمالُهُ في الخيرِ، والإثابَةُ تُستعمل في المحبوبِ، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المائدة: 85]، وفي المكروه، كقول الله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ [آل عمران: 153] على الاستعارة[4].

7) ﴿فَتْحًا﴾: (فتح) يدلُّ على خلافِ الإغلاقِ، يُقال: فتحتُ البابَ وغيرَهُ فتحًا[5]، والفَتحُ: إزالة الإغلاقِ والإشكالِ، وذلك ضربان، أحدهما: يُدْرَك بالبصر، كفتح الباب ونحوه، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾ [يوسف: 65]، والآخر: يُدْرَكُ بالبَصيرَةِ، كفَتحِ الهمِّ، وهو إزالة الغمِّ، وقد يكون في الأمور الدُّنيويَّة، كغمٍّ يُفَرَّج، وفقر يُزال بإعطاء المال ونحوه، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 44]، أي: وسَّعنا، وقال سُبحانَهُ: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96]، أي: أقبلت عليهم الخيراتُ، ومن هذا أيضًا: فتحُ المُستَغلَق من العُلوم، نحو قولك: فلان فَتَحَ من العلم بابًا مغلقًا، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ١﴾ [الفتح: 1]، قيل: عنى فتحَ مكَّة، وقيل: بل عنى ما فتح على النَّبيِّ من العلوم والهدايات الَّتي هي ذَريعَةٌ إلى الثَّواب، والمقاماتِ المحمودة التي صارت سببًا لغفران ذُنوبه[6].

8) ﴿وَمَغَانِمَ﴾: (غنم) تدلُّ اشتقاقاتُه على إفادةِ شيءٍ لم يكُن مملوكًا من قبلُ، ثمَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 284.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثوب).
(4) الراغب، المفردات: (ثوب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتح).
(6) الراغب، المفردات: (فتح).

خُصَّ بما أُخذ من المشركين من مالٍ على وجهِ القهرِ والغلبةِ[1]، والغُنْمُ: إصابته والظَّفر به، ثُمَّ استُعمل في كلِّ مظفور به من جهة العِدى وغيرِهم، قال اللّه تعالى: ﴿۞وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنفال: 41]، وقوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: 69]، والمَغْنَمُ: ما يُغْنَمُ، وجمعه مَغانِمُ، كما قال اللّه تعالى: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: 94][2].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

بيعةُ الرِّضوان هي البيعة التي فتحت أبواب الخير برضا الله عنِ المؤمنين

لقد رضي اللّه تعالى عن المؤمنين الرّاسخين في الإيمان الكاملين في الإخلاص، وأحسنَ إليهم بما جعل لهم من الفَتح المُبين والتَّوفيق السَّديد، وما قدَّر لهم من الثَّواب الجزيل، رضي اللّه عن الذين بايعوك، وهُم مؤمنون، ولأجل هذا الرِّضا سُمّيت تلك البيعة بيعةَ الرِّضوان، وكانت البيعةُ تحت الشَّجرة، فأنزل السَّكينة والطُّمأنينةَ عليهم، وأثابهم فتحًا قريبًا هو فتحُ خَيْبَر، وقد كان نزولُ هذه الآياتِ عند مُنْصَرَف النَّبيِّ ﷺ هو وصحبُه من الحديبية، أي: قبل فتح خَيْبَر، فهو وعدٌ من اللّه تعالى، وقد تحقَّق، وأثابهم مغانمَ كثيرة يأخذونها، فقد كانت قرية خيبر غنيَّة بالزُّروع والثِّمار، وكان سُكّانها من اليهودِ على جانبٍ من الثَّراء، وكان اللّه عزيزًا لا يغلبه غالبٌ، حكيمًا فيما صنَع لأوليائه[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئناف البيانيِّ:

الجواب عمّا تَسْتَكِنُّه النُّفوسُ

قول اللّه تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ استئنافٌ لتقرير الرِّضا عن المبايعين، ولذلك سُمّيت بيعة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غنم).
(2) الراغب، المفردات: (غنم).
(3) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 491.

الرِّضوان[1]، فالآيات السّابقة تحدَّثت عن المُخَلَّفين، ووَضَعَتهُم في اختبارٍ شديدٍ، ونفَت الحرجَ عن ذوي الأعذارِ، فأثارَت بذلك سُؤالًا في نفسِ المُتَلَقّي، فحواهُ: وما بالُ المؤمنين المبايعين رسولَ الله ﷺ؟ فجاء الجوابُ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ مُصَوِّرًا حالَهم، فَفُصِلَت هذه الآية عن سابِقَتِها لشِبْهِ كمالِ الاتِّصال، كما يُفْصَل الجوابُ عن السُّؤال.

غرضُ التَّعبير بأسلوب القَسَم:

تشريفٌ وإعلامٌ بِكَمال الرِّضا والقَبول

اللّام في قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ﴾ دالَّةٌ على قسَمٍ محذوف، والتَّقدير: والله لقد رضي الله، وفي هذا تشريفٌ وإعلامٌ برضاه عنهم حين البَيعة، وبهذا سُمّيت بيعة الرِّضوان[2]، فهي تُنَبِّئُ عن كمال الرِّضا وتمام القبولِ، والتَّأكيد بالقسَم؛ ليَتَوافَق مع مقام الشِّدَّة والألم النَّفسيِّ الَّذي عاشَه المُسْلِمون آنذاك؛ ليُزيل عن كاهِلِهم عِبْءِ الصَّدِّ عن بيت الله الحرام، ويبثَّ في قلوبِهم الرِّضا والإيمان.

دلالةُ استعمال حرف (قد):

تحقيقُ حُلولِ رِضا الله تعالى عَن أهلِ الإيمانِ

(قد) الدّاخلةُ على الفعل الماضي ﴿رَضِيَ﴾ في قولِ الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّحقيق، وذلك يفيدُ تحقيقَ معنى الرِّضا عَنْهم، والتَّأكيد على وقوعهِ مِنَ اللهِ تَعالى للمؤمنين المُذْعنين لأمره وأمر رسوله ﷺ.

دلالَةُ استعمال مفردة ﴿رَضِيَ﴾ مادَّةً وصيغة:

طَمأنَةُ قُلوبِ المُؤمِنين وإقرارُ عُيونِهم

جاء التَّعبير بصيغة الفعل الماضي ﴿رَضِيَ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّق وقوع الرِّضا، فقد عَلِمَ الله تعالى ما في قُلوبِهم من الخير، فَرَضيَ عنهم، والتَّعبيرُ بالماضي مشعِرٌ لهم بالاطمئنان؛ لتَقَرَّ عيونُهم، وتسعَدَ أرواحُهم بما تحقَّق لهم من رِضا الرَّحمن، فالخبرُ عن رضا

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 243.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 132.

الرَّحمن المتحقِّق، بل أُخذ مِن هذا الفعل لفظ (الرِّضوان)، فأصبح عَلَمًا على البيعةِ.

فائدة إسناد فعل الرِّضا إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾:

تعظيمُ الرِّضا وبيانُ قدسيَّتِه

جاء المسند إليه معرَّفًا بالعَلَميَّة في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ إذ أُسنِد فعل الرِّضا إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾؛ ليدلَّ على عظمة الرِّضا وقُدْسيَّته، وليورِّثَ المهابة في نفوس المؤمنين عند سماع أنَّ اللّه ﷻ هو الذي قد رضي عنهم، وما الَّذي يرغب به المؤمن أكثر مِن أن يعلم أنَّ اللّه تعالى قد رضي عنه؟ وإلامَ يتطلَّع بعدُ؟.

معنى حرف ﴿عَنِ﴾ ودلالته:

لازِمُ الرِّضا عن العبادِ التَّجاوزُ عن ذُنوبِهم وخطاياهُم

﴿عَنِ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على المجاوزةِ، فهي تدلُّ على تجاوز اللّه تعالى عمّا ارتكبوه قبلًا من أخطاء، وعفوه عن ذنوبهم وسيِّئاتهم، وشمولهم بالمغفرة والرَّحمة والرِّضوان، وهذا هو الأصلُ في الفعلِ ﴿رَضِيَ﴾ أن يُعدَّى بحرف ﴿عَنِ﴾، والأصل في (عن) إفادة المُجاوزة والبُعد، ولمّا رأى النُّحاة أنَّ بعض التَّراكيب الَّتي عُدّي فيها الفعلُ بحرف (عن) لا يبدو فيها بُعْدُ شيءٍ عن شيءٍ، مثل: ﵁؛ إذ لم يجاوز الرِّضا المجرور، أو يجاوزه المَجْرور؛ اضطَرّوا إلى تفسير المُجاوَزَة بِما يتَّسع له ولأمثاله، ففي نحو: رضي اللّه عنك، يكون التَّقدير: جاوَزَتكَ المؤاخذةُ بسَبَبِ الرِّضا[1].

فائدة التَّعبير بوصف الإيمان دونَ الإسلام:

بيانُ أنَّ الإيمان هو سبب الرِّضا، والتَّعريض بغير المؤمنين

استعمل النَّظم الكريم صفة الإيمان في قول اللّه تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، دون الإسلام؛ وذلك ليدلَّ على سبب الرِّضا، وهو تحقيقُهم معنى الإيمانِ الكامل باللّه وبرسوله ﷺ،

(1) تامر حجازي، آيات السكينة في القرآن الكريم، مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، مج: 31، عدد: 1، 2016، ص: 187.

وذلك بما فيه مِن تفويضٍ وتسليم وإذعانٍ، وفي ذلك شهادةٌ لهم بالإيمان، وهي من أعظم الشَّهادات الَّتي يُحْرِزها الإنسان في الدُّنيا، وهي أرفع درجةً مِن الإسلام؛ لأنَّ المؤمنَ مسلمٌ وزيادة، فإيمانُهُم الرّاسخ هو الذي جَعَلهم يَسْلُكون مسالك الخَيْر، وهو الَّذي ورَّثهم الرِّضا من اللّه تعالى.

كما أنَّ في وصف الإيمان تعريضًا وإيذانًا بأنَّ من لم يُبايع مِمَّن خرج مع النَّبيِّ ﷺ ليس حينئذٍ بمؤمن، وهو تعريضٌ بالجَدِّ بنِ قيس؛ إذ كان يومئذٍ مُنافقًا، ثُمَّ حسن إسلامه[1].

نكتةُ تقييد فعل الرِّضا بالظَّرف:

البيعة هي مدار الحقِّ، وأصل الثَّبات والقرار

قُيِّد فعل الرِّضا بالظَّرف ﴿إِذۡ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ﴾؛ ليدلَّ على وقته وحاله وسببه، وليبيِّن أنَّهم استحقّوا الرِّضا؛ لإذعانهم وطاعتهم رسولَ اللّه ﷺ، وانصياعهم له بالمُبايعة، فمدارُ الأمرِ على المُبايعة الَّتي تُمثِّل الثَّباتَ على المنهج، والبقاءَ في دائرة التَّسليم لأمر اللّه تَعالى وأمر رسوله ﷺ، والسَّيْرَ في طريق الحقِّ، وإن ظهر خلاف ذلك.

دلالةُ العدول عن الماضي إلى المُضارع:

استحضار صورة المبايعَةِ للتَّنويه بشأنِها

جاء التَّعبير بصيغة المُضارع لفعل البَيْعة (يُبايعونَ) مع تحقُّقها فيما مضى في قول اللّه تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ﴾؛ وذلك لاستحضار صورَةِ المُبايَعَة وتصوير حالِهم لَمَن بعدهم؛ إعلامًا بأنَّها سارَّة مُعْجِبَةٌ شديدةُ الرُّسوخ في الرِّضا[2]، ففي الآية عدولٌ عن الماضي إلى المضارع، والسِّرُّ في ذلك استحضارُ صورة المبايعة؛ لأنَّها جديرة بالتَّجسيد؛ لتكونَ عِبرة الأجداد للأحفادِ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 173.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 315.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 245.

نكتةُ تقييد فعلِ المبايعة بظَرف المكان:

البيعةُ العريقة في الإسلام كانت تحت شجرةٍ لا في قصر مُنيف

جاء تقييدُ فعل المبايعة بكونه ﴿تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾؛ وذلك لاستحضارِ تلكَ الصّورَةِ تَنْويهًا بالمَكانِ، فَإنَّ لِذِكْرِ مَواضِعِ الحَوادِثِ وأزمانِها معانيَ تزيدُ السّامعَ تصوُّرًا، ولما في تِلْكَ الحوادِثِ مِن ذكرى، مثلِ مواقعِ الحروبِ والحوادِثِ، ومواقِعِ المصائبِ وأيّامِها[1]، فوُثِّقَ الحدثُ بذِكْرِ المكان عِبرةً للنّاسِ بعدُ، وليُعلَمَ أنَّ البَيعة العريقةَ كانت تحت شجرةٍ لا في قصر مُنيف ولا منزلٍ رفيعٍ.

معنى اللّام ودلالتُها:

الشَّجرةُ معلومةٌ لمَن عاينَها وبايعَ تَحتها

اللّام في لفظ ﴿ٱلشَّجَرَةِ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ للعهد العلميِّ، وكانت شجرةً في الموضع الذي كان النَّبيُّ ﷺ نازلًا به في الحديبية، كما جاء عن جابر رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لا يَدخُلُ النّارَ إن شاءَ اللّه من أصحاب الشَّجَرَةِ أحَدٌ، الَّذينَ بايَعوا تَحتَها»[2]، وهي شجرةُ سِدْرٍ أو سَمُرَةٍ، وقد قطع عمرُ رضي الله عنه الشَّجرة التي تُوُهِّمَ أنَّها الَّتي بايع الصَّحابةُ عِنْدها[3]؛ لَمّا رأى النّاس يصلّون عندها؛ خوفًا من افتتانِ النّاس بها، فالشَّجرة معهودةٌ للَّذين عايَنوها، وبايعوا عِنْدها.

معنى الفاء ودلالتُها:

الكَشْفُ عمّا في قلوب المؤمنينَ من الخيْرِ

الفاء في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ ليست للتَّعقيب؛ لأنَّ عِلْمَ اللّه تعالى بما في قلوبهم ليس عَقِبَ رضاه عنهم، ولا عقب وقوع بَيْعتهم، فالفاءُ لتَفْريع الإخبار بأنَّ اللّه تعالى عَلِمَ ما في قلوبهم بعد الإخبار برضاهُ عنهم؛ لما في الإخبار بعِلْمِه بما في قلوبهم من إظهار عنايتِهِ بهم، ويجوز أن يكون المقصودُ من التَّفريع قوله: ﴿فَأَنزَلَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 175.
(2) رواه مسلم في صحيحه، رقم: (2496).
(3) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم: 2/ 144.

﴿ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾، ويكونَ قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ توطئةً له على وجه الاعتِراض[1]، والمقصود ترتيبُ أمرٍ على آخر؛ لإفهام المقصود مِنَ العِلْم، وهو الكَشْفُ عمّا يَجولُ في قُلوب المُؤمنين، والتَّعريض بِما عَلِمَهُ مِن غيرِهم.

دلالَةُ التَّعبير بالفِعْلِ الماضي (عَلِم):

سَعَةُ عِلْمِ الله تعالى وإحاطَتُه

جاء التَّعبير عن علم اللّه تعالى بالفعل الماضي (عَلِم) من قول اللّه تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ علمِ اللّه تَعالى بأحوالِهم وأحوال قلوبهم، وإحاطة علمه بذلك.

الغرضُ مِنَ التَّعبير بـ ﴿مَا﴾:

بيانُ عُمومِ عِلْمِ الله تَعالى وسَعَتِه

﴿مَا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ اسمٌ موصولٌ دالٌّ على العموم، فيدخل ما في قلوبهم مِنَ الهمِّ بالانصراف عن المشركين والأنَفَة في ذلك، والكآبة الّتي لَحِقَتهُم مِن عدم ملاقاةِ عدوِّهم، وسوى ذلك ممّا يجول في تلك القلوب، وفي ذلك إيماءٌ إلى عِلْم اللّه تعالى المُطْلَق الَّذي يَبْلُغ مكنوناتِ القُلوبِ، ومُضْمَراتِها مِنَ الفِكْرِ الحائر والاستقرار الخاشِع، ودلالة العموم أبلغُ مِن تعيين المَعْلوم؛ لِما في ذلك من إبلاغ المخاطَب بدَفائِن القلوبِ، وقصرها على العليم سبحانه دون سائر خلقهِ، وللإيماء إلى تباين القلوب واختلافها فيما دخَل عليها.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

اطِّلاع الله تعالى على دَقائِق مَكْنوناتِ النُّفوس

دلَّ استعمال حرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ على استِكْناهِ تلكَ القُلوبِ وسَبْرِ أغوارها ومعرفة خَلَجات نفوسِ أصحابها، ولا يقدِرُ على ذلك إلّا اللّه تَعالى.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 175.

غرضُ التَّعريفِ بالإضافة:

جاء التَّعريف بالإضافة في ﴿قُلُوبِهِمۡ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾، فأُضيفت القلوب إلى ضمير المؤمنين، ولم يرد في النَّظم القرآنيِّ: (فعلم ما في القلوب)؛ وذلك لبيانِ أنَّ قلوب المؤمنين هي موضع الخصوصيَّة في الكلام، ولا سيَّما أنَّ الإضافة هنا بمعنى اللّام، فهي قلوبٌ لِلمؤمنين، وقد اطَّلع الله تعالى عليها، فعَلِمَ ما فيها، ولو جاء التَّعريف بـ (أل)؛ لكان فيها معنى العموم غير المراد في هذا النَّظم، وإن كان في الواقع كذلك، وهو أنَّ الله تعالى يعلم ما في القلوب جميعًا، إلّا أنَّ السّياقَ يخصُّ نوعًا منها، وهي قلوب المؤمنينَ.

إرادةُ خصوصِ قُلوب المؤمنين يقتضي الإضافةَ

نكتةُ جمع لفظ القلوب:

جاء التَّعبيرُ بصيغة الجمع في قول الله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾؛ لبيانِ اختلاف درجات قلوب المؤمنين، وتبايُن ما يَجولُ فيها مِن أفكارٍ ومَشاعِر، فلم يكُنِ المؤمنون على درجةٍ واحدة، وهذا الاختلاف والتَّباين يدلُّ على طبيعة البشَر، فإنَّ الإيمان يَجْمَعُهُم، وقُدراتهم وتنوُّع رُؤاهُم يختلف بحسَب الأخلاقِ والقُدْرة والصَّبر وطبائع التَّفكير.

قلوبُ المؤمنين ليستَ على درجةٍ واحدةٍ

مَعْنى الفاء ودلالتُها:

الفاء في قول الله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ للتَّرتيب والتَّفريع، أي: بثبات القلوب وطَمأنَتها في كلِّ حالٍ تُرْضي اللهَ تَعالى ورسولَه ﷺ[1]، فما أنزل السَّكينة عليهم إلّا بعلمه ما في قلوبهم من رِضا ويقينٍ وإيمان، فترتَّب على عِلْمِه ما في قلوبهم إنزالُه السَّكينةَ عليهم، ويناسِبُ ذلك أن يكونَ الإخبارُ بِعلْم ما في القُلوب توطئةً للإخبار بإنزال السَّكينة، كأنَّه قيل: فلمّا عَلِمَ ذلك؛ أنزلَ السَّكينَةَ.

إنزالُ السَّكينةِ على المؤمنين نتيجةُ عِلْمِه سبحانه بما في قلوبهم من الخَيْرِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 316.

دلالةُ استعمال مفردة الإنزال مادّة وصيغة:

إنـزالُ السَّكينة كـإنـزالِ الـوَحْـيِ مـن حـيـث مصدرُهُما

استعمل النَّظم الكريم مفردةَ الإنزال في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ للإيماءِ إلى مصدر الإنزال، فإنزالُ السَّكينة شبيهٌ بإنزالِ القرآن؛ إذِ القُرآن يَنْزِل مِن اللّه تعالى، ومثلهُ السَّكينة.

وفي التَّعبير عن حلول السَّكينة على المؤمنين بالإنزال إيماءٌ بأنَّ الطُّمأنينةَ تحلُّ بهم - لا محالةَ - وأنَّه لا رادَّ لها، كما لا تُردُّ الأمور السَّماويَّةُ.

وفيه إيماءٌ إلى سرعة حلولِها بهم؛ إذ من شأنِ الأشياء النّازلةِ أن تنزلَ كذلكَ، ممّا يُشعر بتعجيلِ اللّه تعالى ثوابَهُ لأهل الإيمان.

وقد دلَّت الصّيغة على أنَّه نزل مرَّة واحدة، كما دلَّ الفعل الماضي (أنزل) من قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ على سرعة الإنزال، من بثِّ السَّكينة والطُّمأنينة في نفوس المؤمنين، والتَّأكيد على تحقُّق إنزالها حسيَّة ملموسَةً يَشْعُرُ بها المؤمنون.

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾:

السَّـكـيـنـةُ هي طُمأنينة وثقةٌ بتحقيقِ مَوْعودِ الله تعالى لهم

جاء لفظ ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ معرَّفًا بـ (أل)، والمقصود بها: الطُّمأنينة والثِّقة بتحقيقِ ما وعدهم اللّه تعالى مِن الفتح والارتياض على تَرَقُّبه دون حَسْرَة[1]، و(أل) فيه للكمالِ، أي: السَّكينة الكاملَةُ الشّاملةُ لجميعِ أفرادِها الّتي تتحقَّقُ بِها، وهي الطُّمأنينة والوقار والإنصاف والأَمَنَة والثَّبات على ما هُم عليه من دينِهم، وحُسن بَصيرَتِهم بالحقِّ الذي هداهمُ اللّه تَعالى له[2].

دلالةُ حرف الجرِّ (على):

شمولُ السَّكينةِ أهلَ الإيمانِ

دلَّ حرف الجرِّ (على) في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ - وهو حرفٌ دالٌّ على الاستعلاء - على التَّمكُّن من القلوبِ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 176.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 228.

والمعنى: أنزل السَّكينة عليهم إنزالًا تمكَّن منهُم، فعَمَّهُم من جميع الجوانب، ودخل حرفُ الاستعلاءِ على الضَّمير العائد على المؤمنين دون أن يرِدَ في النَّظم القرآنيِّ: (عليها)؛ ليكونَ الضَّميرُ راجعًا إلى القلوب؛ لبيان أنَّ السَّكينة النّازلة لم تختصَّ بالقلوب بل عمَّت الأبدانَ والنُّفوسَ.

معنى الواو ودلالتُها:

إكرامُ الله تَعالى لأهلِ الإيمانِ بِخَيْرَيِ الدُّنيا والآخِرَة

جاء عَطْفُ فعل (أثابهُم) عَلَى فِعْلِ (أنزلَ) من قول اللّه تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ﴾ بالواو؛ لما بين الجملتين من التَّوسُّط بين الكمالين؛ لاشتراك الجملتين خبرًا، وبينهما تناسبٌ لفظًا ومعنًى، فأمّا التَّناسُبُ اللَّفظيُّ؛ فاتِّحاد الجملتين في الفِعْليَّةِ الماضويَّةِ، واتِّحادُ المسندِ إليه فيهما، وأما التَّناسُبُ المعنويُّ؛ فهو اشتراك الجملتين في بيان جزاءِ اللّه تعالى لأهل الإيمان، وفي هذا العطفِ دلالةٌ على أنَّه جمع لهم بين الرِّضا عنهم، ومكافأتهم بالفَتحِ العاجل القَريب، فجمع لهم بذلك بين خيرَيِ الدُّنيا والآخرة.

دلالةُ استعمال مفردة الإثابة مادَّة وصيغة:

الإخبارُ الصّادق بالمستقبل مِن أدلَّةِ صِدقِ النُّبوَّةِ

دلَّ لفظُ (أثابهم) على العِوَضِ والمجازاة على المُبايعة، وهو وعدٌ بالجزاءِ الوفير في الدُّنيا، وجاء فعل (أثابهم) بصيغة الماضي - والإثابة بالفتح القريب لَم تتحقَّق عند نزول الآياتِ - وذلك للدَّلالة على الوعد الأكيدِ، وأنَّه متحقِّقٌ - لا محالة - ففيه طَمأنة للمُؤمنين وتطييبٌ لِخَواطِرهم، وفيه إيماءٌ إلى الإعجاز الغَيْبيِّ الدّالِّ على صِدقِ النُّبوَّة، وأنَّ القرآنَ حقٌّ مِن عندِ اللّه تعالى.

فائدةُ تنكير لفظ ﴿فَتۡحٗا﴾:

تعظيمُ الفتح وتفخيم شأنه والتَّنويه به

جاء المفعول به ﴿فَتۡحٗا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ نكرةً؛ لإفادة التَّعظيم والتَّفخيم لا لإرادةِ العموم؛ لوقوعِ النَّكرة في سياق الإثباتِ لا النَّفْيِ، وفائدة ذلك تشويقُ المؤمنين إلى اقتراب يوم الفَتح.

ويجوزُ أن يُحمل التَّنكيرُ على العموم، واللَّفْظُ وإن كان نكرةً في سياق الإثباتِ وهي لا تعمُّ، لكنَّ وقوع النَّكرة في سياق الامتنانِ دلَّت على العموم(1)، فتشمَلُ كُلَّ فتحٍ، وذلك ممّا يثوِّرُ الفكرَ، ويذهبُ بالنَّفس كلَّ مذهبٍ في تصوُّر الفُتوحِ، فتكون الآية جامعةً بين الدَّلالَةِ على التَّشويق والتَّرقُّب، وبين العموم؛ ليذهب الذِّهن مذاهبَ في توقُّع المقصود.

براعةُ الوصف بلفظ ﴿قَرِيبًا﴾:

الـجـمـعُ بين الـقـرب المكـانيّ والزَّمانيّ

وُصِف الفتحُ بالقُرْبِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾؛ ليَبُثَّ في قلوبِهم الطُّمأنينةَ والثَّبات والتَّفاؤل بِعوَضِ اللّه تعالى العاجلِ، وهُم يعلمون أنَّ وعد اللّه سُبحانَهُ لا يَتَخَلَّف أبدًا، وهذا الَّذي كان؛ إذْ فَتحُ خيبرَ كان في أقلَّ مِن شهرين، فالوصفُ بالقُرْبِ هو وصفٌ لزمانِ الفَتحِ ومكانِه، فخيبرُ قريبَةٌ مِن المدينة النَّبويَّةِ، فكان في التَّعبير بلفظ القُرْبِ جمعٌ بين القُرْب الزَّمانيِّ والمكانيِّ.

براعةُ عطفِ المَغانِم على الفَتح:

الـجـمـعُ بين النَّصر المعنويِّ والمادّيِّ

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ﴾ بالواو على قولِه: ﴿فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾؛ لإفادةِ الجمعِ بين الفتحِ والمغانم ثوابًا لهم، ودلَّ ذِكر الفتح قبل المغانمِ على قيمةِ التَّبشير بالفَتح القريب، فهي بُشْرى نفسيَّةٌ تُخفِّف ما كان يوم الحديبية، ثُمَّ جاء ذِكْرُ المَغانم؛ زيادةً في بيان الإثابة مِن اللّه تعالى، فهو جمعٌ بين ما تستروِح له النُّفوس، وما تشتهيه مِنَ الغنائم، فإنَّ النُّفوس جُبِلت على استجلاب النَّصر المعنويِّ والمادّيِّ.

دلالةُ التَّعبير بصيغة منتهى الجموع:

الإيماءُ إلى كثرة الغنائم وتنوُّعها

جاء التَّعبير بصيغة (مَفاعل)؛ لإفادة كثرةِ هذهِ المَغانم؛ إذ عبَّر عنها بصيغة منتهى الجموع؛ فدلَّ على تعدُّدها وتنوُّعها وكثرتها؛ إذ شملَتِ الأرضَ والمال والسَّبيَ والزُّروع والثِّمار والذَّهب والفضَّةَ والحيواناتِ وغيرَها ممّا غَنِمَهُ المسلمون من خيبرَ، فكان في الجمع

(1) الزركشي، تشنيف المسامع بجمع الجوامع: 2/ 696.

دلالةٌ على تعدُّدِ الأنواع وكثرتها، وهذا تفصيلٌ لأمر غيبيٍّ لا يُمكن أن يصدرَ إلّا عن اللّه تَعالى.

فائدة وصف المغانمِ بلَفْظِ ﴿كَثِيرَةٗ﴾:

التّأكيدُ على وفْرَةِ المَغانِم وكَثْرَتِها

قُيِّدت المغانِمُ بالكثرةِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ﴾؛ للتَّأكيد على كثرتها، فكان في جمع المغانمِ إشارةٌ إلى الكثرة، وفي وصفها بالكثرة صراحةً بمنزلة التَّأكيد المعنويِّ، فالوصف أكَّد المعنى في الموصوف، فكأنَّه قيل: كلُّ مغنَمٍ كثير.

بلاغةُ ذِكْر الأخذ صفةً للمَغانِم في جملة فعليَّة:

تحقيقُ حصول الوعد لجميع أهل البيعة

وُصِفت المغانم بالجملة الفعليَّة: ﴿يَأۡخُذُونَهَاۗ﴾، في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ﴾؛ لتحقيق حصول فائدة هذا الوعد لِجميع أهل البيعة قبل أن يقعَ فعلًا، ففيه زيادةُ تحقيقٍ لكونِ الفتح قريبًا، وبشارة لهم بأنَّهم لا يهلك منهم أحد قبل رؤية هذا الفتح[1]، فإنَّ ذِكْرَ أَخْذِ المغانم يؤكِّد كذلك تحقُّق الفتح، فإنَّ الإخبارَ عن الفتح وحده بِشارة، والوعدَ بأخذ المغانم بشارةٌ أُخْرى.

دلالةُ التَّعبير بصيغة المضارع:

تصويرُ حال أخذ الغنائم إشاعَةً للتَّفاؤُلِ بين أهل الإيمانِ

جاء التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَأۡخُذُونَهَاۗ﴾؛ ليدلَّ على الاستقبال، أي: سيأخذونها قريبًا، لكنَّ دلالته الآنيَّة لا تنفكُّ عنه؛ ليُصَوَّر بذلك المشهدُ السَّخيُّ، وهُم يأخذون المغانم، وفي ذلك إشعارٌ بتحقُّقِ الأخذِ حتّى كأنَّه يقَعُ وقتَ التَّنزيل؛ مبالغةً في بثِّ التَّفاؤل بين المؤمنين.

معنى الواو ودلالتُها:

الواوُ في ﴿وَكَانَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ استئنافيَّة؛ لتأسيسِ تذييلٍ مستَقِلٍّ يتوافق مع مضمون الآيةِ وفحْواها.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 176.

غرضُ ذِكْرِ (كان) في جملة التَّذييلِ:

إظهـارُ ثبـوتِ عـزَّتـه سُبحانه ودوام حِكْمَته

جاء ذِكرُ فعلِ الكَوْنِ (كان) في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ ليدلَّ على أزليَّة عزَّته وحكمته، أي: كان سُبحانَهُ وما زال كذلك؛ تأكيدًا على ثبوت عزَّته القاهِرة ودوام حِكمته الباهرة في تحقيقِ وعْدِه لأوليائِه.

غرضُ ذِكرِ الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾:

الـدَّلالـةُ على كـمـال الـعـزَّة الإلهيَّة وسعَةِ الحِكمة الرَّبّانيَّة

جاء الاسم الأحسنُ ﴿ٱللَّهُ﴾ مسندًا إليه في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ للدَّلالةِ على كمال القدرة الإلهيَّة وطلاقتها في تصريف أمور العبادِ حيث شاء اللّه تعالى، يُعِزُّ مَن يشاء، ويذلُّ من يشاء، ويُعْطي، ويَمنَع، وذلك ممّا يتوافق مع مقام الألوهيَّة، والمذكور وإن كان في الظّاهر مِن مقتضيات الرُّبوبيَّة، لكَنَّ ذِكر الألوهيَّة هو الأنسب في مقام الامتنان والعظمة والجلال والهَيبة، فلمّا ذُكِر النَّصر، وأنَّه واقعٌ بعزَّة اللّه تعالى وحكمته؛ كان الأنسب بذلك كلِّه الاسم الأحسَن ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لتضمُّنه صفاتِ الجلال والكمال والجمالِ.

نكتةُ اقترانِ اسمي العزيز الحكيم:

تـوافـقُ الـعـزَّة والـحـكـمـة مع الرِّضا والمغانِم

جاء خبر (كان) باقتران اسمَي اللّه تعالى العزيز والحكيم، فقال سُبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ ليتوافقَ مع مضمونِ الآيتَيْن، فالآيتان أُفرِغتا إفراغًا واحدًا؛ إذ بيَّن اللّه تعالى فيهما ما أولاه لأوليائه من الرِّضا والقبول والسَّكينة والفتح والمغانم، فجمع لهم بين خيرَيِ الدُّنيا والآخرة، فناسب ذلك أن تُختم الآية بالاقتران بين العزَّة والحكمة، فالعزَّة قدرة وقهرٌ وغلبة، والحكمة إدارةُ الأمور ووضعُها في مواضِعها اللّائقة بها.

الفُروقُ المعجميَّة:

الأجر والثَّواب والجزاء:

تدلُّ مادَّةُ الأجرِ - الهمزةُ والجيم والرّاء - على مَعنَيَين: الكِراءِ

على العمل، وجَبْرِ العَظْمِ الكَسير، ويُجْمَعُ بينَهُما بأنَّ أجرة العاملِ بمنزلة الشَّيءِ الَّذي تُجبَرُ بها حالُهُ فيما أصابَهُ من كَدٍّ في عمله[1].

يغلِبُ استعمالُ الثَّواب في الجزاء بالخَيْر، والجزاءُ أعمُّ منه، والأجر أخَصُّ منهما

وأمّا الثَّواب؛ فدالٌّ على العَود والرُّجوعِ، والمرادُ به: ما يعود على الإنسان من جَزاء عملِه[2].

وأمّا الجزاءُ؛ فأصله الغَناءُ والكفايةُ، ويُرادُ به الكفاية مِنَ المُقابلة إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ[3].

والفَرْقُ بينَها[4]: أنَّ الثَّوابَ يُستعمل في الجزاء بالخَيْرِ غالِبًا، واستعمالُهُ في الشَّرِّ أقلُّ، وأمّا الجزاءُ؛ فهو المقابلة على الخَيْرِ بالثَّواب وعلى الشَّرِّ بالعقاب، وأمّا الأجرُ؛ فلا يُستعمل إلّا في النَّفع دونَ الضُّرِّ، ويتضمَّن معنى المعاوضةِ، فالأجرُ أخصُّ مِنَ الثَّواب والجزاءِ، من جهةِ اختصاصه بالخير، بخلاف الثَّواب والجزاء فَهُما أعمُّ؛ لجريانِهما في الخير والشَّرِّ.

والثَّواب أخصُّ مِنَ الأجر والجزاء مِن جهة أنَّهُ لا يُستعمل في المنافع المادّيَّة أو الدُّنيويَّة، بخلاف الأَجْرِ والجزاء فإنَّهما يَقَعانِ على المنافع الدُّنيَويَّة والمنافع الأُخرَويَّة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أجر).

(2) القاضي عياض، مشارق الأنوار: (ثوب).

(3) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (جزا).

(4) محمّد محمّد داوود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 46 - 48، ومحمّد ياس الدُّوري، دقائق الفروق اللُّغويّة في البيان القرآنيِّ، ص: 164 - 166.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا ٢٠ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢١﴾ [الفتح: 20 - 21]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

الانتقالُ من الإجمال إلى التَّفصيل بذكر المغانم العاجلة والآجلة

لمّا ذكرتِ الآية السّابقة المغانم الَّتي يأخذها المؤمنون على سبيل الإجمال؛ ناسب أن يزيد في هاتين الآيتين تفصيلًا لها، فبُيِّن أنَّ منها المُعَجَّلَ، ومنها المؤجَّل، فالمعجَّل المشار إليه في الآية الأولى، وكفِّ أيدي النّاس عن المؤمنين، وليرزقهم فَهْمَ سُنَنِه، والمؤجَّل: مغانم كثيرةٌ أخرى غير هذهِ، وهي مغانمُ هَوازِن الَّتي لم يحصل قبلَها ما يُقارِبها[1]، فجَمَعَ اللّه تَعالى لهُم بينَ البِشارَتَيْن: العاجلةِ والآجِلَةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَعَجَّلَ﴾: (عجل) تدلُّ تصريفاتُه على الإسراع، ومنه: العجلةُ في الأمر، يُقال: هو عجِلٌ وعَجُلٌ[2]، والعَجَلَةُ: طلبُ الشَّيء وتحرّيه قبلَ أوانه، وهو من مُقْتضى الشَّهْوَة، فلذلكَ صارَت مذمومَةً في غالبِ القرآنِ، حتّى جاء في الحديث: «العَجَلَةُ من الشَّيطان»[3]، وقال اللّه تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧﴾ [الأنبياء: 37][4]، والمراد بالآيةِ هو تعجيل المسرَّة ببعض المغانم والبُشريات.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 319 - 320.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجل).
(3) رواه أبو يعلى في مسنده، رقم: (4256)، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم: (20270)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم: (1795).
(4) الراغب، المفردات: (عجل).

2) ﴿وَكَفَّ﴾: (كفف) تدور اشتقاقاته على قبضٍ وانقباضٍ، ومنه: الكَفُّ للإنسانِ، سُمّيَت بِذلِك؛ لأنَّها تَقْبِضُ الشَّيءَ، ثُمَّ تقولُ: كَفَفْتُ فُلانًا عَنِ الأمرِ وكَفْكَفْتُهُ[1]، ورجل مَكفوفٌ؛ لمن قُبِض بصرُه، واستَكَفَّ الشَّمسَ؛ إذا دفعَها بكفِّه، وهو أن يضع كفَّه على حاجِبِه مستظلًّا مِنَ الشَّمس ليَرى ما يَطْلُبُه[2]، والمراد في الآية: دَفْعُ أذى النّاس عن المؤمنين.

3) ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾: (أخر) تدور تصريفاتُه على ضدِّ التَّقدُّم، ومنه: الآخِر، وهو نقيضُ المتقدِّم، والأُخُر ضدُّ القُدُم[3]، والمرادُ بـ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ في الآية: بلدة أو قرية أو غنيمة أخرى، وهي فارس والرّوم وغيرها و[4]، وقيل: خيبر، وقيل: مكَّة، وقيل: هوازن وثقيف، وقيل: ما يَفْتَحُهُ المُسْلِمونَ مِنَ البِلادِ إلى قيامِ السّاعَةِ[5].

4) ﴿تَقۡدِرُواْ﴾: (قدر) تدلُّ اشتقاقاتُه على مبلغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونهايتِه، ومنه القَدْرُ، وهو مبلغُ كلِّ شيءٍ، يُقال: قدرهُ كذا، أي: مَبْلَغُه كذا[6]، ومعنى قوله: ﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ﴾: لم تَملِكوها، وتَتَمكَّنوا منها، ولم تَقْدِروا على أَخْذِها الآنَ، وستأخذونَها في الأيّامِ القابِلَةِ.

5) ﴿أَحَاطَ﴾: (حوط) تدلُّ تصريفاتُه على شيءٍ يُطيفُ بالشَّيءِ، يُقال: حاطَهُ حَوْطًا[7]، ومعنى قوله: ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾: قضى الله بها أنَّها لكم، والإحاطة على وجهين، أحدهما: في الأجسام نحو أحطت بمكان كذا، ويُستعمل في الحفظِ، نحو: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فصلت: 54]، أي: حافِظٌ له من جميع جهاته، والآخَرُ: في العلم، نحو قوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: 12]، فالإحاطة بالشَّيء عِلْمًا هو أن يَعلمَ وجودَه وجِنْسَه وكيفيَّته وقَدْره وغرضَهُ المقصود به، وبإيجاده وما يكون هو منه، وذلك ليس إلّا للّه تعالى[8]، وهذا المعنى هو المقصودُ هنا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كف).
(2) الراغب، المفردات: (كف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخر).
(4) تفسير مقاتل بن سليمان: 4/ 74.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 11/ 283.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حوط).
(8) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 508.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

وعْدُ الله تعالى المنجز والمعجَّل لأهلِ الإيمانِ نافذٌ

تُبيِّن الآيتان أنَّ الله تعالى وعد المؤمنين مغانم كثيرة يأخذونها من أعدائهم، مخلصين واثقين بنصر الله تعالى، فعجَّل لهم غنائم خيبرَ مكافأة لهم على إذعانهم في الحديبية لأمر رسول الله ﷺ، وكَفَّ أيديَ النّاس عنهم بعَدَمِ القتال سواءٌ أكانوا أهلَ مكَّة أم أهل خيبرَ ومَن والاهم، وليكون هذا النَّصر والتَّأييد آيةً لهم يزيدهم يقينًا بنَصْرِ الله تعالى، ويهديهم طريقَ الحقِّ والصَّواب، كما وعدهم مغانم أخرى، لم يقدروا عليها في أوَّل الأمر، ولكنَّ الله سُبحانَهُ أحاط بها، واستَولى عليها، فهي في قَبضَته، وتحتَ تصرُّفه يظهر من يشاء عليها، وقد أظهر المؤمنين عليها حينَما توجَّهوا له، وكان الله عَلى كلِّ شيءٍ قديرًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئناف البياني:

بيانُ الأخبارِ بعد التَّشويق أوقع في النَّفس من الإخبار المجرَّد

فُصِلت الجملة في قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا﴾؛ لأنَّها مُستَأنَفَةٌ استِئنافًا بَيانيًّا نَشَأ عَن قَوله تعالى: ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحًا قَرِيبًا ١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأۡخُذُونَهَاۗ﴾؛ إذ عُلِمَ أنَّهُ فَتحُ خَيْبَرَ، فَحَقَّ لهم ولِغيرهم أن يَخطُرَ ببالهم أن يَتَرَقَّبوا مَغانمَ أُخرَى، متسائلين: هل من مغانم أخرى؟ فَكانَ هَذا الكَلامُ جَوابًا لهم، أي: لَكُم مَغانمُ أُخرَى لا يُحْرَمُ منها مَن تَخَلَّفوا عَنِ الحُدَيبيةِ، وهيَ المَغانمُ الَّتي حَصَلَت في الفُتوحِ المُستَقبَلَةِ[2]، ففصلت عن سابقتها لشبه كمال الاتِّصال كما يفصل الجواب عن السُّؤال، ووراءه بيانٌ للخير العام الَّذي يضمره الغيب لجميع المسلمين.

دلالةُ استعمال مفردة ﴿وَعَدَكُمُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الوعدُ الكريم متحقِّقٌ لا محالة

جاء استعمال مفردة ﴿وَعَدَكُمُ﴾؛ لبيانِ أنَّ ما جاء في قول الله

---

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 491.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 177، 176.

تعالى: ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ﴾، هو وعدٌ كريم من الكريم سُبْحانه، فالوعد متحقِّقٌ - لا محالةَ - وأكَّد تحقُّقَ وقوعِ الوعدِ بتلك الغنائم التَّعبيرُ بصيغة الماضي ﴿وَعَدَكُمُ﴾؛ ليبثَّ في نفوسهم الاطمئنانَ والسَّكينة والتَّفاؤل في خيرٍ عميم لهم في الغَدِ القريب.

نكتةُ إظهار الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾:

تعظيمُ الوَعْدِ وإدخالُ المَهابةِ في النُّفوس

جاء المسند إليه - وهو فاعل الفعل ﴿وَعَدَكُمُ﴾ - معرَّفًا بالعلميَّة ﴿ٱللَّهُ﴾؛ إكرامًا للمؤمنين الموعودين بالمَغانم، مع الإعلام بأنَّه ﷻ هو الَّذي وعد، وهو الَّذي سيُنجز وعدَه، ولإدخالِ المهابة في قلوب المخاطَبين، فإنَّ ذِكر الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ أقوى في النَّفس، وآكدُ في الخطاب؛ لوجود التَّلميح إلى صدور الوعد عن الكريم سُبحانه، وفيه تعظيمٌ للموعودِ بإسنادِ الفعلِ إلى الاسمِ المتضمِّن صفاتِ الجلال والكمال والجمال؛ إذ لا يصدُرُ مِنَ العظيمِ إلّا عظيمٌ.

بلاغةُ الالتفاتِ مِن الغَيبة للخِطاب:

تشريفُ المؤمنين في مَقام المنَّة حيث كانوا أهلًا للخطاب

التَفَت النَّظم الكريمُ من الغَيبة في قوله: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ﴾؛ إذ كانوا أهلًا للخطاب بما قدَّموه من تسليم وإذعان للّٰه تعالى ولرسوله ﷺ، ولا أدلَّ على ذلك من مبايعتِهم رسولَ اللّٰه ﷺ على المَوْت، فكافأهُم بتلك الغنائم مُقْبِلًا عليهم بأسلوب الخطاب، مزيلًا كلَّ احتمالٍ يتردَّد في خواطر المُخَلَّفين: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ﴾[1]، تشريفًا وتعظيمًا في مقام المنَّة والعطاء.

غرض تكرار ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ﴾:

لمّا كان الغرضُ من الخطاب التَّأكيدَ على مكافأة المؤمنين بمغانمِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 318.

النَّفس مجبولةٌ على حبِّ سماع الخيرِ والوعد به

خيبرَ وغيرِها؛ كرَّر النَّظم القرآنيُّ ذِكْرَ أخْذِ المغانم الكثيرة في قوله سبحانه: ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةَ تَأۡخُذُونَهَا﴾ بعد قوله قبلُ: ﴿وَأَثَـٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ﴾؛ ليدلَّ على تحقُّق تحصيلِهم لها وقُرْبِ ذلكَ، وأنَّها غنائِمُ كثيرة في الأفرادِ متنوِّعة في الأجناسِ، فيما يأتي من بلدانٍ شتّى لا تدخل تحت حَصْر[1]، وقد حقَّق اللّه تعالى لهم ما وعدهم، وإنَّ شأنَ النَّفسِ الشَّغفُ بسماع الخير، وحُبِّ سماع خبره، فتَكرار هذه الجملة له وقعٌ في النَّفس يدعوها إلى مزيد الاستبشار والبشاشة.

غرضُ التَّقييد بجملة الصِّفة:

تمامُ السَّعادةِ في ذِكْرِ تفاصيلِ البِشارة

جاء تقييد ﴿مَغَانِمَ﴾، وهي نَكِرة موصوفَةٌ بالكثرة بجُملَة: ﴿تَأۡخُذُونَهَا﴾، وهو وصفٌ ثانٍ؛ لتحقيق الوعدِ[2]، وليدلَّ على أنَّهم سوف يتمَلَّكونها بأيديهم، فإنَّ ذِكرَ كيفيَّة تحقيق الوعد وتحصيل الغنائم أدعى للسَّعادة، وأرسخ في البشارة، كما أنَّ فيها إيماءً لهم بطولِ الأجل حتّى يأخُذوها، فجَمَعَ لهُم بذلك بين بِشارَتَيْن.

دلالةُ التَّعبير بالفعلِ المُضارِعِ ﴿تَأۡخُذُونَهَا﴾:

تحقُّقُ حصولِ المَغانِمِ لأهلِ الإيمانِ

دلَّ التَّعبير بصيغة الفعل المُضارع في قول اللّه تعالى: ﴿تَأۡخُذُونَهَا﴾ على تحقُّق هذا الأخذِ؛ لِما فيْه من استحضار تلك الصّورة السّارة للمؤمنين، وهُم يأخذون المَغانِم.

معنى الفاء ودلالتها:

وعْدُ الله تعالى سببٌ في تعجيلِ النَّصْر

الفاء في ﴿فَعَجَّلَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَـٰذِهِۦ﴾ عاطفةُ الجملةَ بعدها على جملة: ﴿وَعَدَكُمُ﴾[3]، ويجوزُ أن تُضمَّن معنى السَّببيَّة، أي: فكان وعدُ اللّه تعالى إيّاكم بتلك الغنائم الكثيرة

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 318.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 177.

(3) الصافي، الجدول في إعراب القرآن: 26/ 259.

سببًا في أنَّه عجَّل لكم هذه، يعني: الهُدنةَ والمصالحة ووضْعَ الحربِ بينَكُم وبين أهل مكَّة، ووضْعَ الحرب عشر سنينَ على أن تأتوا العامَ المقبلَ مِن مثل هذا الشَّهر معتمرين، فإنَّها سببُ ذلك كلِّه، ويحتمل أن يكون المعنى: الغنائِم التي فتحها الله تَعالى عليكُم مِن أهل خَيْبَر مِن سَبْيِها وأموالِها والمنقولاتِ وغيرها[1].

دلالةُ التَّعبير بمفردة (عجَّل) مادَّة وصيغة:

استكمالُ بِشارَة أهلِ الإيمانِ

جاء استعمال مفردة (عجَّل) في قول الله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾؛ لِبيانِ أنَّ تعجيل المسرَّة توطئة لِما بعدها من استكمال البُشريات، ويُخرَّج هذا المعنى على وجهين، فإذا كانت هذه السّورة نزلت دَفعة واحدة؛ فإنَّ الفعلَ (عجَّل) يكونُ مستعملًا في الزَّمن المستقبل مجازًا؛ تنبيهًا على تحقُّق وقوعه، أي: سيُعَجِّل لكم هذه، وإنَّما جُعِل نَوالُهم غنائمَ خيبر تعجيلًا لقُرْب حصوله مِن وقت الوَعْدِ به، ويحتَمِلُ أن يكون تأخُّر نزول هذه الآية إلى ما بعد فتح خيبرَ على أنَّها تكملة لآية الوعد التي قبلها، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ أمر بوضعها عَقِبَها، والأوَّلُ أظْهَرُ؛ لأنَّ هذا الثّانيَ غيرُ مَرْويٍّ[2].

غرضُ تقديم ﴿لَكُمْ﴾:

الاهــتـمـامُ بالمخاطَبين في مقام التَّبشير

قُدِّم ذكرُ الجارِّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ - وهو من متعلّقات فعل (عجَّل) - على المفعول، وهو ﴿هَٰذِهِۦ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾؛ لقَصْر البشرى بتلك الغنائم عليهم، فهي خاصَّة بهم دون سِواهم، وليُقَدِّم بين يدي البُشْرى ضميرَ المختَصّين بها؛ اهتمامًا بشأنهم وتعظيمًا لهُم.

دلالةُ استعمال اسم الإشارة للقريب:

تأنيسُ المخاطَبين بالمُشار إليه

جاء التَّعبيرُ باسم الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الموضوعِ للقريب، والمرادُ بها

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 318.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 177.

غنائِمُ خيبرَ؛ ليدلَّ على قُرب تملُّكها والاستيلاء عليها، وأنَّها مُعجَّلة قريبَةٌ، وليُذهب بذلك ما ثارَ في نُفوسِهم من حُزْن وغَمٍّ بِرُجوعِهم يوم الحديبية، مع ما فيها من الدَّعوة إلى التَّفكُّر في المُشار إليه؛ إشعارًا بمزيد إيناسٍ.

معنى الواو ودلالتها:

عطفُ المنَّةِ على المِنَّة للحثِّ على الشُّكْرِ

الواو في ﴿وَكَفَّ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾ عاطفَةٌ الجملةَ بعدها على ما تقدَّمها، وهي قوله: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾؛ لِما بينهما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ إذ الجملتان مشتركتانِ في الخبريَّةِ، وبينهما تناسبٌ لفظًا ومَعْنًى، فأمّا اللَّفْظُ؛ فاتِّحاد الجملتين في الفِعْليَّة والماضويَّة، واتِّحاد المسندِ إليه فيهما، وأمّا المعنى؛ فلِما فيه من عطف النِّعمة على النِّعمة، وذلك مقتضٍ المبالغةَ في الامتنان على المؤمنين؛ حضًّا لهم على الشُّكر بالإقبال على اللّه ﷻ فيما سيكون للمؤمنين قريبًا.

مناسبةُ استعمال مفردة (كفَّ) للسياق:

صَرْفُ الأذى قبلَ وُقوعِه

جاء استعمال مفردة (الكفِّ) في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾، والكفُّ هو منْعُ الفاعلِ من فعلِ أراده، أو شَرَع فيه، وهو مشتقٌّ من اسم الكَفِّ الَّتي هي اليدُ؛ لأنَّ الأصل في المنع أن يكونَ دفعًا باليدِ، وأُطْلِقَ الكفُّ مجازًا على الصَّرف، أي: قدَّر اللّه تعالى كفَّ أيديَ النّاس عنكم، بأن أوجَدَ أسباب صَرْفِهم عن أن يتناوَلوكُم بضرٍّ سواءٌ أنَوَوهُ أم لَم يَنْووه[1]، ولمّا كانت أيدي النّاس هي الواصلةَ للمؤمنين بغرض الإيذاء؛ ناسب استعمال مفردة الكفِّ الدّالَّة على معنى صَرْفِ أيديهم عن المُؤمنين.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي:

جاء التَّعبير بالفعل الماضي (كفَّ) في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَفَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 178.

﴿أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾؛ تعبيرًا عن المستقبَلِ بالماضي لإرادةِ تحقُّقِ الوقوع، وذلك لأنَّ الكفَّ إمّا أنَّه لم يقع بعدُ؛ إذا أُريد بالكفِّ كفَّ أهل خيبر ومن والاهم، وذلك للتَّأكيد على أمان جولتهم عليهم وضمان انتصار المسلمين عليهم، فيكون ذلك مجازًا عمّا سيقعُ، لمعاملته معاملةَ ما وقع، وأمّا إذا أُريد به كفُّ أهل مكَّة يوم الحديبية؛ فإنَّ الفعلَ مستعملٌ في أصله؛ لبيان المنَّة عليهم بصَرْفِ المُشْرِكين عَنْهُم.

بيانُ صَرْفِ أيدي النّاس عن المؤمنينَ حالًا واستقبالًا

بلاغة الكناية:

كفُّ الأيدي في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾ كنايةٌ عن صِفَةِ المَكْر والأذى، وعبَّر بالأيدي باعتبارِها أداةَ القوَّة والبطش والجبروت، ووجهُ بلاغته: أنَّه منع عنهم أسبابَ المواجهة والحربِ، فعبَّر بالأيدي؛ لكونِها أداةَ ذلك والموصلَةَ إليه، ولا يكون القتال إلّا بها، فجاء الامتنان على المؤمنين بذِكْرِ دفعِ الأذى ووسائله.

دَفْعُ الله تَعالى عن المؤمنينَ الأذى وأسبابَه

بلاغةُ المجازِ في تعريفِ لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

المقصودُ بلفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ أهل مكَّة؛ جريًا على مصطلح القرآن في إطلاق هذا اللَّفظ غالبًا، وقيل: هُمُ الأعراب المشركون من بني أسَدٍ وغَطَفانَ، وكانوا أحلافًا ليهودِ خيبرَ، وجاؤوا لنُصْرَتِهم؛ لَمّا حاصَر المسلمون خيبرَ، فألقى اللّه تعالى في قلوبهم الرُّعب، فنَكَصوا، وقيل: هُمُ اليهود؛ إذ كانوا يستطيعون أن يهجموا على المدينةِ في مدَّة غَيْبَة مُعْظَم أهلِها في الحديبية، وهذا القولُ لا يناسبه إطلاقُ لفظ النّاس في غالب مصطلح القرآن الكريم[1]، فلفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ على جميعِ هذه الأقوال عامٌّ أُريد به الخصوصُ، فهو مجازٌ مرسَلٌ بعلاقةِ العموميَّة؛ أُطْلِقَ العامُّ، وأريدَ الخاصُّ، وليس هو من إطلاق الكلِّ وإرادةِ الجزء، وتظهر بلاغةُ هذا المجازِ في أمرين، أحدهما:

الإيماءُ إلى قدرة الله تعالى في كفِّ أيدي جميع النّاس

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 178.

فيه إيماءٌ إلى قدرة اللّه تعالى على كفِّ أيدي جميع النّاس. والآخر: المبالغة في بيان شأنِ مَكْرِ النّاس بالمؤمنين.

دلالةُ الحرفِ (عَنْ):

دَفْعُ الله تَعالى عَن أهلِ الإيمان مَع ما كانوا عليهِ مِنَ القِلَّة والضَّعف

أفاد حرفُ الجرِّ (عَنْ) في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾ معنى المجاوزَة، أي: إنَّ النّاسَ من أهل الكفر تجاوَزوا البطشَ بالمؤمنينَ؛ بسبب كفِّ اللّه تعالى أيديَهم عنهم، على ما كان عليه المؤمنون من القلَّة والضَّعف[1].

معنى الواو ودلالَتُها على معاني السّياق:

صِدْقُ الإخبار عَنِ الغُيوبِ آيةٌ ومعجزةٌ

الواوُ في ﴿وَلِتَكُونَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عاطفَةٌ إمّا على محذوفٍ مقدَّرٍ؛ لعدم تقدُّم ما يصلح لعطفه عليه ظاهرًا، أي: ليَشْكُروه ولتكونَ، أو وعدَ، فعجَّل، وكَفَّ؛ لينفعكم بها، ولتكونَ آية للمؤمنين؛ إذا وجدوا وعدَ اللّه تعالى بها صادقًا؛ لأنَّ صِدقَ الإخبارِ عن الغيوب معجزةٌ وآية، ويزيدكم بذلك هدايةً وإيقانًا، وإمّا أن يُقدَّر ما يتعلَّقُ بالفعل مُتَأخِّرًا، أي: وليَكونَ الكفُّ آية للمؤمنين فعلَ ذلك، وجوِّز كونه علَّة لجميع ما قبله من قوله: ﴿وَعَدَكُمُ﴾، والتَّقدير: لنفعكم بما ذُكِر ولِتَكون[2]، فهو قد ذكَر المغانم الكثيرة الَّتي وعدها لهم: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا﴾، فكان هذا الوعد سببًا في تحقيق ما بعده مفصَّلًا على التَّرتيب، وأوَّله: وضع الحرب مع أهل مكَّة: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾، وثانيه: الحماية مِن أذى النّاس: ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾، وثالثها: تَثْبيتُكم برُؤْيَتكم تحقيقَ ما وعدكم اللّه: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، بما ترون من أسبابِ الفتحِ القَريبة بما يُدخل من النّاس في دينكم[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 318.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 341، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 494، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 60.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 318.

انهزامُ الكفّار من غير قتالٍ مِن أعظَمِ الآيات

مَعْنى اللّام ودلالتُها:

اللّام في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ﴾ بمعنى (كي)، والمعنى: لكي تكون هزيمَتُهم مِن غير قتال آيةً للمُؤمنين[1]، وهو جزء من تحقيق وعْدِ اللّه تعالى، أي: فعلَ ذلكَ؛ لتكون آيَةً.

تجدُّدُ الاعتبارِ بالآيات على مدى الأيّام

دلالةُ التَّعبير بالفعل المُضارِع:

أفاد الفعل المضارع (تكون) من قول اللّه تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لإفادةِ مَعنى التَّجدُّد الاستمراريِّ، أي: لتكون هذه الآية لهم ولغيرهم ممَّن يأتي بعدَهم، تَتناقَلُها الأجيال جيلًا بعد جيل، أي: منكم ومن غيركم من الرّاسخين في الإيمان إلى يوم القيامة على جميع ما يُخبر اللّه تعالى به؛ ليتحقَّق النَّصر بأسبابٍ جليَّة أو خفيَّة[2]، ففي التَّعبير بصيغةِ المضارع إيماءٌ غلى تجدُّد هذه الآية في قلوب المؤمنين، وأنَّه كلَّما جدَّ مثيلٌ لها؛ تجدَّد النَّصر بما يُشابهها، فالمقصود استمرار الاعتبارِ في أعين النُّظّار.

آياتُ الله تعالى كلُّها عظيمةٌ جليلة

غَرضُ تنكير لفظ ﴿ءَايَةً﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿ءَايَةً﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لإرادة التَّعظيم، فهي آية عظيمة لصدورها عن اللّه تعالى، والمعنى: لتكونَ لغاياتٍ جمَّة، منها ما ذُكِر آنفًا، ومنها سلامةُ المسلمين في وقتٍ هُم أحوَج فيه إلى استِبقاءِ قوَّتِهم مِنهُم إلى قِتال المشركين ادِّخارًا للمستقبَل[3].

مَعْنى اللّام ودلالتها:

اللّام في ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ للاختصاص، أي: جعل ما تقدَّم آية خاصَّة بالمؤمنين

(1) تفسير مقاتل بن سليمان: 4/ 74.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 319.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 178.

المذعنين لأمر رسول الله ﷺ، فالإيمان من دواعي تدبُّر آيات الله تعالى وفَهْم سُنَنِه في الكَوْنِ.

نكتةُ التَّعبير بوصف الإيمان:

نـعْـتُ الـحـقِّ للمؤمنين بصفة الإيـمـانِ دليل الرِّضا والقَبول

ذُكِر وصفُ الإيمان دون الإسلام في قول الله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي قوله سبحانهُ قَبْلُ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ إقرارًا وشهادةً لهم بنَعْتِ الإيمان، وتأكيدًا على أنَّ انقيادَهُم لرسول الله ﷺ ومبايعتَهُم له على المَوْتِ هو صَميمُ الإيمان الذي كافأهُم عليه، وأنَّ شأن المُؤْمنين أن يكون على الجادَّة في كلِّ وقتٍ وحينٍ.

معنى الواو في ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾:

اجتماعُ طَمأنة القُلوب وإقناعِ العُقولِ

الواو في ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملة: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: لتكون آيةً لعُقولِكم، ويزيدَكُم بصيرةً ويقينًا وثقةً بفضل الله تعالى عليكم[1]، فيجتمع لكم إقناعُ العقولِ وإيمانُ القلوبِ.

دلالةُ التَّعبير بالفعلِ المُضارع (يهديكم):

غـرضُ الآيـاتِ تجديدُ الهداية لـلـثَّـبـات والاستمرارِ

جاء فعلُ الهداية في قول الله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ مُضارعًا؛ ليُفيد التَّجدُّدَ والحدوث والاستمرار، أي: أراكم ما أراكم من آياته ليَهْديَكُم هداية متجدِّدةً مستمرَّةً في نحو هذا الأمر الَّذي دَهَمَكم، فأزعجكم بالثَّبات عند سماع الوعد والوعيد والثِّقة بمضمونه؛ لأنَّه عزيزٌ حكيم، فهو لا يخلف وعدهُ بهدايتكم[2]، فكلَّما نازَعَتهُم وساوسُ النَّفس؛ رَجعوا إلى الله تعالى بما يَرَوْنَهُ من تحقُّق الوعد والوعيدِ.

غرضُ الالتفات من الخِطاب إلى الغَيبة، ثُمَّ إلى الخطاب:

التفت النَّظْمُ الكريم من الخطاب في قولِه تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 341.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 319.

﴿ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾ إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فلم يرِد في النَّظْم القرآنيِّ: (ولتكون آية لكم)؛ إذ الاسم الظّاهر في قوَّة الغَيبة، ونكتةُ ذلك: أن يشهَدَ لهم بالإيمان تشريفًا وتعظيمًا، وليَدُلَّ لفظُ ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على العموم، وهو المُتَّسق مع تنكير لفظ ﴿ءَايَةٗ﴾، فيُخرِجَ بذلك غيرَ المؤمنين، فإنَّهم لا ينتفعون بها، ثُمَّ التفَت إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾، أي: طريقًا واسعًا واضحًا موصلًا إلى الكرامة من غير شكٍّ؛ لينصَّ على هدايتهم على وجه الخصوص دون غيرهم، وهذا من أعلام النُّبوَّة، فإنَّه لم يزغ أحدٌ من المخاطَبين بهذه الآية، وهُم أهل الحديبية، فلم يَرِد في النَّظم القرآنيِّ: (ويهديهم) بالغَيبة على ما اقتضاه السّياق؛ لئلّا يعمَّ غيرَهم ممَّن يَظْهَرُ صِدْقُه في الإيمان، ثُمَّ يَزيغ، ولذا كانت أكثرُ تفاصيل هذه السّورة من أعلام النُّبوَّة، فإنَّه وقع الإخبارُ به قبلَ وُقوعه[1].

الاعتبار بالآيات من الإيمانِ، والهدايةُ أولى ثمراتِ الإيمان

عرضُ تنكير لفظ ﴿صِرَٰطٗا﴾:

نُكِّر لفظ ﴿صِرَٰطٗا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾، وهو المفعول الثّاني لفعل الهدايةِ (يهديكم)؛ لغرض التَّعظيم والتَّفخيم، أي: يهديكم طريقَ التَّوكُّلِ وتفويضِ الأمورِ إليه، أو أنَّ المعنى: يهديكم بَصيرةً وإتقانًا[2].

تعظيمُ طَريقِ الهدايَة وتَفْخيمُه

بلاغةُ التَّقييد بصِفَةِ ﴿مُّسۡتَقِيمٗا﴾:

جاء تقييدُ المَوْصوفِ وهو الصِّراط بكونه ﴿مُّسۡتَقِيمٗا﴾؛ ليدلَّ على أنَّ طريقَ الحقِّ مستقيم معتدل لا اعوجاج فيه ولا انحرافَ، بخلاف السُّبل الأخرى، فيكونَ فيه إيماءٌ بالوعدِ باستمرار الهداية، فإنَّ شأن الاستقامة أن توصِلَ إلى المطلوب، وهو الجنَّة.

الإيماءُ بالامتنان إلى دخولِ الجنَّة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 319.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 494.

معنى الواو ودلالتها:

الواو في ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ عاطفة (أُخرى) على ﴿هَٰذِهِۦ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾، أي: فعجَّل لكم هذه المغانم، وعجَّل لكم مغانم أخرى لَم تَقْدِروا عَليها، وهي مغانم هوازنَ في غزوة حُنين[1]، ويجوزُ أن تكون منصوبةً عطفًا على ﴿مَغَانِمَ﴾ في قوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا﴾، والمعنى: ووعَدكم اللّه أُخرى[2]، وجائزٌ أن تكون (أخرى) مبتدأً مرفوعًا، وسوَّغ الابتداءَ به مع كونه نكرةً لكونه موصوفًا بـ﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ﴾، وقولُه: ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ خبرهُ[3].

العطفُ يقتضي الاستزادةَ من الامتنانِ بالغنائمِ

بلاغةُ ترتيب ذِكْرِ الغنائم:

أفادت الواوُ في ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ الجمعَ بين البِشارتين معًا، فاقْتَضى العطفُ بيانَ نوعين من الغنائم، الغنائم الكثيرة التي يأخذها المؤمنون، وأخرى لم يَعْلَموا عنها، ولم يَقْدِروا عليها، ففيهِ عطفُ النَّوعِ الأصعب من الغنائم على النَّوعِ الأوَّل، وهذا تَرَقٍّ في الامتِنانِ.

التَّدرُّج في ذكر الغنائم زيادةٌ في الامتِنان

نكتةُ حذف الموصوف:

كلمة (أخرى) في قول اللّه تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ صفة لموصوفٍ محذوفٍ، أي: (ومغانم أخرى)، أي: وقضى لكم مغانمَ أخرى مؤجَّلة، وفي حذفِ الموصوفِ إيماءٌ إلى تعدُّدِها وشمولها الغنائمَ والسَّبي والأماكنَ والنَّصر وغيرَها، وعوملت الصِّفة معاملة الموصوفِ لقيامها بوظيفتها في الإعرابِ والبيان.

الإيماء إلى تعدُّد الغنائم وتنوُّعها وشمولها

بلاغةُ تقييد الموصوف بجملة الصِّفة:

قول اللّه تعالى: ﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ صفة لكلمة (أخرى) على

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 341.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 80.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 341.

الإشارةُ إلى جَولة المُشركين وصولَتِهم توطئةً لبيانِ عظيمِ القُدرَةِ الإلهيَّةِ

اعتبارِ رفعِ لفظِ (أُخرى)، وأمّا على كونِ (أخرى) في محلِّ نصبٍ صفةً لموصوفٍ محذوفٍ، والتَّقدير: (ومغانمَ أُخرى)؛ فإنَّ ﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ صفةٌ أُخرى لـ ﴿مَغَانِمَ﴾ المحذوفة[1]؛ وذلك لما كان فيها من الجَولة[2] والصَّولة من قبل المشركين على المؤمنين، فلو لم يُمَكِّنهم اللّه تعالى منها؛ ما حصلوا عليها، ولمّا كانت جملة: ﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ صفةً لـ (أخرى) أو لـ ﴿مَغَانِمَ﴾ المحذوفةِ؛ لم يقتضِ مدلولُ الجملة أنَّهم حاولوا الحصولَ عليها، فلم يقدروا، وإنَّما المعنى: أنَّ صفتها عدمُ قدرتِكم عليها، فلم تتعلَّق أطماعُكم بأخْذِها[3].

دلالَةُ التَّعبير بالفِعْلِ المُضارِع ﴿تَقۡدِرُواْ﴾:

عظيمُ فَضْلِ اللهِ تعالى عَلى أهلِ الإيمانِ

عُبِّر بالفعلِ المُضارِع ﴿تَقۡدِرُواْ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ منفيًّا بـ ﴿لَمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على الدَّوام والاستمرار، وهو استمرارٌ للنَّفْي في المُضيِّ لا نفيُ الاستمرارِ، وفيه عظيمُ المِنَّة عليهم بذلك؛ إذ منَّ اللّه تعالى عليهم بهذه المغانم التي لم يَقدروا عليها، وسخَّر لهم ما لَم تكُنْ لهم به طاقةٌ؛ ليعلموا أنَّ الفضْلَ والنَّصْرَ من عند اللّه تعالى.

دلالةُ حرف الجرِّ (على):

بيانُ شدَّة ضعفهم وكمال عَجْزِهم

(على) في قول اللّه تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ حرفٌ دالٌّ على الاستعلاء، وفي نفي استعلاء قُدرتِهم إثباتٌ لشدَّةِ ضعفِهم مقرونًا بالدَّليل.

وفي قوله: ﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ دلالةٌ على كمال عجْزِهم وانعدام حيلتهم، ووجه ذلك: أنَّ الفعل المضارِعَ ﴿تَقۡدِرُواْ﴾ مشتمِلٌ على مصدرٍ وزَمَنٍ، والأصل في المصدرِ كونه نكرةً، فيكون في قوله تعالى:

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 244.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 341، والطيبي، فتوح الغيب: 14/ 403.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 180.

﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ نكرةٌ - وهو المصدر المستَكِنُّ في الفعلِ - في سياق النَّفْيِ، فيَعُمُّ نفيَ جميعِ أنواعِ القُدرة وصوَرِها.

دلالةُ استعمال ﴿قَدۡ﴾:

توكيدُ تحقُّق الإحاطة بالغنائم

أفاد الحرف ﴿قَدۡ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ توكيدَ الإحاطة، وذلك أنَّه لمّا نفى عنهم القدرة على الاستيلاءِ عليها؛ بيَّن قدرته سبحانه على ذلك، بذكر ﴿قَدۡ﴾ التي أفادت توكيدَ الوقوعِ وتحقيقَهُ، وهو ما يُقرِّر صِدقَ الوعد مقرونًا بالدَّليل، وهو تأكيدُ الإحاطةِ.

براعةُ استعمال مفردة ﴿أَحَاطَ﴾ دون (قدر):

بيانُ الفرقِ بين قدرة العبد المنفيَّة وإحاطة الله تعالى المُثبَتة

دلَّ استعمال فعل الإحاطة ﴿أَحَاطَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ على القدرة البالغة مبلغَ الإحاطة من كلِّ الجوانب الزَّمانيَّة والمكانيَّة والمادّيَّة، فلمّا نفى عن المؤمنينَ القُدْرَة على تلك الغنائم؛ كان المناسبُ ذِكْرَ الإحاطة لا القدرة، ولذلك لم يقل: (قد قَدِرَ اللّه عليها)؛ إذِ الإحاطة أشمَلُ وأبلَغُ مِنَ القُدْرَة، ولبيان الفرق بين قدرة العبد المنفيَّة وإحاطة اللّه تعالى المثبتة.

وعُبِّر بصيغةِ الماضي ﴿أَحَاطَ﴾؛ لبيان تمكُّن حِفْظِ اللّه تعالى لهذه الغَنائِم أزلًا، ومِن ثَمَّ بثَّ في قُلوبِهم الأمانَ بحصولهم عليها، فالَّذي يتولّى حِفظَها هو اللّه تعالى، وفي معنى الإحاطة إشارةٌ إلى أنَّها كالأمرِ المحاط به من جوانبِه، فلا يفوتهم مكانه، وجُعلت بمنزلةِ المخبوء لهم[1].

غرضُ التَّعبير بالاسمِ الأحسَنِ:

توريثُ المهابةِ في القلوب لزيادة الثِّقة والطُّمأنينة

جاء المسند إليه في قول اللّه تعالى: ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لتوريث المهابةِ في نفوس السّامعين، فإنَّ ذِكْرَ الاسم

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 180.

الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ من شأنه تحريكُ قلوب العباد تجاه خالقِها ﷻ الَّذي أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا وقدرةً، وذلك لدلالةِ اسم ﴿ٱللَّهُ﴾ على جميع معاني الكمال والجلال.

معنى الباء ودلالتها:

بيانُ عظيمِ قدرة الله تعالى

تعدّى فعل الإحاطةِ ﴿أَحَاطَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ بحرف الباء - وهي دالَّةٌ على الإلصاقِ - لبيان شدَّة تمكُّن اللّه تعالى منها، وأنَّها تحت نهيه وأمره ومقدوره وإرادته، وفي هذا إيناسٌ لهم بحتميَّة الحصول عليها.

معنى الواو ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ استئنافيَّة، والجملة بعدها مستأنفةٌ واردةٌ؛ تذييلًا لِما جاء في مضمون الآية مِن إثبات القُدْرَةِ والإحاطة للّه تَعالى.

بلاغةُ التَّذييل في الآيةِ:

إيناسُ المؤمنين بتحقيق وعد الله تعالى

جاء قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ تذييلًا، وهو تذييل جارٍ مجرى المثَلِ؛ لاستقلاله بالإفادَةِ وعدم افتقاره إلى غيرِهِ في بيان تمامِ المرادِ مِنه، وجملة التَّذييل وارِدَةٌ في بيانِ عموم قدرة اللّه تعالى على كلِّ شيءٍ؛ ليدلَّ على أنَّه سبحانه المحيط بجميع صفات الكمال أزلًا وأبدًا[1]، وفي هذا تمكينٌ لبثِّ السَّكينة واليقين في قلوب المؤمنين، وإيناسٌ لهم بتحقيق ما وعدهم اللّه تعالى، فالجملَةُ تذييلٌ لِما جاء في الآيات السّابِقَة.

نكتَةُ الإظْهارِ في موضعِ الإضمارِ:

تقويةُ المعاني بِذكر صاحب الجلال والجمال

أُظهِرَ الاسم الأحسَنُ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله سبحانَهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾، مع تقدُّم ذكره في قوله: ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾، فكان

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 320.

مقتضى الظّاهر أن يَرِدَ في النَّظم القرآنيِّ: (وكان على كل شيء قديرًا)؛ وذلك لتقعَ جملة التَّذييل موقعَ الاستقلال في ذاتها في النَّظم والبناء اللَّفظيِّ، فكان ذِكْرُ الاسم الأحسَنِ مقوّيًا لمعناها؛ لِما تحويه من الدَّلالة على الاقتدارِ الإلهيِّ، والإحاطة الشّاملة، ولتذهب جملةُ التَّذييلِ مذهبَ الأمثال السّائرة في معناها ومَضْمونِها.

دلالةُ حرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾:

بيانُ عموم قدرةِ الله تعالى

أفاد حرفُ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ الاستعلاءَ والتَّمكُّن من الشَّيءِ تمكُّن المستعلي عليه، فلا يخطئه أبدًا، وهذا الاستعلاءُ أصلُ معاني ﴿عَلَىٰ﴾، وهذا يدلُّ على قدرته سبحانه على كلِّ شيءٍ قدرةً محيطةً مطلقةً.

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور على المُسْنَد:

إبـــرازُ معنى الإحـــاطـــة والـــشُّـــمـــول وعموم القدرة

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، وهو من متعلِّقات المسند ﴿قَدِيرٗا﴾ عليه؛ لإبرازِ معنى الإحاطة والشُّمول وعموم القدرة الَّتي لا تخطئ شيئًا أبدًا، وذلك للعناية والاهتمام بالقدرة على التَّصرُّف في كلِّ شيءٍ، ولا سيَّما فيما يخصُّ ما جاء في السّياق من ذكر قدرة الله تعالى وإحاطته بالمذكور من شأن الغنائم، وما يسبقه من الإيماء إلى النَّصر والتَّمكين للمؤمنين.

دلالةُ إضافة لفظ العموم إلى العموم:

دفْـعُ كـلِّ وهـمٍ لتحقيقِ تمام الطُّمأنينة

أُضيف لفظ ﴿كُلِّ﴾ وهو من ألفاظ العموم إلى ﴿شَيۡءٖ﴾، وهو نكرة دالَّة على العموم البَدَليِّ؛ لإفادةِ استغراق كلِّ ما يتصوَّره عقلُ المخاطَب وما لا يتصوَّره، فإنَّ النَّفس تترقَّب وجودَ أشياء لا تعلَمُها، ومنها تأتي المخافة، وبسببها يقع الوَهم، فكانت دلالة العموم المطلق دافعةً لكلِّ وهم، ومناديةً على بثِّ الطُّمأنينة بأنَّ الله على كلِّ شيء قدير، فمَن والى الله تعالى؛ فلا غالبَ له، ومن آمن بالله حقَّ التَّوكُّل؛ فهو المُظفَّر المنصور.

دلالةُ تَنكير لَفظِ ﴿قَدِيرٗا﴾:

سَعَةُ قُدْرَةِ الله تعالى وكمالُها

نُكِّر لفظُ ﴿قَدِيرٗا﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾؛ لإفادَةِ تعظيمِ الوصفِ الَّذي تضمَّنَهُ الاسْمُ، فهو عظيمُ القُدرةِ واسِعُها وكامِلُها، فلا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

غرضُ اختيارِ صفة القدرة دون العلم:

تعظيمُ قدرته تعالى وتفخيمُها بما يتناسب مع مضمون السّياق

اختير وصفُ القدير في ختام الآية ﴿قَدِيرٗا﴾ دون (عليمًا) أو (محيطًا)؛ وذلك لأنَّ المقصودَ بيانُ القدرة على كلِّ شيءٍ، وهو الأنسب لِلسّياق وموضوع الآيات المتقدِّمة، فقدرةُ الله تعالى يلزم عنها العلم، وليكون أنسبَ لبيانِ عموم قدرة الله تعالى بعدَ نفيِ القُدرة عن العبادِ في قوله: ﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾.

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

كفَّ ومَنَعَ:

الكفُّ امتناعٌ عن مـوالاةِ الفعل، بخلاف المنع فهو تعذُّرُ الفعل على القادِرِ

المنع ما يتَعَذَّر الفِعْل معه على القادِرِ، فَهوَ يضادُّ الفِعْل، وليس يُضاد القُدْرَة، ولا يُسمّى منعًا إلّا إذا كانَ معَ القُدْرة، فَليس هو العَجز في شَيء، وأمّا الكفُّ؛ فإنَّه يُستعمَلُ فيما تَدْعو إليه الشَّهْوَة، وفيما لا تَدْعو إليه، يُقال: كفَّ عَن القِتال، كَما يُقال: كفَّ عَن شربِ الماء، وأصل الكَفِّ: الانقباضُ والتَّجمُّع، ومِنْه سُمّيت الكَفُّ كفًّا؛ لأنَّها تقبض على الأشياء وتجتمع، فالكفُّ عَن الفِعل هوَ الامتِناع عَن موالاة الفِعْل وإيجاده حالًا بعد حال، خلاف الانبساط فيه؛ إذ أصلُه: الانقباض[1].

وإيثارُ التَّعبير بالفعل (كفَّ) في قولِه: ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾ دون (منع)؛ لأنَّ المنع يدلُّ على منْعِهم عنهم مع قُدْرَتِهم

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 112.

على قِتالهم، وهذا يُضعِف المَعْنى، وهو أدْعى لبَثِّ الخوف بين المؤمنين، بخلاف الكفِّ الذي يُبَيِّن أنَّه كَفَّهُم عنهم حالَ كونِهم منقبضين مذعورين من قتال المؤمنين، وهذا أضمَنُ لبَثِّ الطُّمأنينة والسَّكينة في قلوب المؤمنين.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٢٢﴾ [الفتح: 22]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تصوُّر رعاية الله تعالى عند وقوع المكروه أرسَخُ في الطُّمأنينة

لمّا قدَّمتِ الآياتُ السّابقة كفَّ أيدي النّاس عن المؤمنين؛ ناسب ذِكْرَ بيانِ حالِهم لو قاتلهم الكافرون؛ ليقع تصوُّر الأمر، فتَعْظُم المنَّة، وتجزل النِّعمة، فقال: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ مقرِّرًا لِقُدْرَته مؤكِّدًا؛ لأجل استبعاد مَن يستَبْعِدُ ذلكَ مِن الأعرابِ وغيرهم(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْأَدْبَٰرَ﴾: (دبر) تدلُّ تصريفاتُه على آخر الشَّيء، وما يُضادُّ القُبُل(2)، والدُّبُر: الظَّهر، قال الله تعالى: ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾ [القمر: 45]، والجمع: أدبار، كما قال الله تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ٢٧﴾ [محمد ﷺ: 27]، أي: قُدّامهم وخَلْفهم، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ١٥﴾ [الأنفال: 15]، أي: لا تَنْهَزِموا(3)، ومعنى تولية الأدبارِ في قول الله تعالى: ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ هزيمةُ المشركين ولُحوقُ العارِ بهم.

2) ﴿يَجِدُونَ﴾: (وجد) تدور اشتقاقاتُه على تحصيلِ شيءٍ، وخصَّه بعضُ أهل اللُّغةِ بكونه شيئًا ذا بالٍ(4)، والوُجودُ أضْرُبٌ، أحدها: وُجودٌ بإحدى الحواسِّ الخمس، نحو: وجَدْتُ زيدًا، ووَجدْت طَعْمَه ورائحتَه وصَوْتَه وخُشونَتَه. وثانيها: وجودٌ بقوَّة الشَّهْوة، نحو: وجَدْتُ الشِّبَعَ. وثالثها: وجودٌ بقوَّةِ الغَضَب، كوُجود الحُزْنِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 320.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دبر).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 586.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وجد)، ومحمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وجد).

والسَّخَط. ورابعها: وجودٌ بالعَقْل أو بوساطَةِ العقل، كمَعْرفة اللّه تعالى ومَعْرِفة النُّبوَّة، ويُعَبَّر عن التَّمَكُّن من الشَّيء بالوُجود، نحو: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: 5]، أي: حيث رأيتموهم[1]، والمقصود في قول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ أنَّهم لا يرون وليًّا ولا نصيرًا، ولا يعلمونَهُما.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ عواقب الحرب في الحُدَيْبية

تُبيِّن الآية أنَّه لو حدث قتال في الحديبية بين المؤمنين وبين أهل مكَّة ومَن والاهم، وكانوا قد اجتمعوا، وجمعوا الأحابيش ومن أطاعهم، وقدَّموا خالد بن الوليد طليعةً لهم إلى كُراع الغَميم - ولم يكن أسلم بعد -[2] لو حدث ذلك؛ لولَّوا الأدبار منهزمين على أعقابهم مدحورين، وانهزموا هزيمة شنيعة، ثُمَّ لا يجدون لهم من دون اللّه وليًّا ولا نصيرًا[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها:

كفُّ قتالِ الكُفّار عن أهل الإيمانِ أمرٌ إلهيٌّ وليس اتِّفاقيًّا

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ تحتمل أن تكون عطفًا على قوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾؛ لما بين الجملتينِ من التَّوسُّط بين الكمالين؛ لاتِّحاد الجملتينِ خبرًا، ولِما بينَهُما من التَّناسب في اللَّفْظِ لاشتراكِهما في الفعليَّةِ والماضويَّةِ، والمقصود من هذا العطفِ: التَّنبيهُ على أنَّ كفَّ أيدي النّاس عنهم نعمة على المسلمين باستبقاء قوَّتهم وعدَّتهم ونشاطهم.

ويجوزُ أن تكون الواوُ استئنافيَّة، وهو يصلحُ ردًّا على من يقولُ: كفُّ الأيدي عنهم كانَ أمرًا اتِّفاقيًّا، ولو اجتمع عليهمُ العربُ - كما

(1) الراغب، المفردات: (وجد)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 5/ 163.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 321.
(3) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 491.

عَزَموا - لمنعوهم من فتحِ خَيْبَرَ واغتنام غنائمها، فذكر أنَّ الأمرَ ليس كذلكَ، بل سواءٌ أقاتلوا أم لم يُقَاتلوا؛ فإنَّهم لا يُنصرون، والغلبةُ واقعةٌ للمسلمينَ، فليس أمرهم أمرًا اتِّفاقيًّا، بل هو أمرٌ إلَهيٌّ محكومٌ به محتومٌ[1].

دلالةُ التَّعبير بأداة الشَّرط (لو):

زرْعُ الثِّقة في قلوب المؤمنين

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ أداة الشَّرط (لو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾؛ للدَّلالة على عدم وقوعِ الشَّرطِ؛ لأنَّ هذا أصلُ دلالةِ (لا)، والمعنى: لو فُرِض أنَّ المُشْركين قاتَلوكُم يومَ الحُديبية، أو اليهودَ ومَن والاهم يوم خيبرَ؛ لكانت النَّتيجة أنَّهم سَيوَلّون الأدبار منهزمين، وفي هذا تقويةٌ لنفوسِ المؤمنين[2]، ونزعٌ لفتيلِ الخوفِ من قلوبهم، واستُعْمِل حرف الشَّرْطِ (لو)؛ لما فيه من شديد الارتباط بين امتناع جُملَتَيِ الشَّرط، والمعنى: لَو حَصَلَت المقاتلَةُ؛ لَما وقع إلّا تولية الأدبارِ.

نكتةُ استعمال مفردة المقاتلة:

أسبابُ النَّصر يُجريها الله تعالى على أيدي المؤمنين

جاء استعمالُ مفردة المقاتلة بصيغة المفاعلة ﴿قَٰتَلَكُمُ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الله تعالى يُجري أسباب النَّصر لأوليائه المؤمنين، وأنَّهم يواجهون مقاتلة الكافرين لهم بمقاتلةٍ يكون من شأنِها أن يولّوا الأدبار، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ القتال قادمٌ، وسيكون حليفًا للمؤمنين في كلِّ مشهدٍ من مشاهد نِزال أهل الكفران.

غرضُ تقديم المفعول به:

سببُ مقاتلة المؤمنين وعناية الله تعالى بهم الإيمانُ

قُدِّم المفعول به، وهو ضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وهو خطابٌ للمؤمنين على الفاعل، وهو ﴿ٱلَّذِينَ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 81، 80.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 135.

﴿كَفَرُواْ﴾ وجوبًا؛ مراعاةً للصِّناعةِ اللُّغويَّةِ؛ إذ لا يصحُّ في اللُّغة: (قاتلَ الذين كفروا إيّاكُم)، وإذا أُريد تأخيرُهُ؛ فإنَّ النَّظم يرِدُ هكذا: (قاتلوكُم) بإضمارِ الفاعلِ، وفي العدولِ عن هذا إلى تقديمِ المفعولِ به مع إظهار الفاعلِ إيماءٌ إلى أنَّهم محطُّ الاهتمام ومجمع الفائدة ومناط العناية، فذِكْرُهم أوَّلًا أهَمُّ؛ لأنَّ المراد بيانُ عناية اللّه تعالى بهم، وأنَّ المقاتلة إن وقعت؛ فإنَّها تقع بسبب إيمانهم، وعناية اللّه سُبحانَهُ بِهم بسبَبِ إيمانهم، فكانت المقاتلَةُ والعِنايَة متعلِّقتين بسبب واحدٍ، وهو الإيمان.

غرضُ التَّعبير بالاسم الموصول:

الكفرُ أصل الشَّرِّ والهزيمة ومنبع كلِّ رذيلة

آثر النَّظم الكريم استعمال الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون أن يَرِدَ في البيان القرآنيِّ: (ولو قاتلكم الكافرون)؛ للإشارةِ إلى علَّة هزيمة الكافرين أمام المؤمنين وهي الكفر، سواء أكانوا من أهل مكَّة أم من حلفاء خيبَرَ[1]، ففي ذلك بيانُ أنَّ الكفرَ هو سببُ وبالِ الكافرين في الدُّنيا والآخرة.

بلاغة الكناية:

توليةُ الأدبار كنايةٌ عن الهزيمة والخزي والنَّكال

قول اللّه تعالى: ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ معناه: لانهَزموا؛ فتولية الأدبار كناية عن الهزيمة[2]، وذُكِرَت تولية الأدبار دون الهزيمةِ؛ لِما في ذلك من تقبيح حالهم، وأنَّ الهزيمة الَّتي ستنزل بهم هي هزيمة فارقةٌ، مع ما في معنى تولية الأدبار من الخزي والنَّكال والضَّعف والهوان والخوفِ.

دلالَةُ التَّعبير بالفعلِ الماضي (وَلَّوا):

طَمأنَةُ قُلوبِ أهلِ الإيمانِ

جاء التَّعبير عن جواب الشَّرط بالفعل الماضي (ولَّوا) من قول اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾؛ لإفادَةِ تحقُّق التَّولّي من الكفّار؛ مبالغةً في تطْمينِ قلوب المؤمنين.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 341.
(2) الشِّهابُ، عنايةُ القاضي وكفايةُ الرّاضي: 8/ 63.

غَرضُ إسنادِ الفعل إلى واو الجماعة:

تثبيتُ قلوب المؤمنين، وبيان انهزام الكافرين

أُسنِدَ فعلُ التَّوليةِ (ولَّوا) في قول الله تعالى: ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ إلى واو الجماعةِ العائدة على جموع المشركين؛ للإشارة إلى انهزامهم عن بكرة أبيهم دون استثناء، وفي هذا تطييبٌ لخاطر المؤمنين، وبثٌّ للثِّقة في نفوسهم، ونزْعٌ للخوف من قلوبهم، وللإيماء إلى سرعة ذلك، وأنَّه يحصل دفعةً واحدة.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ جمعًا معرَّفًا:

تصويرُ حالِ الهزيمة النَّكراء بمَشاهِد تولية الأدبارِ

كلمة ﴿ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ تومئ إلى تصوير حال الهزيمة البشعة الَّتي مُنيَ بها الكافرون، ففيه إكساب الثِّقة للمؤمنين، والتَّحريض على الكافرين، وهي منصوبةٌ عَلى أنَّها مفعولٌ ثانٍ للفعل (وَلَّوا)، ومفعوله الأوَّلُ محذوفٌ؛ لدلالةِ ضمير ﴿قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عَليهِ، والتَّقديرُ: (لَوَلَّوْكُمُ الأدْبارَ)، وجاء اللَّفظُ معرَّفًا بـ(أل)، وهي للعهدِ، أي: أدْبارَهُم، فهو عوض عن مضاف إليهِ محذوف، وهو تعويض معنويٌّ، وفي جمعِ الأدبار مناسبة لمعنى الفرار والتَّولية تكثيرًا للمعنى؛ لأنَّ التَّوْلية جعْلُ الشَّيءِ واليًا، أي: لجعلوا ظهورهُم تليكُم، أي: ارتَدّوا إلى ورائهم، فصرتُم وراءَهُم[1].

معنى ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتها:

انهزامُ الكافرين هزيمةً لا قيام بعدَها

حرف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّراخي الرُّتبيِّ والاستبعاد؛ إذ كان عدمُ نصْرِهم بعد التَّولية مستبعَدًا أيضًا؛ لِما لهم من كثرة الإمداد وقوَّة الحميَّة، أي: بعد طول الزَّمان وكثرة الأعوان ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ في أيِّ وقتٍ من الأوقات، وفي هذا دحْضٌ لاعتقاد المُخَلَّفين والكافرين أنَّ كثرة عدد المشركين وحلفائهم كفيل بهزيمة المسلمينَ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 182.

ووراء هذه الجملةِ مِن الدَّلالةِ على الهزيمة النَّفسيَّة ما وراءها، فإنَّ عدم وجدانِ الوليِّ والنَّصيرِ أشدُّ على المنهزِم من انهزامه؛ لأنَّه حين ينهزِمُ قد يكونُ له أملٌ بأن يستنصرَ بمَن يُنجدهُ، فيكرُّ به على الَّذين هزموهُ، فإذا لَم يَجِد وليًّا ولا نَصيرًا؛ تَحَقَّق أنَّهُ غيرُ مُنتصِرٍ، وأصلُ الكَلام: لَوَلَّوُا الأدبارَ، وما وجَدوا وليًّا ولا نَصيرًا[1].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع المنفيِّ:

تصويرُ المنهزم حالَ بحثه عن النَّجدة بعد الهزيمةِ

عُبِّر عن فعل الوُجدان بالفعل المضارع ﴿يَجِدُونَ﴾ من قول اللّٰه تعالى: ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾؛ للدَّلالة على الاستمرار والدَّوامِ، وهو استمرارُ النَّفي ودوامُهُ، لا نفي الاستمرارِ، فإنَّ السّياقَ يقتضي أنَّهم لن يجدوا وليًّا ولا نصيرًا نفيًا مطلقًا، لا أنَّهم يجدونَه في بعض الأزمانِ، ونفي الوجودِ يلزَمُه تقدُّم بحثٍ، فكان ذلك مفيدًا أنَّهم سيبحثون عن مرادهم للنِّكاية بالمؤمنين، وهو ما لا يتحقَّق لهم، فكان في الآية إبرازٌ لصورة المنهزم الَّذي يبحث عن نصير أو وليٍّ يُنْجِدُه، فلا يجد ذلك، فما أعظم حسرتَهُ!

غرَضُ تَنكيرِ لفظِ ﴿وَلِيًّا﴾ ولفظ ﴿نَصِيرًا﴾:

كلُّ وليٍّ ونصيرٍ منفيَّةٌ نُصْرَتُهما للكافرين

نُكِّر لفظ ﴿وَلِيًّا﴾ ولفظ ﴿نَصِيرًا﴾ من قول اللّٰه تعالى: ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لإفادة العُموم؛ لورودهما نكرتين في سياقِ النَّفْيِ بـ (لَن)، وذلك أنَّ مقصودَ النَّفْي أن يعمَّ كلَّ وليٍّ وكلَّ نصيرٍ، مهما علا شأنه، أو صغُر حاله، فهُم لن يجدوا من يواليهم، فيُعينوهم الإعانةَ الَّتي يطلبونها، ولن يحظَوا بالنّاصر المُبتغى.

دلالةُ تَكرار ﴿لَا﴾ النّافية:

انتِفاءُ الوليِّ والنَّصيرِ اجتِماعًا وانفِرادًا

جاء تكرار ﴿لَا﴾ النّافية مع النَّصير، فقال سُبحانَهُ: ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾؛ تأكيدًا على نفي وجودِ كلٍّ مِنهما على سبيل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 182.

الانفرادِ والاستقلالِ؛ إذ استحال مع عناية اللّه تعالى بالمؤمنين نصرُ الكافرين، وإذا انتفى عنهم الوليُّ والنَّصير على وجهِ الاستقلالِ، فانتفاءُ الوَليِّ والنَّصيرِ مُجْتَمِعَين أوْلى وأحرى.

نكتةُ الجمع بين الوليّ والنَّصير:

انتفاءُ أسبابِ النَّجاة والخلاص عن الكُفّار

جاء قَرْنُ ذِكْرِ الوليِّ والنَّصير المَنْفيِّ وجدانُهما، أي: لا يجدون وليًّا ولا نَصيرًا يقوى على نُصْرَتِهم؛ فإنَّ دفْعَ الضَّرَرِ عن الشَّخصِ، إمّا أن يَكونَ بوليٍّ ينفعُ باللُّطْفِ، أو بنصيرٍ يدفعُ بالعُنْفِ، وليسَ للَّذينِ كفَروا شيءٌ من ذلكَ، وإذا كان مَن يوَلّي دُبُرَهُ يَطْلُبُ الخَلاصَ مِنَ القَتلِ بالالتِحاقِ بما يُنْجيه، فإنَّ الكافرين إذا ولَّوُا الأدْبارَ؛ لا يتخلَّصون، بل يكون الهلاك بعد التَّولّي لاحقًا بهم[1].

بلاغةُ التَّذييل في الآيةِ:

قَهْرُ الكافرين لازم وانهزامهم دائم

قولُ اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ تذييلٌ لما قبلها، غير داخل في جواب (لو) ولا مرتَّب على الشَّرط، بَلِ التَّوليَةُ مُتَرَتِّبَةٌ عَلى المُقاتَلةِ، وجاء كالمؤكِّد لِلجُملَةِ قَبْلَها؛ إذ تَضَمَّنَتِ الأخْبارُ أنَّهُم لا تَكونُ لهم غَلَبَةٌ ولا قَهْرٌ ولا دَوْلَةٌ عَلى المُؤْمنينَ؛ لأنَّ حُصولَ ذلكَ إنَّما يَكونُ سَبَبُهُ صِدْقَ القِتالِ والثَّباتِ فيهِ، أوِ النَّصْرَ المُستمدَّ مِنَ اللّه تَعالى، وكِلاهُما لَيسَ لهم، ونفي الولي والنَّصير مَنْفيٌّ عَنهُم وجدانُه أبَدًا سَواءٌ أقاتَلوا أم لَم يُقاتِلوا؛ إذْ مَنْعُ النَّصْرِ سَبَبُهُ الكُفْرُ، فهي جُملَةٌ مَعْطوفَةٌ عَلى جملةِ الشَّرْطِ والجَزاءِ[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوليُّ والنَّصير:

بين الوليّ والنَّصير عمومٌ وخصوص وجهيٌّ

الولِيُّ يكون بإخلاص المَوَدَّة، والنَّصير يكون بالمعونة والتَّقوية، وقد لا تكون النُّصْرَة مَعَ حُصول الولايَة[3]، فالنَّصير قد لا يكون

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 81.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/ 304.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 189.

وليًّا، ولذلك عُطِفَ أحدُهما على الآخَر بالواو لقصد إرادَةِ المغايرة؛ لانتفاء السَّند والمعين للكافرين حينئذٍ، سواءٌ أكان مِن حلفائهم أم من غيرهم، والوليُّ أعمُّ من النَّصير مِن وجهٍ؛ إذ قد يكونُ الوليُّ غيرَ قادرٍ على إيواءِ وليِّه وإسعافه[1]، فالوليُّ سندٌ مُعين مُخلص، لكنَّه قد يكون عاجزًا غير قادر على نُصرة من يتولّاه، بخلاف النَّصير الَّذي يكون قادرًا على النُّصرة متمكِّنًا منها، وإن كان غريبًا، فلا يملك مودَّةَ الوليِّ نفسَها، ولذا نُفيَتا في الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾؛ لإبراز انتفاءِ نُصْرَةِ القَريب والبعيدِ معًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 182.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [الفتح: 23]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من ذِكْرِ الحدَثِ إلى ذكر سُنَّته الدّائمة

لمّا ذكرت الآية السّابقة مصيرَ الكفّار ومآلهم بالهزيمة الشَّنيعة، في حال قتالهم المسلمين في الحُديبية، وذلك لنَصْرِ اللّه تَعالى المؤمنين؛ ناسب بعد ذلك بيان أنَّ هذا الإخبارَ هل هو خاصٌّ بالمؤمنين يوم الحُدَيبية؟ أو أنَّه سنَّة لكلِّ المؤمنين في كلِّ وقتٍ وحين؟ فجاءت هذه الآية؛ لبيان أنَّ هذه سنَّة اللّه تعالى في كونه، فقال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ﴾[1]؛ ليُبيِّن أنَّ ذلك وعْدٌ لا يتخلَّف أبدًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُنَّةَ﴾: (سنن) تدلُّ تصريفاتُه على جريانِ الشَّيءِ واطِّراده في سُهولَةٍ[2]، والأصل فيه: الطَّريقة والسّيرة، ومنه قوله ﷺ: «مَن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حَسَنَةً»[3]، أي: طَرَّق طريقة حَسَنة، وسنَّة اللّه: تُطلق على طريقة حِكْمَته، وطريقِ طاعَتِه، وقولُه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾ [فاطر: 43] تنبيهٌ على أنَّ فروع الشَّرائع، وإن اختلفت صوَرُها؛ فإنَّ الغرض المقصود منها لا يختلف، ولا يتبدَّل، وهو تطهير النَّفس وترشيحُها للوصول إلى ثواب اللّه تعالى ومرضاته وجِواره[4]، فسنَّة اللّه تعالى هي طريقَتُه وعادَتُه التي لا تتخلَّف مع عِباده وأوليائه.

2) ﴿خَلَتۡ﴾: (خلو) تدور اشتقاقاتُه على تعرّي شيءٍ من شيءٍ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 321.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سن).
(3) رواه مسلم في صحيحه، رقم: (1017).
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 268.

يُقالُ: هو خِلْوٌ من كذا؛ إذا كانَ عِرْوًا مِنهُ، وخَلَتِ الدّارُ وغَيْرُها تَخْلو، والقُرونُ الخاليَةُ: المَواضي، والمَكانُ الخَلاءُ: الذي لا شَيءَ به[1]، وخلا المكان: فَرَغ، ومكانٌ خلاءٌ: ليس فيه أحد، والخُلوُّ يُستعمل في الزَّمان والمكان، لكن لمّا تُصوِّرَ في الزَّمانِ المُضيُّ؛ فَسَّر أهل اللُّغة قولَهم: "خلا الزَّمان"، بقولهم: مَضَى، وذهب، وقول الله تعالى: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ﴾ [البقرة: 134][2]، أي: ذَهَبَت، ومَضَت، وقول الله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ﴾، أي: طريقتُهُ الَّتي مضت في الأمم[3].

3) ﴿تَبۡدِيلٗا﴾: (بدل) تدلُّ تصريفاتُه على قيام شيءٍ مكانَ آخَرَ ذاهبٍ[4]، والتَّبديل: تغييرُ الشَّيء عمّا كان عليهِ قبلُ مع بقاءِ مادَّة الأصل، كقوله تعالى: ﴿بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾ [النساء: 56]، وكذلك قوله سُبحانه: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ [إبراهيم: 48][5]، ومعنى قول الله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾: لن تتَغَيَّر سنَّة الله وعادَتُه في نصرِ أوليائه.

المَعنى الإجماليُّ:

بيانُ السُّنَّةِ الإلهيَّة في نصر أولياءِ الله تعالى

تُبيِّن الآية الكريمة بيانًا واضحًا أنَّ سنَّة الله تعالى في نصرةِ أوليائهِ وهزيمَةِ أعدائه لا تبديل لها، وهي سنَّةٌ مضت في الأمم السّابقة، وستبقى كذلك لا تتغيَّرُ[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئناف البيانيِّ:

سنَّةُ الله تعالى نَصْرُ أوليائه وإهلاكُ أعدائه

أثارت الآية السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلو).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 571.
(3) القِنوجي، فتح البيان: 13/ 109.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدل).
(5) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/ 388.
(6) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 513.

﴿كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ سؤالًا في نفس السّامع فحواه: أهذا الوعد بالتَّأييد للمؤمنين والهزيمة للكافرين خاصٌّ بالحُديبية أم عامٌّ لكلِّ المؤمنين؟ فجاء الجواب: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ﴾، أي: إنَّ ذلك سنَّة سنَّها اللّه تعالى، وهي جاريةٌ فيما مضى، ولن تتغيَّر أبدًا، وهي ديمومة نصر عباده المؤمنين وهزيمة الكافرين، ففُصِلت الآية عن سابقتها لشبه كمال الاتِّصال، كما يُفصل الجواب عن السّؤال، وفي هذا قطْعٌ لَمطامِع الكافرين وتخَرُّصاتِ المُتَنَبِّئين والمُنَجِّمين القائلين بأنَّ الطَّوالع لها تأثيراتٌ، والاتِّصالاتِ لها تغيُّراتٌ، فبيَّنَ أنَّ الأمرَ ليسَ كذلكَ، بل سُنَّةُ اللّه تعالى نُصرةُ رسُلِه، وإهلاكُ عدوّه[1].

غرضُ حذفِ النّاصب:

التَّنويهُ بشأن السُّنَّة والتَّنبيه على حالِها

قولُ اللّه تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ في موضع المصدر المؤكَّد، أي: سنَّ اللّه غلبةَ أنبيائه سنَّةً، كما في قوله تعالى: ﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: 21][2]، فـ ﴿سُنَّةَ﴾ منصوبة بفعل محذوفٍ من لفظهِ، وحُذِفَ للعلْم به، وللإيماءِ إلى أنَّ ذلك أمرٌ مُسَلَّمٌ مقطوعٌ به، لا يحتاج إلى تَكرارِ الإخبارِ عَنه، فاستُغنيَ بذلك عن ذِكْرِ الفعلِ.

كما أنَّ في الحذفِ تنبيهًا على أنَّ السُّنَّةَ مقصودةٌ بالذِّكر، ولو ذُكِر العامِلُ؛ لأوهَمَ أنَّ المقصودَ الإخبارُ عَن كونِها مسنونَةً، لكنَّ طَيَّ الفعلِ والبدءَ بذِكْرِ السُّنَّةِ تنبيهٌ على شأنِها وتنويهٌ بحالِها.

غرضُ الإضافة ودلالتُها:

بيانُ شرفِ سنَّة اللّه تعالى وعظمتها

أُضيف لفظ ﴿سُنَّةَ﴾ إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ﴾ تشريفًا للمضافِ وتعظيمًا له؛ إذ أُضيفَت إلى مَنْ له جميعُ صفاتِ الجلال والكمالِ والجمال،

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 81.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 341.

وفي الإضافةِ تأكيدٌ على أنَّها قدريَّة لا تتغيَّر، ولا تتبدَّل مع اختلاف القرون وتعاقُب الأزمان، وذلك يُكسِبُها هيبةً وجلالًا.

غرضُ الوصف بالاسمِ المَوصول:

الإيماءُ إلى أنَّ نصرَ الله تعالى أولياءَهُ معهودٌ معروفٌ

آثر النَّظم الكريم وصف ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ بالاسم الموصولِ ﴿ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ﴾؛ وذلك لبيان أنَّها معهودة معروفةٌ لدى المؤمنين؛ إذ مِن شأن الصِّلةِ أن تكونَ كذلك، فهي الَّتي قد خلت في الأمَم المتقدِّمَةِ الَّتي ذكر اللّٰه تعالى قصصها في القرآنِ الكريم، وفي هذا إيناسٌ لأهل الإيمان، وتذكيرٌ لهم بما عرفوهُ من نصر اللّٰه تعالى لأوليائه؛ كي تطمئنَّ قلوبُهم، وترتاحَ نفوسُهم.

دلالةُ استعمال حرف ﴿قَدۡ﴾:

تحقُّق سُنَنِ الله تعالى ماضيًا وحاضِرًا

الحرف ﴿قَدۡ﴾ في قول اللّٰه تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ﴾ حرف دالٌّ على التَّحقيق، وذلك يُفيد تحقيق سنَّة اللّٰه في الأمم الخالية والقرون الماضية، وإذا كانت محقَّقة فيما مضى، فحريٌّ تحقُّقها فيكُم وفيمَن بعدَكُم.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿خَلَتۡ﴾ مادَّة وصيغة:

إذا جاءَت سنَّةُ اللهِ تعالى؛ بطَلَ ما سِواها

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿خَلَتۡ﴾ في قول اللّٰه تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ﴾؛ لبيانِ أنَّها قد مضَت في المتقدِّمين، وذَهبَت، فلم ينفعهم مع هذه السُّنَّة إلّا وقوعها، فأمست السُّنَّة الإلهيَّة الوحيدة، ولا سبيل لمدافعتها؛ إن حان وقتها، وجاء التَّعبير عن الفعل بصيغة الماضي دون اسم الفاعل (الخالية)؛ للدَّلالةِ على تحقُّق وقوع سُنَّة اللّٰه تعالى مع الأمم السّابقة بلا امتراءٍ في ذلك، أي: مَضت، وسَبَقَت مِن أقدَم عُصورِ اجتِلادِ الحَقِّ والباطِلِ[1]، فدلَّ بذلك على توغُّلها في عُمق الزَّمان.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 183.

مَعْنى ﴿مِن﴾ ودلالتها:

دلَّ حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ﴾ على الابتداء، أي: إنَّ القتال ما وقع في الزَّمان الماضي إلّا بعد نزول التَّوراة، وأمّا قبل ذلك؛ فإنَّما كان يحصُل الهلاك بأمرٍ من عند اللّه تعالى بغَيْرِ أيدي المُؤْمِنين[1].

تأكيدُ المَعْنى وتَقْويَته

كما أنَّ ﴿مِن﴾ تفيد تقوية المعنى وتأكيدَهُ؛ كما هو الشَّأنُ فيها إذا دخلت على لفظ (قبل) أو (بعد).

نُكتَةُ التَّعبير بالظَّرف ﴿قَبۡلُۖ﴾:

الدَّلالة على اطِّراد السُّنَّة وثباتِها

دلَّ الظَّرف ﴿قَبۡلُۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ﴾ على وقْتِ نُزول الكتب الإلهيَّة، وهو مضاف إلى محذوفٍ منويٍّ معناهُ دونَ لفظِه، أي: ليس في الكلام دالٌّ على لفظه، ولكن يدلُّ عليه معنى الكلامِ، والتَّقدير: من قبل ذلك، فلذلكَ بُنِيَ ﴿قَبۡلُۖ﴾ عَلَى الضَّمِّ، وفائدةُ هذا الوصفِ الدَّلالةُ على اطِّرادِها وثباتِها[2].

بلاغةُ تعاطُفِ الجُمَلِ بين الماضي والمستقبَل:

رسوخُ السُّنَّة باقٍ في المستقبلِ كما هو في الماضي

الواو في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ عاطفةٌ، وقد أفادت عطْفَ هذا الحكم المستقبليِّ الأبَديِّ على الحكم السّابق، وذلك أنَّه لمّا وُصِفت تِلْكَ السُّنَّةُ بأنَّها راسخةٌ فيما مَضى؛ أعْقَبَهُ بوصفِها بالتَّحَقُّق في المُستقبل؛ تَعْميمًا لِلأزمِنَةِ بِقَوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾؛ لأنَّ اطِّرادَ ذلِكَ النَّصرِ في مُخْتلفِ الأُمَمِ والعُصورِ وإخبارَ اللّه تعالى به عَلى لِسانِ رُسُله وأنبيائهِ يَدُلُّ عَلى أنَّ اللّه سُبحانه أرادَ تَأْييدَ حِزْبه، فيَعلَمُ أنَّهُ لا يَستَطيعُ كائنٌ أن يَحولَ دونَ إرادَةِ اللّه تَعالى[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 321.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 183.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 183.

غرضُ النَّفي بـ (لن):

دلَّت (لن) النّافية في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ على تأبيد النَّفي مستقبلًا، بقرينةِ تنكير لفظ ﴿تَبۡدِيلٗا﴾؛ إذ لو لَم تدلَّ (لَن) هنا على التَّأبيدِ؛ لكان ذلك منافيًا لدلالةِ العموم المستفادِ من إيراد ﴿تَبۡدِيلٗا﴾ نكرةً في سياق النَّفْي، فـ (لن) في أصلِها لا تُفيدُ تأبيدًا، إلّا أنَّها ههنا أفادَته بمعونَةِ القرائنِ، والمعنى: لن تتبدَّل سنَّة اللّه تعالى في نَصْرِ أوليائه وإهلاكِ أعدائه، وفي ذلك بشارَةٌ ودَفْعُ وهْنٍ قد يَقَعُ بِسَبَبِ وهْم، يبثُّه المنجِّمون بأنَّ الغلبَةَ لِمَن لَهُ طالِعٌ وشَواهدُ تَقْتَضي غَلَبَتَهُ قَطْعًا، فَقالَ اللّه تَعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾، يَعني أنَّ اللّه سُبحانَهُ فاعِلٌ مُختارٌ يَفعَلُ ما يَشاءُ، ولا يُبَدِّلُ سُنَّتَهُ، ولا يُغَيِّرُ عادتَه[1].

في تحقيق النَّفْي مستقبلًا بِشارةٌ للمؤمنين ونِذارةٌ للمُناوِئينَ

دلالةُ التَّعبير بالفِعْلِ المُضارِع:

دلَّ الفعل المضارع المنفيُّ ﴿تَجِدَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ على الاستمرارِ، وهو استمرارٌ لنفي الوجودِ لا نفيٌ لاستمراره؛ إذ السّياق يقتضي نفيَ وقوع أدنى تبديلٍ لسنَّة اللّه مستقبلًا، ففيه دلالة على تجدُّد هذا النَّفي مهما تجدَّدت تخرُّصاتُ المُتَنَبِّئين وتوقُّعات المُنَجِّمين.

انتفاءُ التَّبْديل عَـن سُـنَنِ الله تَعالى

بلاغةُ وضع المظهر موضع المضمر:

آثر النَّظم الكريم إظهار ما حقُّه الإضمار، فقال اللّه سبحانه: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾، ولو جاء التَّعبير على مقتضى الظّاهر؛ لجاء في البيان القرآنيِّ: (ولن تجد لها تبديلًا)؛ عودًا بالضَّمير على المذكور في مطلَعِ الآية، لكن عُدِل عن ذلك، وأُخْرِجَ الكلام على خلاف مقتضى الظاهر بوضع المظهر موضع المضمر؛ تكثيفًا للمهابة في النُّفوس، فحيث يُذْكَر اسم اللّه تعالى يكون الجلال والمهابةُ، مع

إدخـالُ المَهابَةِ عـلى نُـفـوس المُتَلَقّين

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 81.

الإشارة إلى أنَّ الَّذي لا تتبدَّل سنَّتُه هو الإله المعبودُ بحقٍّ الجامع لجميعِ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكَمالِ، وقد كُرِّر لفظُ السُّنَّة مضافًا إلى اللّه تعالى، فقال سبحانَهُ: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾؛ للتَّأكيد على أنَّ ذلك عادةٌ وسنَّة سنَّها اللّه تعالى في كونه، فلا مجال فيها للتَّبديل أو التَّغيير، فصارت من جملةِ المُسَلَّمات.

بلاغةُ استعمال مفردة التَّبديل:

انتفاءُ كلِّ تبديلٍ لسنَّة الله تعالى كلّيًّا كان أو جزئيًّا

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة (التَّبديل) في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾؛ ليدلَّ على أنَّها لا تتغيَّر بأن تُنْقَلَ عن أصلها، ويأتيَ غيرُها مكانَها، ولا تُغَيَّر كذلك مع بقاءِ أصلها، فدلَّ مجموعُ ذلك على نفي التَّبديل الكلّيِّ أو الجُزْئيِّ، ووراء ذلك بثٌّ لروح التَّفاؤل والأمل والطُّمأنينة في نفوس المؤمنين.

غرضُ تنكير لفظ ﴿تَبۡدِيلٗا﴾:

كلُّ تبديلٍ - وإن قلَّ - منفيٌّ عن سنَّة الله تعالى

جاء لفظ ﴿تَبۡدِيلٗا﴾ نكرةً؛ لإفادة التَّقليل، وإذا انتفى التَّبديلُ القليل؛ فانتفاءُ التَّبديلِ الكثير من بابٍ أولى وأحرى، والمعنى: لن تجد أدنى تبديلٍ لسنَّة اللّه تعالى في كونه، كما أفاد التَّنكيرُ العمومَ؛ لورودِ لفظ ﴿تَبۡدِيلٗا﴾ نكرةً في سياق النَّفي، أي: لن تجد لسنَّة اللّه أيَّ تبديلٍ قلَّ أو جلَّ، ووراء ذلك تأكيدٌ على تحقُّق نصر اللّه تعالى للمُؤْمنين وهزيمة الكافرين.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

خلت ومضت:

الخلوُّ نفيُ وجود الشَّيء في المكان، والمُضيُّ خلاف المستقبَل

الخالي يقتضي خُلوَّ المكان منهُ، سواءٌ أخلا مِنهُ بالغيبة أم العَدَم، ومِنْه قولهُم: لا يخلو الجسم من حركَة أو سُكون؛ لامتناع خلو المكانِ منهُما، ومنه قولهُم: لا يَخْلو الشَّيء من أن يكون مَوجودًا أو مَعدومًا، ومَعناه: أنَّه لا يَخْلو من أن يصحَّ له معنى إحدى الصِّفتين(1).

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 310.

أمّا المُضيُّ؛ فضدُّ الاستِقبال، ولذا يُقال: ماضٍ ومستقبلٌ، وقالَ عليُّ بن عيسى: (قبلُ) نقيضُ (بعدُ)، ونظيرُهما من المكان خلف وأمام، فَقيل فيما مضى: قبلُ، وفيما يَأتي: بعدُ، ويُقال: المُستَقبل والماضي[1].

وقد آثر النَّظم الكريم لفظ ﴿خَلَتْ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾؛ ليدلَّ على أنَّها سنَّة اللّه تعالى في الأمم الخاليَةِ سواءٌ أعُدِمَ وجودُها أم لَم يُعْدَم بأن صار لها خَلَفٌ وامتِدادٌ، فهيَ لا تتغيَّر، ولا تتبدَّل في كلِّ الأحوال فيمن سبَقَ، وأولى بها أن تظلَّ باقية فيمن خلف.

التَّبديل والتَّحويل:

التَّبديلُ تغييرٌ مع بقاء الأصلِ، والتَّحويل تغييرٌ مـن مـكـانٍ إلى آخر

التَّبديل في اللُّغةِ يدلُّ على التَّغيير، ولذا يُطلق على قيام شيءٍ مقامَ آخرَ ذاهبٍ، يقال: بدَّلت الشَّيءَ، أي: غيَّرتُه، وإن لم تأتِ له ببدلٍ[2].

وأمّا التَّحويل؛ فإنَّ أصله في اللُّغة يدلُّ على تحرُّكٍ في دَوْرٍ، ومنه: الحولُ، وهو العامُ؛ وذلك لأنَّه يحولُ، أي: يدورُ[3].

فكلاهُما فيه تغييرٌ، إلّا أنَّ التَّبديل: تغييرُ الشَّيء عمّا كان عليهِ قبلُ مع بقاءِ مادَّة الأصل، كقوله تعالى: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: 56]، وكذلك قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: 48]؛ وأمّا التَّحويل؛ فهو نقلُ الشَّيء من مكان إلى آخرَ.

وسنَّة اللّه تعالى لا تُبَدَّل، ولا تُحوَّل، وخُصَّ قول اللّه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: 43] بالجمع بين الوصفين؛ وذلك أنَّه وُصِفَ الكفّار بوصفين، وذُكِرَ لهم عَرَضان، وهو قوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ [فاطر: 39]، وقوله: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ [فاطر: 43][4].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 306.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حول).
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/ 388، 389.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤﴾

[الفتح: 24]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ما النَّصر إلّا من عند الله تَعالى

لمّا سبق أنْ قال اللّه سبحانه: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٢٢﴾ [الفتح: 22]؛ جاءت هذه الآية لتكشِف أنَّ السَّبب في تولية الكفّارِ الأدبارَ عن المؤمنين وفرارِهم مِن قتالهم هو أنَّه سبحانه قدَّر هذا؛ فكفَّ أيديَهُم عنهم، لا لسببٍ آخرَ، فهو سبحانه الّذي كفَّ أيديَ الكُفّار عن المؤمنينَ بالفِرار، وأيديَ المؤمنينَ عن الكفّارِ بالرُّجوع عنهم وتَرْكِهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَفَّ﴾: (كف) تدلُّ تصريفاتُها على قبضٍ وانقباضٍ، ومن ذلك الكفُّ للإنسان، سُمّيت بذلك؛ لأنَّها تقبِضُ الشَّيء. ويُقال: كفَفْتُ فلانًا عنِ الأمر وكَفْكَفْتُه. ويُقال للرَّجل يسأل النّاس: هو يَسْتَكِفُّ ويتَكَفَّف[2]، وقولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: 28] أي: كافّا لهم عن المعاصي، والهاء فيه للمبالغة - في قول بعضِ أهل العلمِ -[3]، وكلُّ كفٍّ للأيدي أو لِقَوْمٍ عن آخرينَ؛ فهوَ بمعنى الصَّرف عن القتالِ أو عن العدوانِ[4]، وهو المَعْنى المُراد في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم﴾.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 80.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كف).
(3) الراغب، المفردات: (كف)، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 499.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (كفف).

2) ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾: اليَدُ: الجارحة، وأصلها: يَدْيٌ؛ لقولهم في جمعهِ: أيْدٍ ويُديٌّ. وأفعُلٌ في جمع فَعْلٍ أكثرُ، نحو: أفلُس وأكلُب[1]، ويُستَعار في المنَّة، فيقال: لهُ عليه يَدٌ. واليَدُ: القوَّة[2]، ولمّا كانت يَدُ الإنسان أمامهُ في عَمَله؛ اسْتُعْمِلَ التَّعبير "بيْنَ يدَي كذا" للدّلالة على ما تقدَّم الشَّيءَ أمامه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: 31] أي: الّذي تَقَدّمه وسَبَقه من الكتُب[3]، ومعنى قوله: ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ أي: منع أيدي كفّار مكَّة عنكم، ففَرّوا ولم يُحارِبوكُم. ومعنى قولهِ: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ أي: حَمَلَكُم على الرُّجوع عنهم وتركهم[4].

3) ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾: (بطن) تدور اشتقاقاتُها على أصلٍ وهو إنسيُّ الشَّيءِ والمقبِلُ منهُ، فالبطنُ: خلاف الظَّهر، وباطِنُ الأمر: دُخْلَتُه؛ أي: خلافُ ظاهِره. ومن أسماء اللّه تعالى: الباطن؛ لأنَّه بطن الأشياءَ خبرًا[5]؛ فهو الّذي ليس دونَهُ شيءٌ[6]، والبطنُ من كلِّ شيء: جَوْفُه. وبَطْن الأرض وباطِنُها: ما غَمُض منها واطْمَأنَّ، والدّاخلُ منها[7]، وقوله: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي: في داخِلها[8].

4) ﴿أَظْفَرَكُمْ﴾: (ظفر) تدلُّ تصريفاتُها على أصلين؛ أحدهما: القهرُ والفَوْز والغَلَبَة، ومنه: الظَّفَرُ؛ وهو الفَلَج والفوزُ بالشَّيء. يقال: ظَفِر يَظْفَرُ ظفَرًا، واللّه تَعالى أظفرَهُ. والآخَرُ: قوَّةٌ في الشَّيء. ومنه: الظُّفْرُ؛ وهو ظُفْرُ الإنسان. يقال: ظَفَّر في الشَّيء؛ إذا جعل ظُفْرَهُ فيه، والأصلان مُتقارِبانِ في القياس[9]، ووجه ذلك: أنَّ الظَّفر هو الفوزُ، كأنَّ الّذي ظَفَر وفازَ؛ نشبَ ظُفْرُهُ فيمن غلَبهُ[10]، ومعنى قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾: أقْدَرَكُم عليهم ونصَرَكُم من غير قتالٍ.

---

(1) الراغب، المفردات: (يد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (يدي).
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 294.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بطن).
(6) كما في قول النبي ﷺ: «اللّهُمّ أنت الأوّلُ فليس قبلك شيءٌ، وأنت الآخِرُ فليس بعدك شيءٌ، وأنت الظّاهِرُ فليس فوقك شيءٌ، وأنت الباطِنُ فليس دُونك شيءٌ» رواه مسلم في صحيحه، رقم: (2713).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بطن).
(8) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 130.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظفر).
(10) الراغب، المفردات: (ظفر).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

منّة الله على المؤمنين بتمكينهم من الكافرين دون قتالٍ

يُبَيِّن اللّه تعالى في هذه الآية أنَّه هو الّذي كفَّ أيديَ المُشْرِكين عَنْكُم - أهلَ الإيمانِ -، وأيديَكُم عن المُشْرِكين ببطْنِ مكَّة، بعد أن منحَكم النَّصر عليهم وجَعَلَكُم تَملِكون أمرهُم، وذلك في حادثة الحُدَيْبِية؛ حيث خرج المُشْرِكون لِقِتالِ رَسولِ اللّه ﷺ وأصحابِه، فتمكَّن المُسْلِمونَ منهم، وكانوا نحو ثمانينَ رجُلًا، ثُمَّ تَرَكوهُم ولم يَقْتُلوهم، وكانَ اللّه ﷻ بصيرًا بِما تَعْمَلونَ لا تخفى عليه خافيَةٌ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾:

تعدُّد المعاني بتعدُّد معاني الحُروف

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ استئنافيَّة[2]، والجملة بعدها مستأنفة هدفها بيان أنَّ ما توصَّلوا إليه من ظفَر ونصْر على أهل مكَّة دون قتالٍ هو منّة من اللّه تعالى عليهم، لا فضلَ فيه إلّا للّه وحده.

ويجوزُ أن تكونَ الواوُ عاطفةً الجملةَ بعدها على جملةِ ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ [الفتح: 20][3]؛ لِما بينَ الجُملَتَين مِن التَّوسُّط بين الكمالَيْن، وذلك لاشتراكِهما في الخبريَّة، وبينهما تناسبٌ ظاهرٌ في المعنى، وكذا تناسبٌ في اللَّفظ؛ إذ تكرَّر ذِكْرُ فعلِ الكَفِّ مسندًا إلى الضَّمير المستَترِ العائدِ إلى اللّه ﷻ.

الغرض من تعريف المسند إليه بالضَّمير وبيان المراد به:

تقويةُ الجُملَةِ وتَوْكيدُها

عُرِّف المسنَدُ إليه بالضَّمير في قول اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾؛ لتقدُّم ذكر مرجعه وهو اللّه ﷻ في قوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾ [الفتح: 23]، وفي

---

(1) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 514، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 794.

(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 26/ 263.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 183.

التَّعبير بالضَّمير أيضًا إيماءٌ إلى شُهرةِ اختصاصِ الوصفِ المذكور بعدُ باللّه تعالى، حيث لَم يُحتَج إلى التَّنصيصِ على الفاعلِ باسمه العلَم، بل إنَّ أدْنى إشارةٍ إليه تدلُّ عليه[1].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ﴾ جملةٌ مؤكَّدةٌ، ووجه ذلك أنَّ الضَّمير (هو) أُسْنِدَ إليه ﴿ٱلَّذِى كَفَّ﴾ والتَّقدير: وهو الكافُّ؛ لأن الصِّلةَ مع موصولِها في قوَّة المشتقِّ. ثُمَّ أُسْنِدَ فعلُ الكفِّ إلى الضَّمير المستتر العائد إلى اللّه تعالى، فكان في هذا تكرارٌ للنِّسبةِ، وهو مُقوٍّ للجملةِ مؤكِّدٌ لَها.

الغرض من تعريف المسند بالاسم الموصول ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾:

إظهار المنَّة على أهل الإيمان في الكفِّ عن القتال

التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ مسندًا إلى الضَّمير (هوَ) في قول اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ﴾ يفيد تقريرَ الخبرِ وتحقيقَه، وفيه الإيماءُ إلى أنَّ كفَّ أيدي الكفّار عن أهل الإيمان لا يُمكِن أن ينصرِفَ إلّا إلى اللّه تعالى؛ لأنَّ مِنْ شأنِ الصِّلةِ أن تكونَ مشهورةَ الوفِ لِمَن نُسبَت إليهِ.

وفي التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ - وهو معرفةٌ - تعريفٌ لطرَفَي الإسنادِ؛ وذلك مفيدٌ القصرَ والاختصاصَ، ويقوّي ذلك تقديمُ المسنَد إليه على الخبر الفعِليّ ﴿كَفَّ﴾، والمعْنى: لم يكفَّهم عنكم، ولا كفَّكم عنهم إلّا اللّه تعالى، لا أنتم ولا هم[2]. وفي ذلك إبراز للمنّة الإلهيّة عليهم في الكفّ عن القتال وإيقاع الصّلح.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿كَفَّ﴾:

ثبوتُ الكفِّ وتحقُّقه

عبّر بالفعل الماضي ﴿كَفَّ﴾ في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ﴾ لأنَّه إخبارٌ عن أمرٍ مضى، والأصل في الفعل الماضي أن يكون كذلك؛ إذ كان هذا الكفُّ قد تحقَّق بالفعل، وذلك أنَّ هذه الآية قد نزلت بعد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 322.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 183 - 184.

صلح الحديبية. وفي التَّعبيرِ بالفعل الماضي أيضًا: إثباتٌ للكفِّ على وجهِ القطعِ واليقينِ تعظيمًا له.

الغرض من التَّعبير بالمجاز في ﴿أَيۡدِيَهُمۡ﴾ و﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ﴾:

امتنانُ الله تعالى عليْهِم بالصُّلح بعد مُشارَفتهم عَلى القِتالِ

جاء التَّعبير بالأيدي في الجملتين في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم﴾ من باب المجاز المرسل، وعلاقته السَّببيَّة؛ لأنَّ الأيدي هي السَّبب في مباشرة القتالِ، والمقصود الأساس هو الكفُّ عن القتالِ. ويجوزُ أن يكون التَّعبير بالأيدي كنايةً عن شدَّة التَّأهُّب للقتال والتَّحفُّز له، حتّى لكأنَّ كلَّ واحد من الفريقين قد شحذ سلاحَه ورفعه في وجه عدوِّه. والغرض من ذلك الدّلالة على أنّهم جميعًا قد شارفوا على الوقوعِ في القتال، لولا أنْ مَنَّ الله تعالى عليهم بتوفيقه، فأُبْرِمَ صلحُ الحديبية. ومثل هذا الأسلوبِ ورد في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ [النساء: 77]، فقوله: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ [النساء: 77] أي: امنعَوها من القتال، وكذا في قوله: ﴿كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم﴾؛ فإنَّ المعنى: منعَها من القتال بمنِّه وفضلِه.

الغرض من الإضافة في ﴿أَيۡدِيَهُمۡ﴾ و(أيديكم):

دلالةُ الإضافة على التَّخصيص

أُضيفتِ الأيدي في المَوْضِعَين إلى الضَّميرين العائدين إلى فريقِ الكُفّار في ﴿أَيۡدِيَهُمۡ﴾ وفريق المؤمنين في (أيديكم) للدّلالة على التَّخصيص، والمعنى: كادت أيدي كفّار مكّة تَطالُكُم، وكادت أيديكم تَطالُهُم وتأهَّبْتُم جميعًا لذلك، حتّى كفّ الله تعالى جميع الأيدي عن القتالِ وكان الصُّلح.

معنى عن ودلالتها في ﴿عَنكُمۡ﴾ و﴿عَنۡهُم﴾:

إحلالُ الله تَعالى الصُّلحَ محلَّ القِتال

(عن) في ﴿عَنكُمۡ﴾ و﴿عَنۡهُم﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم﴾ حرف جرٍّ دالٌّ على المجاوزة؛ وهي: بُعْدُ شيءٍ عن المَجْرورِ بها بواسِطَة إيجادِ مصدَرِ الفعل

الّذي قبلَها[1]، فبَعُدت أيدي المؤمنين عن الكفّار، وأيدي الكفّار عن المؤمنينَ؛ بسبب كفِّ اللّه تعالى أيديَ الجميع عن مقابِليهِم، فرُفِعَ السِّلاح، وحلَّ الصُّلح والعهد.

كلُّ الحرَمِ مِن مكَّة، وليسَ جميعُ مَكَّة حرمًا

معنى الباء ودلالتها في ﴿بِبَطۡنِ﴾:

الباء في قوله: ﴿بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ للظَّرفيَّة، والمعنى: في بطن مكة، أي: داخلها. وفيه معنى الإلصاقِ؛ إذ الإلصاق مِنَ المعاني التي لا تكادُ تفارقُ الباءَ. وقد استند القائلون بأنَّ المرادَ هنا هو يومُ الفتحِ لا يوم الحديبية إلى هذه الظَّرفيَّة؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ والمؤمنين لم يدخلوا مكَّة يوم الحديبية، وإنَّما دخلوها بعد ذلك في العام الموالي يومَ الفتح. كما ذكر عبد الكريم الخطيب أنَّ الآيةَ إنَّما هي في الكلام عمّا كان يوم الفتح؛ حيث دخل النَّبيُّ ﷺ مكَّة، على رأس جيشٍ من عشرة آلاف مقاتلٍ، وأنَّ قريشًا قد فَزِعَت لهذا، واستسلمت من غير قتالٍ، طالبة الأمانَ من رسول اللّه ﷺ، بعد أنْ مَكَّن اللّه تعالى له من رِقابهم[2]. وجمهور المفسّرين يرون أنَّ الآية في صلح الحديبية، وأنَّ المقصود بقوله: ﴿بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ حرَمُها، والحديبية فيها طرفٌ هو مِن جملة الحرَم[3]، على أنَّ لفظَ ﴿مَكَّةَ﴾ أوسعُ من الحرَمِ وأعمُّ، فليس كلُّ مكَّة حرَمًا.

تَشوُّف الصَّحابة رضي الله عنهم للاعْتِمارِ لَم يَمنَعْهُم مِن امتِثال أمرِ الله تعالى بالكَفِّ

الغرض من التَّعبير بالمجاز في (بطن):

في قوله: ﴿بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة، حيث شُبِّه المكان المقصود ببطن الكائن الحيِّ إنسانًا كان أو حيوانا، بجامع الاحتواء والاشتمالِ في كُلٍّ. والغرضُ مِنْ ذلك: التَّعبير عن كونهم كانوا داخلَ مكَّة أو داخلَ حَرَمِها - إمّا حقيقةً وإمّا على مشارف الحرمِ -، ومع

(1) إسماعيل الحامدي، حاشية على شرح الكفراوي على الآجرومية، ص: 14.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 421.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 294.

ذلك امتثلوا ما أرادَهُ الله تعالى منهم من الكفِّ عن القتال وعدمِ إكمال المسيرِ نَحْوَ المسجدِ الحرام، مع تشوُّفهم إليهِ وعزمهم على التَّنسُّك فيه بأداء العمرة.

الغرض من الإضافة ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾:

توجيهُ المراد ببطن مكَّة على الاختلاف في مكانِ الصُّلحِ

الإضافة في قوله تعالى: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ هي إضافة تعيينٍ وتعريفٍ للمكان الّذي كان فيه الحدث. والبطن من كلِّ شيءٍ وسطه أو مُنْخَفَضُه؛ وهي الجهة السُّفلى. وإطلاقهُ هنا إطلاقٌ مجازيٌّ للتَّعبيرِ عن أنَّ المكان المقصودَ هو داخل مكَّة، أو داخل حدودِ الحرمِ على القول بأنَّ المقصودَ بها: الحديبية؛ فإنَّ بعضَ الحديبية - وهي المنطقة الموجودة بين مكَّة وجدَّة، وتعرف حاليًّا بالشّميسيّ - داخلَ حدود الحرمِ، وبعضَها في الحِلِّ[1]، فيكونُ مكان انعقادِ الصُّلح في الجُزْءِ الحرامِ، فصحَّ بذلكَ أن يكون المرادُ بِبَطْنِ مكَّة وسَطَها. والمعروف من إطلاق لفظ البَطْنِ إذا أُضيف إلى المكان، أن يُراد به وسطُهُ[2].

وعلى فَرْضِ أنَّ انعقادَ الصّلح كانَ في الحلّ؛ فإنَّ التَّعبير بالبطن مقصودٌ به الدّلالة على الجوار والقُرب؛ أي: قُرْب الحرَمِ من وسَطِ مكَّة، وحينئذٍ يكونُ التَّعبير بـ (بطن مكَّة) مجازًا مرسلًا بعلاقة المجاورة.

ومن دلالات هذه الإضافة التَّعريفيَّة ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ الإشارة إلى أنَّ جَمعَ المشركين نزلوا من أرض الحرم المكيِّ؛ إذ نزلوا من جبَلِ التَّنعيم - وهو من الحرمِ - وكانوا أنصارًا لأهل مكَّة[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 185.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 185.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 186.

معنى مِن ودلالتها في ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾:

توكيدُ نصرة الله تعالى لأهل الإيمانِ

﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ لابتداء الغاية، والمعنى: إنَّ آثار هذه المنَّةِ عليكم قد ظهَرت مِن بعدِ أن آزركم اللّه تَعالى وأظْهَرَكُم عليهم؛ فأخذتُموهُم أسْرى[1]، وحاصل هذا: أنَّ اللّه سبحانَهُ قد كفّ أيديَ المُشركين الخارجينَ على عَسْكَر رسول اللّه ﷺ بالحديبية، يلتمسون غِرَّتَهُم ليصيبوا منهم، فبعث رسولُ اللّه ﷺ فأتى بِهم أسْرى، ثُمَّ خلّى عنهم رسولُ اللّه ﷺ ومنّ عليهم ولم يَقْتُلْهم[2].

كما أنَّ في (مِنْ) معنى التَّوكيدِ؛ إذ ذلك هو الغالب عليها عِنْد دخولها على الظَّرف (قبل) أو (بعدُ).

الغرضُ من التَّعبير بالظَّرف ﴿بَعۡدِ﴾:

سُرعَةُ ظُهورِ مِنَّة الله تعالى ونِعْمَتِه

عُبِّر بالظَّرف ﴿بَعۡدِ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؛ لتَعْيين ابتداء الغاية؛ وهي أنَّها - أي: نعمةَ كَفِّ أيدي المشركين عَنْكُم - ظَهرت فَوْرًا بعدَ أن نصركُم اللّه تعالى عليهم فَأَسَرْتُموهُم.

الغرض من التَّعبير بالمَصْدَرِ المؤوَّل ﴿أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ﴾:

الجمعُ بينَ ثُبوتِ الظَّفَر وتجدُّده

أوثِر التَّعبير بالمصدر المؤوّل في قول اللّه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ﴾ دون المصدر الصَّريح؛ ليتأتّى الجمعُ بين القوَّة المستفادة من المصدرِ بإثبات حصولِ الظَّفر، وبينَ الحركةِ والتَّجدُّد المستفادَين مِنَ الفِعْلِ، ليجمع المصدرُ المؤوّل بين الخَصيصَتَيْن؛ خصيصةِ المَصْدَرِ، وخصيصَةِ الفِعْلِ.

نكتة التَّعبير بالظَّفر دون النَّصر أو غيره:

الظَّفر دونَ قتالٍ نِعْمَةٌ عظمى تُذكر فتُشكَر

أوثر التَّعبير بلفظِ الظَّفر في قول اللّه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ دون التَّعبير بغيرِه، كالنَّصر والغلبة، إذ لم يَرِدِ

(1) ابن جزيّ، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 290.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 236.

النَّظمُ القرآنيُّ: (من بعد أن نَصَرَكُم عليهم) أو نحو ذلكَ؛ لأنَّ حقيقةَ الظَّفرِ: الفوز بالمطلوبِ، فلا يستلزِمُ وجودَ قتالٍ أصلًا، فكانَ الظَّفر أعمَّ مِنَ النَّصرِ بهذا الاعتبارِ[1]، وذلك أنَّ اللّه تعالى قد امتنَّ على المؤمنين بأنْ أنالهم ما ينال بالقتال دونَ قتالٍ، وهذهِ نعمَةٌ عُظمى ذكرها القرآنُ الكريمُ في موضعٍ آخرَ؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ۝٢٥﴾ [الأحزاب: 25]، بأنْ أحْدَثَ الصُّلح بينهم وبينَ المشركين على أن يَعودوا مِن قابلٍ لأداءِ العُمرَةِ.

معنى (على) ودلالتها في ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾:

ظهور أهل الإيمانِ وعلوِّهم على الكفّار

الحرف (على) من أخصِّ خصائصه الدّلالَةُ على الاستعلاءِ، وهوَ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ استعلاءٌ مجازيٌّ، وهو وإن لم تَقع حربٌ؛ فإنَّ الاستعلاء - الّذي مِن دلالاتهِ التَّمكّنُ - حاصلٌ مِن حيثُ إنَّ المشركين قد اصْطَلَحوا وهُم مضطرّون، ورسولُ اللّه ﷺ ومَن معَه مُخْتارونَ[2]. على أنَّ هناك فائدةً أخرى أضافها التَّعبير بـ (على)؛ وهي تضمين الظَّفر معنى الظُّهور والعلوّ عليهم؛ أي: الغلبة التامّة[3].

معنى الواو ودلالَتُها في ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾:

التَّناسب اللَّفظيُّ والمعنويُّ بين الجُمَلِ القُرآنيَّة

(الواو) في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ﴾؛ لما بينَهُما مِنَ التَّوسُّطِ بين الكمالين؛ فإنَّهما مشتركتانِ في الخبريَّةِ، وبينهما تناسبٌ في اللَّفْظِ والمعنى، فأمّا التَّناسُبُ اللَّفظيُّ؛ فاتّحاد المسنَدِ إليه فيهما وهو الاسم الأحسنُ في الجملة الثّانية، والضَّمير

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 186.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 266.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 63.

الرّاجع إليه في الجملةِ الأولى، وأمّا التَّناسبُ المعنويّ؛ فإنَّ الجملةَ الثّانيةَ تذييلٌ لِما قبلَها[1]. ويجوزُ أن تكون الواوُ استئنافيَّةً أيضًا، والجملةُ بعدَها مستأنَفَةً واردةً لبيانِ عموم القدرةِ الإلهيَّةِ وسعةِ الصِّفاتِ الرّبّانيَّة.

الغرض من التَّعبير بجملةِ التَّذييل اسميَّةً ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾:

تَسْلِيةُ أهلِ الإيمانِ وإزالَةُ الفَزَعِ مِن قُلوبهم

الجملةُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ تذييلٌ يُرادُ به بثُّ الطُّمأنينة في قلوب المؤمنين الّذين أفزعهم شدَّةُ أهلِ مكَّة وغِلْظَتُهم وصلابتهم، ورِفْقُ النَّبيِّ ﷺ ولينُه[2]، فكان هذا التَّذييل تسليةً لهم وإزالةً للفَزَعِ الّذي حلَّ بقلوبهم؛ لأنَّ اللّه تعالى بصيرٌ بالأمر كلِّه؛ ما تَعْمَلونَهُ وما يعملونَه، وقد وعدكم النَّصر فلِمَ الفزَعُ؟.

ووردَت جملةُ التَّذييل اسميَّة مبدوءةً بالفعلِ النّاسِخ (كان) الذي لا يَدْخُل إلّا على الجُمَلِ الاسميَّة؛ للدّلالة على شِدَّة المُراقبَةِ الإلهيَّة لكلِّ ما يَجْري مِن كِلا الفَريقَيْن، فهوَ سبحانَهُ كان ولا يزالُ بِكُلِّ شيءٍ ممّا يجري بصيرًا.

و(بصير): صفة مشبَّهة، وكونه سبحانه بصيرًا بعباده وبكلِّ ما يجري في الكون أمرٌ ثابتٌ لا يتبدَّلُ. وفي ذلك من إيقاع الأُنْسِ بالمُؤمنين وطمأنَتِهم ما فيه.

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على خبر كان ﴿بَصِيرًا﴾:

الاهْتِمامُ بالمُقدَّمِ أنسبُ لسياقِ الآيَةِ الكريمة

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ لإرادةِ الاهتمام، لا لإرادةِ الاختصاص؛ فإنَّ الاختصاص هنا غيرُ ملائم لمقصودِ جملةِ التَّذييل مِنْ بيانِ سعةِ الصِّفاتِ الإلهيَّةِ؛ إذ يكون المعنى: اللّه بصير بما تعملونه لا بغير

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 186.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 325.

ذلك، وهو معنًى ظاهرُ الفسادِ، بل التَّقديمُ لإرادةِ الاهتمام بالمقدَّمِ. كما أنَّ في التَّقديمِ مراعاةً لتناسب فواصلِ الآيِ.

دلالة التَّعبير بـ (ما):

إحاطة الله تعالى بكلِّ شيءٍ عِلْمًا وبصرًا

(ما) في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى: الّذي، أي: وكان اللّه بما تعملونَهُ بصيرًا. والعائدُ محذوفٌ؛ لكونه واقعًا في محلِّ نصبٍ بالفِعْلِ، وهو كثيرُ الحذفِ شائِعُهُ.

والتَّعبير بـ (ما) المصوليَّةِ مفيدٌ العُمومَ، فهو سبحانه بصير بكلِّ ما يعمله النّاس باطِنًا وظاهرا، سرًّا وجهرًا، لا يغيب عنه من عملهم شيءٌ، بل لا يغيب عن بصره ولا عِلْمِه مثقالُ ذرَّة في كلِّ الأكوان العلويَّة والسّفليَّة، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: 3]. ويجوز أن تكون (ما) مصدريَّة، فتُؤَوَّلُ مع مدخولها بمصدر، والتَّقدير: وكان اللّه بِعَمَلِكُم أو بِعَمَلهم - بناءً على قراءة الغَيْبِ - بصيرًا.

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

سعَةُ عِلْمِ الله تَعالى وبَصَرِه

عُبِّر بالفعل المضارع في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾؛ للدّلالة على أنَّ كلَّ ما يعملهُ النّاس ويُجدِّدونَهُ ويُحدثونَهُ معلومٌ للّه تعالى مراقب منهُ سُبحانَهُ وهو تحت بصره المطلق.

الغرَضُ مِن تَنْكيرِ ﴿بَصِيرًا﴾:

عظمَةُ الله جَلَّ جَلَالُهُ ذاتًا وصِفاتٍ

نُكِّر لفظُ ﴿بَصِيرًا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾؛ لإفادة التَّفْخيم والتَّعظيم، فبصرهُ وعِلْمُه سُبْحانَهُ لا مُنْتَهى لكماله، فإنَّ له سُبْحانَهُ الأسماءَ الحسنى والصِّفات العظمى التي تليق بكمالِه وجلالِه.

تنوُّع القراءات، وثراء المَعْنى:

التَّكامُل الدّلاليُّ لِلْقِراءاتِ القُرآنيَّةِ

قُرئَ الفعلُ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ بقراءتَيْن؛ فقد قرأ أبو عمرٍو وحده ﴿يَعۡمَلُونَ﴾

بالياءِ على الغَيبةِ، إتباعًا لقوله قبلُ: ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ و﴿عَنْهُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾، وقرأ باقي العشرة بالتّاء على الخطاب، رجوعًا إلى الخطاب الواردِ في قوله: ﴿أَيْدِيَكُمْ﴾ و﴿عَنكُمْ﴾[1] في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾، والقراءتان متكاملتانِ؛ فإنَّهما يُفيدان عمومَ علم اللّه تعالى بما يَعْمَلُهُ المؤمنونَ ويعملُهُ الكافرونَ، فكان تنوُّع القراءاتِ وتعدُّدها بمنزلةِ تعدُّد الآياتِ في تكامُلِ الدّلالةِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الظَّفر والنَّصر:

الظَّفر أعمُّ من النَّصر مُطْلقًا

أصل مادَّةِ (نصر) يدلُّ على إتيان خيرٍ وإيتائه. يُقال: نصر اللّه المسلمين؛ إذا آتاهُم الظَّفر على عَدوِّهم[2]، والنَّصْرُ والنُّصرة: العونُ[3]، ويختَصُّ النَّصر بمعنى المعونة على الأعداءِ. ويدلُّ عليه قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: 51] وقوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح: 3]، وقوله: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝١١٦﴾ [الصافات: 116]؛ فإنَّ سياقَ الآياتِ في الإخبارِ عن ظفَر الأنبياء عليهم السلام، ونُصْرَتِهم على أعدائهم، إمّا بالغلبةِ وإمّا بالحُجَّة[4].

والظَّفر: الفَلْجُ والفوزُ بالشَّيء، يُقال: ظَفِر يظفَر ظفَرا، واللّه تعالى أظفره. وقال تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[5]، وأصله من: ظَفِرَ عليه؛ إذا نَشَب ظُفْرُهُ فيه[6]. وذكر أبو هلالٍ أنَّ الظَّفر هو العلوُّ على المُناوِئ المُنازِع، كما قال اللّه تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ

(1) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، ص: 330، والسمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 715، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 375.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(3) الراغب، المفردات: (نصر).
(4) العسكري، الفروق اللغوية ص: 540.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظفر).
(6) الراغب، المفردات: (ظفر).

﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾، وقد يُسْتَعمل في معنى الفوز، فيُقال: ظفِرَ فلانٌ بِبُغْيَتِه؛ أي: فاز بها، وأصلهُ: نيلُ الحظِّ من الخير(1).

وبينَ الظَّفر والنَّصر عموم وخصوصٌ مطلَقٌ؛ فالظَّفر أعمُّ من النَّصر؛ إذِ الظَّفر هو الفوزُ بالمطلوبِ مطلقًا، فلا يَقْتَضي وجودَ قتال(2)، بخلافِ النَّصر فإنَّه يكونُ في مواجهة الأعداء، فالأظهر فيه أنَّه لا يكون إلّا بقتالٍ، ولهذا أوثرت مادَّة الظَّفر على مادَّة النَّصر في قول اللّه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾.

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية ص: 340.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 186.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥﴾ [الفتح: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

من بَيانِ النَّظْمِ القُرآنِيِّ، دفعُ توهُّمِ غيرِ المَعْنى المُرادِ

لمّا قال سبحانه ممتنًّا على عبادِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾، فكان رُبَّما فُهِم مِنْه أنَّ الكفَّ عن قتالِ الكُفّار كان لسببٍ فيهم يقتضي عدم مقاتَلَتِهم؛ قال هنا دفعًا لذلك التَّوهُّم: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، فهم كفروا وصدّوا وأحْصَروا، وكلُّ ذلك يقتضي قتالَهم، فلا يقع لأحدٍ أنَّ الفريقين اتَّفقوا، فلم يبق بينَهُما خلافٌ وأنَّهم قدِ اصْطَلحوا، بل الاختلاف باقٍ والنِّزاع مستمرٌّ؛ لأنَّهم هم الّذين كفروا وصدّوا المؤمنينَ ومنعوهُم، فازدادوا كفرًا وعداوةً[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾: (صد) تدور غالبُ تصريفاتِها على مَعْنى الإعراض والعُدول. وتجيء بعد ذلك كلمات تشذُّ، فالصَّدُّ: الإعراض، يقال: صَدَّ يَصُدُّ؛ وهو ميلٌ إلى أحد الجانبَيْن. ثُمَّ تقول: صَدَدْتُ فلانًا عن الأمر؛ إذا عدلتَه عنهُ[2]. والصَّدُّ قد يكون انْصِرافًا عن الشَّيء وامتناعًا، نحو قولِه تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ٦١﴾

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 82.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدّ).

[النساء: 61]، وقد يكون صَرْفا ومنعا[1]، ومنه قولهُ تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾.

2) ﴿وَٱلۡهَدۡيَ﴾: (هدى) تدلُّ اشتقاقاتُها على أصلين؛ أحدهما: التَّقدُّم للإرشاد، والآخر: بَعْثَةُ لَطَفٍ. ومِنَ الثّاني: الهديَّة؛ وهو ما قُدِّمَ مِن لَطَفٍ إلى ذي مودَّةٍ[2]، والهَدْيُ: ما يُقدَّمُ إلى الحرم من النَّعَم، والهدْي: يثقَّل ويخفَّف، والواحد: هَديَّةٌ بالتَّثقيل والتَّخفيف أيضا. وذهب بعضُ أهلِ اللُّغَةِ إلى أنَّ المثقَّل هوَ جمعُ المخفَّف. ويُقال: أهديتُ للرَّجل كذا؛ إذا بعثتَ به إليه إكرامًا؛ فهو هَديَّةٌ بالتَّثقيل ليس غير، وأهديتُ الهدْيَ إلى الحرَم؛ أي: سُقْتُه[3]. وهو المُراد في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: ما يُهْدى من النَّعَم إلى الحرم، وقد كان المسلمون ساقوا معَهُم هديَهم وهُم متوجِّهون إلى البيت الحرام لولا صدُّ المشركين لهم.

3) ﴿مَعۡكُوفًا﴾: (عكف) تدل تصريفاتُها على مُقابلَةٍ وحَبْسٍ[4]، يقال: عكَفَ يعكِف ويعكُف عكوفًا؛ وهو الإقبالُ على الشَّيء وملازمته على سبيل التّعظيم له. والمعكوف: المحبوس الممنوع، قال ابن الأعرابي: يقال: ما عكفَكَ مِن كذا؛ أي: ما حبسَك. ومنه قول الله تعالى: ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾[5]، والعاكفُ والمُعْتَكِفُ في المسجد: مَن حبَس نفسَه فيه ولَزِمَهُ وقتًا للعبادة.

4) ﴿يَبۡلُغَ﴾: (بلغ) تدور اشتقاقاتُها على الوصولِ إلى الشَّيء. تقول: بلغتُ المكانَ؛ إذا وصلتَ إليهِ. وقد تُسَمّى المُشارفَةُ بلوغًا بحَقِّ المُقاربة. ومنهُ قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ [الطَّلاق: 2][6]، والبُلُوغ والبَلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى، مكانًا كان أو زمانًا، أو أمرًا من الأمور المقدّرة[7]. والمرادُ به في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ المكانُ الذي يحلُّ فيه نحوُ الهدي؛ وهو الحَرَمُ[8].

---

(1) الراغب، المفردات: (صدّ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (هدي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عكف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عكف)، والراغب، المفردات: (عكف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).
(7) الراغب، المفردات: (بلغ).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 188.

5) ﴿مَحِلَّهُۥ﴾: (حل) تدل تصريفاتُها على فتح الشَّيء، يقال: حللتُ العقدةَ أحُلُّها حلًّا. والحلال: ضدُّ الحرام؛ وهو مِنَ الأصل المذكور، كأنَّه مِن قولك: حَلَلْتُ الشَّيء؛ إذا أبَحْتَهُ وأوسعتَهُ لأمرٍ فيه. وحلّ: نزَلَ. وهو مِن هذا الباب؛ لأنَّ المسافر يشُدُّ ويعقِد، فإذا نزل؛ حلّ[1]، والحِلَّة: القوم النّازلون، والمَحَلَّة: مكان النُّزول[2]، والمراد بقول الله تعالى: ﴿أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أن يصل الهديُ إلى مكانه المقصودِ وهو الحرم.

6) ﴿تَطَـُٔوهُمۡ﴾: (وطئ) تدور اشتقاقاتُها على تمهيدِ شيءٍ وتسهيله. ووَطَّأْتُ له المكانَ؛ أي: هيَّأته ومهَّدتُه[3]، ويجوزُ أن يكونَ المَعْنى الجامِعُ لهذه المادَّةِ هو الدّوْس بثِقل الحِمل كلِّه على الشَّيء، ويلزم عن ذلك انخفاضه، كموضِعِ القدَمِ مِن ضَغْطِه، ومنه استُعْمِلَ الوطءُ في الغزو والقتل؛ لأنَّ مَن وطِئَ الشّيء برجله؛ فقد استقصى في إهلاكِهِ وإهانته[4]. ومن هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ في هذه الآية؛ فإنَّ معناه: تقتلوهم على وجهِ الإبادَةِ والإهلاكِ[5].

7) ﴿فَتُصِيبَكُم﴾: (صوب) تدلُّ تصريفاتُها على نُزولِ شَيْءٍ واسْتِقْراره قَرارَهُ. ومن ذلك الصَّواب في القولِ والفعل، كأنَّه أمرٌ نازِلٌ مستقِرٌّ قرارَه[6]، وأصابَ السّهمَ؛ إذا وصل إلى المَرْمى بالصَّوابِ، والمُصيبَةُ أصلها في الرّميَّة، ثُمَّ اختصّت بالنّائبة، نحو: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ [آل عمران: 165][7].

8) ﴿مَّعَرَّةُۢ﴾: (عرَّ) تدلُّ اشتقاقاتُها على أصولٍ متباينةٍ، مِنها: لَطْخُ شيءٍ بغير طَيِّبٍ، وما أشبه ذلك[8]، والعُرَّةُ: اللَّطخ والعيبُ، تقولُ: أصابتني من فُلانٍ عُرَّةٌ، وإنَّهُ لَيَعرُّ قَوْمَه؛ إذا أدْخَلَ عليهم مَكروها. والمَعَرَّةُ: ما يُصيب الإنسانَ مِنَ الإثْم[9]. والمَعَرَّةُ: مَفْعَلة من عَرَّه، بِمَعْنى عراه؛ إذا دهاه ما يكرهُه ويشقُّ عليه، ومعنى قوله: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ﴾ إثمٌ وشدَّة[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حلّ).
(2) الراغب، المفردات: (حلّ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وطأ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (وطأ).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 190.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صوب).
(7) الراغب، المفردات: (صوب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عر).
(9) الخليل، العين: (عر).
(10) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 341.

9) ﴿تَزَيَّلُواْ﴾: (زول) تدورُ تصريفاتُها على تنَحّي الشَّيء عن مكانه[1]، أو هوَ تباعُدُ ما هو مُتَّصل في الأصلِ بعضه عن بعضٍ[2]، يُقال: زال الشَّيءُ زوالًا، وزالت الشَّمس عن كبد السّماءِ تزولُ[3]؛ إذا تحرَّكت ومالَت عن وسطِ السَّماء. وزيّلت بينَهم: فرّقت، وزايَلتُه: فارقته، وقولُ الله تعالى: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾ أي: لو تميَّزوا بافتراقٍ، ولو كان من الزَّوال وهو الذَّهاب؛ لظهرت الواو فيه[4].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

بيانُ حكمَةِ الله تـعـالى في كـفِّ العذاب

يُبيّن الله سُبحانَهُ أن كفّار قريش هم الّذين كفروا وصدّوا أهل الإيمانِ عن المسجد الحرام يوم الحديبية، ومنعوا الهدي من أن يبلغ محلَّ نحرِه؛ وهو الحرَمُ. ولَوۡلا رجالٌ مؤمنون مستضعفونَ ونساء مؤمنات بين ظَهْراني هؤلاءِ الكفّار بمكّةَ ممَّن يكتُمُ إيمانَهُ خوفًا على أنفسِهم؛ لم تَعْرِفوهُم، خشيةَ أن تصيبوهُم بجَيْشِكُم فتقتلوهُم، فيصيبَكم بقتلهم إثمٌ وعيبٌ بغير علمٍ؛ ولكنَّ الله تعالى سلَّطَكُم عليهم؛ ليُدخِل سُبحانَهُ في رحمته من يشاء فيتفضَّلَ عليه بالإيمانِ بعد الكفر، ولو تزيَّل المؤمنون والمؤمنات عن أهل الشِّرْكِ من أهل مكَّةَ؛ لكان العذاب الشَّديد المؤلِمُ حتمًا على الكافِرين[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ﴾:

أثـرُ الاستئنافِ في إبـرازِ مُتابعَةِ المتَلَقّي وشَوْقِه

فُصِلَ قولُ الله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ عمّا قبله لوقوعه استئنافا ابتدائيًّا؛ فقد انتُقِل به من مقام الثَّناء على المؤمنين إلى تَعْيير المشركين بالمَذَمَّة الّتي أتوا بها؛ وهيَ صدُّهُم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زيل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (زيل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زول).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (زيل).
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 794.

المُسْلِمين عن المسجدِ الحَرام، وصدُّهم الهديَ عَن أن يُبَلَغَ به إلى أهلهِ؛ فإنَّها سُبّة لهم بين العربِ وهُم أولى النّاس بالحفاوة بالمُعْتَمِرين[1].

ويجوزُ أن يكون الاستئنافُ بيانيًّا، وذلك أنَّ الآية المتقدِّمَة أورثَت سؤالًا في نفس المتلقّي عن حالِ هؤلاء الّذين كفَّ اللّٰه تعالى أيديَ المُؤْمنين عنهم، ولماذا؟ فجاءَ الجواب في قولِه تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾، فيكون بين الآية وما قبلها شبهُ كمال الاتِّصال.

الغرض من التَّعبير بالمسند إليه ضميرَ غيبَةٍ، وبيان المراد به:

جَذبُ الانتباه ولَفْتُ النَّظر إلى مَضْمونِ الخبَر

جاء التَّعبير عن الكفّارِ بضمير الغيبة ﴿هُمُ﴾ مسندًا إليه في قول اللّٰه تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وهم الّذين سبق ذِكْرُهم في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ [الفتح: 22]، جذبًا للانتباه، واسترعاءً للسَّمع لِما يرد بعدَهُ مِنَ الخبَر[2].

الغرض من التَّعبير بالمسندِ اسمًا موصولًا ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

بيانُ إغْراقهم في الكُفْر حتّى كأنْ ليسَ كافِرٌ إلّا هُم

عبَّر بالمسند اسمًا موصولًا ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من قول اللّٰه تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ﴾؛ ليكون التَّعريف في كلٍّ من المسند إليه والمسندِ مفيدًا للاختصاص والقصر الادِّعائي، بقصد المبالغةِ في قَصْر جِنْسِ الكُفْر على ضَميرهم، حتّى كأنَّهم هم وحدَهُم الكافِرون دون سِواهُم، وذلك أنَّ وصف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بمنزلة الجنس، وقد صار الاسمُ الموصول في قوَّة المعرَّف بلام الجِنْسِ، فتكون جملة ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مفيدةً قصرَ جنسِ الكُفْر على هذا الضَّمير قصدًا إلى المبالغة لكَمالهم في الكُفْر بصَدِّهم المعتمرين عن المسجد الحرام، وصدِّ الهدي عن أن يبلغ محلَّه[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 187.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 187.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 187.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

بيانُ إيغالهم في الكُفْر وتحقُّقهم به

دلَّ التَّعبير بصيغة الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾ في جملة الصِّلة ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على شدَّة إيغالهم في الكفر وتحقُّقهم به حسًّا ومعنى، وأنَّهم لأجل هذا فعلوا ما فعلوه مِن الصَّدِّ عن المسجد الحرام وما تلاه.

دلالةُ التَّعبير بالصَّدِّ:

الـصَّـدُّ أخـصُّ وأنـسـبُ مِـن التَّعبير بالمنْعِ ونحوه

يُراد بالصَّدِّ المنعُ والصَّرف بقوَّة وحيلولة، ومنه: الصَّدُّ من الجبل؛ وهو ما يحول[1]، ويقال للجبل نفسِه صُدّ - بضمِّ الصّاد وفتحها[2] -؛ لصلابة مَنْعِه وشدَّة حيلولته. والتَّعبير بالصّدِّ هنا دون غيره كالمنع والصَّرف؛ ليُشعِر بشراسة المشركين وإصرارهم على منع المسلمين من الوصول بهديهم إلى البيت الحرام. كما أنَّ التَّعبير بالصَّدِّ أخصُّ من التَّعبير بالمنع ونحوه؛ لأنَّه منعٌ عن قصدِ الشَّيءِ خاصَّةً، ولهذا قال اللّه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34] أي: يمنعون النّاس عن قصده، والمنع يكون في ذلك وغيره[3].

دلالةُ العطف في ﴿وَصَدُّوكُمۡ﴾:

جَمعُ الكُفّار بينَ الضَّرر والإضْرارِ

عُطف قول اللّه تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمۡ﴾ على جملة ﴿كَفَرُواْ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ﴾ لِما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ إذ الجملتان متَّحدتانِ في الخبَريَّة، وبينهما تناسُبٌ في اللَّفْظِ والمعنى، فأمّا التَّناسُبُ في اللَّفْظِ فهو اشتراكهما في الفعليَّةِ الماضويَّة، واتِّحاد المسنَدِ إليه فيهما. وأمّا التَّناسُبُ في المعنى فما فيه من تعدادِ جرائِمِهم؛ فهم قد كفروا في أنْفُسِهم، وصدّوكم عن بلوغ مُرادِكُم في أداء شعيرة ربِّكم، فكان ذنبهم جامعًا ضررُه بين كونهِ عليهم في أنفسِهم، وكونه متعدّيا إليكُم.

(1) الراغب، المفردات: (صد).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (صدد).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 311.

عدمُ بلوغِ المسلمين الحرَمَ كان صَرْفًا لا انصرافًا

معنى ﴿عَنِ﴾ ودلالتها في ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ﴾:

﴿عَنِ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ حرف جرٍّ يدلُّ على المجاوزة، وحقيقتُها: بُعْدُ شيءٍ عن المَجْرورِ بها بواسِطَة إيجادِ مصدَرِ الفعل الذي قبلَها[1]، فقد تجاوزَ أهل الإيمانِ المسجدَ الحرامَ فلم يَبلغوهُ؛ بسبب صدِّ الكفّار لهُم. فعدمُ بلوغِ المسلمين كان صَرْفًا ومنعًا لا انصرافًا مِنْ قِبَلِ أنفسهم.

المراد بالمسجدِ مسجدُ الكعبَةِ

دلالة اللّام في ﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾ من قول الله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يُرادُ بها العهدُ العلميُّ؛ وهو مسجدُ الكعبَةِ؛ إذ هو المسجدُ الذي مُنِعَ المسلمونَ مِنَ الوصول إليهِ.

إظْهارُ شرَفِ المَسْجِدِ وعَظَمَتِه

الغرضُ مِن الوَصْفِ ﴿ٱلْحَرَامِ﴾:

وُصف المسجدُ بالحرام في قول الله تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ تعظيمًا له وتشريفًا، وأنَّ هذا التَّشريفَ وذاك التَّعظيم يقضي بكونه كذلك عند النّاس كُلِّهم، وأنَّه لِلنّاس كافَّةً، فلا اختصاصَ به لشَخْصٍ دون آخرَ[2]، ومن ثَمَّ، فلا يحقُّ للمشركين أنْ يمنعوا عنه أحدًا، فوُجودُهم في المكان لا يستلزِمُ أنهم وحدهُم أصحابُه، فَهو بيت الله تعالى، وبيوت الله سُبحانَهُ للنّاس كُلِّهم، لا يُمنع قاصدوها، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: 114]، كما كان يفعل المشركون، فإنَّهم كانوا يَمنَعونَ مَن شاؤوا مِن دخولِ البيتِ ويقولونَ: نحنُ ولاتُه، نفعل ما نشاء، ويصدّون المؤمنين عن الطَّواف به، وقد صدّوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ومن معَهُ بالإخراج، ثُمَّ صدّوهم عام الحديبية عن الوصول إلى البيتِ، وعامَ عمرة القَضيَّة عن الإقامة بعد الأيّام الثّلاثةِ[3].

(1) إسماعيل الحامدي، حاشية على شرح الكفراوي على الآجرومية، ص: 14.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 273.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 273.

دلالة العطف في ﴿وَٱلۡهَدۡيَ﴾:

تشريفُ الهدي بذِكْرِ صدِّه استقلالًا

عُطِف لفظ (الهدي) على ضميرِ المفعولِ في ﴿وَصَدُّوكُمۡ﴾[1] تعبيرًا عن جَمعهم بين الصَّدَّيْن، وفيه إيماء إلى مضاعفة جرمهم بهذا الجمع، كما أنَّ فيه تشريفا لقدر الهدي؛ إذْ جُعِل منعُه عن الوصول إلى محلّه صدًّا مستقلًّا، لا صدًّا تابعًا للصَّدِّ عن المسجد الحرام.

الغرض من التَّقْييد بالحالِ ﴿مَعۡكُوفًا﴾:

بيانُ شناعَةِ حالِ الكافرينَ وفَظاعَةِ صَنيعهم

لفظُ ﴿مَعۡكُوفًا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ منصوبٌ على أنَّهُ حالٌ، أي: وصدّو الهدي حالَ كونه محبوسًا عَنْ أن يبلغَ محلّهُ. وصاحب الحال هو لفظُ (الهَدْيَ)، وغرض ذكر الهَدْي مقيَّدا بهذه الحالِ التَّشنيعُ على الكفّار في صدِّهم المسلمين عن المسجدِ الحرامِ بأنَّهم صدّوا الهدايا أن تَبْلُغ محلَّها، حيث اضْطُرَّ المسلمون إلى نحر هداياهُم في الحديبية، فيكون الكفّار بهذا الصَّنيعِ قد عطَّلوا شعيرةً من شعائر اللّه تعالى، ففي ذِكْرِ الحالِ تصويرٌ لهيئَةِ الهَدايا وهيَ محبوسَةٌ[2].

الأوجه الإعرابيّة لـ ﴿أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ وثراء المعنى:

أثَرُ اختلاف الإعرابِ في إثراءِ المَعاني

(أن) في قول اللّه تَعالى: ﴿أَن يَبۡلُغَ﴾ مصدريَّةٌ، والفعلُ المضارع بعدَها منصوبٌ بِها، وهيَ ومُضارِعُها مصدرٌ مؤوّل، تقديره: بلوغ.

وأوثِر المصدر المؤوَّل دون الصَّريح؛ لِما يكسبُه من حالٍ تصويريَّة لا ينهَضُ بها المصدرُ الصَّريحُ، وذلك أنَّ الفعل المُضارِع ﴿يَبۡلُغَ﴾ يساعِد على تصوُّر حال الهدي وهو ممنوعٌ مِن أن يَصِلَ إلى الحرَم، ومعَهُ أيضًا تصوُّرُ حالِ الصَّحابة رِضْوانُ اللّه عنهم وقد كانوا مُتَأهِّبين لسَوْقِه وذبحِه في الحرمِ لولا صدُّ المشركين لهم.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 249.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 188.

وفي إعراب هذا المصدر المؤوّل أوجهٌ:

أحدُها: أنَّه على إسقاطِ الخافضِ، أي: عَنْ أنْ، أو مِنْ أنْ. وحينئذٍ يجوزُ في هذا الجارِّ المقدرِ أن يتعلَّقَ بـ (صَدّوكم)، وأن يتعلَّقَ بـ ﴿مَعۡكُوفًا﴾ أي: مَحْبوسًا عن بُلوغِ محلِّه أو من بلوغِ مَحِلِّه.

ثانيها: أنه مفعولٌ مِنْ أجله، وحينئذٍ يجوز أن يكونَ علَّةً للصَّدِّ، والتَّقدير: صَدّوا الهَدْيَ كراهةَ أنْ يَبْلُغَ مَحِلَّه، وأن يكون علَّةً لـ﴿مَعۡكُوفًا﴾ أي: لأجل أنْ يَبْلُغَ مَحِلَّه، ويكون الحبسُ من المسلمين، وهو خلاف الظّاهر. ولا يساعِدُه السّياقُ.

ثالثُها: أنَّــه بــدلُ اشتمالٍ من (الهَدْي) أي: صَدّوا بلوغَ الهَدْيِ مَحِلَّه[1].

والأوَّلُ أظهرُها.

غرض الإضافةِ في قولِهِ: ﴿مَحِلَّهُۥ﴾:

بيانُ اختِصاصِ الحَرَمِ بنَحْرِ الهَدْيِ

الإضافة في لفظ ﴿مَحِلَّهُۥ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ هي إضافةُ تَخْصيصٍ، والمقصودُ: المَحِلّ الذي يكون فيه ذبحُ الهَدْيِ وهو الحرَمُ، وبهذه القرينة يترشَّحُ كونُ النَّحر في الحرمِ خاصَّةً[2].

معنى الواو ودلالَتُها في ﴿وَلَوۡلَا﴾:

الجمع بين الدَّوافع والموانِع

الواو في ﴿وَلَوۡلَا﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على الجملةِ المستأنفة ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وهاتانِ الجُملتانِ - المعطوفة والمعطوف عليها - جمعتا الدَّوافع والموانع، بمعنى أنَّ الجملة المعطوف عليها - وهي جملة ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ﴾ - اسْتَدْعَت الدَّوافع التي توجِبُ مقاتلَةَ الكُفّار مِن حيثُ إنَّهم كفروا وصدّوا المُسْلِمينَ عَن دُخولِ المسجدِ الحرام وعن بلوغ الهدي مكَّةَ. بينَما الجُملة المعطوفَةُ ذكَرَت موانِعَ هَذا القِتالِ وهو وجودُ مُؤْمِنين ومؤمناتٍ بينَ المُشْركينَ يُخفون

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 716.
(2) ابن التمجيد، حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 18/ 85.

إيمانَهم والمُسْلِمون لا يعرفونهم، فلو أُذِن بقتال المشركين؛ لربَّما وقع قتالُ هؤلاء المؤمنين؛ لعَدَم معرِفَتهم.

الغرض من التَّعبيرِ بـ (لولا):

بيانُ المانِعِ مِنَ القِتالِ

(لولا) حرفُ شرطٍ غير جازم يُفيد امتناعَ وجودِ الجوابِ لوُجود الشَّرط، والشَّرط هنا هو ما جاء بعد (لولا) وهو قوله: ﴿رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾، والجواب محذوفٌ، تقديره: لعذَّبْنا الكافِرين، وقد دلَّ على هذا الجواب المحذوفِ جوابُ (لو) في قوله بعدُ: ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. وذهب بعض أهل العلم إلى أنَّ الجوابَ هو قوله: ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ المذكور، وجوابُ (لو) هو المحذوفُ، فَحُذِفَ من الأوَّلِ لدلالةِ الثّاني، ومن الثّاني لدلالةِ الأوَّل[1] على طَريقَةِ الاحْتِباكِ في الحذفِ. والمعنى: لولا وجودُ هؤلاء المؤمنين والمؤمنات بينَهُم؛ لعذَّبْنا الكفّارَ بأيديكُم فقاتَلْتُموهُم، لكنْ منَعَ من ذلك وجودُ أهل الإيمانِ بينَهم. ويجوزُ أن يكون التَّقدير: لولا كراهة أن تُهْلِكوا ناسًا من أهل الإيمان بين الكافرينَ وأنتمُ غيرُ عالمينَ بهم فيصيبَكُم بذلكَ مكروهٌ؛ لما كَفَّ أيْديَكُم عنْهم[2].

الغرَضُ مِن وصفِ الرِّجال والنِّساءِ بالإيمانِ:

التَّنْويهُ بشَأْنِ الإيمانِ ومَنْزلتِه الرَّفيعة

الغرض من وصف الرِّجال والنِّساءِ بوصف الإيمانِ في قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ لبيان أنَّ هذا الوصف الّذي تحقَّق به هؤلاء - وهو الإيمانُ - هو القَيْدُ المانِعُ مِن مُقاتَلَتهم. وفيه ملمَحٌ آخرُ؛ وهو أنَّ العراقة في الإيمانِ هي التي أهّلت للوصف بالرُّجولَة وكذلكَ النِّسْوة[3]. وثَمَّ سببٌ آخَرُ مستبطَن في الآية وهو أنَّ اللّه تعالى يعلم أنَّ من بين هؤلاء المشركين مَن سيدخُلُ الإسلامَ بعدُ،

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 717.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 112.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 327.

فتكون الآيةُ شاملةً أيضا لِمَن جبله اللّه تعالى على الخيْرِ، وعَلِمَ منه الإيمانَ، وإن كان مشركًا وقتَ نزولِ الخطابِ[1].

سرُّ التَّنصيص على ذِكْرِ النِّساء:

أسلوبُ الإطنابِ أنسَبُ لِمقامِ اسْتِثارةِ الشَّفقة

عُطِفَ قولُهُ: ﴿وَنِسَآءٌ مُّؤۡمِنَٰتٌ﴾ على قوله قبلُ: ﴿رِجَالٌ مُّؤۡمِنُونَ﴾، ولم يُكتَفَ بذِكْرِ الرِّجال؛ وهو كافٍ في ربط امتناعِ الجواب بالشَّرط، فلم يرد النَّظم القرآنيُّ: (ولولا المؤمنون)؛ فإنَّ جمع التَّصحيح المذكَّر في عُرْفِ القرآنِ الكريم يتناول النِّساء غالبًا، والسِّرُّ في ذلك: أنَّ تخصيص النِّساء بالذِّكْرِ أنسَبُ لمعنى انتفاءِ المعرَّة بقَتلهنَّ، ولمعنى تعلُّق رحمة اللّه تعالى بهنَّ[2]. وثَمَّت ملمحٌ آخرُ وهو أنَّ المقامَ مقامُ استثارة الشَّفقة وهي ملائمةٌ لتعداد ما يُرقِّقُ القلْبَ، فيقال مثلا لمن يعذِّب شخصًا: لا تعذِّبه، وارحم ذُلَّه وفقرَهُ وضَعْفَهُ. ويُقال: أولادُهُ وصغارُه وأهلُه الضُّعفاء العاجِزون، فكذلكَ ههُنا قال سُبحانَهُ: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٌ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤۡمِنَٰتٌ﴾؛ لترقيقِ قُلوب المؤمناتِ ورضاهم بما جرى من الكفِّ بعد الظَّفر[3].

بلاغة الطِّباق بين ﴿رِجَالٌ﴾ و(نساء):

النِّساء شَقائِقُ الرِّجالِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٌ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤۡمِنَٰتٌ﴾ طباقُ إيجابٍ بين لفظ ﴿رِجَالٌ﴾ ولفظِ (نساء)، وهو فضلا عمّا فيه من جمال المقابلة؛ فإنَّه يرسّخ قاعدة الإسلام في عدم التَّفريق بين الرِّجال والنِّساء في الجزاءِ واعتبارِ الفَضائل، ولكِنَّ الفروقَ هي في بعض الأحكام التي راعت الشَّريعةُ فيها مَلاحِظَ تتَّفِقُ مع طبيعةِ كُلٍّ مِنَ الرَّجل والمرأةِ.

الغرض من حذف جوابِ لَوْلا:

حُذف جوابُ (لولا) في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٌ مُّؤۡمِنُونَ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 327.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 189.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 84.

﴿وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ﴾ إيجازًا؛ لدلالة المذكور عليهِ؛ وهو جوابُ (لو) المذكورِ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. كما أنَّه يجوزُ تقديرُ المحذوفِ بِصوَرٍ وأساليبَ أخرى تُفْهَمُ من السّياق، فتكون علَّة الحذف: أن تذهبَ النَّفس في تقديرِ المَحْذوفِ كُلَّ مذهب، على أن يتحقَّق المعنى الأصليُّ المقصودُ؛ وهوَ أنَّه لولا كراهَة أن تُهْلِكوا جماعةً مِن المؤمنين بين ظهرانَي الكُفّار، حالَ كونكم جاهلين بهم، فيصيبكم بإهلاكِكُم إيّاهُم معرَّةٌ ومكروه؛ لَمَا كفَّ أيديكُم عنهُم[1].

طَيُّ اللَّفْظِ الذي دلَّ عليه السّياق إيجازًا واخْتِصارًا

الغرَضُ من التَّقييد بجملة الصِّفةِ ﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾:

قولُ اللّه تعالى: ﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ أي: لم تعرفوهم بأعيانِهم لاختلاطِهم، وهو صفةٌ لـ﴿رِجَالٞ﴾ و(نساءٌ)[2]، وفائدة الوصفِ: إزالَةُ ما قد يَرِدُ على خاطرِ بعض المؤمنين عن سبب المَنْع مِن قتال المشركين مع توفُّر الدّواعي والأسباب لقتالهم، فبانَ السَّبب في إيراد هذا الوصفِ، وهو وُجودُ مؤمنين رجالًا ونساءً بين المشركين وهُم لا يعرفونَهُم، ففيه نَصٌّ على علَّة المنع مِنَ القتالِ. وفي التَّعبير بـ ﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ كنايةٌ عَن اخْتِلاطهم[3] وعدمِ تَمايُزهم، فالمُؤْمنون المُتَخَفّون المخفونَ إيمانَهُم هُم بين أشخاصِ المشركين دونَ تمايُزٍ عَنْهُم.

بيانُ علَّة عدم الإذنِ بِقِتالِ المُشْرِكين

الغرض من بدل الاشتمال ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾:

أصلُ الوطءِ: الدَّوْسُ بالرِّجل على شيءٍ، وهو هُنا في قول اللّه تعالى: ﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ مستعار للإبادَةِ والإهلاك بالسَّيف ونحوه[4]، على طريقة الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة. وقوله: (لم تعلموهم) هو بدل اشتمالٍ من ﴿رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ﴾، "فكأنَّه قال: لولا

التَّعبير بالوطء استعارة عن الإبادَةِ والإهلاكِ

(1) الصاوي، حاشية الصاوي على الجلالين، دار تحقيق الكتاب، الطبعة الأولى، لبنان، 2024م: 6/ 352.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 111.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 64.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 343، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 137، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 190.

رجالٌ غير مَعْلومي الوطءِ فتصيبكُم منهم معرَّةُ عيب أو إثم، وذلك لأنَّكم ربَّما تقتلونهم، فتلزمكم الكفّارة وهي دليلُ الإثم، أو يعيبكم الكفّار بأنَّهم فعلوا بإخوانهم ما فعلوا بأعدائهم"[1]، وهذا على تقديرِ أنَّ بعضَهم كانوا معروفين للكُفّار، وفيه بُعْدٌ؛ إذ الكُفّار لم يكونوا ليأذَنوا بوُجود مؤمنينَ بينَهُم وهُم الّذين أخْرَجوهُم مِن ديارهم.

معنى الفاءِ ودلالَتُها في ﴿فَتُصِيبَكُم﴾:

بيانُ ما يترتَّب علـى إهـلاكِ المُؤْمِنـين بغير قَصْدٍ

الفاء في ﴿فَتُصِيبَكُم﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾ عاطفة الجملةَ بعدَها على جملةِ ﴿تَطَـُٔوهُمْ﴾ مُتَرَتِّبة عليها. فإصابَةُ المَعَرَّة مُتَرَتِّبةٌ على وطءِ القَوْمِ المُؤْمِنين الّذين لا يَعْرِفونَهم، وواقعةٌ فَوْرًا عَقِبَه.

دلالة التَّعبير بالفِعْلِ المُضارع ﴿فَتُصِيبَكُم﴾:

شناعَةُ قَتلِ أهلِ الإيمانِ وبَشاعَتُهُ

عُبِّر بالفِعْلِ المضارع ﴿فَتُصِيبَكُم﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾ لتصوير حال الفجيعةِ والرَّزيَّةِ التي كانت سَتُصيبُهم لو قتلوا المؤمنين الّذين لا يعرفونَهم، وعِظَم هذه الإصابة التي ترتقي إلى حدِّ المصيبة لو حدَثَ هذا؛ ليُدْرِكوا عظيمَ رحمة اللّه تعالى بهم أن كفَّهم عن القتالِ. وفي التَّعبير عن المفعول به في (تصيبكم) بالخطاب إشعارٌ برحمة اللّه بهم، وإعلامٌ أيضا بأنّ الكفَّ المذكور معلَّل بصَوْنِ المخاطبينَ لا بِصَوْنِ مَن بمكَّة من أهل الإيمان الّذين لا يُعرفونَ. على أنَّه لا مانِعَ مِن تعدُّدِ العِلَل[2].

وفي التَّعبيرِ عمّا يلحقهم مِن أذًى نفسيٍّ بالإصابَةِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ إذ شُبِّه لحوقُ الأذى بهم بإصابةِ الغرضِ، إخراجًا للمعنويِّ في صورةِ الحِسّيِّ.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 82.

(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 66.

الغرَضُ من تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنۡهُم﴾ على الفاعل ﴿مَّعَرَّةُۢ﴾:

ليس للكُفّار غرضٌ إلّا إيذاء أهل الإيمانِ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿مِّنۡهُم﴾ على المسند إليه ﴿مَّعَرَّةُۢ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ لإفادة الحصْرِ والاخْتِصاص؛ فإنَّ المعرَّة المتوقَّعة لن تكون إلّا منهم؛ أي: مِنَ الكُفّار، فهم الّذين سَيُلاحِقونَكُم بالمَعَرَّة والإيذاءِ قصدًا مِنهم لعيبِكُم لا شفقةً بمَنْ قُتِلَ من أهل الإيمانِ.

الغرض من تنكيرِ الفاعِلِ ﴿مَّعَرَّةُۢ﴾:

عِظَمُ تَشْنيعِ الكُفّار على أهلِ الإيمانِ

المعَرَّة: مصدرٌ ميميٌّ من عَرَّهُ؛ إذا دهاه، أي: أصابه بما يكرهه ويشقُّ عليه من ضُرٍّ أو غُرمٍ أو سوء قالة[1]، وقد نُكِّر لفظُ ﴿مَّعَرَّةُۢ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾؛ للإشعار بعِظَمِها وشُمولها، فإنَّ المشركين لن يفوّتوا هذه الفرصة الّتي لو قتلتُم إخوانكم؛ لاغْتَنَموها وشهَّروا بكم وشنَّعوا بها عليكم بكُلِّ سبيل. وذُكِر أنَّ المعرَّةِ التي تلحقُهُم هي في وجوب الدّية والكفّارة، وسوء مقالة المشركين أنَّهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بالمشركين من غير تمييزٍ بينَهُم، ومن المعرَّة الإثمُ حالَ وقوعِ شيءٍ من التَّقصير[2]، وضعّف ابنُ عطيَّة أن تكون الدّية داخلةً في المعرَّة، وضعّف أيضًا أن يكون الإثمُ منها، وذلك لأنَّه لا إثم ولا دية في قتل مؤمنٍ مستور الإيمانِ مِن أهل الحربِ[3].

معنى الباء ودلالتها في ﴿بِغَيۡرِ﴾:

الباءُ في ﴿بِغَيۡرِ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على المُلابسَةِ، أي: فتصيبكم منهم معرَّةٌ ملابسين انتفاءَ العِلْم[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 191.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 343.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 137.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 191.

دلالة القَيْدِ ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ وفائدتُه:

القيدُ لتأْسيسِ مَعْنًى جديدٍ لا للتَّأكيدِ

هذا القيد ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ في موضع الحالِ مِن ضمير المخاطبين في ﴿تَطَـُٔوهُمۡ﴾، أو هو صفة لـ ﴿مَّعَرَّةُۢ﴾[1]، والمقصودُ به نفي العلم بلحاق المعرّة نتيجة وطْأتِهم، وهو علمٌ آخرُ غير العلم المنفيِّ في قوله: ﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾؛ إذ العِلْمُ المنفيُّ في قوله: ﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ هو العلم بأنَّهم مؤمنون بالّذي انتفاؤه سببُ إهلاك غير المَعْلومين الّذي نتجَ عَنْهُ لحاق المعرَّة. والعلم المنفيُّ في قوله: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ هو العِلْمُ بلَحاق المعرَّة مِن وطْأتِهم التّابع لعدمِ علمهم بإيمانِ القَوْمِ المقتولين[2]، فمُتَعَلّق العِلْم في الأوّلِ: الوَطْأة، وفي الثّاني: أنفسهم باعتبار الإيمان[3]، فبذلك يكون القيد واردًا على جهةِ التَّأسيسِ، وليس تكرارًا للفائدة الأولى، خلافا لِمَن رأى ذلك وأنَّ القصد به التَّأكيد والتَّقرير[4].

معنى اللّامِ ودلالتُها في ﴿لِّيُدۡخِلَ﴾:

شُمولُ الرَّحمةِ لِرَحْمَةِ الدُّنيا والآخِرَةِ

اللّام في ﴿لِّيُدۡخِلَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ هيَ لام التَّعليل، وقد عُلّل بها ربطُ الجواب بالشَّرط، على معنى: لولا وجودُ رجال مؤمنين ونساء مؤمنات؛ لَما كفَّ أيديَكُم عنهم. أو لعذَّبنا الكافرينَ، وأنَّ هذا الرَّبط هوَ لأجل رحمة اللّه تعالى مَن يشاء من عباده؛ إذْ رَحِمَ بهذا الامتناعِ جيشَ المُسْلِمين بأنْ سَلَّمَهُم مِن معرَّةٍ تَلْحَقُهم، ورَحِمَ المؤمنين والمؤمنات بنجاتهم من الإهلاك، ورحم المشركين بأن استبقاهُم لعلَّهم يُسْلِمون أو يُسْلِم أكثرهم، كما وقع بعد فتح مكَّة، ورحم مَن أسلموا منهم بعد ذلك بثوابِ الآخرة، فالرَّحمة في الآيةِ شاملةٌ لرحمَةِ الدُّنيا والآخرة[5].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 267.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 191.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 65.
(4) ابن التمجيد، حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 18/ 87.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 191.

دلالة التَّعبير بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿لِّيُدۡخِلَ﴾:

المضارع مستعملٌ في زَمَنَيْهِ الحال والاستقبالِ

أوثِر التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿لِّيُدۡخِلَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ ليشمل زَمَنَيْه: الحال والمُستَقْبَل؛ فإنَّ الرَّحمة بمنع القتال عاشَها في الحال المؤمنون والمشركون، والرَّحمةَ بالتَّوفيق وزيادة الخير ومنح الدَّرجات عاشها المؤمنون وانتظرها مَن آمن مِنَ المُشركين بعدَ الفتحِ، ثُمَّ تأتي رحمةُ الآخرة وهي رحمةٌ ينتظِرُها المؤمنون جميعًا.

الغرَضُ مِن الإسنادِ إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

ما يصدُرُ مِنَ العظيمِ عظيمٌ

أُسْنِد فعل الإدخالِ ﴿لِّيُدۡخِلَ﴾ إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله سُبحانَهُ: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ تعظيمًا لهذا الإدخالِ؛ إذ نُسِبَ إلى مَن له صفاتُ الجلال والجمال والكمال، وما نُسِبَ إلى العظيم فهو عظيمٌ. وهو سبحانه هو الّذي يملِكُ أن يُدْخِل في رحمته مَن يشاء، ولأنَّ الرَّحمة هنا طالَتِ المُشْرِكين أيضًا بأنْ حقَن سبحانه دماءَهم بهذا الكفِّ عَنِ القِتال، ومَن يَملِكُ أن تمتَدَّ رحمتُه إلى الكافرِ به غير اللّه تعالى. كما أنَّ وقوعَهُ مسندًا إليه للفعلِ المضارع يُفيد كذلك تجدُّد هذا الإدخال للنّاس في رحمته واستمراره بقَيْدِ المَشيئة.

معنى ﴿فِي﴾ ودلالَتُها في قوله: ﴿فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾:

عمومُ رَحْمَةِ اللّه تعالى وشُمولُها

﴿فِي﴾ مِن قول اللّه تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ حرفٌ دالٌّ على الظَّرفية المجازيَّة بما يشعر بأنَّ مدخولها وهو الرَّحمة بمنزلةِ الوعاءِ الذي يشمَلُ عبادَ اللّه تَعالى أجمعين، وأنَّه مِن سَعَتِه شَمِلَ المشركين في بعض الصّور في الدُّنيا، كَحَقْنِ دِمائهم وهُم مُشْرِكون، وتوفيقُ بعضِهم للدُّخول في الإسلام بعد الفتح، فذلك كلُّه مِن مُقْتَضيات الرَّحمة الشّامِلة.

الغرض من التَّعبير بالمَجاز في ﴿رَحۡمَتِهِۦ﴾:

بلاغة الاستعارة المكنيَّة في لفظ الرَّحمة

الرَّحمةُ المضافةُ إلى اللّه تعالى ضربانِ؛ فقد يُراد بها الصِّفةُ القائمةُ به سُبحانَهُ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ [الكهف: 58]، وقد يُراد بالرَّحمة رحمةٌ مخلوقةٌ وهي من آثار رحمة اللّه تعالى[1]، كما في الحديث القدسي: «قالَ اللّه ﷻ لِلْجَنَّةِ: أنْتِ رَحْمَتي أرْحَمُ بِكِ مَنْ أشاءُ مِنْ عِبادي»[2].

واستعمالُ الرَّحمة في قول اللّه تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ إن أريدَ به الجنَّةُ، فالظَّرفية المستفادَةِ من حرف الجرِّ (في) حقيقيَّةٌ. وتكون الرَّحمة على هذا مجازًا مرسلًا، من إطلاق الوصفِ وإرادَةِ أثره.

وإن أُريدَ بالرَّحمة الصِّفةُ القائمةُ باللّه تعالى، فتكون الظَّرفيَّة مجازيَّةٌ؛ إذ نُزِّلَ الأمر المَعْنويّ منزلةَ الحسّيِّ كالدّار ونحوها؛ بحيث بلغ مِن سَعَتِها أنَّها لا تضيق عن أحد أُريد إدخاله فيها، ويُمنعها من لا يُراد إدخاله، ثُمَّ حذف المشبَّه به، وعُبِّر عنه بشيء من لوازمه وهو كلمة (يُدْخِل) على سبيل الاستعارة المكنيَّة. والغرض من هذه الاستعارة ترغيب النّاس في تلمس أسباب الدّخول في هذه الرَّحمة بتحصيلِ الإيمان والطّاعة، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: 156 - 157].

الغرض من التَّعبير بالمفعولِ اسمَ موصولٍ ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾:

نفوذُ أمر اللّه تعالى في ملكوته

﴿مَن﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ اسمُ موصولٌ بمعنى (الّذي)، وهو مفيدٌ العمومَ، وهو عمومٌ مشروطٌ بمشيئةِ اللّه تعالى، فكلُّ مَن شاء اللّه تعالى إدخاله الجنَّةَ؛ أدخله

(1) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية: 2/ 39.

(2) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (4850)، ومسلم في صحيحه، رقم: (2846).

إيّاها، وهذا يقتضي عظيمَ نفوذِ أمر اللّه تعالى وجليلِ سُلطانه في ملكوته. وعُبِّر بـ ﴿مَن يَشَآءُ﴾؛ لِما فيه من شُمول أصنافٍ كثيرةٍ، ولِما فيهِ مِنَ الإيجاز، ولِما فيه مِنَ الإشارَةِ إلى الحِكْمَة التي اقتضت مشيئة اللّه تعالى رحمةَ أولئك[1].

دلالة التَّعبير بالفِعْلِ المُضارع ﴿يَشَآءُ﴾:

مشيئةُ الله تعالى قديمَةُ النَّوعِ متجدِّدة الأفرادِ

جاء التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَشَآءُ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ للدّلالةِ على التَّجدُّد؛ فإنَّ مشيئَةَ إدخالِ اللّه تَعالى أحدًا الرَّحمةَ من الأوصافِ الفعليَّةِ. ثُمَّ إنَّ الفعلَ المضارعَ لَمّا كان دالًّا على الحالِ أو الاستقبالِ؛ فإنَّه يُفيدُ أنَّ اللّه تعالى يشاءُ إدخالَ الرَّحمة وقتَ الخطابِ بكفِّ القتالِ عنهم، ويشمَلُ الزَّمنَ المستقبَلَ ممَّن سيكونون بعدُ، أو مَن هُم موجودون وقت الخطابِ على حالِ كفرٍ، لَكِنَّ اللّه تعالى علمَ أنَّهم سيتحوَّلون عنه إلى الإيمان، وقد كان أسلمَ عدد كبير منهم بعدَ فتح مكَّة حتّى أُطلق عليهم: (مُسلِمة الفتح).

موقع جملة ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾، وعلَّةُ فصلِها عمّا قبلها:

تقريرُ مضمونِ الجُملَةِ المُتَقَدِّمة وتوكيدُه

التَّزيّل: هو التَّمايُز والتَّباين، وجملة ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾ جملةٌ مستأنَفة مقرِّرةٌ لِما قبلَها[2]، ومؤكِّدة لمعناها الدّالِّ على أنَّ حكمتَه تعالى قد اقتضَت كفَّ أيدي المؤمنين عن الكافرين، رحمةً بالمؤمنين الّذين يعيشونَ بِمَكَّة مع هؤلاء الكافرين[3]. ويرى ابن عاشور أنَّ جملة ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾ بيانٌ لجملة ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ﴾، أي: لولا وجود رجالٍ مؤمنين ونساء مؤمنات مندمجين في جماعةِ المشركين غير مُفْتَرِقين لو افْتَرَقوا لعذَّبنا الكافرين منهم[4]، ولكونِها تأكيدًا أو بيانًا فُصلت عمّا قبلَها؛ لما بين الجملتينِ من كمال الاتِّصالِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 191.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 112.

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 281.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 192.

الغرضُ منَ التَّعبير بأسلوبِ الشَّرط ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾:

بيانُ علَّةِ عدَمِ إيقاعِ العذاب الأليم عَلَيْهِم

الجملةُ في قول اللّه تعالى: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ جملةٌ شرطيَّة؛ إذ إنَّ ﴿لَوۡ﴾ حرف شرطٍ غير جازم، ويقال فيه: حرفُ امتناع لامتناع؛ أي: امتناع وقوع الجوابِ لامتناع وقوع الشَّرط. و﴿تَزَيَّلُواْ﴾ فعل الشَّرط، وجملةُ ﴿لَعَذَّبۡنَا﴾ جوابُه. والمعنى: لو تميّز هؤلاء المؤمنون والمؤمنات الّذين يعيشون في مكّة عن كفّارها، وفارقوهم وانعزلوا بعيدًا عنهم؛ لعذَّبنا هؤلاء الكفّار عذابًا أليمًا. ولكنَّهم لم يتزيَّلوا فامتنع الشَّرط، فامتَنَع - تبعًا له - الجوابُ، فلم يُعذَّبوا ذلك العذابَ الأليمَ. فالغرَضُ من جملةِ الشَّرطِ تعليلُ عدمِ إيقاعِ العذابِ الأليم عليهِم؛ وهو القَتلُ والإهلاكُ، فإنَّه بسبَبِ أنَّ المؤمنين الّذين بينَهُم لَم يَنعَزِلوا عَنهُم.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿لَعَذَّبۡنَا﴾، ودلالةُ دخول اللّام عليه:

تحقُّق وقوع العذاب وسُرْعَتُه حالَ تحقّق الشَّرط

اللّام في ﴿لَعَذَّبۡنَا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ واقعة في جوابٍ ﴿لَوۡ﴾، وجوابها إن كان ماضيا مُثْبَتا؛ فالأكثر اقترانُه باللّام، كما في هذه الآية. وأوثر كونُه ماضيًا للدّلالة على تحقُّق وقوع العذاب وسُرْعَته في حال تحقُّق الشَّرط.

ويَشْتَرِك جواب ﴿لَوۡ﴾ مع جواب (لولا) في الامتناعِ؛ فكلٌّ منهما ممتَنِعٌ، غير أنَّ جواب (لولا) ممتنعٌ لوجود الشَّرط، وجوابَ ﴿لَوۡ﴾ ممتنع لامتناع الشَّرط. ويرى بعض العلماء أنَّ التّغاير بينهما هنا مع اتِّحاد النَّتيجة - وهي الامتناعُ - من باب تطريةِ الكلام، وأكثر ما تكون التَّطرية إذا تطاول الكلام وبَعُد عهدُ أوَّله، واحتيج إلى ردِّ الآخر على الأوَّل، فمرّة يُطَرَّى بلفظه، ومرَّة بلفظٍ آخَرَ يُؤَدّي مؤدّاه[1].

(1) ابن المنيّر، الانتصاف - مطبوع مع الكشاف -: 4/ 343.

سِرُّ الالتفات من الغَيبة إلى التَّكلُّم في قوله: ﴿لَعَذَّبۡنَا﴾:

تَفْخيمُ العذابِ وتَعْظيمُهُ

في الآية الكريمة التفات من الغيبةِ في قوله تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ - إذ الاسمُ الظّاهرُ في مقام الغَيْبَة - إلى التَّكلُّم في قوله: ﴿لَعَذَّبۡنَا﴾، وكان مقتضى الظّاهرِ أن يَرِدَ النَّظم القرآنيّ: (لو تزيَّلوا لعذَّب الّذين كفروا)، وعُدِلَ عنِ الغَيْبَة إلى التَّكلُّم؛ لأنَّ الكلامَ لمّا كان عن الرَّحمة؛ ناسبه إظهارُ الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لِما يحمِلُ من معاني الجلال والجمالِ والقُدْرَةِ، ولمّا جاءَ الكلامُ عن عذاب الكُفّار؛ أُسْنِدَ الفِعْلُ إلى ضمير التَّكلُّم المعظَّم فقال سبحانَهُ: ﴿لَعَذَّبۡنَا﴾؛ لِما فيه مِن زيادة تأكيدِ إيقاع العذابِ بهم[1]، ومِن تعظيم هذا العذاب وتَفْخيمِه؛ لأنَّ فعلَ العَظيم عظيمٌ.

الغرضُ مِنَ التَّعبير بالمفعولِ به اسمَ موصولٍ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

بيانُ علَّة تَعْذيبِهم وهو الكُفْر

عُبِّر بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من قول اللّٰه تعالى: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ للإيماءِ إلى علَّة تعذيبِهم وهو الكُفْرُ باللّٰه تعالى وبرسُله وبما كان يتعيَّنُ عليهم الإيمانُ به. كما أنَّ في التَّعبير عنهم بالموصولِ وصلتِه إشارةً إلى عراقتهم في الكُفْرِ ورسوخِهم فيه؛ إذ من شأن الصِّلةِ أن تكون ممّا اشتهرَ به مَرْجِعُ الموصول.

معنى (مِنْ) ودلالَتُها في ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

أَثَرُ حُروفِ المَعاني في فَهْمِ الدّلالات

(مِنْ) في ﴿مِنۡهُمۡ﴾ من قول اللّٰه تعالى: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ للتَّبعيض[2]، أي: لعذَّبنا الكفّار من ذلك الجَمعِ الّذي تميَّز مؤمِنُهم عن كافرِهم، بحَيث يصير الجمعُ كفّارًا خُلَّصًا.

---

(1) فاطمة شحاتة، من بلاغة التعبير القرآني في سورة الفتح، بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، العدد: 18، والجزء: 4 لسنة: 2014م، ص: 3185.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 192.

الغرض من تَنْكير المفعولِ المطلقِ ﴿عَذَابًا﴾:

تَعظيمُ العَذاب وتَهْويلُه

نكّر لفظُ العذابِ ﴿عَذَابًا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتفخيمه وتهويلِه، أي: لعذَّبناهم عذابًا عظيمًا لا يَعْرِفون كُنْهَه ولا يَقْدِرونَ قَدْرَه، وفي ذلك مِنَ تَخويفِهم ما فيهِ.

سِرُّ وصف العذابِ بالأليم:

وُصف العذابُ بالأليم في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ للدّلالة على شِدَّته؛ فالأليمُ معناهُ: شديدُ الإيلامِ والإيجاعِ، وبِهَذا يكون هذا التَّذييل متضمِّنا الدّلالة على عِظَم هذا العذابِ بطُرُقٍ متعدِّدة؛ مِنْها إسنادُ الفعل إلى ضميرِ المتكلِّم المعظِّمَ نفسَهُ، ومنها تنكيرُ العذابِ وما فيه من الدّلالةِ على التَّفخيم، ومنها: وصفه بالأليمِ، فيكون وصفه بالأليم بمنزلةِ التَّوكيدِ المعنويِّ؛ إذ الشِّدَّة مستفادَةٌ من تنكير لفظِ (عذاب).

﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٢٦﴾

[الفتح: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيان وقت العذاب وعلّته

لما بيّن اللّه تعالى في الآية السّابقة شرطَ استحقاق الكفّار للعذابِ، وذلكَ في قوله: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ بيّن هنا وقتَ العذابِ مَعَ بيانِ عِلّته، فقال سُبحانَهُ: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَعَلَ﴾: (جعل) تدور تصريفاتُها على تحويل الشَّيء إلى وضعٍ أو هيئةٍ معيَّنة[2]، و(جَعَلَ) لفظ عامٌ في الأفعال كلِّها، وهو أعمّ من (فَعَلَ) و(صَنَعَ) وسائرِ أخواتها[3]، وأخصُّ مِنَ المعاني التي يؤدّيها الفعلُ (خلق) و(أوجد)، ويتعدّى معه إلى مفعولٍ واحدٍ، نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، أو يأتي بمعنى (صيَّر) ويتعدّى معه إلى مفعولين، ومعناه في الآية التصيير[4].

2) ﴿ٱلۡحَمِيَّةَ﴾: (حمّ) تدلُّ اشتقاقاتُها على معانٍ، منها: الاسْوِدادُ، ومنه: الحُمَمُ؛ وهو الفَحَم، سُمّي بذلك لسَوادِه. واليَحْمومُ؛ وهوَ الدُّخانُ الأسود. والأصلُ الآخر: الحرارة[5]، ومنه قوله تعالى:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 329.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جعل).

(3) الراغب، المفردات: (جعل).

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 112.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمّ).

﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ١١﴾ [القارعة: 11]، ومِنْ هذا جاء التَّعبير عن القوَّة الغضبيَّة إذا ثارَت وكَثُرت بالحَميَّة، فقيل: حَميتُ على فلان، أي: غضبتُ عليه، قال تعالى: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾[1]. والمعنى الجامعُ لتصريفاتِ المادَّةِ هو: حدّة بالغة في الشَّيءِ تمنع الاقترابَ منه، كالحرارة للشَّمس والنّار، وكالغضَبِ والأنفة[2].

وحَميَ من الشيءِ، كَرَضيَ، حَميَّةً ومَحْميَةً، كمَنْزِلَة: أنِفَ[3].

3) ﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾: (جهل) تدلُّ اشتقاقاتُها على أصلين؛ أحدهما: ضدُّ العلم، والآخر: الخِفَّة وخلاف الطُّمأنينة[4]، والجهل على ثلاثة أضربٍ؛ أحدها: خلوّ النَّفس من العلم، وهذا هو الأصل. وثانيها: اعتقاد الشَّيء بخلاف ما هو عليه. وثالثُها: فِعْلُ الشَّيء بخلاف ما حقُّه أن يُفْعَل، سواءٌ اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا[5]، وتُطلَقُ الجاهليَّة على الحالِ التي كان عليها العربُ قبل الإسلام؛ مِنَ الجهلِ باللّٰه ورسولِه وشرائع الدّين، والمفاخرة بالأنسابِ والكِبْرِ والتَّجبُّر، وغير ذلكَ من خصالِ الجاهليَّةِ التي جاء الشَّرع بخلافِها[6].

4) ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾: (سكن) تدور تصريفاتُها على ضدِّ الحركة والاضطراب[7]، ومنه: السُّكون؛ وهو: ثبوت الشَّيء بعد تحرّك، ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ [يونس: 67]، ويُسْتَعْمَلُ في الاستيطانِ، نحو: سَكَنَ فلانٌ مكانَ كذا، ومنه قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطّلاق: 6][8]، والسَكينة: الدَّعَةُ والوَقار. يقال: سكن؛ إذا هدأ ووَدعَ، ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: 4][9] وقوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فإنَّ المراد بها: الثَّبات والأناة[10].

5) ﴿وَأَلْزَمَهُمْ﴾: (لزم) تدلُّ اشتقاقاتُها على مُصاحبَةِ الشَّيء بالشَّيء على وجه

(1) الراغب، المفردات: (حمى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حمو - حمى).
(3) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (حمي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جهل).
(5) الراغب، المفردات: (جهل).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جهل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).
(8) الراغب، المفردات: (سكن).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي: (سكن).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 194.

الدّوام[1]. ولزِمَهُ المالُ؛ إذا وجبَ عليه. ولَزِمَهُ الطَّلاق: وجَبَ حُكْمُه[2]، وألزَم المتعدّي منه. والإلْزام ضربان: إلزام بالتّسخير من الله تعالى أو مِنَ الإنسان، وإلزام بالحُكم والأمر. ومن هذا الثّاني: قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[3]، وهذا إلزامُ الكرَمِ واللُّطف، لا إلزام الإكراه والعنفِ[4].

6) ﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: تاء تقوى مقلوب من الواو، فبابه (وقى)، والوِقايَةُ: حفظُ الشيءِ ممّا يؤذيه ويضرّه، والتَّقوى والتُّقى: الصّيانَةُ والحِفْظُ[5] أو: جَعْلُ النَّفس في وِقاية مِمّا يُخافُ[6]، أمّا الاتِّقاء؛ فهو افْتِعالٌ مِنَ التَّقْوى يُرادُ به: اتِّخاذُ الوقاية[7]، فالافْتِعال بمعنَى الاتِّخاذ، كما يقال: اخْتَتَمَ زَيْدٌ؛ إذا اتَّخذ خاتمًا، واخْتَدَمَ إذا اتَّخَذ خادِمًا، ونحو ذلك[8].

وحقيقةُ التَّقوى شرعًا: اتِّخاذُ الوقايةِ مِنْ عذابِ الله تعالى، وذلك بِفِعْلِ أوامِره واجتنابِ نَواهيه[9].

وكلمة التَّقوى - عند الجمهورِ - هي: (لا إله إلّا الله)، وزاد بعضهم: (محمّدٌ رسول الله)، وزاد بعضهم: (وحده لا شريك له)؛ إذ بكلمة التَّوحيد يُتَّقى من الشِّرك ومن النّار، فإنَّ أصلَ التَّقوى: جعل الوقاية[10].

7) ﴿أَحَقَّ﴾: (حق) تدلُّ اشتقاقاتُها على إحكام الشَّيء وصحَّته. فالحقُّ: نقيض الباطل، ثُمَّ يرجِع كلُّ فرعٍ إليه بجودةِ الاستخراجِ وحُسْن التَّلفيق، ويُقال: حَقَّ الشَّيء؛ إذا وجَب[11]. ويُسْتَعْمَل الحقُّ استعمال الواجبِ واللّازم والجائز[12]، ومعنى: ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ أي: أصحاب الحقِّ فيها دون غيرهم؛ لإيمانهم ولأنَّهم الأعلم بالله تَعالى[13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لزم).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (لزم).
(3) الراغب، المفردات: (لزم).
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 301.
(5) يُنظر: الجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة، والرّاغب، مفردات غريب القرآن، والفيُّوميّ، المصباح المنير: (وقى).
(6) الرّاغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: (وقى)، ووصف الرّاغبُ هذا البيان بأنّهُ التّحقيقُ.
(7) عليٌّ الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 65.
(8) الحملاويّ، شَذا العرف في فن الصّرف، ص: 32.
(9) ابن عثيمين، القول المفيد: 2/ 478.
(10) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 301.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(12) الراغب، المفردات: (حقّ).
(13) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 85.

8) ﴿وَأَهۡلَهَاۚ﴾: الأصل في لفظِ (أهل) دلالتُهُ على معنى القرابةِ، فيُطْلَقُ الأهلُ على الزَّوجة، وعلى أهلِ البيتِ[1]، والتَّأهُّل: التَّزوُّج. وأهلُ الرَّجُل أخصُّ النّاس به. وأهلُ البيتِ: سُكّانه. وأهلُ الإسلام: مَن يدينُ بهِ[2]. ويُقال: آهَلْتُ بِفلان وأهَلْتُ به[3]؛ أي: أنِسْتُ به، وهُم أهلي وأهلَتي، أي: هم الّذين آنَسُ بهم[4]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ﴾: كانوا أهل كلمةِ التَّقوى؛ لأنَّها تُناسِب ضمائرَهم وما انطوت عليه قلوبُهم[5].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

صلح الحديبية بين نقاء الإيمان ودرَن الشِّرك والجاهليَّة

يبيِّنُ اللّه سُبحانَهُ أنَّ الذين كفروا أصَرّوا على أنفَةِ الجاهليَّةِ وحميَّتِها التي كانت سائدةً قبل الإسلام، رافضين الإقرارَ برسالَةِ محمَّد ﷺ، ومِن ذلك امتناعُهم عَن كتابة "بسم اللّه الرّحمن الرّحيم" في صلح الحديبية، وأبَوْا أن يكتبوا: "هذا ما قاضى عليه محمَّدٌ رسولُ اللّه"، فأنزل اللّه تَعالى السَّكينة والطُّمأنينةَ على رسولهِ ﷺ وعلى المؤمنين معهُ؛ تثبيتًا لهم، وألزمهم كلمةَ التَّقوى؛ وهي "لا إله إلّا اللّه"، وكان رسول اللّه ﷺ والمؤمنون أحقَّ بهذه الكلمة وأهلًا لَها دون الكافرين، وكان اللّه بكل شيء عليمًا، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السّماء[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ ﴿إِذۡ﴾ الظَّرفيَّة، وبيان علَّة فصل الجملة عمّا قبلها:

أثَرُ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ في إبْرازِ مُتابعَةِ المُتَلَقّي وشَوْقِه

﴿إِذۡ﴾ ظرفٌ معمولٌ لـ (عَذَّبنا)، وفائدة تصدير الآيةِ بالظَّرف

(1) الفيومي، المصباح المنير: (أهل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أهل).
(3) نشوان الحميري، شمس العلوم: (أهل).
(4) أبو عبيد الهروي، الغريبين: (أهل).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 197.
(6) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسّر، ص: 514.

هنا: بيانُ وقت اسْتِحْقاقهم العذابَ[1]، أو هوَ معمولٌ لـ (صَدّوكم)، والمعنى: صدّوكم صدًّا لا عُذْرَ لهُم فيه ولا داعي إليه إلّا حميَّة الجاهليَّة[2]. ويجوزُ أن يكون في موضعِ نصبٍ على المفعوليَّة بفعل محذوفٍ تقديره: اذكر[3]. وفُصِلَت الجملةُ عمّا قبلها؛ لوقوعِها استئنافًا بيانيًّا، لِما تَرتَّب على الجملةِ الأولى مِن إثارةِ سُؤالٍ في نفس المتلقّي، وتقديرُه: لِماذا صدَّ المُشْركون رسولَ اللّه ﷺ ومن معه عَن دخولِ المسجد الحرام؟ فكانَ الجوابُ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾، أي: إنَّهم فعلوا ذلك لِما انْطَبَعَت عليه قلوبُهم من أنفَةِ الجاهليَّة، فيَكون بين الجملتين شبهُ كمال الاتِّصالِ.

تمكّن حميَّة الجاهليَّة مِنْ قلوبهم ورُسوخُها في أنفُسِهم

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿جَعَلَ﴾:

الجَعلُ من الألفاظِ العامَّةِ في الأفعال كلِّها، وهوَ أعمّ من (فَعَلَ) و(صَنَعَ) ونحوهما، كما أنَّه يأتي بمعنى الخَلْقِ أو التَّصيير[4]. وهو هنا بمعنى التَّصْيير، والمعنى: جعلوها ثابتةً راسخةً في قلوبِهم[5]، والتَّعبير بالفعل الماضي يدُلُّ على هذا الرُّسوخ وتَحقُّق حميَّة الجاهليَّة فيهِم وتمَكُّنها من أنفسهم وقلوبهم.

التَّسجيل عليهم بوَصْفِ الكُفْرِ، وبيانُ أنَّه السَّبب في كلِّ جرائِمهم وآثامهم

دلالةُ تعريفِ المُسْنَدِ إليه بالموصوليَّة، وسرُّ التَّعبير بالفعلِ الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

عُبِّر بالمسنَدِ إليهِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمًا مَوْصولا في قول اللّه تعالى: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ ذمًّا لهم بِما جاء في جُملَةِ الصِّلة، وتَنْصيصا على السَّبب في تمكُّن حميَّة الجاهليَّة منهم؛ وهو أنَّهم كفروا باللّه تَعالى كُفْرًا راسخا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 329.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 193.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 497، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 112.
(4) الراغب، المفردات: (جعل)، والكفوي، الكليات، ص: 347.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 112.

متحقّقا، دَفَعَهُم إلى الوُقوع في هذا الخلُق الذَّميم وأغراهم به. ولأجْلِ هَذا عُبِّر بِهِ فعلًا ماضيا. وفي إظهار وصفِ الكُفْرِ مع سبْقِ ذِكْرِه في الآية المتقدِّمة: تأكيدٌ لِتَحَقُّقِهم به وتسجيلٌ عليهم بأنَّه السَّبب في دَفْعِهم إلى كلِّ ما وقعوا فيه مِن آثام وجرائِمَ، ومنها صدُّ المؤمنين عن المسجد الحرام باستدعاء حميَّة الجاهليَّة المغروسة في قلوبِهم.

معنى ﴿فِى﴾ ودلالتُها في ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾:

تمـكُّـن حـميَّة الجاهليَّة مِـنْ قلوبهم

﴿فِى﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾ للظَّرفيَّة المجازيَّة. وفي التَّعبير بها دلالةٌ على تمكّن حميَّة الجاهليَّة مِنْ قلوبهم تمكّن الظَّرف من المظروف، فكأنَّها حوت قلوبَهم واستغرقتها بحيثُ لم تترك فيها مكانًا لغيرها، حتّى ظهرت آثارُها على أخلاقِهم وسُلوكِهم، فَبَنَوْها عَلى أساسِها، ومن ذلك صدُّهم المؤمنين عن المسجد الحرام ومَنْعُهم ذبحَ هديهم فيه.

دلالةُ تعريف ﴿ٱلْحَمِيَّةَ﴾ باللّامِ:

الحميَّة ضربان محـمـودةٌ ومذمومَةٌ، وهيَ في الآيَةِ المُذمومَةُ

عُرِّفَ لفظُ ﴿ٱلْحَمِيَّةَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ بـ (أل)، وهي محتملة لأن تكون جنسيَّةً، لولا أنَّه جاء تفسيرُها وبيانها في قوله: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾، فبانَ بذلكَ أنَّها للعَهْدِ العلْميِّ، وأنَّها الحميَّة المذمومة ليس غير. فقوله تعالى بعد ذلك: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ عطف بيان لـ ﴿ٱلْحَمِيَّةَ﴾؛ حيث بيَّنت أنَّها الحميّة المرغوبُ عَنْها؛ إذِ الحميَّة منها ما هو ممدوحٌ، كإباء الضَّيم وصيانة العزَّة، وذلك إذا ما كانت في الحقِّ، أمّا إن كانت في الباطلِ؛ فهيَ استكبارٌ وتجبّر بغيرِ حقٍّ؛ لكونها تَمنَعُ من الإذعان للحقِّ، ومبناها على التَّشفّي على مُقْتَضى الغَضَب لغير اللّه تعالى[1]، فتكون مذمومةً لأجل ذلك، كما هو الشَّأن فيها هنا. وبذلك يكون

(1) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 7/ 225.

البيانُ في قوله: ﴿حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ من باب التَّفصيل بعد الإجمال، لغرض تقرير معناهُ وتأكيده[1].

سِرُّ الإضافةِ في ﴿حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾:

ذمُّ حميَّة الجاهليَّة والتَّشنيعُ عَلَيْها وعَلى أهْلِها

قوله تعالى: ﴿حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ عطفُ بيانٍ أو بدلٌ مِن ﴿ٱلۡحَمِيَّةَ﴾؛ يُرادُ به تفسيرُ معنى الحميَّة، وأنَّ المقصودَ به الحميَّةُ المذمومةُ، وليست حميَّةَ العزَّةِ والإباءِ المحمودةَ. والإضافة في قوله: ﴿حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ من إضافة المَوْصوفِ إلى الصِّفة. وغرض هذه الإضافة: المُبالَغَة في ذمِّها وتحقيرها وزيادة التَّشنيع عليها[2]. والمَعْنى: الحميَّة النّاشئة من الجاهليَّة، أو حميّة المِلَّة الجاهليَّة؛ لأنَّها بغير حُجَّة، وواقعةٌ في غير موضِعها[3].

معنى الفاءِ ودلالَتُها في ﴿فَأَنزَلَ﴾:

تَعْجيل الله تعالى الجزاءَ الحسَنَ لأهلِ الإيمان

الفاء في ﴿فَأَنزَلَ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عاطفةُ الجملةَ بعدَها على جُملَةِ ﴿جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقد أوثِرَ العطفُ بها على العطفِ بغَيْرِها؛ لدلالتها على التَّرتيب والتَّعقيب، والمَعْنى: أنَّ الله تعالى أنزل السَّكينة على قلوب المؤمنين فورَ استفزاز المشركين لهُم بصدِّهم عن دخول الحرَم؛ لتَبْرُدَ في قلوبِ المؤمنين الحماسَةُ للقتال الّذي كانوا قد تأهَّبوا له ليَدْخُلوا مكَّة عُنْوَةً، لولا أنَّ الله تعالى ألقى هذه السَّكينة في قُلوبهم، فهدَأت، وامتَثَلوا للحِكْمَةِ الإلهيَّة في الامتناع عن القتالِ كما أوضَحَتها الآيةُ السّابقة؛ وهي وجود مؤمنين ومؤمنات بين ظهرانَي المشركين لا يَعْرِفونَهُم. ويجوز أن تكون الجملةُ معطوفةً على محذوفٍ، والتَّقديرُ: فضاقت صدورُ المُسْلِمين، واشْتَدَّ الكرب عليهم ﴿فَأَنزَلَ﴾[4]. كما أنَّ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 194.
(2) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 89، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 194.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 269.
(4) الصاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 6/ 353.

في إيثار العطفِ بالفاء دون الواوِ في ﴿فَأَنزَلَ﴾ دلالةً على المقابلة والمجازاةِ، كما تقول: أكرمني زيدٌ فأكرمتُه، فأفاد العطفُ بالفاء في الآية أنَّ إنزال السَّكينة كان لجَعْلهمُ الحميَّة في قُلوبِهم حتّى إنَّ المؤمنين لم يَغْضَبوا ولم يَنْهَزِموا، بل صبَروا، وهذا بعيدٌ في العادَةِ، فكان حصولُهُ محضَ فضلٍ مِنَ اللّه تعالى[1].

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي (أنزل):

تحقُّقُ نزولِ السَّكينة على قلوبِ أهلِ الإيمان

عُبِّر بالفعل الماضي (أنزل) من قول اللّه تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ للدّلالة على تحقُّقه وسرعة الاستجابةِ بإنزالِ السَّكينة في قلوب المؤمنينَ. وبين الفِعْلَيْنِ ﴿جَعَلَ﴾ و(أنزل) مفارقَةٌ عجيبَةٌ تُبْرِزُ وجهَ مناسبةِ كُلِّ لفظٍ منهُما لجُملَتِها؛ فالحميَّة مجعولَةٌ في الحالِ، بمنزلةِ العرَض الّذي لا يَبْقى، بل مِنْ شأنه الزّوالُ، وأمّا السَّكينَةُ فهي كالشَّيءِ المحفوظِ في خزانة الرَّحمة، فأنزلها سُبحانَهُ[2].

الغرضُ من التَّعبير بالاسمِ الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ مسندًا إليه:

بيانُ جلالَةِ السَّكينة وشرفِ أهل الإيمانِ

أُسندَ الإنزالُ إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾؛ تشريفًا للمؤمنين، وبيانًا لِعِظَم هذه السَّكينة الّتي نزلت على قُلوبِهم، لِما يتضمَّنُهُ الاسم الأحسَنُ مِن معاني الجلالِ والجمالِ والكمالِ.

الغرضُ من الإضافة في ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾:

تَشْريفُ السَّكينة وتَفْخيمُها

أضيفَ لفظُ الحميَّة إلى الجاهليَّة لقصد التَّحقير والتَّشنيع، وأُضيفَت السَّكينة إلى الضَّمير العائدِ إلى اللّه تعالى إضافةَ تشريفٍ وتفخيم وتعظيم؛ وهيَ مقابلَةٌ نابعَةٌ مِن مصدَرِ كُلٍّ من حميَّة الجاهليَّة والسَّكينة؛ إذ كانت حميُّتهم من نوازع جاهليَّتِهم، وأمّا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 271.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 271.

إنزالُ السَّكينة على الرَّسول ﷺ والمؤمنين؛ فهيَ موهبَةٌ إلهيَّة[1]. على أنَّ الحميَّة لمّا كانت قبيحةً مذمومةً في نفسِها؛ فقَدِ ازْدادَت قُبْحًا بإضافتِها إلى الجاهليَّة، بخلاف السَّكينة فإنَّها حسنة في نفسِها، وقد ازدادت حُسْنًا بإضافتها إلى الله ﷻ[2].

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالَتُها في ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾:

بيانُ شرَفِ السَّكينة وشرف مَن أُنزِلَت عليهِ

﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ حرف جرٍّ يدلُّ على الاستعلاء، وهو استعلاءٌ مجازيٌّ، وفائدة التَّعبير بِهِ الدّلالةُ على شرف السَّكينة وشرف مَن أُنْزِلَت عليه؛ إذ هي مُنْزَلة من عند الله تعالى على رسولهِ ﷺ وعلى المؤمنين معَهُ.

الغرض من الإضافَةِ في ﴿رَسُولِهِۦ﴾:

أضيف لفظ (رسول) إلى الضَّمير العائدِ إلى الله سبحانه في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ تشريفًا له ﷺ وبيانًا لرفعَةِ قَدْرِه.

دلالة العطفِ في ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والغرضُ من تَكرار (على):

الإشْعارُ باستقلالِ كُلِّ نعمةٍ عن أُختِها

الواوُ في ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عاطفةٌ ما بعدها على قولهِ: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ تشريكًا في فَضْلِ هذا الإنزال بينَ الرَّسول ﷺ والمؤمنين. وغاير بينَهُما بالعطفِ إشعارًا بالاستقلالِ، فَهُما نعمتانِ لا نعمة واحدة. وأُعيد حرف الجرِّ (على) تأكيدًا، ودلالةً على الاستقلاليَّة المذكورة. وفي الآيةِ إيجازٌ بالحذف، والتَّقدير: فأنزل الله سكينته على رسوله وأنزَل سكينتَه عَلى المؤمنين.

دلالات المقابلة بين جملتي: ﴿إِذْ جَعَلَ﴾ و﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

شتّان ما بين الفريقَيْن من تفاوُتٍ في الفَضْلِ والشَّرف

في المقابَلَةِ بينَ قولِ الله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ وقولهِ سُبْحانه: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 194.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 271.

﴿رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دلالاتٌ مهمَّة؛ **أحدها:** أنَّه جُعِل ما للكافرين بجَعْلهم، فقال ﷻ: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وجُعِلَ ما للمؤمنين بجَعْلِ اللّه تعالى، فقال سُبحانه: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾، وبين الفاعِلَين ما لا يَخْفى. **ثانيها**: جُعِلَ للكافرين الحميَّةُ، وللمؤمنين السَّكينة، وبين المفعولَيْنِ تفاوُتٌ بيِّنٌ. **ثالثُها**: أُضيفَت الحَميَّة إلى الجاهليَّة وأُضيفَتِ السَّكينة إلى اللّه سُبحانَهُ؛ فقال سبحانَهُ: ﴿حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾، وقال: ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾، وبينَ الإضافَتَيْنِ ما لا يخفى مِنَ التَّفاوت[1].

معنى الواوِ ودِلالَتُها في ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ﴾:

تَعَدُّد إنْعامِ الله تَعالى عَلى أهلِ الإيمانِ

الواو في ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على جملة ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لِما بينهما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ فإنَّهما اتَّحدتا في الخبريَّةِ، وبينَهما تناسبٌ لفظيٌّ ومعنويٌّ، فأمّا اللَّفْظيُّ فهو اشتراكُهما في الفعليَّةِ والماضويَّة، واتِّحاد المسنَدِ إليه فيهما؛ وهو الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ في الجملة الأولى، والضَّمير العائد إليه في الجملة الثّانية. وأمّا التَّناسُبُ المعنويُّ؛ فهو اشتراكهما في إنعام اللّه تعالى عليهم؛ فالقَصْدُ من العطف: الجَمْعُ لهم بين نِعْمَتَي إنزال السَّكينة في قلوبهم، وإلزامهم كلمةَ التَّقوى.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي، وجمعِ الضَّمير:

تحقُّق فضلِ الله تعالى وإكرامهِ لأهلِ الإيمان

عُبِّر بالفعل الماضي (أَلْزَمَهم) في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ للدّلالَةِ على تحقُّق هذا الإلزام، وفيه إشعارٌ بفضل اللّه تعالى عليهم به. والمعنى: اخْتارَ لهم، فهو إلزامُ إكرام وتشريفٍ وتوفيق[2]، وليس إلزامَ إكراهٍ وإلجاءٍ كما قَد يُتَوَهَّمُ. والمرادُ أنَّهم مُداوِمونَ على التَّقوى مُسْتَحْضِرون لها في كلِّ موقفٍ، فهي لا تُفارِقُهم.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 84.

(2) الصاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 6/ 355.

وفي استخدام الإلزامِ في معنى المُداومة على التَّقوى استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة، بتنزيل المداومة عليها منزلة الملازم الذي لا يُفارق صاحبَه.

وعُبِّر بالجَمعِ دونَ التَّثنيةِ في قوله: ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ مراعاةً للجمع في لفظ (المؤمنين)؛ إذ التَّقوى مأمورٌ بها من كلِّ أحدٍ، والرَّسول ﷺ مأمور بالتزامها، كما ورد الأمر بذلك في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1]، كما أُمِر المؤمنون بالتِزامِها في عَشَراتِ الآياتِ.

الغرض مِن الإضافة في: ﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾:

كلمة التَّوحيد هي أساسُ التَّقوى وسببُ حُصولِها

أُضيفَ لفظ ﴿كَلِمَةَ﴾ إلى ﴿ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾؛ لأنَّها سببُها وأساسها[1]؛ أي: أنَّ الكلمة - وهي كلمة التَّوحيد (لا إله إلّا الله) - بمُقْتَضياتها هي سببُ حصولِ التَّقوى، وليس مِن ريبٍ أنَّ أصل حصول التَّقوى هو التَّوحيد، ثُمَّ العمل بمقتضيات هذا التَّوحيد من التَّحقق بأركان الإيمان وإقامة الشَّعائر وفعل المأمورات والانتهاء عن المحظوراتِ. ويجوزُ أن تكونَ الإضافةُ للاختصاص الحقيقيِّ، على تقدير مضاف، والتَّقدير: وألزمهم كلمةَ أهلِ التَّقوى[2]، فيكون في الجملة إيجازٌ بالحذفِ.

معنى الواوِ ودِلالَتِها في ﴿وَكَانُوٓاْ﴾، وبيانُ مرجعِ الضَّمير:

تَنوُّع المعاني وثَراؤُها باخْتِلاف مَرْجِعِ الضَّمير

الواوُ في ﴿وَكَانُوٓاْ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على ما قبلها، والضَّمير في (كانوا) يعودُ على المؤمنين، أي: وكانَ المُؤْمنون مع إلزامهم كلمَةَ التَّقوى أحقَّ بها مِنَ الكُفّار. وهذا هو الظّاهر. وذهب بعض أهل العلم إلى أنَّ الضَّميرَ يعودُ على الكُفّار، على معنى: كانت قُرَيْش أحَقَّ بها لولا حِرْمانُهم - وهو غير ظاهرٍ -[3]. وعلى هذا المعنى الأخير

(1) شيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي: 7/ 626، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 112.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 271.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 719.

تكونُ الواو للحالِ، والجملةُ بعدها حالٌ مِن الضَّمير المنصوب، والتَّقدير: ألزَمَهُم تلكَ الكلمةَ في حالٍ كانوا فيه أحقَّ بها وأهلَها ممَّنْ لم يُلْزَموها، وهُم الّذين لم يَقْبَلوا التَّوحيد على نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: 143][1].

دلالَةُ التَّعبير بفعلِ الكَوْنِ (كانوا):

في التَّعبير بفعل الكَوْنِ (كانوا) من قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ تخلُّقَهُم بالتَّقوى أشبَهُ بالسَّجايا والطِّباع التي لا تنفكُّ عمَّنْ طُبِعَ بها فلا تُفارِقُهُ.

الغرضُ مِنَ التَّعبير بالجملة الاسميَّة ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ﴾:

رُسوخُ التَّقوى في قُلوب أهلِ الإيمان

أوثِرَ التَّعبير بالجملة الاسميَّةِ المسبوقة بالفِعْلِ النّاسخ ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ﴾؛ للدّلالَةِ على رُسوخ التَّقوى في قُلوبِهم وثَباتِها، واستمرارِهم عليها، وأنَّها لهم عنوانٌ، وذلك لشِدَّة مُلازَمَتهم لَها وعدم تَجاهُلِها فيما يَعْتَرِضُهُم في كلِّ مواقفِ الحياةِ حَسَنِها وسَيِّئِها، خيرِها وشَرِّها.

الغرض من التَّعبير بأفعل التَّفضيل ﴿أَحَقَّ﴾:

التَّأكيد على أحقِّيَّة المؤمنين بكلمةِ التَّقوى دون غَيْرِهم

﴿أَحَقَّ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ﴾ أفعلُ تفضيلٍ، وهوَ هُنا ليسَ على بابِهِ؛ إذْ ليس للكُفّار أيُّ حقٍّ في كلمة التَّقوى، فصيغَةُ التَّفضيل يُرادُ بها الزّيادة مُطلقًا[2]، أي: لزيادَةِ الأحَقّيَّة في نفسِها، أي: أنَّهم مُتَّصفون بمزيدِ استحقاقٍ لَها[3]، والمَعْنى: المُؤْمِنون هُم الأحقُّ مِن كلِّ وجهٍ بكلمةِ التَّقوى مِنَ الكُفّار الّذين ليس لهم حقٌّ فيها وقَد تَخَلَّوْا عنها. وعلى ذلكَ فَصيغَةُ التَّفضيل واردة في مقام تأكيدِ أحقّيَّة المؤمنين دونَ غيرِهم بكلمَةِ التَّقوى. وألَمَحَ بَعْضُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 196.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 113.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 497، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 272.

أهل العلمِ إلى أنَّ المفاضلةَ على بابها، وأنَّ المقصودَ: أنَّهم أحقُّ بها من الكُفّار، على معنى: أنَّ نفوس المؤمنين كانت مُتَهَيِّئةً لقَبولِ كلمةِ التَّقوى والتزامها بما أرشدَها اللّه تعالى إليه. والمفضّل عليه مُقَدَّر دلَّ عليه ما تقدَّم؛ أي: أحقُّ بها مِن الذين كفروا الّذين جعلَ اللّه تَعالى في قُلوبِهم الحميَّة؛ لأنَّ اللّه تَعالى قدّر لهم الاستعدادَ للإيمان دون الّذين أصرّوا على الكُفْر[1].

معنى الباءِ ودِلالَتُها في ﴿بِهَا﴾:

لُـزومُ أهلِ الإيمانِ كلمَةَ التَّوحيدِ

الباءُ في ﴿بِهَا﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ للإلصاقِ والمُلابَسَة، والمعنى: أنَّ المؤمنينَ أحقُّ بالتَّلبُّسِ بكلمَةِ التَّقوى من غيرهم، حتّى إنَّهم من شدَّة تلبُّسهم بها؛ كانوا ملاصقينَ ملازمينَ لها لا يُفارقونَها؛ فَهُمُ المَوَفَّقون إليها العامِلون بمُقْتَضاها.

معنى الواوِ ودلالَتُها في ﴿وَأَهۡلَهَاۚ﴾:

التَّرقّي في مَدْحِ أهلِ الإيمانِ

الواو في ﴿وَأَهۡلَهَاۚ﴾ من قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ﴾ عاطفةٌ ما بعدَها على لفظِ ﴿أَحَقَّ﴾، ومعنى كونِهم أهلَها؛ أي: أنَّهم المُستأهلون لَها. وهذا الوصفُ أبلغ من الوصفِ بالأحقيَّة. حتّى قال بعضُ أهل العلم: إنَّ بينهُ وبين الأحقِّ كما بين الأحقِّ والحقِّ[2]، فيكون عطفُهُ على ﴿أَحَقَّ﴾ لأجلِ التَّرقّي.

الغرَضُ مِنَ الإضافَةِ في ﴿وَأَهۡلَهَاۚ﴾:

بـيـانُ شـرَفِ المؤمنينَ

أُضيفَ لفظُ (أهل) إلى الضَّمير العائد إلى (كلمة التَّقوى)؛ لإرادة التَّشريفِ، وهي إضافَةُ اختِصاصٍ، أي: أنَّهم وحدهم المُستأهلون لَها، فالمعنى: أنَّهم كانوا أهلَ كلمَةِ التَّقوى؛ لأنَّها تُناسِب ضَمائِرَهُم وما انطَوَت عليهِ قُلوبُهُم[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ص: 197.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 272.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 197.

الغرَضُ مِن التَّذييل بالجُملَةِ الاسميَّة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾:

تأكيدُ ما قرَّرتهُ الآيَةُ مِن أحكامٍ

قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ تذييلٌ مقرِّر لمضمونِ ما قبله، ومُبَيِّن لأنَّه قد سبق في علم الله تعالى ذلك في عموم ما أحاطَ به علمُهُ سُبحانَهُ من الأشياءِ مجرى تكوينِه على نحوِ عِلْمِه[1]. والتَّعبير بالجملة الاسميَّة في هذا التَّذييل تأكيدٌ لرسوخ علمهِ سُبْحانَهُ وثبوته؛ إذ علمُهُ تعالى من الصِّفاتِ الذّاتيَّة التي لا تنفكُّ عَنْهُ بحال. وفعل الكَوْنِ (كان) هنا مسلوبُ الزَّمان؛ فهو سُبْحانَهُ كانَ ولا يزالُ بكُلِّ شيءٍ عليمًا.

الغرضُ من التَّعبير بالاسمِ الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ مسندًا إليهِ:

طَمأنَةُ أهلِ الإيمانِ وزعزعَةُ أهلِ الكُفْرانِ

الاسم الأحسنُ ﴿ٱللَّهُ﴾ هو الاسم العلَمُ الدّالّ على الذّاتِ واجبِ الوجودِ، الجامع لصفاتِ الجلال والكمال والجمال، وإسنادُ العلم إليهِ يُقَوّي بعثَ الطُّمأنينة والسَّكينة في قلوب المؤمنين، كما أنَّه يُزَعْزِعُ أركانَ الكافرين ويُزَلْزِل قلوبَهُم من هيبَتِه وجلاله.

دلالةُ لفظ (كلّ)، والغرضُ مِنْ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾:

الاهْتِمامُ بالمُقدَّم والتَّشويقُ إلى المُؤَخَّر

لفظُ (كُلّ) موضوعٌ للعُموم، والتَّعبير به يُفيدُ تعلُّقَ عِلْمِه سُبْحانَهُ بجميعِ ما في الكَوْنِ عُلْوِيِّه وسُفليِّه، كبيرهِ وصغيره وأصغرِه، بحيثُ لا يعزُب عن علمهِ مثقالُ ذرَّة ممّا في ملكه، كما قال سبحانه: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾ [سبأ: 3]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: 59]. وقُدّم الجارُّ والمجرورُ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ على ﴿عَلِيمًا﴾؛ للاهتمام بالمُقدّم والتَّنبيه والتَّشوق إلى المُؤَخَّر. كما أنَّ في هذا التَّقديمِ مراعاةً للتَّناسُبِ الصَّوتيِّ لِفواصل الآيِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 197.

الغرَضُ مِنَ الإضافةِ في ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾:

تأكيدُ الدّلالةِ على عُمومِ عِلْمِه سُبْحانَهُ

استُعْمِلَ اللَّفظُ الدّالُّ على العموم (كلّ) في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾؛ لوقوع قيّوميّته سبحانه على كلّ ما في الكون، أيْ: كلّ ما يسمّى شيئًا؛ فهو خاضع لعلمه وشُهوده، ولذا أُضيفَ إليه لفظُ ﴿شَيۡءٍ﴾ وهو دالٌّ على عموم المَوْجوداتِ. على معنى: أنَّه سبحانه عالم بِكُلّ شَيْء من الأشياءِ ومراقِبٌ لأحواله، ومقتضى ذلك الإحاطةُ بتفاصيل ما في قلوبِ الكافِرين وقُلوبِ المُؤْمنين، مُجازٍ كلًّا بما يليقُ به.

الغرَضُ من تَنْكير لفظِ ﴿عَلِيمًا﴾:

عظمَةُ عِلْمِ الله تعالى وسَعَتُهُ وإحاطَتُهُ

نُكِّر لفظُ ﴿عَلِيمًا﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ لإفادَةِ تَعْظيم الوصف، ولازِمُ ذلك تعظيمُ الموصوفِ بها سُبْحانَهُ. كما أنَّ لفظَ (عليم) صيغةُ مبالغةٍ تُفيدُ عِظمَ الوصفِ كذلك؛ فاجتمَع في لفظ ﴿عَلِيمًا﴾ في الآية الكريمةِ تعيظمانِ؛ مِنْ حيث بناءُ اللَّفْظِ، ومن حيث حالُهُ العارضةُ لهُ وهي التَّنكيرُ.

بلاغَةُ الاحْتِباكِ في الآيةِ الكريمَةِ:

ذِكْرُ مَجْمَعِ الشَّرِّ ترهيبا، ومَجْمَعِ الخيرِ ترغيبًا

في قوله الله تعالى: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ حذفٌ مقابَليٌّ وهو المسمّى: الاحتباكَ؛ حَيْثُ ذُكِرَت حميّة الجاهليَّة أوَّلًا دليلًا على ضدِّها ثانيًا، وذُكِرَت كلمة التَّقوى ثانيًا دليلًا على ضدّها أوَّلًا، فيكون تَقدير الآية هكذا: إذ جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحميَّة حميَّةَ الجاهليَّة، وألزمَهُم اللّه تعالى كلمةَ الفجورِ وكانوا أحقَّ بذلك وأهلًا، وأنزل اللّه سكينتَهُ على رسوله وعلى المؤمنين، وجعلوا في قلوبهم الحميَّةَ المحمودَةَ للحقِّ، وألزمهم اللّه تعالى كلمة التَّقوى وكانوا أحقَّ بها وأهلَها.

وسِرُّ هذا الاحتباك: أنَّه قد ذُكِر مَجْمَعُ الشَّرّ أوّلًا؛ ترهيبًا منه، ومَجْمَعُ الخيرِ ثانيًا؛ ترغيبًا فيه[1].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 332.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

رؤيا الرَّسول ﷺ حقٌّ ووعدُ الله تعالى لا يتخلَّف

لمّا قرّر الله ﷻ في ختام الآية السّابقة علمَهُ بالعَواقب وإحاطة علمِه بكلِّ شيءٍ فقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فأظهر تبعًا لشُمول علمِه وجهَ أسباب كفِّه أيديَ الفَريقين، وبيّن ما فيهِ مِنَ المصالح وما في التَّسليط من المفاسدِ مِن قتلِ مَن حُكم بإيمانه مِنَ المُشْرِكين وإصابةِ مَن لا يُعلم حالُه مِنَ المؤمنين؛ لَمّا كانَ كذلكَ أنتجَ هَذا قوله لِمَنْ شكَّك في صِدق رؤياه ﷺ التي رآها قبل الحُديبية وأخبر بها أصحابَه أنَّه سيدخل مكَّة[1]، لكنَّه لَم يُعَيِّن لذلكَ وقتًا، ففَرِحَ الصَّحابة ﷡ واسْتَبْشَروا وحَسِبوا أنَّهم داخلوها في عامهم، وقالوا: إنَّ رُؤيا رسولِ اللّه ﷺ حقٌّ. فلمّا تأخَّر ذلك عن الرُّؤيا نظرًا لِما حَدث مِن أمر الصَّدِّ؛ أقْلَقهُم أمرُها وكاد بعضُهم أن يُزَلْزِلَه ذكرُها، واستغلَّ ابنُ أُبَيِّ ومَن معه هذا التَّأخير فزادوا في التَّشكيك، فقال سبحانه مُؤَكِّدًا صدق الرُّؤيا وحصول مَضْمونها في الواقع وهو دخولُ الرَّسول ﷺ وأصحابُه مكَّةَ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَدَقَ﴾: (صدق) تدلُّ تصريفاتُها على قوَّةٍ في الشَّيء قولًا وغيرَه. ومِن ذلك الصِّدق؛ وهو ضدُّ الكَذِب، سُمّي بذلكَ لِقوَّته في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 332 - 333.

نفسهِ، ولأنَّ الكذب لا قوَّة له، وهو باطل[1]. وأصلُ الصِّدْقِ والكذب أنَّهما في القولِ، ماضيًا كان أو مستقبَلًا، وعْدًا كان أو غيرَه، ولا يكونانِ إلّا في الخبَر دون غيره من أصنافِ الكلام، ولذلك قالَ تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ١٢٢﴾ [النساء: 122][2]، ومعنى قوله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: جعل الله سبحانه رؤيا رسولهِ ﷺ صادقةً، فحقَّق صِدْقها عنده كما هو عادةُ الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام[3]، ولم يجعلها أضغاثَ أحلامٍ[4].

2) ﴿ٱلرُّءْيَا﴾ (رأى) تدورُ اشتقاقاتُها على نظَرٍ وإبْصارٍ بعَيْنٍ أو بصيرةٍ[5]؛ أي: تكون بمعنى الرُّؤية بالعين، وتتعدّى إلى مفعولٍ واحد، وتكونُ بِمَعْنى العِلْم وتتعدّى إلى مفعولينِ. يقال: رأيتُ زيدًا عالِمًا؛ أي: علمتُهُ كذلك. ورَأى رأْيًا ورُؤْيَةً وراءَةً[6]، والرُّؤْيا: ما يُرى في المنام، على زِنَةِ: فُعْلى، وقد يخفّف فيه الهمزُ، فيقال بالواو: رويا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ [الإسراء: 60]، وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾[7].

3) ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: (حق) تدلُّ تصريفاتُها على إحكامِ الشَّيء وصِحَّته. فالحقُّ: نقيض الباطلِ، ثُمَّ يرجع كلُّ فرع إليه بجودَةِ الاستخراجِ وحسن التَّلفيق[8]، وحَقَّ الشَّيْءُ يَحِقُّ حَقًّا؛ أي: وجَبَ وُجوبًا، ومنه قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: 105]، فمعنى ﴿حَقِيقٌ﴾ [الأعراف: 105]: مَحقوقٌ، كما تقول: واجِبٌ[9]، والحقُّ: واحد الحقوقِ. والحَقَّةُ: أخصُّ منه. يقال: هذه حَقَّتي، أي: حقّي[10]. وأصلُ الحَقّ: المُطابقَةُ والموافقَةُ[11]، ومعنى ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: صِدقًا متلبِّسًا بالحَقِّ؛ وهو القصدُ إلى التَّمييز بين الثّابت على الإيمانِ والمُتَزَلْزِل فيهِ[12].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(2) الراغب، المفردات: (صدق).
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 67.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 302.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).
(6) الجوهري، الصحاح: (رأى).
(7) الراغب، المفردات: (رأى).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(9) الخليل، العين: (حق).
(10) الجوهري، الصحاح: (حقق).
(11) الراغب، المفردات: (حق).
(12) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 131.

4) ﴿ءَامِنِينَ﴾: الفعل (أَمَن) له أصلان؛ أحدهما: الأمانة التي هي ضِدُّ الخيانة، ومعناها: سكون القلب. والآخرُ: التَّصديق. والمعنيان متقاربان[1]، والأمن: طُمأنينَةُ النَّفس وزوالُ الخوف[2]، والأمَنَةُ - بالتَّحريك -: الأمنُ، ومنه قوله ﷺ: ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: 154][3]، ومعنى: ﴿ءَامِنِينَ﴾ مُطْمَئِنِّين واثقين؛ آمِنينَ من العدوّ إن شاء اللّه[4].

5) ﴿مُحَلِّقِينَ﴾: (حلق) تدلُّ اشتقاقاتُها على تنحيَةِ الشَّعر عن الرَّأس، ثُمَّ يُحْمَلُ عليهِ غيرُه[5]. ويقال للأكسية الخَشِنَة التي تَحْلِقُ الشَّعرَ بخشونَتِها: مَحالِقُ. ويُقال: رأسٌ حليقٌ، ولِحْيَةٌ حليق[6] بالمعنى نفسه؛ أي: نُحّيَ عنه الشَّعر وأُزيل. ومنه قوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾.

6) ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾: (قصر) تدلُّ تصريفاتُها على عدَمِ بُلوغ الشَّيء مَداهُ ونِهايتَه، وعلى حَبْسِ الشَّيء أيضا. وهُما أصلانِ مُتقاربان. فالأوَّل: القِصَر؛ وهو ضدُّ الطّول[7]، يُقال: قَصُر الشَّيءُ - بالضَّمِّ - يَقْصُرُ قِصَرا؛ ضدُّ طالَ. والقُصْرى والقُصَيْرى: الضِّلْعُ التي تلي الشّاكِلَة؛ وهي الواهنةُ في أسفلِ الأضلاع[8]، وكلُّ مِنَ القِصَرِ والطّول مِنَ الأسماء المُتضايفَة التي تُعْتَبَرُ بغَيْرِها[9]؛ أي: يُعْتَبَرُ كُلٌّ منهما بالآخر، فيقال: أقْصَرُ من كذا أو أطولُ منه. ومعنى قوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: تُزيلون جميعَ شُعورِ الرُّؤوسِ أو بعضَه[10].

7) ﴿تَخَافُونَ﴾: (خوف) تدور اشتقاقاتُها على الذُّعر والفزَعِ[11]. ومنه: الخوفُ وهو ضدُّ الأمن، قال تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش: 4]؛ وهو عبارة عن توقُّع مكروهٍ عن أمارَةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ، كما أنَّ الرَّجاء والطَّمع توقُّع محبوبٍ عَن أمارَةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ، ويُسْتَعْمَل الخوفُ في الأمور الدُّنيويَّة والأخرويَّة. كما في قوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(2) الراغب، المفردات: (أمن).
(3) الجوهري، الصحاح: (أمن).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 274.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حلق).
(6) الراغب، المفردات: (حلق).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قصر).
(8) الجوهري، الصحاح: (قصر).
(9) الراغب، المفردات: (قصر).
(10) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 343.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خوف).

﴿رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: 57][1]. وسائر ما في القرآنِ من ذِكْرِ الخَوْفِ هو من الخوفِ ضِدِّ الأمن[2]، ومعنى قوله: ﴿لَا تَخَافُونَۖ﴾ لا تفزعونَ، بَل تأْمَنونَ.

8) ﴿فَجَعَلَ﴾: (جعل) تدلُّ تصريفاتُها على تحويلِ الشَّيء إلى وضعٍ أو هيئة معيَّنة[3]، فالجَعْل: لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلِّها؛ وهو أعمّ من فَعَلَ وصنَعَ وخَلَقَ وسائرِ أخواتِها. ومن معاني الجَعْلِ: إيجادُ شيءٍ من شيء وتكوينُه منه، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النحل: 72]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾ [النحل: 81]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ [الزخرف: 10][4].

9) ﴿فَتۡحٗا﴾: (فتح) تَدور اشتقاقاتُها على ضدِّ الإغْلاقِ[5]. فالفَتحُ: إزالة الإغلاقِ والإشكالِ، وذلك ضَرْبانِ؛ أحدهما: يُدْرَك بالبصر، كفتحِ الباب ونحوه. والآخَرُ: يُدْرَك بالبصيرةِ، كفَتحِ الهمِّ؛ وهو إزالة الغمِّ[6]. والفَتح: النَّصر. والفَتحُ: الماء يجري من عينٍ أو غيرها. وفاتحة الشَّيءِ: أوَّله. والفتّاح: الحاكم، تقول: افْتَحْ بينَنا؛ أي: احْكم. والفُتاحة -بالضَّمِّ-: الحُكْم[7]، ومعنى قوله: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ أي: مِن قبل دخولِ مكَّة فتحًا قريبًا، يعني: فتحَ خيبرَ في قول ابنِ عبّاس، وفي قول آخرينَ: هو صلحُ الحُديبية[8].

10) ﴿قَرِيبًا﴾: (قرب) تدلُّ تصريفاتُها على ضدِّ البُعْدِ. يُقال: قرُب يقرُب قُرْبًا. وفلان ذو قَرابَتي، وهو من يَقْرُبُ منك رَحِمًا[9]. والقُرْبُ والبعد يتقابَلان. يقال: قرُبت منه أقرُب، وقرَّبته أقرِّبه قُربا وقُربانا، ويستعمل ذلك في المكانِ وفي الزَّمان، وفي النِّسبة، وفي الحَظْوَةِ، والرِّعاية، والقُدْرة[10]. والفتح القريبُ في قول اللّه تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ أوَّلُه فتح خيبرَ الّذي وقع قبل عُمرة القضاء؛ إذْ هوَ القريبُ من زمنِ الصُّلحِ[11].

---

(1) الراغب، المفردات: (خوف).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خوف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جعل).
(4) الراغب، المفردات: (جعل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتح).
(6) الراغب، المفردات: (فتح).
(7) الجوهري، الصحاح: (فتح).
(8) الواحدي، البسيط: 20/ 325.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرب).
(10) الراغب، المفردات: (قرب).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 201.

تصديقُ الله تَعالى رُؤيا نبيِّه ﷺ

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُؤَكِّد الله تعالى أنَّه صدَقَ رسولَه محمَّدًا ﷺ في الرُّؤيا الّتي أراها إيّاه بالحقِّ؛ حين رأى أنَّه يدخل هو وأصحابُه المَسْجدَ الحرام آمنينَ، لا تخافون أهل الشِّرك، محلِّقين رؤوسكم ومقصِّرينَها. فعَلِمَ الله سُبحانَهُ ما لم تَعْلَموا مِن المَصالح والخير فيما صَرَفَكُم به عن مكَّة في عامكُم ذلك، ودخولكم إليها بعدُ، فَجعل الله تعالى لكم فتحًا قريبًا قبل دخولكُم مكَّة؛ وهو صلحُ الحُديبية وفتح خيبرَ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾:

أثـرُ الاستئنافِ البَيانيِّ في إبرازِ مُتابعَةِ المُتَلَقّي وشَوْقِه

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ عمّا قبله؛ لوقوعه استئنافًا بيانيًّا[2]، وذلك لأنَّه ناشئٌ عَن سؤال مقدَّر حولَ مِصْداق قوله تَعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فجاءَ الجوابُ في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾، فبينَ الجملتينِ على هذا شِبْهُ كمالِ الاتِّصال، وما بينَهما اعتراضٌ.

ويجوزُ أن يكون قوله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ تأكيدًا لقولهِ تعالى في الآية السّابقة: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[3]، فيكون بين الجملتينِ كمال الاتِّصال.

الغرض من التَّعبير بأسلوب القسَم ﴿لَّقَدْ﴾:

إزالة الرَّيب الّذي اعْـتَرى بعضَ النُّفوس

اللّام في ﴿لَّقَدْ﴾ موطِّئة للقَسَم، فهي دالَّة على قسَم محذوفٍ، أي: والله ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾، ولامُ القسَم مِن اقْتِضاءِ الفعلِ ﴿صَدَقَ﴾؛ لأنَّها من قبيلِ تبيَّن وتحقَّق ونحوها ممّا يُعْطي القسمَ[4].

---

(1) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 514.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 197.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 333.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 139.

والغرَض مِنَ القسَمِ إزالةُ ما لَحِقَ بعضَ النُّفوس من شكٍّ نتجَ عن تشكيكِ المنافقين لهُم في أمر رؤياهُ ﷺ الّتي كان قد قصَّها على أصحابِهِ بأنَّهم سيدخلونَ المسجِدَ الحرام، فلَمّا لَم يدخلوهُ مِن عامهم الّذي صدَّهم فيه المشركون عنه؛ أشاع المنافقون وأذاعوا القولَ بالتَّشكيكِ، قائلين: أين تصديقُ الرُّؤيا، فو اللّه ما دخلنا المسجدَ الحرام، ولا حَلَقْنا وقصَّرنا؟[1]، فتأثَّر بكلامهم مَن تأثَّر، فأزال اللّه تعالى ما في نُفوسِهم مِن شكٍّ قَد اعتراها، فكانَ القسَمُ لأجلِ ذلكَ.

معنى (قَد) ودلالَتُها ﴿لَّقَدۡ﴾:

حَشْدُ المؤكِّدات تحقيقًا لصِدْقِ الرُّؤيا النَّبويّة

(قَد) من قول اللّه تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ حرفُ تحقيق، وهي تفيدُ تحقُّق وقوع الفعل الماضي الّذي دخَلَت عليهِ، فالفعلُ ﴿صَدَقَ﴾ دلَّ على تحقُّقه إيرادُهُ بصيغةِ المُضيِّ، وكذلك دخولُ (قَد) عليهِ الَّتي زادَته دِلالةً على تحقُّق وقوعِ هَذا التَّصديق الرَّبّاني لرؤيا رسولهِ ﷺ، فإذا ضُمَّ إليهما دلالةُ القسَمِ في الآية؛ تكون المؤكِّداتُ الدّالَّة على تحقُّق وقوع هذا التَّصديق متعدِّدةً ومتنوِّعة، فإذا انضمَّ إلى هذا التّأكيد الدّلالي وقوعُ المضمون بالفعل؛ وهو دخولُهُ ﷺ مكَّة لأداء العمرة سنةَ سَبْعٍ في عُمرة القضاء، ثُمّ دخولُه مكَّة فاتحًا إيّاها سنةَ ثمانٍ مِنَ الهِجْرة، فلا يبقى ثمَّت مكان لتَشْكيكِ مُشَكّك، ولا لإرجافِ مُنافِقٍ.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿صَدَقَ﴾، وبيان وجْهِ تعدّيه إلى مفعولَيْن:

تـعـدّي فِـعْـل (صـــدق) إلى مَـفْـعـولَـيْن مِـن بـابِ الـحَـذْفِ والإيصالِ

عُبِّر بالفعل الماضي ﴿صَدَقَ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ للدّلالةِ على تحقُّق مضمون الفِعْلِ. والفعلُ ﴿صَدَقَ﴾ تعدّى هنا إلى مفعولين، وهو نظيرُ قولك: صَدَقْتُ زيدًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 198.

الحديثَ[1]. فـ (زيدًا) و(الحديثَ): مفعولا (صَدَق). والأصل أنَّه يتعدّى بنَفْسِه إلى مفعولٍ واحدٍ، ويتعدَّى إلى المفعول الثّاني بحَرْفِ جَرٍّ، وعلى هذا فكونُ الفعلِ في الآيةِ مُتَعَدّيا إلى مفعولين؛ هو على تقدير حرفِ جرٍّ محذوفٍ، والمسمّى: الحذفَ والإيصالَ[2]، أي: على حذفِ الجارِّ وإيصالِ الفعلِ إلى المجرور بالعَمَل فيه النَّصبَ. وأصل الكلام: صدَقَ اللّه رسولَه في الرُّؤيا، كقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23][3].

الغرَضُ مِن الإسنادِ إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

طَمأنَةُ أهلِ الإيمانِ والرَّدُّ على إرجافِ أهلِ النِّفاق

أُسْنِد الفعلُ ﴿صَدَقَ﴾ إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله سُبحانَهُ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ لبَثِّ الاطمئنانِ في قلوبِ المؤمنين إلى تحقُّق وعد اللّه تعالى، ولزَعْزَعةِ إرْجافِ المُرْجِفينَ بسبَبِ تأخُّر دخولِهم مكَّة، حيثُ دخَلوها سنةَ سبعٍ؛ لأداء العُمرة، التي سُمّيت عمرةَ القَضاء أو القضيَّة. ولأنَّ الإخبارَ بذلك هو مِنَ الغيب الّذي لا يعلمه إلّا اللّه سُبحانه، فكان في الإسنادِ إلى اسمه الأحسن مُفيدًا القصرَ والاختصاصَ بطريقِ الإيماءِ، وأنَّه صدقَ رؤيا نبيِّه لكونه الجامع لجميع صفاتِ الجلال والكمال والجمال، وهذا الجَمْعُ خاصٌّ به، فيكون صدقُه الرُّؤيا خاصًّا به كذلك. وهذه الآية نزلت قبل أداءِ عُمرة القضاءِ، بقرينة قوله سبحانه في الآية: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ بجملة الاسْتِثْناءِ ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لِتُحَقِّق ما ذُكِرَ من تبشيرِ المؤمنين، والرَّدِّ على المُرْجِفين.

الغرض مِن الإضافة ﴿رَسُولَهُ﴾:

إبرازُ عُلوِّ منزلةِ النَّبيِّ ﷺ

أُضيفَ لفظُ (رسول) إلى الضَّمير العائدِ إلى اللّه سُبْحانَهُ في قوله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ﴾ تشريفًا للمضافِ؛ وهو النَّبيُّ ﷺ،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 139.

(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 67.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 198.

وفي ذلك إبرازٌ لمكانته ومرتبته المنيفة عندَ ربِّه ﷻ، وتنبيهٌ إلى وثاقةِ الصِّلةِ بينَه وبين الله تعالى، ومن مُقْتَضى ذلك تأييدُه ونصرُه وتصديقُ ما رأى وتحقيقُه.

الغرَضُ مِن تعريف لفظ ﴿ٱلرُّءۡيَا﴾:

الرُّؤيا معهودَةٌ معلومَةٌ

(أل) في ﴿ٱلرُّءۡيَا﴾ من قول الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ للعَهْدِ العلميِّ؛ والمقصودُ تلك الرُّؤيا التي رآها رسولُ الله ﷺ في منامِه، وقَصَّها على أصحابه أنَّ الله سيفتحُ له مكَّة، وسيدخل المسجدَ الحرام.

سرُّ التَّقييد بالجارِّ والمجرور ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾، ومعنى الباء ودلالتُها:

رؤى الأنبياء عليهم السلام حقٌّ، والواقع يصدِّقها ويطابِقُها

الباءُ في ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ يُراد بها الملابسةُ، وقوله: ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ صفة لمصدر محذوفٍ، والتَّقدير: صِدْقًا متلبِّسًا بالحقِّ؛ أي: بالفرض الصَّحيح والحِكمة البالغة؛ وهو ظُهور حالِ المُتَزَلْزِل في الإيمانِ والرّاسخ فيه، ولأجل ذلك أُخِّر وقوعُ الرُّؤيا إلى العام القابل. أو هوَ حال من الرُّؤيا؛ أي: متلبِّسة بالحقِّ ليست من قبيلِ أضغاث الأحلام[1]. فإنَّ ما رآه ﷺ كائنٌ لا محالة في وقتِه المُقَدَّر له وهو العام القابل[2]. وذلك أنَّ رُؤى الأنبياءِ عليهم السلام حقٌّ، لا يشوبُها شيء من أضغاث الأحلام؛ لأنَّهم معصومون من تسلُّط الشَّياطين. وقد طابقَ هذا الخبرُ الواقعَ؛ حيث دخل الرَّسول ﷺ مكَّة في السَّنة التي بعد الحديبية؛ وهي سنةُ ثمانٍ مِنَ الهجرة، وهل الصِّدق إلّا مطابقة الخبر للواقع، ومطابقة الواقع له؟؛ فالرُّؤيا إذا نسبتَها للواقع؛ طابَقَتْه، فكانَ صِدْقًا، وإذا نَسَبْتَ الواقع إليها؛ طابَقها، فكانت حقًّا[3].

وجوَّز بعضُ أهل العلم أن تكونَ الباءُ للقسَم، والمُقْسَمُ بِهِ هو (الحقّ) الّذي هو اسمٌ لله تعالى[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 273.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 131، وشيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي: 7/ 626.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 333.
(4) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 92، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 113.

تحقُّق دخول مكَّة وتأكيدُهُ

موقع جملةِ ﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾ ممّا قبلَها:

جملة ﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ جوابُ القسَمِ المحذوفِ المدلولِ عليهِ باللّام الموطِّئة له في قوله: ﴿لَّقَدۡ﴾، والتَّقدير: واللّه لَتَدۡخُلُنَّ المسجدَ الحرام.

وعلى القولِ بأنَّ الباءَ في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ قسَمٌ؛ فإنَّ قوله: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ يكون جوابَه[1]. والأوَّل أظهر. ولامُ القسَمِ الدّاخلة على جوابه مفيدة لتأكيدِ تحقُّق مضمون الخبر. وأوثر التَّعبير بالفعل المُضارع في (تدخلنَّ)؛ لدِلالَته على الاستقبالِ، فالآية الكريمة قد نزلت قبلَ تحقُّق عمرة القضاءِ وفتحِ مكَّة، كما يُؤْذِنُ بذلك قولُه تعالى: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

ويجوز أن تكون جملةُ ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ مستأنفةً استئنافا بيانيًّا عن جملة ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾، وذلك لأنَّ الجملة تورِثُ سؤالًا عن توقيتِ ظهورِ تأويل هذه الرُّؤيا، فجاء الجواب في قوله: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾، أي: سيكون ذلك في المستقبل لا محالةَ. وعلى هذا ينبغي الوقفُ عندَ قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾؛ ليَظهَرَ مَعْنى الاستئنافِ[2].

الإيماءُ إلى شرف المَسجد الحرامِ وعَظَمَتِه

سرُّ التَّعبير بالاسم الظّاهر في قوله: ﴿ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ دون الضّمير:

عُبِّر بالاسم الظّاهر ﴿ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ دون الضَّمير الرّاجعِ إليه، فلم يرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (لَتَدْخُلُنَّه) مع تقدُّم ذِكرِه قبلُ في قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾؛ لطول الفصلِ بينَهُما، ولأنَّ في الإظهارِ تشريفًا وتعظيمًا للمسجد الحرامِ. والتَّعبير بالمسجد الحرامِ مرادًا به الحَرَمُ كُلُّهُ؛ إمّا على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 113.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 199.

سبيل الكناية، أو على أنَّه مجاز مرسل علاقته الجزئيَّة، لكون المسجدِ الحرام أشرفَ ما في حدودِ الحرَم؛ وهوَ قد نالَ شرفَها بوجودِه فيه. على أنَّ بعض العلماءِ يرى أنَّ المسجدَ الحرامَ يُطلَقُ على الحرَمِ كُلّه ولا يختصُّ بمسجدِ الكعبةِ[1].

الغرض من تعليقِ العِدَة بالمشيئة، ودلالة الاعتراضِ بها:

تعليمُ العِبادِ أدبَ الاستثناءِ بالمَشيئَةِ

في تعليق العدَة بالمشيئة في قولهِ تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ تعليمٌ للعباد أن يُقدِّموا المشيئة عندَ كُلِّ عِدَةٍ في المستقبل، حيث اسْتَثْنى اللّه تعالى فيما يَعلم؛ ليَسْتَثْنيَ الخلقُ فيما لا يعلمونَ[2]. وهو من حُسن الأدب، فكلُّ شيء لم يَحِن موعِده ولم يقَعْ؛ فإنَّه لا يمكن الجزمُ بوُقوعه في المستقبل، ولا يُذكَر إلّا مقيَّدا بمشيئة اللّه تعالى. وفي ذلك تأكيدٌ لمضمون قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: 23 - 24]. أو أنَّ غرضَ جُملَةِ الاستثناءِ هذه الإشعارُ بأنَّ بعضَهُم لا يدخلونَ المسجدَ الحرامَ؛ لموتٍ أو غَيبةٍ أو غيرِ ذلكَ، أو أنَّها حكايةٌ لما قاله مَلَكُ الرُّؤيا لرسولِ اللّه ﷺ، أو لما قالَه ﷺ لأصحابِه[3]. وفي هذا جوابٌ عمّا يُقال مِن أنَّه تعالى خالقٌ للأشياء كلِّها وعالمٌ بها قبل وقوعها، فكيف وقعَ التَّعليق منه تعالى بالمشيئة؟ أو ما يقال: إنَّ المخبِر إنَّما يعلِّق ما أخبر به بالمشيئةِ إذا كان له تردُّد وشكٌّ في وُقوعه، واللّه تعالى منزَّه عن ذلك؛ فما وجه تعليقِ موعوده بالمشيئةِ؟ فكلُّ هذا يُجاب عنه بما تقدَّمَ. وفي هذا أيضًا تعريضٌ بأنّ وقوعَه مِن مشيئته تعالى، لا من جَلادَتهم وتدبيرهم[4].

(1) محمد علي آدم الإثيوبي، ذخيرة العقبى: 8/ 460.

(2) شيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي: 7/ 627.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 113.

(4) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 67، وشيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي: 7/ 627.

سِرُّ التَّقييد بالحال ﴿ءَامِنِينَ﴾:

نَشْرُ الطُّمأنينة في قلوبِ أهلِ الإيمانِ

لفظُ ﴿ءَامِنِينَ﴾ من قول الله تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ حالٌ من فاعل ﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾ وهو واوُ الجماعةِ المحذوفةُ لِتوالي الأمثالِ. وغرض ذِكْرِ هذه الحال بثُّ الطُّمأنينة في قلوب المؤمنين وتأكيدُ ما سبق ذِكره من إنزالِ السَّكينة في قلوبهم.

سِرُّ التَّقييد بالحالِ ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ و﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾:

الإيماءُ إلى تَمَكُّنهم من إكمالِ العُمرَة

لَفْظا ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ و﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ منصوبانِ على الحالِ مِن فاعلِ ﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾ مثل ﴿ءَامِنِينَ﴾، ويجوزُ أنْ يكونَ لفظ ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ حالًا مِنْ ﴿ءَامِنِينَ﴾، فتكون متداخلةً[1]، و﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ معطوفة على ﴿مُحَلِّقِينَ﴾؛ وهي في المعنى حالٌ مِثْلُها. والمعنى: أنَّكم ستدخلونَ مكَّة آمنين وتتمكَّنون من أداء العُمرَةِ، وأنَّ بعضَكم سَيَحْلِقُ شعرَه وبعضَكُم سيُقَصِّره إتمامًا لنُسُكِ العُمرَةِ. والتَّقْييد بالحالِ في قوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ﴾ كنايةٌ عن تمكُّنهم من إتمام العُمرَة[2] التي مُنِعوا منها عامَ الحُديبية، وقد أنْجَزوها بعدَ هذا الوعدِ في العام الموالي، وذلك عامَ سبعٍ في عُمرة القضاء، ثُمَّ فتحوا مكَّة عامَ ثمانٍ، وحَجّوا مع الرَّسول ﷺ حجَّة الوداع عام عَشْرٍ مِنَ الهجرة، فأُنْجِزَ الوعدُ على أتَمِّ وجه وأكمله.

نُكْتَةُ التَّضعيف في ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ و﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾، وسِرُّ التَّرتيب بين الحالين:

الحَلْقُ في الحجِّ والعمرة أفضَلُ مِنَ التَّقصير

في التَّعبير بصيغة التَّفعيل ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ فاعلي الحَلْق كثيرون، وكذا ما تعلَّق بفاعِلي التَّقصير، كما يدلُّ عليه التَّضعيفُ في لفظ ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾. وفي تَقْديم المحلِّقين إيماءٌ إلى أنهم أكثَرُ عددًا من المقصِّرين[3]، أو فيه ترغيبٌ للعبادِ أن يكونوا في زُمرة المحلِّقين؛ لكون الحَلْقِ في النُّسكِ أفضلَ.

---

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 719.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 200.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 334.

موقعُ ﴿لَا تَخَافُونَۖ﴾ ممّا قبلها:

تعدُّد المعاني بتعدُّد موقعِ الجُملَة

الجملةُ في قول الله تعالى: ﴿لَا تَخَافُونَۖ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ مستأنفَةً استئنافًا بيانيًّا، كأنَّه قيل: كَيْفَ حالُهم بعد الدُّخول؟ فأُجيبَ بأنَّكم لا تخافون بعد الدُّخول[1]، ويكون بين الجملَة وما قبلَها شبهُ كمالِ الاتِّصالِ. وفائدة الاستئنافِ بيانُ أنَّهم لا يخافون بعدَ تحقُّق ذلك الوعد بالدُّخول؛ لئلّا يظنّوا أنَّ الأمن حاصلٌ بالدُّخول وحدَهُ، وأنَّه غير مستمرٍّ معهم. فإنَّ الدُّخول حال الأمنِ لا يستلزِمُ الأمنَ بعدَهُ، ولذا قال سبحانَهُ: ﴿لَا تَخَافُونَۖ﴾ أي: لا يتجدَّد لكم خوفٌ بعد ذلك إلى أن تدخلوا عليهم عامَ الفتح قاهِرين لهم بالنَّصر[2]. ويجوز أنْ تَكونَ جملة ﴿لَا تَخَافُونَۖ﴾ حالًا ثالثةً من فاعل ﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾ وهو واوُ الجماعةِ المحذوفةُ لتوالي الأمثالِ؛ وهيَ حالٌ مؤكّدةٌ[3]. ويجوز أنْ تكونَ حالًا من ضمير ﴿ءَامِنِينَ﴾ أو ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ و﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾. فإن كانَت حالًا مِنْ ﴿ءَامِنِينَ﴾ أو حالًا من فاعل ﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾ فهي حالٌ مؤكِّدةٌ، ويكونُ لفظُ ﴿ءَامِنِينَ﴾ حالًا مقارِبةً، ويكون ما بعدها - أي: ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ و﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ - حالًا مقدَّرةً[4]، إلاَ أنَّ قولَه: ﴿لَا تَخَافُونَۖ﴾ إذا جُعِل حالًا؛ فإنَّها مقارنةٌ أيضًا[5].

الفَرق بين الأمنِ ﴿ءَامِنِينَ﴾ ونفيِ الخَوْفِ ﴿لَا تَخَافُونَۖ﴾:

بيان كمالِ الأمنِ بالنَّصِّ على استمرارِ عدَمِ الخَوْفِ

تعقيبُ قولِه: ﴿لَا تَخَافُونَۖ﴾ بعد قولِه: ﴿ءَامِنِينَ﴾ مع أنَّ أصلَ المعنى قد يكون واحدًا؛ فيه فائدةٌ جليلةٌ؛ وهو أنَّ في النَّصِّ على عدمِ الخوف بعد ذِكْرِ الأمن دلالةٌ على استمرار انتفاءِ الخوف، وفيه بيانُ كمال الأمنِ؛ وذلك لأنَّ الشَّأنَ بعد الحَلْقِ أنْ يَخْرُجَ الإنسانُ

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 94.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 334.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 113.

(4) القول بأن: (محلقين) و(مقصّرين) حالان مقدرتان، يُدفعُ به ما قد يقال: إنّ حال الدُّخول هو حال الإحرام، وهو لا يتأتى معه حلق ولا تقصير، يُنظر: حاشية الجمل: 7/ 228.

(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 719، 720.

عن الإحرام، فلا يحرُم عليه القِتال، وكان عند أهل مكَّة يحرمُ قِتال مَن أحرم ومَن دخل الحرمَ، فقال: تَدْخلون آمنين، وتَحلِقون، ويبقى أمنُكُم بعدَ خُروجِكم عنِ الإحرام[1].

معنى الفاءِ ودِلالَتُها في قوله: ﴿فَعَلِمَ﴾:

الفاءُ لِتَرْتيبِ الأخبار لا لتَرْتيب المُخْبَرِ به

الفاءُ في ﴿فَعَلِمَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ﴾ عاطفةٌ ما بعدها على جملةِ ﴿صَدَقَ﴾، والتَّرتيب الّذي تُفيده الفاءُ ليس ترتيبًا وجوديًّا زمنيًّا، وإنَّما هو ترتيبٌ ذِكْريٌّ؛ لأنَّ عِلْمَ اللّه تعالى أزليٌّ سبق وجودَ كلِّ الأشياءِ، ومِنْها ما تضمَّنته الآية من أخبارٍ، فالفاءُ لِتَفْريعِ الأخبار لا لتفريع المخبَر به؛ إذْ عِلْمُ اللّه سُبحانَهُ سابِقٌ على دخولِهم وعلى الرُّؤيا المؤذنةِ بدُخولهم[2].

دلالة التَّعبير بالفِعْلِ الماضي (علم):

علمُ الله تَعالى أزليٌّ

عبّر عَن علم اللّه تعالى بصيغةِ الفعلِ الماضي في قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ﴾؛ للدّلالة على سَبْقِ تحقُّقه لِوقوع المعلومِ المخبَر به في الآية الكريمةِ؛ وهو دُخولُهم المسجدَ الحرام آمنين، وكذا الرّؤيا المباركة التي آذنَت به.

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مَا لَمۡ﴾:

كثرةُ الفَوائد والعَوائد التي نالَها المُؤْمِنون مِن تأخُّر دخولهم الحرَمَ

﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ﴾ اسم موصولٌ بمعنى الّذي، والمرادُ به الحِكْمَةُ الّتي عَلِمَها اللّه تعالى وجَهِلوها هُم حينَ كفّ أيديَهم عَنِ القتالِ؛ لئلّا يَقعوا في خَطيئَةِ قَتلِ المؤمنين المُسْتَخْفين بينَ المشركين؛ وهو الّذي ذُكر في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ أي: إنَّكُم لَو لَم تُصالِحوهم في تأخيرِ الدُّخول إلى السَّنة القابلة، ودخلتُم عليهم في هذه السَّنة عنوةً بالمُقاتلة والحربِ؛

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 87.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 200.

لأهْلَكْتُم المؤمنين والمؤمنات بغيرِ علم، ولأصابَتكُم منهم معرَّة[1]. فَبِعِلْمِه سُبْحانه عافاكُم مِن هذه المعرَّة، فَكَفَّكم عن القتالِ. ولَمّا كانت هذه الحكمةُ مُبْهَمَةً عنهُم خافيةً عليهم قبلَ أن يَكْشِفَها اللّه تعالى لهم؛ أوثِرَ التَّعبير بـ ﴿مَا﴾ دون (الّذي). أو لأنَّ ﴿مَا﴾ أدلُّ على العموم وعدمِ التَّعيين؛ لكونِه اسمًا موصولًا مشتركًا. وفي ذلك إيماءٌ إلى كثرة الفوائدِ التي جناها المؤمنون بهذا التَّأخير عَن دخول البيت الحرامِ، ولم يكونوا يتوَقَّعونها. ومنها أنَّه ﷺ لَمّا رجَعَ من الحديبية، مَضى منها إلى خيبرَ فَفَتَحَها، ورجع بأموالِ خيبرَ وأَخَذ مِنَ العُدَّة والقوَّة أضعافَ ما كان فيه في ذلكَ العامِ، وأقبَل إلى مكَّة على أُهْبَةٍ وقوَّة وعُدَّة بأضعافِ ذلكَ[2].

دلالة النَّفي بـ ﴿لَمْ﴾، ودلالة التَّعبير بالفعل المضارع ﴿تَعْلَمُواْ﴾:

عدَمُ عِلْمِ العِباد بالحِكَمِ الإلهيَّة حتّى يُعْلِمَهُم الله تَعالى بِها

﴿لَمْ﴾ حرفُ نفيٍ وجزمٍ للفعل المضارع وقَلْبٍ لدلالَته مِنَ الحالِ أو الاستقبالِ إلى دلالته على المُضيِّ، فالفعلُ ﴿تَعْلَمُواْ﴾ وإن كانَ بصيغة المُضارع، إلّا أنَّ دخول ﴿لَمْ﴾ عليهِ؛ قلبَ معناهُ إلى الماضي. وأوثِرَ النَّفي هنا بـ ﴿لَمْ﴾ للدّلالة على نفي عِلْمِهم بالحكمة من كفِّهم عن قتال المشركين عام الحُديبية، حتّى أبرزَ اللّه تعالى لهم حكمةَ هذا الكفّ بعد ذلك، وهو وجودُ مؤمنين مُسْتَخْفين في صفوفِ المُشْرِكين، فعَلِموا بذلك هذه الحكمةَ بعدَ أن غابَت عنهم أوَّلَ الأمر. وفي اختيار حرف النَّفي ﴿لَمْ﴾ أيضًا فائدةٌ أخرى؛ وهو أن يُقْرَنَ معها الفعلُ المضارعُ؛ إذ هيَ مختصَّةٌ به، فيكون النَّفيُ متسلِّطًا على المضارع، وهو وإن كان مدلولُهُ هنا ماضيًا؛ إلّا أنَّ لفظَهُ مفيدٌ استمرارَ نفي عِلْمهم حتّى أعلمهمُ اللّه تَعالى بذلكَ.

(1) شيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي 7/ 628.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 291.

معنى الفاءِ ودِلالَتُها ﴿فَجَعَلَ﴾:

طَمأنَةُ نُفوسِ المُؤمنينَ وإخمادُ فِتنَةِ المُنافقينَ

الفاءُ في ﴿فَجَعَلَ﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ عاطفةٌ ما بعدها على ما قبلها. والتَّعبير بها يدلُّ على التَّرتيب الزَّمنيّ والتَّعقيب الفوريّ بلا تراخٍ، بل إنَّه قد أُنْجِز بلا تأخيرٍ. فقد كان فتحُ خيبرَ المُشار إليه في الآية في قولِه تعالى: ﴿فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ عَقِبَ عَوْدَته ﷺ من الحُديبية مباشرةً؛ حيثُ سَكَنَت به قلوبُ المؤمنين وأُخمدت النّار التي حاول المنافقون والّذين في قلوبهم مرضٌ إضرامها في قلوب المؤمنين، فهدأت ثورَةُ أنفُسِهم بنصر اللّه تَعالى واطمأنَّت.

دلالة التَّعبير بفعْلِ الجَعْلِ مادَّةً وصيغةً:

تحقُّق الفَتحِ في المستقبَل حتّى كأنَّه وقع وانْقَضى

أوثر التَّعبير بالفعل (جعل) في هذا التَّركيب، فقال سُبحانَهُ: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ دون أن يَرِدَ النَّظم القرآنيُّ: (ففَتَحَ لكُم من دون ذلك فتحًا قريبا) أو نحو ذلكَ، ليفيد أنَّ هذا الفتح قد أُنْجِز دون تأخيرٍ، فقد كان فتحُ خَيبر عَقِبَ انصرافه ﷺ عن الحُديبية[1]. وفيه أيضًا دِلالةٌ على أنَّ أمر هذا الفتح عجيبٌ، وأنَّه ما كان ليحصُل مثلُه لولا أنَّ اللّه تعالى كوَّنه. والتَّعبيرُ بصيغة الماضي في (جعل) فيه تنزيلُ المستقبَلِ المُحقَّق منزلةَ الماضي؛ أو عُبِّر بالمُضيِّ لتضمين فعل (جعَلَ) معنى (قَدَّرَ)[2].

معنى ﴿مِن﴾ ودلالَتُها في قوله: ﴿مِن دُونِ﴾:

أثَرُ معاني الحُروف في بيانِ المَعاني القرآنيّة

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ يجوزُ أن تكون ابتدائيَّةً، أي: فابْتَدَأ لَكُم مِن قبلِ تحقُّق مصداقِ الرُّؤيا فتحًا قريبًا. والفتح القريبُ هو فتح خيبرَ الذي كان سنة سبع مِن الهجرة، ومِن شأن وُقوعه قبلَ دخولِهم مكَّة كما وُعِدوا أن يَدْخُلوها وهُم مُنْتَشون بنَشْوَةِ النَّصر، فتَقْوى عَزائِمُهم.

---

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 95.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 200.

الغرض من التَّعبير باسم الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الإشارَةُ إلى عُلوِّ مكانة البيتِ الحرام، وشرَفِ نُسُكِ العُمرة

جاءَ التَّعبير باسم الإشارة الدّالِّ على البُعْدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ للإيماء إلى علوِّ منزلة البيت الحرام الّذي كانت تَتوقُ أنفسُهم إلى دُخوله، وفيه بيانُ علوِّ مكانة النُّسك الّذي بذَلوا لأجلِ إتمامه كلَّ الجُهْد، فعانوا مِن الصَّدِّ عن البيت الحرام بأنِ انتظروا عامًا كاملًا حتّى يسّر اللّه تعالى لهم العودةَ إليه في عمرة القضاء. ومن أهل العلْم مَن يرى أنَّ اسم الإشارةِ يُرادُ به فتحُ مكَّة[1]، ويأباهُ أنَّ فتح مكَّة لم يقع في العام القابل من عام الحُديبية، بل كان في السَّنة الثّامنة[2]. فصُلْحُ الحُديبية كان سنة سِتٍّ، وكان فتح مكَّة سنة ثمانٍ، وبينَهُما سنةُ سَبْعٍ التي كانت فيها عمرةُ القضاء.

الغرض مِنْ تقديمِ ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ على المفعولِ به ﴿فَتۡحٗا﴾:

التَّنفيسُ عن المؤمنين بفَتحِ خَيْبَرَ

قُدِّم ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ على المفعولِ به ﴿فَتۡحٗا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ لإرادةِ الاهتمام بذلك النَّصر الّذي شرحَ اللّه تعالى به صُدور المؤمنين؛ وهو فَتحُ خيبرَ الّذي انْتَشَوْا به، وأُزيلَ عَنْهُم ما لاقَوه من عناء وحزنٍ نتيجةَ صَدِّهم عن دخولِ البيتِ الحرام عامَ الحُديبية. ويُضافُ إلى هذا: أنَّ تقديمَ ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ وما ترتَّب عليه من تأخير ﴿فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ فيه مراعاةٌ للتَّناسُبِ الصَّوتي للآيِ القرآنيَّة.

الغرَضُ مِن وصفِ الفَتحِ بالقُرْب:

سُرْعَةُ جَبْرِ الله تعالى لقُلوبِ أهلِ الإيمانِ

وُصِفَ الفتحُ بالقُرْبِ في قول اللّه ﷻ: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ لكونِه قريبا من الرُّؤيا، فيكون الفَتحُ هو صُلْحَ الحُديبية، أو أنّه كانَ قريبًا مِنَ العَوْدَةِ مِن الحُديبية؛ وفي ذلك إشارةٌ إلى فتح

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 346.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 500، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 95، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 275.

خيبرَ الّذي أعقَب العودةَ مِنَ الحُدَيبية، وعلى هذا أو ذاكَ - أو على كليهما معًا - فإنَّ الوَصْفَ بالقُرْب دليلٌ على أنَّ اللّه تعالى عوّض المؤمنين ونفّس عنهم وشرحَ صُدورَهُم في وقتٍ قريبٍ بعدَ المُعاناة التي عانَوْها بسبب صَدّهم عنِ البيت الحرام، وأعادَ لهم اليقينَ في قُلوبِهم، بحيث لم يُترَكْ لإرجافِ المُنافقين وتشكيكِهم مكانٌ في هذه القلوبِ الطّاهرةِ.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨﴾ [الفتح: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

زيادةُ تَصديقِ الرُّؤيا النَّبويّة تحقيقًا وتأكيدًا

لمّا أخبر اللّه تعالى في الآية السّابقة بالأمور الجليلة الدَّقيقة المبنيَّة على إحاطة العلم؛ وهي أنَّه قد صَدَقَ رسوله ﷺ الرُّؤيا بالحقِّ، وأنَّهم سَيَدْخُلون المسجدَ الحرام آمنين؛ زادَ هُنا هذا التَّصديق تحقيقًا وتأكيدًا وتبشيرًا للمؤمنين بفَتحِ مكَّة بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾[1]. وأيضًا فإنَّه لمّا كانت واقعَة عدم دخول المسجد الحرام عام الحُديبية مع إخباره ﷺ برُؤياه ممّا تأثَّرت بها قلوبُ بعضِ المؤمنين، وخَفيَت عليهم حِكمَتُها، فبَيَّن تعالى حِكْمَتها ومنفَعَتها، وهكذا سائِر أحكامه الشَّرعية؛ ذكَر هُنا أنَّها كُلَّها هُدًى ورحمةٌ[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾: (هدى) أصل الهُدى: الرَّشادُ والبَيانُ والدّلالةُ بلُطفٍ إلى ما يوصِلُ إلى المَطلوبِ، وهو يُؤَنَّثُ ويُذَكَّرُ، وهو لازِمٌ ومُتَعَدٍّ، يُقال: هَداه هدًى وهَدْيًا وهِدايَةً وهِدْيَةً، وهَداهُ للدّين وإلى الدّين، أي: أرْشَدَهُ إليه وبَيَّنَهُ له، وعَرَّفَهُ به، وضِدُّه: الضَّلالُ[3]. والهِدايَةُ: الإرْشادُ على المَقْصِدِ النّافِعِ والدِّلالَةُ عَلَيْهِ[4]. والمقصودُ بالهُدى في

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 500، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 335، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 201.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 795.

(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (هدي)، وابن سيده، المحكم: (هدي)، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (هدى)، وابن منظور، لسان العرب: (هدى)، والزبيدي، تاج العروس: (هدي)، والجرجاني، التعريفات، ص: 277، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص 343.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 101.

قَوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ الإرشادُ إلى ما فيهِ خَيْرُ النّاسِ في الحالِ والِاسْتِقْبالِ، وأهمُّ ذلك: التَّوحيد[1].

2) ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾: (حق) تدلُّ تصريفاتُها على إحكام الشَّيء وصِحَّته. فالحقُّ: نقيض الباطلِ، ثُمَّ يرجِع كلُّ فرع إليه بجودَةِ الاستخراجِ وحسن التَّلفيق[2]، وحَقَّ الشَّيْءُ يَحِقُّ حَقّا؛ أي: وجَبَ وُجوبًا، ومنه قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [الأعراف: 105]، فمعنى ﴿حَقِيقٌ﴾ [الأعراف: 105]: مَحقوقٌ، كما تقول: واجِبٌ[3]، والحقُّ: واحد الحقوقِ. والحَقَّةُ: أخصُّ منه. يقال: هذه حَقَّتي، أي: حقّي[4]. وأصلُ الحَقّ: المُطابقَةُ والموافقَة[5]، ودينُ الحقِّ في قول اللّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ هو دين الإسلامِ[6].

3) ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾: (ظهر) تَدُلُّ اشتقاقاتُها على قوَّةٍ وبُروزٍ. يُقال: ظهَر الشَّيء يَظْهَرُ ظهورا فهو ظاهِرٌ؛ إذا انْكَشَفَ وبَرَز. ولذلكَ سُمّي وقتُ الظُّهر والظَّهيرة بذلك؛ لأنَّه أظْهَرُ أوقاتِ النَّهار وأَضْوَؤُها[7]، والظَهْر من الأرض: ما غَلُظ وارتفع، ومِنَ الإنسان والحيوانِ: خِلافُ بَطْنِه. وظاهِرُ كلِّ شيء: أعلاهُ[8].

4) ﴿ٱلدِّينِ﴾: (دين) تدور تصريفاتُها على جِنْسٍ مِنَ الانقيادِ والذُّلِّ[9]. والدّينُ يقال للطاعة والجزاء، واستُعير للشَّريعة، والدّينُ كالملّة، لكنّه يُقال اعتبارا بالطاعة والانقياد للشَّريعة[10]، ومن فروع استعمالِ الدّين: المِلّةُ؛ وهي عقيدةٌ لازمة في القلب، كما قال تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ [الكافرون: 6]، فكلُّ لفظ (دين) ورد في القرآن هو بِمَعْنى المِلَّة والعقيدةِ إلّا ما جاء أنَّه بمعنى الجزاء والحساب، كالواردِ في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 344.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(3) الخليل، العين: (حق).
(4) الجوهري، الصحاح: (حقق).
(5) الراغب، المفردات: (حق).
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 113.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظهر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دين).
(10) الراغب، المفردات: (دين).

﴿٤﴾ [الفاتحة: 4][1]، ومَعْنى قولهِ تَعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾ أي: ليُعْليَهُ على جِنْسِ الدّين، أي: المللِ جميعًا[2].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

بنـاءُ ديـنِ الإسـلامِ على العـلمِ النّافع والعمل الصّالِح

يُبَيِّن اللّه سُبحانَهُ أنَّه هو الّذي أرسلَ رسوله محمَّدًا ﷺ بالبيانِ الظّاهرِ الواضح ودين الإسلام؛ فجمَعَ بذلك بين العلم النّافع والعملِ الصّالح؛ وذلك ليُعليَه فوقَ المِلَلِ جميعًا. ويَكْفيكَ - أيُّها الرَّسول الكريم - أنَّ اللّه شهيدٌ على نَصْره لكَ، ومُظْهِرٌ دينَكَ على كُلِّ دينٍ وملَّةٍ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

كونُ النَّبيِّ ﷺ مرسَلًا بالهُدى وديـنِ الحـقِّ تأكيدٌ لصِدْقِ رُؤْياهُ

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ عمّا قبله وهو قوله: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ لما بينَهما من كمال الاتِّصال، فجملة ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ﴾ مؤكِّدة للتَّحقيق المُسْتَفاد من حرف (قَد) ولام القسَم في قوله: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الفتح: 27][4]. فهي تأكيدٌ لصِدْقِ رُؤْياه ﷺ، وتبشيرٌ بفتح مكَّة لقولهِ تعالى في الآيَة: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾[5]. والمعنى: أنَّ كونَه ﷺ مُرْسَلًا من ربِّه بالحقِّ؛ دليلٌ على أنَّه سُبْحانَه لا يُريهِ في منامه غيرَ الحقِّ، فَرُؤْياهُ صادقَةٌ.

الغَرض مِن تعريف المُسْنَدِ إليه بالضَّمير ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ﴾:

لا يَعْلَمُ الغيبَ إلّا الله تعالى

جاءَ التَّعبير عن المسنَدِ إليهِ بضمير الغَيبة ﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ عائد إلى الاسم الأحسَن ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾، فكان التَّعبيرُ بالضَّمير

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دين).
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 344.
(3) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 514.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 201.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 500.

أخصَرَ لتقدُّم مرجِعِه. ومن أسرار التَّعبير بضمير الغَيْبَةِ هُنا: الإشارة إلى أنَّ هذه الرُّؤيا مِن المُغَيَّبات الّتي يقتَصِر علمُ حقيقَتِها على اللّه ﷻ، ولذا يَجِبُ التَّسليم لها والإيمان بِها فور سَماعِها[1].

الغَرَضُ مِن تعريفِ المُسْنَدِ بالمَوْصوليَّة ﴿ٱلَّذِىٓ﴾:

وجوبُ تَصْديقِ الشَّرعِ المُنَزَّلِ، واجتنابِ مَقالاتِ المُنافِقين

عُرِّفَ المُسْنَدُ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ بالموصوليَّة بعد تعريفِ المُسْنَدِ إليه ﴿هُوَ﴾ بالضَّمير لإفادةِ الاختصاصِ والقَصْرِ، والمعنى: هو وحْدَهُ[2] الّذي اختَصَّ بإرسال ذلك الرَّسول الكريم ﷺ الموصوفِ بصفاتِ الكمال، وهو الّذي بعظَمَته خصَّه بذلك الخَطْبِ الجليل والأمر الخطير[3]، وهو وحدَهُ الّذي يَعْلَمُ حقيقةَ رُؤْياهُ وأنّها صادِقَةٌ ومحقَّقة. ثُمَّ إنَّ التَّعبير بالموصول فيه تنبيهٌ على ما تضمَّنته جملةُ الصِّلة من كونه ﷺ مرسلًا من ربِّه بالهُدى ودينِ الحقِّ، وهذا أمرٌ معلومٌ لَدَيْهِم، فالتَّعبير بالموصولِ يكونُ غالبًا حيثُ يكونُ مضمونُ الصِّلة معلومًا مشهورًا؛ أي: إنَّكم أيُّها المؤمنون تعلمون عِلْمًا كاملًا أنَّ رؤيا الرَّسول ﷺ وحيٌ مِنَ اللّه تَعالى، وأنَّه ﷺ لا ينطِقُ في شيءٍ عَنِ الهَوى؛ لأنَّه مُرْسَل بالهدى ودين الحقِّ، وهذا مِن شَأْنه أن يوجِبَ عليكُم تصديقَه فيما قال وعدَمَ التَّأثُّر ولو قليلًا بِقالَةِ المُنافقين الّذين عَمِلوا على تشكيكِكُم في صدق الرُّؤيا، بلْهَ الرُّكونَ إلى كلامهم المفترى[4].

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿أَرۡسَلَ﴾:

تحقُّقُ الإرسالِ المَقْرونِ بالعِلْمِ النّافعِ والعملِ الصّالح

عُبِّر بالفِعْل الماضي ﴿أَرۡسَلَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾؛ لتَحَقُّق هذا الإرسالِ وتَحَقُّق عِلْمهم به، فقَد أرسله ربُّه ﷻ برسالَته ووَهَبَهُ مِنَ الأدلَّة البَيِّنات على صِدْقه ما يوجِبُ عليْهِم جميعًا تَصْديقَه.

(1) فاطمة شحاتة، من بلاغة التعبير القرآني في سورة الفتح، ص: 3197.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 335.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 417.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 201.

الغرَضُ مِنَ الإضافةِ في ﴿رَسُولَهُۥ﴾:

إظهارُ شرَفِ النَّبيِّ ﷺ، وإعلاءُ مَقامِه

أضيفَ لفظُ (رسول) إلى الضَّمير الرّاجعِ إلى اللّه تعالى في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ تشريفًا له ﷺ وإعلاءً لمقامه الزّاكي، وتأكيدًا على وثاقةِ الصِّلَةِ بينَه وبين ربِّه سبحانه.

معنى الباءِ ودِلالَتُها في ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾:

مُلازمَةُ النَّبيِّ ﷺ للهدى على وجْهِ الدَّوام

الباءُ في ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ للمُلابسَةِ، والمعنى: أرسلَ اللّه تعالى رسوله ﷺ مُتَلَبِّسا بالهدى. وهو أرجَحُ؛ لأنَّ مَعْنى الملابسة تُفيد كونه ﷺ هاديًا عَلى وجهِ الدَّوام والاستمرارِ، لا ينفَكُّ عن ذلك أصلًا[1]. ويجوز كونُها سببيَّة أو تعليليَّةً؛ أي: أرسله بسببِ الحقِّ أو لأجله[2]، فهو ﷺ أُرسِلَ ليكون هاديا وداعيًا إلى الحقِّ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦﴾ [الأحزاب: 45 - 46].

سِرُّ تقييد الفعلِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾:

الـهُـدى اسمٌ جامِعٌ للإيمانِ والشَّرائعِ كُلِّها

الجارُّ والمجرور ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ متعلّقٌ بمحذوفٍ؛ وهو حال من مفعولِ ﴿أَرۡسَلَ﴾؛ أي: أرسَلَ رسوله متلبِّسًا بالحقِّ، وهذا على كونِ الباء للملابسَةِ. وأمّا على كونها سببيَّة؛ فالجارُّ والمجرورُ متعلّق بـ ﴿أَرۡسَلَ﴾ لا بالمحذوفِ[3]. وجُعِلَ قولُه: ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ قَيْدًا للفعل ﴿أَرۡسَلَ﴾ للدّلالة على مَدى التّلازم بين رسالَتِه ﷺ والهُدى؛ فهي مشتملة عليه؛ بل هيَ هوَ. وأوثِر التَّعبير بلفظِ الهُدى دون ما سواه؛ لِما فيه من معنى الشُّمول لكلِّ ما يُحَقِّق النَّجاة مِنَ الإيمان والعمل، فالهُدى اسْمٌ جامعٌ للإيمان والشَّرائع كلِّها؛ إذْ الاهتداء إنَّما يَقع

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 95.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 113.
(3) شيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي: 7/ 628.

بها كلِّها[1]. فالظّاهر أنَّ المراد به ما يَعُمُّ الأصول والفروع[2]. وذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ الهُدى هو القرآنُ الّذي سمّاه الله تعالى: هُدًى ورحمَةً ونورًا[3]، وعليهِ فيكونُ التَّعبير بالهُدى: مجازًا مرسلًا، علاقته المُسبَّبيَّة؛ حيثُ أُطْلِقَ المُسَبَّب والنَّتيجة وهو الهدى، وأُريد ما كان سببًا في حُصولهِ وهو القرآنُ الكريمُ.

معنى الواوِ ودلالَتُها في ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾:

كمالُ رسالَتِه ﷺ بجَمعِها بينَ العقائدِ والأحكامِ العمَليَّةِ

الواوُ في ﴿وَدِينِ﴾ من قول الله تعالى: ﴿بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ عاطِفَةٌ، وغرضُ العطفِ بها الجمعُ بين كون رسالته ﷺ جامعةً بين الدَّعوة إلى الهدى ودين الحقِّ، وأنَّه مُتَلبِّس بهما. وعلى هذا جوّز أن يُراد بـ (الهدى) الأصول وبـ (دين الحقّ) الأحكامُ العمليَّةُ[4]. وعلى القول بأنَّ المرادَ بالهدى القرآنُ؛ يكون عطفُ (دين الحقّ) - وهو الإسلام - على (الهدى) من باب عطف العامِّ على الخاصِّ، تشريفًا للقرآن الكريم؛ وذلك من وجهَيْن؛ أحدهما: ذِكْرُهُ مرَّتين: مرَّة منفردًا على سبيل الخُصوص، وأخرى بإدْراجه ضِمنَ العامِّ. والوجهُ الآخَرُ: ذِكْرُهُ مقدَّمًا؛ فإنَّ للتَّقديمِ ضربًا مِنْ ضروبِ الشَّرفِ.

معنى اللّام ودلالَتُها في ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾:

لا ظُهورَ ولا عزَّة إلّا بالدّين الحقِّ

اللّام في ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ من قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾ هي لامُ الأجْلِ والتَّعليل. أي: أنَّ الله سُبحانَهُ أرسَل رسوله محمَّدًا ﷺ بذلكَ؛ لأجْلِ أن يكون الدّينُ الحقُّ ظاهرًا وغالبًا على المِلَلِ كُلِّها.

دلالةُ التَّعبير بالظُّهور مادَّةً وصيغةً:

الظُّهور في قول الله تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾ مراد به

(1) الكفوي، الكليات، ص: 954.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 275.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 315، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 88.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 275.

العلوُّ، والمعنى: ليُعْليَه، وهذا أصلُ مَعْنى الظهور؛ وهوَ من قولهم: أظْهَرَهُ؛ إذا جعلَه على ظَهْره، فَهو كنايةٌ عن العلوّ والارتفاعِ، وعن كونه باديًا للرّائي، ثمَّ أُطْلِق مجازًا على الشَّرف، فصار معنى أظْهَرَه: أعلاهُ، ثُمَّ شاع في ذلك وصارَ حقيقةً عرفيَّة[1]، أو يكون المراد بالظُّهور الغَلَبة على كلِّ المِلَلِ بالحُجَّة والبرهان[2]. والظّهور مِن لوازم الغلبَة وآثارها. والتَّعبير بالفعل المُضارع (يُظْهِر) يدلُّ على الاستمرارِ والدَّوام، وأنَّ دين الحقِّ يستَبْطِن في داخله كلَّ الحُجج والبراهين التي تُثْبِت في كلِّ وقت أنَّه الدّين الحقُّ، وأنَّه في هذا الباب متجدِّد الأدلَّة، حتّى إنَّ أهل كلِّ عصر يستخرجون من القرآنِ أدلَّة الصِّدق ووجوهَ الإعجاز التي فاتَت من سَبقوهُم، فيكون ما يَسْتَخْرِجونه وما يَقفون عليه من ذلك باعثًا على الهداية إلى الدّين الحقِّ.

الـدّيـن الـحـقُّ يـسـتَـبْـطِـنُ في داخلِه الحُججَ والـبراهـينَ على صِدْقِه

معنى ﴿عَلَى﴾ ودلالتُها في ﴿عَلَى ٱلدِّينِ﴾:

﴿عَلَى﴾ في قولِ الله تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ﴾ للاستعلاءِ المجازيِّ؛ وهو يدلُّ على قوّة التَّمكّن، والمعنى: ليُظْهر دينَ الإسلام على كلِّ المِلَلِ ظُهورا تامًّا متمكّنا واضِحًا، بحَيْثُ إنَّها جميعًا تَتلاشى بِجِوارِه، ويَبْقى وحدَهُ هو الدّين الحقّ الظّاهر، وكأنَّه لعلوِّه وظُهوره لا توجَدُ معه مِلَلٌ أخرى، ولخَفائها وضَعْفها كأنْ لا وجودَ لها في الواقِع. وفيه أيضًا أنَّ الله تعالى ناصرُ رسوله ﷺ بنُصْرَةِ دينه؛ فإنَّ فعل الإظْهارِ إذا عُدّي بحرف الجرِّ ﴿عَلَى﴾؛ كان مُضمَّنا معنى النَّصر أو التَّفضيل؛ أي: ليَنْصُرَه على المِلَلِ كلِّها، وليكونَ أشرفَ المِلَلِ وأغلبَها[3].

عـــلـــوُّ ديــن الإسلامِ على كلِّ ما سِواه من المِلَلِ

معنى اللّام ودلالتُها في ﴿ٱلدِّينِ﴾:

اللّام في ﴿ٱلدِّينِ﴾ من قول الله تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾

---

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 68، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 202.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 315.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/ 173.

شمول لفظ (الدّين) للمِلَل كُلِّها حقًّا كانت أو باطلًا

هي لام الجنسِ[1]؛ بحيثُ يشمَل كلَّ ما يسمّى دينًا؛ لأنَّ علوَّه كان على جميع الدّين، لَم يكُن على بعضهِ دون بعضٍ. والمراد بالدّين: ما يُدان به من الشَّرائع والمِلَل فيشمل الحقَّ منه والباطلَ[2]. فأمّا الحقُّ منهُ؛ فكالشَّرائع الإلهيَّة المُنزلةِ على الأنبياءِ السّابقينَ، وإِظْهارُهُ عليها يكون بنَسْخِ بعض أحكامِها لا نسخ أصولِها؛ لأنَّ الأصول في جميعِ الشَّرائع الإلهيَّة واحدةٌ لا تَقْبَل النَّسخ، وأمّا ظُهوره على الباطلِ منهُ؛ فإنَّهُ يكون ببيانِ بطْلانه، أو بالتَّسليط على أهله[3]. وفي الجملةِ تبشير المؤمنين وفضلُ تأكيدٍ لِما وعَدَ اللّه تعالى بِهِ مِنَ الفَتح، وفيها توطينٌ لنفوس المؤمنين على أنَّه سبحانه سيفتحُ لهم من البلادِ، ويتيحُ لهم من الغلبةِ على الأقاليمِ ما يستقلّون إليه فتحَ مكَّةَ[4].

الغرض مِنَ التَّوكيد في ﴿كُلِّهِۦ﴾:

غلبَةُ الإسلام على كُلِّ دينٍ

الغرضُ مِنْ لفظ (كلّ) في قوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ التَّأكيد على أنَّ المراد بالدّين هنا الجنسُ، فيَنْقَطِعُ بذلكَ احتمالُ أن يكونَ المرادُ به العهدَ؛ لأنَّ لفظَ (كلّ) من صيَغ العُمومِ.

معنى الواوِ ودلالَتُها في ﴿وَكَفَىٰ﴾:

تأنيس النَّبيِّ ﷺ وطَمأنَة قلبِه

الواوُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ استئنافيَّة، والجملة بعدها مستأنَفَةٌ[5]. وغرضُ الاستئنافِ تأنيسُ الرَّسول ﷺ وتثبيت فؤاده اطْمِئْنانًا إلى مراقبةِ اللّه تَعالى لهُ واعتنائه به.

وفي قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ إظهارٌ في موضع الإضمار؛ وذلك لأنَّ مقتضى الظّاهر أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وكفى بهِ شهيدًا)، كما أُضمِرَ في قوله قبلُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾، والغرضُ من الإظهارِ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 254.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 68.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 68، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 275.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 346، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 114.
(5) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 248.

استحضارُ الاسم الأحسن (اللّه) الدّالِّ على عظمة الذّات الإلهيَّة، وذلك في مقامِ الجلال والقدرةِ والهَيبة؛ ليُؤَكِّد على صدق رسولهِ ﷺ في رُؤياه وفي رسالتهِ؛ فهو سبحانه المُؤَيِّد له، والشّاهد على غلبَةِ دينهِ دينِ الحقِّ[1].

الغرَض مِن التَّذييلِ بجُملة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾:

أدلّة النُّبوّة مُظهِرَة للحقِّ مُبَيِّنة له

قولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ تذييلٌ جارٍ مجرى المثَلِ؛ لاستقلاله بالإفادةِ، وعدم افتقاره إلى ما قبله في الكشْفِ عن أصلِ المرادِ به. والغرضُ من جملة التَّذييل تثبيتُ قلبِ النَّبيِّ ﷺ ومَن معه مِن المؤمنين، فالمَعْنى: امضِ يا رسولَ اللّه في طريقك ولا تلتفت إلى أقوالهم. وكفى باللّه عليكَ وعليهِم شهيدا، فإنَّه سبحانه لا يخفى عليهِ أمرُك وأمرُهُم[2]. أو المعنى: كفى باللّه شهيدًا على رسالتهِ ﷺ؛ لأنَّه عليه السلام ادّعى الرِّسالة وأظهر اللّه تعالى الآياتِ والبراهينَ على يدهِ لتَصْديقِ دَعْواهُ، وذلك شهادةٌ منهُ تعالى عليها. وتسمية الآياتِ وأدلة النُّبوَّةِ شهادةً هو من باب المجازِ؛ بأن تكون الشَّهادَةُ مسْتعارَةً - لبَيانها وإظهارِها الحقَّ - للبراهينِ. والجامِعُ بينهما مُطْلَقُ البَيان، والبيانُ في المشبَّه به بالعبارَة، وفي المشبَّه بالدّلالة[3].

وفي الآية تسليةٌ له ﷺ عمّا وقع من سُهَيْلِ بن عمروٍ في صُلْحِ الحديبية؛ إذْ لم يَرْضَ بكتابةِ "محمّد رسول اللّه" وقال ما قال[4].

معنى الباءِ ودلالتُها في ﴿بِٱللَّهِ﴾:

تأكيدُ كونِ اللّه تَعالى شَهيدًا عَلى تَصْديقِ رسوله ﷺ

الباءُ في ﴿بِٱللَّهِ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ يُراد بها التَّوكيدُ، والاسم الأحسن (اللّه) هو فاعل (كفى) وهو مرفوعٌ محلًّا مجرورٌ لفظًا. وقوله: ﴿شَهِيدًا﴾ تمييزٌ أو حالٌ[5]. وذهب بعضُ

(1) فاطمة شحاتة، من بلاغة التعبير في سورة الفتح، ص: 3200.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/ 231.
(3) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 96.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 275.
(5) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 1/ 332، والخراط، المجتبى: 4/ 1215، وصافي، الجدول: 26/ 269.

أهل العربيَّةِ إلى أنَّ الفاعلَ في الجملةِ مُضْمَر، والتَّقدير: كفى هو؛ أي: الاكْتِفاءُ بالله، فلا تكون الباءُ على هذا صِلةً، و﴿بِٱللَّهِ﴾ - على هذا الوجه - في موضع نصبٍ لا رفعٍ، ويتعلَّق إذ ذاك بالفاعلِ. وهذا الوجه لا يَسوغ إلّا على مذهب الكوفيّين؛ حيث إنَّهم يجيزون إعمالَ ضميرِ المَصْدَر كإعمالِ ظاهرِه[1].

الغرضُ من تَنْكيرِ لفظِ ﴿شَهِيدًا﴾:

تعظيمُ شهادَةِ اللهِ تعالى وتَفْخيمُها

نُكّر لفظ ﴿شَهِيدًا﴾ في جملة التّذييل ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ تفخيمًا وتعظيما؛ ليَحْصُل كمالُ الاطمئنانِ في قلوب المؤمنين إلى وعدِ اللّه سُبحانَهُ، وتَحْصُل الخيبَة في قلوب المنافقين المُرْجِفين، فيكفي أن يكونَ اللّه تعالى وحدَه شهيدًا على صِدْقِ الرُّؤيا وتحقُّقها، وعلى صِدْقِ الدّين الّذي أرسلَ به رسوله ﷺ. ولمّا كان المقصودُ من قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ الشَّهادةَ بأنَّ الرُّؤيا صدقٌ؛ ذُيِّل ذلك بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: أجزأتكم شهادةُ اللّه تَعالى بصدق الرُّؤيا إلى أن تَرَوْا ما صدقها في الإبّانِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرسال والبعث:

التَّعبير بالإرسالِ يَقْتَضي وجودَ رسالَةٍ ونحوِها، بخلافِ البَعْثِ؛ فلا يَلْزَمُ فيه ذلكَ

عُبِّر بالإرسال دون البَعْثِ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ هنا: (هو الّذي بعث رسوله)؛ لما يدلُّ عليه لفظُ الإرسال من كونِ المُرْسَل إنّما هو محمَّل برسالة؛ أي: إنَّ اللّه تعالى قد أرسَلَ نبيَّه محمّدًا ﷺ إلى النّاس كافَّة برسالةٍ قوامُها الهُدى والدّين الحقّ. وهذا ما سوَّغ التَّعبيرَ بالإرسال وإيثارَه على التَّعبير بالبَعْث، فإنَّ الإرسالَ نصٌّ في الدّلالة على الرِّسالة؛ فإنَّك تقول: أرسلتُ فلانًا إلى

(1) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 1/ 332، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/ 523.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 202.

فلانٍ؛ إذا حمَّلتَه برسالةٍ إليهِ أو حمَّلته خبرًا، وما أشبهَ ذلك. وأمّا التَّعبير بالبعث؛ فإنَّه لا يَقْتَضي ذلك ولا يستلزِمُهُ، فقد "يبعث الرَّجل إلى الآخرِ لحاجَةٍ تخصُّه دونك، ودون المبعوث إليه؛ كالصَّبيِّ تبعثه إلى المكتب، فتقول: بعثتُه، ولا تقول: أرسلتُه؛ لأنَّ الإرسال لا يكون إلّا برسالةٍ وما يَجْري مجراها"[1]. وهَذا الفَرْقُ قَدْ تُشْكِلُ عَلَيْهِ آياتُ إرْسالِ الرّياحِ، كَما هوَ ظاهِرٌ، إلّا إنْ قيلَ: إنَّ إرْسالَ الرّياحِ يَكونُ بِرِسالَةٍ يُفْهِمُها اللّه تَعالى إيّاها ويُفْهِمُها الأَرْضَ المَيِّتَةَ، ولَكِنَّ هَذا مِنَ الغَيْبِ الذي لا يُمكِنُ الجَراءَةُ عَلَيْهِ إلّا بِدَليلٍ مِنَ الشَّرْعِ.

وفرَّقَ بعضُ أهلِ العِلم بينَهُما من وجهٍ آخَرَ؛ وهوَ أنَّ الإِرْسالَ أخَصُّ مِنَ البَعْثِ؛ مِنْ جِهَةِ أنَّ "الإِرْسالَ يُفيدُ مَعْنى البَعْثِ مَعَ العُلوِّ"[2].

وَفي تَفْسيرِ المَنارِ: تَقْريرٌ لِلفَرْقِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرى؛ وهوَ أنَّ البَعْثَ أبْلَغُ مِنَ الإِرْسالِ؛ "لِأَنَّهُ يُفيدُ مَعْنى الإثارَةِ والإِزْعاجِ إلَى الشَّيْءِ المُهِمِّ، ولَم يُذْكَرْ في القُرْآنِ إلّا في بَعْثِ المَوْتى، وفي الرِّسالَةِ العامَّةِ؛ أيْ: بَعْثُ عِدَّةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وفي بِعْثَةِ نَبيِّنا وموسى خاصَّةً، وكَذا في بَعْثِ نُقَباءِ بَني إسْرائيلَ، وبَعْثِ مَنِ انْتَقَمَ منهم وعَذَّبَهُم وسَباهُم حينَ أفْسَدوا في الأَرْضِ"[3].

وَيُشْكِلُ عَلَيْهِ ذِكْرُ إرْسالِ الرّيحِ لِلعَذابِ في مَواضِعَ مِنَ القُرْآنِ الكَريمِ، كَقَوْلِه تَعالى: ﴿فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ﴾ [الإسراء: 69]، وقَوْلِه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ [الذاريات: 41]، ولَم يُسْتَعْمَلْ مَعَهُ البَعْثُ.

وَأظْهَرُ مِنْ هَذا كُلّه ما ذَكَرَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ الغَرْناطيُّ مِنْ أنَّ الفِعْلَ (أرْسَلَ) أخَصُّ في بابِ الإِرْسالِ مِنَ البَعْثِ؛ "إذْ لا يُقالُ: أرْسَلَ، إلّا فيما كانَ تَوْجيهًا، فيهِ مَعْنى الانْتِقالِ حَقيقَةً أو مَجازًا، أمّا (بَعَثَ) فَأوْسَعُ؛ فَإنَّهُ يَقَعُ بِمَعْنى الإِرْسالِ، وبِمَعْنى الإِحْياءِ، ومنه: البَعْثُ الأُخْراويُّ"[4].

وَبِناءً عَلَيْهِ؛ فالبَعْثُ أكْثَرُ مَعانيَ مِنَ الإِرْسالِ، فَيَلْتَقيانِ في مَعْنًى، ويَنْفَرِدُ البَعْثُ بِمَعْنًى آخَرَ، وإذا جُمِعَ بَيْنَهُما بِمَعْنًى يُرادُ به التَّنْويعُ في العِبارَةِ والتَّفَنُّنُ فيها.

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 289.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 3/ 302.
(3) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 9/ 34.
(4) الغرناطي، ملاك التأويل: 1/ 216.

﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تعيينُ الرَّسولِ بعدَ التَّنويهِ به

لَمّا ختمَ اللهُ سبحانَهُ في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨﴾ [الفتح: 28]، بإحاطةِ العلمِ بالخفايا والظَّواهرِ في الإخبارِ بالرِّسالةِ؛ عيَّنَها في قوله جوابًا لِمَن يقولُ: (مَنِ الرَّسولُ المُنَوَّهُ باسمه؟): ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾[1].

التَّنويهُ بالرَّسولِ والمؤمنينَ بعدَ بيانِ صدقِ الرَّسولِ

لَمّا بيَّنَ تعالى صِدقَ الرَّسولِ ﷺ في رؤياهُ، واطمأنَّت نفوسُ المؤمنينَ؛ أعقبَ ذلكَ بتنويهِ شأنِ الرَّسولِ ﷺ، والثَّناءِ على المؤمنينَ الَّذينَ معَهُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَشِدَّآءُ﴾: أصلُ (شدد) يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ[3]، ومِن ذلكَ: الشِّدَّةُ، وهي الصَّلابةُ، والنَّجدةُ، وثباتُ القلبِ، ويقالُ: رجلٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 337.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 202، والزحيلي، التفسير المنير: 26/ 205.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شدد).

شديدٌ، أي: شجاعٌ[1]، وشدَّ اللّه مُلْكَهُ، وشدَّدَهُ: قوّاهُ[2]، والمُرادُ بـ﴿أَشِدَّآءُ﴾ هنا: جمعُ شديدٍ، وهو الموصوفُ بالشِّدَّةِ المعنويَّةِ، وهي صلابةُ المعاملةِ وقساوتُها[3].

2) ﴿رُحَمَآءُ﴾: أصلُ (رحم) يدلُّ على الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأفةِ، يُقالُ مِنْ ذلك: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إذا رَقَّ له وتَعطَّفَ عليه[4]، والرَّحمةُ: اسمُ مَصدرٍ لصفةِ الرّاحِم، وهي من صِفاتِ الإنسان، فهي رِقَّةٌ في النَّفْسِ تَبعثُ على سَوْقِ الخير لمن تَتَعدَّى إليه[5]، وإذا وُصِف به الباري تعالى؛ فليس يُراد به إلّا الإحسان المُجرَّد دون الرِّقَّة، وعلى هذا روي أنَّ الرَّحمةَ مِن اللّه إنعامٌ وإفضالٌ، ومِن الآدميّين رِقَّةٌ وتَعطُّفٌ[6]، والرُّحماء في الآية: جمعُ رحيمٍ، مبالغة في الاتِّصاف بصِفة الرَّحمة، ومعناه: مَحبَّة إيصال الخير والنَّفع إلى الآخرين[7].

3) ﴿يَبۡتَغُونَ﴾: أصلُ (بغي) يدلُّ على طلبِ الشَّيءِ، ومِن ذلكَ يقالُ: بَغَيْتُ الشَّيءَ، أي: طلبتُهُ، وبَغَيْتُكَ الشَّيءَ، أي: طلبتُهُ لكَ، والبُغْيَةُ: الحاجةُ[8]، والباغي: الَّذي يَطْلُبُ الشَّيْءَ الضّال، وأَبْغاهُ الشَّيءَ: طَلَبَهُ له وأعانَهُ على طَلَبِه[9]. والابتغاء: الاتِّخاذ، تَقول: ابْتَغَيْتُ البَيْتَ سَكنًا لي، أي: اتَّخَذْتُه[10]، ويأتي بمعنى الاجتهادِ في الطَّلبِ[11]، وهو المرادُ هنا[12].

4) ﴿فَضۡلٗا﴾: أصلُ (فضل) يدلُّ على زيادةٍ في شيءٍ[13]، ومِن ذلكَ: الفَضْلُ، وهو الزِّيادةُ والخيرُ، ويأتي بمعنى الشَّرَفِ والرِّزْقِ، ورَجُلٌ فاضِلٌ: ذو شَرَفٍ ورِزْقٍ وخيرٍ[14]، والإفضالُ: الإحسانُ، ومنهُ يقالُ: رجلٌ مُفْضِلٌ[15]، وأمّا المُتفضِّلُ؛ فهو المُدَّعي للفَضْلِ على

(1) الخليل، العين: (شدد).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (شدد).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 204.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 24.
(6) الراغب، المفردات: (رحم)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 53.
(7) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 204.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بغي/ بغا).
(10) الخليل، العين، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، وابن منظور، لسان العرب: (بغا/ بغي).
(11) الراغب، المفردات: (بغي).
(12) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 141.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فضل).
(14) الزبيدي، تاج العروس: (فضل).
(15) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).

أقرانه[1]، ويأتي الفَضْلُ بِمعنى بَقيَّةِ الشَّيءِ، والجَمعُ: أَفْضالٌ[2]، والمرادُ به هنا: الثَّوابُ[3]، أي: ثواب الجَنَّة.

5) ﴿وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾: أصلُ (رضي) يدلُّ على خلافِ السُّخْطِ[4]، ومنه الرِّضا: القَبولُ والموافَقَةُ[5]، ويأتي بِمعنى الاختيارِ والانتقاءِ، يُقالُ: رَضيَ بهذا الطَّريقِ، أي: اخْتارَهُ[6]، والرِّضوانُ: الرِّضا الكامِلُ الشَّديدُ[7]، ولمّا كان أعظم الرِّضا رضا اللّه تعالى خصَّ لفظ الرِّضوان في القرآن بما كان من اللّه تعالى، قال ﷻ: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: 27]، وقال تعالى: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ [الفتح: 29][8]، ورِضا العبدِ عنِ اللّه هو ألّا يَكْرهَ ما يَجْري بِهِ قضاؤُهُ، ورِضا اللّه عنِ العبدِ: هو أنْ يراهُ مُؤتمِرًا لأمره، ومُنتهيًا عن نَهْيه[9]، والمرادُ بالرِّضوانِ هنا: الرِّضا العظيمُ[10].

6) ﴿سِيمَاهُمۡ﴾: أصلُ (وسم) يدلُّ على أثرٍ ومَعْلَم[11]، ومن ذلكَ: الوَسْمُ، وهو التَّأثيرُ، والسِّمَةُ: الأثرُ، يقالُ: وسَمتُ الشَّيءَ وسْمًا، أي: أثَّرتُ فيه بسِمَةٍ، أي: علامةٍ[12]. والسّيما ياؤُها في الأصل واوٌ، وهي العلامةُ يُعرَفُ بها الخيرُ والشَّرُّ، قالَ اللّه تعالى: ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ [البقرة: 273][13]، والوَسْميُّ: أوَّلُ المطَرِ؛ لأنَّهُ يَسِمُ الأرضَ بالنَّباتِ، وسُمّيَ موسِمُ الحاجِّ موْسِمًا؛ لأنَّه مَعْلَمٌ يَجتمِعُ إليه النّاسُ، والسّومَةُ، بالضَّمِّ، العلامةُ تُجعَلُ على الشّاةِ وفي الحَرْبِ أيضًا[14]، والمرادُ بـ﴿سِيمَاهُمۡ﴾ هنا: علامتُهم الَّتي لا

---

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فضل).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فضل).
(3) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 114.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضي).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (رضي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وسم).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/ 149.
(8) الراغب، المفردات: (رضي).
(9) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رضي).
(10) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 215، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 114.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وسم).
(12) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (وسم).
(13) ابن منظور، لسان العرب: (وسم).
(14) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (وسم).

تُفارِقُهُم[1]، وهي أثرٌ محسوسٌ للسُّجودِ، أو الأثرُ النَّفسيُّ لهُ، أو أثرٌ يظهرُ في وجوهِهم يومَ القيامةِ[2].

7) ﴿شَطْـَٔهُۥ﴾: أصلُ (شطأ) يدلُّ على شَطْءِ النَّباتِ، وهو أن يَنْبُتَ في أصلِ الزَّرْعِ ما هو أصغرُ منهُ، والأصل شاطئ الوادي: جانبه، وشاطأتُ الرَّجُل: مشيت على شاطئٍ، ومشى هو على الشّاطئ الآخر[3]، والشَّطْءُ: فُروخُ الزَّرعِ، وهو ما خرجَ منهُ، وتفرَّعَ في شاطِئَيه، أي: جانبيهِ، وجمعُهُ: أشطاء، ويقالُ: شَطَأَ الزَّرعُ، وأشطأ؛ إذا أخرجَ فراخَهُ، وهو في الحنطةِ والشَّعيرِ والنَّخلِ وغيرِها[4]، فالمراد بالشَّطْءِ في الآية: فِراخُ الزَّرْعِ وفُروعُ الحَبَّةِ وما خَرَجَ حَولَ أُصوله[5].

8) ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾: أصلُ (أزر) يدلُّ على القوَّةِ والشِّدَّةِ[6]، قال ابن الأعرابي: الأَزْرُ: القوَّة، والأزر: الظَّهر، والأزر: الضَّعف، وبها فُسِّر قوله تعالى: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١﴾ [طه: 31][7]، وأصله من شدِّ الإزار، وأزرت البناء وآزرته: قوَّيت أسافله، وآزرته ووازرته: صرت وزيره، وأصله الواو[8]، ومن ذلكَ أيضًا يقالُ: تأَزَّرَ النَّبتُ، أي: قويَ، واشتدَّ[9]، والأَزْرُ: القوَّةُ الشَّديدةُ، وآزرَهُ: أعانَهُ، وقوّاهُ، وهو المرادُ هنا[10].

9) ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾: أصلُ (غلظ) يدلُّ على عِظَم الجُرْم وتجسُّمه مَعَ صلابةٍ[11]، ومن ذلكَ: الغِلظةُ ضدُّ الرِّقَّةِ[12]، واسْتَغلَظَ النَّباتُ والشَّجرُ، وأَغْلَظْتُ الثَّوبَ وغيرَهُ؛ إذا وجدتُه غليظًا، واستَغلَظْتُ الثَّوبَ؛ إذا تركتُ شِراءَهُ لِغِلَظه، وتغليظُ اليَمين: تشديدُها وتوكيدُها،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 141، والبقاعي، نظم الدرر: 7/ 216.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 205.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شطأ).
(4) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 114.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 216، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 208.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أزر).
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 14/ 390.
(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أزر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أزر).
(10) الخليل، العين، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أزر)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 295، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 154.
(11) جبل، المعجم الاشتقاقي: (غلظ).
(12) الراغب، المفردات: (غلظ).

ورَجُلٌ غَليظٌ: فَظٌّ ذو غِلْظةٍ[1]، و(استغلظَ) هنا معناه: صارَ غليظًا[2] بعد أن كان رقيقًا، وهو المرادُ هنا[3].

10) ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾: أصلُ (سوي) يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بينَ شيئينِ[4]، والتَّسْوِيَةُ: تَقْويمُ الشَّيءِ وتَعْديلُهُ[5]، والاستواء في كلامِ العَرَبِ على وجهين: أحدهما أن يستوي الرَّجُلُ، وينتهيَ شبابُه وقوَّته، أو يستوي عنِ اعوجاجٍ[6]، فهذان وجْهان، ووجهٌ ثالِث أن تَقول: كانَ فلانٌ مُقبِلًا على فلان، ثمَّ استوَى عليَّ وإليَّ يُشاتِمُني[7]، والاستواء في الآية معناه: الاعتدال والاستقامة، والمراد بقوله: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾، أي: فاستقام وتكامل على سيقانه التي يعلو عليها[8].

11) ﴿سُوقِهِۦ﴾: أصلُ (سوق) يدلُّ على حَدْوِ الشَّيءِ[9]، ومِن ذلكَ يقالُ: سُقْتُهُ سَوْقًا[10]، والسّاقُ للإنسانِ وغيره: ما بينَ الكعبِ والرُّكبةِ، إنَّما سُمّيَت بذلكَ؛ لأنَّ الماشيَ ينساقُ عليها[11]، ويُقالُ: امرأةٌ سَوْقاءُ، ورَجُلٌ أَسْوَقُ؛ إذا كان عظيمَ السّاقِ[12]، ومنه أيضًا السّوْقُ: معروفةٌ، وسُمّيت؛ لأنَّ الأشياءَ تُساقُ إليها ومنها[13]، والسُّوَقُ: جمعُ ساقٍ على غير قياسٍ؛ لأنَّ ساقًا ليس بوصفٍ، وهو اسمٌ على زِنة فَعَلٍ بفتحتين، وساقُ الزَّرْعِ والشَّجَرَة: الأصلُ الَّذي تَخرج فيه السُّنْبُلُ والأغصانُ، وهو المراد هنا[14].

12) ﴿ٱلۡكُفَّارَۗ﴾: أصلُ (كفر) يدلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ[15]، وقد وُصِفَ اللَّيلُ بالكافرِ

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (غلظ).
(2) الجوهري، الصحاح، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (غلظ).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 115.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(5) الجوهري، الصحاح: (سوي).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (سوي).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سوي).
(8) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 288.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوق).
(10) الخليل، العين: (سوق).
(11) الزبيدي، تاج العروس، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سوق).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوق).
(13) ابن عباد، المحيط في اللغة: (سوق).
(14) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 209.
(15) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).

لسَتره الأشخاصَ، والزّارعُ لستره البذرَ في الأرضِ، وكفرُ النِّعمةِ وكفرانُها: سَترُها بتركِ أداءِ شُكْرِها[1]، والكفرُ: نقيضُ الإيمانِ[2]، والمرادُ بالكفّارِ هنا: المشركونَ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

صفةُ النَّبيِّ ﷺ وأصحابه

يصفُ اللّه تعالى نبيَّهُ ﷺ، ويصفُ أتباعَهُ، فيقولُ: محمَّدٌ رسولُ اللّه، وأتباعُهُ مِن أصحابه: غليظةٌ قلوبُهم على الكفّارِ، رقيقةٌ قلوبُ بعضِهم لبعضٍ، تراهم رُكَّعًا أحيانًا للّه في صلاتِهم، سُجَّدًا أحيانًا، يلتمسونَ بذلكَ أن يتفضَّلَ اللّه عليهم، فيُدخلَهم جنَّتَهُ، وأن يرضَى عنهم، علامتُهم في وجوهِهم مِن أثرِ السُّجودِ في صلاتِهم، هذهِ الصِّفةُ هي صفتُهم في التَّوراةِ.

وأمّا صفتُهم في إنجيلِ عيسى؛ فهي: صفةُ زرعٍ، أخرجَ فراخَهُ، فقوَّى الزَّرعَ، وأعانَهُ، فغلظَ الزَّرعُ، فاستوَى على أصوله، يُعجِبُ هذا الزَّرعُ - في تمامه، وحُسْنِ نباته، وبلوغه وانتهائه - الَّذينَ زرعوهُ وغيرهم، فعَلَ ذلكَ بمحمَّدٍ ﷺ وأصحابه؛ ليغيظَ بهم الكفّار، فكذلكَ مَثَلُ محمَّدٍ ﷺ وأصحابه، واجتماعِ عددِهم، حتَّى كَثُروا، وغلظَ أمرُهم، كهذا الزَّرعِ، وعدَ اللّه الَّذينَ صدَّقوا اللّه ورسوله، وعملوا بما أمرَهم اللّه بِهِ مِن فرائضه الَّتي أوجبَها عليهم، وعدَهُم اللّه عفوًا عمّا مضَى مِن ذنوبِهم، وثوابًا جزيلًا، وهو الجنَّةُ[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ الفصلِ في مطلعِ الآيةِ:

محمَّدٌ هو رسولُ الهدى ودينِ الحقِّ

قولُه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ ﷺ مبتدأٌ، وخَبَرُه ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ أو ﴿أَشِدَّآءُ

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كفر).
(2) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح: (كفر).
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 143.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 261.

﴿عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾؛ أو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُه: هو محمَّدٌ، و﴿رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ بدلٌ أو عطف بيان أو نعت، والمقصودُ بهذه الجملةِ بيانُ مَن هو رسولُ اللّه، لِمَن اشتاق إلى معرفته بعد أنْ ذُكِر ﷺ في قولِه تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّۖ﴾ [الفتح: 27]، إلى قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾ [الفتح: 28]، فالمُتلقّي كالمشتاقِ إلى بيانِ مَن هذا المُتحدَّثُ عنهُ بهذهِ الأخبارِ؟ فيُقال له: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾، أي: هو كذلكَ، فكانت هذه الجملةُ مسوقةً مساقَ الاستئنافِ البيانيِّ، الّذي يجبُ معه غيابُ العاطفِ في صدرِ الكلام.

دلالةُ الاسميَّةِ في ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾:

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قوله ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ اتِّصافَهُ ﷺ بالرِّسالةِ أمرٌ ثابتٌ بلا شكٍّ، مهما أنكرَ المنكِرونَ، وافترى الجاحدونَ(1).

نكتةُ الإيجازِ في ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾:

بيانُ المرادِ برسولِ الحقِّ والهدى بعدَ التَّشويقِ إليه

إذا كانَ ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ تقديرُهُ: (هو محمَّدٌ)؛ ففي الكلامِ إيجازٌ بحذفِ المسندِ إليهِ حَذفًا ورد الاستعمالُ به، كقَولِهم بَعدَ أن يَذكروا رَجُلًا: فَتًى مِن شَأنه كذا وكذا، وهو أن يَذكروا الدّيارَ أو المَنازِلَ رَبعَ كذا وكذا؛ لأنَّ المقصودَ هنا بيانُ رسولِ اللّه مَن هو بعدَ الإخبارِ عنهُ في الآيةِ السّابقةِ(2).

بلاغةُ الإضافةِ في ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾:

رسولُ العظيمِ عظيمُ الشَّأنِ

إضافةُ الرَّسولِ إلى اسم الجلالةِ في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾؛ لتعظيمِ الرَّسولِ ﷺ وتبجيله؛ لأنَّهُ رسولُ العظيمِ ﷻ، وعلى إعراب ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ عَطفَ بيانٍ لقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ﴾، تكون في الإضافة إشارةٌ إلى أنَّ على المسلمين ألّا يسمّوا نبيَّهم ﷺ باسمه

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 115.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 202.

المجرَّد، بل يكون (رسول اللّه) عندهم في كثرة الدَّوَران بمنزلة البيان لاسمه تعظيمًا وتبجيلًا[1].

وعُبِّرَ باسم الجلالة ﴿ٱللَّهِۚ﴾ دون غَيره مِن الأسماء لاشتماله على صفاتِ العظمةِ والجلالِ والكمالِ، فهو الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء والصِّفات، فيكونُ أنسبَ بمقامِ تشريفه وتَعْدادِ شيءٍ مِن مناقبه ﷺ.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ﴾:

ذِكرُ المرسَلِ إليهم بعدَ ذكرِ الرَّسولِ

قد تكون الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ استئنافيَّةً، والجملةُ بعدَها مستأنفةٌ، والغرضُ منها الثَّناءُ على أصحابِ رسولِ اللّه ﷺ[2]، وذكرُ المرسَلِ إليهم بعدَ ذكرِ الرَّسولِ[3].

ويجوزُ أن يقالَ: ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ مبتدأٌ، و﴿رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ عطفُ بيانٍ سيقَ للمدحِ، و(الَّذينَ معَهُ) عطفٌ على ﴿مُّحَمَّدٌ﴾، و﴿أَشِدَّآءُ﴾ خبرُه، كأنَّه تعالى قالَ: (محمَّدٌ والَّذينَ معَهُ جميعُهم أشدّاءُ على الكفّارِ رُحَماءُ بينَهم)؛ لأنَّ وصفَ الشِّدَّةِ والرَّحمةِ وُجِدَ في جميعِهم[4].

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

تشريفُ الصَّحابةِ بوصفِ الصُّحبةِ

عُبِّرَ بالموصولِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾؛ للتَّوصُّلِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ إلى تشريفِ الصَّحابةِ رضي الله عنهم بالصُّحبةِ والمعيَّةِ، وللإيماءِ إلى أنَّهم قد اشتُهِروا بهذا الوصفِ، وعُرِفوا به، وفي هذا كمالُ مدحِهم.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمعيَّةِ:

الصَّحابةُ أوَّلُ مطيعٍ للنَّبيِّ ومؤيِّدٍ له

جيءَ بالمعيَّةِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾؛ لتشريفِ جميعِ الصَّحابةِ رضي الله عنهم بوصفِ كونِهم معَ النَّبيِّ ﷺ[5]، والمرادُ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 96.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 140.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 339.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 88.
(5) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 417.

المصاحبةُ الكاملةُ بالطّاعةِ والتّأييدِ[1]، ولتشريفِ غيرهم أيضًا مِن أمَّةِ الإجابةِ بوصفِ المَعيَّةِ التي هيَ مَعيَّةُ اتِّباعٍ، لا معيَّةُ زمانٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالشِّدَّةِ:

شدَّةُ شكيمةِ الصَّحابةِ في الحقِّ

عُبِّرَ بالشِّدَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾؛ للدَّلالةِ على شدَّةِ شكيمةِ الصَّحابةِ رضي الله عنهم في الحقِّ، وأنَّهم لا تأخذُهم في الكفّارِ رأفةٌ ولا لومةُ لائمٍ[2]، ثمَّ تكونُ أحكامُ الشِّدَّةِ على الكفّارِ مِن وجوبٍ وندبٍ وإباحةٍ، وأحكامُ صحبتِهم ومعاملتِهم، جاريةً على مختلفِ الأحوالِ الَّتي قرَّرَها علماءُ الإسلامِ[3].

معنى ﴿عَلَى﴾ ودلالة التَّعبيرِ بها:

لا ينبغي للمؤمنِ التَّساهلُ في دينه

جيءَ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ الدّالِّ على الاستعلاءِ في قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ شدَّةَ الصَّحابةِ رضي الله عنهم تستعلي على الكفّارِ استعلاءً مجازيًّا، فهي حاضرةٌ في كلِّ مجالات التَّعامُلِ معهم، كأنَّها تُحيطُ بهم، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّهُ لا ينبغي التَّساهلُ في أمورِ الدّينِ.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡكُفَّارِ﴾:

شدَّةُ الصَّحابةِ وأهلِ الإيمانِ بعدَهم على كلِّ معاندٍ للحقِّ

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ الكفّارِ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ للجنسِ الشّاملِ لجميعِ أفراده، فالصَّحابةُ أشدّاءُ على كلِّ الكافرينَ الَّذينَ يقفونَ في وجهِ دعوةِ الحقِّ، وبهذا يتمُّ التَّقابلُ بينَ هؤلاءِ الكُفّارِ ومَن معَ رسولِ اللّه محمَّدٍ بالاتِّباعِ، في كلِّ عَصرٍ ومِصرٍ وجِنسٍ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلۡكُفَّارِ﴾:

تناغمُ ألفاظِ الآيةِ مع كمالِ إيصالِ المقصودِ

عُبِّرَ بـ(الكفّارِ) دونَ (الكافرينَ)، في قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 203.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 339.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 204.

﴿ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾؛ لأنَّهُ أنسبُ بالتَّناغمِ الصَّوتيِّ معَ ﴿أَشِدَّآءُ﴾ و﴿رُحَمَآءُ﴾، ولإظهارِ كمالِ إيمانِ أتباعِ الرَّسول بتسليطِ الشِّدَّة على الأقوى؛ لأنَّ (كُفّار) على وزن (فُعّال)، وهو مِن أوزان المبالغة، فيثبتُ شدَّتُهم للأدنَى منهم في الكُفْرِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالرَّحمةِ:

عُبِّرَ بالرَّحمةِ في قوله جلَّ مِن قائل: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾؛ للتَّنبيهِ على ما بينَ الصَّحابةِ رضي الله عنهم مِنَ المودَّةِ والأُلْفةِ، وذلكَ مِن رسوخِ أُخوَّةِ الإيمانِ بينَهم في نفوسِهم[1].

بلاغةُ التَّكميلِ في ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ مِن أسلوبِ التَّكميلِ، فإنَّهُ لو اكتفى بقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾؛ لأوهمَ الفَظاظةَ والغِلظةَ، فاحترَسَ مِن ذلك بقوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾، يعني أنَّهم - معَ كونِهم أشدّاءَ على الأعداءِ - رُحَماءُ فيما بينَهم، أصحابُ وقارٍ وترحُّمٍ[2].

الصَّحابةُ أصحابُ وقارٍ وترحُّمٍ فيما بينهم

بلاغةُ تعليقِ ﴿رُحَمَآءُ﴾ مع الظَّرفِ (بينَ):

تعليقُ ﴿رُحَمَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ معَ الظَّرفِ (بينَ) المفيدِ للمكانِ الدّاخلِ وسطَ ما يُضافُ هو إليه، تنبيهٌ على انبثاثِ التَّراحمِ فيهِم جميعًا، معَ اختلافِ الزَّمانِ والمكانِ، فهُم كالجسدِ الواحدِ[3].

أهلُ الإيمانِ كالجسدِ الواحدِ

بلاغةُ فصلِ ﴿تَرَىٰهُمۡ﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه خبرٌ آخرُ لـ(الذين)، أو استئنافٌ[4]، وكلٌّ منهما موجِبٌ للفصلِ، فالجملةُ - على الإعرابين - بيانٌ لحالٍ آخرَ مِن أحوالِهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 204.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 418.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 205.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 277.

بلاغةُ تعيينِ المخاطَبِ في ﴿تَرَىٰهُمۡ﴾:

عبادةُ الصَّحابةِ رضي الله عنهم ظـاهـرةٌ معلومةٌ

يحتملُ قولُهُ: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ أن يكونَ خطابًا للنَّبيِّ ﷺ، ويحتملُ أن يكونَ خطابًا لكلِّ مَن يتأتَّى منهُ الرُّؤيةُ[1]، وهذا أبلغُ لإشعاره بأنَّ حالَهم قد تناهَت في الظُّهورِ، بحيثُ لا تَخفَى على أحدٍ.

دلالة المضارعة في ﴿تَرَىٰهُمۡ﴾:

كـثرةُ إقـبـالِ الـصَّحـابـةِ على العبادةِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قوله ﷻ: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾؛ للتَّنبيهِ على استمرارِ الرُّؤيةِ وتجدُّدِها؛ لأنَّهم مُشْتغِلونَ بالصَّلاةِ في أكثرِ أوقاتِهم[2]، أي: تراهم - كلَّما شئتَ أن تراهم - رُكَّعًا سُجَّدًا[3].

بلاغةُ المجازِ في ﴿رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾:

الـكُـمَّـلُ مِـن المؤمنينَ دائمو الـخُـضـوعِ لله تعالى

التَّعبيرُ بالرُّكوعِ والسُّجودِ في قوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ مجازٌ مرسلٌ عن الصَّلاةِ[4]، بإطلاقِ الجزءِ وإرادةِ الكلِّ، وهذا ثناءٌ عليهم بشدَّةِ إقبالِهم على أفضلِ الأعمالِ المزكّيةِ للنَّفسِ، وهي الصَّلواتُ، مفروضُها ونافلتُها[5].

بلاغةُ صيغةِ (فُعَّلٍ):

شـدَّةُ اجتهادِ الـصَّـحـابـةِ في التَّقرُّبِ إلى الله بالصَّلاة

عُبِّرَ بصيغةِ (فُعَّل) في قوله تعالى: ﴿رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ - ولم يقل: (راكعينَ ساجدينَ) - للمبالغةِ، أي: مبالغينَ في الرُّكوعِ والسُّجود، وهذه المبالغة تقريرٌ لواقعِ صلاتِهم، لا للزّيادةِ على معناها الثّابتِ لهُم، وفي ذلكَ تنبيهٌ على شدَّةِ اجتهادِهم في العبادةِ، وديمومتها على جهة القوَّةِ.

علَّةُ تركِ العطفِ في ﴿رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾:

تُركَ العطفُ في قوله تعالى: ﴿رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ - ولم يقل: (رُكَّعًا وسُجَّدًا) - لأنَّهما عبارةٌ عن الصَّلاةِ[6]، فهما بمنزلةِ شيءٍ واحدٍ.

---

(1) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 153.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 132، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 68.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 205.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 68، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 277.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 205.
(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 97.

سرُّ الجمعِ بينَ الرُّكوعِ والسُّجودِ:

صدورُ الصَّلاةِ عنِ الصَّحابةِ بكثرةٍ مؤكَّدةٍ

الرُّكوعُ والسُّجودُ في قوله ﷻ: ﴿رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ عبارةٌ عن الصَّلاةِ، وهما مِنَ الأجزاءِ الَّتي ينتفي الكلُّ بانتفائِها، وكلُّ واحدٍ منهما كافٍ في ذلكَ، لكنَّ في الجمعِ بينَهما مزيدَ استظهارٍ(1)، وهذا أبلغُ في الثَّناءِ عليهم؛ تناسُبًا معَ سياقِ تقريرِ أوصافِهم الحسنة في الآيةِ، ودلالةً على كمالِ خضوعهم للّه ﷻ.

غرضُ تَقديمِ الرُّكوعِ على السُّجودِ:

قُدِّمَ الرُّكوعُ على السُّجودِ في قوله تعالى ذكرُهُ: ﴿رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾؛ لأنَّهُ في الواقعِ يكونُ قبلَه(2)، وإبلاغًا في تعيينهم، بتعيينِ ما خُصَّت به الصَّلاةُ في شريعتهم.

بلاغةُ موقعِ جملة ﴿يَبۡتَغُونَ﴾:

غايةُ الصَّحابةِ فضلُ اللهِ ورضوانُهُ

قولُهُ تعالى: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ إمّا خبرٌ آخرُ، أو حالٌ مِن ضميرِ ﴿تَرَىٰهُمۡ﴾، أو حالٌ مِنَ المستترِ في ﴿رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾، أو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن بيانِ مواظبتِهم على الرُّكوعِ والسُّجودِ، كأنَّهُ قيلَ: ماذا يريدونَ بذلكَ؟ فقيل: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾(3)، وأيًّا ما كانَ؛ ففيهِ بيانُ أنَّ غايتَهم فضلُ اللّه ورضوانُهُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَبۡتَغُونَ﴾:

عُلوُّ همَّةِ الصَّحابةِ في فعلِ الخيرِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ الابتغاءِ واستمراره وتكراره، فهُم يُجدِّدونَ في أنفسهم ذلكَ الابتغاءَ، كلَّما أقْبَلوا على عمل خيرٍ وبِرٍّ، وفي ذلكَ ما لا يخفى مِنَ التَّنويهِ برفعةِ شأنِهم وعُلوِّ همَّتِهم في فعلِ الخيرِ.

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 97.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 97.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 114، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 277.

دلالةُ صيغةِ الافتعالِ في ﴿يَبۡتَغُونَ﴾:

اجتهادُ الصَّحابةِ في فِعلِ الخيرِ

عُبِّرَ بصيغةِ الافتعالِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الصَّحابةَ رضي الله عنهم يبذلونَ غايةَ جُهدِهم في طلبِ فضلِ اللّه ورضوانه، بالصَّلاةِ وغيرِها مِنَ العباداتِ والقُرُباتِ، ووجوهِ الخيرِ[1].

نكتةُ تَنكيرِ ﴿فَضۡلٗا﴾:

عطاءُ الله واسعٌ جدًّا

نكَّرَ القرآنُ كلمة ﴿فَضۡلٗا﴾ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ للتَّعظيم، أي: (فضلًا عظيمَ الشَّأنِ)، ولا غَروَ في ذلكَ، فإنَّ عطاءَ اللّه لا يُحَدُّ، ولا يُقادَرُ قَدْرُهُ.

سرُّ التَّعبيرِ بالفَضْلِ:

الثَّوابُ مَحْضُ كرمٍ مِنَ الله

أوثِرَ الفضلُ دونَ غيره في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾؛ للثَّناءِ عليهم بأنَّهم - معَ أنَّهم يواظبونَ على الطّاعاتِ - يعتقدونَ أنَّ الثَّوابَ فضلٌ مِنَ اللّه تعالى، لا أجرٌ على العملِ؛ لأنَّ العاملَ كأجيرٍ يأخذُ الأجرةَ قبلَ العملِ، وفي هذا البيانِ إيماءٌ إلى اعترافِهم بتقصيرِهم، وترغيبٌ للمؤمنينَ العاملينَ في هذهِ الخصلةِ المحمودةِ[2].

معنى ﴿مِّنَ﴾، ودلالة التَّعبير بها في ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

تميُّزُ الصَّحابة بكمال توحيدهم لله

﴿مِّنَ﴾ في قولِ الباري جل جلاله: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ للابتداءِ، فتُفيدُ أنَّ ابتداءَ الفضلِ والرِّضوانِ مِنَ اللّه تبارك وتعالى، فهو مُفيضُ الخيراتِ والبركاتِ، وفي ذلكَ كمالُ إدراكٍ للخالقيَّةِ والمخلوقيَّةِ، فالتَّوحيدُ في نفوسهم جِدُّ عالٍ وصافٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ الجلالةِ:

الكُمَّلُ مِنَ المؤمنينَ يعتقدون أنَّ المحسنَ هو الله تعالى وحدَهُ

عُبِّرَ باسم الجلالةِ دونَ غيره في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾؛ لزيادةِ تعظيمِ الفضلِ بأنَّهُ مِن ذي العظمة

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 339.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 89، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 98.

الَّذي لهُ الإحاطةُ بصفاتِ الكمالِ والجمالِ، الَّذي أعطاهم ملَكةَ الغِلظةِ على الكفّارِ، بما وهبَهُم مِن جلاله، والرِّقَّةِ على أوليائه، بما أعطاهم مِن رحمته الَّتي هيَّأهم بها للإحسانِ إلى عبادِه، فصاروا يرونَهُ وحدَهُ سيِّدَهم المحسنَ إليهم(1).

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾:

التَّرغيبُ العظيم في طلبِ رضوان الله تعالى

نُكِّرَ الرِّضوانُ في قوله ﷻ: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾؛ لبيانِ عظمته وفخامته، بقرينة كونه مِن اللهِ الَّذي له كلُّ كمالٍ، وينتفي عنه كلُّ نقصانٍ، أي: ورضوانًا عظيمَ الشَّأنِ، وأيُّ شأنٍ أعظمُ مِن رضوانِ اللهِ تعالى الَّذي هو غايةُ كلِّ عبدٍ؟.

بلاغةُ فصلِ ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم﴾:

ظهورُ أثرِ العبادةِ في وجهِ العابدِ المكثِرِ منها

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم﴾ عمّا قبله؛ لاتِّصاله بما قبلَه مِن قوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾، ووجهُهُ أنَّهُ تعالى لمّا ذكرَ كثرةَ عبادتِهم وإخلاصَهم فيها؛ ذَكَر علامةَ كثرتِها، فبينهما كمالُ اتِّصالٍ.

دلالة الاسميَّةِ:

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قوله ﷻ: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم﴾؛ للتَّنبيهِ على تحقُّقِ مضمونِها، وأنَّ وجودَ السِّيما في وجوهِهم أمرٌ ثابتٌ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالسِّيما:

العبادةُ تُميِّزُ صاحبَها عن غيره

عُبِّرَ بالسِّيما في قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم﴾؛ لدلالتِها على العلامةِ الَّتي تُميِّزُهم عن غيرِهم، ولا تكاد تفارقهم؛ نتيجةً لإثباتِ الأوصافِ السّابقة لهم على جهة المبالغة، فهي مِن: سامَهُ؛ إذا أعلمَهُ(2)، وذلك أثرُ العبادةِ في وجوهِهم؛ إذ تكسوها مهابةً وحُسْنًا في الدُّنيا، أو في الآخرةِ، أو فيهما معًا.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 339، والشربيني، السراج المنير: 4/ 57.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 132.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿سِيمَاهُمْ﴾:

آثارُ العبادةِ الصّادقةِ لا تفارقُ صاحبَها

إضافةُ السّيما إلى ضميرِ مَن معَ الرَّسولِ ﷺ في قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾؛ للتَّنبيهِ على اختصاصِ السّيما بهم، وأنَّها تكونُ فيهم دونَ غيرِهم، وأنَّها "علامتهم الَّتي لا تفارقُهم"(1)، وهذا يشمل الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم، ومن نهج نهْجَهم.

معنى ﴿فِي﴾، ودلالة التَّعبير بها:

وجوهُ الصَّحابةِ محلُّ الأنوارِ الإيمانيَّة

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ على أنَّ وجوهَ الصَّحابةِ رضي الله عنهم، ومَن تبع الرَّسول ﷺ، محلٌّ لهذهِ العلامةِ المميِّزةِ لهم عن غيرِهم، فهذه السّيما تملأُ جميعَ أجزاءِ الوجهِ، وهذه نتيجةٌ واضحةٌ لتقرير الصِّفات السّابقة لهم على وجه المبالغة؛ تأكيدًا لمدحهم.

بلاغةُ المجازِ في ﴿وُجُوهِهِم﴾:

امتلأت وجوهُهم أنوارًا؛ كما امتلأت قلوبُهم محبَّةً وخضوعًا

يحتملُ أن يكونَ معنى الوجوه في قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾: الجباه، والوجوهُ مجازٌ مُرسَلٌ في الجباهِ، ذُكِرَ الكلُّ، وأُريدَ الجزءُ؛ للإشارةِ إلى أنَّ العلامةَ الَّتي حدثَت في جباهِهم، كأنَّها فاضت، فسَرَت إلى وجوهِهم(2)، ويحتملُ أنْ تكونَ الوجوهُ على ظاهرِها(3)، وهذا هو الأبلغُ في تقريرِ كمالِ عبادتِهم، فالوجهُ أشرفُ ما في الإنسانِ، إذ فيه يظهرُ بواطنُه، وآثارُ ما يُخفيه.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿وُجُوهِهِم﴾:

وجوهُ الصَّحابةِ مختصَّةٌ بسيما الخيرِ

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿فِي وُجُوهِهِم﴾ للاختصاصِ، وهي بمعنى اللّامِ، أي: في وجوهِهم دونَ وجوهِ غيرِهم، وهذا إبلاغٌ في تمييزهم عن غيرهم، وتشريفٌ لهم بما تبوَّؤوا به من المكانة الرفيعة

(1) الشربيني، السراج المنير: 4/ 57.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 98.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 277.

في صحبة خير الخلق ﷺ، وجزاءً لهم على إيمانهم الرّاسخ وعملهم الصّالح، ويقاسُ عليهم مَن كانَ على صفتِهم وحالِهم.

معنى ﴿مِّنْ﴾، ودلالة التّعبير بها:

﴿مِّنْ﴾ في قوله ﷻ: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾: بيانيَّةٌ، كأنَّهُ قيلَ: (سيماهم الَّتي هي أثرُ السُّجودِ)، وفي التَّعبير بها مِن التَّشويقِ لبيانِ هذه السّيما ما فيه[1].

علَّةُ التَّعبيرِ بالأثر:

السُّجودُ رِفعةٌ لشأنِ المؤمنِ

عُبِّرَ بالأثرِ في قوله ﷻ: ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾؛ للدَّلالةِ على ما يفعلُه السُّجودُ بوجوهِهم مِنَ الإنارةِ والوَقارِ، وهو ظاهرٌ بمنزلةِ آثارِ المسيرِ، وفي ذلكَ ما فيهِ من تعظيمِ شأنِ السُّجودِ.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾:

الأثــرُ نتيجةُ السُّجودِ

وجهُ إضافةِ الأثرِ إلى السُّجودِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ أنَّهُ حادثٌ مِنَ التَّأثيرِ الَّذي يُؤَثِّرُهُ السُّجودُ[2]، وفيها تعظيمُ هذا الأثَرِ، وأنَّه علامةُ القُرْبِ من اللهِ، فإنَّ العبدَ أقربُ ما يكونُ من ربِّه، وهوَ ساجِدٌ، وأنَّ هذا الأثَرَ ليس شيئًا واحدًا، بل هوَ السِّمةُ الَّتي تكونُ في جَبْهةِ السَّجّادِ الَّذي لا يسجُد إلّا خالِصًا للهِ ﷻ، وهو صُفْرةُ الوجهِ من خشيةِ اللهِ تعالى، وهو ندى الطُّهور وترابُ الأرضِ، وهو استنارةُ الوجوهِ، من طولِ الصَّلاةِ باللَّيلِ، وهو ظهورُ نورِ الإيمانِ في الوجه[3]، إلى غير ذلك الكثير.

دلالةُ تعريفِ السُّجودِ:

سجودُ الصَّحابةِ هـو الـسُّـجـودُ الكاملُ التّامُّ

تعريفُ السُّجودِ في قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾: للجنسِ، أي: مِن أثرِ الجنسِ المسمَّى بالسُّجودِ، ومآلُ المعنى: مِن أثرِ سجودِهم،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 132، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 68.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 277.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 172 - 173.

وفي ذلكَ أنَّ سجودَهُم هو السُّجودُ النَّموذَجُ المُعتدُّ به، كأنَّه طِبْقُ السُّجودِ المأمورِ به شرعًا.

سرُّ إفرادِ السُّجودِ بالذِّكر:

أفضليَّةُ السُّجودِ مِن بينِ أركانِ الصَّلاةِ

أُفرِدَ السُّجودُ بالذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾؛ للتَّنبيهِ على أفضليَّته مِن بينِ أركانِ الصَّلاة[1]، ولا عجبَ في ذلكَ، فهو غايةُ الخضوعِ والاستكانةِ للّه ﷻ؛ لأنَّ الوجهَ إنَّما يسجُد للّه بصدقٍ بعدَ سُجود القلبِ لهُ، وإذا سجَد القلبُ له تعالى؛ كانَ العبدُ ساجِدًا للّه بكُلّيَّته.

علَّةُ الفصلِ:

تعظيمُ شأنِ وصفِ المؤمنينَ بعدَ إتمامِ الحديثِ عنهُ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾ عمّا قبلَه؛ لأنَّ فيه تقريرًا لِما قبلَه؛ بالإشارةِ للبعيدِ، وبذِكرِ المَثَلِ الذي يُطْلَق على الوصفِ العجيب، فبينهما كمالُ اتِّصالٍ، والغرضُ مِن هذه الجملةِ الإشارةُ إلى علوِّ شأنِ وصفِ المؤمنينَ بعدَ إتمامِ الحديث عنهُ، وبيانِ أنَّهُ لا يقدرُ عليهِ أحدٌ إلّا مَن صفّاهُ اللّه مِن جميعِ حظوظه وشهواته[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

وصفُ المؤمنينَ عظيمُ الشَّأنِ

الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾، راجعةٌ إلى الوصفِ المذكورِ مِنْ قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ إلى هنا[3]، وفي التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ معَ قُرْبِ العهدِ بالمشارِ إليهِ، إيذانٌ بعلوِّ شأنه، وبُعْدِ منزلته في الفضلِ[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمَثَلِ:

الصَّحابةُ قدوةٌ للمؤمنينَ بعدَهُم

عُبِّرَ بالمَثَلِ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾؛ لأنَّ معناهُ: الوصفُ العجيبُ الشَّأنِ[5]، الَّذي فيهِ غرابةٌ[6]، ولذلكَ يجري مَجْرَى

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 98.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 341.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 132.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 114، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 68.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 348.
(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 99.

الأمثالِ[1]، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة، وفي ذلكَ ما فيهِ مِنَ التَّنويهِ بحالِهم، وحثِّ السّامعينَ على الاقتداءِ بهم.

معنى ﴿فِي﴾، ودلالة التَّعبير بها:

التَّوراةُ محلُّ ذكرِ المَثَلِ

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾ على أنَّ التَّوراة ظرفٌ لذكرِ هذا المَثَلِ، وهذا يعني كمالَ وضوحِ ذِكْرِ النَّبيِّ وصحابتِه في التَّوراة، مِمّا يعني التَّبشيرَ بمجيئِه ﷺ، فكان عليهم أنْ يؤمنوا به إذا حضروا في زمان إرسالِه، والجارُّ والمجرورُ حالٌ مِن ﴿مَثَلُهُمۡ﴾، والعاملُ معنى الإشارة[2].

دلالةُ تعريفِ التَّوراةِ:

تعريفُ التَّوراةِ في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾ للعهدِ الذِّهْنيِّ؛ إذ المرادُ بها الكتابُ المخصوصُ الَّذي أُنزِلَ على موسى عليه السلام.

معنى الواوِ في ﴿وَمَثَلُهُمۡ﴾:

ذِكرُ مَثَلٍ آخرَ لهم

يحتملُ قولُه تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ﴾ أنْ يكونَ مبتدأً، وخبرُهُ: ﴿كَزَرۡعٍ﴾، فيوقَفُ على قوله: ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾؛ فهما مَثَلانِ، جُعِلَت صفتُهم في التَّوراةِ أنَّهم أشدّاءُ على الكفّارِ ... إلخ، وصفتُهم في الإنجيلِ أنَّهم كزرعٍ ... ، إلخ، وهذا مِن عطفِ معنًى على معنًى.

ويحتملُ أن يكونَ معطوفًا على: ﴿مَثَلُهُمۡ﴾ الأوَّلِ، فيكونُ مَثَلًا واحدًا في الكتابينِ، ويوقَفُ حينئذٍ على: ﴿ٱلۡإِنجِيلِ﴾[3]، وتكريرُ: (مَثَلُهم) لتأكيدِ غرابته وزيادةِ تقريرِها[4]، وقولُهُ: ﴿كَزَرۡعٍ﴾ خبرُ مبتدأٍ مضمَرٍ، أي: مَثَلُهم كزرعٍ، فُسِّرَ بها المَثَلُ المذكورُ، أو حالٌ مِنَ الضَّميرِ في: (مَثَلُهم)، أي: مماثلينَ زرعًا هذه صفتُهُ، أو نعتُ مصدرٍ محذوفٍ، أي: تمثيلًا كزرعٍ[5].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 115، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 278.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 278.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 418.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 115، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 66.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 722.

معنى ﴿فِي﴾ ودلالة التَّعبير بها:

الإنــجــيــلُ مـحـلُّ التَّبشير بالرَّسول والثَّناءِ على الصَّحابةِ

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الظَّرْفيَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ﴾، على أنَّ الإنجيلَ ظرفٌ لهذا المَثَلِ، وأنَّهُ مرقومٌ فيها، وهذا يعني شدَّة ظهورِ التَّبشيرِ بنبيِّنا ﷺ، وذِكْرِ أوصافِ أصحابِه في الإنجيلِ، ممّا يُلزِمُ مَن حضَر في زمانِ الرَّسولِ ﷺ أنْ يكونَ أوَّلَ المؤمنينَ به.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡإِنجِيلِ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلۡإِنجِيلِ﴾ في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ﴾ للعهدِ الذِّهنيِّ؛ إذ المرادُ بِه الكتابُ المخصوصُ الَّذي أُنزِلَ على عيسى عليه السلام.

نكتةُ تقْديم ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ﴾:

صِـفـاتُـهُـم في التَّوراةِ لا تنفَصِلُ في الـواقـعِ عن صِـفـاتِـهـم في الإنجيل

لم يُؤخِّر القرآنُ: ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ﴾ بعدَ شرحِ المَثَلِ، كما أخَّرَ نظيرَه: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾؛ اتِّساقًا في نَظْمِ الآيةِ؛ لأنَّ إظهار دين الهدى والحقِّ على الدّين كلِّه يكونُ؛ إذا كانت أُمَّةُ رسول اللّه محمَّدٍ ﷺ الَّذين معَه متَّصفةً بالصِّفات الواردةِ في التَّوراة والإنجيل في وقتٍ واحدٍ.

سرُّ تنكيرِ (زرعٍ):

تنكيرُ الزَّرعِ في قوله تعالى: ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ للإفرادِ، أي: كفردٍ مِن أفرادِ الزَّرعِ، أو للتَّعظيم، أي: كزرعٍ عظيمٍ.

براعةُ التَّشبيه في ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾:

نــمــاءُ قــوَّةِ الإســلامِ شيئًا فشيئًا إلى أنِ انـتـصـرَت على الأعداءِ

في قوله تعالى: ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ بديعٌ لحالِ بدءِ المسلمينَ ونمائِهم حتى كَثُروا، بزرعٍ أخرجَ زرعه ... إلخ، وذلكَ يتضمَّنُ تشبيهَ بدءِ الإسلامِ ضعيفًا، وتَقوّيهِ يومًا فيومًا حتَّى استحكمَ أمرُهُ، وتغلَّبَ على أعدائه[1]، وهذا التَّمثيلُ قابلٌ لاعتبارِ

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 345، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 209.

تجزئةِ التَّشبيهِ في أجزائه، وهذا أفضلُ صور هذا التَّشبيهِ، بأن يُشبَّهَ نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ بالزّارعِ، ويُشبَّهَ المؤمنونَ الأوَّلونَ بحبّاتِ الزَّرعِ الَّتي يبذرُها في الأرضِ، والشَّطءُ: مَن أيّدوا المسلمينَ، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ دعا إلى اللّه وحدَهُ، وانضمَّ إليهِ نفَرٌ قليلٌ، ثمَّ قوّاهُ اللّه بمَن معَهُ، كما يُقوّي الطّاقةَ الأولى مِنَ الزَّرعِ ما يحتفُّ بها، ممّا يتولَّدُ منها، حتَّى يُعجِبَ الزُّرّاعَ، وقولُهُ: ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾: تحسينٌ للمشبَّهِ بهِ؛ ليفيدَ تحسينَ المشبَّهِ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾:

تفرُّعُ الفروعِ مِنَ الحبَّةِ شبيهٌ بإخراجِ شيءٍ من مكانه

في قوله ﷻ: ﴿أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ استعارةُ الإخراجِ إلى تفرُّعِ الفراخِ مِنَ الحبَّةِ، لمشابهةِ التَّفرُّعِ بالخروجِ، ومشابهةِ الأصلِ المتفرَّعِ عنهُ بالَّذي يُخرِجُ شيئًا مِن مكانٍ[2]، وهو من استعارةِ محسوسٍ لمحسوسٍ، وفيه إشارةٌ إلى قوَّةِ المطَّلعِ؛ إنباءً بقوَّةِ المقطعِ.

دلالةُ المُضيِّ في ﴿أَخۡرَجَ﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إخراجَ الزَّرعِ شَطْأَهُ أمرٌ ثابتٌ متحقِّقٌ - لا محالة - وفي هذا وعدٌ بالثَّباتِ والقوَّةِ في شأنِ المشبَّه.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿شَطۡـَٔهُۥ﴾:

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ بمعنى اللّامِ، أي: أخرجَ شطْئًا لهُ، فتفيدُ زيادةَ تحقيقِ إخراجِ الزَّرعِ لشَطْئه.

معنى الفاء في ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ ودلالةُ التَّعبير بها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ للسَّببيَّةِ، فتفيدُ تسبُّبَ المؤازرةِ عن إخراجِ الزَّرعِ شَطْأَهُ[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 209.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 208.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 100.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمؤازرةِ مادَّةً وصيغةً:

قوَّةُ معاونةِ الشَّطْءِ للزَّرعِ، ومساواتُه له

عُبِّرَ بالمؤازرةِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾؛ لأنَّها في الأصلِ المعاونةُ والتَّقويةُ، فتفيدُ أنَّ الشَّطْءَ قد قوَّى الزَّرعَ[1]، وفي ذلكَ مبالغةٌ في بيانِ نُموِّ الزَّرعِ شيئًا فشيئًا، وأنَّه يشتدُّ، ويعضد بعضُه بعضًا.

وعُبِّرَ بصيغةِ الماضي؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المؤازرةَ أمرٌ ثابتٌ متحقِّقٌ لا محالة، وهذه بشرى لطيفةٌ بتمامِ أمرِ المُشَبَّه وكماله.

معنى الفاءِ في ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ ودلالة التَّعبير بها:

الفاءُ في قولِ الباري جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ للسَّببيَّةِ، فتفيدُ تسبُّبَ الاستغلاظِ عن المؤازرةِ[2]، يعني: أنَّهُ قد نتجَ عن مؤازرةِ الشَّطْءِ للزَّرعِ استغلاظُهُ، فصار غليظًا بعدما كان دقيقًا.

دلالةُ المُضيِّ في ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾:

تحقُّقُ الاستغلاظِ ووقوعُهُ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ الاستغلاظَ أمرٌ ثابتٌ متحقِّقٌ - لا محالة - وهذا يعني ديمومة البشرى اللَّطيفة، الَّتي أفادتها صيغةُ المُضيِّ في ﴿أَخۡرَجَ﴾ و﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾.

دلالةُ صيغةِ الاستفعالِ في ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾:

انتقالُ الزَّرعِ مِنَ الدِّقَّةِ إلى الغِلَظِ

تدلُّ صيغةُ الاستفعالِ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ على الصَّيرورةِ، أي: فصارَ مِنَ الدِّقَّةِ إلى الغِلَظِ[3]، فهو كقولِهم: استحجرَ الطِّينُ، وهو يُنبِئُ عن التَّدريجِ، وتحتملُ أن تكون للمبالغةِ في الغِلَظِ، كقولِكَ: استعظمَ[4].

معنى الفاءِ في ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ ودلالة التَّعبير بها:

الفاءُ في قوله ﷻ: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ للسَّببيَّةِ، فتفيدُ تسبُّبَ الاستواءِ على السّوقِ عن الاستغلاظِ[5].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 348 والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 295.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 344، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 100.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 132.

(4) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 69، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 511.

(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 100.

دلالةُ المُضيّ في ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾:

الاستواءُ على السّوقِ متحقّقٌ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ الاستواءَ على السّوقِ أمرٌ متحقِّقٌ متيقَّنٌ، مع ما تحمل في طيّاتها من البشرى المذكورة في نظير هذه الصّيغة ممّا سبَق.

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالة التّعبير بها:

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الاستعلاءِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ على أنَّ الاستواءَ مُستعلٍ على السّوقِ، ومُتمكِّنٌ منها غايةَ التَّمكُّنِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالسّوقِ:

قوّةُ الزّرعِ المشبَّهِ بِهِ

السّوقُ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ جمعُ ساقٍ، وهو ما قامَ عليه الشَّيءُ، وقد يُخَصُّ بالشَّجرِ، فيكونُ ساقُ الزَّرعِ استعارةً[1]، وأيًّا ما كانَ؛ ففي التَّعبيرِ بِهِ إشارةٌ إلى قوَّةِ الزَّرعِ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿سُوقِهِۦ﴾:

الإضافةُ في قوله ﷻ: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ بمعنى اللّامِ، أي: على سوقٍ لهُ، وذلكَ يقوّي مقامَ التَّنصيصِ على قوَّةِ الزَّرعِ وصلابته.

بلاغةُ موقعِ قولِه: ﴿يُعۡجِبُ﴾:

التّعجُّبُ مِن حالِ الزَّرعِ، وإظهارُ البهجةِ بِهِ

قولُهُ تعالى ذكرُهُ: ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ حالٌ مِنَ الزَّرعِ، أو استئنافٌ بيانيٌّ[2]، كأنَّ سائلًا سألَ عن موقفِ الزُّرّاعِ منه، وهم في غايةِ العنايةِ بأمرِه، والتَّفقُّدِ لحالِه، والملابسةِ له، والغرضُ من ذلكَ: التَّعجُّبُ منهُ، والمبالغةُ في مدحِه، وإظهارُ السُّرورِ في أمرِه[3]، وزيادةُ تحسينِه[4]، ولذلكَ فُصِلَ عمّا قبلَه، ولم يُعطَف عليهِ.

(1) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 154.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 100.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 344.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 210.

تعجُّبُ الزُّرّاعِ مستمرٌّ متجدِّدٌ

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يُعۡجِبُ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ الإعجابِ وتجدُّده، وأنَّ حالَ الزُّرّاعِ مع الزَّرعِ هو التَّعجُّبُ المستمرُّ منهُ؛ لقوَّته وحُسْنِ منظره، ففي المضارعة إبلاغٌ في تقرير معنى قوَّة الزَّرع.

حُسْنُ الزَّرعِ يستولي على كلِّ مَن يراهُ

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلزُّرَّاعَ﴾:

تعريفُ الزُّرّاعِ في قوله تعالى: ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ للجنسِ الشّاملِ لكلِّ مَنْ يشاهدُهُ مِنَ الزُّرّاعِ، أو للعهدِ الذِّهنيِّ، والمعنى: يُعجِبُ هذا الزَّرعُ زُرّاعَهُ لقوَّته وحُسْنِ منظره[1]، والأوَّلُ أبلغُ؛ لِما فيهِ مِنَ العمومِ الدّالِّ على أنَّ حُسْنَهُ يستولي على كُلِّ مَن يراهُ؛ لنُدرة وجود مثله في القوَّة والبهجة.

تناغمُ ألفاظِ الآيةِ مع كمالِ إيصالِ المقصودِ

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلزُّرَّاعَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عُبِّرَ بالزُّرّاعِ دونَ الزّارعينَ في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾؛ لأنَّهُ أنسَبُ مِنَ النّاحيةِ الصَّوتيَّةِ بـ﴿أَشِدَّآءُ﴾، و﴿ٱلۡكُفَّارِ﴾، و﴿رُحَمَآءُ﴾؛ ولتهويل الإعجابِ وتفخيمه، فإنَّ ﴿ٱلزُّرَّاعَ﴾ على صيغةِ (الفُعّال)، وهيَ مِن صيغِ المبالغةِ.

وخُصِّصَ الزُّرّاعُ بالذِّكرِ؛ لأنَّهُ إذا أعجبَ الزَّرعُ الزُّرّاعَ، وهم في غاية العناية بشأنه؛ فهو أحرَى أن يُعجِبَ غيرَهم؛ لأنَّهُ لا عيبَ فيهِ؛ إذ قد أعجبَ العارفينَ بالعيوبِ، ولو كانَ معيبًا لم يُعجِبْهم[2].

حالُ الصَّحابةِ في الدُّنيا والآخرةِ ممّا يُغيظُ الكافرينَ

دلالةُ اللّامِ في ﴿لِيَغِيظَ﴾:

اللّامُ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾؛ للتَّعليل، وهي تعليلٌ لِما دلَّ عليهِ تشبيهُهم بالزَّرعِ مِن نمائِهم وترقِّيهم في الزِّيادةِ والقوَّةِ، أو تعليلٌ لـ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّ الكفّارَ إذا سمعوا

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 67.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 142، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 503.

بما أُعِدَّ لهُم في الآخرةِ؛ غاظَهم ذلكَ[1]، أو تعليلٌ لكلامٍ محذوفٍ، تقديرُهُ: جعلَهم اللهُ بهذهِ الصِّفةِ؛ ليغيظَ بهم الكفّارَ[2]، أو التَّقديرُ: فعلَ اللهُ هذا لمحمَّدٍ ﷺ وأصحابه؛ ليغيظَ بهم الكفّارَ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿لِيَغِيظَ﴾:

الكفّارُ في غيظٍ مستمرٍّ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ الإغاظةِ، وتجدُّدِها، وأنَّ غضبَ الكفّارِ لا ينتهي، بل تتزايدُ الإغاظةُ؛ كلَّما رأوا قوَّةَ المسلمينَ، وهذهِ المضارعةُ تُشاكِلُ المضارعةَ في ﴿يُعۡجِبُ﴾، ومعَ الإعجابِ الفرحُ والسُّرورُ، ومعَ الغيظِ عكسُ ذلكَ.

سرُّ التَّعبيرِ بالإغاظةِ:

حَنَقُ المشركينَ على الحقِّ وأهله

عُبِّرَ بالإغاظةِ دونَ الإغضابِ في قوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾، فلم يقل مثلًا: (ليُغضِبَ بهم الكفّارَ)؛ لأنَّ الغيظَ أشدُّ مِنَ الغضبِ، وهو المناسبُ لحالِ المشركينَ الَّذينَ يَقُضُّ مضاجعَهم قوَّةُ الإسلامِ، فلو عُبِّرَ بالإغضابِ؛ لضاعَ رونقُ البلاغةِ.

معنى الباءِ ودلالة التَّعبير بها:

الصَّحابةُ سببُ غيظِ الكفّار

الباءُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: ليغيظَ بسببِهم الكفّارَ، والأصلُ في معناها الإلصاق، فهو لا يكاد يُفارقها، فتدلُّ على أنَّ الغيظَ ملتصقٌ بهم، لا ينفَكُّ عنهُم بحالٍ.

نكتةُ تَقديم ﴿بِهِمُ﴾:

الكفّارُ أحِقّاءُ بالغيظِ العاجلِ

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِهِمُ﴾ على المفعولِ ﴿ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ في قوله تقدَّسَ ذكرُهُ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾؛ للعنايةِ بالمقدَّم، ووجهُ ذلكَ: تعجيلُ المساءةِ للكفّارِ، ببيانِ أنَّ سببَ غيظِهم هو الصَّحابةُ رضوانُ اللهِ عليهِم.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 348.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 143.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 295.

دلالةُ تَعريفِ ﴿ٱلۡكُفَّارَۗ﴾:

الإسلامُ غيظُ الكافرينَ إلى قيامِ السّاعةِ

الظّاهرُ أنَّ المرادَ بالكفّارِ في قوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ مَن كانَ في زمنه ﷺ مِنَ الكفرةِ المُحاربينَ للإسلام، ويقاسُ عليهم كلُّ مَن كانَ على شاكلتِهم، فالإسلامُ يغيظُ الكافرينَ في كلِّ مكانٍ وزمانٍ إلى قيامِ السّاعةِ، فـ(أل) إمّا للعهد الذِّهني، أو للجِنْسِ، والمآلُ واحدٌ.

سرُّ إيثارِ ﴿ٱلۡكُفَّارَۗ﴾:

أئمّةُ الكفرِ أكثرُ غيظًا على الإسلامِ وأهلِه

أوثِرَ لفظُ ﴿ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ على لفظِ (الكافرينَ)، في قولِ الباري ﷻ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾؛ لتناغُمه معَ لفظِ: ﴿ٱلۡكُفَّارِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾، ومع ﴿أَشِدَّآءُ﴾، و﴿رُحَمَآءُ﴾، ولأنَّ أكثرَ أهلِ الكُفْرِ غيظًا مِن الإسلام، وحَنَقًا عليه هم الرّاسخونَ في الكُفْرِ، العريقونَ فيه، وصيغةُ: (الكُفّار) مِن صيغِ المبالغة، وما ثبَت للأعلى هنا يثبُت للأدنى، لكِنْ ليس بنفس الصِّفة.

علّةُ فصلِ جملة ﴿وَعَدَ﴾:

وعدُ الصَّحابةِ بالجزاءِ بعدَ الثَّناءِ عليهِم

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لإفادةِ غرضٍ جديدٍ، وهو وعْدُهُم بالجزاءِ، على ما اتَّصفوا بهِ مِنَ الصِّفاتِ الَّتي لها الأثرُ المَتينُ في نشرِ هذا الدّينِ ونصرِه[1].

دلالة المُضيِّ في ﴿وَعَدَ﴾:

وعْدُ الله لا يتخلَّفُ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ هذا الوعدَ أمرٌ متيقَّنٌ، لا شكَّ فيه، ولا ارتياب، ومِن شأنِ الوَعْدِ والوعيدِ الإبلاغُ في تقريرهما.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ الجلالة:

وعدُ العظيمِ نافذٌ لا محالةَ

اختيرَ اسمُ الجلالةِ دونَ غيره في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لدلالته على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، الَّتي بها يُنجِزُ هذا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 345، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 210.

الوعدَ العظيمَ، والمعنى: وعدَ الملكُ الأعظمُ الَّذينَ آمنوا إلخ[1]، ففيه تفخيمٌ وتعظيمٌ للوعد مِن جهةٍ، وتحقيقٌ وتمكينٌ له مِن جهةٍ أخرى.

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصول:

عُبِّرَ بالموصولِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للإيماءِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ إلى علَّةِ هذا الوعدِ الكريم، وهو الإيمانُ وعملُ الصّالحاتِ، وهذا يعني كمالَ شرف الإيمان والعمل الصّالح، وكمالَ أثَرِ عمل الصّالحات في ترقّي هذا الإيمان.

الإيمانُ والعملُ الصّالحُ سببُ نيلِ المكرماتِ

نكتةُ التَّعبيرِ بالمُضِيِّ في ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قوله ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إيمانَهم وعملَهم للصّالحاتِ أمرانِ متحقِّقانِ، وأنَّهم استحقّوا الوعدَ الكريمَ بَعدَ بذلِ المطلوبِ منهم.

مَن طلبَ المَكْرُماتِ؛ بذلَ مَهْرَها

بلاغةُ عطفِ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

عَطْفُ عملِ الصّالحاتِ على الإيمانِ في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للإشارةِ إلى تصديقِ دعواهم[2]، وبيانِ أنَّ الإيمانَ الكاملَ والإذعانَ الصّادقَ يلزمُهما العملُ الصّالحُ، واقترانُ الإيمانِ بالعملِ الصّالحِ يناسبُ مقامَ الوعدِ الكريم، وقد جرَت عادةُ القرآنِ الكريم بقَرْنِ الإيمانِ بالعملِ الصّالحِ في كثيرٍ مِنَ المواضع.

المؤمنُ الحقُّ يقرنُ العملَ بالتَّصديقِ

سرُّ التَّعبيرِ بالعملِ:

اختيرَ العملُ دونَ الفعلِ في قوله ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنَّ العملَ يكونُ بقصدٍ، فهو أخصُّ مِنَ الفعلِ؛ لأنَّ الفِعْلَ قد يُنسَبُ إلى الحيواناتِ الَّتي يقعُ منها فعلٌ بغيرِ قصدٍ، وقد يُنسَبُ إلى الجماداتِ، والعملُ قلَّما يُنسَبُ إلى ذلكَ، وبناءً على ذلكَ يكون عملُ المؤمنينَ للصّالحاتِ مقرونًا بالقصدِ والنِّيَّةِ.

عملُ الصّالحاتِ مقرونٌ بالقَصْدِ والنِّيَّةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 345.

(2) الشربيني، السراج المنير: 4/ 59.

دلالة جَمعِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

طرقَ الصَّحابةُ جميعَ أبواب الخير

نظَم القرآنُ معمولَ العمل مجموعًا في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للدَّلالةِ على تنوُّعِ الصّالحاتِ وكثرتِها، وأنَّ الصَّحابةَ الكرامَ ﵃ قد طرقوا مختلفَ أبوابِ الخيرِ، وهذهِ الدَّلالةُ تأسيسيَّةٌ؛ إذا كانَت (أل) للعهد الذِّهنيِّ، وعلى كونها للجنس؛ فإنَّ في الجمعيَّة إبلاغًا في تقرير دلالة الجنس؛ توكيدًا لمعنى عظيم اجتهادهم في طاعة اللّه تعالى، وأنَّ هذا الثَّناءَ البالِغَ عليهم لم يكُن خواءً مِن الاجتهادِ العَليِّ.

بلاغةُ الإيجازِ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

الاستغناءُ بالصِّفةِ عن الموصوفِ سُنَّةٌ عربيَّةٌ

حُذِفَ الموصوفُ في قوله ﷻ: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ - والتَّقديرُ: (الأعمالَ الصّالحاتِ) - إيجازًا، وإشارةً إلى أنَّهم يأتون ما الصَّلاحُ فيه جِدٌّ ظاهرٍ وكاملٍ، كأنَّ العملَ معروفٌ مشهورٌ به، ولأنَّ الصّالحاتِ جمعُ صالحةٍ، وهي الفَعْلَةُ الحسنةُ، وهي في الأصلِ صفةٌ جرَت مَجْرَى الأسماءِ، لأنَّهم يقولونَ: (صالحة)، و(حسنة)، ولا يُقدِّرون موصوفًا محذوفًا.

معنى (مِنْ) ودلالة التَّعبير بها:

أصحابُ الرَّسول هم خيرةُ المؤمنين

يجوزُ أن تكونَ (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم﴾ للبيانِ؛ لأنَّهُ وعدٌ للجميع، وهذا استعمالٌ كثيرٌ[1]، ويجوزُ أن تكونَ للتَّبعيضِ؛ لأنَّهُ وعدٌ لكلِّ مَن يكونُ معَ النَّبيِّ ﷺ في الحاضرِ والمستقبلِ، سواءٌ كانوا مِن أصل الزَّرع، وهم الصَّحابة، أو فراخه الَّتي أخرجَها، وهم التّابعون لهُم بإحسانٍ، فيكون ذِكر (مِنْ) تحذيرًا للمخاطَبين، فقد كان الخللُ فيمَن بعدَ الصَّحابة كثيرًا، وهو لا يُنافي المغفرةَ للصَّحابة الكرام؛ لأنَّ جميعَهم آمنوا، وعملوا الصّالحاتِ، وأصحابُ الرَّسولِ ﷺ هم خيرةُ المؤمنينَ[2].

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 345، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 503.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 210، والبقاعي، نظم الدرر: 7/ 218.

عملُ الصّالحاتِ حالُ الصَّحابةِ وسببُ تميُّزهم

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

أُخِّرَ قولُه: ﴿مِنۡهُم﴾ عن قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في قوله تعالى هنا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم﴾، وقُدِّمَ عليهِ في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [النور: 55]؛ لأنَّ عملَ الصّالحاتِ لا ينفكُّ عنهُم في سورة الفتح، وهو ثمَّةَ لبيانِ الخلفاءِ، والعملُ الصّالحُ ليسَ بلازمٍ لهُم حتَّى لا ينعزلوا بالفسقِ(1).

ولَمّا كان الكلامُ هنا في الَّذين معه ﷺ، وكانت المَعيَّةُ ظاهرةً في الاتِّحادِ في الدّينِ؛ لم تكُن شاملةً للمنافقين، فلم يكن الاهتمامُ بالتَّقييد بـ﴿مِنۡهُم﴾ هنا، كالاهتمام به في سورة النّور، فأخَّرَه، وقدَّمَ العملَ هنا؛ لأنَّ العنايةَ به أكثرُ؛ لأنَّه مِن سيماهُم المذكورةِ(2).

غرضُ تنكيرِ ﴿مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا﴾:

تنكيرُ المغفرةِ والأجرِ في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ للتَّعظيم، أي: مغفرةً وأجرًا، لا يُقادَرُ قَدْرُهما، وهذا هو الألصقُ بِعِظَم الوعدِ الكائنِ مِن ملِك الملوك سبحانه.

نكتةُ عطفِ الأجرِ على المغفرة:

الجمعُ للمؤمنينَ بينَ المغفرةِ والثَّوابِ

عُطِفَ الأجرُ العظيمُ على المغفرةِ في قوله ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾؛ لإفادة أنَّ اللّه تعالى جمعَ لهُم بينَ غُفرانِ الذُّنوبِ، وبينَ الجنَّةِ الَّتي هي الأجرُ العظيمُ(3)، فقد غَفَرَ لهم أخطاءهم وتقصيرَهُم في عبادته تعالى، ثمَّ زادَ في إحسانهم بإعطائهم ذلك الأجر العظيم.

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 69.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 218.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 295.

بلاغةُ وصفِ الأجرِ بالعِظَمِ:

وُصِفَ الأجرُ بالعِظَمِ في قوله تعالى: ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ لأنَّه الألصقُ بمقامِ الثَّناءِ عليهم على الجملة، ولأنَّ المرادَ بهِ الجنَّةُ الَّتي هي أكبرُ نعمةٍ وأعظمُ مِنَّةٍ[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الشِّدَّةُ والقوَّةُ:

صلابةُ تعاملِ الصَّحابةِ معَ الكفّارِ

الشِّدَّةُ في الأصلِ: مبالغةٌ في وصفِ الشَّيءِ في صلابةٍ، وليسَ هو مِن قبيلِ القدرةِ، والقوَّةُ مِن قبيلِ القدرةِ[2]، وقد عُبِّرَ بالشِّدَّةِ هنا لِما تدلُّ عليهِ مِنَ المبالغةِ في صلابةِ تعاملِ الصَّحابةِ معَ الكفّارِ.

الابتغاءُ والرَّجاءُ:

الصَّحابةُ يطلبونَ الفضلَ والرِّضوانَ مِن أبوابِهما

الابتغاءُ يدلُّ على الطَّلبِ العظيمِ[3]، والرَّجاءُ يدلُّ على الأملِ[4]، وقد عُبِّرَ بالابتغاءِ هنا؛ لأنَّهُ يشيرُ إلى أنَّ الصَّحابةَ يُقدِّمونَ أعمالًا تُؤهِّلُهم لفضلِ اللهِ ورضوانه، لا أنَّهم يأمُلونَ ذلكَ فقط.

الزَّرعُ والشَّجرُ والنَّباتُ:

تدرُّجُ أمرِ الصَّحابةِ مِنَ الضَّعفِ إلى القوَّةِ

الزَّرعُ: ما ينبتُ من غيرِ ساقٍ، والشَّجرُ: ما لهُ ساقٌ وأغصانٌ، والنَّباتُ يعمُّ الجميعَ؛ لأنَّهُ ما ينبتُ مِنَ الأرضِ، أي: يخرجُ منها[5]، وقد اختيرَ التَّعبيرُ بالزَّرعِ هنا؛ لأنَّهُ في تدرُّجه مِنَ الضَّعفِ إلى القوَّةِ أنسبُ بتمثيلِ حالِ الصَّحابةِ في انتقالِهم مِنَ القلَّةِ والضَّعفِ إلى الكثرةِ والقوَّةِ.

---

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 67.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 107.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجو).
(5) الجزائري، فروق اللغات، ص: 141.

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

المكّي والمدنيُّ:

سورة الحجرات
سورةٌ مدنيَّة

سورة الحجرات كُلُّها مدنيَّةٌ على قول الجمهور(1)، ونقل السُّيوطيُّ استثناء آية منها، وهي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: 13]، فإنَّها نَزَلَت بمَكَّةَ يومَ الفَتحِ لَمّا رَقيَ بِلالٌ على ظَهرِ الكَعبَة، وأذَّنَ، فقال بعضُ النّاسِ: أهَذا العبدُ الأسوَدُ يُؤَذِّنُ على ظَهرِ الكَعبَة(2)؟ وعَقَّب ابنُ عاشور على هذا الرَّأي بقوله: "ولم يثبُت أنَّ تلك الآيَة نَزَلَت بِمَكَّةَ"(3)، ثمَّ إنَّه لو صحَّت الرِّواية؛ فالآيةُ تُعَدُّ مدنيَّةً، لنزولها بعد الهجرة، فالضّابط في المكّي والمدنيِّ عند جمهور العلماء هو الضّابط الزَّمانيُّ، وليس المكاني.

ترتيب النُّزول وترتيب المصحف، وعدُّ الآي:

هذه السّورة هي التّاسعة والأربعون في التَّرتيب المصحفيِّ الشَّريف، وهو التَّرتيب الثّابت والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، فقد جاء ترتيبها بين سورتَي (الفتح) و(ق)، وهي الخامسة بعد المئة في ترتيبها النُّزوليِّ(4)، وقيل: إنَّ ترتيبها الثّامِنَةُ بَعدَ المئةِ في ترتيبِ نُزولِ السّوَرِ، نزلَت بَعد سورَةِ (المُجادلة)، وقَبلَ سورةِ (التَّحريمِ)(5)، أي: إنَّها مِن أواخر ما نزل(6).

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 144، والسّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 79، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 213.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 79.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 213.
(4) دروزة، التّفسير الحديث: 8/ 496.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 213.
(6) دروزة، التفسير الحديث: 8/ 298.

وأمّا عدد آياتها؛ فهي ثَماني عشرَة آيَةً في جَميع العدَد، لَيسَ فيها اختِلافٌ، ولَيسَ فيها مِمّا يشبه الفواصل شَيءٌ(1).

اسمُ السّورة وسبب تسميتها:

اشتُهرت سورةُ الحجرات بهذا الاسم

وَرَدَت تسميتُها بسورة (الحجرات) في كتب السُّنَّة والتَّفسير، قال ابن عاشور: "ليس لها اسمٌ غيرُهُ"(2)، فقد ذكَرَ البخاريُّ والتِّرمذيُّ تسميتَها بذلك(3)، وقَد ذَكَر كثيرون أنَّ تسميتَها بذلك إنَّما كان لورود هذه اللَّفظة فيها(4).

وتُسمّى أيضًا في بعض كُتُب التَّفسير بسورة (الأخلاق والآداب)، فَقَد أرشَدت إلى آداب المجتمع الإسلاميِّ، وكيفيَّة تنظيمه، وأشادت بمكارم الأخلاق، وفضائل الأعمال(5).

وقد قام البِقاعيُّ بالرَّبط بين اسمها ومقصودها الأعظم، فقال: "ومقصودُها توقيرُ النَّبيِّ ﷺ، وحفظ ذلك مِن إجلاله بالظّاهر؛ ليكون دليلًا على الباطن، فيُسمّى إيمانًا، كما أنَّ الإيمان باللّه تعالى يُشترط فيه تَقَبُّل الأعمال الظاهرة، والإذعان لفعلها بشرائطها وأركانها وحدودها؛ لتكون بيِّنةً على الباطن، وحجَّةً شاهدةً له، واسمُها (الحجرات) واضِحُ الدَّلالة على ذلك، بما دلَّت عليه آيته مِن ذمِّ المُنادينَ، والتَّلويحِ لهم إلى الإقبال على ما يحصِّل المغفرة، بأنَّهم قد ارتكبوا ما كانوا به مِن المُذنِبين"(6)، والحقُّ أنَّ هذه السّورة قد عالجت أخصَّ الآداب والأخلاق، الَّتي يجب أن يتحلّى بها المؤمنون في تعاملهم.

(1) الداني، البيان في عد آي القرآن، ص: 230.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 216.
(3) البخاري، صحيح البخاري، باب: تفسير سورة الحجرات: 4/ 1832، والترمذي، سنن التّرمذيّ، بابٌ: ومِن سُورةِ الحُجُراتِ: 5/ 387.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 216.
(5) الزحيليّ، التّفسير المنير: 26/ 211.
(6) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 6.

المحور العامُّ للسّورة:

محـورُ الـسّـورة يقوم على بيان الآداب والأخلاق الواجبِ اتِّباعُها مع القائد ومع المؤمنين

جاءت هذه السّورةُ الكريمة؛ لتُبيِّنَ معالم المنهج الأخلاقيِّ الواجب على المؤمنين التّعاملُ به مع مصادر التَّشريع الأولى، أي: مع اللّه ومع النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ بعد ذلك مع المؤمنين، سواء أكانوا ملتزمين أم باغين، ثمَّ بعد ذلك مع النّاس كافّة، يقول الرّازيُّ: هذه السّورَةُ فيها إرشادُ المؤمنين إلى مَكارِمِ الأخلاقِ، وهي إمّا مع اللّه تعالى، أو مع الرَّسولِ ﷺ، أو مع غَيرهم من أبناءِ الجِنسِ، وهم على صِنفَينِ؛ لأنَّهم إمّا أن يكونوا على طَريقَةِ المؤمنين، وداخلين في رُتبَةِ الطّاعةِ، أو خارجًا عنها، وهو الفاسِقُ، والدّاخِلُ في طائِفَتِهمُ السّالِكُ لطريقَتهم: إمّا أن يَكونَ حاضِرًا عندهم، أو غائِبًا عنهم، فهذه خمسةُ أقسامٍ، **أحدها**: يَتَعَلَّقُ بجانِبِ اللّه، **وثانيها**: بجانِبِ الرَّسولِ، **وثالِثُها**: بجانِبِ الفُسّاقِ، ورابِعُها: بالمُؤمِنِ الحاضِرِ، وخامِسُها: بالمُؤمِنِ الغائِبِ، فذَكَرَهم اللّه تعالى في هذه السّورَةِ خَمسَ مَرّاتٍ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وأرْشَدهم في كُلِّ مَرَّةٍ إلى مَكرُمةٍ مع قسمٍ مِن الأقسامِ الخَمسَةِ[1].

موضوعاتُ السّورة وخصائصها:

مَـدارُ الـسّـورة يدور حولَ آداب التَّـعـامـل بين المسلمين

قامت هذه السّورة على بيان الآدابِ والأخلاق الَّتي يجب أن يتَّصف بها المؤمنون في تعاملهم مع اللّه، ومع رسوله، ومع المؤمنين، وغيرهم؛ لذلك سمّوها سورة الأخلاق، وتفصيل ذلك كما سيأتي:

أوّلًا: بدأت بالنَّهي عن تقديم مقترحاتٍ أو آراء أمام الوحي الإلهيِّ، والنَّهي عن إساءة الأدب مع النَّبيِّ ﷺ؛ لكونه المبلِّغَ عن ربِّه، فَنَهتهُم عن رفع الصَّوت بحضرته، وعن مناداته بصوتٍ عالٍ مِن وراء حُجُراته.

ثانيًا: نبَّهت السورة على ضرورة تحرّي الأخبار، والتَّثبُّت من

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 97 - 98.

مصادر المعلومات، الَّتي تأتيهم مِن غير طريق الوحي، حتّى لا يقعوا في الزَّلل بسبب جهالتهم حقيقتها.

ثالثًا: بيَّنت السورة أنَّ حُبَّ الخير مركوزٌ في فِطَرة النّاس، وكذلك كُرْهُ الكُفرِ والعصيان، فأصل خِلقتهم مجبولٌ على الفطرة السَّليمة.

رابعًا: وضَّحت السورة منهجيَّة التَّعامل مع النِّزاعات الدّاخليَّة لحظةَ حدوثها، وضرورةَ احتوائها؛ بسبب رابطة الأخوَّة الَّتي تجمعهم.

خامسًا: حذَّرت السورة مِن بعض الأمراض الاجتماعيَّة، والَّتي مِن شأنها أن تَفُتَّ في عَضُد البِنيَةِ الاجتماعيَّة المُتماسِكة، وأن تدُقَّ ناقوس الخَطَر في وحْدة المجتمع الإنسانيِّ، فَنَهَت عَن السُّخرية واللَّمز والتَّنابز بالألقاب، والظَّنِّ السَّيِّئ، والغيبة، والتَّجسُّس.

سادسًا: وجهت السّورة نداءً عامًّا إلى الإنسانيَّة جمعاء، مُذكِّرةً إيّاهم بوَحْدة أصلهم، والرَّوابط الَّتي تجمعهم، حتّى لا يقعوا في التَّمييز العنصريِّ والعرقيِّ، وأن تُقرِّر لهم مبدأ التَّفاضل الحقيقيِّ بينهم، والَّذي لا يَستند إلى معاييرهم المادّيَّة الظّاهرة، بل يَستند إلى معيارٍ خفيٍّ يقومُ على التَّقوى؛ لذا لا تفاوتَ ظاهرٌ بينهم، بل هو بينهم وبين ربِّهم.

سابعًا: خُتِمت السّورة بالكلام عن الأعراب، فميَّزت بين الإيمان والإسلام، وذكرت غُرَّةَ صفات المؤمنين، وشروط المؤمن الكامل، وعابت المنَّ على الرَّسول ﷺ بالإسلام، ووضعت ضابط احترام القيم الدينيَّة والأخلاقيَّة، وهو مراقبةُ اللّه ﷻ لعباده[1].

الخصائصُ الموضوعيّة لسورة الحجرات:

تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها تناولت موضوعاتٍ لم ترِد في غيرها مِن السّور، مثلُ:

أوّلًا: تناولَتِ السّورة النَّهيَ عن التَّقديم بين يدي اللّه ورسوله، وعن رفعِ الصَّوت فوق صوت رسوله، وبيانَ حال أولئك الَّذين كانوا ينادونه مِن وراء حجراته، وحُكْمَ نقْلِ الأنباء بين المؤمنين دون تثبُّت.

ثانيًا: بيَّنت أنَّ اللّه تعالى هو الَّذي زيَّن للنّاس الإيمان في قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وحُكْمَ قتال البغاة، وكذلك حُكْمُ السُّخرية بالمؤمنين، واللَّمزِ والتَّنابز

(1) الزحيليّ، التّفسير المنير: 26/ 212 - 213.

تميَّزت سورة الحجرات بخصائص أفردتها عن غيرها مِن السّور

بالألقاب، وسوءِ الظَّنِّ بالمؤمنين، والتَّجسُّس والغيبة، وبيان علَّة تنوُّع الخلْق، وبيان معيار التَّفاضل بين النّاس، وحال الأعراب المدَّعين للإيمان، ومنَّة الله على النّاس، بأن هداهم للإيمان، وغير ذلك.

ثالثًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها حوت آيةً تُعدُّ ميثاقًا مِن مواثيق حقوق الإنسان على هذه البسيطة؛ لأنَّها قضَت على التَّمييز العنصريِّ والعرقيِّ بين البشر، وألغت كلَّ معايير التَّفاضل المادّيَّة، وجعلت معيارًا معنويًّا واحدًا للتَّفاضل بين البشر، قائمًا على التَّقوى، وهي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: 13].

الخصائصُ الأسلوبيَّة لسورة الحجرات:

أوّلًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّ ثُلُثَ آيها استهلَّ بأسلوب النِّداء، فقد كان النِّداءان الأوَّلان فيها يتعلَّقان بأدب التَّعامل مع الله ورسوله، وتلا ذلك نداءات ثلاثة للمؤمنين، تعلَّقت بأحكام التَّعامل بينهم، مِن ضرورة التَّثبُّت مِن الأخبار، والنَّهي عن بعض الآفات الاجتماعيَّة الَّتي يتعلَّق معظمُها بآفات اللِّسان، ثمَّ كان النِّداء الأخير للنّاس كافَّةً؛ لبيان علَّة تنوُّعهم، وبيانِ معيار تفاضلهم.

ثانيًا: تميَّزت السّورة الكريمة بتزاحم الأوامر والنَّواهي فيها؛ نظرًا لكثرة توجيهاتها والآداب الَّتي دعت إليها؛ إذ بلغ عددُ هذه الأوامر نحوَ ثلاثةَ عشرَ (13) أمرًا[1]، وتكرَّر فيها الأمر بتقوى الله ثلاث مرّات، والأمرُ بالإصلاح بين المؤمنين ثلاث مرّات أيضًا، وتكرَّرت النَّواهي نحو تسع (9) مرّات[2]، فضلًا عن كثرة الجُمل الخبريَّة الَّتي أفادت أمرًا أو نهيًا.

(1) الآيات: 1، 6، 7، 9 (5 مرة)، 10، 12 (2 مرة)، 14 (2 مرة).
(2) الآيات: 1، 2 (2 مرة)، 11 (3 مرة)، 12 (2 مرة)، 17.

ثالثًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها حوت صورةً فنّيَّةً فريدةً في نوعها، مِن خلال التَّشبيه الضِّمنيِّ التَّمثيليِّ لحال المُغْتاب في قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ [الحجرات: 12]؛ إذ جاء هذا التَّشبيه في هيئة سؤالٍ إنكاريٍّ تعجيبيٍّ.

رابعًا: تميَّزت السّورة الكريمة بكثرة ذِكر بعض الألفاظ فيها، والَّتي ترتبط بمحورها العامِّ؛ إذ وردت فيها لفظة الجلالة صريحة نحوَ سبعٍ وعشرينَ مرَّةً؛ بخلاف ضمائر العظمة العائدة إليها، وكذلك لفظة الإيمان بمشتقّاتها المختلفة؛ إذ وردت خمسَ عشرةَ مرَّة(1).

خامسًا: ذُيِّلت ثماني آيات مِن آي السّورة الكريمة - أي: بنسبة تقرب للنصف - بأسماء اللّه الحسنى(2)، وهي إمّا مقترنة مع أسماء أخرى، أو مفردة؛ إذ يُلاحظ أنَّ أكثرها تكرارًا كان صفةً للعِلْم، وربَّما كان ذلك؛ لأنَّ هذه الأوامر والنَّواهي - الَّتي حفلت بها السّورةُ - تستوجب التَّذكيرَ بهذه الصِّفة، حتّى يوقنوا بعلم اللّه تعالى المطلق بسائر أحوالهم.

سادسًا: تميَّزت السّورة بكثرة الألفاظ الدّالَّة على المعاصي فيها، سواءٌ أكانت ألفاظًا عامَّة، أم خاصَّة، فقد ذكرت: الكفر، والفسوق، والعصيان، والإثم، والبغي، والظُّلم، والكذب، والنِّفاق، والتَّقديم بين يدي اللّه ورسوله، ورفع الصَّوت بحضرة الرَّسول ﷺ، ونداء النَّبيِّ ﷺ بأسلوبٍ لا يليق، وعدم التَّثبُّت مِن الأخبار، والبغي على المؤمنين، والسُّخرية، واللَّمز، والتَّنابز بالألقاب، والظَّنِّ السَّيِّئ، والغيبة، والتَّجسُّس، وادِّعاء الإيمان، والمنِّ بالإسلام، وغير ذلك.

سابعًا: حوت السّورة الكريمة مجموعةً مِن التَّقابلات بين عدَّة أحوالٍ وأوصاف، مثلُ: رفع الصَّوت أمام الرَّسول ﷺ، وغضّه، والإيمان والكفر، والحبِّ والكره، والبغي والفيء، والقسط والظُّلم، والذَّكَر والأنثى، والصِّدق والكذب، والشُّعوب والقبائل والأعراب، والإيمان والإسلام، والإيمان والرَّيب، وغير ذلك.

ثامنًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها كانت زاخرةً بأنساقٍ تعبيريَّةٍ خاصَّةٍ بها، حتّى كأنَّ كلَّ تراكيبها كانت كذلك، ممّا يُؤكِّد أنَّ لهذه السّورة نظمًا خاصًّا بها، وهي بهذا تُشْبِه

(1) الآيات: 1، 2، 6، 7، 9، 10، 11 (2 مرة)، 12، 14 (3 مرة)، 15 (2 مرة)، 17.

(2) الآيات: 1، 5، 8، 12، 13، 14، 16، 18.

سورة محمَّد والفتح اللَّتيْن سبقتاها بخصوصيَّة تركيباتها وأنساقها التَّعبيريَّة، كقوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾، و﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾، ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾، وهكذا هي بقيَّة آيات السّورة الكريمة.

تاسعًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها حوت أبنيةً صرفيَّةً لم تأتِ في غيرها مِن السّوَر، مثلُ: ﴿يَدَيِ ٱللَّهِ﴾، و﴿تَرۡفَعُوٓاْ﴾، و﴿أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾، و﴿صَوۡتِ﴾، و﴿أَصۡوَٰتَهُمۡ﴾، و﴿تَجۡهَرُواْ﴾، و﴿يَغُضُّونَ﴾، و﴿ٱمۡتَحَنَ﴾، و﴿يُنَادُونَكَ﴾، و﴿ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾، و﴿يُطِيعُكُمۡ﴾ [الحجرات: 7]، و﴿حَبَّبَ﴾ [الحجرات: 7]، و﴿وَكَرَّهَ﴾ [الحجرات: 7]، و﴿ٱلۡفُسُوقُ﴾ [الحجرات: 7][الحجرات: 11] (مرّتين)، و﴿وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ [الحجرات: 7]، و﴿بَغَتۡ﴾ [الحجرات: 9]، و﴿تَبۡغِي﴾ [الحجرات: 9]، و﴿تَفِيٓءَ﴾ [الحجرات: 9]، و﴿فَآءَتۡ﴾ [الحجرات: 9]، و﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾ [الحجرات: 9]، و﴿أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ [الحجرات: 10]، و﴿يَسۡخَرۡ﴾ [الحجرات: 11]، و﴿تَلۡمِزُوٓاْ﴾ [الحجرات: 11]، و﴿تَنَابَزُواْ﴾ [الحجرات: 11]، و﴿بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ [الحجرات: 11]، و﴿تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: 12]، و﴿يَغۡتَب﴾ [الحجرات: 12]، و﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾ [الحجرات: 12]، و﴿شُعُوبًا﴾ [الحجرات: 13]، و﴿وَقَبَآئِلَ﴾ [الحجرات: 13]، و﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات: 13]، و﴿أَكۡرَمَكُمۡ﴾ [الحجرات: 13]، و﴿أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: 13]، و﴿أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات: 14]، و﴿يَلِتۡكُم﴾ [الحجرات: 14]، و﴿يَرۡتَابُواْ﴾ [الحجرات: 15]، و﴿إِسۡلَٰمَكُمۖ﴾ [الحجرات: 17]، وغير ذلك، وارتباطُ بعضِ هذه الألفاظ بالآداب الَّتي أخَذَت السّورةُ الكريمة على عاتقها الدَّعوةَ إليها وتقريرَها: ظاهرٌ.

مناسبةُ سورة الحجرات لما قبلها:

هذه السّورةُ متَّصلةٌ تمامًا بالسّورتَيْن اللَّتيْن سَبَقَتاها، وهما سورتا (محمَّد) و(الفتح)، فهذه السّورُ الثَّلاثةُ مدنيَّة، وكلُّ واحدةٍ منهما تُكمِّل الأخرى، فسورة (محمَّد) بيَّنت وجوب اتِّباع النَّبيِّ ﷺ، وأعلنت النَّفير على الخارجين عن طاعته، ثمَّ جاءت سورة (الفتح)؛ لتبيِّن المبشِّرات الَّتي أعدَّها اللَّه تعالى؛ لأتباع نبيِّه في الدُّنيا والآخرة، ثمَّ تأتي هذه السّورة (الحجرات)؛ لتبيِّن آداب التَّعامل مع نبيِّه مِن قِبَل أتباعه، فضلًا عن أعدائه.

ويمكن إيجازُ بعضِ وجوه رَبطِهما في النِّقاط الآتية:

أوّلًا: في السورة المتقدمة لَمّا جَرى منهم مَيلٌ إلى الامتِناعِ، مِمّا أجاز النَّبيُّ ﷺ مِن الصُّلح، وترْكِ آية التَّسمية والرِّسالة، وألزَمَهم كَلِمَة التَّقوى؛ كأنَّ رَسولَ اللَّه ﷺ، قالَ لهم على سَبيلِ العُمومِ: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾، ولا تتَجاوَزوا ما يَأمُرُ اللَّه تَعالى ورَسولُهُ به.

سورة الحجرات متّصلةٌ تمامًا بسورة (الفتح) مضمونًا وأسلوبًا

ثانيًا: لَمّا بَيَّنَ اللّه تَعالى مَحَلَّ النَّبيِّ ﷺ وعُلوَّ دَرَجَته، بِكَونه رَسوله الَّذي يُظهِرُ دينَه؛ قالَ: لا تَتركُوا مِن احترامه شَيئًا، لا بالفِعلِ، ولا بالقَول، ولا تَغتَرّوا برَأفَته، وانظُروا إلى رِفعةِ دَرَجَته.

ثالثًا: وَصَف اللّه تعالى المؤمنين بكَونهم أشِدّاء ورُحماءَ فيما بَينَهم راكِعين ساجدين؛ نَظَرًا إلى جانِبِ اللّه تعالى، وذَكَرَ أَنَّ لهم مِن الحُرمَةِ عند اللّه ما أورَثَهم حُسن الثَّناءِ في الكُتُب المتقَدِّمة بقَوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ﴾، فَإِنَّ الملِكَ العَظيم لا يذكرُ أحدًا في غَيبَته إلّا إذا كان عنده مُحترَمًا، ووعَدَهم بالأجر العَظيم، فقال في هذه السّورة: لا تَفعلوا ما يوجِب انحِطاطَ درجَتكم، وإحباطَ حسناتكم[1].

رابعًا: تحدَّثَت سورة الفتح عن صلح الحديبية الَّذي كان فتحًا مبينًا، مع أنَّه لم يظهَر وجهُ الفتح لكثير مِن الصَّحابة، وفي سورة الحجرات قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ [الحجرات: 7].

خامسًا: سورة الفتح تحدَّثَت عن الجهاد، وما يَتبَعُه مِن نصرٍ وفتوحات، ومِن ثَمَّ دخول الناس في دين اللّه أفواجًا، ممّا يعني تكوُّن مجتمعٍ إسلاميٍّ كبير، وطبيعةُ الاجتماع قد يحصل فيه اختلافٌ قد يَصِل إلى حدِّ القتال فيما بينهم، وسورةُ الحجرات بيَّنَت السَّبيل في حال حدوث ذلك، وهو الصُّلح بينهم.

سادسًا: في سورة الفتح تحدَّثَت عن النِّفاق والمنافقين، وهذا الصِّنْف يُبطِن ما لا يُظهِر، وقد يعمل على الإفساد الَّذي منه نشْرُ الشّائعات، ولهذا وُضِع في سورة الحجرات منهجُ التَّعامُل مع الأخبار؛ إذ به يكون تماسُك المجتمع الدّاخلي.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 91.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١﴾ [الحجرات: 1]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

هذه الآيةُ مِن تمام ما قبلَها

ما قبلَ هذهِ الآيةِ هو آخِرُ آيةٍ في سورة (الفتح)، وهي تُعدِّدُ أشياءَ عظيمةً مِن مناقبِ الصَّحابةِ خصوصًا، وأهلِ الإيمان التّابعينَ لهُم بإحسانٍ عمومًا، فالسّياقُ لمدحهم والثَّناءِ عليهم، ومطلعُ هذه السّورة (الحجرات) يُقرِّرُ زَلَّةً وقَع فيها بعضُ كبارِ الصَّحابةِ، وهي ارتفاعُ الصَّوتِ في حضرةِ النَّبيِّ ﷺ، كما يُبيِّنُه سببُ نزولِ الآيةِ، فقد كانَ ذلكَ مِن سيِّدِنا أبي بكرٍ الصِّدّيقِ وسيِّدِنا عمرَ بنِ الخطّابِ رضي الله عنهما، لَمّا قدِم رَكْبٌ مِن بني تميم على النَّبيِّ ﷺ، فأفادَ ذلكَ أنَّ وقوعَهُم في مِثْلِ ذلكَ لا ينفي عنهم الأفضليَّةَ الثّابتةَ لهُم، فإنَّ اللّٰه قال في ختام آخِر آية في سورة (الفتح): ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾، فذكَر المغفرة الّتي تكون لستر الذَّنْب، وأفاد أيضًا تحذيرَهُم مِن نقصِ ذلكَ الفَضْلِ بمِثْلِ هذه الزَّلَّةِ، وأنَّ المؤمنَ مهما بلغَت درجتُه في الإيمانِ؛ فهو محلُّ تهذيبٍ وتربيةٍ مِن الرَّبِّ العَليِّ تبارك وتعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾: أصلُ (قدم) يدلُّ على سبقٍ[1]، ومِن ذلكَ يقالُ: حديثٌ وقديمٌ، وقدَّمتُ فلانًا أقدِّمُهُ؛ إذا تقدَّمتُهُ[2]، ومنه قول اللّٰه ﷻ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [هود: 98]، أي: يتقدَّمهم إلَى النّار،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدم).

(2) الراغب، المفردات: (قدم).

ومَصدَرُه القَدْمُ[1]، تقول العرب: لا تُقدِّم بين يدي الإمام وبين يدي الأب، أي: لا تعجل بالأمر دونه[2].

فَمَعْنَى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ هنا: لا تَتَقَدَّموا. والمراد: النَّهيُ عن إبرامِ شيءٍ دون إذنٍ من رسول الله ﷺ[3].

2) ﴿وَٱتَّقُواْ﴾: أصلُ (وقي) يدلُّ على دَفْعِ شيءٍ عن شيءٍ بغيره[4]، ومِن ذلكَ: الوِقايةُ، وهي حفظُ الشَّيءِ ممّا يُؤذيه، ويضرُّه، والتَّقوى: جعلُ النَّفسِ في وِقايةٍ ممّا يُخافُ، وصارت التَّقوى في عُرفِ الشَّرعِ حِفظَ النَّفسِ عمّا يؤثِمُ، وذلكَ بتركِ المحظورِ، ويتمُّ ذلكَ بتركِ بعضِ المباحاتِ[5]، وهو المرادُ هنا.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

اتِّباعُ الشَّرعِ مِن آدابِ الإسلامِ الواجبة

يُخاطبُ اللّه تعالى عبادَهُ المؤمنينَ، مُؤدِّبًا لهُم بأدبٍ مِن آدابِ الإسلام، فيقولُ: يا أيُّها الَّذينَ أقرّوا بوحدانيَّةِ اللّه، وبنبوَّةِ نبيّه محمَّدٍ ﷺ: لا تَعْجَلوا بقضاءِ أمرٍ في حروبِكم أو دينِكم، قبلَ أن يقضيَ اللّه لكم فيهِ ورسولُه، فتقضوا بخلافِ أمرِ اللّه وأمرِ رسوله، وخافوا اللّه في قولِكم أن تقولوا ما لم يأذن لكم بِه اللّه ولا رسولُهُ، وفي غيرِ ذلكَ مِن أمورِكم، وراقبوهُ، إنَّ اللّه سميعٌ لِما تقولونَ، عليمٌ بما تفعلونَ، لا يخفَى عليهِ شيءٌ مِن ضمائرِ صدورِكم[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ تصديرِ الآيةِ بالنِّداءِ:

رِعايةُ حُرمةِ الشَّرعِ أمرٌ عظيمُ الشَّأنِ

افتُتِحَ قولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (قدم).
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 339.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 216.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقي).
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وقي).
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 272، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 364.

﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ بالنِّداءِ؛ لتنبيهِ المخاطَبينَ على أنَّ ما في حيِّزه أمرٌ خطيرٌ، يستدعي مزيدَ اعتنائِهم بشأنه، وفَرْطَ اهتمامِهم بتلقّيه ومراعاته(1)، ولذلكَ عُبِّرَ بأداةِ النِّداءِ للبعيدِ (يا)، و(ها) التَّنبيهِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ وصلته:

المؤمنونَ أهلُ كرامةٍ وامتثالٍ

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ في قوله تعالى شأنُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للتَّوصُّلِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ - وهو وصفُ الإيمانِ - إلى تنشيطِهم، والإيذانِ بأنَّهُ داعٍ إلى المحافظةِ عليه، ووازعٌ عن الإخلالِ بهِ(2)، ولأنَّ وصفَهم بـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ جارٍ مَجْرَى اللَّقَبِ لهم، معَ ما يُؤذِنُ به أصلُهُ من أهليَّتِهم لتلقّي هذا النَّهيِ بالامتثالِ(3).

بلاغةُ المُضيِّ في ﴿ءَامَنُواْ﴾:

مَنْ رَسَخَ إيمانُهُ؛ عظُمَت كرامتُهُ وتكاليفُهُ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ اتِّصافَهم بالإيمانِ أمرٌ قد تحقَّقَ، وثبتَ، وهم راسخونَ في الإيمانِ، ولذلكَ استحقّوا شرفَ الخطابِ والتَّكليفِ.

دلالةُ النَّهيِ في ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾:

حرمةُ التَّقديمِ بينَ يدي الله ورسوله

النَّهيُ في قوله جلَّ من قائلٍ: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ للتَّحريم، فيفيدُ أنَّ التَّقديمَ بينَ يدي الله تعالى ورسوله حرامٌ، والتَّحريمُ بصيغةِ النَّهيِ فيه أنَّ المنهيَّ عنه محلُّ عنايةٍ واهتمامٍ، ومطلوبٌ تركُه بقوَّةٍ.

دلالةُ المضارعة في ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾:

الامتناعُ عن التَّقديمِ مطلوبٌ على الاستمرارِ

عُبِّرَ بالمضارعِ في قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الامتناعَ عن التَّقديمِ مطلوبٌ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، ولتصويرِ ما كانَ في صورةِ الكائنِ، تقبيحًا وتفظيعًا لارتكابِه؛ إبلاغًا في تقريرِ النَّهيِ عنه.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 115، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 284.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 115، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 284.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 215.

التَّقديمُ والتَّقدُّمُ منهيٌّ عنه على كلِّ حالٍ

التَّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتَي قولِه: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾:

قرأ يعقوبُ: ﴿لَا تَقَدَّمُواْ﴾ بفتحِ التّاءِ والدّالِ، وقرأ الباقونَ: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ بضمِّ التّاءِ وكسرِ الدّالِ[1]، فأمّا قراءةُ الجمهورِ؛ فهي مِنَ التَّقديمِ الَّذي هو متعدٍّ، وعلى هذا؛ ففيهِ وجهانِ، أحدُهما: أن يكونَ المفعولُ محذوفًا، كأنَّهُ قيلَ: لا تُقدِّموا فعلًا بينَ يدي اللّه ورسوله، أو لا تُقدِّموا أمرًا. والثّاني: أن يكونَ مِن قبيلِ تنزيلِ المتعدّي منزلةَ اللّازمِ، كأنَّهُ قيلَ: لا ينبغي أن يصدرَ منكم تقديمٌ أصلًا، ويحتملُ أن يكونَ مِن (قدَّمَ) بمعنى (تقدَّمَ)، كـ(وجَّهَ) و(بيَّنَ)[2]، فتكونُ بمعنى قراءةِ يعقوبَ الَّتي هي بحذفِ إحدى التّاءينِ، والأصل: لا تتقدَّموا[3]، وحذفُ إحدى التّاءَينِ يشيرُ إلى أدنى مستوياتِ معنى الفعلِ المنهيِّ عنه، أي: لا يكُن منكم أدنى شيءٍ من ذلكَ.

قُبحُ تركِ الاقتداءِ والمتابعةِ للشَّرعِ

بلاغةُ المجازِ في قولِه: ﴿بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ مجازٌ بليغٌ[4]، وبيانُ ذلكَ أنَّ حقيقةَ (بين اليدين) ما بينَ العضوينِ، فتُجوِّزَ بهما عن الجهتينِ المقابلتينِ لليمينِ والشِّمالِ قريبًا منهُ، بإطلاقِ اليدينِ على ما يجاورُهما، ويحاذيهما، فهو مِنَ المجازِ المرسلِ، ثمَّ استُعيرتِ الجملةُ - وهي التَّقدُّمُ بينَ اليدينِ - استعارةً تمثيليَّةً للقطعِ بالحكمِ بلا اقتداءٍ ومتابعةٍ لمَن يلزمُ متابعتُهُ؛ تصويرًا لهُجْنته وشناعته بصورةِ المحسوسِ، كتقدُّمِ الخادمِ بينَ يدَي سيِّده في مسيره، فنُقلَتِ العبارةُ الأولى بما فيها مِنَ المجازِ إلى ما ذُكِرَ[5].

رسولُ اللهِ في منزلةٍ عليَّةٍ عندَ اللهِ

سرُّ ذكرِ اسمِ الجلالةِ قبلَ لفظِ الرَّسولِ:

ذِكْرُ اللّه ﷻ من قبلِ ذِكرِ الرَّسولِ في قوله تعالى: ﴿بَيۡنَ يَدَيِ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 376.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 349، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 91.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 5.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 133.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 70، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 104.

﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ تمهيدٌ لذكرِ رسولِ اللّه ﷺ؛ لدلالةِ هذا الاسم على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، وتعظيمٌ لحرمته وإجلاله، وفائدةُ هذا الأسلوبِ الدَّلالةُ على قوَّةِ اختصاصِ النَّبيِّ باللّه تعالى، وفي هذا تمهيدٌ وتوطئةٌ للنَّهي عن رفعِ أصواتِهم فوقَ صوته؛ لأنَّ مَن أحظاهُ اللّه بهذهِ الأَثَرةِ، واختصَّهُ هذا الاختصاصَ القويَّ؛ كانَ أدنى ما يجبُ لهُ مِنَ التَّهيُّبِ والإجلالِ أن يُخفَضَ بينَ يديهِ الصَّوتُ، ويُخافَتَ لديهِ بالكلام[1]، وفي التَّعبير باسم الجلالة ﴿ٱللَّـهِ﴾ دون غيره من الأسماء الحسنى، مناسبةٌ بمقامِ التَّنبيهِ على مكانةِ النَّبيِّ ﷺ، ومقامِ النَّهي عن إساءة الأدب معه؛ لِما في هذا الاسم العظيم مِن صفات العظمة والجلال.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿وَرَسُولِهِۦۖ﴾:

شــدَّةُ قُــربِ الرَّسولِ ﷺ مِنَ الله

إضافةُ الرَّسولِ إلى الضَّميرِ العائدِ إلى اللّه ﷻ في قوله: ﴿وَرَسُولِهِۦۖ﴾؛ لتعظيم شأنِ الرَّسولِ ﷺ، والتَّنبيهِ على أنَّهُ بالمحلِّ الأسنى عندَ اللّه ﷻ، والإشعارِ بغايةِ قُرْبه منهُ، وأنَّ ذلكَ مِنَ الظُّهورِ بحيثُ لا يخفَى، وفي ذلكَ حثٌّ على تحقيقِ النَّهي، وتوكيدٌ لهُ.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾:

المتَّقي لا يُقدِّمُ بينَ يدي الله ورسوله

عطفُ قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ على ما قبلَه، تكملةٌ للنَّهي عن التَّقديم؛ ليدلَّ على أنَّ تركَ إبرام شيءٍ دونَ إذنِ الرَّسولِ ﷺ من تقوى اللّه وحدَهُ، أي: ضدُّهُ ليسَ مِنَ التَّقوى[2]، والمتَّقي حَذِرٌ عن كلِّ ما فيهِ تَبِعَةٌ وريبٌ[3]، وهذا العطفُ بمنزلةِ ذكرِ العامِّ بعدَ الخاصِّ، وهو بمنزلةِ قولِكَ لمرتكبِ بعضِ الرَّذائلِ: (لا تفعلْ هذا، وتحفَّظ ممّا يُلصِقُ العارَ بكَ)، فتنهاهُ أوَّلًا عن عينِ ما قارفَهُ، ثمَّ تعمُّ، وتأمرُهُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 394، والطيبي، فتوح الغيب: 14/ 431.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 219.

(3) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 157.

بما لو امتثل أمرَكَ فيه، لم يرتكب تلكَ الغفلةَ[1]، وفي ذكر العامِّ بعدَ الخاصِّ تنبيهٌ على أنَّ الخاصَّ مِن أجلِ أفرادِ التَّقْوى.

دلالةُ الأمرِ في ﴿وَٱتَّقُواْ﴾:

الأمرُ في قوله ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ للوجوب، وتدُلُّ صيغةُ الأمرِ على جليلِ أهمّيَّة المأمورِ بهِ وتحقيقِه في السّياقِ، وأنَّ ذلكَ مطلوبٌ بشدَّةٍ، وفي الأمر بالشَّيء بعد النَّهي عن ضدِّه توكيدٌ شديدٌ، وتنبيهٌ بليغٌ؛ ليبتعدَ المخاطَبُ بالأمر كُلَّ الابتعاد عن أدنى أنواع المخالفة.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاتِّقاءِ:

العاقلُ يجعلُ حائلًا بينَهُ وبينَ غضبِ الله

عُبِّرَ بالاتِّقاءِ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾؛ لدلالته على وجوبِ التَّحرُّزِ الشَّديدِ ممّا يُغضِبُ الله تعالى؛ إذ يدلُّ على أنَّ المخاطَبينَ عليهِم أن يجعلوا وِقايةً بينَهم وبينَ غضبِ الله تعالى، فإنَّ التَّقوى مانعةٌ مِن أن يُضيِّعوا حقَّهُ، ويخالفوا أمرَهُ، ويُقدِموا على شيءٍ لم يعلموا رِضاهُ فيه[2].

سرُّ إيثارِ اسم الجلالةِ:

المَلِكُ الأعظمُ لا ينبغي أن يُعصَى

أوثِرَ اسمُ الجلالةِ في قوله ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ دونَ غيره ودونَ ضميرِه؛ لسبْقِ ذكرِه في قوله: ﴿بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ﴾؛ ولدلالته على صفات العظمةِ والجلالِ التي توجبُ الخوفَ منهُ ﷻ، والمعنى: (واتَّقوا المَلِكَ الأعظمَ)[3]، ففيه تعظيمُ الأمر بالتَّقوَى، وجعلُه كأنَّه مستقِلٌّ عمّا قبلَه.

علَّة الفصلِ:

مَـنِ استشعرَ مراقبةَ الله لهُ اتَّقاهُ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ، فيه معنى التَّعليلِ للنَّهي عن التَّقديم بينَ يدي الله ورسوله، وللأمرِ بالتَّقوى[4]؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّ الله مُطَّلِعٌ على أعماله اتَّقاهُ،

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 516.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 352.
(3) الشربيني، السراج المنير: 4/ 60.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 69، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 219.

وحَذرَهُ، ويجوز أن يكونَ بينهما كمالُ اتِّصالٍ؛ إذ في كلٍّ مِن النَّهي والأمرِ السّابقَيْنِ ما يلزمُ كونَه تعالى سميعًا عليمًا، وفي الجملة تهديدٌ على كلِّ حالٍ.

إحاطةُ الله بخلقه علمًا حقيقةٌ ثابتةٌ

غرضُ التَّوكيد في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

أُكِّدَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بـ: ﴿إِنَّ﴾ واسميَّة الجملةِ؛ للتَّنبيهِ على تحقُّقِ مضمونه، وحثِّ الإنسانِ على مجاهدةِ نفسه، وحملِها على الإيمانِ والطّاعةِ، ولأنّ أفعالَ العاصي أفعالُ مَن يُنكِرُ مضمونَ هذا الكلامِ، فأُكِّدَ الكلامُ رِعايةً لهذا الاعتبارِ أيضًا[1].

عِلْمُ الله بحالِ خلقه معلومٌ مُشتهرٌ

سرُّ إظهارِ اسم الجلالةِ في موضعِ إضماره:

الظّاهرُ أن يقالَ: (إنَّهُ سميعٌ عليمٌ)؛ لتقدُّم ذكرِ اسم الجلالة، لكن عُدِلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ للتَّنبيهِ على صفاتِ كماله وجلاله تعالى[2]، الَّتي تبثُّ الهيبةَ والجلالَ في النُّفوسِ، ولِتَخويف مَن يجسُرُ على التَّقدُّم أو التَّقديم بينَ يدي اللّٰه ورسولِه، ولتقويةِ استقلالِ الجملةِ بحيثُ تجري مَجْرى الأمثالِ.

تحذيرُ المخالفينَ مِن عواقبِ المخالفةِ

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ كنايةٌ بديعةٌ؛ وذلك أنَّه ليسَ المرادُ مجرَّدَ الإخبارِ بكونِ اللّٰه تعالى سميعًا عليمًا، فذلكَ معلومٌ ظاهرٌ للمخاطَبينَ، بل المرادُ التَّحذيرُ مِنَ المخالفةِ، ففي ذلكَ تأكيدٌ للنَّهي والأمرِ[3].

طاعةُ مَن كانَ محيطًا بخلقه واجبةٌ

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، معناهُ: سميعٌ لأقوالِكم، عليمٌ بأفعالِكم ومقتضَى أقوالِكم[4]، والتَّعبيرُ بهاتينِ الصِّفتينِ دونَ غيرِهما

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 353.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 353.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 219.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 145.

مِنَ الصِّفاتِ؛ لتأكيدِ ما تقدَّمَ مِنَ النَّهيِ والأمرِ، فكونُهُ تعالى يسمعُ أقوالَهم، ويعلمُ أفعالَهم، وما في قلوبِهم مِنَ التَّقوى والخيانةِ، يوجبُ عليهم ألّا يُخالفوا[1].

غَرَضُ تنكيرِ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

تنكيرُ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ للتَّعظيمِ والتَّهويلِ؛ إبلاغًا في التَّحذيرِ والتَّهديد، فَسَمعُهُ تعالى وعِلمُهُ في غايةِ الكمالِ، ولا يفوتُهُ تعالى شيءٌ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 92.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾ [الحجرات: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لا عظمةَ بحضرةِ الشّارعِ

لمّا نهى اللّه ﷻ عن التَّقديمِ المنبِئِ عن كونِهم جاعلينَ لأنفسِهم عندَ اللّه ورسوله بالنِّسبةِ إليهما وزنًا ومقدارًا، ومدخلًا في أمرٍ من أوامرِهما ونواهيهما؛ نهَى عن قولٍ يُنبئُ عن ذلكَ؛ لأنَّ مَن يرفعُ صوتَهُ عندَ غيره يجعلُ لنفسه اعتبارًا وعظمةً(1).

خفْضُ الصَّوتِ عندَ تلقّي أوامرِ الشَّرعِ ونواهيه

ولمّا ثبتَ إعظامُ الرَّسولِ ﷺ بعدمِ التَّقدُّمِ في الأمورِ بينَ يديهِ، فلا يُكلَّمُ إلّا جوابًا أو سؤالًا في أمرٍ ضروريٍّ لا يمكنُ تأخيرُهُ، وكانَ مَن يُكلِّمُهُ لذلكَ ربَّما رفعَ صوتَهُ، وكانَ رفْعُ الصَّوتِ مِنَ المشوِّشاتِ في حُسْنِ التَّلقّي للوحي، معَ ما فيهِ مِن قلَّةِ الاحترامِ والإخلالِ بالإجلالِ؛ نُهِيَ عنهُ(2).

في النَّهيِ نوعُ تفصيلٍ لما قبله

والآيَةُ شُروعٌ في النَّهيِ عن التَّجاوزِ، في كيفيَّةِ القولِ عندَ النَّبيِّ عليه السلام بعدَ النَّهيِ عن التَّجاوزِ في نفسِ القولِ والفعلِ(3).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ﴾: أصلُ (رفع) يدلُّ على خلافِ الوضعِ(4)، والرَّفعُ يقالُ تارةً في الأجسامِ الموضوعةِ؛ إذا أعليتَها عن مقرِّها، نحو: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: 93]، وتارةً في البناءِ؛ إذا طوَّلتَهُ، نحو قوله: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [البقرة: 127]، وتارةً

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 92.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 355.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 116، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 287.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رفع).

في الذِّكرِ؛ إذا نوَّهتَهُ، نحو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: 4]، وتارةً في المنزلةِ؛ إذا شرَّفتَها[1]، نحو قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: 76]، والرَّفْعُ هنا معناه: جَهْرُ الصَّوْتِ مُتجاوزًا لمُعتادِ الكلامِ، والمرادُ بعدمِ رفعِ الصَّوتِ: خفضُهُ[2]، والقَصْدُ منه بيان الأدبِ مع النَّبي ﷺ[3].

2) ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ﴾: أصلُ (جهر) يدلُّ على إعلانِ الشَّيءِ وكشفه وعُلوّه[4]، ومِن ذلكَ يقالُ: جاهرتُهم بالأمرِ، أي: عالنتُهم[5]، ورأيتُهُ جهرةً، أي: عيانًا[6]، ورجلٌ جهيرٌ، أي: رفيعُ الصَّوتِ[7]، والجَهْرَةُ: ما ظَهَرَ، ورآهُ جَهْرَةً: لم يكُن بينهما سِترٌ؛ ورأيته جَهْرَةً وكلمتُه جَهْرَةً[8]، والجَهْر في الآية معناه: قوَّةُ صَوْتِ النّاطق بالكلامِ[9]، والمرادُ: تعمَّدوا في مخاطبته القولَ اللَّيِّنَ، القريبَ مِنَ الهمسِ الَّذي يضادُّ الجهرَ، كما تكونُ مخاطبةُ المَهيبِ المُعظَّمِ[10].

3) ﴿أَن تَحْبَطَ﴾: أصلُ (حبط) يدلُّ على بُطلانٍ أو ألمٍ[11]، ومن ذلك: الحَبَطُ، وهو آثارُ الجُرْحِ أوِ السّياطِ بالبَدَنِ، ويقالُ: حَبِطَ عملُهُ؛ إذا بطلَ[12] وفسَدَ، قال الأزهري: ولا أرى حَبْطَ العَمَلَ وبُطلانَه مأخوذًا إلّا من حبَط البَطْنِ؛ لأنَّ صاحب الحَبط يَهْلِك، وكذلك عَمَل المُنافق والمُشْرِك يَحْبط[13]، والحَبْطُ - بِسُكونِ المَوَحَّدَةِ - والحُبوطُ: في الآية معناه: إفساد العمل بعد تقرُّره، والمُرادُ به: ضياعُ ثواب الأعمال وما يترقَّبه العاملُ من الجزاء عليها والفوز بها[14].

(1) الراغب، المفردات: (رفع).
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 517.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 218، و219.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جهر).
(5) الخليل، العين: (جهر).
(6) الزمخشري، أساس البلاغة: (جهر).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 238.
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، لسان العرب: (جهر).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 238.
(10) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 517.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حبط).
(12) الزبيدي، تاج العروس: (حبط).
(13) الأزهري، تهذيب اللغة: (حبط).
(14) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 145، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/ 125.

4) ﴿لَا تَشۡعُرُونَ﴾: أصلُ (شعر) يدلُّ على علم[1]، ومِن ذلكَ يقالُ: شعرتُ بكذا، أي: علمتُ عِلْمًا في الدِّقَّةِ كإصابةِ الشَّعَرِ، وسُمّيَ الشّاعرُ شاعرًا لفِطْنته ودِقَّةِ معرفتِه[2]، وأشعرتُهُ، فشَعَرَ، أي: أدريتُهُ، فدرَى[3]، والشُّعور: العِلْم الحاصل بالحواس، ومنه مشاعر الإنسان أي: حواسه[4]، ومراد به هنا: نفي العِلْم بِحُصولِ الشَّيءِ الحاصِلِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّأدُّبُ في الكلامِ مـعَ الـنَّـبـيِّ ﷺ أوجبُ الواجباتِ

يخاطبُ اللّه تعالى عبادَهُ المؤمنينَ مؤدِّبًا إيّاهم بأدبٍ جديدٍ في التَّعاملِ معَ النَّبيِّ ﷺ، ما معناه: يا أيُّها الَّذينَ صدَّقوا اللّه ورسوله، لا ترفعوا أصواتَكم بحضرةِ رسولِ اللّه ﷺ حين تتحدَّثونَ، ولا ترفعوها فوقَ صوته، ولا تُخاطِبوهُ بغلظةٍ، بل بسكينةٍ ووقارٍ وتعظيم، ولا تُنادوهُ باسمه، كما يُنادي بعضُكم بعضًا؛ خشيةَ أن تُبْطَلَ أعمالُكم، ويذهبَ ثوابُها، وأنتم لا تعلمونَ، ولا تدرونَ[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ تكريرِ النِّداءِ:

العنايةُ بأحكامِ الأدبِ معَ النَّبيِّ ﷺ

إعادةُ النِّداءِ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ استدعاءٌ منهم لتجديدِ الاستبصارِ عندَ كلِّ خطابٍ واردٍ، وتطريةُ الإنصاتِ لكلِّ حُكمٍ نازلٍ، وتحريكٌ منهم لئلّا يفتروا، ويغفُلوا عن تأمُّلِهم، وما أُخِذوا بِهِ عندَ حضورِ مجلسِ رسولِ اللّه ﷺ مِنَ الأدبِ الَّذي المحافظةُ عليهِ تعودُ عليهم بعظيمِ الجدوى في دينِهم؛ وذلكَ لأنَّ في إعظامِ مُبَلِّغِ الشَّرعِ إعظامَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شعر).
(2) المفردات، والرّاغب: (شعر).
(3) الجوهري، الصحاح: (شعر).
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 1/ 56.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 277، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 365.

ما وردَ بِهِ[1]، وفي التَّكرارِ أيضًا زيادةُ شفقةٍ على المؤمنينَ؛ لأنَّ النِّداءَ لتنبيهِ المنادَى؛ ليُقبِلَ على استماعِ الكلامِ، ويجعلَ بالَه منهُ، فإعادتُهُ تفيدُ ذلكَ[2].

بلاغةُ النِّداءِ بوصفِ الإيمانِ:

المؤمنونَ أهلُ يقظةٍ لِما يطلبُهُ الشّارعُ منهم

جيءَ بوصفِ الإيمانِ في النِّداءِ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾؛ إيذانًا بالتَّنبيهِ على ما غفلوا عنهُ، وأنَّ الإيمانَ هو الَّذي يقتضي ذلكَ[3]، وللتَّنبيهِ على أنَّ شأنَهم الانقيادُ، ففيهِ تنشيطٌ لهُم[4]، وأنَّ إتيانَ المنهيِّ عنهُ يُنْقِص الإيمانَ، ويَضُرُّه.

بلاغةُ المُضيِّ في ﴿ءَامَنُواْ﴾:

مَن رَسَخَ إيمانُهُ؛ عظُمَت كرامتُهُ وتكاليفُهُ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ اتِّصافَهم بالإيمانِ أمرٌ قد تحقَّقَ، وثبتَ، وهم راسخونَ في الإيمانِ، ولذلكَ استحقّوا شرفَ الخطابِ والتَّكليفِ.

دلالةُ النَّهيِ في ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ﴾:

حرمةُ مجانبةِ الأدبِ في مخاطبةِ النَّبيِّ ﷺ

النَّهيُ في قوله تعالى: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ للتَّحريمِ، وليسَ الغرضُ مِن رفعِ الصَّوتِ ولا الجهرِ ما يُقصَدُ بهِ الاستخفافُ والاستهانةُ؛ لأنَّ ذلكَ كفرٌ، والمخاطَبونَ مؤمنونَ، وإنَّما الغرضُ صوتٌ غيرُ مناسبٍ لِما يُهابُ بهِ العُظَماءُ، ويوقَّرُ الكُبَراءُ، ولا يتناولُ النَّهيُ أيضًا رفْعَ الصَّوتِ، الَّذي لا يتأذَّى بهِ رسولُ اللّه ﷺ، وهو ما كانَ منهم في حربٍ، أو مجادلةِ معاندٍ، أو إرهابِ عدوٍّ، أو ما أشبهَ ذلكَ[5].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 351.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 92.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 432، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 105.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 106.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 352.

دلالةُ المضارعة في ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ﴾:

وجوبُ الامتناعِ عن رفْعِ الصَّوتِ على الاستمرارِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ المجزوم في قوله تعالى: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المطلوبَ هو الامتناعُ عن رفعِ الصَّوتِ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ، ففيه ذمٌّ لِما كان، وتحذيرٌ لِما قد يكون، واستحضارٌ لصورة ما قد كان؛ تفظيعًا له وإبلاغًا في التَّرهيبِ مِن مِثْلِه.

بلاغةُ الاستعارةِ في الرَّفعِ:

الرَّفعُ مستعارٌ لجهرِ الصَّوتِ وفي الرَّفْعِ إشعارٌ بالاستعلاءِ أو النِّدِّيَّةِ

الرَّفعُ في قوله تعالى: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ مستعارٌ لجهرِ الصَّوتِ جهرًا مُتجاوزًا لمعتادِ الكلامِ، شُبِّهَ جهرُ الصَّوتِ بإعلاءِ الجسمِ في أنَّهُ أشدُّ بلوغًا إلى الأسماعِ، كما أنَّ إعلاءَ الجسمِ أوضحُ لهُ في الإبصارِ، على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، أو شُبِّه الكلامُ المُعبَّرُ عنه بالأصْوتِ بشيءٍ يُلْقَى من مكانٍ مرتفعٍ، ورُمِزَ إلى المشبَّه به المحذوفِ بشيءٍ مِن لوازمه، وهو الرَّفْعُ، على طريقة الاستعارة المكنيَّةِ، وإثباتُ اللّازمِ للمشبَّه - الَّذي هو الأصواتُ - استعارةٌ تخييليَّةٌ[1].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾:

المسؤوليَّةُ لازمةٌ لِمَن رفعَ صوتَهُ

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾ لاميَّةٌ، والمعنى: (أصواتًا لكم)، فتُفيدُ تأكيدَ نسبةِ الأصواتِ إلى أصحابِها، فإذا وقعتِ المخالفةُ برفعِ الصَّوتِ؛ فالمسؤوليَّةُ لازمةٌ لهُم، وهذا يشير إلى إلحاق الذَّمِّ بذواتهم؛ إبلاغًا في تنفيرهم مِن ذلكَ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفوقيَّةِ:

الفوقيَّةُ ترشيحٌ للاستعارةِ

التَّعبيرُ بالفوقيَّةِ في قوله تعالى: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾، ترشيحٌ للاستعارةِ في قوله: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ﴾، فهو (فوق) مجازيٌّ أيضًا[2]؛ لأنَّهُ يكونُ في الأجسامِ حقيقةً.

(1) لابن عاشور كلام قريب، يُنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 219.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 220.

بلاغةُ موقعِ قولِه: ﴿فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾:

حرمةُ مجاوزةِ المعتادِ في جهرِ الأصواتِ

موقعُ قوله تعالى: ﴿فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ موقعُ الحالِ مِن قولِه: ﴿أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾، أي: متجاوزةً صوتَ النَّبيِّ ﷺ، أي: متجاوزةً المعتادَ في جهرِ الأصواتِ، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ يتكلَّمُ بجهرٍ معتادٍ[1]، وفي نظمِ هذا المعنى حالًا إشارةٌ إلى عِلمِهم بحالِ صوتِه ﷺ، فلا عُذْرَ لهم في رفعِ أصواتِهم عليه.

سِرُّ القيدِ في قولِه: ﴿فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾:

الرَّسولُ القائدُ هو الَّذي يعلو صوتُه، ولا يُعْلَى عليه

قولُه تعالى: ﴿فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ قيدٌ؛ لكونه حالًا، ولا مفهومَ لهذا الظَّرفِ؛ لأنَّهُ خارجٌ مخرجَ الغالبِ؛ إذ ليس المرادُ أنَّهُ إذا رفعَ النَّبيُّ ﷺ صوتَهُ، فارفعوا أصواتَكم بمقدارِ رفعِه[2]، ولعلَّ فيه تنبيهًا على أنَّ صوتَ رسولِ اللهِ هو الَّذي ينبغي أن يكونَ عاليًا مهيمنًا على ما دونه مِن الأصواتِ؛ لأنَّه أشرفُ الخلْقِ، المُبَلِّغُ عن شَرْعِ ربِّه سبحانه وتعالى.

غرضُ الإضافةِ في قولِه: ﴿صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾:

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾: لتعظيمِ شأنِ هذا الصَّوتِ، والتَّنبيهِ على حرمته، فهو صوتٌ لا كالأصواتِ، هو صوتُ النَّبيِّ المبعوثِ بالحقِّ، وهذا يُرشِّحُ ما سبَق ذكرُه مِن سِرِّ القيدِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالنُّبوَّةِ:

عُبِّرَ بالنَّبيِّ في قوله تعالى: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾؛ لأنَّهُ أليقُ بمقامِ التَّبجيلِ والتَّعظيمِ، وفيهِ مناسبةٌ لِما قيلَ: إنَّ النَّبيَّ مشتقٌّ مِنَ النَّباوةِ، وهو الشَّيءُ المرتفعُ[3].

بلاغةُ عطفِ ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ﴾:

احتمالُ الجملةِ التَّأكيدَ والتَّأسيسَ

يحتملُ أن يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ تكرارًا

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 220.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 220.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 444.

للنَّهيِ الأوَّلِ لأجلِ التَّأكيدِ، فإنَّ الجهرَ هو رفعُ الصَّوتِ، ويَحتملُ أن يكونَ بينَ النَّهيين فرقٌ، وهو أنَّ الأوَّلَ فيما إذا نطقَ، ونطقوا، أو أنصتَ، ونطقوا في أثناءِ كلامه، فنُهوا أن يكونَ جهرُهم كبيرًا، والثّاني فيما إذا سكتَ، ونطقوا، فنُهوا عن جهرٍ مقيَّدٍ بما اعتادوهُ فيما بينَهم، وهو الخالي عن مراعاةِ أُبَّهةِ النُّبوَّةِ، أو يقالُ: النَّهيُ الأوَّلُ أعمُّ ممّا إذا نطقَ، ونطقوا، أو أنصتَ، ونطقوا، والمرادُ بالنَّهيِ الثّاني ألّا يُنادَى وقتَ الخطابِ باسمه أو كنيته، كنداءِ بعضِهم لبعضٍ، فلا يقالُ: يا أحمدُ، يا محمَّدُ، يا أبا القاسمِ، ولكن يقالُ: يا نبيَّ اللّه، يا رسولَ اللّه[1]، أو يقالُ: الأوَّلُ فيما إذا خاطبَ بعضُهم بعضًا، والثّاني عندَ خطابِهم الرَّسولَ ﷺ[2].

دلالةُ النَّهيِ في ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ﴾:

حُرمةُ رفْعِ الصَّوتِ عندَ نداءِ النَّبيِّ ﷺ

النَّهيُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ للتَّحريم، وفي هذا النَّهيِ ما يشملُ صنيعَ الَّذينَ نادوا النَّبيَّ ﷺ من وراءِ الحجراتِ، فيكونُ تخلُّصًا منَ المقدِّمةِ إلى الغرضِ المقصودِ، وبه يَظهَرُ حُسنُ مَوقِعِ قَولِه بَعدَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[3].

دلالةُ المضارعة في ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ﴾:

وجوبُ توقيرِ النَّبيِّ ﷺ في جميعِ الأوقاتِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قوله جَلَّ مِن قائلٍ: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ عدمَ الجهرِ مطلوبٌ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، وفيه استحضارٌ لِما وقَعَ مِن بعضِهم بقرينة سببِ النُّزول؛ تَصوُّرًا لِفعلهم كأنَّه واقِعٌ لهم عيانًا؛ إبلاغًا في ترهيبِهم وتنفيرِهم منه.

معنى اللّامِ، ودلالة التَّعبير بها:

الجهرُ المنهيُّ عنهُ متعلِّقٌ بمخاطَبته ﷺ

اللّامُ في ﴿لَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ﴾؛ لتعديةِ الفعلِ

(1) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 157.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 220.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 221.

لِما بعده؛ لأنَّ ﴿تَجۡهَرُواْ﴾ في معنى (تقولوا)، فدلَّتِ اللّامُ على أنَّ هذا الجهرَ يتعلَّقُ بمخاطبته ﷺ، وزادَهُ وضوحًا التَّشبيهُ في قوله: ﴿كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾[1]، ومعنى الاختصاصِ لا يُفارق اللّام؛ فيدلُّ على خصوصيَّته ﷺ؛ تناسُبًا مع مقام تعظيمه.

معنى الباءِ، ودلالةُ التَّعبير بها: في ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾:

الجهرُ متعلِّقٌ بالقولِ

الباءُ في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ للتَّعدية، والإلصاقُ هو الأصلُ في معنى الباءِ، فلا يُفارقها، فيدلُّ على أنَّ التصاقَ القولِ بألسنتهم جريمةٌ مُرْتَكَبةٌ في حقِّه ﷺ وأنَّ المنهيَّ عنه كأنَّه مُتعمَّدٌ؛ إبلاغًا في الذَّمِّ والتَّرهيب.

دلالةُ تعريفِ القولِ:

وجوبُ مراعاةِ المؤمنينَ الأدبَ في كلامِهم معَ النَّبيِّ

تعريفُ القولِ في قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ للعهدِ الذِّهنيِّ؛ إذ المرادُ به قولُهم الَّذي يقولونَهُ في مخاطبته ﷺ، أو للجنس المقتضي عموم الأقوال، وهو مناسبٌ لمقام التَّأديب والتَّعظيم، وفيه أنَّ أيَّ قولٍ يُقال له بالجهر المنهيِّ عنه مُراقَبٌ معلومٌ؛ إبلاغًا في التَّهديد والتَّرهيبِ.

معنى الكافِ، ودلالة التَّعبير بها:

وجوبُ ملاءمةِ الخطابِ لجلالةِ قدرِ النُّبوَّةِ

الكافُ في قوله تعالى: ﴿كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ للتَّشْبيه، وهي في محلِّ النَّصبِ، أي: لا تجهروا لهُ جهرًا مِثلَ جهرِ بعضِكم لبعضٍ، وفي ذلكَ دليلٌ على أنَّهم لم يُنْهَوا عن الجهرِ مطلقًا، حتَّى لا يسوغَ لهم أن يكلِّموهُ إلّا بالهمسِ والمخافتة، وإنَّما نُهوا عن جهرٍ مخصوصٍ مقيَّدٍ بصفةٍ، أعني: الجهرَ المنعوتَ بمماثلةِ ما قد اعتادوهُ منهم فيما بينَهم، وهو الخلوُّ من مراعاةِ أُبَّهةِ النُّبوَّةِ وجلالةِ مقدارِها[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 221.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 353، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 348.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ﴾:

جهرُكُم المعروف لديكم مرفوضٌ في خطاب الرَّسولِ

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ﴾ لاميَّةٌ، أي: كجهرٍ لبعضِكم، فتفيدُ بمعونةِ السّياقِ أنَّ الجهرَ المتَّصفَ بهذهِ الصِّفةِ منهيٌّ عنهُ في مخاطبته ﷺ، فهو جهرٌ مخصوصٌ بكم، معروفٌ لديكم، ففيها ضرْبٌ مِن الإيجازِ.

علَّةُ التَّعبير بالبَعضيَّة:

عُبِّرَ بالبعضيَّةِ في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾؛ لِما فيها مِنَ الإبهام، وعدمِ تعيينِ الجاهرينَ؛ إذ ليسَ الحديثُ عن جاهرينَ معيَّنِين.

بلاغةُ التَّعليلِ في ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾:

وجوبُ تركِ الجهرِ خشيةَ حُبوطِ العملِ

قولُهُ تعالى: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ منصوبُ الموضعِ على أنَّه مفعولٌ لهُ، وفي متعلّقه وجهانِ:

أحدُهما: أن يتعلّقَ بمعنى النَّهي، فيكون المعنى: انتهوا عمّا نُهيتُم عنهُ لحُبوطِ أعمالِكم، أي: لخشيةِ حُبوطِها على تقديرِ حذفِ المضافِ.

والثّاني: أن يتعلَّقَ بنفسِ الفعلِ، ويكون المعنى: أنَّهم نُهوا عن الفعلِ الَّذي فعلوهُ؛ لأجلِ الحُبوطِ؛ لأنَّهُ لمّا كانَ بصددِ الأداءِ إلى الحُبوطِ جُعِلَ كأنَّهُ فُعِلَ لأجله، وكأنَّهُ العلَّةُ، والسَّببُ في إيجاده على سبيلِ تشبيهِ الحالِ بالحالِ، كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: 8][1]، فتكونُ اللّامُ المقدَّرةُ لامَ الصَّيرورةِ[2]، وفي حذفِ حرفِ التَّعليلِ (اللّام) تنبيهٌ على أنَّ إتيانَ المنهيِّ عنه سرعانَ ما يتسبَّبُ في حُبوطِ العمل، وهذا غاية التَّرهيبِ منه.

دلالةُ المضارعة في ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قوله ﷻ: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾؛ لأنَّ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 354، والطيبي، فتوح الغيب: 14/ 445.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 308.

الحُبوطَ على تقديرِ الجهرِ مستقبلٌ بالنِّسبةِ لزمنِ هذا الخطابِ، ويُقوّي ذلكَ ﴿أَن﴾ الَّتي تُعيِّنُ المضارعَ للاستقبالِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالحُبوطِ:

تمثيلٌ لمآلِ الأعمالِ مِن القُبحِ والتَّشويه

الحُبوطُ في قوله تعالى: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ تمثيلٌ لعدمِ الانتفاعِ بالأعمالِ الصّالحةِ؛ بسببِ ما يطرأُ عليها مِنَ الكفرِ، وهو مأخوذٌ مِن قولِهم: حبطتِ الإبلُ؛ إذا أكلتِ الخَضِرَ، فنفخَ بطونَها، واعتلَّت، ورُبَّما هلكَت[1]، وهذه استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ.

علَّةُ التَّعبير بـ﴿أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ مادَّة وصيغةً:

مخالفةُ الأدبِ معَ النَّبيِّ ﷺ مُبْطِلٌ للعملِ

عُبِّرَ بالعملِ دونَ الفِعلِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾؛ لأنَّ لفظَ الأعمالِ فيهِ إنباءٌ عن القصدِ، ولذلكَ يختصُّ بالإضافةِ للإنسانِ، فيكونُ في إيثاره هنا إيماءٌ إلى أنَّ ما عمله الإنسانُ بقصدٍ وجهدٍ يبطلُ، ويضيعُ عليهِ؛ إنْ جهرَ الجهرَ المنهيَّ عنهُ.

وظاهرُ استعمالِ صيغةِ الجمع ﴿أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ التَّحذيرُ مِن حُبوطِ جميعِ الأعمالِ؛ لأنَّ الجمعَ المضافَ مِن صيغِ العمومِ، ولا يكونُ حُبوطُ جميعِ الأعمالِ إلّا في حالةِ الكفرِ؛ لأنَّ مِن الأعمالِ الإيمانَ، فمعنى الآيةِ: أنَّ عدمَ الاحترازِ مِن سوءِ الأدبِ معَ النَّبيِّ ﷺ بعدَ هذا النَّهيِ قد يُفضي بفاعله، إلى إثم عظيمٍ يأتي على عظيمٍ من صالحاته، أو يُفضي بِهِ إلى الكفرِ؛ لأنَّ عدمَ الانتهاءِ عن سوءِ الأدبِ معَ الرَّسولِ ﷺ، يُعوِّدُ النَّفسَ بالاسترسالِ فيه، فلا تزالُ تزدادُ منهُ، وينقصُ توقيرُ الرَّسولِ ﷺ مِنَ النَّفسِ، حتَّى يؤولَ إلى عدم الاكتراثِ بالتَّأدُّبِ معَهُ، وذلكَ كفرٌ[2]، و(الأعمالُ) جمعُ قِلَّةٍ، وهذه القِلَّةُ تُناسِبُ تسلُّطَ الحُبوطِ عليها؛ إذ لا قيمةَ لها حينئذٍ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 221.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 221.

غرضُ الإضافةِ في ﴿أَعْمَٰلُكُمْ﴾:

في الإضافة تخصيصٌ للأعمالِ

الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ على معنى اللّام، أي: أعمالٌ لكُم، وفيها معنى الاختصاص، ففيها ضَرْبٌ مِن الإيجاز، معَ توكيدِ حبوطِها، وأنَّ الحبوطَ ملتصقٌ بها - لا محالةَ - كما فيها تخويفٌ وترهيبٌ، بأنَّ العمل الَّذي يُحبط هو عملك أنت لا غيرك، الَّذي عملتَه بنفسك، وتحرَّكَت فيه جوارحُك، بكدِّ الجسد وعَرَق الجبين.

بلاغةُ الجملةِ الحاليَّةِ ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾:

العاقلُ يغلقُ بابَ الشَّرِّ دونَهُ

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ حالٌ[1]، وهو تتميمٌ للمعنى، وإعلامٌ بأنَّ النَّبيَّ ﷺ، ينبغي أن يُجَلَّ، ويُعظَّمَ غايةَ الإجلالِ والإعظام، وأنَّهُ قد يُفْعَلُ الشَّيءُ، ممّا لا يُشْعَرُ بِهِ في أمرِ النَّبيِّ ﷺ، فيكونُ ذلكَ مُهلِكًا لفاعله وقائله[2]، وإشارةٌ إلى أنَّ الرِّدَّةَ تتمكَّنُ مِنَ النَّفسِ، بحيثُ لا يشعرُ الإنسانُ، فإنَّ مَن ارتكبَ ذنبًا لم يرتكِبْهُ في عمره؛ تراهُ نادمًا غايةَ النَّدامةِ، خائفًا غايةَ الخوفِ، فإذا ارتكبَهُ مرارًا؛ يقلُّ الخوفُ والنَّدامةُ، ويصيرُ عادةً من حيثُ لا يعلمُ أنَّهُ لا يتمكَّنُ، فقولُهُ: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ تأكيدٌ للمنعِ، أي: (لا تقولوا بأنَّ المرَّةَ الواحدةَ لا توجبُ رِدَّةً؛ لأنَّ الأمرَ غيرُ معلومٍ، فاحسِموا البابَ)[3].

دلالةُ الجملةِ الاسميَّةِ ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾:

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ مضمونَها، وهو عدمُ شعورِهم أمرٌ ثابتٌ، وهذا إبلاغٌ في ذمِّهم، وفي تنفيرهم وترهيبهم مِن المنهيِّ عنه.

---

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 6.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 447، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 108.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 94.

غرضُ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ الفعليِّ في ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾:

عـدمُ شعـورِ الجاهرينَ بحُبوطِ عملِهم مؤكَّدٌ

قُدِّمَ المسندُ إليهِ على المسندِ الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾؛ لإفادةِ تقوّي الحكم، وبيانُ ذلكَ أنَّ في الجملةِ نِسبةَ ﴿لَا تَشۡعُرُونَ﴾ إلى ﴿وَأَنتُمۡ﴾، وفي ﴿لَا تَشۡعُرُونَ﴾ ضميرٌ راجعٌ إلى (أنْتُم)، فيفيدُ نسبةَ عدمِ الشُّعورِ إليهم مرَّةً أخرى، فيحصلُ التَّقوّي، كأنَّهُ قيلَ: (وأنتم لا تشعرونَ، وأنتم لا تشعرونَ)، وثمَّةَ طريقٌ آخَرُ يحصلُ به التَّقوّي، وهو ترقُّبُ النَّفْسِ وتطلُّعُها إلى معرفة الخبر عند تلقّي المسند إليه، فإذا تلقَّته، وهي مشتاقةٌ إليه؛ تمكَّنَ فيها فَضْلَ تمكُّنٍ.

سرُّ حذفِ المتعلِّق في ﴿لَا تَشۡعُرُونَ﴾:

حـذفُ المفعولِ الظّاهرِ مِنَ السّياقِ

في قوله تعالى: ﴿لَا تَشۡعُرُونَ﴾ إيجازٌ بحذفِ المفعولِ، لظهوره مِنَ السّياقِ، أي: (وأنتم لا تشعرونَ أنَّها مُحبَطَةٌ)[1]، وفي ذلك إبلاغٌ في تقريرِ النَّفي، ويحتملُ أن يكونَ الفعلُ المتعدّي قد نُزِّلَ منزلةَ اللّازم، أي: وأنتم لستم مِن أهلِ الشُّعورِ، وهذا إبلاغٌ في ذمّهم، ومآلُ الوجهينِ واحدٌ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العلمُ والشُّعورُ:

دقَّةُ بطلانِ عملِ الجاهرينَ

العلمُ: هو اعتقادُ الشَّيءِ على ما هو بِهِ على سبيلِ الثِّقةِ، والشُّعورُ: هو ابتداءُ العلم بالشَّيءِ مِن جهةِ المشاعرِ، وهي الحواسُّ؛ ولذلكَ لا يوصَفُ تعالى بأنَّهُ شاعرٌ، ولا بأنَّهُ يَشْعُرُ، وإنَّما يوصَفُ بأنَّهُ عالمٌ، ويعلمُ، وأيضًا الشُّعورُ هو إدراكُ ما دقَّ للُطفِ الحسِّ، مأخوذٌ مِنَ الشَّعَرِ لدِقَّته[2]، وقد اختيرَ الشُّعورُ في الآيةِ؛ للتَّنبيهِ على دقَّةِ بطلانِ العملِ، وأنَّ الجاهرينَ غافلونَ عنهُ غيرُ مدركِينَ لهُ بالكُلّيَّةِ.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 133، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 72.

(2) محمد داود، معجم الفروق اللغوية، ص: 372 - 374.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣﴾ [الحجرات: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّرغيبُ في الطّاعةِ بعدَ النَّهيِ عن المعصيةِ

بعدَ ذكرِ النَّهيِ عن رفعِ الصَّوتِ والجهرِ؛ ذُكِرَ الصِّنفُ المخالفُ لَمن تقدَّمَ ذكرُهُ، وهم المُتأدِّبونَ في خطابِهم للنَّبيِّ ﷺ[1]، وفي ذلكَ ترغيبٌ في الانتهاءِ عمّا نُهوا عنهُ، بعدَ التَّرهيبِ عن الإخلالِ بهِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَغُضُّونَ﴾: أصلُ (غضض) يدلُّ على كفٍّ ونقصٍ[3]، ويكونُ ذلكَ في الطَّرفِ، والصَّوتِ، وما في الإناءِ[4]. ومن ذلكَ يقالُ: اغضُض من صوتِكَ، أي: اخفِض منهُ في لينٍ[5]، والغَضُّ من الصَّوتِ: التَّنقيصُ من رفعِه وجهارتِه، وهو أيضًا: رَدُّ طُموحِ الشَّيءِ، كالصَّوتِ والنَّظرِ والزِّمامِ[6]، والمرادُ به في الآيةِ: خفضُ الصَّوتِ والميلُ به إلى الإسرارِ[7].

2) ﴿ٱمۡتَحَنَ﴾: أصلُ (محن) يدلُّ على الاختبارِ[8] والتَّجربةِ، ومنه قولهم: ومَحَنْتُه وامتَحَنْتُه: بِمَنْزِلَةِ خَبَرْتُه واخْتَبَرْتُهُ وبَلَوْتُه وابتَلَيْتُه. وأصلُ المَحْنِ: الضَّرْبُ بالسَّوْطِ[9]، وامتحنتُ الذَّهبَ والفضَّةَ؛ إذا أذبْتَهما؛ لتختبرَهما أهما خالصانِ أم لا؟[10] والمِحنةُ:

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 145، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 357.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 117، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 70.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (غضض).
(4) الراغب، المفردات: (غضض).
(5) الزمخشري، أساس البلاغة، والزبيدي، تاج العروس: (غضض)، والبقاعي، نظم الدرر: 7/ 224.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 416.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 223.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (محن).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (محن).
(10) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (محن).

واحدةُ المِحَنِ الَّتي يُمتحَنُ بها الإنسانُ مِن بليَّةٍ[1]، والامتحان في الآية معناه: الاختبارُ والتَّجربةُ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الَّذينَ يغضّونَ أصواتَهم محفوفونَ بالكراماتِ

يُخبِرُ اللّه تعالى عن حالِ المتأدِّبينَ في حضرةِ النَّبيِّ ﷺ بما معناه: إنَّ الَّذينَ يكفّونَ رفْعَ أصواتِهم عندَ رسولِ اللّه أولئكَ الَّذينَ اختبرَ اللّه قلوبَهم بامتحانه إيّاها، فاصطفاها، وأخلصَها لاتِّقائه بأداءِ طاعته، واجتنابِ معاصيه، فلهُم مِنَ اللّه عفوٌ عن ذنوبِهم السّالفةِ، وصفحٌ منهُ عنها لهم، وثوابٌ جزيلٌ، وهو الجنَّةُ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ الفصلِ:

بيانُ حالِ المتأدّبينَ معَ النَّبيِّ ﷺ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ التَّحذيرَ الَّذي في قوله تعالى: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ يثيرُ في النَّفسِ أن يسألَ سائلٌ عن ضدِّ حالِ الَّذي يرفعُ صوتَهُ[4].

غَرَضُ التَّوكيدِ في ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ﴾:

جزاءُ أهلِ الأدبِ معَ النَّبيِّ أن يكونوا محلَّ عنايةٍ واهتمامٍ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ؛ لتأكيدِ مضمونه من الثَّناءِ عليهِم، وجزاءِ عملِهم[5]، وللاهتمام به[6]، ولأنَّ في المنافقينَ وغيرِهم مَن يُكذِّبُ بذلكَ، وللتَّنبيه على أنَّهُ لمحبَّةِ اللّه لهُ ورِضاهُ بِه أهلٌ لأن يُؤَكَّدَ أمرُهُ، ويواظَبَ على فعله[7].

---

(1) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (محن).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 223.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 281، والمراغي، تفسير المراغي: 26/ 122.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 222.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 508.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 222.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 357.

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾:

الأدبُ معَ الشّارعِ أصلُ المكارمِ

جيءَ بالاسمِ الموصولِ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾؛ للإشارةِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ - وهو غضُّ أصواتِهم عندَ رسولِ اللّه - إلى علَّةِ الحُكْمِ الَّذي هو استحقاقُهم للتَّكريمِ مِنَ اللّه، وفي هذا ترغيبٌ في مضمونِ الصِّلة، فهي عنوانُ مَدحِهم والثَّناءِ عليهم.

دلالةُ المضارعةِ في ﴿يَغُضُّونَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ، كأنَّهُ قيلَ: إنَّ الَّذينَ دأبُهم وعادتُهم التَّأدُّبُ في حضرةِ الرِّسالةِ[1].

علَّةُ التَّعبيرِ بالغضِّ:

الأدبُ معَ النَّبيِّ يكونُ بخفضِ الصَّوتِ عندَهُ

في التَّعبيرِ بالغَضِّ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ؛ وذلكَ أنَّ حقيقةَ الغضِّ خفضُ العينِ، أي: ألّا يحدِّقَ بها إلى الشَّخصِ، وهو هنا مستعارٌ لخفضِ الصَّوتِ والميلِ به إلى الإسرارِ[2]، فهُم يخفضون، ويلينون لِما وقَع عليهم مِن السَّكينةِ، من هيبةِ حضرتِه ﷺ[3].

غرضُ الإضافةِ في ﴿أَصۡوَٰتَهُمۡ﴾:

وجوبُ مراقبةِ كلِّ إنسانٍ نفسَهُ عندَ مخاطبةِ النَّبيِّ

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿أَصۡوَٰتَهُمۡ﴾ بمعنى اللّامِ، أي: أصواتًا لهم، ففيها ضرْبٌ مِن الإيجازِ، وأنَّهُم لا يحتفلون بأصواتِهم في مقامِ حضرةِ الرَّسولِ، وفيها إشارةٌ إلى ضرورةِ مراقبةِ كلٍّ منهُم نفسَهُ عندَ مخاطبةِ النَّبيِّ.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿عِندَ﴾:

النَّبيُّ ﷺ محلُّ تأدُّبِ المؤمنينَ

عُبِّرَ بالعنديَّةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 453.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 222.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 224.

﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾؛ لتعيينِ موضعِ التَّأدُّبِ، وهو النَّبيُّ ﷺ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّهُ لا ينبغي أن يقعَ منهم في حضرته إلّا أكملُ الأدبِ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالرَّسولِ:

مَنْ أرسله الله حقيقٌ بكلِّ إجلالٍ

أوثِرَ الرَّسولُ على النَّبيِّ في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ - بخلافِ الآيةِ السّابقةِ - للإيذانِ بإفضالِ اللّه في حقِّ أولئكَ الكَمَلَةِ، وتأديبه إيّاهم، وأنَّهم إنَّما غضّوا أصواتَهم عندَ رسولِ اللّه الَّذي مِن شأنه أن يعلوَ كلامُهُ على كلِّ كلامٍ؛ لأنَّه مبلِّغٌ عن الملِك الأعظم، ولم يرفعوا بها مثلَ أولئكَ؛ لأنَّ اللّه زيَّنَ باطنَهم باكتساءِ لباسِ التَّقوى، حتَّى سرى إلى ظاهرِهم بالتَّأدُّبِ بينَ يدي المولى، ومَن أرسله إليهم، وأكرمَهم به[2].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾:

رسولُ العظيمِ عظيمٌ

إضافةُ الرَّسولِ إلى اسم الجلالةِ في قوله ﷻ: ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾؛ لتعظيم شأنِ الرَّسولِ بأنَّهُ رسولُ ذي العظمةِ والجلالِ، ووقوعُ ذلكَ في حيِّز الصِّلة يشيرُ إلى مدحِ المُحدَّثِ عنهم بإدراكهم ذلكَ.

علَّةُ إيثارِ اسم الجلالةِ:

الرَّسولُ محلُّ تجلّي صفاتِ الله عليه

اختيرَ اسمُ الجلالةِ دونَ غيره في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾؛ لدلالته على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، فيكونُ فيهِ زيادةُ تعظيمٍ لرسولِ اللّه ﷺ بما يلائمُ مقامَ الحثِّ على التَّأدُّبِ في حضرته.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

علوُّ شأنِ الَّذينَ يغضّونَ أصواتَهم

عُبِّرَ باسم الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ مَن سبقَ ذكرُهُ إنَّما امتحنَ اللّه

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 358.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 453، والشربيني، السراج المنير: 4/ 61.

قلوبَهم؛ لأنَّهم اكتسبوا تلكَ الفضيلةَ[1]، وما فيهِ مِن معنى البُعدِ معَ قُربِ العهدِ بالمشارِ إليهِ تفخيمٌ لشأنه[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

غضُّ الصَّوتِ عندَ الرَّسولِ مرضيٌّ

عُبِّرَ بالموصولِ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾؛ للتَّوصُّلِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ إلى الدَّلالةِ على بلوغِهم أقصى الكمالِ؛ مبالغةً في الاعتدادِ بغضِّهم، والارتضاءِ لهُ، وتعريضًا بشناعةِ الرَّفعِ والجهرِ، وأنَّ حالَ المرتكبِ لهما على خلافِ ذلكَ[3].

دلالةُ تعريف الطَّرَفيْن:

إخلاصُ القلوبِ خاصٌّ بأهلِ الأدبِ معَ الرَّسولِ

تعريفُ طَرَفَي الجملةِ (الإشارة والموصول) في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾؛ لإفادةِ الحصرِ، أي: هم الَّذينَ شرَّفَهم اللّه تعالى بإخلاصِ القلوبِ دونَ غيرِهم؛ تعريضًا بأولئكَ الَّذينَ لم يغضّوا أصواتَهم[4]، وهذا قصرُ موصوفٍ على صفةٍ قصرًا إضافيًّا، فيه من عظيمِ التَّرهيبِ ما ترى.

دلالةُ المُضيِّ في ﴿ٱمۡتَحَنَ﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قوله ﷻ: ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾؛ للتَّنبيهِ على تحقُّقِ الامتحانِ ووقوعه[5]، وهذا إبلاغٌ في مدحِهم، والثَّناءِ على جليلِ أدبِهم، وكمالِ خِلالهم.

دلالة ﴿ٱمۡتَحَنَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

اختبر الله تعالى عباده ليرفَعهم

الامتحانُ في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ (افتعالٌ) مِن: مَحَنَهُ؛ إذا اختبرَهُ[6]، وصيغةُ الافتعالِ فيهِ للمبالغةِ،

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 453، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 222.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 117.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 133.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 453.
(5) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 453.
(6) الزمخشري، الكشاف: 4/ 356.

كقولِهم: اضطرَّهُ إلى كذا[1]، وهذه المادَّةُ هي الألصقُ بحال المُحدَّثِ عنهم حالًا ومآلًا، والمعنى: أنَّ الله فعَل فيهم فِعْلَ المُخْتبِر بالمُخالَطة البليغةِ بالشَّدائدِ، على وجهٍ يُؤدّي إلى المنحة باللّينِ والخُلوصِ مِن كلِّ درَنٍ، والانشراحِ، والاتِّساع[2].

علَّةُ التَّعبير باسم الجلالة:

إخلاصُ القلوبِ مَحْضُ فضلٍ مِنَ الله

أُسنِدَ الامتحانُ إلى اسم الجلالةِ في قوله ﷻ: ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾؛ للمبالغةِ في بيانِ علوِّ شأنه، بكونه صادرًا عن ذي العظمةِ والكِبرياءِ والجلالِ[3]، وللتَّنبيهِ على أنَّهُ مَحْضُ فضلٍ مِنَ اللّه تعالى[4]، وليس ذكرُ اسم الجلالة هنا مِن وضْعِ المُظْهَر موضِعَ المضمَر؛ لأنَّه لم يسبِق له ذكرٌ على جهة الفاعليَّة ونحوها، فلو قيل: (أولئك الذين امتحن قلوبهم للتقوى)؛ لتبادر إلى الذِّهن أنَّ الفاعلَ هو: (رسولِ اللّه).

دلالةُ الإضافة في ﴿قُلُوبَهُمۡ﴾:

زيادةُ التَّنصيصِ على خصوصيَّةِ إخلاصِ قلوبِهم

الإضافةُ في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿قُلُوبَهُمۡ﴾ بمعنى اللّامِ، أي: قلوبًا لهُم، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التَّنويهِ بخصوصيَّتِهم، مع الإيجازِ في اللَّفظِ، والإشارةِ إلى كمال انقياد قلوبهم للّه، فلم تأبَ على امتحانِه.

معنى اللّامِ، ودلالة التَّعبير بها في ﴿لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾:

التَّقوى علَّةُ الامتحانِ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ لامُ العلَّةِ، والتَّقديرُ: امتحنَ قلوبَهم لأجلِ التَّقوى، أي: لتكونَ فيها التَّقوى، أي: ليكونوا أتقياءَ[5]، ومعنى الاختصاصِ هو الأصلُ في اللّام، فيدلُّ على اختصاصِ امتحانهم بالتَّقوى، وهذا ثناءٌ عليهم، وترغيبٌ في الاقتداء بهم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 223.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 224.

(3) الشربيني، السراج المنير: 4/ 61.

(4) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 453.

(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 133، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 223.

التَّقوى خاصَّةٌ بأهلِ الأدبِ

ويجوزُ أن يُجعَلَ ﴿ٱمۡتَحَنَ﴾ بمعنى (علم) مجازًا مرسلًا، أي: علمَ اللّٰه أنَّهم متَّقونَ، فتكونُ اللّامُ متعلّقةً بمحذوفٍ هو حالٌ مِن: ﴿قُلُوبَهُمۡ﴾، أي: كائنةً للتَّقوى، فاللّامُ للاختصاصِ(1).

دلالةُ تعريفِ (التَّقوى):

قلوبُ أهلِ الأدبِ مسكنٌ لجنسِ التَّقوى

تعريفُ التَّقوى في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ للجنسِ، أي: لجنسِ التَّقوى، وهذا العمومُ فيه أنَّ المُحدَّثَ عنهم كاملو التَّقْوى، فهُم أهلٌ لأن يَطْرُقوا كلَّ أبوابها ومجالاتها.

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾:

أهلُ الأدبِ معَ النَّبيِّ كاملونَ في التَّقوى

يَحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ أنْ يكونَ مِنَ الكنايةِ التَّلويحيَّةِ، عُبِّرَ بهِ عن كونِهم مُغْرِقينَ في التَّقوى، كاملينَ فيها؛ لأنَّ الامتحانَ والتَّجربةَ يوجبُ مزاولةَ الأمرِ ومعالجتَهُ مرَّةً بعدَ أخرى، وذلكَ يوجبُ التَّمرُّنَ فيهِ، والمتمرِّنُ مضطلعٌ فيهِ، ويحتملُ أن يكونَ تمثيلًا؛ شُبِّهَ خلوصُ قلوبِهم عن شوائبِ الكُدوراتِ النَّفسانيَّةِ بعدَ طولِ المجاهداتِ بخلوصِ الذَّهبِ - الَّذي عُرِضَ على النّارِ - مِنَ الخَبَثِ والزَّبَدِ الَّذي يذهبُ جُفاءً(2).

علَّةُ الفَصْلِ في قوله: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾:

بيانُ عاقبةِ أهلِ الأدبِ معَ رسولِ اللّٰه ﷺ

يجوزُ أن يكونَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ مبتدأً، و﴿ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ﴾ خبره، والجملةُ خبرُ ﴿إِنَّ﴾، ويكونَ ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ جملةً أخرى؛ إمّا مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، وهو الظّاهرُ، فهي جوابُ سؤالٍ يثيرُه ما قبلها مِن تقريرِ حُسْنِ عملِهم، أي: ما جزاؤُهم؟ وإمّا حاليَّةٌ، ويجوزُ أن يكونَ ﴿ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ﴾ صفةً لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أو بدلًا منهُ، أو بيانًا، و﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾

---

(1) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 223.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 452، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 290.

جملةٌ خبريَّة[1]، ويَحتملُ أن تكونَ جملةُ ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ خبرَ ﴿إِنَّ﴾، وما بينَهما اعتراضٌ؛ للتَّنويه بشأنه[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المغفرةَ والأجرَ أمرانِ ثابتانِ لهُم، لا شكَّ في ذلك، وفي هذا كمال اعتناءٍ بهم، وإحسانٍ إليهم.

معنى اللّامِ، ودلالة التَّعبير بها:

الَّذينَ يغضّونَ أصواتَهم يستحقّونَ الأجرَ والثَّواب

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ للملْك والاستحقاقِ، فتفيدُ أنَّ الَّذينَ يغضّونَ أصواتَهم يستحقّونَ الأجرَ والثَّوابَ، وهذا اعتدادٌ بعملِهم، وترغيبٌ في الازدياد منه، ومعنى الاختصاصِ أصلٌ فيها لا يُفارقُها، فتكونُ تمهيدًا للقَصْرِ الحاصلِ بتقديم ﴿لَهُم﴾ على ما بعدَه، وبها يقوَى معنى الحصر والقصر.

نكتةُ تقديم ﴿لَهُم﴾:

المغفرةُ والأجرُ العظيمُ للَّذينَ يغضّونَ أصواتَهم دونَ غيرِهم

قُدِّمَ المسندُ ﴿لَهُم﴾ على المسند إليه ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾، في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾؛ لإفادةِ اختصاصِ الَّذينَ يغضّونَ أصواتَهم بالمغفرةِ والأجرِ العظيم، فالمُؤَخَّرُ مقصورٌ على المُقدَّم، قصرَ موصوفٍ على صفةٍ، قصرًا حقيقيًّا مجازيًّا (ادِّعائيًّا)؛ إبلاغًا في مدحهم، والتَّرغيب في الاتِّساءِ بحالهم.

نكتةُ تنكيرِ ﴿مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ﴾:

تنكيرُ المتعاطفَيْن: ﴿مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ﴾؛ لتفخيم شأنِهما، وبيانِ أنَّهما لا يُكتَنَهُ كُنْهُهما، ولا يُقادَرُ قَدْرُهما[3]، وفي ذلكَ ما لا يخفى مِنَ التَّرغيبِ في حُسْنِ الأدبِ معَ رسولِ اللّه ﷺ.

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 6.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 223.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 356، والطيبي، فتوح الغيب: 14/ 452.

نكتةُ تقديمِ المغفرةِ على الأجرِ:

التَّخليةُ مقدَّمةٌ على التَّحليةِ

قُدِّمَتِ المغفرةُ على الأجرِ في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾؛ لأنَّ التَّخليةَ مُقدَّمةٌ على التَّحليةِ، وللإشارة إلى عظيم الإحسان الإلهيِّ إليهم؛ بأنَّ المغفرةَ لا تُنقِصُهم أجرَهُم الَّذي يستحقّونَه، معَ أنَّه محضُ فَضْلٍ مِن اللّه العظيم.

بلاغةُ وصفِ الأجرِ بالعظمةِ:

الجنَّةُ عظيمةُ الشَّأنِ

وُصِفَ الأجرُ بالعظمةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾؛ لبيانِ فخامته الوصفيَّةِ بعدَ بيانِ فخامته المستفادةِ مِنَ التَّنكيرِ، كيفَ لا ولا أجرَ أعظمُ مِنَ الجنَّةِ؟ وفيه أيضًا إبلاغٌ في الاحتراس مِن توهُّم ضعفِ الأجر ونقصانِه؛ بسببِ ما استدعَى المغفرةَ مِن الذُّنوب والآثامِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأجرُ والجزاءُ والثَّوابُ:

الَّذينَ يغضّونَ أصواتَهم مُستحِقّونَ للأجرِ تفضُّلًا مِنَ اللهِ

الأجرُ لا يكونُ إلّا في الخيرِ، والجزاءُ يكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، والثَّوابُ وإن كانَ الغالبُ فيهِ أن يكونَ في الخيرِ، فإنَّه قد يأتي في الشَّرِّ أيضًا[1]، والفرقُ بينَه وبينَ الأجرِ أنَّ الأجرَ فيه معنى التَّكافؤ والتَّقابُل، ففيه اعتدادٌ بالعمل، وأمّا الثَّوابُ؛ فليس كذلكَ، بل يكونُ فيه معنى الفَضْلِ.

وقد عُبِّرَ بالأجرِ هنا؛ لكونه مناسبًا لسياقِ التَّكريم؛ لأنَّ فيهِ إشارةً إلى استحقاقِ المؤمنينَ لِما يُعَدُّ لهم، فهو بمنزلةِ الأُجرةِ الَّتي يستحقُّها العاملُ على عمله، وهو استحقاقٌ صوريٌّ، وإلّا فالأجرُ في الحقيقةِ مَحْضُ فضلٍ وتكرُّمٍ منهُ سبحانَهُ.

---

(1) الراغب، المفردات: (ثوب).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤﴾

[الحجرات: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ذِكرُ حالِ العاصي بعدَ ذكرِ حالِ المطيعِ

لمّا نهى ﷻ عن الإخلالِ بالأدبِ، وأمرَ بالمحافظةِ على التَّعظيم، وذكرَ وصفَ المطيعِ؛ أتبعَ ذلك وصفَ مَن أخلَّ به[1]، وهذهِ الآيةُ أيضًا بيانٌ لجملةِ: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ بيانًا بالمثالِ، وهو سببُ النُّزولِ، فهذا شروعٌ في الغرضِ، والَّذي نشأ عنهُ ما أوجبَ نزولَ صدرِ السّورةِ، فافتتحَ به؛ لأنَّ التَّحذيرَ والوعدَ اللَّذين جُعِلا لأجله صالحانِ لأنْ يكونا مقدِّمةً للمقصودِ، فحصلَ بذلك نسجٌ بديعٌ وإيجازٌ جليلٌ، وإن خالفَ ترتيبُ ذكره ترتيبَ حصوله في الخارجِ، وقد صادفَ هذا التَّرتيبُ المَحَزَّ أيضًا؛ إذ كانَ نداؤُهم مِن وراءِ الحجراتِ مِن قبيلِ الجهرِ للرَّسولِ ﷺ بالقولِ كجهرِ بعضِهم لبعضٍ، فكانَ النَّهيُ عن الجهرِ لهُ بالقولِ تخلُّصًا لذكرِ ندائه مِن وراءِ الحجراتِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُنَادُونَكَ﴾: أصلُ (ندي) يدلُّ على تجمُّعٍ، وعلى بللٍ في الشَّيءِ، والنِّداءُ: رفعُ الصَّوتِ وظُهورُهُ بطلبِ الإقبالِ، ويُطلَقُ كثيرًا على الكلامِ، الَّذي فيهِ طلبُ إقبالِ الذّاتِ لعملٍ، أو إقبالِ الذِّهنِ لوَعْيِ كلامٍ؛ ولذلكَ سُمّيَتِ الحروفُ الَّتي يُفتتَحُ بها طلبُ الإقبالِ حروفَ النِّداءِ، ويُطلَقُ على الدُّعاءِ بطلبِ حاجةٍ، وإن لم يكن فيه نداءٌ[3]، والنَّدى: بُعْدُ مَذْهَبِ الصَّوتِ، ويقالُ: تنادَوا؛ إذا نادَى

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 96، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 359.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 224.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 62.

بعضُهم بعضًا[1]، وأصلُ النِّداءِ مِنَ النَّدى، أي: الرُّطوبةِ، مِن حيثُ إنَّ مَن كَثُرَ رطوبةُ فمه؛ حَسُنَ كلامُهُ، ولهذا يوصَفُ الفصيحُ بكثرةِ الرِّيقِ[2]. والنِّداءُ هنا معناه: رَفْعُ الصَّوت بالكلامِ رفعًا قويًّا لأجل الإسماعِ، والمرادُ به استجابة الدَّعوة للوقت.

2) ﴿ٱلْحُجُرَٰتِ﴾: أصلُ (حجر) يدلُّ على المنعِ والإحاطةِ على الشَّيءِ[3]، ومِن ذلكَ: الحَجرُ والتَّحجيرُ، وهو أن يُجعلَ حولَ المكانِ حجارةٌ[4]، والحُجرةُ: الرُّقعةُ مِنَ الأرضِ المحجورةِ بحائطٍ يحوطُ عليها، وهي فُعْلَةٌ بمعنى مفعولةٍ، وجمعُها: الحُجُراتُ بضمَّتين، والحُجَراتُ بفتحِ الجيمِ، والحُجْراتُ بتسكينِها[5]، ومعناها في الآية: البُقعةُ المحجورةُ، أي: الَّتي مُنِعَت مِن أن يستعملَها غيرُ حاجِرها[6]، والمراد بها بيوت النَّبي ﷺ الَّتي أسكن فيها زوجاته[7].

3) ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾: أصلُ (عقل) يدلُّ على حُبْسَةٍ في الشَّيءِ، أو ما يقاربُ الحُبْسة، ومِن ذلكَ العقلُ، وهو الحابسُ عن ذميم القولِ والفعلِ[8]، وهو يقالُ للقوَّةِ المتهيِّئةِ لقبولِ العِلْم، ويُقالُ للعِلم الَّذي يستفيدُهُ الإنسانُ بتلكَ القوَّة[9]، وهو ضِدُّ الحُمق والجَهل[10]، والجَمع: عُقولٌ، ويأتي العَقْلُ بمعنى: الفَهْم والتَّمييز، يُقال: عَقَل الشَّيء يعقله عقلًا، أي: فَهِمَهُ، والعَقْلُ أيضًا: الشَّدُّ والرَّبطُ، تقولُ: عَقَلَ الدّابة، أي: شدَّها ورَبطَها[11]، والمُراد بقوله سبحانه: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾: نَفيُ العَقْلِ المُستقيم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يذمُّ اللّه ﷻ الَّذينَ ينادونَ رسولَ اللّه ﷺ مِن وراءِ الحجراتِ، فيقولُ: إنَّ الَّذينَ ينادونَكَ

(1) الزبيدي، تاج العروس: (ندي).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ندي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حجر).
(4) الراغب، المفردات: (حجر).
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 357، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 291.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 226.
(7) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1032.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عقل).
(9) الراغب، المفردات: (عقل).
(10) الخليل، العين: (عقل).
(11) الراغب، المفردات: (عقل).

يا محمَّدُ مِن وراءِ بيوتِ نسائِكَ، ويرفعونَ أصواتَهم، أكثرُهم جُهّالٌ بدينِ اللّه، واللّازمِ لهُم مِن حقِّكِ وتعظيمِكَ[1].

الجهلُ بحقّ النّبيِّ ﷺ من عدمِ العقلِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، عمّا قبله على خلاف الظّاهرِ الَّذي هو العطفُ؛ لِما بينهما مِن التَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْن؛ إذ كلٌّ منهما خبرٌ في اللَّفظِ والمعنى، مع حصولِ التَّضادِّ بينهما، والتَّناظُرِ في صدرِ بناءِ الكلام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ﴾ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾؛ إبلاغًا في تقرير نفي التَّسْوية بينهما حالًا ومآلًا، وعملًا وجزاءً.

حالُ مَن رفعَ صوتَهُ حَريٌّ بالتَّنصيصِ عليهِ مستقلًّا

سرُّ التَّوكيدِ في ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾:

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ الجملةِ؛ للتَّنصيص على تحقُّق مضمونه، والاهتمام به، وبيانِ أنَّ ذمَّهم أمرٌ متيقَّنٌ، ولأجل أنَّ حالَهم كان حالَ مَن يدَّعي عقلًا تامًّا[2].

ذمُّ مَن رفعَ صوتَهُ محلُّ العنايةِ

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

عُبِّرَ بالاسم الموصولِ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾؛ للإيماءِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ إلى علَّةِ الحكمِ الَّذي بُنِيَ عليه، وهو كونُ أكثرِهم لا يعقلونَ، وللإشعارِ بأنَّ الخبرَ ممّا يُستهجَنُ[3]، ففيها إبلاغٌ في ذمِّ مضمون الصِّلة، والتَّنفيرِ والتَّرهيبِ مِن إتيانه.

رفْعُ الصَّوتِ في نداءِ النَّبيِّ علَّةُ الذَّمِّ والاستهجانِ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 282، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 368.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 225.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 460.

دلالةُ المضارعة في ﴿يُنَادُونَكَ﴾:

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿يُنَادُونَكَ﴾ - مَعَ أنَّ حادثةَ النِّداءِ قد مضَت - لاستحضارِ حالةِ ندائِهم، لغرابتِها[1]، وتفظيعًا لها، أو للدَّلالةِ على الاستمرارِ مِن غيرِ توبةٍ[2].

علّةُ إسنادِ النِّداءِ إلى جميعِهم:

تفرُّقُ المنادينَ على الحجراتِ

إسنادُ النِّداءِ إلى جميعِهم في قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَكَ﴾، إمّا لأنَّهم أتَوا الحجراتِ حُجْرةً حُجْرةً، فنادَوهُ مِن ورائِها، أو لأنَّهم تفرَّقوا على الحجراتِ متطلِّبينَ لهُ، فأُسنِدَ فعلُ البعضِ إلى الكلِّ مجازًا عقليًّا، أو لأنَّهُ ناداهُ عُيينةُ بنُ حِصنٍ والأقرعُ بنُ حابسٍ، فأُسنِدَ إلى جميعِهم؛ لأنَّهم رضوا بذلكَ، أو أمروا به، أو لأنَّهُ وُجِدَ فيما بينَهم[3]، وهذا مجازٌ عقليٌّ أيضًا، وعلى كلٍّ فالإسنادُ يُلْحِقُ بهم الذَّمَّ الشَّديدَ.

معنى ﴿مِن﴾، ودلالة التَّعبير بها:

المنادَى داخلَ الحُجرةِ، والمُنادي خارجَها

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ ابتدائيَّةٌ، فإنَّ المُناداةَ نشأت مِن جهةِ الوراءِ، وفائدتُها الدَّلالةُ على أنَّ المُنادَى داخلَ الحُجرةِ؛ إذ لا بدَّ أن يختلفَ المبتدأُ والمنتهَى بالجهةِ[4].

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿مِن﴾:

المنكَرُ هو نداؤُهم لهُ وهم في الخارجِ، وهو داخل الحجرة

أُثبتت ﴿مِن﴾ الابتدائيَّة مِن قبل كلمة ﴿وَرَآءِ﴾، في قول اللّه تعالى: ﴿مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾، ولم يقل: (وراءَ) بإسقاطِها؛ لِما بينَ الكلامينِ مِنَ الفرقِ، وهو أنَّ المنادَى والمنادي في أحدِهما يجوزُ أن يجمعَهما الوراءُ، وفي الآخرِ لا يجوزُ؛ لأنَّ الوراءَ يصيرُ بدخولِ (مِنْ) مبتدأ الغايةِ، ولا يجتمعُ على الجهةِ الواحدةِ أن تكونَ مبتدأً

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 293، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 227.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 359.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 134.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 134، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 117.

ومنتهًى لفعلٍ واحدٍ[1]، ولأنَّهُ لو قيلَ: (وراءَ الحجراتِ)؛ لكانَ الغرضُ في الإيرادِ إنكارَ أنَّهم كانوا ينادونَهُ وراءَ الحجراتِ، ولفُهِمَ منهُ أنَّهم لو نادَوهُ في غيرِ تلكَ الجهةِ لم يكن مُنكَرًا، ولكنَّ الغرضَ في الإنكارِ أنَّهم كانوا ينادونَهُ مِنَ الخارجِ، وهو في الحُجرةِ، فأُريدَ إنكارُ هذهِ الصّورةِ الواقعةِ خصوصًا، فزيدَت: ﴿مِن﴾؛ لتدلَّ على الابتداءِ والانتهاءِ، وأنَّهم خارجونَ، وهو داخل[2].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾:

حجراتُ النَّبيِّ ﷺ هي المقصودةُ

تعريفُ الحجراتِ في قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾؛ للاستغراقِ العُرفيِّ، أي: جميعِ حجراته ﷺ[3]؛ إذ لا شكَّ أنَّ مِثلَ هذا التَّعظيمِ لا يكونُ في حجراتِ سائرِ النّاسِ[4].

دلالةُ جمعِ ﴿ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾:

الرَّسولُ ذو حُرمةٍ وجلالٍ عند ربِّه

على وجهِ أنَّ وفد بني تميم تفرَّقوا على الحجرات كلِّها مُتطلِّبينَ للرَّسول، فناداه بعضهُم مِن وراء هذه، وبعضُهم مِن وراء تلك[5]، يكون التَّعبيرُ بالجمع ﴿ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ على ظاهره، وهو الأصل، وبلاغتُه في مطابقته للمقام، وهو أيضًا ينطوي على ذمٍّ شديدٍ للمُنادين[6]، وعلى وجه أنَّ الرَّسول ﷺ كان في حُجرةٍ واحدةٍ، فالتَّعبيرُ بالجمع على خلاف الظّاهر؛ للتَّنبيه على أنَّ نداءَهُ مِن وراءِ حُجرةٍ واحدةٍ، كندائه مِن وراءِ كلِّ حُجرةٍ[7]، وإجلالًا لحُرْمته ﷺ[8].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 357.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 456.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 73.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 460.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 385.
(6) طه السيد السيسي، البلاغة القرآنية في تفسير البقاعي، الإفراد والتثنية والجمع أنموذجًا: دراسة موازنة - معجم بلاغي: 2/ 264.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 360.
(8) الزمخشري، الكشاف: 4/ 385.

سرُّ تركِ الإضافةِ في ﴿ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾:

قال اللّه تعالى: ﴿ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ بالإطلاق، ولم يقل: (حُجراتِكَ)، أو: (حُجراتِ نسائِكَ) بالإضافة؛ إجلالًا لهُ ﷺ، وتحاشيًا عمّا يوحِشُهُ(1).

بلاغةُ الكنايةِ:

الحـجـراتُ موضعُ الخلوةِ والقيلولةِ

في قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ كنايةٌ لطيفةٌ؛ وذلكَ أنَّ الحجراتِ كنايةٌ عن موضعِ خلوته ومَقيله ﷺ معَ بعضِ نسائه(2)؛ لأنَّ الحجراتِ مُعَدَّةٌ لذلكَ(3)، ففيها بيانُ علَّة النَّهي بإيجاز بليغ.

سرُّ التَّعبيرِ بالحجراتِ:

البيتُ مقسَّمٌ إلى حجراتٍ

ذُكِرَتِ الحجراتُ دونَ البيوتِ في قوله ﷻ: ﴿يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾؛ لأنَّ البيتَ كانَ بيتًا واحدًا مقسَّمًا إلى حجراتٍ تسعٍ(4)، ولأنَّ المكانَ الَّذي كانَ فيه النَّبيُّ ليس للمقابلة، بل للتَّهيئةِ لها، والمقابلةُ إنَّما تكون في المسجد أو في غيره(5)، ولهذا قال البقاعيُّ: "وهي جمع حجرة، وهي ما حوِّط مِن قِطَعِ الأرض بحائطٍ يمنع مِمَّن يكون خارجَه مِن أذى مَن يكونُ داخلَه بقول أو فعلٍ، فإنَّه يكون فيما يختصُّ به مِن الاجتماع بنسائه، أو إصلاح شيءٍ مِن حاله، لا يتهيَّأ له بحضور النّاسِ فيما يتقاضاهُ المُروءة"(6).

دلالةُ الاسميَّةِ في ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾:

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على العنايةِ بتحقُّقِ مضمونِها، وأنَّ عدم التَّعقُّلِ عريقٌ فيهم، فهو كالأصل فيهم؛ إبلاغًا في ذمِّهم، والتَّنفير مِن أحوالهم.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 360، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 73.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 358، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 349.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 291.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 227.

(5) طه السيد السيسي، البلاغة القرآنية في تفسير البقاعي، الإفراد والتثنية والجمع أنموذجًا: دراسة موازنة - معجم بلاغي: 2/ 264.

(6) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 360.

عـــدمُ عـقـلِ المنادينَ مؤكَّدٌ

نكتةُ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ الفعليِّ:

قُدِّمَ المسندُ إليهِ على المسندِ الفعليِّ في قوله: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾؛ لإفادةِ تقوّي الحكم عليهِم بعدمِ العقلِ؛ لأنَّ الجملةَ تشتملُ على نسبةِ عدمِ العقلِ إليهم، وفي ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ ضميرٌ راجعٌ إلى المبتدأ، فيفيدُ نسبةَ عدمِ العقلِ إليهم مرَّةً أخرى، والمُتلقّي يتطلَّع إلى معرفة الخبر عند تلقّي المبتدأ، فإذا تلقّاه، وتمَّت الفائدةُ؛ تمكَّن الحكمُ في نفسه فضلَ تمكُّنٍ، وتقويةُ الحكمِ إبلاغٌ في الذَّمِّ، وإيماءٌ إلى الغضبِ.

بـعـضُ المـناديـنَ قد يعقلُ

علَّةُ التَّعبيرِ بالأكثريَّة:

يَحتملُ أن يكونَ الإخبارُ عن الأكثريَّةِ بأنَّهم لا يعقلونَ، في قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾؛ لاستثناءِ بعضِهم، ويَحتملُ أن يكونَ الحكمُ بقلَّةِ العقلاءِ فيهم؛ قصدًا إلى نفيِ أن يكونَ فيهِم مَن يعقلُ، فإنَّ القلَّةَ تقعُ موقعَ النَّفيِ في كلامِهم[1]، أو للتَّنبيهِ على أنَّهم في أكثرِ أحوالِهم لا يعقلونَ[2]، ومآلُ الأوجهِ الثَّلاثة واحدٌ، وهو الإبلاغُ في ذمِّهم؛ لكمالِ التَّنفيرِ من هذا الصَّنيعِ القبيحِ.

انـتـفـاءُ عـقلِ المنادينَ مستمرٌّ

دلالةُ المضارعة في ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾:

عُبِّرَ بالمضارعِ المنفيِّ في قوله تعالى: ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ انتفاءِ العقلِ عنهُم، فإنَّ المضارعَ للتَّجدُّدِ والاستمرارِ، وإذا دخلَ عليهِ النَّفيُ؛ أفادَ استمرارَ الانتفاءِ، وهذا يعني عِظَمَ جُرۡمِ ندائه ﷺ من وراء الحجرات.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

(وراء) و(خَلْف):

الحجراتُ ساترةٌ لِمَنْ فيها عمَّن هو خارجها

لفظا (خلْف) و(وراء) متقاربانِ في الدَّلالةِ؛ إذ يشتركانِ في

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 357.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 96.

معنى البَعْديَّةِ، والفرقُ بينَهما أنَّ (خلْف) ضدُّ (أمام)، وأمّا لفظُ (وراء)؛ فهو واسعُ الدَّلالةِ، وهو يُستعمَلُ بمعنى البَعْديَّةِ الزَّمانيَّة، والبَعْديَّة المكانيَّةِ، وبمعنى الكثرةِ والزّيادةِ، وبمعنى (أمام)، وكلُّ هذهِ الدَّلالاتِ تعودُ إلى معنى الاستتارِ والاحتجابِ، وهو الأصلُ الدَّلاليُّ للكلمةِ[1].

وقد عُبِّرَ بـ(وراء) هنا لدلالته على معنى الخارجِ مِن خلفِ الحجراتِ أو قُدّامها، على أنَّ (وراء) مِنَ المواراةِ والاستتارِ، فما استترَ عنكَ؛ فهو وراء، خلْفًا كانَ، أو قُدّامًا؛ إذا لم تَرَهُ[2].

العقلُ والعِلمُ والفكرُ:

عقلُ التَّأدُّبِ منفيٌّ عن المنادينَ مِن وراءِ الحجراتِ

العقلُ هو العِلمُ الأوَّلُ الَّذي يزجرُ عن القبائحِ، وكلُّ مَن كانَ زاجرُهُ أقوى؛ كانَ أعقلَ، وخلافُ العقلِ الحُمقُ، وخلافُ العلمِ الجهلُ[3]، والعِلْمُ أفضلُ مِنَ العقلِ؛ لأنَّهُ مقصودٌ لذاته، وأمّا العقلُ؛ فهو مقصودٌ لغيره[4]، والفكرُ: تردُّدُ القلبِ بالنَّظرِ والتَّدبُّرِ لطلبِ المعاني[5]، والعقلُ المنفيُّ عنهُم هنا هو عقلُ التَّأدُّبِ الواجبِ في معاملةِ النَّبيِّ ﷺ[6].

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 249 - 250.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 291.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 366.
(4) حقي، الفروق، ص: 170.
(5) هنريكوس، فرائد اللغة، ص: 213.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 225.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [الحجرات: 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا ذمَّهم تعالى بسوءِ عملِهم؛ أرشدَهم إلى ما يُمدَحونَ بهِ مِن حُسْنِه، فقالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[1]، وهو إرشادٌ إلى حُسْنِ الأدبِ بعدَ النَّهيِ عن سيِّئِه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَبَرُوا۟﴾: (صبر) أصلٌ يدلُّ على الحبسِ[2]، ومِن ذلكَ يقالُ: صبرتُ الدّابَّةَ، أي: حبستُها بلا علفٍ، والصَّبرُ: حبسُ النَّفسِ على ما يقتضيهِ العقلُ والشَّرعُ، أو عمّا يقتضيانِ حبْسَها عنهُ[3]، وحبْسُ النَّفسِ عن الجزعِ[4]، والمرادُ بهِ هنا: حبْسُ النَّفسِ عن أن تُنازعَ إلى هَواها[5].

2) ﴿تَخْرُجَ﴾: (خرج) أصلٌ يدلُّ على النَّفاذِ عنِ الشَّيءِ[6]، ومِن ذلكَ يقالُ: خرجَ خروجًا، أي: برزَ مِن مَقَرّه أو حاله، سواءٌ كانَ مقرُّهُ دارًا، أم بلدًا، أم ثوبًا، وسواءٌ كانَ بنفسه أم بأسبابه الخارجةِ عنهُ[7]، والمرادُ بالخروجِ هنا: البُروزُ مِنَ الحجراتِ.

3) ﴿خَيْرًا﴾: (خير) أصلٌ يدلُّ على العَطْفِ والمَيْلِ، وقد سُمّيَ الخيرُ بذلكَ؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يميلُ إليهِ، ويَعْطِفُ على صاحبه[8]، والخيرُ ما يرغبُ فيهِ الكلُّ، كالعقلِ، والعدلِ، والفضلِ، والشَّيءِ النّافعِ[9]، والمرادُ بـ﴿خَيْرًا﴾ هنا: صيغةُ التَّفضيلِ مِنَ الخيرِ، بمعنى الأفضل والأنفع.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 368، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 361.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبر).
(3) الراغب، المفردات: (صبر).
(4) الجوهري، الصحاح: (صبر).
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 359.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرج).
(7) الراغب، المفردات: (خرج)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خرج).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (منع).
(9) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (خير).

المَعنى الإجْماليُّ:

دعوةُ المخالفينَ إلى ما هو الأليقُ بتعظيمِ النَّبيِّ ﷺ

يُخبِرُ اللّه تعالى عمّا هو الأولى بمَن قصدَ حجراتِ النَّبيِّ ﷺ، فيقولُ: ولو أنَّ هؤلاءِ الَّذينَ ينادونَكَ مِن وراءِ الحجراتِ صبروا، فلم ينادوكَ حتَّى تخرجَ إليهم إذا خرجتَ؛ لكانَ خيرًا لهم عندَ اللّه؛ لأنَّ اللّه قد أمرَهم بتوقيرِكَ وتعظيمِكَ، واللّه ذو عفوٍ عمَّن ناداكَ مِن وراءِ الحجابِ؛ إن هو تابَ مِن معصيته، رحيمٌ به، فلا يعاقبُهُ على ذنبه ذلكَ بعدَ توبته منهُ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ﴾:

الصَّبرُ حتّى خروجه ﷺ هو الأدبُ اللّائقُ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ﴾؛ لعطفِ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها[2]، مِن عطفِ المعنى على المعنى، للتَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْنِ؛ إذ كلٌّ منهما خبرٌ في اللَّفظِ والمعنَى؛ والغرضُ التَّنبيهُ على الأدبِ اللّائقِ في التَّعاملِ معَ النَّبيِّ ﷺ بعدَ بيانِ خطأِ الَّذينَ نادَوهُ مِن وراءِ الحجراتِ.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بـ(لو):

انتفاءُ الخيريَّةِ بسببِ انتفاءِ الصَّبرِ

عُبِّرَ بـ(لو) دونَ غيرِها مِن أدواتِ الشَّرطِ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ﴾؛ لأنَّها لِتعليقِ حصولِ مضمونِ الجزاءِ بحصولِ مضمونِ الشَّرطِ، على سبيلِ الفرضِ في الماضي، معَ القطعِ بانتفاءِ الشَّرطِ، فيلزمُ انتفاءُ الجزاءِ[3]، فحصولُ الخيريَّةِ معلَّقٌ بحصولِ الصَّبرِ، معَ القطعِ بانتفاءِ الصَّبرِ، فيلزمُ انتفاءُ الخيريَّةِ، مَعَ الإشارةِ إلى عتابِهم وإرشادِهم إلى الأفضلِ لهُم؛ لأنَّهم لم يكُن منهم أدنى صبرٍ، ففي (لو) نوعُ إشعارٍ بالتَّمنّي والعتابِ.

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 285، والمراغي، تفسير المراغي: 26/ 125.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 260.

(3) التفتازاني، المختصر، ص: 281.

نكتةُ التَّوكيدِ بـ(أنَّ) في ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ﴾:

انتفاءُ ثبوتِ الصَّبرِ متحقِّقٌ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ﴾ بـ(أنَّ)، واسميَّة الجملة في صدرها؛ للدَّلالة على الثُّبوتِ المفروضِ، أي: ولو ثبتَ صبرُهم وانتظارُهم حتَّى تخرجَ إليهم؛ لكانَ الصَّبرُ خيرًا لهُم مِنَ الاستعجالِ؛ لِما فيهِ مِن حفظِ الأدبِ، وتعظيمِ النَّبيِّ ﷺ الموجِبَيْنِ للثَّناءِ والثَّوابِ، فإنَّ (أنَّ) هنا وإن دلَّت بما في حيِّزِها على المصدرِ؛ فإنَّها تُفيدُ بنفسِها التَّحقُّقَ والثُّبوتَ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿صَبَرُواْ﴾ و﴿لَكَانَ﴾:

الماضي أنسبُ بالشَّرطِ المفروضِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْۚ﴾؛ لأنَّ (لو) - كما تقدَّمَ - لتعليقِ حصولِ مضمونِ الجزاءِ بحصولِ مضمونِ الشَّرطِ، على سبيلِ الفرضِ في الماضي، فوجبَ أن تكونَ جملتا الشَّرطِ والجزاءِ ماضيتين، ولا يُعدَلُ عن ذلكَ إلّا لنكتةٍ[2]، وظاهرٌ أنَّ جوابَ الشَّرطِ - وهو ﴿لَكَانَ﴾ - ماضٍ، وفعلُ الشَّرطِ المقدَّرُ ماضٍ أيضًا، والتَّقديرُ: ولو ثبتَ، أو تحقَّقَ صبرُهم، والتَّعبيرُ بالماضي في: ﴿صَبَرُواْ﴾ لدخوله في حيِّزِ الشَّرطِ المفروضِ في الماضي، وفي المُضيِّ تنبيهٌ على أنَّ الموقفَ كانَ يحتاجُ إلى شيءٍ قليلٍ مِنَ الصَّبرِ، لا شيءٍ كثيرٍ يستمرُّ، فإنَّ الحالَةَ غيرُ مستمرَّةٍ حتَّى يُطْلَبَ منهم الاستمرارُ في الصَّبرِ بالفعلِ المضارعِ.

براعةُ الإيجازِ في ﴿صَبَرُواْ﴾:

الأدبُ يقتضي حبْسَ النَّفسِ عن المخالفةِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ﴾ إيجازٌ بحذفِ المفعولِ، والتَّقديرُ: (ولو أنَّهم صبروا أنفسَهم)، أي: (حبسوها، ومنعوها عن مناداتِكَ مِن وراءِ الحجراتِ)، وقد كَثُرَ حذْفُ المفعولِ معَ هذا الفعلِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 134، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 118، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 295.

(2) التفتازاني، المختصر، ص: 284.

لكثرةِ دورانه على الألسنةِ[1]، وفي الحذفِ هنا تقريرُ انتفاءِ الصَّبْرِ عنهُم، كأنَّ في الحذفِ تعليلًا لهذا الانتفاءِ بأنَّ نفوسَهُم لم تَقْبَل أن تصبرَ، وهذا أبلغُ في ذمّهم، ويُشْعِر بصُعوبةِ مقام الصَّبْرِ ومرارتِه.

علَّةُ التَّعبيرِ بالصَّبرِ:

في الصَّبرِ مجاهدةٌ للهوى

عُبِّرَ بالصَّبرِ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ﴾؛ لدلالته على حبسِ النَّفسِ عن اتِّباعِ هواها، وهو حبسٌ فيهِ شدَّةٌ ومشقَّةٌ على المحبوسِ، فلهذا قيلَ للحبسِ على اليمينِ أو القتلِ: (صبرٌ)، وفي كلامِ بعضِهم: (الصَّبرُ مُرٌّ، لا يتجرَّعُهُ إلّا حرٌّ)[2]، وفي التَّعبيرِ به إرشادٌ إلى ما كانَ ينبغي أن يكونَ منهم في مِثْلِ هذا الموقفِ مع الرَّسولِ ﷺ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿حَتَّىٰ﴾:

خروجُ الرَّسولِ غايةُ صَبْرِهم عن المُناداةِ

جيءَ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ﴾ بحرف ﴿حَتَّىٰ﴾؛ لأنَّ ﴿حَتَّىٰ﴾ نصٌّ في بيانِ الغايةِ المَضروبَةِ، تقولُ: أكلتُ السَّمكةَ حتَّى رأسِها، ولو قلتَ: حتَّى نصفِها، أو صدرِها، لم يَجُزْ، أمّا (إلى)؛ فعامَّةٌ في كلِّ غايةٍ، فقد أفادَت ﴿حَتَّىٰ﴾ بوَضْعِها أنَّ خُروجَ رسولِ اللّه ﷺ إليهِم غايةٌ قد ضُرِبَت لصَبْرِهم، فما كانَ لهُم أن يَقطَعوا أمرًا دونَ الانتهاءِ إليهِ[3]، ففيه بيانُ ظهور حدود الشَّرع ووضوحها، ويُسرُ اتِّباعها لمَن وفَّقه اللّه له[4].

نكتةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿تَخۡرُجَ﴾:

خروجُ الرَّسولِ مستقبلٌ بالنِّسبةِ لصبرِهم

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ﴾؛ لأنَّ الخروجَ مستقبلٌ بالنِّسبةِ للصَّبرِ، وفيه استحضارُ خروجه ﷺ؛ لبيانِ عظمتِه، فالخارِجُ ليس بشَرًا عاديًّا، وإنَّما هو رسولُ اللّه، أفضلُ الخلْقِ على الإطلاقِ، وأنَّ المطلوبَ العظيمَ يفتقِر إلى صبرٍ.

---

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 350، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 361.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 359.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 359، والطيبي، فتوح الغيب: 14/ 463.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 227.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ: (إلى): في ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾:

خصوصيَّةُ مقامِ النَّبيِّ ﷺ

في التَّعبيرِ بـ(إلى) في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ﴾ إشعارٌ بأنَّهُ ﷺ لو خرج لا لأجلِهم، فإنَّه ينبغي عليهم أن يصبروا حتَّى يفاتحَهم بالكلام، أو يتوجَّهَ إليهم، أي: (ليس لَهم أن يُكَلِّموكَ حَتّى تَفرغَ لَهم، فتقصِدَهم)[1]، وفي ذلكَ إبلاغٌ في رفعِ الحرجِ عن النَّبيِّ ﷺ.

معنى اللّامِ ودلالةُ التَّعبير بها في ﴿لَكَانَ﴾:

تمكينُ معنَى أفضليَّةِ الصَّبْرِ في نفوسهم

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ﴾ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ، فتفيدُ ربْطَ الجزاءِ بالشَّرطِ، ووقوعُها هو الأكثرُ، وحذْفُها في غير القرآن جائزٌ، وفيه نوعُ توكيدٍ لمدخولِ اللّامِ، تتقرَّرُ به الخيريَّةُ في نفوسهم، فيتقرَّرُ أنَّ الصَّبْرَ أفضلُ لهُم.

علَّةُ التَّعبيرِ بـ﴿خَيۡرٗا﴾:

المسلمُ يتحرَّى الأحسنَ في الدّينِ والدُّنيا

تَحتملُ كلمةُ ﴿خَيۡرٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ﴾ أن تكونَ بمعنى الحَسَنِ والخيرِ، فتكون مسلوبَ التَّفضيلِ، ويَحتملُ أن يكونَ التَّفضيلُ على حقيقته، ووجهُ التَّفضيلِ: أنَّ المحافظةَ على النَّبيِّ ﷺ وتعظيمَهُ خيرٌ مِن تنجيزِ الشُّغلِ ودفعِ الحاجةِ في الحالِ؛ لأنَّ رعايةَ حُرمةِ النَّبيِّ ﷺ يترتَّبُ عليها الأجرُ والثَّوابُ[2]، وفي هذا التعبير تحريكُهُم نحوَ الأفضلِ، مع بيانِ الخالي مِن ذلكَ أو الأدنى فيه، وهو استعجالُهم إيقاظَه ﷺ وقتَ الهاجرةِ، وفي هذهِ الخيريَّةِ إيماءٌ إلى أنَّ العربَ أهلُ معالٍ، لا يرضونَ إلّا الأحسنَ[3].

معنى اللّامِ ودلالة التَّعبيرِ بها في ﴿لَّهُمۡۚ﴾:

ثمرةُ العملِ ترجعُ لصاحبِها

اللّامُ الجارَّةُ في قوله تعالى: ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ﴾ للملكِ

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 134، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 361.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 146، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 97، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 227.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 361.

والاستحقاقِ، فتفيدُ أنَّ ثمرةَ العملِ الصّالحِ ترجعُ لصاحبِها، وفي ذلكَ مزيدُ حثٍّ على الصَّبرِ إلى حينِ خروجِ النَّبيِّ ﷺ.

بلاغةُ الاحتباكِ:

التَّأدُّبُ معَ النَّبيِّ سببُ الخيرِ في الدُّنيا والآخرةِ

هذه الآيةُ ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ﴾ معَ الآيةِ الَّتي قبلها مِنَ الاحتباكِ، حُذِفَ التَّعليلُ بعدمِ الصَّبرِ أوَّلًا؛ لِما دلَّ عليهِ ثانيًا، وحُذِفَ العقلُ ثانيًا؛ لِما دلَّ عليهِ مِن ذكره أوَّلًا[1]، وكلٌّ مِن الحذفِ والإثباتِ حاصلٌ في عجُزِ الآيتينِ الرّابعة والخامسة، والتَّقدير: (أكثَرُهم لا يصبرون، ولا يعقلون)، (ولو أنَّهم صبروا حتى تخرج إليهم؛ لكانَ خيرًا لهم، ولكانوا يعقلون)، فمُناداتُه ﷺ في نورِ انتفاء العقل عنهم يُنْتِجُ نفيَ الصَّبْرِ عنهم بقوَّةٍ، فحُذِف إيجازًا، ولتصويرِ غيابِه منهم بالكُلّيَّةِ، ولأنَّ الأبلغَ في ذمِّهم انتفاءُ العقلِ عنهم، فاكتُفيَ به، واكتفَى القرآنُ بقولِه: ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ﴾ عن إثباتِ العقل لهم لو أنَّهم صبروا، فكأنَّ الصبرَ فيه كلُّ خيرٍ لهم، وكأنَّ المُناداةَ المذكورةَ فيها كلُّ شرٍّ لهُم.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

وجوبُ مراعاةِ الأدبِ بعدَ حصولِ العفوِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ لعطفِ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها؛ لِما بينهما مِن التَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْنِ؛ لأنَّ كلًّا منهما خبَرٌ في اللَّفظ والمعنَى، والغرضُ مِن ذلكَ استعطافُهم، ببيانِ أنَّ اللّٰه تعالى لم يُعاجِلْهم بالعقوبةِ؛ لإساءتِهم الأدبَ على رسوله ﷺ، وفي ذلكَ مزيدُ حثٍّ لهم على مراعاةِ الأدبِ فيما يأتي[2].

دلالةُ الاسميَّةِ في ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

مَن تابَ؛ تابَ اللهُ عليه

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ للدَّلالةِ على ثبوتِ مضمونِها وتحقُّقه، وبيانِ أنَّ اتِّصافَهُ تعالى بالمغفرةِ والرَّحمةِ حقيقةٌ ثابتةٌ، فيُقْبِلون عليه سبحانه بالكُلّيَّة، ويتوبون إليه

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 361.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 362.

فورًا من تقصيرهم في حقِّ النُّبوَّة والرِّسالة، ففي الاسميَّةِ قوَّةٌ في التَّرغيبِ في الصَّبرِ والأدبِ مِن بعدِ التَّشديدِ في الذَّمِّ والعتابِ.

علَّةُ التَّعبير باسمِ الجلالةِ:

غفرانُ العظيمِ ورحمتُهُ كاملانِ غايةَ الكمالِ

اختيرَ اسمُ الجلالةِ دونَ غيره في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لدلالته على اتِّصافه تعالى بصفاتِ الكمالِ، بحيثُ يغفرُ ما يشاءُ، ولا يردُّ أمرَهُ أحدٌ، والمعنى: (والمحيطُ بصفاتِ الكمالِ غفورٌ رحيمٌ)[1]، وفي ذلكَ ما لا يخفى مِن زيادةِ التَّرغيبِ في الصَّبرِ والأدبِ مع الرَّسول.

سرُّ التَّعبيرِ بالمغفرةِ والرَّحمةِ:

العاقلُ يُنيبُ إلى مَن يتجاوزُ عن سيِّئاته

ذكَر اللّه تعالى في قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ المغفرةَ والرَّحمةَ دونَ غيرِهما؛ تحقيقًا لأمور: **أحدُها**: بيانُ سوءِ صنيعِهم في التَّعجُّلِ، فإنَّ الإنسانَ إذا أتى بقبيحٍ، ولا يعاقبُهُ المَلِكُ أو السَّيِّدُ، فإنَّه يُقالُ: ما أحلمَ سيِّدَهُ! لا لبيانِ حِلْمه، بل لبيانِ عظيمِ جنايةِ العبدِ. **وثانيها**: بيانُ حُسنِ الصَّبرِ، يعني: بسببِ إتيانِهم بما هو خيرٌ يغفرُ اللّه لهم سيِّئاتِهم، ويجعلُ هذهِ الحسنةَ كفّارةً لكثيرٍ مِنَ السَّيِّئات، كما يقالُ للآبقِ؛ إذا رجعَ إلى بابِ سيِّده: أحسنتَ في رجوعِكَ، وسيِّدُكَ رحيمٌ، أي: لا يعاقبُكَ على ما تقدَّمَ مِن ذنبِكَ؛ بسببِ ما أتيتَ بهِ مِنَ الحسنةِ. **وثالثها**: ترجيةً لهم، وإعلامًا بقبوله توبةَ التّائبِ، وغفرانه ورحمته لِمَن أنابَ، ورجعَ[2]، وليسَ المرادُ به مجرَّدَ الإخبارِ؛ لِعلمِهم أنَّ اللّه تعالى متَّصفٌ بالمغفرةِ والرَّحمةِ، وفي ذلكَ أيضًا حثٌّ للنَّبيِّ ﷺ على الصَّفحِ[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 362.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 146.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 97.

نكتةُ تنكيرِ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

جاء قوله تعالى: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مُنَكَّرًا للتَّعظيم، في مقابلِ تقبيحِ إيذاء الرَّسول، فإنَّه لا يمحو القبيحَ إلّا العظيمُ، ولإفادةِ المبالغةِ في هاتينِ الصِّفتينِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البِرُّ والخيرُ:

الصَّبرُ ينفي عن الصّابرِ كلَّ شرٍّ

البِرُّ: هو النَّفعُ الواصلُ إلى الغيرِ، معَ القصدِ إلى ذلكَ الخيرِ، ويكونُ خيرًا؛ إن وقعَ عن سهوٍ، وضدُّ البِرِّ العقوقُ، وضدُّ الخيرِ الشَّرُّ(1)، وهذا الفرقُ قد يكونُ في بعضِ الصّوَرِ، ولا يعني أنَّ الخيرَ يكونُ عن سهوٍ دائمًا، بل قد يكونُ عن عمدٍ أيضًا، وقد عُبِّرَ بالخيرِ هنا؛ لِما تدلُّ عليهِ الكلمةُ مِن انتفاءِ الشَّرِّ عمَّن صبرَ، ولم يُنادِ مِن وراءِ الحجراتِ، وفي هذا غاية مدحِه، وذمِّ المُنادي.

(1) هنري، فرائد اللغة، ص: 29.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قبلَها:

بيانُ أدبِ الخلْقِ بعضِهم مع بعضٍ بعدَ بيانِ أدبِهم معَ الحقِّ تعالى

هذه الآيةُ نداءٌ ثالثٌ، ابتُدِئَ بهِ غرضٌ آخرُ، وهو بيانُ آدابِ المؤمنينَ بعضِهم مع بعضٍ، بعدَ بيانِ أدبِهم مع اللّه، ومع رسوله ﷺ، وأدبُ الخلْقِ بعضِهم معَ بعضٍ مِن أدبِهم مع اللّه خالقهم جميعًا، وقصَّةُ هذهِ الآيةِ تشبهُ قصَّةَ الآيةِ السّابقةِ؛ لأنَّ السّابقةَ في وفدِ بني تميم، جاؤوا مُعْتذِرينَ عن ردِّهم ساعيَ رسولِ اللّه ﷺ؛ لقبضِ صدقاتِ بني كعبِ بنِ العنبرِ مِن تميم، وهذهِ الآيةُ في بني المصطلقِ، الَّذينَ تبرَّؤوا مِن أنَّهم يمنعونَ الزَّكاةَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَاسِقُۢ﴾: (فسق) أصلٌ يدلُّ على الخروجِ عن الشَّيءِ والانسلاخِ منهُ[2]، ومِن ذلكَ يقالُ: فسقَتِ الرُّطبةُ عن قِشْرِها؛ إذا خرجَت عنهُ[3]، وفسقَ فلانٌ: خرجَ عن الشَّرعِ، وتركَ أمرَ اللّه[4]، والفسقُ يقعُ بالقليلِ مِنَ الذُّنوبِ وبالكثيرِ، لكن تُعورفَ فيما كانَ كثيرًا، وأكثرُ ما يقالُ الفاسقُ لِمَنِ التزمَ حكمَ الشَّرعِ، وأقرَّ بهِ، ثمَّ أخلَّ بجميعِ أحكامه أو ببعضه[5]، والمرادُ بالفسقِ هنا: الخروجُ عن حدودِ الدّينِ، والانسلاخُ مِنَ الحقِّ[6].

2) ﴿بِنَبَإٖ﴾: (نبأ) أصلٌ يدلُّ على الإتيانِ مِن مكانٍ إلى مكانٍ[7]،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 97، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 228.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فسق)، والزمخشري، الكشاف: 4/ 360.
(3) الجوهري، الصحاح: (فسق).
(4) الخليل، العين: (فسق).
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فسق).
(6) الزمخشري، الكشاف: 4/ 360، والمراغي، تفسير المراغي: 26/ 126.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبأ).

وعلى ظهورٍ مسبوقٍ بخفاءٍ ما[1]، فيقالُ للَّذي يأتي مِن أرضٍ إلى أرضٍ: نابئٌ[2]، ويقال للخبرِ: نبأٌ؛ لأنَّهُ يأتي مِن مكانٍ إلى مكانٍ[3]، والمرادُ بالنَّبأِ هنا: الخبرُ العظيمُ[4].

3) ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾: (بين) أصلٌ يدلُّ على بُعد الشَّيء وانكشافه، ومِن ذلكَ: البَيْنُ، وهو قطعة مِنَ الأرض قدْر مدِّ البصر، ويقالُ: بانَ الشَّيءُ، وأبانَ؛ إذا اتَّضحَ، وانكشف[5]، والبيِّنةُ: الدَّلالةُ الواضحةُ، عقليَّةً كانَت أو محسوسةً، والبيانُ: الكَشْفُ عنِ الشَّيءِ[6]، والتَّبيُّنُ: قوَّةُ الإبانة، والمرادُ به هنا: غايةُ ظهور الأمر الَّذي جاءَ الفاسقُ فيه بنبأٍ[7].

4) ﴿أَن تُصِيبُواْ﴾: (صوب) أصلٌ يدلُّ على نُزولِ شيءٍ واستقراره، ومِن ذلكَ: الصَّوابُ في القولِ والفعلِ، كأنَّهُ أمرٌ نازلٌ مُستقِرٌّ في قراره، وهو خلافُ الخطأِ[8]، ويُقالُ: أصابَ كذا، أي: وجدَ ما طلبَ، وأصابَ السَّهمُ؛ إذا وصلَ إلى المرمى بالصَّوابِ[9]، والمقصودُ بالإصابةِ هنا أن يَصِلَ أذًى ما بقوَّةٍ إلى أحدٍ.

5) ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾: (جهل) أصلٌ يدلُّ على خلافِ العلم[10]، والجهلُ ضربانِ: بسيطٌ، ومركَّبٌ، وأقبحُهما الثَّاني؛ لأنَّ صاحبَه يجهلُ، ويجهلُ أنَّه يجهلُ[11]، والجهالةُ: أن تفعلَ فعلًا بغيرِ علمٍ[12]، وهو المرادُ هنا.

6) ﴿نَٰدِمِينَ﴾: (ندم) أصلٌ يدلُّ على تحسُّرٍ من تغيُّرِ رأيٍ في أمرٍ فائتٍ[13]، ومِن ذلكَ يقالُ: ندمَ على ما فعَلَ ندمًا وندامةً، وتندَّمَ مِثلُهُ[14]، والنَّدمُ: ضربٌ مِنَ الغمِّ، وهو أن تغتمَّ على ما وقعَ منكَ، تتمنَّى أنَّهُ لم يقع، وهو غمٌّ يصحبُ الإنسانَ صحبةً لها دوامٌ؛ لأنَّهُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نبأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبأ).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نبأ).
(4) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 126.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(6) الراغب، المفردات: (بين).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 231.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صوب).
(9) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (صوب).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (جهل).
(11) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جهل).
(12) الخليل، العين: (جهل).
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ندم).
(14) الجوهري، الصحاح: (ندم).

كلَّما تذكَّرَ المتندَّمَ عليهِ؛ حزنَ[1]، والمرادُ بِهِ هنا: النَّدمُ الدِّينيُّ، أي: النَّدمُ على التَّورُّطِ في الذَّنبِ للتَّساهلِ، وتركِ تطلُّبِ وجوهِ الحقِّ[2].

المَعنى الإجْماليُّ:

تعليمُ المؤمنينَ التَّثبُّتَ في الأخبارِ

يخاطبُ اللهُ تعالى عبادَهُ المؤمنينَ مؤدِّبًا لهم بأدبٍ جديدٍ، فيقولُ: يا أيُّها الَّذينَ صدَّقوا اللهَ ورسولَه: إنْ جاءَكم فاسقٌ بنبَأٍ عن قومٍ؛ فأمهِلوا، حتَّى تَعرفوا صحَّتَهُ، ولا تَعْجَلوا بقبولِه؛ لئلّا تُصيبوا قومًا بُرَآءَ بجنايةٍ، بجهالةٍ منكم، فتندموا على إصابتِكم إيّاهم[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

العنايةُ بآدابِ تعاملِ أهلِ الإيمانِ بعضِهم مع بعضٍ

فُصِلَ قولُه تعالى شأنُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ عمّا قبلَه؛ لأنَّه استئنافُ كلامٍ جديدٍ؛ لإفادةِ غرضٍ جديدٍ، وهو بيانُ آدابِ جماعاتِ المؤمنينَ بعضِهم مع بعضٍ[4]، وفي هذا الاستئنافِ الابتدائيِّ تنصيصٌ على أهمّيَّةِ هذا الغرضِ، وأنَّه حَريٌّ بالاستقلالِ.

سرُّ تكريرِ النِّداءِ:

مَن عرفَ أهمّيَّةَ الخطابِ؛ تنبَّهَ، وتيقَّظَ

تكريرُ النِّداءِ في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾؛ لإظهارِ الشَّفقةِ على المُسترشِدِ، وإبداءِ المناصحةِ لهُ على آكدِ وجهٍ؛ ليُقبِلَ على استماعِ الكلامِ، ويُعيرَهُ بالَه، ولتحديدِ المخاطَبينَ بالذّاتِ، وأنَّهم هم المعنيّونَ بالمناصحةِ، وفيهِ أيضًا استدعاءٌ لتجديدِ الاستبصارِ والتَّيقُّظِ والتَّنبُّهِ عندَ كلِّ خطابٍ[5].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 360.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 232.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 286، والمراغي، تفسير المراغي: 26/ 127.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 228.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 363، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 261.

نكتةُ التَّعبيرِ بأداةِ النِّداءِ للبعيدِ (يا):

مَـنْ يخالفُ الشَّرعَ يُنزلُ نفسَهُ في محلِّ البُعدِ

إيثارُ: (يا) الدّالَّة على نداءِ البعيدِ - معَ أنَّ المخاطَبَ قريبٌ - في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مَنِ احتاج إلى التَّصريح بمِثْل هذا التَّنبيه غير مكتفٍ بما أفادَهُ مِن قواعد الشَّرع؛ قد وضعَ نفسَهُ في محلٍّ بعيدٍ، والتَّنبيه على أنَّ ما في حيِّزِها كلامٌ لهُ خطبٌ عظيمٌ[1].

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصوليَّةِ:

الإيمانُ داعٍ إلى الامتثالِ للشَّرعِ

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ للتَّوصُّلِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ - وهو وصفُ الإيمانِ - إلى تنشيطِهم[2]، وللدَّلالةِ على أنَّ الإيمانَ إذا اقتضى التَّثبُّتَ في نبأِ الفاسقِ؛ فأولى أن يقتضيَ عدمَ الفسقِ[3].

دلالة المُضيِّ في ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾:

مَـن تـحـقَّـقَ إيـمـانُـهُ؛ وجـبَ امتثالُهُ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ اتِّصافهم بالإيمانِ أمرٌ قد تحقَّقَ، ورَسَخَ، وثبتَ أصلُه، ولذلكَ استحقّوا شرفَ الخطابِ والتَّكليفِ، ووراء ذلكَ مِن المعنى تنبيهُهُم على ضرورة وجوبِ المُحافظةِ عليه.

سرُّ إيثارِ ﴿إِن﴾:

المؤمنُ لا ينخدعُ بـأقـوالِ أهـلِ الفسقِ

لمّا كانَ رسولُ اللّه ﷺ والَّذينَ معَهُ، بالمنزلةِ الَّتي لا يجسُرُ أحدٌ أن يخبرَهم بكذبٍ، وما كانَ يَقَعُ مِثْلُ ما فرطَ مِنَ الوليدِ إلّا في النُّدْرةِ؛ عُبِّرَ بحَرْفِ الشَّكِّ ﴿إِن﴾ - دون (إذا) مثلًا - فقيلَ: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ على المؤمنينَ أن يكونوا على هذهِ الصِّفةِ؛ لئلّا يطمعَ فاسقٌ في مخاطبتِهم بكلمةِ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 467، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 363.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 467.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 298.

زورٍ[1]، وتنبيهٌ على أنَّ شأنَ فِعْلِ الشَّرطِ أن يكونَ نادرَ الوقوعِ، لا يُقدِمُ عليهِ المسلمونَ[2].

دلالةُ المُضيِّ في ﴿جَآءَكُمۡ﴾:

شأنُ المؤمنينَ نُدرةُ أخبارِ الفسقِ بينَهم

﴿إِن﴾ لتعليقِ حصولِ أمرٍ بحصولِ أمرٍ في المستقبلِ، فالأصلُ أن يكونَ الفعلُ بعدَها مضارعًا، لكنْ قد يُعدَلُ عنهُ إلى غيره لنكتةٍ، وقد عُبِّرَ بالماضي دونَ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾؛ لتقويةِ الدِّلالةِ على أنَّ مجيءَ الفاسقِ بالنَّبأِ أمرٌ نادرُ الوقوعِ؛ إذ يشيرُ الماضي إلى أنَّهُ حادثةٌ مضَت، وانتهَت، وكأنَّها لا تتكرَّرُ.

سرُّ تنكير ﴿فَاسِقُۢ﴾:

عمومُ الحكمِ لكلِّ فاسقٍ

تنكيرُ ﴿فَاسِقُۢ﴾ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ للتَّعميمِ؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ الشَّرطِ تُفيد العمومَ، أي: (إن جاءَكم أيُّ فاسقٍ؛ كانَ بنبأٍ)[3]؛ لِعظَمِ خطَرِ تناقُلِ الأنباءِ الكاذِبَةِ - سلْبًا - على الفردِ والجماعةِ.

علَّةُ تخصيصِ الفاسقِ بالذِّكرِ:

ضَعفُ الوازِعِ الدّينيِّ عندَ الفاسِقِ يترتَّبُ عليهِ دمارُ الفردِ والمجتمع

تخصيصُ الفاسقِ بالذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾؛ لأنَّ خبرَهُ مُعرَّضٌ للرّيبةِ والاختِلاقِ؛ لأنَّ الفاسِقَ ضعيفُ الوازعِ الدّينيِّ في نفْسه، وضَعْفُ الوازعِ يجعلُهُ جريئًا على الاستخفافِ بالمحظورِ، وبما يُخبِرُ به في شهادةٍ، أو خبرٍ يترتَّبُ عليهما إضرارٌ بالغيرِ، أو بالصّالحِ العامِّ، ويُقوّي جرْأتَهُ على ذلكَ دوْمًا؛ إذا لم يتُبْ، ويندَم على ما صدرَ منهُ، ويُقلِعَ عن مِثله[4].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 360، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 513، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 160.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 229.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 360، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 134، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 118.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 231.

معنى الباءِ ودلالة التَّعبير بها:

كـمـالُ اعـتـنـاء الفاسق بالخبرِ المكذوب

الباءُ في قوله تعالى ذِكرُهُ: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ للتَّعديةِ، أو للملابسةِ[1]، التي هيَ الإلصاقُ، وهذا المعنى هو الأصلُ فيها، وهوَ يَدُلُّ على غايةِ اعتناءِ الفاسِقِ بالنَّبَأ، فكأنَّه يُمسِكُ به، ويُلْصِقُه بيدِه، يريدُ أن يوصِّلَه إلى أحدٍ ما، وأنْ يُحْدِثَ أثَرَه الَّذي يريدُه.

سرُّ تنكيرِ (نبَإٍ):

الاحترازُ الشَّديدُ مِـن أخـبـارِ الفُسّاقِ واجِبٌ

تنكيرُ النَّبأِ في قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ للتَّعميم؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ الشَّرطِ تُفيد العمومَ، والمعنى: (إن جاءَكم أيُّ فاسقٍ، كانَ بأيِّ نبأٍ كانَ)[2]، وفي ذلكَ ما لا يَخْفَى مِنَ التَّنبيهِ على ضرورةِ التَّحرّي والتَّثبُّت.

معنى الفاءِ، ودلالة التَّعبير بها في ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾:

قـوَّةُ ارتـبـاطِ التَّبيُّن بمجيءِ الفاسقِ بالنَّبأ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ بالشَّرط؛ لأنَّ الجملةَ طلبيَّةٌ[3]، وفائدةُ هذهِ الفاءِ تقويةُ الرَّبطِ بينَ الشَّرطِ وجوابه، فتفيدُ أنَّ وجوبَ التَّبيُّنِ مرتبطٌ بمجيءِ الفاسقِ بالنَّبأِ ارتباطًا وثيقًا، وهذا يُحرِّكُ لضرورةِ تحقيقِ جوابِ الشَّرطِ؛ إذا تحقَّقَ الشَّرطُ؛ لقوَّة السَّببيَّةِ بينهما.

دلالةُ الأمرِ في ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾:

كلامُ الفاسقِ لا يُبْنَى عليهِ حُكْمٌ

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ للوجوبِ، وهو أمرٌ يقتضي ألّا يُعتمدَ على كلامِ الفاسقِ، ولا يُبنى عليهِ حكمٌ[4]، وفي نظْمِ معناهُ أمرًا دون أنْ يُقالَ مَثَلًا: (فيجب عليكم أن تتبيَّنوا)، بيانُ أنَّ هذا المعنَى مطلوبٌ تحقُّقُه بشدَّةٍ وعنايةٍ.

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 117.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 360، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 350، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 75.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 262.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 513.

علّة التَّعبيرِ بالتَّبيُّن:

أهلُ الإيمانِ أهلُ تثبُّتٍ وتفحُّصٍ

عُبِّرَ بالتَّبيُّن في قوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾؛ لدلالته على ضرورةِ غايةِ التَّوقُّفِ في الخبرِ، والتَّفحُّص، وتطلُّب بيانِ الأمرِ وانكشافِ الحقيقة[1]؛ نظرًا إلى أنَّ الذي جاءَ بالخبرِ فاسقٌ؛ وإذا كانَ المؤمنونَ بمنزلة التَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ؛ كفَّ الفاسقُ عن مجيئِهم بما يريدُ[2].

سِرُّ الحذفِ في ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾:

أهلُ الإيمانِ إنَّما يعتدّون بالخبر بعد التَّبيُّن

الفعلُ في قوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ متعدٍّ إلى مفعولٍ؛ لأنَّه بمعنى: (أبانَ)، أي: (تأمَّلوا)، و(أبينوا)، والمفعولُ محذوفٌ، دلَّ عليه قولُه: ﴿بِنَبَإٖ﴾، أي: تبيَّنوا ما جاءَ به، أو: فتبيَّنوا الحقَّ[3]، وسرُّ الحذفِ الإرشادُ إلى عدمِ الاعتدادِ بالخبرِ، الَّذي جاءَ الفاسقُ به إلّا بعدَ التَّبيُّنِ والتَّثبُّت، وتصويرُ أنَّ المفعولَ - إنْ كانَ الحقَّ - يكونُ غائبًا عن بصيرةِ الَّذي جاءَه الفاسقُ بخبره، فعليه أن يتبيَّنَه؛ ففي الحذفِ إبلاغٌ في تقريرِ الأمرِ بالتَّبيُّنِ والتَّثبُّت.

التَّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتَي قولِه: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾:

مآلُ القراءتين الحثُّ على تحرّي الحقِّ

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخَلَفٌ: ﴿فَتَثَبَّتُوٓاْ﴾، وقرأ الباقونَ: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[4]، والمعنى على القراءةِ الأولى: فتوقَّفوا إلى أن يتبيَّنَ لكم الحالُ[5]، والمعنى على الثّانيةِ: تطلَّبوا بيانَ الأمرِ وانكشافَ الحقيقة، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ المقصودَ مِنَ التَّثبُّتِ تبيُّنُ الحالِ، فتكونُ القراءةُ الأولى بمعنى القراءةِ الأخرى، وقراءةُ الجمهورِ غايةٌ لقراءةِ حمزةَ ومَن معَه[6]، وإحدى القراءتَيْن تلزم الأخرى، وإنَّما قُرِئ بهما

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 350، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 118.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 513.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 231.
(4) النشر، وابن الجزري: 2/ 376.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 134.
(6) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 75، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 231، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 364.

جميعًا؛ إبلاغًا في طلبِ الوقوفِ على الحقِّ؛ لتصويرِ خطرِ قَبول الأخبارِ مِن غيرِ فحصها، والتَّثبُّتِ منها، وكلُّ ذلك ناظِرٌ إلى حالِ الَّذي جاء بالخبر، مِن كونه فاسقًا مستهترًا مستخِفًّا بأحوالِ الخَلْقِ.

بلاغةُ الحذف في ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾:

التَّـبـيُّنُ يَـقـي مِـنَ الإضـرارِ بالآخرينَ

في قوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ﴾ وجهانِ - مِن جهة تقدير محذوفٍ - أحدُهما أنَّ المرادَ: (لئلّا تصيبوا). وثانيها أنَّ المرادَ: (كراهةَ أن تصيبوا)[1]، فالمصدرُ في محلِّ نصبٍ، على أنَّهُ مفعولٌ لهُ، حُذِفَ منهُ مضافٌ، وهو: (كراهة)، أو حرفُ نفيٍ[2]، وأيًّا ما كانَ؛ فهو علَّةٌ للتَّبيُّنِ المأمورِ بِه، وحَذْفُ ما يُشْعِرُ بالتَّعليلِ - حرفًا كان أو اسْمًا - احتفالٌ بالعِلَّةِ، بالإسراعِ إلى ذكرها.

دلالة المضارعة في ﴿أَن تُصِيبُواْ﴾:

الإصـابـةُ أمـرٌ مستقبلٌ واقِعيٌّ بيِّنُ الأثرِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قوله ﷻ: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾؛ لأنَّ الإصابةَ أمرٌ مستقبلٌ بالنِّسبةِ لزمنِ تركِ التَّبيُّنِ، ويُقوّي ذلكَ: ﴿أَن﴾ الَّتي تُعيِّنُ المضارعَ للاستقبالِ، وفيه أيضًا استحضارُ حالةِ الإصابةِ أمامَ بصيرة المخاطَبِ وبصرِه، كأنَّها تحدُث أمامَه شيئًا فشيئًا؛ ليعتنيَ بالتَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ، ولو قيل: (فتبيَّنوا إصابةَ قومٍ بجهالةٍ)؛ لفاتَ ذلكَ.

علَّةُ التَّعبيرِ بالإصابةِ:

الـضَّـررُ المُترتِّبُ على قَبول الخبر - مِن غير تبيُّن - عظيمٌ

جيءَ بالإصابةِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾؛ لأنَّ الغالبَ أنَّها تُستعملُ فيما يسوءُ[3]، والبناءُ على خبرٍ غيرِ متحقَّقٍ فيهِ ضررٌ كبيرٌ، والضَّررُ النّاتجُ عن قَبول الأخبارِ مِن غيرِ تبيُّنٍ وتثبُّتٍ نافذٌ وقويٌّ لا محالة.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 99.

(2) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 75.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 99.

سرُّ تنكيرِ ﴿قَوۡمَۢا﴾:

تنكيرُ ﴿قَوۡمَۢا﴾ في قوله ﷻ: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ للعموم، أي: (قومًا أيَّ قوم كانوا)(1)، وهذا يعني: أنَّ الأخبارَ الكاذبةَ تُدمِّرُ المجتمعاتِ والأفرادَ.

معنى الباءِ، ودلالة التَّعبير بها في ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾:

الإضــرارُ بالآخرينَ حالَ الالــتــبــاس بالجهالةِ

الجارُّ والمجرورُ في قوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ في تقديرِ حالٍ، والباءُ للملابسةِ، أي: (ملتبسينَ بجهالةِ حالِهم)(2)، فيدلُّ هنا على غايةِ فظاعةِ قَبولِ النَّبأ مع عدم التَّبيُّن والتَّثبُّتِ منه، وقبحِه، وهذا ذمٌّ شديدٌ لِمَن لم يقُم بالتَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾:

تنكيرُ: ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ للتَّعظيم، أي: بجهالةٍ عظيمةٍ، وفي ذلكَ تنبيهٌ على عِظَمِ الإضرارِ بالآخرينَ دونَ حقٍّ وبيِّنةٍ، وعلى توكيد طلبِ التَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالجهالةِ:

جـهـالـةُ مَـنْ يُـصـغـي لـخبرِ الفاسقِ عظيمةٌ جدًّا

عُبِّرَ بالجهالةِ دونَ الجهلِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾؛ للمبالغةِ في ذمِّ مَن يقْبَل الخبر مِن الفاسق بدون تثبُّتٍ وتبيُّنٍ؛ إبلاغًا في تنفيرِه مِن ذلكَ، وحثًّا له على تحقيقِ التَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ؛ لأنَّ زيادةَ المبنى تدلُّ على زيادةِ المعنى.

معنى الفاءِ، ودلالة التَّعبير بها في ﴿فَتُصۡبِحُواْ﴾:

الإضــرارُ بالآخرينَ مآلُهُ النَّدمُ العظيمُ

الفاءُ في قوله ﷻ: ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ للسَّببيَّةِ، فتفيدُ تسبُّبَ صيرورتِهم نادمينَ عن إصابتِهم غيرَهم بجهالةٍ(3)، وأنَّ النَّدمَ يكونُ بقَدْرِ الإصابةِ والجهالةِ، أي: إنَّ النَّدمَ يكونُ عظيمًا.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 299.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 99، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 118.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 365.

علَّةُ التَّعبيرِ بالإصباحِ في ﴿فَتُصۡبِحُواْ﴾:

أشنعُ النَّدمِ ما كانَ في وقتِ الغفلةِ

عُبِّرَ بالإصباحِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾؛ لدلالته على معنى الصَّيرورة[1] المطلقةِ مِن غيرِ تقييدٍ بوقتِ الصَّباحِ[2]، وإنَّما عُبِّرَ بذلكَ؛ لأنَّ أشنعَ النَّدمِ ما استقبلَ الإنسانَ صباحًا وقتَ فراغه وإقباله على لذّاته[3].

معنى ﴿عَلَىٰ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

ندمُ الجهالةِ مُفرِطٌ

﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾؛ للاستعلاءِ المعنويِّ، فتفيدُ تمكُّنَ النَّدمِ منهم، مِن أجلِ تمكُّنِهم مِن الَّذي فعلوه، مِن أنَّهم أصابوا قومًا بجهالةٍ، وفي ذلك غايةُ التَّنْفيرِ مِن قَبولِ خبرِ الفاسقِ مِن غيرِ بيِّنةٍ.

نكتةُ التَّقديم في ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ﴾:

الإصابةُ بدونِ تثبُّتٍ محلُّ العنايةِ

قُدِّمَ قولُه: ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ﴾ على قوله: ﴿نَٰدِمِينَ﴾، في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾، على خلافِ الأصلِ والظّاهرِ؛ للاهتمامِ بذلكَ الفعلِ - وهو الإصابةُ بدونِ تثبُّتٍ - ووجهُ ذلكَ: التَّنبيهُ على خطرِ أمرِه[4]، ونتَجَ عن ذلك ملاءمةُ فاصلةِ الآيةِ لِما بعدَها[5].

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ في ﴿مَا فَعَلۡتُمۡ﴾:

الإصابةُ بدونِ تثبُّتٍ فعلٌ شنيعٌ موجِبٌ للنَّدمِ

عُبِّرَ بالموصولِ في قوله تعالى ذكرُهُ: ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾؛ للتَّوصُّلِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ إلى بيانِ ما هو علَّةُ النَّدمِ، وهو ما فعلوهُ مِنَ الإصابةِ بدونِ تثبُّتٍ، وأنَّهُم عُرِفوا، وشُهِروا به، والغموضُ في: ﴿مَا﴾ أشدُّ مِن الغموضِ في: (الذي)، فيفيدُ عظمَ ما كان منهم.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 134.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 75.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 365، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 120.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 234.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 120.

دلالة المُضيِّ في ﴿فَعَلْتُمْ﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الفعلِ، والتَّسجيلِ بهِ على المخاطَبينَ؛ لاستثارةِ دوافعِ النَّدمِ في نفوسِهم.

علَّةُ التَّعبيرِ بالنَّدمِ:

لا يُقدِمُ العاقلُ على ما يجلبُ لهُ الغمَّ على الدَّوامِ

عُبِّرَ بالنَّدمِ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾؛ لدلالته على الغمِّ الَّذي يلازمُ صاحبَهُ، ولا يفارقُهُ[1]، وتركيبُ هذهِ الأحرفِ الثَّلاثةِ - وهي النّونُ والدّالُ والميمُ - دائرٌ على معنى الدَّوامِ، فإنَّ النَّدم غمٌّ يصحب الإنسان مصحبةً لها دوامٌ ولزامٌ؛ لأنَّه كلَّما تذكَّر المتندِّم عليه؛ راجعه[2]، وفي ذلكَ مزيدُ تحسيرٍ للَّذينَ لا يتثبَّتونَ في خبرِ الفاسقِ، ومزيدُ تحذيرٍ لهم[3]؛ إذ العاقلُ الفَطِنُ لا يُقدِمُ على ما يجلبُ لهُ الغمَّ على الدَّوامِ.

علَّةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿نَٰدِمِينَ﴾:

جيءَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ المجموعِ ﴿نَٰدِمِينَ﴾ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾؛ للإيماءِ إلى عَراقةِ المخاطَبينَ في الأسفِ والنَّدمِ على ما فعلوهُ[4]؛ تَرهيبًا مِن سببِه، وتحذيرًا منه.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المجيءُ والإتيانُ:

تحقُّقُ صدورِ النَّبأِ مِنَ الفاسقِ

الإتيانُ مجيءٌ بسهولةٍ، ومنهُ قيلَ للسَّيلِ المارِّ على وجهه: أتيٌّ، وأتاويٌّ[5]، والمجيءُ أعمُّ[6]، والإتيانُ قد يقالُ باعتبارِ القصدِ، وإن لم يكن منهُ الحصولُ، والمجيءُ يقالُ اعتبارًا بالحصولِ[7]، فتكونُ دلالةُ:

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 360.

(2) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 120.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 100.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 365.

(5) الراغب، المفردات: (أتي).

(6) الراغب، المفردات: (جاء).

(7) الراغب، المفردات: (جاء).

(جاءَ) على المجيءِ أقوى مِن: (أتى)، وعلى هذا يكونُ الإتيانُ أعمَّ مِنَ المجيءِ، مِن هذهِ النّاحيةِ(1)، وقد عُبِّرَ بالمجيءِ هنا؛ لدلالته على تحقُّقِ صدورِ النَّبأِ مِنَ الفاسقِ، وأنَّ مجيئَه به ذو خطَرٍ، مِمّا يوجِبُ على المخاطَبينَ ضرورةَ التَّبيُّن.

النَّبأُ والخبرُ:

التَّثبُّتُ مِنَ الخبرِ واجـــبٌ، وإن غلبَت على الظَّنِّ صحَّتُهُ

النَّبأُ: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ بِه علمٌ أو غلَبةُ ظنٍّ، ولا يقالُ للخبرِ: نبأٌ، حتَّى يتضمَّنَ هذهِ الأشياءَ الثَّلاثةَ، وحقُّ الخبرِ - الَّذي يقالُ فيهِ: نبأٌ - أن يخلوَ عن الكذبِ، كالتَّواترِ، وخبرِ اللّٰه تعالى، وخبرِ النَّبيِّ ﷺ، والتَّعبيرُ به في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ تنبيهٌ على أنَّهُ إذا كانَ الخبرُ شيئًا عظيمًا لهُ قدرٌ، فحقُّهُ أنْ يُتوقَّفَ فيه، وإن عُلِمَ، وغلبَت صحَّتُهُ على الظَّنِّ، حتَّى يُعادَ النَّظرُ فيه، ويُتبيَّنَ فَضْلَ تبيُّنٍ(2)، وفيهِ إيماءٌ إلى أنَّهُ إذا رُتِّبَ التَّبيُّنُ على الأخصِّ المُخبَرِ بِه؛ فالأعمُّ الَّذي لا يُتحفَّظُ في نقْله أوْلَى بذلكَ(3).

العملُ والفعلُ:

الـتَّـسـرُّعُ في تـصـديـقِ خـبرِ الفاسقِ موجِبٌ للنَّدمِ

العملُ: المُثابَرةُ على الشَّيءِ، لا الإتيانُ بِه مرَّةً أو بسرعةٍ، قالَ تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ [سبأ: 13]، والفعلُ: الإتيانُ بالشَّيءِ بسرعةٍ مِن غيرِ تَوانٍ، قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤﴾ [المؤمنون: 4](4)، والأصلُ في العملِ أن يكونَ بقصدٍ، والفعلُ عامٌّ، يَصدُرُ بقصدٍ، وبغيرِ قصدٍ، ويَصدُرُ عنِ العاقلِ، وغيرِ العاقلِ، وقلَّما يُنسَبُ العملُ إلى حيوانٍ، وبناءً على ذلكَ يكونُ الفعلُ أعمَّ، والعملُ أخصَّ(5)، وقد عُبِّرَ بالفعلِ هنا؛ لدلالته على التَّسرُّعِ في تصديقِ خبرِ الفاسقِ، وهو موجِبٌ للنَّدمِ.

(1) الزركشي، البرهان: 4/ 81، وزيدان، الفروق اللغوية، ص: 50.
(2) الراغب، المفردات: (نبأ)، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 297.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة:/ 36.
(4) النزهي، الفروق اللغوية، ص: 55.
(5) فاضل السامرائي، لمسات بيانية: 10/ 252.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾

[الحجرات: 7 - 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

مَنْ خالفَ الرَّسولَ؛ فقد جَهِلَ مكانتَه وقُرْبَه منهم

أمّا مناسبةُ الآيةِ الأولى لِما قبلَها؛ فهي أنَّهُ لمّا كانَ إقدامُهم على كثيرٍ مِنَ الأمورِ مِن غيرِ مشاورةٍ للرَّسولِ ﷺ؛ عَمَلَ مَنْ لا يعلمُ أنَّ رسولَ اللّه قريبٌ منهُ - وكانَ الإعراضُ عنهُ حيًّا، وعن بذلِ الجهدِ في استخراجِ الأمورِ مِن شريعته بعدَ موته - أمرًا مُفسِدًا للبَيْنِ، أخْبرَهم بهِ، مُنزِّلًا لهم منزلةَ مَن لا يعلمُ أنَّهُ موجودٌ معَهُ[1].

صلاحُ الإنسانِ نعمةٌ مِنَ الله

وأمّا مناسبةُ الآيةِ الثّانيةِ للأولى؛ فهي أنَّهُ تعالى لَمّا ذكرَ التَّحبيبَ والتَّزيينَ والتَّكريهَ، وما أنتجَهُ مِنَ الرَّشادِ؛ ذكرَ علَّتَهُ؛ إعلامًا بأنَّهُ تعالى لا يجبُ عليهِ شيءٌ؛ حثًّا على الشُّكرِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَعَنِتُّمۡ﴾: (عنت) أصلٌ يدلُّ على مشقَّةٍ[3]، ومِن ذلكَ يقالُ: عنتَ فلانٌ، أي: لقيَ مشقَّةً[4]، وعنتَ العظمُ: انكسرَ بعدَ الجبرِ[5]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 366.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 369.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عنت).
(4) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح: (عنت).
(5) الزمخشري، أساس البلاغة: 1/ 680.

وفلانٌ يتعنَّتُ فلانًا، أي: يُشدِّدُ، ويُلزِمُهُ بما يصعبُ عليهِ أداؤُهُ[1]، والمرادُ بالعنتِ هنا: الوقوعُ في الجهدِ والهلاكِ[2]، واختلالُ الأمرِ في الحاضرِ أو في العاقبةِ[3].

2) ﴿حَبَّبَ﴾: (حبب) أصلٌ يدلُّ على اللُّزوم والثَّباتِ، ومِن ذلكَ يقالُ: أحبَّهُ؛ إذا لزِمَهُ[4]، والمحبَّةُ: إرادةُ ما تراهُ، أو تظنُّهُ خيرًا[5]، ومحبَّةُ اللّه للعبادِ: إرادةُ الخيرِ بهم، وغفرانُ ذنوبِهم، ومحبَّةُ العبادِ لربِّهم ولرسوله: طاعتُهم لهما، وامتثالُ أوامرِهما، واجتنابُ نواهيهما[6]، والمرادُ هنا: أنَّ اللّه جعلَ الإيمانَ أحبَّ الأشياءِ إليهم، فلا يقعُ منهم إلّا ما يوافقُهُ مِنَ الأمورِ الصّالحةِ، وتركِ التَّسرُّعِ في الأخبارِ[7].

3) ﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾: (زين) أصلٌ يدلُّ على حُسْنِ الشَّيءِ وتحسينه، فالزَّيْنُ نقيضُ الشَّيْنِ، وتزيينُ الشَّيءِ: تحسينُهُ[8]، والزِّينةُ ثلاثٌ: زينةٌ نفسيَّةٌ: كالعِلمِ والاعتقاداتِ الحسنةِ، وزينةٌ بدنيَّةٌ: كالقوَّةِ وطولِ القامةِ، وزينةٌ خارجيَّةٌ: كالمالِ والجاهِ[9]، والمرادُ بتزيينِ الإيمانِ هنا: جعلُهُ حسنًا[10].

4) ﴿وَكَرَّهَ﴾: (كره): أصلٌ يدلُّ على خلافِ الرِّضا والمحبَّةِ[11]، ومِن ذلكَ يقالُ: فعلتُهُ على كرهٍ، وفعلتُهُ كرهًا، وأكرهتُهُ: حملتُهُ على أمرٍ، وهو لا يَرْضاهُ، ولا يُحِبُّهُ، وكرَّهَ إليَّ كذا تكريهًا: صيَّرَهُ عندي بحالِ كراهةٍ[12]، وهو المرادُ هنا.

5) ﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾: (رشد) أصلٌ يدلُّ على استقامةِ الطَّريقِ[13]، ومِن ذلكَ: الرُّشْدُ، وهو ضدُّ الغَيِّ، فالرُّشْدُ: الهدايةُ، والغَيُّ: الضَّلالُ[14]، وأرشدَهُ اللّه ورشَّدَهُ: هداه، والرَّشيدُ في

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عنت).
(2) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 126.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 235.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حبب).
(5) الراغب، المفردات: (حبب).
(6) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حبب).
(7) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 128.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).
(9) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (زين).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 237.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كره).
(12) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح: (كره).
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رشد).
(14) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رشد).

صفاتِ اللّه تعالى: الهادي إلى سَواءِ الصِّراطِ[1]، والمرادُ بالرُّشدِ هنا: الاستقامةُ على طريقِ الحقِّ معَ تصلُّبٍ فيهِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لـولا لطفُ الله ورحمتُهُ بالعبدِ؛ لهلكَ

يخبرُ اللّه تعالى عبادَهُ المؤمنينَ عن فضلٍ لهُ عليهم، يتعلَّقُ بتعاملِهم مع نبيّه ﷺ، فيقولُ: واعلموا أنَّ بينَ أظهركم رسولَ اللّه، فعظِّموه، ووقِّروهُ، وتأدَّبوا معَهُ، فلو كانَ يعملُ في الأمورِ بآرائِكم، ويقبلُ منكم ما تقولونَ لهُ، فيطيعُكم؛ لنالَكُم شِدَّةٌ ومشقَّةٌ، ولكنَّ اللّه حبَّبَ إليكم الإيمانَ باللّه ورسوله، فأنتم تطيعونَ رسولَ اللّه، وتأتمّونَ بهِ، فيقيكم اللّه بذلكَ مِنَ الشِّدَّةِ والمشقَّةِ، وحسَّنَ الإيمانَ في قلوبِكم، فآمنتم، وكرَّهَ إليكم الكفرَ باللّه، والكذبَ، وركوبَ ما نهَى اللّه عنهُ، وهؤلاءِ هم الرّاشدونَ السّالكونَ طريقَ الحقِّ، فضلًا منهُ، وإحسانًا، ونعمةً منهُ أنعمَها عليكم، واللّه ذو علم بالمُحسِنِ منكم، والمسيءِ، ومَن هو لنعمِ اللّه وفضله أهلٌ، ومَن هو لذلكَ غيرُ أهلٍ، وذو حكمةٍ في تدبيره خلْقَهُ، وصرفه إيّاهم فيما شاءَ مِن قضائه[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ الوَصْلِ في ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

الحثُّ على رعايةِ حُـرمـةِ وجـودِ الرَّسولِ بينَهم

قولُهُ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ عطفٌ على جملةِ: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾، عطْفَ تشريعٍ على تشريعٍ، وليسَ مضمونُها تكملةً لمضمونِ جملةِ: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾، بل هي جملةٌ مستقلَّةٌ[4]، وسِرُّ الوَصْلِ ما بينهما مِن التَّوسُّطِ بينَ الكماليْنِ، فالمعطوفُ إنشاءٌ، نوعُه الأمرُ، والمعطوفُ عليه جوابُ الشَّرطِ فيه كذلكَ.

(1) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (رشد).
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 363.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 289، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 372 - 373.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 234.

سِرُّ الابتداءِ بلفظ التَّنْبيه:

العنايةُ بالتَّحذيرِ مِنَ المخالفةِ

ابتداءُ جملةِ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ بـ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ للاهتمامِ بمضمونِها[1]؛ إذ فيهِ تنبيهٌ لهم على أمرٍ يقعونَ فيهِ، وفيهِ هلاكُهم ومشقَّتُهم، وتنبيهٌ على أنَّ مَن أخلَّ بمراعاة ما بعدَها يكونُ في عِدادِ الغافلينَ[2].

دلالةُ الأمرِ في ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

الأمرُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا مقتضيَ للعدولِ عنهُ، فينبغي عليهم التَّيقُّظُ لِما في حيِّزه.

بلاغةُ الكنايةِ:

واجبُ المسلمينَ اتِّباعُ ما شرعَ لهم الرَّسولُ

قولُهُ تعالى: ﴿أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ خبَرٌ مُستعملٌ في الإيقاظِ والتَّحذيرِ على وجهِ الكنايةِ، فإنَّ كونَ رسولِ اللّه ﷺ بينَهم أمرٌ معلومٌ، لا يُخبَرُ عنه، وإنَّما المقصودُ تعليمُ المسلمينَ اتِّباعَ ما شرعَ لهم رسولُ اللّه ﷺ مِنَ الأحكامِ، ولو كانَت غيرَ موافقةٍ لرغباتِهم[3].

سِرُّ التَّوكيدِ في ﴿أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾:

إيقاظُ الغافلينَ عن كمالِ الاتِّباعِ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ بـ﴿أَنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ؛ لبيانِ تحقُّقِ مضمونه، وفي ذلكَ مزيدُ إيقاظٍ لِمَنْ كانَ غافلًا عن وجوبِ اتِّباعِ الشَّرعِ؛ بتنزيله منزلةَ مَن يعتقدُ أنَّ الرَّسولَ غائبٌ عنهم، ولذلكَ أُكِّدَ الكلامُ.

نكتة تقديم ﴿فِيكُمۡ﴾:

وجودُ النَّبيِّ بينَهم داعٍ لهم إلى التَّوقيرِ والاتِّباعِ

قُدِّمَ قولُه: ﴿فِيكُمۡ﴾ على قولِه: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾، مع أنَّ حقَّهُ التَّأخيرُ عن اسمِ ﴿أَنَّ﴾؛ للقصدِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 234.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 366.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 234.

إلى توبيخ بعضِ المؤمنينَ، على ما استُهجِنَ منهم، مِنِ استتباعِ رأيِ رسولِ اللّه ﷺ لآرائِهم، فوجبَ تقديمُهُ؛ لانصبابِ الغرضِ إليه[1]، والمعنى: أتستتبعونَ رأيَهُ لرأيِكم، وهو رسولٌ مِنَ اللّه، ومَهْبِطُ وحْيه، فكيفَ وهو مستقرٌّ فيكم، وأنتم بينَ يديهِ شاهدينَ مجلسَهُ، ولستم غائبينَ كغيركم؟ نزَّلَهم لذلكَ الفعلِ منزلةَ مَن اعتقدوا أنَّهُ غائبٌ عنهم، فلو أُخِّرَ ﴿فِيكُمۡ﴾؛ لم يُتفطَّنْ لتلكَ النُّكتةِ[2]، وفي التَّقديم أيضًا اهتمامٌ بهذا الكونِ فيهم، وتنبيهٌ على أنَّ واجبَهم الاغتباطُ به، والإخلاصُ لهُ؛ لأنَّ كونَهُ فيهم شرفٌ عظيمٌ لجماعتِهم وصلاحٌ لهم[3].

دلالةُ حرفِ الجرِّ (في):

كينونةُ الرَّسولِ بينَهم منبعُ الخيرِ والصَّلاحِ لهُم

حرفُ الجرِّ في قوله تعالى: ﴿أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ للظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ؛ فيفيدُ أنَّهم بمنزلةِ ظرفٍ يكونُ فيه رسولُ اللّه ﷺ، وهو منبعُ الحقِّ والهدى والخيرِ والصَّلاحِ لهم، فحقُّهُ أن يُطاعَ، ويُتَّبعَ في كلِّ شأنٍ، فالظَّرفيَّةُ هنا مجازيَّةٌ.

علَّةُ التَّعبيرِ بالرَّسولِ:

تشريفُ رسالته ﷺ

عُبِّرَ بالرَّسولِ في قوله تعالى هنا: ﴿أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾، وبالنَّبيِّ في قوله تعالى: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: 2]؛ لأنَّ المرادَ هنا شرفُ الرِّسالةِ، وشرفُ النَّبيِّ تبعٌ لها[4]، وهذا هو المناسبُ لقوله تعالى: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ الآية، فالرَّسول إنَّما يطيعُ اللّه؛ لأنَّ رسالتَه مستمدَّةٌ منه، لا مِن غيرِه.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾:

رسولُ العظيمِ عظيمٌ

الإضافةُ في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ النَّبيِّ ﷺ بكونه رسولَ ذي العظمةِ والجلالِ، وللتَّنبيهِ على اختصاصه

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 361، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 366.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 472.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 235.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 36.

باللّه تعالى، وعُلوِّ قَدْره عندَهُ، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لسياقِ الحثِّ على رعايةِ حُرمته بينَهم.

بلاغةُ إيثارِ اسم الجلالةِ في ﴿رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾:

مَنْ عرفَ العظيمَ سبحانَهُ؛ اتَّبعَ رسوله

أوثِرَ اسمُ الجلالةِ في قوله ﷻ: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾؛ لدلالته على صفاتِ العظمةِ والجلالِ[1]، فيكونُ أنسبَ بمقامِ تعظيمِ شأنِ النَّبيِّ ﷺ، ومقامِ التَّلويحِ بالعقوبةِ لِمَن يُقدِّمونَ بينَ يديهِ، ويريدونَ أن يتَّبعَ أهواءَهم، وذلكَ أنَّ عقابَ العظيمِ سبحانَهُ لا قِبَلَ لأحدٍ بهِ.

بلاغةُ موقعِ جملة ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ﴾:

وجوبُ الانتقالِ مِن حالةِ المُخالَفةِ إلى حالةِ الاتِّباعِ

قولُهُ تعالى: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ حالٌ مِن أحدِ الضَّميرينِ في قوله: ﴿أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ المستترِ المرفوعِ، أو البارزِ المجرورِ، والمعنى: أنَّ فيكم رسولَ اللّه على حالةٍ يجبُ عليكم تغييرُها، أو أنتم على حالةٍ يجبُ عليكم تغييرُها، وهي أنَّكم تحاولونَ منهُ أن يعملَ في الحوادثِ على مُقتضَى ما يظهرُ لكم مِن رأيٍ[2]، وفي نَظْمِه حالًا إشارةٌ لطيفةٌ إلى قُبْحِ أن يكونَ حالُهُم مع رسولِ اللّه اتِّباعَ هواهُ لهواهُم، وهو لا يزال بين ظهرانَيهم.

معصيةُ بعضِ المخاطَبين تَضُرُّ غيرَهُم

ويَحتملُ أن تكونَ استئنافًا ابتدائيًّا، فضميرا الجمعِ في قوله: ﴿يُطِيعُكُمۡ﴾، وقوله: ﴿لَعَنِتُّمۡ﴾: عائدانِ إلى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ على توزيعِ الفعلِ على الأفرادِ، فالمطاعُ بعضُ الَّذينَ آمنوا، وهم الَّذينَ يبتغونَ أن يعملَ الرَّسولُ ﷺ بما يطلبونَ منهُ، والعانتُ بعضٌ آخر، وهم جمهورُ المؤمنينَ الَّذينَ يجري عليهم قضاءُ النَّبيِّ ﷺ بحسَبِ رغبةِ غيرِهم[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 366.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 361.

(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 351، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 234.

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿لَوۡ﴾:

طاعةُ الرَّسول لهم مفروضةٌ غيرُ متحقِّقةٍ

اختيرَت ﴿لَوۡ﴾ دونَ غيرِها مِن أدواتِ الشَّرطِ، في قوله تعالى: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على الفرضِ والتَّقدير، وأنَّ ما بدرَ منهم مِن طلبِ طاعته لهم كانَ مِن حقّه أن يُفرَضَ، كما تُفرَضُ المتنعاتُ[1]، ففيه نوعُ توبيخٍ لهم، وإنكارٍ لطيفٍ عليهم أن يكون منهم ذلك، وللتَّنبيهِ على أنَّهُ ﷺ لا يطيعُهم؛ لئلّا يشقَّ عليهم؛ لِما هو متخلِّقٌ بِهِ مِن طاعةِ اللّه، والوقوفِ عندَ حدوده، مع ما له مِنَ البصيرةِ في التَّمييزِ بينَ المُلبِسات، والخبرةِ التّامَّةِ بالأمورِ المشتبِهاتِ، الَّتي هي سببُ هلاكِ الأغلبِ؛ لأنَّها لا يعلمُها كثيرٌ مِنَ النّاسِ[2].

دلالةُ المضارعة في ﴿يُطِيعُكُمۡ﴾:

قُبْحُ إصرارِ المخالفِ على معصيته

الأصلُ أن يقالَ: (أطاعَكم)؛ لأنَّ حرفَ ﴿لَوۡ﴾ يفيدُ تعليقَ الشَّرطِ في الماضي، وإنَّما عُدِلَ إلى المضارعِ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهُ كانَ في إرادتِهم استمرارُ عمله ﷺ على ما يستصوبونَهُ، وأنَّهُ كلَّما ظهرَ لهم رأيٌ في أمرٍ كانَ معمولًا عليهِ[3]، وفي ذلكَ تصويرٌ لِما كانوا عليهِ، وتهجينٌ لهُ، وتوبيخٌ على إرادةِ استمرارِ ما حقُّهُ أن يكونَ مفروضًا، فَضْلًا عن الوقوعِ[4].

معنى ﴿فِي﴾، ودلالة التَّعبير بها:

التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الأمورَ والشُّؤونَ هي محلُّ الطّاعةِ المفروضةِ الحصولِ.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 300.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 367.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 361، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 101، والسمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 7.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 300.

عِلّةُ التَّعبيرِ بـ﴿كَثِيرٖ﴾:

بعض رأيِ المؤمنينَ محمودٌ عندَ النَّبيِّ

عُبِّرَ بالكثيرِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّهُ ﷺ قد يوافقُهم في بعضِ الأمورِ، ممّا هو غيرُ شؤونِ التَّشريعِ، كما أطاعَهم في نزولِ الجيشِ يومَ بدرٍ على جهةٍ يستأثرونَ فيها بماءِ بدرٍ[1].

معنى ﴿مِّنَ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

﴿مِّنَ﴾ في قوله ﷻ: ﴿فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ بيانيَّةٌ، فتفيدُ أنَّ الكثيرَ المذكورَ هنا من جنسِ الأمرِ.

عِلّةُ التَّعبيرِ بالأمرِ:

قد يرتضي الإنسانُ أمرًا لا يرضاه الله ورسولُه

جيءَ بالأمرِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾؛ لأنَّهُ لفظٌ عامٌّ يشملُ الحوادثَ والقضايا النّازلةَ[2]، وللتَّنبيهِ على أهمّيَّةِ أفرادِ هذا الأمرِ، فإنَّ كُلًّا منها يرتضيه هؤلاءِ، فيريدونَ مِن رسول الله أن يُطيعَهُم فيه.

دلالةُ تعريفِ الأمرِ:

تعريفُ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ تعريفُ الجنسِ، وهو شاملٌ لجميعِ الأمورِ[3]، وهذا يُبرز عِظَمَ جُرْمِهم.

دلالةُ اللّامِ في ﴿لَعَنِتُّمۡ﴾:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لَعَنِتُّمۡ﴾ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ، فتفيدُ ربطَ الجزاءِ بالشَّرطِ، فالعنتُ المفروضُ هنا مرتبطٌ بالطّاعةِ المفروضةِ.

دلالةُ المُضيِّ في ﴿لَعَنِتُّمۡ﴾:

تحقُّقُ العنتِ وتوكيدُ وقوعِه

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿لَعَنِتُّمۡ﴾؛ لأنَّ ﴿لَوۡ﴾ لتعليقِ الشَّرطِ بالجزاءِ في الماضي على سبيلِ الفرضِ والتَّقديرِ، ولذلكَ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 102، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 235.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 235.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 235.

كانَ الأصلُ أن تكونَ جملتا الشَّرطِ والجزاءِ بصيغةِ الماضي، ولا يخلو مِن إشعارٍ بتحقُّقِ العنتِ، وتوكيد وقوعِه.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالعنتِ:

الاجتهادُ بينَ يدي الشّارعِ مَفسَدةٌ ومَهلَكةٌ

عُبِّرَ بالعنتِ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿لَعَنِتُّمْ﴾؛ لدلالةِ هذا اللَّفظِ على طلبِ ما يُؤدّي إلى الهلاكِ[1] والشَّقاءِ والمشقَّةِ، وفي ذلكَ دلالةٌ على أشدِّ المحذورِ[2]، وتنبيهٌ على أنَّ الاجتهادَ بينَ يدي الشّارعِ مَهلَكةٌ[3]، ويُؤدّي إلى اختلالِ الأمرِ في الحاضرِ، أو في العاقبةِ[4].

نكتةُ الاستدراكِ في ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾:

اللهُ لا يأمرُ رسولهُ إلّا بما فيهِ صلاحُ العاقبةِ

الاستدراكُ المستفادُ مِن (لكنَّ) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ ناشئٌ عن قوله: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾؛ لأنَّهُ اقتضى أنَّ لبعضِهم رغبةً في أن يُطيعَهم الرَّسولُ ﷺ فيما يرغبونَ أن يفعله، ممّا يبتغونَ ممّا يخالونَهُ صالحًا بهم في أشياءَ كثيرةٍ تَعرِضُ لهم، والمعنى: (ولكنَّ اللّه لا يأمرُ رسوله إلّا بما فيهِ صلاحُ العاقبةِ، وإن لم يُصادِف رغباتِكم العاجلةَ)، وذلكَ فيما شرعَهُ اللّه مِنَ الأحكامِ[5].

بَسْطُ عذرِ مَن أخذَتهم حميَّةُ الإيمانِ

ويَحتملُ أن يكونَ الاستدراكُ لبيانِ عذرِهم، وهو أنَّهُ مِن فَرْطِ حبِّهم للإيمانِ وكراهتِهم للكفرِ وقع منهم ذلكَ؛ لَمّا سمعوا قولَ الوليدِ بنِ عُقبَةَ بنِ أبي مُعَيطٍ في قصَّةِ بني المصطلقِ، والَّتي كانت سَبَبَ نزول هذه الآياتِ[6].

بيانُ براءةِ مَن لم يُرِد أن يُطيعَهُ النَّبيُّ

ويَحتمِلُ أن يكونَ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 361.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 300.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 147، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 314.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 235.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 236.
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 135.

﴿ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ تجريدٌ للخطابِ، وتوجيهٌ لهُ إلى بعضٍ آخرَ، بطريقِ الاستدراكِ؛ بيانًا لبراءَتِهم عن أوصافِ الأوَّلينَ، وإحمادًا لأفعالِهم(1).

عِلَّةُ التَّعبيرِ باسمِ الجلالةِ:

مَن قدرَ العظيمَ حقَّ قدْرِه؛ امتثلَ لهُ

ذُكِرَ اسمُ الجلالةِ في صدرِ جملةِ الاستدراكِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ دونَ ضميرِ المتكلِّمِ: (ولكنّا)، أو: (لكنَّنا)؛ لِما يُشعِرُ بهِ اسمُ الجلالةِ مِنَ المهابةِ والرَّوعةِ، وما يقتضيهِ مِن واجبِ اقتبالِ ما حُبِّبَ إليهِ، ونبذِ ما كُرِّهَ إليهِ(2)، ولو قيل: (ولكنَّه)، بعودِ الضَّميرِ على اسمِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾، بعدَ قولِه سبحانَه: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾؛ لتبادرَ إلى الذِّهنِ أنَّه رسولُ اللّه، وليس كذلك، فعُبِّرَ بالاسمِ الظّاهرِ نصًّا على المقصودِ، واحتراسًا مِن غيرِ المرادِ؛ لئلّا يُؤتَى المُتلقّي مِن قِبَلِ المُتكلِّمِ.

غرضُ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ الفعليِّ:

الهدايةُ إلى الإيمانِ توفيقُ اللهِ تعالى يقينًا

قُدِّمَ المسندُ إليهِ على المسندِ الفعليِّ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾؛ لإفادةِ تقوّي الإسنادِ؛ لأنَّ الجملةَ تشتملُ على نسبةِ التَّحبيبِ إلى اللّه، وفي (حبَّبَ) ضميرٌ راجعٌ إلى اسمِ الجلالةِ، فيفيدُ نسبةَ التَّحبُّبِ إليهِ مرَّةً أخرى، كأنَّهُ قيلَ: (ولكنَّ اللّه حبَّبَ، ولكنَّ اللّه حبَّبَ)، وعندما يتلقَّى المُتلقّي اسمَ الجلالةِ؛ تستشرفُ نفْسُه لتلقّي الخبرِ، فإذا تلقّاه - وحالُه كذلك - تمكَّنَ معنى الجملةِ في نفْسِه خيرَ تمكُّنٍ.

دلالةُ المضيِّ في ﴿حَبَّبَ﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ التَّحبُّبِ، وأنَّهُ أمرٌ قد مضَى، وانقضَى، وذلكَ أعظمُ في تقريرِ المِنَّةِ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 119.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 237.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالتَّحبيبِ:

مَن أحبَّ شيئًا؛ حرصَ عليهِ

عُبِّرَ بالتَّحبيبِ في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾؛ لدلالته على أنَّ اللّه تعالى بيَّنَ لهم الإيمانَ، وجعله محبوبًا إليهم، فهو لم يهدِهم لهُ فقط، بل جعلَهم يحبّونَهُ، ويحرصونَ عليهِ حرْصَ الحبيبِ على محبوبه، فمَن أحبَّ الإيمان؛ أحبَّ الرَّسولَ الذي جاءَهُم به، وأحبَّ الزّيادة في الإيمان بطاعته.

بلاغَةُ التَّعدية بـ(إلى):

اللـه بـلّـغ المخاطَبينَ حبَّ الإيمانِ وكُرْهَ الكفرِ

عُدّيَ فِعْلا ﴿حَبَّبَ﴾، ﴿وَكَرَّهَ﴾ بالحرفِ (إلى) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ - ومعناه انتهاء الغاية - لتضمينهما معنى (بلَّغَ)، أي: بلَّغَ إليكم حُبَّ الإيمانِ وكُرْهَ الكفرِ، وهذا ضربٌ مِن إيجازِ القِصَرِ، وللإبلاغِ في تقريرِ الامتنانِ بمضمونِ الجملتَيْن، مِن تحبيبِ الإيمان، وكرْهِ الكفرِ والفسوقِ والعصيانِ، بجعْلِ مدخولِ الحرف (إلى) غايةً لِما قبلَه، فالإيمانُ غايةٌ يُسْعَى إليها، واجتنابُ الكفرِ وما بعده غايةٌ أيضًا.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡإِيمَٰنَ﴾:

الإيمانُ الشَّرعيُّ مُحبَّبٌ للمخاطَبينَ

تعريفُ الإيمانِ في قوله ﷻ: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ للجنسِ، أو للعهد الذِّهني، والمرادُ بِهِ الإيمانُ الشَّرعيُّ، وهو الإيمانُ باللّه تعالى، وبباقي أركانِ الإيمانِ؛ بناءً على حَملِ الإيمانِ على الاعتقادِ.

بلاغةُ الإدماجِ والإيجازِ في ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾:

اللـه لا يأمرُ رسوله إلّا بما فيهِ صلاحُ العاقبةِ

معنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾، ولكنَّ اللّه لا يأمرُ رسوله إلّا بما فيهِ صلاحُ العاقبةِ، وإن لم يصادف رغباتِكم العاجلةَ، وذلكَ فيما شرعَهُ اللّه مِنَ الأحكام، أي: حبَّبَ إليكم الإيمانَ الَّذي هو الدّينُ الَّذي جاءَ بِهِ الرَّسولُ ﷺ، وهذا تحريضٌ على التَّسليمِ لِما يأمرُ بِهِ الرَّسولُ ﷺ، ولذا فكونُهُ حبَّبَ إليهم الإيمانَ

إدماجٌ وإيجازٌ، والتَّقديرُ: (ولكنَّ اللّه شرعَ لكم الإسلامَ، وحبَّبَهُ إليكم)، أي: دعاكم إلى حبّه والرِّضا بهِ، فامتثلتم[1].

بلاغةُ عطفِ: ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾:

تعظيمُ مِنَّةِ الإيمانِ برسوخِها في القلبِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ بالواو؛ لِما بينهما من التَّوسُّطِ بين الكمالَيْن؛ إذ كلٌّ منهما خبرٌ في اللَّفظ والمعنَى، وحسَّنَ الوصلَ كونُ كلٍّ منهما جملةً فعليَّةً، فعلُها ماضٍ، وأنَّ الحديثَ فيهما عن الإيمان، وجاء المعطوفُ تأكيدًا للمعطوف عليه، وحاصل المعنى: قرَّبَهُ، وأدخله في قلوبِكم، ثمَّ زيَّنَهُ فيها بحيثُ لا تفارقونَهُ، ولا يخرجُ مِن قلوبِكم، وهذا لأنَّ مَن يحبُّ أشياءَ، فقد يَمَلُّ شيئًا منها؛ إذا حصلَ عندَهُ، وطالَ لُبثُهُ، والإيمانُ كلَّ يوم يزدادُ حُسنًا، ولكن مَن كانَت عبادتُهُ أكثرَ، وتحمُّلُهُ لمشاقِّ التَّكليفِ أتمَّ، تكونُ العبادةُ والتَّكاليفُ عندَهُ ألذَّ وأكملَ، ولهذا قالَ في الأوَّلِ: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ﴾، وقالَ ثانيًا: ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾، كأنَّهُ قرَّبَهُ إليهم، ثمَّ أقامَهُ في قلوبِهم[2]، ويحتملُ أن يكونَ العطفُ مِن قبيلِ عطفِ العلَّةِ على المعلولِ[3].

دلالةُ المُضيِّ في ﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ التَّزيينِ، وأنَّهُ أمرٌ قد مضَى، وانقضَى، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لسياقِ الامتنانِ بشرف الإيمان.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّزيينِ:

مِن كمالِ شرَفِ الإيمانِ والإحسانِ به عليهم أن زيَّنَهُ لهم

في قوله ﷻ: ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾، استعارةٌ لطيفةٌ؛ بتشبيهِ الإيمانِ بشيءٍ ممّا يوقَعُ عليهِ الزِّينةُ، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ بهِ، وأُبقيَ على

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 236.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 102، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 367.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 123.

شيءٍ مِن لوازمه - وهو التَّزيينُ - على طريقةِ الاستعارةِ المكنيَّةِ، وإثباتُ هذا اللّازم للمشبَّه استعارةٌ تخييليَّةٌ، وفي ذلك احتفالٌ بالإيمانِ تفخيمًا له وتعظيمًا، وبهم إحسانًا إليهم.

بلاغةُ تعديةِ ﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾ بـ﴿فِى﴾:

عُلوُّ إحسانِ الله وكمالُه

لم يُعَدَّ الفعلُ ﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمۡ﴾ بالحرفِ (إلى) مِثْلَ فعلَي ﴿حَبَّبَ﴾، و﴿وَكَرَّهَ﴾، وإنَّما عُدّي بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِى﴾؛ لتصويرِ كمالِ إحسانِه تعالى عليهم؛ بأن لم يجعل تزيينَ الإيمانِ يمَسُّ قلوبهم، بل جعلَه في قلوبِهم، بأن جعَل قلوبَهُم لهذا التَّزيين وِعاءً.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿قُلُوبِكُمۡ﴾:

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿قُلُوبِكُمۡ﴾ بمعنى اللّامِ، أي: في قلوبٍ لكم، وذلكَ تأكيدٌ للامتنانِ عليهم، ببيانِ أنَّ مكانَ التَّزيينِ هو قلوبُهم الخاصَّةُ بهم.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾:

تكريهُ الكفر والفسوق والعصيان نعمةٌ جليلةٌ

قولُه تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ معطوفٌ على ما قبله، وهو كالتَّأكيدِ له[1]؛ لأنَّ مَن حُبِّبَ إليهِ الإيمانُ، وزُيِّنَ في قلبه؛ يُبغِضُ الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ دونَ شكٍّ، وفي استعمال حرف (الواو) المفيدِ معنى المغايرة إيماءٌ إلى استقلال ما بعده عمّا قبله؛ تصويرًا لعظيم أهمّيَّته، وكأنَّه كان عملًا مستقِلًّا.

دلالة المُضيِّ في ﴿وَكَرَّهَ﴾:

اختيرَت صيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ التَّكريه، وأنَّهم لا ينكرونَ حصوله، وذلكَ يوجبُ رعايةَ حقِّ هذهِ النِّعمةِ العظيمةِ باتِّباعِ الشَّرعِ.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 123.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾:

التَّعريفُ في معمول التَّكريه المُتعدِّدِ في قوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ للجنسِ؛ فيفيدُ الكلامُ أنَّهم يكرهونَ جنسَ هذهِ المذكوراتِ الَّتي تُنافي كمالَ الإيمانِ.

بلاغةُ التَّعريضِ في ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾:

رضا الشّارعِ هو ميزانُ المؤمنِ في جميعِ أفعاله

في قوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾، تعريضٌ بأنَّ الَّذينَ لا يطيعونَ الرَّسولَ ﷺ، فيهم بقيَّةٌ مِنَ الكفرِ والفسوقِ والعصيان، والمقصودُ من هذا أن يتركوا ما ليسَ مِن أحكام الإيمانِ، فالخبرُ في قوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ مُستَعمَلٌ في الإلهابِ وتحريكِ الهِمَمِ؛ لمراعاةِ محبَّةِ الإيمانِ، وكراهةِ الكفرِ والفسوقِ والعصيانِ، أي: (إن كنتم أحببتم الإيمانَ، وكرهتم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ، فلا ترغبوا في حصولِ ما ترغبونَهُ، إذا كانَ الدّينُ يمنعُ منهُ، وكانَ الفسوقُ والعصيانُ يدعو إليهِ)، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الاندفاعَ إلى تحصيلِ المرغوبِ مِنَ الهوى - دونَ تمييزٍ بينَ ما يُرضي اللّه وما لا يُرضيهِ - أثرٌ من آثارِ الجاهليَّةِ والكفرِ والفسوقِ والعصيانِ[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالكفرِ:

القَصْدُ إلى مقابلةِ الإيمان

في قوله تعالى: ﴿ٱلۡكُفۡرَ﴾ مجازٌ لطيفٌ، وذلكَ أنَّهُ في الأصلِ للتَّغطيةِ الحسّيَّة، فنُقِلَ للتَّغطيةِ المعنويَّة؛ إذ المرادُ هنا تغطيةُ نِعَمِ اللّه بالجحودِ[2]؛ إذ إنكارُ وحدةِ اللّه تعالى، وإنكارُ النُّبوَّةِ إنكارٌ لنعمةِ اللّه[3]، وهذا مِنَ المجازِ الَّذي كثُرَ استعمالُه، فصارَ حقيقةً عُرْفيَّةً، وإنَّما عُبِّرَ بالكُفْرِ؛ لمقابلتِه الإيمانَ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 236.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 135، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 76.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 125.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفسوقِ:

كرهُ المخاطَبينَ للخروجِ عن طريقِ الحقِّ

في التَّعبيرِ بالفسوقِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡفُسُوقَ﴾، مجازٌ لطيفٌ؛ وذلكَ أنَّهُ في الأصلِ مِن: فسقتِ الثَّمرةُ؛ إذا خرجَت من قِشرِها، فاستُعمِلَ في الخروجِ عن القَصدِ، وعن طريقِ الحقِّ[1]، ومآلُ المجازِ فيه كما في ﴿ٱلۡكُفۡرَ﴾، وإنَّما ذُكِرَ الفسوقُ الَّذي هو المُروقُ مِن رِبْقة الدّين، ولو من غير تغطية، بل بغير تأمُّلٍ؛ بيانًا لامتنانِه تعالى عليهم بتكريههم هذا الفسوقَ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالعصيانِ:

المؤمنُ لا يمتنعُ عن الانقيادِ

في التَّعبيرِ بالعصيانِ في قوله ﷻ: ﴿وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ مجازٌ لطيفٌ؛ وذلكَ أنَّهُ في الأصلِ مِن: عصتِ النَّواةُ؛ إذا صلُبَت، واشتدَّت، فنُقِلَ للامتناعِ عن الانقيادِ[2]، ومآلُ المجازِ هنا كما في سابقيه، والتَّنْصيصُ عليه إبلاغٌ في الامتنانِ.

بلاغةُ المقابلةِ في الآيةِ:

الحقُّ والباطلُ طرفا صراعٍ

في قوله تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ مقابلةٌ، فالتَّحبيبُ يضادُّهُ التَّكريهُ، والإيمانُ يضادُّهُ الكفرُ[3]، وهذا يدعو المُتلقّي إلى تدبُّرِ كلٍّ مِن هذه الأطرافِ في نورِ مقابلِه، فيتمكَّنُ المعنى في النَّفْسِ، وهذا إحسانٌ إلى المعنى والمُتلقّي جميعًا.

علَّةُ فصلِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ كلامٌ مستأنفٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ للثَّناءِ على المخاطَبينَ باختصاصِهم بالرُّشدِ، ويحتملُ أن تكونَ الجملةُ اعتراضيَّةً للمدحِ[4].

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 135، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 351، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 76.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 135، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 76.

(3) الزحيلي، التفسير المنير: 26/ 225.

(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 363، والطيبي، فتوح الغيب: 14/ 470، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 237.

دلالةُ الاسميَّة في ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾:

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ اتِّصافَهم بالرُّشدِ أمرٌ ثابتٌ دائمٌ، فهو حقيقةٌ لا تتغيَّرُ، وهذا تمكينٌ للثَّناءِ والمدح.

بلاغةُ الالتفات:

في الالتفات مدحٌ لهؤلاء بديمومة السَّيْرِ في طريق الرُّشْدِ

في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ التفاتٌ مِنَ الخطابِ في قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾، إلى قوله: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ﴾ إلى الغيبةِ فيه، كأنَّهُ قيلَ: (ومَن فعلَ هذا، وقبِله، وشكرَ عليهِ، فأولئكَ هم الرّاشدونَ)(1)، وإنَّما عدَل القرآنُ عن خطابِهم إلى خطابِه ﷺ، فكانوا مذكورين بطريق الغَيْبة؛ للدَّلالة على عِظَم هذه الأوصافِ، وإبلاغًا في مدحِهم، فهُم قومٌ لا يُحِبّونَ أن يُمدحوا في ساحة الخطاب(2).

علَّةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ:

علوُّ درجةِ أهلِ الإيمانِ

الإشارةُ بـ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إلى الَّذينَ أحبّوا الإيمانَ، وتزيَّنَت بهِ قلوبُهم، وكَرِهوا الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ(3)، وقد أُشيرَ إليهم باسم الإشارةِ للبعيدِ مع قُربِهم؛ للإشعارِ بعُلوِّ درجتِهم، وأنَّهم بمنزلةِ الأشياءِ الحسّيَّةِ العاليةِ، الَّتي يُشارُ إليها مِن بعيدٍ.

بلاغةُ القصرِ في ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾:

الـرُّشـدُ خـاصٌّ بأهلِ الإيمانِ

في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ قصرٌ مستفادٌ مِن تعريفِ طرَفَي الإسنادِ، وتوسيطِ ضميرِ الفصلِ(4)، وهو قصرٌ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ، قصرُ صِفَةٍ على موصوفٍ، أي: أولئكَ المحبَّبُ إليهم الإيمانُ

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 147، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 314.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 368.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 237.

(4) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 470.

هم الرّاشدونَ، لا غيرُهم[1]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ بينَهم فريقًا ليسوا براشدينَ، وهم الَّذينَ تلبَّسوا بالفسقِ حينَ تلبُّسِهم بهِ، فإن أقلعوا عنهُ؛ التحقوا بالرّاشدينَ[2].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾:

أهلُ الإيمانِ هم أهلُ الرُّشدِ الكاملِ

تعريفُ: ﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ بـ(أل) في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾؛ للدَّلالة على معنى الكمال، فيفيدُ الكلامُ بمَعونةِ القَصرِ على أنَّهم الرّاشدونَ الَّذينَ يستحقّونَ أن يُطلَقَ عليهم صفةُ الرُّشدِ، والمعنى: أولئك هم الكاملون في الرُّشدِ.

دلالةُ اسم الفاعل في ﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾:

عُبِّرَ باسمِ الفاعلِ المجموعِ في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على رسوخِ المحبَّبِ إليهم الإيمانُ في الرُّشدِ[3]، ومقامُ الرُّسوخِ فيه سابقٌ على مقامِ الكمالِ فيه، فالثّاني مُؤسَّسٌ على الأوَّلِ.

إعرابُ قولِه: ﴿فَضۡلٗا﴾:

صلاحُ العبدِ عطاءٌ مَحْضٌ مِنَ اللهِ

قولُهُ: ﴿فَضۡلٗا﴾ يجوزُ أن يَنتصِبَ على المفعولِ من أجله، وفي ناصبه وجهانِ: أحدُهما: الفعلُ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾، وعلى هذا فما بينَهما اعتراضٌ. والثّاني: أنَّهُ ﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾، ويجوزُ أن ينتصبَ بفعلٍ مقدَّرٍ، أي: جرى ذلكَ، أو كانَ ذلكَ، ويجوزُ أن ينتصبَ على المصدرِ المؤكِّدِ لمضمونِ الجملةِ السّابقةِ؛ إذ التَّحبيبُ والتَّزيينُ هو نفسُ الفضلِ[4].

سِرُّ التَّنْكيرِ:

تنكيرُ ﴿فَضۡلٗا﴾، و(نِعۡمَةً) للتَّعظيم، أي: زيادةً وتطوُّلًا وامتنانًا عظيمًا جسيمًا، ودرجةً عاليةً، ومِنَّةً عظيمةً[5].

(1) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 123.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 237.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 368.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 514، والسمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 8.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 369.

معنى ﴿مِّنَ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

﴿مِّنَ﴾ في قوله ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للابتداء، فتفيدُ أنَّ ابتداءَ النِّعَمِ والفضلِ مِنَ اللهِ ﷻ؛ إذ الخيرُ خيرُهُ، والكونُ كلُّه بيده، بل كلُّ شيءٍ بيده.

بلاغةُ الإظهارِ في موضِعِ الإضمارِ:

مَنْ عَظُمَ في صفاته؛ عَظُمَ عطاؤُهُ وفضلُهُ

أوثِرَ اسمُ الجلالةِ دونَ غيره في قوله ﷻ: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لدلالته على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، الَّتي بها يكونُ الفضلُ والعطاءُ الَّذي لا يُرَدُّ، ولا يُحَدُّ، ولو قيل: (فضلًا منه ونعمة)، بعودة الضَّمير على اسم الجلالة في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ﴾؛ لضعُفَت دلالتُه على هذا المعنى، ففي إظهارِه إبلاغٌ في تعظيمِ الفضل والنِّعْمة.

نكتةُ ترتيب الفضل والنِّعْمة:

كمالُ العطاء باجتماع الفَضْل والنِّعْمة

في عطفِ النِّعمةِ على الفضلِ في قوله ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾ لطيفةٌ، وهي أنَّ الفضلَ إشارةٌ إلى ما عندَهُ تعالى مِنَ الخيرِ، وهو مستغنٍ عنهُ، والنِّعمةَ إشارةٌ إلى ما يصلُ إلى العبدِ، وهو محتاجٌ إليه؛ لأنَّ الفضلَ في الأصلِ ينبئُ عن الزّيادةِ، وعندَهُ خزائنُ مِنَ الرَّحمةِ لا لحاجةٍ إليها، ويرسلُ منها على عباده ما لا يبقونَ معَهُ في ورطةِ الحاجةِ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ، والنِّعمةُ تنبئُ عن الرَّأفةِ والرَّحمةِ، وهو مِن جانبِ العبدِ، وفيهِ معنًى لطيفٌ، وهو تأكيدُ الإعطاءِ؛ لأنَّ المحتاجَ يقولُ للغنيِّ: أعطِني ما فضلَ عنكَ وعندَكَ، وذلكَ غيرُ ملتفتٍ إليه، وأنا به قيامي وبقائي[1].

علَّةُ فصلِ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ استئنافٌ تذييليٌّ لِما قبله، مِن قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾؛ ببيانِ أنَّ ما ذُكِرَ فيما سبقَ مِن آثارِ علمِ اللهِ وحكمته[2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 103.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 238.

دلالةُ الاسميَّة في ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ اتِّصافَهُ تعالى بالعلمِ والحكمةِ أمرٌ ثابتٌ مُستقرٌّ، وهو حقيقةٌ لا شكَّ فيها.

سِرُّ الإظهارِ في موضِعِ الإضمارِ:

استقلالُ الجملةِ أنسبُ بالتَّذييلِ

الظّاهرُ أن يقالَ: (وهو عليمٌ حكيمٌ)؛ لتقدُّمِ ذكرِ اسمِ الجلالةِ في قوله: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾؛ لكن أُظهِرَ في موضعِ الإضمارِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ لتربيةِ المهابةِ[1]؛ إذ يدُلُّ هذا اللَّفظُ على صفاتِ العظَمةِ والجلالِ[2]، وفي الإظهارِ أيضًا تأكيدٌ لاستقلالِ الجملةِ؛ لتكونَ مِن قبيلِ التَّذييلِ الجاري مَجْرَى الأمثالِ.

سِرُّ ختمِ الآيةِ بصفتي العلمِ والحكمةِ:

فِعلُ اللهِ مقترنٌ بالعلمِ والحكمةِ

في خَتمِ الآيةِ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ مناسباتٌ عدَّةٌ:

منها: أنَّهُ تعالى لمّا ذكرَ نبأ الفاسقِ؛ قالَ: إن يشتبهْ على المؤمنِ كذِبُ الفاسقِ؛ فلا تعتمدوا على ترويجه عليكم الزّورَ، فإنَّ اللّٰه عليمٌ حكيمٌ، لا يفعلُ إلّا على وفْقِ حكمته.

وثانيها: لمّا قالَ اللّٰه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ﴾، بمعنى: لا يطيعُكم، بل يتَّبعُ الوحيَ، قالَ: فإنَّ اللّٰه مِن كونه عليمًا يعلمُهُ، ومِن كونه حكيمًا يأمرُهُ بما تقتضيه الحكمةُ، فاتَّبعوهُ.

وثالثُها: المناسبةُ الَّتي بينَ قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾، وبينَ قوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾، أي: حبَّبَ بعلمه الإيمانَ لأهلِ الإيمانِ، واختارَ لهُ مَن يشاءُ بحكمته.

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 127.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 369.

ورابعُها: قالَ ﷻ: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾، ولمّا كانَ الفَضْلُ هوَ ما عندَ اللّه مِنَ الخيرِ المُستغنَى عنهُ؛ قالَ تعالى: هو عليمٌ بما في خزائنِ رحْمته مِنَ الخيرِ، وكانتِ النِّعمةُ هو ما يُدفَعُ بِه حاجةُ العبدِ؛ قالَ: هو حكيمٌ ينزلُ الخيرَ بقَدَرِ ما يشاءُ على وفْقِ الحكمةِ[1].

وبذلكَ تظهرُ مناسبةُ ختمِ الكلامِ بما يُناسِبُ ابتداءَهُ في المعنى، ويقالُ لهُ: تشابُهُ الأطرافِ[2].

نكتةُ ترتيبِ الصِّفتيْنِ:

تقديمُ ﴿عَلِيمٌ﴾ على ﴿حَكِيمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ لأنَّ متعلِّقَ الأوَّلِ أحوالُهم، ومتعلِّقَ الثّاني في الإنعامِ على حسَبِ مراتبِهم في العَمَلِ والإخلاصِ[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفؤادُ والقلبُ:

القلبُ مستقَرُّ الاعتقادِ، وما عَظُمَ شأنُهُ

الفؤادُ كالقلبِ، لكن يقالُ لهُ: فُؤادٌ؛ إذا اعتُبِرَ فيهِ معنى التَّوقُّدِ، يقالُ: فَأَدْتُ اللَّحْمَ، أي: شَوَيْتُهُ، ولَحْمٌ فَئِيدٌ، أي: مَشويٌّ[4]، والفؤادُ ألينُ مِنَ القلبِ؛ ولذلكَ يكونُ مَحَلًّا للعواطفِ، ولِما خَفَّ شأنُهُ، ويكونُ القلبُ مَحلًّا لِما عَظُمَ شأنُهُ مِنَ العَزْمِ والتَّمكُّنِ والاعتقادِ[5]، وقد عُبِّرَ بالقلوبِ هنا؛ لأنَّ الكلامَ عن الإيمانِ، وهو عظيمُ الشَّأنِ، فيكونُ محلُّه القلبَ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 104، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 135، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 120.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 127.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 127.
(4) الراغب، المفردات: (فأد).
(5) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 665 - 675.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾ [الحجرات: 9 - 10]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

وصفُ الدَّواءِ بعدَ وصفِ الدّاءِ

لمّا كانتِ النَّميمةُ ونقلُ الأخبارِ الباطلةِ الذَّميمةِ ربَّما جرَّت فتنًا، وأوصلَت إلى القتالِ، وكانَ العليمُ الحكيمُ لا ينصبُ سببًا إلّا ذكرَ مسبَّبَهُ، وأشارَ إلى دوائه؛ بيَّنَ سبحانَهُ طريقَ الحكمةِ في دفعِ ما جرَّت إليهِ الأخبارُ الباطلةُ مِنَ القتالِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَآئِفَتَانِ﴾: (طوف) أصلٌ يدلُّ على دورانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وأن يَحُفَّ بهِ، ومِن ذلكَ يقالُ: طافَ بهِ وبالبيتِ يطوفُ طَوفًا وطوافًا، وأطافَ بهِ، واستطافَ، ويقالُ لِما يدورُ بالأشياءِ، ويُغشّيها مِنَ الماءِ: طوفان[2]، ويقالُ: أطافَ بهذا الأمرِ: أحاطَ بهِ[3]، والطائفةُ هنا: الجماعةُ الشَّديدةُ الاجتماعِ في دفْعِ الشَّرِّ، وجلْبِ الخيرِ، وقد تقعُ على الواحدِ[4].

2) ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾: (قتل) أصلٌ يدلُّ على إذلالٍ وإماتةٍ[5]، فالقتلُ:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 104، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 370، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 238.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوف).
(3) الزمخشري، أساس البلاغة: (طوف).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 148.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قتل).

إزالةُ الرّوحِ عن الجسدِ كالموتِ، وعنهُ استُعيرَ على سبيلِ المبالغةِ؛ قتلتُ الخمرَ بالماءِ؛ إذا مزجتُهُ، وقتلتُ فلانًا؛ إذا ذلّلتُهُ، والمقاتلةُ والاقتتالُ: المحاربةُ وتحرّي القتلِ[1]، وهو المرادُ هنا.

3) ﴿فَأَصۡلِحُواْ﴾: (صلح) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الفسادِ[2]، والصُّلحُ يَختَصُّ بإزالةِ النُّفارِ بينَ النّاسِ، يُقالُ منهُ: اصطلحوا، وتصالحوا[3]، وهم لنا صُلْحٌ، أي: مُصالِحونَ[4]، والمرادُ بالإصلاحِ هنا: إزالةُ الخلافِ.

4) ﴿بَغَتۡ﴾: (بغي) أصلٌ يدلُّ على جنسٍ مِنَ الفسادِ[5]، وطلبِ تجاوزِ الاقتصادِ فيما يُتحرَّى، والبغيُ على ضربينِ: أحدُهما محمودٌ، وهو تجاوزُ العدلِ إلى الإحسانِ، والفرضِ إلى التَّطوُّعِ. والثّاني مذمومٌ، وهو تجاوزُ الحقِّ إلى الباطلِ، أو تجاوزُهُ إلى الشُّبهِ[6]، والمرادُ بالبغيِ هنا: الاستطالةُ، والظُّلمُ، ورَفْضُ الصُّلْحِ[7].

5) ﴿تَفِيٓءَ﴾: (فيأ) أصلٌ يدلُّ على الرُّجوعِ، ومِن ذلكَ يقالُ: فاءَ الفيءُ؛ إذا رجعَ الظِّلُّ مِن جانبِ المغربِ إلى جانبِ المشرقِ[8]، ويقالُ: فاءَ إلى اللّهِ فيْئَةً حسنةً؛ إذا تابَ، ورجَعَ[9]، والفيءُ أيضًا: الغنيمةُ الّتي لا يلحقُ فيها مشقَّةٌ[10]، والمرادُ بالفيءِ هنا: الرُّجوعُ عن شيءٍ كرجوعِ حَرِّ الشَّمسِ حينَ ينسَخُه الظِّلُّ[11].

6) ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾: (قسط) أصلٌ يدلُّ على العَدْلِ[12]، ومِن ذلكَ: القِسطُ، وهو العَدْلُ، أو النَّصيبُ بالعدلِ[13]، والمرادُ بالإقساطِ هنا: الحكمُ بالعدلِ العظيمِ الَّذي لا جَوْرَ فيهِ[14].

---

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قتل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (قسط).
(3) الراغب، المفردات: (صلح).
(4) الزمخشري، أساس البلاغة: (صلح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعي).
(6) الراغب، المفردات: (بغي).
(7) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 352.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فيأ).
(9) الزمخشري، أساس البلاغة: (فيأ).
(10) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (فيأ).
(11) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 148، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 370.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قسط).
(13) الجوهري، الصحاح، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (قسط).
(14) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 148، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 370.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

الإيمانُ والأُخوَّةُ أصلُ الأُلفةِ والمحبَّةِ بينَ المؤمنينَ

يقولُ ﷻ آمِرًا بالإصلاحِ بينَ المسلمينَ المتنازعينَ: وإن فئتانِ مِنَ المؤمنينَ تقاتلوا، فأصلِحوا بينَهما بالدُّعاءِ إلى حُكْمِ اللّه، والرِّضا بهِ، فإن أبَت إحدى هاتينِ الطّائفتينِ الإجابةَ إلى ذلكَ، وتعدَّت، وأجابتِ الأخرى منهما: فقاتلوا الَّتي تعتدي، حتَّى تَرْجِعَ إلى حُكْمِ اللّه، فإن رجعَت بعدَ قتالِكم إيّاها إلى الرِّضا بحُكْمِ اللّه، فأصلِحوا بينَهما بالإنصافِ، واعدِلوا في كلِّ ما تأتونَ، وتذرونَ، إنَّ اللّه يحبُّ المقسطينَ، فيجازيهم أحسنَ الجزاءِ.

ثمَّ يؤكِّدُ اللّه تعالى أمرَ الإصلاحِ، فيقولُ: إنَّما المؤمنونَ إخوةٌ في الإيمانِ، فأصلِحوا بينَ أخوَيكم؛ إذا اقتَتَلا؛ بأن تَحْمِلوهما على حُكْمِ اللّه، واتَّقوا اللّه في كلِّ ما تأتونَ، وما تذرونَ؛ رجاءَ أن يرحمَكم ربُّكم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾:

بيانُ واجبِ المسلمينَ عندَ الاقتتالِ بينَ جماعاتِهم

الواوُ في قوله جلَّ ذِكرُهُ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ استئنافيَّةٌ؛ لأنَّ الجملةَ كلامٌ مستأنفٌ لإفادةِ غرضٍ جديدٍ، وهو بيانُ ما يجبُ على المسلمينَ إذا وقعَ خلافٌ واقتتالٌ بينَ جماعاتِهم.

سِرُّ استعمالِ (إن):

شأنُ المؤمنينَ الوِئامُ، لا الاختصامُ

عُبِّرَ بـ(إنْ) دونَ (إذا) في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾؛ إشارةً إلى أنَّهُ ينبغي ألّا يقعَ القتالُ بينَهم إلّا نادرًا، وعلى سبيل الفَرْضِ، وما يُشاهَدُ من كثرةِ وقوعِ الاقتتالِ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 529، والمراغي، تفسير المراغي: 26/ 130.

بينَ طوائفِ المسلمينَ، فإنَّما هو خلافُ ما ينبغي[1]، فيليقُ أن يُصوَّرَ بصورةِ فرضِ المحالِ[2].

سرُّ التَّصديرِ بالاسمِ:

الإيمانُ يقتضي عدمَ اقتتالِ أهله

قيلَ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾، ولم يقل: (وإن اقتتلَ طائفتانِ مِنَ المؤمنينَ)، معَ أنَّ كلمةَ (إن) اتِّصالُها بالفعلِ أولى؛ ليكونَ الابتداءُ بما يمنعُ مِنَ القتالِ، فيتأكَّدُ معنَى الاستنكارِ المدلولِ عليها بكلمةِ (إن)؛ وذلكَ لأنَّ كونَهما طائفتينِ مِنَ المؤمنينَ يَقتضي ألّا يَقَعَ القتالُ منهما[3]، وللاهتمام بالفاعلِ؛ إذ: ﴿طَآئِفَتَانِ﴾ مرتفعٌ بفعلٍ مقدَّرٍ يُفسِّرُهُ قولُهُ: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾[4].

علَّةُ التَّعبيرِ بالطّائفة:

نُـدرةُ وقـوعِ القـتالِ بين طوائف المسلمين

قيلَ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾، ولم يقل: (وإن فرقتانِ مِنَ المؤمنينَ اقتتلوا)؛ تحقيقًا لمعنى وجوبِ السِّلم بينَ المؤمنينَ، وألّا يقع الاقتتال - إن وقع - إلّا نادرًا؛ لأنَّ الطّائفةَ دونَ الفرقة[5]، وعُبِّرَ بالطّائفةِ أيضًا؛ للدَّلالة على الاجتماع والتَّحلُّق، "أي: جماعتانِ بالفعلِ أو القوَّةِ، جديرٌ كلُّ جماعةٍ منهما بأن يجتمعَ على ما دهَمَها مِن الأمير، بحيثُ تصيرُ من شدَّة مُراعاتِه كالطّائفة حولَه، والمُتحلِّقة به، بحيثُ لا يُدْرَى من شدَّةِ اجتماعِها على ذلكَ أوَّلُها من آخِرِها"[6].

معنى ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

بيانُ الطّائفتينِ بكونِهما مِنَ المؤمنينَ

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ بيانيَّةٌ، والغرضُ منها تعيينُ الطّائفتينِ بأنَّهما مِنَ المؤمنينَ، لا من غيرِهم، ويترتَّبُ عليه فائدةُ التَّشويقِ إلى صفة الإيمانِ، ويجوزُ أن

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 104، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 162.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 127.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 104، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 162.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 239.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 104، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 162.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 370.

تكونَ تبعيضيَّةً، والمعنى: وإن طائفتانِ مِمَّن هو معدودٌ في عِدادِ العريقينَ في الإيمانِ[1]، ويترتَّبُ على هذا أن تكونَ هاتانِ الطّائفتانِ عريقتينِ في الإيمان؛ لأنَّهما مِنَ الجماعة المشهورةِ بذلكَ الوصفِ، وهذا يعني أنَّ الاقتتالَ قد لا يُخرِجُ العبدَ من بابِ الكمالِ في الإيمانِ، أو أنَّ الاقتتالَ مِمّا يُنْقِص كمالَ الإيمانِ بقوَّةٍ.

سرُّ الالتفات:

تبعيدُ المخاطَبينَ عن الاقتتالِ

قيلَ: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل: (منكم)؛ مع أنَّ الخطابَ معَ المؤمنينَ؛ لسبقِ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾؛ تنبيهًا على قُبحِ ذلكَ الاقتتال، وتبعيدًا لهم عنهُ، كما يقولُ السَّيِّدُ لعبده: إن رأيتَ أحدًا مِن غلماني يفعلُ كذا، فامنَعْهُ، فيصيرُ بذلكَ مانعًا للمخاطَبِ عن ذلكَ الفعلِ بالطَّريقِ الحسنِ، كأنَّهُ يقولُ: أنتَ حاشاكَ أن تفعلَ ذلكَ، فإن فعلَ غيرُكَ؛ فامنَعْهُ[2].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

الإصلاحُ مطلوبٌ بينَ جميعِ المؤمنينَ

تعريفُ المؤمنينَ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ للعمومِ، فيشملُ جميعَ المؤمنينَ، فالإصلاحُ مطلوبٌ أيًّا كانت الطّائفتان، ما دامتا متَّصفتا بالإيمان، أي: عندَ وقوعِ الاقتتالِ بينَ أيِّ طائفتينِ مِن طوائف المؤمنين يجبُ الإصلاحُ، وفيه ضمنًا تحذير المؤمنين من الوقوع في مثل هذا، وأنَّه لا يسلم من الفتن إلّا من عصمه اللّٰه.

دلالة الاسميَّة في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

تحقيقُ معاني الإيمانِ يُنافي الاقتتالَ بينَ المؤمنينَ

جيءَ باسمِ الفاعلِ المجموعِ في قوله ﷻ: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على رسوخِ الإيمانِ، والمعنى: ممَّن هو معدودٌ في عدادِ العريقينَ في الإيمانِ، سواءٌ كانَ هو عريقًا أم فاعلًا ما يُطلَقُ عليه بِهِ الاسمُ فقط[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 104.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 104.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 370.

وجهُ التَّعبيرِ بالجمعِ في ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾:

حالُ الاقتتالِ حالُ اجتماعٍ يستدعي الإنكارَ

عُبِّرَ بالجمعِ دونَ التَّثنيةِ في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾؛ رِعايةً للمعنى، فإنَّ كلَّ طائفةٍ جمعٌ[1]، ولأنَّ الاجتماعَ مُناسِبٌ للاقتتالِ[2]؛ بسببِ اختلاطِهم حتَّى كانوا كالفرقةِ الواحدةِ، ولأنَّ الشَّناعةَ والفسادَ في قتالِ الجماعةِ أكثرُ[3].

دلالةُ المُضيِّ في ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾:

الإصلاحُ مطلوبٌ، وإن لم يتمادَ الاقتتال

جاء قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ بالماضي، ولم يقل: (يقتتلوا) بالمضارعِ - مع أنَّهُ الأليقُ بالشَّرطِ - لأنَّ صيغةَ الاستقبالِ تنبئُ عن الدَّوامِ والاستمرارِ، فيُفهَمُ منهُ أنَّ طائفتينِ مِنَ المؤمنينَ إن تمادَى الاقتتالُ بينَهما؛ يُصلَحَ بينَهما، والمطلوبُ الإصلاحُ، وإن لم يتمادَ الاقتتالُ[4]، ولأنَّهُ لمّا أُريدَ تقديمُ الفاعلِ: ﴿طَآئِفَتَانِ﴾ على فعله؛ للاهتمامِ بالمسندِ إليهِ؛ جُعِلَ الفعلُ ماضيًا على طريقةِ الكلامِ الفصيحِ في مِثله ممّا أوليَت فيهِ (إن) الشَّرطيَّةُ الاسمَ، نحوُ: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ﴾ [التوبة: 6]، وإنَّما ضَعُفَ مجيءُ المضارعِ لحصولِ الفصلِ بينَ الجازمِ وبينَ معمولِه[5].

بلاغةُ المجازِ في ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾:

الإصلاحُ مطلوبٌ عندَ ظهورِ بوادرِ الاقتتالِ

الأظهر أنَّ الفعلَ في قولِه تعالى: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ مُستعملٌ في إرادةِ الوقوعِ؛ مجازًا مرسلًا، مثلُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: 6]؛ لأنَّ الأمرَ بالإصلاحِ بينَهما واجبٌ قبلَ الشُّروعِ في الاقتتالِ، وذلكَ عندَ ظهورِ بوادره، وهو أولى مِن انتظارِ وقوعِ الاقتتالِ؛ ليمكنَ تداركُ الخَطْبِ قبلَ وقوعه؛ حثًّا على ذلكَ الإصلاحِ،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 135.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 127، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 528.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 370.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 105، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 162.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 239.

وبذلكَ يظهرُ وجهُ تفريعِ قوله: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ على جملةِ: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾، أي: فإنِ ابتدأت إحدى الطّائفتينِ قتالَ الأخرى، ولم تَقْبَلِ الإصلاحَ؛ فقاتلوا الباغيةَ[1].

دلالةُ الفاءِ:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ، فتفيدُ قوَّةَ ارتباطِ الإصلاحِ باقتتالِ الطّائفتينِ.

دلالةُ الأمرِ في ﴿فَأَصۡلِحُواْ﴾:

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا صارفَ عنهُ، بل وحدةُ صفِّ المؤمنينَ تقتضيه، فينبغي على المؤمنينَ أن يمشوا بالصُّلحِ بينَ المتقاتلينَ منهم[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالبينيَّةِ:

الإنـصـافُ في الإصلاحِ مطلوبٌ بشدَّةٍ

عُبِّرَ بالبينيَّةِ في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ في الموضعينِ؛ للدَّلالةِ على الإنصافِ، وعدمِ الميلِ إلى طرفٍ دونَ آخرَ، وكأنَّ الإصلاحَ يقعُ في موضعٍ متوسِّطٍ بينَ الطَّرفينِ، لا يميلُ إلى هذا، ولا إلى هذا.

نكتةُ التَّثْنيةِ في قوله: ﴿بَيۡنَهُمَاۖ﴾:

الطّائفتانِ عندَ الوِفاقِ كنفسَينِ

قال اللّه تعالى: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾، ولم يقل: (بينَهم)، كما قال: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾؛ حملًا على لفظِ: ﴿طَآئِفَتَانِ﴾[3]، ولأنَّهُ عندَ الرُّجوعِ إلى الصُّلحِ تتَّفقُ كلمةُ كلِّ طائفةٍ من جهة مَن يُمثِّلُها، لا من جهة جميعِ أفرادِها، وإلّا لم يكن يتحقَّقُ الصُّلحُ، فقيل: ﴿بَيۡنَهُمَاۖ﴾؛ لكونِ الطّائفتينِ حينئذٍ كنفسَينِ[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 239.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 131.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 352.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 105.

معنى الفاءِ في ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ﴾:

القتالُ عاقبةُ مَن لم يرضَ بالإصلاحِ

الفاءُ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ للتَّعقيب، أو السَّببيَّة؛ بناءً على جعلِهم الطَّلبَ بالصُّلح سببًا للبغي(1)، أو هي لتفريعِ هذه الجملةِ على جملةِ: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾، أي: فإن ابتدأت إحدى الطّائفتينِ قتالَ الأخرى، ولم ترضَ بالإصلاحِ؛ فقاتلوا الباغيةَ(2).

سِرُّ التَّعبيرِ بـ(إنْ):

البغيُ لا ينبغي أن يكونَ مِنَ المؤمنين

عُبِّرَ بـ(إنْ) دونَ (إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾؛ إشارةً إلى ندرةِ البغي؛ لأنَّهُ غيرُ متوقَّعٍ مِنَ المؤمنينَ(3)؛ لأنَّهُ مِن أشنعِ الأمورِ، فينبغي ألّا يكونَ، وألّا يُلِمَّ به أحدٌ(4).

دلالةُ المُضيِّ في ﴿بَغَتۡ﴾:

مجرَّدُ البغيِ موجِبٌ لقتالِ الباغي

قيلَ: ﴿بَغَتۡ﴾ بالماضي، ولم يقل: (تَبْغِ) بالمضارعِ، معَ أنَّهُ الأليقُ بالشَّرطِ؛ لأنَّ صيغةَ الاستقبالِ تنبئُ بالدَّوام والاستمرارِ، فلو عُبِّرَ بها؛ لفُهِمَ أنَّ مُقاتلةَ الطّائفةِ الباغيةِ لا يكونُ حتَّى تتمادَى في البغيِ، والمطلوبُ مقاتلتُها، وإن لم تتمادَ فيه(5).

بلاغةُ التَّعبيرِ بالبغيِ:

الظُّلمُ والتَّعدّي ليسَ مِن خصالِ المؤمنينَ

عُبِّرَ بالبغيِ في قوله تعالى ذكرُهُ: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾؛ لدلالته على التَّعدّي، والاستطالةِ والظُّلم، وطلبِ العلوِّ بغيرِ الحقِّ، والامتناعِ عَنِ الصُّلحِ الموافقِ للصَّوابِ(6)، وكلُّ ذلكَ مِن قبيحِ الخصالِ الَّتي لا تليقُ بالمؤمنِ، فإن اتَّصفَت طائفةٌ بذلكَ؛ وجَبَ قتالُها حتَّى تفيءَ إلى أمرِ اللّه.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 128.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 239.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 105.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 371.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 105.
(6) الزمخشري، الكشاف: 4/ 364، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 74، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 301.

نكتةُ إبهامِ الطّائفتين:

المظلومُ ضعفُه ظاهرٌ، والظّالِمُ ضعفُه باطنٌ

عُبِّرَ بقوله تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾؛ للدَّلالةِ على إبهامِ الأمرِ، وعدمِ تعيينِ الباغيةِ، والمبغيِّ عليها، فلم يقل: (فإن بغت طائفة على طائفة)، حتَّى لا يَعْتَبِرَ أهلُ الإيمانِ المُصْلِحونَ بقوَّتِهم وشدَّتِهم، فالباغي ضعيفٌ، وإن كانَ يملكُ ما يملكُ، والمظلومُ يجبُ إنصافُه والانتصارُ له، وإن كان ضعيفًا لا يملكُ شيئًا.

معنى ﴿عَلَى﴾، ودلالة التَّعبير بها:

قبحُ شأنِ البغيِ

جيءَ بحرفِ الجرِّ الدّالِّ على الاستعلاءِ في قوله تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ بغيَ الطّائفةِ الأولى قد زادَ حتَّى كأنَّهُ صارَ مستعليًا على الطّائفةِ الأخرى، وفي ذلكَ تقبيحٌ لشأنِ البغيِ.

معنى الفاءِ في ﴿فَقَٰتِلُواْ﴾:

الفاءُ في قوله جلَّ مِن قائل: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ واقعة في جواب الشَّرط، فتفيد زيادة الارتباط بين فعل الشَّرط وجوابه.

دلالةُ الأمرِ في ﴿فَقَٰتِلُواْ﴾:

قتالُ الفئةِ الباغيةِ واجبٌ على المؤمنينَ

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ دليلٌ على وجوبِ قتالِ الفئةِ الباغيةِ المعلوم بغيُها، وذلكَ يكونُ بعدَ إزالةِ الشُّبهِ بالحُجَجِ النَّيِّرةِ، والبراهينِ القاطعة، والأمرُ لِمَن لهُ الأمرُ مِنَ الملوكِ وولاتِهم[1]، فإذا اختلَّ أمرُ الإمامةِ؛ فليتولَّ قتالَ البُغاةِ السَّوادُ الأعظمُ مِنَ الأمَّةِ، وعلماؤُها، فهذا الوجوبُ مطلَقٌ في الأحوالِ، تُقيِّدُهُ الأدلَّةُ الدّالَّةُ على عدمِ المصيرِ إليهِ؛ إذا عُلِمَ أنَّ قتالَها يَجُرُّ إلى فتنةٍ أشدَّ مِن بغيِها[2].

دلالةُ الموصوليّةِ في قوله: ﴿ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾:

جيءَ بالموصولِ في قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾؛ للإشارةِ إلى

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 317، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 516.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 241.

عِلّيَّةِ ما في حيِّزِ الصِّلةِ للقتالِ، أي: فقاتِلوها لبغيِها[1]، وكأنَّ البغي صارَ عنوانًا لها.

دلالة المضارعة في ﴿تَبۡغِي﴾:

جيءَ بصيغةِ المضارِعِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾؛ لاستحضارِ صورةِ البغيِ الَّتي هي مَحَطُّ الأمرِ بالمقاتلةِ، تفظيعًا، وتقبيحًا، وتشنيعًا لها.

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

قتالُ الفئةِ الباغيةِ ينتهي برجوعِها إلى أمرِ الله

عبَّر القرآنُ بـ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾؛ لبيانِ الغايةِ، فتفيدُ أنَّ القتالَ ليسَ جزاءً للباغي، كحدِّ الشُّربِ الَّذي يقامُ، وإن تركَ الشُّربَ، بل القتالُ إلى حدِّ الفيئةِ، فإن فاءتِ الفئةُ الباغيةُ؛ حَرُمَ قتالُها[2].

دلالةُ المضارعة في ﴿تَفِيٓءَ﴾:

أهمّيَّةُ توقُّع استمرارهم في القتال، أو رجوعهم إليه بعد توقُّفٍ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾؛ لأنَّ الرُّجوعَ إلى أمرِ اللّه أمرٌ مستقبلٌ بالنِّسبةِ إلى زمنِ قتالِ الفئةِ الباغيةِ، والتَّجدُّدُ في المضارعةِ ينظر إلى أنَّ الفئةَ الباغيةَ قد تتوقَّفُ عن القتالِ، مِن أجلِ مُقاتلتها مِن قِبَلِ المُصْلحين، ثمَّ تعودُ إليه، وعلى هؤلاءِ المُصلحينَ أن يُقاتِلوها؛ ما دامت تُجدِّدُه.

معنى ﴿إِلَىٰٓ﴾ ودلالة التَّعبير بها:

حرفُ الجرِّ ﴿إِلَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾؛ لانتهاءِ الغايةِ المجازيَّة، فيفيدُ أنَّ أمرَ اللّه هو منتهَى كلِّ خلافٍ ونزاعٍ واقتتالٍ بوجوبِ الاحتكامِ إلى شرعه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالأمرِ:

شرْعُ الله هو الحَكَمُ في الخصومات

في التَّعبيرِ بالأمرِ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ سَعَةٌ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 301.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 105.

في الدَّلالةِ؛ إذ المرادُ: إلى طاعةِ الرَّسولِ وأولي الأمرِ، أو إلى الصُّلح - فإنَّهُ مأمورٌ بِهِ - أو إلى أمرِ اللّه بالتَّقوى، فإنَّ مَن خافَ اللّه حقَّ الخوفِ لا يبقَى لهُ عداوةٌ إلّا مع الشَّيطانِ(1)، أو إلى كتابه، أو حُكْمِه، أو إلى ما أمَرَ به(2)، والأقوالُ متقاربةٌ لا تنافيَ بينَها، وهذه السَّعةُ تكشفُ ما في هذا التَّعبيرِ مِن إيجازِ القِصَر، وأنَّ فيه حَسْمًا وفَصْلًا وقطعًا يليقُ بالموقف.

دلالةُ الإضافةِ إلى اسم الجلالة في ﴿أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾:

أمـرُ العظيـم عظيمٌ

الإضافةُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾: لتعظيمِ شأنِ الأمرِ بانتسابه إلى اللّه تعالى، الاسم الجامعِ لجميعِ معاني الأسماءِ والصِّفاتِ، والكمالاتِ الَّتي لا تتناهَى، وفي ذلكَ مزيدُ حثٍّ على الرُّجوعِ إليه.

مَـنْ عـرفَ قـدرَ الآمـرِ؛ الـتـزمَ الأمرَ

واختيرَ اسمُ الجلالةِ دونَ غيره؛ لأنَّ المقامَ مقامُ حثٍّ على الرُّجوعِ إلى حكمِ الشّارعِ، واسمُ الجلالةِ أنسبُ بذلكَ؛ لدلالته على صفاتِ الجلالِ والكمالِ الَّتي بها يكونُ الحُكمُ العدلُ النّافذُ، وبها يرتدعُ المخالفُ، والمعنى: إلى التزامِ ما أمرَ بهِ المَلِكُ الَّذي لا يُهْمِلُ الظّالمَ، بل لا بدَّ أن يُحاسِبَهُ(3).

معنى الفاءِ ودلالة التَّعبير بها:

مقاتلةُ الباغي جديرةٌ بترجيعه

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾: لتفريعِ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها، والغرضُ بيانُ ما تُعامَلُ بهِ الطّائفتانِ بعدَ أن تفيءَ الباغيةُ منهما(4)، وفي التَّعبيرِ بالفاءِ إشارةٌ إلى أنَّ مقاتلةَ الباغيةِ جديرةٌ بترجيعِها(5).

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 105.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 316، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 181.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 371.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 242.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 372.

سِرُّ التَّعبير بـ(إنْ):

الجهلُ والعنادُ مِن موانعِ الرُّجوعِ

استُعمِلَت (إن) في قوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾؛ لأنَّ فَيءَ الفئةِ الباغيةِ معَ جهلِها وعنادِها وإصرارِها على حقدِها كالأمرِ النّادرِ، وذلكَ قولُ القائلِ لعبده: (إن متُّ؛ فأنتَ حرٌّ)، مع أنَّ الموتَ لا بُدَّ منهُ؛ وذلكَ لأنَّ موتَهُ - بحيثُ يكونُ العبدُ حيًّا باقيًا في ملكه - غيرُ معلومٍ[1].

دلالةُ المُضيِّ في ﴿فَآءَتۡ﴾:

الماضي يلائمُ سياقَ التَّقليلِ

عُبِّرَ بالماضي في قوله ﷻ: ﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾؛ لأنَّ الفيئةَ تحصلُ مرَّةً واحدةً، فيناسبُها الماضي، ولو عُبِّرَ بالمضارعِ؛ لربَّما أوهمَ الاستمرارَ، وهو غيرُ مقصودٍ، والماضي أنسبُ بالتَّقليلِ الَّذي تدلُّ عليهِ (إن)، ويجوزُ أن يكونَ التَّعبيرُ بالماضي؛ للدَّلالة على التَّحقُّق، وأنَّ المُصلحينَ مِن المؤمنينَ رأوا أنَّ الفئةَ الباغيةَ قد توقَّفَت نِهائيًّا عن القتال، مع الأمن مِن تكرارِ البغي.

معنى الفاءِ، ودلالة التَّعبير بها:

الفَيءُ سبيلُ الإصلاحِ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ، فتفيدُ قوَّةَ ارتباطِ الإصلاحِ بالفيئةِ، وفي هذا مزيدُ حثٍّ على فِعلِ ما به يكونُ الفيءُ؛ إذ هو محمودٌ لترتُّبِ الإصلاحِ عليه.

دلالةُ الأمرِ في ﴿فَأَصۡلِحُواْ﴾:

الإصلاحُ يُزيلُ العداواتِ والإحَنَ

الأمرُ في قوله ﷻ: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ للوجوبِ، فيفيدُ أنَّ الإصلاحَ بينَ الطّائفتينِ حتمٌ على المؤمنينَ، والأمرُ لوُلاةِ الأمورِ ومَن ينوبُ منابَهم[2]، وهذا إصلاحٌ ثانٍ بعدَ الإصلاحِ المأمورِ بهِ ابتداءً، ومعناهُ: أنَّ الفئةَ الَّتي خضعَت للقوَّةِ، وألقتِ السِّلاحَ؛ تكونُ مكسورةَ الخاطرِ، شاعرةً بانتصارِ الفئةِ الأخرى عليها، فأوجبَ على المسلمينَ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 105، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 163.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 516.

أن يُصلِحوا بينَهما، بترغيبِهما في إزالةِ الإحَنِ والرُّجوعِ إلى أخوَّةِ الإسلامِ؛ لئلّا يعودَ التَّنكُّرُ بينَهما[1].

معنى الباء، ودلالة التَّعبير بها:

الإصلاحُ مقرونٌ بالعدلِ الجليِّ

الباءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ للملابسة[2]، فَتُفيدُ أنَّ الإصلاحَ بينَ الطّائفتينِ يكونُ ملتبسًا بالعدلِ، ملتصِقًا به، فالعدلُ فيه يكونُ جِدَّ ظاهرٍ، وهكذا ينبغي أن يكونَ الحكمُ بينَ النّاسِ.

نكتةُ تقييدِ الإصلاحِ بالعدلِ:

القتالُ لا يستدعي ظلمَ المقاتَلِ الباغي

تقييدُ الإصلاحِ بالعدلِ في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ - ولم يُقيَّدْ في الموضعِ الأوَّلِ - لأنَّ هذا الموضعَ الثّاني مَظِنَّةُ الحَيْفِ، مِن حيثُ إنَّهُ بعدَ المقاتلةِ المؤدّيةِ إلى الإساءةِ، فقد يُظَنُّ أنَّهم لمّا أحوَجوهم للقتالِ؛ استحقّوا الحَيفَ عليهم، فأُمِرَ بالعدلِ مخالفةً للهوى[3]، وقد يقالُ: هذا القيدُ يُقيَّدُ به أيضًا الإصلاحُ المأمورُ به أوَّلًا؛ لأنَّ القيدَ من شأنه أن يعودَ إليه؛ لاتِّحادِ سببِ المُطلَقِ والمقيَّدِ[4].

علّةُ التَّعبيرِ بالعدلِ:

تركُ الظُّلمِ في الحُكمِ واجبٌ شرعًا

يُطلَقُ العدلُ على معانٍ كثيرةٍ، فإنَّ أصلَ معناهُ التَّوسُّطُ في الأمورِ؛ اعتقادًا، وعملًا، وخُلُقًا، وقد يُطلَقُ على جزءٍ منها، وقد أُطلِقَ في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ على التَّوسُّطِ في العملِ، وهو الحُكمُ، وحاصلُهُ تركُ الظُّلمِ رأسًا[5].

بلاغةُ عطفِ ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾:

العدلُ مطلوبٌ في كلِّ الأمورِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾، وهو أمرٌ باستعمالِ القِسطِ على طريقِ العُمومِ بَعدَ ما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 242.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 242.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 135، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 77، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 301.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 242.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 128.

أُمِرَ بِهِ في إصلاحِ ذاتِ البَينِ[1]، أي: (واعدلوا في كلِّ الأمورِ، ومنها الإصلاحُ بينَ الفئتينِ)، فيكونُ مِن قبيلِ عطفِ العامِّ على الخاصِّ، أو مِن قبيلِ التَّذييلِ والتَّقريرِ[2]، وفيه توكيدُ أن يكونَ الصُّلْحُ بينهما بالعدلِ؛ إبلاغًا في تقريرِ دلالة التَّقييد[3].

دلالةُ الأمرِ في: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾:

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ للوجوب؛ إذ هو الأصلُ، ولا صارفَ عنهُ، فيفيدُ الكلامُ وجوبَ القِسْطِ على المُصلِحينَ بينَ الطّائفتينِ.

علَّةُ فصلِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾:

العدلُ حَسَنٌ في جميعِ الأمورِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ تعليليٌّ؛ للتَّرغيبِ في الإقساطِ[4]، وهو تذييلٌ لهُ، يقتضي أنَّ العدلَ مطلوبٌ لذاته، فهو حسَنٌ في جميعِ الأمورِ[5].

سرُّ توكيدِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾:

حبُّ اللهِ للمقسطينَ ثابتٌ يقينًا

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ بـ: ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ؛ للعنايةِ بتحقُّقِ مضمونه، وللتَّنبيهِ على أنَّهُ مِن أعظمِ ما يُتمادَحُ بِهِ، وردًّا على مَن لعلَّه يقولُ: إنَّه لا يُلزِم نفسَه الوقوفَ عندَ أمرِ اللّه بالعدلِ إلّا ضعيفٌ[6].

دلالةُ التَّركيبِ في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾:

الحُبُّ يُنْتِجُ كلَّ جميلٍ وجليلٍ

في الإخبارِ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ دلالةٌ بالحقيقة على محبَّة اللّه تعالى، (بما يليق بجلاله وعظيم سلطانه)، ودلالةٌ بالمجاز (المرسل المُركَّب الَّذي عَلاقتُه اللُّزوميَّةُ)، أو بالكناية على

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 365.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 484، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 129.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 181.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 372.
(5) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 483.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 372.

الجزاء العظيم؛ إذ محبَّتُه تعالى لهم تستلزمُ مجازاتِهم بأحسنِ الجزاءِ[1]، وهذا أعظمُ وأبلغُ في تحقيق أهمّيَّة العدل والتَّرغيب فيه، وناهيكَ بجزاءٍ طريقُه محبَّةُ ذي الجلالِ والإكرامِ.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الجلالةِ:

مَن أرادَ حبَّ العظيمِ؛ امتثلَ أمرَهُ

جيءَ باسمِ الجلالةِ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾؛ لدلالته على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، فهو الاسمُ الجامع للأسماءِ الحُسنى والصِّفاتِ العلا كلِّها؛ فيكونُ مناسبًا لمقام التَّرغيبِ بالعدلِ، والمعنى: إنَّ اللّٰه الَّذي بيده النَّصرُ والخذلانُ يحبُّ المقسطينَ[2].

دلالةُ تَعريفِ ﴿ٱلْمُقْسِطِينَ﴾:

تعريفُ المقسطينَ بـ(أل) في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ للجنس، أي: يحبُّ كلَّ مُقسِطٍ، ومِن جملته المُقسِطُ في الإصلاحِ، فيكونُ ترغيبًا في العدلِ المذكورِ[3].

دلالةُ صيغةِ اسمِ الفاعلِ المجموعِ ﴿ٱلْمُقْسِطِينَ﴾:

التَّعبيرُ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ المجموعِ في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُقْسِطِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على الرُّسوخِ في القِسْطِ، وأنَّ مَن يستحقُّ محبَّةَ اللّٰه هو مَن كانَ القِسْطُ ديدنًا لهُ، وسجيَّةً فيهِ.

۞ الفُروقُ المعجميَّةُ:

الفيءُ والرُّجوعُ:

الفرقُ بينَ الفيءِ والرُّجوعِ: أنَّ الفيءَ هو الرُّجوعُ إلى حالةٍ محمودةٍ[4]، والرُّجوعُ أعمُّ، وقد عُبِّرَ بالفيءِ هنا؛ لأنَّ أمرَ اللّٰه تعالى خيرٌ، وحالةٌ محمودةٌ، يجبُ الرُّجوعُ إليها.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 74.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 372.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 129.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 479.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٠﴾ [الحجرات: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

علاجُ خلافاتِ الأفرادِ بعدَ علاجِ خلافاتِ الجماعاتِ

بعدَ ما بيَّنَ تعالى إصلاحَ الخللِ الواقعِ بينَ الطّائفتينِ؛ أرادَ أن يُبيِّنَ الخللَ الواقعَ بينَ اثنينِ بالتَّشاتُمِ ونحوِ ذلك، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1].

قرابةُ الدّينِ مُقدَّمةٌ على قرابةِ النَّسَبِ

وكذلك لمّا أمرَ تعالى بما قد يُفضي إلى القتالِ، وربَّما كانَ الباغي أقربَ إلى الصُّلحِ من جهةِ النَّسبِ مِنَ المبغيِّ عليه، وكانَ القتالُ أمرًا شاقًّا، ربَّما حَمَلَ على الإحجامِ عن الإصلاحِ؛ علَّلَ ذلكَ سبحانَهُ بما قدَّمَ فيهِ قرابةَ الدّينِ على قرابةِ النَّسبِ[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

7) ﴿فَأَصْلِحُوا۟﴾: (صلح) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الفسادِ[3]، والصُّلحُ يَختَصُّ بإزالةِ النِّفارِ بينَ النّاسِ، يُقالُ منهُ: اصطلحوا، وتصالحوا[4]، وهم لنا صُلْحٌ، أي: مُصالِحونَ[5]، والمرادُ بالإصلاحِ هنا: إزالةُ الخلافِ.

المَعنى الإجماليُّ:

الإيمانُ والأُخوَّةُ أصلُ الأُلفةِ والمحبَّةِ بينَ المؤمنينَ

يؤكِّدُ اللّه تعالى أمرَ الإصلاحِ، فيقولُ: إنَّما المؤمنونَ إخوةٌ في الإيمانِ، فأصلِحوا بينَ أخوَيكم؛ إذا اقتَتَلا؛ بأن تَحْمِلوهما على حُكْمِ اللّه، واتَّقوا اللّه في كلِّ ما تأتونَ، وما تذرونَ؛ رجاءَ أن يرحمَكم ربُّكم[6].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 106، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 164.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 372.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (قسط).
(4) الراغب، المفردات: (صلح).
(5) الزمخشري، أساس البلاغة: (صلح).
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 529، والمراغي، تفسير المراغي: 26/ 130.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾:

الأخـــوَّةُ تـقـرِّرُ الـصُّـلـحَ بـيـنَ المؤمنينَ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ استئنافٌ ابتدائيٌّ، مُقرِّرٌ لِما قبله مِنَ الأمرِ بالإصلاحِ[1]، وفيهِ تعليلٌ لهُ[2]، أو هو نتاجُ ما قبلَه، وإفصاحٌ ببعضِ ما يدلُّ عليه مجموعُ ما قبلَه، مِن عَلاقَةِ الطَّرفيْنِ المُتخاصمينِ، فيكونُ بينهما كمالُ اتِّصالٍ، فغابَتِ الواوُ مِن أجلِ ذلك.

دلالةُ الاسميَّة في جملة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾:

أخـوَّةُ المؤمنينَ حقيقةٌ ثابتةٌ

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾؛ للتَّنبيهِ على تحقُّقِ مضمونِها، وبيانِ أنَّ أُخوَّةَ المؤمنينَ حقيقةٌ ثابتةٌ، وفي هذا نوعُ توكيدٍ لها، في مقابلةِ ما يدلُّ عليه لسانُ حالِ الطّائفةِ الباغيةِ مِن عكسِ ذلكَ.

دلالة ﴿إِنَّمَا﴾:

أخـوَّةُ المؤمنينَ معلومةٌ مقرَّرةٌ

التَّعبيرُ بـ﴿إِنَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، يفيدُ حصرَ حالِ المؤمنينَ في حالِ الأخوَّةِ؛ مبالغةً في تقريرِ هذا الحكم بينَ المسلمين، فهو قصرٌ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ، أو هو قصرٌ إضافيٌّ؛ للرَّدِّ على أصحابِ الحالةِ المفروضةِ، الَّذينَ يبغونَ على غيرِهم مِنَ المؤمنين، قصرَ موصوفٍ على صفةٍ، وهذهِ الآيةُ فيها دلالةٌ قويَّةٌ على تقرُّرِ وجوبِ الأخوَّةِ بينَ المسلمينَ؛ لأنَّ شأنَ ﴿إِنَّمَا﴾ أن تجيءَ لخبرٍ لا يجهلُهُ المخاطَبُ، ولا يدفعُ صحَّتَهُ، أو لِما يُنزَّلُ منزلةَ ذلكَ؛ فلذلكَ كانَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ مفيدًا أنَّ معنى الأخوَّةِ بينَهم معلومٌ مقرَّرٌ[3]، وفيه توبيخٌ وتبكيتٌ للطّائفةِ الباغية.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 120، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 529.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 243.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 243.

بلاغةُ التَّشبيهِ في: ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾:

الإيمانُ هو النَّسَبُ الأعلى والأعظمُ

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، أي: مِن حيثُ إنَّهم منتسبونَ إلى أصلٍ واحدٍ، وهو الإيمانُ الموجِبُ للحياةِ الأبديَّةِ[1]، فيكونُ في الكلامِ تشبيهٌ بليغٌ محذوفُ الوجه والأداة، فقد شُبِّهتِ المشاركةُ في الإيمانِ بالمشاركةِ في أصلِ التَّوالدِ؛ لأنَّ كلًّا منهما أصلٌ للبقاءِ؛ إذ التَّوالدُ منشأُ الحياةِ، والإيمانُ منشأُ البقاءِ الأبديِّ في الجنانِ[2]، فدلَّ التَّشبيهُ بضميمة حذفِ الوجهِ والأداةِ على أنَّ الإيمانَ أعلى وأفخمُ في بَثِّ روحِ التَّواصُلِ والتَّراحُمِ والتَّعاضُدِ بينَ المُتَّصِفينَ به.

دلالةُ تَعريفِ ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾:

الأخـوَّةُ حكمٌ ثابتٌ بينَ جميعِ المؤمنينَ

تعريفُ المؤمنينَ بـ(أل) في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾؛ للجنسِ المستغرقِ لجميعِ الأفرادِ، فيُفيدُ أنَّ الأُخوَّةَ حكمٌ ثابتٌ بينَ جميعِ المؤمنينَ، وإن اختلفَت أعراقُهم وألوانُهم وألسنتُهم وأمكنتُهم.

معنى الفاءِ، ودلالة التَّعبير بها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ﴾ للسَّببيَّةِ والتَّفريعِ، ففيها إعلامٌ بأنَّ الأخوَّةَ الدِّينيَّةَ موجبةٌ للإصلاحِ[3]، وأنَّهُ لا مكانَ للشِّقاقِ والنِّزاعِ بينَ الإخوةِ.

دلالةُ الأمرِ في ﴿فَأَصْلِحُواْ﴾:

الأمرُ في قوله تعالى ذكرُهُ: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا مقتضيَ للعدولِ عنهُ، بل الحفاظُ على أُخوَّةِ الإيمانِ يقتضيه.

سِرُّ وضعِ الظّاهرِ موضعَ المضمرِ في ﴿أَخَوَيْكُمْۚ﴾:

الأخـوَّةُ علَّةُ الإصلاحِ

وُضِعَ الظّاهرُ موضعَ الضَّميرِ مضافًا إلى المأمورينَ في قوله تعالى: ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ﴾ - ولم يقل: (بينَهم) - للمبالغةِ في التَّقريرِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 135.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 529.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 120.

والتَّخصيصِ[1]؛ لأنَّ في ذكره مُظهَرًا التَّقريرَ في الذِّهنِ، معَ إشعاره بالعلّيةِ، أي: فأصلِحوا بينَ أخويكم للأخوَّةِ[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالتَّثنيةِ في ﴿أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾، وما تؤديه القراءة المتواترة الأخرى ﴿إِخۡوَتِكُمۡۚ﴾:

الإصلاحُ بينَ الأقلِّ الغالبِ يستدعي الإصلاحَ بينَ الأكثرِ

أوثِرَت صيغةُ التَّثنيةِ في قوله تعالى: ﴿أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾، كما قيل: ﴿بَيۡنَهُمَاۖ﴾ اعتبارًا بالأغلبِ[3]، أو مراعاةً لكونِ الكلامِ جاريًا على طائفتينِ مِنَ المؤمنين، فجُعِلَت كلُّ طائفةٍ كالأخِ للأخرى[4]، أو لأنَّ أقلَّ مَن يقعُ بينَهم الشِّقاقُ اثنانِ، فإذا لزمتِ المصالحةُ بينَ الأقلِّ؛ كانَت بينَ الأكثرِ ألزمَ؛ لأنَّ الفسادَ في شقاقِ الجمعِ أكثرُ منهُ في شقاقِ الاثنينِ[5]، وإرشادًا إلى أنَّ مآلَ الصُّلْحِ الكامل أن يصيرَ المُتخاصِمون كالجسدِ الواحدِ، فكلُّ طائفةٍ يُمثِّلُها واحدٌ منهم، والتَّثْنيةُ ناظرةٌ أيضًا إلى صفة الجماعتَيْنِ، الَّتي لأجلها عُبِّرَ بالطّائفةِ.

وقد قرأ يعقوب بكسر الهمزة وإسكان الخاء وتاء مكسورة على الجمع[6]: ﴿إِخۡوَتِكُمۡۚ﴾، و(الإخْوان): جمع أخٍ، و(إخوة): اسمُ جمعٍ عند سيبويه، وعند غيرِه هي جمع[7]. وقال النحاس: "و(أخ وإخوة) لأقل العدد، و(إخوان) للكثير، و﴿بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ بين كل مسلِمَيْنِ اقتتلا؛ فقد صار عامًّا[8].

سِرُّ الوَصْلِ في ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

مَنِ اتَّقى الله؛ حرصَ على الإصلاحِ بينَ الإخوةِ

وصَل القرآنُ جملة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ بجملة:

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 135.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 132.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 164.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 245.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 366.
(6) ابن الجزري، النشر: 2/ 376.
(7) السمين الحلبي، الدر المصون: 3/ 335، 10/ 9.
(8) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 142.

﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ بالواو؛ لأنَّ كلًّا منهما إنشاءٌ في اللَّفظ والمعنى، والمخاطَبُ في جملة المعطوفِ عليه داخلٌ في المخاطَب في جملةِ المعطوفِ، فالثّاني أعمُّ مِن الأوَّلِ، وحسَّنَ الوصلَ كونُ كلٍّ منهما جملةً فعليَّةً، فعلُها فعلُ أمرٍ، فبين المُتعاطفيْن توسُّطٌ بينَ الكماليْنِ، ومِن بلاغة العطف هنا أن يكون المعطوفُ مقرِّرًا للمعطوف عليه، أي: واصلِحوا بينَ أخويكم بالصُّلحِ، واحذروا اللّه مِن أن تتهاونوا فيه[1]، كأنَّ هذا الإصلاحَ أجلُّ أفرادِ التَّقوى.

دلالةُ الأمرِ في ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

تقوى الله واجبةٌ على الجميع

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ للوجوبِ، والمخاطَبُ جميعُ المؤمنينَ، فيشملُ الطّائفتينِ الباغيةَ والمبغيَّ عليها، ويشملُ غيرَهما ممَّن أُمِروا بالإصلاحِ بينَهما ومقاتلةِ الباغيةِ، فتقوى كلٍّ بالوقوفِ عندَ ما أمرَ اللّه بِه كلًّا بما يخصُّهُ[2].

علَّةُ التَّعبيرِ باسمِ الجلالةِ:

العظيمُ حَريٌّ بأن يُخافَ منهُ

جيءَ باسمِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لدلالته على صفاتِ الجلالِ والكمالِ الّتي تبعثُ الهيبةَ في النُّفوسِ، فتحثُّ على الإصلاحِ والعدلِ في سائرِ الشُّؤونِ، ففيه تمكينٌ وتحقيقٌ للأمر بالتَّقْوى، وحسَّنَ التَّعبيرَ به مُظْهَرًا طولُ المسافةِ البيانيَّةِ بينَ موقعِ جملتِه وموقعِ جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾، لا سيَّما أنَّ موضعه الثّاني في آيةٍ مستقلَّةٍ عن موضع الأوَّل.

علَّةُ فصلِ ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ لتعليلِ الأمرِ بالتَّقوى[3]، فهو جوابُ سؤالٍ عن عِلَّةِ الأمرِ بالتَّقوى.

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 487.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 245.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 487.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ(لعلَّ):

الكريمُ إذا أطمعَ؛ فعلَ ما يُطمِعُ فيه

جيءَ بـ(لعلَّ) في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ لأنَّها في هذا المقام إطماعٌ مِنَ الكريمِ الرَّحيم، الَّذي إذا أطمَعَ؛ فَعَلَ ما يُطمِعُ فيهِ لا محالةَ[1]، وللتَّنبيهِ على أنَّ العبدَ لا يقطعُ بحصولِ الرَّحمةِ لهُ، وإن بالغَ في العملِ والتَّقوى[2]، وتنبيهًا على عِظَم هذه الرَّحمة، وأنَّ الطّائفةَ المؤمنةَ الباغيةَ - وإن فاءَت، وتصالحَت معَ الطّائفةِ الَّتي بغَت عليها - لا يشفَعُ لها حالُها الَّذي آلَت إليه للتَّعرُّضِ لتلكَ الرَّحْمةِ لسابقِ بغيِها؛ إبلاغًا في ترهيبِها مِن الرُّجوعِ إلى هذا البَغْيِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالرَّحمةِ:

اختيرتِ الرَّحمةُ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ لأنَّ الأمرَ بالتَّقوى واقعٌ إثرَ تقريرِ حقيقةِ الأخوَّةِ بينَ المؤمنينَ، وشأنُ تعاملِ الإخوةِ الرَّحمةُ، فيكونُ الجزاءُ عليها مِن جنسِها[3].

نكتةُ بناءِ ﴿تُرْحَمُونَ﴾ للمفعولِ:

تَشَوُّفُ النُّفوس إلى إكرامِ الكريم

بُنيَ الفعلُ في قوله: ﴿تُرْحَمُونَ﴾ للمفعولِ؛ للإشارةِ إلى سهولةِ الأمورِ عندَهُ تعالى، ونفوذِ أمره، وأنَّ النُّفوسَ إنَّما تَشوُّفُها إلى الإكرام، لا إلى كونه مِن معيَّنٍ[4]، أو للدِّلالةِ على أنَّ الرَّحيمَ هو اللّٰه سبحانَهُ، فلا يتبادرُ الذِّهنُ إلى غيره.

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 487.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 132.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 245.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 374.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [الحجرات: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

دفْعُ الشَّرِّ بالنَّهيِ عن موجباته

لمّا نهى اللّه تعالى عن الإسراعِ بالإيقاعِ بمجرَّدِ سماعِ ما يوجِبُ النِّزاعَ، وفصَّلَ شيئًا من ذلكَ النِّزاعِ، وختمَ بما تُرجَى بهِ الرَّحمةُ؛ نهى عن موجباتِ الشَّرِّ، الَّتي تكونُ سببًا للضَّغائنِ والأحقادِ، وهذا النَّهيُ من رحمةِ اللّه بعبادِه[1]، ولمّا كانت المنهيّاتُ في هذه الآيةِ قد توجِبُ الاقتتالَ بينَ المسلمينَ، السّابقَ ذكرُه في الآيةِ التّاسعةِ؛ أتى بها عقبَه.

أخوَّةُ الإسلامِ تقتضي حُسْنَ المعاملةِ

ولمّا اقتضتِ الأُخوَّةُ تحسينَ المعاملةِ بين الأخوينِ؛ كانَ ما تقرَّرَ من إيجابِ معاملةِ الإخوةِ بينَ المسلمينَ يقتضي حسنَ المعاملةِ بينَ آحادِهم، فجاءَت هذهِ الآياتُ مُنبِّهةً على أمورٍ من حُسنِ المعاملةِ قد تقعُ الغفلةُ عن مراعاتِها لكثرةِ تفشّيها في الجاهليَّةِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا يَسۡخَرۡ﴾: (سخر) أصلٌ يدلُّ على احتقارٍ واستذلالٍ، ومِن ذلكَ: تسخيرُ اللّه ﷻ الشَّيءَ، وذلكَ إذا ذلّله لأمره وإرادته[3]، والسُّخريةُ: الاستهزاءُ[4]، والمرادُ هنا النَّهيُ عن الاستهزاءِ بالإنسانِ؛ لصِغَرٍ، أو لعلَّةٍ حادثةٍ، أو لرزيَّةٍ، أو لنقيصةٍ يأتيها، أو لنحوِ ذلكَ[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 374.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 246.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(4) الراغب، المفردات: (سخر).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 149.

2) ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ﴾: (لمز) أصلٌ يدلُّ على العيبِ[1]، ومِن ذلكَ: اللَّمزُ، وهو الاغتيابُ، وتتبُّعُ المَعايبِ[2]، والطَّعنُ والضَّربُ باللِّسانِ[3]، ومعنى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾: لا تَعيبوا النّاسَ، فيعيبوكم، فتكونوا بمنزلةِ مَن عابَ نفسَهُ[4]، ولا يطعن بعضُكم على بعضٍ، بذكرِ النَّقائصِ ونحوه، وقد يكونُ اللَّمزُ بالقولِ وبالإشارةِ ونحوِها ممّا يُفهَمُ[5].

3) ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ﴾: (نبز) أصلٌ يدلُّ على التَّسميةِ[6]، ومِن ذلكَ يقالُ: تنابزوا بالألقابِ، أي: لقَّبَ بعضُهم بعضًا[7]، والتَّنابزُ بالألقابِ المنهيُّ عنهُ هنا: التَّداعي بها، وهو محمولٌ على ما إذا كانَ التَّلقيبُ مُؤْذيًا لصاحبه، فأمّا إذا كانَ غيرَ مُؤْذٍ لهُ، وفيهِ تعظيمٌ لهُ؛ فلا حُرمةَ، وكذا إذا لم يُعرَفْ إلّا به[8].

4) ﴿بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾: اللَّقبُ اسمٌ يُسمَّى بهِ الإنسانُ سوى اسمه الأوَّلِ[9]، ويُراعَى فيهِ المعنى، واللَّقبُ ضربانِ: ضربٌ على سبيلِ التَّشريفِ، كألقابِ السَّلاطينِ، وضربٌ على سبيلِ العيبِ، وهو المنهيُّ عنهُ هنا[10].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

قَطْعُ دابرِ بعضِ أسبابِ العداوةِ بينَ المسلمينَ

ينهى ﷻ عبادَهُ المؤمنينَ عن جملةٍ مِنَ الأفعالِ الدّالَّةِ على احتقارِ النّاسِ، والَّتي قد ينجمُ عنها العداوةُ والاقتتالُ بينَ المسلمينَ، فيقولُ: يا أيُّها الَّذينَ آمنوا لا يحتقِر أحدٌ أحدًا، فإنَّهُ قد يكونُ المحتقَرُ أعظمَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (لمز).
(2) الراغب، المفردات: (لمز).
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 369.
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لمز).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 150.
(6) الخليل، العين: (نبز).
(7) الجوهري، الصحاح: (نبز).
(8) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نبز).
(9) الخليل، العين: (لقب).
(10) الراغب، المفردات: (لقب)، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 150.

قدرًا عندَ اللّه مِنَ المحتقِرِ، ولا تحتقِر نساءٌ نساءً؛ لأنَّهنَّ قد يكنَّ أفضلَ منهنَّ عندَ اللّه، ولا يطعَنْ بعضُكم في بعضٍ، ولا يَعِبْهُ بقولٍ أو بإشارةٍ أو بنحوِ ذلكَ، ولا تتداعَوا بالألقابِ الَّتي يَسوءُ الشَّخصَ سماعُها، بئسَ الصِّفةُ والاسمُ الفسوقُ بَعدَ أن أكرمَكم اللّه بالإيمانِ، ومَن لم يتب مِن هذهِ الخصالِ القبيحةِ؛ فهو ظالمٌ لنفسه، بتعريضِها للعقابِ، وظالمٌ لغيره باحتقاره والإساءةِ إليه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

فُصِلَ قولُه جلَّ مِن قائلٍ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾؛ لأنَّه كلامٌ مستأنفٌ لأمرِ المؤمنينَ بآدابٍ جديدةٍ في تعاملِ بعضِهم مع بعضٍ[2]، فكانَ في الفصلِ تأكيدٌ لأهمّيَّته واستقلاله.

غرضُ إعادةِ النِّداءِ:

الآدابُ في الإسلامِ محلُّ عنايةٍ

افتُتِحَ قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ بإعادةِ النِّداءِ؛ للاهتمامِ بالغرضِ المسوقِ لهُ الكلامُ، فيكونُ مستقلًّا غيرَ تابعٍ[3]، وفيه تنبيهٌ على أنَّ تجنُّبَ المنهيّاتِ في الآيةِ يزيدُ في الإيمانِ؛ لأنَّ الإنسانَ مُعرَّضٌ لأن يقَع فيها، وارتكابُها يُنْقِصُ الإيمانَ، ففي ندائهم بالإيمانِ تحريكٌ للإقبالِ على تحقيقِ المطلوبِ بعدَه إقبالَ محبَّةٍ.

نكتةُ التَّعبيرِ بأداةِ النِّداءِ للبعيدِ:

رعايةُ الأدبِ مع المسلمينَ ذات شأنٍ عظيمٍ

اختيرَت (يا) الدّالَّةُ على نداءِ البعيدِ - مع أنَّ المخاطَبَ قريبٌ - في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الكلامَ الواردَ بعدَها لهُ خَطْبٌ عظيمٌ، وفيها التَّحذيرُ من

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 376، والمراغي، تفسير المراغي: 26/ 133.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 246.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 246.

اقتراف ما يُبْعِد عن ساحة الخِطابِ والرِّضا الإلهيِّ، ويُدخِل في ساحة الغضبِ.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالموصوليَّة في ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الإيمانُ قائدٌ إلى الطّاعةِ والانقيادِ

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للتَّوصُّلِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ - وهو وصفُ الإيمانِ - إلى تنشيطِهم لتلقّي ما بعدَ النِّداءِ مِنَ التَّكاليفِ؛ لأنَّهم خوطِبوا بما هو عنوانٌ لهُم، يُعرَفون، ويُشْهَرون به.

دلالة المُضيّ في ﴿ءَامَنُواْ﴾:

راسخُ الإيمانِ يمتثلُ لأمرِ الله

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ اتِّصافَهم بالإيمانِ أمرٌ قد تحقَّقَ، وثبتَ أصلُه؛ ولذلكَ استحقّوا شرفَ الخطابِ والتَّكليفِ؛ وفيه إبلاغٌ في دلالةِ النِّداءِ بالإيمان، مِن تحريكهم نحو تحقيق ما بعد النِّداء.

دلالةُ النَّهي:

النَّهيُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ للتَّحريم، فيُفيدُ الكلامُ أنَّ المسلمَ يأثمُ إذا سخِرَ مِن أخيهِ المسلمِ؛ لِما في ذلكَ مِنَ الاستهانةِ والتَّحقيرِ[1].

دلالةُ المضارعة في ﴿لَا يَسۡخَرۡ﴾:

المؤمنُ الحقُّ يبتعدُ عن السُّخريةِ في جميعِ الأوقات

عُبِّرَ بالمضارعِ المجزومِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾؛ للدَّلالةِ على طلبِ استمرارِ الامتناعِ عن السُّخرية، فالمؤمنُ الحقُّ يجاهدُ نفسَهُ على ألّا يتلبَّسَ بالسُّخريةِ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغة القوم والنِّساءِ:

جاء قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ بالتَّعبيرِ بلفظِ القوم الدّالِّ على الجماعةِ، ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ بالتَّعبيرِ بلفظٍ دالٍّ على

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 531.

الـراّضي بالسُّخرية كفاعلِها

جماعةٍ، ولم يقل: (لا يسخَرْ أحدٌ مِنْ أحدٍ)، أو (لا يسخَرْ رجلٌ مِن رجلٍ، ولا امرأةٌ مِن امرأةٍ)؛ لأنَّهُ إذا سَخِرَ الواحدُ؛ كانَ بمجلسه عادةً ناسٌ يضحكونَ على قوله، أو بلغَت سُخريتُهُ ناسًا، فضحكوا، فينقلبُ الحالُ إلى جماعةٍ[1]؛ لأنَّ ميلَ الطِّباعِ إلى التَّلهّي والدُّعابةِ والازدراءِ بالضُّعفاءِ أكثريٌّ[2]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ مَن شاركَ، أو رضيَ، أو سكتَ، وهو قادرٌ؛ فهو ساخرٌ مشاركٌ للقائلِ[3]، فليحذرِ المسلمُ مِن أن يكونَ شريكًا في معصيةٍ يفعلُها غيرُهُ.

وجاء اختيار لفظ ﴿قَوۡمٞ﴾؛ لدلالته على قوَّةِ المحاولة؛ هَزًّا إلى قيام الإنسانِ على نفْسِه، وكفِّها عمّا تريدُه من النَّقائص؛ شُكْرًا لما أعْطاهُ اللّه من القوَّةِ، وفي التَّعبيرِ بلفظِ القومِ أيضًا نهيٌ عمّا كانَ شائعًا بينَ العربِ مِن سُخريةِ القبائلِ بعضِها مِن بعضٍ[4]، وفي مقابل إطلاقِ القوم لِمَن كانَ فيه أهليَّةُ المقاومة - وهم الرِّجال - جاء إطلاق (النّساء) على من تميَّز بالنَّسْوة - بفتح النّونِ - أي: ترك العمل[5].

نكتةُ تنكيرِ (قوم) في الموضعين:

السُّخريةُ غيرُ مقبولةٍ مِن أحدٍ

التَّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ يفيدُ التَّبعيضَ، والمعنى: لا يسخَرْ بعضُ المؤمنينَ من بعضٍ[6]، وهو إمّا للإفرادِ، أو للشُّيوعِ والعموم، فتصيرُ كلُّ جماعةٍ منهم منهيَّةً عن السُّخْريةِ[7]، فلا يُتوَهَّمُ نهْيُ قومٍ معيَّنينِ سَخِروا مِن قومٍ معيَّنينِ[8].

معنى ﴿مِّن﴾، ودلالة التَّعبيرِ بها:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾، وقوله: ﴿مِّن

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 516.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 165.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 375.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 247.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 375.
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 136.
(7) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 353، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 133.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 247.

﴿نِّسَآءٍ﴾ اتِّصاليَّةٌ، والمعنى: (لا تحصل السُّخريةُ لقومٍ مِن قومٍ، ولا تحصل السُّخريةُ لنساءٍ مِن نساءٍ)[1].

سِرُّ عدمِ التَّنصيصِ على سخريةِ الرِّجالِ مِنَ النِّساءِ، والعكس:

الغالبُ سخريةُ الجنسِ مِن جنسه

قيلَ: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾، ولم يقل: (رجلٌ مِن امرأةٍ)، وبالعكس؛ لأنَّ سخريةَ الجنسِ مِن جنسه أكثرُ[2]، وسخريةُ الرَّجلِ مِنَ المرأةِ، وسخريةُ المرأةِ مِنَ الرَّجلِ، داخلانِ في حكمِ النَّهيِ أيضًا؛ لاتِّحادِ العلَّةِ، وهي أذى المسلم بالاحتقار.

علَّةُ فصلِ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾:

بيانُ علَّةِ النَّهيِ عن السُّخريةِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ عمّا قبله؛ لِما بينَهما مِن شبهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ، وردَ جوابًا عن سؤالِ المستخبِرِ عن العلَّةِ الموجبةِ لِما جاءَ النَّهيُ عنهُ، وإلّا فقد كانَ حقُّهُ أن يوصَلَ بما قبله بالفاءِ[3].

علَّةُ التَّعبيرِ بـ ﴿عَسَىٰٓ﴾:

المسخورُ منهُ مَظِنَّةُ أن يكونَ خيرًا مِنَ السّاخرِ

عُبِّرَ بـ﴿عَسَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾، وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ مِن أنَّ المستهزَأَ بهم جديرونَ وخليقونَ بأن يكونوا خيرًا مِنَ المستهزئينَ، فينقلبُ الأمرُ عليهم، ويكونَ لهم سوءُ العاقبةِ[4].

دلالةُ المضارعة:

حالُ المسخورِ منهُ أفضلُ مِن حالِ السّاخرِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾، وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾؛ لدلالتِها على الحالِ، فهُم جديرونَ بأن يكونوا خيرًا مِنَ المستهزئينَ في وقتِ حصولِ الاستهزاءِ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 247، 10/ 275.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 165.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 368، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 136.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 375.

معنى (مِنْ)، ودلالة التَّعبير بها:

مجاوزةُ المسخورِ منهم للسّاخرينَ في الخيريَّةِ

(مِنْ) في قولِ الباري ﷻ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾، وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾؛ للمجاوزةِ على رأيِ ابنِ مالكٍ؛ لأنَّها واردةٌ بعدَ اسم تفضيلٍ، وداخلةٌ على المفضَّلِ عليهِ، فتفيدُ أنَّ المسخورَ منهم جاوزوا السّاخرينَ في الخيريَّةِ.

نكتةُ إفرادِ النِّساءِ بالذِّكرِ:

السُّخريةُ في النِّساءِ أكثرُ منها في الرِّجالِ

أُفرِدَ النِّساءُ بالذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾؛ معَ أنَّ لفظَ القوم يشملهنَّ بطريقِ التَّغليبِ العُرفيِّ في الكلامِ، كما يشملُ لفظُ المؤمنينَ المؤمناتِ في اصطلاحِ القرآنِ؛ بقرينةِ مقامِ التَّشريعِ المقتضي شمولَ الحكمِ للرِّجالِ والنِّساءِ؛ لأنَّ السُّخريةَ منهنَّ أكثرُ[1]، ولدفعِ توهُّمِ تخصيصِ النَّهيِ بسخريةِ الرِّجالِ[2].

علَّةُ فصلِ ﴿عَسَىٰٓ أَن﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ عمّا قبله؛ لِما بينَهما مِن شبهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ، ورَدَ جوابًا عن سؤالِ السّائلِ عن سببِ النَّهيِ عن سخريةِ النِّساءِ مِنَ النِّساءِ[3]، وعبارة ﴿أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾، مشروحة آنفًا في قوله: ﴿أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾.

سِرُّ وصلِ ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾:

التَّرقّي في تقريرِ المنهيّاتِ

عطَفَ القرآنُ ما بعدَ الواوِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ على جملةِ النَّهيِ السّابقةِ عليها؛ لِما بينهما مِن التَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْنِ؛ لأنَّ كلًّا منهما إنشاءٌ في اللَّفظِ والمعنَى.

ولمّا كانتِ السُّخريةُ تتضمَّنُ العيبَ، ولا يُصرَّحُ فيها بهِ، وكانَ اللَّمزُ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 326.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 247.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 376.

العيبَ نفسَهُ؛ رُقّيَ الأمرُ إليه، فقيلَ: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: تعيبوا على وجهِ الخُفيةِ[1]، والتَّرَقّي هو الأصلُ في تقريرِ المنهيّاتِ.

دلالةُ النَّهيِ في ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾:

النَّهيُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ للتَّحريم، فيفيدُ أنَّ مَن يلمزُ غيرَهُ يأثمُ، ويستوجبُ غضبَ اللّه عليه، وجيءَ بصيغةِ المضارعِ المجزوم للدَّلالةِ على طلبِ عدم اللَّمزِ على الدَّوامِ والتَّجدُّد، والمؤمنُ الكاملُ لا يلمزُ أحدًا في سائرِ الأوقاتِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالفِعْلِ الثُّلاثي المجرّد:

اللَّمزُ قد يقعُ من جانبٍ واحدٍ

قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ﴾، ولم يقل: (ولا تَلامَزوا) بصيغةِ التَّفاعلِ الَّتي تقتضي المشاركةَ؛ لأنَّ اللَّمّازَ إذا لمزَ؛ فالملموزُ قد لا يجدُ فيهِ في الحالِ عيبًا يلمزُهُ به، وإنَّما يبحثُ؛ ليطَّلعَ منهُ على عيبٍ، فيوجَدُ اللَّمزُ مِن جانبٍ واحدٍ[2]، ولأنَّ ترْكَ صيغةِ التَّفاعلِ أنسبُ بإيقاعِ الفعلِ على: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾.

سرُّ التَّعبيرِ بالأنفُسِ مضافةً إلى المخاطَبينَ:

مَنْ عابَ أخاهُ؛ فقد عابَ نفسَهُ

قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ بإيقاعِ اللَّمزِ على الأنفسِ مضافةً إلى ضميرِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّ عيبَ الأخِ عائدٌ إلى الأخِ، فإذا عابَ عائبٌ نفْسًا؛ فكأنَّما عابَ نفْسَهُ؛ لأنَّ المؤمنينَ كنفسٍ واحدة[3]، ولأنَّهُ إذا عابَهُ، وهو لا يخلو من عيبٍ يحاربُهُ المَعيبُ، فيعيبُهُ، فيكونُ هو بعيبه حاملًا للغيرِ على عيبه[4].

بلاغةُ عَطفِ ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾:

تأديبُ المؤمنينَ بأدبٍ آخرَ

ما بعدَ الواو في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ معطوفٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 376.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 109.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 150، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 109، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 136.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 109.

على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ لِما بينهما مِن التَّوسُّطِ بينَ الكماليْنِ؛ لأنَّ كلًّا منهما إنشاءٌ في اللَّفْظ والمعنَى، وجاء العطفُ لنهيِ المؤمنينَ عن خُلُقٍ آخرَ ذميم، وتأديبِهم بأدبٍ آخرَ[1]، وهو تركُ تلقيبِ بعضِهم بعضًا بألقابِ السّوءِ، وقد خُصِّصَ النَّهيُ في الآيةِ بالألقابِ، الَّتي صارَت كالأسماءِ لأصحابِها، وتُنوسيَ منها قصدُ الذَّمِّ والسَّبِّ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّنابزِ:

لقبُ السّوءِ مُؤذٍ للمُلَقَّبِ بِهِ

عُبِّرَ بالتَّنابزِ في قوله تعالى ذكرُهُ: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾؛ لدلالته على نعتِ الغيرِ بلقبِ السّوءِ، فإنَّ النَّبزَ مُخْتصٌّ بلقبِ السّوءِ عُرفًا[3]، فيكونُ التَّركيبُ مِن بابِ: (رأيتُهُ بعيني)، أي: يكونُ (بالألقابِ) وارِدًا على سبيلِ التَّأكيدِ، وإلّا فـ(لا تنابَزوا) مُغْنٍ عن ذِكْرِه[4].

نُكتَةُ صيغةِ التَّفاعلِ في ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾:

النَّبزُ يُفضي إلى التَّنابزِ

جيءَ بصيغةِ التَّفاعلِ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾؛ لأنَّ النَّبْزَ لا يعجزُ كلُّ واحدٍ عن الإتيانِ به، فإنَّ مَن نبزَ غيرَهُ بالحمارِ، فهو ينبزُهُ بالثَّورِ وغيره، فالظّاهرُ أنَّ النَّبزَ يُفضي في الحالِ إلى التَّنابزِ[5].

معنى الباءِ، ودلالة التَّعبير بها:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ للتَّعْديَةِ والإلصاق، فتدلُّ الباءُ هنا على أنَّ هذهِ الألقابَ قد يستمرُّ ضررُها، ويدومُ، بأن تظلَّ مُلْتصِقةً بمَن تُطْلَق عليه.

---

(1) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 165.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 248.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 136.
(4) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 137.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 109.

دلالةُ تعريفِ (الألقابِ):

تعريفُ (الألقابِ) في قوله ﷻ: ﴿بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ للعهدِ الذِّهنيِّ؛ إذ المرادُ بها الألقابُ القبيحةُ، الَّتي فيها ذمٌّ وتحقيرٌ للملقَّبِ بها، فيكونُ فيها معنى العمومِ، أي: كلُّ ما يقبُح منها.

علَّةُ فَصْلِ ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ﴾:

السُّخريةُ واللَّمزُ والنَّبزُ منافية للإيمانِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ كلامٌ مَسوقٌ لتأكيدِ ما سبقَ مِنَ النَّهيِ عن التَّنابزِ[1]، فالفصلُ لكمالِ الاتِّصالِ، أو لأنَّه تعليلٌ للنَّهيِ عمّا سبقَ مِنَ النَّهيِ عن السُّخريةِ واللَّمزِ والنَّبزِ بالألقابِ[2]، على جهة أنَّه جوابٌ عن سؤالٍ مُقَدَّرٍ عن هذه العِلَّةِ، فالفصلُ لشبهِ كمالِ الاتِّصالِ.

بلاغةُ التَّعريضِ:

السُّخريةُ واللَّمزُ والنَّبزُ ظلمٌ وفسوقٌ

قولُهُ تعالى: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ تعريضٌ قويٌّ بأنَّ ما نُهوا عنهُ فُسوقٌ وظُلْمٌ؛ إذ لا مُناسَبةَ بينَ مدلولِ هذهِ الجملةِ وبينَ الجملِ الَّتي قبلَها، لولا معنى التَّعريضِ بأنَّ ذلكَ فسوقٌ، وهو مذمومٌ ومعاقَبٌ عليهِ[3]، وإنَّما كان ذلكَ دلالةً تعريضيَّةً - أي: كنائيَّةً - لا تصريحيَّةً؛ لأنَّ كونَ المنهيّاتِ كذلك أمرٌ جِدُّ ظاهر.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

السُّخريةُ واللَّمزُ والنَّبزُ مِن أسبابِ العقابِ

قولُهُ تعالى: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ تذييلٌ لِما قبله، وفيهِ دليلٌ على أنَّ ما نُهوا عنهُ مذمومٌ؛ لأنَّهُ فسوقٌ يُعاقَبُ عليهِ، ولا تُزيلُهُ إلّا التَّوبةُ، فوقعَ إيجازٌ بحذفِ جملتينِ في الكلامِ؛ اكتفاءً بما دلَّ عليهِ التَّذييلُ[4].

(1) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 165.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 377.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 249.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 249.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بـ﴿بِئۡسَ﴾:

قُبحُ السُّخريةِ واللَّمزِ والنَّبزِ

عُبِّرَ بـ﴿بِئۡسَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾؛ لأنَّهُ فعلٌ تامٌّ بمعنى (قَبُحَ)[1]، فيفيدُ قُبْحَ السُّخريةِ واللمزِ والنَّبزِ، ولا غَرْوَ في ذلكَ، فهو ليسَ مِن أخلاقِ المسلم، وهي كلمة جامعةٌ لجميع المَذامِّ، وإنَّما عُبِّر بها هنا تنفيرًا من النَّبْزِ والسُّخريةِ واللَّمزِ ونحوِ ذلك؛ لأنَّها نقائصُ تُدمِّرُ المجتمعَ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلِٱسۡمُ﴾:

اشتهارُ الذِّكرِ بالفسوقِ بينَ النّاسِ ذميمٌ قبيحٌ

عُبِّرَ بالاسمِ في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾؛ لدلالته على شيوعِ الذِّكرِ، وشهرته، فالاسمُ هنا مِنَ السُّموِّ، كما يقالُ: لفلانٍ اسمٌ، أي: صيتٌ واشتهارٌ[3]، فيدلُّ الكلامُ على قُبْحِ فُشوِّ الذِّكرِ بالفسقِ واشتهاره بينَ النّاسِ[4]، وأيضًا إيثارُ لفظِ الاسم هنا مِنَ الرَّشاقةِ بمكانٍ؛ لأنَّ السّياقَ تحذيرٌ مِن ذكرِ النّاسِ بالأسماءِ الذَّميمةِ؛ إذ الألقابُ أسماءٌ، فكانَ اختيارُ لفظِ الاسمِ للفسوقِ مشاكلةً معنويَّةً[5].

نكتةُ التَّعبيرِ بالفسوقِ:

السُّخريةُ واللَّمزُ والنَّبزُ خروجٌ عن طاعةِ الله

عُبِّرَ بالفُسوقِ في قوله تعالى: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾؛ لِما فيه مِنَ الدَّلالةِ على الخروجِ عن طاعةِ اللّه ﷻ، ففيهِ تحذيرٌ ووعيدٌ، وتنبيهٌ على أنَّ مَن فعلَ ما سبقَ مِنَ المنهيّاتِ خارجٌ عن طاعةِ اللّه، وعليهِ الإقلاعُ عن الذَّنبِ والرُّجوعُ إلى الطّاعةِ، ففي التَّعبيرِ به تَرهيبٌ وتَهديدٌ مِن هذه النَّقائصِ الأُمَّهاتِ.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 138.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 377.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 136، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 121، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 5/ 136.
(4) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 137.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 249.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالبعديَّةِ:

المعاصي مِن شأنِ أهلِ الشِّركِ

التَّعبيرُ بالبعديَّةِ في قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾؛ لاستقباحِ الجَمعِ بينَ الإيمانِ وبينَ الفسقِ الَّذي لا يناسبُهُ؛ لأنَّ المعاصيَ مِن شأنِ أهلِ الشِّركِ الَّذينَ لا يَرْدعُهم عن الفسوقِ رادعٌ، ولأنَّهُ كانَ في شتائمِهم لَمن أسلمَ مِنَ اليهودِ: يا يهوديُّ، يا فاسقُ، فنُهوا عنهُ[1].

نكتةُ تركِ الجارِّ في ﴿بَعۡدَ﴾:

النُّفوسُ تعشقُ النَّقائصَ

تُركَ الجارُّ في قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ فلم يقل: (مِن بعدِ الإيمانِ)؛ إيذانًا بأنَّ مَن وقعَ في ذلكَ؛ أوشكَ أن يلازمَهُ، فيستغرقَ زمانَهُ فيه، فإنَّ النَّفسَ عشّاقةٌ للنَّقائصِ، ولا سيَّما ما فيهِ استعلاءٌ، فمَن فعلَ ذلكَ؛ فقد رضيَ لنفسه أن يوصَفَ بالفسقِ بعدَ أن كانَ موصوفًا بالإيمانِ[2].

دلالةُ تعريفِ الإيمانِ:

تعريفُ الإيمانِ في قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ للعهدِ الذِّهنيِّ، أو الذِّكريِّ؛ إذ هو مذكورٌ قبلُ، فالمرادُ بهِ الإيمانُ المخصوصُ، وهو الإيمانُ باللّه تعالى وبسائرِ ما يجبُ الإيمانُ بهِ.

سِرُّ وصلِ ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ﴾:

ذكـرُ التَّرهيبِ بعدَ التَّرغيبِ

قَولُهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ عطفٌ على مُقدَّرٍ يقتضيهِ سياقُ الكلامِ، والتَّقديرُ: فمَنْ تابَ، أو لم يفعل ذلكَ؛ فأولئكَ هم الرّاشدونَ، ومَن لم يتب؛ فأولئكَ هم الظّالمونَ[3]، فعُطِفَ التَّرهيبُ على التَّرغيبِ[4]، وكلٌّ مِن المتعاطفينِ خبرٌ في اللَّفظِ والمعنَى، فبينهما توسُّطٌ بينَ الكمالينِ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 371، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 109.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 377.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 138.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 377.

مَن خالفَ أمرَ الله؛ فقد ظلمَ نفسَهُ يقينًا

دلالةُ التّعبيرِ بالشَّرطِ:

عُبِّرَ بالشَّرطِ في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لبيانِ قوّةِ الارتباطِ بينَ عدمِ التَّوبةِ وبينَ كونِهم هم الظّالمينَ، وفي أسلوبِ الشَّرطِ مِن الحَسْمِ والفَصْلِ والقَطْعِ والتَّوكيدِ ما يتلاءَمُ والتَّرهيبَ مِن الظُّلْمِ وعدمِ التَّوْبةِ.

دلالـةُ السّياقِ تُغني عن الذِّكرِ

نكتةُ حذْفِ متعلِّقِ ﴿لَّمۡ يَتُبۡ﴾:

حُذِفَ متعلِّقُ الفعلِ في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ﴾ إيجازًا؛ لدلالةِ السّياقِ عليه، والتَّقديرُ: (ومَنْ لم يتب عمّا نُهيَ عنهُ)[1]، وفيه مبالغةٌ في تقريرِ عِظَمِ إثْمِ ما نُهيَ عنه في الآيةِ، كأنَّ التَّوبةَ عمّا سبَقَ ذِكرُه مِن المنهيّاتِ توبةٌ عن كلِّ ذنبٍ، فارتِكابُ هذهِ المنهيّاتِ في غايةِ عِظَمِ الجُرْمِ.

ارتباطُ الظُّلمِ بعدمِ التَّوبةِ ارتباطٌ وثيقٌ

معنى الفاءِ، ودلالة التَّعبيرِ بها:

الفاءُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ بالشَّرْطِ، فتفيدُ قوّةَ ارتباطِ الشَّرطِ بالجزاءِ، وأنَّ الظُّلمَ مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بعدمِ التَّوبةِ عمّا نُهيَ عنهُ، فالجوابُ مُسبَّبٌ، والشَّرطُ سببٌ، وفي هذا قوّةٌ في التَّنفيرِ مِن السَّببِ؛ إذ يكونُ مُتعمَّدًا، وتوكيدٌ للحكمِ النّاتجِ عنهما جميعًا.

تاركُ التَّوبةِ مُحتقَرٌ بعيدٌ عن ساحةِ القُربِ والحضورِ

دَلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ:

التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لزيادةِ تمييزِ المشارِ إليهم؛ تفظيعًا لحالِهم، وإبعادًا لهم عن ساحةِ القُربِ والحضورِ، وللتَّنبيهِ على أنّهم استحقّوا قَصْرَ الظُّلمِ عليهم؛ لأجلِ ما ذُكِرَ مِنَ الأوصافِ قَبْلَ اسمِ الإشارةِ[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 519.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 377، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 250.

نُكتةُ الإفرادِ والجمعِ في ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

رعايةُ معنى (مَن) بعدَ رعايةِ لفظِها

قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فيهِ إفرادٌ أوّلًا، وجَمعٌ ثانيًا؛ مراعاةً للفظِ (مَن) في الأوّلِ، ومراعاةً لمعناها في الثّاني[1]. فأمّا الحَملُ على اللَّفظ؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّ أحدًا لا يَحمِلُ وِزْرَ أحدٍ، وأنَّ التَّوبةَ هنا لا تتوقَّفُ على جماعةِ المذنبينَ، بل على كلِّ مُذنِبٍ أن يتوبَ، وعلى كلِّ إنسانٍ أن يجتنبَ الوقوعَ في هذه المنهيّاتِ عمومًا، وفي مقامِ الرَّدِّ والدِّفاعِ عن النَّفْسِ خصوصًا، وأمّا الحملُ على المعنى بالجمعِ؛ ففيه تنبيهٌ على عِظَمِ ذلكَ الظُّلْمِ، فهو ظلمٌ للنَّفْسِ، وظلمٌ للمجتمعِ أيضًا، بإشاعةِ هذه النَّقائصِ فيه، وبظُلمِ الآخرين بالسُّخْرية والاستهزاءِ واللَّمزِ والتَّنابُزِ.

بلاغةُ تعريفِ الطَّرفيْنِ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

ظلمُ السُّخريةِ واللَّمزِ والنَّبزِ شديدٌ عظيمٌ

جيءَ في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بصيغةِ القصرِ المستفادِ مِن تعريفِ طرَفَيِ الإسنادِ، وتوسيطِ ضميرِ الفصلِ؛ للمبالغةِ في وصفِهم بالظُّلمِ، ليزدجروا، ويتوبوا، كأنَّهُ لا ظالمَ غيرُهم؛ لعدمِ الاعتدادِ بالظّالمينَ الآخرينَ في مقابلةِ هؤلاءِ[2]، فهو قصرٌ حقيقيٌّ مجازيٌّ (ادِّعائيٌّ)، قصرُ صِفَةٍ على موصوفٍ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالظُّلمِ:

مَن عرَّضَ نفسَهُ للعقابِ، وأساءَ لـغـيره، فقد تجاوزَ، وتعدَّى

عُبِّرَ بالظُّلمِ في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لدلالته على التَّجاوزِ، فيفيدُ أنَّ فاعلَ السُّخريةِ واللَّمزِ والنَّبزِ تجاوزَ، وتعدَّى، فَظَلَمَ النّاسَ بالاعتداءِ عليهم، وظَلَمَ نفسَهُ بأن رَضيَ لها عقابَ الآخرةِ، مع التَّمكُّنِ مِنَ الإقلاعِ عن ذلكَ، فكانَ ظلْمُهُ شديدًا جدًّا[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 307.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 250.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 250.

فهو غيرُ بصيرٍ بما ينفع، وما يضرُّ؛ لأنَّ الظُّلْمَ وضْعُ الشَّيء في غير موضعِه، فهو يتخبَّطُ في حياتِه ومعاملاته مَعَ خلْقِ اللّه.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

مـِـن انـتـقـصَ غيرَهُ؛ فهو راسخٌ في الظُّلمِ

تعريفُ الظّالمينَ بـ(أل) في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ للجنسِ الدّالِّ على الكمالِ، أي: تمامُ الظُّلم وكمالُه مقصورٌ عليهم، وهذا - بعد الاسميَّة - إبلاغٌ في التَّنفيرِ مِمّا يتسبَّبُ في الحُكْم عليهم بالظُّلْم، وهذا يقوّي ما سبقَ مِنْ قصرِ الظُّلم عليهم وعدمِ الاعتدادِ بظلمِ غيرِهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السُّخريةُ والاستهزاءُ:

شـــدَّةُ شـنـاعـةِ فعلِ مَن ينتقصُ النّاسَ

الاستهزاءُ والسُّخريةُ كلٌّ منهما فيهِ استخفافٌ وهَمزٌ، والفرقُ بينَهما: أنَّ الإنسانَ يُستهزَأُ بهِ مِن غيرِ أن يَسبقَ منهُ فعلٌ يُستهزَأُ بهِ مِنْ أجله، وأمّا السُّخريَةُ؛ فتدلُّ على فعلٍ يَسبِقُ مِنَ المسخورِ منهُ[1]، والسُّخريةُ تدلُّ بحسَبِ أصلِ معناها على الذُّلِّ والقَهْرِ، وكأنَّ السّاخرَ يَبْغي قَهْرَ المسخورِ منهُ، وإذلاله، فيكونُ في التَّعبيرِ بالسُّخريةِ هنا مبالغةٌ في تقبيحِ شأنِ مَن ينتقصُ النّاسَ.

اللَّمزُ والهمزُ:

سَعةُ إساءةِ مَن يلمزُ الآخرينَ

اللَّمزُ يكونُ بالقولِ وبالإشارةِ، ونحوِ ذلكَ ممّا يفهمُهُ الآخَرُ، والهمزُ لا يكونُ إلّا باللِّسانِ[2]، واللَّمزُ هو عيبُ الإنسانِ في وجهه، والهمزُ عيبُهُ في غيابه[3]، وقد عُبِّرَ باللَّمزِ لدلالته على سَعةِ الإساءةِ، وأنَّها قد تكونُ بالقولِ وبالإشارةِ ونحوِ ذلكَ معَ كونِها في وجهِ المَعيبِ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 254.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 150.
(3) هنري، فرائد اللغة، ص: 341.

العَلَمُ والكنيةُ واللَّقبُ:

الألـقـابُ فيها تحقيرٌ للملقَّبِ في هذا السّياقِ

العلَمُ: كلُّ اسم يُفهَمُ منهُ معنًى معيَّنٌ لا يصلحُ لغيره؛ فإن كانَ مُصدَّرًا بأبٍ أو أمٍّ؛ فهو كُنْيةٌ، وإن لم يُصدَّرْ بأحدِهما، فإن قُصِدَ التَّعظيمُ أو التَّحقيرُ؛ فهو لقبٌ، وإلّا فهو اسمٌ[1]، وقد عُبِّرَ بالألقابِ هنا لدلالتِها على قصدِ التَّحقيرِ في هذا السّياقِ.

(1) هنري، فرائد اللغة، ص: 217.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [الحجرات: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

عدمُ المسارعةِ إلى اتِّهامِ الآخرينَ بالإساءةِ

لمّا كانَ الإنسانُ ربَّما دعا صاحبَهُ بلقبٍ لهُ غيرَ قاصدٍ بهِ عيبَهُ، أو فعلَ فعلًا يتنزَّلُ على الهُزْءِ غيرَ قاصدٍ بهِ الهُزْءَ؛ نهى اللّه تعالى في هذهِ الآيةِ عن المبادرةِ إلى الظَّنِّ مِن غيرِ تثبُّتٍ[1]، ولمّا نهى سبحانه في الآيةِ السّابقة عن بعض الأمراض الاجتماعيَّة كالاستهزاء والسُّخرية واللَّمز والتَّنابز بالألقاب؛ نهى هنا عن بعض عواقب تلك الأمراض ونتائجها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱجۡتَنِبُواْ﴾: (جنب) أصلٌ يدلُّ على النّاحيةِ و البُعدِ، ومِن ذلكَ: الجَنْبُ الَّذي هو الجارحةُ المعروفةُ، ثمَّ يُستعارُ مِنَ النّاحيةِ الَّتي تليها، ويقالُ: جنَّبتُهُ عن كذا، أي: أبعدتُهُ عنهُ[2]، وحقيقتُهُ جعلتُهُ منهُ في جانبٍ، ومعنى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ﴾: تباعدوا، واجعلوا أنفسكم في جانب بعيد عن كثير مِن الظَّنِّ[3].

2) ﴿ٱلظَّنِّ﴾: (ظنن) أصلٌ يدلُّ على معنيينِ مختلفينِ: يقينٍ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 377.
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جنب).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 234، والمراغي، تفسير المراغي: 26/ 136، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 252.

وشكٍّ[1]، والظَّنُّ: اسمٌ لِما يحصلُ عن أمارةٍ[2]، أو هو ترجُّحُ أحدِ الطَّرفينِ على الآخرِ نفيًا وإثباتًا[3]، أو التَّردُّدُ الرّاجحُ بينَ طرفي الاعتقادِ غيرِ الجازمِ[4]، وهو المرادُ هنا.

3) ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾: (جسس) أصلٌ يدلُّ على تعرُّفِ الشَّيءِ بمسٍّ لطيفٍ[5]، ومن ذلكَ جسُّ العِرْقِ وتعرُّفُ نبضه؛ للحكمِ بهِ على الصِّحَّةِ والسُّقمِ[6]، والتَّجسُّسُ: التَّنقيرُ عن بواطنِ الأمورِ، وأكثرُ ما يقالُ في الشِّرِّ[7]، والمرادُ بهِ هنا: البحثُ بوسيلةٍ خفيَّةٍ[8].

4) ﴿وَلَا يَغْتَب﴾: (غيب) أصلٌ يدلُّ على تستُّرِ الشَّيءِ عن العيونِ[9]، ومن ذلكَ يقالُ: غابَ عنّي كذا؛ إذا استترَ، واستُعمِلَ في كلِّ غائبٍ عن الحاسَّةِ، وعمّا يغيبُ عن علمِ الإنسانِ[10]، والغيبةُ: ذِكرُ السّوءِ في الغَيبةِ[11]، وإنَّما يكونُ ذكرُهُ بما يُكرَهُ غيبةً؛ إذا لم يكن ما ذكرَهُ بهِ ممّا يثلمُ العِرْضَ، وإلّا صار قَذْعًا[12].

5) ﴿فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾: (كره) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الرِّضا والمحبَّةِ[13]، ومن ذلكَ يقالُ: فعلتُهُ على كُرْهٍ، وفعلتُهُ كُرْهًا، وأكرهتُهُ: حملتُهُ على أمرٍ، وهو لا يرضاهُ، ولا يُحبُّهُ، وكرَّهَ إليَّ كذا تكريهًا: صيَّرَهُ عندي بحالِ كراهةٍ[14]، والمرادُ بالكراهةِ هنا: عدمُ المحبَّةِ، معَ حصولِ البُغْضِ من الشَّيءِ غيرِ المحبوبِ.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

يَنْهَى اللّٰه تعالى عبادَهُ عن بعضِ الأخلاقِ الذَّميمةِ، فيقولُ: يا أيُّها الَّذينَ صدَّقوا اللّٰه ورسوله: لا تظنّوا بأهل الإيمانِ سوءًا، فإنَّ ظنَّ المؤمنِ بالمؤمنِ الشَّرَّ لا الخيرَ ذنبٌ عظيمٌ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظنن).
(2) الراغب، المفردات: (ظنن).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ظنن).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (ظنن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جسس).
(6) الراغب، المفردات: (جسس).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جسس).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 253.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غيب).
(10) الراغب، المفردات: (غيب).
(11) الزمخشري، الكشاف: 4/ 373، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 152، والمراغي، تفسير المراغي: 26/ 136.
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 254.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كره).
(14) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح: (كره).

يُحْبِطُ أعمالَه، ولا يتتبَّعْ بعضُكم عَورةَ بعضٍ، ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلكَ الاطِّلاعَ على عيوبه، ولا يقل بعضُكم في بعضٍ بظهرِ الغيبِ ما يُكرَهُ؛ أيودُّ أحدُكم أن يأكلَ لحمَ أخيهِ بعدَ مماته، فإن لم تُحبّوا ذلكَ؛ فلا تحبّوا أن تغتابوهُ في حياته، فإنَّ اللّه حرَّمَ غيبتَهُ حيًّا، كما حرَّمَ أكلَ لحمه ميتًا، وخافوا عقوبةَ اللّه، واحترزوا عنها بانتهائِكم عمّا نهاكم عنه، إنَّ اللّه يقبلُ توبةَ العبدِ؛ إذا رجعَ إليهِ بالتَّوبة، ويرحمُهُ، فلا يعاقبُهُ[1].

تَـرْكُ الأخـلاقِ الذَّميمةِ مَطْهَرةٌ لـلـمؤمنِ مِـنَ الـعـذابِ، ومجلَبَةٌ للرَّحمةِ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

استقلالُ الجملةِ أنسبُ بأهمّيَّةِ مضمونِها

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ عمّا قبلَه؛ لأنَّهُ كلامٌ مستأنفٌ استئنافًا ابتدائيًّا، جيءَ بِهِ لأمرِ أهلِ الإيمانِ بآدابٍ جديدةٍ في تعاملِ بعضِهم مع بعضٍ، وفي الفصلِ تأكيدٌ لأهمّيَّته واستقلاله، ويجوزُ أن يكونَ العاطفُ قد غابَ على خلافِ الأصلِ؛ لأنَّ بينَ مضمون هذه الآية ومضمون الآية السّابقة عليها توسُّطًا بين الكمالين؛ لأنَّ صدرَ كلٍّ منهما إنشاءٌ لفظًا ومعنًى، مع كون نوع الإنشاء فيهما واحدًا، فغابتِ الواوُ؛ إيهامًا لاستقلالِ الثّاني عن الأوّلِ؛ احتفالًا به، وإبلاغًا في طلبِ تحقيقِه على جهة الأهمّيَّة والكمال والتَّمام والاستقلالِ.

سرُّ تكرارِ النِّداءِ:

النَّهيُ عن الأذى الـخـفـيِّ جـديـرٌ بالاهتمامِ

افتُتِحَ قولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ بالنِّداءِ مع تقدُّمه أربعَ مرّاتٍ في السّورةِ؛ لاختلافِ الغرضِ والاهتمام بِهِ؛ لأنَّ المنهيّاتِ المذكورةَ بعدَ هذا النِّداءِ من جنسِ المعاملاتِ السَّيِّئَةِ الخفيَّةِ، الَّتي لا يَتفطَّنُ لها مَن عوملَ بها، فلا يدفعها، فما يزيلها من نفسِ مَن عامله بها[2].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 303، والمراغي، تفسير المراغي: 26/ 136.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 250.

علَّةُ التَّعبيرِ بـ: (يا):

الكلامُ المهمُّ يستدعي قلبًا يَقِظًا

أوثِرَ في قوله تعالى ذكرُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ (يا) الدّالَّةُ على نداءِ البعيدِ - مع أنَّ المخاطَبَ قريبٌ - للتَّنبيهِ على أنَّ الكلامَ الواردَ بعدَها له خَطْبٌ عظيمٌ، وشأنٌ جليلٌ؛ ولذلكَ استدعَى مزيدَ الإيقاظِ للمخاطَبِ؛ بتنزيله منزلةَ البعيدِ الغافلِ.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصوليَّةِ:

الامتثالُ للشَّرعِ شأنُ أهلِ الإيمانِ

التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ في قوله عزَّ شأنُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: للتَّوصُّلِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ - وهو وصفُ الإيمانِ - إلى تهييجِهم وإلهابِهم لتلقّي ما بعدَ النِّداءِ مِنَ التَّكاليفِ؛ وذلكَ بالتَّنبيهِ على أنَّ شأنَ أهلِ الإيمانِ الامتثالُ لها، ووجهُ ذلكَ دلالةُ نظمِ الإيمانِ صلةً على أنَّه عنوانُ المُنادينَ الَّذي يُعرفونَ، ويُشهرونَ به.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي:

الانقيادُ والطّاعةُ صفةُ أهلِ الإيمانِ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ اتِّصافَ المخاطَبينَ بالإيمانِ أمرٌ قد تحقَّقَ، وثبتَ أصلُه، ولذلكَ استحقّوا شرفَ الخطابِ والتَّكليفِ؛ فإنّ الانقيادَ والطّاعةَ صفةُ أهلِ الإيمانِ.

دلالةُ الأمرِ في ﴿ٱجۡتَنِبُواْ﴾:

اجتنابُ كثيرٍ مِنَ الظَّنِّ واجبٌ

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا صارفَ عنهُ، فيفيدُ الكلامُ وجوبَ اجتنابِ أهلِ الإيمانِ المؤمنينَ لكثيرٍ مِنَ الظَّنِّ، وإنَّما أفْهَمَ القرآنُ الوجوبَ بصيغةِ الأمرِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ مِثْلَ المأمورِ به يُقْبَلُ عليه تنفيذًا وتحقيقًا؛ لعظيمِ أهمّيَّتِه، فطلبُ تحقيقِه مرغوبٌ فيه بشدَّةٍ شرعًا.

علَّةُ التَّعبيرِ بالاجتنابِ:

أوثِرَ التَّعبيرُ بالاجتنابِ في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾؛ لدلالته على المباعدةِ الشَّديدةِ، يقالُ: جنَّبَهُ الشَّرَّ؛ إذا أبعدَهُ عنهُ،

سلامةُ الدّينِ في البُعدِ عن مظانِّ الظُّلمِ والذَّنبِ

وحقيقتُهُ: جعله منهُ في جانبٍ، فيُعدَّى إلى مفعولينِ، ثمَّ يقالُ في مُطاوعه: اجتنبَ الشَّرَّ[1]، فيدلُّ الكلامُ على أنَّهُ يجبُ على أهلِ الإيمانِ أن يكونوا مِنَ الظَّنِّ المنهيِّ عنهُ في جانبٍ[2]، وكأنَّ الظَّنَّ المنهيَّ عنهُ في جانبٍ، وأهلُ الإيمانِ في جانبٍ آخرَ، وبذلكَ يَقي المرءُ دينَهُ، ولا يظلمُ النّاسَ.

سرُّ التَّعبيرِ بالأمرِ ﴿ٱجۡتَنِبُواْ﴾، ودلالة صيغةِ الافتعالِ:

المؤمنُ يجاهدُ نفسَهُ على تركِ الظَّنِّ المنهيِّ عنهُ

جاء قوله تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ﴾ بلفظِ الأمرِ، ولم يُقَل: (لا تظنّوا) بلفظِ النَّهيِ؛ لأنَّهُ لو قيلَ: (لا تظنّوا)؛ لكانَ النَّهيُ عامًّا في جميعِ الظَّنِّ، وإنَّما المرادُ بعضُ الظُّنونِ، فأُتيَ فيهِ بلفظِ الأمرِ، وفي ضمنه النَّهيُ؛ لأنَّ مادَّةَ الاجتنابِ تدلُّ عليهِ[3]. وجيءَ بصيغةِ الافتعالِ في قوله تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾؛ للدَّلالةِ على وجوبِ مجاهدةِ النَّفسِ؛ لتتركَ الظَّنَّ المنهيَّ عنهُ، والمعنى: كلِّفوا أنفسَكم أن تبتعدوا عن كثيرٍ مِنَ الظَّنِّ[4].

غرضُ تنكيرِ ﴿كَثِيرٗا﴾:

المؤمنُ لا يُسلِّمُ قيادَهُ لكلِّ ظنٍّ

نُكِّر قولُه: ﴿كَثِيرٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾؛ ليفيدَ معنى البعضيَّة، وأنَّ في الظُّنونِ ما يجبُ أن يُجتنبَ مِن غيرِ تبيينٍ لذلكَ ولا تعيينٍ؛ لئلّا يجترئَ أحدٌ على ظنٍّ إلّا بعدَ نظرٍ وتأمُّلٍ، وتمييزٍ بينَ حقّه وباطله بأمارةٍ بيِّنةٍ، مع استشعارٍ للتَّقوى والحذرِ، والَّذي يُميِّزُ الظُّنونَ، الَّتي يجبُ اجتنابُها عمّا سواها أنَّ كلَّ ما لم تُعرَفْ لهُ أمارةٌ صحيحةٌ وسببٌ ظاهرٌ؛ كانَ حرامًا، واجبَ الاجتنابِ؛ وذلكَ إذا كانَ المظنونُ بهِ ممَّن شوهِدَ منهُ السِّترُ والصَّلاحُ، فظنُّ الفسادِ والخيانةِ بهِ مُحرَّمٌ، بخلافِ مَن عُرِفَ

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 371.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 136.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 40.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 378، والشربيني، السراج المنير: 4/ 69.

بتعاطي الرّيَبِ والمجاهرةِ بالخبائثِ[1]، وفي الكلامِ دلالةٌ على أنَّ الظُّنونَ الآثمةَ غيرُ قليلةٍ[2].

معنى ﴿مِّنَ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

إنَّما يُتشوَّفُ لذي المكانةِ والفخامة

كلمة: ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ بيانيَّةٌ[3]، والمعنى: اجتنبوا كثيرًا الَّذي هو الظَّنُّ، ولمّا كانَ اتِّباعُ هذا الظَّنِّ فيه هلاكُ الفردِ والجماعةِ، فكانَ ذا خطَرٍ شديدٍ، وكانَ من الأهمّيَّة بمكانٍ في السّياقِ؛ فُخِّمَ شأنُه بالتَّشْويقِ إليه والتَّشوُّفِ لهُ بجعْلِه بيانًا وتفصيلًا لشيءٍ قبلَه مُجْمَلٍ مُبهَمٍ.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلظَّنِّ﴾:

اجتنبوا كلَّ ظنٍّ يُمكن أن يكونَ فيه نوعُ ضُرٍّ وسوءٍ

تعريفُ ﴿ٱلظَّنِّ﴾ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ للجنسِ، أي: اجتنبوا كثيرًا مِنَ الجنسِ الَّذي هو الظَّنُّ، أو للعهدِ الذِّهْنيِّ؛ إذ المرادُ الظَّنُّ المتعلِّقُ بأحوالِ النّاسِ[4]، والأوَّلُ هو الأبلغُ؛ لأنَّه يشملُ المعهودَ مِن الظَّنِّ وغيرَ المعهودِ، فهذا الوجهُ أعمُّ مِن الوجهِ الثّاني، والاحتياطُ من كلِّ ظنٍّ هنا مطلوبٌ.

بلاغةُ الإيجازِ في حذفِ متعلّقِ الظَّنِّ:

الظَّنُّ المتعلِّقُ بأحوالِ النّاس مَظِنَّةُ الإثمِ

قولُه تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ معناهُ: اجتنبوا كثيرًا مِنَ الظَّنِّ المتعلِّقِ بأحوالِ النّاسِ، وحُذِفَ المتعلِّقُ؛ لتذهبَ نفسُ السّامعِ إلى كلِّ ظنٍّ ممكنٍ هو إثمٌ[5]، معَ إحداثِ الإيجازِ بالحذفِ نوعًا من الحَسمِ والفَصلِ، يتناغَى به مع طبيعةِ الأمرِ عمومًا، وكونِه مُتعلِّقًا بالظَّنِّ المذكورِ.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 371.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 251.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 253.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 251.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 251.

مَن عرفَ نتيجةَ الظَّنِّ المحرَّمِ؛ اجتنبَهُ

علَّةُ فصلِ: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ تعليليٌّ، جيءَ بهِ جوابًا لِما عسى أن يكونَ سؤالًا عن علَّةِ الأمرِ باجتنابِ كثيرٍ مِنَ الظَّنِّ(1)، فالفصلُ لشبهِ كمالِ الاتِّصالِ.

العـاقـلُ مَـن تـجـنَّـبَ مـا هو مَظِنَّةٌ للذَّنبِ

غرضُ التَّأكيدِ في قوله: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾:

أُكِّدَ قولُهُ تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ بـ: ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ؛ للعنايةِ بتحقُّقِ مضمونه(2)، ولأنَّ أفعالَ النّاسِ عندَ الظُّنونِ أفعالُ مَن هو جازمٌ بأنَّهُ بريءٌ مِنَ الإثم(3).

ليسَ كلُّ الظَّنِّ مُحرَّمًا

نكتةُ التَّعبيرِ بالبعضيَّةِ في ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾:

عُبِّرَ بلفظِ: ﴿بَعۡضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ بعضَ الظَّنِّ ليسَ بإثم، ولا يلزمُ اجتنابُهُ(4)، والتَّصريحُ بالبعضيَّةِ أبلغُ في تقريرِ المعنَى والحُكْمِ مِن أن يُقال مَثَلًا: (إنَّ مِن الظَّنِّ إثمًا - أو: ما هو إثمٌ)، فيتأكَّدُ المعنَى في النَّفْسِ، ويتيقَّظُ العبدُ لهُ، فعلى المسلمِ أن يكونَ معيارُهُ في تمييزِ أحدِ الظَّنَّينِ مِنَ الآخرِ أن يَعرِضَهُ على ما بيَّنَتْهُ الشَّريعةُ في تضاعيفِ أحكامِها مِنَ الكتابِ والسُّنَّةِ وما أجمعَت عليهِ علماءُ الأمَّةِ، وما أفادَهُ الاجتهادُ الصَّحيحُ وتتبُّعُ مقاصدِ الشَّريعةِ، فمنهُ ظنٌّ يجبُ اتِّباعُهُ، كالحذرِ مِن مكائدِ العدوِّ في الحربِ، وكالظَّنِّ المستندِ إلى الدَّليلِ الحاصلِ مِن دلالةِ الأدلَّةِ الشَّرعيَّةِ، فإنَّ أكثرَ التَّفريعاتِ الشَّرعيَّةِ حاصلةٌ مِنَ الظَّنِّ المستندِ إلى الأدلَّةِ(5).

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 136، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 76، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 140.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 140.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 378.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 151.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 253.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿بَعۡضَ ٱلظَّنِّ﴾:

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ بمعنَى: (مِنْ)، والتَّقديرُ: إنَّ بعضًا مِنَ الظَّنِّ إثمٌ، والإضافةُ مُؤسَّسةٌ على التَّصريح بالبعضيَّةِ - إذ لو قيل: (إنَّ مِن الظَّنِّ إثمًا) ونحوَه، بالتَّعبيرِ بـ: (مِن)؛ لَما كانت هذهِ الإضافةُ - فهيَ إبلاغٌ في تقريرِ كونِ بعضِ الظَّنِّ إثمًا؛ لأنَّها بمنزلة تصريح آخَرَ لمعنَى البعضيَّة؛ إذ هيَ على تقديرِ مِن، والمعنَى من الظَّنِّ؛ لأنَّ المضافَ: ﴿بَعۡضَ﴾ يكتسبُ صفةَ المضافِ إليه: ﴿ٱلظَّنِّ﴾، فحصَل بها وكادةُ المعنَى؛ لعظيم أهمّيَّته في السّياقِ.

في الإضافة إطنابٌ وإيجازٌ باعتبارَيْنِ

سرُّ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ في ﴿بَعۡضَ ٱلظَّنِّ﴾:

الظّاهرُ أن يقالَ: (إنَّ بعضَهُ إثمٌ) بعود الضَّمير على الظَّنِّ؛ لتقدُّم ذكرِ لفظِ الظَّنِّ، لكن عُدِلَ إلى الإظهارِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾؛ لتأكيدِ استقلالِ الجملةِ؛ بحيثُ تجري مَجْرَى الأمثالِ، ولأنَّ معنى الظَّنِّ وسيعٌ، فبعضُه إثمٌ، وبعضُه ليس إثمًا، ومِثْلُ هذا المعنى المُقسَّمِ إظهارُه أبلغُ مِن إضمارِه؛ لأنَّ مدار الكلامِ عليه.

المعاني الرُّؤوسُ تُظْهَرُ، لا تُضْمَرُ

غرضُ تنكيرِ: ﴿إِثۡمٞۖ﴾:

تنكيرُ قولِه: ﴿إِثۡمٞۖ﴾ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾: للتَّعظيم والتَّهويلِ، بقرينةِ مقامِ الأمرِ باجتنابِ الظَّنِّ، فذلكَ يستدعي مزيدَ التَّنفيرِ عنهُ، والمعنى: إنَّ بعضَ الظَّنِّ إثمٌ أيُّ إثمٍ.

علَّةُ التَّعبيرِ بالإثمِ:

عُبِّرَ بالإثم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾؛ لدلالته على الذَّنبِ الَّذي يستحقُّ صاحبُهُ العقابَ[1]، فيكونُ أنسبَ بمقامِ التَّحذيرِ مِن سوءِ الظَّنِّ، ولأنَّ مادَّته تدورُ على البُطْءِ والتَّأخُرِ، وذو الإثمِ بطيءٌ عن الخيرِ، مُتأخِّرٌ عنهُ، والهمزةُ في الإثم منقلبةٌ عن

مَن أساءَ الظَّنَّ؛ استحقَّ العقابَ

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 372، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 136.

الواو، كأنَّ الإثم يَثِمُ الأعمالَ، أي: يكسرُها بإحباطِه[1]، فهذا القولُ الصَّرفيُّ يُؤيِّدُه الاستعمالُ اللُّغويُّ في الأصلِ، وإنَّما كانَ بعضُ الظَّنِّ إثمًا هنا؛ لأنَّ السّورةَ أُسِّسَت على تهذيبِ أكابرِ الأُمَّةِ وكُمَّلِها، الَّذين ارتفعت أصواتُهم عندَ رسولِ اللهِ محمَّدٍ ﷺ فكانَ عقابُ سوءِ الظَّنِّ أن تُنْقَصَ أعمالُهم الصّالحةُ، أي: ثوابُها، وتُحبَطَ.

سِرُّ الوَصلِ في قوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾:

الاتِّصالُ في اللَّفظِ صورةٌ لاتِّصالٍ في المعنَى

عُطِفَت جملة النَّهي: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ على جملة الأمر: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾؛ لِما بينهما من التَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْنِ، فإنَّ كلًّا منهُما إنشاءٌ لفظًا ومعنًى، الأوَّلُ أمرٌ، والثّاني نهيٌ، والوَصْلُ بينهما بالواوِ صورةٌ للتَّواصُلِ المعنويِّ بينهما، على أنَّ الثّانيَ من تمامِ الأوَّلِ.

نكتةُ عطفِ ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾:

طلبُ اليقينِ في معايبِ النّاسِ ممنوعٌ

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ على قولِه تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾؛ إتمامًا لهُ؛ لأنَّهُ تعالى لمّا قالَ: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾؛ فُهِمَ منهُ أنَّ المُعْتَبَرَ اليقينُ، فيقولُ القائلُ: أنا أكشفُ فلانًا، وأطَّلعُ على عيبِه مشاهَدةً، فأعيبُ، أفأكونُ قد اجتنبتُ الظَّنَّ؟ فقالَ تعالى: ولا تتَّبِعوا الظَّنَّ، ولا تجتهدوا في طلبِ اليقينِ في معايبِ النّاسِ[2].

دلالةُ النَّهيِ في ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾:

التَّجسُّسُ على النّاسِ حرامٌ إلّا ما خصَّهُ الدَّليلُ

النَّهيُ في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ للتَّحريم؛ بقرينةِ مقامِ طلبِ الكفِّ عن إساءةِ الظَّنِّ بالنّاسِ، وهذا النَّهيُ مقيَّدٌ بالتَّجسُّسِ الَّذي هو إثمٌ، أو يُفضي إلى الإثمِ، وإذا عُلِمَ أنَّهُ يترتَّبُ عليهِ مفسدةٌ عامَّةٌ صارَ التَّجسُّسُ كبيرةً، ومنهُ التَّجسُّسُ على المسلمينَ لَمن يبتغي الضُّرَّ بهم، فالمنهيُّ عنهُ هو التَّجسُّسُ الَّذي لا ينجرُّ منهُ نفعٌ للمسلمينَ، أو

---

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (أثم)، والبقاعي، نظم الدرر: 7/ 234.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 110، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 379، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 535.

دفعُ ضرٍّ عنهم، فلا يشملُ التَّجسُّسَ على الأعداءِ، ولا تجسُّسَ الشُّرَطِ على الجُناةِ واللُّصوصِ(1)، وتحريمُه بصيغة النَّهي أبلغُ؛ لدلالته على أنَّ تحريمه مطلوبٌ بقوَّةٍ، فهو أمرٌ مرغوبٌ في تحقيقه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المجزومِ في ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾:

المؤمنُ لا يقارفُ التَّجسُّسَ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المجزوم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ التَّجسُّسَ منهيٌّ عنهُ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، فينبغي على المسلمِ أن يُجاهدَ نفسَهُ على تركِ التَّلبُّسِ بهِ أبدًا، ولا يقارف التَّجسُّسَ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ.

نكتةُ صيغةِ التَّفعُّلِ في ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾:

تتبُّعُ عَوْراتِ النّاسِ فِعْلٌ قبيحٌ

جيءَ بصيغةِ التَّفعُّلِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾؛ للمبالغةِ، وذلكَ لدلالتِها على معنى الطَّلبِ(2)؛ لأنَّ مَن يطلبُ الشَّيءَ يمسُّهُ، ويجسُّهُ، فأُريدَ بهِ ما يلزمُهُ(3)، وفي ذلكَ تقبيحٌ لشأنِ التَّجسُّسِ وتتبُّعِ عوراتِ النّاسِ، والمعنى: لا تُمعِنوا في البحثِ عن العوراتِ، ولا يكونُ ذلكَ إلّا في المستورينَ(4).

نكتةُ عطفِ ﴿وَلَا يَغۡتَب﴾:

الغيبةُ أعمُّ مِنَ التَّجسُّسِ

عطفُ النَّهيِ عن الغيبةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ على النَّهيِ عن التَّجسُّسِ؛ لِما بينهما مِن التَّوسُّطِ بينَ الكماليْنِ، فكلٌّ منهما إنشاءٌ لفظًا ومعنًى، وكلٌّ منهما نهيٌ، والمنهيُّ عنه في كلٍّ منهما مذمومٌ، وهذا مِن محسِّناتِ الوَصْلِ.

سِرُّ التَّرتيبِ:

عدمُ إفشاءِ المظنونِ المعلومِ بغيرِ تجسُّسٍ

عطْفُ النَّهيِ عن الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 254.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 136.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 122، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 79، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 308.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 235.

﴿بَعۡضًاۚ﴾ على النَّهيِ عن التَّجسُّسِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾، مِنْ قبيلِ عطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ لأنَّ الغيبةَ أعمُّ مِنَ التَّجسُّسِ[1]، واللّٰه تعالى قالَ أوّلاً: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾، أي: لا تقولوا في حقِّ المؤمنينَ ما لم تعلموهُ فيهم؛ بناءً على الظَّنِّ، ثمَّ نهى عن التَّجسُّسِ؛ لاستيقانِ المظنوناتِ، ثمَّ قالَ: إن علمتُم منها شيئًا مِن غيرِ تجسُّسٍ؛ فلا تقولوهُ، ولا تُفشوهُ عنهم، ولا تَعيبوا[2].

دلالةُ النَّهيِ في ﴿وَلَا يَغۡتَب﴾:

الغيبةُ مَفْسَدةٌ للدّينِ والدُّنيا وأُخوَّةِ الإسلامِ

النَّهيُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ للتَّحريم؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا مقتضيَ للعدولِ عنهُ، وإنَّما كانتِ الغيبةُ محرَّمةً؛ لأنَّها تشتملُ على مَفْسَدةِ ضعفٍ في أُخوَّةِ الإسلامِ، وقد تبلغُ الَّذي اغتيبَ، فتقدحُ في نفسه عداوةً لِمَن اغتابَهُ، فينثلمُ بناءُ الأُخوَّةِ، ولأنَّ فيها الاشتغالَ بأحوالِ النّاسِ، وذلكَ يُلهي الإنسانَ عن الاشتغالِ بالمهمِّ النّافعِ لهُ، وتركِ ما لا يعنيهِ[3]، وإفادةُ التَّحريمِ بصيغةِ النَّهيِ تعني أنَّه مطلوبٌ تحقيقُه بقوَّةٍ، فهو أمرٌ مرغوبٌ فيهِ بشدَّةٍ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿وَلَا يَغۡتَب﴾:

المؤمنُ يجتهدُ في تركِ التَّلبُّسِ بالغيبةِ

عُبِّرَ بالمضارعِ المجزومِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ تَرْكَ الغيبةِ مطلوبٌ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ، والمؤمنُ الحريصُ على كمالِ إيمانه يجتهدُ في تركِها، وعدمِ التَّلبُّسِ بها في أيِّ وقتٍ مِنَ الأوقاتِ.

سرُّ إسناد ﴿بَّعۡضُكُم﴾ إلى فعل الغيبة:

المُحَرَّمُ هو اغتيابُ المؤمنِ

آثر البيان القرآني في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ - فلم يُسند النهي عن الغيبة إلى واو الجماعة مثلاً، كما فعل في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 379.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 111.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 256.

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾، فلم يُقَل: (لا تغتابوا)، أو: (اجتنبوا الغيبة)؛ لأنَّ الممنوعَ هو اغتيابُ المؤمنِ، فقالَ: ﴿بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾، وأمّا الكافرُ؛ فيُذكَرُ بما فيهِ، والفاسقُ يجوزُ أن يُذكَرَ بما فيهِ عندَ الحاجةِ[1].

علَّةُ فصلِ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ﴾:

تعقيبُ النَّهيِ بما يُعينُ على الامتثالِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتًا﴾ عمّا قبله: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾؛ لأنَّه يُؤكِّدُه، ويُحقِّقُه؛ إذ يلزمُ مِن الثّاني الحُكْمُ الَّذي في الأوَّلِ بقوَّةٍ، فبينهما كمالُ اتِّصالٍ.

بلاغةُ التَّمثيلِ في ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتًا﴾:

التَّغليظُ على المغتابينَ بتقبيحِ صورةِ فعلِهم

قولُهُ تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتًا﴾، تمثيلٌ وتصويرٌ لِما يصدرُ عن المغتابِ مِن حيثُ صدورُهُ عنهُ، ومِن حيثُ تعلُّقُهُ بصاحبه على أفحشِ وجهٍ وأشنعه طبعًا وعقلًا وشرعًا[2]، والغرضُ مِنَ التَّمثيلِ: استفظاعُ الممثَّلِ وتشويهُهُ؛ لإفادةِ الإغلاظِ على المُغْتابينَ؛ لأنَّ الغيبةَ مُتفشّيةٌ في النّاسِ، وخاصَّةً في أيّامِ الجاهليَّةِ[3]، والمرادُ بالتَّمثيلِ هنا: الاستعارةُ التَّمثيليَّةُ، شُبِّهتِ الهيئةُ المأخوذةُ مِن أمورٍ عديدةٍ - وهي المغتاب الَّذي فعلَ الغيبةَ، والمغتابُ الَّذي اغتبتَهُ، وما ذكرَهُ المُغْتابُ مِنَ الأمورِ الكريهةِ وهَتكِ عِرْضه - بالهيئةِ المنتزَعةِ مِن أشياءَ كثيرةٍ، مِن أكلِ لحمٍ، وكونه لحمَ أخيهِ، وكونِ أخيهِ ميتًا، والكراهةِ التّامَّة، فذُكِرَ ما هو للمشبَّهِ بهِ، وأُريدَ المشبَّهُ[4].

بلاغةُ الاستفهامِ في ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ﴾:

كراهةُ أكلِ لحمِ الأخِ ميتًا أمرٌ مسلَّمٌ عندَ كلِّ أحدٍ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 110.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 122.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 255.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 141.

﴿مَيۡتٗا﴾ للتَّقرير[1]، أي: حَملِ المخاطَبِ على الإقرارِ بأمرٍ يعلمُهُ[2]، وهو يفيدُ المبالغةَ، مِن حيثُ إنَّهُ لا يقعُ إلّا في كلامٍ مُسلَّمٍ عندَ كلِّ سامعٍ حقيقةً أو ادِّعاءً[3]، فكلُّ أحدٍ يُقرُّ بأنَّهُ لا يحبُّ ذلكَ، ولذلكَ أُجيبَ الاستفهامُ بقولِه: ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾[4].

ولم يَردِ الاستفهامُ على نفيِ محبَّةِ أكلِ لحمِ الأخِ ميتًا في قوله تعالى ذكرُهُ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا﴾، بأن يقالَ: (ألا يحبُّ أحدُكم) ... إلخ، كما هو غالبُ الاستفهامِ التَّقريريِّ؛ إشارةً إلى تحقُّقِ الإقرارِ المُقرَّرِ عليه؛ بحيث يَتركُ للمُقرَّرِ مجالًا لعدمِ الإقرارِ، ومع ذلكَ لا يَسَعُهُ إلّا الإقرارُ[5].

سرُّ ذكرِ فعلِ المحبَّةِ:

حبُّ أكلِ لحمِ الأخِ ميتًا غايةٌ في الكراهةِ

ذِكْرُ فعلِ المحبَّةِ في قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا﴾، فيهِ مبالغةٌ مِن حيثُ تعليقُ المحبَّةِ بما هو في غايةِ الكراهةِ، وهو أكلُ لحمِ الأخِ ميتًا، فذكرُهُ أبلغُ في الإنكارِ مِن أن يقالَ: (أيأكلُ أحدُكم لحمَ أخيهِ ميتًا)؛ لأنَّ حُبَّ الأكلِ أبعدُ مِنَ الأكلِ، فإنكارُ الأبعدِ أبلغُ مِن إنكارِ البعيدِ[6].

دلالةُ الإسنادِ في قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ﴾:

لا أحدَ مِنَ العقلاءِ يحبُّ أكلَ لحمِ أخيهِ ميتًا

إسنادُ فعلِ المحبَّةِ إلى الفاعل في قوله: ﴿أَحَدُكُمۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا﴾؛ للإشعارِ بأنَّ أحدًا مِنَ الأحَدينَ لا يحبُّ ذلكَ[7]، فالكلامُ يفيدُ العمومَ، وهذا عمومٌ مِن جهةِ مادَّةِ الكلمةِ، يُضافُ إليه العمومُ المستفادُ مِن الإضافةِ في:

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 373، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 520.
(2) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 142.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 80، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 309.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 254.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 255.
(6) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 142.
(7) الزمخشري، الكشاف: 4/ 373، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 122.

﴿أَحَدُكُمْ﴾، فإنَّها للجنسِ[1]، وهذا إبلاغٌ في تصويرِ عِظَمِ شناعةِ المغتابِ وقُبْحِه.

دلالةُ المضارعة في ﴿أَن يَأۡكُلَ﴾:

صورةُ أكلِ لحمِ الأخِ ميتًا قبيحةٌ شنيعةٌ

التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتًا﴾؛ لتصويرِ هذا الفعلِ القبيحِ[2]، وهو أكلُ لحمِ الأخِ ميتًا، كأنَّهُ يُشاهَدُ الآنَ، وفي ذلكَ حثٌّ على استهجانه واستقباحه؛ لِما هو عليهِ مِنَ الغرابةِ؛ إذ هو ليسَ مِن أفعالِ البشرِ.

غرضُ الإضافةِ في ﴿لَحۡمَ أَخِيهِ﴾:

الإنسانُ لا يرضَى بالتَّعدّي على ما يكونُ لأخيهِ

إضافةُ اللَّحمِ إلى الأخِ في قوله تعالى: ﴿أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتًا﴾ لاميَّةٌ، والمعنى: لحمًا لأخيهِ، وفي ذلكَ زيادةُ تنفيرٍ مِن صورةِ هذا الأكلِ؛ إذ العادةُ أن يأنفَ الإنسانُ مِنَ التَّعدّي على ما يكونُ لأخيهِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالأخِ مضافًا إلى الضَّميرِ:

النُّفوسُ لا ترضَى بأن ينالَ الأخَ أذًى

في قوله تعالى: ﴿أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتًا﴾ مبالغةٌ في التَّقبيحِ، مِن حيثُ إنَّهُ لم يقتصر على تمثيلِ الاغتيابِ بأكلِ لحمِ الإنسانِ، حتَّى جعلَ الإنسانَ أخًا[3]، وأضافَهُ إلى ضميرِ ﴿أَحَدُكُمْ﴾، وفي ذلكَ استثارةٌ لحميَّةِ النُّفوسِ الَّتي لا ترضَى بأن ينالَ الأخَ أذًى، فكيفَ ترضَى بأكلِ لحمه؟.

علَّةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿مَيۡتًا﴾:

حُرمةُ الإنسانِ حيًّا وميتًا

عُبِّرَ بقوله: ﴿مَيۡتًا﴾ في قوله ﷻ: ﴿أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتًا﴾؛ لزيادةِ التَّشنيعِ على المغتابِ؛ إذ لم يقتصرِ النَّظمُ على أكلِ لحمِ الأخِ حتَّى جعله ميتًا، وإذا كانَ الإنسانُ يأنفُ مِن أكلِ لحمِ أخيهِ ميتًا؛ فكذلكَ يجبُ عليهِ تركُ أكلِ لحمه حيًّا بالغيبةِ[4].

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 143.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 380.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 373، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 122.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 373، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 122.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾:

> الكراهةُ جوابُ كلِّ مَن عُرِضَ عليهِ أكلُ لحمِ أخيهِ ميتًا

لمّا كانَ جوابُ قولِه تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا﴾ متعيِّنًا - وهو أن يقولوا: إنَّهم لا يحبّونَ ذلكَ - أجابَ اللّه تعالى قبلَ أن يُجيبوا، بقوله: ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾، والفاءُ في: ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾ فصيحةٌ واقعةٌ في جوابِ شرطٍ محذوفٍ، والمعنى: إن صحَّ ذلكَ، أو عُرِضَ عليكم هذا؛ فقد كرهتموهُ، فإذا ثبتَ، وتحقَّقَ عندكم استقذارُ أكلِ جيفةِ أخيكم الميتِ، وكراهتُكم لهُ مِن غيرِ إنكارٍ مِن أحدِكم؛ فليتحقَّقْ عندكم أيضًا أنَّ الغيبةَ والطَّعنَ في أعراضِ إخوانِكم المسلمينَ مِثلُ ذلكَ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾:

> كراهةُ أكلِ لحمِ الأخِ ميتًا حقيقةٌ قطعيَّةٌ

مقتضَى الظّاهرِ أن يقالَ: (فتكرهونَهُ)، أو: (فتكرهوه) بصيغةِ المضارعِ، ولكن جيءَ بلفظِ الماضي في قوله تعالى: ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ كراهتِهم لأكلِ لحمِ الأخِ ميتًا[2]، وأنَّها أمرٌ قطعيٌّ ثابتٌ، لا ينازعُ فيهِ أحدٌ[3]، وهذا أبلغُ في تصويرِ المقصودِ بالتَّمثيلِ.

علَّةُ التَّعبيرِ بالكراهةِ:

> مَن استقذرَ أكلَ لحمِ الأخِ ميتًا؛ تركَ غيبتَهُ

عُبِّرَ بالكراهةِ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾؛ لأنَّها بمعنى الاشمئزازِ والتَّقذُّرِ[4]، فتفيدُ مزيدَ تنفيرٍ مِن أكلِ لحمِ الأخِ ميتًا؛ لأنَّ فيه معنَى عدمِ الرِّضا، ومعنَى البُغْضِ؛ وذلكَ يُلائمُ مقامَ الحثِّ على تركِ الغيبةِ.

سِرُّ تعديةِ فعلِ الكراهةِ بنفْسه:

> الأصلُ تعديةُ فعلِ الكراهةِ بنفسه

عُدّيَ فعلُ الكراهةِ في قولِه تعالى: ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾ بنفْسه، ولم يتعدَّ

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 373، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 167، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 142.

(2) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 142.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 380.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 255.

بـ: (إلى)، كما عُدّيَ في قوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ﴾ [الحجرات: 7]؛ لأنَّ القياسَ تعديتُهُ بنفسه، وأمّا تعديتُه بـ: (إلى)؛ فتأوُّلٌ وإجراءٌ لـ: (كره) مجرى (بغضَ)[1]، وتعديتُه بنفسِه تُصوِّرُ سرعةَ حصولِ الكُرْهِ والكراهيَةِ؛ لأنَّ هذا أمرٌ في الجِبِلَّةِ والفِطْرةِ.

بلاغةُ تعدُّدِ مَرْجِعِ الضَّميرِ في ﴿فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾:

أكلُ لحمِ الميتِ هو محلُّ الكراهةِ الشَّديدَةِ

الظّاهرُ أنَّ الضَّميرَ في قوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ راجعٌ إلى الأكلِ، ويَحْتملُ أن يَرْجِعَ إلى اللَّحْم، أي: فكرهتم اللَّحْمَ، ويَحتملُ أن يرجعَ إلى الميتِ في قوله: ﴿مَيْتًا﴾، والتَّقديرُ: أيحبُّ أحدُكم أن يأكلَ لحمَ أخيه ميتًا مُتغيِّرًا، فكرهتموهُ، فكأنَّهُ صفةٌ لقوله: ﴿مَيْتًا﴾، ويكونُ فيهِ زيادةُ مبالغةٍ في التَّحذيرِ، يعني: الميت إن أُكِلَ في النُّدرةِ لسببٍ؛ كانَ نادرًا، ولكن إذا أَنْتَنَ، وتغيَّرَ؛ فلا يُؤكلُ أصلًا، فكذلكَ ينبغي أن تكونَ الغيبَةُ[2].

براعةُ الطِّباق:

الطِّباقُ يُمكِّنُ المعنَى في نَفْسِ المُتلقِّي

في قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ مُحسِّنٌ بديعيٌّ معنويٌّ، وهو الطِّباقُ بينَ: ﴿أَيُحِبُّ﴾، وبينَ: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾[3]، وفي ذلكَ تأكيدٌ لكونِهم لا يقبلونَ بأكلِ لحم الأخِ ميتًا، وهو يُحرِّكُ لتأمُّلِ كلٍّ مِن الطَّرفيْنِ في نورِ الآخَرِ، وبهذا يتمكَّن معنى الكلام في النَّفْسِ، وهذا إحسانٌ إلى المعنى وإلى المُتلقّيه جميعًا.

نكتةُ عطفِ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾:

مَن خافَ الله؛ اجتنبَ محارِمَهُ

قولُه ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ معطوفٌ على ما تقدَّمَ مِنَ الأوامرِ والنَّواهي، أي: اجتنبوا، واتّقوا[4]؛ لِما بينَ الطَّرفيْنِ من التَّوسُّطِ بينَ الكماليْنِ؛ إذ كلاهما إنشاءٌ.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 374.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 111.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 256.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 111، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 521.

دلالةُ العطف:

الأمـرُ بالتَّقوَى مِن تمامِ ما قبلَه

عُطِفَ جملة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ على ما قبلها إنَّما هو على أنَّها كالتَّذييلِ لها؛ إذ أُمِرَ بالتَّقوَى، وهيَ جِماعُ الاجتنابِ والامتثالِ، فمَن كانَ سالِمًا مِنَ التَّلبُّسِ بتلكَ المنهيّاتِ، فالأمرُ بالتَّقوى يُجنِّبُه التَّلبُّسَ بشيءٍ منها في المستقبلِ، ومَن كانَ متلبِّسًا بها أو ببعضِها، فالأمرُ بالتَّقوى يجمعُ الأمرَ بالكفِّ عمّا هو متلبِّسٌ بِهِ منها[1].

مَـن كَـرِهَ أكـلَ لحمِ أخيهِ ميتًا؛ كَرِهَ غيبتَهُ

ويَحتملُ أن يكونَ معطوفًا على محذوفٍ، يدلُّ عليهِ الكلامُ السّابقُ، والتَّقديرُ: فاكرَهوا الغيبةَ، واتَّقوا اللّه[2]؛ فإنَّ مَن كَرِهَ أكلَ لحمِ أخيهِ ميتًا؛ كَرِهَ غيبتَه.

دلالةُ الأمرِ في ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾:

تـقـوى الـلـه واجبةٌ في السِّرِّ والعلانيةِ

الأمرُ بالتَّقوى في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ للوجوب؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا مقتضيَ للعدولِ عنهُ، بل مقامُ الحثِّ على تركِ الغيبةِ يقتضيهِ؛ لأنَّ التَّقوى فعلُ المأموراتِ وتركُ المنهيّاتِ، ويدخلُ في هذهِ المنهيّاتِ دُخولًا أوَّليًّا الغيبَةُ؛ وإفادةُ وجوبِها بصيغة الأمر يَعني أنَّ تحقيقَها أمرٌ مطلوبٌ بقوَّةٍ، ومرغوبٌ فيهِ بشِدَّةٍ.

علَّةُ التَّعبيرِ باسمِ الجلالةِ:

العظيمُ حقيقٌ بالاتِّقاءِ

أوثِرَ اسمُ الجلالةِ دونَ غيره في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾؛ لدلالته على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، الَّتي تُدخِلُ الرَّوعَ في نَفْسِ المخاطَبِ، ففيهِ ملاءمةٌ لسياقِ التَّحذيرِ والأمرِ والنَّهيِ، والمعنَى: واجعلوا بينَكم وبينَ المَلِكِ الأعظمِ وِقايةً بالامتثالِ لما يطلبُ الشَّرعُ[3]، ففيهِ إبلاغٌ في تحقيقِ ما سبَق مِن أمرٍ ونهيٍ؛ لأنَّه سبيلُ الخوفِ من عقابِ اللّه؛ لأنَّ فيهِ إشارةً إلى أنَّ التَّقوَى المطلوبةَ تقوى ذي الكمالاتِ المطلقةِ الَّتي لا تتناهَى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 257.
(2) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 143.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 381.

علّةُ فصلِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ تعليليٌّ؛ لبيانِ موجِبِ الأمرِ بالتَّقوى[1]، وهو أيضًا تذييلٌ للتَّذييلِ السّابقِ - وهو قولُهُ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ - لأنَّ التَّقوى تكونُ بالتَّوبةِ بعدَ التَّلبُّسِ بالإثمِ، فقيلَ: إنَّ اللهَ توّابٌ، وتكونُ التَّقوى ابتداءً، فيرحمُ اللهُ المتَّقي[2].

مَن عرفَ سَعَةَ فضلِ الله؛ اتَّقاهُ، وتابَ إليهِ

نكتةُ توكيدِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾:

أُكِّدَ قولُ الباري ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ بـ: ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ؛ لتحقيقِ مضمونه، والعنايةِ به، ولتقويةِ داعي الامتثالِ للأمرِ بالتَّقوى، وإبلاغًا في التَّرغيبِ في التَّوبةِ فالتَّقْوَى، بطَمأنةِ نُفوسِ مَن يَقَعُ في مُخالَفةٍ مِن المُخالفاتِ المذكورةِ في الآيةِ.

سَعَةُ فضلِ الله حقيقةٌ يقينيَّةٌ

غرضُ تقديمِ ﴿تَوَّابٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾:

تقديمُ التَّوّابِ على الرَّحيمِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ مِن بابِ تقديمِ الأخصِّ على الأعمِّ؛ لأنَّ التَّقوى تكونُ بالتَّوبةِ بعدَ التَّلبُّسِ بالإثمِ، فقيلَ: إنَّ اللهَ توّابٌ، وتكونُ التَّقوى ابتداءً، فيرحمُ اللهُ المتَّقي، فالرَّحيمُ شاملٌ للجميعِ[3].

رحمةُ الله تشملُ التّائبَ وغيرَهُ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّجسُّسُ والتَّحسُّسُ:

التجسُّسُ: التَّنقيرُ عن بواطنِ الأمورِ، أو ما طلبتَهُ لغيرِكَ مِن معرفةِ أمورِ النّاسِ، والتَّحسُّسُ: ما طلبتَهُ لنفسِكَ، أو التَّجسُّسُ في العوراتِ، والتَّحسُّسُ في الأخبارِ، أو التَّجسُّسُ: هوَ تتبُّعُ العوراتِ،

قبحُ صنيعِ مَن يتتبَّعُ عيوبَ النّاسِ، وخفايا أمورِهم

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 80.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 257.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 257.

والتَّحسُّسُ: الاستماعُ للأخبارِ والأحاديثِ[1]، وقد اختيرَ التَّجسُّسُ في الآيةِ؛ لدلالته على تتبُّعِ بواطنِ الأمورِ، وطلبِ معرفةِ عيوبِ الآخرينَ، وذلكَ غايةٌ في الشَّناعةِ الموجِبةِ للنَّهيِ عنهُ.

الحبُّ والودُّ:

الغيبةُ مَكْروهةٌ شرعًا وعقلًا وعُرْفًا

الحبُّ يكونُ فيما يوجبُهُ مَيْلُ الطِّباعِ والحكمةُ جميعًا، والودُّ من جهةِ مَيلِ الطِّباعِ فقط؛ ولذلكَ تقولُ: أحبُّ فلانًا، وأودُّهُ، وتقولُ: أحبُّ الصَّلاةَ، ولا تقولُ: أودُّها[2]، وقد عُبِّرَ بالحبِّ في الآيةِ للتَّنبيهِ على أنَّ الغيبةَ مكروهةٌ من جهةِ الطِّباعِ والحكمةِ والشَّرعِ، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ لشأنِ مَن يُقدِمُ عليها؛ ببيانِ أنَّهُ بإقدامه عليها يُخالفُ الطِّباعَ والعقلَ والشَّرعَ.

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/ 326.

(2) العسكري، الفروق، ص: 122.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: 13]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تعدُّدُ المانعِ من إيـذاءِ الإنـسانِ بالاغتيابِ وغيرِه

الآيةُ انتقالٌ مِن بيانِ واجباتِ المعاملاتِ معَ اللهِ تعالى، ومع النَّبيِّ ﷺ ومع النّاسِ، إلى بيانِ ما يجبُ أن يراعيَهُ الإنسانُ في نفسه[1]، فهذِهِ الآيةُ تُقرِّرُ الأُخوَّةَ العامَّةَ المانعةَ مِن الاغتيابِ مِن بَعْدِ بيانِ الأُخوَّةِ في الدّينِ المانعةِ مِن ذلكَ، وذهَب البقاعيُّ إلى أنَّ هذهِ الآيةَ مِن تمامِ ما قبلَها مِن جملةِ آياتٍ في السِّباقِ، فقال: "ولمّا ذكَر سبحانه الأُخوَّةَ الدّينيَّةَ؛ تذكيرًا بالعاطِفِ الموجِبِ للإكرامِ، المانعِ مِن الانتقامِ، ونهَى عن أمورٍ يجُرُّ إليها الإعجابُ بالنَّفْسِ، مِن جهةِ التَّعظيمِ بالآباءِ والعَراقةِ في النَّسَبِ العالي؛ أسْقَطَ ذلك مُبيِّنًا أن لا نسَبَ إلّا ما يُثْمِرُه الإيمانُ الَّذي بدأ بِهِ مِن التَّقْوى"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلَقۡنَٰكُم﴾: (خلق) أصلٌ يدلُّ على تقديرِ الشَّيءِ[3]، مع استقامةٍ، ويُستعمَلُ في إبداعِ الشَّيءِ مِن غيرِ أصلٍ ولا مثالٍ سابقٍ، وفي إيجادِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ، والخَلْقُ الَّذي هو الإبداعُ مُخْتَصٌّ باللهِ تعالى، وأمّا الَّذي يكونُ بإيجادِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ؛ فقد جعله اللهُ لغيره في بعضِ الأحوالِ[4]، والمرادُ هنا: الخلقُ المختصُّ باللهِ تعالى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 258، والزحيلي، التفسير المنير: 26/ 250.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 236.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلق).
(4) الراغب، المفردات: (خلق)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلق).

2) ﴿شُعُوبَا﴾: (شعب) أصلٌ يدلُّ على الافتراقِ[1]، ومِن ذلكَ: الشَّعبُ، وهو القومُ المنتسبونَ إلى حيٍّ واحدٍ، سُمّوا بذلكَ؛ لتفرُّقِهم عنهُ[2]، والشِّعْبُ مِنَ الوادي: ما اجتمعَ منهُ طَرَفٌ، وتفرَّقَ منهُ طَرَفٌ، فإذا نظرتَ إليهِ مِنَ الجانبِ الَّذي تفرَّقَ؛ أخذتَ في وهمِكَ واحدًا يتفرَّقُ، وإذا نظرتَ مِنْ جانبِ الاجتماعِ؛ أخذتَ في وهمِكَ اثنينِ اجتمَعا؛ فلذلكَ قيلَ: شَعَّبْتُ الشَّيءَ؛ إذا جمعتُهُ، وشعَّبْتُهُ؛ إذا فرَّقْتُهُ[3]، والمرادُ بالشُّعوبِ هنا: جمعُ شَعْبٍ بفتحِ الشين، وهو مجمعُ القبائلِ الَّتي ترجعُ إلى جدٍّ واحدٍ مِن أمَّةٍ مخصوصةٍ[4].

3) ﴿وَقَبَآئِلَ﴾: (قبل) أصلٌ يدلُّ على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[5]، ومِن ذلكَ: القبيلُ، وهو جمعُ قبيلةٍ، وهي الجماعةُ المجتمعةُ الَّتي يُقبلُ بعضُها على بعضٍ[6]، وهذا هو المرادُ هنا.

4) ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾: (عرف) أصلٌ يدلُّ على السُّكونِ والطُّمأنينةِ[7]، ومِن ذلكَ: المعرفةُ والعِرْفانُ، أي: إدراكُ الشَّيءِ بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأثَرِه[8]، فذلكَ يمنحُ النَّفسَ الطُّمأنينةَ، والمرادُ بالتَّعارفِ هنا: أن يعرفَ بعضُهم بعضًا، والتَّعارفُ يَحْصُلُ طبقةً بعدَ طبقةٍ متدرِّجًا إلى الأعلى، فالعائلةُ الواحدةُ متعارفونَ، والعشيرةُ متعارفونَ مِن عائلاتٍ؛ إذ لا يخلونَ عن انتسابٍ ومصاهرةٍ، وهكذا تتعارفُ العشائرُ مع البُطونِ، والبُطونُ مع العمائرِ، والعمائرُ مع القبائلِ، والقبائلُ مع الشُّعوبِ؛ لأنَّ كلَّ درجةٍ تأتلفُ مِن مجموعِ الدرجاتِ الَّتي دونَها[9].

5) ﴿أَكۡرَمَكُمۡ﴾: (كرم) أصلٌ يدلُّ على شَرَفٍ في الشَّيءِ في نفسه، أو شَرَفٍ في خُلُقٍ مِنَ الأخلاقِ[10]، وإذا وُصِفَ اللّه تعالى بالكرمِ؛ فهو اسْمٌ لإحسانه وإنعامه، وإذا وُصِفَ بهِ الإنسانُ؛ فهو اسمٌ للأخلاقِ والأفعالِ المحمودةِ الَّتي تَظْهَرُ منهُ، والإكرامُ والتَّكريمُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شعب).
(2) الجوهري، الصحاح: (شعب).
(3) الراغب، المفردات: (شعب).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 259.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبل).
(6) الراغب، المفردات: (قبل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرف).
(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عرف).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 259.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كرم).

أن يوصَلَ إلى الإنسانِ إكرامٌ، أي: نفعٌ لا يلحقُهُ فيهِ غَضاضةٌ، أو أن يُجعلَ ما يوصَلُ إليهِ شيئًا كريمًا، أي: شريفًا[1]، والمرادُ بالأكرمِ هنا: الأعلى شرفًا ومنزلةً.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الفضلُ بالتَّقوى والعملِ الصّالحِ

يحثُّ اللّه تعالى النّاسَ على التَّقوى، وتركِ التَّفاخرِ بالأنسابِ، فيقولُ: يا أيُّها النّاسُ إنّا أنشَأْنا خَلْقَكم مِن آدمَ وحوّاءَ، أو خلَقْنا كلَّ واحدٍ منكم مِن ماءِ ذَكَرٍ مِنَ الرِّجالِ، وماءِ أنثى مِنَ النِّساءِ، وصيَّرْناكم طوائفَ وجماعاتٍ مُتناسِبينَ، فبعضُكم يناسبُ بعضًا نسبًا بعيدًا، وبعضُكم يناسبُ بعضًا نسبًا قريبًا، والحكمةُ من ذلكَ: أن يعرفَ بعضُكم بعضًا في النَّسَبِ، لا لفضيلةٍ لكم في ذلكَ تدعوكم إلى التَّفاخرِ، إنَّ أكرمَكُم عندَ ربِّكم أشدُّكم اتِّقاءً لهُ بأداءِ فرائضه، واجتنابِ نواهيهِ، إنَّ اللّه ذو عِلْمٍ بأتقاكُم وأكرمِكُم عندَهُ، ذو خِبْرةٍ بكُم وبمصالحِكُم، لا تخفَى عليهِ خافيةٌ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

الحـثُّ على تـركِ التَّفاخرِ بالأنسابِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لإفادةِ غرضٍ جديدٍ، وهو الحثُّ على تركِ التَّفاخرِ بالأنسابِ؛ لِما يُفضي إليهِ مِنَ الأحقادِ والاقتتالِ، وتتفرَّعُ عليهِ السُّخريةُ واللَّمزُ والنَّبْزُ والظَّنُّ والتَّجسُّسُ والاغتيابُ الواردةُ فيها الآياتُ السّابقةُ[3].

الاحتفالُ بالمعنَى داعٍ إلى العملِ به بشدَّةٍ

ويجوزُ أن يكونَ العاطفُ - وهو الواوُ - غائبًا على خلافِ الأصلِ الَّذي هو عطفُ مجموعِ ما بعدَها على مجموعِ معنى الآيةِ السّابقةِ؛

(1) الراغب، المفردات: (كرم).

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 309، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 385.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 258.

لِما بينهما مِن التَّوسُّطِ بينَ الكماليْن، فكلٌّ منهما إنشاءٌ لفظًا ومعنًى، وصدرُ كلٍّ منهما نداءٌ للَّذين آمنوا، وهذا مِمّا يُحسِّنُ الوَصْلَ؛ لو كانَ، وفي غيابِ العاطفِ إيماءٌ إلى استقلالِ هذهِ الآيةِ عمّا قبلَها؛ احتفالًا بمضمونِها، وفي هذا تقريرٌ وتوكيدٌ لهُ، فتتحرَّكُ النَّفْسُ إلى العملِ بما فيهِ على جهةِ القوَّةِ والوكادةِ.

نكتةُ تكرارِ النِّداءِ في ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

التَّساوي في الإنسانيَّةِ أمرٌ يُعْتَنَى بتقريره

أُعيدَ النِّداءُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾؛ للاهتمامِ بهذا الغرضِ؛ إذ كانَ إعجابُ كلِّ قبيلةٍ بفضائلِها، وتفضيلُ قومِها على غيرِهم فاشيًا في الجاهليَّةِ، وكانوا يَحْقِرونَ بعضَ القبائلِ، فكانَ ذلكَ يَجُرُّ إلى الإحَنِ والتَّقاتلِ[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بأداةِ نداءِ البعيدِ (يا):

احترامُ التَّساوي في الإنسانيَّةِ خُلُقٌ عظيمٌ

جيءَ في قولِ الباري تعالى ذكرُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ بـ: (يا) الدّالَّةِ على نداءِ البعيدِ، مع قُرْبِ المخاطَبِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الكلامَ الواردَ بعدَها لهُ أهمّيَّةٌ عظيمةٌ، فيجبُ التَّيقُّظُ لهُ.

سرُّ النِّداءِ بعنوانِ النّاسِ:

أصلُ جميعِ النّاسِ واحدٌ، ومَن غفَل عن ذلك سفَل سُفولًا عظيمًا

نوديَ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ بعنوانِ النّاسِ دونَ الإيمانِ؛ رعايةً للمناسبةِ بينَ هذا العنوانِ، وبينَ ما صُدِّرَ بِهِ الغرضُ، مِنَ التَّذكيرِ بأنَّ أصلَهم واحدٌ، أي: إنَّهم في الخِلْقةِ سواءٌ؛ ليتوسَّلَ بذلكَ إلى أنَّ التَّفاضلَ والتَّفاخرَ إنَّما يكونُ بالفضائلِ[2]، ولأنَّ الخَلْقَ المذكورَ عامٌّ[3]، ولفظُ النّاس يدلُّ على الذَّبْذبةِ والاضطرابِ، ففيه إشارةٌ إلى سُفول رُتبة مَن افتخَر بالنَّسبِ، وإلى أنَّ مَن لم يتَّعِظ بما مَضَى، فيعلو عن رُتبة

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 258.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 258.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 145.

الَّذين آمنوا، فقد سفَل سُفولًا عظيمًا، والمعنى: يا أيُّها النّاسُ كافَّةً المؤمنُ وغيرُه[1].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

الحكمُ المذكورُ في الآيةِ شاملٌ لجميعِ النّاسِ إلّا ما خصَّهُ الدَّليلُ

تعريفُ: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ للاستغراقِ، والمرادُ جميعُ أفرادِ النّاسِ، فيعمُّ الموجودينَ والمعدومينَ مِن بني آدمَ، فلا يتناولُ آدمَ وحوّاءَ، وهو ظاهرٌ، ولا يتناولُ عيسى ﷺ أيضًا، وإن أُريدَ بهم النّاسُ مِن هذهِ الأمَّةِ؛ فالأمرُ واضحٌ، لكنَّ الخطابَ عامٌّ للموجودينَ والمعدومينَ إلى يومِ القيامةِ، فلا بدَّ مِن ارتكابِ المجازِ على كلِّ حالٍ[2].

نكتةُ تأكيد ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾:

خَلْقُ النّاسِ مِن ذكرٍ وأنثى حقيقةٌ ثابتةٌ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ بـ: (إنَّ)، واسميَّةِ الجملةِ؛ للعنايةِ بمضمونه، وتقريره، وبيانِ أنَّهُ حقيقةٌ ثابتةٌ يقينًا، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ انتزاعِ سخيمةِ التَّكبُّرِ، والتَّعالي، والتَّفاخرِ مِنَ النُّفوسِ.

نكتةُ الالتفاتِ والتَّعبيرِ بضميرِ العظمةِ في ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم﴾:

خَلْقُ العظيمِ القديرِ عظيمٌ

عُبِّرَ بضميرِ العظمةِ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾، وهذا التفاتٌ إلى مقامِ التَّكلُّمِ بهذه الصيغةِ، مِن مقامِ الغيبة باسم الجلالةِ فيما سبَق مِن آياتِ السّورةِ؛ لتعظيمِ شأنِ هذا الخَلْقِ بأنَّهُ صادرٌ عن ذي العظمةِ والجلالِ، القديرِ المقتدرِ، الَّذي لا يُعجِزُهُ شيءٌ[3]، فمِثْلُ هذا الخَلْقِ آيةٌ قاهرةٌ ودلالةٌ باهرةٌ؛ لأنَّه لا يقدِر عليه إلّا اللّٰه الخالقُ سبحانه وبحمده، ومِثْلُ هذا يُقال في هذهِ الصّيغة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ الآية.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 236.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 145.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 381.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿خَلَقۡنَٰكُم﴾:

خلقُ النّاسِ كلِّ النّاسِ واقعٌ لا محالةَ

جيءَ بصيغة الماضي في قوله ﷻ: ﴿خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾؛ للتَّنبيهِ على تحقُّقِ الخلقِ ووقوعه، وهذا ناظرٌ إلى تحقُّقِ أصْلِ معنَى الخلْقِ، لا إلى أثَرِ الخَلْقِ، مِن الأفرادِ المخلوقينَ، على معنَى: أنَّ خَلْقَ مَن خُلِقَ دليلٌ على إمكانِ خلْقِ مَن لَمّا يُخلَقْ، فأمرُ الخَلْقِ بالنِّسْبةِ للّه تعالى محسومٌ؛ لأنَّه لا يقْدِرُ عليه إلّا اللّه الخالقُ العظيمُ؛ بدلالةِ صيغةِ العظمةِ.

معنى ﴿مِّن﴾:

ابتداءُ خلقِ النّاسِ مِنْ ذكرٍ وأنثى

كلمةُ ﴿مِّن﴾ في قوله ﷻ: ﴿خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾؛ للابتداءِ[1]، والمعنى: خلَقْناكم ابتداءً مِن ذَكرٍ وأُنثَى، ومعنَى الابتداءِ مُنبِّهٌ دقيقٌ لعقلِ المُتلقّي وقلبِه؛ للنَّظَرِ والتَّفكُّرِ في مدخولِها، فيَحْصُلُ له شيءٌ مِن المُباغَتةِ إذا ما تلقَّى مدخولَها، وهو: ﴿ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾؛ لأنَّه قد يتوقَّعُ بقوَّةٍ ذِكْرُ أصلِ ما خُلِقَ منه الإنسانُ - كما في آياتٍ أخرى - كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [فاطر: 11] الآيةَ؛ فلهذا الحرفِ: (مِنْ) أثَرٌ في المُتلقّي حينَ تلقّيه معنَى الكلامِ؛ إذ يجعلُ فيه نوعَ تشوُّفٍ إلى ما بعدَه، وذلكَ مِن البلاغةِ الدَّقيقةِ العاليةِ.

غرضُ تنكيرِ ﴿ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾:

الإفرادُ أدلُّ على وحْدةِ الخَلْقِ والتَّساوي بينَ النّاس

تنكيرُ المتعاطفيْنِ: ﴿ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾، إمّا للإفرادِ، والمرادُ بهما آدمُ وحوّاءُ عليهما السلام فيكونُ تنوينُ: ﴿ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾؛ لأنَّهما وصفانِ لموصوفٍ، أي: مِن أبٍ ذَكَرٍ، ومِن أمٍّ أنثى، وإمّا للنَّوعيَّةِ؛ فالمرادُ أبٌ وأمٌّ لكلِّ واحدٍ[2]، إلّا ما خصَّهُ الدَّليلُ، أي: كلُّ واحدٍ مكوَّنٌ مِن صنفِ الذَّكرِ والأنثى، وأيًّا ما كانَ؛ ففي الكلامِ تنصيصٌ على التَّساوي بينَ النّاسِ، فلا داعيَ للتَّفاخرِ بينَهم.

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 145، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 258.

(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 356، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 123، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 258.

نكتةُ تقديمِ الذَّكرِ على الأنثى:

الـتَّـسـاوي في الخَلْقِ لا يتعانَدُ معَ التَّفاوتِ في الفَضْلِ

تقديمُ الذَّكرِ على الأنثى في قوله ﷻ: ﴿خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾؛ للجَرْيِ على عادةِ القرآنِ في تقديمِ الذَّكرِ على الأنثى، وسِرُّ هذه العادةِ هنا الإيماءُ إلى أنَّ التَّساويَ بينَ النّاسِ في الخلْقِ لا يتعانَدُ معَ حصولِ التَّفاضُلِ بينهم، من جهاتٍ أخرى - كما هنا - فالذَّكَرُ "هوَ المقصودُ بالعَزْمِ والقوَّةِ"[1]، والأنثى "هيَ موضِعُ الضَّعْفِ والرّاحةِ"[2]، ولو كانَ الهدفُ مجرَّدَ إثباتِ التَّساوي فقط؛ لأبْلَغَ القرآنُ في تقريرِه بتقديمِ الأنثى على الذَّكَرِ، وإن كانَ المرادُ بالذَّكرِ والأنثى آدمَ وحوّاءَ عليهما السلام فآدمُ أسبقُ في الوجودِ.

سرُّ اختيارِ النَّسَبِ مِن جملةِ أسبابِ التَّفاخرِ:

غيرُ النَّسَبِ أولى بألّا يكونَ مِعيارًا للتَّفاضلِ

اختيرَ النَّسَبُ من جملةِ أسبابِ التَّفاخرِ في قوله تعالى: ﴿خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾، ولم يُذكرِ المالُ؛ لأنَّ الأمورَ الَّتي يُفتخَرُ بها في الدُّنيا وإن كانت كثيرةً؛ لكنَّ النَّسَبَ أعلاها؛ لأنَّ المالَ قد يحصلُ للفقيرِ، فيبطلُ افتخارُ المُفتخِرِ به، والحُسْنُ والسِّنُّ وغيرُ ذلكَ غيرُ ثابتٍ دائم، والنَّسَبُ ثابتٌ مستمرٌّ غيرُ مقدورِ التَّحصيلِ لِمَنْ ليسَ له، فاختارَهُ اللهُ للذِّكرِ، وأبطلَ اعتبارَهُ بالنِّسبةِ إلى التَّقوى؛ ليُعلَمَ منهُ بطلانُ غيره بالطَّريقِ الأولى[3].

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾:

الفضائلُ سببُ الرِّفعةِ

الخبرُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ مُستعمَلٌ؛ كنايةً عن المساواةِ في أصلِ النَّوعِ الإنسانيِّ، ليُتوصَّلَ من ذلكَ إلى إرادةِ اكتسابِ الفضائلِ والمزايا الَّتي ترفعُ بعضَ النّاسِ على بعضٍ[4]، وهذه كنايةٌ قريبةٌ، وهيَ كنايةٌ عن صفةٍ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 236.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 236.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 113.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 261.

نكتةُ عطفِ ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾:

تشعيبُ النّاسِ بعدَ خلقِهم مَدْعاةٌ إلى التَّعارفِ

عطْفُ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾ على قوله تعالى: ﴿خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾؛ لإتمام المقصودِ، وهو الحثُّ على تركِ التَّفاخرِ بالأنسابِ الَّذي يُفضي إلى التَّناحرِ والاقتتالِ وزرعِ الأحقادِ؛ لأنَّ الله شعَّبَهم؛ لأجلِ الوئامِ والتَّعارفِ، لا لأجلِ التَّفاخرِ.

غرضُ إسنادِ الجعلِ إلى ضميرِ العظمةِ:

تفصيلُ النّاسِ إلى فِرَقٍ أمرٌ باهرٌ عظيمُ الشَّأنِ

أُسنِدَ الجعلُ إلى ضميرِ العظمةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾؛ لأنَّ تفصيلَهم إلى فِرَقٍ أمرٌ باهرٌ، عظيمُ الشَّأنِ، لا يَصدُرُ إلّا عن العظيم ﷻ، فالتَّكلُّمُ أدخلُ في الاختصاصِ، وأدلُّ عليه، وأفخمُ، فعُبِّرَ فيهِ بنونِ العظمةِ، والمعنى: وجعَلْناكم بعظمتِنا[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالجعلِ دونَ الخلقِ:

الخَلْقُ أصلٌ، والجَعْلُ فَرْعٌ عنهُ

عُبِّرَ بالجعلِ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾، ولم يُعبَّرْ بالخلقِ كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾؛ لأنَّ الخلقَ أصلٌ تفرَّعَ عليهِ الجعلُ شُعوبًا، واعتبارُ الأصلِ متقدِّمٌ على اعتبارِ الفرعِ[2]، ولأنَّ الشَّعبَ والقبيلةَ لم يكونا في أصلِ الخِلْقةِ، بل هما صفتانِ عارضتانِ، فناسبَ لفظُ (جعلَ) بمعنى (صيَّرَ)[3].

غرضُ تنكيرِ ﴿شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾:

تنوُّعُ شعوبِ بني الإنسانِ وقبائلِهم

الظّاهرُ أنَّ تنكيرَ المُتعاطفيْنِ: ﴿شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾ للتَّنويعِ، أي: وجعَلْناكم شعوبًا وقبائلَ متنوِّعةً، وهذا تمكينٌ لمعنَى الاتِّساعِ والعمومِ الكائنِ في نَفْسِ معنَى الكلمتَيْنِ: ﴿شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾، وهذا إبلاغٌ في الكَشْفِ عن عظمة الخالقِ سبحانه وقدرته.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 382.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 113، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 168.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 45.

سرُّ الاقتصارِ على ذكرِ الشُّعوبِ والقبائلِ:

إذا عُرِفَ الأعلى؛ عُرِفَ الأدنى

اقتُصِرَ في قوله تعالى: "﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾ على ذِكْرِ الشُّعوبِ والقبائلِ؛ لأنَّ ما تحتَها - كالبطونِ وغيرِها - داخلٌ بطريقِ لحنِ الخطابِ[1]، ولأنَّهما أقصى ما يَسْهُلُ على الآدميِّ معرفتُهُ، فما دونَهُ أوْلى[2]، ولم يذكرِ القرآنُ الأممَ جريًا على المتداوَلِ في كلامِ العربِ في تقسيمِ طبقاتِ الأنسابِ؛ إذ لا يدركونَ إلّا أنسابَهم[3]، فليس الغرضُ هو التفصيلَ، فذُكِرَ ما يتناغى معَ المقصودِ مِن الآية، مِن التَّساوي في أصلِ الخَلْقِ، الدّاعي إلى التَّحلّي بالفضائلِ، والتَّخلّي عن الرَّذائلِ، وما ينبني على ذلكَ مِن أنَّ النَّسَب ليس جهة تفاضُلٍ، وإنَّما التَّقوى والأخلاقُ، فبالتَّحلّي بالفضائلِ يجتمعُ الخلْقُ، ويُقْبِلُ بعضُهم على بعضٍ، وبارتكابِ الرَّذائلِ يتشعَّب الخلْقُ، ويتفرَّقون، فاختيرَ: ﴿شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾؛ للتَّنبيه في لطفٍ إلى هذا المعنَى؛ تمهيدًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في ﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾:

تـعـارفُ الـنّـاسِ مستمرٌّ متجدِّدٌ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قوله ﷻ: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾؛ لأنَّ التَّعارُفَ مستقبلٌ بالنِّسبةِ للخلقِ، والمضارعُ يكونُ للاستقبالِ، كما يكونُ للحالِ، وللدَّلالةِ على استمرارِ التَّعارفِ وتجدُّده؛ نظرًا إلى عمومِ المُخاطَبِ واتِّساعِه على مَرِّ العُصورِ والأمصارِ والأجْناسِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

نكتةُ فصلِ: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾:

الـتَّـقـيُّ هـو المُستحِقُّ للفضلِ والمَفْخَرة

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّ الكلامَ السّابقَ كالموردِ للسُّؤالِ؛ وذلكَ أنَّهُ تعالى لَمّا علَّلَ الخَلْقَ بالتَّعارفِ، على معنى: ليسَ التَّشعُّبُ والقبائلُ للتَّفاضلِ والتَّفاخرِ، بل لأن يَعْرفَ بعضُ الخلقِ بعضًا، ويتميَّزَ شخصٌ مِن شخصٍ، كأنَّهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 259.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 382.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 259.

قيلَ: بأيِّ شيءٍ التَّفاخرُ؟ ومَنِ الَّذي يستحقُّ المفخرةَ؟ فقيلَ: مَن هو أتقى للّه، وأخشى لهُ[1]، فهذهِ الجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ تعليليٌّ[2]، والفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ.

غرضُ تتابع المؤكِّدات في ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾:

التَّقوى ميزانُ التَّفاضلِ يقينًا

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ بـ: ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ؛ للعنايةِ بمضمونه وتحقيقه؛ لأنَّهُ أمرٌ في غايةِ الأهمّيَّةِ، وفيهِ تقريرٌ لحقيقةٍ ثابتةٍ، وهي أنَّ التَّقوى ميزانُ التَّفاضلِ[3]، وهوَ أيضًا ناظرٌ إلى ما عندَ العَربِ وغيرهم مِن النّاسِ، مِن أنَّ الكرمَ إنَّما هوَ بالنَّسَبِ[4].

فائدةُ التَّعبيرِ بالعنديَّةِ في ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾:

لا اعتدادَ بكرمٍ لا يعبأُ اللّه بِهِ

معنى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ في حُكْمِ اللّه تعالى وقضائه[5]، وفي التَّعبيرِ بالعنديَّةِ تنبيهٌ على أنَّهُ لا اعتدادَ بكرمٍ لا يَعْبَأُ اللّه بهِ[6].

دلالةُ اسمِ التَّفضيلِ: ﴿أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾:

في صيغةِ التَّفضيلِ دعوةٌ إلى التَّنافُسِ، بما فيها مِن تفاوُتٍ

جيءَ باسمِ التَّفضيلِ في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾؛ لأنَّ التَّقوى مراتبُ، أدناها أن يجتنبَ العبدُ المَناهيَ، ويأتيَ بالأوامرِ، فإن ارتكبَ منهيًّا عنهُ؛ يُتبِعُهُ بحسنةٍ، ويظهرُ عليهِ ندامةٌ وتوبةٌ، ومتى ارتكبَ منهيًّا عنهُ، وما تابَ في الحالِ اتِّكالًا على طولِ الأملِ؛ فليسَ بمتَّقٍ، أمّا الأتقَى؛ فهو الَّذي يأتي بما أُمِرَ بِه، ويتركُ ما نُهيَ عنهُ، وهو معَ ذلكَ يخْشَى ربَّهُ، ولا يَشْتَغِلُ بغيره، فيُنَوِّرُ قلبَهُ[7]، وصيغةُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 375، والطيبي، فتوح الغيب: 14/ 506.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 147.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 382، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 123.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 236.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 147.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 262.
(7) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 115.

التَّفْضيلِ تعودُ على التَّكريم في قوله: ﴿أَكۡرَمَكُمۡ﴾ بإضافة معنًى، وهو أنَّ التَّكريمَ مراتبُ كالتَّقوى.

سرُّ الاقتصارِ على ذِكرِ التَّقوى:

التَّقوى مقدَّمةٌ على غيرِها مِنَ الفضائلِ

الاقتصارُ على ذكرِ التَّقوى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ لأهمّيَّتِها، وهو لا يُنافي أن تكونَ للنّاسِ مكارمُ أخرى في المرتبةِ الثّانيةِ بعدَ التَّقوى، ممّا يكونُ لهُ أثرٌ في تزكيةِ النُّفوسِ، كحُسْنِ التَّربيةِ، ونَقاءِ النَّسَبِ، والعلمِ والحضارةِ، وحُسْنِ السُّمعةِ في الأممِ والفضائلِ والعائلاتِ[1].

علَّةُ فصلِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾:

لا يعلمُ الكرامةَ الحقَّ إلّا الله

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ تعليليٌّ تذييليٌّ لمضمونِ جملةِ: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾، أي: إنَّما كانَ أكرمُكم أتقاكم؛ لأنَّ اللّٰه تعالى عليمٌ بالكرامةِ الحقِّ، وأنتم جعلتم المكارمَ فيما دونَ ذلكَ مِنَ البَطْشِ، وإفناءِ الأموالِ في غيرِ وجهٍ، خبيرٌ بمقدارِ حظوظِ النّاسِ مِنَ التَّقوى[2]، فالفصل لشِبْهِ كمال الاتِّصالِ، ويجوزُ أن يكونَ الفَصْلُ لكمالِ الاتِّصالِ بينَ الطَّرفيْنِ؛ لأنَّ معنَى كلٍّ منهما يلزمُ منه الآخَرُ، فالأوَّلُ يُنْتِجُ الثّاني، ويُمهِّدُ له، والثّاني يُؤكِّدُ الأوَّلَ، ويُحقِّقُه.

غرضُ تتابعِ المؤكِّداتِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾:

الفخرُ بالأنسابِ عادةٌ متوارَثةٌ

لمّا كانَ مركوزًا في طبائعِهم مُتوارثًا عندَهم أنَّ الفخرَ إنَّما هو بالأنسابِ، وأنَّ الكريمَ إنَّما هو مَنْ طابَ أصلُهُ؛ أكَّدَ قولُهُ تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ بـ: ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ؛ لاقتلاعِ ذلكَ مِن نفوسِهم[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 262.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 262 - 263.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 384.

براعةُ الكنايةِ للإيجاز في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾:

الله تعالى مطَّلعٌ على ما في النُّفوسِ، ومُحاسِبٌ عليهِ

قولُهُ جلَّ مِن قائلٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، كنايةٌ عن الأمرِ بتزكيةِ نيّاتهم في معاملاتِهم؛ وذلكَ لأنَّهُ يلزمُ مِن علم اللّه تعالى بما في نفوسِهم أنَّهُ يُحاسِبُهم عليهِ، وهذه المُحاسَبَةُ تَنطَوي على الأمرِ بالتَّزكيةِ المذكورةِ، وهذا أقربُ إلى أن يكونَ مِن مُستتبعاتِ التَّراكيبِ، لا مِن بابِ الكنايةِ، وهذا ضَرْبٌ مِن إيجازِ القِصَرِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخَلْقُ والذَّرْءُ والبَرْءُ:

الخلقُ مقترنٌ بالإظهارِ والبثِّ والتَّكثيرِ

أصلُ الخلقِ: التَّقديرُ المستقيمُ، ويُستعمَلُ في إبداعِ الشَّيءِ مِن غيرِ أصلٍ ولا مثالٍ سابقٍ، وفي إيجادِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ، والمعنى الثّاني قد يُضافُ لغيره تعالى[1]، والبَرْءُ: تمييزُ الصّورةِ، ومعنى: (برأ اللّه الخلقَ): ميَّزَ صوَرَهم[2]، وأصلُ الذَّرْءِ: الإظهارُ، ومعنى: (ذرأ اللّه الخلقَ): أظهرَهم بالإيجادِ بعدَ العدمِ[3]، ويُلحَظُ فيهِ معنى البَثِّ والتَّكثيرِ.

والحاصلُ أنَّ هذهِ الألفاظَ الثّلاثةَ تشتركُ في معنى الإيجادِ مِنَ العَدَمِ، وينفردُ الذَّرْءُ والبَرْءُ بأنَّهما لا يُضافانِ لغيره سبحانَهُ، وأمّا الخَلْقُ؛ فقد يُضافُ لغيره تعالى؛ إذا كانَ بمعنى إيجادِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ.

وقد عُبِّرَ بالخَلْقِ في الآيةِ؛ لأنَّهُ الأشهرُ، وهو يكونُ قبلَ تمييزِ الصّورةِ والإظهارِ، والبثُّ والتَّكثيرُ يَحْصُلانِ بما ذُكِرَ بعدَهُ، من جعْلِهم شعوبًا وقبائلَ.

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلق).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 138.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 138، والراغب، المفردات: (ذرأ).

﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ [الحجرات: 14]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الإخلاصُ شرطُ الاعتدادِ بالعملِ

لمّا أمرَ ﷻ بإجلالِ رسوله ﷺ ونهى عن أذاهُ في نفسه، أو في أمَّته، ونهَى عن التَّفاخرِ ونحوه، وختمَ بصفةِ الخبر؛ بيَّنَ أنَّهُ لا يُعتدُّ بشيءٍ ممّا أُمِرَ بِه، أو نُهِيَ عنهُ إلّا معَ الإخلاصِ(1).

ومن المناسبة أيضًا أنها بيانُ بعضِ مَن تركَ التَّقوى، مع ادِّعائِها اتِّباعًا للهوى(2).

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ﴾: (عرب) أصلٌ يدلُّ على الإفصاح(3) والإبانةِ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: أعربَ الرَّجلُ، أي: أفصحَ القولَ والكلامَ وبيَّنَهما(4)، والإعرابُ: الإبانةُ والإفصاحُ عن الشَّيءِ(5)، والعربيُّ: الفصيحُ البيِّنُ من الكلام، وعرَّب عن الرَّجل: تكلَّم بحجَّته، والعربُ: جيلٌ من الناس معروفٌ، خلافُ العجم(6)، والأعرابُ: سكّانُ الباديةِ، وهم البَدْوُ(7)، وهو المرادُ هنا(8).

2) ﴿أَسۡلَمۡنَا﴾: (سلم) أصلٌ يدلُّ على الصِّحَّةِ والعافيةِ(9)،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 385.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 150.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرب).
(4) الخليل، العين: (عرب).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (عرب).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (عرب).
(7) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (عرب).
(8) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 146، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 264.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلم).

والتَّعرّي مِنَ الآفاتِ الظّاهرةِ والباطنةِ، قالَ تعالى: ﴿بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء: 89]، أي: متعرٍّ من الدَّغَلِ، فهذا في الباطن، وقال تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ [البقرة: 71]، فهذا في الظاهر، وقال: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦﴾ [الحجر: 46]، أي: سلامةٍ[1]، والتَّسليمُ: التَّحيَّةُ بالسَّلام[2]، أي: الأمانِ والسَّلامةِ، ومنهُ أيضًا: الإسلامُ، وهو الانقيادُ[3]؛ لأنَّهُ يَسْلَمُ مِنَ الإباءِ والامتناعِ[4]، والمراد بـ﴿أَسۡلَمۡنَا﴾ هو إظهارِ الشهادتينِ بدخولهم في السِّلم[5].

3) ﴿لَا يَلِتۡكُم﴾: (ألت) أصلٌ يدلُّ على النُّقصانِ[6]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: أَلَتَهُ حقَّهُ يَأْلِتُهُ أَلْتًا: نَقَصَهُ إيّاهُ[7]، ويقالُ: أَلَتَهُ السُّلطانُ حقَّهُ أشدَّ الأَلْتِ[8]، وقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾، أي: ما نقصناهم[9]، ومعنى ﴿لَا يَلِتۡكُم﴾ لا يَنْقُصْكم[10] ولا يَظلمكم، ويقال: ألاتَهُ يَليتُهُ، وأَلَتَهُ عن وجهه، أي: حبسَهُ وصرفَهُ، والأُلْتَة: العطيَّةُ القليلةُ[11]، والمرادُ بعدمِ الألْتِ هنا: عدمُ النَّقصِ.

المَعنى الإجماليُّ:

يحثُّ اللّه تعالى بعضَ الأعرابِ على الإخلاصِ في الإيمانِ، فيقولُ: قالتِ الأعرابُ: صدَّقنا باللّه ورسوله، قل يا محمَّدُ لهم: لستُم أهلَ إيمانٍ، ولكن قولوا: أسلَمنا، ولمّا يدخل العلمُ بشرائعِ الإيمانِ وحقائقِ معانيهِ في قلوبكم، وإن تأتمروا لأمرِ اللّه وأمرِ رسوله، وتعملوا

مَنِ ادَّعى الإيمانَ دونَ تحقُّقٍ؛ فليسَ بمؤمنٍ

(1) الراغب، المفردات: (سلم).
(2) الرازي، مختار الصحاح: (سلم).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (سلم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلم).
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 376، والمراغي، تفسير المراغي: 26/ 145.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ألت).
(7) الجوهري، الصحاح: (ألت).
(8) الزمخشري، الكشاف: 4/ 377.
(9) الزبيدي، تاج العروس: (ألت).
(10) الراغب، المفردات: (ليت)، والمراغي، تفسير المراغي: 26/ 145.
(11) الزبيدي، تاج العروس: (ألت).

بما فرضَ عليكم، وتنتهوا عمّا نهاكم عنهُ؛ لا يَنْقُصْكم مِن ثوابِ أعمالِكم شيئًا، إنَّ اللّه ذو عفوٍ لِمَن أطاعَهُ، وتابَ إليهِ، رحيمٌ بخلقه التّائبينَ إليهِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾:

الحثُّ على الإخلاصِ في الإيمانِ

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ عمّا قبلَه؛ لأنَّهُ استئنافُ كلامٍ جديدٍ؛ للحثِّ على الإخلاصِ في الإيمانِ، فهو استئنافٌ ابتدائيٌّ، ويجوزُ أن يكونَ الفَصْلُ لِما بينَ هذه الآيةِ وجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ مِن كمالِ اتِّصالٍ، فإنَّ الثّانيَ مِثالٌ تفصيليٌّ للأوَّلِ، فهو بيانٌ وإيضاحٌ له، ودليلٌ عليه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿قَالَتِ﴾:

قولُ الأعرابِ لازمٌ لهُم

جيءَ بفعلِ القولِ ماضيًا في قولِ الباري ﷻ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا القولَ قد مضَى، وتحقَّقَ صدورُهُ عنهم، بحيثُ لا يَسَعُهم إنكارُهُ، وفي ذلكَ مزيدُ تسجيلٍ عليهم؛ إبلاغًا في ترهيبهم، وهذا ناظِرٌ إلى كونِ اللّه عليمًا خبيرًا.

وجهُ تأنيثِ الفعلِ ﴿قَالَتِ﴾:

ضعفُ عزائمِ قائلي القولِ المذكورِ

أُنِّثَ فعلُ القولِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾؛ لأنَّ لفظَ الأعرابِ جمعٌ، فيجوزُ اعتبارُ التَّأنيث فيهِ[2]، أي: قالت جماعة الأعراب، فهذا حَملٌ على اللَّفظِ، وهي علَّةٌ مُصحِّحةٌ، والعلَّةُ المُرجِّحةُ الإشارةُ إلى ضعفِهم في العزائمِ[3]، والتَّنبيهُ على قلَّةِ عقولِهم[4]، وإيقاعُ التَّأنيثِ في نَفْسِ المُتلقّي أنَّ في مقولِ القولِ خللًا

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 313.

(2) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 81.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 385.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 317.

ونقصًا وضعفًا، وأنَّ القرآنَ سيُعالجهُ بعد قليل؛ جريًا على عادته في مثْلِ ذلك، فهو تمهيدٌ بيانيٌّ نفسيٌّ[1].

نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ﴾:

القولُ المذكورُ خاصٌّ ببني أسدٍ

تعريفُ الأعرابِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ﴾، تعريفُ العهدِ لأعرابٍ معيَّنين[2]، وهم بنو أسدٍ، فليسَ هذا الحكمُ الَّذي في الآيةِ حاقًّا على جميعِ سكّانِ البوادي، ولا قالَ هذا القولَ غيرُ بني أسدٍ[3]، فهو للعهد الذِّهنيِّ الخاصِّ.

بلاغةُ التَّعبير بصيغةِ الماضي في ﴿ءَامَنَّاۖ﴾:

ما في وُسْعهم غير ادِّعاء أصل الإيمان

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري جلَّ ذكرُهُ: ﴿ءَامَنَّاۖ﴾؛ للتَّنبيهِ على ادِّعاءِ الأعرابِ تحقُّقَ صدورِ الإيمانِ منهم، وأنَّهُ أمرٌ قد مضى، فهذا ما وسعته أنفسُهم؛ لأنَّهُم غيرُ صادقينَ؛ فلذلكَ لم يدَّعوا كمالَ الإيمانِ، ورسوخَه فيهم، فلم يقول: (نحن مؤمنون) بالجملة الاسميَّة؛ لأنَّ أنفُسَهُم لا تُساعدُهم على ذلكَ.

علَّةُ التَّعبيرِ بالإيمانِ:

ادِّعاءُ الإيمانِ علَّةُ حقِّيَّةِ الافتخارِ

عبَّرَ الأعرابُ بالإيمانِ في قولِهم: ﴿ءَامَنَّاۖ﴾؛ توطئةً لادِّعاءِ شرفهم على غيرِهم مِن النّاسِ، فهُم آمنوا بما جاءَ به الرَّسولُ محمَّدٌ ﷺ ثمَّ لهُم بعدَ ذلكَ شريفُ النَّسَبِ، فحُقَّ لهم الافتخارُ، والمعنى: "﴿ءَامَنَّاۖ﴾ أي: بجميعِ ما جئتَ به، فامتثلْنا ما أُمِرْنا به في هذهِ السّورة، ولنا النَّسَبُ الخالِصُ، فنحنُ أشرفُ مِن غيرِنا مِن أهلِ المَدَرِ"[4].

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾:

تعليمُ النَّبيِّ ما يردُّ بهِ على الأعرابِ

فُصِلَ قولُهُ جلَّ ذكرُهُ: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ عمّا قبلَه؛ لأنَّهُ استئنافٌ

---

(1) طه السيد السيسي، البلاغة القرآنية في تفسير البقاعي التذكير والتأنيث أنموذجًا دراسة موازنة - معجم بلاغي: 2/ 1006.

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 541.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 264.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 238.

بيانيٌّ؛ إذ هو جوابُ سؤالٍ يُثيرُه قولُه تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ﴾، وهوَ فما مدى صحَّة قولهم، هل صدقوا؟ أم كذبوا؟ ففيه تعليمُ النَّبيِّ ﷺ ما ينبغي عليهِ أن يقوله في الرَّدِّ على كلامِ الأعرابِ، أي: قل ردًّا لهم: لم تُؤمِنوا إلخ[1].

تعيينُ المخاطَبِ بـ ﴿قُل﴾:

النَّبيُّ ﷺ هو المبلِّغُ عن الله

الخطابُ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ للنَّبيِّ ﷺ إذ هو المكلَّفُ بتبليغِ الشَّرعِ، ولأنَّ الإيمانَ الَّذي هو التَّصديقُ بالقلبِ لا اطِّلاعَ عليه لآدميٍّ إلّا بإطلاعِه سبحانه[2]، فكذلك كذبُهم، ورسولُ اللّه هو المُبلِّغُ الأوَّلُ عن اللّه، ويجري في حُكْمِه أهلُ العِلمِ والبصيرةِ الَّذين هم محلُّ إلهاماتِ اللّه تعالى، وفي كونِ الخطابِ له ﷺ رأسًا وقَصْدًا ولأهلِ العِلْمِ والتَّقوى تبَعًا إشارةٌ إلى أنَّ الخطابَ بمِثْلِ المذكورِ في حيِّزِ القولِ مِن الأهمّيَّةِ بمكانٍ، وأنَّه ينبغي أن يكونَ محلَّ نظرٍ ورعايةٍ ومراقبةٍ مِن أهلِ الفَضْلِ على الاستمرارِ والدَّوام، وأنَّ الرَّدَّ على مِثْلِ قولِ الأعرابِ يفتقرُ إلى قوَّةٍ وجرْأةٍ وثقةٍ وما جَرَى في هذا الطَّريقِ مِن المعنَى، كالَّذي توفَّرَ للمخاطَبِ.

دلالةُ الأمرِ في ﴿قُل﴾:

وجوبُ تبليغِ النَّبيِّ ﷺ ما أُمِرَ بِهِ

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ للوجوب؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا مقتضيَ للعدولِ عنهُ، فيفيدُ وجوبَ تبليغِ النَّبيِّ ﷺ هذا القولَ لهم، وإفادة وجوبِ تبليغِه بالأمر يعني أنَّ تحقيقَه مطلوبٌ ومرغوبٌ فيه بقوَّةٍ.

علَّةُ نفي الإيمانِ في ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾:

الإيمانُ يقتضي الانقيادَ دونَ مِنَّةٍ

نُفيَ الإيمانُ عن الأعرابِ المذكورينَ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾؛ لأنَّ الإيمانَ تصديقٌ مع ثقةٍ وطمأنينةِ قلبٍ، ولم يحصل

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 123.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 238.

لهم ذلكَ، وإلّا لَما منّوا على الرَّسولِ ﷺ بالإسلامِ وتركِ المقاتلةِ[1]، فإنَّ مَن صدَّقَ اللّٰه ورسوله، وعرفَ أنَّ الإيمانَ أمرٌ واجبٌ عليه، مُنقذٌ لهُ مِنَ العذابِ، وموصِلٌ لسعادةِ الدّارينِ؛ عرفَ أنَّ المِنَّةَ للّٰه لا لهُ[2].

دلالةُ الأمرِ في ﴿قُولُوٓاْ﴾:

لا ينبغي للأعرابِ ادّعاءُ مرتبةٍ لم يصلوا إليها

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا صارفَ عنهُ، فيفيدُ الكلامُ أنَّهم يجبُ عليهم أن يقتصروا على قولِهم: ﴿أَسۡلَمۡنَا﴾، دونَ ادّعاءِ الإيمانِ الَّذي لم يتحقّق فيهم بَعدُ، وإبرازُ وجوبِ قولِه بصيغةِ الأمرِ؛ لبيانِ عظيمِ الرَّغْبةِ فيه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿أَسۡلَمۡنَا﴾:

الإنصافُ في حالِ التَّعليمِ والتَّأديبِ خُلُقٌ جِدُّ جميلٍ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَسۡلَمۡنَا﴾؛ لأنَّ إظهارَهم الإسلامَ أمرٌ قد مضى، وتحقَّقَ، فيُخبَرُ عنهُ، كما يُخبَرُ عن الحوادثِ الماضيةِ، وفي هذا مدْحُهُم وإنصافُهم، فيتحرَّكون نَحوَ الإيمانِ؛ ليُحقِّقوه، كما حقَّقوا الإسلامَ.

علَّةُ التَّعبيرِ بالإسلامِ:

إيضاحُ الفُروقِ مَسْلكٌ تأديبيٌّ تربويٌّ

عُبِّرَ بالإسلامِ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾؛ لأنَّهُ الأنسبُ بحالِ الأعرابِ، فإنَّ مَقَرَّهُ اللِّسانُ والأعمالُ البدنيَّةُ، وهي قواعدُ الإسلامِ الأربعةُ: الصَّلاةُ، والزَّكاةُ، وصيامُ رمضانَ، والحجُّ، فأنبأهم اللّٰه بما في قلوبِهم، وأعلمَهم أنَّ الإيمانَ هو التَّصديقُ بالقلبِ، لا بمجرَّدِ اللِّسانِ؛ ليُخلِصوا إيمانَهم، ويتمكَّنوا منهُ[3].

دلالةُ الواوِ في ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾:

ادِّعاءُ الإيمانِ مشروطٌ بموافقةِ القلبِ اللِّسانَ

الواوُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ حاليَّةٌ، والجملةُ حالٌ مِن ضميرِ: ﴿قُولُوٓاْ﴾، وهيَ مُقيِّدةٌ لقولِهم ذلكَ،

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 137، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 123.

(2) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 81.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 264.

ومخصِّصةٌ لهُ ببعضِ الأحوالِ، أي: ولكنْ قولوا: أسلَمنا حالَ كونِكم غيرَ مصدِّقينَ بقلوبِكم، ومخالفةً ألسنتُكم قلوبَكم[1]، ومعنى المُغايرة لا يبرَح الواوَ، فهي تفيدُ أنَّ ما بعدَها مِن الحالِ كأنَّه خبرٌ مستقلٌّ؛ احتفالًا به، وإبلاغًا في طلبِ تحقيقهم الإيمانَ؛ لأنَّ كلًّا مِن قولِه تعالى: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾، وقولِه سبحانه: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ يدعوهم في لُطْفٍ إلى ذلكَ أيضًا، فهذه الحالُ مُؤكِّدةٌ لِما قبلَها.

علَّةُ التَّعبيرِ بالدُّخول:

الإيمانُ الحقُّ هو ما يستقرُّ في القلبِ

استُعيرَ الدُّخولُ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾؛ للتَّمكُّنِ وعدمِ التَّزلزلِ؛ لأنَّ الدّاخلَ إلى المكانِ يتمكَّنُ، ويستقرُّ، والخارِجَ عنهُ يكونُ سريعَ المفارَقةِ لهُ، مُتهيِّئًا للانصرافِ عنهُ[2]، ونفيُ التَّمكُّنِ جاءَ بعدَ نفي تحقُّقِ أصلِ الإيمانِ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّهم يُطلب منهم أن يُحقِّقوا أصلَ الإيمانِ، وأن يترقَّوا فيه؛ حتَّى يستقِرَّ، ويتمكَّنَ في قلوبِهم، ونفيُ الدُّخولِ ألصقُ بنفيِ أصلِ الإيمانِ في قولِه: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾، وهو أبلغُ في تحريكِهم نحوَ الإيمانِ؛ اعتقادًا وعملًا، وعلى هذا تكونُ البُشْرَى بإيمانهم في المستقبلِ.

نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلۡإِيمَٰنُ﴾:

قلوبُ الأعرابِ خاليةٌ مِن حقيقةِ الإيمانِ عندَ نُزولِ الآيةِ

تعريفُ الإيمانِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ للجنسِ المرادِ منهُ الحقيقةُ، فتفيدُ الآيةُ أنَّ قلوبَ الأعرابِ المذكورينَ كانَت خاليةً مِن حقيقةِ الإيمانِ الكاملِ وقتَ نزولِ هذهِ الآيةِ، فلم يكُن فيها شيءٌ مِن إيمانٍ.

معنى ﴿فِي﴾، ودلالة التَّعبير بها:

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قوله

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 137، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 149.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 265.

القلبُ مَحَلُّ الإيمانِ، فينبغي أن يكونَ مَحَلَّ نَظَرٍ وإصلاحٍ

جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ على أنَّ القلوبَ محلُّ الإيمانِ الكاملِ المقرونِ بموافقةِ اللِّسانِ لهُ، ووراءَ هذا مِن المعنى ترغيبُهم في إصلاحِ قلوبِهم، والاعتناءِ بها، فلا يليقُ بها أن يجتمعَ الإيمانُ والتَّفاخُرُ بالنَّسَبِ ونَحْوُهُ مِمّا نهَى عنه الشَّرعُ عمومًا، ونهَت عنه هذه السّورةُ خصوصًا.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿قُلُوبِكُمۡۖ﴾:

الإبلاغُ في طلبِ مزيدِ عنايةٍ بقلوبِهم

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ بمعنى اللّامِ، أي: في قلوبٍ لكم، وفي ذلكَ مزيدُ تسجيلٍ عليهم بأنَّ القلوبَ الَّتي لم يدخل الإيمانُ فيها، هي قلوبُهم لا قلوبُ غيرِهم، وفي ذلكَ إبلاغٌ في عطفِهم على الإيمانِ، وتحريكِ قلوبِهم نحْوَه.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَإِن تُطِيعُواْ﴾:

بيانُ طريقِ تحقُّقِ الإيمانِ

لمّا كانَ التَّقديرُ: فإن تُؤمِنوا؛ يعلم اللهُ ذلكَ مِن قلوبِكم غنيًّا عن قولِكم؛ عُطِفَ عليهِ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾، وفي ذلكَ ترغيبٌ لهم في التَّوبةِ، وإرشادٌ إلى دواءِ مرضِ الحالِ في قلوبِهم، مِن ضعفِ الإيمانِ، بأنَّه إن يُطيعوا اللهَ ورسولَه؛ حصَل إيمانُهم، فهذا بيانُ طريقِ تحقُّقِ الإيمانِ لهم مِن بعدِ تحريكِهم نحوَه[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بـ: (إنْ):

اللهُ غنيٌّ عن طاعةِ عبادِه

أُتيَ بـ (إنْ) دونَ (إذا) في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾، معَ أنَّ (إذا) أَنْسَبُ بتحقُّقِ الطّاعةِ المطلوبةِ منهم؛ للإشارةِ إلى كمالِ استغناءِ اللهِ تعالى عنهم[2]، ويُؤيِّدُ هذا قولُه تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 387، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 267.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 50.

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، فاللّه علِمَ فيهم المَنَّ المذكورَ، فعلَّمَهُم أنَّه غنيٌّ عنهم وعن إيمانهم بالكُلّيَّة.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿تُطِيعُواْ﴾:

في المضارعة إقبالٌ على الطّاعةِ بمحبَّةٍ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾؛ لأَنَّ: (إِنۡ) لتعليقِ حصولِ مضمونِ الجزاءِ بحصولِ مضمونِ الشَّرطِ في المستقبلِ، وذلكَ يناسبُهُ المضارعُ الَّذي يمكنُ أن يدلَّ على الاستقبالِ، وفي هذا إرشادٌ لهم إلى تحقيقِ الطّاعةِ للّه ورسولِه على جهة التَّجدُّدِ، في كلِّ حادثةٍ تتجدَّدُ لهم، وفي كلِّ شأنٍ مِن شؤونهم، وأن تكون هذه الطّاعةُ حيَّةً في نفوسهم وقلوبهم.

علَّةُ التَّعبيرِ باسمِ الجلالةِ:

في التَّعبيرِ به حثٌّ على الطّاعةِ

أوثِرَ اسمُ الجلالةِ دونَ غيره في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾؛ لدلالته على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، الَّتي توجبُ طاعتَهُ والامتثالَ لأمره، والمعنى: وإن تُطيعوا المَلِكَ العظيمَ ورسوله إلخ[1]، فهو تعليلٌ في المعنى لطلبِ الطّاعةِ؛ بدلالة نظمها فِعْلَ شرطٍ، ولدلالة التَّعبيرِ، مِن الاستغناءِ عنهم وعن طاعتهم.

دلالةُ عطفِ الرَّسولِ على اسمِ الجلالةِ:

طاعةُ الرَّسولِ من طاعةِ الله

عُطِفَ الرَّسولُ على اسم الجلالةِ في قوله تعالى شأْنُهُ: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾؛ للتَّنبيهِ على أهمّيَّةِ طاعته ﷺ وأنَّها من طاعةِ اللّه تعالى، وهي عندَهُ بمكانٍ[2]، وذِكْرُ الرَّسولِ هو المقصودُ بالأصالةِ، وذِكْرُ اسمِ الجلالةِ معَه؛ لتعظيمِ طاعته، وشديدِ التَّرغيبِ فيها.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 387.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 387.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾:

مَن أُضيفَ إلى الله؛ فهو الجديرُ بالانتسابِ إلى دينِه

إضافةُ الرَّسولِ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى اسم الجلالةِ في قوله ﷻ: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾؛ لتشريفِ الرَّسولِ، وتعظيمِ شأنه؛ إذ عظمةُ الرَّسولِ مِن عظمةِ المُرسِلِ ﷻ، وهذا إرشادٌ إلى شرَف الانتسابِ إلى رسولِ اللّه ﷺ بطاعته، فنسبُه نسبُ الدّين؛ لأنَّ الانتسابَ إليه انتسابٌ إلى اللّه، أي: إلى دينِه، فالإضافةُ تنظُر إلى مسألة التَّفاخُرِ بالنَّسَبِ، وتُصحِّحُها لهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالألْتِ في ﴿لَا يَلِتۡكُم﴾:

سَعَةُ فضلِ الله مع تأخُّرِ طاعةِ العبدِ

عُبِّرَ بالألتِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾؛ لدلالته على النَّقصِ، أي: لا يَنْقُصْكم، والمرادُ أنَّكم إذا أتيتم بما يليقُ بضعفِكم مِنَ الحسنةِ؛ فهو يُؤتيكم ما يليقُ به مِنَ الجزاءِ؛ لأنَّ مَن حملَ إلى مَلِكٍ فاكهةً طيِّبةً يكونُ ثمنُها في السّوقِ درهمًا، وأعطاهُ المَلِكُ درهمًا أو دينارًا؛ يُنسَبُ المَلِكُ إلى قلَّةِ العطاءِ بل البخلِ، فليسَ المرادُ هنا أنَّهُ يُعطي مِثلَ ذلكَ مِن غيرِ نقصٍ، بل المرادُ أنَّهُ يُعطي ما تتوقَّعونَ بأعمالِكم مِن غيرِ نقصٍ، وفي ذلكَ تحريضٌ على الإيمانِ الصّادقِ؛ لأنَّ مَن أتى بفعلٍ مِن غيرِ صدقِ نيَّةٍ يضيعُ عملُه، ولا يُعطَى عليهِ أجرًا، فقالَ: وإن تُطيعوا، وتُصدِّقوا لا يَنقُصكم، فلا تُضيِّعوا أعمالَكم بعدمِ الإخلاصِ، وفيهِ أيضًا تسليةٌ لقلوبِ مَن تأخَّرَ إيمانُهُ، كأنَّهُ يقولُ: غيري سبقَني وآمنَ حينَ كانَ النَّبيُّ ﷺ وحيدًا، وآواهُ حينَ كانَ ضعيفًا، ونحنُ آمنّا عندَما عَجَزْنا عن مقاومته، وغلبَنا بقوَّته، فلا يكونُ لإيماننا وقعٌ، ولا لنا عليهِ أجرٌ، فقالَ تعالى: إنَّ أجرَكم لا يَنْقُصُ، وما تتوقَّعونَ؛ تُعطَونَ، غايةُ ما في الأمرِ أنَّ التَّقدُّمَ يزيدُ في أجورِهم(1).

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 117.

سرُّ إفرادِ الفعلِ: ﴿لَا يَلِتۡكُم﴾:

الله وحدَهُ متولّي الجزاءِ

ضميرُ الرَّفعِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَلِتۡكُم﴾ عائدٌ إلى اسم الجلالةِ، ولم يقل: (لا يَلِتاكم - يَأْلِتاكم)، بضميرِ التَّثنيةِ؛ لأنَّ اللّه تعالى هو مُتولّي الجزاءِ، دونَ الرَّسولِ ﷺ ففيه تحديد الفرق بين الخالقيَّة والمخلوقيَّة في أسمَى صورِها، لا سيَّما أنَّ الأعرابَ لَمّا يدخُلِ الإيمانُ في قلوبهم[1].

معنى ﴿مِّنۡ﴾ وفائدةُ التَّعْبيرِ بها:

التَّشويقُ بـ (مِن) حاصلٌ على غيرِ المألوفِ في موقعِها

كلمة ﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا﴾ بيانيَّةٌ، بقرينة قوله: ﴿شَيۡـًٔا﴾ وقد قُدِّمَ البيانُ - وهو ﴿مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ﴾ - على المبيَّن، وهو ﴿شَيۡـًٔا﴾، وفائدةُ البيانِ رفْعُ الإبهامِ الَّذي تشتملُ عليهِ كلمةُ ﴿شَيۡـًٔا﴾، لكنَّ هذه الوظيفةَ إنَّما تتمُّ على وجهها إذا كانَ المُبيَّنُ مُقدَّمًا على المبيِّنِ على الأصلِ، ولكنَّ الحاصلَ في النَّظْم هو العكسُ، فكانَ في ﴿مِّنۡ﴾ زيادةٌ في التَّشْويقِ إلى معرفةِ المُبيَّن، وأَصلُ التَّشويقِ حاصلٌ بعكسِ التَّرتيبِ.

غرضُ تقديمِ ﴿مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ﴾:

صيانةُ أعمالِ المخاطَبينَ مِنَ النَّقصِ محطُّ الاهتمامِ

قُدِّمَ قولُه: ﴿مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ﴾ على قولِه: ﴿شَيۡـًٔا﴾ في قوله تعالى ذكرُهُ: ﴿لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا﴾، معَ أنَّ الأصلَ تأخيرُ البيانِ عن المُبَيَّنِ؛ للعنايَةِ بإيقاعِ عدمِ النَّقْصِ على أعمالِ المخاطَبينَ، وفي ذلكَ مَزيدُ حثٍّ لهم على الإخلاصِ في الإيمانِ، وعلى الطّاعةِ للّه ورسوله، وفي التَّقديمِ أيضًا مُبادرةٌ إلى إخبارِهم بالمطلوبِ؛ مراعاةً لِما فيهم مِن طَبْعِ الاستعجالِ.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿أَعۡمَٰلِكُمۡ﴾:

إضافةُ الأعمالِ إلى ضميرِ المخاطَبينَ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿لَا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 266.

عدمُ نقصِ عملِ العاملِ مِن دواعي الامتثالِ

يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾ بمعنى اللّام، أي: مِن أعمالٍ لكم، وفي ذلكَ تأكيدٌ لكونِ النَّقصِ لا يَسْري إلى الأعمالِ المتعلِّقةِ بهم، فيَقْوَى بذلكَ دافعُ الامتثالِ.

دلالةُ جمعِ القِلَّةِ في ﴿أَعۡمَٰلِكُمۡ﴾:

تعدُّدُ الأعمالِ بتعدُّدِ المخاطَبينَ وتنوُّعها

جُمِعَتِ الأعمالُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾؛ لأنَّها مُتعدِّدةٌ بتعدُّدِ المخاطَبينَ، فلكلِّ مخاطَبٍ عملُهُ، وفي الجمعِ أيضًا إشارةٌ إلى تنوُّعِ الأعمالِ؛ إذ العادةُ أنَّ الإنسانَ يَطْرُقُ كثيرًا مِن أبوابِ الخيرِ، ولا يقتصرُ على بابٍ واحدٍ، ففي الجَمعيَّةِ اعتدادٌ بأعمالِهم جميعًا، وترغيبٌ لكلِّ فردٍ منهم في الإكثارِ مِن الأعمالِ الَّتي يُثاب عليها، وفي كونِه جَمعَ قِلَّةٍ تمكينٌ وتحقيقٌ لمعنَى الجملةِ، فمهما عملوا مِن قليلٍ مِن الأعمالِ؛ فإنَّ اللّٰه لا يَلِتهم، ولا يَأْلِتهم منها شيئًا.

بلاغةُ الاحتباكِ في الآيةِ:

التَّرغيبُ في الطّاعةِ بعدَ نفيِ أساسِ الخيرِ

في قوله تعالى: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾ احتباكٌ، وذلكَ أنَّ ذكرَ عدمِ الإيمانِ أوَّلًا دليلٌ على إثباته ثانيًا، وذِكْرَ حفظِ الأعمالِ مِنَ النَّقصِ ثانيًا دليلٌ على بخسِها أو إحباطِها أوَّلًا، وسرُّهُ أنَّهُ نفَى أساسَ الخيرِ أوَّلًا، ورغَّبَ في الطّاعةِ بحفظِ ما تَعِبوا عليهِ مِنَ الأعمالِ ثانيًا[1].

غرضُ تنكيرِ ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾:

التَّنْكيرُ مِن بابِ التَّنْبيهِ على الأدنَى بالأعلى

تنكيرُ كلمةِ ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾؛ للتَّحقيرِ والتَّقليلِ، أي: شيئًا قليلًا وحقيرًا[2]، فكيفَ بالكثيرِ والعظيمِ؟ فهو إمعانٌ في تقريرِ مضمونِ الجملةِ، وتوكيدِه، وهذا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 387.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 150.

التَّنكيرُ ناظِرٌ إلى قراءةِ: ﴿يَلِتۡكُم﴾، ويَحْتملُ أن يكونَ التَّنكيرُ للتَّعميمِ؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفيِ تعمُّ، أي: شيئًا مِنَ الأشياءِ، ومآلُ الوجهَيْنِ واحدٌ عندَ التَّأمُّلِ.

نكتةُ فصلِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

مَن وسِعَت رحمتُهُ كلَّ شيءٍ؛ يتجاوز عن سيِّئاتِ عباده؛ إذا تابوا

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ استئنافُ تَعْليمٍ لهُم بأنَّ اللّه يتجاوَزُ عَن كذِبِهم؛ إذا تابوا، وفيهِ ترغيبٌ لهُم في إخلاصِ الإيمانِ[1]، وهوُ استئنافٌ بيانيٌّ، على أنّه جوابُ سُؤالٍ يُثيرُه قولُه تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾، والأعمالُ هنا هي الصّالحة بقرينة: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، والسُّؤالُ هو: فماذا يفعلُ اللّه معنا إذا زلَّت بنا القَدَمُ؟ فكان الجوابُ بهذه الجملةِ، ويَحتمِلُ أن يكونَ الاستئنافُ بيانيًّا تعليليًّا؛ لعدمِ نقصِ أعمالِهم، والمعنى: لا يَنْقُصكم مِن أعمالِكم شيئًا؛ لأنَّهُ غفورٌ رحيمٌ.

غرضُ توكيدِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾:

المغفرةُ والرَّحمةُ الواسعتانِ مِن صفاتِ اللهِ وحدَهُ

أُكِّدَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ؛ لزيادةِ حثِّهم على التَّوبةِ، وللتَّنبيهِ على أنَّ مضمونَ الجملةِ ممّا يحقُّ تأكيدُهُ؛ لأنَّ الخلائقَ لا يفعلونَ مِثله[2]، فقد يستغربونَهُ، أو يستعظمونَهُ، وفي التَّأكيدِ تنبيهٌ على أنَّهُ حقيقةٌ ثابتةٌ.

غرضُ تقديمِ المغفرةِ على الرَّحمةِ:

الرَّحمةُ أصلُ المغفرة

قدَّمَ القرآنُ قولَه: ﴿غَفُورٞ﴾ على قولِه: ﴿رَّحِيمٌ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾؛ لأنَّ الرَّحمةَ أصلٌ للمغفرةِ، وشأنُ العلَّةِ أن تورَدَ بعدَ المعلَّلِ بها[3]، وترتيبُهما جارٍ على جهةِ الإحسانِ إلى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 266.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 388.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 266.

الأعرابِ وغيرِهم؛ إبلاغًا في ترغيبِهم في الإيمانِ، وألّا يَخافوا مِن الوقوعِ في الزَّلّاتِ، والمعنى على هذا: "﴿غَفُورٌ﴾، أي: سَتورٌ للهفَواتِ والزَّلّاتِ لِمَن تابَ، وصحَّت نيَّتُه، ولغيرِه إذا أرادَ، فلا عتابَ ولا عقابَ ﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: يزيدُ على السِّترِ عظيمَ الإكرامِ"[1].

الفروقُ المعجميَّةُ:

القلوبُ والأفئدةُ:

القلوبُ مواطنُ الاعتقاداتِ والعزمِ والتَّمكُّنِ

الفؤادُ كالقلبِ، لكن يقالُ لهُ: فؤادٌ؛ إذا اعتُبِرَ فيهِ معنى التَّوقُّدِ، يقالُ: فَأَدْتُ اللَّحمَ، أي: شَوَيْتُهُ، ولَحْمٌ فَئِيدٌ، أي: مَشْويٌّ[2]، والفؤادُ ألْيَنُ مِنَ القلبِ؛ ولذلكَ يكونُ مَحَلًّا للعواطفِ، ولِما خفَّ شأنُهُ، ويكونُ القلبُ مَحَلًّا لِما عَظُمَ شأنُهُ، مِنَ العَزْمِ والتَّمكُّنِ والاعتقادِ[3]، وقد اختيرتِ القلوبُ هنا؛ لأنَّ الكلامَ عن الإيمانِ، وهو اعتقادٌ، فيكونُ القلبُ أنسبَ بهِ.

النَّبيُّ والرَّسولُ:

مقتضَى الرِّسالةِ طاعةُ الرَّسولِ

الرَّسولُ أخصُّ مِن النَّبيِّ، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليسَ كلُّ نبيٍّ رسولًا، فإنَّ الرَّسولَ: يختصُّ بمَنْ جعله اللهُ واسطةً بينَهُ وبينَ عبادِه؛ لتبيينِ أحكامٍ بوَحْيٍ مسموعٍ عن مَلَكٍ، والنَّبيَّ: قد يقالُ لِمَنْ يُجدِّدُ على النّاسِ شريعةَ مَن تقدَّمَهُ، وإن كانَ يوحَى إليهِ بإلهامٍ أو منامٍ[4]، وقد عُبِّرَ هنا بالرَّسولِ دونَ النَّبيِّ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مقتضَى الرِّسالةِ الطّاعةُ، مِن غيرِ اعتراضٍ مِنَ المُرسَلِ إليهِم.

الأعمالُ والأفعالُ:

مَن واظبَ على الخيرِ؛ أُكرِمَ بالقَبولِ

العملُ: المثابرةُ على الشَّيءِ، لا الإتيانُ بهِ مَرَّةً أو بسرعةٍ، والفعلُ: الإتيانُ بالشَّيءِ بسرعةٍ مِن غيرِ تَوانٍ[5]، والأصلُ في العملِ أن يكونَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 239.
(2) الراغب، المفردات: (فأد).
(3) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 665 - 675.
(4) الراغب، تفسير الراغب: 3/ 1310.
(5) النزهي، الفروق اللغوية، ص: 55.

بقصدٍ، والفعلُ عامٌّ، يَصدُرُ بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ، ويَصدُرُ عنِ العاقلِ وغيرِ العاقلِ، وقلَّما يُنسَبُ العملُ إلى حيوانٍ، وبناءً على ذلكَ يكونُ الفعلُ أعمَّ، والعملُ أخصَّ[1]، وقد عُبِّرَ بالأعمالِ هنا؛ للتَّنبيهِ على أنَّ ما يَصدُرُ عن المخاطَبينَ يَصدُرُ عنهم بمثابرةٍ وقَصْدٍ؛ ولذلكَ أكرمَهم اللّٰه تعالى بسَعَةِ المغفرةِ والرَّحمةِ.

(1) فاضل السامرائي، لمسات بيانية: 10/ 252.

المحتويات

